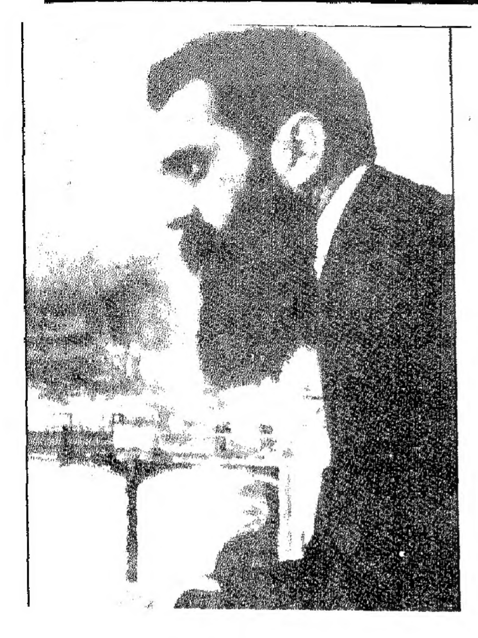
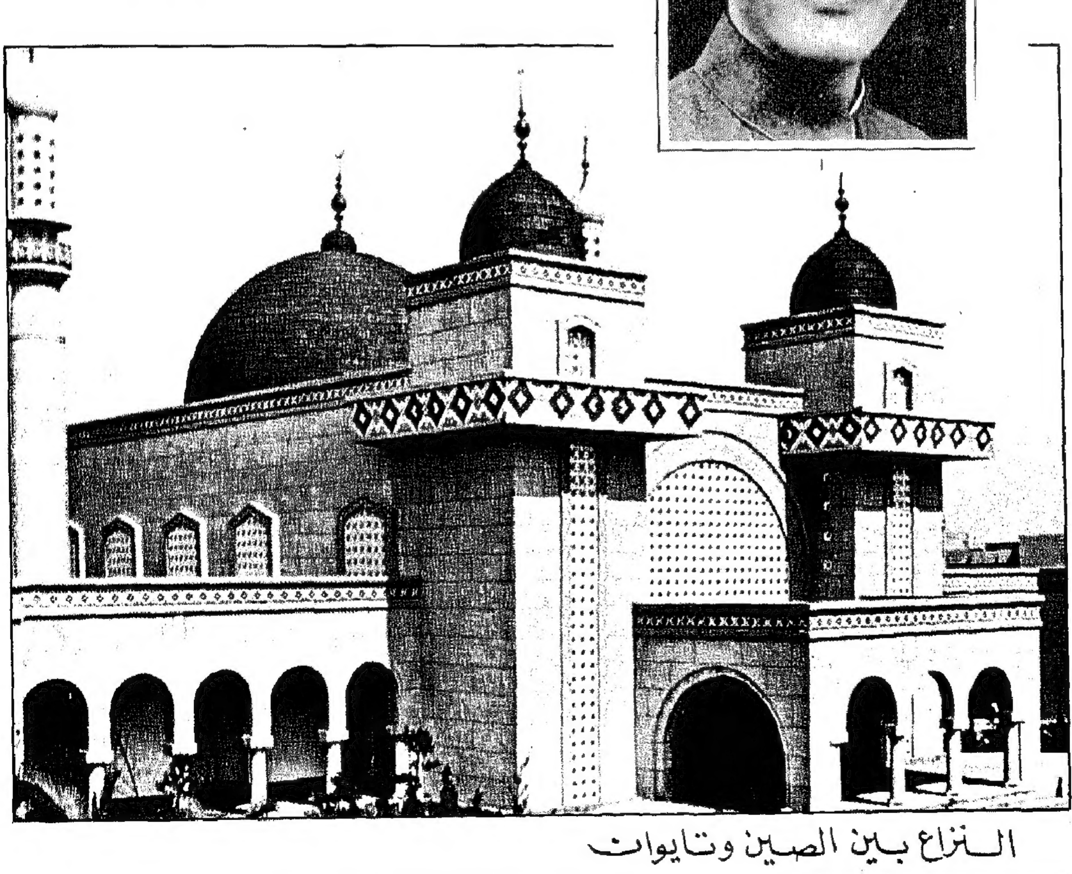

تاريخ العرب
والعالم
الموافق جمادى الثانية
الإنطباعية
ركة العبور إلى الأندلس
الدنيش: السفينة القرصان
المصرية

الماضي اللذي سيأتي في عددنا المقبل



هرتزل :
تاريخ الإستراتيجية
الصهيونية



النزاع بين الصين وتايوان



السنة الثانية - العدد التاسع عشر - أيار (مايو) ١٩٨٠، الموافق جمادى الثانية ١٤٠٠

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١، شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL 2, NO 19, May 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"

لوحة
« نساء في الحديقة »
راجع المقالة ص ٤٨

في هذا العدد

الموضوع | الصفحة

● المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة . ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب . مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب . تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط .

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة : ص . ب ٥٩٠٥ في بيروت .

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة .

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر .



الحضارة العربية

نجم الدين بامات

الحلقة الأولى

○ إن الهزة التي حلت بالأمة العربية في العهود الأخيرة ، وتعرضها للاحتلال الغربي الذي تقاسم أجزاءها وحال بينها وبين استرجاع مكانتها لفترة طويلة من الزمن ، دفع بالمغرضين والحانقين إلى استعمال جميع الأسباب لاتهام العرب بالعاطفية والجمود ، وانعدام التفكير الواقعي العلمي في حياتهم . وذهب بهم الأمر أبعد من هذا الحد حين حاولوا التجني على الحضارة العربية ، وعلى لغتها وثقافتها بأنها لم تعرف إطلاقاً الاسلوب المنطقي في إنتاجها الفكري ، وانها لم تكن صالحة ، - ولا حالياً - إلا للشعر والغناء . وهي بالتالي عاجزة في عصرنا الحاضر عن أن ترتقي إلى مستوى العلوم التقنية التجريبية الصحيحة .

والخطير في كل هذا هو الاقتناع الذي أصاب مجموعة من أبناء الأمة العربية بصحة هذا القول ودعوتهم إلى تعلم العلوم وتعليمها باللغات الاوروبية . وترك العربية منغلقة في مجالات الآداب والعلوم الدينية واللغوية . الأمر الذي يوشك أن يؤكد التهمة إذا تواصل العمل به .

وما نقدمه اليوم في هذه المقالة التي كتبها استاذ غير عربي ، يوضح في كثير من الواقع ان الحضارة العربية كانت أقرب إلى التفتح وإلى العلم من غيرها من الحضارات المعاصرة لها . وان العجز ، إذا كان ثمة عجز ، فانما يرجع للظروف التي مرت بها الأمة العربية في تاريخ نضالها ضد التخلف الثقافي .

حول مفهوم الحضارة العربية كتب كثيرون ، عرب وأجانب ، ولكل منهم مفهوم خاص لها ، وانفتاحاً منا على هذا الموضوع الهام ، في كل وقت ، ننشر على حلقتين مقالة للمفكر الافغاني نجم الدين بامات ، حول مفهومه للحضارة العربية في أبعاد ثلاثة : الحضارة العربية كواقع ثقافي ثم علاقة العرب بالعرب وعلاقة العرب بالغرب فضلاً عن صور من نهضة العرب في كل الميادين التي يرى لها تأثيرات على مجريات الحضارة بعامة ، ونحن في نشرنا هذه المقالة نترك للمفكرين وللمؤرخين وللقراء حرية نقدها بعد التأمل في ما سيرد فيها ، كنظرة مسلم قريب ، إلى الحضارة العربية وامتدادها .

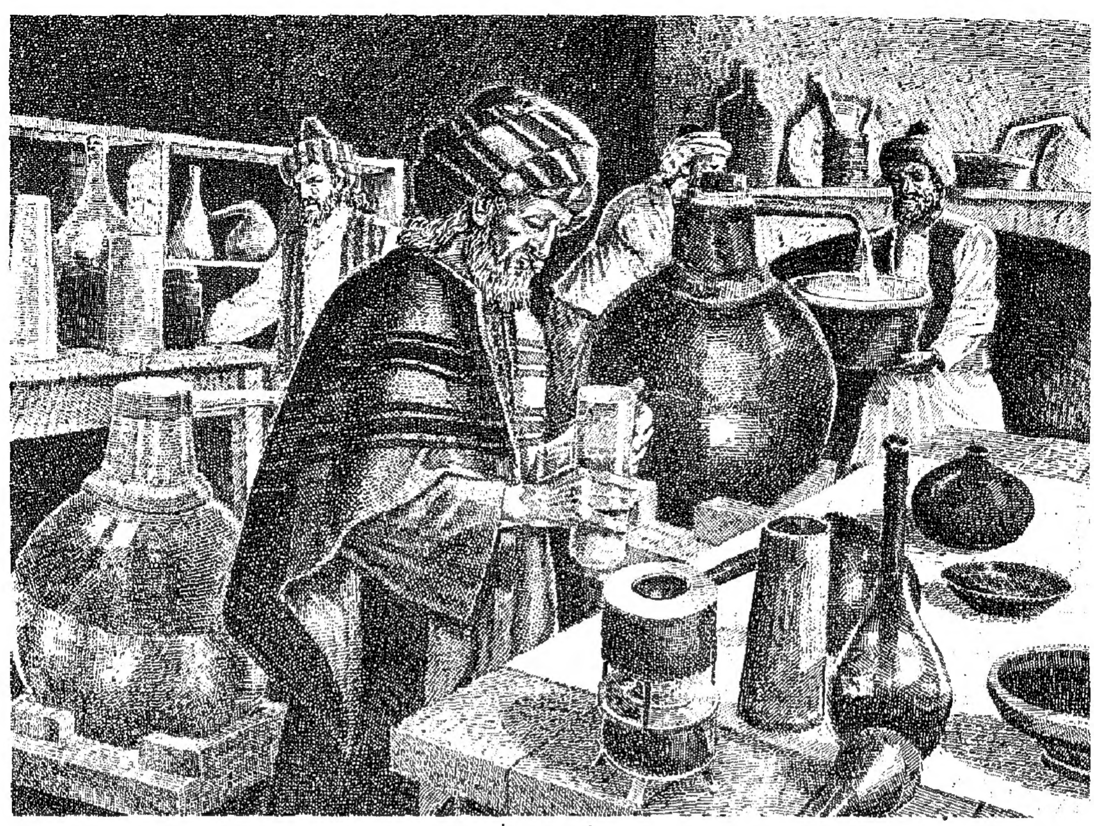
من الواضح انه لا يمكن إزاء موضوع متسع اتساع موضوعنا هذا إلا أن أقدم بعض الشهادات الأولية وبعض الانطباعات التي لا تخلو من الصبغة الذاتية ، ولن يكون الأمر بأي حال من الأحوال متعلقاً بحديث سبق لي التفكير فيه وإعداده ولا كذلك بتصريحات أو بيانات رسمية . وينبع السؤال الأول الذي تنبغي مواجهته تلقائياً من مجرد كوني أنا بالذات قد دعيت لأقدم شهادة شخصية وربما أمكن له أن يفتح أمامنا طريق التفكير والمناقشة .

لماذا وقع الاختيار علي للخوض في هذا الموضوع ؟. انني لست عربيا ، وما أنا بالكاد إلا محب للعربية ودارس لها ، مما يشعرني بشيء من الخجل من نفسي في واقع الأمر . ومع ذلك فلطالما قطعت تلك البلاد العربية في الشرق طولا وعرضاً . ولكن هناك حقيقة اخرى عشتها وأحسستها مرات ومرات سواء في جاكارتا أو تومبوكتو أو سمرقند أو مكة المكرمة . يكفي أهل تلك المدائن أن يعرفوا أن اسمي الأول هو « نجم الدين » أو يكفيهم مجرد « فاتحة » نتلوها معاً ، بل ويكفيهم أن يسمعوا مني بعض الكلمات أنطقها بالعربية ، حتى تتبادل الاشارات ويتردد على الفور صدى الدعوات وتتلاشى الحدود بين البشر أندونيسيين كانوا أو بدواً من بدو الصحراء أو ماركسيين من سمرقند أو تجاراً من الشام . فجأة يولد شيء حي نابض يزخر بالأمل والحنين والعاطفة المشتركة بيننا . ذلك لأنه في لحظة تلاقي اللغة العربية على أفواهنا فان ذكرى الاستعراب وذكرى ثقافة دفينة نائية على نحو أو آخر ، ولكنها نابضة بالحياة على الدوام ، تستيقظ لتنشر التآلف بين قلوبنا .

الحضارة العربية واقع ثقافي

وربما كان ذلك هو التلمس الاولي الذي ينبغي أن يزيل الغموض الذي أحاول القيام به للموضوع المطروح أمامنا . فالقارئ المتمعن يستطيع بسهولة أن يدرك الغموض والابهام اللذين يشتمل عليهما عنوان هذه المقالة ، وقد قبلتهما عن طيب خاطر بل وقدر لي أن أختار العنوان بنفسي ، انه يشمل على الأقل تقدير ثلاثة عناصر متميزة : الحضارة العربية والحضارة الاسلامية ثم العالم الغربي . وهذا الموضوع ذو الروافد الثلاثة ربما تسبب بتداخل عناصره بعضها مع البعض في خلق كثير من الفوضى والتشوش ، ولكن هذا التداخل قد يكون في حد ذاته مصدراً للثراء والغنى .

ففكرة الثقافة العربية من خلال الأمثلة التي سقتها منذ قليل تظهر لنا أولا انها واقع ثقافي أكثر منها واقعا قوميا أو واقعا عنصرياً (عرقيا) . فحين تستطيع مجرد الاشارة الى الثقافة العربية ان تحرك أوتار العاطفة في قلب افغاني مثلما تحركها في قلب تركماني أو جاوي أو دمشقي ، فان ذلك ليجعلنا نشعر بمدى ما تحتوي عليه فكرة الثقافة العربية تلك من انسجام وبما فيها من امتدادات فكرية وعاطفية . وانه لمن أمتع ذكريات مكة حياة في نفسي هو طوافي حول الكعبة جنبا إلى جنب مع غالبية من الحجاج ، وأستطيع أن أؤكد هنا على كلمة غالبية ، قادمة سواء من افريقيا أو من اندونيسيا ، لكل منهم لهجته التي هي حلقية بالنسبة لبعضهم وحاسمة بالنسبة للبعض الآخر ، ولكنهم ينطقون الكلمات نفسها ويرتلون الدعوات نفسها ويطلقون النداء ذاته « لبيك أللهم لبيك .. » وكل ذلك باللغة العربية . والحق أن روح الاخاء التي أشرت إليها لتوي إنما



جابر بن حيان

تتكون في جانب كبير من جوانب المودة والعاطفة وتتداخل فيها أصرة قوية هي أصرة دينية لا تتفق تمام الاتفاق مع المفهوم العربي الذي هو متعدد الأديان ، على اننا قد كنا جميعاً عرباً وغير عرب مشدودين إلى نداء يتعالى باللغة العربية وكان محورنا أو « قطب » تجمعنا في مكة يشبه الجزيرة العربية . وهنا نستطيع أن نلاحظ الثنائية الاولى أو التوتر الجدلي الاول ولكنه كذلك الاثراء التاريخي الاول الذي استطاع أن يتخطى العصور بين العرب وغير العرب .

ولقد وجدت فكرة الحضارة الاسلامية نفسها تتجسد وتتنقل تاريخياً وتعرف حقيقتها بالعودة الى الثقافة العربية والى اللغة العربية ، وعلى العكس وجدت الثقافة العربية نفسها منخرطة في علاقة تبادل حي تأخذ صبغة الصراع والتصادم ولكنها تنتهي دائماً بالاستيعاب وخلق التعاونيات الجديدة مع الثقافات الايرانية والتركية في بادئ الأمر ، ولا ينبغي القول بأن تلك العلاقة قاصرة على لحظة تاريخية زائلة ولا أن ذلك كان يطبع الحضارة في الفترة العباسية فقط على سبيل المثال . فمن أقرب الأمور إلى الاحتمال ان تكون فرصة تلك الثقافة في التجدد وأن يكون نفسها الجديد مرتبطاً بجدلية مشابهة ولكن على نطاق واسع ، وأعني ان الدور الذي لعبته في الماضي في الشرق الاوسط ثقافات مثل ثقافة العالم الايراني والعالم التركي انما يستأنف اليوم على اثر انتقال مراكز الأهمية السكانية والاقتصادية لهذا العالم أو ذاك من ناحية في اتجاه افريقيا السوداء ومن ناحية اخرى في اتجاه جنوب شرق آسيا . بحيث لا ينزل هذا المفهوم في بوتقة القومية الضيقة بل على العكس من ذلك يواصل لعب دوره كنموذج وكواقع كما يلعب دوره كمستوعب وناشر داخل العالم الافرو - آسيوي وهذا موقف في غاية الأهمية عندما تحافظ الثقافة على كنهها مع انفتاح مستمر على الاحتكاك بالثقافات التي تحترم كيانها أو تغنيها . هناك وسائل كثيرة لمعالجة موضوع العلاقات بين العالم العربي والعالم الغربي ولقد

قلت بأنني سأعالج هذا البحث على ثلاث مستويات مختلفة – من جهة علاقات العالم العربي مع العالم الاسلامي وهو الموضوع الذي تحدثنا عنه منذ حين – ومن جهة اخرى علاقات العالم العربي مع العالم الغربي ، وأخيراً علاقة المفهوم العربي وثقافته ، بين كلاسيكيته وتجدده بين حنينه للماضي وأمله في المستقبل .

علاقة العرب بالغرب

وأريد الآن طرق الموضوع الثاني ، وهو العلاقة مع العالم الغربي . كثيراً ما حاولت التقريب بين الحضارتين ، وذلك بالرجوع إلى عناصر مشتركة مثل الكتاب (الانجيل والقرآن) والأنبياء المشتركين وابراهيم الذي هو أبو الجميع ، وكذلك إلى الحكمة الاغريقية كما نقلها وعاشها ابن سينا وابن رشد ، كما وقع الرجوع إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكنني أريد أن أتناول ناحية مختلفة عن كل ذلك ، وقد أوحى لي بها الاستاذ جاك بيرك ، عندما التقينا وسأل كل منا الآخر : من أين أتيت وإلى أين أنت ذاهب ؟

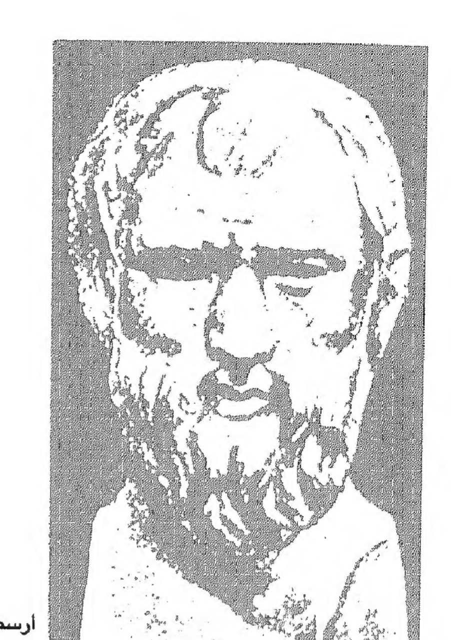
فمصيرنا كان دائما أن تتقاطع طرقنا إما في الذهاب إلى الشرق أو في الرجوع من الشرق فعلمت انه أتى من الشرق وأنه ذاهب إلى بيروت وأنا أيضاً أتيت من الشرق الاقصى . وأود أن أتحدث عن الشرق الأقصى عوض أن أتناول موضوع الحوار بين اوروبا والعالم العربي إذ أن هذا الموضوع الذي لا ينضب قد تناوله غيري كثيراً . أود أن أحط الرحال في اليابان ومن هناك أنظر إلى كل من العالم العربي والعالم الغربي واني لأشعر بأن فكرة تراودني وهي ان اليابان يمثل في الظاهر ومن النظرة الاولى غرباً أقصى . اني أذهب كل سنة إلى اليابان منذ خمسة عشر سنة لتعلقي بهذا البلد ، وألاحظ فيه مجتمعاً يثير اهتمام كل باحث وملاحظ للحياة الثقافية وتطور الحضارة .

واليوم تصل اليابان إلى قمة الحضارة لا أقول الصناعية بل ما بعد الصناعية وانا لنشعر لأول وهلة ونحن في طوكيو باننا أقرب ما نكون إلى نيويورك أو لندن من القاهرة أو الاسكندرية أو دمشق أو بغداد . هذه مدينة توحي بالقوة الصناعية مثل أغلب البلدان الغربية فنحن نجد فيها قاطرات بأكملها تدخل المغارات الكبرى وتخرج منها ، تلك المغارات الكبرى التي تجد في طوابقها الثمانية إما ملعباً لكرة الصولجان أو معرضا للصور الزيتية أو الاثنين معاً .

ولكن حالما نغادر مستوى الانجاز الاقتصادي والاجتماعي وحالما نصل الى المستوى اليومي البسيط في لقاء الانسان بالانسان فاننا نبعد تماما عن الغرب إذ نشعر ان هناك مفهوماً ونظاماً اخلاقياً وطرقاً معاشية لا يمكن للتفكير الغربي أبداً التسلل إليها وان العلاقات لم تعد هي نفسها في الغرب . فمن المعروف وفق الديانة البوذية أن مفهوم موقف الانسان أمام الاله ومفهوم التاريخ والموقف تجاه الحب والموت يختلف تمام الاختلاف . فالياباني يعيش حضارتين في آن واحد ويتحمل هذا التمازج ويتعرض إلى انغلاق ثقافي دون أن يفقد توازنه بل يلقي بنفسه بقوة عجيبة نحو المستقبل ، وهذا يدهش الملاحظ .

على انه يوجد هناك انقطاع واضح بين الجانبين ؛ فالرجل الذي يسير مؤسسته في النهار يدخل إلى منزله في المساء ويتناول حمامه فيظهر بمظهر الرجل الذي أنتجته الحضارة البوذية والتجارب الروحية والاجتماعية والاخلاقية التي لا يمكن ان تتناسب مع المقاييس الغربية السائدة في حياته ظاهرياً .

وعندما تصل إلى القاهرة وتنظر عن بعد وعندما تنظر إلى دمشق عن بعد أو اثينا فان الشعور لأول وهلة معاكس تماماً فالنظرة الاولى تريك بأنك بعيد جداً عن مجتمع ما بعد الصناعي بعيد عن اوروبا إذ تجد نفسك في عالم غامض حيث ترى الفلاحين والرحل ، عالم يبدو فيه التقدم خطراً ومغامرة ، عالم متمزق ، ولكن عندما تلتقي وجهاً لوجه مع الرجل في دمشق أو في احد مصارف بيروت أو في إدارة بالقاهرة فانك تجد ان العلاقات بين الأفراد والقيم هي نفسها التي تجدها في الغرب وان مفهوم المسؤولية الفردية والاخلاقية ومسؤولية الفرد أمام الآخرين واحد وتشعر بأنك تعيش في العالم النفساني والخلقي نفسه ، أي ان كل ما هو مظهر خارجي في اليابان مطابق للغرب وكل ما هو نفساني داخلي مختلف تماماً بينما يمكن ان نقلب الصورة بالنسبة للعالم العربي بحيث نجد التشابه في التكوين الداخلي



ارسطو

والاختلاف في الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وهناك عامل آخر ، لقد قلت منذ حين أن اليابان قامت بتزاوج وعلى العكس من ذلك فان العالم العربي وخاصة الاسلامي منه يمثل حضارات تقوم على الوحدة سواء وحدة الشخص أو العائلة أو المجموعة فتعيش على هذه الوحدة .

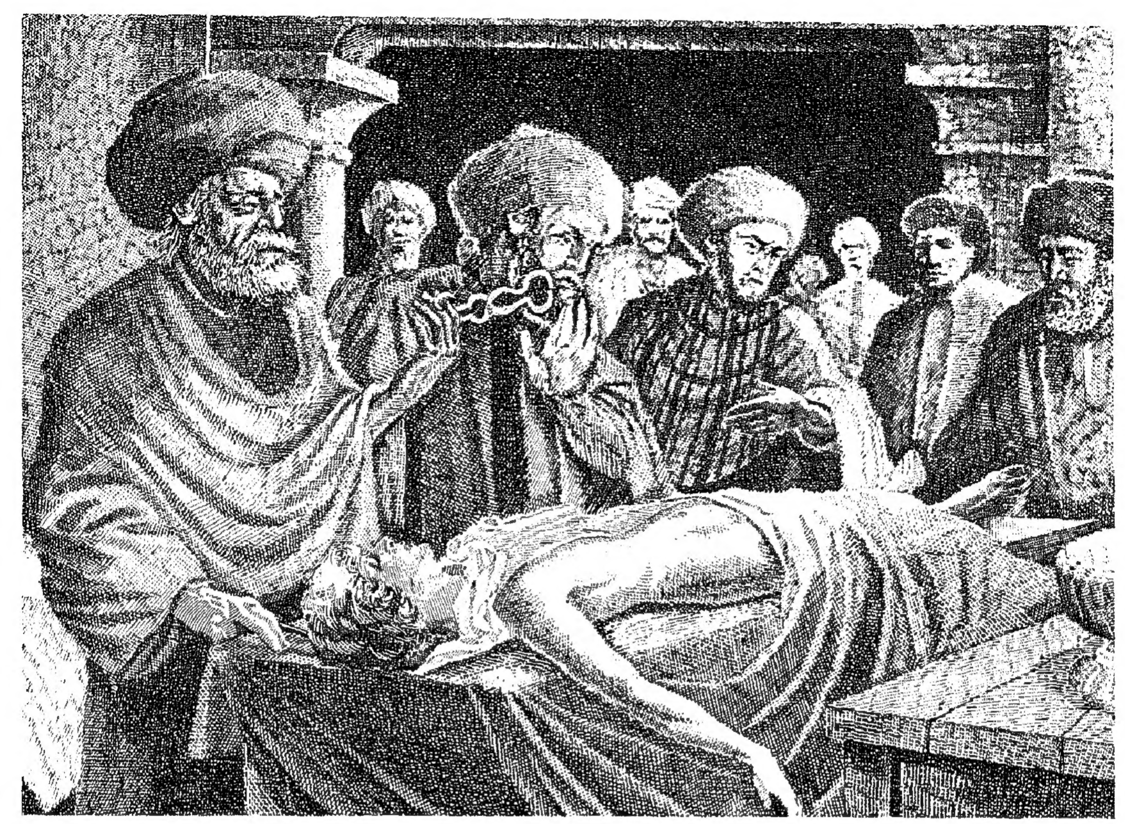
أي ان السلوك في المجتمع والأدب وقواعد اللياقة وطريقة الجلوس على الطاولة وطريقة قطع الخبز وطريقة التعبير ، كل هذه النواحي من حياة الفرد والمجتمع تخضع إلى تقاليد وقوانين ورثت عن الماضي وبالنسبة للمسلمين يأتي هذا النموذج من وزن « سيرة النبي » و « الحديث » أي نموذج السلوك الصالح في كل ظروف الحياة هذه الوحدة في المجتمع حيث يتضامن الكل مع الكل في معاملة الأبناء والزوجة وطريقة التكلم في السوق .. تمثل مجموعة من العلاقات تشكل نسيجاً محبوكاً وتكون « بنياناً مرصوصاً » . بينما يعيش اليابان على التزاوج . والحضارة العربية تعودت على الاختيار والتفضيل . أقول ان تختار نفسها بنفسها بينما كل محاولة للشرق ان يعترض على التقاليد تعد تمزقاً وكل تجديد يعتبر انتزاعا ، مما أعطى لحركة التجديد في العالم العربي كل تلك الحدة التي تعرفها ؛ فكل شيء يصبح فيه اساسياً ولا شيء عرضياً سواء اعتبرت فيه سرعة الشعر أو انتزاع القناع عن المرأة فان ذلك يعتبر ثورة ويصدم عالما ذهنيا بأكمله بينما تستطيع – في عالم تتعايش فيه طرق ومستويات متنوعة – مد مجال الأذواق والاختيارات الفردية دون أن يعين ذلك بقيم أساسية مما سمح بالتطور والتجدد .

علاقة العرب بالعرب

وأصل الآن إلى علاقات العالم العربي فيما بينه وهو أهم جانب في العلاقات العربية ، وهنا لا أجرؤ على المغامرة لاني أنا نفسي أوجد خارج هذا العالم . ولكن سأعبر عن مجرد شعور . من الواضح ان الثقافة العربية ليست مجرد ثقافة لشعب في طريق النمو ، وإنما هي – قبل كل شيء – ثقافة أمة لها كلاسيكيتها ، بل أقول أكاديميتها ، فالعالم العربي قد توصل إلى إنشاء مجتمع وحضارة متكاملة إلى حد جعل الخطر الذي يهدده ليس هو التخلف أو البدائية بل عكس ذلك ، أي الاكاديمية والتعقيد ، وقد كان خطر الفلسفة دائماً الانحدار الى الاستعارات وخطر الأدب الاغراق في البلاغة وخطر الفن الاكثار من التزويق ، ولكن هذه البلدان تحن الى ماضيها لأنه يمثل بالنسبة لها النموذج المتناسق لحضارة متكاملة منغلقة على نفسها ولها مقياس ونظرة منتهية عن العالم والفرد ، ومعنى ذلك ان العالم العربي يخسر كثيراً إذا ما تخلى عن شخصيته وماضيه وهو أكثر من أي شعب مهدد بالخطر الذي تحدث عنه « بوقينال » عندما قال : « لكي نحيا نفقد أسباب وجودنا » .

ومن الهين على شعب لا تاريخ له ولا كلاسيكية تثقله أن يندفع في تجربة المجتمع الجديد ، أما العالم العربي فيتشبث بأساسه المتين ولا يريد التنكر لطرق الآباء .

لقد قلت في بداية هذا العرض بأني سأطرح القضية العربية في علاقاتها بالعالم الاسلامي والعالم الغربي وعلاقات العالم العربي في داخله . وبالنسبة للعلاقات مع الغرب فيبدو بأنه من الواضح ان العالم في القرون الوسطى كان يخضع لفكرة واحدة حتى خلال الحروب الصليبية كان سببها الدين والحياة الروحية التي يدعي كل طرف الانتماء إليها وهي الله الحي الحكم والمنصف ، الله الذي يحب



ابن الهيثم

ويعاقب : فالتاريخ عند الاسلام في العهد الوسيط وعند العرب والغربيين له هدف وغاية ، أي انه ينتهي الى حكم ، الحكم الأخير إلى بعث لا زال منظره الروحي والذهني هو نفسه عند كل هؤلاء بينما تختلف القيم تمام الاختلاف في حربنا الباردة حسبما إذا كنا رأسماليين او غير ذلك . فقد كانت الشعوب تتحارب في الحروب الصليبية ولكن مظهرها الروحي والذهني وأذواقها وقيمها واحدة بل وحتى طريقة اللباس كانت تتقارب في ذلك العهد ومن جهة اخرى ، هناك مستوى ثالث خارج هذا المستوى الفلسفي واللاهوتي المشترك ، اذ هو يعتمد على الحدس والعواطف أكثر منه حتى التدليل والبرهان ، وهو أن العالم العربي وعالم ضفة البحر الابيض المتوسط يعيشان في الوسط نفسه ويمارسان الحياة اليومية نفسها ، إذ نجد فيهما الاسواق نفسها والطرق نفسها لحجب المرأة ومخاطبتها ، كما نجد الفلاح نفسه والمنظر الطبيعي نفسه (التين والزيتون) ، وهذا المنظر نصف بحري ونصف صحراوي يمتد من اثينا إلى ما وراء دمشق وتركيا وايران بل يمتد حتى الهند « الله آباد » ولكن فيما بعد تغيرت المفاهيم والقيم التي كانت رائعة ومحترمة فتوقف التاريخ عن تدرجه نحو الكمال لينغلق على نفسه في مفهوم دائري مستكمل .

إن العالم العربي شرقي ولكنه ليس آسيوياً في الاساس ، وهذا البعد الحقيقي ولكن غير الكافي بين العالم العربي والعالم الغربي قد ولد كل الصعوبة في الحوار ، فالبعد ليس في رفض الواحد للآخر كأجنبي وإنما منشأه الغموض . وفعلاً فان عدم فهمنا للياباني يرجع إلى صمته بينما عدم تفاهم العربي والاوروبي يرجع إلى الخطيئة التي يتهم كل منهما الآخر بها لعدم اتباعه الطريق السوي ، فهو راجع إلى كونهما متشابهين ولكنهما عرفا مصيراً مختلفاً وكل منهما يمثل بالنسبة للآخر سلسلة من الفرص الضائعة ومن الاوضاع التي كان يجب ان تتحقق ولم تحصل ، فهو وضع الأخ الخادع . إذن ليس الصمت هو الحاجز المنيع بين الاثنين وإنما هو الشعور بالخيانة المتبادلة ، وهذا

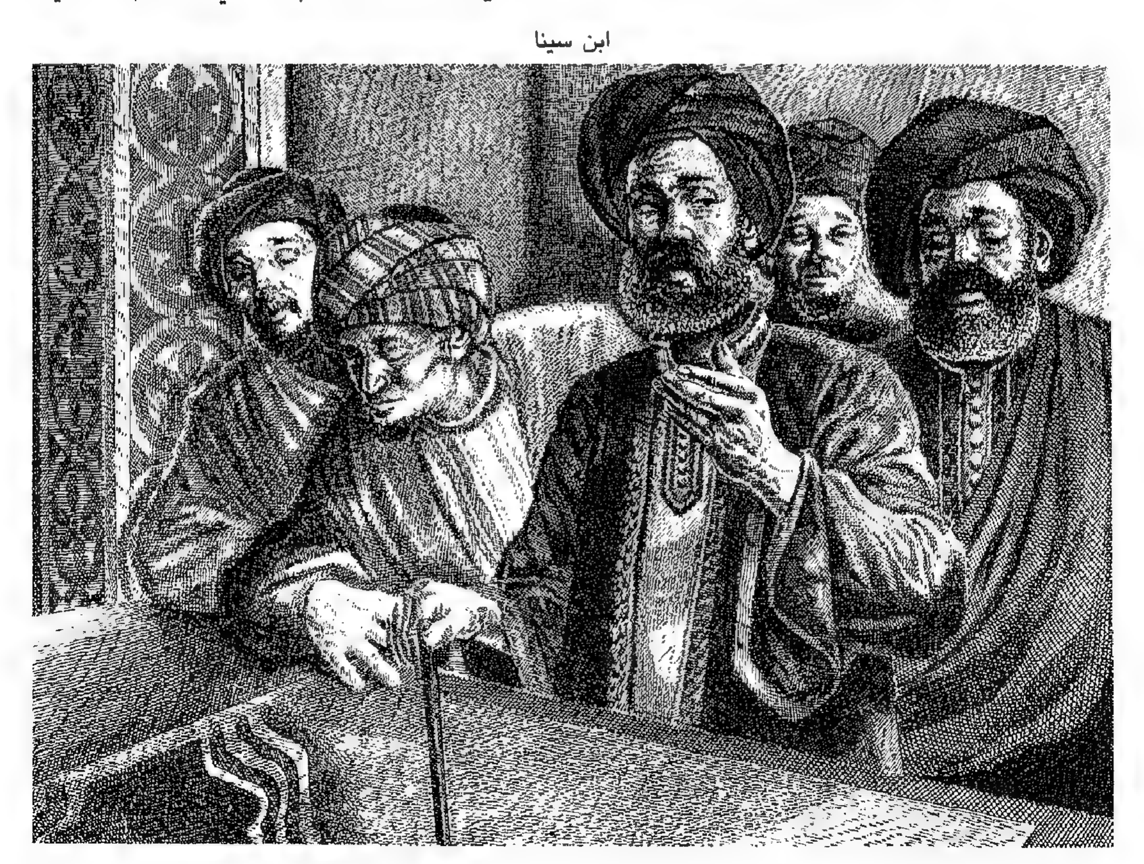
ما يخلق توتراً مستمراً في العلاقة بين الاثنين .

التأثيرات العلمية

وأصل الآن إلى صميم الموضـــوع ، أي ما قدمته الحضارات العربية والاسلاميـــة إلى العالم الغربي ، وهذا موضوع واسع إلى حد يجعلني أختار جانباً معيناً أشرح من خلاله الجوانب الاخرى ؛ وهذا أفضل ، في رأيي ، من أن أقدم عرضاً سطحياً عن كل ما قدمته هذه الحضارات . وما أريد تجنبه هو أن أذكر قائمة عما أضافه ابن رشد على فلسفة ارسطو أو ما نقله دانتي عن محي الدين بن العربي عن طريق فلان أو فلان . أي اني أود الابتعاد عما يعتبره المستشرقون تأثيرات مباشرة وسأتناول موضـــوعاً لم يطـــرق كثـــيراً وهـــو : العلـــوم الصحيحة . قلت انه موضوع لم يطرق كثيراً ، وذلك راجع إلى كون المستشرقين كانوا إما علماء في اللاهوت وإما لغويين أو مؤرخين كما انه لم يطرق لكون التخصص فيه يمثـــل عقبـــة كبيرة ، فقد كان تعليم اللغات الثلاث (العربية والفارسية والتركية) في وقت من الأوقات مفخرة المدرسة المستشرقة الفرنسية لمعرفـــة العالـــم العربي والفارسي والتركي . وان الحضارة تظهر لنا من خلال المستشرقين حضارة دينية وأدبية وقانونية نظراً لكون المستشرقين كانوا علماء دين ومؤرخين ولغويين ، ومن المؤكد ان حضـــارة الشرق كانـــت تظهـــر بمظهـــر آخـــر لو كان للمستشرقين تكوين آخر بل اننا نشاهد ذلك اليوم فتقسيم الأرض يقع بطريقة اخرى فترى العالم العربي من زاوية المستقبل الاقتصادي والاجتماعي ، وقد نتج عن ذلك ان كل ما يمثل نوعاً من الأمانة أو الأصالة لدى العرب يبدو كجانب عتيق أو رجعي أي كمجتمع متقل بينما هو في الحقيقة أحد العوامل التي دفعت تلك الحضارة والتـــي تعطيهـــا وزنهـــا وكثافتهـــا الحقيقية . ولقد اخترت عمداً الحديـــث عن العلوم التطبيقية والعلوم الطبيعية ، ولن أقول إلا بضع كلمات فيما يتعلق بفلسفة الفنون والآداب .

أولا : ان العلوم الاسلامية تأثرت بالتمازج الذي حصل بين العالم العربي والعالم الغربي ،

ابن سينا



والعالم الشرقي والعالم الاسيوي . وأول ما نلاحظ هو أن للعلوم العربية في اصولها مصادر وفيرة ، وطابعاً عالمياً . فهي أولا تولدت عن المعطيات اليونانية ، وعن هجرة الأدمغة التي حصلت في أواخر هذا العهد البيزنطي ، في الوقت الذي كان فيه النوسطوريون وأنصار وحدوية طبيعة المسيح مرغمين لتأسيس مدارس مثل مدرسة « جندي سابور » . ومن التواريخ التي يمكننا ذكرها هي إغلاق مدرسة النوسطورية في عام ٤٨٩ .

ومعنى هذا ان في التنقل من الرها الى جندي سابور ، ومن الاسكندرية إلى بغداد ، أعطت مساهمة العلماء المسيحيين ومؤلفات النساطرة المكتوبة باللغة السريانية في الشرق الأدنى ، أعطت إذن للعلوم العربية منذ البداية أول أسلوب لها . فهي علوم تركيبية ، وهي أيضا علوم ذات طابع موسوعي ، ويعود طابعها الموسوعي إلى سببين : أولا ، لأنها علوم تجلت للعرب ككل ، كمعطى ، وجدت في مكان ما كمجموعة كاملة من الدلائل ينبغي قبل كل شيء ترجمتها قصد استيعابها . لقد أنشأ الاغريق العلوم ، فكانت كلا مركبا تركيبا تاما ، كان يجب ترجمته ، وكان ذلك عملا شاقا لم يحلل كما ينبغي ، فهو يتطلب دراسة متعمقة لتفسير كيف تم النقل من اللغة الاغريقية إلى لغة سامية ، وإلى مفاهيم علمية . إلا ان الطابع الموسوعي تولد أولا من كون ان العلوم تجلت للعرب ككل أنتجه الاغريق خارجا عن محيطهم .. وثانياً ، ان العلوم ظهرت للعرب موسوعية،مجموعة من الدلائل يجب تأويلها . فالطبيعة في عمقها مجموعة من الدلائل أو الذكريات ، ومن واقع متعدد التلاحم . هذا ما جعل هذه العلوم العربية موسوعية ومتفائلة في آن واحد . فللعالم تفسير ، والعالم منسجم ، ولذلك أسباب تاريخية (اكتشاف منهج متلاحم الاجزاء ، ألا وهو المنهج الاغريقي) ، كما ان لذلك أسبابا روحية ودينية .

العلوم العربية تجريبية

ولكن هناك مظهراً آخر للعلوم العربية ، يبدو لي انه قل ما اشير إليه ، بل وكثيراً ما اسيء فهمه ، وهو طابعها التجريبي أساساً . وهنا أود أن أقدم لكم بعض الاستشهادات :



الاسكندر

فالكندي في « رسائل الفلسفة » يقول : « ليس هناك أجهل من ذلك الذي يأخذ أحكامه من كتب العلم القديمة ، وعلى الخصوص في العلوم الطبيعية » . ويواصل قائلا : « وعلى الذي يبحث عن برهان منطقي أن يتمسك بالبراهين الرياضية والهندسية ، لأنها سهلة الفهم ، بحكم

انها تعبر بالضبط عن براهين محسوسة » ، وان هذا قد يتنافى مع فكرة علم موسوعي ، لكن ذلك أيضاً أحد التيارات الأساسية للعلوم العربية . فالعلماء العرب هم قبل كل شيء مختبرون .

وعند قراءتك لابن الهيثم في مؤلفه « علم البصريات » تجده يحدثك عن الكيفية التي يضع بها مراياه ويرتب أدواته بالأهمية نفسها التي يحدثك بها عن نظرية الضوء . وعندما تقرأ البيروني مثلا تجد ملاحظات متعددة عن الطريقة التي رتبت بها الأدوات لدى قيامه بتجربه . وعند قراءة « الرازي » تجد مجموعة كاملة من الأوصاف والعمليات ، ويمكن أن أقول حتى مجموعة من التجارب عن كيفية الطبخ ، بحيث تجد مجموعة من المراحل الفيزيائية .

لقد كان عالم الحضارة العربيـة تقنيـاً ومجربا يدويا أكثر منه باحثا نظريا ، كما كان شأن العالم والمهندس اليوناني ، الـذي كان فيلسوفا قبل كل شيء ، فالعالم العربي أقرب إلى الانسان الصانع . بينما العالم الاغريقي يعترف بمنطقية العقل الانساني وبنيـة معصومـة . فالعربي بالمقارنة ، يبدو مهتماً بالمدى القريب وبالحالات الخاصة . فنجد أنفسنا أمام معرفة موسوعية ، ولكنها في آن واحد رمزية وفلسفية وتجريبية ، وهي في معظمهـا مستعـارة من الاغريق . إن هذه المعرفة تأخـذ أصالتهـا ونوعيتها من كونهـا قبـل كل شيء علميـة ومنهجية . وسنرى بعد قليل أسبـاب ذلك . ويبدو لي انها أسباب ملتبسة بعض الالتباس ؛ فالكندي عندما يبحث مثلا في نظرية الحرارة ، فهو يأخذ أولا في تحديدها حسب النظريات الارسطية للحركة الدائرية ، ثم يأخذ في الكلام تدريجاً عن ملاحظاته عند تسخينه الماء حسب درجات حرارية مختلفة ، ثم يواصل الكلام عن تجارب ملموسة وعادية ونوعية . كما ان ابن سينا يعطينا التفاصيل الدقيقة في بحثه عن (مختلف) الامراض . فهو قبل كل شيء يقدم لنا مؤلفا من الملاحظات العيادية وليس نظرية في الأمراض . وبما انني أتحدث عن ابن سينا ، فها هو نص قيم يبرهن لنا عن مدى كون هذا الاهتمام التجريبي والوصفي والمنهجي تقريباً مسيطراً على علماء الحضارة العربية . « إن الجبال ناتجة إما عن هزات مثل التي تحدثها الزلازل ، أو عن الحملـة التدريجيـة للمياه والرياح التي تحفر شيئاً فشيئاً الأوديـة في الأراضي السهلة التفتت . وقـد حدثـت هذه التغيرات في الأزمنة الغابرة » .

وهنا نصل إلى مقطع غريب جداً يصف فيه الأحجار التي تحتوي على آثار للأصداف بها أسماك متحجرة ، ثم يحصيها ، وينتهي قائلا : « نستطيـع أن نؤكد بأن الماء كان العامـل الأساسي إذ اننا نجد في هذه الأحجار آثار حيوانات مائيـة وأصـداف ، وليس للأراضي الصفراء الموجودة على الاديم الاصل نفسـه المتولدة عنه الصخرة المركزية ، وربما نتجت هذه الاراضي عن تحلل النباتات » . وقد اخذ هذا النص من كتاب « الشفاء » لابن سينا . تلك إذن هي مجموعة الاصطلاحات والملاحظات التجريبية والخاصة التـي وضعتهـا العلـوم العربية ، مما أعطاها اسلوبـاً يختلـف كل الاختـلاف عن التراكيـب الفكريـة الكبـرى والهندسية لدى الاغريق ، ولم يحصل العرب على تقدم كبير في الميدان النظري بالنسبة لما قام به أبقراط وغالين ، ولكنهم أضافوا أوصافـاً لأمراض خاصة كما في بحـث الـرازي عن الجدري ، ذلك البحث الذي ظل أساسياً حتى القرن الثامن عشر ، والأمر نفسـه صحيـح بالنسبة للخوارزمي الذي لم يأت بالكثـير في الميدان النظري بالنسبة لاقليدس . ولم يكن هناك نظام مسبق ولكن عدداً من المشـاكل الرياضية ، تم حلها بلباقة بطرق التبسيط في أساليب حسابية بارعة .

والأمر نفسه بالنسبة للاسكندر الذي كان لديه تراجم عن اقليدس ولكن الشيء الذي يقدمه لنا هو بحث في المقاييس يستطيع استعماله تطبيقيا مراقبو الأراضي العقارية ، ومن هنا انطلق في وضع تركيبه النظري . وقد صرح هو نفسه عن ذلك بالحرف ، وبما ان هذا يمثل شهادة هامة من الكندي تستحق أن نوردها لأنها تبين أن بعضا من هؤلاء العلماء كانوا واعين كل الوعي ، لكل ما حاولت قولـه في التناقضات فهو يقول « إننا ضعـاف أمـام ما ورثناه عن الاغريق من نظريات في التركيب إذ ان القدماء يمتازون باكتشـاف مبـادئ أساسية بابتكار معاني » ، والمقصود بالقدماء ، الاغريق : أما المحدثون فهم العرب وقد تميزوا باختراع كثير من التفاصيل وبتبسيط المشاكل بتركيب المتناقضات ، وهذا ما سمح للمستشرق الانكليزي الكبير « غيب » بالقول : « ان تركيز



لوحة للفنان العالمي دافيد روبرتس : حلقة دراسية يومية في صحن الجامع الأزهر - القاهرة .



ابن خلدون

الاهتمام على حوادث تجريبية فردية سمح للعلماء العرب بتطوير الطريقة التجريبية أكثر بكثير من أسلافهم في اليونان وفي الاسكندرية » . وكذلك فان الروابط بين العلوم العربية والتكنولوجية قد زادت في هذا المظهر العملي والتجريبي للعلم – وقد سبق لي أن أشرت إلى عدد الحسابات المرتبطة بحسابات الضرائب والارث ، وإلى ارتباط علم الفلك بضرورة معرفة أوقات الصلاة ، وحلول رمضان . أما فيما يتعلق بعلم الحيوانات فالأبحاث تقتصر في غالب الأحيان على الماشية وخاصة منها الخيول والاكباش بجانب حيوانات خرافية ، أكثر منها على تصنيف عالم الحيوان في مجموعه .

وأما فيما يتعلق بالزراعة ، فيهتمون بالسقي وبالبساتين ، وترتبط العلوم ارتباطا وثيقا بالصناعات التقليدية . ويوجد تواطؤ بين العالم والتقني ورجل التعاونيات ، وفي اكتشاف ألوان جديدة ، وفي اكتشاف طريقة نقش الخزف ، ومساهمتهم في اكتشاف الأدوية وفي طرق نقل السوائل ، والأهمية التي تحتلها سواء في الميدان العلمي أو التقني والتنفرات المرصعة ، أو جلود قرطبة ، أو شاش الموصل ، أو أساليب صناعة الزرابي والخزف ، فكل هذا يعتبر ميدانا يمثل تعايشاً بين الصانع التقليدي والتقني والعالم . فالعالم ليس له نظام خاص ، فهو إما أن يكون فيلسوفا أو صانعا تقليديا أو الاثنين معا ، ومن المفيد أن نشير مثلا إلى أن جابر بن حيان عندما يعلق على بحثه يعوض الميزات الحسية عند ارسطو ، الحرارة ، البرودة ، الجفاف ، الرطوبة بميزات علمية ، المطولية ، قابلية الذوبان ومقاومة الطرق والسحق والتمدد . وقد نميل الى القول استناداً إلى ما كنت أقول منذ قليل ان العرب كانوا المنشئين للطريقة التجريبية ، وان الاغريق كانوا نظريين كبارا ، أسسوا نظاما هندسياً عظيما ومنسجماً ، فالعرب كانوا خلاقين للعلوم العصرية بملكتهم التجريبية والاختبارية ▪

وادي لكه

أو معركة العبور إلى الأندلس

العقيد الدكتور
ياسين سويد



الموقع ودوافع الفتوح :

يمتد الساحل الشمالي للمغرب العربي (الافريقي)، ما بين مدينتي «الجزائر» شرقاً و «طنجة» غرباً، بموازاة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة «ايبيرية» من قارة اوروبا، او الساحل الاسباني، ما بين «قرطاجنة» في اقليم «تدمير» على البحر المتوسط، شرقاً، و «قادس» على المحيط الاطلسي جنوباً؛ وتفصل بين الساحلين مياه البحر الأبيض المتوسط التي تتصل، ما بين «المرية» على الساحل الاسباني، و «وهران» على الساحل الافريقي، بما كان يسمى قديماً بـ «بحر الزقاق». ويقترب الساحلان الاوروبي والافريقي، فيكادا يتعانقان ما بين «سبتة» شرقاً، و «طنجة» غرباً، على الساحل الافريقي، وبلدة «طريف» على الساحل الاوروبي، عند المضيق الذي يصل بين البحر والمحيط، والمنسوب إلى ذلك الجبل المسمى اليوم باسم القائد المسلم، طارق بن زياد الليثي، فاتح الاندلس.

وكان المسلمون، في أواخر القرن الاول الهجري، اي في أوائل القرن الثامن الميلادي، وفي عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك، قد أكملوا بسط سلطتهم على شمالي افريقيا، باستثناء «سبتة» فقد قعد عنها موسى بن نصير، بعد أن لقي مقاومة عنيفة من حاكمها البيزنطي، جوليان، الذي كان يتلقى المدد والعون من مملكة القوط في شبه جزيرة «ايبيرية» (اسبانيا)، وكانت «سبتة» هذه آخر معقل للبيزنطيين في افريقية الشمالية، كما انها لم تكن لتشكل أي خطر على الولاية الاسلامية الجديدة، بل، بعكس ذلك، أضحت تحت رحمة المسلمين الذين استولوا على «طنجة» ولم يبقوا لحاكم «سبتة» إلا شريطاً ساحلياً ضيقاً ومحدوداً، وربما كان ذلك هو السبب الأساسي في تساهل المسلمين مع حاكم سبتة البيزنطي.

وجعل موسى مدينة «القيروان» عاصمة لولايته في افريقيا الاسلامية، ثم انصرف الى تنظيم الحكم في هذه الولاية، بعد ان سلم حكم «طنجة» الواقعة على حدود «سبتة» لواحد من أكفأ قادته وأجدرهم، والذي سوف يعرف فيما بعد بفاتح الاندلس، وهو طارق بن زياد.

ولعله خطر ببال طارق، وهو يسرح ببصره فوق مياه البحر الزرقاء، من مقره في المدينة الافريقية الواقعة على الساحل المقابل والقريب من الساحل الاندلسي، ان ينطلق، عبر هذه المياه، ليكتشف معالم القارة الغريبة عنه وعن عالمه الصحراوي، ولكنه لم يكن يدري، ولا شك، ان القدر قد أعده ليكون أول قائد مسلم تطأ قدماه أرض تلك الديار، فاتحاً.

ولسنا هنا في مجال مناقشة دوافع فتح العرب المسلمين للأندلس، إذ انها، في نظرنا، لا تتعدى الدوافع نفسها التي قادت هؤلاء الفاتحين إلى حدود تلك البلاد وإلى حدود بلاد سواها في أقاصي المعمورة، وهي ولا شك:

في الأساس، الدافع الديني الذي يتجسد في سبيل نشر الدعوة الاسلامية، وأستطراداً الدافع الاقتصادي الذي يتجسد في تطلع المسلمين إلى حياة أفضل، إذ كان عليهم أن يسدوا حاجات اقتصادية فرضها ازدياد عدد المسلمين ونمو جيشهم، والظروف المعيشية القاسية التي كانوا يعيشونها، قبل الاسلام، في جزيرتهم؛ وقد ظهر هذا الدافع واضحاً في خطبة للخليفة عمر بن الخطاب يوم ولي الخلافة، إذ قال: «لكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني عليها، لكم علي أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي ان أزيد عطاياكم وأرزاقكم ...» وفي تحريضه للمسلمين على فتح العراق قال: «إن الحجاز ليس لكم إلا بدار على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها».

وإذا كان للمسلمين طموح، أو مطمع، لا فرق، في فتح بلاد الاندلس، في ذلك الحين، وبعد ان استتب لهم الحكم في شمالي افريقية، فان ظروف الحكم القائم في شبه الجزيرة الايبيرية قد ساعدتهم، إلى حد كبير، على تحقيق هذا الطموح، فقد كان رودريك (Rodrique) (أو لذريق «كما يسميه المؤرخون العرب») ملك القوط في تلك البلاد، يعاني من مشاكل داخلية ضاغطة وصعبة الحل، فهو كان قد انتزع الملك من أصحابه آل غيطشة (Witiza) فلم يحسن إدارته، فكثر

خرائط تمثل امتداد الحكم العربي في اسبانيا



١ – من ٧١٢ إلى ٧٢٠.



٢ – ٧٥٦ – ١٠٣١.

لذلك خصومه بالاضافة إلى اولئك الذين كانوا ، في الاساس ، حلفاء للملك المخلوع ، وكان جوليان ، حاكم سبتة ، واحداً من هؤلاء الحلفاء ، فلجأ إليه أولاد غيطشة سراً ، يطلبون منه مؤازرتهم لاستعادة ملك أبيهم من غاصبيه .

وكان لأولاد غيطشة أنصار كثر في مملكة « لذريق » مما شجع « جوليان » ، وهو خصم للذريق ، على السعي لخلع هذا الأخير ، بأية وسيلة من الوسائل ، ولم يكن أسهل عليه من الاتصال بجيرانه العرب المسلمين ، وإغرائهم بسهولة احتلال بلاد الأندلس وقهر مليكها والتمتع بخيراتها ، وفي اعتقاده ، هو وأولاد غيطشة وأنصارهم من خصوم لذريق ، ان هؤلاء العرب لا يهمهم من احتلالهم لبلاد الاندلس سوى الفوز بالغنائم ، وانهم لن يكونوا فيها سوى « مجرد وافدين ، مقامهم موقوت .. ينشدون ملء أيديهم من الغنائم والخيرات ثم يعودون من حيث أتوا » ، واتصل جوليان بطارق في طنجة وعرض عليه الفكرة ، فأعجبت طارقاً وأغرته المغامرة ، وهو القائد الفذ الطموح ، واتصل بموسى بن نصير في القيروان ، فكان موقف موسى كموقف طارق نفسه من الفكرة ، ويقال ان لقاء تم في عرض البحر بين القائدين العربي والبيزنطي ، حيث تم الاتفاق بينهما على التعاون في عملية الفتح المقترحة ، ولكن أيا من القائدين العربيين ، موسى وطارق ، لا يتمكن من أخذ مثل هذا القار الخطير دون العودة إلى رأي الخليفة في دمشق ، فكتب موسى إلى الوليد يفيده بالأمر ويستأمره ، فكان جواب الخليفة بالموافقة شرط أن يمهد لذلك بحملات استطلاعية صغيرة تستكشف ، من جهة ، الوضع العسكري في بلاد العدو ، وتتأكد ، من جهة اخرى ، من صدق نوايا جوليان وحلفائه ، بمساعدة المسلمين في حربهم الجديدة ، بما يقدمونه لهم من دعم وعون .

ونفذ موسى أوامر الخليفة بأن أعد سرية مؤلفة من اربعماية من المشاة وماية من الفرسان ، أمر عليها ضابطاً من البربر شديد المراس محنكاً في امور القتال هو طريف بن مالك المعافري ، وأبحرت السرية من سبتة (رمضان ٩١هـ = تموز ٧١٠م) على أربع سفن قدمها جوليان لها ، حيث نزلت في الموضع الذي قامت عليه فيما بعد بلدة حملت اسمه « طريف » بالقرب من جزيرة تدعى « الجزيرة الخضراء » ، فجاس في الجزيرة بارشاد من جوليان نفسه ، واستطلع أخبار العدو ، ثم عاد مع سريته ليحدث موسى عن ما تنعم به تلك البلاد من خيرات وعن الود الذي استقبل وجماعته به ، إذ يظهر ان أهل تلك الجزيرة كانوا من الموالين لغيطشة وأولاده .

بعد هذه الحملة الاستطلاعية ، أصبح أمر فتح الاندلس في نظر موسى ، وطارق ، وفي نظر الخلافة في دمشق ، أمراً جدياً ، وبدأت الاستعدادات للحملة على قدم وساق ، حيث بنيت السفن في دار الصناعة بتونس ، ولبث



٣ – في ١٢٧٠. الخرائط من (Historia) ايلول ١٩٧٩.

موسى، في طنجة، ردحاً من الزمن، يعمل مع طارق على تنظيم الجيش الذي سيقوم بهذه المهمة الخطيرة، ولم يمر عام على الحملة الاستطلاعية التي قادها طريف حتى كانت طلائع حملة الفتح تبحر من سبتة (رجب ٩٢هـ = نيسان ٧١١م) بقيادة طارق نفسه، ولم تبحر هذه الحملة دفعة واحدة، خشية ان يثير ذلك انتباه العدو، بل أبحرت فوجاً اثر فوج، حتى اكتمل قوامها سبعة آلاف مقاتل، كلهم من البربر، ما عدا ثلاثماية فقط من العرب المسلمين، وانضم إليهم فيما بعد جوليان بنفر من صحبه وأتباعه. وإذا كان للبربر المسلمين فضل تكوين أول حملة لفتح بلاد الأندلس، وعلى رأسهم قائدهم البربري الاصل، طارق، فذلك لأنهم كانوا أعرف من العرب بتلك البلاد وأكثر منهم خبرة بدروبها ومسالكها، كما ان ذلك دليل على ثقة موسى بصدق إسلامهم رغم حداثة عهدهم بالاسلام.

ولكن ذلك لم يمنع موسى من أن يبعث مع طارق، وبامرته، خيرة القادة العرب في المغرب أمثال عبد الملك المعافري وعلقمة اللخمي ومغيث الرومي وسواهم.

وما أن اكتمل عقد الجيش الاسلامي على الساحل الجنوبي للأندلس، عند جبل كالبي (Calpe) الذي سمي فيما بعد بجبل طارق أو جبل الفتح، حتى باشر طارق باحكام رأس الجسر الذي أقامه بجيشه على الساحل الأندلسي، وتوسيعه، فذكر بعض المؤرخين انه أقام قاعدة حصينة له عند سفح الجبل، وأنشأ مرفأ يصله بسبتة، انشأ حول الجبل سوراً

طارق بن
زياد الليثي



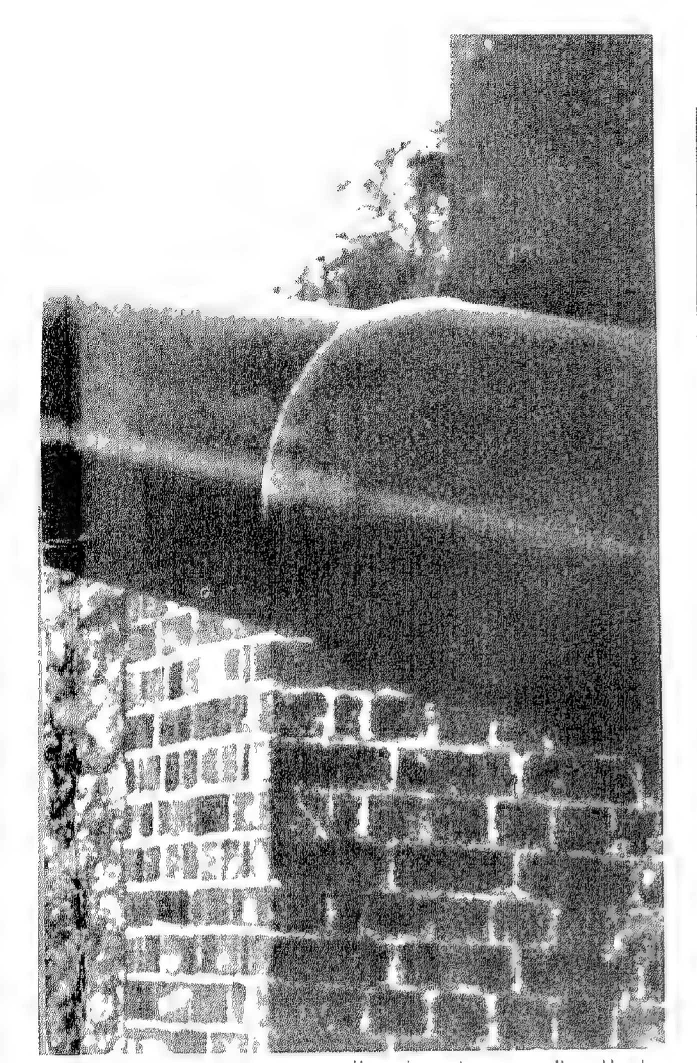
رودريك ملك القوط

سمي « سور العرب » . ويعتقد كثير من المؤرخين ان طارقا أحرق سفنه ، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الاندلسي ، ثم خطب بجنده خطبته الشهيرة : « أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، الخ .. » ولكن بعضهم يرى ان طارقاً لم يحرق سفنه ، بل أعادها إلى الساحل الافريقي ، وان الخطبة المنسوبة إليه هي من وضع مؤرخين محدثين ، إذ ان طارقا كان بربري المحتد ، ولا يعقل أن يكون فصيحا بالعربية إلى هذا الحد ، بالاضافة إلى أن الجيش الذي قاده إلى أرض الاندلس كان ، في أغلبيته ، بربري اللسان ، وليس عربياً .

الاستعدادات والاستطلاع :

وفي كل حال ، فان أول عمل قام به طارق ، حين وصوله إلى ساحل الأندلس ، بالاضافة إلى ما قدمناه ، هو استكشاف المنطقة المحيطة ببقعة النزول ، فأرسل فرقة من جنده ، بقيادة عبد الملك بن أبي عامر ، لاستكشاف القسم الشرقي من الساحل ، حيث انطلقت ، شرقاً حتى وصلت إلى قرطاجنة (Carteya) القرية الفينيقية القديمة القائمة على هذا الساحل ، فاحتلتها ، ثم انحرفت غرباً بجنوب نحو « الجزيرة الخضراء » قرب (جبل طارق) .

في هذه الأثناء ، كان طارق قد انتهى من إعادة تنظيم الجيش ووضع خطة التحرك



جبل طارق اليوم .. منظر سياحي للجميع .

المقبلة ، وبعد أن اطمأن إلى وضعه العسكري ، وإلى ضعف الجهاز الدفاعي للعدو على طول الساحل الجنوبي الشرقي ، قرر الزحف شمالا نحو عاصمة القوط ، طليطلة ، فزحف على ولاية الجزيرة (الخضراء) ، وكان يحكمها قوطي يدعى « تيودومير » فاحتل قلاعها ، وتصدت له قوة من العدو قرب تلك الجزيرة بقيادة قائد قوطي يدعى « بنج اوبنثيو (Bencio) فهزمه طارق وقضى على تلك القوة ، ثم تابع تحركه شمالا باتجاه العاصمة طليطلة .

ولا يخفي معظم المؤرخين الدور الهام الذي لعبه جوليان ، حليف طارق ، في المرحلة الاولى من نزول المسلمين في الاندلس ، حتى انهم يصفونه بالدليل المرشد لطارق ، يدله على عورات عدوه ونقاط ضعفه ، في حين كانت قوات المسلمين تجهل كل شيء عن العدو تقريبا في تلك



الارض ، كذلك فان كثيراً من المؤرخين يرون ان طارقا ، بعد ان احتل الجزيرة الخضراء ، أقام فيها قاعدة عسكرية حصينة ، وأوكل إلى جوليان حماية هذه القاعدة ، وحماية مؤخرة جيشه من أي هجوم قوطي .

وصادف أن كان ملك القوط « لذريق » في هذه الأثناء ، في الجزء الشمالي من البلاد ، يخمد ثورة قام بها الباسك ضده ، فوصلته انباء اجتياح المسلمين لبلاده ، فلم يقم في البدء وزنا لهذه الأنباء ، اعتقاداً منه انها غزوة بدو لا بد وأن تقنع من البلاد بالغنيمة والاياب ، ولكن الخطر استفحل بعد ذلك وأضحى الأمر مقلقاً ، وخاصة عندما علم بسقوط ولاية « الجزيرة الخضراء » بيد المسلمين ، وهزيمة قائده « بنج » على يدهم ، فأسرع عائداً إلى عاصمته « طليطلة » ليعد العدة لقتالهم ، وكلف واحداً من قادته يدعى « اديكو » مهمة إعاقة تقدمهم ريثما يتم تجهيز جيشه للقتال ، إلا ان « اديكو » سرعان ما هزم أمام طارق في معركة جرت بينهما في منطقة تدعى « الفرونتيير La Frontiera » : وهكذا لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن والأرض ، وأصبح من الواضح ان طارقا أكثر حرية من خصمه في اختيار ساحة القتال ، فانحاز بجيشه ، عبر أرض كثيرة المستنقعات ، إلى سهل يقع ما بين وادي برباط (Berbate) شمالاوغربا ،وبحيرة« خاندا Lago de JANDA » شرقا ، وجبال « سييرا دي ريتين ، جنوبا ، حيث قرر طارق ان يلاقي عدوه في المعركة الحاسمة .

وكان اختيار ميدان القتال من قبل طارق من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة ،

لا الاختيار .

وما ان وصل « لذريق » الى طليطلة حتى استنفر جميع مواطنيه ، الأنصار منهم والخصوم ، ضد الخطر الداهم الآتي من الجنوب ، كما استدعى إليه ابني خصمه السابق « غيطشة » (ألمند وأرطباس) ، وطلب منهما تسلم قيادات في الجيش ، فتظاهرا بالانصياع لأوامره ، ضامرين الشر له ، وكان لهما في الجيش اتباع كثر ، كما كانا على اتصال مستمر بجوليان ، حليفهم وحليف طارق في آن واحد ، وهكذا تمكن لذريق ، في فترة وجيزة ، من أن يجمع حوله جيشا ضخما قدره بعض المؤرخين بماية ألف مقاتل ، كما قدره آخرون بتسعين ألفا ، أو سبعين ألفا ، ولكن ما قاله ابن خلدون من ان عديد هذا الجيش قد بلغ « زهاء اربعين ألف » مقاتل ، هو الأقرب الى المنطق والواقع .

وعلم طارق بالحشود التي يعدها لذريق للقائه ، فكتب الى موسى بن نصير ينبئه بضخامة هذه الحشود ويطلب منه مددا ، فأمده موسى بخمسة آلاف مقاتل على رأسهم طريف بن مالك ، فاصبح جيش المسلمين في الاندلس اثني عشر ألف مقاتل الى قوة صغيرة من أنصار جوليان .

وما ان استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوبا للقاء طارق في المكان الذي اختاره هذا الأخير ، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٩٢ هـ - = أي في مطلع النصف الثاني من شهر تموز عام ٧١١ م ، وعسكر بجيشه على الضفة الشمالية للنهر ، بينما عسكر طارق على الضفة الجنوبية منه كما قدمنا ، وأضحى النهر (نهر البرباط) هو الفاصل بين الجيشين .

في جامع قرطبة ، اعمال فنية رائعة .

إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقا ، الممتدة عدة كيلومترات ، والتي يصب فيها نهر البرباط الذي يمر بوادي البرباط (أو وادي لكه الذي سميت المعركة باسمه ، والذي يسميه بعض المؤرخين بوادي بكه نسبة إلى مدينة قديمة في كورة شذونة بجنوبي الاندلس) ، وميسرته إلى الوادي المذكور ، غربا ، واسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال « ريتين » العالية جنوبا ، منتظرا ان يأتيه عدوه من الشمال ، بعد ان وضعه في موضع الاضطرار

بدء القتـــــال :

وفي يوم الأحد في ٢٨ رمضـان سنـة ٩٢هـ - (١٩ تموز ٧١١ م) ، التقى الجيشان على وادي البرباط ، وذلك بعد ان عبر طارق بجيشه النهر لينازل لذريق في موقعه ، واستمرت المناوشات تراشقاً بالسهام ، بين الجيشين ، طيلة ثلاثة أيام ، تعمد طارق أن يشن في خلالها ، على العدو ، عمليات هجومية محدودة لاستطـلاع قوته ، ومكامن ضعفه ، ثم ليتيح أن يكمل عبور النهر وأن يتمركز في الأماكن المحدودة له ، وفي هذه الأثناء ، كان المند وارطباس ، ولدا غيطشة ، يقودان ميمنة الجيش القوطي وميسرته ، وكان كل من معهمـا من أنصارهمـا وحلفائهمـا والناقمين على لذريق ، فاتصلا بطارق ، بواسطة حليفه جوليان ، وساوماه على أن يعيد إليهما ، فيما إذا ساهما في هزيمة لذريق بتخليهما عن القتال وانسحابهما في وقت محدد ، الضياع التي اغتصبها الملك القوطي من أبيهما ، وتعدادها ثلاثة آلاف ضيعة (وقد سميت فيما بعد بنفائس الملوك) فاجابهم طارق إلى ذلك وعاهدهم عليه .

وفي اليوم الرابع ، شن طارق هجومه العام ، ودارت رحى معركة عنيفة قاتل فيها فرسان القـوط بشجاعـة منقطعـة النظـير ، واستمرت المعركة زهاء أربعة أيام ، لم تلن لأي من الفريقين في خلالها شكيمة ولا بان في أي منهما وهن أو ضعف ، إلى ان كان اليوم السابع والأخير من المعركة ، إذ بدأ الوهن يدب في صفوف القوط ، وبدأت ضربات المسلمين لقلب الجيش وجناحيه تشتد ، فاغتنم ولدا غيطشة الفرصة المتاحة من ظهور ذلك في صفـوف الجند ، وباشرا بتنفيذ خطة الانسحاب المتفق عليها ، وما ان انسحب جناحا الجيش القوطي ، حتى انكشف قلبه ، وأخذ يترنح تحت ضربات المسلمين وقد أضحى يتلقاها لوحده ، ، وكان لذريق يقود القلب بنفسه ، وهو مضطجع في هودج من العاج على جواد سرجه مرصـع بالزبرجد والياقوت . وبدأت مقاومة القلب تنهار ، وبدأ جند لذريق يلوذون بالفرار شمالا ، وأسقط في يد لذريق وقادته فولوا الأدبار . وطارد المسلمون فلول الجيش المنهزم وأوقعوا بها خسائر فادحة واستولوا على معظم الخيول التي كان الفرسان يمتطونها ، وظل المسلمون يطاردون المنهزمين طيلة ثلاثة أيام « لم يرفعوا السيف عنهم » ، فتمزق الجيش القوطي وفر معظمه إلى الجبال يحتمي بها ، أما لذريق ، فقد اختلفت الروايات العربية في شأنه ، فمنها ما قال انه مات غرقاً دون ان يعثر له بعد المعركة على أثر (ابن عبد الحكيم وابن القوطية وابن عـذارى) ، ومنهـا ما قال انه استطاع النجاة لكي يعود فيؤلف جيشاً جديداً يقاتل به موسى بن نصير سنة ٩٤هـ - (٧١٣ م) في وقعة السواقي ، ويلقى مصرعه في تلك الوقعة على يد مروان بن موسى ابن نصير ، ويقول المؤرخ الاسبانـي سافـدرا (Saavedra) ان اتباع لذريق حملوا جثته ودفنوها في مدينة فيزو (Viseo) وان الملك الفونس العظيم قد أورد في حولياته انه شاهد قبر لذريق وقد نقش عليه « هنا يريد لذريق ملك القوط » ، كما تحدث عن مصرعه الكثير من الملاحم الاسبانية .

وقد بلغ قتلى المسلمـين في هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف قتيل ، أما قتلى القوط فكانوا أكثر من ذلك بكثير ، إذ ذكر الرازي ان المسلمين قتلوا من القوط في هذه الوقعة خلقاً كثيراً وقد « أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل متلبسة تلك الأرض » ،

وهكذا انتهت معركة « وادي لكه » التي كانت بداية النهاية الحاسمة لحكم القوط في الاندلس ، كما كانت ، بحق ، معركة عبور العرب المسلمين إلى الاندلس ، الباب الجنوبي الغربي للقارة الاوروبية . ■

المراجـــــع :

- الدولة العربية في اسبانيا للدكتور ابراهيم بيضون .
- دولة الاسلام في الاندلس ، ج ١ ، ق ١ لمحمد عبد الله عنان .
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس للسيد عبد العزيز سالم .
- فن الحرب ، ج ٣ ، لبسام العسلي .
- تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، للطبري .
- الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، لابن الاثير .
- تاريخ اسبانيا الاسلامية للسان الدين بن الخطيب .
- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لاحمد بن محمد المقري .
- تاريخ ابن خلدون ، المجلد الرابع .

المفكر والمناضل الفلسطيني



نقولا الدر

١٩٠٩-١٩٦٧

أديب قعوار

في فلسطين، في شمالها، في الجليل، في شفا عمرو وعلى الهضبة العالية التي تشرف على الساحل من رأس الناقورة حتى جبل الكرمل.. ، في شفا عمرو حيث تلتقي على مشارفها ثلاثة انهر تعربد عند تلاقيها ...، ولد هناك في الخامس عشر من تموز / يوليو ١٩٠٩ نقولا ابراهيم الدر. وقد اكتسب من الطبيعة شاعريتها وفنها، ومن القلعة صموده الفكري ومن عربدة الأنهر ثورته ضد الصهيونية والاحتلال والتخلف العربي وطبعاً التجزئة والتشتت العربيين.

شفا عمرو .. القرية العربية الفلسطينية ذات الآلاف الخمسة من السكان ذوي الانتماءات الدينية المختلفة ، تقع على هضبة ذات موقع استراتيجي منيع ، وقد اشتهرت بالآثار القديمة : فهناك الآبار الرومانية وقلعتها التي بناها ضاهر العمر على أنقاض حصن قديم اتخذه صلاح الدين الأيوبي مركزاً لعملياته الحربية إبان حصاره للصليبيين في عكا . وتشرف هذه القلعة على مناظر طبيعية تمتد نحو الأفق البعيد متدرجة من السفوح التي تغطيها كروم الزيتون والعنب .. الى السهول المغطاة ببيارات البرتقال والليمون وحتى الشاطىء الأزرق .

بيئته العائلية :

في هذا المحيط التاريخي والطبيعي ولد ابراهيم الدر في بيئة عائلية على مستوى ثقافي وعلمي وفني جيد .. الجد الأكبر للعائلة نقولا الدر والجد المباشر يوسف ابو ابراهيم والد نقولا كانا مثقفين ، والثاني ابو يوسف كان يقتني مكتبة حافلة ، وهو الى ذلك اول من أسس في القرية مطحنة للحبوب ومعصرة للزيوت ، كذلك كان ابراهيم نقولا الدر شغوفا بالعلم والصناعة . الى جانب ذلك توارثت العائلة هواية العزف على العود والكمان والهارمونيكا ، وقد ورث نقولا عن العائلة الشغف بالعلم وهواية العزف على الآلات الموسيقية .

مرحلة الدراسة :

في هذا المحيط العائلي ظهرت على الفتى نقولا الدر علامات النباهة والتفوق العلمي ، فعرضت عليه أكثر من منحة دراسية كانت اولها منحة للدراسة في « كلية الكاردينال فراري » في القدس ، حيث تلقى علومه الثانوية وتخرج بدرجة ممتاز الى جانب وسام ذهبي .

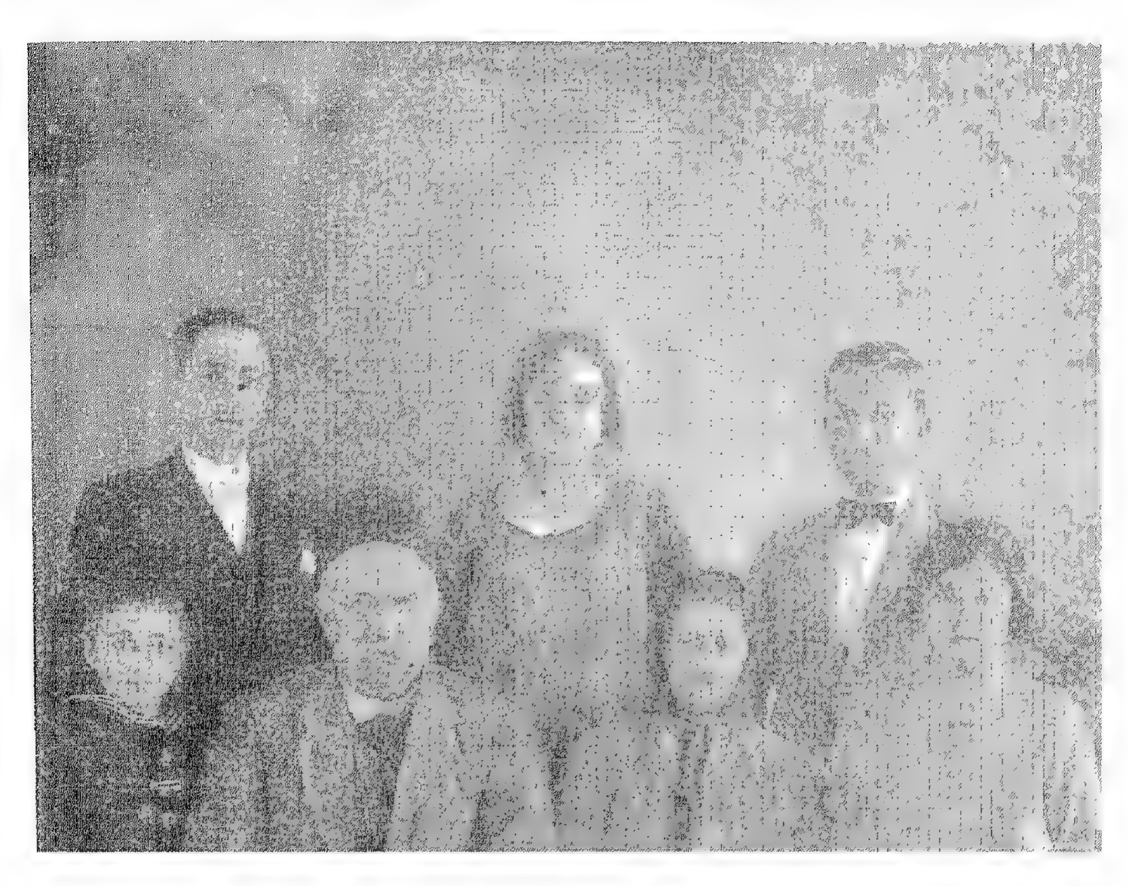
العمل الوظيفي والنضالي في فلسطين :

وبعدها عرض عليه مدير المعارف في فلسطين آنذاك « مستر فاريل » منحة للدراسة في جامعة اوكسفورد ، كذلك عرضت عليه منحة للدراسة في « معهد الدائرة الشرقية » في الفاتيكان . ولكنه رفض هذه المنح لأنه أراد دراسة الطب . وعندما لم يسمح له والده بالانتقال الى بيروت لمباشرة دراسة الطب فيها دخل ميدان الوظيفة وعين عام ١٩٢٧ موظفا في دائرة الجمارك وكان له من العمر ثمانية عشر عاما . وتقلب في الوظائف الحكومية الى ان عين في قسم النفط ، الأمر الذي فتح عينيه على الأهمية القصوى لدوره ، وكان لذلك التأثير الفعال على فكره السياسي المستقبلي كما سنرى عند بحث مفاهيمه السياسية والنضالية بالنسبة الى القضايا العربية ، وبشكل خاص قضية العرب المركزية اي قضية فلسطين . وكان نقولا الدربدأ في هذه المرحلة المبكرة من العمر القراءة بنهم في السياسة والأدب والتاريخ فجمع مكتبة كبيرة وهو لم يزل في مقتبل العمر . وما لبث ان بدأ يكتب في السياسة وينشر ولكن تحت اسم مستعار لأن النشاط السياسي كان محظوراً على موظفي حكومة الانتداب في فلسطين . والى جانب كتاباته السياسية كان يكتب وينشر القطع الأدبية في الصحف والمجلات واولها عام ١٩٣٤ في جريدة « فلسطين » اليافية ، وفي عام ١٩٣٦ في مجلة « المقتطف » القاهرية .

ومع انه كان ينشر كتاباته السياسية تحت اسم مستعار الا انه لم يفلت من ملاحقة سلطات الانتداب البريطاني له فاستجوبته دوائر الامن حول افكاره ومعتقداته : ماذا ولماذا يقرأ ويكتب ويعتقد .. لأن كل ذلك يتعارض كما قال في كتابه « كيف ضاعت وكيف تعود » مع اهداف الاستعمار البريطاني لفلسطين : « ولكن لماذا اجترحت بريطانيا كل هذه الكبائر والآثام ؟ » « اجترحتها لوضع فلسطين في احضان عملائها الصهيونيين – لخلق الدويلة اليهودية – لضرب العرب واذلالهم » .

النزوح

وتبدأ المراحل الأخيرة للحرب الفلسطينية ١٩٤٧ – ١٩٤٨ ويتشبث المناضل نقولا الدر بأرض فلسطين ويرفض النزوح الى ان سقطت حيفا نتيجة للمؤامرة الانكليزية في يد اليهود في الرابع عشر من تموز / يوليو ١٩٤٨ ، فيضطر الى النزوح الى الاسكندرية ولكن السلطات المصرية رفضت السماح له ولرفاقه بمغادرة



في سن الشباب بعد التخرج .

السفينة ، فانتدبوه لمفاوضة هذه السلطات وتمكن بحجته من اقناع المسؤولين ، فسمح لهم بالنزول الى الاسكندرية .

الانتقال الى بيروت .. والعمل الصحفي :

ومن الاسكندرية انتقل الى بيروت في نيسان / ابريل ١٩٤٩ حيث باشر الكتابة بغزارة ، ونشر ابحاثه وانطباعاته عن « النكبة » الى جانب المقالات الأدبية والسياسية . وما لبث في عام ١٩٥٣ ان تولى تحرير قسم الشؤون العربية في جريدة « ذي ديلي ستار » البيروتية الناطقة بالانكليزية . ثم اسندت اليه رئاسة تحرير هذه الصحيفة حتى عام ١٩٥٩ ثم ما لبث ان تركها لأسباب عقائدية مبدأية تتعارض مع الخط الذي اتبعته الدار التي تصدر عنها الصحيفة ، فعاد الى نشر ابحاثه في الصحف العربية .

نشاطه في الخمسينات وآراؤه :

تميز نشاط الدر ابان الخمسينات بالمجالات التالية :

● المقالات التوجيهية لما يراه السبيل الأفضل لاستعادة فلسطين المحتلة .

● الرقابة الشديدة على اعمال هيئة الاغاثة الدولية (الاونروا) والتمني على الدول العربية ان تنشىء جهازا يعطي الفلسطينيين مجالا اوسع للعمل بدلا من وكالة الغوث ، ولكن الدول العربية في ذلك الوقت ما كانت لتنصت للأسباب ذاتها التي ادت الى ضياع فلسطين .

● مقابلة وتوجيه الوفود المشتركة في المؤتمرات التي تعقد لمعالجة القضية الفلسطينية والوفود الزائرة لمخيمات النازحين لشرح وجهة نظره ومحاولة اقناعها بتبنيها .

● حذر العرب من استيلاء اسرائيل على مياه الاردن ، التي ما لبثت ان حولتها الى

داخل الاراضي المحتلة فيما بعد .

● قضية البنك العربي : بعد النكبة جمدت الحكومة البريطانية ودائع الفلسطينيين العرب في البنوك ومنها « البنك العربي المحدود » فهب الدر يدافع عن حقوق الفلسطينيين ويفضح نوايا بريطانيا ، وكان لهذه الحملة التي شارك بها الدر النتيجة الايجابية ، فتمكن « البنك العربي المحدود » من تحرير هذه الودائع واعادتها الى اصحابها النازحين وهم بأمس الحاجة لها بعيدا عن ارضهم وبيوتهم واعمالهم .

العمل لأجل التنظيم وولادة منظمة التحرير :

هذا وفي الخمسينات طلب منه تمثيل الفلسطينيين في هيئة الامم المتحدة وغيرها من المؤتمرات ، فرفض ذلك ، مفضلا التفرغ للعمل في اوساط الشباب المناضل في سبيل انشاء كيان عربي فلسطيني سياسي وعسكري ايمانا منه بأن السبيل الأوحد للحل الجذري لقضية فلسطين هو التنظيم السياسي والعسكري داخل فلسطين وخارجها . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية كان يجتمع بالطلاب والسياسيين منسقا وموجها في سلسلة طويلة من المحاضرات والاجتماعات .

وفي الستينات تابع جهده في سبيل التنظيم الفلسطيني السياسي والعسكري ، وكانت له الى جانب العمل في اوساط القاعدة الشعبية الفلسطينية ، اتصالات مع اكثر الشخصيات الفلسطينية وقيادات المنظمات المستقلة ، وقد حصر تفكيره وجهده حول قضية انشاء جهاز موحد منظم يمثل الشعب العربي الفلسطيني ويناضل في سبيل قضيته ، وهكذا جاء اعلان انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » تكليلا لجهوده . ويعبر الدر عن مفهومه لمشروع « الكيان الفلسطيني » الذي كان مطروحا آنذاك في سياق محاضرة القاها في ٢٦ آذار / مارس ١٩٦٥ بما يلي :

« انه جهاز يمثل ارادة الشعب الفلسطيني ويعبر عن تلك الارادة في جميع المجالات ، وان انشاء الجهاز ما هو الا في مصلحة الفلسطينيين كما هو في مصلحة الشعوب العربية ودولها ، ولا سيما دول المواجهة » .

واوضح الدر اسباب خوف الصهيونية من الفلسطيني المنظم بقوله :



نقولا الدر
عام ١٩١٢

« ... لانهم لا يتوقعون ان ياتيهم الخطر الا من اهل فلسطين - اصحاب الاراضي المغتصبة وحقهم المباشر فيها - ولان شرعة الامم المتحدة وميثاق حقوق الانسان يؤيدان الفلسطيني في الوصول الى هذا الحق وضع الصهيونيون سياستهم العامة على النحو التالي :

« ١ - طمس اسم « فلسطين » طمسا تاما من جميع الكتب والنشرات والمذكرات .

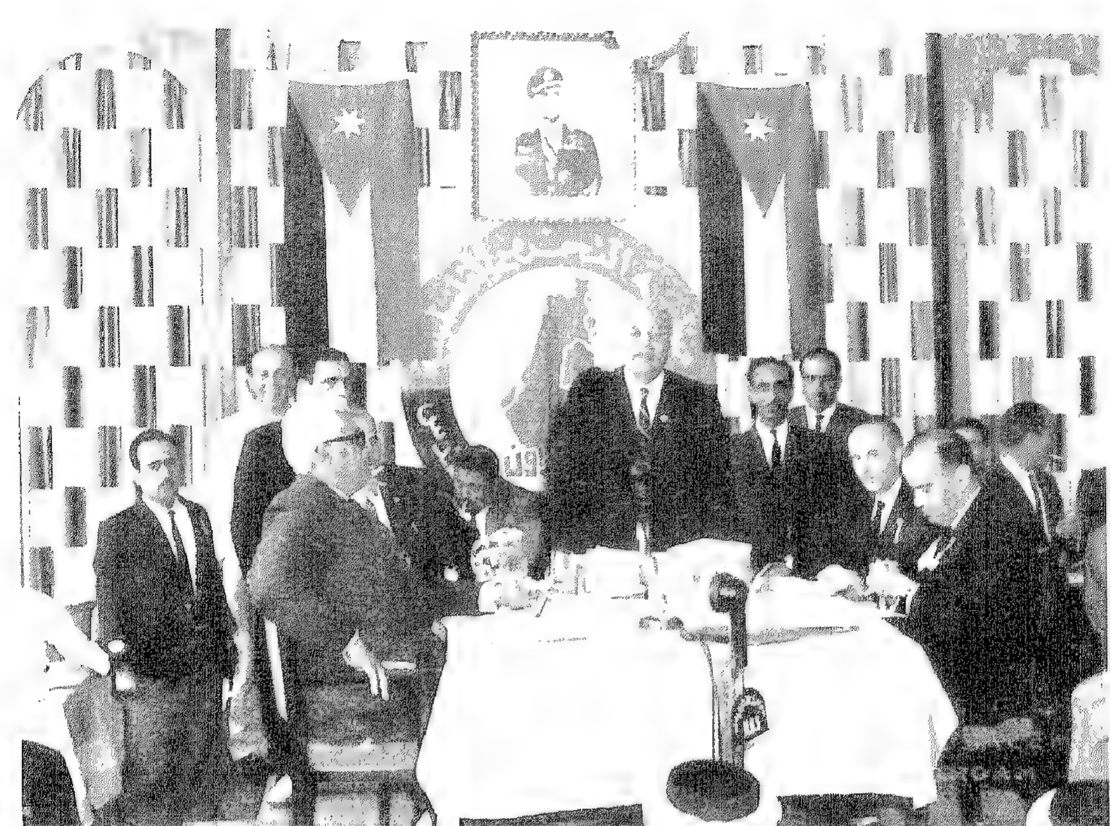
٢ - طمس كلمة « الفلسطينيين » والاشارة اليهم بلفظة لاجئين .

٣ - تذويب الفلسطينيين واسكانهم خارج وطنهم فلسطين والحصول على تنازل منهم عن وطنهم اذا امكن ذلك .

٤ - اظهار الدول العربية بمظهر المتدخل بما لا يعنيه ، لذلك كان الصهيونيون يأملون بتذويب الفلسطينيين في البلدان العربية لكي ينسوا وطنهم والاشارة اليهم فقط باسم لاجئين . اذن فالجهاز الفلسطيني المطلوب هو الذي يمثل ارادة الشعب » .

ولما اعلن قيام « منظمة التحرير الفلسطينية » في مؤتمر القدس الأول « لتكون قيادة معبئة لقوى الشعب الفلسطيني لخوض معركة التحرير ودرعا لحقوقه وامانيه وطريقا للنصر » ، قال نقولا الدر :

« ان منظمة التحرير باقية حية نامية . لذلك فان من يجد نفسه غير راض عن مسؤول فيها لسبب وجيه عليه ان يسعى فورا الى تغيير اولئك المسؤولين واحلال من هم افضل منهم مكانهم » . ويقول : « ولكننا حملنا واجبا لان الواجب الوطني فرض علينا فرضا ، ان منظمة التحرير ليست ملكا لاحد وليست ملكا لرئيس اللجنة التنفيذية ولا لاحد من اعضائها ، انها ملك للشعب الفلسطيني ، فالمنظمة هي الشعب والشعب هو المنظمة » .



مع المرحوم احمد الشقيري .. عملا سويا في منظمة التحرير الفلسطينية في بداية عهدها .

ولما كان يؤمن ويقول بان مواجهة « التنين الصهيوني الهائل » دفاعا عن الأمة العربية واجب وشرف مفروض على ابناء فلسطين ، وهو الطريق الى فلسطين ، انضم الى منظمة التحرير ، وكان عضوا في المؤتمر الاول الذي عقد في القدس في ايار / مايو ١٩٦٤ ، وانتخب نائبا لرئيس المؤتمر ، واختير عضوا في اول لجنة تنفيذية للمؤتمر واستمر في هذا المنصب حتى استقالته في ايار / مايو ١٩٦٥ . ومع انه تابع نضاله في سبيل فلسطين وفق خطه الوطني الا انه لم يقبل اي منصب رسمي فيها وذلك تمشيا مع الانتقادات التي وجهها الى المنظمة فيما بعد .

تحليل نقولا الدر لأسباب النكبة ، اي كيف ضاعت ؟

يحلل الدر اسباب النكبة عام ١٩٦٣ في كتابه « هكذا ضاعت وهكذا تعود » فيقسمها الى قسمين رئيسيين : الاستعمار والدول العربية آنذاك . ولكنه يعود ويؤكد على الترابط العضوي الوثيق بينهما .

١ - الاستعمار او السبب الخارجي :

« ولسنا كما زعم وايزمن هذا ، ولا كان اليهود هم الذين قهرونا عام ١٩٤٨ - خسئوا - انما قهرنا عدو تستر باليهود ، فكان هو الذي ضرب ، اذا ضرب اليهود ... »

هكذا هو الوضع برأي نقولا الدر . الاستعمار وبريطانيا باطماعها في الدرجة الأولى هو الذي اوجد « اسرائيل » وخلقها : « ولذلك عدونا الحقيقي ليس اسرائيل ، وانما عدونا هو الذي خلق اسرائيل ويمد اسرائيل باشكال شتى من العون المادي والأدبي والسياسي وحتى العسكري ... عدونا هذا هو الذي يتستر باسرائيل ويضربنا باسرائيل ، وفي يده اسباب موتها وحياتها ... وعدونا هذا انما توخى - من جملة ما توخاه من خلق اسرائيل - ان يلهينا بها عنه ، كي نحول انظارنا عن شروره وآثامه ، ولكي يستنزف دماءنا ، بتوجيهنا الى محاربة الذنب لا محاربة الرأس » .

لقد اصدرت بريطانيا وعد بلفور ، برأي الدر ، للأسباب التالية :

١ - الوطن العربي ممر طبيعي كبير يصل الغرب بالشرق وبالعكس .

٢ – بلاد العرب مركز استراتيجي لا مثيل له في الدنيا .

٣ – في الوطن العربي ثورة هائلة تقوم على رأسها كنوز النفط ولبريطانيا الحظ الأوفر فيها .

٤ – الانفراد بالميراث العربي للامبراطورية العثمانية وابعاد فرنسا عنها .

٥ – بريطانيا كانت تخشى الوعي العربي آنذاك ، لذا ارادت ان تضرب الاسفين الصهيوني في وسط الوطن العربي وتجزئته قسمين منفصلين جغرافياً .

لهذه الأسباب ، برأي الدر ، اصدرت بريطانيا وعد بلفور ، فان انشاء دولة يهودية في فلسطين تأتمر بأمر خالقيها الانكليز ، كما كانوا يتصورون ، سيفتح لهم مجال السيطرة على فلسطين وما حولها الى ابد الآبدين . لذا قبلت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية قيام دولة عربية في سورية ، بينما قاومت مثل هذا الحكم في فلسطين والاردن والعراق

فرنسا : كان هم فرنسا برأي الدر الانتقام من بريطانيا واخراجها من فلسطين كما اخرجتها بريطانيا من سوريا ولبنان وذلك بوضع فلسطين تحت الوصاية الدولية ، ولكن تهديد الصهيوني بقطع معونة مشروع مارشال عنها جعلها تؤيد مشروع تقسيم فلسطين .

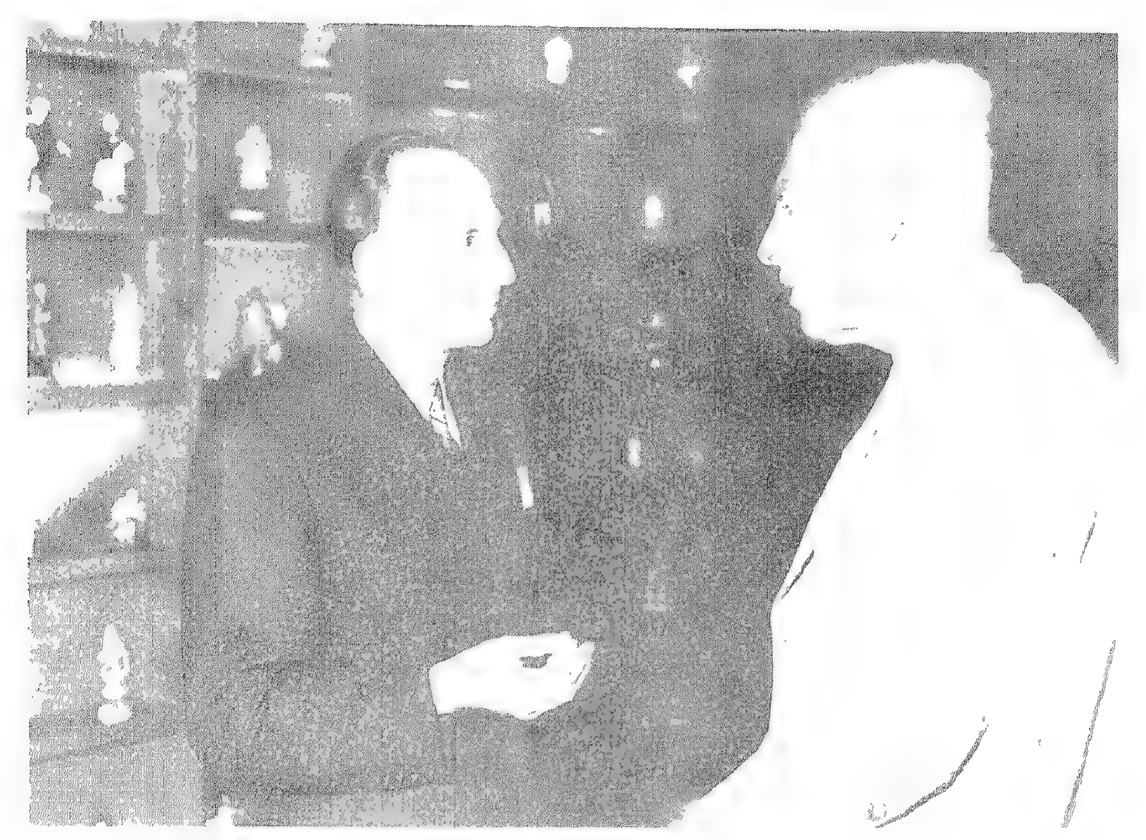
الولايات المتحدة : النفوذ الصهيوني كان (ولا يزال) متغلغلا فيها ، في الدوائر الرسمية وغير الرسمية ، اي في حقول العلم والادب والعمل والاقتصاد والصحافة والاذاعة والسينما وكل ما له علاقة بالروح والعقل والدولار بصورة مباشرة او غير مباشرة .. وكان البيت الأبيض يعج بالموظفين الصهيونيين وعملاء الصهيونية ..

هذا هو سبب التأييد الاميركي الجامح لقيام الدولة اليهودية ، والسبب الآخر ، كما يرى الدر ، هو ان الاميركي الساذج كان لا يزال حديث العهد بالدعاية الصهيونية حول الفظائع النازية ، فصورت له الماكينه الدعائية الصهيونية ان التعويض على اليهود بايجاد دولة لهم في فلسطين وفي غياب اي تأثير عربي على النطاقين الرسمي والشعبي الاميركيين تمكن الصهيونية من تحقيق اهدافها .

اما الاتحاد السوفياتي فانه ايد مشروع

الاب يحتضن الابن نقولا الدر .





مع المؤرخ البريطاني توينبي في ١٩٥٧/٤/٢٩ .

التقسيم لانه يخدم مصالحه في منطقة الشرق الأوسط ومنها :

١ - يؤدي الى خروج القوات البريطانية من فلسطين .

٢ - يكون بمثابة رد حاسم على مواقف بعض الدول العربية المؤيدة للعرب .

٣ - يورط الاستعمار الغربي ويكشفه في العالم العربي .

٤ - يخلق فرصة ، قد تكون مؤاتية ، لاستغلال الدولة اليهودية الجديدة .

٢ - الرجعية العربية - او السبب الداخلي :

ينقل الدر عن « جلوب باشا » في كتابه « جندي مع العرب » ، ان ارنست بيغن ، وزير خارجية بريطانيا يومئذ ، قال لأحد رؤساء الوزراء العرب في ذلك الحين « لا تذهبوا لمهاجمة المناطق التي خصصت لليهود » ... واطاع « رئيس الوزراء » هذا الأمر . ويزيد قائلا : « وجلوب نفسه هو الذي يقول : لو سمح العرب لقواتهم كلها بالعمل كما يجب في ١٥ ايار / مايو وزحفوا زحفا جديا ، لنجحوا على الأرجح في اكتساح الدولة اليهودية الجديدة » .

التشرذم والمحورية وانحياز العرب للغرب الذي كان يؤيد قيام دولة اسرائيل ويغرر بالعرب منع العرب من استعمال طاقاتهم وامكانياتهم الكبيرة حتى في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ ، ومن الوقوف في وجه اليهود المحدودي الامكانيات انذاك .

ويصف الدر التشرذم العربي انذاك قائلا : « وحتى نذر كارثة فلسطين قد فشلت لسوء الحظ في احلال الوئام بين العرب ولو مؤقتا ، كما فشلت في توحيدهم امام العدوالاجنبي الذي كان يهدد دولهم باوخم العواقب وافدح الشرور » .

ويحدد الدر الامكانيات والطاقات العربية :

١ - الامكانيات العسكرية وان كانت محدودة الا انها كانت متفوقة بالنسبة الى الامكانيات التي كانت متوفرة لليهود انذاك .

٢ – النفط العربي : « سلاحنا الفتـاك الذي رفضوا استعماله » في ذلك الوقت :

يركز الدر على اهمية استعمـال النفـط العربي بشكل واسع والحاح كبير ويفيض في تبيـان اهميتـه الاقتصاديـة والحياتيـة والاستراتيجية للغرب ، ونلخص ذلك بما يلي :

١ – مصدر الطاقة الرئيسي : النفط عامة والنفط العربي منه بشكل خاص هو مصدر الطاقة الرئيسي للغرب . وقال الدر في ذلك : « لو توقف تدفق النفط العربي على بريطانيا (١٩٦١) لتوقفت سيارتين من اصل كل ثلاث سيارات تسير فيها » . كذلك فان النفط العربـي هو مصدر الطاقة الرئيسي لادارة المصانع وتوليد الكهرباء والتدفئة والتبريد والنقل .. الخ ...

ب – « النفط اهم مادة خام في تاريـخ العالم : النفط هو عصب الحياة اليومية في العالم اليوم وبشكل خاص للغرب ، فالنفط اذن ليس مصدر طاقة فقط ، ولكنه ايضا مادة خام تدخـل في صنـع عشرات الالاف من المواد البيتروكيمائية » . وقد قدرت المواد والمنتجات والمركبات الكيمائية التي يدخل في صناعتهـا النفط عام ١٩٥١ باكثر من نصف مليون .

ج – النفط العربي اكبر مصدر للثروة لبريطانيا خاصة والغرب عامة : يقول الدر : « ان نفطنا العربي ارخص من البصل عشرين مرة او اكثر ، وارخص من الويسكي سبعمئة مرة او اكثر .. اذن فاعلم انك تشتري الطن الواحد من البصل بـ ٤٠٠ ليرة لبنانية او ٥٠٠ ليرة بينما يفرض عليك الاجنبي ان تبيعه الطن من نفطك به ١٨ ليرة فقط ... » يشترون منا بـ ١٨ ل .ل . (هذا ما قاله الدر عام ١٩٦٣) ما يربحون منـه ليس ١٨ ل ل . اي بمعـدل ١٠٠٪ ، ولا بمعدل ٢٠٠٪ او ٥٠٠٪ ، بل بمعدل ١٣٨٠٪ ، فتأمل . ويزيد قائلا : « فلو اننا اضفنا ارباح المركبات الكيماوية لبلغ الربح الذي تجنيه الشركات النفطية من الطن الواحد من النفط نحو عشرة الاف بالمئة ، وربما اكثر من ذلك بكثير » . وهو يقول بأن حيلة الشركات « اقتسام الأرباح مناصفة » ، انها قاعدة لا اساس لها من الصحة .

ويؤيد الدر استنتاجاته بنقله من وثائـق وزارة الخارجية الاميركية بحادثة تلفونية جرت في ١٩٣٧/٧/٢ بين ولز أحد رجال الحكومة الاميركية وج . أ . موفيت ، مدير شركة زيوت البحرين انذاك . قال موفيت : « ان جميـع عملياتنا في شبه الجزيرة العربية والخليج سوف تكون مهددة اذا اتبعت وزارة الخارجية سياسة يهودية ضد العرب ، بل الأغلب ان « العرب » سوف يطردوننا من اراضيهم في تلك الحالة » . وقد رد ولز : « انني اقدر صراحتك ولكن وزارة الخارجية لم تقرر بعد موقفها فيما يتعلق بقضية فلسطين » .

كان هذا قبل التقسيم بعشرة اعوام ولكن العرب مع الأسف لم يستغلوا هذه المخاوف ، ولم يستعملوا سلاح النفط الفتاك الذي كان بأيديهم ، علما بان الولايات المتحدة ردت على مذكرة جامعة الدول العربية على بالغ قلقها من دعم الولايات المتحـدة للصهيونيـة بقولهـا : « فمنذ نهاية الحرب العالمية الاولى عاضدت الولايات المتحدة ، حكومة وشعبا ، فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، واذن فحكومتي انما تتصرف طبقا لسياسة الولايات المتحـدة التقليدية عندما تدعو الى اتخاذ التدابير التي ترمي الى تعزيز ابراز هذه الفكرة الى حيز الوجود » . هكذا كان رد الولايات المتحدة على مذكرة جامعة الدول العربية المتخمة بعابرات الصداقة بين البلدان العربية والعالم الاسلامي من جهة والولايات المتحدة من جهة اخرى والخوف عليها من الانفصام .. ؟

وهكذا تعود ...

برأي نقولا الدر ، لخوض معركة فلسطين ثلاثة اسلحة هي :

١ – « سلاح القانـون ، اي السـلاح الدولي ، وهو سلاح لا يرجى منه ايصالنا الى حقنا لأن العالم الدولي لسوء الحظ شرير لا يحترم القانون ولا يفهم الا القوة » .

٢ – سلاح النفط ، وفي ذلك يقول الدر : « ولذلك نضع الدول العربية امام مسؤولياتها لافتين انظارهم الى ان قضية فلسطـين هي قضية حياة او موت بالنسبة الى الامة العربية كلها من الخليج الى المحيط » .

٣ – سلاح القوة : امـا سلاح القـوة فمعناه الحرب التي تبيد اسرائيل بقوة الحديد والنار . وهذا هو السلاح الذي يجب ان نبذل كل نفيس وكل عزيز في سبيل استعماله واتقان صنعه .

ويستدرك الدر ان المسألة ليست مسألة

اسرائيل وحدها وانما هي مسألة من يقف وراء اسرائيل ... ومصلحتنا ، اذا استطعنا ، اكراه هذه الدول التزام الحياد على الأقل ، وذلك عن طريق « اقناعها » بان صداقتنا خير لها واكثر نفعا من وجود اسرائيل ، والا كان علينا ان نخوض المعركة ضد اسرائيل وضد الدول التي تقف وراء اسرائيل . وعندئذ تتطلب منا المعركة هذه استعدادات خاصة اهمها :

١ - العمل الجدي للوحدة العربية التي هي صمام الامان لأي تحرك عسكري جدي ضد اسرائيل . وينقل الدر عن كتاب انتوني ناتنج (« شاهدت بعيني » ، ص ٩٣) : « ان زعماء وزارة الخارجية الاسرائيلية قالوا له ان حكومتهم ستلجأ الى كل وسيلة ممكنة من اجل ابقاء العرب ممزقين ، لان وحدة العرب في نظرها ليست الا مرتفعا يملون منه شروطهم او يشنون منه حربا انتقامية » .

٢ - الاقبال على التصنيع : «اما العلم الصناعي وما ينتج عنه من تصنيع البلاد ، فانه عصب الامة وعضلاتها وانيابها ومخالبها ... والتصنيع لا بد له من المال الوفير الذي يمكن الدولة من تحمل ما يتطلبه من نفقات ، لقد صنع المستعمرون بلادهم بالاموال التي نهبوها من المستعمرات ، ولكننا لا نريد ان ننهب ، فماذا نفعل ؟ هنا تبرز مشاريع التنمية ومبدأ العدالة الاجتماعية حلا فريدا لهذه المشكلة ... فبالتنمية وبالعدالة الاجتماعية وحدها تستطيع الدولة في هذه الايام ان تستثمر ما تملكه الامة من ثروات مالية وطبيعية في سبيل التصنيع وغيره مما يعود على الأمة كلها بالخير والنفع ، كرفع مستوى التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية وما ماثلها .. وبالتالي تنقل الشعب من القرون الوسطى الى العصر الحديث المتمدن .

ولا ينسى الدر « الفداء الفلسطيني » فيقول : « كل فلسطيني وفلسطينية مطلوب منه ان يعتبر نفسه فدائيا ومغوارا دائم الاستعداد لخوض معركة الثأر على ثرى فلسطين ... اذ لا حياة لابن فلسطين خارج فلسطين ، ولا كرامة الا على ثرى فلسطين ... » .

ويقول الدر « .. النكبات ليست عارا ولا الهزائم شنارا ، شرط الا يستنيم اليها المنكوب والمهزوم . فاذا هب يتحدى ويتلظى وهو يعمل بعناد واصرار ، طلبا للثأر ، فلا عليه النكبة ولا عليه الهزيمة » .

* * *

ظهر يوم الاحد في ١٩ اذار / مارس ١٩٦٧ مات نقولا الدر عن ثمانية وخمسين عاما متأثرا بالتهاب مزمن في امعائه وقد تسربت الجراثيم فيها ببطء الى الكلى والكبد فقضت عليه على حين غفلة وهو لم يزل في اوج كفاحه ونضاله في سبيل القضية التي نذر نفسه لها ... في سبيل فلسطين .

لقد عاش نقولا الدر حياة غنية بالنضال العربي الفلسطيني وان عاش بالحرمان والفقر المادي .

■

● قدم هرون الرشيد الرقة فاجتمع الناس خلف عبد الله بن المبارك وثار من نعالهم الغبار، فأشرفت زوج الرشيد على هذه الجموع وقالت : ما هذا؟ قالوا : عالم أهل خراسان عبد الله بن المبارك قدم الرقة . فقالت : هذا والله الملك الذي لا يجمع الناس بشرط واعوان .

● لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسيطا تكن احب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ..

لقمان الحكيم

تقاليد وآداب المهنة الطبيّة

بين قسم أبقراط وقسم ابن رضوان

اسماعيل سرور شلوه

باحث في الدراسات العربية الاسلامية



من الثابت ان العلوم والمعرفة الطبية عند العرب لم تبدأ من فراغ. بل كان اليونانيون من اول وأهم من أخذ عنهم العرب العلم والمعرفة، ومن كتبهم استحث العرب البحث والتأليف، وحملوا رسالة العلم وتقدموا في العلوم، وبرزوا فيها بدرجات واسعة.

ولو أن المشهور بين المؤرخين أن اليونان هم واضعو أسس العلم والمعرفة، إلا أنهم في الحقيقة أخذوا كثيراً عن المصريين القدماء، ونقلوا عنهم ما هو أكثر، وذلك بما كان لهم من وثيق الصلات والعلاقات بهم، وبما كان يقوم به كثير من علمائهم من زيارات لمصر والتجول خلال تلك البلاد، ومقابلاتهم مع كهنة المعابد وغيرهم، فلقد ذكر « هيرودوت » المؤرخ اليوناني الذي زار مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما، وكذلك « ديودور الصقلي » الذي زار مصر عام ٥٩ ق. م. « أن كثيراً من علماء اليونان كانوا يزورون مصر، ويمضون فيها ردحاً من الزمان ينقبون ويبحثون ويجمعون المعلومات » .... وقد ذكر في المراجع أن أفلاطون قد درس في مدرسة « أون » مدة ١٢ سنة علم الفلك والكيمياء وغيرها، كما ذكر « وارن دارسون (W.Dawson) أن الفاظا وتعبيرات مصرية قديمة قد ظهرت بوضوح في مجموعات أبقراط وديسقوريدس وجالينوس، كما ذكر « كريمرز » و « أردنج »[١] - أن « ديسقوريدس » أورد في كتابه « المادة الطبية » (De Materia Medica) ٨٠ عقاراً منوهاً بمصدرها المصري. هذا بالاضافة الى أن « جيمس لير (J. Liuer) » قد ذكر في كتابه « تاريخ الصيدلة »[٢] « أن اليونانيين أخذوا كثيراً عن المصريين، وأنهم - بدون شك - ليسوا الا شارحين للعلوم المصرية ». ولقد كان بعض المؤلفين اليونان وغيرهم يثبت المعلومات دون ذكر مصادرها فتظهر وكأنها لهم أنفسهم. وفي ذلك يقول « سنجر (Singer) » في كتابه علم الاغريق والعلم الحديث[٣] : « إن العلم الذي ورثوه - أي اليونانيون - من القدم، وكان غفلا من أسماء عارفيه الأصليين، وأصبح، على العكس منسوبا ويقي على هذا الحال حتى الآن ».

ويقول « دي لاسي أوليري DeLacy Oleary » في كتابه « علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب » : « وعلى الرغم مما كانت تدعيه الثقافة اليونانية القديمة من الأصالة، فانها لم تكن تخلو من المؤثرات الشرقية، ويمكن ان نرجع الكثير من مظاهر الحياة والفكر اليوناني إلى أصول مصرية وبابلية ...... ».

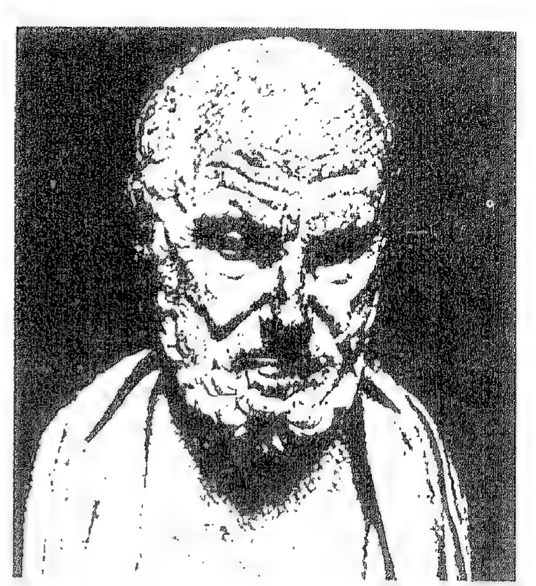
ومع ذلك فعلماء اليونان (الاغريق) لم يتوانوا في دراسة الطب والصيدلة بل ضربوا بسهم وافر في هذا السبيل، وتقدموا بهما خطوات كبيرة وجددوا، فهم أصحاب نظريات العناصر الأربعة [الماء والهواء والأرض والنار]، والأمزجة والأخلاط التي تحكم الجسم بتناسقها في الصحة والجسم السليم، وعدم تناسقها في المرض والجسم العليل، وتأثير العقاقير في علاج هذه الحالات واختلاف نسبها. وكانت لهم مدارس يدرس فيها الطب والصيدلة، اشتهر منها ماكان في أثينا، وكوس، وكنيدوس. ولقد نبغ كثير من علماء اليونان واشتهروا في هذا المضمار، بل صاروا المعلمين لأجيال العصور التالية، منهم « أبقراط » [ابو الطب]، و « ديسقوريدس » [ابو العقاقير]، و « جالينوس » وغيرهم.

مدرسة الاسكندرية :

وفي حوالي النصف الأول من القرن الرابع الميلادي انتقلت الدراسات المختلفة ومنها الطب والصيدلة الى مدرسة (جامعة) الاسكندرية التي انشأها بطليموس الأول، ونقل اليها العلماء من جامعة « أون » أي عين شمس المصرية القديمة، كما أحضر اليها العلماء من اليونان (من الأكاديمية والليسيوم). فتميزت هذه المدرسة بعلمائها الأفذاذ، والمكتبة العظيمة الملحقة بها، وفاقت غيرها شهرة وعلما، بل وخلفتها وحلت محلها، فأمها الطلاب من جميع البلاد والجهات، واصبحت قبلة العلماء وطلاب العلم، كما تخرج فيها من العلماء من حاز الشهرة والسبق في العلم مثل الطبيب الصيدلي « جالينوس » الذي نقل العلم الى روما، ومنها انتشر الى كثير من أنحاء العالم. ومن علمائها بطليموس، وإقليدس، وأوبياسوس، وأرشميدس ... الخ.

أبقراط والمدرسة الأبقراطية (Hippocrates)

أبقراط هو بلا نزاع من أعظم اطباء العالم في التاريخ. وقد سماه العرب « أبو الطب »،



ابقراط : ابو الطب .

ورفعوا نسبه الى عائلة اسقيليبيوس . ولا يتردد إبن أبي أصيبعة الذي خصص له ترجمة طويلة في تاريخه أن يشير إلى مـا كان عليـه من « التأييد الالهي » .

ولد أبقراط في جزيرة (قوص) وهـي جزيرة صغيرة من الجزائر اليونانية في القرن الخامس ق . م .(حوالي ٤٦٠) . وكان الطب في هذا الزمن لا يزال في أيدي أناس تنقصهم الروح العلمية ، كثيراً ما يلجأون إلى السحر والشعوذة ، مستغلين سذاجـة المرضى . وكان أبقراط متضلعا من العلوم الطبيعية ، فأدخل الطب في إطـار علمي ، مستعمـلا الفحص الاكلينيـكي (Clinical Observation) والاستنتاج المنطقي السليم .

وقد بنى علاجه على بعض مبادئ يمكننا أن نحصرها في النقط الثلاث الآتية :

أولا : مبدأ الحيوية (Vitalism) يعتقد أبقراط أن هناك عنصراً خاصاً غير مادي يحيا به الجسد هو النفس (Psyche) . وهـو بمثابة نسيم عابر ينقرض بانقراض الجسد وهذا المبدأ الحيوي صدى للآراء الروحيـة السائدة في ذلك الزمن .

ثانيا : مبدأ الأخـلاط (Humorism) المبني على الاعتقاد بأن الأشياء مكونة من العناصر الأساسية : الحار والبـارد والرطـب واليابس . فالجسم الانساني مزيج متناسب من الـدم والبلغـم والمرارة السـوداء والمرارة الصفراء ، فاذا كانت هذه الأمزجة في تناسق محكم من الكيفية والكمية تمتع الجسد بصحة جيدة وهي حالة الكرازيس (Crasis) (أي الامتزاج) . ولكن اذا زاد أحد الأمزجة أو نقص أو أمتنع من الامتزاج بالعناصر الأخرى حدثـت الأمـراض (Dyscrasis) . وأكثـر الأمراض ناجمة من ازدياد في البـرودة او الحرارة .

وهناك تماسك وتضامن في أعضاء الجسم ووظائفه . فاذا مرض عضو أثر على الجسم كله .

ثالثاً : المبـدأ الطبيعـي (Naturism) – أي محاكاة الطبيعة في المعالجة . لقد تحقق أبقراط بالملاحظة – ان هناك طبائع لا تتغير ذات صفات ثابتة . ولكل مرض تطور طبيعي ونضوج محدود السير والمصير . وهناك مبدأ بسيط واحد في ذاته متعدد بمفعوله هوالطبيعة . وهذا المبدأ يشرف على جميع الوظائف الحيوية ، ويقاوم العوامل الهامة للجسم . وعلى الطبيب أن يساعد هذه الطبيعة لكي تقوم بعملها . فلا بد من أن يعرف البحران أو الحومة (Crisis) ، وهي النقطة الفاصلة في المرصد التي تؤذن بالاتجاه نحو التحسن او التفاقم ، وأن يعرف الأيام الحاسمة . فالقوة الطبيعيـة الشافيـة (vis medicatrix naturae) هي حجـر الزاوية في الطب الأبقراطي . ولذا يجب على الطبيب أن يكون حذراً ، والا يتسرع في التدخل

طبيب يوناني يجري جراحة على ذراع على احد العمال .





الاسعاف الاولي في ساحة القتال

في سير المرض خوفا من أن يحول دون عمل الطبيعة . ولكن اذا حدث تأخر في ظهور البحران فعليه أن يساعد بازالة المواد السقيمة بواسطة الفصد او الأدوية المقيئة او المسهلات .

ولقد وصف ابقراط وصفا دقيقا بعض الأمراض مثل السل والتشنج النفاسي (Eclampsia) ، والصرع والحميات المختلفة . وفي وصفه المشهور ، الطلعة الأبقراطية (Facies Hippocratica) – أشاز بدقة الى العلاقات التي تنذر بالموت المقترب . وقد وصف بدقة ٤٢ حالة مرضية و٢٥ منها مصيرها الموت .

وقد ظل علم الجراحة الأبقراطي في بعض اقسامه لا يضارع حتى أواخر القرن الثامن عشر .

ومن أنبل مميزات أبقراط سمو أخلاقه في مهنته طبيبا ، فظل قسمه المشهور رمزا للأخلاق الطبية الراقية ، وارتفاعها عن الاندماج في الشبهات التجارية – وها هو هذا القسم (الذي سماه العرب : عهد ابقراط) :

قسم أبقراط (The OATH of Hippocrates)[٥]

« إني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء ، وكل علاج ، وأقسم بأسقليبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعا على أنني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط ، وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي ، وأواسيه في معاشي ، واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي . وأما الجنس المتناسل منه فأرى انه مساو لاخوتي ، وأعلمهم هذه إن احتاجوا الى تعلمها بغير أجرة ولا شرط . وأشرك اولادي ، وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذي كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة ، وأما غير هؤلاء فلا افعل به ذلك ، وأقصد في جمع التدبير ، بقدر طاقتي ، منفعة المرضى .

وأما الأشياء التي تضر بهم ، وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي . ولا أعطي اذا طلب مني دواء قتالا ، ولا أشير ايضا

بمثل هذه المشورة . وكذلك ايضا لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين ، وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الذكاء والطهارة .
ولا اشق ايضا عمن في مثانته حجارة ، لكن أترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل .
وكل المنازل التي أدخلها انما أدخل اليها لمنفعة المرضى ، وأنا بحالة خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الأشياء ، ومن الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد .
وأما الأشياء التي اعانيها في اوقات علاج المرضى ، او أسمعها أو في غير اوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق خارجا ، فأمسك عنها وأرى ان مثالها لا ينطق به . »
فمن أكمل هذا اليمين ولم يفسد منه شيئا كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها ، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائما ، ومن تجاوز ذلك كان بضده .
ثم توفي ابقراط مخلفا وراءه عددا من الأطباء تشبعوا من مبادئه . ولكن شتان بين المعلم وتلاميذه . فعلى مر السنين فقدت المدرسة الأبقراطية حيويتها ، واتخذت العناصر القليلة من الفسيولوجيا الموجودة في مذهبها الطبي اساسا لتفسيرات طبية منهجية لا تخلو من التصنع . فنهضت مدرسة الاسكندرية التجريبية (Empirical School) . ضد هذا التيار العقلي المتزمت وقالت انها لا تهتم بعلل الأمراض كما تهتم بعلاجها : « ليس المهم ، على قولهم ، ان تعرف ماهية الهضم بل ما هو سهل الهضم » .
وقد جمعت الكتب الأبقراطية ورتبت في الاسكندرية ، ولكن هاجر بعد ذلك الطب الى روما التي أصبحت مركز الحضارة .
والذي حقق هذا الانتقال هو أسقلبيوس - (Asclepius) (القرن الأول ق .م .) كان طبيبا ذا شخصية قوية متضلعا من الطب والفلسفة . وسريعا ما أصبح الطبيب الرسمي للطبقة الراقية في روما . وكان يعتنق الفلسفة الذرية (Atomism) للوقيبوس (Leucippus) ، وديمقريطس (Democritus) وأبيقور (Epicurus) والتي كان قد أدخلها الى روما الشاعر لوكرتيوس (Lucretius) في كتابه « في طبيعة الأشياء » (de Rerum Natura) . وقد حاول احد تلاميذ اسقلبيوس التوفيق بين النزعتين المتضادتين ، فأسس المدرسة المنهجية - أشهر ممثل لهذه المدرسة « سوارانوس » الملقب بالذهبي (Soranus of Ephesus) (القرن الأول م) وهو مؤسس فن الولادة وامراض النساء .
وقد وجد ، حتى قبل المدرسة الابقراطية ، اشخاص في اليونان كانوا يختصون بالأعشاب الطبية ، يجمعونها في الوقت المناسب ويخزنونها ويبيعونها وكانوا يسمون العشابين (Rhizotomoi) وكثيرا ما كانوا يعالجون المرضى بانفسهم . وقد واصلوا تجارتهم اثناء رواج المدرسة الأبقراطية وبعدها .

المهنة الطبية عند العرب

مارس العرب مهنة الطب في اطار من التقاليد والنظم ، يمكننا ان نستخلصها من الدراسة التحليلية لتاريخ الطب العربي ، وعلى وجه الخصوص من القصص التي تدل على سلوك الأطباء العرب في ممارستهم لهذه المهنة ، او ما وصل الينا مما وضعوه من نظم وقوانين تنظم هذه الممارسة .
« كما ان التقاليد التي تحدد الاطار العام لسلوك الأفراد في المجتمع تنشأ من حصيلة موروثة ، واخرى تتولد داخل المجتمع نتيجة الظروف الزمانية والمكانية السائدة ، فان تقاليد ممارسة مهنة الطب لدى العرب لا شك أنها قامت ايضا على مزيج مما توارثه العرب من تقاليدهم العربية الأصيلة ، ومما نقلوه عن الأمم السابقة ، وعلى الأخص اليونان والفرس . ثم ما أضافوه على ذلك كله من ظروفهم الخاصة التي نشأت نتيجة لقيام الدولة العربية الاسلامية .
وعلى ذلك فانه يمكن القول ان الأسس التي تقوم عليها تقاليد ممارسة الطب لدى العرب هي :
١ - التقاليد العربية الأصيلة بما تتضمنه من اخلاقيات اظهرها الشهامة والمروءة .
٢ - التقاليد المنقولة عن حضارات اليونان والفرس وغيرهم من الأمم التي نقلوا منها معارفهم الطبية .
٣ - ظهور الاسلام ، وقيام الحضارة



الطبيب والفيلسوف
العربي الكبير ابن سينا .

العربية على أساسه ، وتحكم مبادىء الدين واخلاقياته ، وأحكامه في شؤون الدولة والعلاقات بين الأفراد .

٤ – قيام الدولة المترامية الأطراف عن طريق الفتوحات الاسلامية ، وما استتبع ذلك من حروب واتصالات بحضارات جديدة ، ثم ما نشأ عن كل ذلك من ضرورة وضع نظم لادارة هذه الدولة الكبيرة للتحكم في كافة شؤونها .

وقد دعا الاسلام الى الأخذ بالعلم بوجه عام بما في ذلك بالطبع ما يتصل بأمور الطب ، ولم يقف منه موقف العداء كما وقفت بعض العقائد ليس فقط في العصور القديمة ، بل ايضا في العصور الوسطى ، فقد اطلق الاسلام العلم من عقاله ، وحث المؤمنين على طلبه اينما كان ، وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين او التجربة وبين السحر ، واثر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكي وغيرها مما

حققت فائدته تجارب الأولين ، ودعا الناس الى طلب العلاج والتداوي والعناية بابدانهم . وكان ذلك منذ نشأة الاسلام الأولى ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ما انزل الله من داء الا انزل له شفاء »(٦) .

واستمرت رعاية الاسلام للعلم ، ولم نسمع عن اضطهاد اصاب عالما في ظل الدولة الاسلامية لشأن من شؤون العلم . ويمكننا القول بوجه عام - ان العمل بالشريعة الاسلامية ، وما اقتضته من اساليب في الحياة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض يكسب الانسان اسمى مراتب السعادة الصحية والنفسية والعقلية .

ولقد كان من تقاليد المهنة الطبية منذ نشأتها توارث هذه المهنة أبا عن جد ، مثلها مثل كثير من المهن والصناعات ، ولقد استمر هذا التقليد خلال العصور المختلفة للطب العربي ، حيث امتازت بعض الأسر بتوارث هذا الطب ، ولعل اشهر هؤلاء اسرة « بختيشوع » التي مارست الطب في ظل الدولة الاسلامية أجيالا متعاقبة اثناء الخلافة العباسية ، ومنهم ايضا اسرة « ابن زهر » التي توارثت الطب في الأندلس ، وأشهر أفرادها « أبو مروان عبد الملك بن زهر » ونبغ منهم عدد كبير في الفترة بين القرن الحادي عشر وابتداء القرن الثالث عشر .

أجمعت التقاليد على احترام مهنة الطب ، وعمل الطبيب ، ورفع مكانة ممارسيها غير المسلمين منهم والى اسمى المراتب ، فقد دعا الرسول الكريم الى التطبب على الحارث بن كلدة . واستعان خلفاء بني امية بالأطباء امثال « ابن آثال » ، الذي كان نصرانيا ، وكان طبيبا لمعاوية ، وقد كرمه وقربه ، و« ابو الحكم الدمشقي » وابنه « الحكم » وحفيده « عيسى »(٧) » . ومنهم ايضا « ابن ماسرجويه الطبيب البصري ، وكان سريانيا في زمن عمر بن عبد العزيز . اما خلفاء العباسيين فقدكرموا اسرة « بختيشوع » الفارسية الأصل ، كما اشتهر في زمنهم اطباء من غير المسلمين امثال « حنين بن اسحق » و« اسحق بن حنين » ، و « يوحنا بن ماسويه » ، وقد بلغوا اسمى مراتب التكريم في زمانهم .

وكان من الولاة العرب ايضا من اتخذ طبيب بلاطه من الأطباء اليهود ، كما فعل صلاح الدين الأيوبي مع موسى بن ميمون الذي كان رئيسا للطائفة اليهودية في مصر ، ثم دخل في خدمة السلطان صلاح الدين . ولو لم يكرم الولاة المسلمون العلماء اليهود ما نبغ احد منهم ، اذ ان كثيرا من الأطباء اليهود كانوا يلاقون في اوروبا الاضطهاد ، ولم يكن لهم هناك حق دخول الجامعات حتى وقت قيام الثورة الفرنسية .

ولقد بلغ من تكريم مهنة الطب ان وصل ممارسوها الى اعلى مراتب وظائف الدولة الى جانب الطب ، فكان منهم من ولي الوزارة ، ولعل اشهرهم الرئيس ابن سينا . وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغا جعلهم يتبارون مع الخلفاء في الانفاق عن سعة ، والعيش في ابهة ورخاء(٨) .

ومنهم من ولي مناصب القضاة ، مثل القاضي ابن المرخم يحيى بن سعد الذي اصبح قاضي القضاة بمصر ، كما صار سعد الدين بن البطريق بطريركا بالاسكندرية .

ولقد سمحت تقاليد العرب للنساء بممارسة مهنة الطب والمداواة ، ولم يقف الاسلام ضد اشتراك المرأة في هذا العمل ، كما سنورد القول عند الحديث عن دور نساء العرب في ممارسة الطب والتمريض - بمعنى ان النساء العربيات قد مارسن فن التمريض في مختلف العصور ، ولم يكن فن التمريض عندئذ متميزا كفن قائم بذاته ومنفصلا عن فنون الطب والمداواة في الأزمنة الماضية كما هو الحال في وقتنا الحاضر ، حيث تتوفر له فئة خاصة متخصصة للتمريض لها مهام محددة تختلف عن واجبات الأطباء ، مع انها جزء أساسي مكمل لها .

ولقد لعبت بعض النساء ادوارا سجلها مؤرخو الطب العربي منذ فجر الاسلام ، ومن اولى النساء « رفيدة الأسلمية » التي اتخذت خيمة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . كانت تداوي فيها الجرحى . وقد ذكر ابن اسحق في السيرة « كان رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد جعل سعد بن معاذ الذي اصيب في يوم الخندق في خيمة لامرأة من بني اسلم يقال لها رفيدة كانت تداوي بها الجرحى ، وقد كان رسول الله قد قال حين اصابه السهم بالخندق « اجعلوه في خيمة رفيدة حتى اعود من قريب » .

وكانت نساء المدينة يشاركن الرجال في

الطبيب العربي الشهير البيروني يجري جراحة قيصرية لأمرأة حامل .

ذلك ان امه ماتت في المخاض وهي حامل به فشق بطنها واخرج عنه ولقب بقيصر



الغزوات . فقد جاء في تاريخ الاسلام للذهبي ، ان ام عطية الأنصارية قالت : « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، فكنت اصنع لهم طعامهم ، وأخلفهم في رحالهم ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

وفي اواخر الدولة الاموية كانت زينب طبيبة بني اود من الماهرات في صناعة الكحالة عالمة بصناعة الطب والمداواة ، ولها خبرة جيدة بمداواة الام العين والجراحات وشهرت بذلك بين العرب .

وكانت اخت ابي بكر بن زهر ، وكذلك ابنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور ابي يوسف يعقوب ، وكان المنصور لا يرضى ان يتولى قبالة اهله الا اخت الحفيدة او بنتها

وكانت « ام الحسن بنت القاضي احمد بن عبد الله الطنجالي » من أهل لوشة بالأندلس تجود القران . وتشارك في فنون الطب وتنظم الشعر .

وساهمت النساء في مساعدة الطبيب في عمله ، فقد جاء ان الزهراوي كان يقف خلف ستار خفيف ، ويعطي ارشاداته المناسبة للقابلات في الحالات العسرة من التوليد.

ومع ان العلم العربي كان علما موسوعيا ، بمعنى ان الأطباء العرب مارسوا الى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة ، والفلك ، والكيمياء ، والصيدلة وغيرها ، فقد عرفوا ايضا مبدأ التخصص في المعالجة ، ولعل المجال قد اتسع لذلك في ممارسة الطب داخل البيمارستانات حيث كان يقوم على كل قسم من اقسام البيمارستان اطباء متخصصون من الباطنيين او الجراحين او الكحالين او المجبرين وغيرهم ، وكان اذا دعا الحال استدعى طبيب من قسم اخر غير القسم الذي فيه المريض للاستشارة .

ولقد عرف العرب في تنظيم ممارسة مهنة الطب صورا من ضبط الحقوق والواجبات ، على نحو ما تقوم به في العصر الحاضر بصورة دقيقة قوانين النقابات الطبية وقواعد ممارسة المهنة .

فمن ناحية حقوق الأطباء ، كانت اجور الأطباء بالبيمارستانات (المستشفيات) تنظم على أساس المرتبات الشهرية ، وكانت لهم الأجور الاضافية مقابل اعمال اخرى كالتدريس او الترجمة . ويذكر المؤرخون قصصا نستطيع ان نستخلص من ثناياها الحرص على الزام المرضى القادرين بتسديد اجور الاطباء مقابل تنازل الاطباء بحكم واجبهم الانساني عن اجور معالجة الفقراء(١٠).

اما من حيث واجبات الأطباء ، فقد تفوق

العرب في رسم تقاليد تضمن اداءهم لهذه الواجبات على خير وجه ، وتضمن للمجتمع محاسبتهم اذا اخطأوا عن جهل فاضح او عمد . ولعل اول صورة لذلك ما جاء في الحديث الشريف من تحديد لمسؤولية الطبيب في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ومن تطبب ولم يعرف عنه طب فهو ضامن » . بمعنى انه مسؤول عن عمله محاسب عليه .

ثم يبلغ تنظيم الرقابة على ممارسة مهنة الطب اوج عظمته في التقاليد التي استنها العرب في اجازة الطب ، وفي نظام الحسبة على الأطباء والصيادلة . فقد كان الأطباء في اول عهد الدولة الاسلامية يمارسون الطب بعد قراءته على اي طبيب من مشاهير الأطباء او في كتب الأقدمين ، او يمارسونه اخذا عن ابائهم ثم يباشرون الصناعة بعد ذلك بغير قيود ، واستمر الحال على ذلك حتى نظم الخليفة العباسي المقتدر بالله هذه الممارسة ، اذ فرض على من يريد ممارسة الطب ان يؤدي امتحانا لاجازته ، وأمر بأن يكف عن ممارسة الطب جميع الاطباء الا من يمتحنه « سنان بن ثابت » . وفي ايام الخليفة المستنجد بالله فرضت رئاسة الطب ببغداد على امين الدولة بن التلميذ امتحان الأطباء .

وقد نظمت الرقابة على الأطباء والصيادلة ، وكان يقوم بها مأمورون يطلق على كل منهم « المحتسب »(١١) (وهو الذي ياخذ على الأطباء عهد ابقراط .....) وعليه ان يتأكد من ان الطبيب لديه جميع الات الطب مما تحتاج اليه صناعته ، وان يمتحن الأطباء فيما جاء في كتاب حنين المعروف « محنة الطبيب » . اما الكحالون فيمتحنون في كتاب « حنين بن اسحق» عشر مقالات في العين » في معرفتهم تشريح العين وعدد طبقاتها وامراضها ، وفي تركيب الاكحال وغيرها مما يلزم لمعالجة العين . اما المجبرون فلا يحل لأحدهم ان يتصدى لذلك الا بعد معرفة المقالة السادسة من « كناش بولص لايحين » ، وان يعلم عدد عظام الآدمي ، وأما الجراحون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس في الجراحات والمراهم ، وان يعرفوا التشريح ، واعضاء الانسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب ، ليربح ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير ، ويكون معه كذا .. وكذا .. من المباضع والأدوات الجراحية المختلفة .

ونظمت ايضا عملية الحسبة على الصيادلة بما يضمن (ان مراقبة الله في ذلك . وينبغي للمحتسب ان يخوفهم ويفطنهم بالعقوبة والتحذير ، ويعتبر عليهم عقاقيرهم كل اسبوع)(١٢) .

خصال الطبيب عند ابن رضوان

واذا كان ابقراط هو الذي وضع العهد للطبيب بأن يلزم الطهارة ، والفضيلة في ممارسة مهنة الطب ، فقد التزم العرب بهذا العهد ، بل اضافوا تقنينا اوفى لآداب المهنة كما فعل « أبو الحسن علي بن رضوان » — العالم المصري الذي جعله الحاكم رئيسا على سائر الاطباء ، فأراد ابن رضوان ان تجتمع في الطبيب سبع خصال .(١٣)

١ — ان يكون تام الخلق ، صحيح الاعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرواية ، عاقلا ذكورا ، خير الطبع .

٢ — ان يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف اليدين والثوب .

٣ — ان يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من امراضهم .

٤ — ان تكون رغبته في ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما يلتمسه من الاجرة ، ورغبته في علاج الفقراء اكثر من رغبته في علاج الأغنياء .

٥ — ان يكون حريصا على التعليم ، والمبالغة في نفع الناس .

٦ — ان يكون سليم القلب عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله من امور النساء والأموال التي شاهدها من منازل الأعلياء فضلا عن ان يتعرض الى شيء منها .

٧ — ان يكون مأمونا ثقة على الأرواح ، لا يصف دواء قتالا ، ولا يعلمه ، ولا دواء يسقط الاجنة ، ويعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

وتتساءل الدكتورة آمنة مراد « أليست هذه الصفات اشمل مما جاء في قسم ابقراط » . وتتمنى لو ان كليات الطب العربية جعلت من هذه الخصال التي ارتآها ابن رضوان قسما لخريجيها واسمته قسم ابن رضوان .

ولعل من تقاليد العرب التي التزموا بها في الطب حقا ما وصى به ابن رضوان في وصفه للطبيب : «يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه » .

واستمد العرب من صفاتهم الموروثة المتميزة بالمروءة ما حفزهم على الالتزام بهذا السلوك ، حتى في انتصاراتهم .. ولعل فيما كان من اتصالات معروفة بين الأطباء العرب وبين اعدائهم من الفرنجة اثناء الحروب الصليبية ما يؤكد ان التقاليد العربية الأصيلة حرصت على ذلك كل الحرص وهناك أربع سمات امتاز بها الطب العربي ، وأصبحت من التقاليد الرفيعة ولا تزال باقية حتى اليوم وهي :

١ – طرق التعليم الطبي الاكلينيكي القائم على مشاهدة المرضى ، والاستماع بدقة الى شكاويهم ، واستقصاء احوالهم ، وزيارة منازلهم . ومن وسائل ذلك المرور على اسرة المرضى بالبيمارستانات (المستشفيات) حيث كان شيوخ الأطباء يصاحبون تلاميذهم يفسرون لهم احوال المرضى ، ويشيرون عليهم بالعلاج ، وهي وسيلة التعليم الطبي السليم القائم على المشاهدة والتجربة ، وليس نقلا عن الكتب والمخطوطات فقط .

٢ – المناقشات العلمية التي كانت وسيلة التعليم الطبي . كان اساتذة الطب يجلسون وأمامهم الكتب الطبية في قاعات مخصصة يتباحثون مع تلاميذهم . كما ان نظام تقديم رسالة او اطروحة تمهيدا للحصول على إجازة علمية هو نظام عربي . [وكان الطالب يسأل من كل ما يتعلق بما في رسالته من الفن ، فاذا احسن الاجابة اجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة] .(١٤) .

٣ – المؤتمرات العلمية اذ عرف العرب نظام الاجتماعات التي كانت تعقد في دار الحكمة ببغداد ، وهي الدار التي انشأها المأمون عام ٨٣٠ م ، أو دار العلم التي أنشأها الحاكم في القاهرة عام ٩٩٥ م ، فكان على الطلبة والعلماء ان يحضروا الى تلك الدور وغيرها ليجتمع بعضهم ببعض .

٤ – وفي مجال التأليف العلمي التزم اغلب الأطباء العرب تقاليد منهجية في كتاباتهم ، بالحرص على ذكر مصادر ما ورد فيها عمن سبقوهم من المؤلفين . فنجد الرازي مثلا وغيره يذكر في مؤلفاته الباب او الفصل الذي استمد منه المادة ثم يميز اراءه وخبرته الشخصية بلفظة « لي »(١٥) .

هذه لمحات مما التزم به الأطباء العرب من اداب وتقاليد مكنت لطبهم ان يرتفع الى المكانة السامية التي بلغها خلال قرون عديدة اتيح للانسانية فيها ان تنتفع به أجل انتفاع . ■

الهوامش

١ – "History of Pharmacy", By Kremers and Urding. —

٢ – "History of Pharmacy", By J. Liuer. —

٣ – "Irees Science and Modern Science", By Singer. —

٤ – راجع في تفصيل ذلك تاريخ العلم لجورج شارتون . الترجمة العربية ، جـ ٢ القاهرة ١٩٥٩ – الفصل الثالث عشر : الطب اليوناني في القرن الخامس ، وطابعه الأبقراطي .. ص ٢١٥ – ٢٤٥ .

٥ – منقول من عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ، جـ ١ ، ص ٢٥

٦ – عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد مريضا ، فقال الا تدعو لك طبيبا . قال وانت تأمر بهذا يا رسول الله ؟ قال : نعم – (ان الله لم ينزل داء الا وانزل له دواء) » . عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٢٤٨ نقله التيجاني الماحي ص ٤١ .

٧ – كان ابو الحكم طبيبا عالما بانواع العلاج ، سيره معاوية مع ولده يزيد طبيبا الى مكة عندما سير يزيدا اميرا على الحج في ايامه . وذكر القفطي ان ابنه الحكم عمر مائة سنة وخمس سنين ، اما عيسى بن الحكم فكان خبيرا بالطب .

٨ – أحصى القفطي ما جمعه جبريل بن بختيشوع في ثلاثة وعشرين عاما ، خدم فيها الرشيد ، وثلاثة عشر عاما ، في خدمة البرامكة . فكان يوازي ثمانية وثمانين الف درهم وهو ما يوازي بتقدير هذه الأيام ٢,٥ مليون جنيه – القفطي ص ٩٩ . نقله التيجاني الماحي ص ٥٥ .

٩ – تاريخ البيمارستانات في الاسلام – احمد عيسى ، ص ٣٧ .

١٠ – مثل ما نقله ابن ابي اصيبعة (ج ٢ ص ١٣٠) عن رجل من خراسان ادعى الفقر حتى ارتضى الطبيب « ابن وصيت الصابي » ان يعالجه مقابل ثمانين درهما ، فلما ثبت كذب ادعائه للفقر رفض علاجه .

١١ – تاريخ البيمارستانات في الاسلام لأحمد عيسى ص ٥٢ .

١٢ – المصدر السابق ص ٥٧ .

١٣ – د . امنة خيري مراد ، لمحات في تاريخ الطب القديم ، ص ٢٨٧ .

١٤ – تاريخ البيمارستانات – لأحمد عيسى – مصدر سابق – ص ٤٣ .

١٥ – دراسات في المنهج العلمي لدى الأطباء العرب . عرب موسى وابو ريان – مجلة الاسكندرية الطبية ص ٢٧ ، عام ١٩٧٢

شجرة الدر

سلطانة مصر

جوتس شريجليه



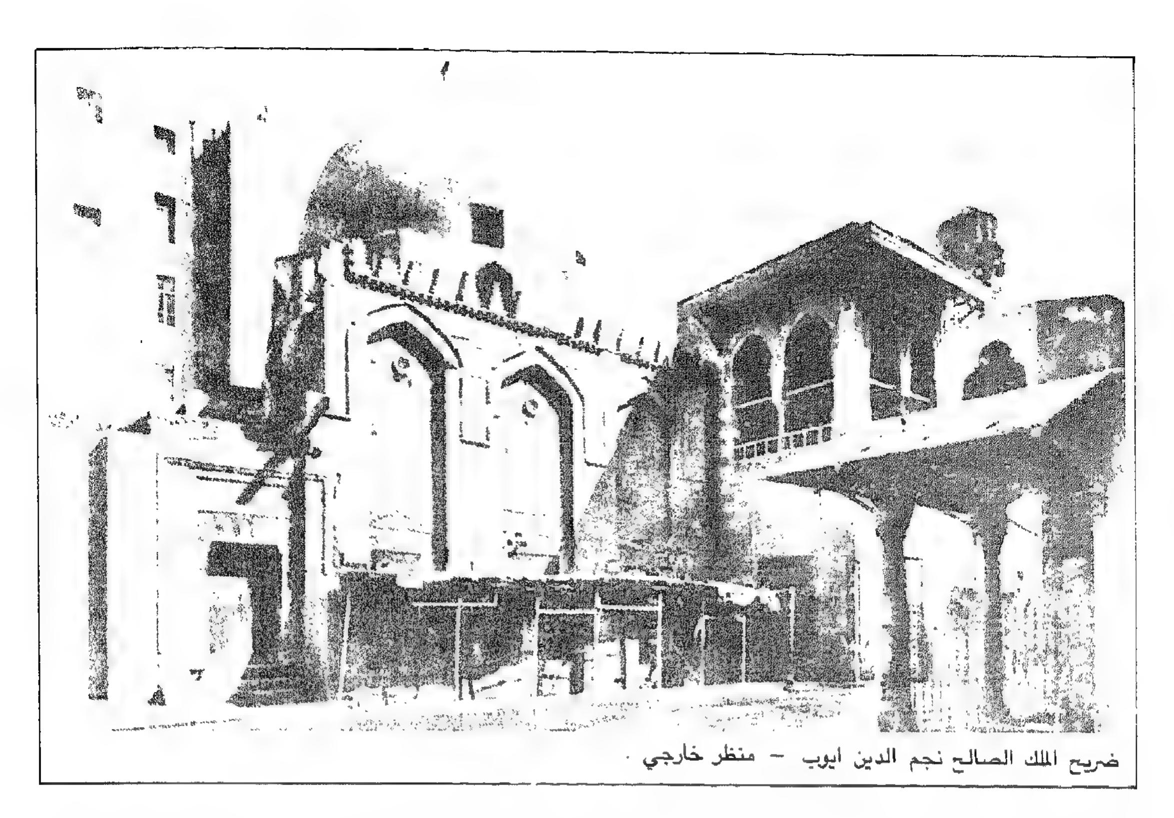
تحدثنا كتب التاريخ الاوروبيـة أن لويس التاسـع ، ملك فرنسا ، قام على رأس حملـة صليبية في عام ١٢٤٩ بهدف الاستيلاء على بيت المقدس عن طريق القاهرة ، وأن جيوش الصليبيين قد منوا بهزيمة نكراء على مقربة من المنصورة : وفي هذه الموقعة سقط لويس التاسع أسيراً في أيدي المسلمين . لكن ترى من يدري أن ملك فرنسا قد وقع أسيراً في يد سيدة – هي الوحيدة من بين بنات جنسها التي اعتلت عرش مصر الاسلامية ، واحدة من قلة شحيحة من نساء تربعن على عرش السلطنـة في تاريـخ الاسلام بأجمعه ؟ إنها شجرة الدر .

كانت تركية ، مملوكة في الأصـل للملك الصالح ، سلطان الأيوبيين . أعتقها وتزوجها بعد أن ولدت له ابنه خليلا .

وعندما رست جيوش الصليبيـين ، وعلى رأسهـا لويس التاسـع ، على أرض مصر ، واستولت على دمياط ثم اتجهت صوب القاهرة ، كان الملك الصالـح يرابـط بجيوشـه عنـد المنصورة ، بينما يعاني مرضاً عضالا . وقد وافاه الأجل في موقف شديد الحرج بالنسبة لوطنه : فهناك جيش صليبي ذو بأس وشدة يتأهب للاستيلاء على مصر ، وفي سوريا سلاطنة الأيوبيين ينتظـرون سقـوط القاهـرة في يد الفرنسيـين للتحالـف المغـرض معهـم ، ثم طورانشاه ولده الوحيد الذي على قيد الحياة وولي عهده كان في أقاصي شرقي المملكة بعيدا عن مصر .

في هذا الموقف الحافل بالأخطار تتـولى شجرة الدر زمام الأمر بحزم وهمة . ولكي تتـلافى حدوث زعزعـة في صفـوف الجيش المصري ، لا سيما وأن جيش الصليبيين مقبل عليه ، أخفت نبأ وفاة زوجها ، وبعثت بجثته سراً إلى القاهرة في قارب نيلي . بينما أمرت الأطباء بمواصلة عودة خيمة السلطان ، صباح مساء ، وظل الطعام يحمل كذلك إلى خيمـة السلطان الراحل . أما الذين كانوا يطلبون زيارة الملك الصالح فكانوا يصرفون بحجة أن حالته الصحية لا تمكنه من استقبال أحد . وفي نفس الوقت بعثت لاستدعـاء ولي العهـد طورانشاه . وظلت تخفي نبأ موت السلطان مدة ثلاثة أشهر ولم تعلن عن وفاته إلا بعد حضور ولي العهد . وقد أحدث ظهور السلطان الجديد موجة عارمة من الحماس ، فتدفقت جيـوش المسلمين على الأعداء مما كان له أكبر الأثر في هزيمة الصليبيين وأسر ملكهم .

وبدلا من استغلال هذا النصر ، ومواصلة الكفاح ، لطرد الغزاة المعتدين عن أرض الوطن طرداً لا رجعة فيه ، راح طورانشاه يتمرغ هو وبطانته في أحضان البذخ ومسرات الحياة . أثار سلوكه هذا حنق المماليك الأتراك ، الذين كانوا



ضريح الملك الصالح نجم الدين ايوب – منظر خارجي .

يؤلفون نواة الجيش المصري ويشكلون باطراد عامل السلطة الفعلية في الدولة . فمن ثم قتلوا طورانشاه آخر حكام مصر المتحدرين من أسرة صلاح الدين ، وولوا شجرة الدر أمور السلطة .

أما أن تعتلي امرأة سلطة القاهـرة في العصور الوسطى ، فحدث خارج عن المألوف بالنسبة لوجهة نظر المسلمين التقليدية تجـاه المرأة . ولقد انتهز الأيوبيون في سوريا هذه الفرصـة لدعـم مصالحهـم المناوئـة لمصر ، مستنكرين الاعتراف بسلطنة سيدة « كانـت مملوكة سابقاً » وكان لاستعمالهم لهذه العبارة أثر كبير في القاهرة أنذاك . ولكي تدحض حجج السوريين باعتراضهم على « سلطنة امرأة » ، قرر امراء مصر لأسبـاب تمليهـا الظـروف السياسية أن تتنازل أرملة الملك الصالح عن عرشها لأيبك ، قائد الجيش ، وبعلها الثاني فيما بعد .

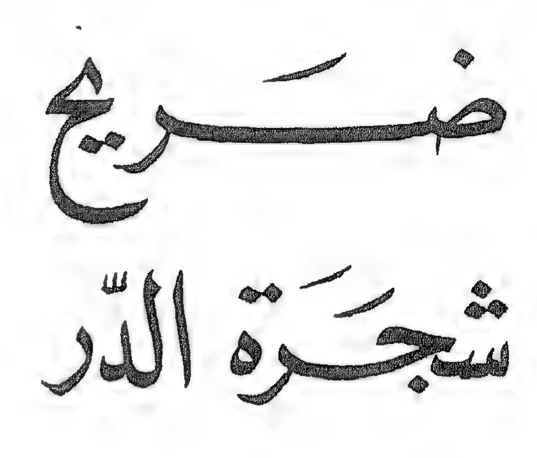
وهكذا كانت شجرة الدر التي انفـردت بحكم مصر مدة ثلاثة اشهر نقطة تحول في تاريخ المملكة : فبعض المؤرخين العرب يعتبرها آخر سلاطنة الأيوبيين ، والبعض الآخر يرى أنها اولى حكام المماليك . وتشير الدلائل إلى أنها كانت الحاكمة الفعلية في مصر طيلة سبع سنوات هي مدة سلطنة أيبك ، زوجها الثاني . فكانت ولا زالت تلقب بالسلطانة ، وتصدر مراسيـم السلطنة حاملة توقيعها . إلا أن علاقتها ببعلها أيبك صارت بمرور الزمـن تزداد سوءاً على سوء . وعندما علمت انه يمهد من وراء ظهرها للزواج من ثانية بلغ السيل الزبى ، فتخلصت منه باغتياله . وقد أثار هذا العمل الدموي اضطرابات شديدة في القاهرة استمرت أياماً طويلة قتلت أثناءها شجرة الدر في القلعة . ولا زالت مقبرتها التي أقامتها أثناء حياتهـا ماثلة حتى الآن في شارع الخليفة بالقاهرة . وهي تعد من الآثار النادرة للفن الاسلامي لفسيفسائها البيزنطي الطابع .

أدت هذه النهاية المفجعة إلى أن صارت غرابة تربع امرأة على عرش السلطنة موضوعاً تتناقله الروايات والقصص الشعبية ، ناسجة حول القليل من الأنباء التي خلفها معاصرو السلطانة خيوطاً جديدة من الخيال تكاثفت عبر القرون .

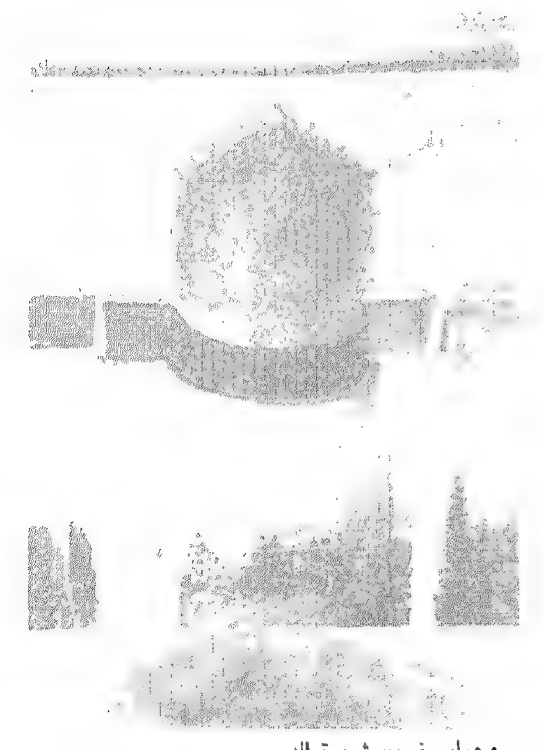
وقد بلغت الأساطير الشعبية التي كتبت عن شجرة الدر ذروتها في تاريخ « سيرة الظاهر بيبرس » ، وما نشأ عنه في القاهرة من قصص في أواخر القرون الوسطى . وفي هذه الأساطير

تتحول صورة السلطانة المسلمة حتى تصبح في مراتب الأولياء الصالحين . فمن ذلك أن والدها الخليفة كان قد أهداها وهي في ربيعها السابع رداءاً ثمينا تحليه اللالئ والدر . وعندما دخلت عليه به قال لها : « إنك الآن ، يا بنيتي ، كشجرة الدر » فصارت منذ ذلك الحين تدعى بشجرة الدر . كانت تقية صالحة ، تتصدق على الفقراء ، وتحج إلى مكة ، وقد اهداها الخليفة مصر ، فأسست المحمل . بل إن ما لجأت إليه من بطش في أواخر حياتها ما هو إلا نابع من إخلاصها للزواج ، وهو تحقيق لوصية زوجها الأول الذي كان أحد الأولياء .

وعندما احتك العالم العربي بالمدنية الاوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين لم تمر الأفكار والأهداف السياسية الحديثة على شجرة الدر مر الكرام ، بل اعتبرتها حاكمة مسلمة تمكنت بحصافتها وشدة بأسها من إنقاذ مصر من جيوش الاعتداء الصليبية – وإنها لشخصية تاريخية تستحق أن تتبوأ ما يليق بها من مكانة في عصر القومية العربية وتحرر المرأة في العالم العربي .



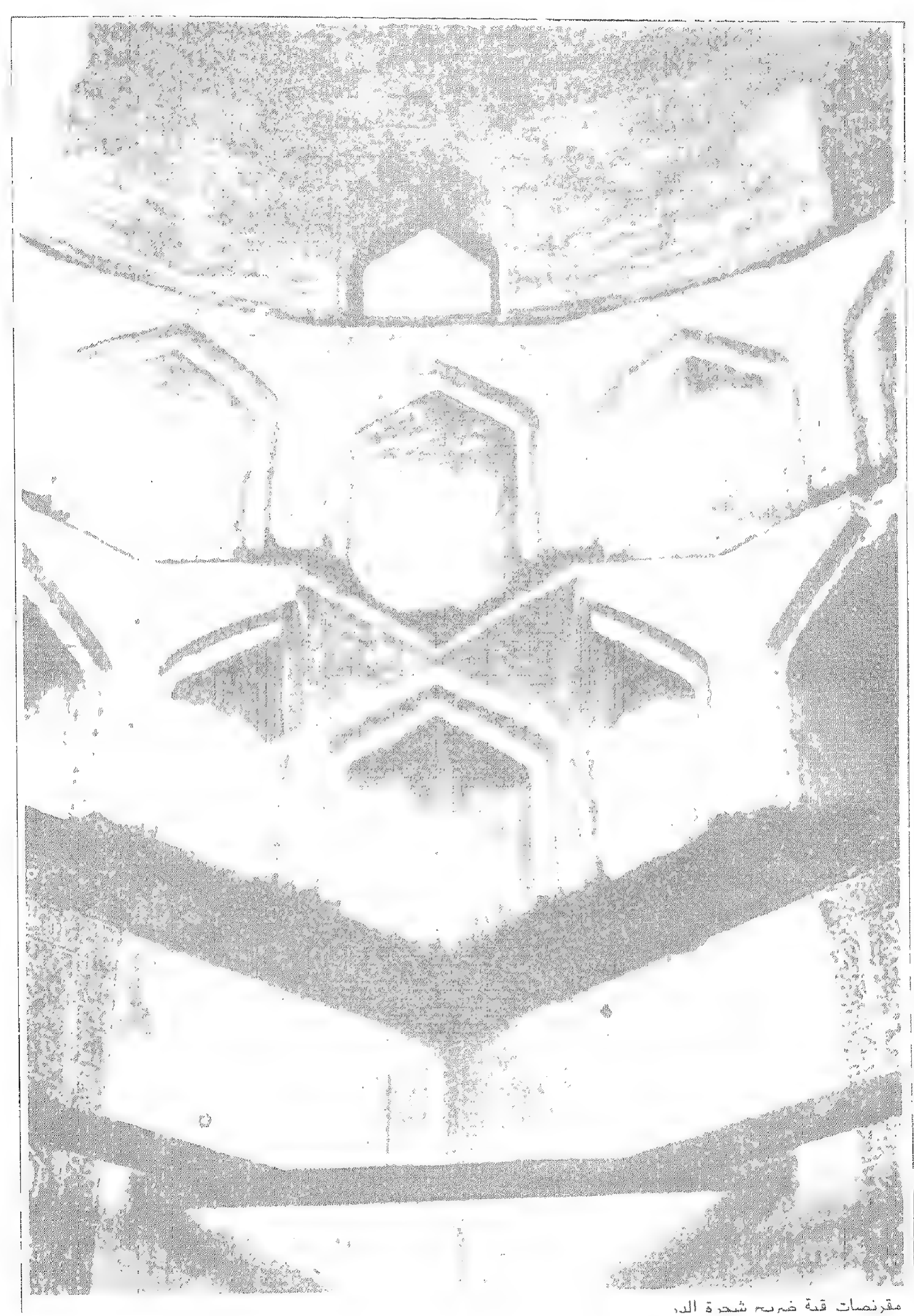
ديتريش براندنبورج



محراب ضريح شجرة الدر

كانت شجرة الدر جارية الخليفة المستنصر ، اشتراها ثم أهداها للملك الصالح نجم الدين الأيوبي فاتخذها زوجة له . وقد تمكنت بعد مقتل ابنها طورانشاه وتردد المماليك في اختيار من يتبعه على كرسي الحكم أن تدفعهم إلى تنصيبها سلطانة على الديار المصرية . وبذا كانت المرأة الوحيدة التي تربعت عرش مصر لمدة لا تزيد على بضعة شهور ، وإن يكن دون موافقة أمير المؤمنين ، خليفة بغداد . فقد رفض واستنكر أن تتولى الحكم وبعث – لأمراء مصر – كتاباً يقول فيه : « إعلموا ، إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لا أفلح قوم ولوا أمورهم إمرأة ؟ » .

ظلت شجرة الدر رغم خلعها سلطانة في



مقرنصات قبة ضريح شجرة الدر

الواقع ، فقد تزوجت خليفها على العرش المعز أيبك ، مؤسس اسرة المماليك البحرية التراكمة ، وسيطرت عليه سيطرة تامة . ولكنه ما أن قرر أن يخطب ابنة صاحب الموصل ، بدر الدين لؤلؤ ، حتى دبرت له – غيرة منها – من قام بخنقه ، وكان ذلك في عام ١٢٥٧ .

وفي صباح اليوم التالي لمقتل أيبك تولى ابنه نور الدين علي ، وكانت امه جارية ، عرش السلطنة ولم يعد عامه الخامس عشر . وكان أول ما حكم به أن تسلم شجرة الدر إلى أمه ، فما أن تم ذلك حتى انقض جواريها على شجرة الدر يضربونها بالقباقيب حتى الممات . ثم ألقيت جثتها من فوق السور إلى خندق القلعة ، وظلت على هذه الحال ثلاثة أيام قبل أن يدفن ما خلفته أنياب كلاب الشوارع من رفات تلك المرأة ذات الخطر والبأس فيما مضى بلا اي احتفال يليق بها في الضريح الفاخر الذي أقامته لنفسها أثناء حياتها .

أرخ تنصيب الضريح بخط نسخ محفور في لون أبيض على سطح إفريز يمتد فوق طاقة القبلة ، وإن يكن بتاريخ يشير إلى ما بعد وفاة شجرة الدر بقرنين أو ثلاثة ، وعله ارتبط بدفن أحد خلفاء بني العباس في مبنى ضريحها بعد أن مرت كل تلك الفترة على وفاتها . غير انه يبدو ان الذاكرة قد عادت إلى المناسبة الأصلية لاقامة الضريح فأضيفت إلى الكتابة المحفورة ذكرى شجرة الدر مع شيء من التكريم . وقد تم ذلك بخط نسخ تعوزه دقة النقل عن النص المحفور في الطبقة المختفية من تحته . ويذكر النص الجديد اسم السلطانة بالكامل مع كافة ألقابها في صياغة يرجح أن تاريخها الأصلي يرجع إلى الفترة القصيرة التي تربعت أثناءها شجرة الدر على عرش الديار المصرية ، وذلك بعد مقتل طورانشاه ، آخر سلاطين الأيوبيين في محرم عام ٦٤٨هـ ١٢٥٠م . ويزيد من ترجيح هذا الاحتمال أن اسم خلفها لم يرد في الصياغة المذكورة . ومن ثم فان « فان برشيم » (Van Berchem) و « كريزويل » (Creswell) يريان أن تاريخ بناء ضريحها يرجع إلى عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) .

ويذكرنا هذا الضريح ، من حيث شكله الخارجي ، بالهيكل المعماري الذي عرفت به أضرحة العباسيين . وهو مبني بالقرميد ، وطلاؤه متاكل بعض الشيء خاصة عند أجزائه الدنيا . وهو أوسع من أضرحة العباسيين إذ يبلغ عرضه من الداخل سبعة أمتار ، وفي كل من جهاته باب ما عدا جهة القبلة وهي التي يشكل فيها المحراب نصف قبة مسدودة . وأبواب الضريح قائمة الزوايا ، تدعمها كمرات خشبية عند كل من فتحاتها العليا ، وتعتليها فوق ذلك أقواس تخفيف مبنية بالقرميد . وقد ضاعت معالم الجمال الزخرفي للجهة الشمالية الشرقية من الضريح إذ التصق بها مباشرة جامع صغير أقيم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وكان بينه وبينها باب سد الآن بعد أن قامت لجنة حفظ الآثار بهدم الجامع المذكور فضلا عن بيت آخر كان يستند إلى الجهة الجنوبية من الضريح ، بحيث صار الآن – مرة اخرى – خالياً من كل الجهات . ويوجد على كل من جانبي النتوء الذي يشكله المحراب في الجهة الجنوبية الشرقية طاقة قليلة الغور من عقد فارسي . ويشكل حواف تلك الطاقات التي لا زالت في حالة جيدة حز مزدوج متعرج تتنصفه حشوة على شكل عقد فارسي (قارن بواجهة جامع الصالح طالاي) . ويوجد فوق تلك الحواف من جهة الداخل حليتان وسلطانيتان ، ومن جهة الخارج لوزنجتان على شكل هندسي زخرفي . أما الزوايا فمنحرفة في الجزء الأدنى ، وهي تنتهي في الشطر الأعلى بأربع طبقات ذات دلايات حجرية بارزة . ويرى من ناحية الجنوب الغربي فوق مدخل الضريح إطار مشابه من عقد فارسي على كل من جانبيه شبه طاقة صغيرة يحف بها بالمثل حز طويل على شكل عقد فارسي . ويوجد على الجانب أعلى الاطار الذي يتوج الباب الكبير للضريح وأشباه الطاقات الصغيرة لوزنجة وثلاث حليات سلطانية تمتد تباعاً من اليمين نحو اليسار .

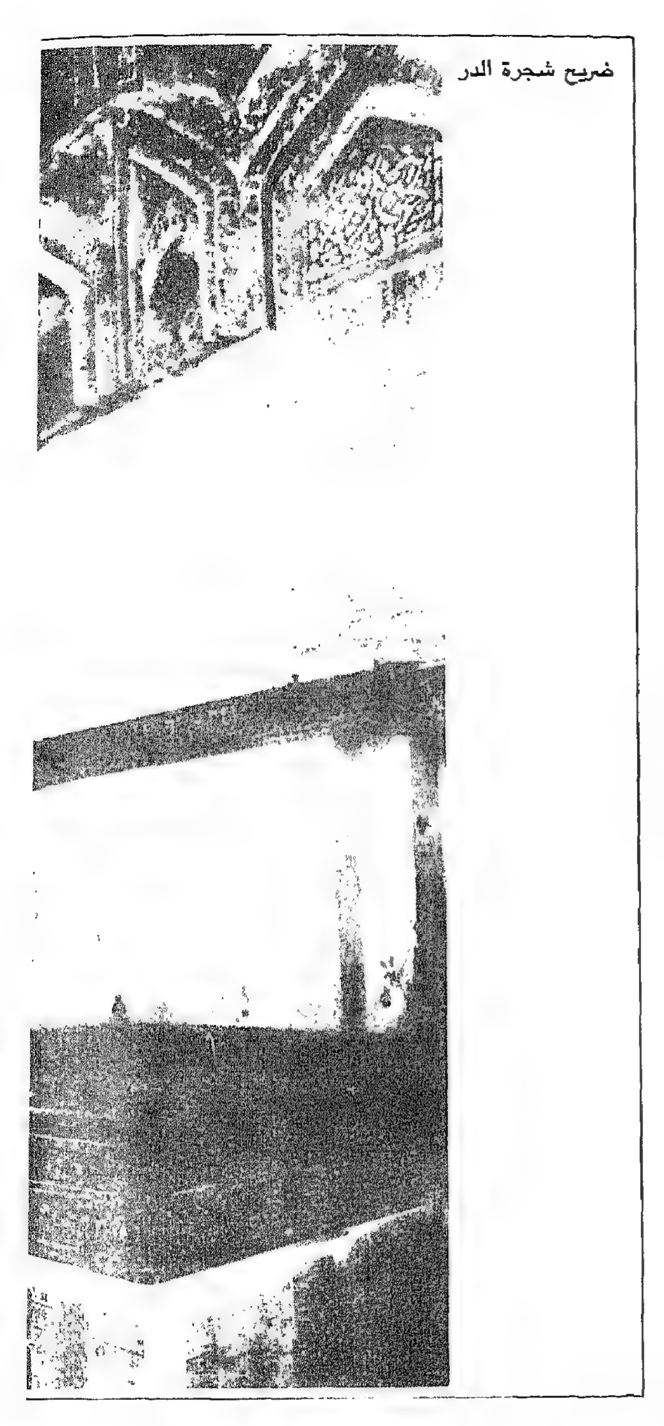
ولا زالت في أقصى اليسار طاقة خفيفة الغور يحف بها عقد فارسي بينما حافة إطارها الخارجي مفتتة . ويعلو هذا الجزء من الجدار الواجهة الشمالية الغربية بحوالي ستين سنتيمتراً .

وهو ما يرجح أن الأمر هنا يتعلق بالبقية الباقية من جانب ردهة مدخل تداعت ، وكان الهدف منها في الأصل بلوغ المدخل الرئيسي للضريح من ناحية الشمال الغربي . ويبدو أنه كان على يسار الطاقة الخفيفة الغور التي لم تبق بكاملها حتى اليوم ، حلية سلطانية ،

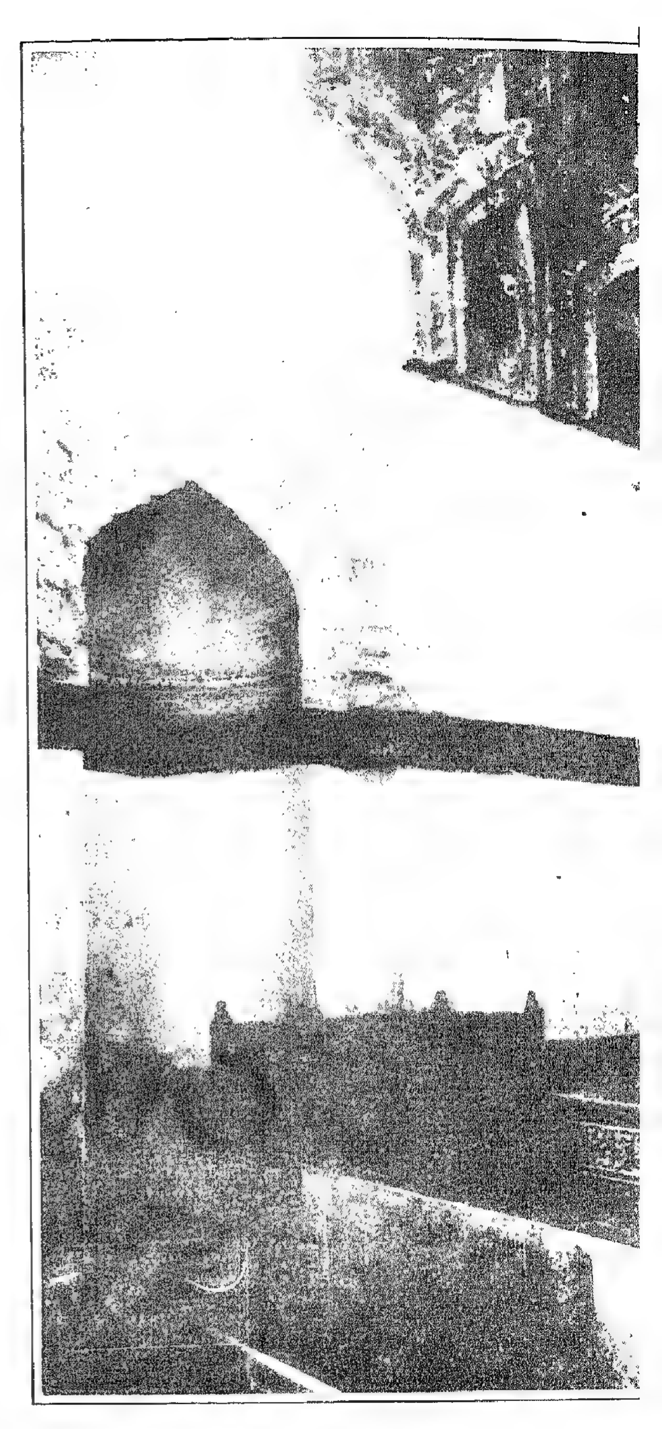
فشبه طاقة صغيرة ، ثم لوزنجة : هذا فيما إذا أخذنا بنظام المضاهاة كأساس لهذا الافتراض .

يصل بناء قبة الضريح عند زواياه سلمة منحرفة بميل . وقطاع القبة ذات الهيئة النادرة فارسي العقد في خطوطه الخارجية . ويبلغ ارتفاع القبة من أساس الضريح أربعة عشر متراً .

ويكسو كلاً من جدران الضريح من الداخل حشوة خشبية قائمة الزوايا يحيط بها إطار من الجبس مزدوج الخط أو بخطوط ثلاثة (كما هو الحال فوق المحراب) . وحواف تلك الحوائط الداخلية مزدانة بخطوط متعرجة ، أما منتصف تلك الجدران فمزخرف بعقود فارسية على نهج شبيه بما كانت عليه حشوة الجدار ، ومن ثم الطاقات ، في أضرحة العباسيين . وثلاثة من تلك الزخارف تشكل اطراً تحيط بمداخل الضريح ، أما الزخرف الرابع فيتخذ مكانه حول نصف القبة الخاصة بطاقة الصلاة (علماً بأن الطاقة الشمالية الشرقية قد رممت جزئياً) . وترتكز الأسطح المحاطة باطار فوق إفريز خشبي محفور فيه عبارات قرآنية بخط كوفي يدل بوضوح على أن مصدره هو العهد الفاطمي . ومع خلو هذا الافريز من كل تأريخ إلا أن « كريزويل » يرجح أنه قد أخذ عن القصر الغربي للفاطميين أو عن إحدى المنشآت المعمارية التي قامت في الفترة نفسها . وهذا الافريز مصاب بالتصدع في العديد من مواضعه كما أن به شقوقاً وفراغات : وقد قطع إلى اثني عشر جزءاً في الموضع الذي يدور فيه حول الطاقة بقصد تطويعه لها . ولم تزل عن هذا الافريز سوى من مدة قريبة طبقة من الملاط عليها خط نسخ مجسم . وفوق الزخارف المصيصية مباشرة يوجد إفريز آخر غطيت – فيما بعد – الكتابة الاصلية التي زينت عليه بموتيفات أوراق الشجر ، وهي التي تبرز في بعض مواضعه بخط نسخ مدهون بلون أبيض سميك . أما الدلايات الكلسية الخاصة بالبناء فموزعة على صفين كل منهما به ثلاث طاقات بينها نوافذ ذات فتحات ثلاث للضوء . وتخترق قاعدة القبة ثمان فتحات صغيرة ذات عقد فارسي . بينما اصطبغت الدلايات ببقايا زينة ملونة بأخضر باهت . وللمحراب أهمية خاصة ، إذ أنه يعد أقدم نموذج ، لا زال قائماً حتى اليوم ، يدلنا على استخدام الفسيفساء المذهبة المصنوعة من


ضريح شجرة الدر

الزجاج البيزنطي الأصلي في مصر . ولم يحتو من قبله على مثل هذه الفسيفساء سوى جامع عمرو بن العاص ، حسب الأنباء التي خلفها لنا الأسلاف ، غير ان بقاياها أبعدت على يد الحكيم في عام ٩٩٧ حين أمر آنذاك بزخرفة جدران الجامع بزينة جديدة . وقد ندر



استخدام هذه الفسيفساء فيما أتى بعد ذلك من عصور في مصر : فهي لا توجد إلا بمدرسة قلاوون (قبة المحراب النصفية) عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥ م) وجامع ابن طولون (نصف القبة الخاصة بالمحراب ، شيدت عام (٦٩٦هـ - ١٢٩٦ م)، ومدرسة طايبارس ، سنة ٧٠٩هـ (٩ - ١٣١٠م) ، ومدرسة أقبغا ، ٣٤ - ٧٤٠هـ (٣٣ - ١٣٣٩م) ، وجامع ست مسكه ، ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) .

وتعرض زخارف الملاط المذكورة عاليه ، وهي التي تحيط بنصف القبة وبها كتابات بارزة من فوق الافريز الخشبي الفاطمي ، تعرض ترصيعاً لأشرطة متداخلة تتوسطها شجرة ذات فروع متشعبة ؛ غير أنه لا وجود هنا للاناء الذي غالباً ما يوجد في مثل هذه الموتيفات كي تنبثق عنه الشجرة . والخلفية مذهبة ، وفيما عدا ذلك نجد اللون الأخضر بارزاً ، وكذلك الأسود ، ثم يأتي الأحمر في مرتبة أقل وأخف منه ، أما ثمار الشجرة فيشير إليها در مرصع .

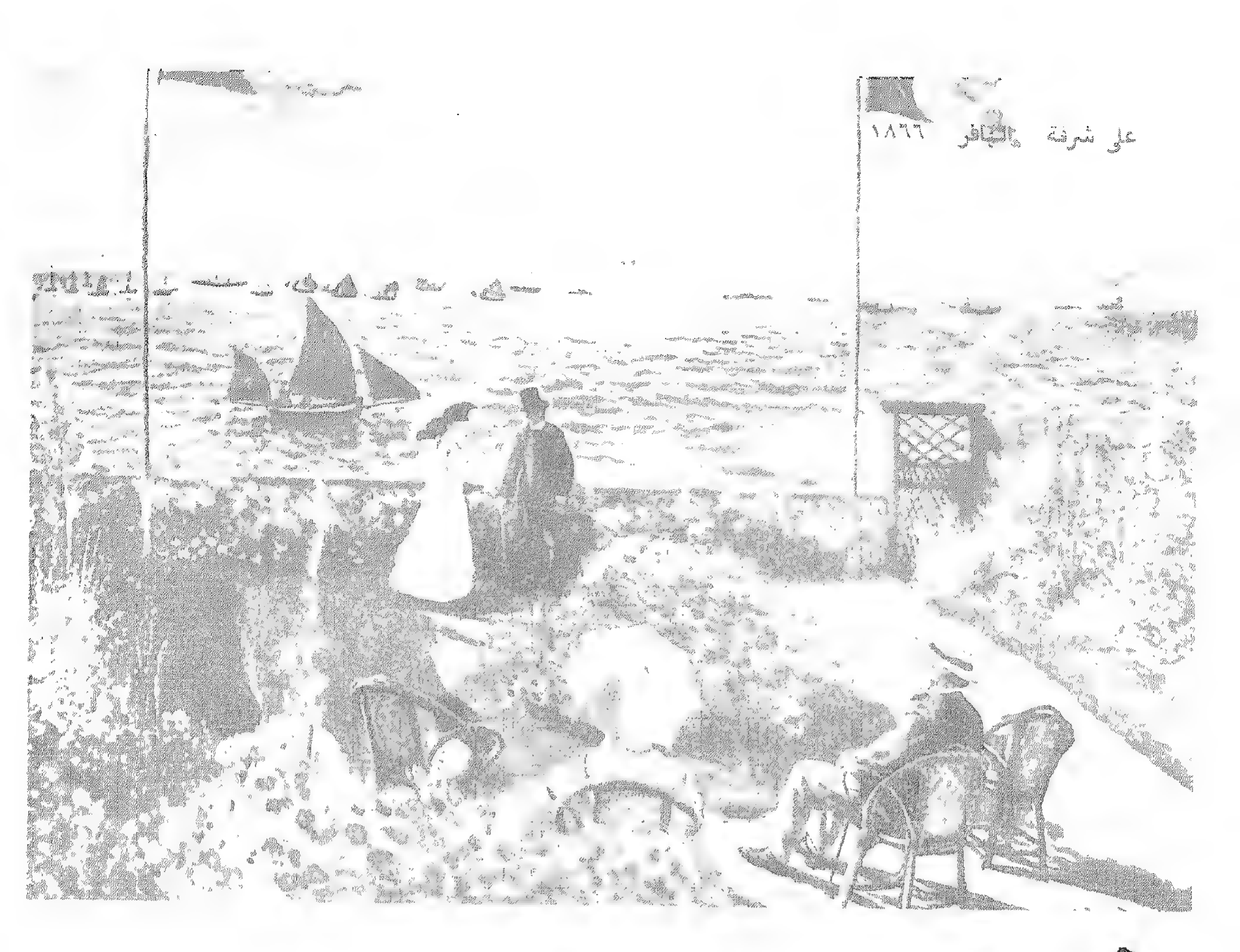
ويوجد في منتصف الضريح تابوت حديث العهد ، وعلى جوانبه ثبتت ألواح من الخشب الرخو عليها كتابة بخط النسخ بارزة ترجع على الأرجح إلى التابوت القديم . وتحتوي كتابات النسخ ذات الصفوف الثلاثة على آيات قرآنية فضلاً عن الحكمة القائلة : « أنت يا من تقف إلى جوار لحدي ، لا تعجب لحالي ، فقد كنت مثلك بالأمس ، وغداً ستكون أنت مثلي ، أي مستراح لطيف لمن أتى بالحسنات ... »

وتذكر كتب الأسلاف أن المدفون الذي لم يعن اسمه هنا ، هو « ابن هرون الرشيد » أي انه «سيدي محمد» . (ا . ف . ميرون A.F. Mehren, Cahirah og Kerafat, 1870, 11,46

القاهرة والقرافة ، ١٨٧٠ ، الجزء الثاني ، ص ٤٦) . وهو يعد من خلفاء العباسيين في القرن الخامس عشر أو منتصف السادس عشر ، وهكذا انتهى به المطاف إلى الراحة الأخيرة في جوف هذا الضريح .

ومن بين أولئك الخلفاء الذين صار لهم بعد استيلاء المغول على بغداد في عام ١٢٦١م سيادة ظاهرية في القاهرة خليفتان يحمل كل منهما ذاك الاسم وإن لم يرد أي من اسميهما فوق لوحات القبور بضريح الخلفاء العباسيين (٨٠٨هـ = ١٤٠٦/٤م ، ومن ثم ٩٤٥هـ = ١٥٣٩/٣٨م) . وقد عثر أثناء عمليات الترميم على تابوت بسيط في طاقة الباب الشمالي الشرقي ، وقد سجل اسم السلطانة على غطائه بخط قصير مزركش .

■



على شرفة هافر ١٨٦٦

كلود مونيه

الرسام الذي أنار الظلال

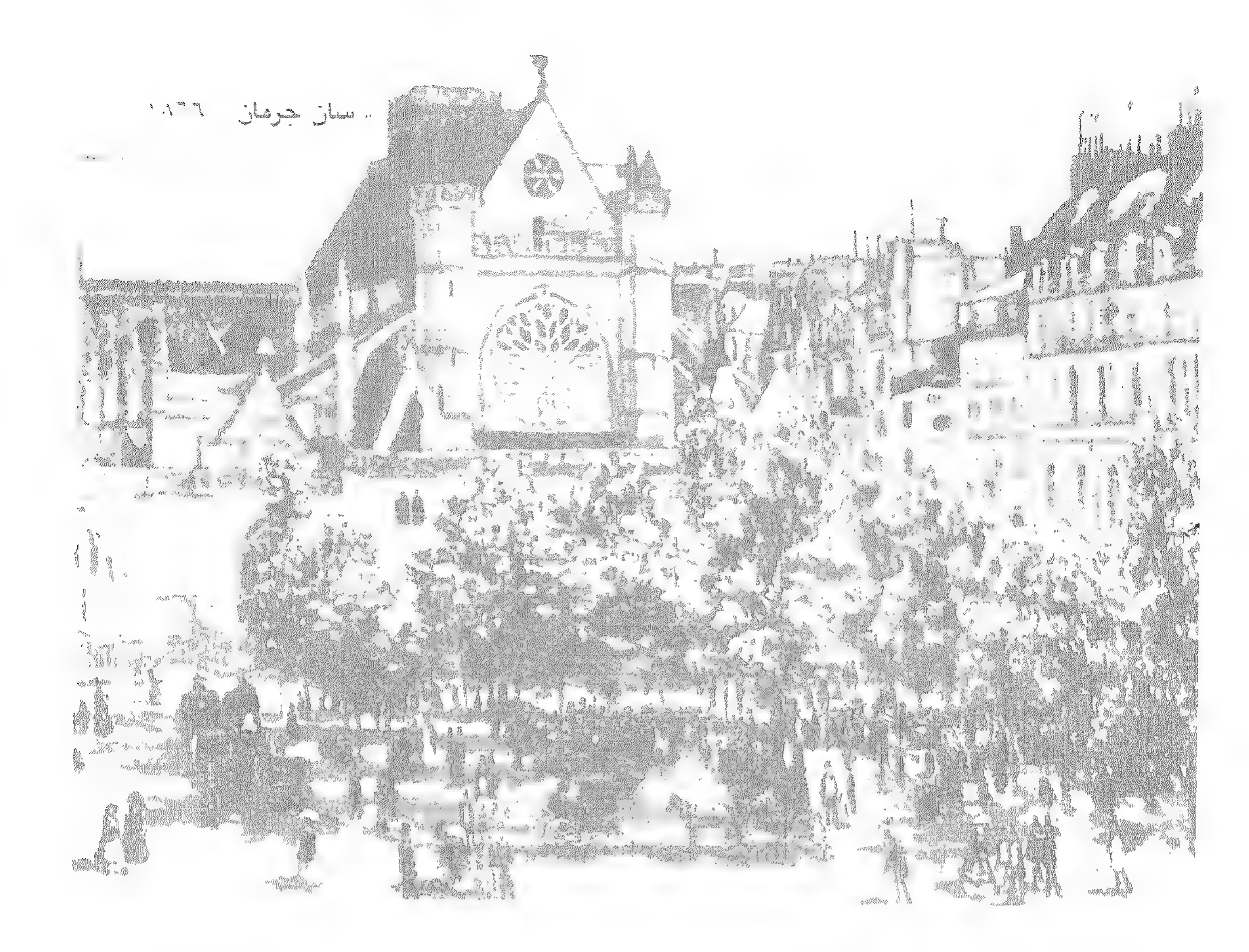
إعداد : مها الحسيني

○ لو اكتفى كلود مونيه برسم « كاميل ذات الثوب الأخضر » و « النساء في الحديقة » وبعض اللوحات الكبيرة الاخرى لكان يعتبر بين أهم الرومنطيقيين الفرنسيين .

ولو لم يكن إلا فنان الضوء المتلون في آلاف الوجوه الطبيعية لكان المؤسس الفذ للانطباعية .

ولو لم يترك لنا سوى المشاهد والوجوه في مختلف ميادين الطبيعة والعمران لكان بين معاصريه أكثرهم موهبة ولكان أحد أكبر الفنانين في العالم .

غير ان مونيه قد ذهب بعيداً .. غامر في سلوك طريق لم يسبقه إليه أحد من قبل ولا تبعه إليه أحد من بعد . وبسبب ذلك ، أصبح مؤسس هذه المدرسة في الرسم أعزل ووحيداً . إذ ذاك راح يعمل في جو يشبه الجنون ، اعترف به في إحدى رسائله ، حين



أراد إدراك ما لا يدرك والتعبير عما لا يعبر عنه .

لقد أقام لنفسه ، داخل أسوار حديقته في جفرني عالماً خاصاً كان فيه المهندس والجنائني والسيد والعبد ... وظل خلال خمس وعشرين سنة يراقب دونما انقطاع عالم الانعكاسات هذا : « عالم يرى فيه بطريقة معكوسة » .. وتشكل آخر مرحلة من إنتاجه الدستور الفني الذي اعتمده . لقد أوضح فيها كل حقول الرسم وتجلت فيها كل عبقريته وتحرره من كل تقليد ، واتجاهه نحو المجهول . هذا الذي كان يؤمن بالسحر ، أصبح مفكراً حلولياً وشاعر الانعتاق المطلق وفنان المرحلة المسماة نيلوفر .

لقد نسب إلى مونيه أنه كان رائد التجريد ؛ لكننا نجد في فنه انعتاقاً واسعاً وآفاقاً شعرية جديدة يصبح من الخطأ معها ، الاكتفاء بمنطلق أعماله دون تتبعها الى نهايتها .

بدايات وأساتذة

ولد كلود اوسكار مونيه في باريس في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٠ . وبعد خمس سنوات ، انتقل مع عائلته إلى الهافر وقد ظهرت عنده موهبة فنية مبكرة ، فدرس الرسم عند « أوشار » من سنة ١٨٥٦ إلى ١٨٥٨ . وقد شغف بادىء بدء بالرسم الكاريكاتوري وأحرز نجاحاً بارزاً في هذا المجال . لكن رسام الطبيعة اوجين بودان الذي يعتبر أول أساتذته ، رسخ عنده حب الطبيعة .

في سنة ١٥٨٩ ، عاد مونيه الى باريس ، وفيها قضى وقته في « الصالون » حيث تأثر برسام الطبيعة والحفار بماء الفضة شارل دوبينيه ، وأيضاً بالرسام غوستاف ترويون . لكنه لم يتابع الدراسة في الاكاديمية . وخلافاً لما نصح له الجميع به . درس على طريقته الخاصة ، متردداً من وقت لآخر إلى محترف شارل جاك والاكاديمية السويسرية . حيث تعرف

إلى كاميل بيسارو وأصبحا صديقين . ولقد أغنت أعمال دولاكروا كما النقاشات التي كانت تحصل في مطعم « الشهداء » ، ثقافة مونيه وتجربته الفنية .

وفي خريف ١٨٦٠ ، طلب إلى الجندية وذهب إلى الجزائر ، من حيث لم يلبث أن عاد في سنة ١٨٦٢ بعد أن دفعت عائلته رسوم تحريره من الجندية .

في هذه الفترة تنقل مونيه في الهافر ورسم المشاهد الطبيعية في الجبل وعلى شاطئ البحر .

وفي خريف ذلك العام ، عاد إلى باريس ، والتحق بمحترف غلير ، الاستاذ في معهد الفنون الجميلة . وهناك تعرف إلى فريدريك بارزيل وبيار رونوار وألفرد سيزلي الذين ربطته بهم صداقة استمرت طوال حياته . وخلال عامي ١٨٦٣ و ١٨٦٤ تعرف إلى أعمال كل من الفنانين إدوار مانيه وغوستاف كوربيه . وعانى في هذه الفترة من الضائقة المادية ، فعائلته أوقفت المساعدة عنه منتقدة انقطاعه عن الدراسة الاكاديمية الجادة وانصرافه إلى عمل حر متنقل ، اذ ذاك اندفع يعمل لساعات طويلة في غابة فونتينبلو او على ضفاف السين أو في النورماندي ، وتولى أصدقاؤه تقديم المساعدة المادية له وخاصة الرسامين كوربيه وبارزيل .

في سنة ١٨٦٦ أحرزت لوحته « كاميل دونسيو » التي عرضها في « الصالون » نجاحاً لا بأس به . وفي هذه الفترة وضعت له كاميل التي لم يكن قد تزوجها بعد ، ولداً سماه جان . ومجدداً ، مر مونيه بوضع مادي صعب ، وتنقل كثيراً بين باريس والنورماندي هرباً من دائنيه أو في محاولة لبيع لوحة أو حصول على مساعدة صديق . ورغم كل ذلك ، تمكن من إنتاج لوحات جيدة .

وفي سنة ١٨٧٠ تزوج كاميل . وبعد اندلاع الحرب الفرنسية - البروسية ، قضى الرسام فترة في بلجيكا عاد بعدها إلى باريس وكان ذلك في نهاية ١٨٧١ .

لقد تخلص مونيه من حالة الفقر الشديد التي كانت قد دفعته إلى محاولة الانتحار ، لكنه بقي يعاني من صعوبات مادية كثيرة . وبالرغم من ذلك ، بقي يرسم بانتظام . وفي سنة ١٨٧٤ نظم مونيه مع اصدقائه رونوار وسيزلي وفيسارو وسازان وادغار دوغا وبرث موريزو أول معرض ضم لوحات هذه المجموعة من الرسامين . ودفع عنوان لوحة لمونيه : « إنطباع : طلوع الشمس » أحد الصحافيين الى إطلاق صفة « الانطباعية » على فئته ، ولم يكن ذلك يخلو من شيء من السخرية . وقد ذكرت صحيفة الفيغارو حينذاك ، ان أصحاب المعرض لم يستقبلوه بجدية ، رغم انهم تمكنوا من بيع عدد من لوحاتهم . ومن ثم تتالت المعارض : في سنة ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، لكن مونيه لم يشترك في بعض المعارض الأخيرة .

بعد ولادة طفله الثاني ، ميشال ، ساء الوضع الصحي ، لزوجته كاميل ، وما لبثت ان توفيت عام ١٨٧٩ . بعدها عاد مونيه إلى حياته الاولى يفتش عن « الانطباعات » . وتعتبر الأوقات التي قضاها في بواسي وفاراجوفيل ودياب وبورفيل وآثروتا من أفضل المراحل بالنسبة إليه . وبعدها استقر في جيفرني ، وكان ينتقل أحيانا إلى الوسط . وتحسن وضع مونيه المادي بشكل تام ، وعرض أعماله عند دوران - روال ، وفي غاليري جورج - يوتي وأحرز نجاحا بارزاً .

في سنة ١٨٩٠ ، اشترى منزل جوفرني ، وبعد سنتين تزوج مدام هوشورا .

انهمك مونيه في إعداد حديقته المائية التي رسمها باستمرار . ولم يكن يهمه أبداً أن يعتبروه أعظم فنان فرنسي على قيد الحياة . لقد ازدرى مثل هذا النجاح الذي اكتسبه بمرارة وتعب . كما استخف بالمديح والأمجاد التي أولاه اياها الفنانون والكتاب والشخصيات السياسية وبالاخص صديقه جورج كليمنصو . ولقد بذل مونيه قصارى جهده لكي ينجح ويتخطى النتيجة التي وصل إليها . فلم يقلل مرض عينيه المؤلم من عزيمته على العمل . وأخيرا توفي في جيفرني في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٦ .

العين الانطباعية المتوغلة

ارتبط اسم كلود مونيه بشكل وثيق بمصير المدرسة الانطباعية وبتكوينها وتطورها وتعاليمها .

وبالواقع ، كانت الحركة الانطباعية خاتمة ظافرة للمرحلة الطبيعية في القرن التاسع عشر ، كما كانت مدخلا للعصر الحديث . لقد ساهم



□ « **الغداء على العشب** » □ (٤١٨ × ١٥٠سم) . باريس ، متحف اللوفر . تعتبر هذه اللوحة مرحلة أساسية بالنسبة للمدرسة الانطباعية .
ابتدأها في شايي سنة ١٨٦٥ ؛ وقد شغلته فترة طويلة ، إذ رسم عدة نماذج لها .

مونيه بشكل أساسي في خلق هذا المناخ الفني وهذا المفهوم الجديد في الرسم : اكتشاف وجه جديد للواقع ، وجه ندي « هوائي » ، مشع ، حيث تتألق الألوان ببريقها الحاد ، وحيث تكتسب الطبيعة نفحتها الحيوية وتهتز بفرح في هذا الجو المتبدل . وقد قال مونيه ذات يوم : « اني أرسم كما يغني العصفور » . إنه يؤكد على عفوية الخلق عنده ، وعلى طبيعية موهبته . بهذا الشكل قلب مونيه مفهوم الرسم الحديث ، وأحدث انقطاعاً واضحاً بين كل ما رسم قبله ، وما أتى بعده .

في الفترة التي سبقت مونيه ، كان الرسامون - حتى أكثرهم قرباً من الانطباعية - يلجأون إلى الظلال غير المتميزة في لوحاتهم : كانوا يقسمون لوحاتهم هذه إلى مناطق نور وظل يعبر عنها غالباً بشكل بقع . وكانوا يحددون المناخ والزمن بصلابة تجمد اللوحة . كما كان الضوء يكشف عن جمال الشكل الخارق .

أما في الفترة التي تلت مونيه ، فقد أصبحت الظلال نفسها ملونة ، وحدد اهتزاز الضوء الشكل وألف مادة الموضوع نفسها . وتصبح اللوحة عندئذ جزءاً من الطبيعة ، يحدد وحدتها الجو الذي يغمرها . وكان يجسد هذا الجزء من الطبيعة في حركتها بشكل ينتقل بصرياً الصفة المؤقتة للمظهر الذي يكون في لحظة ما ، مختلفاً عما كانه قبلا وعما سيصبح في اللحظة التي تليها .

بالمقابلة مع لوحات مونيه ، يلاحظ ان لوحات دولاكروا بألوانها القوية ، ولوحات كورد المتميزة بأمانتها الهادئة ، تبقى تحتفظ بروح المحترف ، بينما تشير لوحات مونيه الى براعة اكاديمية . أما لوحات مونيه ، فهي تنقل بشكل مباشر الانطباع العابر الذي يحس به الرسام لدى احتكاكه بالطبيعة ، وتمجد اللون الذي ينفجر على اللوحة إلى آلاف الفواصل السريعة ، كما انها تعظم الضوء الذي يغمر الرسم ، وتلون حتى الظلال . إنها رؤية جديدة للعالم .

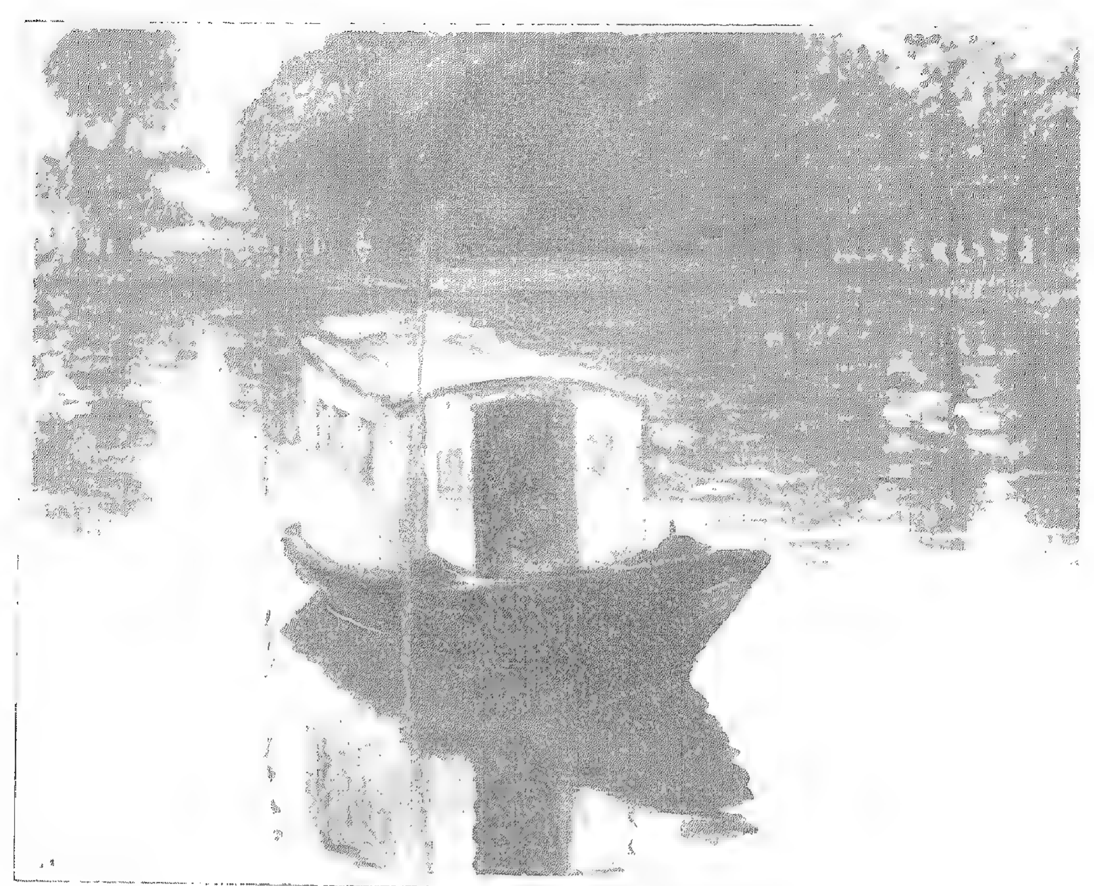
ولم يستطع الجمهور أولا أن يميز في هذه اللوحات سوى خطوط أولية بلا شكل محدد وذات ألوان اعتباطية . وقد وقف الرسامون حائرين امام أسلوب يطرح على بساط البحث مبادئ تقليدية في هذه الحداثة . ولئن امتدح أفضل النقاد طراوة الانطباع ، اسفوا لأن تبقى اللوحة غير مستكملة في مرحلة الدفق الاول . لكن هنا يكمن بالذات ابتكار مونيه وقوة أسلوبه : هذا التدفق الأول يعطي الانطباع العفوي ، وينقل بأمانة المظاهر الخارجية بشكل غير مألوف بعد : فكل عنصر في اللوحة يعيش في صميم جوه المحيط به ، خلال تموجات الضوء المتحرك ، وكل لون يؤثر في الالوان الاخرى بجانبه : وإذا تمعنا جيداً ، يتضح لنا ان انعكاس الأوراق يغمر الألبسة والوجوه ، وان السماء تكون المياه التي تنعكس عليها . وفي مثل هذه الطبيعة تختفي الأجواء المألوفة ، وتكتسب الظلال أجواء عديدة متداخلة بنسب من الضوء تنسجم والأماكن التي يغمرها نور الشمس .

ولم يحلل أحد قبل مونه ، بهذا الشكل العلمي والدقيق هذه الظاهرة البصرية ، فلم يصور أحد قبلا النبات أو التجمع السكني الذي يصبح على مسافة ما ، كتلا مبهمة في « اغبرار » الجو . وهكذا امتنع مونيه عن رسم الأشياء بالشكل المألوف لدينا ، فلا يجسد منها إلا ما يلتقطه هو . ولكي يحقق هذا الهدف الذي لا يرتبط بأي برنامج مسبق ، وينبع من طبيعته وإحساسه ، اضطر الى أن يوجد تقنيات جديدة للرسم ، ذلك لأن اساليب الفن التقليدي باتت غير ملائمة . وهكذا فان عناصر الرسم وثنائيته النور - الظل ، ومنظورية الخط المستقيم (Perspective Lineaire) والأجسام والالوان لم تعد تفي بمتطلبات هذا الفن الجديد .

لذا فقد أوجد مونيه فناً قوامه بعض ضربات الريشة المقطعة ، وبعض اللمسات والفواصل المؤلفة من الألوان الصافية ، التي تنقل حركية الجو والفضاء المقطع بالاهتزازات الضوئية : فتصبح الأجسام تجسيداً مادياً للهواء والنور .

حساسية وغنائية

ولعل أكثر ما يتجلى فيه نبوغ مونيه ، المفهوم التالي : لقد أدرك بالحدس ، ضرورة استخدام التجربة الحسية والعقلانية لدى المشاهد كشرط للتقدم في مجال الفن : أي محاولة إشراك المشاهد مباشرة في قراءة وتفسير اللوحة . وفي كل نتاجه الفني ، كان مونيه

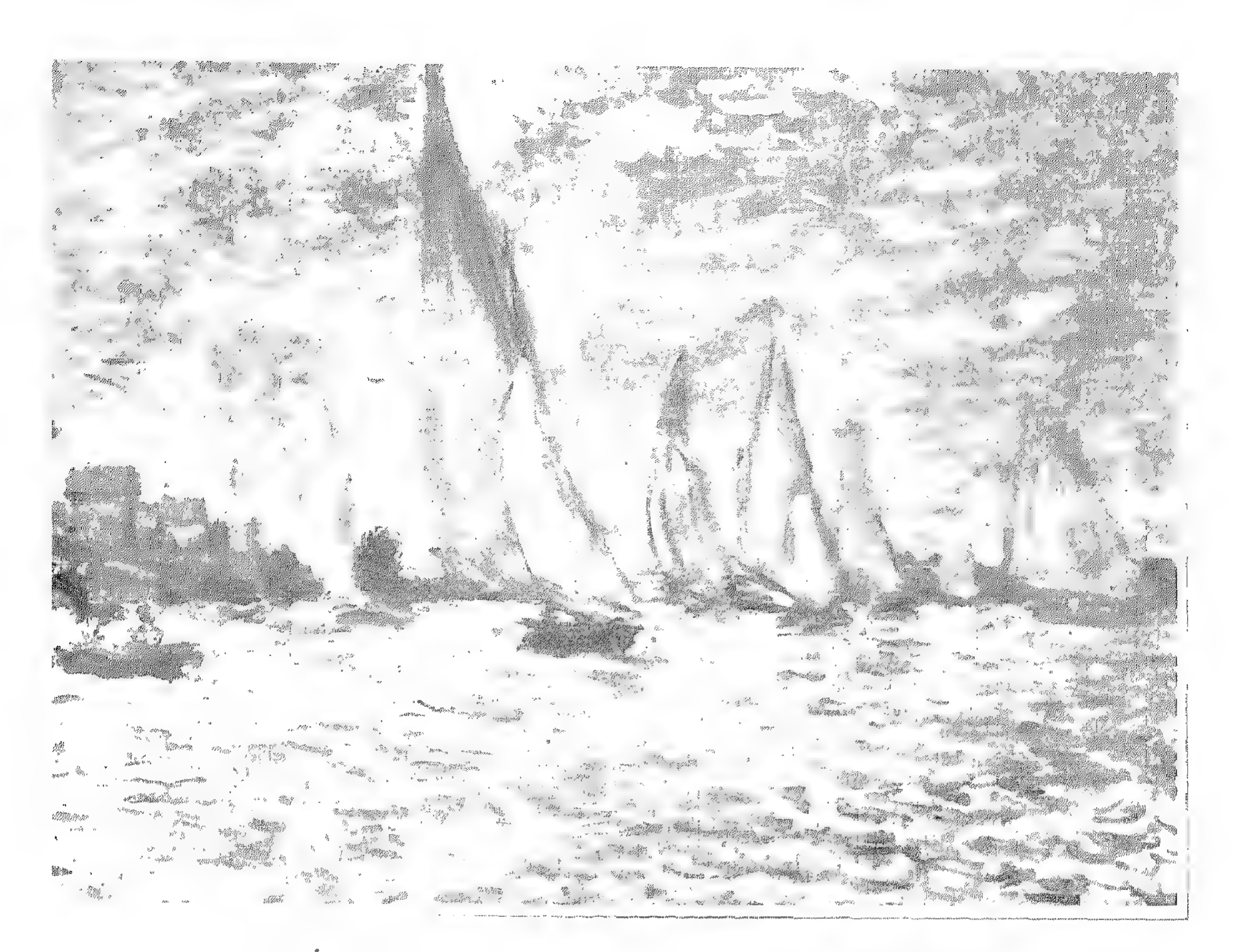


□ « المركب المحترف » □
(٥٠ × ٦٤سم) ، أوترلو (هولندا) ،
. Rijksmuseum Kroller - muller
لقد عاش مونيه ورسم على هذا المركب ، مقيما على نهر السين لالتقاط المشاهد وتصويرها . إن الانعكاسات على المياه والاهتزازات الضوئية الكثيفة ، جعلت من هذا المحترف العائم مأوى مثاليا للانطباعيين .

يبحث دائما عن تعميق تجربته بموضوع النور والوعي ، وعلى تقوية القدرة البصرية عند الذين تابعوا وتفهموا تجاربه الطويلة . ولكي يفرض هذه الطريقة الجديدة للرؤية ، كان عليه ان يناضل من أجل ذلك . ولكنه في نهاية القرن التاسع عشر ، لاقى التجاوب والدعم من قبل مجموعة من النقاد وهواة الفن ، مما شجعه على المضي قدماً في تطبيق مفاهيمه . ومنذ ذلك الحين ، تأكد مونيه من أن طريقة فنه الجديدة لم تكن مجرد تجربة غريبة وتافهة ، إنما اكتشافاً قيماً بحيث انه يزيد معرفة الآخرين للواقع .

ولقد أثار مونيه موجة من النقد الذي غالباً ما كان مجحفاً بحقه ، حين ركز اهتمامه على مسائل الرؤية وكيفية نقلها . فقد صوره النقاد مجرد عين ميكانيكية ، ومسجلا اميناً يعتمد العلمية في نقل الانطباعات البصرية . هذا النوع من النقد يهمل موهبة مونيه وحساسيته المرهفة وغنائيته . وفي الواقع ، فقد اهتم مونيه أولا بتحقيق هذا الائتلاف الفطري بين النظر والعاطفة وبين ملاحظة الواقع وتلوينه بنوع من الغنائية في عملية التحويل الفني : هذا هو أساس وقاعدة المدرسة الانطباعية .

أما بالنسبة لكلمة « انطباع » التي تتردد دائماً عن مونيه ، فهي لا تعني مجرد ظاهرة بصرية وحسب ، وإنما تشمل أيضاً الانفعال الذي تثيره هذه الظاهرة عند الرسام ، فيتركز الاهتمام على هذا الانفعال دون إطاره التقليدي . وكان مونيه يعشق الهواء الطلق ونور الشمس والحياة الضاحكة الفرحة لدى الأشياء والأفراد . وهو يمجد هذا الحب بسعادة فطرية ، ويتحمس أمام جمال تأملته عيناه وعبرتا عنه .



المنطلق : الثورة على القيود الاكاديمية

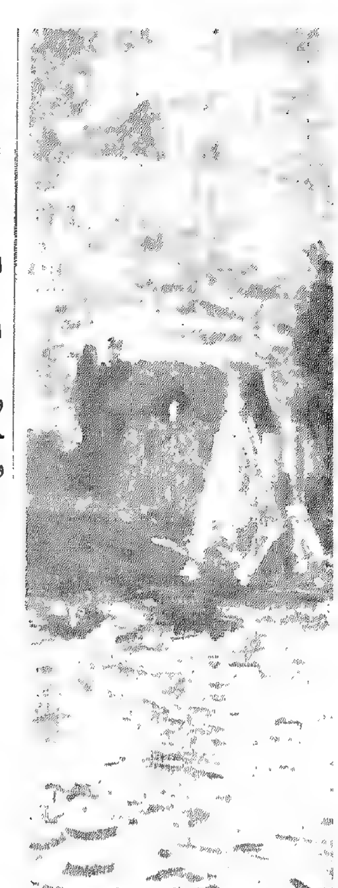
ابتدأ مونيه حياته الفنية برسم الكاريكاتور . ثم حالفه الحظ وتعرف في الهافر على اوجين بودان الذي أقنعه أن يرسم في الطبيعة ، وعلمه إمكانية الرسم المباشر ، الذي لا تعترضه العقبات ، وجعله يحس جمال الطبيعة حين تتغير بفعل الضوء . وعرف كيف يقنعه بأن « كل ما يرسم مباشرة وينقل في اللحظة نفسها يتمتع بقوة ، وفاعلية وحيوية لا نجدها في الرسم الذي يتم في المحترف . » وقد حرص مونيه طيلة حياته الفنية على العمل بموجب هذا المفهوم .

وصل مونيه إلى باريس ، عاصمة أوروبا الفنية أنذاك ، بتشجيع من بودان ، سنة ١٨٥٩ . وكان اختياره الفني واضحاً . إنه ينتمي بدون اي شك إلى جماعة رسامي الطبيعة . وقد أحس انه يقترب من أسلوب دوبينيه أكثر من اسلوب كورو أو ترويون . ولم يهتم للنقد الذي كان يتعرض له دوبينيه حتى من قبل المدافعين عن رسم المشاهد الطبيعية .

كما انه لم يأبه لما قاله الناقد تيوفيل غوتيه عن لوحات دوبينيه : « انها ليست سوى بقع متجاورة من الألوان » . ففي هذا الاتجاه بالضبط وجه مونيه اختياره .

وكان الرسام ترويون دائماً ينصح لمونيه بالتردد إلى محترفات الرسامين التقليديين ككلوتور مثلا . كما تعرض باستمرار لالحاح العائلة على أن يتتلمذ على يد « رسام رصين » .

لقد علم مونيه ، منذ البداية ، ان التعلم الاكاديمي يطفىء النور الطبيعي ويخمد حرارة الحياة ، وان التمارين كلها ، وخاصة رسم النور – الظل ، تشوه الانطباع المباشر الذي يشعر به الفنان لدى احتكاكه بالموضوع الخارجي . كل هذا كان يكفي ليرفض مونيه النظام المدرسي للفن الذي يتعارض وميوله . فقد كان هذا الرسام يكره كرهاً شديداً التعليم الاكاديمي الى حد انه فضل الذهاب الى الجزائر لتأدية الجندية كيلا يتابع هذا التعليم . إلا انه بعد عودته سنة ١٨٦٢ ، واظب على الاستماع الى المحاضرات التي كانت تلقى في محترف غلير .



« سباق الزوارق في أورجانتوي »
١٨٧٤ (٦٠ – ١٠٠سم) .
باريس ، متحف اللوفر .

الشمس ، الضوء ، اللون ، القرح ، الحركة ، تلك هي العناصر الرائعة التي قدمها نهر السين للانطباعيين . ولم يكن أجدر من مونيه على جمعها بهذا القدر من الدقة والحساسية .

قبل وصوله الى باريس ، التقى مونيه الرسام الهولندي جوكينغ الذي شجعه ايضا على المضي في الاتجاه الذي اختاره .

بقع ألوان متجاورة

وخلال السنة التي اجبر على تمضيتها عند غلير ، لم يهتم أبداً بمتابعة المحاضرات ، إنما حاول كلما سنحت له الفرصة ، أن يرسم في الطبيعة . وغالبا ما كان يرافقه بعض التلامذة الى شايي ليرسموا غابة فونتينبلو . من هؤلاء بازيل ، رونوا ، سيزلي .

لقد كان مونيه الوحيد بينهم الذي يتمتع بتجربة الرسم في الهواء الطلق ، متأثراً بدروس بودان وجوكينغ . وهكذا يكون مونيه منذ ذلك التاريخ قد اضطلع بزعامة هذا الاتجاه الجديد والذي لا يزال في مرحلة التكوين .

كان رسامنا يتقدم بعناد ودون كلل . فكلما بلغ مرحلة عمل على تخطيها والمضي بعيداً في البحث المتقد ، عن عالم المظاهر ومشاكل تصويره . خلال ما يقارب السبعين سنة ، لم يعرف نشاط مونيه الخلاق سوى التقدم . فقد بقيت عيناه بالرغم من المرض ، تنبهران دائماً بمشهد الطبيعة الحية والضاحكة من خلال تغيرات الضوء ، وإنارة الشمس المتحركة ، هذه الشمس التي أرادها مخلوقاً صديقاً ، لأنه يطلعه على جمالات الحياة ، ويعمل على إحياء النبات والأزهار التي يعشقها الرسام .

في سنة ١٨٦٤ ، أصبح موضوع « بقع الألوان المتجاورة » مسيطراً عند مونيه ، خصوصاً في اللوحات التي رسمها على ضفاف السين وبعد عودته الى هونفلوز . غير أن تأثير كوربيه استمر ظاهراً في رحابة الجو المهيمن على اللوحة ، والتوزيع المدروس مسبقاً للأضواء والظلال ، فقلص من حساسيته تجاه تناغم الأضواء ، ودفعه في الاتجاه المتعارف عليه .

في سنة ١٨٦٥ ، بلغ مونيه مرحلة النضج . ففي اللوحة الكبيرة « الغداء على العشب » أعاد رسم موضوع الرسام مانيه نفسه ولكن بعد أن حرره من كل الآثار التقليدية وعالجه حسب تقنية اللمسة المجزأة التي تجسد بشكل أكثر صدقاً اهتزاز الضوء . وقد اكتسبت هذه اللوحة المرسومة مباشرة في الطبيعة ، تألقاً في اللمسة وإشراقاً في الألوان لم تعرف حتى عند مانيه وكوربيه . أما اليوم ، فلم يبق من هذه اللوحة الضخمة سوى قسمين (متحف اللوفر . مجموعة اكنيان ، باريس) ، ونسخة مطابقة مصغرة (موسكو ، متحف بوكين) بالاضافة الى دراسة عن القسم الأيسر من اللوحة (مجموعة مولينو ، باريس) .

أما بالنسبة للوحة الموجودة في الاتحاد السوفياتي ، والتي تحمل تاريخ عام ١٨٦٦ ، فهي تبدو مضيئة أكثر من القسمين الكبيرين . وقد تكون نموذجاً أولياً عن اللوحة الأصلية ، أو نسخة كان قد رسمها مونيه غيباً عن اللوحة الكبيرة ، التي اضطر لشطرها إلى قسمين والتخلي عن القسم الأيمن .

ولقد دشنت اللوحتان « الغداء على العشب » و « النساء في الحديقة » عصر الانطباعية .

التقاط حركة الطبيعة

اقتفى أصدقاء مونيه أثره ، متحمسين لاكتشافاته في مجال الفن ، مشاركين إياه

النجاح الذي ظفر به . وتأثراً به ، تخلى رونوار عن كوربيه وسيزلي عن كورو . ثم لم يلبث بيسارو أن تبعهم . وقد استفاد سيزان ايضاً من هذه المحاولات الفنية الجديدة ليتخطى مرحلته الرومنسية . وهكذا تألفت مجموعة الانطباعيين الذين كانوا ينطلقون على ضفاف السين للبحث عن المواضيع التي تتلاءم مع حساسيتهم ومزاجهم . فرسموا : باقات الزهر ، وأضواء النهار ، وانعكاسات النور فوق المياه ، وحفيف الورق ، والغيوم المسرعة ، والضباب والدخان ، أي تلك اللحظات الطبيعية الاثيرية العابرة ، التي أثبتوا في لوحاتهم إمكانية التقاطها بحيوية ومهارة .

وعمل الانطباعيون معاً من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢ – ١٨٨٤ تقريباً . ومن ثم أخذ كل منهم يعمل على تعميق تجربته الشخصية .

أما مونيه ، المساهم الاول في وضع بواكير وأسس الاسلوب الفني الجديد ، فلم يشك انه هنا فقط تكمن الحقيقة ، هذه الحقيقة التي تتوافق مع مزاجه . لم تكن حياته الفنية سوى إدراك لهذه الطرق الجديدة في الرسم وإمكانية تطبيقها . في البداية ، لم تكن اللمسات الخفيفة والمتجاورة إلا في مناطق معينة من اللوحة ، وذلك حسب الموضوع .

أما بعد ذلك ، فراح يغطي كل اللوحة بهذه اللمسات ؛ ففي بعض الأمكنة من الرسم ، كالشواطئ النورماندية مثلاً ، لا يظهر الواقع سوى خفقات من الضوء . وهكذا يقذف مونيه من ريشته أعداداً كبيرة من الفواصل الصغيرة التي تضفي وجهاً موسيقياً على الانطباع البصري عنده ، وذلك خارج أي نوع من المنهجية . كان مونيه يحل مشكلة تصوير الضوء ، ليس عن طريقة تجميع مناطق من الألوان ، إنما بواسطة ضربات من ريشته تعطي تأثيراً عن الجمال المجهول للفن التصويري ، وعن الحيوية العضوية في المادة ، وهذان هما العنصران الأساسيان للصورة .

نهاية الانفعال الآني

لقد أذاب مونيه الشكل في هذا الاختلاج للمسات الخفيفة التي تظهر وكأنها معلقة في بحر من الضوء : وبذلك انتهى به الأمر إلى الابتعاد عن الطبيعة نفسها . وبسعيه وراء هدف يتعذر بلوغه ، وبتعلقه الشديد بتصوير النور ، فقد مونيه الاتصال بالأشياء ، وقلص إلى حد بعيد مجال الحركة .

تخلى مونيه عن تنقله الدائم في فرنسا سعياً وراء الانطباعات ، وانصب على ملاحظة موضوع معين تحت إضاءات متنوعة وخلال كل الفصول . ومن هنا ظهرت سلسلة لوحاته الشهيرة مثل لوحات « الحور » و « الرحى » (١٨٩١) . وتعتبر لوحة « كاتدرائيات روان » من أشهر هذه اللوحات (١٨٩٤) . ومع الوقت ، تأثر مونيه لفقدانه حيوية الصبا التي تتيح له التقاط آنية الانطباع ، وقد تألم أيضاً ، لعدم تمكنه من متابعة الشمس في رحلتها ، وعجزه عن إتمام أي لوحة واضطراره إلى إعادتها حتى يستطيع رؤية الأشياء بشكل دقيق . وبالفعل ، بدأ مونيه يغير طريقته في تصديه للواقع .

تحت تأثير المرحلة ما بعد الانطباعية التي تتميز بالرمزية وبالبحث عن معادلة بين الشكل والمضمون ، فسح مونيه مجالاً أوسع لتدخل الخيال في التصوير .

وقد توقف ذلك التناغم الفطري بين العين والاحساس ، بين الأمانة للواقع وتحويله إلى نوع من الغنائية – وهذا عنصر أساسي للمدرسة الانطباعية لصالح المرحلة التي تلتها .

لقد أظهر هذا التطور ، ليس فقط في اللوحات المرسومة في لندن والبندقية ، لكن في المجموعة الكبيرة التي خصصها للحديقة المائية في جيفرني ، والتي شغلت الرسام طيلة العشرين السنة الأخيرة من حياته .

إن المياه التي تبعث فيها صورة الشجر وانعكاس السماء ، لا تعكس فقط حياة الطبيعة في صيرورتها الدائمة بما فيها من فرح وحزن ، إنما تتراءى فيها أيضاً نفس مونيه الجزلة والحزينة ، الملتهبة بالوجد والاكتئاب .

وبهذه الصفحات الرائعة التي تضج بالخيال وبالألوان ، تنتهي المسيرة المبدعة لصاحب جيفرني ، وتنطفىء نظرات ذلك الرائد الذي « جعل رؤيتنا للعالم أكثر توغلاً فيه » ، كما قال كليمنصو

إعداد "قسم التوثيق والأبحاث"

اتفاق فرنسة وانكلترة على الحدود بين سورية ولبنان وفلسطين والعراق

على اثر مؤتمر سان ريمو الذي جرى فيه تقسيم البلاد المشرقية (العراق وسورية) ما بين الدولتين الاستعماريتين : بريطانيا وفرنسا ، اتفق مندوبا هاتين الدولتين وفق توصيات دولتيهما على وضع صيغ مفصلة لحدود أماكن السيطرة ، وذلك على قاعدة المصالح الاقتصادية والاستراتيجية لدولتي الانتداب . وفيما يلي ننشر وثيقة وضع الحدود ما بين المناطق التي وضعت تحت السيطرة الاجنبية ، والتي اصبحت دولا قائمة بذاتها ، للتذكير بوحدة هذه المناطق تاريخياً وجغرافياً وسياسياً ، وللتذكير مرة اخرى أن الاستعمار هو الذي افتعل هذه « الحدود » التي أصبحت حواجز فعلية أمام حركة التوحيد القومي العربي .

■ أنابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية الوزيرين المفوضين اسميهما أدناه ليحلا جميع الامور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانية العظمى على فلسطين والعراق ولفرنسة على سورية ولبنان في المجلس الأعلى الذي اجتمع في سان ريمو ، وقد اتفقا على الشروط الآتية :

١ – تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الفرنسوي ، أي سورية ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني ، أي فلسطين والعراق كما يلي :

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر إلى ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ، ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة إلى غاية رومالين كوى ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسوي فيترك فيها جميع الاراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بالبوكمال ويمتد باستقامة الى أمتار فجنوب جبل الدروز ، ومن هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز ، فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائراً إلى جنوب خط السكة الحديدية وموازياً له . وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسوي ويبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسوية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الامكان أن يمد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الاراضي المشمولة بالانتداب البريطاني وستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها

للفريقين المتعاقدقن ألساميين أن يبنيا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية ليتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحريا .

ومن الغرب يسير الخط ماراً داخل بحيرة طبرية فأول وادي المسودية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا ، وإلى نبعه ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسوية لغاية بانياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية .

وستوضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع أطراف البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسوي كصور وصيدا والمناطق الواقعة إلى الغرب وإلى الشرق من بانياس .

وتفصل التخوم بالمطلة بمفرق الماء في وادي الاردن وحوض نهر الليطاني ، وتسير جنوبا مع وادي الاردن فوادي فرعم ووادي كركرة اللذين يبقيان في المنطقة البريطانية فوادي البلاونة ، ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الفرنسوية ويصل الحد الى شاطئ البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة وتظل في المنطقة الفرنسوية .

٢ – تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة اشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بيناها في المادة الاولى وتتألف هذه البعثة من أربعة أعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية اثنين منهم ، وتعين الاثنين الآخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوي والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين .

وإذا وقع خلاف بين أعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الامم ويكون قراره قطعيا .

وتقدم تقارير البعثة النهائية عن الحدود الثانية التي عينت أخيراً وتربط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل أعضاء البعثة ، وتوضع ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات ، تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الامم ، وتحفظ النسختين الاخرين الحكومتان المنتدبتان .

٣ – توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الفرنسوية المنتدبة لأجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لئلا يقلل إبرازها لحيز الفعل ماء دجلة والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني .

٤ – توافق الحكومة البريطانية بالنظر إلى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة الى خليج الاسكندرونة على ان لا تفاوض أحداً بخصوص التنازل عنها ، أو تسليمه اياها قبلما توافق فرنسة على ذلك .

٥ – أ : توافق الحكومة الفرنسوية على وضع ترتيب حر يبين كيفية استعمال خط السكك الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالا مشتركا .

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه إدارتا السكك الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي بأسرع ما يمكن ، أي بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين ، وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لادارة السكة الحديدية البريطانية أن تسير قطاراتها ذهابا وإيابا بين هاتين المنطقتين وفقاً لمصالحها ، وتنقل البضائع التجارية إلى المنطقة المشمولة بالانتداب الفرنسوي بواسطتها ، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والادارية والفنية اللازمة لسير القطارات ، أما إذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة اشهر من تنفيذ الانتداب بين الادارتين المذكورتين أعلاه فستعين جمعية الامم حكما يفصل الخلاف ، وعندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضا الطرفين .

يعمل بموجب هذه الاتفاقية إلى أجل غير مسمى ، وتصحح أحيانا بمقتضى الأحوال .

ب : يمكن للحكومة البريطانية أن تمد خطاً من الأنابيب الحديدية بجانب السكة الحديدية ، ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائما .

ج : توافق الحكومة الفرنسوية على تعيين بعثة خاصة تدرس الاراضي ، وبعد درسها إياها تعين الحدود في وادي اليرموك بطريقة فنية ، يمكن معها بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الأنابيب الموصل بين فلسطين وبين سكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطاني وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الأراضي

المشمولة بالانتداب الفرنسوي ، ويجب على بريطانية العظمى إحقاق حقها في مدة لا تتجاوز عشر سنوات .

د : تتألف البعثة التي ذكرناها أعلاه من عضو بريطاني وعضو فرنسوي يضاف إليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هذا وإن رأت الحكومة البريطانية ، والحكومة الفرنسوية لزوما لذلك .

هـ - إذا اقتضى الأمر لأسباب فنية أن يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الأماكن المشمولة بالانتداب الفرنسوي ، توافق الحكومة الفرنسوية على مرور هذا الخط بتلك المناطق ، وتقدم للحكومة البريطانية أو لعملائها المساعدات اللازمة .

و : إذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة أي أن تمد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفذ الحكومة الفرنسوية الشروط التي اشترطتها على نفسها بالفقرة الاولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة أشهر من إنشاء السكة .

ز : توافق الحكومة الفرنسوية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوي لتصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية .

٦ - تم الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل أعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسوية - البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو .

٧ - لا تضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسوية موانع في منطقتي انتدابها لجميع الموظفين اللازمين لادارة خط السكة الحجازية أو لاستخدامه .

تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي لئلا تتأخر أعمال هذا الخط .

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية عند اللزوم على أن تعقد اتفاقية مع الحكومات المحلية خلاصتها استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر باحدى مناطق الانتداب .

٨ - يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب مرور ستة أشهر من امضاء هذه المعاهدة ، مهمتهم فحص أحوال مياه نهر الاردن الأعلى ونهر اليرموك وتوابعهما لاستخدامها لأجل الري ، ولأجل توليد الكهرباء ، وتعيين المقدار اللازم للأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسوي .

تزود الحكومة الفرنسوية الاخصائيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين الماء الزائد خدمة لمنافعها العامة .

إذا لم يحصل الاتفاق بنهاية هذا الدرس تعرض المسألة على الحكومتين البريطانية والفرنسية لتدرساها وتقررا فيها قراراً نهائيا .

تشترك إدارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الأعمال في دفع نفقات بناء الترع والخلجان والسدود والخزانات والأحواض والأقبية ، وخطوط الأنابيب الحديدية ، الخ .

وتشترك في جميع الأعمال التي من شأنها إنبات الحراج وتنشيط تربتها .

٩ - توافق الحكومتان البريطانية والفرنسوية عملا بنص المادة « ١٥ » والمادة « ١٦ » من نظام الانتداب الفلسطيني ، وعملا بنص المادة « ٨ » والمادة «١٠ » من نظام الانتداب العراقي ، وعملا بنص المادة « ٨ » من نظام الانتداب اللبناني - السوري . وعملا أيضا بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التي تخص اناسا من التبعة الفرنسوية ، أو من التبعة البريطانية على المثابرة في إدارة هذه المدارس في منطقتي انتدابهما . ويسمح بتعليم اللغة الفرنسوية واللغة الانكليزية في هذه المدارس .

لا تعني هذه المادة بحال من الأحوال منح رعايا إحدى الدولتين المشار إليهما حق فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الاخرى .

٢٣ كانون اول (ديسمبر) سنة ١٩٢٠

هاردنغ ج . بيج ■

المرجع كتاب الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب اصدرته جريدة الأيام لا ت..

احدى مسلات روما

المسلات المصرية الفرعونية

احمد غسان سبانو
محامي ، مجاز في الحقوق والتاريخ .

المسلة كلمة تعني ابرة الخياطة الكبيرة واطلقت على المسلات المصرية للتشابه بينهما بالشكل . وهي تقابل الكلمة اليونانية « Obelisk » المشتقة من « Obelos » اي الخنجر لتشابه المسلة المصرية بالشكل مع الخنجر باعمدتها المنتهية بحافة مدببة . والمسلة قاعدة مربعة الشكل تنتهي بطرف هرمي وهي نوع من الأعمدة المصرية التي قدت من صخر صلب اسمه السينيت « Syenite » وسمي هكذا لكونه يستخرج من كهوف سينيت « حاليا اسوان » وهو نوع من الغرانيت الضارب الى الحمرة . وقد تستخرج من البازلت الرمادي اللون .

ويبلغ ارتفاع المسلة عادة عشرة امثال محيط القاعدة وكان يغلف طرف المسلة الاعلى المدبب بالذهب او الفضة مما يجعل اشعة الشمس تنعكس بصورة باهرة ، مما يسهل رؤيتها من مسافة بعيدة ، وكانت تقام المسلات لغرض العبادة وشكرا للآلهة « وعلى الأخص آلهة الشمس » وتقام امام المعابد على طرفي باب المعبد . ويكتب عليها بالحروف الهيروغليفية نقوشا تخلد ذكرى ملك او حرب .

وقد نشأت فكرة المسلة غالبا من هيليوبوليس ايام الاسرة الخامسة . ومنذ الاسرة الثانية عشرة ، اخذ المصريون يقيمونها على باب المعبد تعبيرا عن شكرهم للآلهة حين الاحتفال بذكرى بلوغهم العرش ومرور ثلاثين عاما على ذلك ، وقد نشط اقامة المسلات ايام الدولة الحديثة .

كيف تقطع المسلة :

استطاع علماء الآثار معرفة طريقة صنع المسلة من مسلة هائلة الضخامة وجدت في خندق باسوان وقد قطع ثلاث من اطرافها وبقي الطرف الرابع ، الا انه قد ظهر في حينها عدة شروخ في الصخر مما جعل المسؤولين عن قطعها يوقفون العمل بها .

اذ من الشروط الاساسية عدم وجود شروخ او تفتتات في الصخرة المطلوبة . وكانت تستخرج المسلة من الصخر بطريقة صب المياه عليه بقوة وبعد ذلك ينعم وجه الصخرة (المسلة) حتى يصبح املس مستويا وذلك بواسطة احجار صلبة وزنها يتراوح بين ٩ و١٠ أرطال بعد ذلك يحدد الشكل العام للمسلة على الأرض ثم يشق خندق حول اطرافها ويجرى العمل داخله في تسوية الاطراف . اما الطرف الأسفل من المسلة فكان يقلع بواسطة فتح ثغرات في المسلة عمودية على طولها بفترات متساوية . ويوضع اخشاب داخل هذه الثغرات ثم تشبع تلك الأخشاب بالمياه ونتيجة تمدد الخشب من الماء كان الصخر يتفتت مما يحرر السطح الرابع وتجرى تسويته بعد رفع المسلة بواسطة عبيد يبلغ عددهم حوالي ٥٠٠٠ شخص وذلك بواسطة الحبال والروافع ثم تنقل المسلة الى الزحافات التي تستند على ألواح خشبية تستند بدورها على عجلات .

وان المسلة المتروكة في اسوان كان طولها مائة وسبعة وثلاثين قدما ووزنها الف ومائة طن .

كيف تنقل المسلة :

كان المهندسون المصريون ينقلون المسلات التي يبلغ وزنها ما يزيد عن خمسمائة طن بواسطة زحافات توضع عليها المسلة ، وتبقى الزحافات منذ رفع المسلة من محاجرها وحتى تركيبها مع مسافة النقل البحري وقد نقلت مسلتا حتشبسوت مسافة مائة وخمسين ميلا وذلك من محاجر اسوان الى طيبه في معبد الكرنك .

ويوضح رسم مصري قديم كيف يتم نقل مسلتي حتشبسوت عبر النيل اذ نقلت المسلتين على سفينة نيلية طولها ٣٠٠ قدم وطول كل مسلة ٩٧,٥ قدما ووزنهما ٧٠٠ طن ووضعت المسلتان في السفينة بحيث تتلامس القاعدتان وكان يجر السفينة ثلاثون زورقا وفي كل زورق اثنان وثلاثون بحارا يستخدمون المجاذيف وبذلك فقد لزم لنقل سفينة المسلات ٩٦٠ بحارا عدا المهندسين المشرفين .

كيف تركب المسلة :

وهي المشكلة الاكثر صعوبة وهي نهاية المطاف وميزان نجاح العملية بالكامل او فشلها والصعوبة ناتجة عن الوزن الثقيل للمسلة (٥٠٠ طن وسطيا) والطول الكبير نسبيا الذي يعادل بناء عصريا بارتفاع خمسة طوابق على الأقل .

وكانت العملية تتم بعد تركيب القاعدة التي ستركب عليها المسلة والمقطوعة بشكل مستقل ولكن من حجر المسلة نفسه ويقطع احد سطوح هذه القاعدة وهو الذي ستركب فوقه المسلة بشكل يكون اعرض من قاعدة المسلة وله فرضة بشكل شق طولي تستند عليه قاعدة المسلة فيمنع حركتها او انزلاقها .

واثناء رفع المسلة لتستقيم في موضعها كان يوضع تحتها اكياس من الرمل لتستند المسلة عليها وكلما ازداد ارتفاع المسلة عموديا على قاعدتها ازدادت الاكياس الحامية لها ارتفاعا تحتها لرفعها ويتم ذلك حتى تصل المسلة لوضعها العمودي تماما .

ما تعنيه المسلة :

يرتبط انتشار المسلة بانتشار عبادة الشمس في مصر اذ كانت المسلة تقدم لاله الشمس لدى قدماء المصريين وهو يعتبر من أهم ألهتهم وأقدمها ويطلقون عليه اسم (رع) واقدم مركز لعبادته مدينة « آمون » و « هليوبوليس » و « عين شمس » وهو بمعتقدهم الذي خلق نفسه وخلق الكون كله .

فالشمس في ولادتها صباحا تعني الحياة ويتخيلونها طفلا ويطلقون عليها اسم « طبري » ثم تستقيم في كبد النهار فيخالونها قد رشدت ويسمونها « رع » وهي تبهرهم عند المساء فيشبهونها بشيخ وقور ويسمونها « آتوم » .

وقد مثلت الشمس عندهم النور والظلمة الحياة والموت ولذلك رمزوا للحياة بالمسلة التي تشع نورا عند طرفها العلوي الذي يشكل هرما صغيرا واشعاعه ناتج عن ان الفراعنة كانوا يدهنون الهرم العلوي برقائق الذهب والفضة ، فاذا ما انعكست نور الشمس عليها صباحا او مساء بدت تشع كالنور ونظرا لطول المسلة فهي تشبه الشمس في اطلالتها من عال تراقب كل شيء . اما الموت فيتمثل بالظلمة ويمثل بالهرم وهو رمز الموت والظلمة والحياة السفلى .

المسلات المصرية ومناطق وجودها :

لقد اقام الفراعنة عددا كبيرا من المسلات في مصر لكن فقد الكثير منها نتيجة الزلازل والنقل . ودليل على ذلك انه من بين الثلاث عشرة مسلة كانت قائمة في الكرنك في الاقصر لم يبق منها سوى ثلاث فقط . كما ان هناك مركزاً اخر للمسلات في مصر هو مدينة هليوبوليس (اي مدينة الشمس) .

واهم المسلات الموجودة في مصر حاليا :

١ - مسلة هليوبوليس :

وقد وضعت في ضواحي هليوبوليس « مدينة الشمس » قرب القاهرة حاليا في ضاحية تسمى « المطرية » وهي اقدم مسلة معروفة من نوعها . ويعود تاريخها لحكم الفرعون سيسوستريس الأول (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م.) من الاسرة الثانية عشرة . وقد اقامها مع مسلة شقيقة لها (مفقودة) امام معبد ابيه بمناسبة احتفاله بالعيد الثلاثين لجلوسه على العرش وتعتبر اقدم مسلة طويلة نحتت في تاريخ العمارة المصرية .

ويطلق على هذه المسلة منذ القديم اسم (بثين) بالهيروغليفية ويعني (المشعه) .

٢ - مسلة الأقصر :

وهي مشهورة بنقوشها الهيروغليفية الجميلة وقد شيدها رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد كانت قائمة امام معبد الأقصر الى جانب مسلة مطابقة لها هي الآن في باريز .

طول مسلة الأقصر ٣٥ م .

٣ - كذلك يوجد مسلتان في معبد الاقصر ايضا اقامهما تحوتمس الاول متجاورتين ومزينتين بالنقوش الهيروغليفية الجميلة .

ان هذه المسلات الثلاث الباقيات انما وجدت من اصل ثلاث عشرة مسلة اقيمت في الأقصر .

ان هذه المسلات الثلاث الباقية هي من المسلات القليلة التي نجت من تدمير الهكسوس الذين لم يتركوا اثرا يذكر بعد احتلالهم مصر .

٤ - مسلة اسوان :

وهي مسلة تركت مكانها قبل ان يكتمل اقتطاعها من اصل صخرها وهذه المسلة قد اعطت للباحثين فكرة عن كيفية صنع المسلات .

تعتبر هذه المسلة اكبر واضخم مسلة اذ يبلغ وزنها لو اكتمل قطعها ١١٦٨ طنا وارتفاعها ٣٩ مترا . ويبدو ان اهمالها وعدم اتمامها انما يعودان لظهور تشقق في اساس صخرتها .

٥ - وهناك مسلة اخرى في « صا الحجر » في منطقة الدلتا .



الفاتيكان : مسلة في ساحة سانت بطرس

مسلة باريز : في ميدان الكونكورد :

وقد اخذت من مدينة الأقصر ونقلت الى مكانها الحالي بمعرفة المهندس البحري (ليبا) عام ١٨٣٦ م . وقد اقامها رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد حوالي عام ١٢٥٠ م بطول ٣٥ م ووزن ٢٢٧ طنا وهي المسلة التوأم للمسلة الثانية الموجودة في الأقصر امام معبد الاقصر .

ويوجد في فرنسا ايضا ثلاث مسلات اخرى احداها في (فونتين بلو) والثانية في غابة (فنسين) والاخيرة في مدينة (آرل) .

مسلتا لندن ونيويورك وتشتهران باسم « ابرة كليوباترة »

وهما مسلتان توأمان اقيمتا اولا في هليوبوليس وقد اقامهما تحتمس الثالث (١٥٠١ - ١٤٤٨) ق . م . تيمنا بالآله « رع » بين عامي ١٤٩٠ و ١٤٣٦ ق .م . ثم نقلهما الرومان حوالي عام (١٢ - ١٣ ق .م) الى الاسكندرية بأمر من الامبراطور اوغوست وقد رآهما المؤرخ العربي عبد اللطيف البغدادي قائمتين ووصفهما وذلك في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي ، بينما رأى بيير بيلون (١٥١٧ - ١٥٦٤) م مسلة واحدة اثناء زيارته للاسكندرية في منتصف القرن السادس عشر .

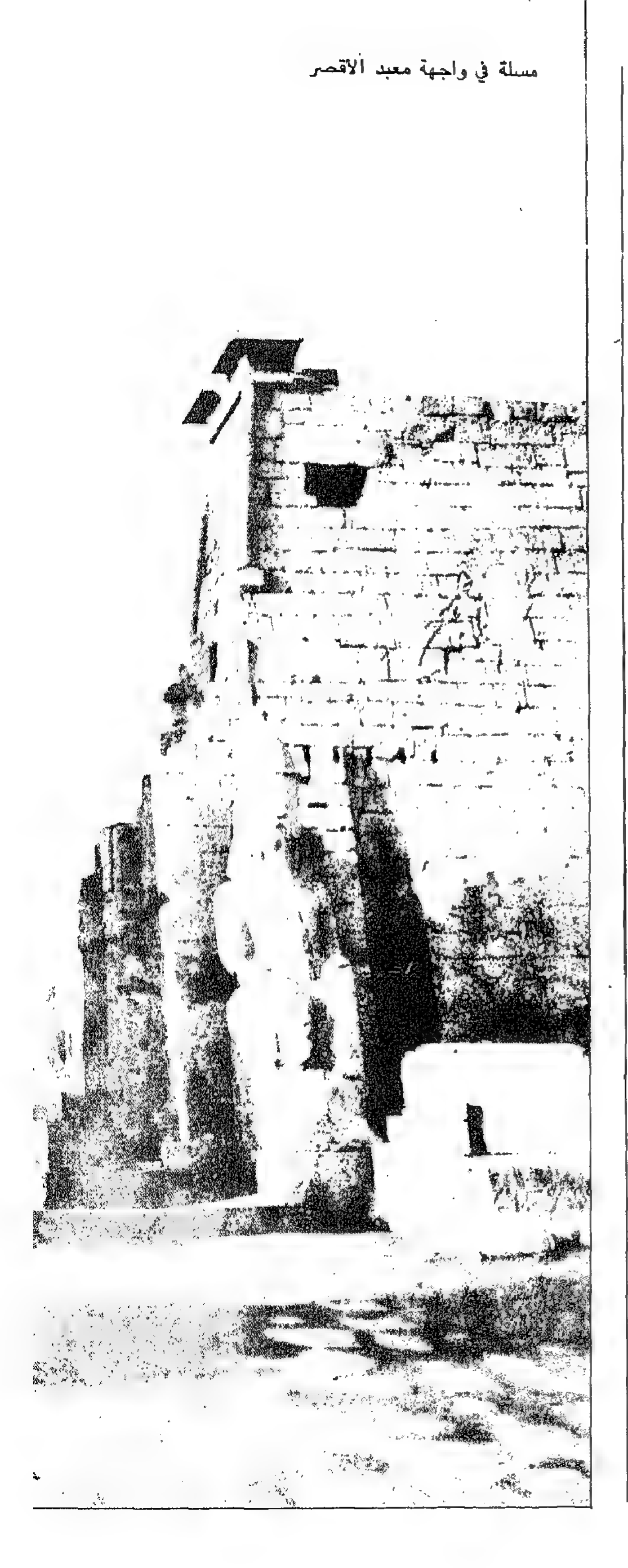
فكانت الاخرى قد سقطت وغطيت بأكوام الرمل والتراب المحيطة بها وساعد هذا في حفظها وقد بقيت سليمة .

وقد اهداها محمد علي بك الى الملك جورج الرابع ملك بريطانيا عام ١٨١٩ فاخذت الى لندن واقيمت على ضفة التيمز عام ١٨٧٨ م امام جسر واترلو بعد ان تركت تلك الفترة الطويلة وقد تحمل تكاليف نقلها السير ارازموس ولسون .

واثناء نقلها تعرضت في الطريق الى الضياع اثناء عاصفة في خليج بسكاي .

وعند اقامتها وضعت بقاعدتها نسخة من جريدة ونسخة من دليل برادشو للسكك الحديديه وقطع من العملة الانجليزية تعود لتاريخ ١٨٧٨ . وقد اصيبت هذه المسلة بخدوش اثناء قصف لندن في الحرب العالمية الثانية ويبلغ وزن المسلة (١٨٧) طنا وطولها (٦٩ قدماً) ومحيطها ٧ - ٨ اقدام .

اما المسلة الثانية التوأم التي كانت ما تزال قائمة فقد اخذت من مكانها الى نيويورك واقيمت


مسلة في واجهة معبد الأقصر

في سنترال بارك عام ١٨٨١ تحت اشراف المهندس هنري هنبتشرش جورنج (١٨٤١ - ١٨٨٥) م الذي ولد بجزيرة باربادوس وكان ضابطا بالقوات البحرية الاميركية ويبلغ وزن هذه المسلة ١٩٣ طنا والنقوش الهيروغليفية التي على هذه المسلة تعود لاثنين من اشهر الفراعنة الاول تحوتمس الثالث الذي شغلها بسرد حوادث فتحه لبلاد الحثيين (ضلعين من المسلة) بينما شغل الضلعين الأخيرين رمسيس الثاني الذي أمر بتدوين ما عليهما بعد مائتي عام من تحوتمس الثالث .

وان النقوش على هذه المسلة للطرفين الجنوبي والغربي قد شوهت بينما نقوش الطرفين الشمالي والشرقي ، المدون عليهما بحالة حسنة . وقد اهدى هذه المسلة الخديوي اسماعيل باشا الى مدينة نيويورك .

ومن غير المعروف كيف اخذت هاتان المسلتان اسم ابرة كليوباترة وهناك رأي يقول ان تعبير « الابرة » اخذ عن العربية ترجمة « المسلة » وهي الابرة الكبيرة . اما كليوباترة فانها اخذت للتعبير عن الفراعنة ولأنها الاسم الوحيد الفرعوني المعروف شعبيا لدى الانكليز والاميركان .

المسلات الموجودة في ايطاليا :

تتوزع في روما والمدن الايطالية وهي المسلات الوحيدة التي اجرى عليها تغيرات بدلت من معالمها بان اضيف على قمتها الصليب لنفي الاصل الوثني عنها . وقد استخدمت في روما لتزيين الساحات وبعضها كمزوله شمسية . علما بأن هناك مسلات غير مصرية مزورة وجدت في روما وايطاليا .

واهم المسلات الحقيقة هي :

١ - المسلة الموجودة في (ميدان الشعب) ويبلغ ارتفاعها ٣٦,٥ م وقد أحضرها الى روما الامبراطور اوغست لتزيين الملعب الرياضي . وقد اعاد اقامتها في مكانها الحالي البابا سيكستو الخامس (١٥٨٥ - ١٥٩٠ م) .

٢ - المسلة الشمسية والتي تعود لعصر بسماتيك الاول (القرن السابع ق.م) وقد نقلها الى روما اوغست حيث اقامها بساحة سان لورنزو واعتبرت كساعة (مزوله) لمدينة روما . اقامها بعد سقوطها ثانية البابا بيوس السادس

في (١٧٨٩) امام مبنى البرلمان الايطالي الحالي .

٣ – مسلة سانتا ماريا ماجوري وهي احدى التوأمين وقد احضرهما الامبراطور اوغوست ليقيمهما على طرفي ضريحه . عثر على هذه المسلة مكسورة قطعتين في عصر سيكستو الخامس فاقامها امام مدخل فيلته في الميدان الصغير خلف كنيسة مريم الكبرى .

اما المسلة الثانية من التوأمين المذكورين اعلاه فقد عثر عليها البابا بابيوس السادس فاقامها في ساحة كويرينالي (القصر الجمهوري حاليا) .

وطول كل من المسلتين يبلغ ١٤.٨ م .

٤ – مسلة ميدان لامينرفا والمسلة الثانية التوأم الواقعة في ميدان وديلا ريتوردا وتعودان للملك ايريس من القرن السادس قبل الميلاد .

نقلتا من هليوبوليس من معبد الشمس الى روما الى معبدي ايزيس وسيرابيس وقد عثر البابا الكسندروس السابع عام « ١٦٦٠ » على اولاهما واقامها في ميدان (مينيرفا) . اما المسلة الثانية فقد عثر عليها البابا كليمنت الحادي عشر في (١٧١١) واقامها بميدان (ديلا ريتوردا) لتزيين نافورة ماء هناك .

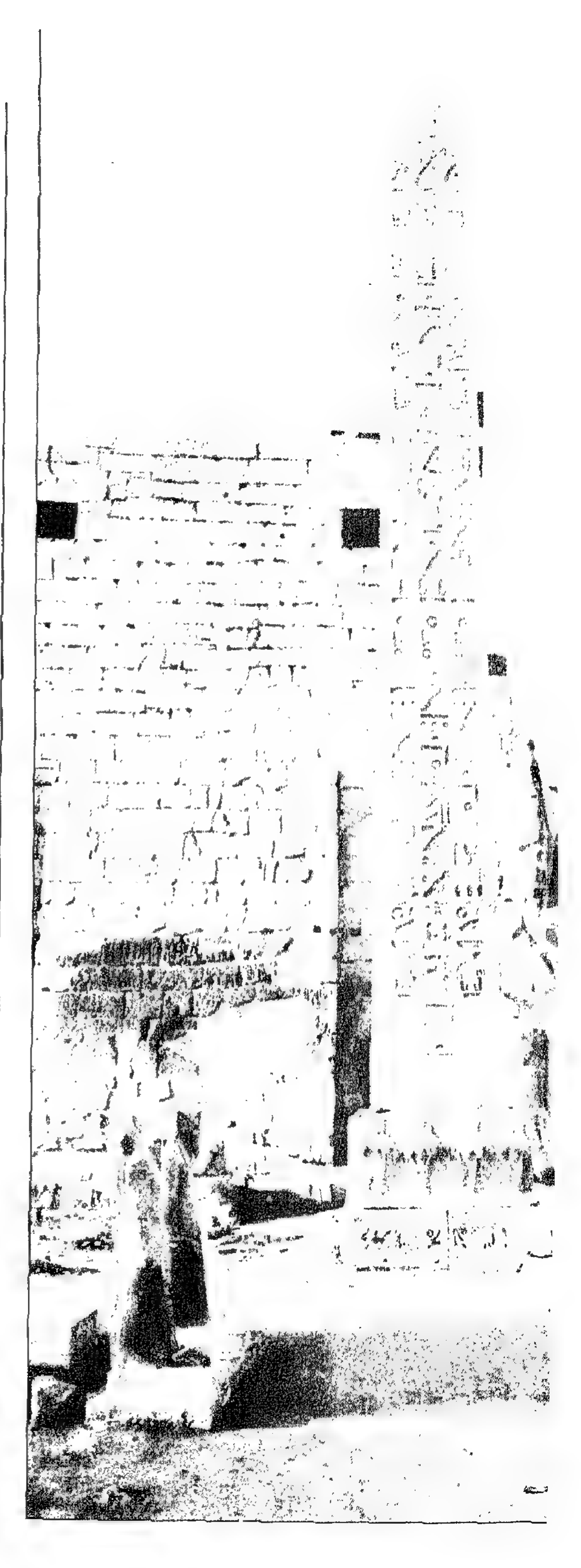
٥ – مسلة الفاتيكان ويبلغ طولها (٤١ م) وهي خالية من النقوش الهيروغليفية وذلك لسبب مجهول قد يكون ان المسلة لم تكتمل الصنع في حينها وقد نقلها الى روما الامبراطور كاليجو « غايوس » عام ٣٩ م .

وقد اقيمت اولا في ملعب نيرون ثم نقلت الى ساحة كاتدرائية القديس بطرس في ساحة الفاتيكان بامر من البابا سيكستو الخامس . استعملت (كمزوله شمسية) .

٦ – مسلة ساحة القديس يوحنا : وهي اقدم المسلات وطولها ٤٧ م وهي اخر مسلة نقلت الى روما وكان قسطنطين قد نقلها (مع المسلة الثانية الموجودة حاليا في استنبول) من معبد امون في طيبه الى الاسكندرية . واكمل نقل هذه المسلة الى سيرسينو خليفته ابنه قسطنطين الثاني ثم نقلت الى روما موقعها الحالي من قبل الباب سيكستو الخامس .

مسلتا اسطنبول

والمسلة المشهورة في اسطنبول نقلها الامبراطور البيزنطي قسطنطين الى بيزنطة ونقل الاخرى الى روما كما رأينا .



كما وتوجد مسلة في نينوى في العراق .

ان هذه المسلات المبعثرة في انحاء العالم قديمة وحديثة . ان هي الا شواهد على عظمة الهندسة المصرية القديمة وقد عرف من اسماء المهندسين الذين شيدوا بعض هذه المسلات مع غيرها من الاوابد الاثرية ستة مهندسين واشهرهم « سنموت » رئيس مهندسي الملكة (حتشبسوت ١٩٤٥ - ١٤٧٥ ق .م) الذي شيد مسلاتها ومعبدها في الوجه البحري وربى ابنتها الكبرى (نفرورع) .

وثانيهما (بكنخنسو) الذي عاش بعد قرن من سابقه وهو مهندس المسلة التي انتقلت الى باريز وله تمثال محفوظ بمتحف في ميونيخ بالمانيا يحمل نصا طويلا دون فيه تاريخ حياة هذا المهندس .

« تحدث الناس - كما يقول جورج سارتون في تاريخ العلم - عن اعمال فونتانا ، عام ١٥٨٦ وغورنج عام ١٨٨١ م ، كأنها اعجوبة الاعاجيب مع ان هذين الرجلين لم يفعلا شيئاً أكثر من تكرار جزء من العمل الذي سبقهما اليه المصريون منذ الاف السنين » .

ويصفها اميل لودفغ بكتابه « النيل »

« وتدور السيارات حول تلك المسلات في اجمل ميادين باريس وروما ولندن ونيويورك وتبصرها في اثناء النهار محاطة بعيون ماء كان فرعون ينفق نصف كنوزه على منظرها لو علم أمرها . اجل لا أحد يفقه معنى ما تحويه من كتابة غير انها تضاء في الليل بنور سحري يأتي من تحتها فكأن اوزيريس لا يزال ينير مجدابيه من العالم الادنى » .

ويؤكد جورج سارتون في كتابه تاريخ العلم على ان المسلات مشاهد عظيمة للهندسة المصرية القديمة فيقول : « ومن هذه الناحية لا ينبغي ان يأسف المصريون الحديثون على المسلات الكثيرة التي اخذت من بلادهم ، لأن كل واحدة من هذه المسلات المبعدة عن وطنها اثر خالد يشير الى عظمة مصر القديمة » .



أقدم مدن العالم

● هي مدينة « بسميا » اكتشفها في أنقاض بابل الدكتور بانكس وكان قد استأذن الدولة العلية سنة ١٩٠٠ في التنقيب عن آثار مدينة « أور » التي خرج منها ابراهيم الخليل فلم يؤذن له وأراد أن يستأذن لمكان آخر فمنع . وتمكن سنة ١٩٠٣ من الحصول على الارادة السنية للبحث عن بسميا . ولاقى مشقات كثيرة في أثناء العمل لقلة المياه للفعلة . ووصل أخيراً إلى خرائب مساحتها ميل في نصف ميل ولا يزيد علو انقاضها على اربعين قدماً . وعثر على قرميدات بعضها منقوش سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد ، واكتشف أخيراً مصطبة مبنية من القرميد المحدب وكان البابليون يستخدمونه في البناء نحو سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد ولم يعثر على أقدم من ذلك . فاثار هذه المدينة تختلف قدما بين سنة ٢٧٥٠ و ٤٥٠٠ قبل الميلاد .

وجد بين الأنقاض تماثيل من الرخام في جملتها رأس من الالاباستر ، وجهه مستطيل نحيف أنفه سامي وعيناه مجوفتان فيهما مقلتان من عاج قد ألصقتا بالقار وذهب انساناهما . ولم يسبق لعلماء الآثار أنهم عثروا على مثل هذا الرأس ، وهو أول رأس سامي كشف في آثار بابل ، وتاريخه ٣٨٠٠ قبل الميلاد . ثم اكتشف الدكتور بانكس تمثالا كاملا تاريخه على ما يظن سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد ويستدل من قراءة ما عليه من النقوش أن التمدن البابلي كان يومئذ في إبانه . وكان هذا التمثال خاتمة النقب لأن الفعلة اختصموا وكفوا عن العمل . ومما تحققوه باكتشاف هذه المدينة أن البابليين كانوا يحرقون جثث موتاهم وكان العلماء قبلا يولون ذلك على سبيل الظن فوجد الدكتور بانكس في بسميا المكان الذي كانوا يحرقونها فيه .



إعداد : شذا عدرة

بعد ان حددت بنود معاهدة فرساي طموح الالمان البحري ، اضطر هؤلاء الى إعمال الخيال لخوض حرب بحرية مدهشة . أحد اسلحتهم السرية والخطيرة كان « الريدر » ، وهي سفن تجارية مجهزة للحرب ، وقد اوكلت اليها مهمات قرصنة .

في كتابه الضخم المخصص « لمعركةالاطلسي »يحيي« ليونس بيار » ذكرهذه السفن الكبيرة التي خاضت حرب قرصنة لحساب البحرية الحربية الالمانية « الكريغسمار » .

تزن الريدر ٧٠٠٠ طن ، وهي مجهزة بديزل او تربينة ، ومدى عملها كبير . سلاحها بصورة عامة مؤلف من ستة مدافع عيار ١٥٠ ، ومدافع اخرى كثيرة من عيار اصغر ، واربع قاذفات طوربيد وعدد من الألغام . وهي تملك غالباً طائرة او طائرتي استكشاف مزودتين برشاشات ، وزوارق بمحرك مزودة بمدفع وبقاذفة طوربيد .

اول موجة من هذه السفن انزلت في البحار سنذ أوائل ١٩٤٠ ،كانت تحوي ست سفن قرصنة ، كانت « الاطلانتيس » اخطرهن . وقد سماها الانكليز « الريدر – س » ، اما الألمان فكانوا يدعونها « الشيف ١٦ » ، (او السفينة ١٦) . أرض الصيد المفضلة لديها جنوبي الأطلسي حيث ستكون عدوا خطيرا للبواخر التجارية الانكليزية والحليفة .

كان الكابتن بيرنهاردت روغه معروفاً جيداً في اوساط اليخوت العالمية قبل الحرب . في ١٩٣٧ ، دعي الى المدرسة البحرية الملكية في دارتموث ، فأبدى اعجابه كخبير ، بالسفن الموجودة هناك وبجمال الخليج . ولما لاحظ وجود باخرتين تجاريتين ذات اربعة صوار بين السفن الكبيرة الحربية ، اجابه الضابط الانكليزي : « هذه سفن بخارية للبيبي لاين وهي لا تتحرك . نستأجرها احيانا لنقل الآليات والعسكريين » ، ولم يكن يعلم الضابط ان جوابه هذا ستكون له نتائج مأساوية بعد ثلاث سنين .

ميزات الكابتن روغه البحار وخبرته جعلت الاميرال الكبير ريدر وقادة المخابرات السرية يختارونه لقيادة باخرة شحن كبيرة تزن ٧٨٦٠ طنا ، كانت تقف في مرفأ بريم الحربي في اول الحرب ، اسمها غولدنفلز . بالنسبة للمخابرات السرية التابعة للبحرية ، كانت « الشيف ١٦ » . اما روغه فقد اختار لها اسم « الاطلانتيس » . وقد استغرق العمل طويلا لتحويل باخرة الشحن المسالمة هذه الى سفينة حربية مموهة ببراعة : ستة مدافع عيار ١٥٠ ، اربع قاذفات طوربيد ، رشاشات ، الغام وطائرة برمائية « آرادو » . وقد زودت بالذخيرة والمواد الغذائية واطنان من مياه الشرب ، وبالكتب وبكمية كافيةمن الوقود ، اذ كان على « الاطلانتيس » ان تجتاز مسافات طويلة دون التوقف في اي مرفأ .

أمر واحد : « إغراق البواخر ... »

كان الكومندان روغه وحده يعرف المهمة الموكلة الى « الاطلانتيس » : النفاذ الى شمال الاطلسي ، والنزول الى مشارف فريتاون من دون اثارة انتباه البريطانيين ، ومن ثم اغراق بواخرهم التجارية . وبعد كل عملية تدمير ، الانتقال بسرعة الى مكان اخر .

هذه المهمة سينفذها روغه بدقة ، لكن كواجب فقط بالنسبة له فكل سفينة لها وظيفتها ، اذ كان يدرك شمولية وعدم انسانية الحرب التي سيخوضها

في ٢٢ اذار (مارس) ١٩٤٠ ، اعدت « الاطلانتيس » في الليل دون معرفة أحد . كانت لها مدخنتان . وكل مدافعها مكشوفة ، وقد شرعت للأنظار علم « الكريغسمارينه » .

في ٢٤ آذار (مارس) ، كانت باخرة شحن نروجية تعبر باتجاه الشمال مقابل سواحل النروج : لونها اخضر وأبيض ، لها مدخنة واحدة وعلى صاريها يخفق علم الحجر الصحي . وقد وضعت على ظهرها صناديق خشبية ضخمة مغطاة ، ويكشف في بعض الجوانب عن كتابات بالانكليزية . وكان فريق من المدنيين يشرف عليها . هذه الباخرة لم تكن الا « الاطلانتيس » .



القبطان برنهاردت روغه سنة ١٩٤٤

في نيسان (ابريل) ، كانت باخرة شحن سوفياتية تسير على طول ساحل الغرينلاند

الشرقي ، وسط عاصفة ثلجية عنيفة . كانت درجة الحرارة ١٧ تحت الصفر ، وقد ارتدى الضباط والملاحون الفرو كالروس . اسم الباخرة : كيم ، كان مسجلا على مؤخرتها ، كذلك بعض العبارات بالروسية وترجمتها بالانكليزية . هذه الباخرة كانت ايضا الاطلانتيس .

اما السفينة التي التقت بها السفينة الانكليزية سيتي اوف اسكيتر في جنوبي الاطلانتيك ، فكانت يابانية : الكاهي مارو . وقد شاهد الكومندان البريطاني رجالا صغارا على متنها باليوكاتا ويمسكون بأيديهم الات تصوير . ولوتسنت له رؤيتهم عن كثب ، لفهم بسرعة ان هؤلاء كانوا متنكرين وبشكل سيء ، فالكاهي مارو لم تكن الا الاطلانتيس

وقعت المأساة الأولى في الثالث من ايار (مايو) ، عندما اوشكت الاطلانتيس على الوصول الى الطريق التي تسلكها السفن البريطانية بين الكاب وفريتاون حيث تتشكل المواكب . رأى الحراس دخانا ، فدعا الكومندان روغه رجاله الى الالتحاق بمراكز القتال ، وانتظر حتى اصبحت الباخرة العدوة على مقربة منه . عندئذ امر برفع راية الاصطلاح العالمي : « توقفوا او اطلق النار » . ثم بعث بانذاره : « لا تستعملوا الراديو » .

وبعد كشف المدفع ورفع راية الحرب الالمانية ، انطلق المدفع فسقطت قذيفة امام الباخرة التجارية التي حاولت تغيير اتجاهها والابتعاد . وقد تمكن العريف البحري هلم من سماع ندائها عبر الراديو : « هنا السيانتست ... هناك سفينة تجارية تأمرنا بالتوقف » . فلم يكن من الاطلانتيس الا ان امطرتها بالقذائف ولم تتوقف الا عندما اعلنت السيانتست : « سأتوقف » .

الاولى من اصل ٢٢

بعد ربع ساعة ، كان فريق من الألمان قد وصل الى السفينة الانكليزية ، فزارها بسرعة واستولى على الوثائق واسر ملاحيها وقبطانها الذي قال لروغه :

– كنت استريح عندما بعثتم باشاراتكم التي لم تفهم . ولقد حذرت متأخرا ، والا لكان مستحيلا ان تتغلبوا علي .

تلك كانت اولى ضحايا الاطلانتيس . وقد استنتج روغه من عمليته الأولى ان عليه تغيير اسلوبه في الهجوم ، فقد لاحظ ان الانكليز يستعملون الراديو بالرغم من تحذيراته . لذلك قرر ان يرفق الامر الموجه للبواخر العدوة بتدمير فوري لجهاز الارسال فيها . من الآن فصاعدا سيتم الاقتراب في الليل ، والهجوم عند مطلع الفجر ومن على مسافة قريبة جدا .

بعد مرور بضعة ايام ، القت الاطلانتيس امام رأس اكولاس سلسلة من الألغام على طريق البواخر التجارية باتجاه فريتاون ، من شأنها ايقاع المزيد من الضحايا . ولكي يخفي اثاره ، عمد روغه الى القاء طوافة عليها بقع زيت ومرقمة : غواصة ٣٧ ، لايهام الانكليز بان سربا من الغواصات يقوم بعمليات في المناطق المحيطة بكيب تاون .

في ٢٥ ايار (مايو) ، وصلت برقية من غوبلز الى الباخرة الهولندية ابكرك ، التي لم تكن الا الاطلانتيس ايضا مفادها ان « ثماني سفن تجارية بريطانية اصطدمت بالغام ريدر ، وغرقت ! » .

بعد ذلك ، انتقلت الاطلانتيس الى المحيط الهندي .

ضحية الاطلانتيس الثانية كانت الباخرة النروجية تيرانا (٧٢٣٠ طنا) ، وقد لقيتها وسط الطريق بين السواحل الافريقية واستراليا في ١٠ حزيران (يونيو) ولاحقتها طيلة ثلاث ساعات . وقد ارسلت الباخرة النروجية نداء استغاثة منذ اول طلقة مدفع ولم تسكت الا بعد عدة رشقات ، لكنها لم تدمر بل ارسلت الى الجنوب ، الى « البردا » . وقد خصصت فيما بعد لنقل المساجين من ركاب السفن التجارية الاسيرة او المدمرة ، الى فرنسا .

توالت الهجمات بعد ذلك ، فبين ١١ تموز (يوليو) ١٩٤٠ و٢ شباط (فبراير) ١٩٤١ ، وصل عدد الضحايا الى ١٣ سفينة اي اكثر من ٧٠,٠٠٠ طن . وكل هجوم كان ينتهي بقتلى وجرحى من بين الركاب والملاحين . وكان روغه يبذل جهده لتفاديهم ويوقف النار حالما تقطع الباخرة ارسالها وترفع راية الاستسلام .

من المحيط الهندي الى الجيروند

تحول اللقاء مع الكمدين ، وهي سفينة فرنسية كانت متجهة من كيب تاون الى رانغون ، صباح ١٣ تموز (يوليو) الى

مأساة . فبعد ان اذعنت هذه الاخيرة منذ أول رشقة ، وبعد ان هنأ روغه نفسه بتوفير الذخيرة ، اندفعت فجأة طلقة مدفع ثم اخرى من مؤخرة الكمدين . فثار روغه وانهالت القذائف على السفينة الفرنسية ، الى ان اوحى له ضابط بأنه ربما في الامر خطأ . وقد تبين بعد استجواب مطلق النار انه لم يسمع امر قائده القاضي بعدم اطلاق النار بسبب ضجيج انابيب البخار التي خرقتها قذائف الاطلانتيس .

كان التدمير يتوالى وفي كل مرة تكون الحصيلة مساجين جدداً من بريطانيين وفرنسيين وهنود وصينيين وزوجات ضباط .. مما ادى الى تكاثر المشكلات المتعلقة بالسكن والطعام واللياقات .

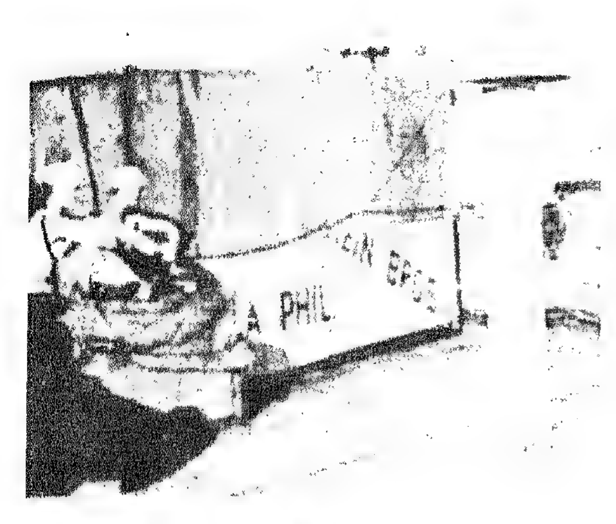
وكان روغه ينقل « ضيوفه » الى مرفأ حيادي او الى مرفأ فرنسي على الاطلسي بواسطة بعض السفن الاسيرة . فالدرميتور مثلا اتجهت نحو مرفأ في الصومال الايطالية وعلى متنها مساجين بريطانيون وفريق من الالمان .

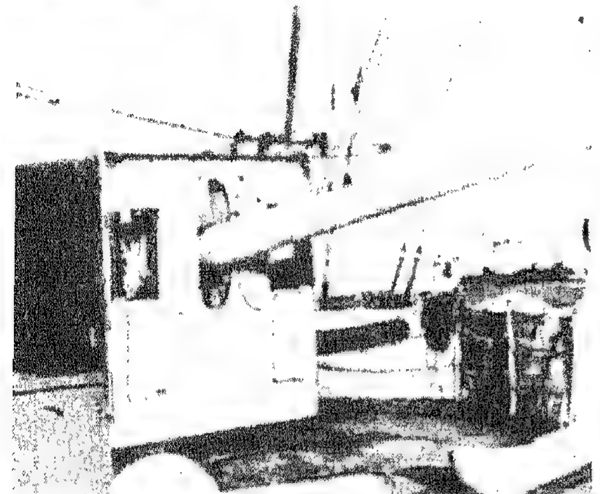
اما التيرانا ، فقد تمكنت ، تحت امرة الملازم البحري مونت ، من دخول مصب الجيروند بالرغم من الحصار الانكليزي ، وكان قد بقي لها نصف ساعة لكي تصل الى رصيف بوياك . والجميع ، بمن فيهم البريطانيون ، كانوا يتلهفون لوضع ارجلهم على اليابسة ، عندما رأى مونت زورقا بمحرك يقترب وفيه صرخ : قبطان فرنسي وعسكري الماني

– هناك طائرات انكليزية القت بالغام في المصب ، وبعض المراكب تقوم بنزعها . فانتظروا حتى صباح الغد .

– ماذا ؟ سننتظر ١٢ ساعة ايضا ؟
– ولكن هذا ليس مهما بالنسبة لكم .
– وماذا عن الغواصات العدوة ؟
– لا يوجد منها في هذا القطاع ..

وفي هذه اللحظة ، انفجرت ثلاثة طوربيدات معا . فبدأت اطنان من المياه تدخل من الفتحات الكبيرة . وتعالى صراخ الركاب . لم يعرف بالتحديد عدد المفقودين . وعندما وجد مونت نفسه على الشاطئ ، كان يتمتم : « لا يوجد غواصات هنا ، ليوتنان ، لا يوجد غواصات هنا ... » وضحك ضحكة هستيرية . اما مطلقة الطوربيد ، فكانت الغواصة الانكليزية تونا .





بضائع مرسلة الى الفيليبين .. بينما هي تمويه للمدافع ..

ركاب الزام زام

في هذه الأثناء ، كانت الاطلانتيس تواصل زرع الخراب في المحيط الهندي . وكان قد مضى عليها تسعة شهور منذ مغادرتها المانيا . وعندما وجد روغه خزانات مياه الشرب شبه فارغة ، قرر ان يذهب الى كرغلن ليملأها . وهكذا انتقلت الريدر من الحر الى البرد ، ثم ما لبثت ان وجدت نفسها في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٤١ على طريق كيب تاون – فريتاون .

في مساء هذا اليوم ، تأمل روغه بانتباه سفينة بخارية ذات اربعة صوار ، فتأكد له انها

احدى سفن البيبي لاين التي رآها قبل الحرب في دارتموث ، وتذكر ما قاله له الضابط الانكليزي انها تستعمل لنقل الجنود . فهاجمها وعندما بدأت زوراق الانقاذ الاقتراب من الاطلانتيس ، لاحظ فجأة ان الزام زام ترفع علما مصريا . وقد اوضح له القبطان البريطاني ان الزام زام بيعت للمصريين منذ بضعة شهور . وهذا التصريح لم يكن ليزعج روغه ، (ألم تكن مصر تحت الهيمنة الانكليزية ؟) لو لم يعرف ان هذه السفينة تنقل ٣٠٠ راكب بينهم رجال دين ونساء واطفال واميركيين !

بعد نقل ركاب الزام زام الى السفينة المموِنة درسدن ، اتجهت الاطلانتيس نحو القطب الجنوبي بعد ان اغرقت بواخر اخرى بين ١٤ ايار (مايو) و٢٢ حزيران (يونيو) .

كانت الريدر ما تزال تنتقل من مكان لآخر وتحقق انتصارا تلو الآخر عندما وصلتها برقية من القيادة العليا تأمرها بالتوجه نحو نقطة « ليس ١٠ » لكي تزود الغواصة ١٢٦ بالوقود .

لتموين غواصة ....

صباح ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ ، لصقت الغواصة المعنية بالاطلانتيس ، وبدأ ضخ الوقود من الريدر اليها . حولهما كان الهدوء مخيما .

لم يستطع روغه ورجاله منع انفسهم من التفكير في الحادثة التي وقعت البارحة مساء للأرادو . هذه الطائرة المائية التي قامت بخدمات كبيرة في البحث عن البواخر التجارية ، هبطت بسرعة فتحطمت وغاصت ، والا لكانت الان تحلق فوقهم في هذا المكان . وبينما كان باور ، قائد الغواصة ، وروغه يتحدثان ويشربان القهوة في مكتب الاخير ، علا صراخ في الممرات : « طرادة عدوة مقابلنا ! » فأسرع باور الى الغواصة ، لكنه وصل متأخرا ، اذ كانت قد ابتعدت وغاصت .

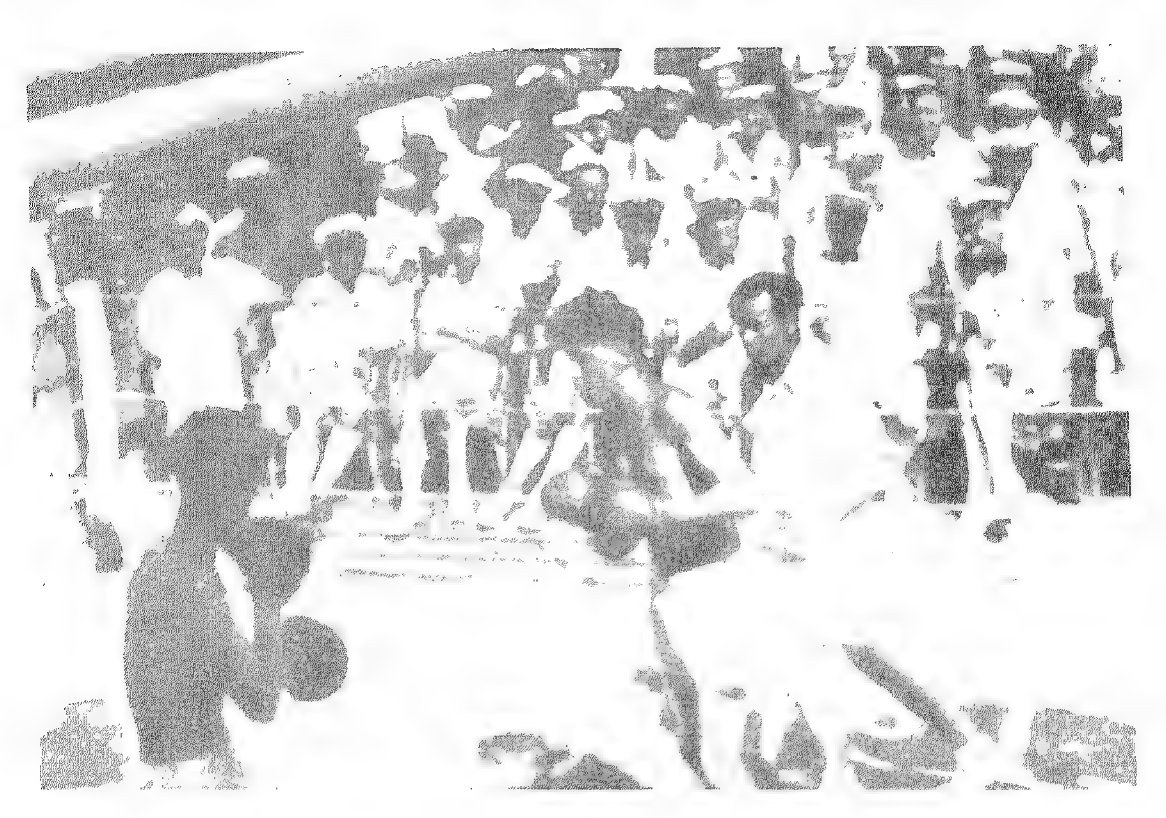
كانت طائرة تابعة للطرادة الانكليزية تحلق فوق الاطلانتيس ، بينما بدأت الطرادة نفسها « الديفونشاير » (٩٨٥٠ طنا – سرعتها ٣٢ عقدة – سلاحها : ثمانية مدافع عيار ٢٠٥ ، اي ان مدافعها اقوى بكثير من مدافع الاطلانتيس) باطلاق قذائفها . لم يكن امام روغه الا حل واحد : الحيلة . فأعطى اوامره : « اوقفوا الآلات ولا تطلقوا النار » ، ثم اسرع الى جهاز الارسال : « هنا بوليفموس ... هناك باخرة لم نستطع تحديد هويتها تأمرنا بالتوقف » كان روغه يعلم ان هذه السفينة موجودة وتشبه الاطلانتيس . ونجحت الحيلة كما كان يأمل ، وتوقف القصف .

وطال الانتظار ، وسمعت في الاطلانتيس الاتصالات بين الطرادة والطائرة . ومن المؤكد ان الانكليز كانوا يطلبون من فريتاون تحديد موقع البوليفموس الحالي .

عند الساعة ٩ والدقيقة ٣٥ ، عاودت الديفونشاير القصف وكانت تصيب اهدافها بفضل ارشاد الطائرة . عندها ايقن روغه ان الاطلانتيس قد ضاعت وان الغواصة ١٢٦ لن تأتي لنجدته ، وفكر برجاله . فعمد الى تخفيض السرعة واخذت زوراق الانقاذ بالنزول الى



دخان سفينة اغرقت
ويبدو بحارتها في قارب انقاذ .



بحارة الاطلانتيس والاسرى « يتبارون » بالملاكمة

البحر ، وبدأ الملاحون بمغادرة السفينة بواسطة السلالم والحبال . اما روغه فكان اخر من قفز الى الماء .

واخيرا اختفت الاطلانتيس بعد ان اغرقت ٢٢ سفينة حليفة اي ما حمولته ١٣٦٥٥٠ طنا .

غرق الاطلانتيس

بعد ذهاب « الديفونشاير » ، برزت الغواصة ١٢٦ من جديد ، فقطرت قوارب الانقاذ واستمرت الرحلة ثلاثة ايام وكانت قاسية ، الى ان قابلت « البيتون » وهي سفينة تمون الغواصات ، فتم نقل جميع الناجين من ركاب الاطلانتيس اليها .

كان على البيتون مهمة اخرى ، هي تموين غواصات الاميرال دونتس بالوقود . وكان سيتم جنوبي المكان الذي غرقت فيه الريدر .

والواقع ان وجود الألمان في جنوبي الاطلسي كان يقلق القيادة البحرية الانكليزية . وفي اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ، ارسلت عشر سفن انكليزية واميركية للبحث عنهم شمال خط الاستواء ، فهذه المنطقة ، خارج الطرق ، كانت خالية ، وبالتالي ملائمة للقاءات بين الغواصات والسفن الممونة . وهذه المهمة هي التي ادت اولا الى اسر الاودنفالد على يد الطرادة الاميركية أوماها ، ثم الى اغراق الاطلانتيس من قبل الطرادة الانكليزية الديفونشاير .

البيتون تفاجأ بطرادة

بعد ظهر يوم الاثنين في ١ كانون الاول (ديسمبر) ، شاهدت الدورستشاير الانكليزية باخرة شحن كبيرة متوقفة في عرض البحر ، وعندما اقتربت منها ، لاحظت انها لاصقة بغواصتين : كانت البيتون .

للمرة الثانية سمع الكومندان روغه الصرخة : « طرادة عدوة مقابلنا ! » ، فأسرعت الغواصتان بالافتراق عن « الام المغذية » وبالاختفاء . اما البيتون فحاولت الهرب ، لكن الدورستشاير لحقت بها وبدأت باطلاق قذائفها .

عندما ادرك قائد الريدر انه لن يتمكن من انقاذ سفينته من الدمار او من الاسر وهو الأسوأ ، امر بخرقها لاغراقها ، وباخلائها .

وبينما كانت البيتون تغوص وقوارب الانقاذ تهم بالنزول الى البحر ، كانت طائرة تابعة للطرادة تحلق فوق الريدر على ارتفاع منخفض جدا ، لكنها لم تطلق النار عليها . اما الغرقى الالمان فكانوا يعلقون الامال على الغواصتين لضرب الطرادة البريطانية ، لكن قائد الدورستشاير كان يعرف ، كزميله قائد الديفونشاير ، ما يجب فعله ، فتصرفت الطرادة الثانية كشقيقتها الاولى وابتعدت للأسباب نفسها .

وعادت قصة الغرقى الى الظهور ، لكنهم كانوا هذه المرة برفقة ركاب البيتون . ولقد تعذر على الغواصتين قطر زوارق الانقاذ اذ كانتا بحاجة الى الطوربيد والزيت والمحروقات .. فتقرر ان تتقاسم كل منهما الناجين ، واتجهتا نحو الرأس الأخضر . وفي ٨ كانون الأول (ديسمبر) وردهما خبر اعلان الحرب على الولايات المتحدة .

وفي هذا الوقت ، كانت الاتصالات جارية لارسال اربع غواصات ايطالية للتخفيف عن الغواصتين الالمانيتين المكتظتين ، وكان ينقصهما الماء والغذاء .. ثم ان اي لقاء بينهما وبين المدمرات العدوة كان لا بد ان ينتهي بكارثة .

وصلت الغواصات الايطالية الى المكان المحدد وتقاسمت مع الغواصتين الألمانيتين ركاب الاطلنتيس والبيتون ، ثم اتجهت السفن الست نحو سان نازير .

في ٤ كانون الثاني (يناير) ، كان روغه يستقبل رجاله على الرصيف وقد بدا عليه التعب ، وكان قد وصل قبلهم بيوم .

وهكذا انتهت قصة رجال الاطلانتيس .

نهاية موجة الريدر الاولى

في لوريان ، فهم الاميرال دونتس ان عهد تموين الغواصات عن طريق البواخر العادية قد ولى ، وان الوقت قد حان ليستبدل بها غواصات كبيرة للتموين من طراز ١٤ .

في المرافئ الالمانية ، كان الاميرال ريدر يهيئ رحيل الموجة الثانية من سفن الريدر .

صحيح ان نجاح سفن الموجة الأولى يبدو ضئيلا اذا ما قورن بنجاح الغواصات (٧٧ باخرة تجارية عدوة اي ما حمولته ٥٢٤ ٥٩٦ طنا) . لكنها كانت ذات فائدة ، فقد اجبرت الانكليز على تجميد الطرادات المساعدة وحتى الطرادات الخفيفة والثقيلة التي يمكنها حماية مواكب البواخر التجارية والبواخر التي تنقل الجنود والاليات قبيل عمليات الانزال .

لقد استنتج الانكليز ان كل ضحايا الريدر كانت سفنا منفردة ، وان اي قافلة لم تهاجم . فكان ذلك عبرة لهم .

المرجــــع : من مجلة (Histoire de la Mer)

أجل ! أعمى

● يروي سيادة المطران بولس الخوري أن شحاذا أعمى تقدم منه مستعطيا ، فدفعه عنه أحد رجال الشرطة وعنفه بشدة ، فقال المطران : «وماذا فعل هذا الأعمى حتى استحق هذه المعاملة» ، أجاب الشرطي : «ولكنه ، يا صاحب السيادة ، ليس أعمى بل يتظاهر بالعمى ليستعطي ، فقال المطران بولس : «وهل يعقل أن يكون مبصرا من يستعطي من رجال الاكليروس ؟»

من كتاب لئلا تضيع
سلام الراسي

● اذا كان في وسعك ان تحب ففي وسعك ان تفعل اي شيء .

تشيكوف





حكاية النقد في لبنان



مُنذ العَهْد العُثماني حتى عَهْد الإسْتِقلال

كان لبنان وسوريا قبل الحرب العالمية الأولى يشكلان جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وكانا خاضعين للنظام النقدي التركي ، الذي اعتمد سنة ١٨٨٨ مرتكزاً على قاعدة الذهب مع بقاء القاعدة العرجاء في نظام المعدنين . وكانت وحدة النقود المستعملة هي الليرة التركية الذهب وكانت تساوي ٤,٤٠ دولار ذهب من دولارات الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الوحدة تنقسم إلى ١٠٠ قرش وتزن ٧,٢١٦ غرامات بدرجة نقاوة تبلغ ٠,٩٦٥ من الذهب . وكانت هناك في التداول إلى جانب النقود العربية قطع فضية أساسية رئيسية ومساعدة .

وكانت النقود الورقية التي يصدرها البنك العثماني وهو شركة فرنسية انكليزية تأسست سنة ١٨٦٢ على الرغم من قابليتها للتحويل إلى ذهب وعلى الرغم من أنها مغطاة بالذهب بنسبة ٢٠٠ بالمئة غير مستعملة أو تكاد تكون غير معروفة في كثير من المناطق العثمانية لأن أهل هذه المناطق كانوا يفضلون دائماً التعامل بالنقود الذهبية والمعدنية وكانت تعوزهم عادة التعامل بالنقود الورقية .

وأثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ تبنت تركيا نظام النقود الورقية



الاجبارية وأوكلت مهمة أصدار النقود الورقية إلى إدارة الديون العامة العثمانية . إلا أن الجمهور لم يكن عنده أي ثقة في هذه النقود مما أدى إلى انخفاض قيمتها وارتفاع الأسعار .

وفي لبنان وسوريا لم يستطع القانون ولا القوة أن يجعلا من هذه النقود وسيلة للتبادل ، بل بقيت النقود المعدنيـــة هي الوحيـــدة في السوق . حتى أن مشتريات الدولة نفسها كانت تتم بالنقود الذهبية والفضية مما أدى إلى تزايد هذه النقود ولا سيما عندما كانت الجيوش العثمانية عاملة في البلدين مما أدى بدوره إلى ارتفاع الأسعار .

وفي سنة ١٩١٨ عندما احتلت الجيوش البريطانية والفرنسية سوريا ولبنان قامت بالغاء النقود الورقية التركية وأحلت مكانها الجنيه المصري فأتت هذه النقود الجديدة تضاف إلى النقود القديمة وتزيد كمية النقود المتداولة .

وفي ٣١ آذار ١٩٢٠ بعد أن أصبح لبنان وسوريا تحت الانتداب الفرنسي أمرت المفوضية العليا الفرنسية رسميا بسحب الجنيه المصري من التداول وأصدرت نقوداً ورقية جديدة لبنانية – سورية مرتبطة بالفرنك وكانت وحدة النقود هي الليرة اللبنانية – السورية مقسمة إلى ١٠٠ قرش وقابلة للتحويل لحاملها عند الطلب لقاء ٢٠ فرنكا فرنسيا .



الليرة اللبنانيـــة – السوريـــة وتغطيتهـا الذهبية :

والحقيقة أن هذه الليرة لم تكن سارية إلا في لبنان الذي كان وحده آنذاك تحت الانتداب الفرنسي . وفي الوقت نفسه قامت في سوريا المملكة العربية التي أسسها الملك فيصل الأول وانشأ لها نقوداً وطنية جديدة مرتكزة على قاعدة الذهب ووحدتها الدينار السوري .

لكن هذه النقود لم تعمر طويلا إذ ما لبثت سوريا أن احتلتها الجيوش الفرنسية وامتـد الانتداب الفرنسي اليها بموجب قرار أصدره المفوض السامي بتاريخ ٩ آب ١٩٢٠ وجعل النظام النقدي الساري في لبنان يمتد اليها أيضا .

ولقد منح امتياز اصدار هذه النقود إلى بنك سوريا شركة فرنسية ضمت لحسابها الفروع القديمة للبنك العثماني . وكانت تغطية هذه النقود عبارة عن سندات على الدولة الفرنسية أو ودائع في الخزينة الفرنسية وكانت العلاقة مع الفرنك مؤمنة بالعبارة المتضمنة عند الاصدار والتي يتم الوعد بموجبها بابدالها لحاملها لقاء ٢٠ فرنك فرنسي بموجب شيك قابل للدفع دون اكلاف لدى شبابيك بنك الاصدار في باريس أو مرسيليا . وهو نظام من نوع نظام قاعـدة التبادل الذهبي في حالة اتباع فرنسا لقاعدة الذهب و نظام قاعدة التبادل الفرنكي عندما لا تتبع فرنسا هذه قاعدة الذهب .

وكان رأس مال « بنك سوريـا » عنـد تأسيسه سنة ١٩١٩ عشرة ملايين فرنك وفي السنة التالية وصل رأس المال إلى ٢٠ مليون ونصف المليون مقسم إلى ٥١ ألف سهم منها ١١ ألفا خاصة البنك العثماني لقاء أرصدته وامتيازاته التي تخلى عنها . أما الأربعون ألف سهم الباقية فقد بقـي يملكهـا مساهمـون فرنسيون . ووافق هؤلاء بعدئذ على بيع ثمانية آلاف سهم منها إلى لبنانيين وسوريين . وكان البنك خاضعا للقانون الفرنسي ومركزه الرئيسي باريس .

وكان من المفروض أن تتألف التغطية من ودائع على الخزينة الفرنسية في باريس ومن نقود أجنبية ومن أوراق تجارية مسحوبة على بلدان أجنبية لكن البنك لم ينفذ الشرط الأخير من شروط التغطية أي النقود والأوراق التجارية

الأجنبية وأبدله بسندات الدفاع الوطني الفرنسي التي لم تكن سوى سندات حكومية قصيرة الأجل .

أما الأرباح العائدة من فوائد التغطية فكانت تعود بأكملها إلى « بنك سوريا » وكذلك فقد كانت الخزينة الفرنسية تطلب من البنك سحب النقود الورقية الأجنبية من التداول في الأسواق واصدار نقود ورقية سورية لبنانية مكانها . وكان الهدف من ذلك تمكين فرنسا من دفع نفقات جيوشها بالنقود السورية من جهة وسحب النقود الأجنبية لزيادة الودائع في الخارج من جهة ثانية .

بنك سوريا ولبنان الكبير :

وفي ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٤ وقعت اتفاقية بين البنك الذي أصبح اسمه « بنك سوريا ولبنان الكبير » وبين الجمهوريتين اللتين أسستا حديثا ووضعتا تحت الانتداب الفرنسي ودخلتا في وحدة اقتصادية وجمركية . وتنص الاتفاقية على منح البنك امتياز اصدار النقود لمدة ١٥ سنة .

واعترفت الاتفاقية بالحالة النقدية الراهنة التي وضعها المفوض السامي بقراره الأول بتاريخ ٣١ آذار ١٩٢٠ بالنسبة للبنان وقراره الثاني بتاريخ ٩ آب ١٩٢٠ بالنسبة لسوريا وبقيت الليرة السورية - اللبنانية مرتبطة بالفرنك بذات الشروط .

ولقاء هذا الامتياز تعهد البنك بأن يدفع كل سنة إلى الحكومتين اللبنانية والسورية قسماً من أرباح التغطية تتراوح وفقاً لكمية النقود الورقية المتداولة . وتعهد البنك أيضا بأن يقبل بين أعضاء مجلس ادارته ولجنته الاستشارية ممثلين عن مختلف المصالح الحكومية الوطنية . وتعهد البنك من جهة ثالثة بأن يفصل قسم الاصدار فيه عن القسم التجاري . وحدد الحد الأعلى لكمية الاصدار بمبلغ ٢٥ مليون ليرة سورية لبنانية .أما التغطية فقد فرض أن تكون مؤلفة من العناصر التالية :

١ - ذهب « نقود وسبائك » وسندات حكومية أجنبية قابلة للتعويض بالذهب . ولم تحدد في الاتفاقية نسبة لهذا العنصر من التغطية .

٢ - أوراق تجارية ذات مستوى معين لا تتعدى قيمتها الاسمية أكثر من ٧ بالمائة من كمية التداول أو مليون ليرة لبنانية - سورية .

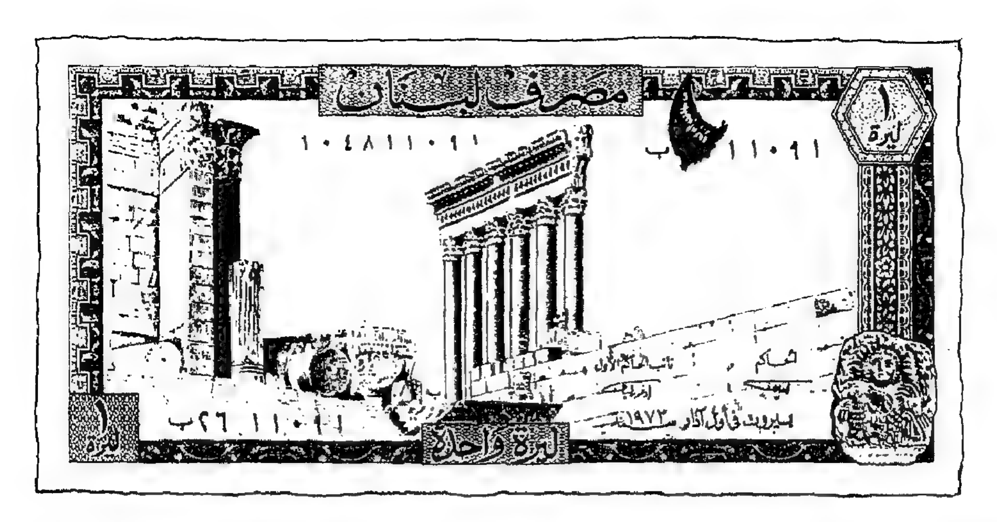
٣ - ودائع من الفرنكات الفرنسية اجبارية في المركز الرئيسي للخزانة العامة في باريس . تبلغ قيمتها ثلث قيمة النقود الورقية المتداولة وتوضع هذه الودائع تحت « حساب أ » وتعطي فائدة ١,٥٠ بالمائة سنويا .

٤ - ودائع من الفرنكات الفرنسية الاختيارية توضع في الخزانة العامة في باريس وقابلة للسحب عند الطلب وتوضع تحت « حساب ب ب » على أن لا تتعدى نسبتها ٢٢ بالمائة من مجموع التغطية .

٥ - أوراق مسحوبة على الدولة الفرنسية وتضمنها الدولة الفرنسية ومودعة في بنك فرنسا .

والملاحظ أن هذه الاتفاقية لم تفرض على « بنك سوريا ولبنان الكبير » أن يحتفظ في التغطية بنسبة معينة من الذهب أو الأوراق الأجنبية القابلة للتحويل إلى ذهب ولقد استغل البنك هذه الثغرة لكي لا يدخل أوراقا أجنبية قابلة للتحويل إلى ذهب في التغطية أما النقود الذهبية والسبائك الذهبية فلم تكن تشكل من التغطية شيئا يذكر بل كانت نسبتها في التغطية لا تزيد بأي حال من الأحوال عن ٣ بالمئة .

ولقد بقيت هذه الاتفاقية سارية المفعول من ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ حتى أيار ٢٩ أيار ١٩٣٧ « بالنسبة للبنان » وبديهي مما ذكرنا أنها كانت تربط الليرة اللبنانية - السورية بالفرنك الفرنسي . ولقد مر هذا الفرنك الفرنسي خلال هذه المدة بسلسلة من التقلبات التي أدت إلى تدهور قيمته ولم تكن أسباب هذا التدهور متصلة لا من قريب ولا من بعيد بلبنان ولا بسوريا لكن الليرة اللبنانية - السورية كانت مضطرة أن تتأثر في قيمتها في كل مرة تتأثر فيها قيمة الفرنك . وهكذا مني الشعب اللبناني والشعب السوري الذي يحمل النقود اللبنانية - السورية بخسائر فادحة من جراء تدهور قيمة نقودهما ، مما حدا بالناس إلى المحافظة على استعمال النقود المعدنية لا سيما الليرة الذهبية التركية وتحويل كافة الادخارات والمبيعات الكبيرة والمتوسطة من النقود اللبنانية - السورية الورقية اليها . ولقد أدى هذا الانخفاض في قيمة النقود اللبنانية - السورية إلى حاجة البلاد إلى اصدار كميات جديدة منها مما سبب تضخما نقديا وارتفاعا في الأسعار .



تجديد الاتفاقية ٥٢ سنة :

وفي أيار ١٩٣٧ تجددت اتفاقية ١٩٢٤ لمدة ٥٢ سنة بالنسبة للبنان أما عقد التجديد بالنسبة لسوريا الذي وقع في ١٢ شباط ١٩٣٨ فلم يوافق عليه مجلس النواب السوري . ولقد قضى التجديد بالمحافظة على « نظام قاعدة التبادل الفرنكي » ولكنه أضاف إلى ذلك التعديلات التالية ...

١ – إجبار البنك على ايجاد نسبة معينة في التغطية من الذهب على شكل نقود أو سبائك .

٢ – رفع النسبة المئوية للأوراق التجارية في التغطية من ٧ بالمئة إلى ١٢ بالمئة والغاء الحد الأقصى .

٣ – نص « الحساب أ » إلى ربع قيمة النقود المتداولة و « حساب ب » إلى ٦ بالمائة من التغطية الاجمالية .

أدى انكسار فرنسا سنة ١٩٤٠ ودخول جيوش الحلفاء إلى لبنان وسوريا إلى تغييرات كبيرة في النظام النقدي للبلاد . ففي ٨ حزيران ١٩٤١ وقبل احتلال جيوش الحلفاء « وفرنسا الحرة » البلاد أعلت الجنرال كاترو إلى اللبنانيين والسوريين قائلا « سوف تدخلون حالا في علاقات مع كتلة الاسترليني مما يفتح لكم مجالات واسعة بالنسبة لتجارة التصدير والاستيراد .

ارتباط الليرة اللبنانية – السورية بالفرنك :

وهكذا ارتبطت النقود اللبنانية – السورية بفرنك « فرنسا الحرة » وعادت اليها المعادلة التي كانت سائدة قبل الحرب أي عشرين فرنكا لكل ليرة لبنانية – سورية وكان هذا الربط بمثابة ملحق للاتفاق المالي الفرنسي – البريطاني المسمى باتفاق « ديغول – ايدن » .

وقد قضى هذا الاتفاق بتحديد قيمة فرنك فرنسا الحرة بالنسبة للجنيه الاسترليني كما كانت هذه القيمة قبل الحرب أي ١٧٦,٦٢٥ فرنكا لكل جنيه استرليني . وعندما امتد هذا الاتفاق إلى لبنان وسوريا تحددت قيمة الليرة اللبنانية – السورية بالنسبة لليرة الاسترلينية بمعدل ٨٨٣,١٢٥ قرشا لبنانيا – سوريا لليرة الاسترلينية الواحدة .

وبذلك أصبحت النقود اللبنانية – السورية مرتبطة بمنطقة الاسترليني ولكن الاسترليني بقي خاضعا للتنظيم العام للقطع الأجنبي ولم يكن مكتب القطع يسمح به إلا من أجل المدفوعات الخارجية التي تقتضيها حاجات أساسية جوهرية . ففي ١٢ تشرين الثاني ١٩٤١ أصدر المفوض السامي الفرنسي قرارا أنشأ بموجبه « مكتب القطع » وهو مكتب مستقل من المنافع العامة يعمل لحساب المفوضية العامة لفرنسا الحرة وتحت مسؤوليتها . ولقد أدخل هذا القرار أيضا تعديلات على عناصر التغطية إذ سمح للبنك بأن يدخل عليها السلفات التي يمنحها إلى مكتب القطع .

اتفاق نقدي جديد :

وعندما انتهى نظام الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٣ طرأ على النظام النقدي اللبناني – السوري تعديل جديد . فلقد عقدت حكومتا

بريطانيا وفرنسا الحرة فيما بينهما اتفاقا نقديا وماليا في كانون الثاني سنة ١٩٤٤ ثم دعتا حكومتي سوريا ولبنان إلى الانضمام إليه . ولقد وضع بروتوكول ملحق به ووقعه ممثلون عن حكومات فرنسا وبريطانيا وسوريا ولبنان . تم بموجبه ادخال النقود اللبنانية – السورية في كتلة الفرنك .

ولقد نجم عن هذا الاتفاق أن اصبح « مكتب القطع » مستقلا تديره لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء وممثل عن الحكومة السورية وكانت مهمة هذه اللجنة اعداد النصوص الرامية إلى تنظيم مراقبة القطع الأجنبي في سوريا ولبنان بطريقة تنسجم مع القواعد العامة السارية ضمن كتلة الفرنك التي وضعت لمراقبة القطع الأجنبي ومع مصالح التجارة اللبنانية السورية .

ونجم عن هذا الاتفاق أيضا أن أصبح مكتب القطع مكتبا سوريا – لبنانيا ولقد وقعت اتفاقية لاحقة في ١٩ نيسان سنة ١٩٤٤ ، وقعها ممثلون عن الحكومتين اللبنانية – والسورية وعن بنك سوريا ولبنان وعن الحكومة الفرنسية وهي تقضي بنقل النقود الأجنبية الموجودة في مكتب القطع إلى بنك سوريا ولبنان لكي يستعملها هذا البنك كتغطية للنقود الورقية المتداولة .

ونجم عن الاتفاق من ناحية ثالثة أن أصبحت قيمة الليرة اللبنانية – السورية بالنسبة للفرنك الفرنسي ٢٢,٦٥ فرنكا لليرة الواحدة مما أدى إلى أن تحدد قيمة الليرة بالنسبة للاسترليني بواقع ٨٨٣ قرشا لبنانيا – سوريا للجنيه الاسترليني وأن تكون قيمة الاسترليني بالنسبة للفرنك الفرنسي ٢٠٠ فرنك .

الارتباط بثلاث عملات :

وفي سنة ١٩٤٧ وقع كل من لبنان وسوريا اتفاق بريتون وودز وأصبحتا بذلك عضوين في صندوق النقد الدولي وفي البنك الدولي وفي البنك الدولي للتعمير والانماء .

وبدخول لبنان وسوريا في صندوق النقد الدولي يكونان قد حددا نقدهما بالنسبة للذهب أو الدولار ويكونان قد تعهدا بالمحافظة على هذه النسبة التي اتفق عليها في قيمة الليرة اللبنانية – السورية حيال الذهب أو الدولار وذلك بالمحافظة على التوازن في ميزان مدفوعاتها الدولي .

ويلاحظ مما تقدم أن لبنان وسوريا أصبحا خاضعين لثلاث اتفاقات نقدية ومرتبطين بثلاث عملات ... الفرنك الفرنسي فيما يتعلق بالتغطية والاسترليني فيما يتعلق بشأن قيمة هذه التغطية والذهب أو الدولار فيما يتعلق بقيمة الليرة اللبنانية – السورية الرسمية الخارجية .

اعتبرت سوريا ولبنان أن اتفاق عام ١٩٤٤ يحترم مصالحهما . النقدية . ذلك لأن الفرنك الفرنسي لم يعد عملة تتمتع بالقوة الكافية لكي يسند وحده نقودا أخرى . ولقد طرأ على قيمة الفرنك تدهورات كثيرة وخرج بعد الحرب بمستقبل غير وثيق .

ولكن الأمر لم يدم طويلا على هذا المنوال . فعلى أثر تخفيض قيمة الفرنك في كانون الأول ١٩٤٥ اضطرت فرنسا حسب اتفاق ١٩٤٤ أن تنفذ تعهدها القاضي برفع قيمة التغطية للنقود اللبنانية – السورية والقاضي بزيادة موجودات بنك سوريا ولبنان ومكتب القطع من الفرنكات الفرنسية كل هذا بنفس نسبة خفض قيمة الفرنك ومع حساب هذه الفروقات وفقا لسعر الصرف المحدد مسبقا بالنسبة للجنيه الاسترليني . ومن جهة أخرى نشطت في تلك الأثناء حركة متواصلة في تحويل رؤوس الأموال السورية اللبنانية إلى عملات منطقة الاسترليني . ولقد كان هذا طبيعيا لأن الاسترليني كان عملة أقوى نسبيا من الفرنك وكان يعتبر ملجأ وملاذا من الفرنك المتدهور . ولقد أدت هذه العمليات إلى تشكيل رصيد كبير من القطع الأجنبي الأقوى من الفرنك . وكانت سوريا ولبنان يجدان حقهما في ذلك لأن تزايد كمية النقود المتداولة عندهما قد تأتي من اتفاقات الجيوش البريطانية في سورية ولبنان لكي يكون بمثابة تغطية للنقود الورقية السورية اللبنانية المصدرة حديثا لسد حاجة اتفاقات الجيوش البريطانية .

لكن فرنسا لم تحتمل أن تجد احتياطياتها من العملة الأجنبية تنسلخ عنها شيئا فشيئا لتضاف إلى حساب الليرة السورية السورية اللبنانية في بنوك الاسترليني . ولذلك فقد عمدت إلى توجيه مذكرة إلى الحكومتين اللبنانية والسورية تعلمها فيها نقضها لجزء من اتفاق ١٩٤٤ فقد أعلنت في هذه المذكرة ايقاف حرية شراء الاسترليني متذرعة بأن هناك تغيرات

عميقة قد طرأت على الوضع النقدي في الدولتين وأن هذا التطور سوف يزداد في المستقبل إذا بقيت الحالة على ما هي عليه .

وإن شراء اللبنانيين والسوريين لنقود منطقة الاسترليني إنما هدفه الرئيسي أما تسديد مدفوعات استيراد بضاعة غير ضرورية لحاجات البلاد وأما هجرة رؤوس الأموال ونزوحها . وعلى أثر هذا القرار أصبح الاسترليني عملة صعبة أو نادرة بالنسبة لسوريا ولبنان وأصبح خاضعا لقوانين مراقبة القطع الأجنبي وعادت الليرة اللبنانية السورية غير مرتبطة إلا بالفرنك الفرنسي لوحده في الأسواق العالمية . ولم تعد مقبولة إلا في الأمكنة التي تقبل الفرنك الفرنسي وكلما كان الفرنك الفرنسي يضعف لاسباب لا علاقة لسوريا ولبنان بها كانت الليرة اللبنانية السورية يلحقها الضعف أيضا .

ولقد حارت السلطة الفرنسية كيف تتصرف ازاء تعهداتها المنصوص عنها في اتفاق ١٩٤٤ لا سيما بعد أن خفضت قيمة الفرنك سنة ١٩٤٥ إذا ان هذا الخفض اضطر فرنسا أن تدفع إلى بنك سوريا ولبنان مبلغ ١٦,٦ مليار فرنك بموجب اتفاق ١٩٤٤ . فثارت ثائرة الأوساط المالية الفرنسية وطلبت من الحكومة الفرنسية ايجاد مخرج لهذا المأزق . وفي ٢٠ آب ١٩٤٧ وجهت الحكومة الفرنسية إلى الحكومتين اللبنانية والسورية مذكرة أعلنت فيها نقضها التام لاتفاقية ١٩٤٤ . وذلك دون ان تأخذ رأي الحكومتين او تدخل في مفاوضة معهما .

لبنان وكتلة الفرنك :

وعلى أثر هذا النقض احتجت الحكومتان اللبنانية والسورية ونشطت الدعوة إلى الخروج من كتلة الفرنك فاضطرت الحكومة الفرنسية أن تدخل مع الحكومتين في مفاوضات انتهت بعقد اتفاق نقدي بين فرنسا ولبنان في ٦ شباط ١٩٤٨ . أما بالنسبة لسوريا فقد رفضت أن تعقد اتفاقا مماثلا مع فرنسا وأعلنت انسحابها من كتلة الفرنك وبدأت تنظيم مراقبة القطع فيها على أسس سورية بحتة .

يعالج هذا الاتفاق بصورة رئيسية الموجودات بالفرنكات الفرنسية في بنك سوريا ولبنان بوصفه مؤسسة الاصدار اللبنانية ويعالج أيضا ضبط حركة انتقال الأموال بين منطقة الفرنك وبين لبنان . ويعالج الاتفاق أيضا ضمانة الصرف بالنسبة لسعر الاسترليني المحدد والذي وافقت عليه في اتفاق ١٩٤٤ فيما يتعلق بالموجودات من الفرنك الفرنسي في بنك سوريا ولبنان .

ولقد أدى هذا الاتفاق بين لبنان وفرنسا وانفراد لبنان بعقد الاتفاق مع فرنسا من دون سوريا إلى نتائج عميقة في العلاقات الاقتصادية بين الدول الثلاث .

وأهم هذه النتائج التمييز الذي ظهر لأول مرة بين الليرة اللبنانية والليرة السورية . فقبل هذا التاريخ كانت الليرتان سائدتين في الدولتين بدون تمييز . ولكن منذ أن وقع الاتفاق اللبناني الفرنسي ومنذ أن خرجت سوريا من كتلة الفرنك قامت عملتا شراء للعملة السورية في لبنان وللعملة اللبنانية في سوريا ثم جرت مقاصة تركت لبنان دائنا لسوريا بمبلغ ٤٤ مليون ليرة .

أما النتيجة الثانية التي تمخضت عن الاتفاق اللبناني الفرنسي فهو انقسام مكتب القطع إلى مكتب لبناني ومكتب سوري وتوقفت حرية عملية التحويل بين البلدين .

والنتيجة الثالثة أن سوريا جمدت التغطية من الفرنكات بالنسبة للعملة السورية واتخذت اجراءات شديدة تضبط فيها عمليات تحويل النقود إلى الخارج .

ولقد كان الانفصال النقدي بين لبنان وسوريا أولى مراحل الانفصال الاقتصادي والجمركي الذي تم في آذار ١٩٥٠ .

زيادة التغطية الذهبية :

ولقد حرص لبنان بعد ذلك على تخفيض ارتباطه بالفرنك الفرنسي إذ أخذ يشتري كميات من الذهب لتغطية الليرة اللبنانية وبذلك تناقضت نسبة الفرنكات الفرنسية من التغطية وأخذت نسبة الذهب تتراوح بين ٧٩ و ٨٣ و ٩٤ بالمئة مما ضمن للبنان نقدا قويا ثابتا مضمونا بالذهب من جهة وبنشاطه المالي والاقتصادي من جهة ثانية وبوجوده عضوا في صندوق النقد الدولي من حيث جهة مركز الليرة اللبنانية على الصعيد الدولي .

ويواجه لبنان اليوم مستقبلا نقديا أكثر استقلالا من الماضي لا سيما بعد أن انتهى أجل العقد مع بنك سوريا ولبنان سنة ١٩٦٤ وبعد

أن صدر في المراسيم الاشتراعية لسنة ١٩٥٩ مرسوم بانشاء مجلس للنقد والتسليف كان الجهاز الذي تمخضت عنه سلطة نقدية وطنية عليا في لبنان هي البنك المركزي اللبناني .

الليرة اللبنانية والذهب :

منذ استقلال الليرة اللبنانية عن الفرنك الفرنسي وصدور قانون النقد اللبناني في ٢٤ أيار ١٩٤٩ كانت الرغبة في تعزيز تغطية الليرة اللبنانية . فلقد دفعت التخفيضات المستمرة للفرنك الفرنسي الحكومة اللبنانية إلى القيام بعملية تحويل العملات الأجنبية في التغطية إلى ذهب وشراء كمية اضافية منه فيما بعد . ونتيجة لذلك ارتفعت نسبة التغطية الذهبية من ٢٪ مجموع الأوراق النقدية المصدرة عام ١٩٤٨ إلى ٥٥٪ عام ١٩٥٢ ثم إلى ٩٥٪ عام ١٩٥٥ كما تراوحت فيما بعد عند حدود ٨٥٪ .

ولقد أدى هذا الارتفاع في نسبة التغطية إلى زيادة الثقة بالنقد اللبناني بالاضافة إلى توفر عوامل أخرى مساعدة كان منها مصرفيا حرية القطع الأجنبي وسرية المصارف وتشجيع دخول الرساميل العربية والأجنبية . ثم نمو وتوسع الاقتصاد اللبناني بالاضافة إلى الاستقرار السياسي في لبنان في الوقت الذي كانت دول المنطقة تعاني من تغيرات سياسية واقتصادية حادة في أنظمتها .

لهذه الأسباب ارتفعت قيمة الليرة اللبنانية وتثبتت دعائمها في الوقت الذي حافظ فيه سعر الذهب على استقراره ٣٨ دولاراً للأونصة حتى عام ١٩٧١ وبعدها عرفت معظم العملات والذهب تغيرات شديدة في أسعارها .

تطور أسعار الذهب :

يعود ارتفاع أسعار الذهب إلى عام ١٩٧١ عندما قررت الولايات المتحدة فك ارتباط قيمة الدولار بالذهب الذي كان يتم تداوله بين المصارف المركزية في ذلك الوقت بقيمة ٣٨ دولاراً للأونصة الواحدة . ولقد اضطرت الحكومات الأعضاء في صندوق النقد الدولي عام ١٩٧٢ إلى رفع سعر الذهب الرسمي إلى ٤٣,٢ دولاراً للأونصة في الوقت الذي كان سعره يرتفع في الأسواق الحرة بسرعة كبيرة من ٣٨ دولاراً عام ١٩٧١ إلى ٧٠ دولاراً عام ١٩٧٢ ثم إلى ١٢٧ دولاراً عام ١٩٧٣ مما أجبر صندوق النقد الدولي على التخلي عن نظام السعر المزدوج للذهب والسماح للمصارف المركزية ببيع ما لديها من ذهب على أساس أسعار السوق الحرة ومنعها من شرائه كي لا تساهم في ازدياد الطلب ورفع الأسعار .

ثم كان عام ١٩٧٤ عندما أعلنت الولايات المتحدة الغاء القانون الذي يمنع مواطنيها من شراء الذهب مما أدى إلى التهافت الكبير على شرائه فارتفع سعره من جديد في أواخر عام ١٩٧٤ إلى ١٩٥,٥ دولار للأونصة الواحدة ثم قامت الحكومة الأميركية عام ١٩٧٥ ببيع ١,٣ مليون أونصة لحمل أسعار الذهب على الهبوط ورافق ذلك الغاء السعر الرسمي للذهب وبيع جزء من مخزون صندوق النقد الدولي مما ساهم في هبوط سعر الذهب خلال عام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ثم عادت أسعاره إلى الارتفاع عام ١٩٧٧ مع تقلبات أسعار صرف الدولار ونظراً لتفاقم وضع الدولار قررت الادارة الاميركية في نيسان ١٩٧٨ بيع ١,٨ مليون أونصة خلال الأشهر الستة التالية على أساس ٣٠٠ الف أونصة كل شهر . وفي شهر تشرين الثاني من نفس العام تم رفع كمية المبيعات الشهرية إلى ٧٥٠ الف أونصة ثم تم فيما بعد مضاعفتها أيضا الى ١,٥ مليون أونصة ضمن برنامج كارتر لدعم الدولار . وبعد أن استعاد الدولار قوته الذاتية عادت الخزينة الأميركية وخفضت كميات مبيعاتها الشهرية إلى ٧٥٠ الف أونصة وقد قابل ذلك ارتفاع في أسعاره حيث تعدى سعر الأونصة الحاجز النفسي ٣٠٠ دولار ثم حاجز ٤٠٠ دولار كما عرف بعد ذلك تغيرات حادة وتقلبات سريعة ، بدرجة أنه بلغ حوالي ٨٠٠ دولاراً بعد التدخل السوفياتي لافغانستان .

قيمة الليرة اللبنانية بالذهب :

تخلى قانون النقد والتسليفات لعام ١٩٦٣ عن المعادلة السابقة لليرة اللبنانية بالذهب / ٤٠٥,٥١١٢ ملغرام من الذهب الخالص لكل ليرة حسب قانون النقد اللبناني لعام ١٩٤٩ ونص على تحديد قيمة الليرة بالذهب بموجب قانون لاحق . وذلك سبب اختلاف قيمة الليرة اللبنانية في السوق الحرة بالنسبة للدولار وبالتالي إلى القيمة المساوية له ذهبا في ذلك الحين عن القيمة الاسمية لدى صندوق النقد الدولي .

ولقد أدى ذلك إلى وجود سوق صرف لليرة الأول سعر السوق الحر الذي يستعمل في جميع العمليات الخاصة والثاني السعر الرسمي أو السعر القانوني الانتقالي بموجب المادة ٢٢٩ من قانون النقد والتسليف التي حددت السعر الانتقالي على أساس أنه سعر الصرف الحقيقي المقرر لليرة اللبنانية قياساً إلى الدولار محدداً بوزنه من الذهب .

ولقد أعيد بحث السعر الانتقالي القانوني من جديد بعد التراجع الذي لحق بالدولار عام ١٩٧١ وتخفيضه نظراً لأن المادة ٢٢٩ من قانون النقد والتسليف كانت تحدد السعر الانتقالي لليرة بالنسبة للدولار – المساوى ٠,٨٨٨٦٧١ غرام من الذهب الخالص . لذلك فان تخفيض سعر الدولار بنسبة ٧,٨٪ فرض اعادة تحديد السعر القانوني ، ولهذه الغاية وضع مجلس الوزراء في أيار ١٩٧٢ مشروع قانون يخول الحكومة خلال ستة أشهر من تاريخ اقراره ونشره تحديد سعر انتقالي جديد لليرة بعد استشارة مصرف لبنان وصندوق النقد الدولي . ولكن لم يتم التصويت على مشروع القانون واستمر الوضع على ما هو عليه إلى أن أصدر وزير المالية في ٧٣/٣/٢٨ القرار رقم ٨٨٣ باعتماد السعر الوسطي الشهري سعراً للقطع على أساس متوسط الأسعار الفعلية في سوق بيروت . ولقد تم تصديق الاجراءات المتخذة بشأن اعتماد سعر الذهب الجديد بالنسبة للدولار الأميركي واعتماد المعدلات الواقعية للعملات الأجنبية بالنسبة لليرة اللبنانية في المرسوم رقم ٦١٠٤ وكذلك اعطيت الحكومة صلاحية تحديد سعر انتقالي جديد لليرة اللبنانية في المرسوم رقم ٦١٠٥ الصادر في ١٩٧٣/١٠/٥ .

ماذا كانت النتائج ؟

لم يتم حتى الآن تحديد سعر رسمي لليرة اللبنانية رغم أن القانون الذي أعطى استقلالها نص في مادته الأولى على تحديد قيمتها بالنسبة الى الذهب . كما أعطيت الحكومة اللبنانية مجدداً في المرسوم رقم ٦١٠٥ الصادر في ١٩٧٣/١٠/٥ صلاحية تحديد سعر انتقالي قانوني جديد لليرة اللبنانية . ونتيجة ذلك بقي نظام القطع المتبع في لبنان النظام العائم الذي يترك فيه للسوق تحديد القيمة الخارجية لليرة اللبنانية . ولقد دافع عن هذا الموقف خاصة مصرف لبنان نظراً لقناعته بعدم جدوى التدخل في سوق بيروت المقترحة على كافة الأسواق الدولية وبالتالي المعرضة لجميع المتغيرات والتأثيرات التي تلحق بقيمة العملات الأجنبية . ولقد أوضح ذلك حاكم مصرف لبنان السابق الرئيس الياس سركيس قائلا « إن الدعوة إلى تحديد سعر رسمي لليرة وتثبيته وهي دعوة إلى مغامرة أقل ما يقال فيها أنها مجهولة النتائج » .

ارتفاع قيمة التغطية الذهبية لليرة فلقد بلغ وزن الذهب في التغطية ٩,٢ مليون أونصة كانت مسعرة ٣٨ دولاراً حتى عام ١٩٧٢ وفي عام ١٩٧٣ تم اعتماد سعر الذهب الجديد بالنسبة للدولار الأميركي وهو ٤٢,٢ دولاراً للأونصة وبلغت قيمة التغطية الذهبية بالدولارات ٣٨٩,٣ مليون دولار ..

وما زالت قيمة التغطية الذهبية تقوم على هذا السعر في حين أن سعر الأونصة ارتفع إلى ما يقارب العشرة أضعاف ولو حاولنا نظريا اعادة تقويم مخزون الذهب بسعر متحفظ يدور حول ٣٥٠ دولاراً للأونصة لوجدنا أن قيمة التغطية الذهبية تبلغ ٣٢٢٠ مليون دولار بدلا من ٣٨٩ مليون دولار أي ما يزيد عن سبعة أضعاف السعر المسجل في بيانات البنك المركزي وإذا ما قارنا قيمة التغطية بالنقد في التداول بتاريخ ٧٩/١٠/١٥ على أساس ٣٥٠ دولاراً للأونصة وبسعر وسطي للدولار ٣٢٦ قرشا لشهر تشرين أول ١٩٧٩ لوجدنا أن قيمة التغطية الذهبية ترتفع إلى ١٠,٨١٩ مليون ليرة لبنانية مقابل ٣٦٤٥ مليون ليرة في التداول أي بنسبة ٢٩٧٪ أو ثلاثة أضعاف تقريباً وإذا ما أضفنا إلى التغطية الذهبية العملات الأجنبية التي تشكل من الغطاء في ذلك التاريخ ١٩٧٩/١٠/١٥ والبالغ مجموعها ١٦٤٨ مليون ليرة لبنانية فان نسبة التغطية ذهب وعملات أجنبية إلى نقد في التداول ترتفع إلى ٣٤٢٪ أو ثلاثة أضعاف ونصف ولا شك أن هذا الأمر يدل على مقدار ارتفاع تغطية الليرة وقوتها . لكن أحداث السنوات الأخيرة غيرت من سلوك الليرة .

تطور سعر الليرة :

تأثرت أسعار صرف الليرة خلال الفترة ١٩٧١ – ١٩٧٩ بأسعار الدولار خاصة

وبظروف الحوادث في العام ١٩٧٥ ولقد عرف سعر الليرة خلال هذه المدة مرحلتين أساسيتين .

أولا من عام ١٩٧١ حتى بداية الأحداث حيث انعكست أسباب أزمة النقد الدولية ووفرة دخول الرساميل على وضع الليرة اللبنانية فانخفضت قوتها الشرائية داخلياً بينما ارتفعت قيمتها الخارجية حيث أدى إلى زيادة حجم الانفاق النقدي بنسبة أكبر من الزيادة في عرض السلع والخدمات إلى التأثير على مستوى الأسعار . بالاضافة إلى ارتفاع أسعار السلع والمواد المستوردة من الخارج وتعرضها في الداخل لعملية تضخيم نتيجة الاحتكار وتعدد الوسطاء ..

لكن سعر الليرة ارتفع بالنسبة لقيمة العملات ١٦،٦٪ على الدولار عام ١٩٧٣ و ١٢،١٪ عام ١٩٧٤ . كذلك بالنسبة للاسترليني ١٢،١٦٪ و ١٧،٥٪ على التوالي عام ١٩٧٣ و ١٩٧٤ . وتعود أسباب هذا الارتفاع خاصة إلى زيادة المعروض من العملات الأجنبية في سوق بيروت وإلى قلب الليرة والتخلي عن العملات الأجنبية في ذلك الحين . ولم يكن في وسع مصرف لبنان مواجهة هذه الهجمة إلا في أواخر عام ١٩٧٤ عندما قيد التسليفات وحاول رفع قيمة الدولار في سوق بيروت .

ثانيا – وعلى عكس ذلك تغير سلوك الليرة اللبنانية خلال الأحداث وفقدت من قيمتها الداخلية والخارجية معاً ، فلقد أدت حرب السنتين والوضع غير المستقر الذي مرت به البلاد إلى انخفاض حقيقي في قيمة الليرة داخليا نتيجة التسلل الذي أصاب الاقتصاد اللبناني بقطاعاته المختلفة خاصة الصناعة والسياحة بالاضافة إلى انقسام وانغلاق الأسواق الداخلية وعدم انتظام الاستيراد من الخارج نتيجة الأحداث الأمنية خاصة في مرفأ بيروت والخوف من تخزين كميات كبيرة من السلع مما جعل السوق المحلى غير مشبع بالمواد والسلع كما كان الأمر في السابق هذا بالاضافة إلى غياب المنافسة وظهور أشكال جديدة من الاحتكار والتحكم بالأسواق تظهر بشكل واضح في الظروف الأمنية غير المستقرة .

هذا على الصعيد الداخلي أما بالنسبة للقيمة الخارجية لليرة فلقد عرفت أيضا تراجعا محسوساً بالنسبة للدولار وغيره من العملات الأجنبية نتيجة تراجع الصادرات وزيادة التحولات إلى الخارج خاصة خلال حرب السنتين وبالمقارنة مع عام ١٩٧٤ بلغ المعدل الوسطي لتراجع صرف الليرة اللبنانية عام ١٩٧٧ ما يلي ...

٣٤،٥٪ للدولار و ٣٨،٧٪ للمارك الالماني و ٤٠،٦٪ للفرنك السويسري و ٥٠٪ للين الياباني .

وخلال النصف الأول من عام ١٩٧٨ حصل بعض التحسن في وضع الليرة اللبنانية إلا أن عودة الانتكاسة الأمنية أثر من جديد على وضع الليرة ثم جاء عام ١٩٧٩ مع ارتفاع أسعار الفوائد على العملات الأجنبية وارتفاع أسعار الذهب ليضعف من جديد من وضع الليرة ويغرى حامليها بالتحول نحو العملات الأجنبية الأكثر عائدة .

الموقف من الليرة اللبنانية :

قد يختلط الأمر على غير المختص ويجد أن هناك تناقضا بين ارتفاع التغطية على الليرة اللبنانية وانخفاض قيمتها الداخلية والخارجية . في حين أن قيمة النقد تتأثر بعوامل عدة اقتصادية ونفسية أهمها ثبات الأسعار والرغبة بالاحتفاظ بالعملة وعدم التخلي عنها لعملة أخرى قد تبدو أكثر ضمانا أو عائداً . إن قيمة النقد تساوي مقلوب مستوى الأسعار فاذا ارتفع مستوى الأسعار إلى النصف فهذا يعني انخفاض في قيمة النقد إلى النصف .

لقد عرف لبنان خلال السنوات الأخيرة ارتفاعا كبيرا في الأسعار نتيجة شلل القطاعات الاقتصادية وعدم انتظام الأستيراد وانقسام الأسواق وازدياد حدة الاحتكار . هذا بالاضافة إلى ارتفاع معدلات الأسعار والتضخم في الخارج . ولا شك أن هذه الأمور قد عكست أثارها على قيمة النقد اللبناني رغم تغطيته العالية وما تشكله من ثقة في العملة الوطنية لكن توفر عنصر التغطية لا يكفي وحده للاطمئنان على صحة النقد فيلزم تحريك عجلة الانتاج وتنفيذ مخططات الانماء والأعمار لتجاوز مآسي الحرب ونتائجها .

والجدير بالذكر أن موضوع قيمة النقد من صلب اهتمام الحكومات والسلطات النقدية فمن الواجب ، والحالة هذه الحد من تأثيرات تقلبات السلبية على الفرد والمجتمع .

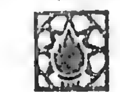
اعداد مركز النشر اللبناني
في وزارة الاعلام

تيتو

تاريخ في رجل

ايمان نويهض

جوزيب بروز (تيتو)



ولد جوزيب بروز من أب كرواتي وام سولفانية يوم ٢٥ أيار من سنة ١٨٩٢ في قرية كسروفاك وعاش حياة فقر ، تلقى فيها بعض العلوم وعمل في بلدة سيساك عاملا للأقفال فعاملا في مصانع الحديد والصلب فميكانيكيا .

انضم الى نقابة عمال الصلب والحديد والحزب الاشتراكي الديمقراطي في كرواتيا ثم حارب في الحرب الأولى سنة ١٩١٤ بالرغم من موقفه المعادي للحروب



تيتو في زيلينغورا في تموز ١٩٤٣

وابلى بلاء حسنا على جبهة كارباثيا سنة ١٩١٥ لكنه اعتقل على يد الجيش الروسي فيما بعد .

افرج عنه سنة ١٩١٨ في روسيا فانضم الى الجيش الاحمر وعاد سنة ١٩٢٠ الى كرواتيا مع زوجة روسية (طلقها سنة ١٩٣٥) عاملا ميكانيكيا وعضوا بالحزب الشيوعي الذي اعتقل بسببه سنة ١٩٢٣ و١٩٢٥ . سنة ١٩٢٧ اصبح عضوا في اللجنة المحلية في زغرب ممثلا للمكتب السياسي وسكرتيرا عاما للجنتي كرواتيا وسولفانيا .

سجن لمدة خمس سنوات (١٩٢٨ - ٣٤) وبعد الافراج عنه اصبح عضواً في اللجنة المركزية وانتحل اسماء عدة منها اسم « تيتو » الذي ما زال يلازمه .

سنة ١٩٣٥ اشترك في المؤتمر السابع للكوفترن في موسكو وانتدب من قبله سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي اليوغوسلافي بعد حلهم للقيادة السابقة .

دعم تيتو الجمهوريين في الحرب الأهلية الاسبانية ورفض دخول الحرب العالمية الثانية حتى كان الهجوم الألماني على يوغوسلافيا في ٦ نيسان ١٩٤١ والاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران .

دعا تيتو جميع القوميات الى الانتفاض ضد النازيين فكانت قيادة جديدة الى جانب قيادة درازا ميهاجلوفيك الذي يؤيد الملكية وحكومة المنفى .

انتشرت حركة الأنصار (بقيادة تيتو) بسرعة في كل انحاء يوغوسلافيا واصطدمت مع الملكيين فكانت الحرب الأهلية خريف ١٩٤١ . وقامت القوات النازية بأكثر من محاولة لسحق قيادة حركة الانصار ولكن تيتو تمكن في كل المرات ان ينجو باعجوبة بالرغم من تكبده الخسائر الجسيمة .

مع انهيار قوات المحور انشأ تيتو « مجلس مناهضة الفاشية لحركة التحرير الوطني اليوغوسلافي » واقام حكومات مؤقتة في كل انحاء يوغوسلافيا فاضطر الحلفاء في مؤتمر طهران الى الاعتراف به وبحركة الانصار محولين دعمهم المادي من درازا ميهاجلوفيك الى تيتو .

دخل السوفيات يوغوسلافيا سنة ١٩٤٤ فكانوا عاملا مساعدا لحسم الحرب الأهلية لصالحه وهزيمة الجيوش الألمانية التي تراجع آخرها في ١٥ ايار ١٩٤٥ .

بعد مؤتمر يالطا سنة ١٩٤٥ قبل تيتو ادخال بعض ممثلي الملكية والمنفيين الى حكومته ولكن سيطرة تيتو الكاملة دفعت هؤلاء الى الاستقالة ومقاطعة الانتخابات في ١١ تشرين الثاني ١٩٤٥



تيتو سنة ١٩٤٢



القائد الشعبي ... دائما في رفقة العمال

التي انتهت باعلان جمهورية فيدرالية شعبية في ٢٩ تشرين الثاني .

ظل تيتو على رأس الحكومة حتى سنة ١٩٥٣ عندما استحدث منصب رئاسة الجمهورية فتبوأه واصبح رئيسا لمدى الحياة سنة ١٩٦٣ .

انتهج تيتو سياسة مستقلة عن الشرق والغرب فاصطدم مع العرب اولا ثم الاتحاد السوفياتي الذي كانت نتيجته حصاراً اقتصاديا حول يوغوسلافيا دفع بها نحو تحسين علاقاتها مع الغرب قليلا .

مع مجيء خروشوف وتأييده فكرة تيتو سنة ١٩٥٥ ، القائلة بحق الشعوب في اختيار طريقها نحو الاشتراكية ، تبدلت علاقة يوغوسلافيا بالاتحاد السوفياتي نحو الأفضل .

سنة ١٩٥٣ اصبحت يوغوسلافيا « الجمهورية الفدرالية الاشتراكية اليوغوسلافية » والتزم رئيسها تيتو بالحياد الايجابي وترأس الى جانب عبد الناصر ولال نهرو زعامة المؤتمر الاول لدول عدم الانحياز .

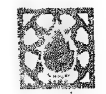
تنقل تيتو كثيرا بين دول العالم الثالث داعما فكرة عدم الانحياز وعارض الدخول السوفياتي الى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ ، لكنه لم ينس الوضع الداخلي المميز ليوغوسلافيا المكونة من عدة قوميات فأنشأ قيادة جماعية سنة ١٩٧٠ لتعاونه في تسيير دفة البلاد وتحل مكانه فيما بعد خاصة بعد ان كبر بالسن وداهمه المرض .

حملت السبعينات انفتاحا نسبيا ليوغوسلافيا على الغرب والشرق الاقصى وكانت رحلات تيتو العديدة عاملا على تحسين العلاقات بالرغم من تقدمه بالسن ومرضه الشديد .

وتحل الثمانينات بأول سنينها وهي تنقل اخباراً عن حالة صحية متدهورة لزعيم يوغوسلافيا وتحمل تساؤلات كثيرة عن مستقبل يوغوسلافيا بعد وفاة نقطة تلاحم ابنائها . ■

صور من التاريخ أَحْدَاث

إعداد : قسم التوثيق والأبحاث



بعد اثنتي عشرة سنة ما زال العالم يسمع هدير الأيام الساخنة من أيار ١٩٦٨ في فرنسا ويتذكر فترة محدودة لعبت دوراً ملموساً في تغيير الوضع الداخلي الفرنسي وإبراز ما عرف باليسار الجديد والشباب الراقص وموجة التغيير.

أيار ١٩٦٨ – حركة طالبية شعبية قامت ضد نظام ديغول فهزت أركانه وكانت عاملا اساسا في سقوطه لاحقاً.

أيار ١٩٦٨ – حركة دامت حوالي الشهرين، انطلقت من كلية الآداب في جامعة نانتير مارة بالسوربون لتشمل فرنسا من أدناها إلى أقصاها.

ابتدأت حركة أيار في أواسط نيسان ١٩٦٨ بتحركات طالبية محدودة من إضراب وتظاهر لم يعرها أحد انتباهه حتى كان قرار وزير التربية الفرنسي باغلاق كلية الآداب في جامعة نانتير.

أوائل أيار ١٩٦٨ أعلن طلبة السوربون في باريس الاضراب تأييداً لزملائهم في جامعة نانتير. تحرك عميد السوربون، اتصل بالشرطة التي دخلت السوربون وكانت صدامات بين الشرطة والطلاب اصيب فيها حوالي أربعين شخصا واعتقل ٥٢٧ .. كانت الشرارة.

وجه الاتحاد الوطني الطالبي في فرنسا الدعوة إلى كافة الطلاب للاضراب العام احتجاجا في جميع أنحاء فرنسا وحتى الافراج عن الطلبة المعتقلين. قامت التظاهرات في باريس واشتبك ألوف الطلاب مع الشرطة على ضفة نهر السين اليسرى فكثرت الاصابات والتف الأساتذة حول طلابهم داعمين لمواقفهم ومطالبهم ومعارضين لتقليدية الجامعة والتعليم وقمع الشرطة.

عند ذلك وافق رئيس الجمهورية شارل ديغول ووزير التربية الان بييرفيت على تحديث الجامعة ولكن ليس تحت ضغط العنف.. وكانت اشتباكات جديدة ذلك اليوم (٧ أيار ١٩٦٨) في الحي اللاتيني من باريس الذي تحول إلى ساحة حرب وانتقلت العدوى منه إلى كافة جامعات فرنسا.

في ١٠ أيار أعيد فتح جامعة نانتير ولكن وزير التربية أصدر قراراً باستمرار إغلاق السوربون فتحولت المعركة بين الطلاب والسلطة الفرنسية من معركة نقابية إلى حرب سياسية ترجمت على مستوى الشارع حرب عصابات واشتباكات مستمرة مصحوبة بدعوات صريحة وهتافات عالية تطالب بسقوط شارل ديغول.

الطلاب يحرقون السيارات، يحطمون واجهات المحلات والشرطة لا تتوانى عن استعمال أحدث وسائل تفريق المظاهرات والوضع العام دفع كافة الفئات الاجتماعية إلى حالة استنفار ووضعها أمام اختيار صعب.

اجتماع طارئ للحكومة الفرنسية في ١١ أيار، والنقابتان العماليتان (الاتحاد العام للعمال واتحاد العمال الفرنسيين) تدعوان إلى إضراب لمدة ٢٤ ساعة تاييداً للطلاب. الأحزاب اليسارية الشيوعية والاشتراكية والمتطرفة تقف إلى جانب الحركة الطلابية.



بالرغم من اعلان جورج بومبيدو، رئيس الحكومة الفرنسية، عن اعادة فتح جامعة السوربون يوم ١٣ ايار، أعلن كوهن بنديت زعيم الحركة الطلابية ان النضال مستمر وأن الصدام مع السلطة لن يتوقف.

وأتى يوم ١٣ أيار... ولم تتوقف الحركة، بل سار أكثر من مئة ألف عامل وطالب وأستاذ في أكبر مظاهرة شهدتها باريس منذ العام ١٩٥٨ تطالب بحقوق كافة الفئات الاجتماعية، وواكب المظاهرة إضراب عام شمل حركة المواصلات والصحف..

يوم ١٣ أيار.. نادى الطلاب باقالة وزير الداخلية ومدير شرطة باريس.

الرئيس شارل ديغول لم يهتز.. سافر إلى رومانيا في ١٤ أيار ضمن زيارة رسمية مقررة سابقاً. وفي ١٦ أيار وسع الطلاب دائرة سيطرتهم من جامعة السوربون (التي أعادوا السيطرة عليها قبل أيام) إلى مسرح الاوديون وشددت الشرطة الفرنسية حمايتها لبرج ايفل، كما طالب اليسار الفرنسي بلسان فرنسوا ميتران باقالة الحكومة.

يوم ١٧ أيار، ١٠٠ ألف عامل يضربون والطلاب يدعون إلى مظاهرة شعبية تنطلق نحو مصانع سيارات الرينو للتلاحم مع العمال بالرغم من معارضة الحزب الشيوعي الذي رفض تدخل الطلاب في شؤون العمال.

في اليوم التالي قطع ديغول زيارته لرومانيا وعاد إلى باريس ليواجه اضرابا شاملا يعم فرنسا ووضعاً اقتصادياً شبه منهار. توسعت الاضرابات خلال أيام فشملت الاذاعة والمصارف والجمارك والمناجم من ناحية اخرى الوزارة كثفت اجتماعاتها وواجهت «مشروع لوم» تقدم به ممثلو اليسار الفرنسي في الجمعية الوطنية لكنه فشل في الحصول على الأكثرية.

نصف عمال فرنسا مضربون والجيش حل مكان عمال التنظيفات في شوارع



المتاريس ترتفع في شوارع باريس ليلة ١٠ أيار الساخنة



السبت ١١ أيار ١٩٦٨ .. ظهراً في شارع غي لوساك في باريس .

باريس والاتحادات العمالية تدعو كافة العمال إلى الاضراب العام .

في ٢٤ أيار وجه ديغول رسالة إلى الأمة أعلن فيها عن نيته باقامة استفتاء شعبي حول « إعطاء الدولة فرصة أخرى للتجديد » . رفض اليسار والمتطرفون فكرة الاستفتاء معتبرين أنها محاولة للتمييع . وفي الوقت نفسه وافقت الاتحادات العمالية على بدء التفاوض مع حكومة بومبيدو حول مطالب العمال .

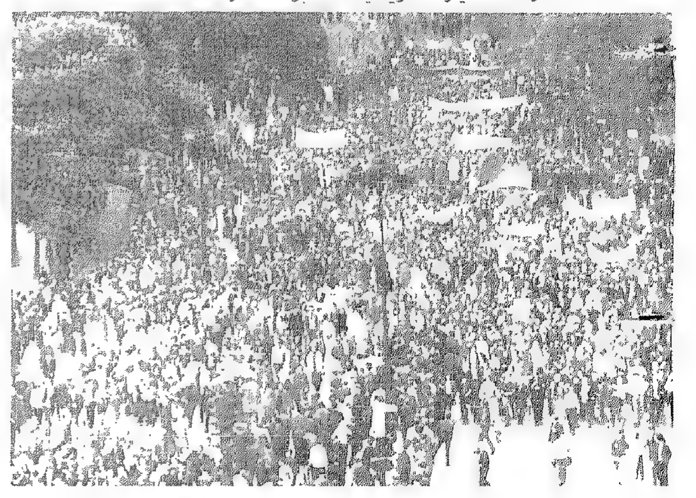
يوم ٢٦ أيار ابتدأت المفاوضات بين الحكومة وممثلي العمال للبحث في زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل وتوصل هؤلاء إلى اتفاق مبدئي رفضته القاعدة العمالية ففشل قبل أن يبصر النور .

استقال وزير التربية الان بييرفيت يوم ٢٨ أيار ولكن التظاهرات استمرت بعنف بارز وترافقت بتساؤل أجهزة الأعلام عن سر اختفاء الرئيس ديغول وغيابه عن اجتماع مجلس الوزراء . وعاد ديغول بعد ذهابه إلى جهة مجهولة ليعلن



زعماء الحركة الطلابية الفرنسية (كوهن بنديت يظهر إلى اليمين) .

مظاهرة ١٣ أيار التاريخية أكبر مظاهرة منذ ١٩٥٨ .





وقبل حله الجمعية الوطنية .

في الثلاثين من أيار عن حل الجمعية الوطنية والدعوة إلى انتخابات عامة جديدة في نهاية شهر حزيران .

اختلطت الأوراق وقامت تظاهرات حاشدة في فرنسا لدعم قرار ديغول والهتاف ضد اليسار والشيوعيين .

وافق اليسار على الانتخابات بينما اعتبرها زعماء الطلبة المتطرفون مؤامرة ضدهم ومحاولة من السلطة لحماية نفسها وبعد ذلك أخذت وطأة التحركات تخف مع استمرار المفاوضات بين الحكومة وممثلي العمال فوافقت الأولى على زيادة الحد الأدنى للأجور وتخفيض ساعات العمل .. رفض كوهن بنديست الزعيم الطلابي المتطرف هذا الاتفاق واعتبره تراجعاً مطالباً باحتلال المصانع واسقاط النظام .

صدرت الانتخابات في ٢٣ حزيران وأعلن اليسار عن تحالف مشترك وتكاثر عددالمرشحين على المقاعد البرلمانية .

أخذت الحياة تعود إلى فرنسا تدريجياً بعودة النشاط إلى حركة المواصلات والبريد بالرغم من استمرار الاضراب في المصانع الكبرى خاصة مصانع رينو. ومع اقتراب موعد الانتخابات أخذت المصانع الصغيرة وبعض من الكبيرة تعود إلى العمل وأعلنت « لجنة احتلال السوربون والاوديون » عن اخلاء الجامعة والمسرح .

في ١٥ حزيران أفرج ديغول عن معارضي سياسته في الجزائر وعاد العلم الفرنسي المثلث يخفق فوق جامعة السوربون يوم ١٦ حزيران .

وفي ١٧ حزيران حل عمال الرينو اضرابهم بعد أخذ ورد فكانت بداية نهاية هذه الحركة الطلابية العمالية بالرغم من استمرار بعض التحركات الضيقة هنا وهناك .

وجرت الانتخابات .. وكانت المفاجأة خلافاً لكل التوقعات حيث حصل الديغوليون على الأكثرية وحققوا انتصاراً كبيراً .

كان انتصار ديغول في الانتخابات. كافياً لعودة الهدوء إلى فرنسا لكنه لم يكن كافياً لمحو آثار هذه الأحداث التي امتدت حوالي الشهرين وحملت في داخلها بذور التغيير التي عادت وواجهت ديغول مجدداً بعد سنة واحدة تقريباً اضطرته بعدها نتيجة استفتاء شعبي طرحه هو على الشعب ان يترك سدة الرئاسة ويمهد الطريق نحو القضاء على الجمهورية الرابعة .

وتبقى حوادث أيار ١٩٦٨ في فرنسا والانتفاضات الطلابية في كافة أنحاء العالم في السنة ذاتها نقطة تحول مهمة في عالم الغرب طرح فيها هذا الأخير تساؤلات اساسية طالت أسس وجوده وحدود مستقبله وكادت ان تغير موازين القوى في العالم أسره . ■

المُسَابقَة



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الأعزاء :

ترغب مجلة « تاريخ العرب والعالم » أن تفتح باباً خاصاً للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع : « تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي » . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او القرية أو لأي مظهر عمراني أو أثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الأعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا الى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة « تاريخ العرب والعالم » بيروت ص . ب . ٥٩٠٥
« مسابقة القرى والأحياء في الوطن العربي » .

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة ، إذا نشرت او لم تنشر .

الجوائز

الفائز الأول هذا الشهر هي الآنسة رقية صالح طه – جامعة دمشق – كلية الآداب – سورية التي كتبت عن « بصرى » الشام . والجائزة عبارة عن مائة ليرة لبنانية .

الفائز الثاني هو السيد محمود زعروره – نهر البارد – طرابلس – لبنان الذي كتب عن « صفورية » وهي قرية في قضاء الناصرة في فلسطين المحتلة . والجائزة عبارة عن اشتراك سنوي في مجلة « تاريخ العرب والعالم » . نرجو الأخ محمود الاتصال بادارة المجلة .

ونود ان ننوه بصورة خاصة بالرسائل التالية ومواضيعها :

- رأس الشمرة – اوغاريت – محمد الفاكياني – دمشق – سورية .
- افاميه – وليد ابراهيم الاسود – دمشق – سورية
- « بيت شباب » – شهاب مهنا – بيت شباب – لبنان

ملاحظات عامة :

- لا تزال تردنا رسائل لا تمت بصلة الى ما هو مطلوب . المطلوب كتابة عن تاريخ بعض المعالم الأثرية او بعض القرى او بعض الأحياء الشهيرة .
- من المستحسن ارسال صورة مرفقة عن الحي او الأثر او القرية .
- نرجو طباعة الرسالة على الآلة الكاتبة ليسهل علينا قراءتها .
- يطلب من المشتركين الأعزاء التقيد بأصول الكتابة العلمية وان يشيروا الى مصدر الاقتباس .

الجائزة الثانية – نيسان ١٩٨٠

قرية « السلطان يعقوب الفوقا »

تقع قرية « السلطان يعقوب الفوقا » على قمة جبل في البقاع الغربي اذ تعلو ١٤٠٠ م عن سطح البحر وهي تشرف على سهل البقاع وعلى وادي التيم . سميت بهذا الاسم نسبة الى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المغربي الملقب بالمنصور الموحدي الذي كان احد امراء الدولة الموحدية والمولود سنة ٥٥٤هـ والمتوفي سنة ٥٩٦هـ . وفي اواخر حكمه ترك الحكم وسار متخفيا حتى وصل الى بلاد الشام ومن ثم الى منطقة البقاع الغربي وخلال عمله وتجواله كان يقصد قمة الجبل زاهداً عابداً واثناء ذلك كان يحفر ضريحاً ضمن صخرة صلدة ضخمة لتضم جثمانه بعد وفاته .

يؤكد المؤرخ ابن خلكان انه رحل الى المشرق وانهى حياته في العبادة والتأمل في البلدة التي اعطاها اسمه المبارك . من القابه : الأمير – الوالي – امير المؤمنين – الخليفة السلطان . كان محبا للعلم واهله فلقد استدعى اليه ابن رشد وقربه واحترمه وذلك أثناء فترة حكمه . من الذين زاروا ضريحه الشيخ توفيق الهبري علامة بيروت والشيخ عبد الله امرا شيخ الطريقة النقشبندية والقادرية في سوريا ولبنان والشيخ مظهر علاء الدين شيخ الطريقة المذكورة . وعلى ما اذكر فلقد زاره ايضا بعض الاخوة المغاربة . ولتعلق الناس بالسلطان يعقوب فقد بدأوا بعد وفاته يقصدون قمة الجبل ليسكنوا قرب ضريحه وهكذا حتى اصبحت البلدة تضم حاليا ما يزيد على ٥٠٠ نسمة بالاضافة الى ثلاثة امثال هذا العدد في المهجر . وهناك السلطان يعقوب التحتا ووضعها مماثل للسلطان يعقوب الفوقا غير ان هذه الاخيرة هي الأقدم وهي الأصل . يعمل بعض سكان القريتين بالزراعة وبعضهم بالتجارة والبعض الآخر بوظائف عامة او حرة : –

خليل محمد عبدوني

المصـــادر : ■ مجلة الفكر الاسلامي – عدد ١١ – تشرين الثاني ١٩٧٨ – ص ٤٦ .
■ الفتوحات الاسلامية – الجزء الاول – ابن دحلان – طبعة ١٣٥٤هـ – ص ٤٥٨
■ تاريخ الفلسفة العربية – د . جميل صليبا – ص ٤٤٦ .

الجائزة الاولى – أيار ١٩٨٠

« بصرى »

الموقع :

تقع مدينة بصرى في سهل النقرة الخصب على اطراف اللجا الجنوبية بقرب وادي الزيدي شمالا ووادي البطم جنوبا وهما من روافد نهر اليرموك . وتبعد عن مدينة دمشق ١٤١ كم عن طريق درعا و١٢٥ كم عن طريق السويداء ، وترتفع ٨٥٠ مترا عن سطح البحر . وتعني كلمة بصرى في الكتابات السامية القديمة « الحصن » .

لمحة تاريخية :

نمت بصرى في العهد النبطي بصورة سريعة واتجهت اليها طرق القوافل . وبعد ان الحقت بلاد الانباط بالامبراطورية الرومانية شكلوا من حوران والجولان وشرقي الاردن ولاية اطلقوا عليها اسم الولاية العربية . واختاروا بصرى عاصمة للولاية الجديدة .

وفي العهد البيزنطي ظهرت دولة الغساسنة التي اشتهر منها الحارث بن جبلة وفي عام ٦٣٤ ساهم سكانها من العرب في القتال ضد البيزنطيين وتحرير سورية وفي سائر مراحل التاريخ كانت تدهش زوارها بابنيتها الاثرية وحروبها المدنية والعسكرية .

آثار بصرى :

١ – باب المدينة : الذي يستقبل الزائر القادم عن طريق درعا ويعود تاريخ عمارته الى القرن الثاني الميلادي . ويتألف من عقدين يعلو احدهما الآخر ويستندان الى ركائز مزينة بمحاريب على سائر واجهاته الخارجية والداخلية .

٢ – السوق الأرضية : وحتى الآن لم يتم كشف سائر اجزاء هذا البناء الذي يعتبر اطول بناء من نوعه اكتشف حتى الآن .

٣ – القوس المركزي : يطلق عليه [باب القنديل] ويعود الى القرن الثالث الميلادي . ويتألف من ثلاثة اقواس .

٤ – معبد حوريات الماء (منهل الماء)
٥ – الكليبة (سرير بنت الملك)
٦ – السوق الرئيسية .
٧ – جامع الخضر ونبع الجهير .
٨ – دير الراهب بحيرا .
٩ – جامع مبرك الناقة
١٠ – مصلى ملعب
١١ – البركة الشرقية .
١٢ – بركة الحاج
١٣ – مدرسة ابي الفداء .
١٤ – مدفن شهاب الدين
١٥ – الجامع العمري
١٦ – الحمام الاسلامي
١٧ – المسجد المملوكي
١٨ – المعبد النبطي
١٩ – جامع المبارك
٢٠ – الكنيسة الكاتدرائية
٢١ – قصر رئيس الاساقفة .
٢٢ – القصر
٢٣ – الحمامات المركزية .
٢٤ – القلعة
٢٥ – المسرح
٢٦ – المعسكر
٢٧ – الميدان

المرسلة رقية صالح طه
جامعة دمشق – كلية الآداب

المصـــدر :
كتيب : بصرى ، وضعه سليمان عبد الله المقداد

الجائـزة الثانيـة – أيـار ١٩٨٠

صفوريـة

قريتي صفورية اولى قرى قضاء الناصرة في فلسطين في عدد سكانها (٤٣٣٠) نسمة ومساحة اراضيها البالغة (٥٥٣٧٨) دونما[١] .

يرجع اسمها في الأصل الى كلمة (صفره) الارامية التي هي بمعنى الطائر ، أطلق عليها الرومان اسم « صفوريس » وذكرها البلاذري في « معجم البلدان » بلفظ « صفوري » . ودخلها المسلمون بقيادة شرحبيل بن حسن سنة ١٣هـ ،[٢] واسترجعها صلاح الدين من الفرنجة قبيل معركة حطين ١١٨٧ م .

تقع على صهوة مخصبة[٣] ترتفع ٢٧٥ عن سطح البحر في الطرف الجنوبي الغربي من

سهل البطوف وعلى مدى ٧ كلم باتجاه الشمال الغربي من مدينة الناصرة . يحتل الزيتون مساحة واسعة من أرضها ، كما تشتهر برمانها « المليصي » وتزرع الحبوب والسمسم وتربي الماشية . كانت المنطقة السهلية المحيطة بالقرية مركز تجمع للجيوش المتنقلة بين مصر والشام وقد تمركزت فيها قوات الفرنجة بقيادة « بلدوين » ومن بعده « غي »[٤] قبيل معركة حطين .

من اهم آثارها : كنيسة القديسة حنه وقلعة الشيخ ظاهر العمر ، وقبيل الحرب الأولى كان يوجد فيها مدرسة ابتدائية للبنين واخرى للبنات ، ومن الاثار التاريخية فيها : خربة « إبداويه » وخربة « الخلادية » وخربة « المشيرفة » و« عين القسطل »[٥] . ينسب اليها عدد من العلماء والفقهاء ، كما افرزت العديد من المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصهيوني حتى سقطت بيد الاعداء في ٥ تموز ١٩٤٨ م فدمروا القرية وبنوا على انقاضها حصن « تسيفوري » .

وفي مخيمات النزوح جدد الخلف سيرة السلف فتخرج من ابنائها مئات الشباب الجامعي في مختلف مجالات العلوم ، اضافة الى قوافل الشهداء على طريق التحرير .

المراجـــــع :

١ – بلادنا فلسطين ، الجزء ٧ القسم ٢ ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ .
٢ – مجلة فلسطين الثورة ، السنة الثامنة ، العدد ٣٨٦ .
٣ – صانعو التاريخ ، فيليب حتي .
٤ – مجلة فلسطين المحتلة ، العدد ٢١٠
٥ – مجلة الطلائع والجماهير ، السنة الخامسة العدد ٤٣ .

رأس الشمرة – أوغاريت

يعد القطر العربي السوري بين بلاد الشرق العربي القديم من أكثر غنى بالآثار والأوابد التاريخية ، فكل حجر من حجار هذا القطر ترجمان يفصح عن تاريخه الحضاري الغابر ، وكل تل من تلاله القديمة يكمن في أحشائه قصة من حياة الماضي تلقى نوراً وهاجاً على حضارات تليدة كانت تعمر هذا القطر .

سورية كانت همزة الوصل بين أجزاء العالم القديم ولدت فيها مدنيات وترعرعت ثم امتدت منها إلى البلاد الأخرى المجاورة البعيدة . أخذت من المدنيات التي نشأت في البلاد المجاورة وأعطتها من تراثها بسخاء ومن هنا ندرك أن سورية تتمتع بميزة كبرى ، لأنها تدل بوضوح على تاريخ الشرق الأدنى كله .

وليكن بحثنا هذا عن رأس الشمرة – أوغاريت ، في تل راس الشمرة على المدينة المسماة (أوغاريت) والتي كانت عاصمة مملكة كنعانية شهيرة ، ومركزاً من أغنى مراكز الحضارة في الشرق القديم ، ويعود زمن ازدهارها إلى القرن الخامس عشر والرابع والثالث عشر قبل الميلاد .

إن بقايا تلك المدينة معالم أربع مدن أخرى يعود أقدمها إلى الدور الحجري الحديث وذلك عن طريق الاسبار التي تم حفرها .

ويقول الدكتور كلود شيفر : قدم الكنعانيون إلى الشاطئ السوري وإلى راس الشمرة – أوغاريت خاصة في أواخر الألف الثالث ق . م ويبدو أن مجيئهم كان اعتباراً من مطلع الألف الثاني ق . م ثم أصبحوا يشكلون القسم الأكبر من سكان المدينة .

وقد وجد رقم فخاري في ماري – تل الحريري – على الفرات أنه في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كانت المدينة قائمة في موقع رأس الشمرة تحمل اسم (أوغاريت) وربما كان هذا الاسم مشتقا من كلمة (أوغارو) التي تعني الحقل في اللغة البابلية . لقد خربت المدينة في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد على غزو شعوب البحر للشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، وقد أتى هؤلاء الغزاة من الشمال وقضوا على جميع مدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

وبعد ذلك لم تقم لهذه المدينة أية قائمة ، واندثرت تحت أنقاض أبنيتها وأمست مدينة مائتة ، وقد لجأ إليها بعض الاغريق من التجار بمراكبهم في القرن السادس ق . م بسبب وجود خليج (مينة البيضاء) وهو الاسم الباقي مشهوراً حتى اليوم . وقد أقاموا بعض المنشآت البسيطة فوق أنقاض المدينة .

إن أهم الأوابد التي أظهرتها التنقيبات هي :

– القلعة ، القصر الملكي ، القصر الصغير ، الحي الشمالي حي المساكن الفخمة ، الحي الجنوبي الاكربول ، الحي الجنوبي الشرقي ، الحي الشمالي الشرقي .

محمد الفاكياني



بريد القراء

○ **وليد ابراهيم الأسود – دمشق – الجمهورية العربية السورية**

■ لقد سررت كثيرا بمسابقتكم في العددين السابقين (مسابقة القرى والاحياء في الوطن العربي) لأنها تحرك اقلام الاخوة القراء . ومهما كان نوع الكتابة فالمهم أن نهتم بتاريخ ارضنا العربية لأنها قطعة منا . نشكر لكم كل الشكر على هذه البادرة الطيبة في مجلتكم .

■ ونحن بدورنا نشكركم على عواطفكم الطيبة ومساهمتكم ونأمل ان يحالفكم الحظ في المرة القادمة .

○ **سلطان الأسود – بيروت – لبنان**

أحييكم تحية اكبار واعجاب على ما انجزتموه في ميدان الثقافة في خلال فترة قصيرة جداً من الزمن . « تاريخ العرب والعالم » أتت لتسد فراغا ثقافيا ولتأخذ مكانا خاصا بين المجلات الثقافية واستطاعت بكل ثقة وعناد ان تتفوق على قريناتها بجدة ايمانها وجودة اخراجها وامتناعها ان تكون سلعة تجارية كغيرها .

■ نشكر لكم عواطفكم الطيبة راجين ان نوفق في خدمة امتنا العربية . بالنسبة للمسابقة راجع صفحة المسابقة .

○ **شهاب مهنا – بيت شباب – لبنان**

■ استلمنا رسالتكم ونأسف لعدم تمكننا من نشرها هذه المرة . ونأمل ان تطبع على الآلة الكاتبة في المرة القادمة .

○ **عبد الحكيم محمد كشاد – طرابلس – ليبيا**

تحية حارة الى مجلة « تاريخ العرب والعالم » التي نجحت في اولى خطواتها في ان تصبح دليل القارئ العربي والطالب لتاريخه ولتراثه . واستطاعت ان تجمع شمل الأصدقاء وان تسلط عليهم نور التاريخ والمعرفة الضرورية لكل انسان .

■ اخ عبد الحكيم : نشكر لكم تحياتكم النبيلة التي لا نستحقها كلها ونعاهدكم ان نبقى معكم الى النهاية . استلمنا رسالتكم الطويلة عن « تاريخ كفاح ليبيا للاحتلال الايطالي » وقررنا نشرها في باب « القراء يكتبون » .

○ **محمد زعروره – نهر البارد – طرابلس – لبنان**

■ أخ محمود لقد فزت بالجائزة الثانية في « مسابقة القرى والاحياء في الوطن العربي » . نرجو الاتصال بادارة المجلة هاتفيا او بواسطة البريد لاعطاء عنوانكم .



رأي حر

د. سهيل زكار

إن أعمالنا في التأريخ للماضي العربي، وأبحاثنا فيه، كعرب، جاءت في البداية وما زالت إلى حد كبير مقلدة للأبحاث التي قامت في مدارس الاستشراق، تسير على نهجها، لم تتخلص بعد من شراكها.

وفي هذا الواقع المرفوض، هناك محاولات جريئة في الوقت الحالي، لاعادة النظر فيما كتب بالتاريخ العربي، وللعمل على كتابة هذا التاريخ بشكل مستقل أصيل علمي وحيادي، يريد الوصول الى الحقيقة، وتعليلها تبعا لمقاييس نابعة من الفكر العربي، وقائمة على تجارب هذا الفكر الذاتية لا المستوردة.

فالعرب كان لهم منذ قيام الاسلام نظرتهم الخاصة إلى التاريخ، ومبادئهم الذاتية لتعليل حوادثه، ونحن عندما نقرأ القرآن الكريم، يمكن أن نلاحظ فيه وجود «فلسفة تاريخية خاصة» كما يمكن أن نستخرج مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف معالم أسس مدرسة عربية إسلامية لتعليل التاريخ.

إن هذا الموضوع من الخطورة بمكان، تكفي الآن إثارته، على أمل العودة إليه والوقوف عنده بشكل مفصل مستقل، وحين يثار هذا الموضوع ويفتح ملفه، يفتح معه ملف التراث العربي والعمل به والنظرة إليه، وعندي أن العمل بالتراث ينبغي أن يكون حديثا وتراثيا وفي نفس الوقت إسلاميا عربيا، حديثا على أساس معالجة مواضيع التراث بروح علمية نقدية تحليلية غير متعصبة وشمولية حيادية عميقة، ترى أن تراث العرب يشمل جميع ما أنتجه العرب في ماضيهم العريق على أرض الوطن العربي منذ فجر التاريخ، وإسلاميا عربيا على أساس أن الاسلام والعروبة صنوان، فالعرب رغم ماضيهم العريق القديم، قد دخلوا الباب العريض للتاريخ الانساني مع قيام الاسلام وبوساطته، والاسلام هو دين العروبة، والعرب بالنسبة للاسلام كالقلب بالنسبة للجسد، فلا الجسد يعيش بلا قلب، ولا القلب بلا جسد ...

وتراثيا: على أساس أن الاهتمام بالتراث، ليس جريا على قاعدة جمع العاديات القديمة والتحف لتودع في المتاحف، ولكن من باب اتصال الماضي بالحاضر، وان المستقبل لا يمكن قيامه بشكل أصيل فعال معطاء إذا لم يقم على قاعدة التراث الغنية، فنحن أمة أبدعنا الحضارة الاولى، وظللنا نحمل لواءها، ولا نريد، بل لا يمكن لنا أن ندخل الحضارة الحديثة عن طريق طفرة مستعارة، فنحن نتاج من نتاج الماضي العربي، ولسنا نتاجا غريبا، نعم نحن نتفاعل مع حضارات الامم، ونستفيد من تجارب سوانا، لكن دون التخلي عن ذاتنا، فالعربي مخلوق أصيل، ولا يمكن أن يكون هجينا.

إن البحث في الماضي العربي ينبغي أن يكون علميا، قائما على مصادر شاملة، ووثائق معتمدة، فالعمل بالتاريخ إذا لم يكن وثائقيا، قائما على المصادر، هو اختراع وإبداع، والاختراع والابداع مقبولان في كل الميادين، إلا في التاريخ، لانه يقود نحو الزيف.

وهنا ينبغي إعادة النظر في تصنيف المصادر التاريخية، على أساس أن التاريخ هو سجل للأحداث التي كان بطلها إنسان، وحيث أن الانسان هو حاو لمجموعة من الغرائز والقوى والميول، فكل ما حوى مادة تتعلق بماضي الانسان فهو مصدر أساسي ومهم، أو بكلمة اخرى ليست مصادر التاريخ كتب مدونات الأحداث، أو ما يطلق عليه عادة اسم «التواريخ» لأن هذه المدونات اهتمت بالحديث عن أخبار الوقائع السياسية والعسكرية بالدرجة الاولى، ولما كانت هذه الوقائع هي نتائج لأسباب، والمسبب دائما أهم من النتيجة، وحيث انه غالبا ما كانت الأسباب إقتصادية أو اجتماعية أو دينية أو فكرية، فالمصدر بالنسبة للمؤرخ هو ما أعطاه وصفا للأسباب، وبالتالي خبر النتائج ... ■



في العدد المقبل

أفغانستان :
أرض وشعب



سورغه : الجاسوس
الدولي


ترجمة من كتاب
الحشائش وخواص العقاقير

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد العشرون - حزيران (يونيو) ١٩٨٠ الموافق رجب ١٤٠٠هـ



الماضي اللذي سيأتي في عددنا المقبل



جَمال
عَبد
النَاصر

ثورة ٢٣
يوليو/تموز



هِتلر
وَعلم
التنجيم

يصافح
الرئيس هند نبرغ
ويدو غورنغ باللباس
العسكري وغوبلز
باللباس المدني وراءه



السنة الثانية - العدد العشرون - حزيران (يونيو) ١٩٨٠ الموافق رجب ١٤٠٠هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

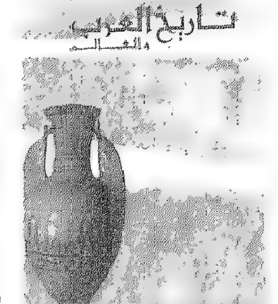
ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت . لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800763
BEIRUT, LEBANON

VOL. 2, NO. 20, JUNE 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"

تاريخ العرب والعالم



من الاثار
الاسلامية
في صقلية .

في هذا العدد



مسجد
الرسول
محمد (صلعم) .

الموضوع — الصفحة

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة . ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب . مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب . تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط .

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس

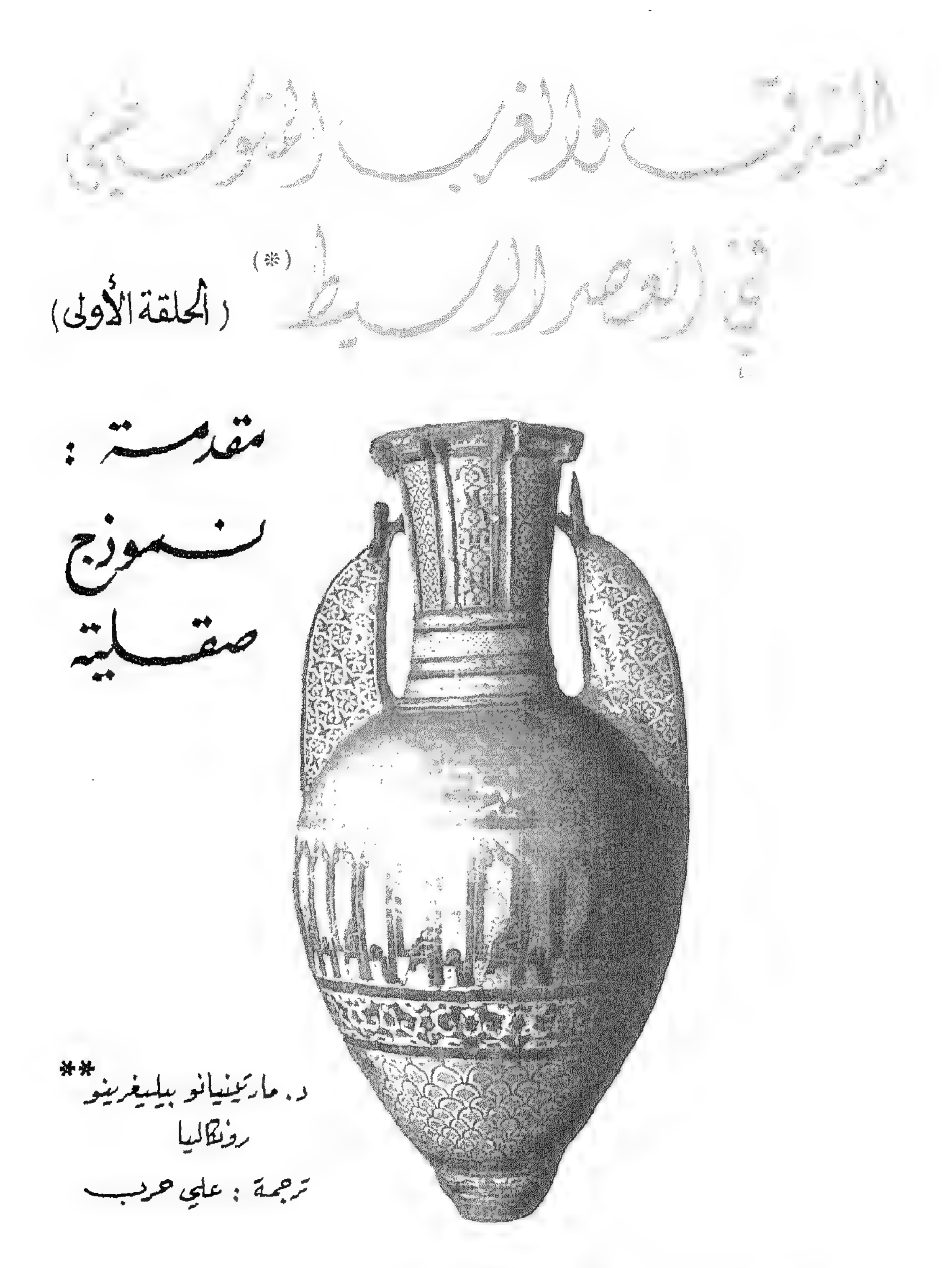
التحرير على عنوان المجلة : ص . ب ٥٩٠٥ في بيروت .

● المقالات والدراسات التي تُنشر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة .

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَد إذا لم تُنشر .

الشرق والغرب الأوروبي في العصر الوسيط (*)

(الحلقة الأولى)



مقدمة : نموذج صقلية

د. مارتينيانو بيليغرينو رونكاليا **

ترجمة : علي حرب

* من محاضرة ألقيت في المعهد الثقافي في بيروت بتاريخ ٩/١٠/٧٩

** دكتور آداب من السوربون ، مؤسس ومدير الدراسات الشرقية في القاهرة ، أستاذ في كلية اللغات في جامعة عين شمس ، أستاذ زائر في جامعات فرانكفورت وجنيف ، والجامعة الأميركية في بيروت ، وليون ، والجامعة اللبنانية ، الخ ... عضو في الجمعية الدولية للدراسات القبطية ، عضو في الجمعية الدولية للدراسات الشرقية ، اسطمبول وفي غيرها ، من الجمعيات العلمية المرموقة في المانيا وفرنسا .

اللوحة العامة : في المنهج

قبل أن أبدأ أحاديثي الدورية حول صقلية الاسلامية لا أراني خارجاً عن الموضوع إذا قمت برسم لوحة عامة للحالة الراهنة للدراسات النقدية في حقل التأثيرات الثقافية بين بلدان الشرق والغرب على ساحل المتوسط. وإنني سأتحاشى المسائل المطروقة وسأعبر خاصة بلغة نقدية ، حتى لو أدت بعض النتائج إلى مخالفة عادات فكرية اكتسبت بالتكرار المتواصل لنتائج تشكل جزءا من المجاملات الظرفية .

لقد سمحت لنفسي مرة بأن ألاحظ (على حدة) أمام صديق هو مستشرق مشهور ومعروف جيداً في لبنان ، بأننا لم نعد نملك الحق العلمي باذاعة بعض الأشياء حتى على جمهور غير متخصص ولكنه سارع إلى رد حجتي قائلا : « ألا تلاحظ يا صديقي العزيز كيف أن هذا الأمر يسر العرب » ؟ وأنا أسمي هذه الطريقة في التعامل مع الجمهور خداعاً صرفا وساذجا ! حتى ولو كان من الصحيح دائماً ما يقوله الشاعر انيوس (السرديني الأصل) من أن المجاملة تخلق لنا الأصدقاء ، بينما تخلق الحقيقة الأعداء ؟

ثمة مؤشرات كثيرة تسمح لنا بالتفكير بأن الاستوريوغرافيا(١) الحديثة قد عادت إلى الأوضاع التي كانت عليها في نهاية القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر ، بعد أن اغتنت بتجارب جديدة وتجددت مقدماتها النظرية . فخلال هذه الحقبة سمح النمو المتصل والمتدرج للمعارف الفيلولوجية والتاريخية إلى أبعد من الاطار الضيق للتقليد الكلاسيكي اليوناني – الروماني ، سمح باستشفاف الغنى والاتساع والتعقد في العناصر المكونة للحضارة المتوسطية . لقد بذلت محاولات في البناء التاريخي ، وعلى العموم نشأت في هذه الحالات مؤسسات صحيحة إجمالا ، أفسدتها مفاهيم تاريخية ساذجة وتبسيطية . وقد بدأ العمل النقدي لتقويض محاولات البناء وإعادة البناء هذه ، خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، في اللحظة التي انقلبت فيها رأساً على عقب الفيلولوجيا والأركيولوجيا والدبلوماسية والمنهجية التاريخية بواسطة فكر نقدي اتخذ طابع الغلو في بعض الأحيان . ان انطلاقة النزعة الوضعية وما رافقها من مبالغات وسوء استخدام ساهمت على نحو هائل بانتشار معارف أكثر فأكثر موضوعية . ومن بين هذه المبالغات يجب أن نعيد إلى الأذهان الغلبة التي عرفتها نظرية النمو الذاتي والمستقل لحياة الجماعات على غرار النظريات البيولوجية الوضعية التي سادت يومئذ . إن اتخاذ موقف كهذا قاد إلى رفض أطروحة التأثير الشرقي عامة والعربي خاصة فيما يتعلق بحوض المتوسط واعتبارها أطروحة سطحية صادرة عن الهوى . وهكذا فباسم نظرية القوى الداخلية لكل حضارة ، انطلاقا من منتصف القرن الماضي بتنا نرفض ، فيما يختص بالحضارة اليونانية الرومانية أية صحة لبقايا – أكدتها مع ذلك الاستوريوغرافيا الكلاسيكية نفسها – تأثيرات مصرية وفينيقية وآسيوية – صغرى في أصول الحضارة الهلينية والهلينستية التي امتدت حتى صقلية .

في أصول الحضارة الهلينية التي امتدت حتى صقلية

واليوم تميل الكفة من جديد نحو الشرق ، ولكن مع وعي نقدي متنام جداً . إن طبيعة عمليات التأثير الشرقية لم تعد تعقل بوصفها نقداً ميكانيكيا لأفكار ومؤسسات ، بل على العكس ، فهي تُعْقَل بوصفها دينامية اندفاعات ومحرضات تفعل فعلها في ركائز حاضرة على الدوام ولا يمكن حذفها . إذن لقد تم استبدال نظرية العزلة الساطعة للحضارة الهلينية برؤيا معاكسة ، لم تعد بموجبها يونان الحقبة الكلاسيكية تعتبر نقطة انطلاق ، بل بالاحرى نقطة التقاء وتتويج أعظم لسيرورة طويلة بالغة التعقيدات امتدت آلاف السنين ، ظهر خلالها المتوسط مركزاً تقاطعت عبره طاقات مادية وروحية متعددة وهائلة لا يمكن تحديد منشأها إلا بنوع من اليقين النسبي .

التواصل الحضاري [illegible]

وهذا المفهوم الجديد للاستوريوغرافيا لم يعد يقف حصراً عند العصر القديم الكلاسيكي ، ولكنه امتد أيضا ليشمل العصر الوسيط . وبعبارة أخرى ، فقد ألغيت الفكرة التقليدية عن العصر الوسيط وبرزت مكانها فكرة المد والجزر المتواصلين للعلاقات بين الشرق والغرب ، وهما (المد والجزر) كلمتان ليس لهما أي معنى

ثقافي ، سواء كان جغرافياً أو انتروبولوجياً .
إن المد والجزر هذين على غرار الموجات البحرية ، لم ينقطعا أبداً بصورة كاملة حتى بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شرقيـة وغربيـة . وكذلك فان هذا التواصل لم ينقطع بفعل ظهور الاسلام المفاجئ على شواطئ المتوسط في القرن السابع . إن النقص في الوثائق (وكذلك بعض الأفكار المسبقـة) كانـت قد دفعـت بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن العالم المتوسطـي انشطر شطرين بواسطة الاسلام وذلك بخلق مركزين حضاريين متعاكسين بصورة نهائيـة ومغلقين على بعضهما البعض بصورة محكمة . والواقع أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، لأنه لا يوجد سوى البحر الذي يشكل شرط حدوث الانقطاع والاتصال . وبالفعل لم يعد من الجائز أن نتحدث عن عزلة أوروبا الغربية بالنسبة إلى العالم البيزنطي (بلاد الروم) بعد أن أثبتت الابحاث التاريخية الجارية وأكدت استمـرار العلاقات بين الغرب الروماني – الجرماني والشرق اليوناني – السلافي عبر كل العصر الوسيط . وهكذا فان الهوة التي أقيمت بين الشرق وأوروبا عند بدايات ظهور الاسـلام الفاتح وخلال سنوات توسعه على كل الساحل الأفريقي الشمالي ، إن هذه الهوة ليست ذات دلالة تقريبا ولا عمق لها . صحيح أنه حصل انفصال مؤقت في وحدة العالم المتوسطي إلا أنه لم يكن طويلا بما فيه الكفاية لكي يخلق وضعا جديداً . إن موضوعة هنري بيران الشهـيرة « محمـد وشرلمان » ، (الطبعـة الخامسـة ، باريس ١٩٣٧) قد خضعت لنقد بناء ومكثف في مجموعة دراسات حول دلالة ودور الاسلام في الانتقال من العصر القديم الكلاسيكي إلى العصر الوسيـط ونشرت بواسطـة بول ايغـون هوبنجر[٢] . وقد أثبتت الأبحاث التي أثيرت بواسطة هنري بيران بأنه انطلاقا من القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر كان التبادل التجاري بالغ الضآلة فعليا بين آسيا وأفريقيا المؤسلمتين وأوروبا بوصفهـا مركزاً مسيحيـا غربيا ، وكاد التبادل الثقافي بينها يهوي إلى الصفر .

وخلال هذه الحقبة التي كانـت فيهـا الحضارة العربية الاسلامية في طور البحث عن هويتها اكتسبت الجهـود من أجـل التمثـل والتشكل أهمية قصوى لأنه كان من المهـم



الاتصال الحضاري ... بعضه بتأثير الحروب

بالنسبة للاسـلام أن يتكيـف مع كل شكل حضاري جديد يجده في طريق توسعه من دون أن يسمح للاشكال المتفوقة احتواءه .

وبعد ثلاثة أرباع القرن من الاتجاهات المثمرة والنقدية في حقل الاسلاميات فاننا نعلم اليوم علم اليقين الـذي تؤكده الوثائـق أن الحضارة العربية الاسلامية هي تركيب أصيل لحضارات مختلفة سابقة لها ومعاصرة ولاحقة (على قدر توسعها) وأن كل واحدة منها هي

بدورها نتاج مركب من عدة عناصر ، بعضها مشترك لأكثر من واحدة بينها . وهكذا فان تحليل التوليف العربي الاسلامي يبدو لنا معقداً على وجه الخصوص ، ومن بين هذه العناصر المكونة للحضارة الاسلامية ، فان العنصر الهليني - البيزنطي هو أحد أكثر العناصر أهمية والذي سبق أن تغلغل بالرغم من اندفاعه البطيء إلى حضارة العرب قبل الاسلام أو عرب الجاهلية . وهذا التأثير البيزنطي تغلغل فيما بعد بصورة أكثر اتساعاً وزخماً إلى المجتمع الجديد ، الذي ولد من الاندماج بين العرب الذين انتقلوا إلى الاسلام والذين تحضروا تدريجيا باحتكاكهم بالشعوب الخاضعة التي تعربت وتأسلمت بشكل تدريجي . إنها عملية تثاقف المجتمع البدوي الأصلي : التمدن والتمدين في الاستوريوغرافيا الاسلامية .

وقد عرف الاسلام بواسطة هذه الظاهرة السريعة من التثاقف العربي الاسلامي على ساحل المتوسط (والتي لا يزال يحمل لبنان آثارها المرئية حتى اليوم في عنجر) عرف درجة عالية من النمو تجاوز - باندفاعه الديناميكي - الدرجة التي بلغتها أوروبا أثناء تعرضها للغزو البربري والانحطاط الذي تلاه .

لقد تحولت الحضارة العربية الاسلامية إلى مستودع حفظ ونقل فيما بعد إلى أوروبا ذخائر الحضارة المستفادة من الروم ! إن أرسطو وإقليدس وابقراط وبطليموس رواد الطب والفلك والرياضيات والهندسة والجغرافيا ، كل هؤلاء سيصار إلى تجديدهم في أوروبا بواسطة العرب ! وما يجدر ملاحظته أن المسألة ليست مسألة تجديد صرف وبسيط فقط . فالاسلام سيجدد للغرب علومه ، ولكن بعد اغنائها - بدافع الفائدة تقريباً - بمواهب ثقافية متباينة ذات أصول ايرانية خاصة ، بقيت حتى الآن مجهولة في أوروبا .

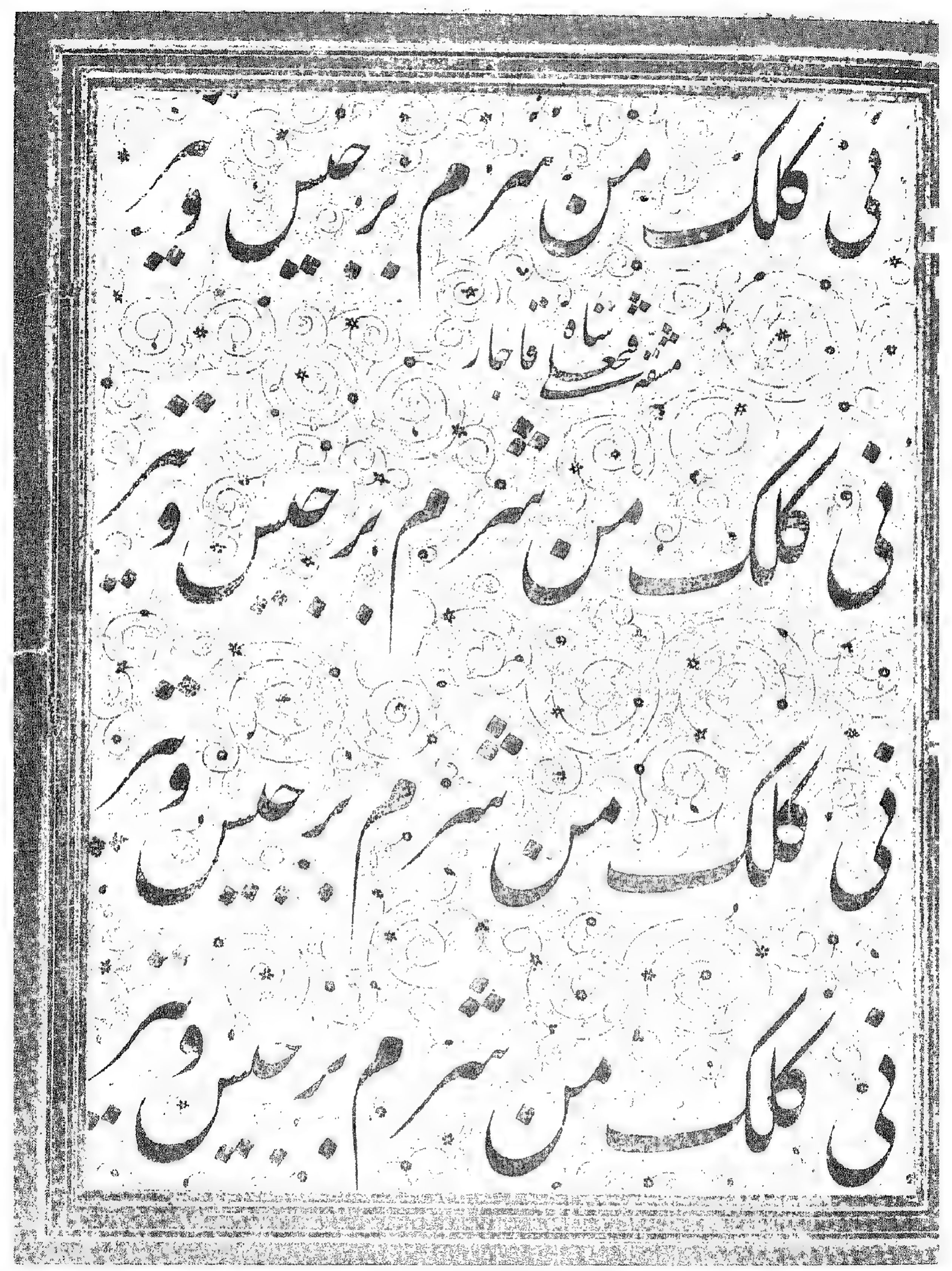
إن الالتحام بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية قد حصل في أواخر القرن العاشر وأنجز خاصة عبر هذا الجسر الثقافي الذي رمته الطبيعة بين أوروبا وأفريقيا ، أي اسبانيا التي سماها العرب جزيرة الأندلس . ففي اسبانيا أتاح بقاء جماعة محلية كانت رفضت التعريب الكامل وجود الترجمان الأجدر لنقل الثقافة العربية بواسطة الترجمات التي انتشرت من جراء ذلك في أوروبا كلها . ولو أن اسبانيا عربت بشكل كامل لما حصلنا أبداً على هذه الترجمات ، وإذن لبقيت النصوص بالعربية ، كما حصل في البلدان الأخرى التي تعربت .

دور صقلية في التبادل الثقافي :

فما هو دور صقلية التي كانت تجمعها بأسبانيا صلة وثيقة في هذا التبادل بين الشرق والغرب ؟ إننا نعرف القليل عن هذا الدور . ومع ذلك إذا عدنا إلى الأبحاث التي تمتد من ميشال أماري (النصف الثاني من القرن الماضي) حتى أمبرتو ريزيتانو ، نجد أن وظيفة نقل الثقافة العربية الاسلامية تقهقرت في صقلية وكانت على ما يبدو ثانوية جداً ، ولكن (لأنه بالنسبة للوضع البشري، يوجد دائماً « ولكن »). ولكن وضع جردة يبقى أمرا ممكنا .

أن نحدد أو نحصر بيقين مطلق كم من العرب المسلمين بقوا محتفظين بأعرافهم وعاداتهم كما باعتقاداتهم الشعبية الصقلية ، تبقى مهمة يصعب الكشف عنها غاية الصعوبة ، وذلك نقص في الدراسات المونوغرافية المعمقة . ومع ذلك فانه عندما يترامى إلى أسماعنا خلال السهرات الصقلية بعض الخوتا(٣) ذات العلامات المددة والفواصل الزمنية الغريبة عن موسيقانا الأوروبية ، أو إبان الترنتلا(٤) على على قرع الطبول ، أو عندما نشاهد خيولا وعربات وطنابر ذات زخارف وألوان فاقعة ، فاننا نفكر تلقائيا بالغناء والرقص والأعراف الشرقية .

إن وضع الأندلس يذكر على نحو غريب بوضع صقلية في العصر الذي كان فيه أمراء السلالة الكلبية ينافسون في الخالصة(٥) الأبهات التي عرفتها حواضر افريقيا كالقيروان وفاس . فقد كانت بلرمو وجوارها تضم في بعض الأوقات مائة وخمسين مسجداً . وكذلك كانت صقلية موطناً لعدد كبير من الشعراء والأدباء العرب . لقد ذكر ابن القطاع(٦) الصقلي في منتخباته مائة وسبعين منهم . وأيضا فان صقلية أنجبت أو استضافت عدداً من البحاثة المسلمين في سائر حقول المعرفة . إن مدينة مزارا وحدها بامكانها أن تفخر بأنها كانت مهداً لثلاثة قضاة مالكيين متعاصرين : الأول كان فقيهاً في فارس والثاني في الاسكندرية والثالث في تونس حيث لا



انطلاقة الاسلام .. توجه حضاري جديد .

يزال ضريحه موضعاً للتكريم حتى اليوم في موناستير .

ومن بين الأمم العديدة التي احتلت الجزيرة عبر العصور ، لم تحظ أية واحدة منها بذكرى شعبية إلى حد كبير كما هو شأن المسلمين أو « ساراسين » (٧) . فالرجل الشعبي يرغب في أن ينسب اليهم كل بناء على شيء من القدم ، وكل طلل سواء كان المقصود الحقبة الهلينية أو الفينيقية أو حتى ما قبل التاريخية : « Questo Ffecero Li Sarraceni » وكذلك يعزى إلى العرب أبراج مراقبة أو ديادب كان شارل الخامس (Quint) قد نشرها في النصف الأول من القرن السادس عشر على السواحل الصقلية . ولعل الدورة الأسطورية – والحية دائماً في صقلية – للبالادين(٨) الفرنسيين رينالد أو أورلاند أو رولاند ، قد أثرت على الخيال الصقلي الشعبي أكثر مما أثر عليه التقليد المباشر .

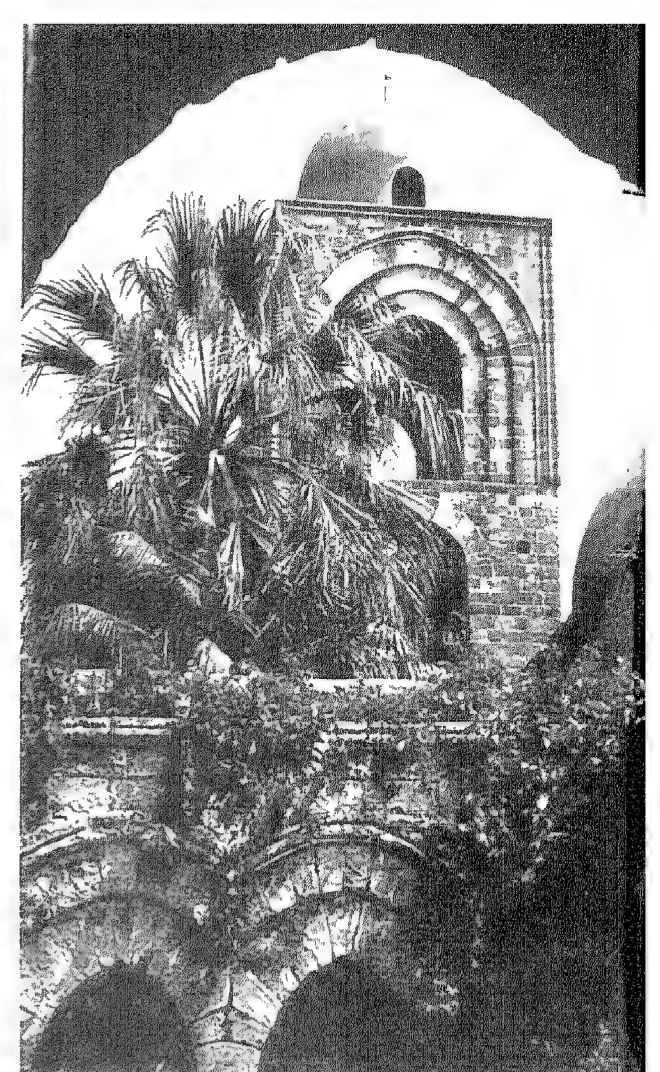
أثر اللغة العربية :

واللغة العربية هل تركت أثراً في اللغة الصقلية ؟ أجل إن جيوفاني باتيستا بلفريني (٩) جمع لائحة غنية من الألفاظ العربية الصقلية الجنوبية وكذلك لائحة من « المصطلحات الجغرافية العربية في صقلية » . ونورد هنا بعضاً من نماذجها :

باللغة العربية .	باللغة الصقلية
البراءة	albaranu
البيت	Baitu
الكردان (قافلة)	Caruana
الدفتر	defetari
الفندق	Fúnnacu
الجزية	Gesia
السكة (ضرب العملة)	Zecca
قائد	Cajitu
حمال	Camalu
حرار (ناسج الحرير)	Careri.
« جحا »	Ggiufà
رئيس	Raisi
سقاء	Saccaru
سمسار	Sinzali
وال	Vali
خنجر	Canciarru
حراقة (آلة حربية)	caracca
قصر	Cassaru
قطران	Catrama
جراب	Giruppa
هدأة	Heddi
معصرة	Màzzera
رصاص	Rusasi
شبكة	Sciàbbica
شلوق (هواء حار)	Siloccu
قفيز (مكيال)	Cafisu
برج	Bburgiu
غراف (غزير)	Garrafu
جُمام (راحة)	Aggiumátu
باقر (جماعة البقر)	bagheria
بلاطة	Bbláta
بئر	Buvira
حشيش	cacicia
حفر	Cáfaru
جابية (حوض الماء)	Gèbbia
جزيرة	Gisira
مخزن	Macasénu
معماري	Marammèri
مرساة	Marsa
موزة	Musa
رباط	Rrábatu
عريض	Riddu
طية	Sàia
طليعة	Talài
زيتونة	Zaituni
زريبة	Zzarba
الخ	الخ

التأثير في الزراعة [illegible]

وإذا كان الفولكلور الصقلي لا يزال يعرف بعض التقاليد الاسلامية ، فان الزراعة الصقلية مدينة أيضاً للعرب إلى حد كبير . وبالفعل فالمسلمون هم الذين أدخلوا إلى الجزيرة زراعة القطن والحامض والبرتقال المر والسكر والزعفران . وفضلاً عن ذلك فان العرب والصقليين ساهموا في البحث عن منابع المياه والمجاري الجوفية بهدف تحسين القنوات . وهكذا تم تصريف المياه عقلياً بواسطة نواعير



من آثار صقلية الاسلامية : قصر تحول إلى مسجد في القرن السادس م .

مما سمح بتحويل مناطق كانت قاحلة حتى حينه إلى مساحات مخضوضرة فعلياً . وما ينبغي ملاحظته أن معظم الينابيع الرئيسية تقريباً في بلرمو تحمل أسماء ذات أصل عربي : (Sciarabbu Garaffo Denisinni ,Gabriele) كذلك أيضاً فان كثيراً من الألفاظ التقنية الصقلية فيما يختص بموضوع الري وجر المياه هي من مصدر عربي .

إن المستوى الرفيع لحضارة ما وتأثيرها يتجليان أيضا عبر الآثار المعمارية فماذا يمكن القول بشأن صروح العهد الاسلامي في صقليا ؟ مما يؤسف له أن بقايا الأبنية المرئية هي قليلة جداً . ما تبقى هو بعض العمد ذات النقوش العربية التي أخذت من المساجد الخربة والتي أعيد استخدامها في بناء الكنائس وأحواض سفالو[١٠] ، التي تشهد على تقليد بقي شرقياً بعد أن أخذ عن الرومان والذي عاد العرب فنقلوه بدورهم إلى أوروبا ، وبعض المنقوشات المختصة بالمآتم والأمور البلدية ، وبعض الأساور الحديدية التي عثر عليها في مقابر المسلمين . هذا ما بقي من الفن العربي الاسلامي في صقلية . أما مصلى البالاتينا فانه أثر على حدة له تاريخه الخاص . ■

المراجع :

١ – الاستوريوغرافيا (Historiographie) هي التأريخ الوصفي الدقيق – المعرب –

٢ – Paul Egon Hubiuger, Beudeuteng und Rolle des Islam bein ubergang Von Altertum zum Mihelalter (Wege der Furschung. Band CCII) Darms Tordt 1968.

٣ – الخوتا نوع من الرقص الشعبي الاسباني – المعرب –

٤ – الترنتلا رقص شعبي ايطالي جنوبي يتميز بصخبه ومرحه – المعرب –

٥ – الخالصة هي أحد أحياء بلرمو عاصمة صقليا لجهة المرفأ

٦ – ولد ابن القطاع الصقلي في الجزيرة عام ١٠٤١ م من أسرة عرفت بالعلم والادب . هاجر إلى مصر بعد انهيار الحكم الاسلامي ، وقد اقام مدة في الاندلس قبل أن يصل إلى القاهرة . اهتم باللغة والتاريخ والمجاميع الأدبية كما كان شاعراً أيضا ، من مؤلفاته التي وصلتنا : « كتاب الدرة الخطيرة من شعراء الجزيرة » – المعرب –

٧ – وهي تعني المسلم أو المغربي أو العربي .

٨ – البلادين هم فرسان مغامرون – المعرب ه

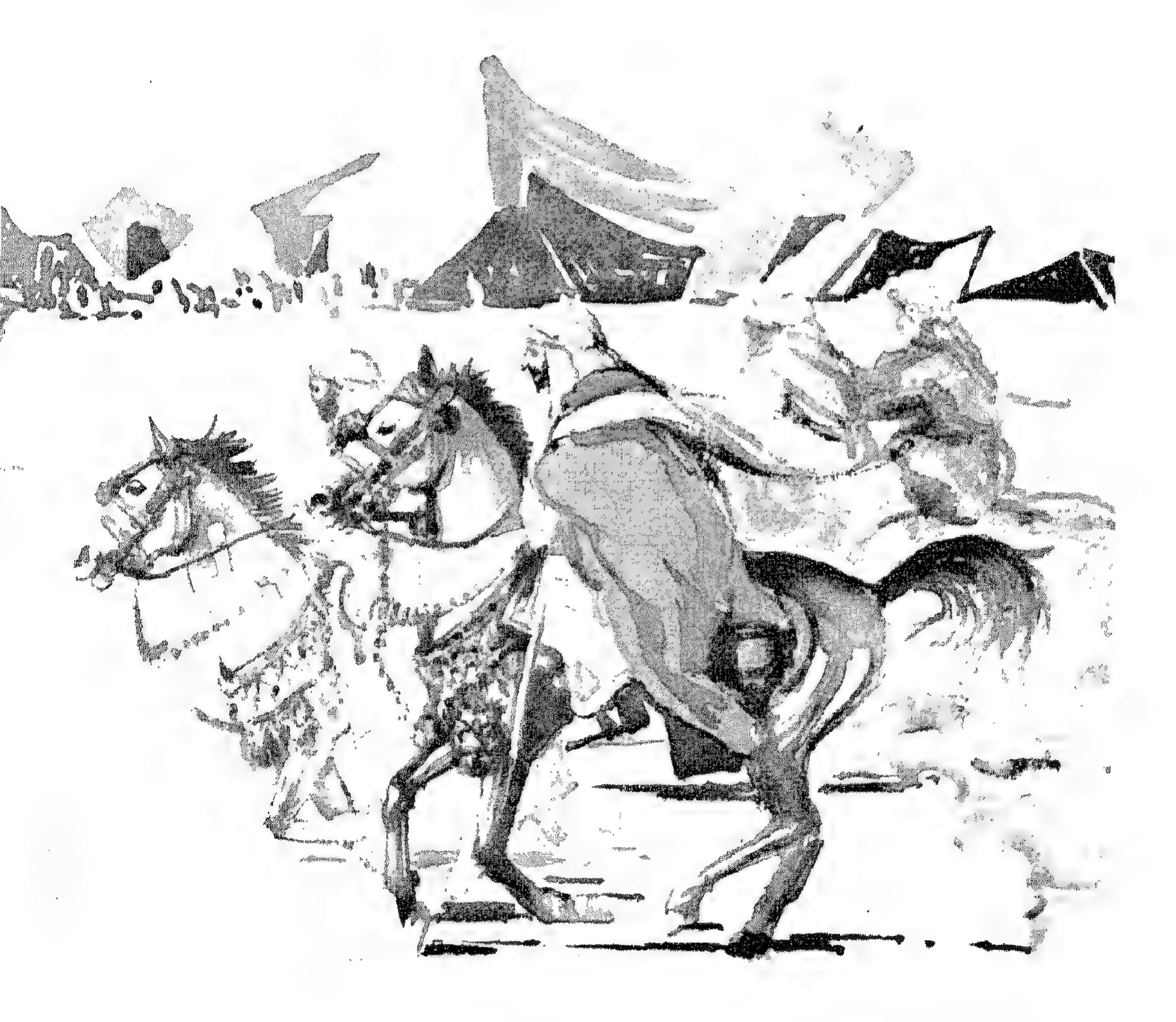
٩ – أنظر كتابه : Gli arabismi nelle linge neo-latine
Con speciale riguardo all'ITALIE vol: I Berscia 1972, PP. 129-136 et PP. 237-332.

١٠ – سفالو (Cefalu) مرفأ صقلي على البحر التيراني – المعرب –

نهاوند

أو فتح الفتوح (٢١هـ - ٦٤٢م)

بقلم العقيد د. ياسين سويد



ما قبل نهاوند :

اكتسح المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص ، بطل القادسية ، وقائد جيوش المسلمين في العراق وفارس ، بلاد الفرس ، قاهرين جيوشهم في معارك عديدة متتالية ، مطاردين فلول تلك الجيوش ، دون أن يتركوا لها فرصة لالتقاط أنفاسها ولم شتاتها ، فمن انتصارهم الساحق عليها في القادسية عام ١٤هـ — ٦٣٧م ، حتى المعركة الحاسمة في نهاوند ، مرت ست سنوات كان المسلمون ينتقلون في خلالها من نصر إلى نصر ، ومن بابل إلى بهرسير فالمدائن (١٤هـ) ، فجلولا فتكريت فماسبذان فقرقيسيا (١٦هـ) ، فالأهواز فطاووس فتستر فالسوس باقليم خوزستان (١٧هـ) ، وكانت معاقل الفرس تتساقط أمام الجيوش الفاتحة بسهولة ويسر ، وكان على تلك الجيوش أن تتابع تقدمها لتقضي على ما تبقى من فلول جيوش الامبراطورية الهرمة ، لولا أن أوامر الخليفة عمر بن الخطاب كانت تقضي بالتوقف أمام جبال زاغروس وعدم تجاوزها ، وذلك بغية إعادة تنظيم الجيوش المنهكة من القتال المستمر ، وتنظيم إدارة الأقاليم المفتوحة ، وربما كانت لدى الخليفة رغبة في عدم التوغل بعيداً في بلاد فارس كما يرى بعض المؤرخين ، فقامت بين المسلمين والفرس هدنة غير معلنة استمرت نحو ثلاث سنوات .

تشكيل الجيش الاسلامي :



ولكن الهزائم المتكررة التي مني الفرس بها لم تكن كافية على ما يبدو للقضاء نهائيا على مقاومتهم ، فأخذ مليكهم الفتي ، يزدجرد (الذي سبق أن هزم أمام المسلمين في « المدائن » ففر منها إلى حلوان فالري فنهاوند) يعد العدة للعودة إلى قتال المسلمين فيما تبقى له في بلاده من معاقل ومعتصمات ووقع اختياره على « نهاوند » مركزاً للمقاومة الأساسية وللمعركة الحاسمة ، وهي مدينة تقع بين حلوان وهمذان على السفح الجنوبي الغربي لجبال زاغروس ، تحيط بها الجبال من كل جانب ، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر مسالك وعرة وصعبة ، وعلم سعد باستعداد يزدجرد للقتال ، فكتب إلى الخليفة عمر يستأمره ، شارحا له الوضع من جميع جوانبه ، وبعد أن عقد عمر مجلسا من أهل الرأي والشورى من المسلمين ، قرر منازلة الفرس في معقلهم الأخير « نهاوند » ، فأمر سعداً بأن يتحرك جيش المسلمين للقتال على الشكل التالي :

— النعمان بن مقرن المزني ، وكان عاملا على كسكر في فارس . قائداً عاما للجيش .

— حذيفة بن اليمان ، قائداً لفرقة تعبا من أهل الكوفة .

— أبو موسى الأشعري (والي البصرة) قائداً لفرقة تعبأ من أهل البصرة .

— عبد الله بن عمر ، قائدا لفرقة تعبأ من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة .

- سلمى بن القين ، وحرملة بن ريطة والأسود بن ربيعة ، وسواهم من قادته في فارس والأهواز احتياط ومشاغلة .

ثم أصدر الأوامر التالية :

١ - أمر النعمان بن مقرن بما يلي : « بلغني أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فاذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله ، وتبصر بمن معك من المسلمين » ، إلى أن يقول : « فسر في وجهك هذا حتى تأتي (ماه) فاني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فاذا اجتمع اليك جنودك فسر إلى الفيروزان ومن معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم » .

٢ - أمر حذيفة بن اليمان وأبا موسى الأشعري وعبد الله بن عمر بالانضمام إلى النعمان ومؤازرته .

٣ - أمر سلمى بن القين وحرملة بن ريطة والأسود بن ربيعة وسواهم من أمراء الجند على أقاليم فارس والأهواز بما يلي : « أشغلوا فارس عن أخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وارضكم واقيموا على الحدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري » .

٤ - أمر النعمان بتعيين خلفائه على الوجه التالي : « إذا حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، فان حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن » .

وكانت قوة المسلمين التي اجتمعت بامرة النعمان لقتال الفرس في نهاوند قد بلغت نحو ثلاثين ألف مقاتل . بينما بلغت قوة الفرس التي جمعها يزدجرد من الباب إلى سجستان فخراسان فحلوان نحو ماية وخمسين ألفا ، ثلاثين ألفا من الباب إلى حلوان ، وستين ألفا من خراسان إلى حلوان . ومثلها من سجستان إلى حلوان ، وأمر على هذه الجيوش مجتمعة قائده ويدعى فيروزان الذي سبق وهزم أمام المسلمين في « القادسية » وفر من المعركة ملتجئا إلى الأهواز . ثم التحق بمليكه في نهاوند .

السير للقتال :

كان النعمان متمركزا بالأهواز عندما تلقى أوامر الخليفة بالتقدم نحو نهاوند فانطلق فور تلقي هذه الأوامر باتجاه نهاوند ، وعند وصوله إلى « ماه » انضم اليه حذيفة وأبو موسى . بفرقتيهما ومعهما نخبة من أبطال المسلمين وقادتهم مثل القعقاع بن عمرو وعمر بن معد يكرب الزبيدي ، وطليحة بن خويلد الأسدي وجرير بن عبد الله البجيلي ، والمغيرة بن شعبة ، وسواهم من أشراف الكوفة والبصرة ، كما انضم اليه عبد الله بن عمر بفرقة من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة .

وبلغ النعمان حلوان فأقام فيها فترة حيث أعاد تنظيم قواته وأرسل طلائعه باتجاه نهاوند ،لتستكشف العدو ، وكانت بامرة طليحة ابن خويلد الأسدي وعمرو بن أبي سلمى المزني ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وكانت حلوان على عشرين فرسخا من نهاوند . فعاد طليحة إلى النعمان يهنئه « إن ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد » وعندما أمر النعمان قواته بالتحرك نحو نهاوند ، وهي في تعبئة على الشكل التالي :

- في المقدمة : نعيم بن مقرن .
- في المجنبتين : حذيفة بن اليمان وسويد ابن مقرن .
- في القلب : القعقاع بن عمرو .
- وفي المؤخرة : مجاشع بن مسعود .

وما إن اقترب النعمان من حدود نهاوند حتى أمر جيشه بالتوقف والاستعداد للقتال . .

التنظيم الدفاعي للفرس في نهاوند :

كانت نهاوند مدينة حصينة ، أعدها الفرس للقاء حاسم مع المسلمين فنظموا فيها ومن حولها دفاعا متقنا ، فالمدينة محاطة بسور منيع ، وحول السور خندق عريض يمنع وصول المهاجرين إلى السور ، وزرع الفرس أمام الخندق وباتجاه المسلمين ، نوعا من الحسك الشائك مربع الأضلاع ، يثبت ضلع منه أو أكثر ، في الأرض وتظل الأضلع الثلاثة الباقية أو اثنان منها على الأقل ، فوق سطحها ، لتعيق تقدم المهاجمين ، أو تؤذي خيالتهم بأحداث ثقوب في حوافر جيادهم مما يمنعها من متابعة الجري ، أما جيش الفرس داخل سور المدينة فكان على « تعبئة » بحيث ركز رماته باتجاه محاور التقدم المحتملة للمسلمين كي يطالوا جندهم بنبالهم إذا ما حاولوا التقدم .

الاستعداد للقتال وبدء المناوشات :

ضرب النعمان حصارا حول المدينة المحصنة مانعا وصول أي مدد اليها ، وأخذ



من اقدم صور الأسلحة العربية ...

يهاجم السور ، من أماكن مختلفة بفرق جيشه في خلال يومين متتاليين ، إلا أن خيله كانت تصطدم بالحسك الشائك ثم بالخنـدق ، فلا تقوى على اجتيازها بينما تولى رماة الفرس صد جند المسلمين الذين تمكنوا من الاقتراب من السور .

إلا أن النعمان رأى ، بعد يومين من القتال المكلف دون جدوى ، أن لا أمل له في اختراق دفاع الفرس إلا بوسيلة لا بد من ابتكارها ، إذ أن استمرار الحصار مرهق للمسلمين ومريح للفرس المتحصنين في أماكن منيعة تكثر فيها الارزاق والمؤن ، مما يسهل لهم المكوث فيها طويلا دون أية حاجة لمعونة من الخارج ، ودون أن يستطيع المسلمون اخراجهم ولا إحراجهم . فقرر جمع أركان حربه للتشاور واتخاذ القرار المناسب .

الخطة الاسلامية :

وفي أثناء الاجتماع وتبـادل الآراء حول الحلول المقترحة ، كان اقتراح طليحة بن خويلد الأسدي أكثر الاقتراحات براعة وذكاء ، إذ أشار على النعمان أن يرسل خيلا لتنشب القتال مع الفرس المحاصريـن ، فتستفزهـم حتـى تخرجهم من أسوارهم ، فاذا خرجوا تقهقرت الخيل أمامهم ، فيعتقدون أن تراجعها ضعفا ويطمعـون بالنصر ، وتظـل خيـل المسلمـين المتمركزين ، والمستعدين لقتالهـم بعيـداً عن حصونهم وخنادقهم .

ووافق الجميع على الفكرة ، وبدأ النعمان بتنفيذها فوراً ، فوزع قواته على الشكل التالي :

الفرقة الأولى : خيالة ، بقيادة القعقاع بن عمرو ، ومهمتها تنفيذ عملية التضليل وفقـاً للخطة المرسومة انفا ، واقتحام العدو والاشتباك معه .

الفرقة الثانية : مشاة ، ومهمتها التمركز في مواقع ثابتة ومموهة بانتظار وصول الفرس اليها حيث تنشب معهم معركة جبهية .

الفرقة الثالثة : خيالـة ، وهـي القـوة الضاربة في الجيش ، ومهمتها التمركز في مواقع مخفية ومموهة ، ثم الهجوم على قوات العدو بعد تلقي اشارة من القائد العام .

سير القتال :

انبرى القعقاع مع فرقته للقتال ، فاقتحم أسوار المدينة مخترقاً حواجز الحسك الشائك



ورمى الفرس الذين على الأسوار بالنبل ، فاستفزهم ذلك وانبروا لقتاله ، فانهزم أمامهم ، وما إن رأوه منهزما حتى خرجوا من وراء أسوارهم وتحصيناتهم ليطاردوه ، وظل هو ينهزم وهم يتبعونه طامعين بانتصار سهل على المسلمين لم يتذوقوا طعمه أبدا ، وخرج كل من كان داخل السور من الفرس يتبعون المسلمين المنهزمين حتى « لم يبق منهم أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب » وانقطع الفرس عن حصونهم وهم جادون في أثر القعقاع « المنهزم » وجنوده .

وكانت مفاجأة الفرس مذهلة عندما وجدوا أنفسهم في آخر المطاف ، محاصرين ، جبهيا ومن الجانبين ، من قبل المسلمين الذين عرفوا كيف يتقنون استعمال عنصري الأرض والمفاجأة ، فأسقط في أيدي الفرس واكتشفوا ، ولكن بعد فوات الأوان ، المناورة البارعة التي قام بها المسلمون ، وعملية التضليل التي جرتهم خارج أسوارهم ، إلا أنه لم يعد لديهم أي خيار سوى الارتداد ، قتالا أو هربا ، إلى حصونهم ، لقد ربح المسلمون الجولة الأولى من المعركة بأن استطاعوا إخراج عدوهم من معاقله وفرضوا عليه مكان القتال وزمانه ، ولم يبق أمامهم لبدء الهجوم ، سوى انتظار إشارة القائد العام .

إلا أن الفرس قرروا استئناف القتال من موضعهم الحرج ، فبدأوا يستفزون المسلمين ، بدورهم ، بادئين القتال معهم ، إلا أن الأوامر لم تصدر من القائد العام بالرد ، وأقبل الفرس على المسلمين ، يرمونهم بالنبل غزيرا حتى جرحوا عددا وفيرا منهم إلا أن المسلمين بقوا على موقفهم دون رد فعال ، ولم يكن ذلك إلا لخطة من القائد الذي قرر بدء الهجوم عند الزوال أي بعد أن تكون الشمس قد مالت نحو المغيب .

وطاف النعمان على مواقع جند المسلمين يعطيهم تعليمات القتال قائلا : « إني هاز لوائي فتيسروا السلاح . ثم هاز الثانية فكونوا متأهبين لقتال عدوكم ، فاذا هززت الثالثة فليحمل كل قوم على من يليهم من عدوهم » وقيل أنه قال : « إني مكبر ثلاثا .. » وأعطى النعمان اشارة البدء بالهجوم في الوقت المحدد . فانطلق المسلمون يقاتلون الفرس قتالا « لم يسمع السامعون بقتال أشد منه قط » فاقتتلوا بالسيوف ، وقتل المسلمون من الفرس ما بين الزوال والاعتام « ما طبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب فيه » ، إلا أنه بينما كان النعمان القائد العام يتجول بين الصفوف ممتطيا جواده ، وحاثا المسلمين على القتال ، وقد حمل راية الجيش ، كبا به جواده فسقط عنه وعاجله أحد جنود الفرس بسهم في خاصرته فقتله . وما إن رأي نعيم بن مقرن (وقيل سويد بن مقرن) أخاه النعمان يسقط شهيدا ، حتى أسرع فأخذ الراية منه ودفع بها إلى حذيفة بن اليمان (الذي سبق وعينه عمر خليفة للقائد العام) . ثم أخبره باستشهاد النعمان ، وقرر القائدان كتمان خبر استشهاد القائد العام عن باقي الجند والقادة كي لا يذعروا واقترب حذيفة من جثة النعمان فزرع الراية قربها ثم تابع القتال .

واستمر القتال من غروب الشمس إلى حلول الظلام ، ولكن ما إن بدأ الظلام يشتد حتى بدأت مقاومة الفرس تنهار وتتلاشى فأخذوا يتقهقرون نحو حصونهم ، والمسلمون يطاردونهم ، ولا يتركون لهم فرصة لالتقاط أنفاسهم ، أو إعادة تنظيم صفوفهم أو أخذ



المبادرة في هجوم ، ردي ما ، ووصل الفرس إلى حيث كانوا قد زرعوا الحسك الشائك ليسقطوا به عدوهم ، فأخذوا يتساقطون هم به عن خيولهم ، قبل أن يتسنى لهم رفع هذه الحواجز تسهيلا لمرورهم ، وكان جند المسلمين يرهقونهم من خلفهم دون أن يدعوا لهم فرصة انتزاع هذه الحواجز ، فصار الفرس ، إذا حاولوا الانحراف عنها سقطوا جماعا ، في الخندق المحفور خلفها ، وذلك لأنه كان من عادة الفرس أن يقيدوا جندهم بالسلاسل ، كل سبعة بسلسلة ، كي لا يتسنى لأي منهم الهرب من المعركة . فكان إذا سقط واحد من السبعة في الخندق تبعه الستة الباقون فسقطوا أثره ، واستمر القتال هكذا ، واستمرت هزيمة الفرس وتساقطهم بين جرحى وقتلى ، والمسلمون يقتفون آثارهم ، حتى سقط من الفرس نحوماية ألف أو يزيد « ولم يفلت منهم إلا الشريد » ، وهرب قائدهم الفيروزان نحو همذان ، فتبعه القعقاع ابن عمرو فقتله في الطريق عند ثنية همذان ، ويقال أن الفيروزان قد حشرته ، وهو هارب عند الثنية ، بغال وحمير محملة عسلا ، فما استطاع الافلات ، فلحقه القعقاع وقضى عليه ، وقال المسلمون بعدها : « إن لله جنوداً من عسل » وسميت ثنية همذان هذه منذ ذلك الحين « بثنية العسل » .

ودخل المسلمون في نهاية المعركة ، منتصرين ، ثم انطلقوا بعدها يستكملون فتح ما تبقى من بلاد فارس دون مقاومة تذكر ، ولهذا ، سميت نهاوند هذه « بفتح الفتوح » . ■

المراجع :

- الكامل في التاريخ لابن الاثير .
- تاريخ الرسل والملوك للطبري .
- فتوح البلدان للبلاذري .
- قادة فتح بلاد فارس للواء الركن محمود شيت خطاب .
- معارك العرب الحاسمة لصبحي عبد الحميد .
- الفتوحات العربية الكبرى لجون باجوت غلوب تعريب خيري حماد .
- القادسية لاحمد عادل كمال .
- الطريق إلى المدائن لاحمد عادل كمال .
- فن الحرب لبسام العسلي .
- الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل .



العالم العربي في العام ٢٠٠٠

بقلم د. مروان بحيري



* د . مروان بحيري أستاذ التاريخ الحديث في الجامعة الاميركية في بيروت ومساهم في مؤلف البروفسور انطوان زحلان حول : « العالم العربي في السنة ٢٠٠٠ » وقد نشر هذا المقال في مجلة « تجارة الشرق » (La Commerce Du Levant .) عدد ٤٧٢٤ ، تشرين الثاني ١٩٧٩ .

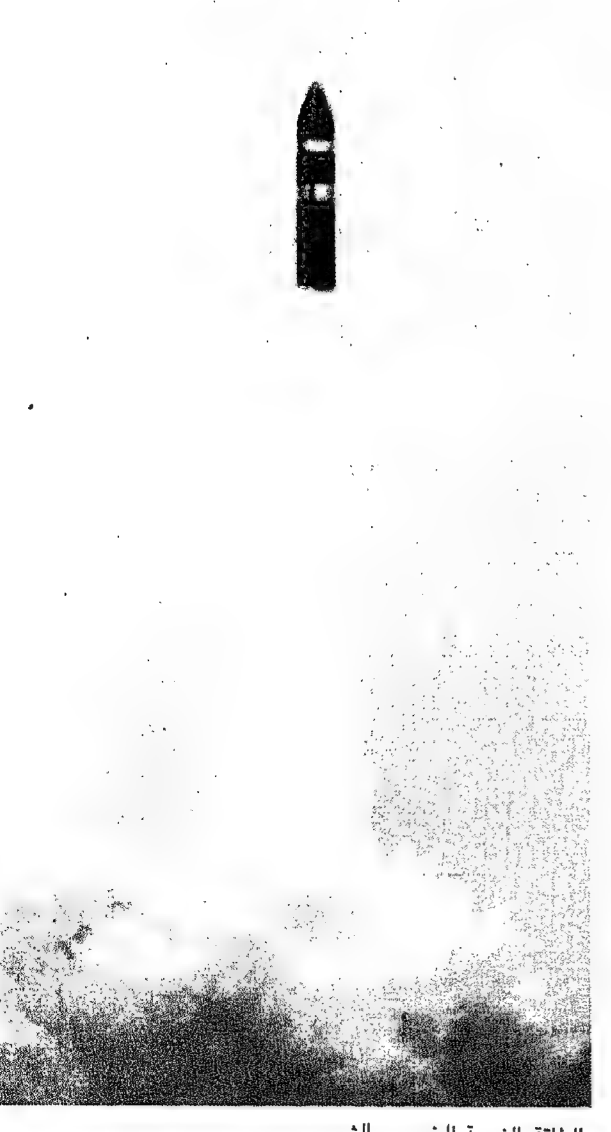
يمكن القول من وجهة نظر ما أن العام ٢٠٠٠ قد اتى ، وكما يقول بل (Bell) أحد مشاهير علماء المستقبل : « للزمن في نظر القديس أوغسطينوس ، ثلاثة أنواع من الحضور : فهو الحاضر الذي نعيشه ، وهو الماضي ذاكرتنا الحاضرة ، وهو المستقبل أملنا الحاضر » . ويضيف بل : « حسب هذا المقياس فان العام ٢٠٠٠ قد أتى لأن المستقبل ينضوي في القرارات التي نتخذها الآن وفي الطريقة التي بها ننظم وسطنا ونحدد بالتالي خطوط عملنا » . وهذا العالم العربي ، عالم الـ ٢٠٠٠ المثلث الحضور كيف سيكون ؟

في الواقع أصبحت تحديات العام ٢٠٠٠ تستأثر باهتمام العالم العربي بوجه خاص ، ذلك أن العرب سيكونون مجبرين عند نهاية القرن بتأمين الغذاء والتعليم والسكن والاستخدام والخدمات والدفاع والثقافة لثلاثماية مليون كائن ، وبمعنى آخر ينبغي عليهم في مدى العشرين سنة المقبلة أن يسيطروا على هذه المشكلات إذا ما أرادوا أن لا ينزلقوا تدريجيا إلى عالم النسيان . إن ثمن انهزام كهذا سيكون من الخطورة بحيث ينبغي عليهم مواجهته ومعالجته .

مدخل إلى علم المستقبل

في عام ١٩٦٥ كانت أكاديمية الفنون والعلوم الأميركية قد شكلت « لجنة العام ٢٠٠٠ » برئاسة عالم الاجتماع د . بل (Bell) وقد أشار يومها العديد من المراقبين إلى القيمة الرمزية لعام ٢٠٠٠ وتساءلوا عن المخاوف والآمال التي قد يحملها معه الألف الجديد أنه الألف الأول الذي فسر بطرق مختلفة ومتناقضة فقد اعتبره البعض عصراً جديداً . واعتبره البعض الآخر نهاية العالم . وعندما نشرت الدراسات الأولى لعلماء المستقبل الأميركيين (نحو العام ٢٠٠٠ لـ د . بل) اتخذ الاهتمام بعلم المستقبلية مظهراً حماسيا . فقد أثار هذا العلم ليس اهتمام الجامعيين والعلماء ورجال العلم والتخطيط وحسب ، ولكن استأثر أيضا باهتمام الرأي العام . لقد كانت الرغبة تدفعنا إلى معرفة أي عالم ينتظر الأجيال الآتية في مستقبل لم يعد بعيداً .

وفي أوروبا الغربية التي تهزها المشكلة أيضا ، يثير علم المستقبل خيال الجمهور الواسع ، خيال الخبراء ورجل الشارع على حد سواء . ففي فرنسا سمح الجهد الطليعي لبرتراند دي جوفنيل ، باطلاق مشروع « مستقبليات » (Futuribles) والمجلة الهامة التي تحمل الاسم نفسه . وفي بريطانيا العظمى أنشأ المجلس الانكليزي للبحث في العلوم الاجتماعية « لجنة الثلاثين سنة المقبلة » . وفي



الطاقة النووية للخير .. والشر

عام ١٩٧٠ نشر ماككونال دراسته : « بريطانية العام ٢٠٠٠ » ، وكذلك أظهرت جمهورية ألمانيا الفدرالية واليابان والبلدان المنخفضة والدانمارك اهتمامها بعلم المستقبل . .

ففي برلين صدرت نشرة « تحليلات وتنبؤات » . وفي ايطاليا انشئ نادي روما الشهير الذي أسسه الصناعي أورويليو باسي والذي والذي نظم عدة محاضرات حول المستقبل كانت مثاراً للجدل وهي محاضرات ساهم فيها خبراء من مختلف أنحاء المعمورة .

إن علم المستقبل أخذ بالاتساع إذاً . فهو حركة في أوج نموها في الولايات المتحدة وفي أوروبا الغربية وفي اليابان ، غير أن الحال ليست كذلك في بلدان العالم الثالث حيث يعتبر علم المستقبل بمثابة كماليات أو كشكل جديد للسيطرة على العالم الثالث واستغلاله من قبل البلدان الغنية .

ثمة واقعة لا يمكن إنكارها ينبغي أن تؤخذ في الحسبان : وهي أن بلدان العالم الثالث تخضع لمزيد من الاحتكار إن بواسطة الصعوبات الراهنة وإن بواسطة التحدي الذي يمثله المستقبل . إضافة إلى ذلك ، بينما يشدد العالم الثالث على النمو ، نجد أن علماء المستقبل يميلون إجمالا إلى تقديم سيناريوهات تتزاوج مع النظريات القائلة بتحديد النمو التي يدافع عنها نادي روما وعلماء البيئة مثلا .

ومن جهة أخرى ، يبدو أن الاتحاد السوفياتي قد رفض علم المستقبل « كأيديولوجية بورجوازية » . ومع ذلك ، فمن البديهي أنه مضطر كقوة صناعية إلى الالتزام بما يلي :

١ – تحسين تكنولوجيته الآخذة في الهرم باستمرار .

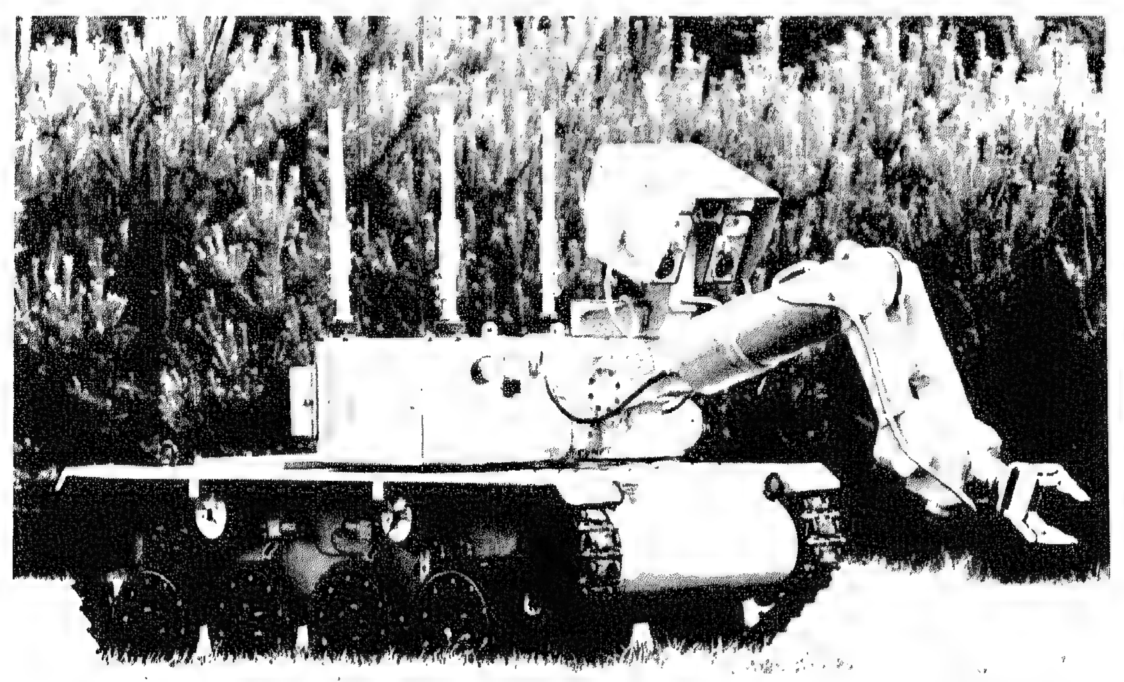
٢ – محاولة الوصول إلى الاكتفاء في قطاع الزراعة .

٣ – التفكير في تعقيدات ديموغرافية منخفضة .

٤ – والواقع أن الاتحاد السوفياتي يلجأ إلى تخطيط المستقبل على أساس تقدير استقرائي للبيانات الحالية . فعلم المستقبل يبقى هو نفسه مهما كانت الأسماء .

متفائلون ومتشائمون

إن علماء المستقبل ينقسمون ، شأن سائر الناس ، إلى متفائلين ومتشائمين . وقد صنف فكتور فركيس في دراسته الحديثة (علم المستقبل ، وعوده ، منافقة ، آفاقه) نشرت عام ١٩٧٧ في (C.S.I.S.Washington) المتفائلين في



تكنولوجيا للمستقبل

خانة « أتباع قرن الخصب » والمتشائمين في خانة اتباع الكارثة . والذين يدافعون عن نظرية الوفرة يتوقعون نمواً اقتصادياً متصلا مع نتائج مشجعة وموارد طبيعية غير محدودة وتطبيقاً للتكنولوجيا يلائم حلول المشكلات . وهم يشيرون إلى أهمية الذكاء البشري ويدعون بأنهم مقتنعون بأن الانسان سيعمل على تحسين رفاه يقاس بأرقام دقيقة مثل أوقات الفراغ ، مستوى المعيشة متوسط العائد الوطني لمؤسسات الديموقراطية.

وبالمقابل فان المدافعين عن نظرية الكارثة يحذرون من أخطار اكتظاظ سكان يتضاعف مع كل جيل . وهم يخشون الإضرار بالتوازن القائم في الطبيعة ، والكوارث البيئية التي يسببها التلوث الصناعي خاصة ، ونتائج سباق التسلح ونمو الطاقة النووية ، والمجاعات المتولدة عن تزايد سكاني من دون انتاج غذائي كاف ، وأخيرا النضوب المحتم للموارد غير القابلة تجدد . وباختصار فان أنصار هذه النظرية يتنبأون بنهاية مشؤومة إذا لم يصر مباشرة إلى تبني برنامج عمل شبيه بالبرنامج الذي اقترحه نادي روما ، أي « تحديد النمو » . ومع ذلك ما ينبغي تسجيله أن أفكاراً في منتهى التشاؤم كتلك التي عرضها بول أربيش في مؤلفه « الانفجار السكاني » قد رفضت من قبل العديد من المؤلفين . وهكذا فقد أثبت بعض الخبراء الجزائريين أن النمو الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة يؤديان إلى خفض كبير في معدل النمو الديموغرافي .

العالم العربي والعام ٢٠٠٠

إن العالم ٢٠٠٠ هو أقرب مما نتصوره عموما ، والعالم العربي يمتلك موارد هائلة لم يسبق لها أن استخدمت . بل يمكن القول أن إحصاء مقاديرها وتحليلها يقوم بهما ويؤمنهما دائما على الأرجح غير العرب ، وبخاصة القوى الصناعية العظمى في الغرب وفي الشرق التي تعرف بالضبط ما ينبغي عليها أن تفيده من هذه المنطقة الهامة في المديين القصير والطويل .

إن العالم العربي بدلا من أن يستخدم ويحتفظ بمئات الاختصاصيين في الصناعة والجامعات ومعاهد البحث والمجالس الاستشارية ، فهو يشهد هجرتها المتواصلة . وإذا عدنا إلى أحد المؤلفات المنشور حديثا (العالم العربي في العام ٢٠٠٠) وهو مشروع جماعي باشراف الأستاذ انطوان زحلان نجد « أن نسبة تتراوح بين ٣٠ و ٥٠ ٪ من الاختصاصيين العرب المتازين قد غادروا بلدانهم » ، والاستثمارات الضخمة هاجرت هي أيضا . وهي تفوق بشكل واسع الأموال الضرورية التي يتطلبها استقرار النظام النقدي العالمي . وبامكاننا أن نقدر أن العالم العربي يصدر بعض العوامل الحاسمة التي يحتاجها الانتاج - رأس المال ، المواد الأولية - الطاقة ، الاختصاصيين - ويستورد المنتجات النهائية للصناعة الخارجية من دون أن يكون بالامكان تحديد اكتساب تكنولوجي متزايد . أن هذه الحالة المقلقة بذاتها يخشى أن تتفاقم في العقود المقبلة إلا إذا لجأنا إلى تعبئة دقيقة ومنسقة لقلب الوجهة الحاضرة .

١ - وصف الحاضر

- السكان :

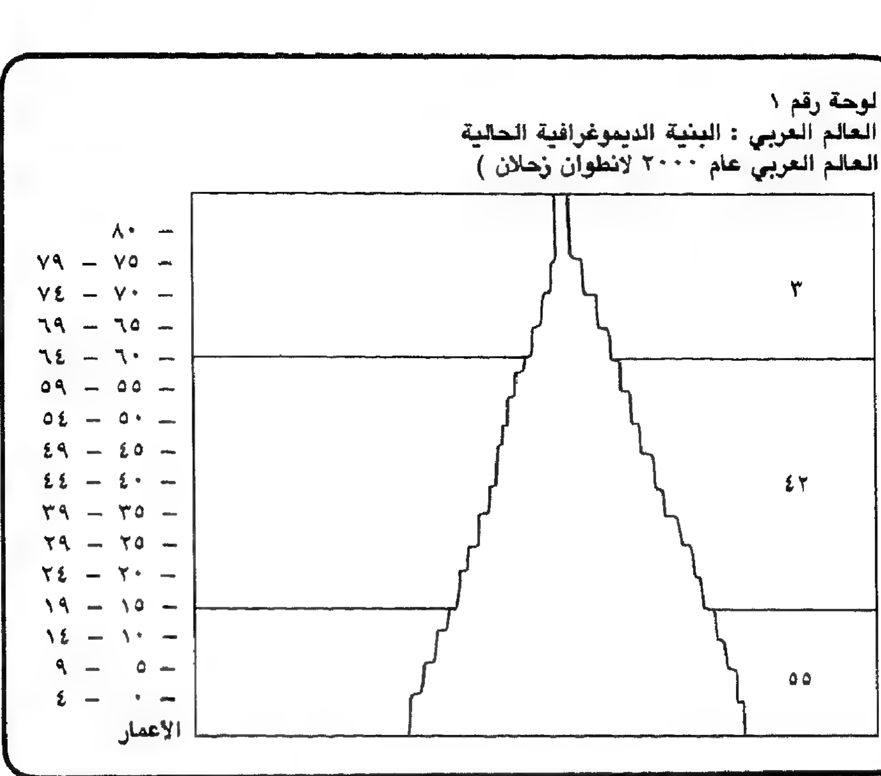
قدر سكان العالم العربي لعام ١٩٧٨ بحوالي ١٥٦ مليون نسمة . وهو يتزايد بمعدل مرتفع جداً يتراوح بين ٢,٨ و ٣,٥٪ في العام . إنه أحد المعدلات الأكثر ارتفاعا في العالم . وهذا يعني أن سكان العالم العربي سيتضاعف في مدى ٢٠ أو ٢٥ سنة (أنظر لوحة١ و٢) . وهو سكان فتي بحيث أن نصفه تقريبا تقل أعمارهم عن ١٨ سنة .

- الصحة :

إن الحالة الراهنة للصحة محزنة ، مع نسبة مرضية غير مقبولة . فمعدل الوفيات بين الأطفال يرتفع إلى ١٢٠ لكل ١٠٠٠ ولادة ، بينما لا يتعدى ١٥ على ١٠٠٠ في المجتمعات الصناعية ، أما النفقات الحكومية في ميدان الصحة فانها تقدر بحوالي ١٠ دولارات للشخص الواحد ، بينما تتراوح هذه النسبة في البلدان المتقدمة بين ٦٠ و ٩٠ دولارا . وبالنسبة لمدة الحياة فانها قصيرة : حوالي ٥٥ سنة مقابل ٧٢ في المجتمعات الصناعية . وبالنسبة لمعدل الأطباء ثمة طبيب واحد لكل ٣٠٠٠ شخص ، بينما يوجد طبيب واحد لكل ٧٥٠ شخصا في المجتمعات الصناعية .

- التعليم الابتدائي والثانوي :

إن حالة التعليم محزنة هي أيضا شأن الصحة . « ذلك أن أكثر من ٩٥٪ من التلامذة لا يجدون سبيلا إلى ارتياد مكتبات الأطفال ،



لوحة رقم ٢
سكان العالم العربي
بالملايين .

	١٩٧٨	٢٠٠٠
المشرق (لبنان ، سوريا ، الاردن ، العراق ، فلسطين)	٢٩	٥٨
الخليج العربي : السعودية ، بلدان الخليج اليمنان	١٩	٣٨
وادي النيل (السودان ، مصر ، الصومال ،	٦١	١٢٢
المغرب (جزائر مراكش ، تونس ، ليبيا ، موريتانيا)	٤٧	٩٤
المجموع	١٥٦	٣١٢

معدل النمو السنوي التقديري : من ٢,٨ إلى ٣,٥٪
الوقت التقديري لمضاعفة السكان : من ٢٠ إلى ٢٥ سنة
المصدر : أرقام تقديرية مبنية على Population data SHeet World) ١٩٧٨

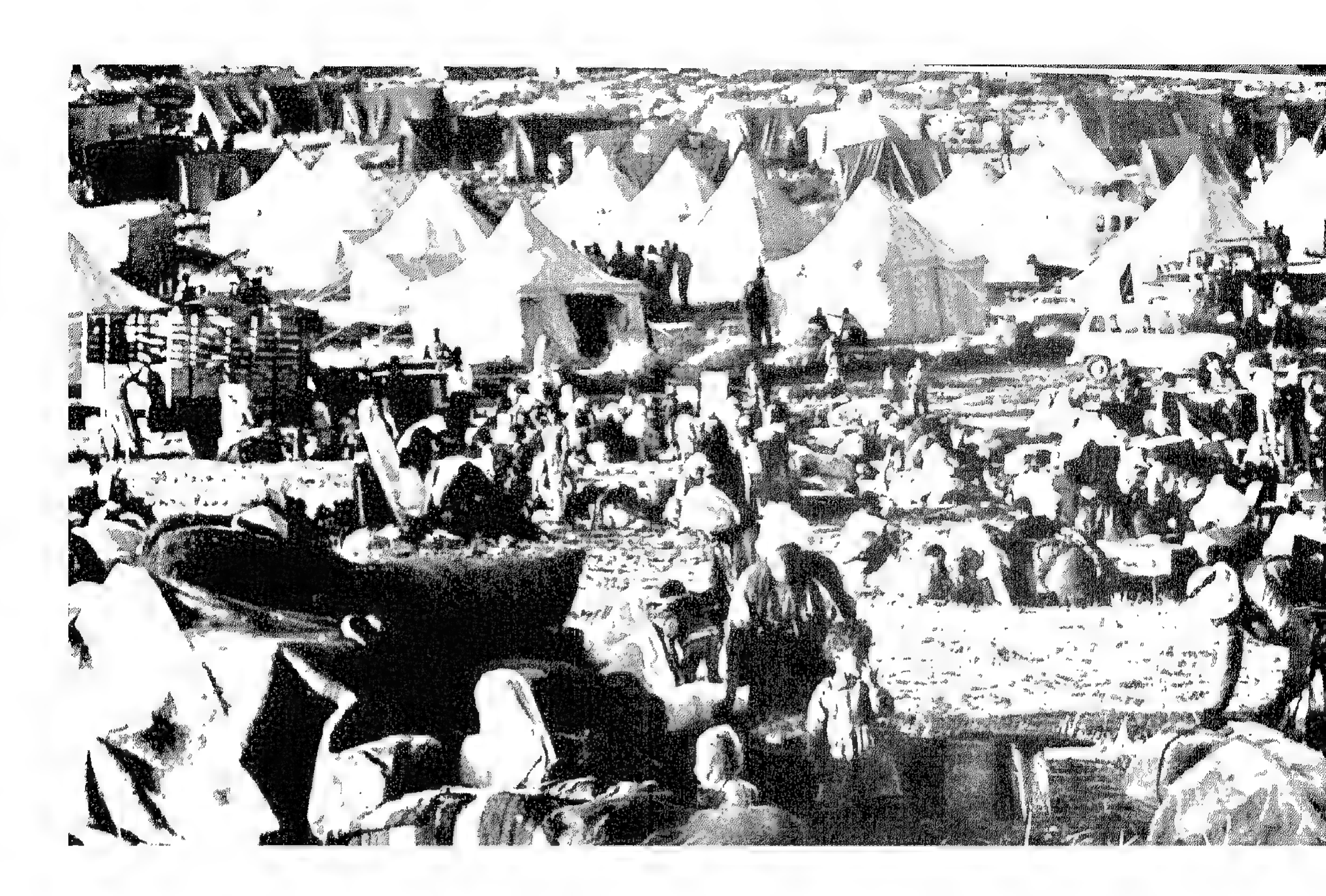
ولا يقومون أبدا باجراء التجارب العلمية ، ويقيمون في قاعات مدرسية تحت الوسط » ، أنظر « العالم العربي عام ٢٠٠٠ » .

– التعليم الجامعي :

تضم الجامعات العربية أعدادا وفيرة من الطلاب ، ولكنها تفتقر إلى المكتبات والمختبرات وإلى ملاك كفؤ ينصرف إلى البحث . إن عدد الجامعيين الفعليين يتراوح بين ١٠٠٠ على ١٠٠٠٠٠ في لبنان و ٦٠٠ على ١٠٠٠٠٠ في مصر و ١٥٠ على ١٠٠٠٠٠ في تونس . ويتوزع الطلاب كالآتي : ٦٠ ٪ في الآداب ، ٤٠٪ في العلوم . أما في أوروبا فان النسبة معكوسة .

– الزراعة :

لا تحظى الزراعة (بما فيها تربية



ازدياد السكان مشكلة
تتضاعف سريعا

لوحة رقم ٣
مقارنة بين الزراعات العربية والأميركية
١٩٧١ – ١٩٧٢

	العالم العربي	اميركا
النسبة المئوية لمساهمة الزراعة في النتاج الوطني الخام	٢٠	٣
النسبة المئوية للسكان العاملين في الزراعة	٦٠	٤
الانتاجية الزراعية لكل عامل	٢٢٧	٦٢٨٠
	دولاراً	دولاراً

الحيوان) بتقدير كبير في العالم العربي . فهناك نقص في استخدام المياه ، والتصريف غير الكافي يستمر في هدر مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة . ومع ذلك فان القدرة الزراعية هي مرتفعة خاصة في العراق والسودان وسوريا (أنظر لوحة ٣ بالنسبة للمقارنة بين الزراعة العربية والزراعة الأميركية) .

٢ – آفاق العام ٢٠٠٠

سيبلغ سكان العالم العربي في العام ٢٠٠٠ رقما مدهشاً : ٣٠٠ مليون نسمة إلا إذا هبط معدل النمو الديموغرافي بصورة دراماتيكية . فهو سيتضاعف وسيكون هناك إذاً على الأقل ١٠٠ مليون طفل في سن الدراسة يحتاجون إلى ٧ ملايين معلم مؤهل . في العام ١٩٧٠ كان السكان العرب القاطنون في المدن يعدون أقل من ٤٠ مليونا . أما في العام ٢٠٠٠ فان هذا الرقم مرشح لأن يبلغ ٢٠٠ مليون . لقد عرفت المدن العربية نمواً سريعاً سنويا بنسبة ٦٪ . وستبلغ القاهرة إذن عدداً مفزعا : ٢٠ مليونا ، ويصل سكان بغداد إلى ١٠ ملايين ، وسكان كل من بيروت ودمشق والجزائر وتونس إلى ٥ ملايين . وهذا النمو السريع يمنع بالتأكيد كل نمو طبيعي في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . فضلاً عن أنه قد يسبب خضات اجتماعية ونقصاً حاداً في مجال السلع



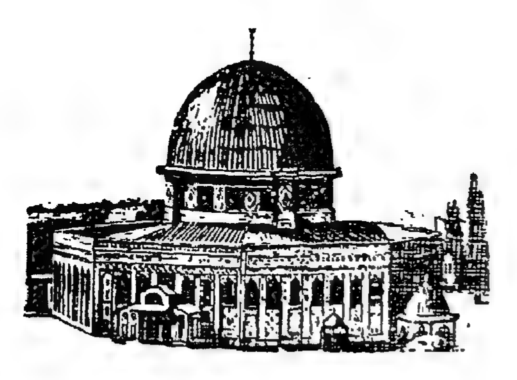
الغذائية الضرورية .

إن الاختصاصيين يتوقعون بصورة جدية نقصا غذائيا في العقد المقبل . وإذا المستقبل سيكون شبيها بالحاضر فان العالم العربي سيتعرض إلى محن قاسية : سيكون الأغنياء وحدهم قادرين على الاحتفاظ بالاحتياطي من النتاج الغذائي الآخذ في الندرة . إن الاحتمالات المستقبلية ليست باهرة وينبغي عمل شيء ما قبل أن يفوت الأوان : إعداد برنامج عاجل للاستثمار لتأمين نمو الزراعة والصناعة والبنى التحتية والتعليم . وفي الميدان الاقتصادي يجب أن نتجه جديا نحو التكامل القطاعي . وفي هذا الصدد تبدو دراسة الاستاذ انطوان زحلان ذات دلالة : « لو كان بمقدور الدول العربية أن تجمع مواردها البشرية والمالية والطبيعية في إطار سوق عربي مشترك لتدعمت بالتأكيد قدرتها على التصنيع السريع والمتنوع . فبفضل التكامل الاقتصادي القطاعي والتخصص الذي يثيره يصبح من الممكن خلق مركبات صناعية كبرى تسمح بتسريع وتيرة النمو الصناعي والاقتصادي والاجتماعي في مجمل العالم العربي » .

إن بعض المؤسسات الضرورية لانشاء سوق عربي مشترك موجودة أصلا . فمجلس الوحدة الاقتصادية العربية المنشأ عام ١٩٦٤ مكلف بتحريك الوحدة الاقتصادية : تخفيض التعريفات الجمركية ، تنشيط الاستثمارات المتبادلة بين العرب ، تشجيع حرية حركة اليد العاملة ، توزيع عقلاني للصناعات وإنشاء مناطق حرة للتبادل . وهناك مؤسسات أخرى مشتركة وجدت لتشجيع المشاريع القطاعية . وهي تشمل الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والشركة العربية للتوظيفات البترولية والشركة العربية للملاحة ، والشركة العربية للخدمات البحرية ، وصندوق المدفوعات العربية والمنظمة العربية للصناعات الحربية ، وأقل ما يمكن انتظاره منها هو عمل جريء لكي نبلغ في أقل من خمس سنوات درجة من التكامل شبيهة بما هو موجود في السوق الأوروبية المشتركة . وسيكون لهذا الأمر ميزة إضافية بتحسينه الوضع الاستراتيجي العربي في الحوار بين الشمال والجنوب ، وهو حوار ذو أهمية مركزية .

لا شك أن الرهان كبير جداً . وإذا لم نتوصل إلى حل مختلف هذه المعضلات ، يخشى أن يكون أنصار نظرية الكارثة على صواب .

■

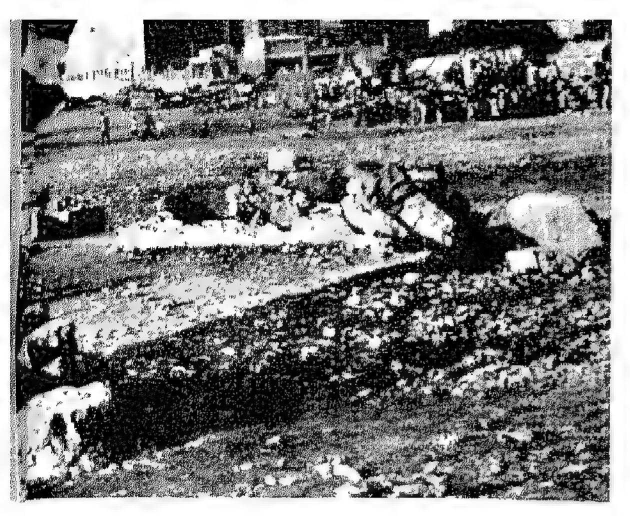


المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام يكشف مواقف الدول من المشروع الصهيوني في فلسطين

د. محمد مخزوم

عقد المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام بين (١٩ - ٤ نيسان ١٩٨٠) في عمان بدعوة من الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك وجامعة دمشق . وكان المؤتمر الاول قد عقد في عمان أيضاً سنة ١٩٧٤ والمؤتمر الثاني في عام ١٩٧٨ في جامعة دمشق وتناول المرحلة التاريخية الممتدة من دخول العثمانيين إلى بلاد الشام حتى بدء الحرب العالمية الثانية .

الغاية من عقد هذه المؤتمرات هي توضيح بعض الثغرات التاريخية الغامضة من تاريخ بلاد الشام وتأكيداً للوحدة التاريخية لهذه المنطقة عبر العصور ثم إتاحة المجال لاقامة حوار تاريخي بين المختصين بتاريخ بلاد الشام من عرب ومستشرقين .



امتثل لهذه الدعوة ١٢٠ باحثا من مختلف الجامعات والمؤسسات العلمية (العربية والأجنبية وقد تناولت أبحاثهم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لفلسطين وعلاقاتها مع بقية الأقطار العربية وبلدان العالم الأوروبي عبر جميع العصور التاريخية .

ولا يسعنا أمام هذا العمل العظيم إلا أن توجه شكرنا لجميع الذين أشرفوا على نجاح هذا المؤتمر ونخص منهم أمين سر اللجنة التحضيرية للمؤتمر الدكتور محمد عدنان البخيت . وتتدرج الأبحاث المقدمة إلى المؤتمر في تسعة موضوعات عامة وهي :

١ – مكانة القدس عند المسلمين والمسيحيين عبر عصور التاريخ وعددها ١٦ بحثا .
٢ – التعليم والثقافة والحياة الفكرية وعددها ١٤ بحثا .
٣ – موقف الدول من القضية الفلسطينية وعددها ١٣ بحثا .
٤ – الهجرة الصهيونية إلى فلسطين وعددها ١١ بحثا .
٥ – جوانب من تاريخ فلسطين وعددها ١٨ بحثا .
٦ – فلسطين في أدب الرحلة والرحالة والجغرافيين العرب والأجانب وعددها ١٦ بحثا .
٧ – الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبشرية لسكان فلسطين وعددها ١٣ بحثا .
٨ – دراسات فلسطينية في الوثائق وعددها ٥ أبحاث .
٩ – العمارة الاسلامية في فلسطين وعددها ٤ أبحاث .

وانطلاقا من أن الأبحاث التي تناولت موضوع « موقف الدول من القضية الفلسطينية » قد تميزت بمواقف حادة تراوحت بين التبرير والادانة ، فأثارت نقاشات عاصفة داخل قاعات المؤتمر نظراً لأن المواقف الحالية لهذه الدول من القضية الفلسطينية (بعد مرور أكثر من ثلاثة أرباع القرن) تعتبر مع بعض الاستثناءات امتداداً حقيقيا لمواقفها السابقة من تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين ، فاننا سوف نستعرض أهم ما تعرضت له هذه الأبحاث مع بعض الملاحظات الضرورية استكمالا للسياق العام وتوضيحاً لبعض الغموض .

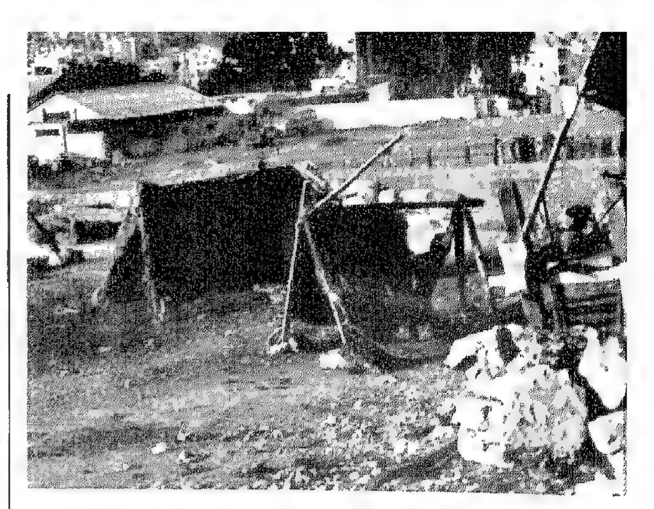
المشاريع الصليبية التي استهدفت فلسطين(١)

لم تستطع القوة الصليبية التي قامت في أحشاء الامبراطورية الاسلامية الثبات على الدوام على الرغم مما توفر لها من فرص النجاح العسكري والغنى المادي والتماسك الأيديولوجي الذي افتقر له الشرق الاسلامي : فكانت مراكزها الأساسية مهددة دائما بالسقوط بأيدي القوى الاسلامية .

وعلى الرغم من أن أواخر القرن الثالث عشر قد شهد إفلاسا حقيقيا لفلسفة الحركة الصليبية إلا أن القوى الأوروبية منفردة أحيانا ، ومتضامنة أحيانا أخرى ، على مدى عدة قرون بعد اختفاء الروح الصليبية الاولى ، استطاعت أن تطل على الشرق الاسلامي بوجه آخر ، آخذة بعين الاعتبار تبدل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في العالمين الأوروبي والاسلامي ، فحققت نجاحا يزيد في أهميته عما أصابته صليبية القرن الحادي عشر . لقد تأكد هذا النجاح بعد مرور حوالي القرنين على تأسيس الامبراطورية العثمانية ، عبر وسائل التبشير في الشرق وعبر الامتيازات التي حصلت عليها هذه الدول ثم عبر تغلغلها بين الأقليات الأثنية والملل المتنوعة . فساهمت بارادتها بعد إفلاس فلسفة أنظمتها الاستعمارية والانتدابية ومشاريعها الالحاقية في خلق الدولة الصهيونية التي حققت أكثر مما حققته الصليبية (الدينية) .

موقف الدولة العثمانية(٢)

يرى الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ويتفق معه معظم الباحثين أن أولى مظاهر



الهجرة الكثيفة إلى الدولة العثمانية قد بدأت في عام ١٨٨٢ على أثر الاشاعة التي ظهرت في الروسيا بأن اليهود وراء مقتل القيصر اسكندر الثاني في عام ١٨٨١ . فأعلنت السلطات العثمانية عندها أنها « تحيط كل (اليهود) الذين يريدون الهجرة إلى (داخل أراضيها) علماً بأنه: لن يسمح لهم بالاستقرار في فلسطين (خاصة القدس - الخليل - صفد - طبرية) بل عليهم أن يهاجروا إلى داخل ولاية (عثمانية) أخرى وأن يستقروا فيها كما يحلوا لهم بشرط أن يصبحوا رعايا عثمانيين وأن يقبلوا سريان قوانين الامبراطورية عليهم .

ولكن الدول الأوروبية تمسكت بالامتيازات الممنوحة لها في الدولة العثمانية واستطاعت في سنة ١٨٨٨ أن تحصل على تنازل من الباب العالي « يسمح لليهود بالاستقرار في فلسطين بشرط أن يصلوا فرادى لا جماعات ، ومع أن الدولة العثمانية أصدرت أمراً بمنع اليهود من شراء الأراضي في فلسطين إلا أن هؤلاء استطاعوا انشاء تسع مستوطنات زراعية خلال الثمانينات وتسع أخرى خلال التسعينات حتى تاريخ قيام الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧ .

وما لبث اليهود أن توصلوا (بمساعدة دول أوروبا التي ادعت وجوب وضع حد للفوضى السائدة في فلسطين) إلى أن يتمتعوا منذ ١٩٠١ بنفس الحقوق التي يتمتع بها الرعايا العثمانيين . فأصبح بامكانهم شراء الأراضي الميري والبناء عليها طبقاً لقانون الأراضي . هذه الخطوة أدت إلى تنظيم وضع اليهود الذين أقاموا في فلسطين عدة سنوات بطرق غير شرعية . فوصلت اعدادهم في فلسطين عام ١٩٠٨ إلى ثمانين ألفاً أي ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه عام ١٨٨٢ فأصبحوا يشكلون ١١٪ من مجموع سكان فلسطين البالغ عددهم عام ١٩٠٨ حوالي ٧٠٠,٠٠٠ نسمة كما بلغت مستوطناتهم ٢٦ مستوطنة يقيم فيها ١٠,٠٠٠ ساكن .

رحب الصهيونيون بحكم الاتحاديين الذين أبدوا بدورهم استعدادهم للاستجابة لمطالب الأقليات في الدولة العثمانية . وقد صرح وزير الداخلية طلعت أثناء زيارته إلى لندن ١٩٠٩ بأنه « يرحب بالهجرة اليهودية في جميع أنحاء الدولة ولكنه حذر من أية نوايا انفصالية أو نزعات شريرة مغرضة » وقد بدأ التفاؤل إلى أقصى حد عند ولفسون خليفة هرتزل عندما أعلن في المؤتمر الصهيوني التاسع (١٩٠٩) بأن الدولة العثمانية « التي أصبحت دولة دستورية هي محط أمل جديد»... ويتوقع منها أن تطور الهجرة اليهودية إلى فلسطين من أجل مصالحها . إلا أن الزعماء الاتحاديين ما لبثوا أن أبدوا عداء متزايداً للروح القومية للأقليات ومن بينهم اليهود الذين فشلوا إلى حد ما في تعديل موقف الدولة العثمانية الرسمي من الهجرة وامتلاك الأراضي بالاضافة إلى تشدد المعارضة العربية في مجلس المبعوثان خاصة بشخص شكري العسلي (نائب دمشق) وروحي الخالدي (نائب القدس) . فخففت الصهيونية عندها من مطالبها بانشاء وطن قومي وقد جاء ذلك على لسان ولفسون نفسه سنة ١٩١١ عندما أعلن « إن ما يريده الصهيونيون ليس دولة يهودية بل وطناً » .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى التي اتضح فيها وقوف الصهيونية إلى جانب الحلفاء صادر جمال باشا الاعلام اليهودية والشعارات العبرية في فلسطين وحرم استعمال اللغة العبرية في المراسلة وأغلق البنك الانجليزي الفلسطيني وحرم حمل السلاح في المستوطنات ، ومع ذلك فان هذه الاجراءات لم تمنع اليهود من تنظيم قوات الدفاع الذاتية (هاشومير) في المستعمرات والمدن من القيام بعمليات تدريب واسعة على مدى واسع . وهكذا جاء وعد بلفور رداً لجميل الصهيونية لوقوفها إلى جانب انكلترا في هذه الحرب ضد الدولة العثمانية .

ولا بد لنا أخيراً من الاقرار بأن الدولة العثمانية عجزت عن ايقاف الهجرة كما عجزت عن منع اليهود لشراء الأراضي في فلسطين مع

أن معظم الأراضي فيها كانت أراض ميرية لا يجوز بناء المساكن عليها إلا بعد تقديم طلب إلى الآستانة مؤشر عليه بموافقة المتصرف . إذ أن جميع المراسيم والقرارات العثمانية لم تكن حازمة بالشكل الذي كان يمنع معه تسرب اليهود إلى فلسطين بحجة الامتيازات الأجنبية التي كانت تسمح للأوروبيين بحرية الاتجار داخل الدولة العثمانية أو بحجة الحج إلى فلسطين . لهذا فان كل التبريرات والتي يطرحها الباحث وغيره عن عجز الدولة العثمانية أمام الضغط الأوروبي عليها لتسهيل الهجرة وشراء الأراضي هي تبريرات ساقطة تاريخيا . فعجز السلطة عن تنفيذ قراراتها لا يقل عن ادانة التساهل نفسه .





هرتزل

موقف المانيا[٣] :

شرع هتلر منذ وصوله إلى السلطة بسن التشريعات لمكافحة اليهود في المانيا وإكراههم على مغادرة البلاد . فأصدر في ٧ نيسان ١٩٣٣ قانون العودة إلى الوظيفة بهدف تطهير أجهزة الدولة من العناصر غير المرغوب فيها من الآريين . وعندما طرحت النازية شعار: « المانيا للالمان وفلسطين لليهود » جاء الرد اليهودي على هذه التدابير في الصحيفة الصهيونية الالمانية في ٤ نيسان ١٩٣٣ « احملوا باعتزاز النجمة الصفراء » .

أما في فلسطين فكانت ردة فعل الصهيونية مختلفة تماما ، إذ أن اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية أوفدت رئيس المكتب السياسي إلى المانيا لدراسة الوضع ، فاتصل بأقطاب الصهيونية الالمان وتم الاتفاق على أن الحل الوحيد لمشكلة اليهود الالمان هو تنظيم هجرتهم إلى فلسطين وفق برنامج محدد ومتفق عليه مع الحكومة الالمانية ، بحيث تتشارك المانيا (بطريقة غير مباشرة) في تمويل هذا المشروع . وفعلا حولت أموال يهود المانيا الذين يرغبون في الهجرة بواسطة شركة هعنوتيا (Ha'notea) اليهم في فلسطين بطريقة خاصة . إلا أن ثورة ١٩٣٦ في فلسطين وتعاطف العرب مع هذه الثورة دفع المانيا لأن تعيد النظر في سياستها تجاه القضية الفلسطينية . فأصدر وزير الخارجية الالماني تعميما إلى السفارة الالمانية في لندن والقنصلية الالمانية في القدس والمفوضية الالمانية في بغداد في الأول من حزيران ١٩٣٧ يحدد فيه معالم السياسة الالمانية الجديدة التي تتلخص في عدة نقاط :

١ – إن قيام دولة يهودية أو كيان سياسي يهودي في فلسطين سوف يشبه إلى حد بعيد دولة الفاتيكان بالنسبة إلى الكاثوليكية السياسية أو موسكو بالنسبة إلى الكومنترن (الايديولوجيتان المعاديتان للحركة النازية) .

٢ – إن مصلحة المانيا تقضي بجعل اليهود متفرقين وذلك للحؤول دون ازدياد سطوة اليهودية العالمية وقد جاء في التعميم المرسل إلى بغداد « ينبغي التعبير بشكل أوضح من ذي قبل عن تفهم المانيا لأماني العرب القومية ولكن دون ادلاء بأية وعود محدودة».

إلا أن هذا الاتجاه الجديد في السياسة الالمانية مع ما لازمه من اتصالات عربية بحكومة المانيا (خاصة اتصالات المفتي الحاج أمين الحسيني) لم يقدم للعرب أكثر من المواقف الأدبية إزاء ما كانت تقدمه بريطانيا لتحقيق المشروع الاستيطاني اليهودي . إذ أن المانيا كانت وما زالت حتى ١٩٤٠ تعتقد أنه بالامكان التوصل إلى صلح مع بريطانيا لاقتسام مناطق النفوذ في أوروبا والعالم وأن أكثر ما حصل عليه مندوب المفتي عثمان حداد إلى برلين هو « أن المانيا وايطاليا تعترفان باستقلال البلاد العربية وتتابعان بعطف واهتمام ما يقوم به العرب من جهود في سبيل تحقيق استقلالهم » .

وبعد فشل الهجوم الايطالي على مصر ١٩٤٠ واحتلال القوات البريطانية لبرقة أخذت المانيا تنهج سياسة جديدة إزاء العرب . فقد



وافق وزير الخارجية الالماني خلال المباحثات الثانية مع مندوب المفتي « أن يدفع مئة ألف مارك الماني ولمرة واحدة للحاج أمين الحسيني »*.

وهكذا تراوحت السياسة الالمانية – الايطالية ازاء العرب عامة وفلسطين بشكل خاص بين التأييد أحيانا والاحجام عن اصدار اي اعلان أحيانا أخرى تبعاً لسير المعارك العسكرية التي كانت دائرة في ليبيا وعلى حدود مصر . فاقتصرت وعود المانيا للعرب عن استقلال ووحدة أقطار الهلال الخصيب مع تجنب الاشارة بصراحة إلى سورية ولبنان والتأكيد على تحرير واستقلال الاقطار العربية الواقعة تحت الهيمنة البريطانية .

جدول يبين ازدياد هجرة يهود المانيا إلى فلسطين

القطر	١٩٣٣	١٩٣٤	١٩٣٦	١٩٣٨
١٩٣٨				
المانيا	٣٥٢	٥٣٩٢	٨٦٣٠	٩٧٠٠
بولندا	٣١٠٠	١٣٠٠٠	١٨٠٠٠	٢٧٠٠٠
رومانيا	٥٠٠	١٤٠٠	٢٥٠٠	٣٠٠٠

موقف فرنسا(٤) :

أما عن موقف فرنسا المعارض في بدايته من حيث الشكل للمشروع الصهيوني فقد عالجه الدكتور وجيه كوثراني من خلال النصوص الدبلوماسية في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية ، ويكمن سر هذه المعارضة في أن المشروع الصهيوني أثار مخاوف الرأسمالية الفرنسية التي كانت تطمح إلى السيطرة على سورية بكاملها بما فيها فلسطين لاستثمار أموالها في مشاريع زراعية واسعة كالتي أقامتها بريطانيا في مصر .

وفي أثناء الحرب الأولى فقد تأرجح الموقف الفرنسي بين الضغط الصهيوني والدولي وبين ضغط الرأي العام الكاثوليكي الفرنسي الذي حرص منذ البداية على عدم وقوع الأماكن المقدسة تحت السيطرة الصهيونية . مع أن زعماء الحركة أكدوا للبابا أن اليهود ليس لديهم مطمح حيال الأماكن المقدسة . ومن أجل دفع الحكومة الفرنسية لأن تتخذ موقفا أكثر وضوحا تشكل في فرنسا سنة ١٩١٥ « العصبة الفرنسية – الصهيونية » من شخصيات يهودية فرنسية أو فرنسية فقط تتعاطف مع الحركة الصهيونية .

إلا أن التنافس البريطاني – الفرنسي الذي تراوح بين التأييد والمعارضة(٥) تبلور أخيراً في الاتفاق الذي عقد بين الدولتين عام ١٩١٩ ونص على ضم الموصل وفلسطين إلى منطقة النفوذ البريطاني . وفي عام ١٩٢٠ عقد مؤتمر سان ريمو الذي توزعت بموجب قراراته الانتدابات على سورية والعراق وفلسطين كما هو معروف وقد تضمن صك الانتداب على فلسطين اشارة واضحة إلى« مسؤولية الدولة المنتدبة» عن جعل البلاد في أحوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي كما تضمن « الاعتراف بهيئة يهودية صالحة كهيئة عمومية تشير وتعاون في إدارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين واستقر الموقف الفرنسي الرسمي أخيراً على قبول وتأييد المشروع الصهيوني في فلسطين ولكن مع استمرار الحذر من مخاطر التوسع الصهيوني في داخل اراضي الانتداب الفرنسي في سورية ، وقد كان لذلك الحذر ما يبرره فقد حاول الصهاينة ، مد نفوذهم إلى منطقة الانتداب الفرنسية واشتروا بعض الأراضي في جنوب لبنان ، وطالبوا بقمة حرمون وجنوبي البقاع ... غير أن المفوضية الفرنسية في سورية من جهة أخرى كانت تغريها جرأة الرساميل الصهيونية ومشاريعها في فلسطين وامكانية الاستفادة من الجاليات الصهيونية لكن ليس في جنوبي لبنان وليس في حوران حيث يمكن للمسلمين والدروز أن يتحدوا ضدهم فنهيء بذلك لثورة جديدة .. » أو « لخلق نزعة الحاقية يهودية » لذلك يقترح المفوض السامي الفرنسي اقامة جاليات صهيونية في المنطقة الفراتية أو في المنطقة الواقعة بين خط الفرات وبين حلب – حماة – حمص حيث يراهن على الطابع شبه الصحراوي للمنطقة وخلوها من السكان ، وعلى امكانية استيعاب المعارضة المحلية بالمنافع التي يمكن أن تجلبها أموال ورجال الصهيونية .

موقف انكلترا خلال فترة الانتداب(٦) :

لعبت السياسة البريطانية دوراً بالغا في زيادة اعداد الهجرة اليهودية إلى فلسطين إذ



بلفور في أقصى اليسار ويبدو حاييم وايزمن في الجامعة العبرية ١٩٢٥

نصت المادة الرابعة من صك الانتداب البريطاني على فلسطين على امكانية اعطاء الأراضي المشاع وأراضي الدولة والأراضي غير المملوكة للمهاجرين اليهود ، وهكذا ارتفع عدد اليهود في فلسطين عام ١٩٢٣ إلى ١٠٠ ألف كانت أغلبيتهم تتركز في القدس ، ولولا الصعوبات الكثيرة التي كانت تعرقل الهجرة وعلى رأسها المقاومة العربية الفلسطينية لزاد هذا العدد كثيراً . وبينما كانت المستوطنات الأولى قبل الحرب تعتمد على المزارعين اليهود والعرب أصبحت بعد الحرب تعتمد على اليد العاملة اليهودية فقط .

وفي حين كانت أوروبا الشرقية عهد الانتداب البريطاني تقدم اليد العاملة الفقيرة من اليهود كانت أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية تقدم الرساميل الكفيلة بانشاء المستوطنات الصهيونية وتثبت المهاجرين عليها . وتوجت انكلترا عملها هذا بعدة اجراءات أدت إلى استيلاء اليهود على كثير من الأراضي ففرضت على الفلاح العربي الضرائب الباهظة وعمدت إلى طرد السكان العرب من أراضيهم وانتزعتها منهم تحت شعار « أرض بدون شعب لمهاجرين بدون أرض »[٧] .

موقف الاتحاد السوفياتي[٨] :

أما عن موقف الاتحاد السوفياتي من الحركة الصهيونية عموماً وقرار التقسيم خاصة انطلق من الأمر الواقع لا من الحقائق التاريخية التي اعترف بها وأقرها . فلقد وجد نفسه أمام سكان عرب ويهود يقطنون فلسطين العربية الأمر الذي دفعه إلى الاقرار بوجود شعبين لا بد أن يتمتعا بحقوق متساوية وقد عبر عن ذلك ممثل الاتحاد السوفياتي في الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ بقوله « إن المصالح المشروعة لشعبي فلسطين العربي واليهودي على حد سواء لا يمكن الدفاع عنها على النحو المطلوب إلا بانشاء دولة يهودية — عربية ديموقراطية موحدة من الاثنين ومستقلة » أما عن الموقف السوفياتي من عدوان ١٩٦٧ فقد كان حازماً إذ لازمه قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل وتبرير المقاومة بل ومساندتها الفعلية كما لازمه شجب الصهيونية كشكل من أشكال العنصرية .

ومع وضوح الموقف الحالي للاتحاد السوفياتي من القضية الفلسطينية والعنصرية الصهيونية فلا بد لنا من أن نسجل أن الموقف الأدبي للاتحاد السوفياتي من قرار التقسيم والاعتراف بدولة اسرائيل مع ما لازمه من كفارة فعلية لموقفهم من القضية الفلسطينية طيلة العقدين الماضيين جاء مضراً بمصلحة العرب ومناقضاً لقرار المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية الذي عقد في تموز ١٩٢٠ وأقر ما يلي : « ... والدليل الواضح على خداع جماهير شغيلة الأمة المضطهدة بالجهود المشتركة لأمبريالية دول الوفاق وبرجوازية هذه الأمة يتجلى في عملية الصهاينة بشأن فلسطين كما يتجلى في الصهيونية عموماً التي تقدم إلى الاستغلال

البريطاني بحجة تأسيس دولة يهودية في فلسطين قربانا هو السكان العرب الكادحون في فلسطين حيث يشكل الشغيلة اليهود مجرد أقلية ضئيلة » .

أما الدكتور غازي ربابعة(٩) ، فقد حاول أن يوازي بين موقف السوفيات والولايات المتحدة في قيام دولة اسرائيل . ومع تأكيده إلى أن الولايات المتحدة قد دعمت الوجود الاسرائيلي قبل عام ١٩٤٨ وأيدت قيام اسرائيل ثم تورطها الفاضح في عدوان ١٩٦٧ إلا أنه جعل كل المواقف المشتركة بين السوفيات وأميركا تصب في قناة مصلحة السوفيات على حساب مصلحة العرب . فيذكر أن الاتحاد السوفياتي بعد حرب حزيران ١٩٦٧ أخذ يماطل في تزويد العرب بالأسلحة (لم يؤكد ذلك من بين الحكام العرب سوى الرئيس أنور السادات) عندما جعل هذه المسألة من المسائل التي أدت إلى فتور العلاقات العربية السوفياتية وإلى القطيعة شبه التامة بين الاتحاد السوفياتي ومصر ؟ .

حول توصيات المؤتمر :

اشتملت توصيات المؤتمر على عدة نقاط ايجابية نذكر منها :

١ – وجوب استكمال الوثائق والمخطوطات ذات الصلة الوثيقة بتاريخ بلاد الشام وبخاصة فلسطين .

٢ – وضع قوائم ببيليوغرافية تتناول الاطروحات والكتب والبحوث التي وضعت حول فلسطين العربية منها أو الأجنبية ، ثم ترجمة البحوث والكتب القيمة المؤلفة عن فلسطين من اللغات الأجنبية إلى العربية ومن اللغات العربية إلى اللغات الأجنبية .

٣ – استكمال الندوات في موضوعات جزئية محددة في تاريخ بلاد الشام .

٤ – توثيق التعاون في ميدان تاريخ بلاد الشام بين الجامعات العربية والمؤسسات العلمية ومراكز الاستشراق .

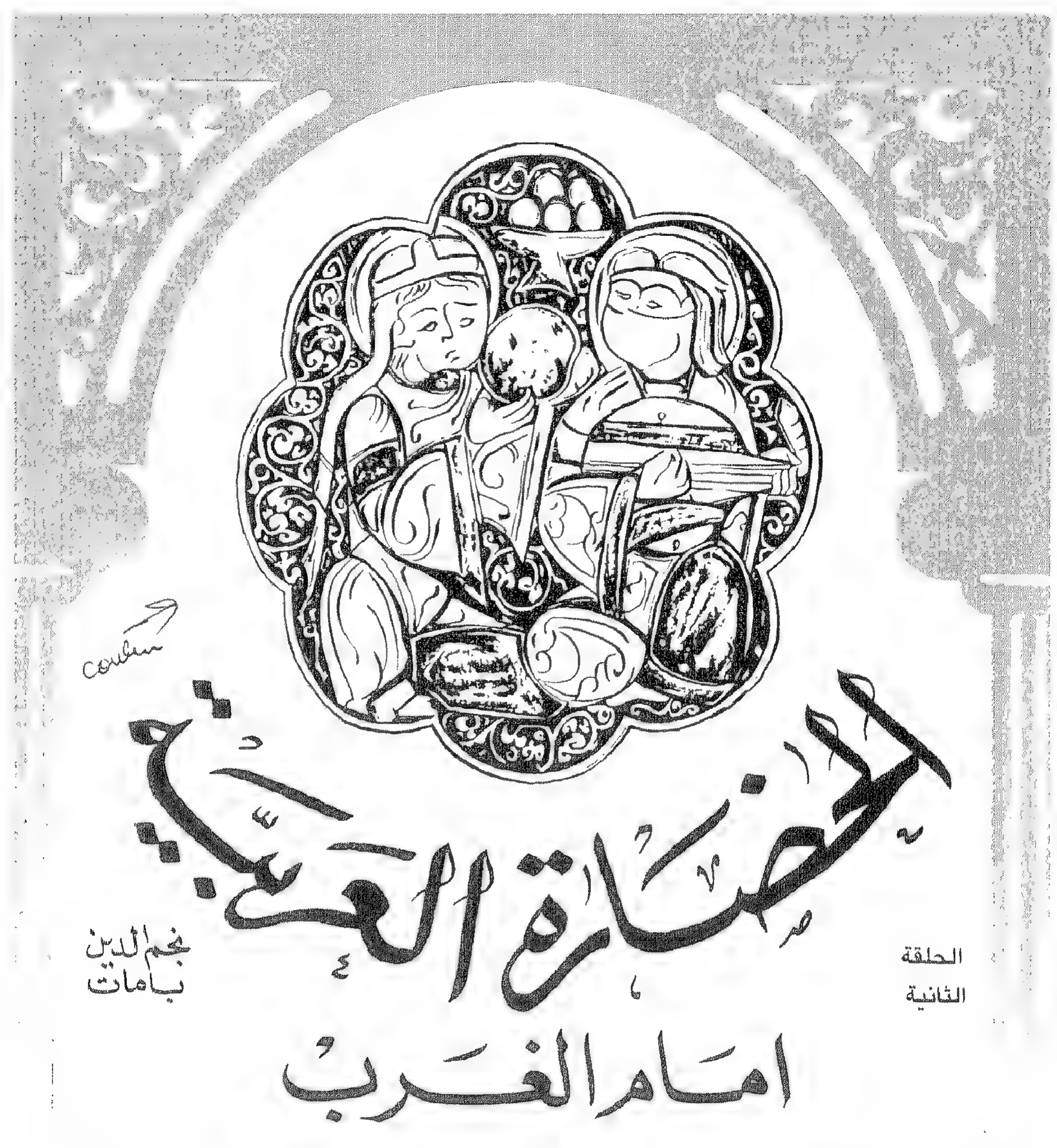
٥ – السعي لدى السلطات لترميم الأماكن الأثرية في القدس .

٦ – انشاء صندوق يقوم بتوفير المال اللازم لتمويل المشروعات والبحوث المتصلة بفلسطين .

مع تقديرنا لأهمية هذه التوصيات إلا أنها لم تنوه بما أكدت عليه معظم البحوث حول تاريخية فلسطين العربية والروابط الدينية والقومية والعرقية والحضارية التي قامت بين عرب فلسطين وبقية المنطقة العربية منذ العصور القديمة حتى عهدنا الحاضر . ولعل الخوف من اغراق المؤتمر في القضايا السياسية جعلها أيضاً لا تنوه بالتآمر التاريخي لدول أوروبا وخاصة التحالف الاستعماري الانكليزي – الفرنسي ثم الانكليزي فيما بعد الذي مكن الصهيونية من تنفيذ مشروعها الاستيطاني في فلسطين .

هوامش البحث

١ – بحث قدمه الدكتور محمد مخزوم (الجامعة اللبنانية) حول عكا في فترة الاحتلال الصليبي .
٢ – بحث قدمه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى (جامعة الكويت) حول موقف الدول العثمانية من القضية الفلسطينية .
٣ – بحث قدمه الدكتور علي المحافظة (الجامعة الاردنية) حول الحركة الوطنية الفلسطينية والرايخ الثالث .
٤ – بحث قدمه الدكتور وجيه كوثراني (الجامعة اللبنانية) : فرنسا ، فلسطين والصهيونية في مطالع القرن العشرين .
٥ – تأتت المعارضة الفرنسية للمشروع الصهيوني كما يذكر وايزمن في مذكراته « إن الفرنسيين كانوا يعتبرون فلسطين كما يعتبرها العرب ، جزءا متمما لسورية . وحين نال الانكليز الانتداب عليها أسف الفرنسيون لذلك أسف العرب . كذلك كان الفرنسيون يعتبرون انفسهم ممثلي أوروبا في شرق البحر الأبيض وحماة المسيحيين . وكانوا ينظرون إلى سياسة الوطن القومي من وجهة نظر الكاثوليكية أو يعتبرونها افتئاتا على حقوقهم التقليدية في الشرق .
٦ – بحث قدمه الدكتور مسعود ضاهر (الجامعة اللبنانية) حول : ملكية الأرض الفلسطينية ابان الانتداب البريطاني .
٧ – تعتبر الدكتورة زاهية قدورة (الجامعة اللبنانية) في بحثها (مفكران لبنانيان وقضية فلسطين : نجيب عازوري وميشال شيحا) أن الحركة الصهيونية في بدايتها كانت من صنع بريطانيا ودعمها إلى أن تحولت زمن ميشال شيحا بين (١٩٤٤ – ١٩٥٣) إلى حركة أكثر تركيزاً وفعالية في فلسطين بدعم من الولايات المتحدة الاميركية . وتعتبر هذه المقولة صحيحة إلى أبعد الحدود وإن كان ميشال شيحا يجعل موقف أميركا من الدعوة الصهيونية يعود إلى الظروف الانتخابية وقوة اليهود العددية متناسيا أهمية الرساميل الصهيونية في اميركا وتأثيراتها السياسية ...
٨ – بحث قدمه الدكتور أحمد ماضي (الجامعة الاردنية) : الموقف السوفياتي من القضية الفلسطينية .
٩ – الدكتور غازي ربابعة (الجامعة الاردنية) : استراتيجية القوتين العظميين في الشرق الأوسط .



نوالي في هذا العدد نشر القسم الثاني والأخير من هذه المقالة القيمة التي يوضح فيها صاحبها – في كثير من الواقع – بأن الحضارة العربية كانت أقرب إلى التفتح وإلى العلم من غيرها من الحضارات المعاصرة لها .

...ولم يفت كثيراً من المدافعين العرب ابداء هذه الملاحظات ، إلا انني أعتقد اننا إذا تجاوزنا هذه المشاهدة وحاولنا تأويلها يمكننا الوصول إلى ملاحظات مختلفة جدا ، فقد نصل إلى أن الاغريق الذين اعتادوا فلسفة الجواهر حيث كانت للمفاهيم أشكال وأحجام كما أنهم اعتادوا توحيد الطبيعة في حقيقة لها قيمة مطلقة . لقد كان من السهل الابحار في مياه المضاربات العلمية لان الانتقال من المضاربات الى التطبيق لن ينقلب وسيظل في نفس الأفق العقلاني ، بينما يختلف الوضع بالنسبة للعرب .

فهناك فارق أساسي ومطلق بين ما هو أسمى وما هو أدنى وما في الدنيا . فالخالق

الوحيد هو الله تعالى وما الدنيا إلا سراب وليس هناك إلا قانون واحد . قانون لا ينتسب إلى الطبيعة ولكنه قانون علوي ، قانون ميتافيزيقي أو أخلاقي ، فالعالم ليس وهماً وهو ليس دون شك لعبة ، ولكنه أيضا ليس بحقيقة لها ما للطبيعة عند الاغريق من معنى . إنه مجموعة من العلاقات المتلاشية تدريجيا ، إنه مجموعة من الحياة والذكرى فالله قادر ان يرفض السببية من جديد ، فالعالم يُخلق ويهدم في كل لحظة . فمذهب السببية في الفكر العربي يبرز كذلك في النحو ويقول بول فاليري : « ليس هناك شيء ذو معنى أكثر في التفكير الانساني من القول في الختام : ما هو السبب أو نتائج سبب آخر » .

فاللغة العربية لغة تتجنب قدر الامكان ترك نتائج ، فقليل ما تكون فيها الجمل الوصلية ، وتتركب بـ (وحين ف ... ؟) وتستعمل الجمل الرئيسية المتقابلة ، والجملة هي شبيهة بجملة صافية قابلة لامكانيات التغيير ، وليس الاستنتاج مفروضا من « الله العلام » ، فالذي يعلم الخير هو الله حتى في جزئيات الحياة اليومية ، ويجب تقدير الزمن مسبقا فنحن الآن في شهر رمضان فلماذا نراقب الخيط الأبيض لتمييزه من الخيط الأسود لان الشيء الذي يهم هو التجارب بالعيان التي يعيشها انسان من لحم ودم وليس انخفاض الرمل في الساعات الرملية .

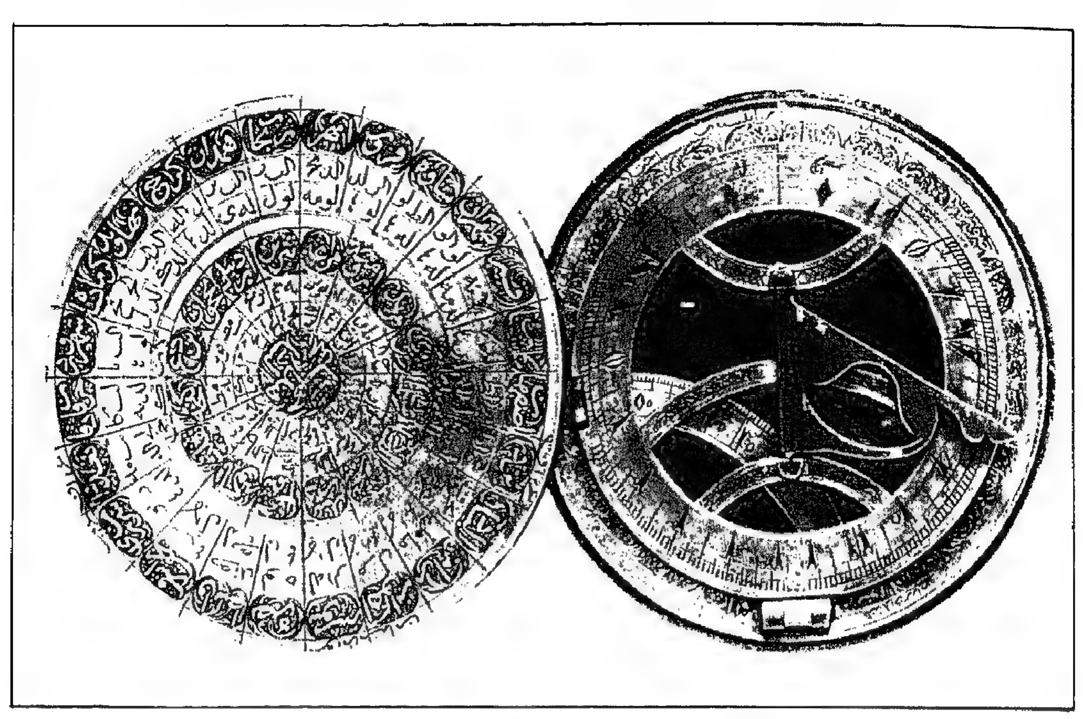
ولم يتم قبول انتهاء شهر رمضان – كما هو الحال في حلوله – إلا بعد شهادة شاهد يعترف فيها بصدقه كانسان وبفضائل أسلافه ، وجيرانهوبشرفه ، فهكذا نجد أنفسنا قريبين من عمليات العالِم ، فهو يسمح لنفسه بتأليه الطبيعة ، ولا يقوم بالمضاربات ، ولا يضع الفرضيات ، ولا ينشئ علماً نظرياً ، ويمكنني حتى القول احتراما للفيض انه يقتنع بملاحظة الحوادث تجريبيا تلك الحوادث التي تمر أمام عينيه ، فهو لا يفكر في تركيب علمي جازم لكنه يقتصر على الملاحظة الفورية لتأثيراته على المادة حتى في الميدان الفني فانه لا يقدم لنا الوجه الانساني لأنه شيء يخالف الطبيعة وكذلك لأن العرب لم ينشئوا منهجا كمنهج اقليدس أو فيثاغور . والجبر أو الكيمياء هي علوم عربية صرفة ، إذا قورنت بالهندسة ، علم الاغريق أو الهندسة المعمارية الاغريقية فانها بالضبط في ميدان العلم مقابل فن التصوير التجريدي في الميدان الفني . إنها رغبة في أخذ الواقع داخل بوتقة ضيقة بينما الـ « أما وأما » ، والمشكل العويص يتركان الامكانية للحدس ، للاختيار ، للتجربة الانسانية بل أكاد أقول الوجودية ، ويمكن أن نقوم بتحليل عناصر الحضارة العربية ، حيث قد نجد في تطور الحقيقة العلمية وتطور التجربة الفنية عن طريق الزخرف العربي وخط النسق الموسيقي وفي نظرية التشريع وفي النظرية الجدلية ، هيكلا قد يكون مشابهاً . وهذا معناه ان هذا المفهوم للعلم هو فعلا مفهوم يعتمد على الملاحظة ، وهو عملي وتجريبي ، اي يمكن استعماله . وفي هذا الصدد اعترف « باكون » نفسه بأن هذه الطريقة التي تظهر على مثل هذه الدرجة الثورية بل أقول المادية والعصرية ، فانها تبقى مع ذلك مطبوعة بطابع هياكل التفكير الكلاسيكي للحضارة العربية ، وقد كان هذا هو الهدف من هذا العرض .


بيكون

العلوم والحضارة العربية :

كما أنه كثيراً ما يفسر انحطاط العالم العربي بأسباب دينية وعوامل فلسفية وسياسية . وأعتقد أن هذا صحيح إلى حد ما ولكن لم يول الاهتمام الكافي إلى الأسباب المتعلقة بالتكنولوجيا وما نسميه الصناعة . إذ أليس من العجيب أن يكون هذا العالم العربي الذي كان قبل كل شيء عالم مدن ، عالم صناع وفنيين أن تنقصه التكنولوجيا اليوم ؟

وقد كان عالم الشرق الأوسط ينقصه أحد المنتجات الأساسية في ذلك العصر ، وهو الخشب فقد استئصل منه خشبه ، كما كانت تنقصه المواد الأولية . وإنه لم يكن له حضارة فلاحية ما عدا مصر ، ربما ، ولكن إذا كان هناك مجتمع هو عبارة عن المدنية بأتم معنى الكلمة إلى حد أن اسمها يختلط باسم البلاد فهو المجتمع العربي ، أليست مصر هي



اسطرلاب

القاهرة ، فالحضارة العربية كانت قبل كل شيء حضارة مدنية ، وحضارة تجارية وصناعيـة ، ولكي تصدر كانت في حاجة إلى تصدير التحف ، وهي من الأشياء التي أتى بها الشرق إلى الغرب ، والتي تمثل — في حجم ضئيل — أكبر رأس مال ممكن وأكبر تقنية ممكنة . ومن هنا جاء الديباج والزرابي والرياحين والبخور والجلود والأدوات والفولاذ ، وأكثر من ذلك ، فقد جاءت إلى الغرب الفلسفة الكلامية والتأثير على « البـــار » الكبـــير وعلى القديس طوماس والتأثير على الشعر الغنائي . إنها تلك المصنوعات الآتية من الشرق الأوسط ، مصنوعات الحضارة العربية التي ميزت نهاية العصور الوسطى في الغــرب ، والآن نشهــد انقلاباً كلياً لما استطيع تسميته « بالتحول في العلامات » وحتى اقتبس عبارة عن جاك بيرك ، أقول بأنه عالم كان في ذلك العهد في وضع سويسرا إلى حد ما أو البلدان الاسكندناقية ؛ أي أنه مجبر على نقل بضائع وتحف ذات قيمة كبيرة تحتوي على كتلة عظيمة من العلم والتقنية والعمل عن طريق مواصلات طويلة جدا في أغلب الأحيان عبر الصحاري والمحيطات .

فقد كان هذا العالم متوقفا على خطوط المواصلات التي كانت مهددة كما كان التحكم في البحار متوقفا على تجارة القوافل في الوقت الذي حطمت فيه غارات المغول خطوط المواصلات البرية وحولت فيه طرق المواصلات البحرية من طرف البرتغاليين والهولنديين والانجليز ، في ذلك الوقت كانت هذه الحضارة المرتكزة — إلى حد بعيد — على تقنية الصناعة المحلية ، وعلى التصدير والتوريد ، كانت هذه الحضارة قد تدهورت ، والتواريخ تتناسب مع هذه الفكرة ، خلال الانتقال من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر ، فدراسة التقنيات والعلوم يمكن لها إذن أن تجعلنا نستعيد مأساة هذا المجتمع العربي . وأود في ختام هذه الملاحظات حول العلوم أن أقوم ببعض التعليقات عن العلمين ذوي الطابع العربي الصميم ، وهما : الجبر والكيمياء .

فالجبر — بخلاف الهندسة — يتناول — لا الجسم والشكل — وإنما يتناول نسبـا وتجمعات غير ثابتة . وأنتم تعلمون أن العرب قد وجدوا الجبر ، لأنهم لم يستطيعوا التعود على الرقم السلبي الذي تعود عليه الهنود (وقد اكتشف العرب الرياضيات — في أغلبها — لدى الهنود) وحتى يحولوا الأرقام السلبية إلى



الخوارزمي

أرقام ايجابية اخترعوا هذا المنهج الذي يسمى « المطابقة الجبرية » ، منها لفظ الجبر (Algèbre) . فأنتم ترون إذن أن هذه المرونة العملية ، وهذه الحركة التعويضية في الجبر هي أوضح مثال ، كما قلته منذ قليل ، على أن العرب لا يعتبرون الطبيعة على أنها جسم موحد ، إذ أن هذا هو خطر خلطها بالاله الواحد أن نؤله المادة ، وحتى لا تؤله المادة نقسمها إلى أجزاء وذرات فتتحول الأشكال إلى معادلات جبرية . ومن هنا جاء ميل الفلاسفة المعتزلة الأول إلى علم الذرات الاغريقي ، إذ يمكن بها تناول العلم دون مادية أو تأليه الطبيعة . فكان تحويل كنه الفيزياء إلى مرونة كيمياوية عملية . وقد قدم العرب الكيمياء خلافاً لفيزياء الاغريق وبالمقابل لهندسة الاغريق قدم العرب الجبر ، ولكن كان ذلك في نفس الأسلوب ولنفس الأسباب ولا شك ، أما عن أسباب الانحطاط ، فقد ذكرت منذ قليل البعض منها وأعتقد أنه يمكن لنا أن نعد من بينها بعض الصفات التي ذكرتها في حديثي عن العلوم العربية ، أي انتشارها عبر بلدان متعددة وعدم وحدة مفهومها ، وهي أسباب توقف الفكر العلمي عند العرب . فما دامت هذه العلوم مدفوعة بحماس الاكتشافات ومرتكزة على نظام اقتصادي واجتماعي حي ، فان تعقدها وغموضها يسمحان بالتقدم . أما وقد انتهى وجود تبرير منطقي لها ، أما وقد كان البنيان الفكري لهذه العلوم مستعاراً من الاغريق ، من جهة ويرجع إلى علم اللاهوت ، من جهة أخرى ، فقد كان ذلك سبباً في ضعفه ، كما أن كون الأشياء كانت عبارة عن علامات في تصور العرب (وهو شيء ايجابي ، إذ قد قاد إلى اكتشاف الجبر والكيمياء) كان ايضا بذرة ضعف وانحطاط ، لأنه أدى إلى علم النهضة ، حيث تطرح العلاقات الفيزيائية والكيماوية حسب النوع . ولعل أكبر اكتشاف حققه الغرب ، لم يكن هو الطريقة التجريبية بل تعداد الملاحظة النوعية وتحويل معطيات التجربة إلى وقائع ملموسة يمكن قياسها وتغييرها وذلك في رأيي كان هو منفذ الغرب إلى الحضارة العصرية ، كما كانت امكانيته في انشاء نظام تفكيري يتجاوز الطريقة التجريبية أو البرجماتية

الذي يرجع الفضل فيه إلى العرب بلا جدال .

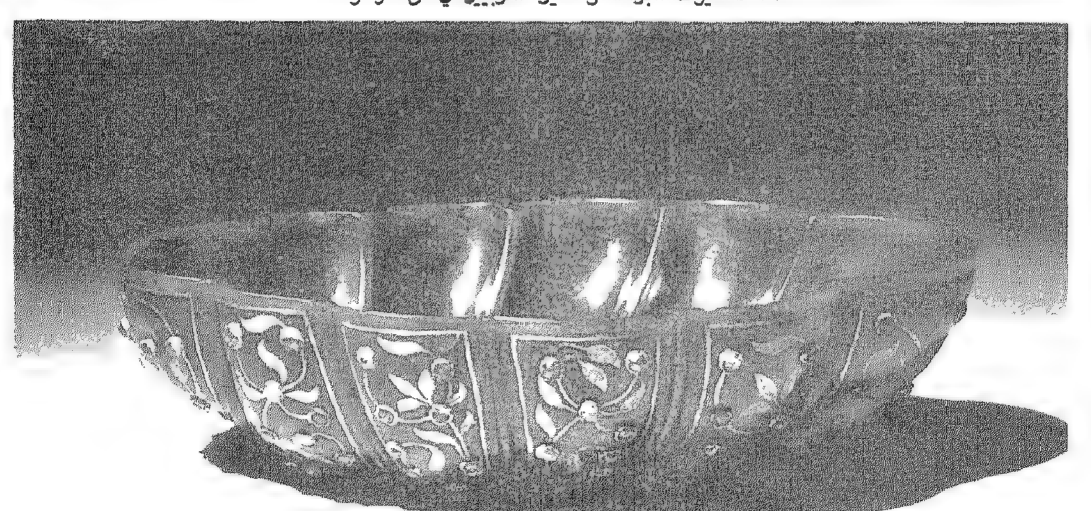
الأدب العربي وتأثيره على الأدب في أوروبا :

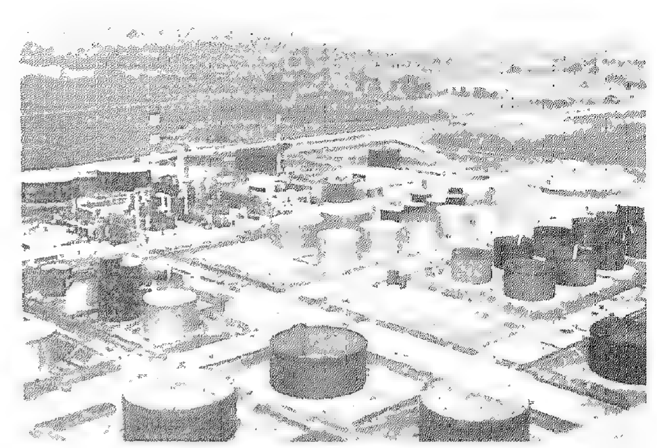
أود الآن أن أختم دراستي بلمحة قصيرة على الميدان الأدبي . سوف لن أحدثكم عن الفلسفة وتأثير المفكرين والفلاسفة العرب على الفلسفة وفلاسفة أوروبا في القرون الوسطى فهذا موضوع لا يمكن طرقه في بضع كلمات وإنما سأحدثكم عن الأدب .

في ميدان الأدب هناك مسألة أثارت مجادلات كثيرة وهي تأثير الشعر العربي على ميلاد الشعر الغنائي في الغرب وفي أوروبا وقد أجمع الباحثون في اسبانيا على هذا التأثير مع أعمال ريبيرا وبالانيوس ودسبيتال وكل المدرسة الاسبانية ولكنه وجد مقاومة واعتراضا كبيرين في فرنسا إلى حد جعل أحد المتخصصين الكبار في هذا الميدان يكرس دراسة مطولة للبحث عن أصل موضوع رقص المأتم (مقابر MACABER) وحاول أن يجد شاعرا أوروبيا اسمه « مقابرو » مع انكم تعلمون أن كلمة « قبر » عربية وكلمة مقابر معناها مأتم ونحن نعلم الطرق التي يسلكها هذا الشعر ليمر إلى الغرب ونعلم أنه وقع اختلاط كبير بين الشعوب بقي حتى بعد انحطاط الممالك العربية . كما نعلم امتدادات الحضارة العربية في بلاطات الملوك النورمنديين وخاصة بلاط الملك فردريك الثاني ونعلم أيضا أن الملك غيوم التاسع تزوج من أرملة ملك مسلم وأن هذه الأخيرة أتت معها بحاشية كاملة من الموسيقيين والمغنين والبهلوانيين . فطرق الاتصال إذن كانت معروفة زد على ذلك اللامركزية الكبيرة التي كانت تسود الثقافة في اسبانيا الاندلسية في ذلك العهد مما سمح بهذا التمازج الثقافي .

أما بالنسبة لتحليل الأسلوب فقد أمكن أيضا استنتاج أن شكل الاشعار الغنائية في أوروبا يماثل إلى حد بعيد نماذج من الشعر الشعبي الأندلسي كالازجال الموشحة . ولن نجد في الأدب اللاتيني مثل هذه الأشعار . أما بالنسبة لهذا الموضوع فاننا نجد تماثلا كاملا فقد ظهرت فجأة مواضيع كلاسيكية في الشعر الغنائي الأوروبي مثل العاشق المجنون أو العاشق العف أو الحب المستحيل ، مثل موضوع مجنون ليلى ومجنون بثينة ... وموضوع خدمة الحب التي تقارن بخدمة الاقطاع بل وحتى مواضيع جانبية مثل الغيرة والرقيب . فنحن نرى إذن هذا التسرب لمفهوم الشعر الغنائي في أوروبا وقد وصف رجل أدب أوروبي الحب الذي دخل الغرب قائلا بأن مفهومه أتى من

... مما يؤكد البراعة والتميز العربيين في فن الزخرفة .





البترول العربي يصدر .. ولا يصنع ، لماذا ؟!

ذلك الشعب الذي يقال عن نسائه بأنهن محجبات مسجونات ومعذبات ، هذه إذن بعض الملامح عن الأدب وأريد أن أختم بطرح هذا السؤال - كيف اصبحت هذه الحضارة التي كانت تصدر الحرائر والمنقوشات والعطور لا تصدر اليوم سوى المواد الأولية والزيوت والبترول والقطن والمواد الثقيلة . هناك تحول في العلاقات ، حضارة كانت تنقل النفيس وأصبحت تنقل الثقيل .

اعتقد أن السبب راجع إلى انقطاع الدوائر الاقتصادية وكذلك أعتقد أن السبب الأساسي هو قطع طرق الاتصال فهي ثقافة ذات شخصية قوية وفي نفس الوقت هي في حاجة إلى الانتشار أي أنها ثقافة تبادل إذا ماانقطعت صلتها بالواحات والمدن انعزلت ، وهذا ما حدث لها وأعتقد أن امكانيات المستقبل تكمن في التجديد ، تجديد طرق استعمال هذه الثقافة العربية في بلدان افريقيا وفي جنوب شرق آسيا كأندونيسيا بحيث تظهر من جديد في شكل جديد يعم القارات على مستوى علاقاته مع الغرب ، وأني أشعر بأن الأشياء ستستمر في تجديدها ما دام الشرق لا ينتظر من الغرب والغرب لا يعطي إلى الشرق سوى المساعدة الفنية أي المساعدة المادية الخالصة وما دامت علاقاتهما تقوم على هذه المصلحة المالية فقط .

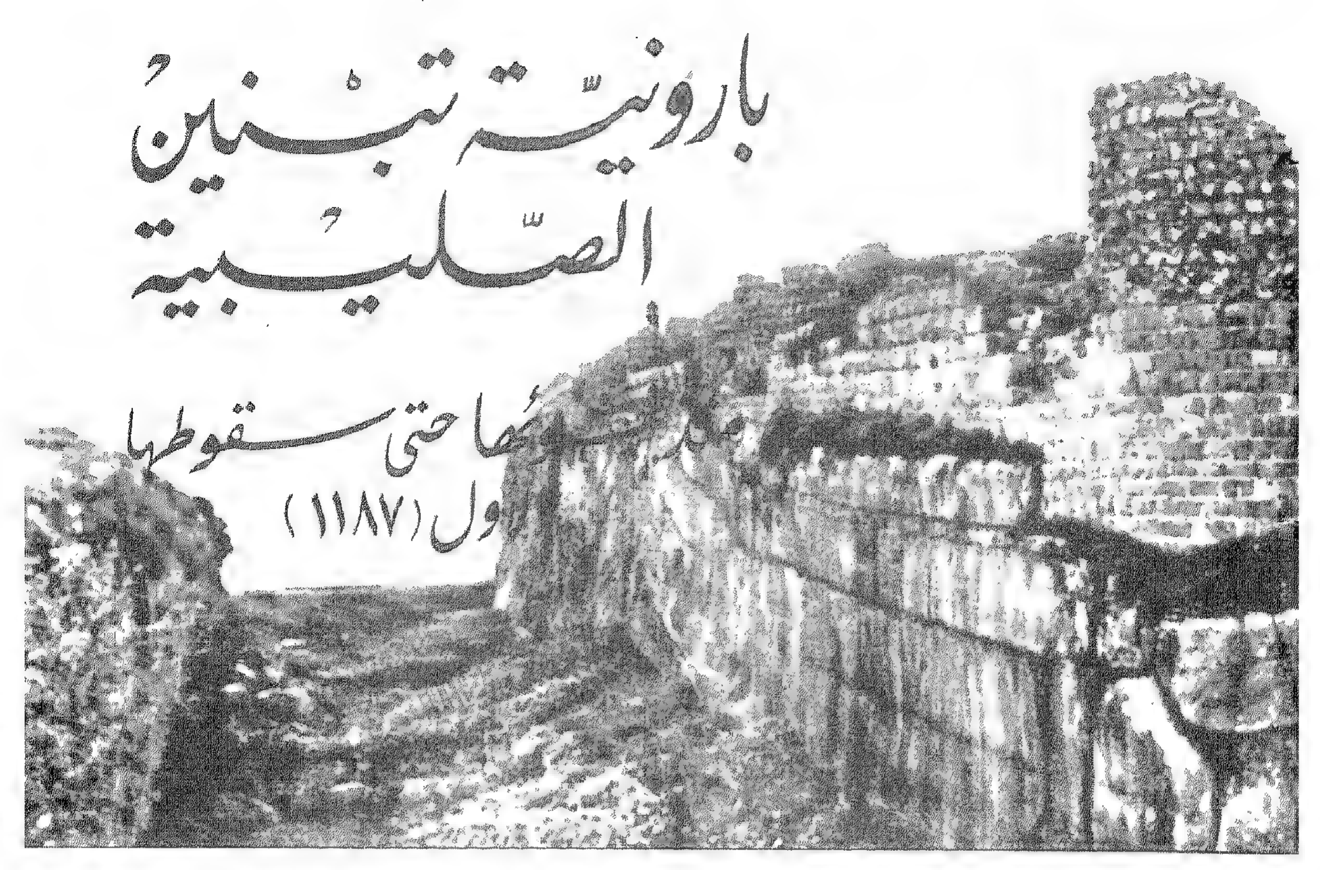
مثال اليابان

وقد كان العالم العربي والعالم الشرقي والاسلامي يميلان إلى الاعتقاد بأنهما يستطيعان استعارة هذه الطرق الجديدة من المغرب ويحافظان في نفس الوقت على روحه وقيمه الأخلاقية والعرفية ، ونحن نعلم بأن هذه التجزئة بين العالم الروحي والعالم المادي التي تمتاز بها اليابان لم تكن ممكنة في الشرق الأوسط لأسباب تاريخية واجتماعية ونفسية عميقة . ومن ثم كانت الصعوبة التي لاقتها مصر التي كانت أول بلد شرقي يتمدن على الطريقة الأوروبية ويجهز نفسه بآلات الغرب قبل اليابان وقبل تركيا بكثير ولكنها (أي مصر) حاولت التمدن على المستوى الاداري والعسكري واليوم تقع هذه البلدان في الخط العكسي وهو رفض كل ما هو أصيل مميز وأساسي أي رفض التقاليد والأصول للتمدن - ولكن أعتقد على العكس - بأن الحوار بين الشرق والغرب يمكن أن يقوم إذا ما طلب الغرب من الشرق لا أن يذوب فيه أو أن يقدم له المواد الأولية بل شيئاً ملموساً وهو طريقة في النظر إلى الأشياء ومعاملتها وإذا ما لم يطلب الشرق من الغرب أي أوروبا أو أمريكا مجرد تقنيات بل أن يهتم بأيديولوجية ولا يعتبرها أدوات أو آثار الخلق وإنما أن يعتبرها ديناميكيته ومنبع الهامه . وهكذا فان الحوار سوف يتم قبل كل شيء في داخل الانسان العربي بينه وبين ماضيه .

ومن المؤكد أن العربي وهو يملك كل هذا التراث وهذه الكلاسيكية وهذه اللغة التي تمثل نداء إلى عدة شعوب كعلامة للاعتراف بالتضامن بل والأخوة لا يمكنه أن يتخلى عن هذه الحالة ، هذه الخصوصية التي ليست حاجزاً أمام العالم الخارجي بل هي وسيلة في الحوار إذ سيكون لها هو ذاته ، فمن الواضح أنه إذا تخلى عن كيانه فسوف لن يكون سوى عمل انساني في حرب البترول أو ظاهرة من ظواهر التعامل الاقتصادي الدولي ، كما هو من الواضح أن هذا الصراع الحاد الذي يخوضه العالم العربي ليبقى على شخصيته لا يمثل مجرد غريزة للبقاء وإنما يمثل طريقة للتحول ومواجهة هذا التطور الفكري والاخلاقي الذي بدونه لا يتحقق تحول ولا تنمية اقتصادية أو اجتماعية وبهذا المفهوم نفسر معنى حدة القومية العربية التي كثيراً ما ساء تأويلها في الخارج .

بارونية تبنين الصليبية

منذ نشأتها حتى سقوطها الأول (١١٨٧)



محمد حسن حجازي

منذ أن وطئ الصليبيون بأقدامهم بلاد الشام وبدأوا بالاستيلاء عليها ، وذلك منذ أواخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلادي ، أخذوا يبنون القلاع والتحصينات لكي تحميهم من غزوات وهجمات المسلمين الذين هبوا لصد الاعتداءات الصليبية على مناطقهم . كما أخذوا في الوقت نفسه ينشئون الممالك والامارات والبارونيات ويعينون عليها ملوكاً وأمراء من كبار أبناء العائلات الاقطاعية في الغرب الأوروبي .

من بين هذه البارونيات التي كانت على جانب كبير من الأهمية ، بارونية أو امارة « طورون » أو تبنين (La Seigneurie De Toron) .

والذي بنى قلعة تبنين (أو طورون كما سماها الفرنج) هذه ، هو أحد قواد الفرنج « هيوغ دوسانت أو مير » أو « هيوغ دوفا لكنبرغ » وذلك في عام ١١٠٥م . وكان الهدف الرئيسي من أنشائها تشديد الحصار على مدينة صور من جهة الشرق والسيطرة على طرق المواصلات بينها وبين دمشق (صور لم تسقط في يد الفرنج إلا في عام ١١٢٤) من ناحية ، ومن ناحية ثانية ليلجأ اليها جنود الفرنج هرباً من مطاردة المسلمين لهم حين يقومون بالغزوات ضد الصليبيين انطلاقاً من مدينة صور .

كانت « طورون » في بادئ الأمر جزءاً من إمارة الجليل ، إلا انها استقلت عقب وفاة أميرها « هيوغ » عام ١١٠٦ ، وتوالت على حكمها منذ ذلك الحين عائلة نبيلة لعبت دوراً مهماً في شؤون مملكة بيت المقدس الصليبية ، واتخذ أمراء هذه العائلة لأنفسهم لقب « طورون » نفسها . وكان أول أمرائها « أونفروا الأول » الذي توفي عام ١١٣٦ (ONFROI 1 er De Toron) .

وقد ضمت بارونية تبنين إلى جانب إقطاعها الخاص ، إقطاع هونين وإقطاع مارون وكذلك



قلعة الصبيبة وفي فترة من الفترات ضمت إقطاع بانياس .

عهد اونفروا الثاني : (١١٣٦ – ١١٧٩)

خلف أونفروا الثاني والده عام ١١٣٦ في حكم بارونية تبنين ، وكان من أشجع فرسان عصره ، وقد عرف عنه أنه كان من أكثر البارونات تأييداً للملك بودان الثالث ، ملك بيت المقدس ، خلال صراع هذا الأخير مع والدته الملكة « ماليساند » عندما طالبها بالعرش بعد وفاة أبيه الملك فولك : وقد انتهى هذا الصراع بتقسيم المملكة بين بودان ووالدته .

واعترف الملك بودوان الثالث باخلاص بارون تبنين له فمنحه أحد أكثر الألقاب شرفا واهمية في مملكة بيت المقدس وهو لقب كونيتابل أي « وصي المملكة » ؛ وذلك في العام ١١٥٢ .

والواقع أن أنفروا الثاني قد مارس سياسة نشيطة في تنفيذ مخططات المملكة ، فشارك في معظم الحملات الكبرى للفرنج ففي عام ١١٣٧ اشترك مع الملك « فولك » في الدفاع عن كونتية طرابلس حين هاجمها نور الدين زنكي سلطان دمشق . وفي عام ١١٥٣ اشترك في احتلال عسقلان مع الملك بودوان الثالث وبمشاركة عدد من زعماء وأمراء المملكة منهم مطران صور بيار دو برسلون وسيمون أمير طبريا ، وجيرار دو



ساجيت أمير صيدا وغيرهم .

هزيمة أونفروا في بانياس ١١٥٧ :

إلا أن أونفروا الثاني مني بهزيمة قاسية له أمام المسلمين وذلك في معركة بانياس عام ١١٥٧ .

ففي هذا العام ، اجتاح نور الدين زنكي ، سلطان دمشق ، منطقة بانياس وكانت تابعة لامارة تبنين بسبب أن الملك بودوان الثالث نقض الهدنة المعقودة مع سلطان دمشق واستولى على مواشي المسلمين التي جاءت ترعى في أحراش بانياس .

وخوفا من رد فعل المسلمين ، وبناء على نصيحة بودوان الثالث ، قدم أونفروا الثاني نصف إمارته لفرقة الاسبتارية من أجل الدفاع عنها ، فأرسل هؤلاء ٧٠٠ فارس مع قافلة من الجمال تحمل المؤن والمواد اللازمة للدفاع عن بانياس ، وقد جر أونفروا الثاني مسلمي جبل عامل معه في هذه المعركة ، إلا أن النتيجة كانت هزيمة قاسية له ولجنوده ، واجتاح المسلمون بعدها بانياس .

وكان أونفروا الثاني ، بارون تبنين ، من كبار الذي عملوا على تثبيت أقدام الاحتلال الصليبي لبلادنا ، لذلك ساهم في عملية التقارب بين بلاط القسطنطينية وبلاط بيت المقدس حين ترأس بعثة سياسية ناجحة إلى بيزنطية توجت بزواج بودوان الثالث من تيودورا ابنة الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين .

بناء حصن هونين « شاتونوف »

بعد أن استعاد المسلمون بقيادة نور الدين زنكي ، بانياس وقلعة الصبيبة نهائيا في العام ١١٦٤ ، فقد أونفروا الثاني بذلك مركزين يعتبران بالنسبة له مهمين جداً في الدفاع عن بارونيته ضد غزوات المسلمين من جهة الشرق ، لذا ورغبة منه في سد هذا الفراغ أمر باعادة بناء هونين عام ١١٧٨ ، وأطلق عليها اسم شاتونوف ، وهذه القلعة أخذت دور قلعة الصبيبة نفسه فهي تسيطر من جهة على طريق مرجعيون ومن جهة ثانية على الطريق المتجهة من الشرق نحو صور ، أي انها تسيطر على جميع المسالك بين دمشق وصور .

مقتل أونفروا الثاني ١١٧٩ :

انتهت حياة أونفروا الثاني في عام ١١٧٩ ، فقد قتل بينما كان يغطي انسحاب الملك بودوان الرابع خلال إحدى المعارك مع المسلمين في منطقة بانياس ، ذلك أن المسلمين كانوا قد جاؤوا ببعض الماشية ترعى في بانياس في نيسان ابريل ١١٧٩ ، فقام بودوان الرابع بصحبة أونفروا الثاني على رأس جنودهما لطرد المسلمين .

وكانت فرق المسلمين الأمامية بقيادة فرخشاه ابن عم صلاح الدين ، فاشتبك الفريقان في معركة شرسة لاحت فيها بوادر الانتصار لفرخشاه ، فقام أونفروا الثاني

يحاول تخليص الملك بتغطية انسحابه من المعركة فهجم في قلب جيش المسلمين يحاول الهاءهم ، إلا أنه أصيب بعدة سهام في جسده ، في حين استطاع الملك الخروج من ساحة المعركة بأمان .

إثر هذه الاصابات قام جنود جونفروا بنقله إلى قلعة هونين (شاتونوف) « حيث أمضى عشرة أيام يتألم ويصرخ من جروحه » . وبعد أن كتب وصيته ووزع حسناته توفي في ٢٢ نيسان ابريل ١١٧٩ ، ودفن في كنيسة نوتردام في تبنين .

والواقع أن أونفروا الثاني استطاع انتزاع اعجاب المسلمين به وذلك لثقافته ولشجاعته ، وقد امتدحه ابن الأثير بقوله « من المستحيل أن نعطي فكرة صحيحة عما كانه أونفروا وقد أصبح اسمه مرادفاً للشجاعة والحذر في الحرب .

أونفروا الثالث لم يحكم البارونية :

لم يرد ذكر أونفروا الثالث كثيراً في المصادر التاريخية ، لذلك فالمعلومات عنه قليلة ، إلا أن ما رشح من هذه المصادر يؤكد أنه لم يحكم إمارة تبنين بعد وفاة أبيه ، ويعود ذلك إلى أنه ... توفي قبل أبيه وبالتحديد في سنة ١١٧٢ .

وكان أونفروا الثالث قد تزوج من اتيينت دوميلي وريثة إمارة مونتريال وما وراء الاردن في الفترة الممتدة بين ١١٦٧ – ١١٧٢ ، لكن الثابت أن هذه الامارة لم تتبع إمارة تبنين بالوراثة بعد وفاة أونفروا الثالث ، ذلك أن أرملته عادت وتزوجت مرة ثانية .

عقب وفاة أونفروا الثالث كان له ولدان : أونفروا الرابع الذي تزوج من ايزابيل ابنة الملك أموري الأول وايزابيل التي تزوجت من روبين الثالث أمير أرمينيا .

أونفروا الرابع (١١٧٩ – ١١٩٨) :

خلف أونفروا الرابع جده أونفروا الثاني مباشرة بعد موته سنة ١١٧٩ . وأونفروا هذا كاد أن يصبح ملكاً على بيت المقدس (المملكة اللاتينية) لولا أنه كان ضعيف الشخصية والبنية ، وقد هاله هذا المنصب الكبير الذي سيسند اليه مما دفعه إلى الهرب إلى أورشليم .

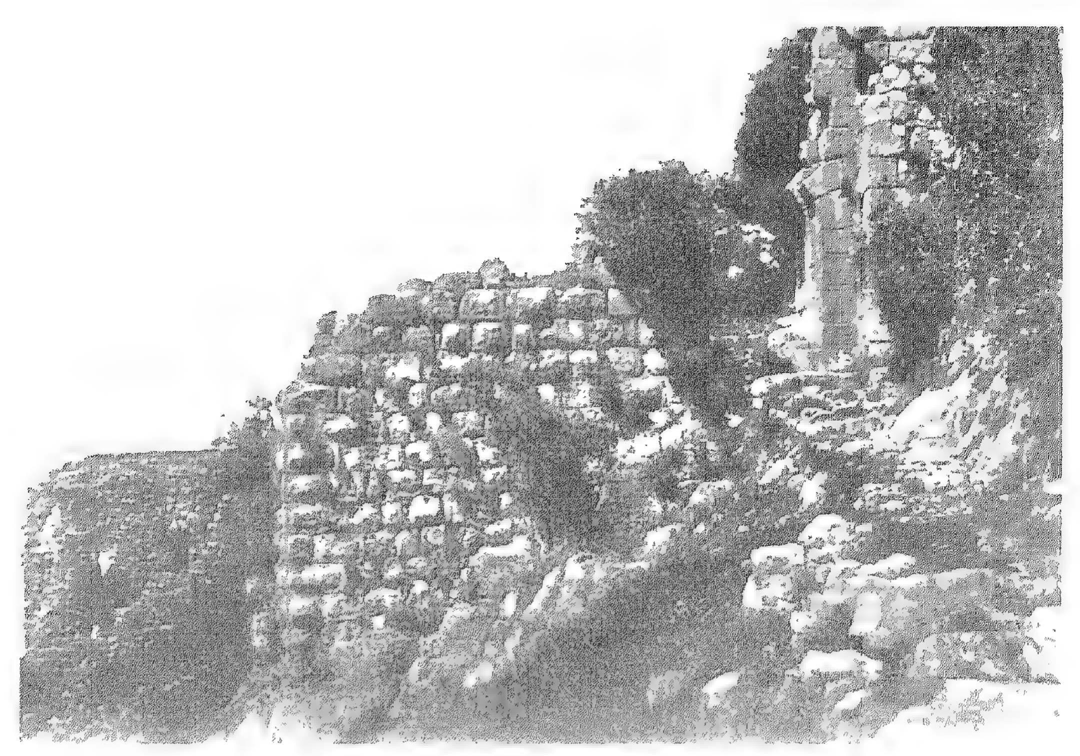
وملخص ذلك أن الملك بودوان الرابع (١١٧٣ – ١١٨٥) ملك بيت المقدس والملقب «بالأبرص» عندما شعر بضعفه يزداد مع الأيام بسبب مرضه سعى إلى تزويج أخته الكبرى ووريثته سيبيل من غي دو لوزينيان أحد كبار أمراء الفرنج (سيصبح ملكاً على الفرنج بعد فترة قصيرة وسيخوض معركة حطين ويهزم أمام صلاح الدين) ، وكذلك تم زواج أونفروا الرابع من شقيقته الصغرى ايزابيل .

توفي بودوان الرابع عام ١١٨٥ ، وما لبث الوريث الذي كان عينه خلفاً له ، وهو الطفل بودوان الخامس أن توفي عام ١١٨٦ فقام صراع على عرش القدس كان اونفروا الرابع أحد أبرز مرشحيه ، فقد وقع اختيار بارونات المملكة عليه ليكون منافساً لغي دو لوزينيان واتجهت الأنظار اليه على أمل إعادة أمجاد جده أونفروا الثاني ، لكنه لم يكن على ما يبدو بمستوى الآمال التي علقت عليه لأنه ضعيف المعنويات سقيم البنية ، فقام بالهرب من تبنين إلى أورشليم تاركاً زوجته « التي يحبها » ويذكر لنا غروسيه نقلاً عن ايراكليس ما دار بينه وبين الملكة « سيبيل » في أورشليم إذ قال لها وكأنه « طفل خجول » : « يا سيدتي لا أقدر على ذلك ، انهم يريدونني أن أصبح ملكاً بالقوة ، واليوم يتوجونني » .

ومنذ عام ١١٨٠ ، ومباشرة عقب زواجه من ايزابيل قام أونفروا الرابع بالتخلي للملك بودوان الرابع عن أقسام إمارته الرئيسية ، اقطاع مارون وإقطاع هونين ، وقام الملك بدوره بتقديمهما في ٢٨ شباط فبراير ١١٨٣ إلى عمه الكونت جوسلين الثاني ، وأما تبنين نفسها فقد آلت إلى الملك مما يعني أن إمارة أو بارونية تبنين قد تفككت عملياً قبل سقوطها النهائي في عام ١١٨٧ على يد صلاح الدين .

ويؤكد لنا الرحالة ابن جبير الذي زار المنطقة في عام ١١٨٢ ما يدل على أن تبنين قد أصبحت تحت سيطرة الملك مباشرة ، إذ يقول واصفاً الملك وأمه بأبشع النعوت : « وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الفرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل صاحبته خنزيرة تعرف بالملكة وهي أم الملك الخنزير صاحب عكا » ، ويقول غروسيه بأن الملكة المقصودة قد تكون « أنييس » والدة بودوان الرابع .

في عام ١١٩٠ ، أي بعد حطين وكانت



قلعة الصبيبة

المملكة قد سقطت بيد صلاح الدين وأوضاع الصليبيين يكتنفها الاضطراب ، وإثر وفاة الملكة سيبيل ، اعتبر أشراف المملكة أن غي دولوزينيان (الأسير لدى صلاح الدين) قد سقط حقه في العرش لأنه وصل اليه بزواجه من الملكة المتوفاة ، فانتقل حق الارث إلى أختها الصغرى ايزابيل زوجة أونفروا الرابع ، لكن البارونات قرروا أنه عاجز عن الدفاع عن المملكة أمام ضربات صلاح الدين فأجبرت ايزابيل على الطلاق منه والزوج من كونراد دومونفرا (هو الوحيد الذي سيقف أمام صلاح الدين في مدينة صور سينشئ له في صور امارة لها سلالتها الحاكمة) وقد دعاه مؤرخو المسلمين باسم « المركيش » وهو التحريف العربي لاسم « المركيز » .

وبالنسبة لمصير أونفروا الرابع ،فانه رغم ضعفه فقد كان مثقفاً أتقن اللغة العربية وكان لعدة مرات مستشاراً للملك ريكاردوس قلب الأسد ما بين ١١٩٠ و ١١٩٢ . وقام بوظيفة المترجم له خلال مفاوضاته مع صلاح الدين ، وكان هذا الأخير قد أفرج عند عام ١١٨٩ عقب وقوعه أسيراً في معركة حطين مع عدد كبير من بارونات وأمراء المملكة بمن فيهم الملك نفسه .

وأما وفاة أونفروا الرابع فقد حدثت عام ١١٩٨ .

كانت معركة حطين (١١٨٧) تصفية بشرية هائلة للفرنج وهم الذين ما انفكوا يشكون من قلة أعدادهم في بلاد الشام . فقد قضى صلاح الدين على ١٢٠٠ فارس و ٣٠ ألفا من المشاة ما بين قتيل وجريح وأسير ، كما أسر ملك بيت المقدس ومعظم أمراء وبارونات المملكة . وبهذا أصبحت معظم المدن والقلاع الصليبية خالية من المدافعين مما فسح في المجال أمام صلاح الدين لتحرير البلاد وتصفية مملكة الفرنج بشكل كاد أن يكون تاما لولا وقوف مدينة صور في وجهه .

وأخذ صلاح الدين ، يرسل القواد لاحتلال مدن الفرنج وقلاعهم وأما تبنين فقد أمر ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر بالنزول عليها واحتلالها . ويقول المقريزي « ونازل المظفر تقي الدين عمر تبنين ، وأدركه السلطان (صلاح الدين) وهو ما زال محاصراً لها حتى تسلمها في ١٨ جمادي أولى (٢٣ تموز يونيو) ثم رحل إلى صيدا ففر أهلها وتركوها وتسلمها السلطان في ٢١ منه » (٢٦ تموز - يوليو - ١١٨٧) . وكذلك ذكرها ابن واصل .

أما هونين التي كانت بيد جوسلين منذ عام ١١٨٢ فقد تم احتلالها بعد تبنين مباشرة ،

وذلك إثر توجيه انذار لأهلها من بدر الدين دلدرم الياروقي الذي أرسلـه صلاح الديـن لمحاصرتها ، فاستسلمت في ٢٦ كانون الأول – ديسمبر – من عام ١١٨٧ (٥٨٣هـ) .

أسماء القرى التابعة لاقطاع مارون في بارونية تبنين :

يصعب وضع جدول بأسماء جميع القرى التي كانت تابعة لبارونيـة تبنـين في عهـد الصليبيين بسبب ندرة المعلومـات حول هذا الموضوع ، علماً بأننا استطعنا الوقـوف على أسماء جميع القرى التي كانت تابعة لبارونية صيدا (ساجيت) وبارونية صور .

إلا أن معلومات ثمينة أوردهـا « راي » (Rey) في كتابه مكنتنا من من القاء الضوء على القرى الثمانية التابعة لاقطاع مارون (أحـد أجزاء بارونية تبنين) . وقد وجدنا بأن ستاً من هذه القرى معروفة اليوم في حين أن الاثنتين الباقيتين لم يحدد موقعهما بعد وهذه القرى هي :

١ – مارون وهي قريـة مارون ذاتهـا الواقعة على الحدود اللبنانية الجنوبية ، وقد أعطت اسمها للاقطاع بكامله .

٢ – كابريكويم أو كابريمكا وهي قريـة قبريخا شمال شرق بلدة تبنين اليوم .

٣ – بيليد وهي قرية بليدا الواقعة إلى الشرق من بلدة بنت جبيل الحدودية .

٤ – قدس : توجد قريـة باسـم قدس واقعة جنـوب بليـدا (في الأراضي المحتلـة اليوم) .

٥ – ميس : وهي قريـة ميس الجبـل المعروفة .

٦ – لاهار :يقول « راي » بأنها قد تكون بلدة حاريص غير البعيدة عن تبنين .

٧ – ٨ : هما قريبتان سميتـا باسـم « ميغارا » إلا أن موقعهما غير معـروف حتـى اليوم .

خاتمة :

لقد لعبت بارونية تبنين في خلال فتـرة الحكم الصليبي دوراً مهماً في تاريخ الفرنج ومملكة بيت المقدس ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى ثلاثة أمور :

١ – إن موقع بارونية تبنين كان على جانب كبير من الأهمية لذلك كانـت الأسرة الحاكمة فيها مقربة جداً من ملوك الفرنج وعلى صلة وثيقة بهم ذلك أن البارونية كانت تعتبر خط الدفاع الأول عن مملكة بيت المقدس بسبب وقوعها على الحدود الغربية لملكة دمشق وغزو بيت المقدس من قبل مسلمي دمشق كان يفترض احتلال بارونية تبنين مع قلاعها وحصونهـا لتكون الطريق مفتوحة إلى قلب مملكة الفرنج .

٢ – إن بارونية تبنين كانـت ، بحـكم موقعها المهم تسيطـر على مسـالك القوافـل التجارية وخطوط مرور الجيوش وتحركها بين مملكة دمشق والساحل المطل على البحر المتوسط إلى الغرب منها ، وبالتالي كان بامكانها إنذار جيوش الفرنج باحتمالات أي غزو اسلامـي للملكة وإعاقته ، وذلك لأهمية القلاع والحصون التابعة للبارونية ومواقعها الاستراتيجية : قلعة الشقيف ، تبنين ، هونين ، الصبيبة وبانياس

٣ – وهناك عامل معنـوي زاد أهميـة البارونية ويتمثل بعائلة « دو طورون » النبيلة والمثقفة والمطلعة على العادات والتقاليد الاسلامية وخاصة على اللغة العربية لا سيما بالنسبـة لانفروا الثاني فقد كان شخصية قوية نالت شهرة كبيرة لدى أوسـاط الفرنـج وعرفـت بشجاعتها وإخلاصها ، ولا شك أن اتقان أفراد الأسرة للغة العربية قد أدى بهم إلى إقامة علاقات وثيقة إلى حد ما مع جيرانهـم من المسلمين . وقد رأينا كيف أن أونفروا الرابع هو الذي قاد المفاوضات التي قامت بين المسلمين والفرنج (بين صلاح الدين ريكاردوس قلـب الأسد) والتـي انتهـت بواحـدة من أهـم المعاهدات بين الفريقين في عام ١١٩٢ . ■

المراجع

١ – Grousser, R. "Histoire Des Croisades", t, II. (Paris 1935) P. 318, 569, 667, 668.

٢ – Deschamps, Paul "La Defense du Royaume de Jerusalem" (Paris 1934).

٣ – Rey, E. "Les Colonies Franques de Syrie Aux XIIe et XIIIe Siecle (Paris 1883).

٤ – المقريزي « السلوك في معرفة دول الملوك » القاهرة ١٩٣٤ (ص ٩٣) .

٥ – عند الضرورة راجع رسالة كاتب البحث : « تاريخ جبل عامل في العهد الصليبي » رسالة أعدت في كلية التربية – الجامعة اللبنانية – حزيران يونيو ١٩٧٨ .



الإنتفاضة الفلاحية في كسروان ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠

المطالب ـ القيادة الإكليركية ـ التسوية

ثلاث وثائق من كتاب "فتنة وثورة"

تحقيق المؤرخ : يوسف ابراهيم يزبك

إعداد "قسم التوثيق والأبحاث"

رسالة من بعض القرى إلى البطريرك بولس مسعد قدس الأب الأقدس أدام الله تعالى رئاسته

١ – مطالب الأهالي : مرفوعة إلى البطريرك

غب لثم مواطي أقدامكم المقدسة والتماس بركتكم الرسولية للدوام المعروض إنه غير خاف غبطتكم الهيجان الذي حصل في هذه المقاطعة ومن جراية انسلبت راحتنا نظراً لوجود الجهلة وحيث أنه بتاريخه حضر عندنا ولدكم أخونا الشيخ سجعان العضيمي معتمداً من قبل الجمهور الموجود بجهات الذوق طالباً منا الاتحاد الذي يوصل جميعنا للراحة فعلى ذلك نحن أولادكم أهالي القرايا المدونة أسماءنا بذيل هذه العريضة وقد صار اجتماعنا في قرية دلبتا في ١٦ الجاري وغب المداولة مع وكلاء كامل جمهورنا قد اتفق رأيهم حيث غبطتكم أنوجدتم ريساً روحياً علينا نقدم لغبطتكم بهذه العريضة التي بها نترجاكم أن ترمقوها بالنظر الكريم مع شرح البنودة المرقومة أعلاه لكي بمقتضى حكمتكم الفايقة ملتزمون ذمة أن توصلنا إلى حقنا ليس بالحاضر بل تكون دائمة دواما وحيث أن أولاد مقدموه عاجزون على الحصول لما تقدم وغبطتكم ملتزمون بالسؤال عن ذلك فنكرر الرجاء قارعين باب عدلكم ورأفتكم الأبوية قايلين انظروا حالتنا الضعيفة وانقذونا ممن يظلمنا وأما قضية المامورية هذه مسلمينها لأمر وإرادة غبطتكم فالذي ترونه موافقاً لسياسة أحوالنا وتحصل به الراحة العمومية فنحن راضخون لأوامره وحيث أن كل شيء لا ينشرح بأعراضنا فالآن حاملون هذه العريضة الذين تعينوا لتقديمها لديكم يعرضون كفاءة وكل شيء راجع لما يصدر به أمركم وأدام الله تعالى رياستكم مكررين لثم مواطي أقدامكم في ١٧ ك ٢ سنة ٥٩

أولاد غبطتكم
أهالي
الجديدة سنتعير دلبتا عرمون غوسطا بطحا
(نقله نجيب الدحداح)

بيان البنودة المطلوبة التي من اجلها تحصل الراحة لنا ولجناب المشايخ

أولا – إن الأموال الميرية يكون توزيعها بمقتضى الأصول مع مال الأعناق على كبير وصغير بموجب اللايحة المرتبة من سعادة شكيب باشا حتى وجناب المشايخ ملزومون لدفع الذي يتوزع عليهم في مال الميري والأعناق من دون أن يحملوا الأهالي زوايد بارة الفرد .

ثانيا – التعديات والمظالم وأخذ الزوايد من تسافير وخدم والحوالات التي كانت تؤخذ من الأهالي بواسطة تفرقات جناب المشايخ حيث أنها خارجة عن قوانين الدولة العلية والترتيبات الخيرية عند تحقيقها بالمحل الذي يتعين إن كان بالمجلس الحالي أو خلافه مع كل من فاعل هذه العقوبات والأشياء المغايرة النظام من بعد الاثبات فملتزم الفاعل أن يرد ويدفع ما أخذه تماما .

ثالثا – المعايدات ورسومات النكاح الذي كان جاريا من جناب المشايخ في بعض محلات ومعايدات المشايخ المرتبة عند مبيعهم من أرزاقهم للاهالي فهذه يلزم بطالتها وإزالتها بالكلية .

رابعا – قضية المأمورية التي هي من أعظم المهام كونها لأجل سياسة الأهالي ورفع المظالم والمغايرات فالمأمور لأجل السياسة وبمقتضى العدالة والقوانين حتى فيما بعد لا يوجد بواعث فيما بيننا وبين جناب المشايخ والذي يكون مأمورا لمعاطاة أشغالنا نترجى أن يكون مستحقا بهذه المرتبة وأهلا لها وحافظا جميع الشروط التي تليق بحق المأمورين وتصرفاتهم كما وأنه واجب على جميع الأهالي أن يقدموا واجبات الاطاعة والاعتبار للمأمور كونه يصير ممتازا عن الجميع ويصير الاجتهاد بحفظ اوامره ويجب أن يقام بكل قرية وكيل أو وكيلان على قدر كبر القرية وصغرها تحصيلا للراحة وتسهيلا لنفوذ أوامر المأمور وتسهيلا لأشغاله ومصالحه بدون انزعاج .

خامسا – حيث أن الدولة العلية صانها رب البرية انعمت بالتسوية العمومية والحرية الكاملة حتى لا يكون تمييزات أو احتقارات بالمخاطبات وإن تتغير كافة الأصول القديمة بما يخص الكتابات وصارت رسومات جديدة للجميع فهذه نترجى ملاحظتها من غبطتكم .

سادسا – قضية المأمورين بكسروان هذه تسليمها لأمر غبطتكم بشرط أن يكون أمر المأمور نافذا على الجميع من دون استثناء بموجب الترتيبات الخيرية حتى من الآن وصاعدا لا يكون معروفا ومميزا عن العموم إلا من يكون مأمورا وما بقي من جناب المشايخ إذا وقع منهم تعديات على الأهالي تجري عليهم التأديبات بموجب القانون غب اثباتها مجلسيا كما يجري الأمر على المعتدي من الأهالي .

(نقله نجيب الدحداح)

---

٢ – حول ترشيح طانيوس شاهين للمأمورية القائمقامية :

رسالة الخوري يوحنا حبيب إلى البطريرك

أيها الأب الأقدس

غب لثم مواطي الأقدام الطاهرة بأقصى الاحترام والتماس درر البركة الرسولية وبسط الأدعية الخيرية بحفظ شريف وجودكم للدوام أعرض أني تشرفت بالمرسومين الأول جوابا والثاني خطابا وجميع ما رسمتم بهما قارن إذعان ولدكم وحمد له تعالى لانشراح خاطركم الكريم ورفاهة الطبع الفخيم لأصح الاقنوم الشريف متسما ذرى الراحة والاعتدال مدى الأجيال وبطي عريضتي ما يتشرف بالنظر الكريم واسترحم دوام إحاطتي بدائرة السعيد وأكرر لثم مواطي الأقدام الطاهرة بغاية الاحترام .

٢٤ ت ١ سنة ٥٩
ولد غبطتكم
الخوري يوحنا
حبيب

وأما قول الخوري يوحنا حبيب في الرسالة السابقة : « وبطي عريضتي ما يتشرف بالنظر الكريم » فشقة (رسالة سرية) على ورقتين في أربع صفحات مملوءة وهذا نصها :

ما رسمتم بالشقات الثلاث قارن الاذعان فأولا استميح غض الطرف عن احتدامي تقدم اعراضه سابقا والذي حملني اليه خوف الخراب واعتقادي بأن انصافكم لا يندقر مني لوجود سلامة ضميري والتسعة وعشرون قرش المدفوعة للمرسال فباقية مع المرسال فكان مراده يطمع بأخذ الكل مع أني مشارطه على ريال مجيدي والباقي أجرة مرسالي لبرمانا الذي ما عاد لزم

ارساله بل تصدف متوجه فعرفت ع (أيْ عبد حاتم) كلمتين كما أمرتم .

الذي جد هو أنه حضر لي تحرير الاميكو (أي طانيوس شاهين) وهو واصل فحضرت عنده فما وجدت نائب الدولة (أي قنصل فرنسا) فقال لي أن ذلك حيلة منه لكي أعتذر عن الحضور حيث تحقق زعلي من اعماله وأخبرني أن البادري فرنسيس لروا العازاري حضر من البلاد لعينطورا وطلبه فحضر لعنده واستعلم منه عما هو حاصل فأخبره وأن الأهالي لا يرتضون إلا بمأمور من نفس الأهالي وأن أبوته تعهد له بذلك بحيث يتفقوا على شخص ويتقدم معروض منهم لدولة المشير والجنرال لكن أبوته شار عليه أن لا يقبل المأمورية لأنها مكربة عليه وأنه هو يعمل له طريقة حماية مجلة فجاوبه أنى أنا لا أطلبها لكن إذا اتفقوا علي فما هي حيلتي ١هـ . فأنا استغربت كلامه وقلت أني لا أصدق ما لم أحرر لبادري فقدمت له تحريرا مضمونة الاستعلام عن خلاصة اخبار الاميكو لي وإنه إذا كان صحيحا يلزم أن الأهالي يطلعوا على ذلك فجاوبني الجواب الواصل فاذا لاق ابقوا أمروا بترجيعه . وأما عبارة البادري المتضمنة أنه قر رأيي ورأى حضرته الخ فتوهم أني محرر له رأيي أن يكون من نفس الأهالي والصحيح أنه قر رأيي ورأى حضرته على الاستعلام منه وقبل وصول جواب البادري وبعده أرسل الأميكو طلب عمالته زبوناته من كل قرية واستهمهم بانتخابه مأمور على كسروان ببرهة ٢ يوم ٣ حيث البادري لازه فأجابوا سواله وجابوا القرى وتمموا مطلوبه وبعد وصول جواب البادري لي الذي اشتهر هنا صار كثيرين يبعتوا يستعلموا مني وأجاوبهم عنه ، وأنا ارتأيت قدام الجميع أن يصير الاتفاق على انتخابه لأن الانقسام يصيره أن يصر على مرامه ووعدني بأنه إذا ما تمت معه هذه المصلحة وإلا فيعود يعمل فكة ويرتضي بمأمور من قبل القايمقام بشرط أن يتعرف عنه قبل لينظر إذا كان موافق يقبله ويشترط عليه أن يكون خدامينه من كسروان وهذا الوعد صيرني أنى أوافقه وقرى الوادي اعتمدوا رأيي وأما وكلا الزوق فالجهلة قاموا ضدهم وصاحوا بصوت حتى أن مأمورهم الاميكو (أي طانيوس شاهين) وأنا بقيت عند الاميكو يوم ٣ ودايما أكرر عليه والظاهر أنه متمسك بالمأمورية وانه إذا ما صارت له من حيث أنه مجنوح يفتكر باحالتها لابن أخيه . ثم أن البادري يوعدني بجوابه بأنه بعده يحرر لي فلحد تاريخه ما جاني تعريف منه والاعتراضات للآن ما تقدمت ولا أعلم ماذا جد على الاميكو بعد رجوعي من عنده من يوم ٣ لأنه كان مهتم ومستعجل لجمع المعروضات وتقديمهم وهذا النهار بلغني خبر أنه ما عاد مستعجل وانه قال معروضات المأمورية صارت عندي فعلى مهل ، فظننت أنه حضر له تعريف من البادري بأن مطلوبه لا يتم والأرجح أنه لا يتم لأن القناصل لا تتفق على ذلك عدا أنه مغضوب الدولة .

عندي أنه لا يصطلح حال كسروان إلا إما بقوة جبرية تكبح التمرد الحاصل والمتزايد لأنه على فرض ارتضوا بمأمور من طرف الحكومة وطلبوه لا يطيعوه وإما بأن الأميكو يفك ويحلل التعصب وإما أن تتم ماموريته وهذا هو الوجه الأقرب لسكون الحال وهو الأصلح للمشايخ لأنه إذا كان المأمور غيره فلا يطمأنوا على رجوعهم لحلاتهم ولا على أرزاقهم وأما إذا كان هو المأمور فيمكنهم أن يرجعوا ويحصلوا مسلوباتهم وغلال أرزاقهم لأن الأميكو متى ما صار مأموراً فيترسمل ويصير وينصف ويحصل التفكيك لأنه لا يعود يطبخ بالخلاقين ولا يعود يسمح للجهلة والعقلاء يحوطوه ويصير لهم هذا الوجه هو أيمن من غيره وكل الوجوه لها محذورات وأما هذا فما له محذور ولكن الجميع يعدون هذا الرأي ارتقه وكفر وحيث أنه سليم الغاية فأصحاب الغايات لا يدعونه يتم وأنا حررت للشيخ عبد عنه وكذلك للخوري حنا ولو حسبت جاهلا أو كافراً من الغير .

من جهة بيروت موجود الآن كنون وامر المعروضات بالانتخاب صايرة لهوة وقتية للحكم .

لم يزل حاصل الوهم من وقوع الفتنة بين النصارى والدروز .

متسلم زحلة لم يزل على حاله .

المدرسة لم تزل على الحالة المعروضة

الأميكو حين طلبني كلفني لأقدم الأعراض لديكم عما أخبرني عنه عن لسان البادري بوجوب تأخير ذلك لرجوع الجواب من البادري وبعد أن رجع الجواب أفهمته وجوب انتظار الكتابة الواعدنا بها البادري بجوابه لنا وحضرت من عنده على هذا الوجه وأظن أن البادري لا

بد أن يكون حرر له ولي ولم يرسل لي الكتابة لعدم اتمام مطلوبه .
سيادة المطران نقولا (مراد) أخبرني أنه مطلوب لبيروت وحضر لبزمار وطلب مواجهة الأميكو إذ كنت عنده فحضرت أنا وإياه سوية لبزمار وواجهه بحضوري ليستنور منه قراره واعماله فما وجد إلا الاصرار على المامورية من نفس الأهالي لخير الجمهور والذي لحظته أن سيادته يهمه مراعاة خاطر الدولة لكونه متداخل مع المشير وخدامينه ولا أظن أن مراعاته واصلة لحد الموافقة على المتسلمية وهو مختشى من مأمورية الأميكو وأراد تدقير الوادي فعارضته بأن الانقسام يورث الخراب وهيجان الجهلة .

(نقله يوسف يزبك)

---

٣ – التسمية بدور المطران طوبيا عون

– صك شروط رجوع مشايخ بيت الخازن إلى مقاطعة كسروان :

إنه حيث كما لا يخفى قد حصل الاختلاف فيما بيننا نحن أهالي مقاطعة كسروان وبين المشايخ بيت الخازن مؤسس ذلك عن أسباب ولما طال الزمن على هذا الاختلاف أخذ يتجسم ويمتد بواسطة البعض من أرباب الفساد إلى أن المشايخ المومي إليهم تركوا أوطانهم وأملاكهم وتوجهوا إلى جهات أخرى وسبب ذلك صار انتسابنا من بعض ذوي الغايات إلى العصيان على أوامر الحكومة ولذلك فبتاريخه حضر عن الأمر العالي قدس السيد الجليل المطران عون مطران بيروت الكلي الشرف والاحترام لأجل انذارنا ونصحنا على تقديم الطاعة والرضوخ لأوامر وقوانين حضرة ولي نعمتنا الدولة العلية صانها وحفظ شريف وجودها رب البرية وأن نضع نهاية لهذا الاختلاف الحاصل بيننا وبين المشايخ المومي اليهم وأن يرجعوا إلى أوطانهم ويتصرفوا بأملاكهم وأرزاقهم وسائر حاصلاتهم دون معارضة منا وكوننا نحن قد انوجدنا منذ القديم محافظين كل المحافظة على الطاعة والخضوع لأوامر حكومتنا الشرعية محترمين قوانين سلطتنا السنية دون أدنى اختلال كما هو مشهور هكذا الآن نعلن بأننا خاضعون وطائعون للأوامر وقوانين حضرة ولي نعمتنا الدولة العلية وقد اقتبلنا النصح والانذار السابق ذكرهما المقدمين لنا عن الأمر العالي وأنه لا يوجد منا من يمانع أو يعارض رجوع المشايخ المومي إليهم إلى أوطانهم وتصرفهم بكامل أرزاقهم وأملاكهم وسائر حاصلاتهم ومن ثم يمكنهم متى أرادوا أن يرجعوا وينصرفوا كما ذكر إذ ليس لهم من قبلنا أدنى مانع يمنعهم عن ذلك وإذا كان لهم ديون أو موجودات عينية عند أحدنا أو كان لأحدنا ديون أو متأخرات حساب عند أحدهم فملزوم المديون من الطرفين أن يقيم بوفاء ما بذمته للآخر ولدى التردد والانكار والاحتجاج يصير إمضاء المتردد والمنكر والمحتج به بالوجه الشرعي أما بقية الدعاوى الناتجة عن هذا الاختلاف فلدى الاجتماع مع المشايخ المومي اليهم تصير المصالحة عليها والمسامحة عنها والابراء منها من الطرفين والآن بيانا لطاعتنا واحترامنا وقبولنا بتمام الرضى كل ما تحرر بهذه العريضة وجب إمضاؤها وإمهارها منا وتقديمها لجانب الحكومة مع تقدمة الرجاء باجراء ايجابها تحريرا في ٢٩ تموز سنة ١٨٦٠ .

كاتبه طانيوس شاهين وكيل عموم كسروان (الخاتم) .

كاتبه أهالي غوسطا ومزارعها (الأختام : الخوري بطرس مناسا والياس خليفة والياس فارس والخوري انطون اسطفان وسمعان اسطفان واسحق شهوان وثلاثة أختام أخرى غير مقروءة .

كاتبه أهالي عرمون ومزارعها (الأختام : الخوري جبرائيل سباط وعباس آصاف ومخايل جرمانوس وعبد الله فرنسيس) .

أهالي عشقوت وبقعاتا (: الخوري جناديوس وضاهر نجم وضوميط عيسى ونادي سعد ويوسف انطون وبو حصن بو غالب وحنا بو حبيب وديب يوسف ديب وبطرس الخوري وضاهر شاهين وعيسى ثابت) .

أهالي الجديدة (الأختام : فرنسيس زيادة وجبرائيل زيادة وجبرائيل فليفل وعبد الله فليفل ومنصور الترك والخوري فرنسيس فرحات) .

أهالي شننعير : الخوري فرنسيس نصر وانطون الياس والياس نصر .

أهالي دلبتا كاتبه (الأختام : يوسف بشارة الخوري وجبرائيل الخوري وابراهيم بشارة

وروفايل وكنعان رميا والخوري يعقوب جميل) .

أهالي حارة صخر : عبد الله نعمان وبشارة غانم .

أهالي ساحل علما : الخوري يوسف مارون وأيوب بوزيد وفرنسيس مطر .

أهالي درعون وتوابعها (الأختام : الخوري يعقوب جرجس وفارس اسبهان وعبدو حنا ديب ومنصور شهوان والخوري الياس سرور .

أهالي القليعات : نقولا حنتوش وعائلته ، كنعان كساب وعائلته ، يعقوب نوهرا وعائلته ، جرجس طنوس وعائلته ، سمعان بو صالح وعائلته ، انطون نصور وعائلته ، انطون أبو فياض .

أهالي ميروبا : طنوس راشد سعادة وانطون أرسانيوس وعائلتهما ، يوسف الجد وعائلته ، ناصيف الخوري خليل وعائلته .

أهالي عجلتون ومزارعها : صالح جرجس (صفير) ويعقوب لطف الله ويوسف الزغبي وجبور الخوري خليفة ومنصور القاموع وعبد الله طنوس ثابت ومخلوف بريدة وناصيف سعد من داريا وفارس مرعي من داريا .

أهالي ريفون : جرجس برجيس وفارس الخواط ومارون برجيس .

أهالي فيطرون : نصار القسيس وداود البريدي وموسى الخوري.

أهالي مزرعة كفر دبيان ومزارعها : الياس زغيب وعائلته وحبيب يزبك وعائلته وهابيل الخوري وعقيقي وعائلته .

ومزارعها : الياس زغيب وعائلته وحبيب يزبك وعائلته وهابيل الخوري وعقيقي وعائلته .

أهالي حراجل : سمعان أبي عون وطنوس الافرنجي .

أهالي فاريا : شليطا أبي همام وغالب نفاع .

أهالي صربا (الخاتم : أهالي صربا) .

أهالي غادير (الخاتم : أهالي غادير)

أهالي قرية عينطورة الزوق (الخاتم : حبيب الجاماتي)

أهالي بندر زوق مكايل (الخاتم : أهالي زوق مكايل) .

(تلطف بنقل هذا الصك المرحوم سجعان عارج سعادة) .

أحب الناس إلى الرسول :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله : أي الناس أحب إليك ؟ قال : أنفع الناس للناس . قيل يا رسول الله : فأي الأعمال أفضل ؟ قال : إدخال السرور على المؤمن ، قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : إشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه . ومن مشى مع أخيه في حاجته ، كان كصيام شهر واعتكافه ، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

اعتذار

في العدد السابع عشر وفي الصفحة الثانية والأربعين ، نزل خطأ اسم **الأستاذ حسين سلمان سليمان تحت عنوان مقالة « ولاية صيدا في العصر العثماني »** وإذ تعلن المجلة عن هذا الخطأ غير المقصود تتوجه آسفة إلى الأستاذ حسين سلمان سليمان بالاعتذار الشديد وكذلك من القراء الكرام .



سور الصين العظيم

شغل النزاع الصيني – التايواني العالم طيلة ربع قرن . فقد نشب بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية واستمر شديداً حتى أوائل السبعينات . وقد شكل هذا النزاع في تلك الفترة من الزمن أزمة حادة بين الدول الكبرى ، وزعزع الأمن والسلام الدوليين ، وهدد بنشوب الحرب ليس في شرقي آسيا فحسب بل وفي العالم أجمع . فما هي تايوان هذه ؟ وما سبب النزاع بينها وبين الصين ؟ وكيف تطور هذا النزاع خلال العقود الثلاثة الماضية ؟ وما آلت إليه حاله في الوقت الحاضر ؟ هذه الأسئلة هي ما سيحاول هذا البحث الاجابة عنها .


من معابد تايوان

تايوان هي جزيرة كبيرة تقع في القسم الغربي من المحيط الهادي على بعد حوالي مائة وخمسين كيلومترا إلى الشرق من البر الصيني . تبلغ مساحتها ستة وثلاثين الف كيلو متر مربع ، اي اكثر من ثلاثة اضعاف مساحة لبنان ، ويقطنها ما يزيد عن سبعة عشر مليونا - اي حوالي سبعة اضعاف سكان لبنان .

وتؤلف هذه الجزيرة مع عدد من الجزر الصغيرة القريبة منها إحدى المقاطعات الصينية . وأشهر مدينة فيها عاصمتها تايبه الواقعة في قسمها الشمالي .

وضع تايوان السياسي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية :

في أواخر القرن السادس عشر ميلادي ، وصل المكتشفون البرتغاليون إلى جزيرة تايوان ،

وأطلقوا عليها اسم « فورموزا » أي « الجزيرة الجميلة » . وفي أوائل القرن السابع عشر نزلها المكتشفون الهولنديون وأقاموا في شواطئها الغربية . ومنذ أواسط القرن السابع عشر أخذ الصينيون يهاجرون اليها بأعداد كبيرة ، مدفوعين بأسباب اقتصادية وسياسية . وفي أواسط القرن التاسع عشر بلغ عدد المهاجرين الصينيين اليها حوالي ثلاثة ملايين وأصبحوا يشكلون الأكثرية الساحقة من السكان . وكان هذا العامل في جملة الأسباب التي دعت الحكومة الصينية إلى ضمها رسمياً في سنة ١٨٨٦ وإعلانها إحدى مقاطعات الامبراطورية الصينية . ولكن على أثر الحرب الصينية — اليابانية في سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٥ التي انتصرت فيها اليابان على الصين ، اضطرت هذه الأخيرة إلى التنازل لليابان بموجب معاهدة شيمونويسكي عن جزيرة تايوان والجزر القريبة منها مثل جزر بسكادور وريوكو . وقد حكمت اليابان هذه الجزر طيلة نصف قرن بعد ذلك .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت تايوان من الممتلكات اليابانية . وفي خريف سنة ١٩٤٣ عقد فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأميركية ونستون تشرشل رئيس وزراء المملكة المتحدة وتشيانغ كاي شيك رئيس الجمهورية الصينية مؤتمراً في القاهرة بحثوا فيه مشاكل الحرب وشؤون عالم ما بعد الحرب . وفي البلاغ المشترك الذي صدر عقب ذلك المؤتمر اعترف الزعماء الثلاثة بأن تايوان جزء من الصين ، ووعدوا باعادتها إلى الوطن الأم بعد انتهاء الحرب وتحريرها من الاحتلال الياباني .

وقد عاد زعماء الدول الكبرى وأكدوا هذا التعهد في مؤتمر بوتسدام الذي عقد من ١٧ تموز / يوليو إلى ٢ آب / اغسطس ١٩٤٥ . وبعد أن استلمت اليابان في أيلول/سبتمبر من السنة ذاتها نفذ الحلفاء وعدهم فاسترجعت الصين تايوان والجزر القريبة منها وجعلتها واحدة من المقاطعات التي تشكل الجمهورية الصينية .

ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى نشب النزاع من جديد بين الصينيين الوطنيين (حزب الكيومنتانغ) بزعامة المارشال تشيانغ كاي شيك والصينيين الشيوعيين بزعامة ماوتسي تونغ . وما لبث هذا النزاع أن تحول في سنة ١٩٤٦ إلى حرب أهلية شاملة امتدت إلى جميع المناطق الصينية وتدخلت الدول الكبرى في النزاع ، فأمدت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية الصينيين الوطنيين بالمال والسلاح والدعم السياسي . كما أمدت الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الشيوعيين الصينيين بكل ما كانوا يحتاجون إليه من دعم . وقد فشلت جميع المحاولات الدولية التي بذلت لتحقيق الوفاق بين الفريقين المتخاصمين وانهاء الاقتتال .

واستمرت الحرب الأهلية ثلاث سنوات وانتهت بانتصار ساحق للصينيين الشيوعيين وباستيلائهم على سائر أجزاء البر الصيني ، مما أجبر الصينيين « الوطنيين » على الفرار والالتجاء إلى جزيرة تايوان . وكان اللاجئون من « الوطنيين » يتألفون من رجال الحكومة وزعماء حزب الكيومنتانغ ومن جيش قوامه مائة ألف جندي ومن أكثر من مليون لاجئ صيني ممن لم يطمئنوا إلى البقاء في البر الصيني تحت ظل الحكم الشيوعي .

وفي أول تشرين الأول ٦ أكتوبر سنة ١٩٤٩ أعلن الشيوعيون النظام الجديد في الصين باسم جمهورية الصين الشعبية وعاصمتها بكين ، في حين أعلن « الوطنيون » أن الجمهورية الصينية (الوطنية) مستمرة في مقرها الجديد في جزيرة تايوان ، وقد اتخذت مدينة تاييه ، في شمال الجزيرة عاصمة جديدة لها .

انتهت الحرب الأهلية في الصين في أواخر سنة ١٩٤٩ ولكن النزاع بين الوطنيين والشيوعيين لم ينته بانتهائها ، بل إنه استؤنف بشكل جديد ، وكانت أهم القضايا التي يدور حولها النزاع بين الفريقين ثلاث : النزاع على الأرض ، والنزاع على الشرعية ، والنزاع على تمثيل الصين في هيئة الأمم المتحدة . وسنعالج كلا من هذه القضايا على حدة .

كان الصينيون الوطنيون يأملون ، وبالرغم مما أصيبوا به من هزائم في أن يستعيدوا البر الصيني من الشيوعيين في يوم من الأيام ، وكانوا يعلنون هذا الشعار ويذيعونه ويعطونه أكبر قدر من الدعاية . ولعلهم فعلوا ذلك إما ايماناً منهم بأن الدول الغربية لن تتخلى عنهم ،

وبأنها قد تساعدهم بشكل ما على استرجاع سيطرتهم على الصين ، وإما توسلاً بذلك للحفاظ على معنويات أتباعهم قوية عالية ، وقد يكون للأمرين معاً .

أما الشيوعيون فكانوا يعتبرون أن مهمتهم لم تنته بتحرير البر الصيني فقط وأن الواجب القومي والعقائدي يفرضان عليهم الاستمرار في النضال ضد الوطنيين حتى يتحقق لهم تحرير تايوان وجميع الجزر الصينية الأخرى ، مثل جزر ريوكيو بسكادور وماتسو وكيموي وغيرها من الجزر الواقعة بين جزيرة تايوان والبر الصيني والتي كانت لا تزال تحت سيطرة الوطنيين .

لقد وجه كل من الطرفين التهديد باستعمال القوة ضد الفريق الآخر من أجل تحقيق أهدافه . وقد جرى بالفعل عدد من المحاولات العسكرية المحدودة في بعض تلك الجزر ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة .

وفي سنة ١٩٥٠ وقعت الحرب الكورية ثم ما لبثت الصين الشعبية أن اشتركت فيها ، فارتفعت بذلك حدة الحرب الباردة التي كانت قائمة بين المعسكرين العالميين الشيوعي والرأسمالي . وخوفاً من أن تستغل الصين الشعبية انشغال الدول الغربية في الحرب الكورية فتقدم على غزو تايوان واحتلالها ، بادرت الولايات المتحدة الأميركية إلى اتخاذ إجراءات عملية فعالة لحماية الجزيرة من أي هجوم شيوعي محتمل . فقد كلفت الحكومة الأميركية الأسطول السابع بالتواجد في مضيق تايوان بين البر الصيني والجزيرة ومنع أي هجوم شيوعي عليها وحماية النظام الصيني الوطني فيها .

وفي سنة ١٩٥٤ ذهبت الولايات المتحدة إلى أبعد من ذلك في توطيد علاقتها بالحكومة الوطنية في تايوان . فقد توصل البلدان في تلك السنة إلى عقد معاهدة أمن متبادل . وبموجب هذه المعاهدة أقامت الولايات المتحدة عدداً من قواعد إطلاق الصواريخ في تايوان ، وأسست حامية أميركية دائمة تتكون من عشرة آلاف خبير وفني عسكري . كما أنها قدمت إلى الحكومة الوطنية في تايوان مبلغ مليارين ونصف المليار من الدولارات الأميركية لتنفق على تسليح الجيش الوطني وتنظيم شؤون الدفاع وتحسين الأحوال الاقتصادية في البلاد .

كان النزاع بين حكومة بكين الشيوعية وحكومة تايبه (عاصمة تايوان) الوطنية يهدد باندلاع نار الحرب بينهما في كل لحظة . وبقيت الحال كذلك حتى أواخر الخمسينات بعد أن بدأت حدة الحرب الباردة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي تخف بصورة تدريجية . ولما كان من شأن النزاع المسلح بين الصين وتايوان أن يجر اليه الدول الكبرى فقد عمدت هذه الدول أخيراً إلى محاولة ضبط الموقف هناك وعدم السماح للدولتين الصينيتين المتنازعتين باثارة الحرب وتعريض السلام العالمي للخطر . وكجزء من هذا التخطيط السياسي الجديد الذي يهدف إلى منع الشيوعية من الانتشار ، وفي الوقت نفسه ، إلى المحافظة على السلام العالمي ، أعلنت الولايات المتحدة عن عزمها الأكيد على حماية تايوان ، من أي غزو شيوعي . ولكنها عمدت في الوقت ذاته إلى تزويد حكومة تايوان وجيشها بالأسلحة الدفاعية فقط ، حاجبة عنها جميع الأسلحة الهجومية التي يمكن استخدامها في غزو البر الشيوعي . واتبع الاتحاد السوفياتي سياسة مماثلة ، فقد كان لا يزال في ذلك الحين الصديق الحميم والحليف المعتمد للصين الشيوعية . وبهاتين الصفتين استخدم نفوذه لدى حكومة بكين لجعلها تسلك سياسة معتدلة وبعيدة عن كل تطرف خطر ضد حكومة تايبه . وبذلك تكون جميع الأطراف المعنية بالمشكلة الصينية - التايوانية قد توصلت إلى قناعة ثابتة تقول بأن هذه المشكلة لا يمكن أن تحل ، بل لا يجوز أن تحل ، عن طريق القوة . وبذلك تكون حدة النزاع الصيني - التايواني قد خفت كثيراً في مطلع الستينات وأصبحت مشكلة تايوان مشكلة سياسية أكثر مما هي مشكلة عسكرية .

استمرت المشكلة الصينية - التايوانية على هذه الحالة من الجمود حتى أوائل السبعينات حينما تحسنت العلاقات بين الولايات المتحدة الأميركية والصين الشعبية . فعلى أثر الزيارة التاريخية الأولى التي قام بها الرئيس الأميركي رتشارد نيكسون في سنة ١٩٧٢ إلى بكين صدر بيان مشترك صيني - أميركي تناول بتفصيل مشكلة النزاع على الأرض بين بكين وتايبه . وقد ركزت حكومة بكين في ذلك البيان على النقاط التالية :

أولا : إن جزيرة تايوان مقاطعة صينية .

ثانياً : إن تحرير تايوان قضية صينية داخلية ، ولا يجوز للدول الأخرى التدخل فيها .

ثالثاً : إن جميع القوات والأعتدة العسكرية الأميركية يجب أن تسحب من تايوان .

رابعاً : إن حكومة بكين ترفض بشدة جميع المزاعم والادعاءات القائلة بامكان قيام « صين واحدة وتايوان واحدة » أو « صين واحدة ذات حكومتين » ، أو « صينين » أو « تايوان مستقلة » أو أن يقال بأن « مصير تايوان لم يتقرر بعد » .

ولم يكن الموقف الأميركي في البيان المشترك مختلفاً في جوهره عن موقف بكين . ويمكن تلخيص هذا الموقف في ثلاث نقاط :

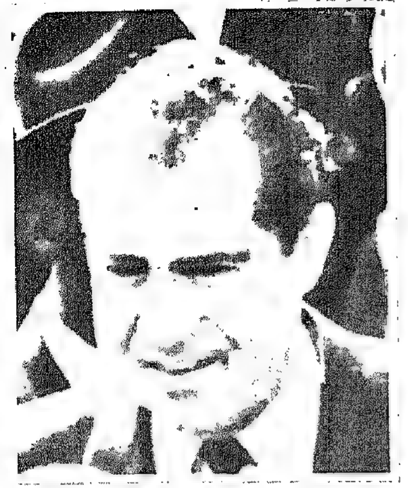
أولاً : إن الولايات المتحدة تعرف أن الشعب الصيني في البر الصيني وفي تايوان يؤمن بوجود صين واحدة فقط . إن الحكومة الأميركية لا تعارض هذا الايمان .

ثانياً : إن الولايات المتحدة الأميركية تعرب عن بالغ اهتمامها بايجاد حل لمشكلة تايوان بواسطة الصينيين أنفسهم .

ثالثاً : إن الحكومة الأميركية تتعهد بسحب قواتها وأعتدتها العسكرية من تايوان في أقرب فرصة ممكنة .

وفي السنوات الست التي أعقبت زيارة الرئيس نيكسون ، تحسنت علاقات واشنطن وبكين بصورة تدريجية متصاعدة على حساب علاقاتها الطيبة القديمة مع تايبه . ففي سنة ١٩٧٨ توصلت الحكومة الأميركية وحكومة الصين الشعبية إلى اتفاق جديد تقر فيه الولايات المتحدة بوجود « صين واحدة » وبأن تايوان جز؛ وعلى أثر ذلك ألغى الرئيس كارتر معا لأمن المتبادل المعقودة بين الولايات ـة وتايوان سنة ١٩٥٤ وأعلن بأن القوات والأعتدة العسكرية ستنسحب من تايوان في خلال أربعة أشهر (راجع جريدة « النهار » اللبنانية بتاريخ ١٦ كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٧٨) .

ونتيجة لهذا التبدل الدراماتيكي في العلاقات بين واشنطن وبكين أصبح النزاع على الأرض بين بكين وتايبه يتلخص بما يلي : لقد فقد الوطنيون كل أمل في استرجاع البر الصيني من الشيوعيين ، بينما كسبت حكومة بكين معركة النزاع على الأرض مع حكومة تايبه



نيكسون : زيارته لبكين حسنت العلاقات

ديبلوماسياً وسياسياً . أما عملية ضم تايوان إلى جمهورية الصين الشعبية بصورة سلمية فقد أصبحت مسألة وقت فقط .

النزاع على الشرعية :

عندما أسس الشيوعيون نظامهم المعروف باسم جمهورية الصين الشعبية في البر الصيني في أول تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، ونقل الوطنيون مقر حكومتهم إلى العاصمة تايبه في جزيرة تايوان ، أصبح للصين حكومتان . وادعت كل واحدة منهما أنها الحكومة الصينية الشرعية الوحيدة وأنها وحدها الممثل الحقيقي للشعب الصيني وطلبت من الدول الأخرى الاعتراف بها بهذه الصفة ، فكان من الطبيعي أن تعترف دول الكتلة الاشتراكية فوراً بحكومة بكين الشيوعية الجديدة اعترافاً سياسياً كاملا ما عدا يوغوسلافيا التي تأخر اعترافها حتى سنة ١٩٥٥ . أما الدول الأخرى فقد استمرت في بادئ الأمر بالاعتراف بالحكومة الوطنية في تايبه دون سواها ، ولكن تلك الدول ما لبثت أن وجدت نفسها في مأزق عسير بصدد تحديد الحكومة الصينية الشرعية ، ذلك لأنها أخذت تواجه المنطق السليم من جهة وتقع تحت الضغط السياسي الشديد من جهة أخرى . فالمنطق السليم كان يريها أن الحكومة الوطنية في تايبه تسيطر على سبعة عشر مليوناً فقط من الصينيين بينما حكومة بكين تسيطر على ثماني مئة مليون منهم . وفي حين برهنت هذه الأخيرة عن قدرتها على حماية نفسها وضبط أمنها في

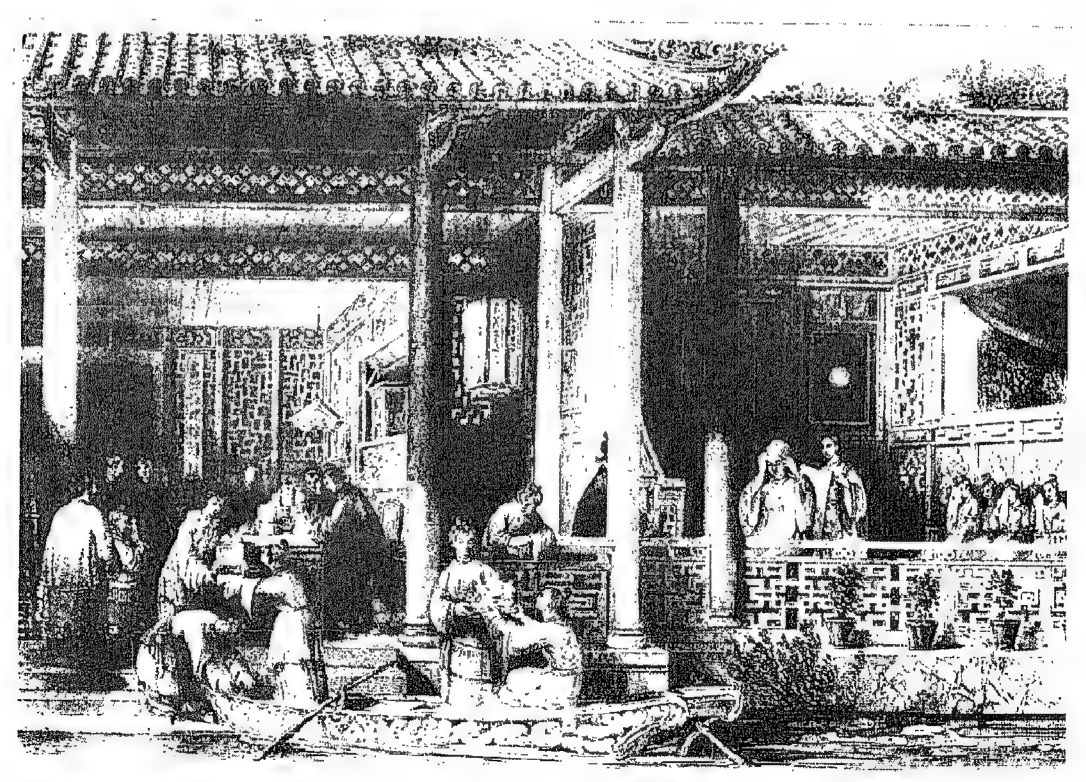
الداخل والخارج ، كانت الحكومة الأخرى ضعيفة تعتمد على الغير للدفاع عن كيانها وضمان بقائها واستمرارها . فكيف يجوز الاعتراف بهذه وهي الأضعف والأقل ، وتجاهل تلك وهي الأقوى والأكثر عدداً ؟

ولكن الولايات المتحدة الأميركية التي كانت تدعم الحكومة الوطنية بكل قواها وتعارض حكومة بكين بمختلف الوسائل ، مارست ضغطاً سياسيا شديداً على سائر الدول لمنعها من الاعتراف بحكومة بكين الشعبية . وقد نجحت الولايات المتحدة في ممارستها هذه ، ولكن إلى حين . إذ ما لبثت الدول غير الشيوعية ان أخذت تتحرر من الضغط الأميركي وتعلن اعترافها بحكومة بكين دون سواها .

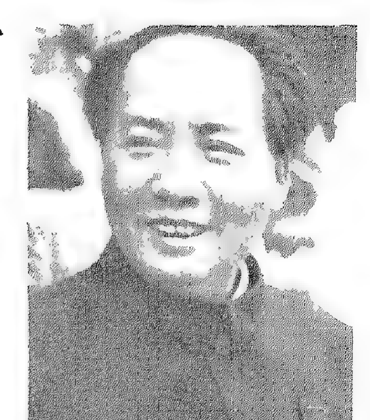
ففي سنة ١٩٥٠ اعترفت بها سبع دول غير شيوعية منها : السويد والدانمارك وفنلندة وسويسرا والهند . وفي سنة ١٩٥١ اعترفت بها دولتان هما النرويج وباكستان . ولا شك في أن نشوب الحرب الكورية في هذا الوقت وتدخل الصين الشعبية فيها قد أثرت سلبيا على اعتراف الدول بحكومة بكين في تلك الفترة .

ولكن ما إن هدأت الحرب الكورية حتى عادت الدول إلى الاعتراف بحكومة بكين والتخلي عن حكومة تايبه . فما بين سنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٥٩ اعترفت بها ثلاث عشرة دولة أخرى . وما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ اعترفت بها ثلاث وعشرون دولة جديدة . وكان عدد الدول المعترفة بالصين الشعبية قد ارتفع عندئذ إلى خمس وخمسين دولة . وكان كل اعتراف جديد بشرعية حكومة بكين يزيدها قوة ونفوذاً في المجال الدولي ويضعف في الوقت نفسه مكانة حكومة تايبه ونفوذها في الداخل والخارج . ولكن الضربة القاضية لم تكن قد نزلت بها بعد .

وفي سنة ١٩٧١ كانت عوامل كثيرة قد طرأت على الموقف الدولي وأحدثت فيه بعض التغييرات الجوهرية ، مما حمل الولايات المتحدة الأميركية على تغيير سياستها نحو جمهورية الصين الشعبية ، من هذه العوامل مثلا التوتر الذي طرأ في الستينات على العلاقات الصينية – السوفياتية وارتفاع عدد الدول غير الشيوعية التي اعترفت بحكومة بكين والتأثير الملموس الذي أصبح لهذه الحكومة في المجالات



مشهد فولكلوري لبدء مراسيم الزواج عند الطبقة النبيلة الصينية .


ماوتسي تونغ

الدولية . هذه العوامل وغيرها جعلت الولايات المتحدة الأميركية ترغب في طي صفحة الماضي وفتح صفحة جديدة في العلاقات مع حكومة الصين الشعبية . أما كيف جرى التمهيد لمثل هذا التغيير الجذري في السياسة الأميركية فقد روى تفاصيله هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركية السابق في مذكراته ، ولا فائدة الآن من سردها في هذا المجال .

بعد التمهيد لتحسين العلاقات الذي جرى ما بين ١٩٧٠ وسنة ١٩٧١ قام الرئيس الأميركي رتشارد نيكسون بزيارة الصين في سنة ١٩٧٢ . وقد كان لهذه الزيارة أثر كبير في تقرير نتيجة المعركة السياسية التي كانت محتدمة بين حكومتي بكين وتايبه من أجل الشرعية . فالزيارة بحد ذاتها كانت تشكل اعترافاً ضمنياً وواقعياً من حكومة الولايات المتحدة الأميركية بحكومة بكين . ويلاحظ أن الجانب الأميركي تبنى في البيان المشترك الذي نشر في نهاية الزيارة ، الموقف الصيني القائل بوجود « صين واحدة » وبالطبع لم تكن الصين المقصودة هي الصين الوطنية على أي حال .

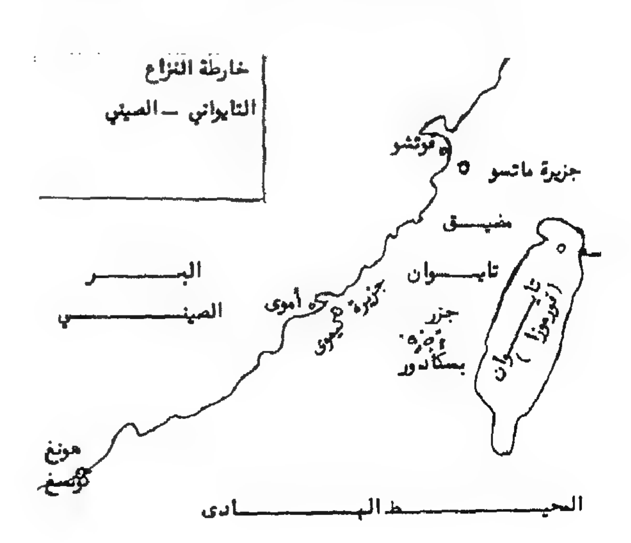
وهكذا يكون ذلك البيان المشترك قد اعترف بصورة غير مباشرة بأن حكومة بكين وليس حكومة تايبه هي الحكومة الصينية الشرعية الوحيدة . يضاف إلى ذلك أن زيارة نيكسون لبكين وما أظهرته من تقارب بين البلدين أنار الضوء الأخضر لتلك الدول التي كانت ما تزال مترددة في الاعتراف بحكومة بكين الشيوعية . ونتيجة لذلك اعترفت إحدى وستون دولة جديدة بحكومة بكين ما بين سنتي ١٩٧١ و ١٩٧٨ . وأخيراً في مطلع كانون الثاني / يناير ١٩٧٩ اعترفت حكومة الولايات المتحدة الأميركية بحكومة جمهورية الصين الشعبية بوصفها الحكومة الصينية الشرعية الوحيدة ، وسحبت اعترافها بحكومة تايبه الوطنية . وبهذا الاعتراف الذي سبقه اعتراف جميع دول العالم تقريباتكون بكين قد كسبت الجولة الأخيرة في معركتها مع تايوان من أجل الشرعية ، وأصبحت في نظر العالم أجمع الحكومة الشرعية للصين الواحدة .

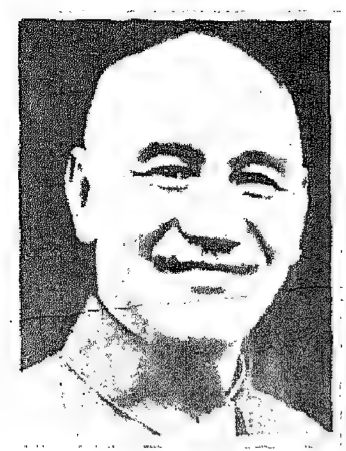
النزاع حول مقعد الصين في هيئة الأمم المتحدة

اشتركت الجمهورية الصينية في تأسيس هيئة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٥ . وبوصفها إحدى الدول الخمس الكبرى الأعضاء في هذه الهيئة تمتعت بالعضوية الدائمة وبحق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن الدولي . وقد مثلت الحكومة الوطنية بزعامة تشيانغ كاي شيك دولة الصين في هذه الهيئة الدولية وفي جميع فروعها والوكالات واللجان التابعة لها منذ تأسيسها . وبعد الهزيمة العسكرية التي حلت بالحكومة الوطنية على أيدي الشيوعيين الصينيين والتجاء تلك الحكومة إلى جزيرة تايوان فانها استمرت في تمثيل الصين في هيئة الأمم المتحدة بتأييد ودعم كبيرين من الولايات المتحدة الأميركية . وقد اعترضت حكومة جمهورية الصين الشعبية على ذلك وطلبت بأن تمثل هي ، وليس حكومة تايوان ، الدولة الصينية في هيئة الأمم المتحدة . وأيد طلب الصين الشعبية جميع أعضاء الكتلة الاشتراكية وعدد من الدول الأخرى الأعضاء في الأمم المتحدة . ولكن الأمم المتحدة لم تستجب لطلب الصين الجديدة ، وخصوصاً لأنها كانت يومئذ تخوض الحرب في كوريا ضد قوات الأمم المتحدة . وفي سنة ١٩٥١ تقدم الاتحاد السوفياتي وعدد من الدول الأخرى بطلب يقضي بسحب مقعد الصين في هيئة الأمم المتحدة من حكومة تايوان وإعطائه إلى حكومة بكين . وكان اقرار هذا الطلب يحتاج إلى موافقة ثلثي أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولكن دول الكتلة الاشتراكية ومؤيدي حكومة بكين القليلين لم يتمكنوا من تأمين ثلثي عدد الأعضاء للتصويت إلى جانب المشروع بالنظر إلى معارضة الولايات المتحدة الشديدة . وكانت الولايات المتحدة تستخدم نفوذها

وضغطها على الدول الأخرى لتحول دون قبول الصين الشعبية عضواً في الأمم المتحدة. فالصين الوطنية كانت تماشي الولايات المتحدة وتصوت إلى جانبها وتؤيدها في جميع المجالات بمجلس الأمن وبالجمعية العمومية وغيرهما من فروع هيئة الأمم المتحدة وأجهزتها. أما الصين الشعبية فكانت الخصم السياسي للولايات المتحدة الأميركية والحليف الطبيعي لمنافسها وغريمها الاتحاد السوفياتي، وقبولها في الأمم المتحدة كان من شأنه أن يعزز مركز الكتلة الشيوعية في هيئة الأمم ويضعف دور الولايات المتحدة، وهذا ما كانت الولايات المتحدة تهدف إلى تلافيه من وراء معارضتها الشديدة لقبول الصين الشعبية عضواً في الأمم المتحدة. ودامت الحال على هذا المنوال حوالي عشرين سنة. ففي كل دورة سنوية لهيئة الأمم المتحدة كانت بعض الدول تتقدم بمشروع لقبول الصين الشعبية في الأمم المتحدة ولكن معارضة الولايات المتحدة كانت تفشل كل مشروع من هذا النوع.

ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فحسب. فقد أخذ عدد الأعضاء المؤيدين قبول الصين الشعبية عضواً في الأمم المتحدة يزداد سنة بعد سنة وذلك بسبب دخول عدد كبير من دول العالم الثالث في عضوية الهيئة الدولية. وكان بعض هذه الدول يقترع إلى جانب الصين لأسباب سياسية واقتصادية لا مجال للاستفاضة فيها الآن، ورأت بعض الدول أن رفض قبول الصين لم يعد أمراً طبيعياً، لذلك اقترحت هذه

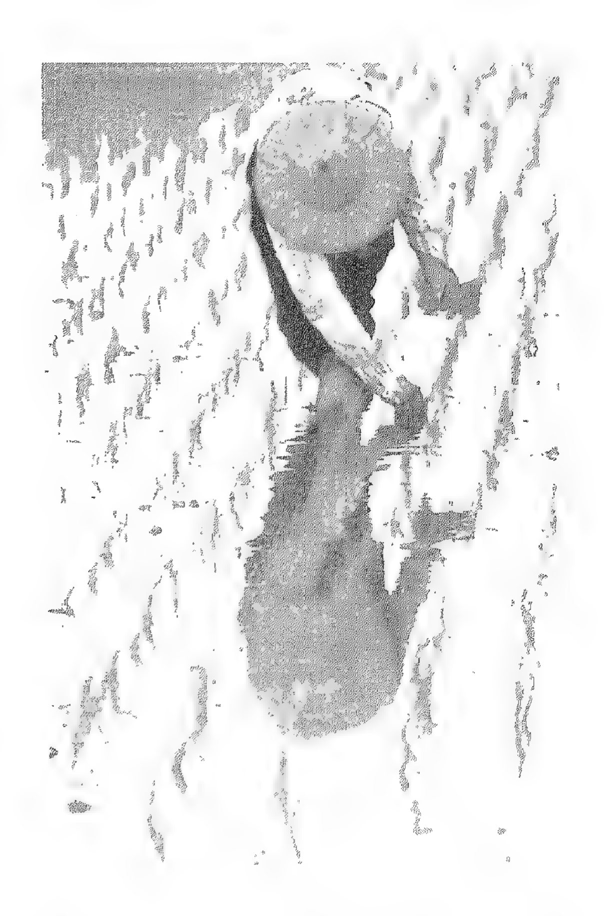



تشيانغ كي شيك

الدول أن تقبل الصين كأي عضو جديد في الأمم المتحدة على أن تبقى حكومة تايوان متمتعة بوضعها دون تغيير. ولكن حكومة بكين أعلنت أنها ترفض دخول هيئة الأمم المتحدة إلا على أساس أنها الممثل الشرعي الوحيد للبلاد الصينية وأنها تتمتع بجميع الحقوق والصلاحيات التي يعطيها ميثاق الأمم المتحدة وأنظمتها لممثل الصين فيها. وبسبب هذا الرفض القاطع تأخر قبول الصين الشعبية في هيئة الأمم المتحدة لبعض الوقت.

في أوائل السبعينات وبعد أن استفحل الخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، كانت الولايات المتحدة تجري اتصالات سرية مع حكومة بكين تهدف إلى تحسين العلاقات بين البلدين. وفي أواسط سنة ١٩٧١ كانت هذه الاتصالات قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق الوفاق والتفاهم حول عدد من المسائل التي كانت موضع نزاع بينهما. في جملة تلك المسائل التي تمت تسويتها كانت مسألة إعطاء الصين الشعبية المقعد المخصص للصين في هيئة الأمم المتحدة. وقد ظهرت نتيجة هذا الاتفاق في الدورة السنوية لهيئة الأمم المتحدة التي عقدت في خريف سنة ١٩٧١. ففي ٢٥ تشرين الأول/اكتوبر عرض على الجمعية العمومية مشروع قرار يقضي بطرد الصين الوطنية من هيئة الأمم المتحدة.

ولكن الولايات المتحدة وعدداً كبيراً من الدول عارض هذا المشروع فسقط. وعلى أثر ذلك تقدمت الولايات المتحدة بمشروع قرار ينص على قبول جمهورية الصين الشعبية عضواً في هيئة الأمم المتحدة. ومعنى



ذلك أن بكين ستقبل عضواً جديداً في الأمم المتحدة وتبقى الصين الوطنية عضواً يتمتع بجميع حقوقه وامتيازاته . وكانت حكومة بكين قد سبق لها ورفضت مثل هذا الاقتراح ، ولما عرض هذا المشروع على التصويت سقط لعلم الأعضاء بأنه حتى في حال إقراره فانه لن يحل المعضلة الصينية . وأخيراً عرض مشروع قرار كان قد تقدم به مندوب البانيا وينص على أن هيئة الأمم المتحدة تقبل في عضويتها مندوب جمهورية الصين الشعبية بصفته الممثل الشرعي الوحيد للشعب الصيني . ولما لم تقف الولايات المتحدة الأميركية موقف المعارض من هذا المشروع فقد أقرته الجمعية العمومية بأغلبية ساحقة . فاحتل مندوب الصين الشعبية مقعد الصين في الأمم المتحدة وأصبح منذ تلك اللحظة يتمتع بجميع الحقوق والامتيازات التي لمندوب الصين . أما ممثل حكومة تايوان فقد عبر عن خيبة أمل بلاده بالمنظمة الدولية وانسحب من الجلسة . وكان ذلك آخر عهد الصين الوطنية بهيئة الأمم المتحدة . وهكذا فازت الصين الشعبية على الصين الوطنية بعد مرور اثنين وعشرين سنة على بدء المعركة بينهما من أجل مقعد الصين في هيئة الأمم المتحدة .

لقد انتصرت حكومة الصين الشعبية أخيرا على حكومة الصين الوطنية في جميع المعارك التي خاضتها ضدها باستثناء واحدة : إنها نجحت في السيطرة الكاملة على سائر البر الصيني ، وفازت باعتراف جميع دول العالم تقريباً بها اعترافا سياسيا كاملا ، واحتلت مقعد الصين في هيئة الأمم المتحدة بعد أن أخرجت حكومة الصين الوطنية منها . ولكنها لم تتمكن بعد من تصفية حكومة تايوان نهائياً وضم الجزيرة إلى جمهورية الصين الشعبية . وهي تعتبر جزيرة تايوان مقاطعة صينية لم يتم تحريرها بعد . ولكن تحرير هذه الجزيرة ليس بالأمر السهل اليسير كما قد يتبادر إلى الذهن عند أول وهلة . فهناك ثلاثة عوامل تقف في طريق التحرير : هناك أولا الحكومة الوطنية التي ترفض الاتحاد مع الشيوعيين وتعرب عن استعدادها لمقاومة كل محاولة من هذا النوع بالقوة . ولهذه الحكومة جيش مدرب كبير لا يستهان به . وهناك ثانياً اعتبارات سياسية دولية تحمل الصين الشعبية على التريث في مسألة تحرير تايوان في الوقت الحاضر . وليس بمستغرب أن يكون هناك اتفاق ضمني بين الولايات المتحدة والصين الشعبية بهذا الخصوص . ثم هناك عامل ثالث ومهم جداً وهو أن قسما كبيراً من التايوانيين يطالبون بالاستقلال ويرفضون الخضوع للحكم الصيني سواء أكان الحاكمون الصينيين الوطنيين أم الصينيين الشيوعيين .

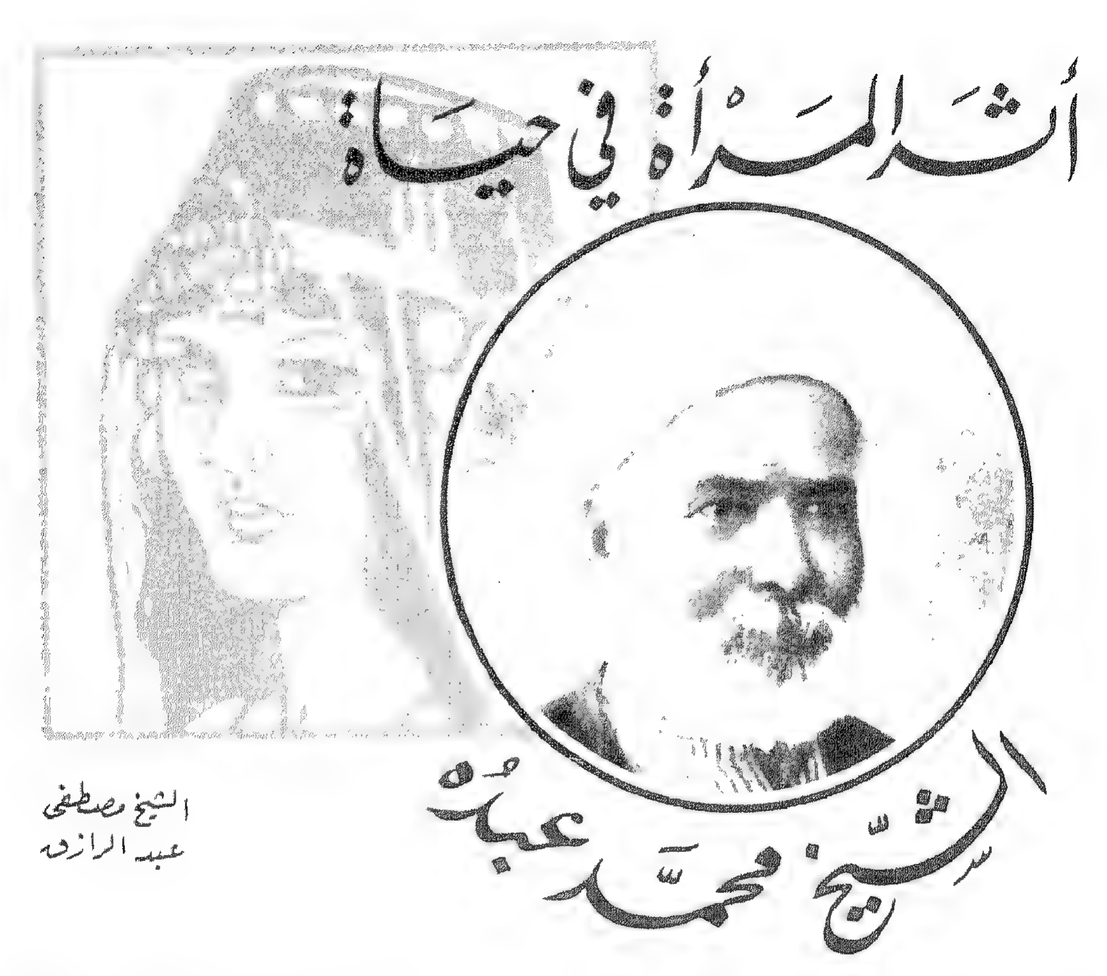
وقد رفضت حكومة تايبه الوطنية هذه الدعوة الانفصالية وقاومتها واضطهدت أنصارها ورمت بالكثيرين منهم في السجون أو حملتهم على الهرب من الجزيرة واللجوء إلى بعض البلدان الأخرى حيث يحاول بعضهم انشاء حركة مقاومة لتحرير الجزيرة من الحكم الصيني واعلان استقلالها . فكيف ستواجه جمهورية الصين الشعبية هذه المشاكل الجديدة التي تحول دون تحقيق وحدة البلاد ؟

إن هذاهو السؤال المطروح الآن ، والذي لن نستطيع أن نجد له الجواب إلابالانتظارلنرى ما ستتمخض عنه الأحداث في المستقبل .

■

في /تموز/يوليه سنة ١٩٠٥ توفي الامام الشيخ محمد عبده . وقد كتبت عنه بحوث كثيرة . ولكن هذا البحث الطريف عثرنا عليه للشيخ مصطفى عبد الرازق . وهو يوضح أثر المرأة في حياة الامام من النواحي التربوية والانسانية والدينية والاجتماعية ..

أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده



الشيخ مصطفى عبد الرازق

إن الاعتبارات التي تحيط بالمرأة في الشرق تجعل التعرض في تراجم الرجال للجانب المتصل بالنساء أمرا يكاد يكون مجانبا للحشمة لا يعالجه باحث جدي .

وقلما تجد في كتب التراجم قديمها وحديثها نظرا إلى أثر المرأة في حياة المترجم له، على أنهم يحاولون أن يستوعبوا ما يتعلق بالمولد والوطن والرحلة والأساتذة والأصدقاء والأولاد والتلاميذ .

وكثيرا ما يعجزك أن تعرف شيئا عن الأمهات والزوجات وغير الأمهات والزوجات كأن كل هؤلاء ليس لهن في حياتنا أثر يذكر .

ولا شيء من هذا بمغير للواقع . والواقع أننا لسنا بدعا من البشر حتى نخرج عن سلطان المرأة الذي جعله الله نافذا شاملا منذ أم البشر حواء .

والمشايخ أنفسهم – وإن كانوا في الغالب جامدين قساة في حديثهم عن المرأة – لا يسلمون من خضوع حياتهم لتأثيرها .

وإذا كانت شواهد التاريخ تدلنا على أن عظماء الرجال تزكو في منبت العطف والحب مواهبهم العبقرية فان الشيخ محمد عبده ، كان رجلا عظيما لا يمكن أن تخلو حياته من تلكم النفحات .

ولست أطمع أن أستوفي بحث هذا الجانب

من حياة الشيخ محمد عبده ، فمن دون هذا الجانب في حياتنا الأستار والحجب .

ولقد لقيت عناء في الالمام بالقليل من شأن والدة الأستاذ وفي تعرف اسمها ، بيد أني أجعل هذه المحاولة تمهيداً لمن يستطيع من الباحثين أن يصل إلى مراجع أكمل ودرس أشمل . وسيرة الشيخ جديرة بأن تكون موضوع دراسة مفصلة تكشف عن شمائل عظمتها ، ومن الشمائل الناطقة بالعظمة هذا الجانب الذي سكت عنه من ترجموا للأستاذ الامام .

والدة الشيخ محمد عبده هي السيدة «جنينة» من بيت من البيوت المتوسطة في « حصة شبر شير » بمركز طنطا خطبها والد الأستاذ ، أرملة توفي عنها زوجها الأول تاركاً لها طفلة وطفلا تزوجها عبده محسن خير الله حين كان مهاجراً من بلده وقضى معها عامين في دار أهلها ثم عاد بها إلى وطنه « محلة نصر » بمركز شبراخيت مديرية البحيرة وهنالك رزقت السيدة «جنينة» في سنة ١٨٤٣م مولوداً ذكراً سمي محمداً ، ثم تزوج والد الشيخ زوجة أخرى أولدها بنين وبنات كان والد الشيخ صلب العزيمة قاسي الطبع يشير إليه الاستاذ الامام فيما كتبه من تاريخ حياته أما والدته فكانت ذات رحمة وعطف وبر بالفقراء .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد أخذ من أبيه قوة العزيمة والثبات والتعالي عن سفاسف الأمور فقد غذته بلين الجانب وسلامة القلب والرحمة والسماحة أم أورثها رقة القلب فقد زوجها الأول وقيامها على أيتامه و رضتها على الرحمة عواطف أمومة موزعة بين أولاد زوجين مختلفين ، وصفي بعد ذلك نفسها ما كابدت من آلام في حياتها التي فرقت بينها وبين من في حضنها من الأيتام والتي أطارتها عن وكرها الهادئ لتعيش في دار غربة ، رفيقة زوج قاس يضم اليها في الحياة رفيقة أخرى .

كانت السيدة « جنينة » تحب طفلها الصغير محمد عبده حباً جماً ولا تطيق الصبر على فراقه طويلا حتى بعد أن صار يافعاً وانتظم في طلاب العلم ، ولا شك أن شمائل السيدة « جنينة » كانت راجحة في أخلاق ابنها الذي يقول في وصفه قاسم أمين : « بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوماً مدة حياته . كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله » .

وزوج الأستاذ وهو صبي في بداية عهده بالدرس ريفية من قرابته على الأسلوب الذي كان مألوفاً لذلك العهد في الزواج ورزق منها بنات ورزق منها بولد واحد مات في ريعان العمر ، وبقيت هذه السيدة شريكة حياته في السراء والضراء حتى توفيت فتزوج بعدها في منفاه ببيروت بعقيلة من عقائل البيوتات الكريمة فيها وولدت له بنتاً واحدة .

نشأ الأستاذ في بيت فيه زوجات عديدات وأخوة مختلفي الأمهات وزوج في حداثة السن وكانت ذريته اناثاً فاستعد منذ طفولته لملاحظة ما في نظمنا العائلية من العيوب ، وانبعث للتفكير فيما يرقى شأن النساء ، من أجل ذلك ظهرت نزعته إلى تحسين حال المرأة وتلافي ما في حياتها البيتية من النقائص في باكورة كتاباته الاصلاحية .

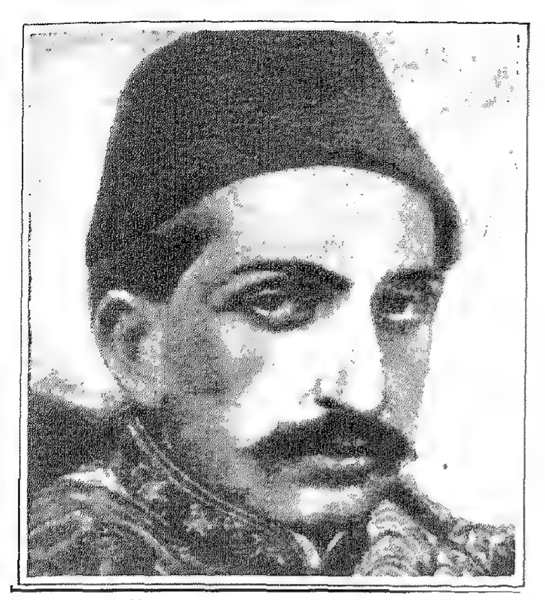
وإنك لتجد في الفصول التي كان ينشرها في جريدة الوقائع المصرية عندما كان رئيساً لتحريرها مقالا بعنوان « حاجة الانسان إلى الزواج » يوحي بما في نفسه من ألم لغفلة الناس عندنا عن فهم معنى الزواج على ما ينبغي وينم عن رأيه في ايثار التزوج من البعيدات . وله مقال آخر عنوانه « حكم الشريعة في تعدد الزوجات » وصف فيه أنواع التعاسات والمظالم التي تضطرم بها البيوت من أثر تعدد الزوجات وأوصى بالعدل والمحافظة على حرمات النساء وحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وعدم تطليقهن إلا لداع ومقتضى شرعي ، ويقول في هذا المقال « فبعد الوعيد الشرعي وذاك الالزام الدقيق الحتمي الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا يجوز الجمع بين الزوجات عند عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ، فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف » .

وقد ظل الشيخ عبده كل عمره يدافع عن حق المرأة في العلم والحرية والكرامة ويلهج بذلك في دروسه في تفسير القرآن الكريم التي كان يلقيها في الجامع الأزهر .





الخديوي عباس حلمي



السلطان عبد الحميد

ويقول الأستاذ في تفسير آية « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ما نصه « إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن إلا ما ميزهم به من الرياسة فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرياسة أن يعلمونهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن في النفوس احتراماً يعين على القيام بحقوقهن ... كلف الله تعالى النساء بالايمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما كلف الرجال وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهم .. إن ما يجب على المرأة أن تعلمه من عقائد دينها وآدابه ومبادئه محدود ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات إن كانت في بيت غنى ونعمة ، يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال » .

أليس في هذا الذي أسلفنا ما يدل دلالة بالغة على أثر المرأة في تكوين الشيخ محمد عبده وفي توجيه منازعه الاصلاحية .

إذا كان هذا من أثر الأم والزوجة في حياة الأستاذ الامام فان في حياة الأستاذ الامام أثراً باهراً لسيدة لم تكن زوجة ولا أماً .

الأميرة نازلي فاضل من أميرات البيت المالك في مصر تميزت منذ نشأتها بذكاء ودهاء وربيت على النمط الأوروبي وثقفت تثقيفاً أوروبياً ، وكان أبوها من دعاة الحرية والثائرين في وجه الاستبداد في تركيا ، ثم كانت زوجة للسفير العثماني في لندرة فاتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية وجمعت إلى ذلك كله جمالا رائعا وبياناً حلواً ولطفاً نسوياً فتاناً ، كانت ساحرة النظرات ، عذبة الملامح ، رشيقة القوام ناصعة الجبين ذات ثغر رقيق يفتر عن ابتسامة دائمة فيها معنى الألم العميق والسخرية بالألم ومعنى العزيمة الماضية ومعنى الرجاء لا يصل إليه اليأس .

ولقد ضاق السلطان عبد الحميد ذرعاً بنفوذ الأميرة في عاصمة الخلافة فاضطرت إلى الاقامة بمصر حيث كان الخديوي عباس حلمي يضيق بها ذرعاً أيضاً .

كان قصر الأميرة ملتقى الكبراء وقادة الرأي وصفوة أهل العلم والأدب والفن بين أجانب ومصريين في قصرها كانت تحل عظائم الأمور وتعقد ، وفي قصرها كانت تمحص مسائل الاصلاح الاجتماعي وتتدارس طرائف الآداب والعلوم والفنون الجميلة ، وفي قصرها كان يشجع أهل المواهب الممتازة ، وكان يمهد لنشر الجديد والدعوة إلى الرقي والمدنية ، وكان للخلصاء في قصر الأميرة فرص أيضاً للتمتع بنعيم الحياة وطيبها .

كانت محكمة الاستئناف العليا تجمع يومئذ خيرة عناصرنا الراقية فهماً وذوقاً واستقلالا فلا جرم كان كثير من قضاتها من المترددين على ذلك

القصر ، وكان منهم معظم الخلصاء المصطفين للأميرة .

وكذلك عرفت الأميرة الشيخ محمد عبده ، مستشاراً في محكمة الاستئناف وداما صديقين حتى فرق الموت بينهما .

أدركت تلك الأميرة النقادة ، التي تعرف كيف تسوس مواهب الرجال ، ما للاستاذ من تفوق عقلي وخلقي ومن جمال في نفسه وحسه فخصته بمكانة تجمع بين الحب والاجلال ، وكان الشيخ يجد في كنف الأميرة ما يغذي روحه الحساسة وذوقه اللطيف ويجدد نشاطه للعمل ويرفه عنه من أحمال الوقار ما لا يستطيع أن يرفهه إلا ذكية حسناء .

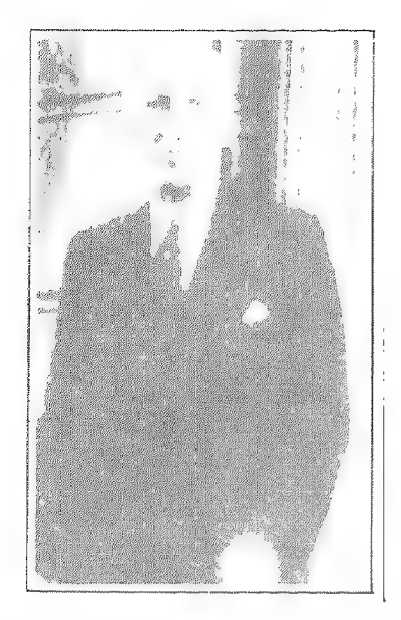
وهل كان للشيخ عبده لولا مدد يغذي قلبه الكبير أن يكون من النشاط في شيخوخته على ما وصفه قاسم أمين في قوله : « نفس خلقت على احسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثلا في الجمال يجب أن نضعه دائما امامنا لنعلم مقدار ما يصل الجهد في العمل عند رجل اقترب من سن الستين ، وكان يطالع ويتعلم ويعلم ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين إذا طعن عدو عليه ويراسل علماء المسلمين في جميع الأقطار التي يسكنونها ويتخابر مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجد وقتا ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأحزانهم » .

ونستطيع بعد هذا أن نتعرف إلى الأميرة في حياة الشيخ من ثلاثة وجوه :

الأول : أسلوبه الكتابي ، فاننا نلمح في أسلوب الأستاذ في العهد الأخير ميلا إلى الدعابة والخفة كما في الفصول التي كتبها في مجلة المنار عن سياحاته . وليس من المعقول أن يكون الذي هيأ الشيخ للمزاح هو تعيينه عضواً في مجلس إدارة الأزهر وتقلده منصب الافتاء .

الثاني : المامه في كتاباته بموضوعات لم يكن من قبل ليعرض لها مثل كلامه عن الرسوم والتماثيل محبذاً بنحو قوله :

« إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة وأحوال الجماعات في المواقع المتنوعة والأحوال



اللورد كرومر

البشرية » وقوله : « فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى » . وقوله : « أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك » في هذه الأقوال من أريج الشعر والأدب والفن ما لا يسهل معه أن تعرف المصلح الديني الذي ينم عنه كل ما كان يكتبه الأستاذ .

الثالث : نشأ الأستاذ على عداوة انجلترا التي شهد تشريدها لأستاذه السيد جمال الدين الافغاني في البلاد واحباطها لمساعيه الاصلاحية كلها .

وللشيخ محمد عبده وأستاذه فصول ضد بريطانيا العظمى تتأجج نارا نشر أغلبها في جريدة العروة الوثقى التي اصدراها في باريز معاً أيام نفي الأستاذ الامام من مصر عقب الثورة العرابية ، ولا تزال انجلترا تكره أن تشيع في الناس هذه الفصول .

أما بعد اتصال الشيخ بالأميرة نازلي التي كانت صديقة لبعض الانجليز فقد خفت حملته على انجلترا ، وسمح بصداقته الشخصية للورد كرومر صديق الأميرة دون تفريط في حق بلاده ، أو عدول عن رأيه السياسي . ليس ذلك كله من عمل الأميرة وحدها ولكن للأميرة فيه عملا يؤيد ما قصدنا اليه من الاشارة إلى بعض أثر المرأة في حياة الأستاذ الامام . ■



كتب وردتنا

من مقدمة كتاب :

بلاد الشام : السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية

د . وجيه كوثراني

السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية
في مطلع القرن العشرين
قراءة في الوثائق

د. وجيه كوثراني

التاريخ الاجتماعي للوطن العربي

السؤال الأساسي الذي يشكل محور الاهتمام : كيف تمت سيطرة الاستعمار الفرنسي على « سورية الطبيعية » (بما فيها لبنان) ؟

يتردد أن هذه السيطرة ارتكزت إلى تجزئة سياسية وإدارية تمثلت ببناء أجهزة « دول حديثة » ، (على النمط الغربي) ركبت على أنماط انتاج وبنى ومؤسسات « غير رأسمالية » . أو ذات صفات تكوينية تاريخية مختلفة ، استخدمت للدلالة عليها صفات من مثل : « آسيوية » ، شرقية ، إسلامية ، أو « تقليدية » ، ما قبل رأسمالية ، ما قبل « كولونيالية » الخ .. فكيف تم التقاطع بين الطرفين ، أو المستويين ؟ ما هي أشكال التوافق أو التعارض ؟ وكيف تمت أشكال « التبعية » للرأسمالية العالمية .

إذا كان هذا السؤال هو الذي يشغل الآن الحيز الأكبر من تفكير الباحثين المهتمين بالموضوع - على اختلاف توجهاتهم واهتماماتهم « المعرفية » بالاقتصاد والتاريخ ، أو الأيديولوجيا ، - فان ما تتطلبه معالجة هذا السؤال من تراكمات في المعارف الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والفكرية ، يجعل من طرحه كهمّ أساسي من هموم الكتاب الذي أقدمه ، هدفاً طموحاً أو مشروعاً مستقبلياً يتطلب تكاتف جهود جماعية ، تنخرط في انتاج هذا المشروع وتحقيقه ...

إذن لا يدعي العمل الراهن دراسة وافية لهذه المشكلة ، بل إنه محاولة تجمع بين التوثيق والتحليل ، بين تقديم مواد وثائقية حول الموضوع وبين منهج يطمح أن يكون علمياً في قراءة الوثائق وإعادة تركيبها . إنها إذن الوثائق التي نعتقد أنها تقدم مواد وعناصر لبناء دراسة هذه المشكلة .. وهو بناء لن يكتمل أبداً ، بل ينبغي أن يعاد بناؤه في كل مرة وينبغي أن تتراكم دائماً الجهود في محاولة بنائه .. إنها ليست بالطبع « تجريبية وضعية » لا تستجيب للمتطلبات والحاجات النظرية والسياسية للفكر العربي في فهمه مسائل « التجزئة » و « التخلف » و « التبعية » و « معوقات » التوحيد القومي وأشكاله وما يطرحه هذا التوحيد من مركزية أو ديموقراطية ، من طمس للتنوعات والخصائص أو من تجسيم وتضخيم لها .. ولا هي أيضاً « تنظير » متسرع يسترشد بالقوالب والمقولات الجاهزة وبأواليات فكر يعتمد على المعادلات والمقاييس التي تصبح علمية بمجرد الاصرار اللفظي على « علميتها » وذلك بمعزل عن الوقائع والتاريخ ، أو اعتماداً على حد هزيل من المعلومات التي لا تسمح مطلقاً بادعاء انتاج « نظرية علمية » لتطور المجتمعات العربية في عصر الامبريالية ، كما هو حال بعض انتاج الأدبيات السياسية والايديولوجية التي نطالعها في هذه الأيام والتي غالباً ما تدعي إنجاز ذلك .

لذلك استدرك فأقول أن هدف المساهمة التي أقدمها ، وبعيداً عن كل ادعاء « تنظيري » أو غرق في « التجريبية » ، هو أن تكون مفيدة في عملية التراكم المعرفي في وجهة تفسير الواقع

وفهمه ، وإن كان العمل التوثيقي الذي تحمله هذه المساهمة يتطلب من الباحث قراءة أكثر نفاذاً إلى داخل النص ، وإذا كنت في بعض الحالات قد اكتفيت بمجرد العرض ، فان مرد ذلك يعود إلى ضرورة الاسراع في أن أضع في متناول الباحثين والقراء هذا العمل ، ودون انتظار استكمال تحليله في وجهة الصياغة التاريخية الأكثر اكتمالا ونضجا .. فكما أشرت إلى ضرورة الجهد المتواصل والمتجدد في عملية القراءة للتاريخ .. أشير إلى ضرورة اشتراك القراء والباحثين والمهتمين بالموضوع بنتائج ما توصلت اليه قراءتي لمجموعة من الوثائق ، حتى لو تم ذلك على حساب انضاج الفهم واستكمال التحليل حتى الآن . ذلك أن هذا الاستكمال يتطلب وقتاً وجهداً وحواراً ، إن لم نقل فرق عمل متجانسة الاهتمام والمنهج لا يمكن أن توفرها مع الأسف مؤسساتنا العلمية والعربية ، وإن ما أقدمه على كل حال لا يشكل إلا مدخلا للمشروع لا زلت منكباً على إعداده ... فليعذرني « المنظرون » إن لم يقراوا في الكتاب « نظريات » كبيرة ، وليعذرني النقاد أيضا إن لم أجب عن كل الأسئلة التي قد تخطر ببالهم فلا يجدون لها موقعا في الكتاب .

ما هي تلك المجموعة الوثائقية وما هي طبيعة هذا الكتاب ؟

لقد استقيت معظم المواد الوثائقية في الكتاب من محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية في باريس فما هي هذه الوثائق ؟

كانت التواريخ السياسية التي تناولت موضوع تجزئة بلاد الشام قد ركزت على نصوص الاتفاقيات والمعاهدات وقرارات المؤتمرات الدولية الكبرى : كاتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور ومؤتمر سان ريمو الخ ... وذلك انطلاقا من اعتبار هذه الصيغ مشاريع حاسمة على طريق فرض السيطرة والتجزئة اللتين حملتهما الدول الكبرى آنذاك ...

بيد أن نصوص هذه الصيغ والتي نشرت منذ زمن بعيد وتناولتها كتب تاريخية كثيرة بالتعليق والتحليل ، تكتفي بابراز الجانب الدبلوماسي في موقف الدول الكبرى ، أما الجوانب الأخرى المكونة في الأساس لهذا الموقف ، وهي جوانب ترتبط ، من جهة بمصالح القوى الاجتماعية والفعاليات الاجتماعية والفعاليات الاقتصادية داخل هذه الدول ، ومن جهة أخرى بالتركيب البشري والاجتماعي للبلاد التي هي هدف لسياسة السيطرة والتجزئة ، فان نصوصا وثائقية أخرى تبرزها ، نصوصا قد تبدو في الظاهر أقل أهمية من تلك التي تحمل « القرارات الكبرى » ولكنها في الواقع تشكل بعناصرها وموادها الجزئية والصغيرة المضمرة خلفية وقواعد « القرار الكبير » .

ومن خلال دراستنا لوثائق وزارة الخارجية الفرنسية في باريس (Quai D'Orsay) والمجموعة في مجلدات موزعة على أبواب :

Turquie (1912 - 1914)
Turquie - Guerre (1914-1918)
Levant, Syrie- Liban (1918-1929)

توقفنا عند بعض وثائق تبرز هذه الجوانب المغمورة ، أو تساعد على إبرازها .

هذه الوثائق كثيرة ومتنوعة الموضوعات (اقتصادية واجتماعية وعسكرية وسياسية) . وهي أيضا مختلفة المصادر ، منها ما كتبه خبراء وعلماء وأساتذة جامعات أرسلوا في بعثات لدراسة وضع البلاد « عيانيا » (مثلا على ذلك Paul Huvelin) استاذ القانون في جامعة ليون) ، ومنها ما كتبه عملاء ومخبرون وأجهزة خاصة بجمع المعلومات (Service Des Rensei- gnements) ومنها ما هو عبارة عن مذكرات رجال أعمال وغرف تجارة ، ومراسلات وبرقيات سرية (كتبت بالشيفرة ثم حلت رموزها) ، قد تبودلت بين كبار المسؤولين الفرنسيين الخ ...

وفي رأينا أن هذا النوع من الوثائق يملك دلالة أثارت اهتمامنا ، من زاويتين :

أولا : من زاوية غنى هذه الوثائق بعناصر ومواد التاريخ الفعلي ، وهي مواد تساعد على كشف مصالح القوى والفئات والطوائف وتبيان أهمية المناطق والمرافئ والأسواق من وجهة نظر الاستعمار الفرنسي آنذاك (كرأسمالية توسعية وكجهاز دولة كولونيالية عسكرية) ، وتساعد بالتالي على فهم المخططات السياسية والبرامج التي أعدت أو طبق بعضها في بلاد الشام في مطلع القرن العشرين .

ثانيا : من زاوية الدلالة على أن انتصار الاستعمار الفرنسي في مشاريع سيطرته وتجزئته لبلاد الشام لم يكن مجرد انتصار « آلة عسكرية متطورة » أو نتيجة « حيل دبلوماسية وخداع » فحسب ، بل أن ثمة خلفية تخطيطية للتحرك

الفرنسي الدبلوماسي والعسكري نكتشفها من خلال وثائق هي أشبه بتقارير « علمية » فهي تحمل معرفة « عيانية » بالوضع الداخلي للبلاد . لذلك نكاد نقول أن علماً خاصاً بالامبريالية تجند له وسائل البحث في التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والانتروبولوجيا ، تقدمه تلك التقارير منهجاً وموضوعاً .

الموضوعات التي تحملها الوثائق التي اخترناها وركزنا على دراستها تتمحور حول المسائل التالية : كيف نتعامل مع سورية ؟ مع اقتصادها ؟ مع واقعها الجغرافي والبشري ؟ مع تركيبها الاجتماعي ؟ ما دورها في إطار دوائر النفوذ في آسيا وأفريقيا ؟ هل نخلق سورية « موحدة » أم « مجزأة » الخ ..

أسئلة كان الجانب الفرنسي قد طرحها في مرحلة تقسيم الامبراطورية العثمانية . وبدء النهوض القومي في الشرق ، وجهد الخبراء والدبلوماسيين والاقتصاديون الفرنسيون في ايجاد الأجوبة عنها . من موقع مصلحة الرأسمالية الفرنسية التوسعية آنذاك ومصلحة الدولة « الكولونيالية » التي تحمل وتحمي هذا « المشروع التوسعي » .

إذن بدافع هذا الاهتمام المزدوج بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية (الاهتمام العلمي بكشف معطيات واقع تاريخنا من خلال مصدر أساسي من مصادره ، ومعرفة كيف تعامل الاستعمار الفرنسي مع هذا الواقع) ، قمنا بمتابعة دراسة هذه الوثائق .

ولقد توافرت من خلال ذلك مادة وثائقية غنية كانت في أساس « القراءة » التاريخية المتمثلة في هذا الكتاب الذي نقدم له وفي أساس المشروع الذي لا زلنا منكبين على إعداده والذي يبغي استكمال التوثيق حول الموضوع المطروح واستكمال تحليل الفرضيات التي يبنيها هذا المدخل ومتابعتها في المراحل التاريخية اللاحقة (بعد العام ١٩٢٢) .

ماذا في هذا الكتاب ؟

في القسم الأول :

ثمة استعادة لما تضمنته الوثائق الفرنسية والكتب الوثائقية المحلية من إحصاءات للسكان وجداول لتوزعهم حسب التقسيمات الادارية العثمانية ، وحسب « الدول » التي انشأها الانتداب الفرنسي ، وذلك وفق الانتماءات الدينية والاقوامية (ETHNIQUE) المختلفة .

ويشمل هذا القسم أيضاً على نبذات من تواريخ الطوائف الجبلية (الدروز والعلويون) ، وعلى محاولة لتحديد مواقعها في السلطة والانتاج في أواخر العهد العثماني ومواقفها من الاحتلال الفرنسي ...

وفي هذا القسم أيضا ، نبذة عن أشكال الملكية الزراعية في بلاد الشام وعلاقة ذلك بالسلطة المحلية وتوزعها تمثلاتها في المراتب الاجتماعية في كل من الريف والمدينة ، وعلاقة هذين الطرفين ببعضهما .

في القسم الثاني :

استعادة للتقارير والمذكرات الاقتصادية التي بدأ الخبراء الفرنسيون يضعونها في خدمة الرأسمالية الفرنسية منذ العام ١٩١٣ والتي ازدادت أهميتها ابتداء من العام ١٩١٨ وتوجت بالبعثة الفرنسية إلى «سورية» برئاسة (HUVELIN) و « المؤتمر الفرنسي من أجل سورية » الذي عقد في مرسيليا العام ١٩١٩ .

في إطار هذا الاهتمام الفرنسي ، استعرضنا مناهج وبرامج الرأسمالية الفرنسية في فهمها للاقتصاد السوري ومشاريعها المختلفة لاستثماره :

– في مسألة زراعة التوت وانتاج الحرير : مصانع الشرانق والرساميل الفرنسية وأثرها في الوضع الاقتصادي المحلي .

– في الأهمية التجارية لسورية : المدن ، المرافئ ،الأسواق المواصلات ..

– في المسألة الزراعية واقتراحات الخبراء الفرنسيين « لتطوير » الاقتصاد الزراعي السوري (ACHARD ET HUVELIN) .

والذي نلاحظه من خلال تقارير « الاقتصاديين الفرنسيين » أن المشروع الرأسمالي المقترح لسورية بعد الاحتلال ، يصطدم بالمشاريع التنظيمية الادارية المقترحة واشكال التعامل الدبلوماسي للسلطة الفرنسية المتمثلة بالمفوضية العليا وإدارتها .

« فالمشروع الرأسمالي » هذا كان يتطلب قرارات تنخرط في مشروع سياسي هو « انشاء دولة حديثة » برجوازية على النمط الغربي ،

وهذا بدوره كان يتطلب وجود قوى منتجة قادرة على التصدي للقوى الاجتماعية المعيقة للمشروع الزراعي الانمائي (مصادرة الأراضي ، توزيع الملكيات على الفلاحين ..) بيد أن المشروع السياسي الفعلي للمفوضية العليا كان يتطلب أولا وقبل كل شيء ضبط الأوضاع في سورية وقمع أو استيعاب القوى المعارضة والرافضة للدخول الأجنبي . وهذا يعني أن ثمة تناقضا كان لا بد أن يقوم بين متطلبات الهيمنة « للمشروع السياسي » الكولونيالي الفرنسي وبين متطلبات « التحديث البرجوازي » للمشروع الاقتصادي .

فالمشروع السياسي كان يعطي الأولوية لمهمة استيعاب الفئات الاجتماعية : (الطوائف ، أعيان المدن ، القبائل) وتأطيرها في أشكال من الادارات والاستقلالات المحلية ، مما يعني أن التحول في أشكال الملكية الزراعية (انشاء ملكيات فلاحية) والتحول في العلاقات الاجتماعية (تحرير الفلاحين - المرابعين) اصطدما بحاجة الادارة الفرنسية إلى التحالف مع القوى التي يمكن أن تمسها قرارات « التحديث » الاقتصادي .

والدعوة التي يطلقها (HUVELIN) لتحويل « الحِرَف » إلى صناعات متطورة تصطدم بالسياسة الاقتصادية الفعلية التي سارت عليها إدارة الانتداب الفرنسي والتي أملتها ، كما تبين الوثائق الفرنسية ، مصالح الرأسمالية الفرنسية في تحويل سورية إلى سوق استهلاك للبضائع المصنعة الفرنسية ، بل أكثر من ذلك في محاولة احتكار هذا السوق للتجارة كما يبين ذلك في تنظيم معرض بيروت التجاري عام ١٩٢١ .

وفي الواقع ، بين الدعوة لانماء زراعي يزيد من انتاجية الريف ويرفع من قوته الشرائية خدمة لمصلحة التجارة الفرنسية ، وبين الدعوة للتركيز على السكك الحديدية وشق الطرقات بين المرافئ والمدن الداخلية توسيعا أيضا لسوق هذه التجارة ، كانت السياسة الاقتصادية الفرنسية تذهب عمليا باتجاه تغليب التطلب الثاني ..

أما القسم الثالث من الكتاب

فيتضمن مواد تاريخية مقتبسة من مراسلات القنصليات ونياباتها في المدن السورية (بيروت ، دمشق، طرابلس) ومراسلات السفارة الفرنسية في اسطنبول ولندن والقاهرة ، إلى وزراء الخارجية الفرنسية ، ومراسلات المفوضية العليا إلى رئاسة مجلس الوزراء ، وهذه المواد صيغت في محاولة إعادة بناء « مشاريع فرنسا في السيطرة والتجزئة » على قاعدة التخطيط لمشاريع « الدول السورية » . وأما المواد المعاد بناؤها فتتوزع على الموضوعات التالية :

- الصراع الانكليزي - الفرنسي (١٩١٢ - ١٩١٣) وكيفية انعكاسه على التعامل الأوروبي مع المسيحيين وعلى العلاقة المحلية بين الطوائف .

وفي هذا الاطار يطرح موضوع مشروع اتحاد مصر وسوريا « مشروع الخلافة » في السياسة الانكليزية ، والرد الفرنسي على ذلك والذي يتمثل في تأرجح الدبلوماسية الفرنسية بين الاستمرار في سياسة « الحماية » للمسيحيين (الكاثوليك والموارنة) وبين محاولة استمالة المسلمين .

- مشروع « سورية الطبيعية » في السياسة الفرنسية (١٩١٣ - ١٩١٨)

وترتكز دراسة هذا الجزء على مذكرات رجال الأعمال وغرف التجارة (مرسيليا وليون) التي اعترضت على مضمون اتفاقية سايكس - بيكو وطالبت بتعديلها بعد الحرب . معتبرة أن الحق التاريخي لفرنسا يشمل كل « سورية الطبيعية » مع كيليكية وفلسطين .

- الدبلوماسية الفرنسية في فهمها للتركيب الطائفي والاقوامي وتعاملها مع خصوصياته :

فقد بدات الدبلوماسية الفرنسية في تصديها للمشروع الانكليزي المرتكز إلى « توحيد » المنطقة إسلاميا في إطار « خلافة » أو « دولة عربية » تبحث عن مرتكزات لها أخرى غير مسيحية ، وفي هذا الخط نلاحظ بداية اهتمام بخصوصيات الطوائف الاسلامية غير السنية (الشيعة ، الدروز العلويون والدروز) اهتمام بخصوصياتها الدينية ، عباداتها ، تنظيمها الاجتماعي ، زعاماتها، مع البحث عن أشكال « تحالفات » تلتقي فيها مصالح الطرفين : فرنسا من جهة ، والزعامات المحلية لهذه الطوائف من جهة ثانية .

وفي هذه النقطة توقفنا عند تقارير وجدناها في محفوظات وزارة الخارجية ، تشمل على نوع من الدراسات الاجتماعية للطوائف والقبائل وبعض الاقوام : منها دراسة عن الشيعة الامامية وزعيمها كامل بك الأسعد ، دراسة عن الدروز أرسلها الجنرال غورو ، دراسة عن العلويين ، دراسة عن القبائل العربية وعن الجركس ، الخ ...

وفي هذه الدراسات تطرح كيفيةالاستفادة من « خصوصيات » الطوائف لتنظيم سورية تنظيماً يسمح بضبط الوضع ويمنع بروز أي تحركقومي معاد لفرنسا ، وموحد لمختلف الفئات والطوائف .

وارتكازاً إلى هذه الدراسات يبدأ سجال سياسي ودبلوماسي بين المسؤولين الفرنسيين حول أشكال تنظيم سورية ، وأكمل شكل من أشكال هذا السجال تقدمه مراسلات ميلران وغورو قبيل « ميسلون » وبعدها ، وقد استخرجنا في هذا الفصل من البرقيات المتبادلة بين الطرفين في شهري آب وأيلول ١٩٢٠ ، عناصر غنية جداً لمفهوم الاستعمار – الفرنسي لمسألة الطوائف والأقليات في المشرق العربي ، وللصيغ الادارية المختلفة التي اقترحها الفرنسيون يومذاك لتركيز خصائص الطوائف وتعميقها في أطر سياسية ادارية (دول) أو في أطر مؤسسية – ادارية من ضمن الدولة الواحدة (دولة لبنان الكبير مثلا) .

ولقد تم بناء المادة التاريخية المستقاة من الأرشيف الفرنسي في صياغة تاريخية ارتكزت إلى الفرضية التالية : وخلاصتها أن التركيب الاجتماعي والسكاني لسورية كان يقدم في مطالع القرن العشرين معطيات واحتمالات من الواقع تتقاطع مع مشاريع السيطرة الامبريالية(*) وفق صيغ الالتحاق المؤسسة على نموذج « الدولة الغربية » ووفق شكل جديد من الاستعمار يجهد في أن يهيء لنفسه مرتكزات اجتماعية وسياسية وادارية محلية .

بيد أن هذا التقاطع لا يعني التوافق الكامل بين المشروع الفرنسي « واحتمالات الواقع » ومعطياته . ذلك أن الواقع المحلي كان يحمل بدوره أيضاً احتمالات ومشاريع أخرى تتعارض مع المشاريع الفرنسية ، أي أن الواقع كان يقدم أشكالا من « المقاومة » للمشروع الفرنسي . والسؤال الذي ينبغي أن يؤكد البحث عليه هو ماهية حجم هذه المقاومة ؟ وما كان افقها التاريخي ؟

وعلى هذا الأساس قدمنا في هذا القسم مشاريع فرنسا في التجزئة على لسان مقترحيها ومنفذيها وطرحنا في الخاتمة بعض الملاحظات حول التجزئة والعمل السياسي الوحدوي ، في سورية مأزقه في عملية التوحيد القومي ، نظراً لتفكك أسسه الاجتماعية والاقتصادية تلك ، ونظراً لتعمق هذا التفكك بفعل التفاوتات التي حصلت في ظل السيطرة الاستعمارية آنذاك . وتوخياً للاستفادة القصوى من بعض الوثائق أفردنا ملحقاً يتضمن رسائل اقتصادية واجتماعية وسياسية ، ونصوصاً مقتبسة من تقارير وكتب وثائقية رأينا أنه من المفيد ايرادها تدعيماً للكتاب وتقديماً لمادة تاريخية جديدة لا زالت بحاجة للبحث والتحليل ، آملين متابعة هذا المشروع وسد ثغراته في مساهمة لاحقة.

كانون الثاني ١٩٧٩
وجيه كوثراني

(*) لم نتحدث في هذا الكتاب عن « المشروع الصهيوني » في فلسطين ، بالرغم من أهمية الموضوع وخطورته في تجزئة بلاد الشام ، وقد تركز البحث على أطماع الراسمالية الفرنسية في سورية الطبيعية بما فيها فلسطين قبل ١٩٢٠ ، وعلى تنظيم سورية وضبطها بعد ١٩٢٠ ، أي بعد إقرار الانتداب الانكليزي على فلسطين وقبول فرنسا بذلك ، ولنا على كل حال عودة إلى الموضوع في المساهمة اللاحقة من المشروع التي لا تزال قيد الاعداد والتي نفرد فيها فصلا عن السياسة الفرنسية تجاه الصهيونية .

ملاحظة

بين تاريخ كتابة هذه المقدمة وبين تاريخ نشرها ، كان المؤلف قد انجز بحثاً بعنوان : « الموقف الفرنسي من نشاط الصهيونية في فلسطين في مطالع القرن العشرين من خلال وثائق الخارجية الفرنسية » ، وقدمه في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام – الجامعة الأردنية ، عمان – نيسان ١٩٨٠ .

– التحرير –

د. امان شعراني

المرأة بين الشريعة والتقاليد



« المراة بين الشريعة والتقاليد » عنوان محاضرة د . امان كبارة شعراني التي القتها في المركز الثقافي الاسلامي ، الجمعة ٨٠/٥/١٦ ، خاتمة الموسم الثقافي لهذا العام . وما للسيدة المحاضرة من كفاءة وخبرة تربوية أتاح لها شرح وضع المرأة في التشريع الاسلامي وتحليله ثم الخلوص إلى تحديد المبادئ التي يجب اعتمادها في تربية المرأة وتعليمها في ايامنا هذه .

وهذا نص المحاضرة

يتركز تضخيم معضلات المرأة اليوم على الخلط بين الغث و الثمين ، وبين النظرية والتطبيق ، ما دام جوهر الدين يختفي في مجتمعنا وراء التقاليد .

في موضوع المرأة ، وفي مجتمعاتنا العربية بالذات ، يشعر الباحث أنه يسير في أرض مليئة بالألغام ، وأنه في كل خطوة من خطواته يصطدم بالأسلاك الكهربائية العارية وتقوم في وجهه المقدسات الحساسة في المجتمع ، ولا يمكن لأي باحث يجري بحثا علميا أو طبيا أو نفسيا بأي أمر يتعلق بالمرأة إلا برزت أمامه الأفكار والتقاليد الدينية التي في أغلبها ليست من صميم الدين ولا في جوهره .

إن التقاليد مسؤولة إلى حد ما عما ترمى به المرأة المسلمة اليوم من التخلف والعجز عن مواكبة الحياة سواء كان على صعيد اختيار الزوج لها ، أو النظرة اليها كأداة للاستمتاع أو أداة لانجاب الأطفال ، وحل عقد الزواج ، والخروج لطلب العلم بجميع مراحله وللعمل المنتج في الميدان الاقتصادي وللنشاط الثقافي في المجال الاجتماعي .

توصل التشريع الاسلامي إلى وضع إطار لحقوقها المدنية والمالية والانسانية إلا أن اختفاء جوهر الدين وراء التقاليد والممارسات أدى إلى استصغار شأنها وعدم تبوئها المكان المناسب لها سواء في الأسرة ، أو في المجتمع ، او في الدولة .

إن أول ما صنعه الاسلام لتعزيز كرامتها الانسانية ، اعتبارها مساوية للرجل ، ما دامت نشأتهما واحدة كما ورد ذلك في عدة آيات قرآنية .

وبالرغم من نظرة الكثيرين في القرن العشرين إلى أنها جنس تابع للرجل ، فقد نظر الاسلام لها جسديا ونفسيا على أنها كائن بشري ، كامل ، والفوارق بين الجنسين فوارق

وظيفية أحدثها تنوع الأعباء وتنوع طبيعتها .

أما علم البيولوجيا فقد بين أن تفوق الجنس الآخر في القوة العضلية يرتبط بوظيفة الرجل في الحياة أكثر من ارتباطه بتكوين الرجل البيولوجي . بدليل أن الرجل المثقف في المدينة أضعف من ناحية القوة العضلية ،من العامل الزراعي في الريف .

وبينما كان البعض يرى أنه لا يصح للمرأة أن يكون لها دين ، جاء الاسلام مقرراً للنساء ثواب أعمالهن الصالحة كالرجال .

ولا يزال يعتقد البعض بأن قدرة المرأة الفكرية أقل من الرجل ، مع انه ليس هناك دليل علمي على ذلك ، وأن العالم في هذا المجال يؤكد أن الفارق الوحيد الذي يمكن الاعتراف به هو الفارق الفردي .

وفي علم النفس حقيقة تثبت وجود علاقة بين الكبت وانخفاض القدرة الفكرية ، عند الانسان ، وبما أن نصيب المرأة من الكبت منذ طفولتها حتى مماتها اضعاف نصيب الرجل ، فلا بد أن تنخفض قدرتها الفكرية بسبب ذلك . كما أن انعزال المرأة عن الحياة داخل البيت وانشغالها بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد يحولان بينها وبين التفرغ للأعمال والتدريبات لتنمية قدرتها الفكرية .

إن الاسلام له وجهة نظر معينة يبديها في النظام الاقتصادي الذي تقدم به . لقد سوى بين الرجل والمرأة في التصرف المالي ، ولم يسو بينهما في الميراث ، وذلك لأنه خص الرجل بالمسؤولية الاقتصادية ، إذ حتم عليه القيام بأعباء الأسرة ، بخلاف المرأة التي لم يكلفها الاسلام بشيء من قبيل ذلك .

ولئن أعفى النظام الشرعي عاتق المرأة من المعونات المار ذكرها فقد جاءت عوامل الظروف الحاضرة بالزامها مشاركة الرجل بأعباء الأسرة وتأمين عيشها ولوازمها وهذا ما تقوم به الكثيرات في عصرنا الحاضر متنازلات عن حقوقهن مضاعفات لواجباتهن .

أما من ناحية الزواج فقد أراد الاسلام للفتاة قبول الزواج برضاها كالرجل ولكن بعض أولياء الفتاة استغلوا الولاية وطبقوا الصفات التجارية في الزواج . فالزواج في نظر الاسلام واجب اجتماعي للمحافظة على النوع الانساني ، وسكن نفسي من وجهة الفرد وسبيل مودة بين الرجال والنساء .

يريد الاسلام للحياة الزوجية أن تظل مستقرة ولا سيما بعد انجاب الأطفال ليعمل الزوجان على تربية أولادهما تربية تحقق التوازن النفسي في مجتمع صالح . إن الاسلام أجاز الطلاق ، ولكن أراد أن يبعد شبحه عن كل بيت ، وليس الدين مسؤولا عمن يستغلون الطلاق استغلالا يتنافى مع كل القيم التي نادى بها ، ولكن تقع المسؤولية على تربية هؤلاء الأفراد غير الموجهة والمضبوطة تجاه قيم ومبادىء يعتمدها الدين والمجتمع معاً .

إن الدين الاسلامي لم يجعل الجنس عائقا يحول دون تلقي المرأة العلم . مع أن حظ المرأة في الشرق وفي الغرب كان ضئيلا خلال العصور الوسطى ، وكثيرا ما برهنت المرأة المسلمة على أنها ليست متزودة بالثقافة الاسلامية فحسب بل بالأخلاق السامية والنبل ، وفي هذا المجال تحفل كتب التاريخ والأدب بصورة لها زاهية . وقد تصدرت المرأة لموضوعيات ثقافية متعددة فبرّزت في جميعها ، وكانت في كل منها تدل على مقدرة ممتازة وكفاءة معينة .

اما العلوم التي تلقتها المرأة في الحقب الأولى من الاسلام ، فكان منها العلوم الدينية والأدب والموسيقى ، والغناء ، والطب ، إلى جانب بعض العلوم الأخرى المتفرقة ، وقد اكتسبت كل أنواع هذه العلوم عن طريق التعليم الخاص ، ولم يعمم على جميع النساء لأسباب اجتماعية واقتصادية وليس لأسباب تتعلق بجوهر الدين .

بالرغم من تأكيد الاسلام على وظيفة المرأة في الأمومة وتدبير المنزل ، لم يمنعها من العمل المنتج في الميدان الاقتصادي ، ولا أراد ذلك ، كما منحها تلك الشخصية الاقتصادية منذ أربعة عشر قرنا. مع العلم أن جميع المجتمعات الغربية احتفظت للرجل لأسباب عقائدية واقتصادية واجتماعية بالوظائف الخارجية في حياة الأسرة ، واحتفظت للمرأة بالوظائف الداخلية في تلك الحياة .

فاذا كان صحيحا أن للمرأة في المجتمع البشري وظائف تختلف عن وظائف الرجل بحكم أنوثتها وأمومتها وزوجيتها ، فان التنظيم الاجتماعي التقليدي هو الذي فرضه عليها . فالعمل ضرورة انسانية لصقل الشخصية وتنميتها وإشعار الانسان بانسانيته . إن العمل البيتي لا يستهلك كل وقت النساء . والتنظيم

الاقتصادي الحديث لا يمكن الرجل من توفير الحياة المناسبة للعائلة . ولذلك أصبحت مشاركة المرأة في العمل ضرورة انسانية أيضاً . ولكن لا تزال التقاليد تشكل عائقاً في وجه المرأة لنزولها إلى ميدان الحياة العامة .

إنه لمن أسباب الشقاء أن تكون شؤوننا في حياتنا قائمة على اعتبارات وممارسات ، لا نفهم أسبابها ، ولا ندرك آثارها في أحوالنا ، ورثناها عمن تقدمنا ، وهذا لا يكفي لأن تكون سبباً في الأخذ بها ، ولا في الثبات عليها بل يجب أن نفهم حاجتنا ونميزها عن حاجاتهم في عصرهم . فعلينا أن نأخذ العادات والأخلاق والقيم والمثل ، بما يتلاءم مع حاجاتنا وما يطلب منها العقل والشرع ، لا أن نكون عبيداً لتلك العادات السائدة بما يتعلق بالمرأة ، وأكرر القول أن الكثير من العادات السائدة التي ترتبط بها المرأة أو تربطها بها لا أساس لها في الشريعة ولا تنسجم مع مقاصدها .

والمهم الآن أن نهيء للمرأة التعليم والعمل ولكن ما هو نوع التربية والتعليم الذي نريده للمرأة في عصرنا الحالي ؟ وما هي المبادئ التي يجب الاعتماد عليها في تربيتها وتعليمها .

١ – المساواة بين الجنسين : إن المساواة بين الجنسين تتطلب الاستغناء عن العادات والتقاليد واستبدالها بتشريعات قانونية واجتماعية تنبع من حفظ كرامة المرأة كانسان .

٢ – تأمين التعليم الالزامي دون تمييز على المستويات كافة للجنسين عن طريق :

(أ) إقرار التعليم الالزامي المجاني الرسمي .

(ب) توفير الشروط الضرورية لانتساب الفتيات إلى مؤسسات التعليم بما فيها المؤسسات المهنية والتقنية .

(ج) تزويد المناهج بالمعلومات عن طبيعة المرأة والرجل وعن الزواج وفنون الحياة الزوجية الناجحة وعن انجاب الأولاد وتربيتهم وتدبير المنزل .

٣ – ضمان حق المرأة في اختيار شريك حياتها دونما أي ضغط مادي أو معنوي .

٤ – مكافحة الأمية بين النساء وتطوير قدراتهن الفكرية للتعبير عنها بالانتاج والخلق والابداع .

٥ – اقرار المساواة في الحياة الاقتصادية – الاجتماعية وتأمين العمل في المؤسسات العامة والخاصة وفي المهن الحرة .

٦ – تعليم الدين بقيمه وجوهره لا بتقاليده وتوفير الفرص لاعتناقه أو للتمسك به وممارسة تعاليمه عن قناعات داخلية وايمان نابع من عقل الفتاة وروحها .

إن المجتمع الذي يسعى لتكامل النماء الشامل الجسدي والعقلي ، والأخلاقي ، والروحي الفردي والاجتماعي للمرأة ، يدعم كيان العائلة ويقوي ركائز بنيانه في سبيل التطوير والتقدم .

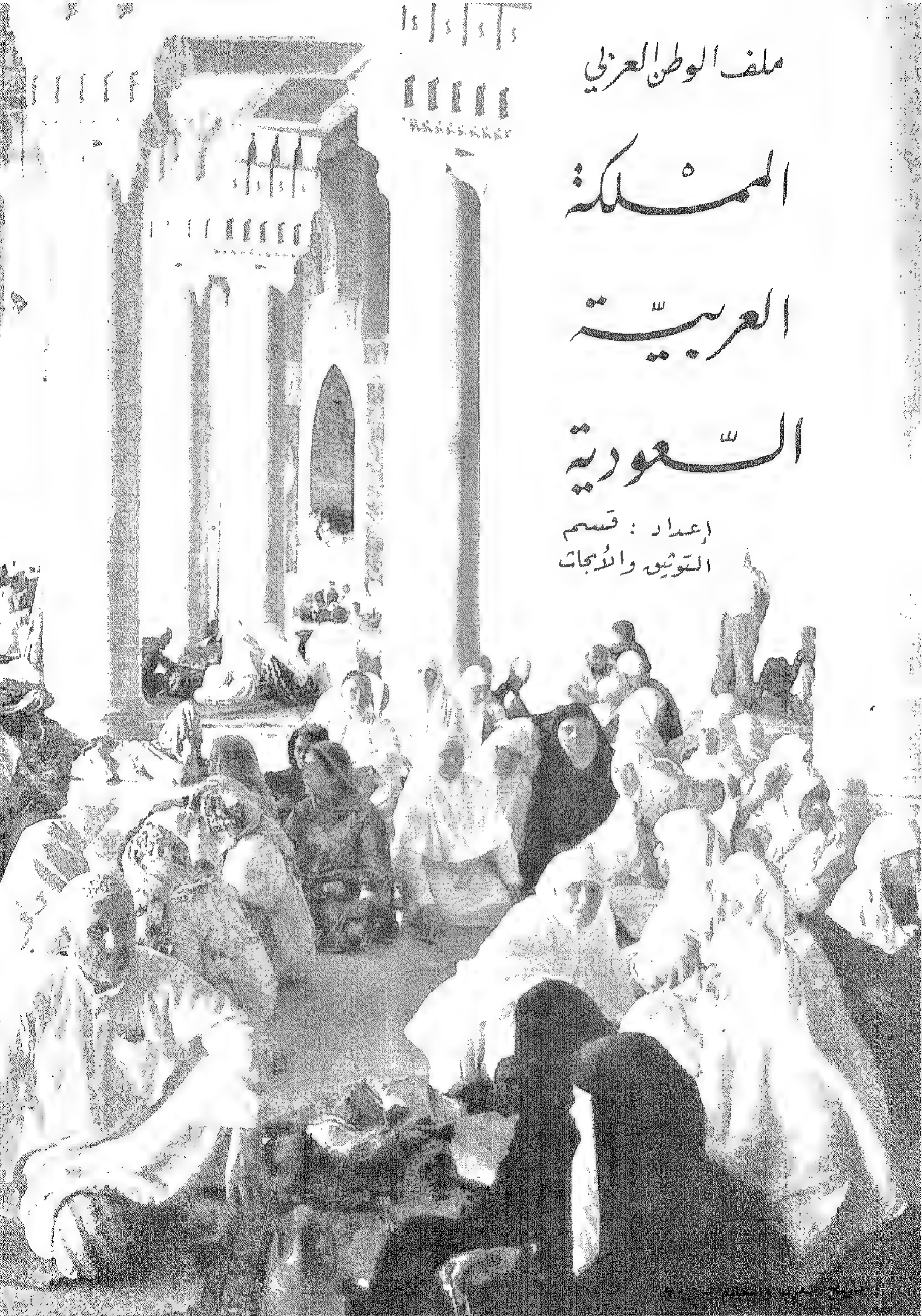
١٩٨٠/٥/٢٣

بعض الناس يصدقون أي شيء ، يقال لهم ... ما دام همسا .
لا يوجد أكثر اثارة من الشخص الذي يملك قدراً أقل من الذكاء وحسا أكثر مما لدينا .

دون هيرالد

قيل يومئذ ان أحد كبار أركان السفارة الانكليزية زار الشيخ بشارة ، في ذلك النهار ، غاسلا يديه ويدي دولته من كل ما حدث ، متسائلا عمن يمكن أن يكون وراء تلك الأحداث ، فأجاب الشيخ بشارة بكل هدوء : « هذي رزالة الطليان » وصارت عبارته هذه قولا مأثوراً .

بقلم : سلام الراسي



ملف الوطن العربي

المملكة العربية السعودية

إعداد: قسم التوثيق والأبحاث

« جزيرة العرب هي ام لجميع
من نبت فيها بغض النظر عن
لهجتهم التي تكلموا بها
سواء علينا ادعوا عربا ام لم يدعوا

وقد رايت انها لم تسم بهذا الاسم إلا قبيل الميلاد حينما تخصصت كلمة « عرب » « والعرب » فأصبحت علما يراد به سكان الجزيرة ، فصارت الجزيرة جزيرة العرب ... وبناء على ذلك فالشعوب التي ظهرت في هذه الجزيرة هي في نظري شعوب عربية ، لان جزيرتهم هي جزيرة العرب . وإذا اخذنا بنظر الاعتبار نظرية من يقول بأن جزيرة العرب هي موطن الساميين الاصلي ، وإذا اردنا ان يكون كلامنا علميا ، وجب علينا إهمال كلمة الشعوب العربية وعرب ، لمنبتها في جزيرة العرب ، ولان هذه التسمية تسمية ملموسة بينما السامية اصطلاح مبهم . ثم ان العرب اليوم هم اعز من بقي من الساميين ، ولهجاتهم لا تزال تحافظ على طابعها السامي القديم »[١] .

والعرب يسمون شبه جزيرتهم « جزيرة العرب » وقد اعتمد جغرافيوهم هذه التسمية لاحاطة البحار والأنهار بجميع جهاتها ، فالبحر الأحمر من جهة الغرب ، والمحيط الهندي من جهة الجنوب والخليج العربي من جهة الشرق ونهر الفرات في جهة الشمال[٢] .

وهي عبارة عن ارض مترامية الأطراف تقع في الجنوب الغربي من قارة اسيا ، وتسمى جزيرة العرب لشيوع اللسان العربي في جميع انحائها[٣] .

وقد قسم جغرافيو العرب ، شبه الجزيرة العربية الى خمسة اقسام : تهامة ، الحجاز ، نجد اليمن والعروض[٤] . ونجد بان الأقسام الثلاثة الأولى منها تؤلف اراضي المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر .

وهكذا نتبين بان المملكة العربية السعودية تشمل اليوم معظم جزيرة العرب ، وقد كانت من قبل عبارة عن مجموعة امارات ومشيخات وحكومات عديدة تتبع بصورة غير مباشرة للادارة



منبر المسجد
النبوي الشريف

البترول .. ثروة

المركزية للدولة العثمانية التي ضعفت سلطتها انذاك (أوائل القرن الثامن عشر) في الولايات البعيدة ، فحلت محلها العناصر المحلية كآل خالد وآل الرشيد وآل سعود الذين كان لهم الدور الأكبر في رسم الخطوط العريضة لتاريخ المملكة الحديث . وقد سميت المملكة العربية السعودية تيمنا باسمهم لاعتبارهم مؤسسي تلك المملكة .

فعندما انطلق الشيخ محمد بن عبد الوهاب يدعو المسلمين الى العودة الى اصول الدين الاسلامي وتخليصه من الشوائب والبدع التي دخلت عليه ، وجد من الأمير محمد بن سعود امير الدرعية خير سند ومعين له ، وهو الذي اعتبر فيما بعد مؤسس الدولة السعودية . وقد تحالف الاثنان: الشيخ والأمير على نشر الحركة الاصلاحية في الجزيرة العربية على ان تكون الرياسة والامامة في آل سعود والمشيخة والخلافة في آل عبد الوهاب .

وبهذا الاتفاق ، ابتدأت عملية نشر الدعوة الوهابية في الدرعية في نجد التي استغرقت عملية توحيدها زهاء اربعين عاما[٥] .

ابتدأت تتضح منذ ذلك الحين معالم الدولة السعودية التي مرت عبر مراحل ثلاث قبل ان تتخذ الاطار النهائي لوضعها الحالي . والمرحلة الثالثة تعتبر المرحلة الأكثر اهمية بالنسبة لتوطيد حكم آل سعود في تلك البلاد .

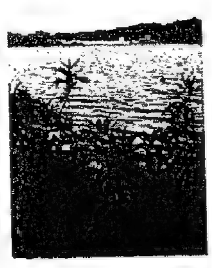
ولقد ابتدأت تلك المرحلة عندما استطاع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل ان يسترد الرياض من ايدي آل الرشيد في ٣ شوال سنة ١٣١٩هـ الموافق ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ م .

وقد استطاع الملك عبد العزيز في ٢١ جمادي الأولى سنة ١٣٥١هـ . الموافق ٢٢ ايلول ١٩٣٢ م . دمج جميع اقطار البلاد واعلان توحيدها باسم « المملكة العربية السعودية » . وفي عام ١٣٥٣هـ الموافق ١٩٣٤ م الحقت نجران بالمملكة المذكورة[٦] .

واجهة منزل تقليدي في جدة

آل سعود

يرجع نسب ال سعود الى قبيلة عنزة ، وهي من اكثر القبائل العربية تشعبا ، ومن أكبرها عددا واكثرها انتشارا ، ويقال ان افخاذها وبطونها منتشرة في نجد والعراق وسوريا وكان مقرها الدرعية . وقد تطورت حياة كثير من ابناء هذه القبيلة من البداوة الى الحضارة وكونوا أسرا حاكمة كآل سعود


سد ابها

في نجد وآل صباح في الكويت وال خليفة في البحرين . ويقال للعائلتين الأخيرتين « آل عتبة » .

ويقول المؤرخ فؤاد حمزة عن نسب ال سعود :

« ينسب آل سعود ، ... الى احد فروع قبيلة عنزة التي ترتقي الى بكر بن وائل بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان »(٧) .

لمحة عن وضع المملكة الجغرافي

تبلغ مساحة المملكة العربية السعودية مليون ونصف مليون كلم مربع . ويبلغ عدد سكانها حوالي سبعة ملايين نسمة . وهي تنقسم الى خمسة مناطق ادارية رئيسية هي : —

أ — **المنطقة الوسطى** : المعروفة تاريخيا باسم « نجد » وفيها الرياض العاصمة السياسية والادارية للبلاد . وهي الى جانب ذلك من اكبر المراكز التجارية والصناعية في المملكة .

ب — **المنطقة الغربية** : المعروفة تاريخيا « بالحجاز » وهي تضم الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ومقاصد الحجيج فيما بين عرفات ومنى وما حولهما . كما تضم أشهر مصائف المملكة ، وهي مدينة الطائف كما تضم ايضا اكبر مواني المملكة وأشهرها ومقر البعثات الديبلوماسية وهي مدينة جدة .

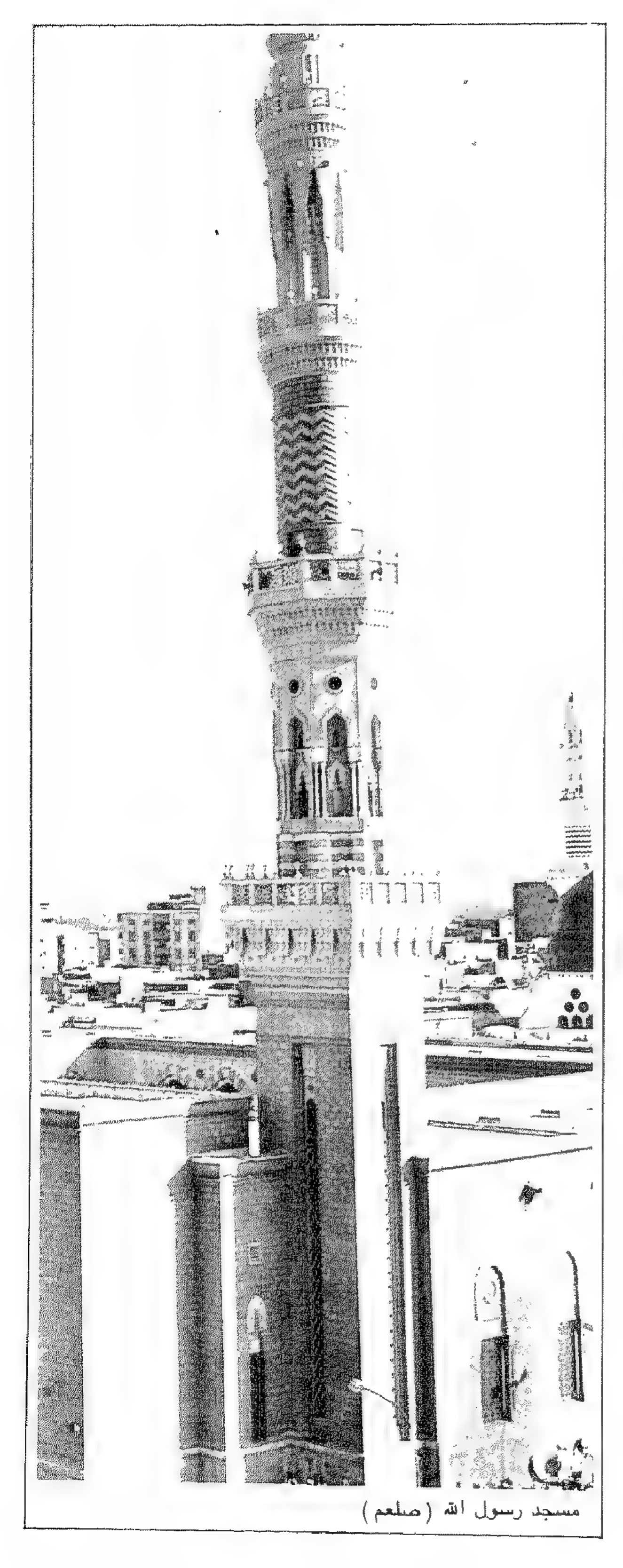
ج — **المنطقة الشرقية** : وهي معروفة بالاحساء وعاصمتها الدمام ثاني ميناء في المملكة ويقع على الخليج العربي . وفيها تقع مراكز انتاج النفط ومراكز تصنيع وتكرير البترول ومشتقاته .

د — **المنطقة الشمالية** : تشتمل على أهم مناطق الحضارات القديمة في شبه الجزيرة العربية واهم مناطق الآثار فيها ، ومن أشهر هذه المناطق مدائن صالح . وأهم مدنها تبوك .

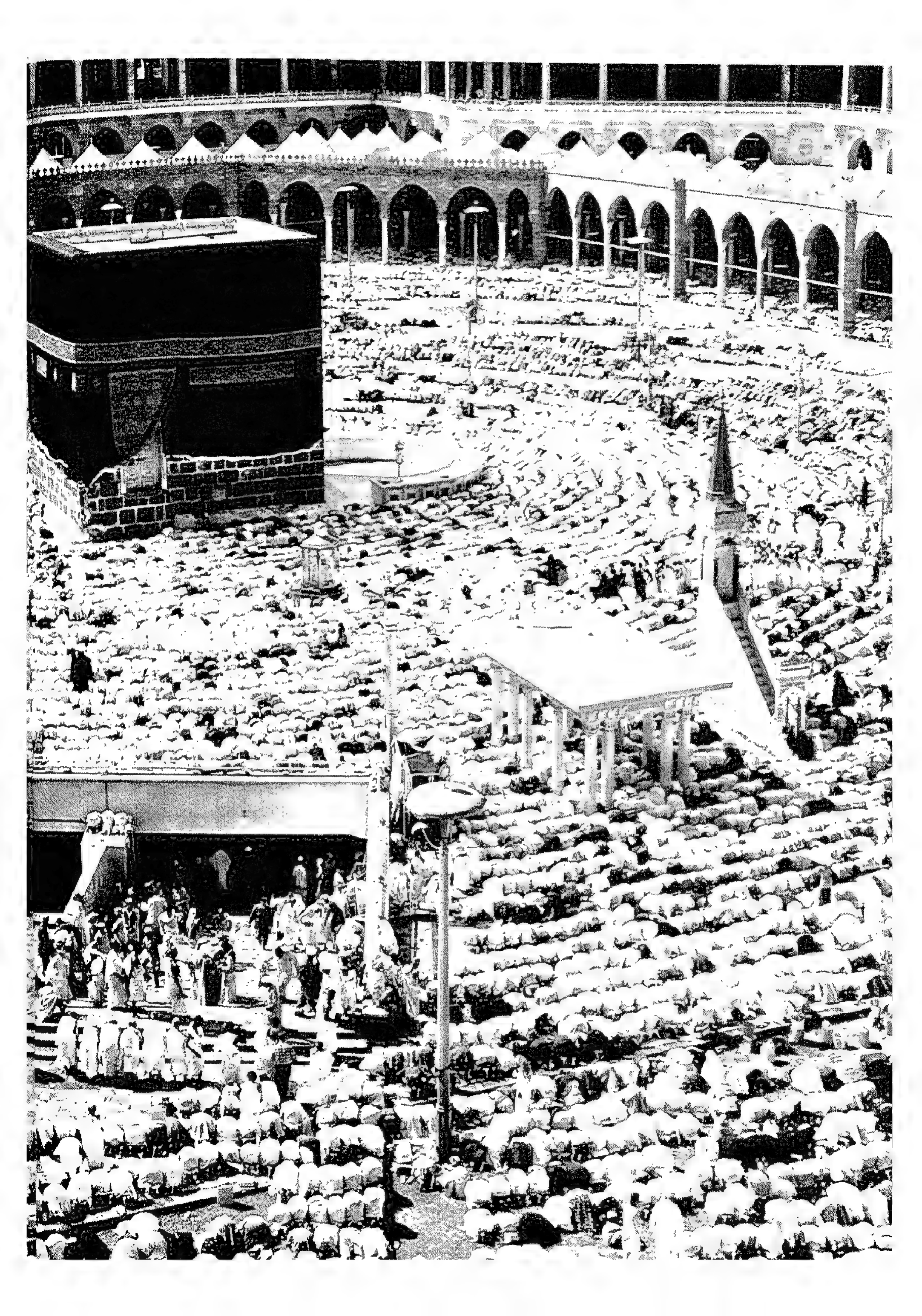
هـ — **المنطقة الجنوبية** : معروفة تاريخيا « بعسير » وهي تشتمل على عدة مناطق تاريخية وبها اخصب البقاع الزراعية وقد شيد فيها واحد من أكبر السدود في الجزيرة العربية هو سد وادي جيزان . وعاصمتها مدينة أبها اجمل المصايف في الجزيرة العربية .

وجدير بالذكر ان جميع هذه المناطق الخمس مرتبطة بعضها ببعض بشبكة ضخمة من الطرق المرصوفة الممهدة تمتد من أقصاها الى اقصاها وتصلها بجاراتها من الدول والامارات العربية .

يحد المملكة العربية السعودية من الشمال الأردن والعراق والكويت ، ومن



مسجد رسول الله (صلعم)



الشرق الخليج العربي ، ومن الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب اليمن وسلطنة عمان . وليس في المملكة انهار جارية كما ان المناخ هو عموماً حار وجاف خاصة في المناطق الوسطى . اما المناطق الداخلية مثل الرياض ، فهي تتعرض لصيف شديد الحرارة ولشتاء معتدل البرودة . اما المناطق الصحراوية فهي جرداء على وجه العموم .

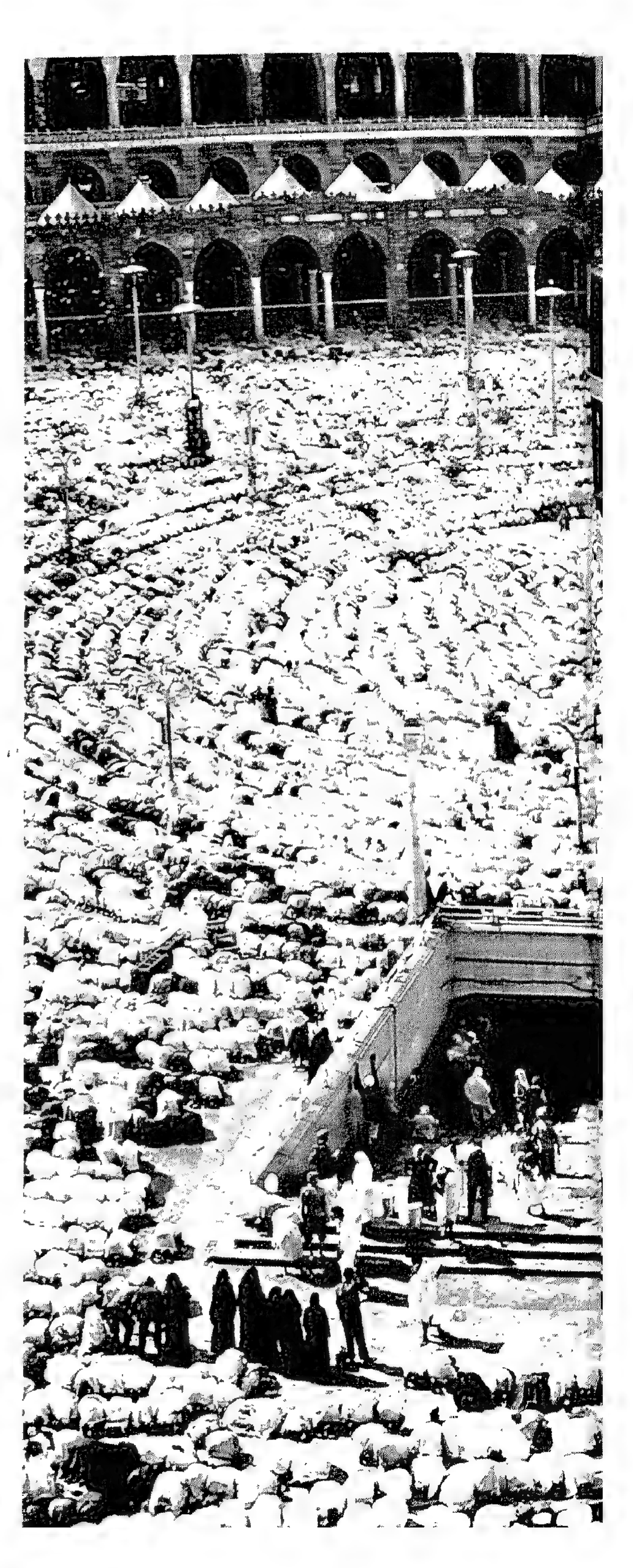
واما ثروات البلاد البترولية فقد احدثت تغييرا حاسما وتطورا كبيراً في مجرى الحياة الاقتصادية للمملكة . والى فترة زمنية غير طويلة ، كانت ايرادات الحج تشكل بندا هاما ان لم يكن الأهم من واردات ميزانية الدولة . اما الآن فان واردات النفط تشكل مصدر التغذية الرئيسي لخزينة الدولة .

آثار المملكة

تلاحقت الحضارات على ارض شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ وتركت اثارها عميقة في الذاكرة الانسانية . وتحتوي الكتب المقدسة وفي طليعتها القرآن الكريم ، على اشارات واضحة ومحددة عما حفل به تاريخ تلك البلاد . وقد تم ايفاد عدة بعثات اثرية رسمية ، كانت اهم ما قامت به هو اجراء مسح اثري ووضع مخططات اثرية لبعض المناطق وجمع عينات من الفخار ، كما تمكنت احدى هذه البعثات من اكتشاف قرية ثمود بالقرب من جبل ياطب في منطقة جائل .

ومن الآثار القديمة التي اكتشفت في المملكة الآثار القديمة في الخرج والأفلاج التي كتب عنها المؤرخون وأشاد بروعة جمالها الباحثون الذين تحدثوا عن البحيرات فيها وانظمة الري .

وهناك إثار قلعة الوبر الأسطورية التي ليست سوى صخور نيزكية ضخمة ذات قيمة علمية كبيرة . وهناك ايضا ، الآثار التاريخية الرائعة في وادي التثليث التي تضم مجموعة من الصور والأنصاب المنحوتة في الصخر الى جانب بعض الكتابات القديمة .

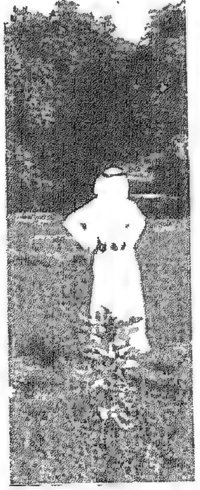


قبر نبطي في مدائن صالح

كانت مدائن صالح مسرحا لقوم ثمود الذي ارسل الله اليهم نبيه صالحا ليهديهم الى الصراط المستقيم فأبوا وتمسكوا بالوثنية ، فحلت عليهم اللعنة وأبيدوا عبرة للأجيال اللاحقة ، وقد هجرت مدائن صالح بعد ذلك ، الا ان اثارهم ما زالت ظاهرة للعيان وهي عبارة عن بيوت نحتت في الصخر وقد زينوها بالنقوش من الخارج(٨) .

وتضم مدائن صالح ١٧٩ جبلا رئيسيا عدا الاف الجبال الثانوية المتقطعة بعضها عن بعض بشكل هندسي رائع . وتتميز جبال المنطقة باللونين الأحمر والرمادي .

وتوجد اثار بالقرب من العقبة لقوم مدين وآثار لقوم موسى ، كما يوجد ايضا البئر الذي تعرف عنده موسى على زوجته ابنة شعيب .


الصحراء اخضرت

وأما بقايا معبد الشمس في منقا جنوب منطقة عسير ، فلا تزال تدل على أمجاد هندسية غابرة .

كما ان الصخور التي تحمل الكتابات الحميرية في خميس مشيط ذكرى حضارة عظيمة دارسة .

هذا الى جانب اثار خيبر القيمة التي تجسد أجلى صور لانتشار الدعوة الاسلامية في الجزيرة العربية .

لا يسعنا ختم الحديث عن المملكة العربية السعودية ، دون ذكر الاماكن المقدسة فيها التي تعتبر محط انظار المسلمين في العالم على مر الأجيال . فالدين الاسلامي الذي هو خاتمة الأديان السماوية ودين عبادة ونظام حياة ، يرتكز في احد أركانه الخمسة على فريضة هامة

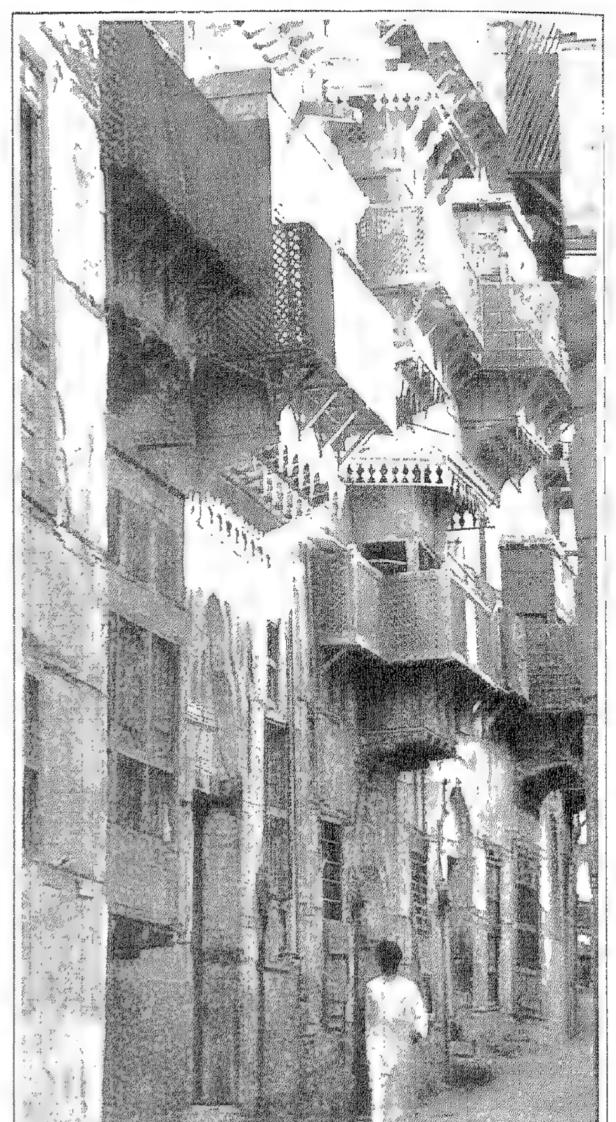
وهي فريضة الحج التي تتمحور شعائرها حول تلك الأماكن في مكة المكرمة والمدينة المنورة .

فمكة المكرمة تحوي اهم رمز اسلامي ألا وهو الكعبة المشرفة التي يعود بنائها الى سيدنا ابراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . ومن المشاعر الاسلامية جبل عرفات ، جبل الرحمة الذي يقع الى الشرق من مكة المكرمة ، الذى وقف عنده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عام ١٠ هجرية .

وهناك ايضا منى ومزدلفة حيث يقف عندهما الحجاج في مواقيت معينة اتماما لشعائر الحج التي تكتمل بالطوأف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة .

اما المدينة المنورة ، مدينة الرسول العظيم التي هاجر اليها فاستقبله أهلها بالترحاب الشديد ونصروه ، فسموا من أجل ذلك بالأنصار ، فهي تحوي مسجد الرسول الذي يضم بين جنباته ضريحه الكريم .

والمدينة المنورة التي هي ثاني مدينة مقدسة في الاسلام ، كانت عاصمة للمسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين . لذلك فان المدينة وضواحيها تشتمل على مواقع وآثار اخرى هامة ، من بينها « مسجد قباء » الذي اشار اليه القرآن الكريم و « جبل احد » الذي شهد واحدة من اهم معارك الاسلام .



زقاق محافظ على طابعه القديم

المراجــــع :

١ – د . جواد علي . تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ . ص ٢٨٠ – ٢٨١ . بغداد سنة ١٩٥٢ .

٢ – محمود شكري الألوسي . بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، ج ١ . ص ١٨٧ الطبعة الثالثة ، مطابع دار الكتاب في مصر .

٣ – أبي محمد الحسن احمد بن يعقوب الهمداني . صفة جزيرة العرب ، ص ١ . ليدن مطابع بريل ١٨٨٤ .

٤ – د . حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ، ص ٤ . الطبعة السابعة ١٩٦٤ مكتبة النهضة المصرية .

٥ – د . صلاح العقاد . التيارات السياسية في الخليج العربي . ص ٦٠ – ٦١ . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥ .

٦ – مصطفى الدباغ ، جزيرة العرب ، ج ١ . ص ٤٩ . الطبعة الأولى منشورات دار الطليعة بيروت ١٩٦٣ .

٧ – فؤاد حمزة ، الدولة العربية السعودية ، ص ٦٢ . مطبعة ام القرى ، القاهرة ١٩٣٧ .

٨ – المملكة العربية السعودية . وزارة الاعلام الرياض . المديرية العامة للصحافة .

القصة الحقيقية لأشهر جاسوس في الحرب العالمية الثانية

إعداد: انطوان بطرس

كان الصقيع ما زال يسيطر على مدينة موسكو في صباح يوم ٢٠ نيسان ١٩٦٥ عندما كنت متوجهاً سيراً على الأقدام إلى الفندق الذي أسكنه، متوجهاً من الساحة الحمراء ماراً بشوارع ما زالت على أقدميتها، بأبوابها ونوافذها الحجرية وآثارها القديمة.

وانتهيت مسروراً إلى فندق «أوكرانيا» وهو يشكل جسماً هندسياً ستالينيا بكامل أجزائه.

... في غرفة من هذا الفندق المواجه لنهر «موسكوفا» اجتمع منذ ثلاث سنوات رجل الأعمال البريطاني «غريفيل وين» مع الكولونيل السوفياتي «أوليغ نيكوفسكي».



لحساب الاستخبارات البريطانية . وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر تموز ١٩٦٢ .

وفي مدخل فندق « أوكرانيا » تقدم لاستقبالي الجنرال « أوجين بولتين » من معهد « الدراسات الاشتراكية » متأبطاً أعداد الصحف السوفياتية الصادرة في أواخر عام ١٩٦٤ وكلها تتكلم مطولاً عن ريشارد سورج : منها البرافدا ، الازفستيا ، سوفيسكا ، روسيا الخ ...

... في ٤ أيلول ١٩٦٤ باشرت الصحف السوفياتية في إعلام الشعب عن الخدمات التي قدمها « المخبر » ريشارد سورج خلال الحرب العالمية الثانية .

... وفي ٥ تشرين الثاني ١٩٦٤ صدر عن رئاسة مجلس السوفيات الأعلى القرار التاريخي الذي يمنح « الرفيق » سورج لقب بطل الاتحاد السوفياتي .. لكن بعد الوفاة ! ..

... وفي ٨ آذار ١٩٦٥ أصدر الاتحاد السوفياتي الطابع البريدي « الخاص » الذي يتضمن تلاميح وجه الرجل الذي كان يلقب في القارة الغربية بأنه أقوى جاسوس ظهر في النصف الأول من القرن العشرين !!.

لقد استغرب هذه المفاجأة جميع هواة جمع الطوابع . لأنها كانت المرة الأولى في تاريخ إصدار الطوابع البريدية ... كانت المرة الأولى التي تصدر حكومة ما أي طابع تذكاري لتكريم جاسوس ..

وإذا كانت بلجيكا قد أقدمت على عمل



مماثل عام ١٩٥٣ « تخليداً » لذكرى « ولتر ديوي » مؤسس أجهزة المخابرات البلجيكية خلال أعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ و ١٩٤٠ - ١٩٤٥ فقد كانت مبادرتها هذه ... لتكريم المواطن .... وليس العميل .

للمرة الأولى في تاريخه يوافق الاتحاد السوفياتي « بتكريم أحدهم » على مبدأ استخدام عملاء في الخارج ... حتى في أيام السلم والسؤال الآن :

ما دامت السلطات السوفياتية العليا قد اعترفت بضرورة تكريم « عميل » مخابرات « نظراً للخدمات الرائعة التي قدمها للوطن » ... لماذا إذاً انتظرت هذه السلطات أكثر من عشرين سنة بعد وفاته لتكريمه ؟

لماذا التأخر ؟

نجد في أول بحث من جريدة « البرافدا » تاريخ ٤ أيلول ١٩٦٤ وصفاً دقيقاً لأجواء مقبرة تاما في ضواحي طوكيو ...

وقد استقبلت هناك السيدة هاناكي اينشل صديقة « العميل » وهي يابانية . وفد جريدة « برافدا » الموسكوفية وقادتهم إلى ضريح « سورج » الذي يحمل في اللغتين اليابانية واللاتينية عبارة :

« ريشارد سورج ١٨٩٥ - ١٩٤٤ » قائلة بتأثر بالغ :

« كنت متأكدة منذ البدء أن السوفيات سيأتون لزيارة هذا الضريح » .

وتتابع « البرافدا » :

« لأسباب كثيرة .. لم يكن من السهل ابراز الأعمال الخالدة التي قام بها العميل ريشارد سورج ورفاقه ... »

هذه الأسباب .. ما هي ؟

وإلى أي حد يمكن أن نفسرها ؟

وصلت معلومات هامة وخطيرة جداً إلى الكرملين بين ٥ آذار و ١٥ حزيران من ريشارد سورج المسؤول غير الرسمي عن دائرة الصحافة في سفارة الرايخ في طوكيو .. وأيضا عميل المكتب الرابع في الجيش الأحمر السوفياتي ...

هذه المعلومات المتكررة تتضمن كل التفاصيل عن :

... استعدادات المانيا النازية على الجبهة الشرقية .

... القرار المتخذ في برلين بشأن ضرورة



طابع البريد من ٤ كوبيك صدر في ٨ آذار / مارس /٦٥

اعلان الحرب على الاتحاد السوفياتي ... تجمع بين ١٧٠ و ١٩٠ فرقة المانية في الجبهة الغربية .

... طبيعة المسؤولية الأساسية الهامة التي أوكلت إلى الجناح الشمالي لجيش الغزو الألماني .

... تحديد المدن التي سوف تستهدف بادئ ذي بدء بعد المباشرة في الهجوم :موسكو ، لينينغراد ومن ثم أوكرانيا .

... التاريخ المرجح للابتداء بالهجوم ٢٠ حزيران .

بعد ذلك في ١٥ حزيران اتصل سورج بموسكو بواسطة الاذاعة ليعلمها بصورة دقيقة عن موعد الغزو الألماني الذي تقرر أن يكون في ٢٢ حزيران .

وكان ستالين قد رفض قبلا تنبيه الرئيس روزفلت عن « مخطط بربروس » الذي نقله « سمنر ولس » إلى السفير السوفياتي في واشنطن خلال شهر آذار ١٩٤١ .

وكذلك رفض معلومات تشرشل عن استبدال كامل التجهيزات والمعدات العسكرية الألمانية المركزة على الحدود السوفياتية ... هذه المعلومات نقلها السر الكسندر كادوغان خلال شهر نيسان إلى السفير السوفياتي السيد مايسكي .

وقد ازداد اقتناع ستالين بوجهة نظره المتحجرة عندما علم أن رودولف هيس نائب الفوهرر وصل بصورة « عجائبية » إلى انكلترا في ١١ أيار .

واعتبر أن انذارات بريطانيا العظمى ليست سوى استفزازات « رأسمالية » تهدف إلى إبعاد نظر الاتحاد السوفياتي ... أما الحشود الألمانية

على حدود الاتحاد السوفياتي فقد كانت حسب اقتناع ستالين محاولة هتلرية للحصول على تنازلات سياسية إضافية من قبل الاتحاد السوفياتي .

هذا التصميم في العناد قد يحمل ستالين على إهمال المعلومات التي كان يزوده بها عميله ريشارد سورج ... رغم أن هذه المعلومات قد تأكدت من الجانب السوفياتي بواسطة جهاز النقيب « هارو بويسن » الذي أرسل إلى برلين منذ شهر كانون الأول ١٩٤٠ لتنفيذ الأوامر الموجهة اليه ... بواسطة السفير ديكانو سوف .. وبواسطة الأنباء الخاصة التي كان يؤمنها من جنيف جهاز الكسندر رادو التي كان يتلقاها من « رودولف رويسلر » وهو لاجئ الماني يشرف على مؤسسة نشر وله في المانيا أكثر من مخبر مطلع .

وإضافة إلى ذلك أعلن الملحق العسكري السوفياتي في فرنسا الجنرال سوسلو باروف خلال شهر أيار أن المانيا تستعد لهجوم ساحق على الاتحاد السوفياتي .

وهنالك أيضا المؤرخ البلجيكي « ولوس روديجير » الذي علم في حينه أن رئيس المكتب الثاني الفرنسي أبلغ الملحق العسكري السوفياتي في فيشي منذ نيسان ١٩٤١ عن تحرك أول فصيلة هجوم المانية من الجبهة المواجهة لانكلترا وتوجيهها نحو الحدود الروسية .

وتعمدت جريدة « البرافدا » بتاريخ ٤ أيلول ١٩٦٤ – خلال مرحلة تصفية الستالينية – في مجالات التنويه بخدمات ريشارد سورج بعد وفاته ، أن تلاحظ أن « ستالين لم يعط أي انتباه إلى تقارير سورج ولا إلى تقارير غيره ... » .

... وأضافت أن بعض تقارير سورج كانت تحمل في أعلى صفحاتها عبارة « معلومات غير موثوق بها وضعت للتحذير » وأيضا أن ستالين كان يفضل أن لا يتذكر ريشارد سورج

وطالما رددت كل من جريدتي « البرافدا » و « الأزفستيا » في حينه وخاصة خلال الفترة التي بوشر فيها بتوجيه الاتهامات في كل أنحاء الاتحاد السوفياتي إلى مذهب « عبادة الشخصية » العبارات التالية :« كم كان من الممكن الحفاظ على حياة عشرات الآلاف من



قبر سورج

المواطنين لو لم توجه تقارير ريشارد سورج وغيرها من التقارير إلى أعماق الخزائن المصفحة »

ستالين : رغباته أرادها حقائق

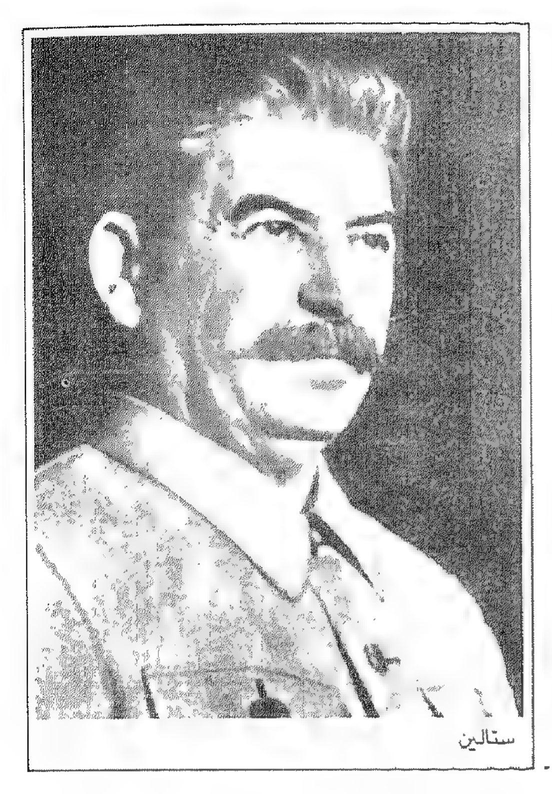
وفي كتابه « ٢٢ حزيران ١٩٤١ » الذي نشر في موسكو عام ١٩٦٥ يعرض المؤرخ الكسندر نكريتش الوقائع نفسها .

.. أما الكاتب السوفياتي روي ميدفيديف – وقد منعت اللجنة المركزية نشر كتابه الذي طبع ووزع في الخارج عام ١٩٧١ – فقد نقل أن « بعضهم » ذكر في الاتحاد السوفياتي أن ستالين والجنرال كوليتوف رئيس المكتب الرابع للجيش الأحمر كانا قد قررا استدعاء سورج ومعاقبته بصفته « زارع فوضى » و « عميل مخابرات غير صالح » ... وذلك أثناء مناقشة جرت في ١٦ شباط ١٩٦٦ في موسكو .

وقد أكد الستاليني « ديبوريسن » أن « الجنرال كوليتوف » كان يحيط الحكومة بالمعلومات الصحيحة أقل بكثير مما كان يكذب عليها ، وأن مختلف العملاء كانوا يصفون تقاريرهم انطلاقا من فكرة إرضاء اتجاهات ستالين دون الأخذ بالحقيقة والواقع .

ويتبين بوضوح أن ستالين اعتبارا من أن رغباته هي الحقيقة تمادى في الثقة ، بميثاق عدم الاعتداء الجرماني – السوفياتي الموقع بتاريخ ٢٣ آب ١٩٣٩ ... وبأدولف هتلر نفسه الذي كان ستالين يحترمه ويعتبره رجل دولة من الطراز الممتاز ... ويجد فيه – شخصية وصفات – أكثر من شبه يتلاحم مع شخصية وصفاته وفي الواقع أن ستالين كان يحقد بشراسة على رئيس وزراء بريطانيا وينستون تشرشل (الرجل الذي لم يتراجع عن محاربة الاتحاد السوفياتي خلال أكثر من عشرين عاما قبل الحرب الكونية الثانية) وأنه كان يعتقد اعتقاداً كاملا أن رودولف هيس كان قد كلف بمهمة إعداد اتفاق بريطاني – الماني هدفه إعداد هجوم – ولكن بعد فترة طويلة – على الاتحاد السوفياتي تشنه الدول الغربية بما فيها المانيا النازية .

... ولكن بعد أن أهملت تنبيهات الاستخبارات البريطانية والفرنسية – أكثر من مرة – لدى أجهزة الاستخبارات السوفياتية لم يعد من الممكن الافادة منها .. سيما أنه لم يتبق أكثر من عشرين ليلة حتى ... يتلقى


ستالين

الجيش الأحمر في ٢٢ حزيران ١٩٤١ صدمة الجيش الالماني الصاعقة .

ولكن رغم كل الأقاويل المنتشرة تفيد محتويات المحفوظات السوفياتية أن أركان حرب ستالين اتخذوا بعض التدابير – طبعا ليست ذات أهمية . وذلك تجاوبا مع المعلومات وأجهزة الاستخبارات وكان بعض هذه المعلومات تفيد أن « لا تحرك الماني قبل صيف ١٩٤٢ » .

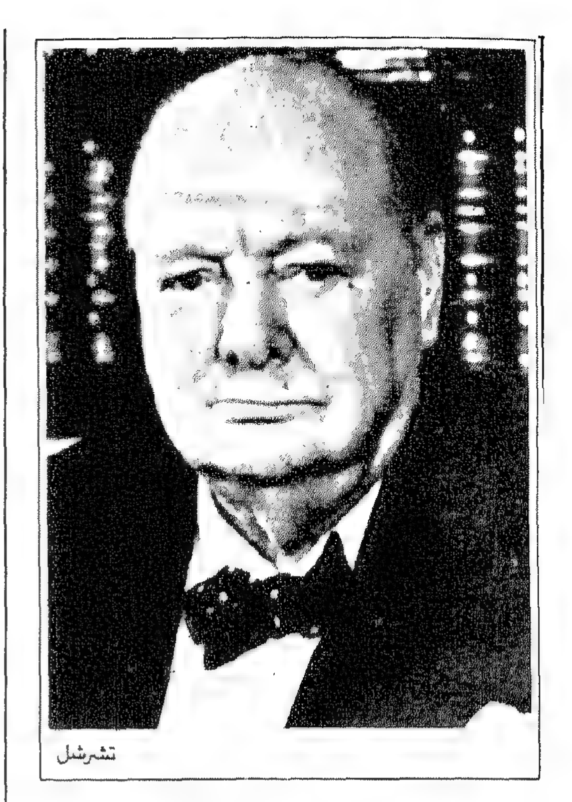
وهكذا ففي ٢٦ نيسان ١٩٤١ نقلت تسع فرق وأكثر من فصيلة – بواسطة الجو – إلى الجبهة الغربية .

... في ١٣ أيار تلقت ثلاثة جيوش الأمر الأعلى للتمركز بين أول حزيران و ٣ تموز ولوضع نفسها بتصرف القيادة العليا . .

... في ١٤ أيار بادر مفوض الدفاع إلى اتخاذ تدبير بترقية فئة من طلاب الكلية العسكرية – قبل الأوان القانوني – إلى رتبة طالب أركان وإلحاقهم حالا بالفرق العسكرية العاملة .

... في أواخر أيار دعي ٧٩٣٢٠٠٠ احتياطي للمباشرة بالتمارين الاعدادية .

... بين ١٢ و ١٥ حزيران تحركت فرق الحدود باتجاه الغرب .


تشرشل

.. في ١٥ حزيران طلب إلى مختلف القيادات العامة أن تكون على أهبة الاستعداد .

... ولكن حالة الطوارئ لم تعلن لدى الفئات العسكرية القائدة : ربما حذر دبلوماسي وجهل كامل لتوقيت الاعتداء المرتقب .

يقول الجنرال « أوجين بولستين » : « إن خطأ ارتكب نسبة لتاريخ إعلان الحرب .. وكان رئيس الدولة ستالين وأقرب معاونيه يعتقدون أنه لن يكون هناك أي هجوم الماني قبل صيف ١٩٤٢ » .

العلم الأحمر بعد الوفاة

وعندما ارسل سورج في أوائل وأخر أيلول .. ومطلع تشرين الأول إلى محطته اللاقطة في ناحية من أنحاء سيبيريا نداءاته المتضمنة تأكيده السياسي والعسكري بأن اليابان قررت احترام ميثاق عدم الاعتداء السوفياتي — الياباني الموقع عليه بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٤١ في موسكو وعدم الاعتداء على سيبيريا ، ولكنها سوف تدخل الحرب ضد الولايات المتحدة الاميركية .. لم يتردد ستالين في إرسال نجدة إلى موسكو وستالينغراد قوامها القوات المجمدة على جبهة الشرق الأقصى ... ولعل هناك احتمالات أخرى يمكن أن تفسر هذا التوضيح المفاجئ الذي صدر في الاتحاد السوفياتي في شأن الدور الذي لعبه ريشارد سورج وأعوانه .

في البدء يجب أن نسجل أن عهد ستالين رفض الاعتراف بأنه كان يستعين بأجهزة للجاسوسية ، وحتى بعد وفاته بعشر سنوات تقريباً لم يكن بين المسؤولين من يتجرأ على مخالفة هذا التدبير ..

ولكن بعد إصدار التقرير السري الذي قدمه « نيكيتا خروشوف » في ٢٥ شباط ١٩٥٦ إلى المؤتمر العشرين للحزب الحاكم في الاتحاد السوفياتي .. وما تبعه من تفاصيل مذهلة عن نشاطات « بيريا » وعملاء « الفيبيو » خلال عهد ستالين قرر قادة العشب السوفياتي أنه من الضروري إذاعة بعض أعمال عملاء السوفيات السريين ..

وانطلاقا من وجهة النظر هذه بودر إلى شرح خصائص « حياة الرفيق ريشارد سورج غير الطبيعية ووفاته وفاة بطل يستحق التكريم » .. وما تبع ذلك من مظاهر مضاعفة مكافأة الذي تعاونوا معه : وسام العلم الأحمر الذي منح في ١٩ كانون الثاني ١٩٦٥ إلى معاونه اللاسلكي « ماكس كلوسن » ودعوة امرأة معاونه اليوغسلافي « برنكو فوكيلتش » المتوفي مع ولدها إلى موسكو لتسليمها براءة الوسام من الدرجة الأولى للحرب الوطنية الذي منح إلى زوجها بعد الوفاة .

انتقام ريتسو ايتو

إضافة إلى ذلك يجب الملاحظة أن جهاز سورج لم يُكشف إلا أثر خيانة ريتسو ايتو غير المقصودة ، وقد القي القبض على هذا الاخير ، كما سجل في المحفوظات خاصة الشرطة اليابانية خلال شهر حزيران ١٩٤١ بتهمة القيام بنشاطات هدامة .

وقد اعترف بالتهمة الموجهة اليه ... ولكنه انتقاما من رفيقة شيوعية يابانية في جهاز سورج — أوزالي سبق لها واعترفت أنها تنكرت للمبادئ الشيوعية ... بادر إلى فضحها وتسليمها إلى رجال التحقيق .

ومن اعتقال إلى اعتقال ... ومن وشاية إلى وشاية تمكنت الشرطة اليابانية من اعتقال أفراد جهاز سورج ...

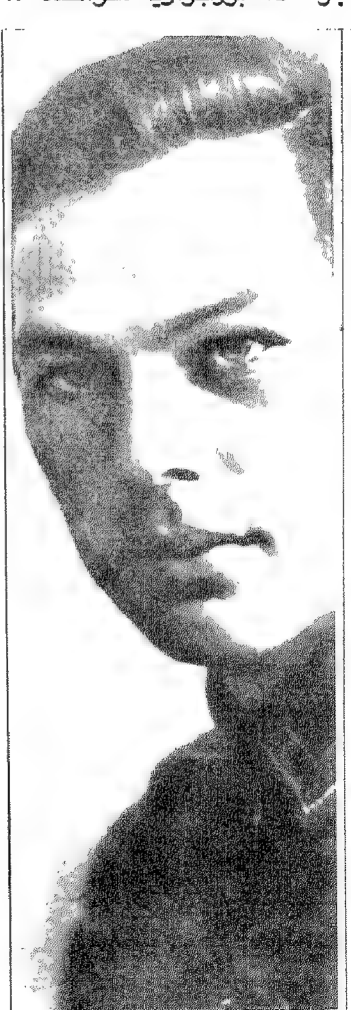
وفي أيلول ١٩٦٤ ارتأت « البرافدا » خلال

حملة التمجيد التي خصصتها لجهاز سورج بكامل أفراده أن تعلن رسميا أن العميل السوفياتي ورفاقه سلموا إلى الشرطة اليابانية بواسطة جاسوس زعم أنه شيوعي ... والتلميح موجه هنا طبعاً إلى «ريتسو ايتو» ...

... وكان السوفيات بهذه البادرة يودون لا شك .. تهديد ريتسو أو الطعن به أو السعي لاستمالته .

من هو ريشارد سورج ؟

ولد بتاريخ ٤ تشرين الأول ١٨٩٥ في قرية «ادجكنت» قرب باكو (جمهورية ادجكان) من أب الماني أدولف سورج وأم روسية . وكان قد تجاوز العاشرة من عمره عندما توطن أهله عام ١٩٠٦ في مدينة برلين . واستمرت نشأته في جو عائلة بورجوازية متواضعة ..



سورج الشاب في ثياب الجندية .

تدل التحقيقات التي أجراها أكثر من مؤرخ أن فريديريك أدولف سورج لم يكن جد ريشارد بل قريب والده ..

وكان ريشارد قد بلغ التاسعة عشرة من عمره عندما أعلنت الحرب في آب ١٩١٤ ... فتطوع بالجيش والتحق بالجبهة .. حيث جرح ثلاث مرات وصرف من الخدمة عام ١٩١٦ لاصابته في رجله . فتولدت عنده عقدة كراهية للحرب . وانضم عام ١٩١٨ إلى الحزب الاشتراكي المستقل ، في الوقت الذي كان يتابع فيه دروسه في الاقتصاد السياسي بمدينة «كييل» حتى أحرز الدكتوراه خلال شهر آب ١٩١٩ بتفوق ملموس .. ثم انضم في ١٥ تشرين الأول ١٩١٩ إلى الحزب الشيوعي الألماني (رقم بطاقته ٨٦٧٨) ويقال وفقاً لمعلومات جريدة «نيوز دوشلند» البرلينية أن ريشارد سورج تولى رئاسة تحرير الجريدة الشيوعية في «سولنجن» من تشرين الثاني ١٩٢٠ حتى نهاية ١٩٢١ .

... ويقال أيضا أن سورج عمل خلال هذه الفترة في «اسكندينافيا» و «انكلترا» لحساب أجهزة «الكومنترن» الخاصة .. والغريب أن الصحف الشيوعية الالمانية لم تذكر ذلك أبداً .. ربما لأنه كما قيل أيضا .. «أنه في حينه كان سورج على خلاف مع قيادة حزبه» . ولكن الصحيح المؤكد أن ريشارد سورج هاجر عام ١٩٢٥ إلى الاتحاد السوفياتي بالاتفاق مع الحزب وانضم إلى الحزب البولشفيكي (بطاقته رقم ٤٩٩٢٧ تاريخ آذار ١٩٢٥) ومن ثم حصل على الجنسية السوفياتية. في هذه الفترة ابتدأت حياته الجديدة :

... كانون الثاني ١٩٢٩ تسلمه الجنرال «بافيل برزين» رئيس المكتب الرابع في الجيش الأحمر وبعد أسابيع انتقل إلى «شانغاي» لمراسلة الصحف الالمانية ... حيث تعرف الى «أوزومي أوزاكي» المراسل الخاص لجريدة «طوكيو اساهي» الذي سيصبح بعد حين أقرب المقربين للأمير «فوميناروكونوي» رئيس وزراء اليابان عام ١٩٣٧ وكذلك المساعد الأكبر لسورج .

... ومن ثم انتقل إلى الصين ليعمل خلال ثلاث سنوات متوالية ، بأمر من موسكو ، مع المراسلة الأميركية «ايناس سمودلي» والأخصائي الألماني بتركيب الآلات اللاقطة



الامير فوميناروكونوي مصدر المعلومات دون علمه .

ومختلف انواع الراديو « ماكس كلوسن » .

... كانون الأول ١٩٣٢ — يعود سورج إلى موسكو .. ليتلقى أوامر رئيس المكتب الرابع للسفر حالا بمهمة إلى طوكيو .

... ربيع ١٩٣٣ .. سورج في المانيا بعد أسابيع من استلام هتلر الحكم ... ينضم إلى جريدتي « فرانكفورتر زيتونغ » أوسع الجرائد الالمانية انتشاراً وغيرها من الصحف النازية .. ويحصل على بطاقة صحافي محترف .. بعد تعاقده مع مجلة اقتصادية ومالية هولندية لتمثيلها في اليابان يغادر « سورج » المانيا إلى « يوكوهاما » في ٦ أيلول ١٩٣٣ ... عند وصوله إلى طوكيو بادر سورج إلى الاتصال بالصحافي اليوغوسلافي « برانكو فوكيليتش » مراسل المجلة الأسبوعية الفرنسية « فو » والجريدة اليومية اليوغوسلافية « بوليتيكا » .

... وكان « برانكو » قد وصل إلى طوكيو في ١١ شباط ١٩٣٣ برفقة زوجته « أديت أولسن » الدانماركية التي تزوجها في باريس عام ١٩٣٠ ... .

وعندما لم يعد لديه أي مبلغ من المال انتظر وصول رئيسه المباشر سورج الذي اتصل به خلال خريف ١٩٣٣ وبعد أن زوده بالمال اللازم قدمه إلى مختلف أوساط الصحافة الأجنبية ودوائر السفارات ..

ملحق صحافي

كانت وكالة « هافاس » تدفع تعويضات ضئيلة لمراسليها في البلدان البعيدة .. لذلك لم يكن يتقدم للعمل في فروعها إلا القليل جداً ... من الصحفيين ..

..كانت هذه البادرة مؤاتية لحظ « برانكو فوكيليتش » الذي تقدم بطلب انضمام إلى الوكالة الصحفية .. فقبل طلبه حالا : وقد تضمنت موارد عيشه في البدء إلى جانب تعويضه من الوكالة ، ما يتسلمه من مساعدات المكتب الرابع السوفياتي وما يعود إليه من مجلة « فو » الفرنسية لقاء ما يؤمن لها من صور فوتوغرافية مما ساعده على إنشاء مختبر للتصوير يستعين به عميده « سورج » في مجالات نشاطه .

وهكذا تمكن « سورج » أن يضم إلى جهازه جميع الأشخاص الذين وزعهم الجنرال « برزين » رئيس المكتب الرابع في الجيش الأحمر بمعظم أنحاء طوكيو .. فكان هنالك إلى جانب « فوكيليتش » اليوغوسلافي ، « يوكوتو » الياباني وغيرهما ..

.. وفي موسكو خلال رحلة قصيرة قام بها في تموز ١٩٣٥ ، مروراً بالولايات المتحدة ، اجتمع « سورج » بالرئيس الجديد للمكتب الرابع الجنرال « سيميون أورتسكي » الذي وافق على جميع التدابير الذي اتخذها وعرض عليه العميل الجديد « برنهارد » الاخصائي في عالم الراديو الذي سيصبح فيما بعد مساعده الأيمن . .

وهكذا أتم « سورج » مع معاونيه الأربعة انشاء أحدث جهاز تجسس قوامه ١٦ امرأة ورجل، جهاز يعمل بدقة ونظام وبسرية تامة دون أن يتعرف العميل على رفيقه الذي يعمل معه .. مهمته تنفيذ الأوامر فقط مهما كانت نتائجها خطيرة ... ويذكر أن « فوكيليتش » تلقى عام ١٩٣٩ أمراً مشدداً من موسكو بواسطة « سورج » يحتم عليه الانفصال عن زوجته فاضطر الزاميا إلى التقيد بهذا الأمر ...

بعد فترة أصبح « ريشارد سورج » من أكثر المترددين على سفارة الريخ النازية .. وبواسطة الملحق العسكري في السفارة الجنرال « أوجين أوت » الذي أصبح في ٢٨ نيسان ١٩٣٨ سفير المانيا في طوكيو ، سمي « سورج » ملحقاً صحافياً في هذه السفارة ..

.. بهذه الصفة أمسى بامكانه الاطلاع على

كل ما يخطط في برلين بينما كان عميله « أوزاكي » يزوده بمختلف المعلومات عن مشاريع زعماء اليابان العسكريين .. وينقل اليه عميله الآخر « فوكيليتش » ما يدور في سفارتي فرنسا وبريطانيا العظمى .



الجنرال اوت سفير المانيا في طوكيو .

ولكن رغم نشاطه الملحوظ والانتصارات التي احرزها لم تنظر موسكو إلى جهاز « سورج » باهتمام كبير ورغم التحفظ تجاه الأجنبي ورقابة الشرطة ويقظتها الدقيقة لم تنتبه السلطة اليابانية إلى نشاطات سورج ورفاقه وبالرغم أيضا من أن جميع اذاعات « كلوسن » اللاسلكية التي بلغت ١٣١ اذاعة خلال أعوام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ و ١٩٤١ قد ضبطت من قبل الأجهزة اليابانية لم تتمكن هذه الأجهزة من حل رموزها أو معرفة مكان المحطة المرسلة ..

الذكرى الـ ٢٧ للثورة الروسية ... يوم الاعدام ...

كيف تمكن « سورج » رغم نشاطاته الواضحة بصفته أقوى العناصر العاملة في الحزب الشيوعي الالماني خلال السنوات المتراوحة بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ من « إبعاد » عيون أجهزة « الغستابو » الساهرة عن مجالات عمله .. وأكثر من ذلك أن يصبح أقرب المقربين إلى الجنرال « أوجين أوت » وبواسطته يتم تعيينه ملحقا في السفارة ؟؟

يقول « ولتر شيلنبرغ » رئيس الاستخبارات النازية في الخارج أنه بناء على طلب « فون ريتجن » مدير وكالة الأنباء الالمانية ، تولى الدفاع عن « سورج » ضد حملات الحزب النازي شرط أن تتضمن تقارير معلومات قيمة ووثيقة عن الاتحاد السوفياتي ، عن الصين واليابان ..

وقد تقيد « ريشارد سورج » بالأوامر المعطاة له ، وذلك بشهادة مختلف الملحقين في طوكيو .. ونجح في إقناع أجهزة الاستخبارات النازية عن حسن نيته وجديته في العمل لمصلحتهم .

.. وفجأة القي القبض في طوكيو على « ريشارد سورج » .. لكنه لم يحاكم إلا خلال أيلول ١٩٤٣ ...

وحكم عليه بالاعدام ... ثم استأنف الحكم لدى المحكمة العليا التي رفضت استئنافه في كانون الثاني ١٩٤٤ ... وأخيراً تم اعدامه في ٧ تشرين الثاني ١٩٤٤ .. في الذكرى الـ ٢٧ للثورة الروسية ...

... وأعدم « أوزاكي » في اليوم ذاته ... أما « برانكو فوكيليتش » الذي حكم عليه بالسجن المؤبد فقد مات في زنزانته بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٤٥ .

... وضحك الحظ لرفيقهم « كلوسن » الذي حكم أيضا بالسجن المؤبد ... فتدخل الجيش الأميركي بأمره وتم العفو عنه وإخلاء سبيله في ٩ تشرين الأول ١٩٤٥ .. وسرعان ما التجأ إلى سيبيريا بمساعدة السفارة السوفياتية ...

ماك أرثور ووثائق محاكمة سورج

تمكن « سورج » خلال المدة الطويلة التي قضاها في السجن قبل إعدامه من كتابة مذكراته .. وبعد مدة وجدها الجنرال « ويللوكبي » من مساعدي الجنرال ماك أرثر ... فاستولى عليها ولخصها في تقرير رفعه إلى القيادة العليا ... وفي ١٠ شباط ١٩٤٩ سلمت هذه المذكرات إلى الصحفيين .

وهكذا انتهت حياة أغرب وأشهر جاسوس عرفته الحرب العالمية الثانية .!!

نافذة على

افغانستان

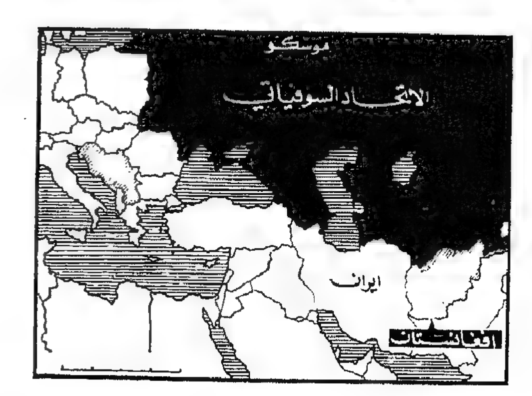


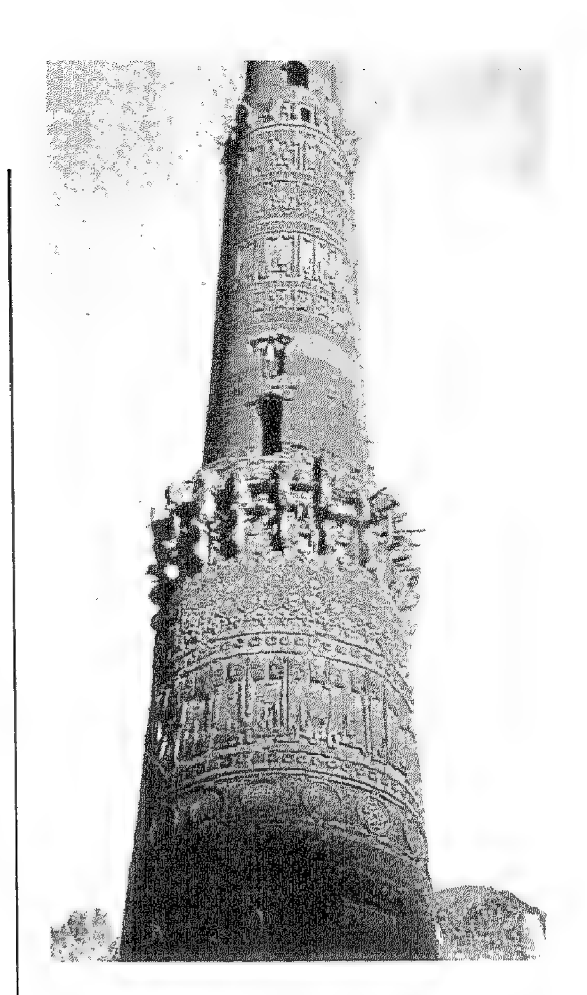
العاصمة - كابول - ٧٤٩,٠ نسمة - تقدير ١٩٧٦
عدد السكان - حوالي ٢٠ مليون نسمة - تقدير ١٩٧٧
اللغات الرسمية - الفارسية الدارية والباشتو
المساحة - ٦٥٠,٠٠٠ كلم٢.
طول الطرقات المعبدة - ١٧,٩٧٣ كلم.
عدد السيارات (خاصة وعمومية) - ٢٨,٨٠٠.
عدد التلفونات - ٢٥٠٠٠
عدد أجهزة الراديو - ١١٣٠٠٠.
عدد الطلاب الجامعيين - ١٠٩٥٦ طالباً.

ايمان نويهض

تقع افغانستان على مفترق يربط وسط اسيا بغربها وكان لموقعها الجغرافي دور كبير في تحديد تاريخ هذا البلد العريق في تأخره والذي لا يملك اي منفذ على البحر.

يقطن هذه البلاد الجبلية حوالي ٢٠ مليون نسمة بينهم ٧٠٪ مزارعون و٢٠٪ بدو و١٠٪ سكان مدن. وتتوزع هذه الملايين على عدد من القبائل اكبرها الباشتو (٥٠٪) وهم مسلمون سنة ويتكلمون لغة الباشتو (لغة رسمية) ويتكاثرون في الجنوب والغرب، يليها التاجيك وهم من أصل ايراني (مسلمون سنة) ويقطنون منطقة كابول ومحافظة حيرات ثم تأتي قبائل الحذاره وهم من اصل منغولي (مسلمون شيعة) واغلبهم يعمل في كابول، واخيراً هناك





القبائل التركمانية واغلبهم مسلمون سنة يقطنون الجهة الشمالية من البلاد .

تتميز افغانستان بطبيعة جبلية قاسية (معدل ارتفاعها عن سطح البحر = ١٢١٩م) . وتحيط بها دول عدة هي الاتحاد السوفياتي، الصين، الباكستان وايران . وتقطع سلسلة الجبال البلاد نصفين: شمالي غربي وجنوبي شرقي واكبر سلسلة هي الهندوكوش وهي تكامل مع جبال الهملايا . واهم انهارها نهر آموداريا (٢٤١٤ كلم) الذي ينبع من بامير ويفصل بينها وبين الاتحاد السوفياتي ليكمل طريقه داخل الأخيرة ليصب في بحر الآرال . وهناك نهر كابول (٥١٥ كلم) الذي يمر بالعاصمة .

كانت افغانستان المعروفة سابقا باسم « آريانا » ممراً ومقراً للفاتحين والغازين . وفيها آثار تعود الى ملايين السنين قبل الميلاد وقطنتها قبائل هندو – أريانية حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م . فارس حوالي القرن السادس ق.م . حتى اتى الاسكندر اليوناني سنة ٣٣٠ ق.م . واقام مدينة الاسكندرية قرب حيرات وبعده اصبحت البلاد سلجوقية وفي القرنين الاولين بعد الميلاد قامت مملكتان على جزء منها اعتنقت واحدة منها الديانة البوذية .

ظلت افغانستان عرضة لغزو القبائل التركية والايرانية حتى كانت سنة ٧٠٦ – ٧٠٩ عندما فتح العرب أريانا ودانت البلاد بالديانة الجديدة . وتقلبت عدة دويلات اسلامية في اجزاء من افغانستان من أهمها الدولة الطاهرية ثم الصافرية فالاسماعيلية فالغورية وعاشت افغانستان (غير الموحدة) في ظل هذه الدول فترات ذهبية حتى كان الهجوم المغولي بزعامة جنكيز خان سنة ١٢١٩ الذي دمر البلاد ثم حكم تيمورلنك البلاد حتى وفاته سنة ١٤٠٥ م فتوزعت البلاد بين اولاده حتى قام حفيده بابور الذي اعاد انشاء امبراطورية مغولية سنة ١٥٢٧ م .

ثارت قبائل افغانية في منتصف القرن السابع عشر وهاجمت فارس ثم هزمت مجددا ولكنها سنة ١٧٤٧ م نادت بأحمد خان سادوزاي شاهاً عليهافكانت افغانستان الموحدة لأول مرة في التاريخ .

بعد هذا اصبحت افغانستان محط انظار انكلترا وروسيا القيصرية فكانت حربان بريطانية – افغانية : الاولى ١٨٣٩ – ١٨٤٢ والثانية ١٨٧٨ – ١٨٨٠ انتهت بتثبيت عبد الرحمن خان ملكا على افغانستان برضى بريطاني ثم خلفه حبيب الله خان سنة ١٩٠١ فأمان الله خان سنة ١٩١٩ الذي اراد نقل المدنية الى بلاده فقامت ضده معركة دينية ابدلته بباشا السقا سنة ١٩٢٩ ونادر شاه غازي في السنة نفسها الذي اغتيل فيها ١٩٣٣ بسبب محاولاته التمدينية فخلفه ابنه محمد زاهر شاه الذي حكم مع اولاد عمه محمد داود ومحمد نعيم لفترة طويلة ادخلوا فيها بعض الاصلاحات في الستينات وقلصت صلاحيات الملك سنة ١٩٦٤ ثم اطيح بالملكية سنة ١٩٧٣ على يد محمد داود الذي جعلها جمهورية حتى سنة ١٩٧٨ عند مجيء نور محمد طرقي الذي اعلنها جمهورية شعبية ثم حفيظ الله بن فبابداك كارمال والتدخل السوفياتي سنة ١٩٨٠ . ■

المصادر:

— ECYCLOPEDIA BRITANICA - 1979

— ENCYCLOPEDIA AMERICANA - 1977

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد احمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ١٠٠٫٠٠٠ قاريء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

ـ مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .

ـ عدد من المراجعات لطائفة من اهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .

ـ ابواب ثابتة : تقارير ـ وثائق ـ يوميات ـ بيبليوجرافيا

ـ ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا امريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

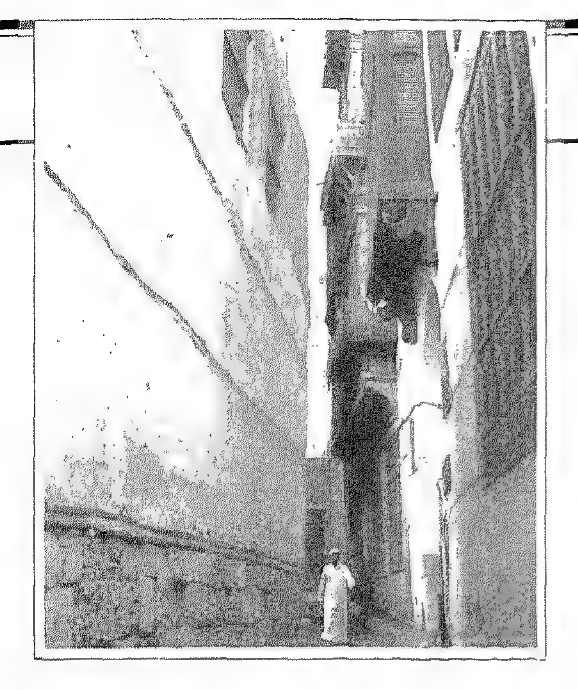
العنوان : جامعة الكويت ـ كلية الاداب والتربية ـ الشويخ ـ دولة الكويت

ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)

هاتف : ٨١٦٨٠٧ـ٨١٦٧٩٩ـ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

المسابقة



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الأعزاء :

ترغب مجلة « تاريخ العرب والعالم » أن تفتح باباً خاصاً للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع : « تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي » . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او القرية أو لأي مظهر عمراني أو أثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الأعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا الى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة « تاريخ العرب والعالم » بيروت ص . ب . ٥٩٠٥
« مسابقة القرى والأحياء في الوطن العربي » .

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة ، إذا نشرت او لم تنشر .

استجاب قراء كثيرون للمسابقة ، لكنهم للأسف لم يتقيدوا بالشروط المطلوبة كلها ، مما اضطرنا لحجب الجوائز عنهم ، وهذا لم يمنع من التنويه بالبعض ، تشجيعاً وحثاً على الاستمرار وإعطاء الجديد الناجح ، منهم الأخوة :

حسين علي حسين عنقا عن كامد اللوز .
عماد محمد خشان – بعلبك .
حُسن صالحة غرز الدين عن رأس المتن .
شهاب مهنا عن بعقلين .
وسيم قلعجية عن الجيزة .
وهذه فقرات من رسائلهم :

كامد اللوز قرية بقاعية جاثمة عند سفح سلسلة متواصلة من الجبال تمتد حتى سهول عكا في فلسطين .

سموها منذ القدم بالساحل البقاعي ، لما يميز مناخها من اعتدال في فصل الشتاء إذا ما قيس بالنسبة للقرى المجاورة لها .

سكانها يزيد عددهم عن عشرة آلاف نسمة معظمهم مهاجر إلى بلاد أميركا اللاتينية حيث أسسوا هناك النوادي والجمعيات اللبنانية وأعطوا للعالم النموذج الحقيقي للبناني المعاصر .

كامد اللوز عمرها خمسة آلاف سنة واسمها يرجع إلى مؤسسها الملك « كامدوس » الذي حكمها منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وهي قرية أثرية غنية بآثارها القديمة حيث آثارها الجبلية الممثلة بالكهوف والنقوش العديدة وبعض الكتابات السريانية تعود إلى العهد الحجري أي منذ الحياة البدائية للانسان أما آثارها المطمورة التي يجري التنقيب عنها فهي تعود إلى العهد الفينيقي ، وهي من حيث الموقع تمثل المحطة الرئيسية الاستراتيجية للقوافل التجارية العابرة من الشرق إلى الهند خلال ذلك العهد .

وعن آثار كامد اللوز توصلت البعثة الالمانية للتنقيب إلى اكتشافات أثرية هامة ، أبرزها قصر ملكي ومقبرة من ٩٨ معبداً وأشياء أخرى من تماثيل وكتابات وحلي وكنوز من الذهب والفضة وأدوات برونزية وعاجية وخشبية وأوعية من الزجاج الثمين وأدوات حربية وبعض الأدوات الأخرى التي تعود إلى عدة قرون قبل المسيح منها القرن البرونزي المتوسط كالقصر والمقبرة .

وأضافت البعثة : « إن الأشياء المكتشفة ذات قيمة علمية وتاريخية ومادية كبيرة تصلح لأن تشكل متحفاً هاماً » .

وتجدر الاشارة أن البروفسور حاخمان قد وضع تقريراً مفصلا باللغة الالمانية عن آثار كامد اللوز وهو يدرس حالياً في جامعة الآثار الالمانية سابروك تحت اسم :

ROLF .HACHMAN .1968-1980
KAMED/ºL/LOY
SAARBRCKER .BEITRAGE .
ZUR . ALTERTUMSKUN BAND22

مدينة بعلبك من أقدم المدن اللبنانية . فهي معروفة منذ أيام الفينيقيين واسمها خير دليل على ذلك (بعل بك) وكلمة بعل معناها الرب ، فقد كان لكل مدينة فينيقية بعل وكانوا يطلقون على أسماء الالهة كلمة بعل واسم المكان الذي تجري عبادته فيه فكان هنالك بعل الجبل وبعل بيروت وبعلة جبيل وبعل بك ، وقد أنشأت مدينة بعلبك كمحطة تجارية ، ولحماية الطريق التجاري الطويل الذي يمر عبر الصحراء ويربط بابل بصور وصيدون والخليج العربي بالبحر المتوسط .

ومن ثم احتك الرومان بالفينيقيين فتطورت نظرتهم الدينية وأصبح لهم آلهة أشهرها جوبيتر أبو الالهة وهيكله ما يزال موجوداً في بعلبك ، وبنى الرومان قلعة بعلبك التي كلفهم بناؤها عشرات السنين وألوف العمال . وقد كان يومياً – أثناء عملية البناء – يموت عشرات العمال بعد أن يسقطوا عن الأعمدة الشاهقة والتي لا يزال منها حتى الآن أعمدة تعتبر رمز مدينة

الشمس كما سماها الرومان بعد أن بنوا فيها معبداً لاله الشمس .

وكانت بعلبك معروفة وشهيرة في العصر الجاهلي وقد ذكرها الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته :

وكأس قد شربت ببعلبك
وأخرى في دمشق وقاصرينا

وفي عصر الفتوحات الاسلامية فتحها أبو عبيدة بن الجراح عام ٦٣٥م . وأصبحت مدينة اسلامية ، وفي أيام الأمويين كانت بعلبك مدينة مزدهرة وقد بنى فيها الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان مسجداً قرب قلعة بعلبك لا تزال أثاره واضحة للعيان .

وفي عهد الدولة العباسية استمرت في المحافظة على مكانتها واشتهرت في تلك الفترة بصناعة النسيج . وفي هذه الفترة أيضا ظهر في بعلبك شخصان شهيران هما الامام الأوزاعي ولد في بعلبك وانتقل إلى بيروت وهو صاحب مذهب اسلامي شهير . انتشر مذهبه في شمال أفريقيا لمدة قرنين . وقد عاصر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور وتوفي عام ٧٧٤م وله مقام في بيروت . أما الشخص الآخر فهو « قسطا بن لوقا البعلبكي » وكان يجيد العربية واليونانية . وكان من أشهر المترجمين في بلاط الخليفة هارون الرشيد ومن ثم ابنه المأمون .

وفي أيام العثمانيين كان يسيطر على بعلبك آل حرفوش . واشتهرت بعلبك خلال حكم العثمانيين بزراعة القمح الذي كانت تستغله الدولة العثمانية من أجل سد حاجات الجيش العثماني .

ومدينة بعلبك الآن قبلة السواح الذين يأتون من جميع أنحاء العالم كل عام ليشاهدوا آثارها العظيمة الخالدة .

* * *

عماد محمد خشان

قرية جميلة من لبنان الجميل رأس المتن ...

بنيت منازلها وقصورها على متن جبل رسى كالطود في بطن واد فسيح ممتداً على مسافة تزيد على خمسة عشر كيلومتراً ... ارتفع صعداً على علو الف متر ونيف فجعل من هذا الوادي واديين .

يبدو من معالمها الأثرية بأنها كانت ذات شأن عمراني عظيم إذ فيها بقايا قصور وحصون تعود إلى العهود الفينيقية وفيها مكان يقال له قصر الوادي وجد فيه وعاء خزفي مليء بالعملة الذهبية تعود إلى العهد البيزنطي ...

حُسن صالحة غرز الدين



من الأرجح أن أصل اسم « بعقلين » من السريانية (Betaqulin) أي المكان ذو المنعطفات والأزقة واللفتات أو المكان المستدير وربما كان معنى الاسم : منابت الشوك (عاقول) . ويذهب البعض إلى القول أن الأمراء المعنيين اتخذوها مقراً لهم في عهد الصليبيين سنة ١١٢٠ لأن فيها رابيتين مشرفتين على البحر وكانتا مرقبين « أي عقلين » لرصد سفن الغزاة .

اشتهرت بعقلين في التاريخ بأنها المقر الأول للأمير فخر الدين المعني الكبير مسقط رأسه ، وما تزال في البلدة إلى اليوم بئر تعرف ببئر فخر الدين . كما كانت بعقلين مركزا لقائمقامية « الشوف » و « عاليه » والغرب . ومن المعروف انه كان يتعاقب على هذه القائمقامية رجلان مشهوران في تاريخ لبنان هما الأمير « مصطفى أرسلان » و « نسيب بك جنبلاط » حتى أن الأمير « شكيب ارسلان » الشهير شغل منصب القائمقامية لفترة من الزمن ، والأمير « مصطفى ارسلان » هو الذي بنى سراي بعقلين المعروفة من أموال أهالي بعقلين والمنطقة . وقام « نسيب بك جنبلاط » بجر المياه المعروفة « بمياه السمقانية » إلى بعقلين ووزعها على البلدة في عيون ماء تنتشر في أحيائها . ويبدأ تاريخ بعقلين بمجيء الأمير معن على رأس قبيلته : وهي عربية الأصل من ربيعة انتقلت أصلا من نجد في شبه جزيرة العرب كما يرجع المؤرخون وكان هدفهم الأساسي شن الغارات على الافرنج في الثغور البحرية . ولا يعني هذا أن بعقلين لم تكن معروفة قبل قدوم المعنيين إليها ولكنها لم تشتهر في التاريخ إلا بعد نزولهم فيها . ولما

توفي الأمير معن خلفه ابنه يونس الذي استقدم اليه الأمراء الشهابيين من « وادي التيم » وصاهرهم . وفي سنة ١٦١٢ نقل الأمير يونس دار الولاية من بعقلين إلى دير القمر .

ومن الآثار القديمة في البلدة : عين الماء التي تحمل صورتها ورقة النقد اللبناني فئة « خمسة وعشرين ليرة » والقصر القديم المعروف بقصر آل جماد يعود تاريخه إلى ما يقارب الأربعمئة سنة . وتوجد أيضاً بعض الأحواض والبرك والآبار القديمة ومحلة تدعى ببيادر العشائر كان يجتمع فيها الأمراء المعنيون مع عشائر البلاد لعقد مجلس الشورى . وتقوم في البلدة السراي وبعض المباني القديمة بالاضافة إلى كنيسة أثرية .

شهاب مهنا

الجيزه

شهرة الجيزة في القاهرة طبقت الآفاق واي زائر يأتي إلى القاهرة لا يعتبر نفسه قد زارها حقاً إذا لم يقم بجولة طويلة في مدينة الجيزة ، وإذا كان « الدقي » من الأحياء الشهيرة جداً فيها فان هناك أماكن أخرى قد لا تحظى بشهرة هذا الحي ولكنها ذات تاريخ طويل وأهم هذه الأحياء :

« بولاق الدكرور » :

بلدة آهلة بالسكان كانت تعرف بمبنية بولاق وكلمة بولاق هي بالأصل كلمة مصرية قديمة اسمها « بيلاق » ومعناها الموردة أو المرساة وقبل انشاء مدينة الجيزة ، كانت هذه البلدة هي المرسى الوحيد في هذه المنطقة ، حتى أنشأ الملك الناصر قلاوون سنة ٧١٣هـ مدينة جديدة على النيل تجاه القاهرة أسماها بولاق أيضاً . أما مبنية بولاق فقد ظلت تحمل اسمها الى أن نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري في عهد العزيز بالله الفاطمي ، وكان الناس يعتقدون فيه الخير والاصلاح ، فلما مات بني له قبة وعمل بجانبها جامع فاشتهرت البلدة باسم بولاق التكروري .

ويقول المقريزي أنه سنة ٧٩٠هـ نقل الجامع والضريح إلي داخل البلدة بعد أن طغى ماء النيل على قسم من الأراضي المجاورة للبلدة . وسنة ١٨٦٨م هدمت البلدة وعوض أهلها ، فانتقلوا إلى مكانها الحالي بجوار محطة بولاق الدكرور ، ويتضح لنا أن قرية بولاق الدكرور هذه ليست في مكانها الأصلي القديم والضريح والجامع قد اندثرا وإن لوح الرخام الذي كان مركباً على بابه قد نقل إلي باب ضريح الشيخ يوسف التكروري الموجود الآن مع أضرحة أخرى قرب مبنى وزارة الزراعة المصرية .

وسيم قلعجية



تقع ابامية – او افامية – لدى معظم الجغرافيين العرب ، وفامية عند البعض الآخر – على بعد ٥١ كيلومترا الى الشمال الغربي من مدينة حماه (ابيفانية) ويمر بالقرب منها والى الغرب نهر العاصي على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات وتعرف خرائبها التي دمرت بفعل الزلازل والغزوات باسم قلعة المضيق .

ويذكر بعض المؤرخين ان الموقع كانت تشغله من قبل بلدة او قرية محلية قديمة تدعى فارناك (varnak) وان الاسكندر الاكبر او انتيجونوس أقام على موقع البلدة العتيقة مستعمرة عسكرية لقدامى المحاربين Pella على اسم العاصمة المقدونية ، وفي وقت غير معروف أنشأ سلوقس مدينة هناك دعاها ايامية تخليداً لزوجته أياما . وقد عرفت هذه المدينة في العصر الهليني بأنها كانت حصناً منيعاً وترسانة للجيش السلوقي . ويذكر استرابون انه كان لسلوقس فيها ثلاثمائة جواد كريم وثلاثون الف فرس وخمسمائة فيل هندي . ويبدو ان السبب الرئيسي لجعل هذه المدينة مركزاً لاقامة هذه الحيوانات هو وجود كثير من السهول والمراعي بالقرب من المدينة مما كان ييسر اطعام ذلك الحشد الكبير من الحيوانات . واهم المكتشفات في هذه المنطقة تعود الى العصر الروماني ، وأهم هذه المخلفات هي مسرح حجري روماني يعتقد بأنه قد بني على مسرح اغريقي اصغر منه . وبعض الساحات العامة والشوارع ذات الأروقة الرومانية الطراز ، ولكن أهم الكشوف المثيرة حقاً هناك تلك الدقة المتناهية التي اتسمت بها شبكة توزيع المياه في المدينة .

وليد ابراهيم الأسود

بريد القراء

● عدنان شاكر السامرائي – بغداد – العراق

إن مجلتكم هي المجلة الوحيدة التي تبحث في التاريخ العربي والعالمي . إنني بالفعل معجب بهذه المجلة الفريدة من نوعها في العالم العربي .

■ شكراً للأخ عدنان نتمنى دائما أن نكون عند حسن ظن القراء بمجلتنا جميعا .

● حيدر مجيد ياسين – بغداد – العراق .

يسعدني ويشرفني أن أراسلكم باستمرار كصديق دائم لهذه المجلة الرائعة .

■ نشكر للأخ حيدر عواطفه الطيبة ونؤكد له سعادتنا البالغة بصداقته التي نعتز بها .

● صباح عبد الرحمن – جلولاء – العراق

■ استلمنا رسالتك ونحن نشكرك على اهتمامك بالمجلة ونقدر الملاحظات التي نوهت بها . وأحلنا الرسالة إلى الدكتور كاتب المقال للرد عليها ، إننا نؤمن كما تؤمن ، بأن النقد الذاتي كفيل بدفع المجلة إلى الأمام .

مرة أخرى شكراً لملاحظاتك القيمة .

● عماد محمد خشان – بعلبك – لبنان

■ استلمنا رسالتكم ، ونأمل في المستقبل أن تطبع (بضم التاء) على الآلة الكاتبة لنستطيع نشرها .

● [illegible] – طرابلس – لبنان

■ نرجو مراجعة جوابنا للأخ عماد محمد خشان .

● [illegible] – سورية

■ نشكر لكم تقديركم للجهود المتواضعة التي نقدمها للقراء العرب في مجال الثقافة التاريخية كما نقدر تقديرا كبيرا مبادرتكم في إرسال مقال خاص بنا ، ونأمل منكم إرسال عنوانكم الكامل مرة أخرى لادارة المجلة لنستطيع الاتصال بكم مباشرة لبحث بعض النقاط الواردة في دراستكم . لكم شكرنا مرة أخرى ونحن بانتظار ردكم .

● حسين علي حسين عنقا – البقاع الغربي – كامد اللوز – لبنان

■ شكرا لمساهمتكم ونأمل منكم طبع الرسالة في المستقبل على الآلة الكاتبة لنستطيع الاستفادة منها بشكل كامل .

● السيدة [illegible] عز الدين – بيروت

■ قسم التوزيع في المجلة يدعوك للاتصال به لتأمين طلبك كما نرجو منك الاتصال بادارة التحرير بخصوص موضوع « رأس المتن » .

● بسام منيمنة – بيروت – لبنان

■ أشكر لك عواطفك الطيبة نحو المجلة والعاملين فيها ، وأقدر في الوقت نفسه صراحتك ولكنني أود أن أؤكد ، مرة أخرى ، بأن مجلة « تاريخ العرب والعالم » مجلة عربية مستقلة لا تنتمي لأية دولة أو حكومة . قد يبدو هذا الكلام غير واقعي من الناحية العملية ، ولكن متى كانت الأحلام واقعية ؟

ولا بد من الاعتراف يا أخ بسام بأن ملاحظتك هي في محلها ... بمعنى أنه من الصعوبة بمكان أن تصدر مجلة ، من هذا النوع الجدي والرصين ، بدون دعم مادي مسبق وأن تستمر في الصدور على الرغم من الصعاب المادية ...

ولكني أؤكد لك بأن هذه المجلة ستستمر في الصدور والتقدم ما دام هناك مواطنون مثلك يؤمنون بأنهم يستطيعون أن يكتبوا تاريخ الغد . وشكراً مرة أخرى على ثقتك بالمجلة وعلى الدعم الذي قدمته .

رأي حر



د. رضوان السيد

ربما لم يكن دقيقاً من الناحية العلمية الذهاب إلى أن التشرذم الاجتماعي في المشرق العربي هو نتاج محض لعصر الامبريالية الغربية في ديارنا. فقد لاحظ ابن تيمية (– ٧٢٨هـ) من قبل أمراً كهذا في بلاد الشام، واقترح له حلولا تعتمد العنف وسيلة وحيدة. وقد يكون هنا مفيداً أن نلاحظ أن التشرذم الاجتماعي الطائفي في القرنين السادس والسابع الهجريين جاء بعد اقتحام جحافل الصليبيين والمغول للعالم الاسلامي في سواحله ومشرقه، فكان من نتائج ذلك على المستوى الاجتماعي لجوء بعض العصبيات في الداخل الاسلامي إلى الاستعانة بالواردين أو استغلال الانشغال بهم لتحقيق مطامح داخلية لم يكن التوازن العصبوي داخل الجماعة الاسلامية يسمح بتحقيقها في الأحوال العادية. وهكذا فان هذا التشرذم الظاهر آنذاك كان تعبيراً عن طموح بعض العُصَب إلى تحقيق مكاسب داخلية جزئية عن طريق الضغط على العصبة الرئيسية في الجماعة في وقت كانت فيه هذه العصبة على استعداد للقيام بتنازلات للعصب الصغرى حفاظاً على وحدة الداخل في وجه الخارج الغازي. وإذا كانت هذه الظاهرة في هذه الحدود ليست جديدة، فان الجديد فيها، منذ القرن التاسع عشر الميلادي أنها لم تعد ضغطاً لتعديل الميزان الاجتماعي الداخلي فقط، بل صارت تعبيراً عن مشروع بديل ومضاد للتوازن القائم للعصبيات. إن الحضور الغربي المستمر على أرضنا منذ أكثر من قرن ونصف حوّل الشرذمة العصبية العارضة إلى واقع قائم ومتجذر وتقسيمي على المستويات كافة. وإذ كان المشروع الغربي التقسيمي (مشروع الشراذم) قد حقق بعض أغراضه، فانه لم يستطع تحقيق البعض الآخر بسبب المقاومة للجماعة، ونزوعها الدائب إلى استعادة ما فقدته إبان الهجمة الغربية الأولى. لذا فان النهضة الأخيرة للأمة في ممانعتها شهدت في تساوق ملحوظ معها جهداً نظريا متصاعداً لضرب وعي الجماعة بتاريخها وصورتها عنه، ووعيها بذاتها ومصالحها حاضراً ومستقبلا.

فظهرت موضوعة « الأكثرية » و « الأقليات »، وموضوعة الأكثرية الساكنة التقليدية، والأقليات المتحركة المتقدمة التائقة للتغيير والمستقبل.

وجرى التأكيد على أن « الصورة » الحاضرة لتخلف الأكثرية ورجعيتها تنسحب على الماضي البعيد لهذه الأكثرية، فقد كان اهل الجماعة دائما من أعوان السلطة والتقليد والسكون في حين توثبت الأقليات الأثنية والدينية وعارضت وأبدعت وصنعت الحضارة العربية الحقيقية.

وبما أن الأكثرية هذه قد تخلفت في الماضي، وتخلفت وسكنت في الحاضر، فان على الآخرين الذين يريدون التقدم والتحديث والعصرنة أن يرغموها على التخلي عن عناصر محافظتها وتعاليها وتجاهلها المتمثلة في تاريخها ودينها ومصالحها في حاضرها ومستقبلها، أو يسحقوها بالتعاون مع الخارج خوفاً على تقدمهم « وحريتهم وكرامتهم » من كثرتها العددية الساحقة، وإصرارها الثابت على التشبث بأرضها، ووحدة أفقها التاريخي، والعداء للغريب الطارئ.

فلمن تكون الغلبة في العقود الأخيرة من هذا القرن ؟

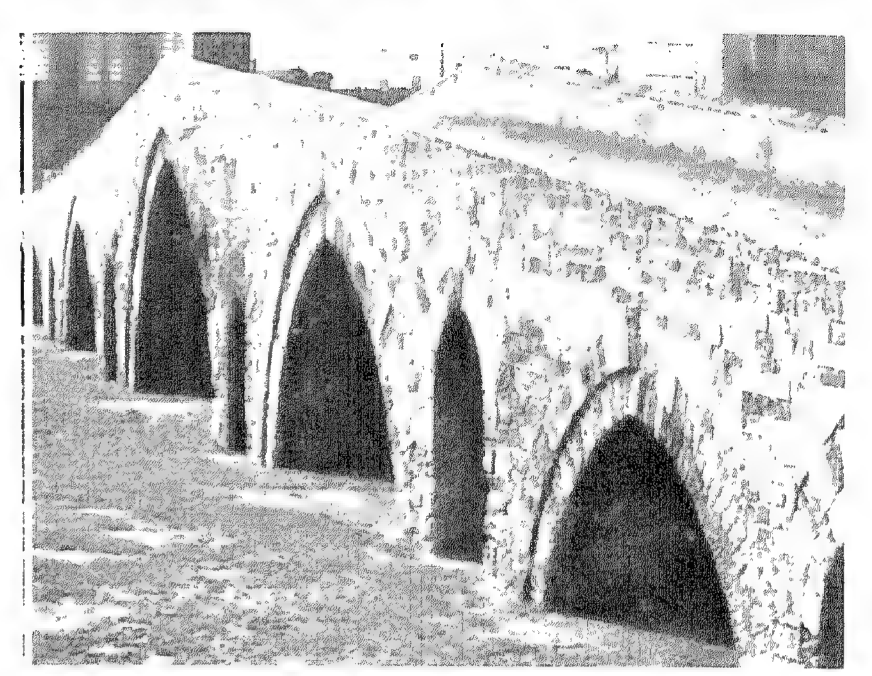
أينتصر المشروع التقسيمي الطائفي على المستويات الاجتماعية والسياسية والفكرية ؟

أم ينتصر مشروع الجماعة التاريخي : مشروع الوحدة والاستقلال ؟

لا شك أن حركية الجماعة في العقود القادمة هي التي ستقول الكلمة النهائية في كل هذه الأمور : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ». ■

في العدد المقبل

مِن آثار
صقليّة
الإسلاميّة





لبْنان :
آثار صور

ملف الوطن العربي



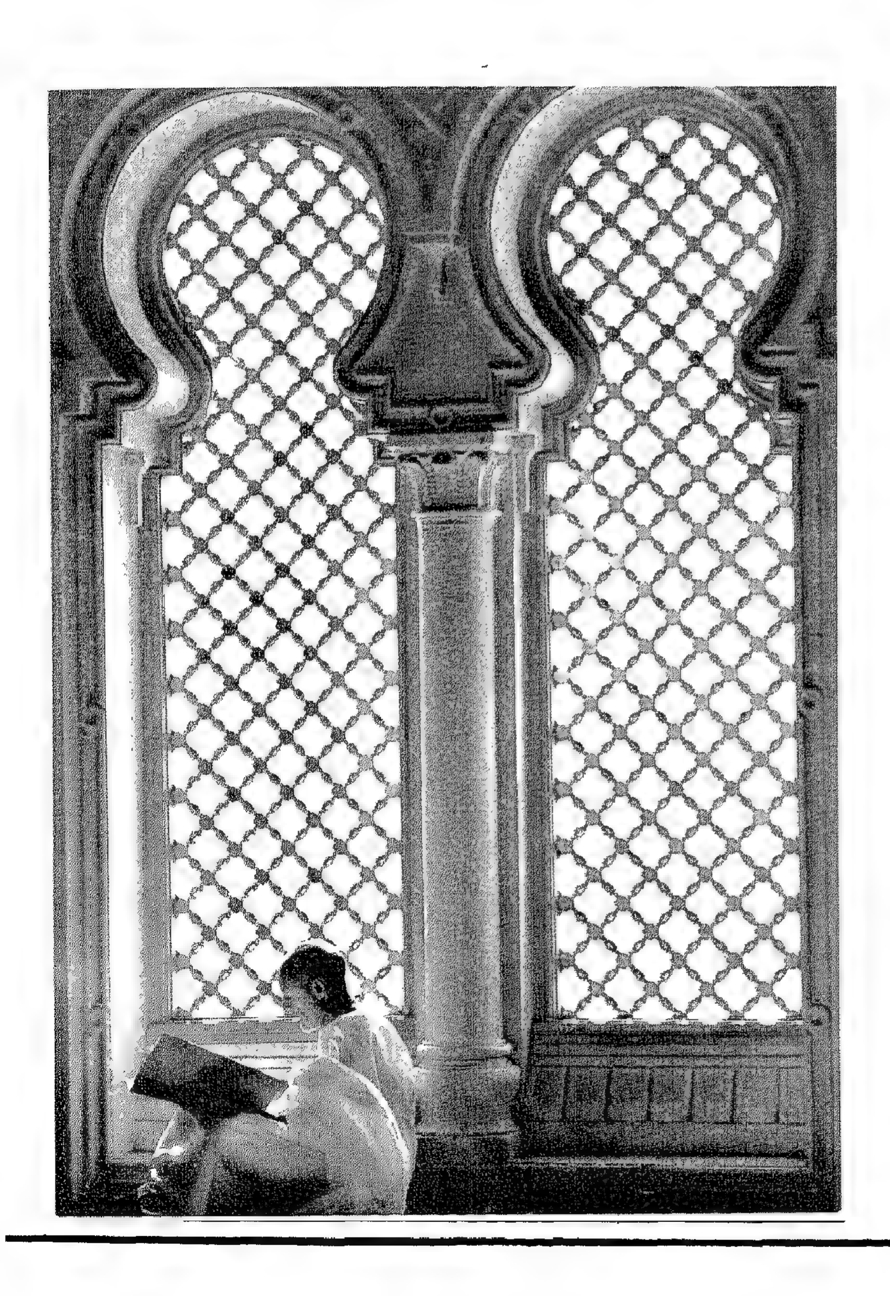


تاريخ العرب
السنة الثانية - العدد الواحد والعشرون - تموز (يوليو) ١٩٨٠ الموافق شعبان ١٤٠٠ هـ.

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل

تراثيات

مكة المكرمة





السنة الثانية - العدد الواحد والعشرون - تموز (يوليو) ١٩٨٠ الموافق شعبان ١٤٠٠هـ .

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دُبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

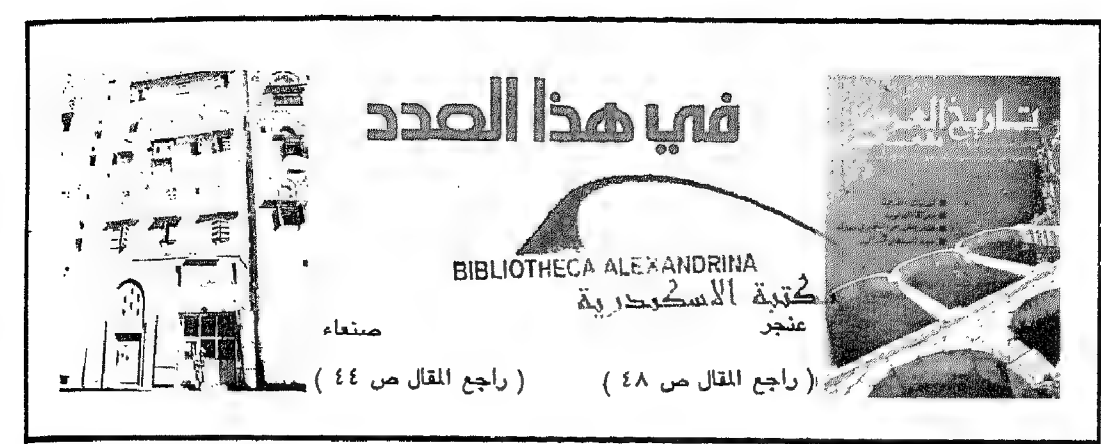
في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت . لبنان ● بناية أبو هليل - شقة ١١ ● شارع الساداة - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 2, NO. 21, JULY 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"



(راجع المقال ص ٤٨)
(راجع المقال ص ٤٤)

الموضوع — الصفحة

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة . ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب . مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب . تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط .

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس .

التحرير على عنوان المجلة : ص . ب ٥٩٠٥ في بيروت .

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة .

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر .



الإستراتيجية الصهيونية

كمال الدين رفعت

في تموز/ يوليو/ من كل سنة نستعيد ذكرى ثورة جمال عبد الناصر، والمواضيع التي تحدثها او اثارتها، وفي طليعتها قضية فلسطين التي وقف لها عبد الناصر، كأهم قضية عربية، جل جهاده، وقد رافقه في هذه المواقف وزامله في المعارك الكبرى. كثير من الابطال القياديين ومنهم كمال الدين رفعت، وفي هذه الدراسة يحلل رفعت، تلك القضية العربية الكبرى في كل ابعادها، بعد هزيمة حزيران/ يونيو/ ١٩٦٧، مستعرضا حيثيات تاريخية ونقاطاً جدية بالبحث والنظر، يهم كل عربي وكل قارئ ان يطلع عليها.

○ كمال الدين رفعت ١٩٢١-١٩٧٧، عسكري وسياسي مصري بارز، خريج الاكاديمية الحربية بمصر، احد الضباط الاحرار شارك مشاركة فعالة في ثورة ١٩٥٢، نائب وزير دولة ١٩٥٨، وزير العمل ١٩٦١ و ١٩٦٧. نائب رئيس الوزراء وعضو الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي ١٩٦٤، سفير مصر بلندن ٧١-٧٤. كان بعد وفاة الرئيس عبد الناصر، من ابرز قادة الاتجاه العربي الاشتراكي بمصر. واسس في آخر ايامه دارا لنشر الفكر الناصري ○



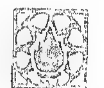
إن هزيمة يونيو ١٩٦٧ العسكرية كانت من اعنف الضربات التي وجهت الى امتنا العربية في تاريخها المعاصر. ولم يكن انتصار اسرائيل في هذه المعركة مفاجأة للعرب واصدقائهم بل كان مفاجأة لاسرائيل نفسها التي لم تكن لتتوقع ان تحصل على هذا النصر العسكري السريع في معركة غادرة خاطفة دامت ستة ايام وعرفت فيما بعد بحرب الايام الستة.

ولقد جاءت هذه الهزيمة في لحظة بالغة الحرج وفي وقت كانت الامة العربية والجمهورية العربية المتحدة بالذات. قد بدأت تخطو خطوات فعالة في إرساء دعائم حياة جديدة على الارض العربية. الامر الذي هو اعماق الوطن العربي ودفع به في مسار المراجعة الذاتية ليقوم بدراسة شاملة لعناصر القوة والضعف. ولما يواجهه من مشاكل على المستوى المحلي والدولي. ومن هو العدو الذي نواجهه والمطلوب تسويـة حسابنا معه تسوية نهائية حاسمة.

ولدراسة العدو اهميتها البالغة بالنسبة لمعركة المصير التي نخوضها في مواجهته ومواجهة القوى الامبريالية التي تسانده وتدعمه. وانه لمن المسلم به ان هذه الدراسة اذا ما القت الضوء الكاشف على وسائل العدو وعناصر قوته وضعفه، كانت من اهم العوامل المحققة للنصر. وقديما قيل ان فهم العدو نصف المعركة.

(كمال الدين رفعت)

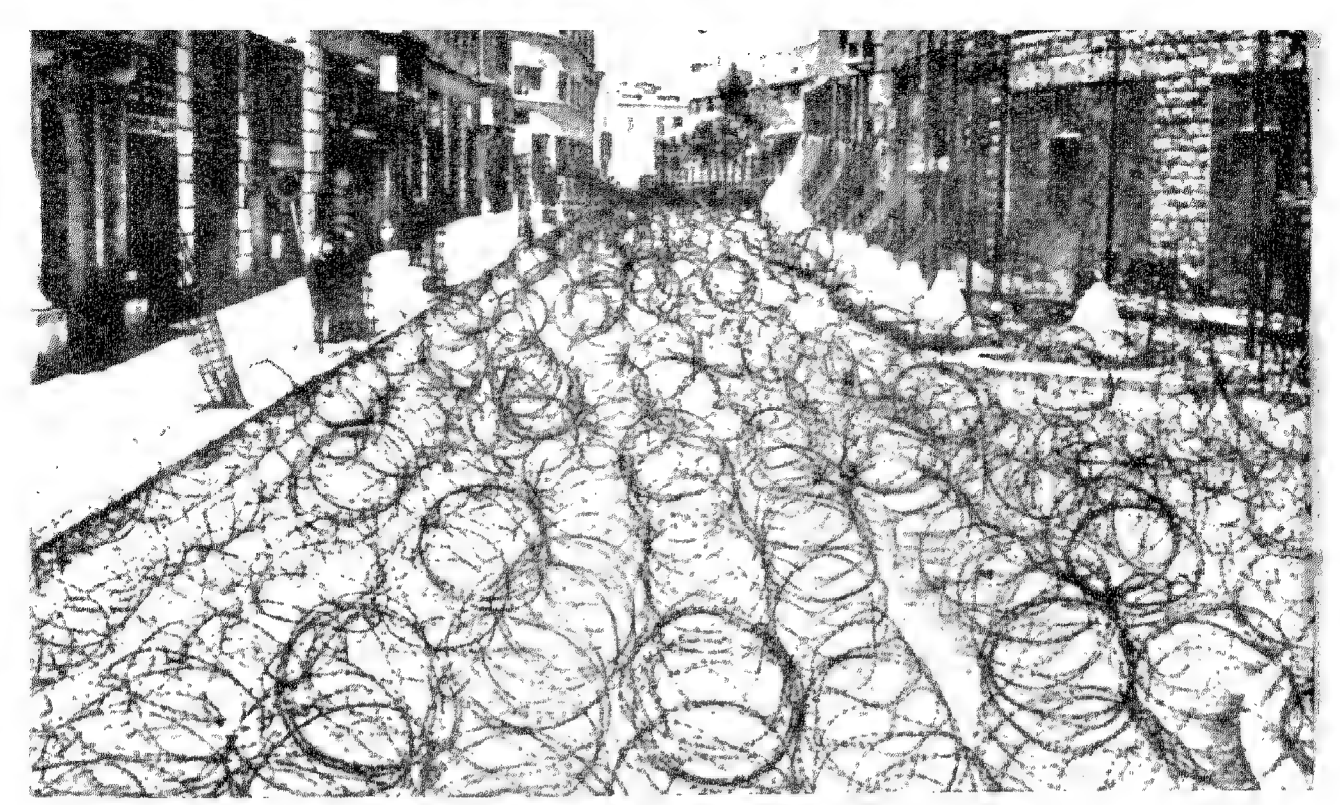
الاستراتيجية الصهيونية



ان البحث عن جذور الفكر الصهيوني والاطار الفكري والتخطيطي للاعمال العدوانية الاسرائيلية يردنا الى اصول هذه الفكرة وركائزها ومفاهيمها واهدافها. وهنا لا بد من التفريق بين مرحلتين: مرحلة ما قبل سنة ١٨٩٧ حيث كانت الصهيونية في طور التكوين الفكري ومرحلة ما بعد سنة ١٨٩٧ عندما اتخذت الحركـة الصهيونيـة شكلها التنظيمي، واصبح للفكرة اداة تعمل بشكل دائب لتحقيق غايات هذه الحركة كما رسمها المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في مدينة «بال» السويسرية في ذلك العام. والذي انبثقت عنه «المنظمة الصهيونية العالمية». كما صدر عنه برنامج عمل يعتبر التخطيط الاستراتيجي للحركة الصهيونية فحدد اهدافها الثابتـة وخطوطها الاستراتيجية والتكتيكية وادواتها ووسائل تحقيقها البشرية والمادية.

ومن الامور التي توضح دقة هـذا التخطيط ان «هـرتزل» مـؤسس الحركـة الصهيونية حدد خمسين عاما لقيام «دولة اليهود» وقد تحقق هذا بالفعل في الفترة ما بين انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ وقيام اسرائيل حسب قرار التقسيم عام ١٩٤٧.

وهذا يتطلب منا دراسة النهج الذي سارت به استراتيجية الحركة الصهيـونية والاساليب التي اتبعتها. لانه من الواضح ان التغيير الذي اصاب الحركة وسياستها في اعقاب تطورات عام ١٩٤٨ الحاسمة لم يستتبع تبدلا جوهريا في النهج الصهيوني ولم يأت بأي



شوارع القدس سنة ١٩٤٧ .. إلى متى ؟

تجديد في طريقة العمل. فقد نتج عن تطورات عام ١٩٤٨ انقلابان جذريان في الصهيونية دون ان يكون هناك تغيير موازٍ في نهجها.

اما الانقلاب الاول: فهو تحول الحركة الصهيونية العالمية الى دولة قائمة تتبعها وتدين لها بالولاء جماهير من رعايا دول اخرى.

اما الانقلاب الثاني: فقد تناول جوهر وظيفتها وسياستها، فقد كانت الوظيفة الرئيسية للحركة الصهيونية قبل عام ١٩٤٨ هي السعي لقلب الاوضاع الراهنة في فلسطين. اما بعد عام ١٩٤٨ وقيام اسرائيل فقد اصبحت وظيفة الحركة الصهيونية هي المحافظة على الوضع الجديد والتشبث به والدفاع عنه.

العوامل المحددة لامتداد رقعة اسرائيل

ويتضح من قراءة محاضر المؤتمرات الصهيونية ومقرراتها وخططها ومن نشاط قادة الحركة الصهيونية وافكارهم ومذكراتهم واعمالهم من «هرتزل» و «وايزمان» و «بن جوريون» واخيرا «ليفي اشكول» و «وموشى ديان» ان العوامل الآتية كانت تتحكم في تفكيرهم فيما يتعلق بمساحة الارض الموعودة، وفيما يتعلق بحدود اسرائيل وامتدادها الجغرافي:

١ – ان اقامة دولة اسرائيل هي الحل المنشود للمشكلة اليهودية في العالم.

٢ – ان الدولة اليهودية في اسرائيل هي تعبير عن القومية اليهودية وتجسيد لها، ولما كان كل يهودي ينتمي اليها بحكم يهوديته فلا بد لها ان تكون بالقدر الذي يحوي جميع ابناء الامة اليهودية.

٣ – ان فلسطين هي ارض دولة اسرائيل التاريخية الدينية. وان فلسطين هي ملك لليهود بحكم النشأة التاريخية للامة اليهودية هناك وبحكم ارتباط الدين اليهودي بالارض المقدسة.

٤ – ان فلسطين هي ارض اليهود الموعودة في الكتب المقدسة لدى اليهود والمسيحيين ويجب ان تشمل جميع الاماكن التي تحرك فيها اليهود والاماكن التي اقامت فيها القبائل العبرية في الماضي.

٥ – ان دولة اسرائيل في فلسطين يجب ان تتمتع بمقومات الدولة القادرة على تحقيق

الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والقوة العسكرية . ويجب ان تمتد بحيث تشمل مصادر القوة ، والارض الواسعة ، والمياه الضرورية للزراعة والصناعة ، والمراكز الاستراتيجية التي تضمن السيطرة الدفاعية والهجومية على الأراضي المجاورة .

٦ - ان دولة اسرائيل يجب ان تكون قادرة على إسداء خدمات للدولة الامبريالية التي ترعى قيامها كنوع من المكافأة مقابل الخدمات المبذولة لتمكين اليهود من اقامة دولتهم . وقد تم ذلك بالنسبة لبريطانيا في اعقاب الحرب العالمية الاولى حتى اشتراكها في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ . ثم تبدل الوضع بعد ذلك لمصلحة الولايات المتحدة الاميركية خدمة للمصالح الاميركية في منطقة الشرق الاوسط .

٧ - كما ان هناك عاملا هاما . وهو تأثر قادة الصهيونية العالمية بالنزوع نحو الآراء والمخططات الاستعمارية ، ذلك النزوع الذي كان يسيطر على تفكير السياسيين وبناة الامبراطوريات في اوروبا وقت قيام الحركة الصهيونية .

دوافع المطامع الصهيونية التوسعية :

ويمكن رد دوافع المطامع الصهيونية التوسعية الى عاملين رئيسيين هما :

١ - ضغط الفكرة اي العامل العقائدي :

ان الدوافع العقائدية للتوسع الصهيوني تنبع من صميم العقيدة الصهيونية ، ومن صلب الحل الصهيوني « للمشكلة اليهودية » وترتبط ارتباطا وثيقا بأسباب اختيار فلسطين ومطالبتهم بها على اساس انها « الوطن القومي التاريخي للشعب اليهودي » ، وقد ربط ذلك كله الحركة الصهيونية بمطلبين اساسيين لم تتخل عنهما هذه الحركة في يوم من الايام ولن تتخلى عنهما بأي حال من الاحوال :

(أ) الحصول على ما يسمى « بأرض فلسطين » .

(ب) اعادة « الشعب اليهودي » الى ارضه التاريخية لان الحياة في « المنفى » اي خارج فلسطين مخالفة للدين اليهودي وللحياة القومية الطبيعية للشعب اليهودي .

ان الدافع العقائدي للتوسع والعدوان عامل محرك وهام في تاريخ الصهيونية ، ولا يجب الاستهانة بأهمية هذا العامل وخطورة دوره . فالاعمال الصهيونية من اساسها قائمة على عامل الفكرة وارادة تحقيقها . ولا يمكن فهم اعمال الصهيونية واسرائيل فهما صحيحا كاملا ولا يمكن ادراك نواياها وخططها السياسية والعسكرية والنفسية خارج الاطار العقائدي فالفكرة المحركة التي اوجدت اسرائيل وبررت جهود الصهيونية العالمية التي بذلتها من اجل ايجادها والمحافظة عليها هي نفس الفكرة المحركة دوما ، والمحرضة ابدا على التوسع والعدوان .

٢ - الحاح الواقع اي الضرورات الاقتصادية والعسكرية :

(أ) الناحية الاقتصادية :

من يمعن النظر في جغرافية الارض المحتلة وحاجات اسرائيل الزراعية ومشاريعها لجلب اعداد اضافية من اليهود ، واثر تكثيف السكان في بقعة صغيرة من الأرض على الاعتبارات العسكرية والاستراتيجية يدرك انه لا يوجد امام اسرائيل سوى طريقين لا ثالث لهما لحل هذه المشكلة :

١ - التوسع المباشر عن طريق احتلال اراضي عربية خصبة بعد طرد سكانها منها .

٢ - تعمير النقب بواسطة جر مياه الانهار العربية التي تنبع وتجري وربما حتى التي تصب في الاراضي العربية المجاورة ، على ان يترك موضوع التوسع الكبير عن طريق الاحتلال والضم الى ظروف اكثر ملاءمة في المستقبل القريب او المتوسط .

ولكن المياه ليست العامل الاقتصادي الضاغط الوحيد للعدوان والتوسع ، فالتجارة الاسرائيلية وكسر طوق الحصار الاقتصادي العربي عامل آخر لا يقل اهمية عن عامل السيطرة على مصادر المياه . وفي ذلك يقول بن جوريون عام ١٩٥١ ... سوف نبني ميناء ايلات وسوف نؤمن حرية المرور الى المحيط الهندي



بلفور عام ١٩١٧ .

الك بقوة البحرية الاسرائيلية وسلاح الطيران
لجيش .

(ب) الناحية العسكرية :

ليس غريبا ان تولى الصهيونية الناحية
عسكرية اهتماما كبيرا ورئيسيا نظرا لان
سرائيل دولة غاصبة معتدية ، ونظرا لتصميم
شعب الفلسطيني والامة العربية بأسرها على
حق العدوان الصهيوني واستعادة الحق
عربي السليب في الارض المحتلة ، تصميم
صيري لا يحتمل المساومة او التجاهل ..
سوف نولي هذه الناحية مجالا اوسع في مكان
خر من هذا البحث .

المرحلية في الاستراتيجية الصهيونية .

ان من اهم الاساليب التي تستخدمها
لاستراتيجية في تحقيق اهدافها الاسلوب
رحلي الذي يعتبر اللون الغالب في لوحة
الصهيونية . والاسلوب المرحلي يعني ان
الصهيونية حددت للوصول الى غرضها النهائي
عدة اهداف مرحلية ، يرتبط تحقيق كل هدف
منها بامكانيات وقدرات الحركة الصهيونية في
كل مرحلة .

وباستعراض هذه المراحل نلاحظ الآتي :

عام ١٨٩٧ : عقد المؤتمر الاول والذي تحدد فيه برنامج العمل

عام ١٩٠٧ : ظهور فكرة « الصهيونية التوفيقية » التي ربطت بين العمل الدبلوماسي والاستعمار الاستيطاني وهي الفكرة التي تبناها « وايزمان » . كما انه تم في هذا العام الالتقاء بين الحركة الصهيونية العالمية وحركة الاستعمار العالمي « تقرير كامبل بنرمان » .

عام ١٩١٧ : صدور وعد بلفور .

عام ١٩٢٧ : اعتراف سلطات الانتداب البريطاني بمشروعية المنظمات والاجهزة اليهودية في فلسطين .

عام ١٩٣٧ : صدور الكتاب الأبيض البريطاني الذي اقترح تقسيم فلسطين الى دولة عربية واخرى يهودية .

عام ١٩٤٧ : صدور قرار التقسيم من الامم المتحدة ، وقيام اسرائيل في مايو سنة ١٩٤٨ .

عام ١٩٥٧ : المكاسب التي حصلت عليها اسرائيل نتيجة للعدوان الثلاثي بمرور السفن الاسرائيلية في خليج العقبة .

عام ١٩٦٧ : العدوان الاستعماري الصهيوني على البلاد العربية .

مبادئ فكرة المرحلية

تقوم فكرة المرحلية في نظرية العمل
الصهيوني على تفاعل اربعة مبادئ هي :

اولا : « الواقعية » التي تعمق الحد
الاقصى لما تطالب به الحركة الصهيونية في كل
ظرف ، طبقا لاوضاعه وامكانياته . فالتقدير
الواقعي للموقف الموضوعي — لا الاهداف
والرغبات او الصهيونية — هو الذي يقرر نوع
الطلب ومداه وهو الذي يقيم العرض فيحكم
بقبوله او بالسعي لتعديله او رفضه .

وتقدير الواقع الموضوعي يعني مقارنة العوامل المختلفة وتقدير الطاقة الصهيونية الذاتية دون تجاهل نواحي القصور فيها ثم اعطاء اهمية العامل الزمني في هذا كله وبالموازنة بين القليل الذي يمكن الحصول عليه والاكثر منه الذي يمكن الحصول عليه بعد ذلك .

ثانيا : « المرونة » ومعناها تقديم الجوهر على الشكل وتقديم الغاية على الوسيلة وتقديم المعنى على اللفظ . وهي بالتالي تكييف الشكل او الوسيلة او اللفظ ، وفق ضغط الواقع وامكانياته وقيوده في سبيل الحصول على الجوهر المنشود .

ثالثا : « اللا تراجع » الذي يعين الحد الادنى للمطالب الصهيونية في كل ظرف . وكثيرا ما خاض مبدأ « اللاتراجع » معارك مع مبدأي « الواقعية » و « المرونة » وكانت الغلبة دائما لمبدأ « اللاتراجع » في تاريخ الصهيونية ، الا في حالات قليلة حينما تمكنت القوى المضادة من ارغام الصهيونية على التراجع .

رابعا : « التصاعد » عندما تستنفد الحركة الصهيونية كل ما رمت الى استنفاده في مرحلة ما من مراحل عملها من الاتفاقات التي عقدتها او الوعود التي اصدرتها في مطلع تلك المرحلة ، تشرع في التطلع بجدية نحو المرحلة التالية .

والمتتبع لمسار الحركة الصهيونية يمكنه ملاحظة تطبيق هذه المبادئ وتفاعلها فيما بينها . وان تبدل السياسة الصهيونية بين بداية كل فترة ونهايتها . وانتقال الحركة الصهيونية من موقف القبول بالهدف الجزئي والرضاء بالقيود والشروط والالتزامات التي ترافقه ، الى موقف التمرد عليها والمطالبة بهدف اوسع ، ليس من باب التطور غير المتوقع في البدء وانما هو من باب التنفيذ الدقيق لخطة مرسومة ومحسوب حسابها سابقا . فالمرحلية الصهيونية لها صفات مميزة اهمها الثبات في رؤية الهدف وضرورة الوصول اليه ، والتشبث به هو الذي يفرض المرحلية طريقا اليه . وهي تعنى اما العمل على بلوغه فورا او الرضوخ للواقع المحدود الامكانيات واستبدال الهدف الاكبر الذي لا يمكن بلوغه حاليا بهدف جزئي بديل عنه او التدرج نحوه في مرحلية منتظمة تسمح بالتقدم دوما ولكن لا تسمح بالتراجع او التوقف .

علاقة الدبلوماسية بالمرحلية

وعلى هذا الاساس تتخذ الدبلوماسية الصهيونية بعض الاساليب تمهيدا للانتقال من مرحلة الى اخرى هي :

اولا : تزييف المعنى الاصلي للاتفاقات السابقة المراد استبدالها ، بحيث تدعى ان الاتفاقات الجديدة المطلوبة لا تتخطى ما تضمنته الاتفاقات السابقة .

ثانياً : الانتقال المستمر بين المطالبة باستعمال النص الحرفي للاتفاقات السابقة كأساس لتفسيرها ، وبين الدعوة الى اعتماد النية التي تزعم الصهيونية انها كانت وراء ذلك النص وذلك حسب مقتضيات مصلحتها المرجوة او المتوقعة .

ثالثا : الذبذبة بين اسناد الصفة الالزامية القاطعة الى بعض الاتفاقات او القرارات عندما يناسبها ذلك ، وانكار تلك الصفة عن بعض الاتفاقات او القرارات الاخرى الشبيهة بها من جميع الوجوه ، وفقا لما تتطلبه مصلحتها في كل حال .

رابعا : تحوير معاني الالفاظ والعبارات السياسية الحاسمة في الاتفاقات القائمة ، تحويرا يغير من معنى هذه الاتفاقات ومداها تغيرا جذريا .

خامسا : اختلاق اتفاقات لم تعقد اصلا ، والادعاء بانها اتفاقات قائمة وملزمة . وبأنها تعطى الحركة الصهيونية حقوقا مشروعة وتلقي على الاطراف الاخرى واجبات قانونية معينة .

سادسا : ان الدبلوماسية الصهيونية لا تتوزع عن قطع تعهدات اسمية بعيدة المدى ، على الرغم من انها تعتزم النكث بها عندما تسمح الظروف بذلك .

واذا كانت الحركة الصهيونية قد تمسكت بمنهجها الرئيسي رغم الظروف التي مرت بها ، فليس من المحتمل ان تشهد في المستقبل اي تحول عن هذا الطريق . وما دام الامر كذلك فان تعرفنا على منهاج واساليب الحركة الصهيونية



... الاحتلال

طيلة السبعين سنة الماضية ، قد يكون في الوقت نفسه تعرفا على ما يمكن ان يحدث في المستقبل .

برنامج العمل الصهيوني

يتكون برنامج العمل الصهيوني من عدة عناصر متكاملة تشكل فيما بينها الاستراتيجية الصهيونية العامة التي تحرك البرنامج بأكمله ، وتحرك كلا من عناصره تحريكا منتظما في توقيته واتجاهه ومداه ، والتي انحصرت مهمتها الاولى في قيام «دولة اليهود» وهي اسرائيل ، ثم تحقيق المهمة الثانية بنفس الطريقة والاسلوب لضمان استمرارها وازدهارها كما قال «هرتزل» في كتابه «لتعط لنا السيادة على رقعة من الارض تفي بحاجاتنا الحقة ، ونحن نتكفل بما يتبقى» .

وتتكون الاستراتيجية الصهيونية من العناصر الآتية :

العمل الدبلوماسي – عمليات الاستيطان او الاستعمار الاستيطاني – التنظيم – الاموال اللازمة للحركة – الدعاية – الادارة العسكرية – وهذه هي العناصر الستة التي قامت عليها الاستراتيجية الصهيونية منذ قيام الحركة الصهيونية ، إلا انه من الممكن اضافة عنصر جديد آخر هو «العلم والتكنولوجيا» .

١ – العمل الدبلوماسي

لعبت الدبلوماسية دورا هاما في الاستراتيجية الصهيونية منذ قيام الحركة وفي مطلع تاريخها بالاتصالات التي حدثت للاعتراف بالحركة والحصول على تأييد الدول الكبرى لها حتى صدر «وعد بلفور» عام ١٩١٧ . ثم بدات بعد ذلك لتنطلق من هذا الواقع الذي تم ، حتى

امكنها ان تستخلص توصية الجمعية العامة للامم المتحدة بتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧. وبعد قيام الدولة الصهيونية في العام التالي قامت الدبلوماسية باداء وظائف جديدة ناشئة عن الاوضاع الجديدة. فكان عليها ان تخوض معركة الاعتراف الدولي الثنائي، ومعركة الاعتراف الدولي الجماعي، المتجسد في الانتساب الى عضوية الامم المتحدة بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في مايو سنة ١٩٤٨. ثم لمواجهة المسائل المعلقة بعد قيام دولة اليهود مثل قضية القدس واللاجئين وقضية تثبيت الحدود والرقابة على خطوط الهدنة.. الخ من القضايا التي كانت مثارة قبل عدوان يونيو سنة ١٩٦٧. ولم يقتصر عمل الدبلوماسية في هذا النطاق فقط بل تعداه الى الوضع الاقتصادي واهمية استمرار تدفق المساعدات من الخارج - لا من الصهيونيين واليهود فقط - بل من الدول التي تناصر الحركة الصهيونية وتستفيد من بقائها ونموها ثم ايضا مسألة سلامة الدولة وامنها في وجه اعداء الدولة الصهيونية بالسلاح وتعهدات بالحماية العسكرية، كان اولها البيان الثلاثي الصادر عام ١٩٥٠ وآخرها حتى الان البيان الاميركي الصادر عام ١٩٦٧.

لهذا احتلت الدبلوماسية مكانا بارزا في برنامج العمل الصهيوني في جميع مراحل تطور الحركة الصهيونية. الا ان الملاحظ دائما ان الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى وقتنا الحاضر تطلبت شرطا اساسيا هو الحصول على العون من احدى الدول الكبرى والاتفاق معها على مساعدة الحركة وحمايتها. فقد حاولت الاستعانة بالمانيا القيصرية في الفترة قبل عام ١٨٩٧، ثم ببريطانيا حتى صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧، ثم بالولايات المتحدة الامريكية منذ قيام اسرائيل حتى وقتنا الحالي. كما كانت الدبلوماسية الصهيونية تعتمد اساسا على الناحية السياسية في تحقيق اهدافها وذلك كما جاء في اقوال «هرتزل» من «ان المسألة اليهودية مسألة سياسية لا تتم معالجتها معالجة ناجحة الا بالوسائل السياسية وعلى نطاق دولي».

٢ - عمليات الاستيطان او الاستعمار الاستيطاني:

وهي تشمل عمليات تدريب اليهود المهاجرين واستقدامهم الى فلسطين واقامة المنشآت لهم من اقتصادية على اختلاف انواعها، وادارية وتربوية وصحية وعسكرية وغيرها.. ويرتبط هذا النوع من الاستيطان بالعمل الدبلوماسي الصهيوني بحيث يمكن اعتبارها عملا واحدا مزدوجا. فقد كان اسلوب العمل عند نشأة الحركة الصهيونية هو انفصال العملين عن بعضهما البعض او تلاحقهما. فقد تصور «هرتزل» هذين العملين وكأنهما مرحلتان متعاقبتان تقوم الاولى وتكتمل ثم ينتهي دورها. وبعد ذلك فقط تبدأ الثانية. وبمعنى آخر فان «هرتزل» اخطأ حين تصور ان العمل الدبلوماسي يجري وينجح ويتم في معزل عن العمل الاستعماري الاستيطاني. وأن هذا الاخير يبدأ بعد اختتام المرحلة الدبلوماسية، ويمضي في طريقه وهو في غير حاجة مستمرة اليها. لكن الواقع يختلف عن هذه الصورة، فان العمل الدبلوماسي والعمل الاستعماري الاستيطاني عملان متفاعلان، وان تفاعلهما المستمر هو الذي يدفع بالصهيونية في حركة متصاعدة. وقد تبنى هذا الاسلوب من العمل المزدوج «حاييم وايزمان» واقرته المنظمات الصهيونية في مؤتمر عام ١٩٠٧. وعلى الصعيد العملي لهذه الطريقة تمكن تحقيق معظم انتصارات الحركة الصهيونية الدبلوماسية. فهو الذي حصل على وعد بلفور عام ١٩١٧، واستطاع ان يدرج هذا الوعد في صلب صك الانتداب البريطاني على فلسطين، ويحبط الكتاب الابيض البريطاني الصادر سنة ١٩٣٠، كما لعب الدور الرئيسي في اقناع اللجنة الملكية باقتراح مشروع التقسيم عام ١٩٣٧، كما اقنع «تشرشل» عام ١٩٤٤ بتشكيل الفيلق اليهودي من المستوطنين اليهود في فلسطين. كما اقنع ايضا «ترومان» بابقاء النقب ضمن حدود اسرائيل ثم الاعتراف بدولة اسرائيل بعد ذلك.

وعلى هذا يمكننا القول ان العمل الدبلوماسي في عرف الحركة الصهيونية توأم للعمل الاستعماري الاستيطاني. وان تفاعلهما

الدائم يقوي كلاً منهما في حد ذاته وينشطه ويزيد من نصيبه في النجاح، ويلاحظ ان اسرائيل تستخدم حاليا هذا الاسلوب من العمل المزدوج في سيطرتها على مدينة «القدس» رغم معارضة اغلبية الدول لهذه السيطرة، وفي انشاء المستعمرات اليهودية في الاراضي العربية المحتلة بالضفة الغربية للاردن والمرتفعات السورية وبعض اجزاء شبه جزيرة سيناء.

وتنطوي هذه الفكرة على خمسة مبادئ هي:

اولا: ان المساعي الدبلوماسية لا يقدر لها النجاح في الحصول على الوعود والاتفاقات الدولية الا بقدر ما يسبقها من عمل انشائي صهيوني على ارض فلسطين.

ثانيا: ان الدبلوماسية، حتى حين تكلل جهودها بالنجاح تظل الاتفاقات الناجمة عنها مجرد اطارات خاوية ما لم يقم المحتوى المادي اللازم لها وهو الاستعمار الاستيطاني.

ثالثا: العهود والاتفاقات السياسية التي تنجح الدبلوماسية الصهيونية في الحصول عليها، تظل تحت رحمة المصادر الاجنبية ما لم تقترن فورا بالانجازات الفعلية التي تستطيع ان تثبتها وتصونها.

رابعا: اذا استتبع العهود او الاتفاقات السياسية التي تحصل عليها الحركة الصهيونية عن طريق العمل الدبلوماسي نشاطا استيطانياً منظما، فان الحقوق المكتسبة بموجب تلك الاتفاقات تصبح قائمة لا يؤثر فيها النكث بالوعود او نقض الاتفاقات.

خامسا: حينما تتم الانجازات العملية على اساس اتفاقات سياسية دولية، فانها ستخلق اوضاعا جديدة يمكن الانطلاق منها الى المطالبة باتفاقات جديدة تعطى للصهيونية شروطا افضل، وحرية اكبر، وحقوقا ابعد مدى، او ترفع عنها بعض القيود التي نصت عليها الاتفاقات السابقة.

٣ - التنظيم:

لقد تناول برنامج «بال» قضية التنظيم وذلك في المادة الثانية منه والتي نصت على «تنظيم اليهودية جمعاء وربطهما معا، بواسطة المؤسسات الملائمة من محلية ودولية». كما نص



احدى المستوطنات

قرار المؤتمر الاول على اقامة «المنظمة الصهيونية العالمية» وهيئاتها الرئيسية.

٤ - الاموال اللازمة للحركة :

وقد تولى المؤتمر الصهيوني الثاني عام ١٨٩٨ انشاء اول جهاز من اجهزتها وهو «البنك اليهودي الاستعماري» والذي تبعته فيما بعد اجهزة اخرى كالصندوق اليهودي «الكاون كايمت» وصندوق الائتمان اليهودي، والصندوق الفلسطيني التأسيسي. وكان هدف هذه الصناديق والبنوك تمويل الحركة الصهيونية لشراء الارض في فلسطين وتشجيع الهجرة اليها والاستقرار فيها واقامة المستعمرات بها مثل «الكيبوتز» و «الموشاف» وقد ساعد ذلك على جلب اعداد كبيرة من المهاجرين الجدد وخلق اماكن كافية لاستقرارهم وبذلك خلق لديهم اهمية الارتباط بالارض ثم الفائدة الاقتصادية التي تتحقق من ناتج هذه المستعمرات وهكذا تمكنت الحركة الصهيونية من تجسيد العقيدة الصهيونية تجسيدا اقتصاديا وذلك بالاستيطان في الارض والاستفادة من العمل الزراعي ماديا ومعنويا. وقد ساعدت فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨) الاقتصاد الاسرائيلي او «اليهودي» على التوسع وارساء قواعد التركيز فتمكن من اقامة الاجهزة الادارية والفنية والمؤسسات الملائمة للنشاط الاقتصادي. كما ان فترة الانتداب قد خدمت الحركة الصهيونية الى حد كبير فيما يتعلق بايجاد الوسائل المادية لتعبئة القوى البشرية وتدريبها استعدادا للاستيلاء على فلسطين وتحويلها الى «دولة» يهودية.

ولعل اكبر الفوائد التي جناها الاقتصاد الاسرائيلي كانت تلك التي نتجت عن حرب ١٩٤٨، فقد اضطر مئات الآلاف من العرب الى الفرار من الارهاب الصهيوني والى حصول الاقتصاد الاسرائيلي على ما قيمته مئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية من الاراضي والمباني والمساكن والمصانع ووسائل النقل والتجهيزات المختلفة والمتاجر والمكاتب بالاضافة الى الاملاك العامة من اراضي ومباني ومستشفيات وطرق مواصلات وغيرها وبذلك وفر الاقتصاد الاسرائيلي على نفسه عبئا ضخما كان من المؤكد ان ينوء به لو تولاه بنفسه، هذا فضلا على ان ايرادات وعائدات هذه الاراضي والاملاك سنة بعد سنة، وارتفاع قيمتها النقدية عبر السنين يمثل رصيدا ضخما في حساب الاقتصاد الاسرائيلي وكما يقول الدكتور يوسف صايغ «ان ما غنمه اليهود يبلغ في مجموعه اكثر مما جاءهم من عون اقتصادي من العالم الخارجي من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٢.

إلا انه من المعروف ان تطور الاقتصاد الاسرائيلي بعد ذلك اعتمد على المعونات الاجنبية الضخمة والتي جاء ثلثاها تقريبا بدون اي التزامات مقابلة، وبذلك لم تلق عبئا ثقيلا على اسرائيل ومن هنا فان السمة الرئيسية في اقتصاد اسرائيل هي انه اقتصاد يعتمد في بقائه ونموه على المعونات المالية الاجنبية من الدول الرأسمالية الاستعمارية وتنحصر هذه المصادر في :

* المنح والهبات التي تحصل عليها اسرائيل من الجاليات اليهودية في العالم.
* التعويضات الالمانية الغربية التي هي في حقيقتها ليست مجرد تعويضات بل تصدير لرؤوس اموال الى اسرائيل بطرق ملتوية.
* القروض التي تحصل عليها اسرائيل من الخارج عن طريق طرح سندات على الخزينة وعقد قروض مع المصادر العالمية.
* المعونات من الدول الاستعمارية.

هذا ومن المعروف حاليا ان حوالي ستين في المائة من الاموال السائلة في بنوك العالم اموال يهودية.

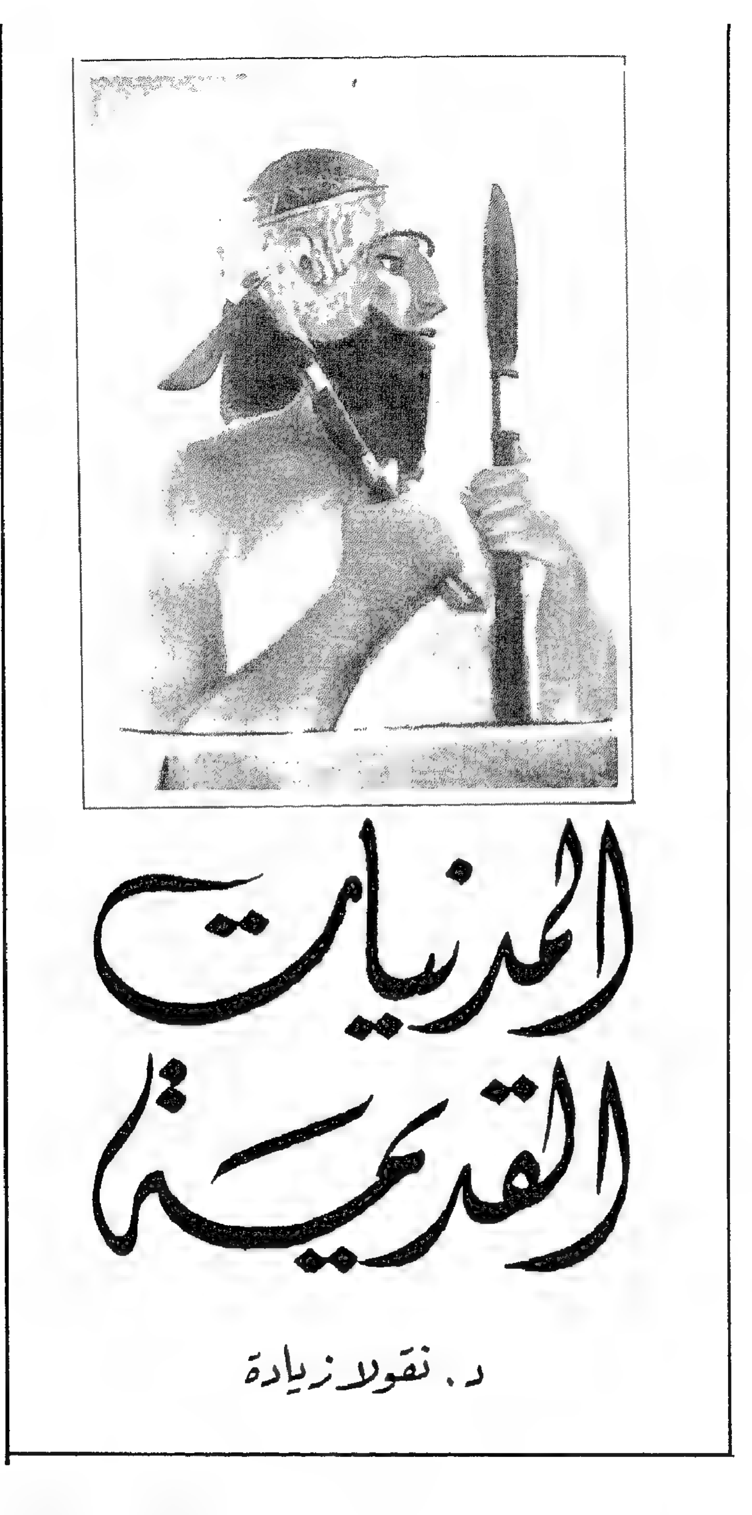
٥ - الدعاية :

من المعروف ان الدعاية تلعب دورا في الاستراتيجية الصهيونية العامة، فهي تقوم بدورها في كافة المجالات والقطاعات وبالاساليب التي تتفق مع طبيعة وظروف هذه المجالات وليس هناك شك في ان زعماء الصهيونية بذلوا جهودا كبيرة من اجل تعبئة الرأي العام العالمي وراء برامجهم واهدافهم، واستخدموا في ذلك اساليب الدعاية المختلفة ووسائلها. فالدعاية الصهيونية لم تترك اسلوبا الا وتبعته بغض

النظر عن مشروعيته او عدم مشروعيته، فهي تتلون حسب الجمهور الذي تخاطبه وتتحرك بين المواقع الايديولوجية المتباينة، وتستغل عدم توافر وسائل الاعلام التي تدحض المزاعم الصهيونية في توجيه الرأي العام العالمي الوجهة التي تريدها لتحقيق اهدافها.

وقد احتلت الدعاية محور تفكير الصهيونيين الاوائل، فنصت المادة الثالثة من برنامج عمل الحركة الصهيونية على «تقوية وتنمية العاطفة والوعي اليهوديين القوميين». كما اصدر «هرتزل» قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول مجلة «ذي فلت» – العالم – التي اصبحت فيما بعد المجلة الرسمية الناطقة بلسان الحركة الصهيونية وقد تطورت اهداف واساليب ووسائل الدعاية الصهيونية بتطور الحركة نفسها، ولعبت دورا ايجابيا في تحقيق اطماع الصهيونية. إذ كانت سلاحا لطمس كل حق عربي، ولم تكتف بهذا، بل انها ما زالت تقوم بدور فعال في تدعيم الوجود الاسرائيلي. واضفاء الشرعية على العدوان الصهيوني الاستعماري.





لكل شعب في الدنيا تاريخه، ولكل رقعة في الارض تاريخها. والتاريخ هو هذا التطور والتبدل الذي يصيب السكان والمكان عبر الزمان. وحكاية هذا التطور والتبدل هو التأريخ.

التاريخ قبل علم الآثار

وقد كان المألوف عند الذين يدونون تاريخ شعب ما او رقعة من الارض ان يعتمدوا على نص مدون، او نقش على الحجر او الآجر، او رواية تواترت على الالسن وحلل المؤلفون عناصرها. لذلك لم تكن حكاية التاريخ هذه تعدو الالف الثالث ق. م. الا فيما ندر. لكن قبل قرن او يزيد من الزمن انضم علماء الآثار الى المؤرخين في اكتشاف مجاهل الماضي في القرون الخوالي. وصار المؤرخ يعتمد على معول الأثري ورفشه في تصور حياة القوم الغابرين. ومن ثم انتقل الزمن الذي يتحدث عنه المؤرخ لمكان ما بضعة الاف من السنين. واصبحنا، مثلا، نتحدث عن تاريخ اريحا في الالف السابع او السادس ق. م.

على اننا ونحن نعترف لعلماء الآثار بفضلهم على التأريخ والمؤرخين، فاننا، في هذا الحديث نود ان نقتصر على ذكر بعض المصادر التاريخية المدونة، تاركين الحديث عن فضل الآثار الى مناسبة تالية.

وحري بنا، قبل كل شيء، ان نتذكر ان الكثير من اخبار الامم الخوالي امتزجت فيه الاسطورة بالتاريخ امتزاجا كبيرا، بحيث اصبح يصعب على الباحث ان يخلص الواحد من الآخر. وقد ظل الأدب التاريخي فترة طويلة من الزمن محدودا في طبيعته وآفاته، بحيث لا يعدو ان يكون ثبتا باسماء الملوك او نقشا يروي انتصارا في الحرب. فاذا نحن اخذنا على سبيل المثال المصادر الرئيسية لتاريخ مصر وارض الرافدين وديار الشام في العصور المتوغلة في القدم، الفينا انه يمكن تلخيصها فيما يلي:

فمصادر التاريخ المصري هي

١ – حجر بلرمو وهو حجر من الديوريت ترجع الكتابة التي عليه الى اواخر القرن السابع والعشرين ق. م. وفيه بيان السنوات التي حكمها ملوك الاسر الخمس الاولى، والاعمال العظيمة التي قام بها كل من اولئك الملوك. وهو محفوظ بمتحف بلرمو بصقلية.

٢ – بردية تورين التي يرجع تاريخها الى ايام رعمسيس الثاني (حكم من ١٢٩٠ الى ١٢٢٤ ق. م.). وفيها لائحة باسماء ملوك مصر منذ البدء. بل ان البردية تتعدى ذلك الى ذكر الآلهة الذين حكموا الارض قبل ان يحكمها الملوك. والبردية محفوظة في متحف تورين.

٣ – مجموعة من اللوائح والجداول ترجع الى ايام الامبراطورية (خاصة ايام الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة) ذكرت فيها اسماء الملوك الذين يستحقون أن تقدم لهم القرابين. وهذه اللوائح اربع اهمها ما عثر عليه في ابيدوس ولائحة سقارة.

٤ – نقوش تحتمس الثالث وغيره من رجال الامبراطورية الذين تركوا لنا اخبارهم مفصلة فذكروا حروبهم والضرائب التي جمعوها والمتاجر التي تبادلوها مع جيرانهم، واهم هذه النقوش ما حفر على جدران الكرنك ومسلاته وجدران الدير البحري.

٥ – تاريخ منيتو الكاهن المصري اليوناني الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثالث ق. م. وكتب باليونانية. ومع ان ما كتبه منيتو قد تلف او ضاع اكثره، فان يوسيفوس وغيره من المؤرخين المتأخرين نقل عنه الكثير، وبذلك وصلت الينا اخبار كثيرة مما دون هذا المؤرخ القديم.

ومصادر التاريخ البابلي المكتوبة هي: النقوش والكتابات التي عثرنا عليها في حفريات ما بين النهرين. وبالاضافة الى ذلك فعندنا بقية من تاريخ بيروسّس وهو كاهن بابلي عاش في بابل في القرن الثالث ق. م. وما كتبه بيروسس فيه كثير من الاساطير. فهو يقسم تاريخ البلاد الى (أ) ما قبل الطوفان (ب) ما بعد الطوفان. وعنده ان ملوك ما قبل الطوفان كانوا عشرة حكموا ٤٣٢,٠٠٠ سنة. وملوك ما بعد الطوفان مقسومون الى اسر يبلغ عددها خمسا وعشرين اسرة حكمت ٣٦٥٢٥ سنة. ويبدو من هذه الارقام الحد الذي يمكن معه الاعتماد على ما

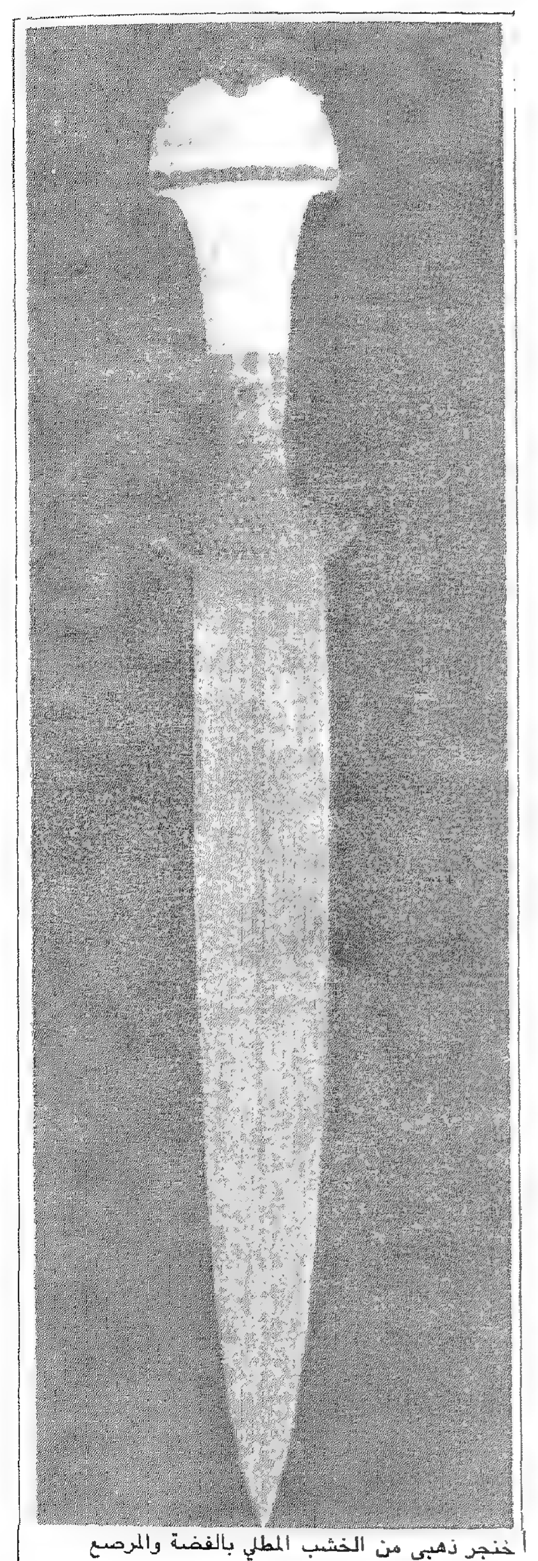
كتبه، وخاصة فيما يتعلق بالأزمنة المتقدمة.

فاذا انتقلنا الى ديار الشام وجدنا ان تاريخها القديم «الوثائقي» موضح بتفاصيله في كثير من المراسلات التي عثر عليها في اماكن مختلفة. وفي مقدمتها ما عثر عليه في تل مرديخ، ويعود الى اواسط الالف الثالث ق. م. وهناك «محفوظات ماري» التي اكتشفت في مدينة ماري (وهي تل الحريري اليوم) على نهر الفرات في سنة ١٩٣٧، والتي بلغ عددها نحوا من خمسة وعشرين الف وثيقة. ومحفوظات ماري توضح لنا الاحوال التي سادت في شمال سورية بشكل خاص في العهد الاموي او العموري. وفيما تتحدث عنه هذه المحفوظات ثلاث مدن كبيرة كانت تقوم في شمال سورية في ذلك الوقت هي: كركميش (او جرابلس) وحلب و قَطْنا. ويبدو ان العلاقات بين ماري وقطنا كانت وثيقة. ويتضح من هذه الوثائق ان ملوك اشور ما كانوا يمتنعون عن مصاهرة حكام قطنا.

واذا كانت محفوظات ماري قد صورت لنا الاحوال في مطلع الالف الثاني ق. م. فان «رسائل تل العمارنة»، والتي عثر عليها في تلك المحلة بمصر سنة ١٨٨٨، توضح لنا الصورة التاريخية للبنان وسورية وفلسطين في القرن الرابع عشر ق. م.

وتل العمارنة هو الاسم الحالي للمدينة المصرية القديمة المسماة «اخت اتون» والرسائل، التي يبلغ عددها نحو ٣٥٠ رسالة، مكتوبة كلها بالكتابة المسمارية وقد ارسلها الحكام والامراء في بلاد الشام الى مصر. والفترة كانت فترة ازمة سياسية واضطراب اقتصادي واجتماعي. ولذلك فان التفاصيل التي نحصل عليها ذات قيمة كبيرة.

اما الفترة الممتدة من القرن الرابع عشر الى القرن التالي فقد اوضحتها لنا المحفوظات السياسية التي عثر عليها في اوغاريت، اي راس الشمرا اليوم، والتي بدأ الكشف عنها سنة ١٩٢٨. وعلى سبيل المثال فان المعاهدة التي انعقدت بين شبلوليوما ملك الحثيين ونقمادو ملك اوغاريت كتبت باللسان الاكدّي الذي كان لغة الدبلوماسية في الشرق الادنى



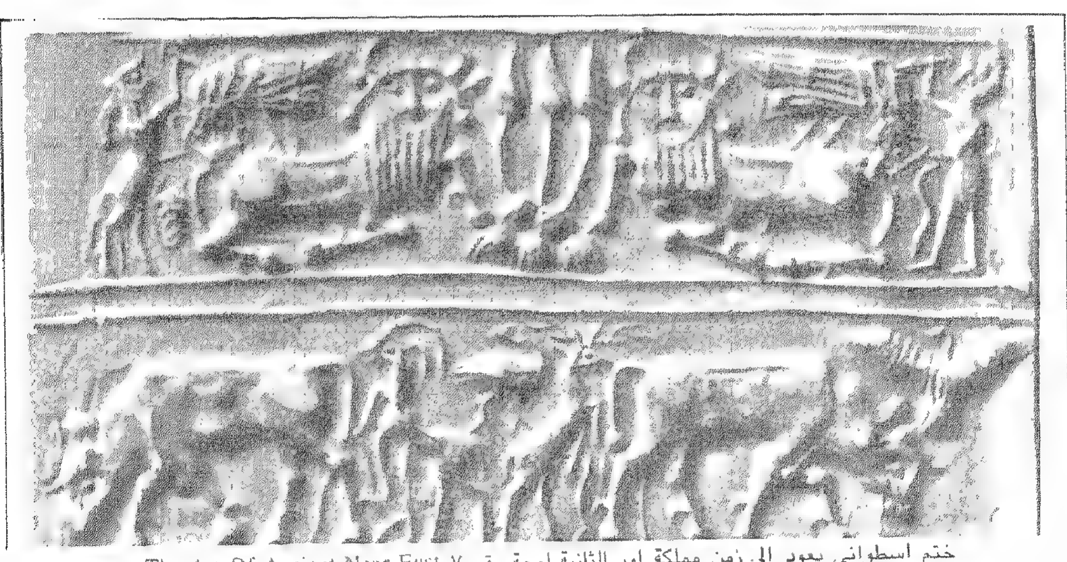
خنجر ذهبي من الخشب المطلي بالفضة والمرصع بالذهب يعود الى زمن مملكة اور.

يومئذ. لكن المحفوظات الاوغاريتية الأخرى الكثيرة جدا كتبت باللغة الاوغاريتية وبالكتابة الاوغاريتية ايضا.

على ان الادب التاريخي ظهر لأول مرة في الشرق القديم وعلى نطاق واسع في اسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. وكانت هذه الأسفار تقبل من قبل على انها تاريخ ثابت واضح، حتى عمل الباحثون والدارسون فيها نقدا وتحليلا، وبخاصة منذ اواخر القرن الثامن عشر. والذي عليه الباحثون اليوم ان القسم التاريخي، وهو الذي يعنينا الآن، يشمل الأسفار الأحد عشرة الاولى، هذا طبعا بعد ان نضع جانبا الجزء الاول من سفر التكوين الذي يوضح وجهة نظر القوم في الخليقة. وهذا القسم التاريخي يعتمد اربع روايات تحدرت من الفترة الممتدة من القرن العاشر الى اواسط القرن الخامس ق. م. ويميز الباحثون هذه الروايات على اساس ما يغلب على كل منها من مادة او فكرة. وعلى كل فالتفاصيل حررت اكثر من مرة لتناسب الافكار الخاصة التي روج لها الكتاب.

هذه المصادر المكتوبة إنما هي امثلة على ما كان المؤرخون يعتمدون عليه في درس المدنيات القديمة. ولكن لما اخذ الرفش والمعول طريقهما الى الاماكن التي سكنها القدماء، وتم الحفر فيها والكشف والتنقيب والترتيب، اتسعت الافاق واتخذت الازمنة ابعادا جديدة.

الكتابات القديمة وحل رموزها



ختم اسطواني يعود الى زمن مملكة اور الثانية لوحة رقم ٧ The Art Of Ancient Near East

كان المؤرخون، الى اوائل القرن التاسع عشر، اذا ارادوا الكتابة عن المدنيات القديمة عمدوا الى ما دون عنها في مصنفات القدامى باللغات المقروءة كالعربية واليونانية واللاتينية والارامية والعبرية. فقد كانوا يرجعون الى هيرودتس اليوناني وبليني واسترابون اللذين عاشا في اوائل عهد الامبراطورية الرومانية مثلا لمعرفة اخبار مصر وبابل وايران والى الطبري وغيره من المؤلفين العرب الذين تقصوا بعض الاخبار القديمة. ولكن منذ العقد الثالث للقرن التاسع عشر، وخلال المئة سنة التي تلت ذلك، تفتحت امام المؤرخين آفاق واسعة لما حلت رموز الكتابات القديمة - الهيروغليفية المصرية والمسمارية والفينيقية والحثية والاوغاريتية

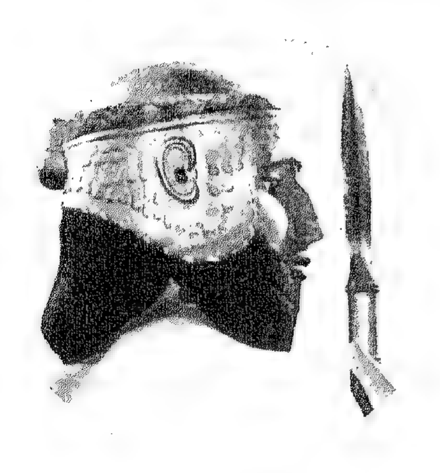
وغيرها . ولما عثر المنقبون على آلاف من الوثائق بتلك اللغات القديمة ، اصبح بامكان المؤرخين ان يرجعوا مصادرهم المكتوبة عقودا طويلة من السنين ، وان ينقلوا من مصادر معاصرة للأحداث والمدنيات التي يتحدثون عنها .

وقصة حل رموز هذه الكتابات القديمة قصة طريفة . لكن قبل ان نروي طرفا منها نريد ان نضع امام القارئ عرضا سريعا لبعض هذه الكتابات القديمة . وهذه الكتابات على ثلاثة انواع . اولها الكتابات الصورية اي التي تعتمد الصورة اصلا لكل كلمة او فكرة . ومن ثم قد تسمى بعض هذه الكتابات الكتابة المرتبطة بالافكار . وفي مقدمة هذه الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة الحثية الهيروغليفية . وهاتان قد حلت رموزهما . وفي عداد هذه الكتابات ما نقشه اهل كريت وسكان حوض السند وكتابات اميركة الوسطى والجنوبية . وهذه بين الكتابات التي لم تحل رموزها بعد . والنوع الثاني هو الكتابات المقطعية ، وهي الكتابات التي تدل كل اشارة فيها على مقطع من مقاطع الكلمة الواحدة .

والكتابة المسمارية التي ظهرت في سومر ونقلها فيما بعد البابليون والاشوريون والتي استعملها امراء بلاد الشام في رسائلهم الى مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ومنها الكتابة الصينية . وثمة النوع الثالث وهو الكتابات التي تعتمد الالفباء ومنها ، بين الكتابات القديمة ، الفينيقية والاوغاريتية واللغة الفارسية القديمة . ومن الطريف ان يذكر الواحد منا ان اللغة الفارسية القديمة مثلا ، وكتابتها تعتمد الحروف الهجائية ، كانت تكتب بالخط المسماري ، كما ان الكتابة الفينيقية الاولى التي عثر عليها في جبيل كانت فيها رموز هيروغليفية .

كانت اولى الكتابات القديمة التي حلت رموزها الكتابة الهيروغليفية المصرية . وقد كان من حسن حظ المشتغلين بتاريخ المدنية المصرية انه في ايام حملة نابليون على مصر ، عثر قرب مدينة رشيد ، على حجر منقوش عليه نص ديني يعود تاريخه الى سنة ١٩٧ ق . م . والنص الديني ، على حجر رشيد ، كما اصبح اسمه في عالم التاريخ والآثار ، كان منقوشا باليونانية وبخطين من الكتابات المصرية القديمة ، الهيروغليفي والشعبي (الديموطيقي) . وكان من اليسير قراءة النص اليوناني ، كما انه كان قد عثر على اسماء بطليموس وكليوباترة ، باليونانية والهيروغليفية ، على مسلة ترجع الى ايام كليوباترة . فكان من نتيجة ذلك العثور على نقطة انطلاق لبضعة حروف يونانية تقابلها صور صوتية هيروغليفية . وقد عمل اكثر من شخص واحد في سبيل حل رموز الكتابة الهيروغليفية ، الى ان توج العمل بالنجاح على يد شمبليون سنة ١٨٢٢ . وبذلك انفتح الباب امام الباحثين على مصراعيه لمعرفة اسرار هذه النقوش المصرية على جدر المقابر والهياكل والمدونات على البردي .

وكان من المعروف عند الباحثين ان الخط المسماري ظل استعماله شائعا منذ ان صنعه السومريون في الالف الرابع قبل الميلاد الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وذلك عبر البابليين والاشوريين والكاشيين والحثيين والميتانيين والفرس القدامى . والواقع فانه يوجد عندنا نقش بالخط المسماري يرجع الى سنة ٧٥ للميلاد . ولكن بعد ان زال استعمال اللغة البابلية بالذات ، اي في القرن الخامس ق . م . تضاءل استعمال الخط المسماري جملة .



خوذة من الذهب تعود الى زمن مملكة اور .

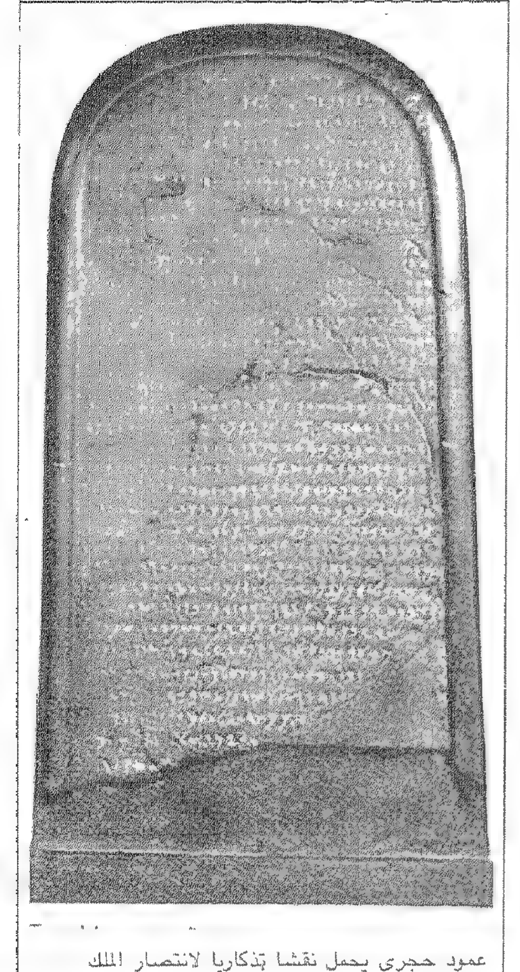
وقصة حل رموز الكتابة المسمارية، وهي التي كانت تكتب على اللبن بقطعة من الخشب، ثم تشوى الآجرات فتظل الكتابة قائمة، ترجع الى القرن التاسع عشر ايضا. وقد كان المهتمون بالآثار ووصفها قد نقلوا نقشا من برسيبوليس (على مقربة من شيراز بايران) ثم نشروا صورته سنة ١٧٧٨. والنقش كان مكتوبا بالخط المسماري لكنه كان يمثل ثلاث لغات هي: الفارسية القديمة ولغة سوسة (عيلام) والبابلية، الا ان النص كان قصيرا بحيث ان المحاولات التي قامت في سبيل حل رموزه لم تكن ناجحة تماما، ولو ان غروتفند الالماني وصل الى الحل تقريبا.

لكن هنري رولنصون البريطاني نقل بجهد كبير نقشا آخر، باللغات الثلاث ايضا، وبالخط المسماري، الا انه كان اطول واوفى. وهو النقش المعروف بنقش «بهستون» على مقربة من كرمنشاه. ذلك ان دارا الكبير امر بان تنقش اخبار فتوحه وتغلبه على الملوك على صخرة كبيرة في وجه جبل عال يرتفع نحو مئة وستين مترا عن الطريق. وكان ذلك سنة ٥١٦ ق. م. فجاء رولنصون ونسخ النص الذي كان، مثل نقش برسيبوليس، بلغات ثلاث، وذلك في سنوات ١٨٣٥ و ١٨٣٦ و ١٨٤٧. واللغة الفارسية القديمة كانت الفبائية الأصل، لكن الخط كان مسماريا. اما اللغتان الاخريان فقد كانتا مقطعيتين. وبالمقابلة والمقارنة والصبر والجهد نجح رولنصون في حل رموز الخط المسماري وكان ذلك سنة ١٨٥٢. اي ان ذلك جاء بعد ثلاثين سنة من حل رموز الكتابة الهيروغليفية.

وفي القرن العشرين حلت رموز ثلاث كتابات هي الهيروغليفية الحثية (سنة ١٩٣٩) والفينيقية والاوغاريتية.

ويقول زميلنا الدكتور انيس فريحة عن حل رموز الكتابة الاوغاريتية ما يلي:

«كانت طريقة الاوغاريتيين في الكتابة طريقة سائر الشعوب السامية اي الاكتفاء بادراج الحروف الصامتة وترك الحركة للقارئ، وفي هذا ما فيه من عسر وابهام وحدس ولسنا ندري كيف كانوا ينطقون، لان ادبهم الذي



عمود حجري يحمل نقشا تذكاريا لانتصار الملك ميشع المؤابي ضد ملوك شمال فلسطين.

وصل الينا مكتوب بحروف صامتة، ولا نعلم ان احدا تجرأ على قراءة هذه النصوص بالحركات، ولكن يقدر ان النطق لم يكن يختلف كثيراً عن العبرية والآرامية.

«لما اكتشفت اللوحات في المكتبة المجاورة للهيكل في اوغاريت، ارسلت فورا الى باريس لينظر الاستاذ العلامة «فيرولو» في امرها، لانه ثقة بالخط المسماري. وقد لحظ «فيرولو» ان هذه الكتابة، بالرغم من كونها بابلية - اشورية في اشكال رموزها وفي شكلها الخارجي، يجب ان تكون هجائية لا صورية او مقطعية، لانها تتألف من ٢٦ - ٢٧ حرفا - والواقع انها تتألف من ٣٠ رمزا. وهذه الملاحظة كان لها اثر بالغ في تسهيل حل الرمز.



جدرانيات من تل العمارنة

«ويعود الفضل في حل رموز الكتابة الاوغاريتية الى ثلاثة علماء: شارل فيرولو (Virolleaud) العالم الثقة في الخط البابلي الاشوري والى الاستاذ ادوار دورم (Dhorme)، والى الاستاذ هانس بور (Bauer) الالماني.

«عمل هؤلاء العلماء الافاضل مستقلين الواحد عن الاخر، وجاءت النتائج واحدة، مما لم يترك مجالا للشك في صحة الحل. وقد قدر الاستاذ بور ان النتائج سامية، وذلك لوقوع المدينة في اطار اللغة الآرامية. وفي شهر حزيران ١٩٣٠، اعلن انه استطاع التوصل الى معرفة ١٧ حرفا، وفي كانون الاول توصل الى قراءة تسع كلمات، فاصبح لديه ٢٣ حرفا من اصل حروف الهجاء. في الوقت ذاته توصل دروم الى معرفة ١٢ حرفا واستطاع ان يقرا ثلاث كلمات. وفي السنة ذاتها اعلن فيرولو انه استطاع ان يتوصل الى معرفة جميع الحروف الهجائية الاوغاريتية باستثناء حرف واحد نسب الفضل في اكتشافه لزميله بور.

«اما الطريقة المتبعة في هذه الحال، حيث لا يوجد لغتان متقابلتان على الاثر الكتابي الواحد كحجر رشيد الذي استعان به شامبليون، فهي طريقة التجربة والخطأ. فان بور، مثلا، الذي افترض ان اللغة سامية — وكان افتراضا صحيحا — حاول ان يعزل العناصر اللغوية السامية المشتركة، وهي بعض سوابق (جمع سابقة Prefix) ولواحق (جمع لاحقة Suffix) ووسائط (واسطة Infix) تلحق بالاسماء والافعال. كذلك بعض حروف العطف التي تتصل بالكلمة بعدها مثل «ب» «ل» «و» ... الخ. وقد لحظ ان حرفين دائما يسبقان الاسم، او ما ظنه اسما، وقدر انهما اللام (ل) والباء (ب). فاذا ما وجد كلمة تتألف من ثلاثة احرف اولها باء وثالثها ل فان تقدير الحرف الاوسط اصبح سهلا: ع، فيصبح لديه «بعل» ولم يكن عسيرا تمييز كلمة «بن» «ملك» «ال» (= ايل) وهكذا حلت رموز الكتابة.

وعندما اصبح العلماء يقرأون النصوص لم يعد من الصعب تفسير المعنى لان اللغات السامية متقاربة في المفردات وفي قواعد الاشتقاق والتركيب (النحو).»

ولنعد الان الى الكتابة الفينيقية، اي الى الالفباء العالمية.

وكان ثمة خلاف بين المشتغلين بتاريخ الكتابة الهجائية عن اصل الالفباء ومكانها وتطورها. ولكن الاستاذ موريس دونان (Dunand) وضع حدا لذلك لانه اكتشف في



قطعة حجرية وجدت في فلسطين تعود الى سنة ١٤٠٠ ق . م . وقد نقش عليها جزء من ملحمة غلجامش

جبيل في سنوات ١٩٢٩ و ١٩٣٣ وما تلا ذلك نقوشا اعتبرها الام للكتابة الهجائية الفينيقية .

والواقع اننا عندما نود ان نتعرف الى اصل الالفباء ، يتوجب علينا ان نعود الى النقوش المكتوبة بها وتاريخ تسلسلها . وها نحن نعرضها هنا من احدثها عهدا الى اقدمها زمنا ، وهي .

١ – نقش قناة سلوان في القدس ويرجع الى اواخر القرن الثامن ق . م . نقشه ملك القدس لما أتم حفر القناة التي كانت تمكن اهل القدس من الحصول على الماء بواسطة هذا النفق الصخري ، واللغة عبرانية لكن الحروف الهجائية فينيقية .

٢ – نقش الرويسة قرب النبطية ، وهو فينيقي الكتابة يرجع تاريخه الى القرن الثامن ق . م . اكتشف سنة ١٩٢٦ .

٣ – حجر مؤاب ويرجع الى ايام ميشع ملك مؤاب في اواسط القرن التاسع ق . م . نقش هذا الملك اخبار انتصاره على المملكة الشمالية في فلسطين . والحجر الذي عثر عليه في ديبان سنة ١٨٦٨ موجود الان في متحف اللوفر بباريس لكن توجد منه نسخة في المتحف الفلسطيني بالقدس . ولغة النقش قريبة من العبرانية جدا وحروفه فينيقية .

٤ – كتابة على قطع من الخزف ترجع الى القرن التاسع ق . م . عثر عليها في نابلس .

٥ – نقشان يرجعان الى اوائل القرن العاشر ق . م . واحد لابيبعل والثاني لالبيبعل عثر عليهما في جبيل (ببلوس) : الاول سنة ١٩٠٠ والثاني سنة ١٩٢٦ وهما مكتوبان بالحروف الفينيقية المعروفة .

٦ – نقش عثر عليه في قبر احيرام بجبيل يرجع الى اواسط القرن الثاني عشر اكتشف سنة ١٩٢٢ ، ولغته وحروفه فينيقية .

يتضح من هذا ان الالفباء الفينيقية نشأت في جبيل وما اليها ، وانها هي التي انتشرت شرقا وغربا ، اما الكتابة الاوغاريتية فلم يكتب لها ان تصبح « حرف المدنية » .

بعد استعراض مقدمة عامة في التقاء الشرق والغرب في العصر الوسيط والامتزاج الثقافي بينهما، عمد البروفسور رونكاليا الى دراسة نموذج على هذا الالتقاء في جزيرة صقلية، وفي تتمة مقاله، في هذا العدد، يتابع هذه الدراسة باحثا في آثار الفكر العربي بعامة في الحياة الصقلية مشيرا الى اهم العوامل المساعدة في تأسيس ذلك والى النابغين من ابنائها والحالين فيها مع تعريف بنتاجهم. والدراسة هي بحق، شهادة صادقة بالادلة، على دور البحر الابيض المتوسط كصلة وصل حضارية كانت ولم تزل قائمة.

الشرق والغرب المتوسطي في العصر الوسيط

د. رونكاليا

ترجمة: علي حرب
(الحلقة الثانية)

صقلية



وجهان، صقليان، وتبدو عليهما الملامح العربية

التأثير في الانتاج الفكري

لقد سبق لي ان استشهدت بابن القطّاع الصقلي في مختاراته الأدبية حيث يذكر مائة وسبعين شاعرا صقليا، ولكن قلائل جدا من بينهم من نعرف له بعض قصائده او اشعاره. غير ان واحدا منهم ترك ديوانا كاملا محفوظا في مكتبة الاسكوريال. انه ديوان ابن حمديس(١١) السراقوسي الذي وصل الينا في نسخ نقلت في اسبانيا ودمشق. وهناك عدد من التواريخ الخاصة الصقلية الفها او جمعها علماء مسلمون غير انه لم يبق لنا من كل هذه الاشياء الآن سوى اخبار كمبردج (سميت هكذا لان المخطوطة وجدت في مكتبة

جامعة كمبردج). وهذه الاخبار المكتوبة بالعربية تستند على نص يوناني اصلي. وهي تبقى دقيقة ولو ان فائدتها التاريخية هزيلة جدا. وقد احتفظ بالعربية ايضا ملخصان في الطب ومصنف في القانون الاسلامي ومعجم لبعض اصناف الفعل كتبه ابن القطا وثلاثة مؤلفات صغيرة في الادب والاخلاق. وقد ترك الامير اوجين الصقلي ترجمة لاتينية عن الترجمة العربية لكتاب بطليموس في البصريات. وهذه الترجمة اللاتينية يعود تاريخها الى القرن الثالث عشر على الاكثر. ولكننا لم نعد نعلم شيئا عن النص العربي. اما عن الامير اوجين الصقلي، فاننا نعلم ان مؤلفا مجهولا حوالي عام ١١٦٠ اقام له وزنا كبيرا نظرا لمساهمته كاختصاصي في الآثار العلمية اليونانية والعربية. فهو يقول بالنسبة لترجمة البصريات انه (الامير) استخدم مخطوطتين عربيتين، ولكنه اتبع في تنقيحه المخطوطة التي كانت اكثر مطابقة للأصل لأن الجزء الاول من النص العربي قد فقد في القرن الثاني عشر.

هذا ما تبقى من مجمل الانتاج الفكري العربي الصقلي السابق للنورمانديين (١٠٦١ - ١٠٩١). فمن بين بضع مخطوطات عربية محفوظة في المكتبات الحالية في بلرمو لا نجد اية واحدة منها من مصدر صقلي.

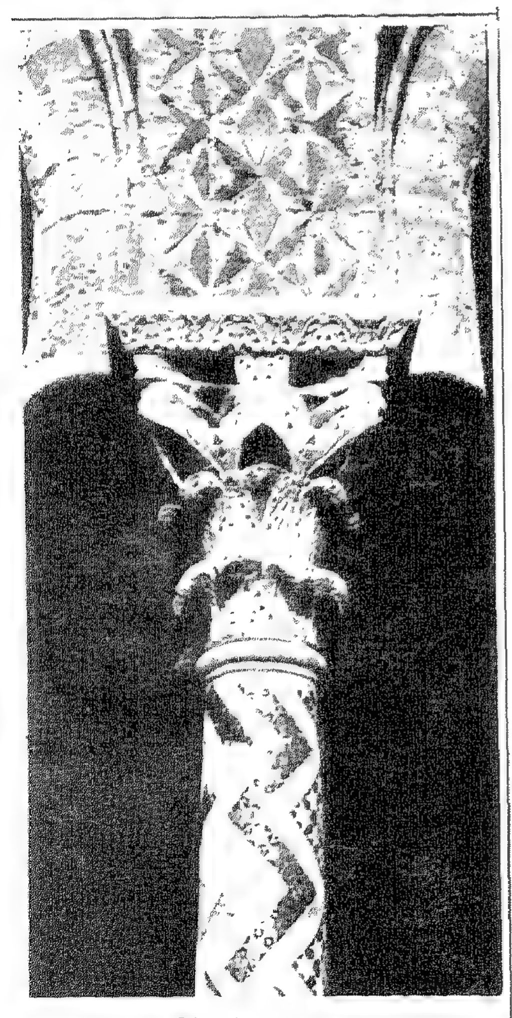
اختفاء الآثار العربية في صقلية:

ان هجرة الطبقة المثقفة المسلمة مع اقتراب اعادة فتح الجزيرة بواسطة النورمانديين الذي بدأ عام ١٠٦١ وانتهى عام ١٠٩١ على يد روجر الاول، والجهل وعدم الاهتمام لدى الاجيال اللاحقة وسوء نوعية الورق التي يسهل تفتيتها بسبب الرطوبة والطبيعة الظرفية لمواد البناء، كانت من الاسباب التي لا يمكن إهمالها في اختفاء المخطوطات والعمارات. مما لا شك فيه ان الخسارة الهامة نجمت عن الغزو النورماندي. ففي وثيقة يعود تاريخها الى تشرين الاول ١٠٩٣، تسند ملكية اراض الى كنيسة مزارا، نجد الكونت روجر الاول يزهو بنفسه لكونه حطم كبرياء المسلمين وجسارتهم. ويمكن ان نقرا ايضا في هذه الوثيقة الاتي:

«لو نظرنا الى الخرائب الضخمة والمتعددة في قلاع المسلمين ومدنهم، وإذا عرفنا مدى الدمار الهائل في القصور التي بنوها بفن مدهش، ولو فكرنا في الاستعمال الزائد، لكل هذه الاشياء، افلا نلاحظ انه يوجد في كل هذا اضرار عديدة ومآس جسيمة وخسائر لا حصر لها؟».

العودة الى تمثل الثقافة العربية الاسلامية

ومن حسن حظ المدنية وصقلية انه بعد الضراوة التي رافقت كل نزاع من اجل إعادة فتح الجزيرة، استطاع النورمانديون ان يتمثلوا الثقافة التي كانت موجودة قبلهم بسرعة كافية. وهكذا فان البلاط النورماندي بدا لكثيرين كبلاط



اثر النقوش العربية داخل كاتدرائية مونتريال.

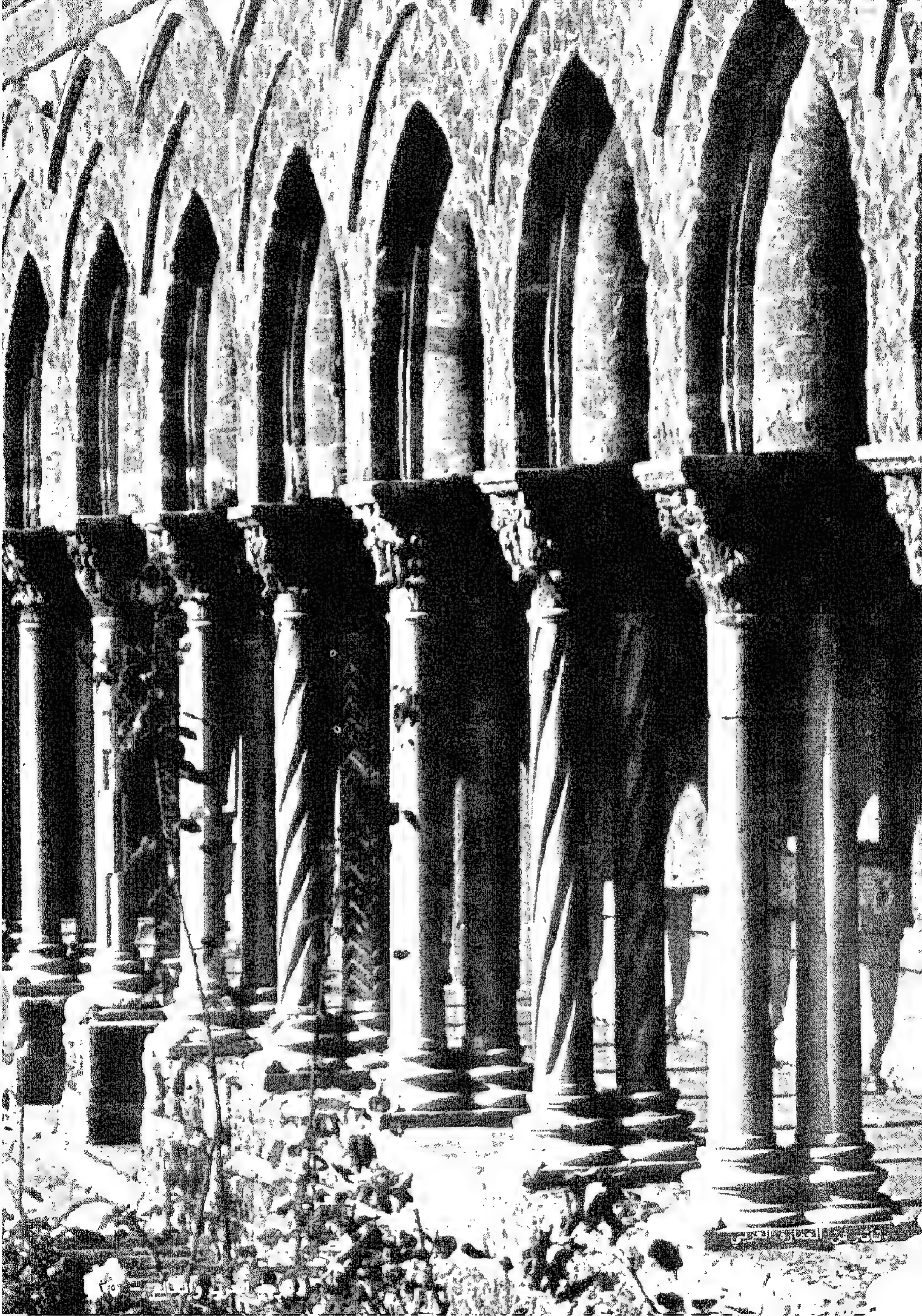
إسلامي. مما لا ريب فيه انه خضع لعملية تعريب قوية الى الحد الذي يتقبله الدين المسيحي، اي مع وجود هامش عريض جدا بالنسبة لفاتحين اتوا من الشمال. فالعبادة المسيحية كانت تقتضي بالنسبة لصقلية استعمال اللغة اليونانية، ومن جهة اخرى، لم يكن بالامكان ايكال امر فسيفساء تمثل مشاهد وشعائر مسيحية الى فنانين مسلمين: ومع ذلك فان النشيد البيزنطي المقدس في قبة مارا تورانا يناظر النقش العربي بالحروف الكوفية. ان اوغو مونارت دي فيلارت يؤكد في عمله الخالد «التصوير الاسلامي على سقف مصلي بلاط روجر الثاني النوماندي»(١٢) ان الفن الذي ينم عنه هذا التصوير هو مأثرة ثمينة من مآثر الفن الفاطمي خارج مصر، والذي يرجع بدوره الى روح التصوير العراقي(١٣)، ومركزه سامراء(١٤) وهكذا فان التصوير الاسلامي لمصلي بالاتينا في بلرمو يسمح بأن نتعرف على نحو افضل الى الفن الفاطمي وان نقيم على نحو افضل الفن العراقي السامرائي. وهذا مثل ملموس على مدى التعقيد في مشكلات التأثير الثقافي.

وفي العصور القديمة - كما هو الحال في الشرق القديم - كانت طريقة اللباس دليلا خارجيا على المعتقد، الطائفة او المذهب الذي نعتنقه. وهكذا كان روجر الثاني يتزيا في فسيفساء ماراتورانا بالزي الامبريالي البيزنطي (يجب ان لا يغيب عن البال ان صقلية كانت بيزنطية قبل ان تكون اسلامية). ولكن حيث لم تكن الضرورات الدينية المسيحية تفرض حدودا كان الملوك النورمانديون يفضلون العادات الاسلامية. لقد لقب «روجرس باغانوس» «بروجر المسلم» على يد إخباري قديم لا شك بنزاهته. وبالفعل فان روجر الثاني ارسل خلال عقد من الزمن آلاف المسلمين (المسجلين في جيشه) لاكتساح منطقة البوي(١٥). واوكل بناء اسوار مدينة باري (Bari) الى مهندسين مسلمين، كما اوكل ادارة آلات الحرب (ابراج نقالة، قاذفات منجنيق) الى فنيين مسلمين ايضا. وكان المهندسون والفنانون المسلمون يساعدون على تشييد وتجميل الابنية الجديدة التي تزين العاصمة بلرمو. كما هو الحال في كنائس البلاط والقديس كاتالدو والقديس يوحنا الزاهد التي تؤلف قببها الحمراء ومناراتها تناقضا فريدا مع النمط الكلاسيكي للبازيليك(١٦) المسيحي وذلك باتخاذها شكل المسجد.

وهناك فيلات فخمة تحيط بالعاصمة بناها الملوك النورمانديون لا تزال اسماؤها عربية: القبة (Cuba) الفوارة (Favara)، البيضاء (Baida). وعلى مداخلها وعتباتها وكفاف ابوابها نقرأ نقوشا منظومة بالعربية، تماما كما هو الحال في القصور الملكية في بلرمو ومسينا. ولم تكن قراءة هذه النقوش تصعب على الملوك النورمانديين، لانهم كانوا محاطين بكتاب وشعراء عرب يمدحون سخاء متعهديهم ويمجدون الاعياد والاستقبالات الزاهية والقصور والحدائق بقصائد لا تنتهي لم يسجل منها جامعها العربي «عماد الدين» سوى بضعة اجزاء فقط، إذ يصرح بأنه عمل غير مجد «التوقف عند مدائح الكفار الذين سيرميهم الله في سعير جهنم».

ومع ذلك فان هؤلاء الشعراء المسلمين الذين كانوا ينظمون المدائح في الملوك المسيحيين النورمانديين حماتهم لم يكونوا يبالغون البتة. ذلك ان روجر الاول كان يستضيف العلماء الذين يأتون اليه من اي صقع كان وبمروءة وسخاء. زد على ذلك انه طلب الى مسلم ان يحرر له اعظم اثر جغرافي في العصر الوسيط، الا وهو الشريف الادريسي. وهذا الاثر هو عبارة عن خارطة لنصفي الكرة الارضية مصنوعة من الفضة تزن مائة وخمسين كلغ ويبلغ قطرها متران تقريبا. وهو يتوج خمسة عشر عاما من الابحاث الجغرافية وكان في اصل كتاب روجر المشهور الذي عنوانه الكامل: «كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وهناك دراسة نقدية له قائمة منذ ١٩٧٠ برعاية المعهد الشرقي في نابولي ومعهد الشرق الاوسط والاقصى في روما.

وعندما بلغت السيطرة النورماندية على صقلية نهايتها عام ١١٨٥، فان التغيرات المفاجئة في رحلة ابن جبير اثناء عودته من مكة والمدينة دفعت هذا الحاج المتدين الى التوقف



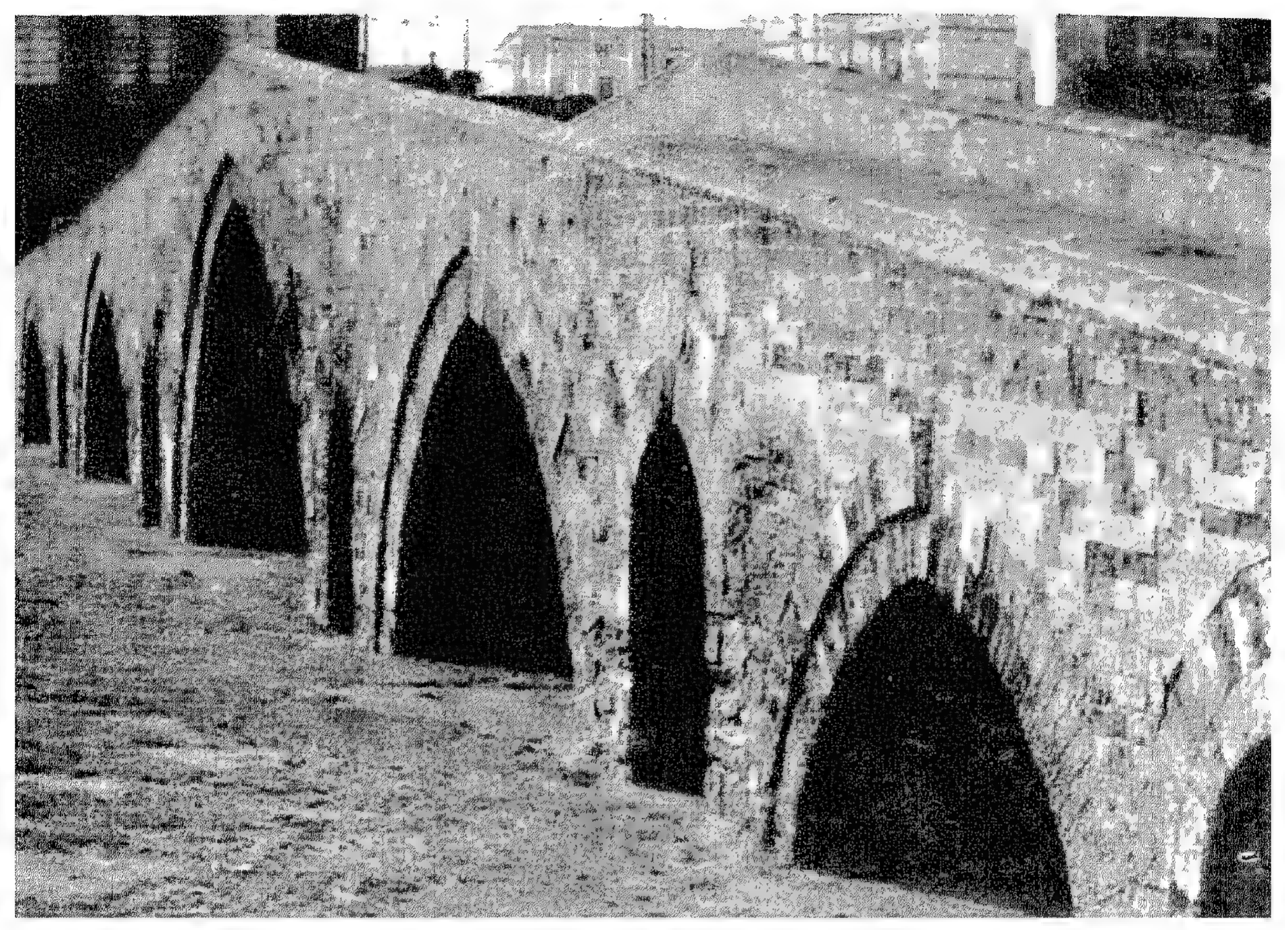
تأثير فن العمارة العربي

بعض الوقت في بلرمو. واليك انطباعه عما رآه وكتبه في كتابه المشهور «رحلة ابن جبير». فهو يتحدث عن الملك النورماندي غليوم الثاني وبقية الناس كما يلي: «إنه لامر جدير بالاعجاب ان هذا الملك يلجأ الى خدمات المسلمين ويعتمد في بيته على خدم جلهم او معظمهم يحتفظ بدينه سرا ويستمر على تمسكه بالاسلام. فهو يثق بالمسلمين غاية الثقة. فيتكل عليهم في تصريف شؤونه وفي الأمور الخطيرة.. وهو يختار من بينهم وزراءه وحجابه الذين يملك منهم العدد الكبير». وقبل ذلك بكثير كان ابن جبير قد لاحظ في روايته بِعُجْب ان الملك يقرا العربية ويكتب بها وان نساء القصر الملكي جميعهن مسلمات. وكذلك هم مسلمون ايضا، «الخدم الذين هم اعيان ووزراء المملكة والذين يمارسون جميعهم بلا استثناء الصوم الاختياري والمستحق في الاشهر المخصصة لذلك» حسبما تقتضيه الفرائض الاسلامية. واخيرا يلاحظ ابن جبير ان النساء المسيحيات في بلرمو «يشبهن في مظهرهن النساء المسلمات وانهن كهؤلاء يحسن الكلام بالعربية ويتخطين بالملاءة ويضعن الحجاب».

ان احد امتيازات السيادة سواء في القسطنطينية او في الشرق، كانت تمثله صناعة الحرير الموشى بالذهب (وهو عرف تخلد في نجارى بالنسبة للهدايا التي كان يصنعها توفاريش[17] الكرملين للشخصيات الممتازة). ولم يرد الملوك النورمانديون ان يكونوا اقل شأنا من زملائهم قياصرة بيزنطيا او الخلفاء. ولذلك اقاموا في نطاق قصورهم طرازهم الخاص حيث ان عبيدا بعضهم القليل من اليونان لكن معظمهم من المسلمين كانوا يطرزون ويزينون هذه المعاطف والقمصان والأكف والساقيات الفخمة التي كانت تنتشر في اوروبا والتي لا تزال بعض نماذجها تغني في ايامنا هذه الخزينة الامبراطورية في فيينا.

اما الامتياز الآخر فقد مثلته المسكوكات ففي السنة نفسها التي استولى فيها النورماندي روبرت لوجيسكارد على بلرمو، قام هذا الاخير بصك العملة بالعربية مع «شهادة لا اله الا الله، محمد رسول الله»، اضافة الى الآية القرآنية «محمد رسول الله... ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» وسيقتضي مرور ستين عاما قبل ان تستبدل هذه النماذج الاسلامية. وحتى بعد هذا بقيت الكتابة بالعربية واستمر التأريخ حسب التقويم الهجري. وكان الملوك النورمانديون يضيفون الى اسمائهم على طريقة الخلفاء القابا تشريفية، مستخدمين اسلوب الوثائق الاسلامية. زد على ذلك ايضا انه في اثناء السيطرة السآبية[18]، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت تصدر عن دار العملة في صقلية عملات ذهبية منقوشة بالعربية لان الدنانير والروبيات الاسلامية كانت تشكل النقود الاكثر تداولا في منطقة المتوسط كلها. انها الحقبة حيث كانت حتى جمهوريتي سلرنو[19]، واملفي[20] تنسخ الروبيات الفاطمية المصرية، ما عدا زيادتها احيانا صليبا في وسط الشهادة الاسلامية.

وفي المنمنمات المدهشة التي تزين القصيدة التي الفها بيار ايبولي عام ١١٩٦ على شرف هنري الرابع الامبراطور الجرماني ثمة منمنمة صنعها فنان كان يعرف جيدا في صقلية النورماندية. وفيها نشاهد ليس فقط السكان المسلمين في حين سيراكادي (شارع القاضي) في بلرمو، بمن فيهم الطبيب والمنجم العربين يعتنيان بالمرض الاخير الذي اصيب به الملك غليوم الثاني. ولكننا نجد في منمنمة اخرى تمثيلا لمستشارية الدولة حيث يتم التعرف الى الاشخاص من طريقة لباسهم، ما يسمح بالتمييز بين فئات «كاتبي العهود» اليونان واللاتين والمسلمين. ونحن نعلم فعليا، عن طريق ابن جبير ان المهام السياسية والادارية للدولة كان يضطلع بها مسلمون ومسيحيون. وكانت المهمة الاكثر خطورة إذ ذاك القيام بأعباء «الديوان» الذي احتفظ بالاسم والقوانين التي كانت له في العهد الاسلامي، كما احتفظ بسجلات المسح التي كانت تسمى دفتري (Daftari)، او ديفيتري (Defetari) والتي نظمت بالعربية ايضا اثناء عهد غليوم الثاني. ثم ان احد اعلى المناصب في الدولة استمر في حفاظه على اللقب العربي «امير» الذي تحول في اللاتينية الى Amiratus وفي اليونانية الى



احد الجسور في باليرمو بني سنة ١١١٣ على الطراز العربي

X'MMPX' dos بينما انتقل من بعد لقب القائد الذي ادخله المسلمون الى صقلية الى المصطلح المسيحي لكي يدل على الرئيس – القاضي. والغرامة التي كانت توضع بموجب الفقة (القانون الاسلامي) على اليهود والمسيحيين (بصفتهم اهل ذمة)، هذه الجزية او كابتاسيو (Capitatio) في القانون الروماني احتفظ بها النورمانديون من خلال الشكل اللاتيني المتأخر: Gesia: فالمسيحيون سيفرضون هذه الغرامة على يهود ومسلمي لوسرا في كامبانيا(٢١). واستنادا الى الوثائق نجد انه طيلة العهد النورماندي كله كانت العقود الخاصة تنظم امام القاضي المسلم وفقا للنماذج والتواريخ الاسلامية عندما كان البائع او الدائن مسلما، حتى ولو كان الفريق الآخر مسيحيا. اننا نعرف حالة شبيهة في اسقفية مسينا.

العودة الى اللاتينية واستمرارية المظاهر العربية الاسلامية:

وفي القرن الثالث عشر وتحت الحكم السآبي توقفت مستشارية بلرمو تدريجيا عن تحرير الوثائق بالعربية واليونانية واختفت بذلك طبقة كاتبي العهود اليونان والمسلمين. ان لاتينية صقلية التي ضغطتها ثلاثة قرون من الاحتلال البيزنطي (٥٣٥ – ٨٢٧) والاسلامي (٨٢٧ – ١٠٩١) ومن مختلف الغزوات (الفاندل في ٤٤٠ والبرابرة في ٤٩٣، الخ، الخ) التي وطأت ارضها اخذت تحتل شيئا

فشيئا الواجهة. وصقلية هي ايضا مهد المدرسة الشعرية الايطالية التي ستنمو في بلاط فريدريك الثاني: ولكن هذا تاريخ آخر. وعلى اية حال بالرغم من هذه الظاهرة الطبيعية فان ما تميزت به الثقافة العربية من الروعة والحيوية استمر في البقاء. ان فريدريك الثاني الذي تربى في بلاط يزخر بالعلماء والذكريات الاسلامية وكان منذ طفولته يعبر بالعربية ويتمثل بعض علومها والذي كان متعطشا الى معرفة لم تكن توجد يومها الا في الكتب العربية، كان ايضا مفتونا بروعة وابهة البلاطات الشرقية. لقد كان بلاطه ملتقى للثقافات العربية واليهودية واللاتينية والايطالية. والترجمات التي قام بها اليهود والايطاليون للكتب العربية كانت من جملة المصادر، لمعارف انتشرت عبر اوروبا كلها. وكان فريدريك الثاني يتراسل مباشرة مع فلاسفة مسلمين من اسبانيا مثل ابن سبعين.

وقد حافظت الثقافة الاسلامية على بقائها ايضا عبر الملك مانغرد ابن فريدريك الثاني. ففي معسكره الذي كان مقره لوسرا (التي تسميها الاخبار لوسرا باغانوروم Lucerra Paganorum) استمر جيشه المسلم بتأدية الصلوات الخمس اليومية بملء حريتهم حسب الطقوس الاسلامية. وفي زمن مانغرد هذا انما قام عالم وقاض سوري من حماة هو جمال الدين سليم ابن واصل بتصنيف كتاب في المنطق بالعربية بعنوانه: «الامبراطورية»[٢٢] L'Imperiale. وبالمناسبة فان هذا العالم هو ايضا مؤلف كتاب «مفرج الكروب في اخبار بني ايوب». وكتاب «لجريد الاغاني».

وبالرغم من ذلك، فان حيوية الثقافة الاسلامية في القرن الثالث عشر قد اعتراها الانحطاط الشامل تقريبا في صقلية: فقد هاجر قسم من المسلمين الى اقاليم اكثر تسامحا، ودخل قسم آخر في المسيحية.

وفي نهاية القرن الثالث عشر لم يعد للغة العربية من حياة الا بين الطوائف.... اليهودية في صقلية وايطاليا الجنوبية.

إن الذي يتحدث اليكم سينشر قريبا دراسة حول اللغات الشرقية في اوروبا في القرن الثالث عشر حيث يتبين من خلالها انه بواسطة العلاقات البالغة الوثوق التي كانت تربط التجمعات اليهودية في اسبانيا مع مثيلاتها في فرنسا وايطاليا، كان من الممكن للثقافة الاسلامية والعربية ان تتغلغل في سلرنو (مدرسة في الطب) وفي نابولي (مركز فلسفي وادبي) وفي بولونيا (مركز فلسفي رشدي)[٢٣]، وفي باريس (مركز لاهوتي وفلسفي رشدي) وفي اكسفورد (مركز علمي للرياضيات والميكانيك والكيمياء الخ).

الشرق والغرب في العصر الوسيط، الشرق والغرب اليوم: صلة الوصل: البحر المتوسط.

---

(١١) ولد في سراقوسة عام ١٠٥٤ نشأ في الجزيرة وقضى شبابه فيها، ووصفها في شعره هاجر الى الاندلس بعد سقوطها في يد النورمانديين، يعتبر اكبر شعراء صقلية باللغة العربية.

(١٢) روما ١٩٥٠.

(١٣) بالاستناد الى: Richard Ehinghausen

(١٤) بالاستناد الى: Ernest Herzfeld

(١٥) البوي Pouilles منطقة في ايطاليا الجنوبية – المعرب

(١٦) كنيسة قديمة ايوانية الشكل – المعرب –

(١٧) ومعناها في الروسية الرفاق – المعرب –

(١٨) نسبة الى (Souabe) بالالمانية (Schwaben). وهي منطقة في المانيا الجنوبية على الدانوب الاعلى (بافاريا) ومعلوم ان صقلية خضعت لسيطرة بعض الاسر الجرمانية. ومن اشهر الملوك الجرمان فردرك الثاني ومانغرد – المعرب –

(١٩) مدينة تقع في الجنوب الشرقي من نابولي على خليج سلرنو – المعرب –

(٢٠) مدينة ومرفأ تقع على خليج سلرنو ايضا – المعرب –

(٢١) منطقة في ايطاليا الجنوبية على البحر التيراني – المعرب –

(٢٢) عرف هذا الكتاب الذي الفه جمال الدين الى ملك صقلية اثناء إقامته الطويلة فيها، عرف في المشرق بعنوان «نخبة الفكر في المنطق». راجع دائرة المعارف الاسلامية، جزء اول، ص ٤١٣ – المعرب –

(٢٣) نسبة الى ابن رشد.



مصر وفلسطين في العصر العثماني

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام

من خلال وثائق المحكمة الشرعية المصرية

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
جامعة قطر

تقديرا من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخرا في عمان ما بين ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤ - ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. اعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة ابتداء من هذا العدد. والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال تود أن تؤكد انها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرسمية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر ونتمنى ان تستمر الجهود في جميع أنحاء الوطن العربي لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

تمهيد:

علاقة مصر بفلسطين في العصر العثماني الاول (١٥١٧ - ١٧٩٨م) تعتبر امتداداً تاريخياً وطبيعياً للعلاقة التي كانت قائمة بينهما، منذ أقدم العصور والذي يعنينا في هذا البحث، وضع لمسات على هذه العلاقة، وبخاصة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، من خلال وثائق المحكمة الشرعية، والتي يتبين للباحث منها ضخامة الدور الذي يقوم به ابناء المدن والقرى الواقعة في الجزء الجنوبي من بلاد الشام (فلسطين).

ومن المعروف ان بلاد الشام باقاليمها المختلفة، كانت في العصر المملوكي تكوّن جزءا من الدولة المملوكية. وكان حكام اقاليمها نوابا للسلطان المملوكي بالقاهرة، ولم تكن هناك حدود أو حواجز سياسية تفصل بين الاقليمين. وبانهيار النظام المملوكي، دخلت كل من مصر

وبلاد الشام في حوزة دولة واحدة هي الدولة العثمانية، وظلت الصلة بين الاقليمين قائمة، حيث لم يعرفا كذلك الحدود السياسية بالمعنى المعروف لنا اليوم، والباحث في مصادر تاريخ العصر، سواء منها الكتابات المعاصرة أو وثائق المحكمة الشرعية. التي تعتبر تسجيلا دقيقا للحياة اليومية آنذاك، فانه يجد كمًّا وافرا من هذه الوثائق يتعلق بابناء المدن والقرى والمناطق الجنوبية من بلاد الشام (فلسطين)، وهذا ما يعنينا في هذا البحث وخاصة في المجالات السابق الاشارة اليها.

إما عن الارتباط السياسي بين مصر وفلسطين، فقد سبقت لنا معالجة هذا الجانب، في بحث آخر ضمن علاقات بلاد الشام بمصر في العصر العثماني (١٥١٧ – ١٧٩٨)* وتكفي الاشارة الى ان ارتباط أحداث البلدين السياسية خلال العصر العثماني وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث ازداد نفوذ القوى المحلية، في كلا الاقليمين وحدث تنسيق في العمل بين هذه القوى المحلية ضد الحكم العثماني. ولذا أهملنا الجانب السياسي من هذه العلاقة، لانه سبق لنا معالجته، وركزنا على المجالات الاخرى من واقع سجلات المحكمة الشرعية.

اولا: العلاقة الاقتصادية:

لعب أبناء المدن والقرى الفلسطينية دورا بارزا في تاريخ مصر الاقتصادي خلال العصر العثماني ويوجد كمٌّ ضخمٌ من وثائق المحكمة الشرعية، التي تتعلق بنشاط الفلسطينيين الاقتصادي في مصر خلال العصر العثماني. وترسم هذه الوثائق صورة تفصيلية وواضحة للعلاقة الاقتصادية التي كانت قائمة بين المنطقة الجنوبية من بلاد الشام (فلسطين) وبين مصر، كما ان هذه الوثائق توضح دور أبناء فلسطين في تاريخ مصر الاقتصادي ونوعية هذا الدور وضخامته، فقد أتيح لابناء المدن والقرى الفلسطينية كما هو واضح من نسبتهم الى هذه المدن والقرى أتيحت لهم في فرص الاشتغال بالنشاط التجاري في داخل مصر، وفي شتى شمالها وجنوبها، كما عمل بعضهم على ممارسة هذا النشاط ما بين مصر وبلاد الشام وقد شمل نشاطهم مختلف السلع التي كانت رائجة في مصر وبلاد الشام في تلك الفترة، فمن بين السلع التي يرد ذكرها في هذه الوثائق، الاقمشة القطنية والحريرية، البن، التبغ، الصابون، المشروبات، الحلوى، وغير ذلك من السلع الاخرى.

وتمكن بعض الفلسطينين عن طريق ممارسة النشاط التجاري، من تكوين رأس مال ضخم استثمره في تكوين شركات تجارية كبيرة، أو في تلك العقارات في المدن المصرية المختلفة أو في التزام الاراضي الزراعية، أو بعض الصناعات المحلية. ويكفي أن يقف الباحث من خلال هذه الوثائق على علو نسبة التجار من أبناء فلسطين الذين كانوا يمتلكون محلات تجارية في سوق الصاغة بالقاهرة. وكذلك في سوق الحمزاوي، وهي السوق التي كانت متخصصة في تجارة الاقمشة المحلية والمستوردة، وبصورة خاصة الاقمشة الحريرية والقطنية، وفي نفس الوقت فان هذه السلع كانت من بين السلع التي تستورد من بلاد الشام، كما ذكر ذلك شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية ضمن قائمة البضائع المستوردة الى مصر عام ١٧٧٥م، وقد كان اقبال الشعب المصري على السلع الشامية في ذلك العصر كبيرا، كذلك اشتغل بعض الفلسطينين بالمتاجرة في الحلوى وصناعتها وكذلك عمل البقسماط، هذا الى جانب اشتغالهم بالحرف المهنية الاخرى مثلا الحلاقة والحياكة وصناعة الاسلحة وبخاصة في مدينتي القاهرة والاسكندرية، والمتتبع لخريطة القاهرة العمرانية في العصر العثماني، من خلال وثائق المحكمة الشرعية، يجد كثيرا من الوكالات التجارية التي كانت قائمة آنذاك، وكثيرا من أحياء القاهرة، كانت عامرة بالشوام الذين ينتمون الى القرى والمدن الفلسطينية، وامتد نشاط هؤلاء الفلسطينيين الى التجارة الخارجية،

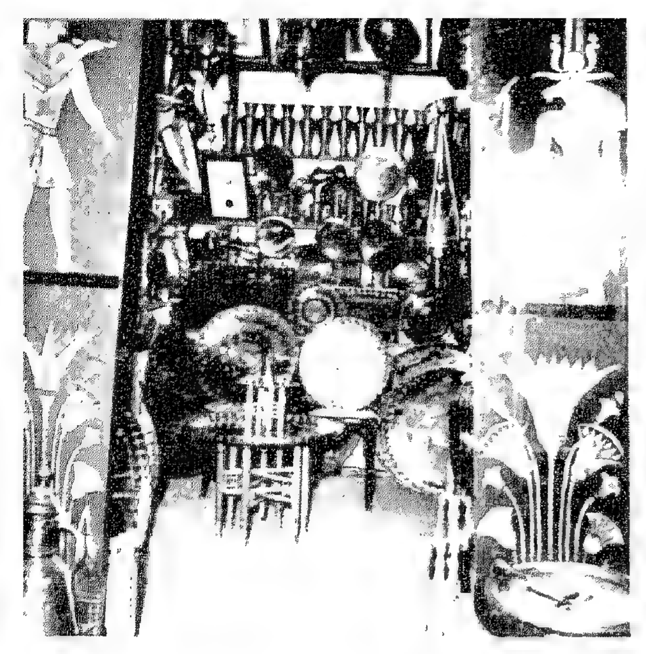
(*) ألقي هذا البحث في المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام في جامعة دمشق ١٩٧٨.

فمارسوا عمليات الاستيراد والتصدير من مصر واليها واصبح لهم وكلاء تجاريون، يعملون باسمهم في موانىء البحر الاحمر، مثل جدة ومخا والسويس كما كان لهم وكلاء ببلاد الشام، ولم يقتصر نشاطهم على التجارة في السلع الشامية وانما امتد الى جميع السلع المستوردة من اوروبا وبلاد الشرق فشمل البن والاقمشة الهندية والاسلحة والحلى وغيرها

ومن واقع وثائق محكمة القسمة العسكرية بارشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة، يستطيع الباحث أن يقف على ضخامة التركات والثروات التي خلفها أبناء فلسطين لورثتهم سواء الموجود منهم بمصر أو ببلاد الشام، حيث ان حجج أعلام الوراثة، وتحديد الورثة كانت في كثير من الاحيان تصدر من محاكم بلاد الشام ويقرها القضاء في مصر بعد ثبوت صحتها ، ولما كان المجتمع في ذلك الوقت يقوم على اساس التنظيم الطائفي، فابناء كل مهنة يكونون طائفة لها شيخها ووكيلها، وكذلك المشتغلون بالتجارة، فتجار كل سلعة يكونون فيما بينهم اتحاداً أو طائفة لها شيخها ووكيلها كذلك بهدف حماية السلعة والتحكم في أسعارها، فان كثيرا من الشوام الذين ينتمون الى المناطق الفلسطينية اساسا ان وصلوا الى منصب مشيخة الطائفة التي ينتسبون اليها فقد استطاع الخواجا محمد الشامي الفلسطيني الاصل ان يصبح شيخ الشرب بسوق الشرب، ووصل الحاج احمد الفلسطيني الشامي الى منصب شيخ طائفة القطانين بوكالة القطن ببولاق وهناك عدد كبير تسجل الوثائق اسماءهم كشيوخ لطوائف المهن التي يعملون بها ويوصفون بوصف الفلسطيني الشامي .

وقد كان هؤلاء التجار والحرفيون كما يتضح من الوثائق ينتمون الى جميع المناطق الفلسطينية، فنجد من بينهم الغزي والعريشي والنابلسي والخليلي والصفدي والرملي واليافي وغير ذلك من البلدان الفلسطينية التي كانوا ينتسبون اليها

أما عن استثمار هؤلاء الفلسطينين لرؤوس الاموال التي تكونت لديهم، فقد استغلوها كما يتضح من الوثائق في كل أوجه



خان الخليلي في القاهرة .

الاستثمار المكنة، مثل شراء العقارات والدور في القاهرة وغيرها من المدن المصرية، وفي التزام الاراضي الزراعية في مختلف أنحاء مصر، وفي عمليات الاستيراد والتصدير ما بين مصر وبلاد الشام واليمن والهند، حتى يصبح من العسير على أي باحث في تاريخ مصر في العصر العثماني ان يغفل الدور الاقتصادي البارز الذي لعبه التجار الفلسطينيون في هذا التاريخ، وبذلك حافظ هؤلاء التجار على استمرار العلاقات الاقتصادية بين مصر وفلسطين في ذلك العصر

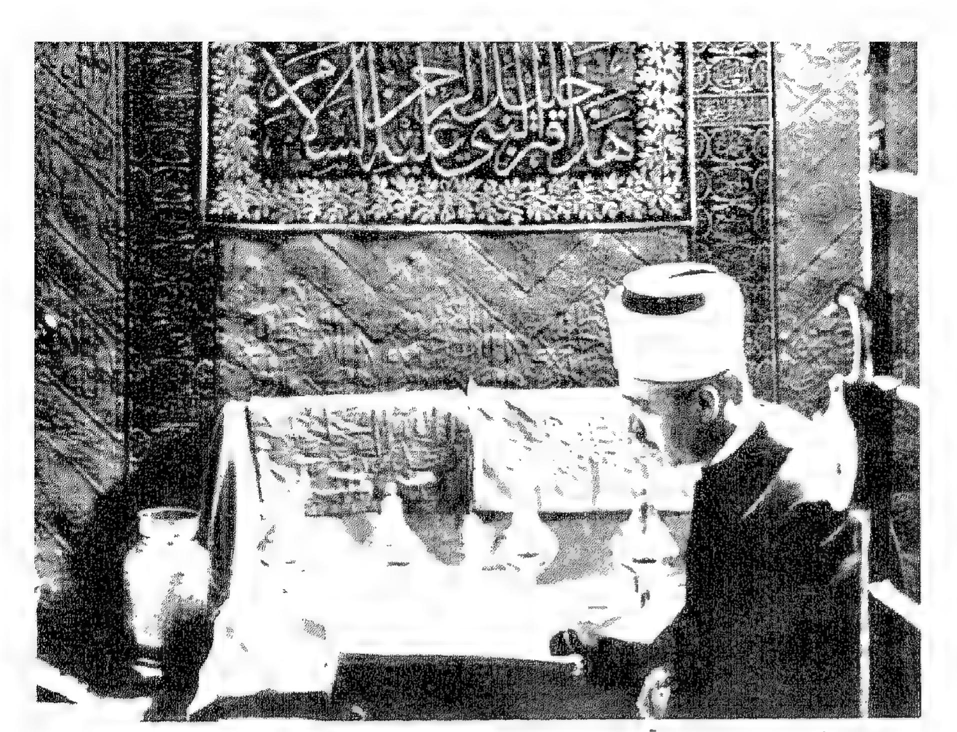
ثانيا : العلاقات الثقافية :

يكفي للباحث كي يدرك ضخامة العلاقات الثقافية بين مصر وفلسطين ان يرجع الى كتب التراجم وسجلات المحاكم الشرعية ووثائق العصر، وبخاصة ما يتعلق منها بالازهر فانه ولا شك سوف يقف على سلسلة كبيرة ومتصلة الحلقات من المثقفين الفلسطينين الذين تلقوا تعليمهم بالازهر، كما انه سوف يجد من بين علماء الازهر كثيرا من الفلسطينين حيث ان بعضهم تصدى للتدريس والافتاء في نفس الوقت مثل الشيخ حسن المقدس الخلفي «فقد ذكرت الوثائق انه كان من اعيان اهل الافادة والافتى والتدريس بالجامع الازهر



الواجهة الغربية لجامع الازهر تعلوه مئذنة قايتباي ومئذنة الغوري ذات الرأسين .

وقد كان للشوام رواقهم الخاص بهم في الجامع الازهر، عرف باسم رواق السادة الشوام، وكانت مشيخة هذا الرواق ونظارة أوقافه تـوكلان الى أحـد علماء الشـوام باختيارهم. بشرط ان يكون ممن يشتغلون بالتدريس في الجامع الازهر ، وتسجل الوثائق ذلك فتذكر ان « الشيخ الامام العلامة الهمام شهاب الملة والدين مولانا الشيخ أحمد الفالوحي ، شيخ رواق السادة الشوام المجاورين بالجامع الازهر - الشافعي عين أعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر ، والشيخ شهاب الدين أحمد بن المرحوم الشيخ عنبر الشامي شيخ رواق السادة الشوام بالجامع الازهر »، وهكذا نرى ان الذي يتولى مشيخة رواق السادة الشوام، كان ولا بد ان يكون شاميا، ومشتغلا بالتدريس في الازهر، حتى يستطيع ان يشرف على المجاورين (طلاب) الشوام اشرافا دقيقا وصادقا، وقد كان رواق الشوام من اكبر أروقة الازهر جميعها وقد اوقف عليه بعض الامراء المماليك، منذ عصر السلطان قايتباي كثيرا من الاوقاف وقد كان العلماء الشوام فريقين: **أحدهما**: ولد ونشأ وتعلم في مصر ولكنه ظل يحتفظ بنسبه الى بلاد الشام، مثل ابراهيم بن أبي بكر بن اسماعيل العوفي كان من أعيان الافاضل له اليد الطولى في الفرائض والحساب، مع التبحر في الفقه وغيره من العلوم الدينية، وهو حنبلي المذهب، نشأ بمصر وأخذ الفقه عن العلامة منصور البهوتي، والحديث عن جمع من شيوخ الازهر، واجازة غالب شيوخه وألّف مؤلفات منها شرح على منتهى الارادات في فقه مذهبه في مجلدات، ومناسك الحج في مجلدين، ورسائل كثيرة في الفرائض والحساب، وكان لطيف الذاكرة حسن المحاضرة، قوي الفكرة، واسع العقل، وكان فيه رياسة وحشمة موفورة ، ومروءة **والفريق الثاني**: من هؤلاء العلماء، كان يأتي الى مصر للالتقاء بعلماء أزهرها، والاخذ عنهم في بعض العلوم واجازتهم، وكانت مدة اقامتهم فيها لفترات قد تطول وقد تقصر، حسب قدراتهم التي تمكنهم من الحصول على الاجازة المطلوبة مثل غرس الدين محمد بن أحمد الازدي الخليلي المتوفي ١٦٤٧ ويس بن محمد الخليلي كذلك المتوفي ١٦٧٥، والعلامة شمس الدين حامد الصفدي الشافعي المتوفي ١٥٨٢ وغيرهم كثير، واحيانا كان نفر من هذا الفريق يشتغل الى جانب طلبة العلم ببعض الامور التي تمكنه من كسب عيشه مثل ابراهيم بن علي بن احمد بن علي السعدي الذي كان يأكل من كسب يمينه، ويتردد الى القاهرة للتجارة ولقي بها في الجلة من العلماء مثل النجم الغيطي صاحب المعراج والاستاذ محمد البكري والشمس الرملي والبنوفري واخذ عنهم » ، بل ان البعض من هذا الفريق آثر الاستقرار بمصر والاشتغال ببعض الامور التي تدر عليهم بعض الرزق الذي يكفي لمعاشهم، مثل كتابة الحجج في المحكمة الشرعية وغير ذلك حتى ان بعضهم استطاع التدرج في السلك القضائي حتى تولوا نيابة القضاء في مصر مثل القاضي السيد نجم الدين



فلسطين : شيخ يتلو القرآن في المسجد الابراهيمي .

ابن صالح بن احمد بن محمد بن صالح بن عبد الله التمرتاشي الغزي الحنفي الذي ذكر عنه الجبرتي انه تولى نيابة ابيار بالمنوفية، ومرسومات بنظارات اوقاف، فاقام بأبيار قاضياً نيفا وعشرين سنة، وهو يشتري نيابتها كل دور، وابتدع فيها الكشف على الاوقاف القديمة والمساجد الخربة التي بالولاية وحساب الواضعين ايديهم على ارزاقها، واطيانها حتى جمع من ذلك اموالا، اما الفريق الذي عاد الى بلاده بعد اجازته في علوم الفقه والحديث والعربية. فقد حمل رسالته في نشر ما تعلمه بين أبناء وطنه أو تولى مناصب الافتاء والتدريس أو نيابة القضاء في احدى محاكم بلاد الشام واذا ما واصلنا تتبع هؤلاء العلماء في كتب وتراجم العصر ووثائقة منذ القرن السادس عشر، وحتى نهاية القرن الثامن عشر، لخرجنا بالملاحظات التالية :

أولا – نجد ان معظم العلماء الذين برزوا على المسرح الثقافي في بلاد الشام عامة، وفلسطين بخاصة تلقوا علومهم اساسا في مصر في أزهرها الشريف، وأجيزوا على يد علماء مصريين في مختلف علوم الدين واللغة، وظل هؤلاء العلماء كما تذكر المصادر على صلة باساتذتهم في الازهر، يرسلون اليهم طلابهم احيانا، ويناقشونهم ويستفتونهم بالمراسلة في بعض المسائل الاخرى.

ثانيا – ان بعض هؤلاء العلماء حسنت لهم المعيشة في مصر، وتصدوا للتدريس في الأزهر، وحازوا على مكانة عالية بين علماء عصرهم مثل مرعى بن يوسف الحنبلي، الذي ينتمي الى قرية طوركرم من قرى نابلس، وكذا ابن اخيه الشيخ احمد بن يحيى بن يوسف الحنبلي وقد استطاع بعض هؤلاء العلماء خلال القرن الثامن ان يصل الى منصبي مشيخة الازهر ورياسة القضاء في مصر.

ثالثا – تذكر المصادر ووثائق المحكمة الشرعية في صدر ترجمتها لهؤلاء العلماء كثيرا من الالقاب التي تدل على النباهة والذكاء مثل القاب «الامام، الفقيه، العلامة، المحدث، الباحث، الاديب، اللبيب، النجيب، المفوه، الفهامة، شهاب الدين والملة» وغير ذلك من الالقاب التي تدل على مكانة هؤلاء العلماء العلمية كما تدل في نفس الوقت على اعجاب علماء عصرهم بهم ، وهكذا نجد انه عن طريق هذا الوجود الثقافي الفلسطيني الشامي في مصر، اصبحت علاقة مصر ببلاد الشام عامة

وفلسطين خاصة في هذا المجال علاقة تأثر وتأثير، أخذ وعطاء، اي وجود تكامل ثقافي بين الاقليمين.

ثالثا - العلاقة الاجتماعية :

يتميز دور الفلسطينين الشوام في الحياة الاجتماعية في مصر في العصر العثماني بانه ذو شقين شق ايجابي وشق سلبي.

أما عن الشق الايجابي : فيبرز واضحا حيث استقرت غالبية فلسطينية شاملة شامية في القاهرة والمدن المصرية الاخرى، تتضح ايجابية هذا الدور مما تسجله لنا وثائق المحكمة الشرعية، فان اشتغال الفلسطينين الشوام بالتجارة وبالحرف المهنية جعلهم على علاقة قوية بطوائف المجتمع المصري الاخرى والاندماج مع هذه الطوائف والتأثر بها والتأثير فيها، والامتزاج معها دما ومعاملة.

وتذكر المصادر المعاصرة لبعض الشوام الذين طابت لهم المعيشة في مصر فاستقروا فيها وتخلقوا بأخلاق أهلها وتزيوا بزي أهلها، وترك هذا الوجود الفلسطيني الشامي في مصر بصماته الواضحة على المجتمع المصري وذوقه، حتى وصل اعجاب المجتمع المصري ببعض الاطعمة والملبوسات الشامية الى درجة تفوق مجرد الاعجاب العادي، فالشاشات الشامية والملابس الحريرية كانت لها شهرة واسعة في مختلف أوساط المجتمع المصري، ومن جانب آخر ان الفلسطينين الشوام الذين استقروا في مصر علماء وتجار، أعجبوا بالشخصية المصرية واندمجوا وتخلقوا بأخلاقها واصبحوا مصريين في سلوكهم شاميين في أصولهم، وحمل بعضهم صفة المصري الى نسبة الشامي «مصري الاقامة»، شامي الاصل هكذا كان دور الفلسطينين الشوام الايجابي في حياة المجتمع المصري تأثير وتأثر أخذ وعطاء ، **أما عن الشق السلبي** : من دور الفلسطينين الشوام في المجتمع المصري، فيتمثل في دور العربان البدو، الذين كثيرا ما أغاروا على ريف مصر وقراها ينهبون وبخاصة في ريف الوجه البحري ومصر الوسطى، واعتدائهم المتكرر على قافلة الحج المصري وسلب ما تحمله، حتى اضطرت سلطات القاهرة الى تعيين قائد من الامراء المماليك لحماية قافلة الحج أصبح يحمل لقب «امير الحجاج» وصار هذا المنصب من كبار المناصب التي يتنافس عليها الامراء المماليك، ويصدر به فرمان من السلطان العثماني، ومع ذلك استمرت عمليات هؤلاء العربان العدوانية حتى دخول الحملة الفرنسية الاراضي المصرية، وقد قام علماء هذه الحملة بتسجيل هؤلاء العربان والمناطق التي كانت تتعرض لعدوانهم والمناطق الجنوبية من بلاد الشام التي ينتمون اليها حتى كان عصر محمد علي، حيث عمل على اجتذاب هؤلاء العربان وترويضهم عن طريق منحهم الاراضي ومحاولة استقرارهم، ذلك هو الجانب السلبي المتمثل في عمليات العربان الفلسطينيين العدوانية ضد المجتمع المصري، خلال فترة الحكم العثماني

تقويم :

هكذا نرى ان الفلسطينيين، قد قاموا بدور كبير في تاريخ مصر في العصر العثماني، واذا كان الاقليمان يكونان في ظل الحكم المملوكي جناحين لجسم واحد هوالامبراطورية المملوكية، فلا توجد قيود تحد من العلاقة بينهما، ورغم انهيار هذه الامبراطورية، فان العلاقة بينهما في ظل الحكم العثماني بقيت قائمة، ورغم الذي حدث في السلطة الادارية والسياسية، لذا بقيت الصلة بين الاقليمين مستمرة، وظلت احداث كل منهما واحواله تتأثر بأحداث الاقليم الاخر وتؤثر به، فالعلاقات الاقتصادية استمرت على حالها، وظلت السلع الشامية توزع في المدن والقرى المصرية على يد أبناء فلسطين وقد سجل علماء الحملة الفرنسية ذلك كما سبقت الاشارة وكذلك فعلت وثائق المحكمة الشرعية مدللة حجم السلع التي كانت تستوردها مصر من بلاد الشام، من دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وصفد والقدس وغزة على يد هؤلاء التجار الفلسطينين كما تسجل لنا هذه المصادر ان بعض التجار الفلسطينيين استطاع ان يكون رأس مال ضخم، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فان الروابط الثقافية بين الاقليمين رغم ما يقال عن التخلف الذي

اصاب الحياة الثقافية في ظل الحكم العثماني فان التراجم التي سجلتها المصادر المعاصرة ووثائق العصر لعداء الفلسطينين الشوام الذين أتوا الى مصر وتعلموا فيها وعلموا ودرسوا ، ثم ارتحلوا الى بلادهم وتصدوا للتدريس فيها لتثبت قوة هذه العلاقة ونشاطها بل وازدهارها فكثير من المصادر ، والتراجم والمصنفات من مختلف فنون العلوم النقلية والعقلية وضعت على يد هؤلاء العلماء .

اما العلاقات الاجتماعية بين الاقليمين فكانت نتاجا طبيعيا للعلاقات الاقتصادية والثقافية ، فلا شك ان اقامة بعض طوائف الفلسطينين في مصر وارتحالهم منها واليها ادى الى امتزاجهم وتأثيرهم في المجتمع المصري ، وتأثر عادات وتقاليد وذوق كل من الاقليمين بعادات وتقاليد وذوق مجتمع الاقليم الآخر ، وظل هذا التأثير قائماً حتى يومنا هذا ولم يعد قصرا على العصر العثماني كما سبقت الاشارة .

خلاصة القول ان العلاقة بين الاقليمين كانت علاقات تأثر وتأثير اخذ وعطاء بين اقليمين من امة واحدة مهما اختلفت صورة الحكم والهيئة والحاكمة . ■

مصادر البحث

اولا : وثائق المحكمة الشرعية المصرية (غير منشورة) :

توجد هذه الوثائق بأرشيف المحكمة الشرعية ، المحفوظ بمقر الشهر العقاري المصري بشارع رمسيس بالقاهرة ، والسجلات التي استعملت في البحث هي :

١ – سجلات محكمة القسمة العسكرية .
٢ – سجلات محكمة الصالحية النجمية .
٣ – سجلات اسقاط القرى .

ثانيا : المخطوطات غير المنشورة :

١ – البكري (محمد بن أبي السرور)
اللطائف الربانية على المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨٠) تاريخ .

٢ – يوسف الملواني
تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦٢٣ تاريخ ، مصورة عن النسخة الاصلية المكتوبة بخط المؤلف والمحفوظة بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوي بسوهاج تحت رقم (٨٠) تاريخ .

ثالثا : المصادر المطبوعة :

١ – البكري (محمد بن أبي سرور) كشف الكربة في رفع الطلبة تحقيق دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن المجلة التاريخية المصرية « مجلد ٢٣ » سنة ١٩٧٦م .
٢ – الجبرتي : (عبد الرحمن بن حسن) ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ٤ أجزاء طبع القاهرة ١٩٠٤م .
٣ – خفاجي (محمد عبد المنعم) الازهر في الف عام ، الجزء الثاني – القاهرة .
٤ – شابرول (ج . دي) دراسة في عادات وتقاليد سكان المحدثين وصف مصر ، الترجمة الكاملة ، ترجمة زهير الشايب ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٧٩م .
٥ – رافق ، عبد الكريم (دكتور) بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ – ١٧٩٨م ، الطبعة الثانية ، دمشق سنة ١٩٦٨م .
٦ – عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) الريف المصري في القرن الثامن عشر ، طبع جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٤م .
٧ – عبد الغني (أحمد شلبي) أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشيات تحقيق وتقديم دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٩ .
٨ – عوض (عبد العزيز نمحمد) ، دكتور ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤م ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩م .
٩ – المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، طبع بيروت تاريخ .
١٠ – المرادي (محمد خليل) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، طبع بغداد ، مكتبة المتنبي .
١١ – Ramond, Andre, Artisans Et Commercants Au Caire Au XVIIIe Siecle II Tomes. Damas. 1973.



معركة الفالوجا

بقلم الرئيس الراحل
جمال عبد الناصر

على أرض المعركة في سيناء ١٩٤٨

كانت مجلة المصور. قد عثرت على مقال كتبه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٤٩ عن معركة عراق المنشية بعد عودته من فلسطين في مايو (ايار) ١٩٤٩. وكانت قد نشرته مجلة سلاح المشاة الذي كان يضم جمال عبد الناصر ضابطا مقاتلا حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وفي باب «وثائق من التاريخ» ترى مجلة تاريخ العرب والعالم، ان تعيد نشر هذه الوثيقة التاريخية في هذا الباب ولأنها تملك اكثر من اهمية ودلالة، فمعركة عبد الناصر بدات في الفالوجا.

تقع عراق المنشية على مسافة ١٨٠٠ ياردة من مستعمرة جات الواقعة في الشمال، ويفصل عراق المنشية عن هذه المستعمرة وادي التل وهو يعتبر مانعا طبيعيا ضد الدبابات ما عدا جزءا صغيرا منه عند طريق السكة الحديد القديم. وتعتبر الارض بين عراق المنشية ومستعمرة جات كثيرة التعاريج، وهي تحتوي على عدد كبير من الوديان الفرعية. اما عراق المنشية فمنخفضة نسبيا عن سطح الارض المحيطة بها. وبها عدد كبير من سياجات التين الشوكي حولها وداخلها. ويوجد بها تل عال يسمى تل الشيخ علي وهو يشرف على كل المنطقة المحيطة بها.

١ - الدفاع عن عراق المنشية:

كان العامل الأساسي في وضع خطط الدفاع عن عراق المنشية ملاحظة سهول المراقبة ليلا نظرا لتعود العدو على القيام بالهجوم دائما في الليل واختياره الليالي الشديدة الظلام. وهو يتقن عمليات الهجوم الليلية.. ماهر في التسلل ويساعده على ذلك كثرة الاودية.

وضعت خطة الدفاع عن عراق المنشية على اساس عمل خط دفاعي حولها والاحتفاظ باحتياطي داخل البلدة.

٢ - طريقة الدفاع:

قسم الخط الدفاعي عن عراق المنشية الى قطاعين:

قطاع: شمال عراق المنشية.

قطاع: جنوب عراق المنشية.

عين الحدود بين القطاعين الطريق الاسفلت من الفالوجا الى بيت جبرين.

(أ) **القطاع الشمالي**: يواجه هذا القطاع مستعمرة جات ويقوم بالدفاع عنه السرية الرابعة من الكتيبة السادسة مشاة.

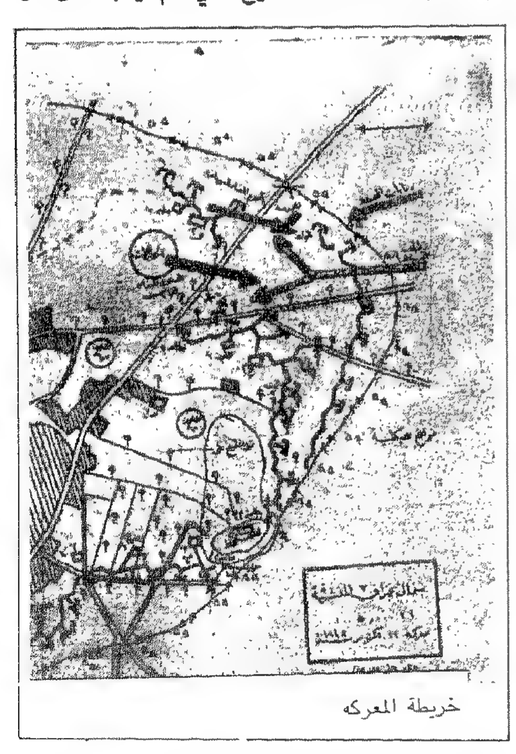
فصيلة من الكتيبة التاسعة احتياطي.

جماعتان مدافع ماكينة متوسطة (كان تنظيم الفصيلة في الميدان ثلاث جماعات)

جماعة ٦ رطل.

جماعة هاون ٣.

كان الخط الدفاعي يمتد في هذا القطاع من المدرسة الى تل الشيخ علي ثم يتجه من تل



خريطة المعركه

الشيخ علي الى الطريق الاسفلت المتجه الى بيت جبرين وعند مرور القائد العام طلب ان تتخذ الفصيلة الموجودة بجوار المدرسة مواقع دفاعية في التين الشوكي على ان تبقى المواقع الاصلية كمواقع هيكلية لتضليل العدو وقد نفذ ذلك

ووزعت الفصيلة الملحقة من الكتيبة التاسعة احتياط على فصائل السرية الرابعة واتخذت السرية الرابعة مواقع دفاعية كالآتي :

الفصيلة العاشرة : جماعة تحتل المدرسة على ان يقوم جزء منها باحتلال الدشم الموجودة بجوار المدرسة لايهام العدو ان هذا الخط هو الخط الأساسي . جماعتان في التين الشوكي غرب تل الشيخ علي .

الفصيلة الحادية عشرة : جماعة شمال غربي الشيخ علي . جماعة فوق تل الشيخ علي ومعها نقطة مراقبة من جماعة المخابرات . جماعة في التين الشوكي شرق تل الشيخ علي .

الفصيلة الثانية عشرة : جماعتان في سياجات التين الشوكي شرق عراق المنشية جماعة في التين الشوكي الى الطريق الاسفلت المتجه الى بيت جبرين .

مدافع الماكينة : جماعة على سفح تل الشيخ علي من جهة الغرب . جماعة على سفح تل الشيخ علي من جهة الشرق .

وبذلك يمكن للجماعتين غمر كل القطاع بالنيران من المدرسة الى الطريق الأسفلت المتجه الى بيت جبرين .

المدفعية ض/د : وضع مدفع ٦ رطل شرق القطاع ووضع المدفع الآخر غرب القطاع .

الهاون ٣ وضعت جماعة الهاون ٣ جنوب تل الشيخ علي .

الأسلاك والألغام : وضعت الغام ضد الدبابات وضد الأشخاص حول هذا القطاع ، كما اقيم مانع سلك مزدوج .

(ب) **القطاع الجنوبي** : يقوم بالدفاع عن القطاع الجنوبي : السرية الثانية سودانية . فصيلة من الكتيبة التاسعة احتياط . جماعة مدافع ماكينة متوسطة .

(جـ) **الهاون ٢ و ٤** : كان يوجد بعراق المنشية فصيلة هاون ٢ و ٤ وقد عين لها واجبات نيران دفاعية ونيران نجدة حول عراق المنشية .

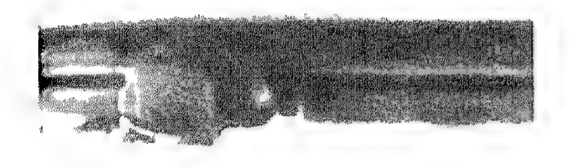
(د) **المدفعية** : تروب مدفعية ٤,٥ موجودة في الفالوجا في المعاونة وله واجبات نيران دفاعية ونيران نجدة .

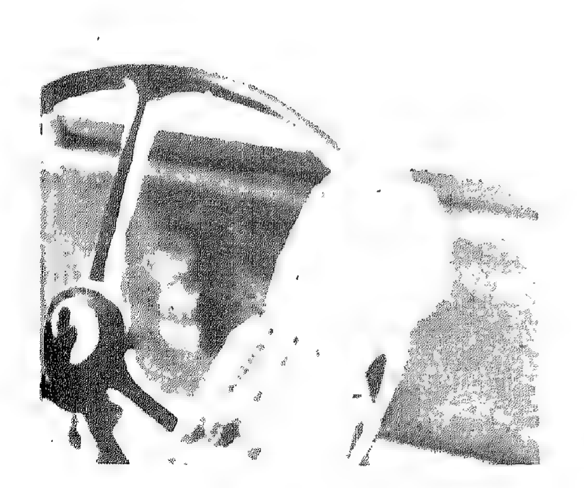
(هـ) **الاحتياط** : فصيلة من السرية الاولى . فصيلة الحمالات (عدا جماعة) . وقد كانت الحمالات توزع وقت الغروب لاعطاء عمق للخط الدفاعي .

٣ - عمليات العدو ليلا ١٥ و ١٦ اكتوبر :

في الساعة ٢٠٠٠ يوم ١٥ اكتوبر قام العدو باحتلال خربة عطا الله شمال شرق خربة الامير ، وبدأ في محاولة التوغل في اتجاه الجنوب بين خربة الراعي وخربة حمدي وكانت تحتل خربة الراعي فصيلة من السرية الثانية ويقوم بالدفاع عن خربة حمدي المتطوعون العرب اشتبكت الفصيلة الموجودة في خربة الراعي مع العدو ومنعته من التقدم في اتجاه الجنوب وارسلت دورية استطلاع فأفادت ان العدو يقوم بالحفر في خربة عطا الله .

يقود سيارة عسكرية على ارض المعركة في سيناء ١٩٤٨ .





اعتقدنا ان خطة العدو هي فتح طريق من الشمال للجنوب من خربة عطا الله عن طريق خربة الراعي وخربة الامير ولذلك تقرر ارسال الفصيلة الاحتياطية الموجودة بعراق المنشية لتعزيز السرية الموجودة بخربة الامير وخربة الراعي. وتم ذلك حوالي الساعة ٢٣٣٠ يوم ١٥ اكتوبر.

٤ - الهجوم على عراق المنشية:

(أ) مدفعية العدو: في الساعة ٥٠٠ يوم ١٦ اكتوبر بينما كانت الكتيبة تقوم بالتجهيز لطرد العدو من خربة عطا الله قامت مدفعية العدو ومدافع الهاون بضرب عراق المنشية ضربا شديدا وكانت تجمعات المدفعية





حامل علم الكتيبة في طابور احتفال عام ١٩٤٠.

تسقط على المواقع الدفاعية وعلى مواقع الهاون ٣ والهاون ٤,٢ ومنطقة الشؤون الادارية للكتيبة ولاقت منطقة المدرسة والمواقع الدفاعية الهيكلية اعنف هذه التجمعات: كان ضرب المدفعية مفاجئاً فسبب خسائر في الافراد. تقطعت كل المواصلات التليفونية بين الكتيبة والسرايا وبين السرايا والفصائل وبين الكتيبة ونقطة المراقبة الموجودة فوق تل الشيخ علي.. وقام افراد فصلية الاشارة لاصلاح الخطوط تحت نيران المدفعية الشديدة. اصبحت جماعة الهاون ٣ غير قادرة على العمل لكثرة الخسائر في الافراد. ولم يصب اي موقع من المواقع الدفاعية.

(ب) الهجوم الاول: في الساعة ٦٠٠ ظهرت ست دبابات متقدمة في اتجاه الفصيلة العاشرة ويتبعها المشاة، وقد استطاعت الدبابات اقتحام حقل الالغام وتعطلت منها دبابة واحدة في حقل الالغام. وقد اتجهت اربع

معركة الفالوجا .. على مسرح عراق المنشية

للصاغ أركان الحرب

جمال عبد الناصر

[يسر المجلة أن تقدم صورة عن هذه المعركة التى كان لها أكبر الأثر فى تحطيم الهجوم المدرع الذى قام به العدو ، بقلم أركان حرب حامية عراق المنشية التى كانت الجناح الأيمن لمنطقة الفالوجا ، وقد استخلص منها الدروس المستفادة التى تميزت بالحقيقة الواقعية والبعد عن الأطناب]

تقع عراق المنشية على مسافة ١٨٠٠ ياردة من مستعمرة جات الواقعة فى الشمال ، ويفصل عراق المنشية عن هذه المستعمرة وادى التل وهو يعتبر مانعاً طبيعياً ضد الدبابات ماعدا جزءاً صغيراً منه عند طريق السكة الحديد القديم . وتعتبر الأرض بين عراق المنشية ومستعمرة جات كثيرة التعاريج ، وهى تحتوى على عدد كبير من الوديان الفرعية . أما عراق المنشية فمنخفضة نسبياً عن سطح الأرض المحيطة بها . وبها عدد كبير من سياجات التين الشوكى حولها وداخلها . ويوجد بها تل عال يسمى تل الشيخ على وهو يشرف على كل المنطقة المحيطة بها .

١ — الدفاع عن عراق المنشية :

كان العامل الأساسى فى وضع خطط الدفاع عن عراق المنشية ملاحظة سهول المراقبة ليلا نظراً لتعود العدو على القيام بالهجوم دائماً فى الليل واختياره

دبابات لمواقع الجماعة الثانية بالتين الشوكي واخترقتها الى رياسة الفصيلة العاشرة ثم التفت وسارت في اتجاه الطريق الاسفلت واتجهت الدبابة الخامسة الى موقع المدرسة وتمكنت من تعطيل المدفع ٦ رطل الموجود في هذا القطاع. وقد انسحبت الجماعة الاولى الموجودة بالمدرسة الى مواقع سرية المعاونة المجاورة لها. اما الجماعة الثانية الموجودة في التين الشوكي فقد انسحبت الى تل الشيخ علي الموجود خلفها وثبتت الجماعة الثانية ومدافع الماكينة والفصيلة الحادية عشرة في مواقعها واستمرت في فتح نيرانها على مشاة العدو المتقدمة، وبذلك لم تتمكن المشاة عدا عدد قليل من عبور الاسلاك الشائكة. وقام قائد سرية المعاونة بحماية الجنب الايمن للقطاع الجنوبي وثبتت قواته في مواقعها. وتمكنت الفصيلة العاشرة بعد ان استفاقت من المفاجأة من تعطيل دبابتين بالبيات.

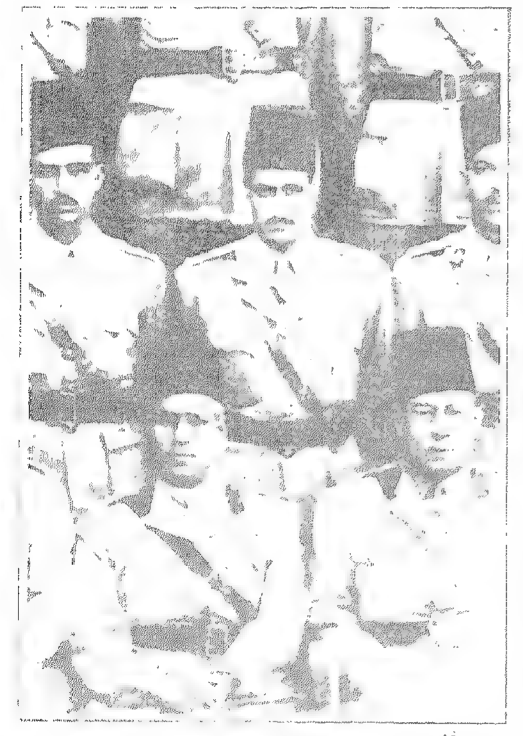
٥ - التصرفات وقت المعركة:

عندما بلغ قائد السرية الرابعة رياسة الكتيبة ان العدو متقدم بالدبابات في اتجاه الفصيلة العاشرة امرت بنقل المدفع ٦ رطل الموجود في الشرق الى المكان المهدد ونفذ ذلك في الحال وامرت فصيلة الهاون ٤,٢ بغمر المنطقة بين جات وعراق المنشية بالنيران. وطلبت من تروب المدفعية ٤,٥ الموجودة بالفالوجة بضرب مستعمرة جات وطلبت من رئاسة اللواء ضرب تجمعات العدو في مستعمرة جات بالطيران وإرسال مدفعية ٦ رطل.

بلغ قائد السرية الرابعة رئاسة الكتيبة ان العدو اخترق مواقع السرية الرابعة بالدبابات والمشاة واحتل المدرسة ثم انقطع الاتصال التليفوني مع السرية، وكانت مدفعية العدو وهاوناته مستمرة في ضرب الجزء الجنوبي والجزء الشرقي من عراق المنشية واصبحت رئاسة الكتيبة معزولة بعد انقطاع جميع المواصلات التليفونية فقرر القائد ان ينتقل الى مركز رئاسة السرية الرابعة للاتصال بالمعركة وان يقوم اركان الحرب بتنظيم هجوم مضاد لاستعادة المدرسة وسد الثغرة.

٦ - الهجوم المضاد:

(أ) **الخطة**: عملت خطة الهجوم المضاد بسرعة على ان يتم الحال حتى يمكن الامساك



بين قادة فرقته عام ١٩٤٥

«ان الثورة ليست عمل فرد والا كانت انفعالا شخصيا يائسا ضد مجتمع باكمله. والثورة ليست عمل فئة واحدة والا كانت تصادما مع الاغلبية.

وانما قيمة الثورة الحقيقية بمدى شعبيتها، وبمدى ما تعبر به عن الجماهير الواسعة، وبمدى ما تعبئه من قوى هذه الجماهير لاعادة صنع المستقبل. وبمدى ما يمكن ان توفره لهذه الجماهير من قدرة على فرض ارادتها على الحياة»

جمال عبد الناصر

بالعدو وهو غير منظم، ونظرا لارسال الفصيلة الاحتياط الى خربة الامير ليلا فقد تقرر سحب فصيلة من القطاع الجنوبي لاستعادة المدرسة. ونظرا لعدم وجود مدافع مضادة للدبابات للاشتراك في الهجوم المضاد فقد تقرر ان تقوم اطقم البيات الموجودة في فصيلة الحمالات باصطياد الدبابات، وتقوم فصيلة الحمالات بسد الثغرة التي فتحت في الخط الدفاعي.

(ب) **سير المعركة**: ارسلت رسالة مع ضابط الى قائد السرية السودانية الثانية يطلب منه فيها سحب فصيلة من الخط واستعادة المدرسة وقد نفذ هذا الامر في الحال وقام بنفسه على راس الفصيلة وتمكن من استعادة المدرسة وقد استشهد قائد السرية وجرح سبعة من افرادها.

تمكن قائد الفصيلة العاشرة من إصابة دبابة ثالثة بنفسه بأن تسلل خلال التين الشوكي حتى اصبح على مسافة عشرة امتار منها واطلق عليها البيات.

تقدمت فصيلة على الحمالات الى ارض المعركة وقام اطقم البيات بضرب الدبابات الباقية من سياجات التين الشوكي الموجود على الطريق الاسفلت فاضطرت الدبابتان الباقيتان الى الانسحاب وتم استعادة الموقع بأكمله الساعة ٧٠٠.

وجدت ١٧ جثة بأرض المعركة منها ثلاث نساء يعملن على الاجهزة اللاسلكية الموجودة بالدبابات. وتسلم العدو ٦٧ جثة كانت على مقربة من الأسلاك الشائكة.

٧ - الهجوم الثاني:

كان الطريق بين عراق المنشية والفالوجة مغمورا بنيران الاسلحة الصغيرة ونيران المدفعية وكان من المحال استعماله. وفي الساعة ٧٢٠ وصل الى عراق المنشية باقي السرية الاولى الذي كان بالمجدل وقوته فصيلتان وقد استعملت طريقا خلفيا بين الفالوجة وعراق المنشية فاحتفظ بها كاحتياط. وفي الساعة ٧,٣٠ وصل ٤ مدافع ٦ رطل من اسدود وضع ثلاثة منها في القطاع الذي هوجم ووضع الرابع جهة الشرق ووصلت ذخيرة للهاون ٤,٢ واصيبت احدى عربات الذخيرة بطلقة من مدفعية العدو فنسفت. واستمر العدو بعد خيبة هجومه في ضرب عراق المنشية بالمدفعية والهاون.

وفي الساعة ١٠٠٠ تقدمت ست دبابات معادية لمهاجمة القطاع نفسه الذي هوجم ولكن قوبلت بنيران شديدة من مدافع ٦ رطل واصيبت منها دبابتان وغمرت فصيلة الهاون ٤,٢ المنطقة المتقدم منها العدو وضربت المدفعية الموجودة بالفالوجة مستعمرة جات والتجمعات الموجودة حولها. وقد انسحب العدو تاركا الدبابتين العاطلتين.

٨ - الهجوم الثالث:

في الساعة ١١٠٠ ارسلت رياسة القوات تروب ٢٥ رطل من اسدود الى الفالوجة وقد ساعد مع التروب ٤,٥ على ضرب تجمعات العدو في مستعمرة جات وفي الساعة ١٦٠٠ بدأ العدو محاولته الاخيرة في الاستيلاء على عراق المنشية ولكن انسحبت دباباته بسرعة عندما قوبلت بنيران المدافع ٦ رطل ونيران المدفعية.

٩ - الدروس المستفادة:

(أ) إن ثبات المشاة ورباطة جأشها وقوة عزيمتها يمكنها من التغلب على هجوم الدبابات فقد ساعد ثبات الجنود في مواقعها الدفاعية وبخاصة بعد اختراق

«لقد اثبتت التجربة، وهي ما زالت تؤكد كل يوم، ان الثورة هي الطريق الوحيد الذي يستطيع النضال العربي ان يعبر عليه من الماضي الى المستقبل.

فالثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الامة العربية ان تخلص نفسها من الاغلال التي كبلتها ومن الرواسب التي اثقلت كاهلها. فان عوامل القهر والاستغلال التي تحكمت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لن تستسلم بالرضا.

جمال عبد الناصر

١٥ نيسان ١٩٤٨ في رحلة
ميدانية لكلية اركان الحرب في سيناء



استغلال النجاح نظراً لعدم تمكن المشاة من الوصول الى غرضها .

(ج) كلما جاء الهجوم المضاد سريعاً ضد العدو اينما نجح كلما سهل الامساك به غير منظم وغير مستعد فقد كان الهجوم المضاد السريع عاملاً حاسماً في التأثير على المعركة فقد قامت السرية السودانية باستعادة المدرسة بسرعة مما ساعد على رفع الروح المعنوية واشعر القوات ان المعركة تتطور في صالحنا .

(د) تستطيع المشاة ان تعتمد على اسلحتها الخاصة في مقاومة الدبابات ولا يحتاج ذلك إلا للثبات والعزيمة فقد تمكنت الفصيلة العاشرة رغم المفاجأة من تعطيل ثلاث دبابات بالبيات .

(هـ) من السهل نسبيا الاستيلاء على اي موقع متى كانت هناك معاونة جدية للقوات لكن الصعوبة هي في الاحتفاظ بهذا الموقع فقد تمكن العدو من عبور الالغام والاسلاك والاستيلاء على مواقع الفصيلة العاشرة ولكن لم يستطع الاحتفاظ بهذه المواقع ■ العدو واكتساحه لموقع إحدى الفصائل على السيطرة على الموقف، والعمل على عدم اتساع الثغرة، واصطياد دبابات العدو من مسافة قريبة .

(ب) إن نجاح الدبابات في الهجوم بدون المشاة يجعل الامل في نجاح المعركة ضعيفاً . فان نجاح المشاة في الدفاع ضد هجوم الدبابات والمشاة يتوقف على فصل الدبابات عن المشاة فقد كانت الدبابات داخل عراق المنشية ولكن لم تتمكن من

« ان معركة السويس التي كانت احد الادوار البارزة في التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصري نفسه، او اكتشفت فيها الامة العربية امكانياتها فقط، وانما كانت هذه اللحظة عالمية الاثر رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على امرها ان في نفسها طاقات كامنة لا حدود لها، وانها تقدر على الثورة، بل ان الثورة هي طريقها الوحيد » .

جمال عبد الناصر



مدن عربية

صنعاء

إعداد : شذا عدرة

لؤلؤة العرب ، هكذا قالوا عن مدينة من اكثر مدن العرب اصالة ، مدينة سكن التاريخ فيها منذ الازل ، مدينة شيد في اقصى طرفها الشرقي طود شامخ ، احد عجائب العالم القديم في الهندسة المعمارية ، سد مأرب الذي تم بناؤه وبلغ ذروته في القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو لا يزال قائما حتى يومنا هذا شاهدا على حضارة عريقة ، مدينة وصفها البعض كالفتاة الاسطورية ، من سرَّتها الخضراء ابتدأ التاريخ الاخضر للبشرية ، ومن فمها الرَّيان انبثقت انهار الحكمة ، هذه هي صنعاء اليمن ، لؤلؤة العرب والتي يعودون اليها مهما طال السفر .

« اثنا عشر يوما في المشقات والوهلات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها . اي صنعاء ، مثَّلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ومثَّلك لنا العلم فكنت يوما ربة العرفان ، ومثلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . اجل ، فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك . ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الآمال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب المقدسة النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم . وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير . كنا نظنها اسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال . ولكنها في الحقيقة في اعلى مكان » .

هذا ما جاء على لسان امين الريحاني الرحالة اللبناني ، في وصف مدينة صنعاء اول مدينة عمرت بعد الطوفان ، ولذلك اول تسمية اطلقت عليها باسم بانيها « سام بن نوح » ثم سميت فيما بعد باسمها الحالي نظرا لكثرة وجودة الصناعات اليدوية فيها كصناعة الاحجار الكريمة والرخام الشفاف وصياغة الحلي ، وعلى حد قول « ياقوت الحموي » فهي منسوبة الى جودة الصنعة في ذاتها ، كقولهم امراة حسناء وشهلاء وهلم جرا ، والنسبة اليها صنعاني . وقيل ايضا ان سبب تسميتها بهذا الاسم هو ان الاحباش عندما استولوا على اليمن عام ٥٢٥م . ودخلوا صنعاء ، بهرتهم مبانيها الحجرية الحصينة فصاحوا : صنعة ، صنعة ، ومعناها حصينة فسميت صنعاء .

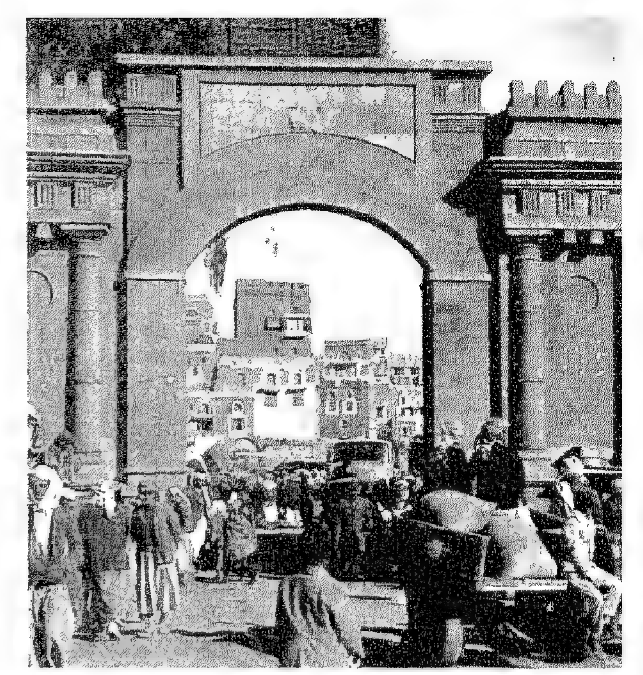
ومهما يكن من امر ، فان صنعاء تحتل في التاريخ مكانة رفيعة تستمد منها مقومات حضارتها الحالية .

فهي تتمتع بموقع جغرافي ممتاز إذ ترتفع عن مستوى سطح البحر نحو ٨٠٠٠ قدم ، ومناخها معتدل طوال ايام السنة ، تقوم بين جبلي عيبان من الغرب ونقم من الشرق .. وكانت محاطة بسور ضخم له ثمانية ابواب تغلق على اهل المدينة ، إلا ان معظمه قد تهدم في الستينات اثناء اعمال التجديد والتوسيع في المدينة ، ولم يبق منه سوى بعض الآثار وواحد من ابوابه وهو : باب اليمن !

صنعاء ومعالمها الحضارية :

اهم ما يميز صنعاء اليمن بأن معالمها الحضارية لا تزال عربية صافية روحا وشكلا ، فمبانيها العالية ذات الطوابق المتعددة تتميز بالاسلوب المعماري العربي الاسلامي الاصيل الذي ينأى بها عن اساليب العمران العصري ولا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوروبي . فالطوابق السفلى منها ، تبنى بحجارة البازلت السوداء والبيضاء والوردية ، اما الطوابق العليا فتشيد بالآجر لانه اخف وزنا وتزخرف الجدران والنوافذ المقنطرة من الخارج بالجص الابيض . وتبنى عادة في اعلى المبنى غرفة خاصة تسمى « المفرج » او المنظرة ، وهي غالبا تكون مطلة من جهاتها الاربع وتشرف على المدينة . وهي تفرش بالسجاد والوسائد المزركشة ولها نافذة يطل منها الجالسون على المناظر الطبيعية الجميلة .

ويبدو ان اليمنيين هم اول من شاد



باب اليمن

المباني ذات الطوابق المتعددة في التاريخ القديم وقصر «غمدان» الاسطوري الذي كان يرتفع لاكثر من عشرين طابقاً ولا تزال معظم رسومه باقية لشاهد حي على ما بلغه اليمنيون من تقدم في مجال الهندسة المعمارية وقد قيل في وصف ضخامته، إنه كان مربعا، بني احد اركانه بالرخام الابيض، والثاني بالرخام الاصفر، والثالث بالرخام الاحمر، وفيه سبعة سقوف طباقا ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا، وشيد في اعلاه مجلس من الرخام الملون سقفه قطعة واحدة من الرخام، ونصب على كل ركن من اركان هذا المجلس تمثال اسد ضخم، فكان إذا هبت الريح دخلت دبره وخرجت من فيه فيسمع لها صوت كزئير الاسد. وكانت المصابيح تسرج في ذلك المجلس العلوي ليلا فيصبح سائر القصر يلمع لمعانا يخطف الابصار.

ويبدو ان قصر غمدان قد تعرض لحريق، فها هو ابن الفقيه الهمذاني يذكر بأن غمدان قد احرق في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، وهدم في خلافة عثمان رضي الله عنه.

وقد اختلف الرواة في ذكر بانيه، فمنهم من يزعم ان النبي سليمان بن داود عليه السلام، امر الشياطين فبنوا لبلقيس ملكة سبأ، ثلاثة قصور بصنعاء هي غمدان، وسلحين وبينون. ومنهم من يرجع بناءه الى قائد عظيم يدعى «اليشرح اليخصب» الثاني الملك الحميري السبئي الذي استطاع اليمنيون بقيادته ان يسحقوا الجيش الروماني على جبال صعدة وعسير وسهل نجران.

وهناك ايضا قصر «دار الحجر» القابع على مشارف صنعاء، حيث يرتفع ستة طوابق فوق صخرة كبيرة. ويذكر البعض ان تاريخ بناء هذا القصر يرجع الى العصر الحميدي الذي امتد من عام ١١٥ ق. م. الى عام ٥٢٥م. وقد تعرض القصر للهدم والبناء حتى استقر على حالته النهائية، حيث اجري عليه بعض التصليحات والتجديدات وحول الى فندق من الدرجة الاولى.

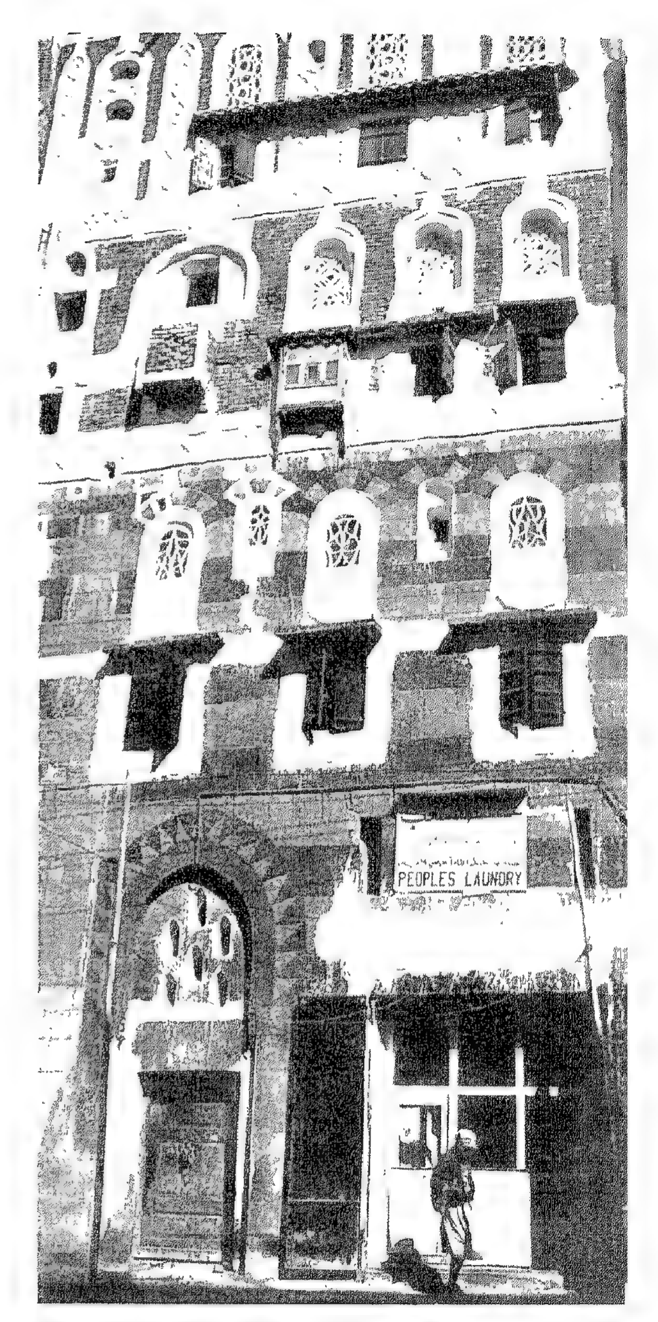
إلى جانب مباني صنعاء السامقة وقصورها الاسطورية، هناك مساجدها وجوامعها العامرة بمآذنها الرشيقة، وهي من الكثرة بحيث تستأهل افراد كتاب خاص بها يتناول تاريخ عمارتها وهندستها.

واقدم هذه الجوامع، هو جامع صنعاء الكبير الذي يعود تاريخه الى السنة السادسة للهجرة، ويقال بأنه اول مسجد عمّر باليمن في صدر الاسلام. وقد بناه «وبر بن يحنس الانصاري» صاحب رسول الله (صلعم).

وقال الرازي بن احمد بن عبد الله، بأن رسول الله (صلعم) امر وبر بن يحنس الانصاري حين ارسله الى صنعاء واليا عليها بقوله: «ادعهم الى الايمان، فان اطاعوا لك فاشرع لهم الصلاة، فان اطاعوا لك بها، فمر ببناء المسجد في بستان بأذان ما بين الصخرة الململة الى غمدان» وقيل «ان الصخرة المشار اليها هي الموجودة الآن في الصرح الغربي في اصول اساس الجدار الغربي من الجامع».

وقد تمت توسعة هذا المسجد في عهود مختلفة، ويقال ان اعمدة واحجار قصر غمدان قد استعملت في بنائه. وللجامع اثنا عشر بابا على احدها نقش قديم بالخط المسند الحميري.

وهناك ايضا، جامع «البكيرية» الذي بني عام ١٠٠٥ هـ ويمتاز بزخارفه ونقوشه الجميلة. وجامع «المهدي» وجامع «المتوكل» ومسجد «الروضة» وغيرها الكثير من بيوت الله



واجهة منزل تقليدية .

التي لا بد من ان تستوقف الزائر امام هيبة بنائها وجلال مآذنها .

والاستغراق في الحديث عن معالم صنعاء الحضارية من صروح ومساجد ، لا يجعلنا ننسى الاسواق القديمة التي تطل من حناياها عراقة اليمن وماضيها المجيد . تلك الاسواق المتلاصقة المتشابكة التي تضج بالحياة والحركة الدائبة من الشروق حتى الغروب .... وتزخر بالسلع المتنوعة التي تشتهربها صنعاء . فأنت تعبر سوق الحبوب والتوابل.. لتدخل سوق الصناع المهرة الذين يشكلون قطعا فنية من الاحزمة الذهبية المرصعة بالفصوص البديعة . او يتفننون في صنع الحلي التقليدية الذهبية منها والفضية ، ومن ثم تعبر باب اليمن الى سوق الملح الذي ما ان تدخله حتى تشعر وكأنك لم تغادر بداية عصر التجارة في تاريخ اليمن الاسلامي ، حيث العقود الكهرمائية والاحجار الكريمة وكأنها قد احضرها لتوها التجار اليمنيون الحاذقون من بلاد الهند والشرق الاقصى ... وسترى الحرفيين المهرة في صنع الجنبيات – اي الخناجر – ذوات المقابض المرصعة بالاحجار الكريمة .وستجد في نفس السوق البنادق الاثرية الطويلة . وهناك ايضا سوق الفاكهة التي تتوافد اليها مع خيوط الفجر الاولى قوافل المزارعين من سكان القرى الجبلية وهم يحملون مختلف انواع الفواكه من تمر وبرتقال وتفاح وعنب مشهور بلذة طعمه واختلاف انواعه – إذ تبلغ اصنافه حوالي الاربعين صنفا تنافس في حلاوتها اشهى كروم العالم .

إلى جانب ما ذكرنا من معالم صنعاء الحضارية القديمة ، لا بد لنا من الاشارة الى بعض الملامح من حضارتها الحديثة التي اعتمدت في اسسها على حضارتها الام .

فهناك سمات التطور العمراني الذي يظهر في احيائها من شوارع منسقة طويلة ، وميادين فسيحة خضراء ومستشفيات ومدارس عصرية . وتأتي جامعة صنعاء بكلياتها الخمس : الشريعة والقانون والعلوم والآداب والتربية لتؤكد على هذا التطور .

ولأن صنعاء هي عاصمة اليمن ، ففيها تتركز الحركة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهي محور بلاد اليمن وقلبها النابض . ولا يسعنا في ختام حديثنا عن « لؤلؤة العرب » إلا ان نردد مع الاجداد قولهم : « لا بد من صنعاء مهما طال السفر » .

ملف الوطن العربي

لبنان

لبنان والخلد اختراع الله
لم يوسم بأزين منهما ملكوته

أحمد شوقي
أمير الشعراء

إعداد قسم
التوثيق والإعلام

لبنان ذلك البلد الصغير الكبير ، الصغير بمساحته الكبير بحضارته . فمساحته تشغل رقعة صغيرة خضراء على بساط الكون يبلغ قياسها ١٠,٤٠٠ كلم٢ وتتوسط مجموعة البلاد العربية بما فيها الجزء السليب (فلسطين) . وأما حضارته فطويلة تعود بجذورها إلى الاف السنين . وها هو المؤرخ اللبناني الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك يقول : «كانت هذه الارض – لبنان – في البدء تعرف باسم بلاد كنعان ، نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح ، وقد ورد ذكرها في التوراة مراراً على كونها أرض الميعاد المقدسة ، وكذلك ذكر اسم لبنان على أنه جبل في كنعان »[1] .

نزحت اليه في الألف الثالث قبل الميلاد جماعات مهاجرة ترتبط بالهجرة السامية الثانية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية متجهة إلى سوريا وسواحل البحر الأبيض الشرقية . ومن بين تلك الجماعات الآموريون والكنعانيون ومنهم الفينيقيون الذين نزلوا على طول الشاطئ السوري[2] . وقد أطلق المصريون اسم فنجو



أو فنقو على سكان هذا الساحل كما جاء في رسائل تل العمارنة . ومن هذه التسمية جاء الاسم اليوناني لسكان الساحل « فينيقيين »(٣) .

انتشر الفينيقيون على أثر هجرتهم على طول الساحل السوري مكونين مدنا عرفت بممالك الفينيقيين . امتدت من أوغاريت شمالا إلى أرواد وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وفي بعض الأحيان عكا جنوباً . ورويدا رويداً اتجهت نشاطاتهم نحو البحر ، ولم يعد نفوذهم يقتصر على تلك الممالك فقط ، بل امتد ليشمل مستعمرات أنشأوها في كل من فلسطين ومصر والجزيرة العربية وفي الحبشة وقبرص والجزر اليونانية وشواطىء ايطالية وفرنسة وارلندة واسبانية وشواطى تركية . وقد اجتازوا البوسفور الى حدود روسيا ، وتجاوزوا العالم القديم الى البرازيل ، وحيثما حلوا ، كانوا ينشرون نتاج حضارتهم وحضارات الشرق جميعا ، حتى ان عظمة اعمالهم الجريئة في اجتيازهم البحار وإنشاء المستعمرات تركت ذكريات لا تمحى في مخيلة السكان في كل مكان نزلوه(٤) .

وقد ازدهرت تلك المدن الفينيقية وصارت كل منها دولة مستقلة لها سياستها الخاصة بها ، إلا أنها جميعا اشتركت في خلق حضارة واحدة تعتبر من أقدم الحضارات الانسانية وأهمها ، فالفينيقيون هم أصحاب أهم اختراع عرفته البشرية ألا وهو الأبجدية التي حملوها ونشروها في كافة أرجاء المعمورة والتي لولاها لربما كانت الأرض غير الأرض التي نعيش عليها الآن والحضارة غير الحضارة التي نشهدها اليوم . كما أن الفنون الفينيقية كصناعة الزجاج والأرجوان والأقمشة وغيرها كان لها أثر كبير في الحضارة الغربية .

وبفضل اسفار ابناء الساحل المتواصلة – خاصة أبناء صور وصيدا – استطاعوا ان يجمعوا بين شعوب الشرق الاوسط وشعوب الغرب ويجعلوهم في اتصال دائم .

وتتسارع أحداث التاريخ على هذا البلد ، فيشهد اجتياح جيوش الحثيين فالأشوريين فالبابليين فالفرس لأراضيه . إلى أن كان القرن الرابع قبل الميلاد حيث جاء الاسكندر الذي لاقى مقاومة عنيفة من أبناء صور التي حاصرها



نيحا : على مدخل معبد روماني

مدة طويلة ، ولولا كثرة جيوشه وأساطيله لما استطاع احتلال المدينة التي خربها وجعلها أثرا بعد عين ، وحكمها خلفاؤه من بعده حتى سنة ٦٤ م . حيث الحقها القائد الروماني بومبيوس الكبير بالامبراطورية الرومانية .

عني العهد الروماني بهذه البلاد ، فشق الطرقات وبنى الجسور وزرع الاحراج ومد الأقنية للري ، إلا أن أهم انجازاته هو انشاء مدرسة الحقوق في بيروت التي لقبها الملك يوستنيانوس الأول « بأم العلوم وظئر الشرائع » ، وتشييد هيكل بعلبك الذي لم تعرف البشرية له مثيلا . وعندما قسمت الامبراطورية الرومانية بين بيزنطية – الشرق – وروما – الغرب – كان لبنان من نصيب بيزنطية ، وظل

هكذا حتى جاء الفتح العربي الذي استقر بمجيئه وجه لبنان الحضاري وهو ما زال يحتفظ بوجهه العربي حتى اليوم .

الفتح العربي .

دخل لبنان مرحلة جديدة من مراحل تاريخه الطويل ، متعاقبة عليه موجات حكم منطبعة بتقلبات السياسة العربية . ونال ما نال المنطقة العربية من ازدهار حيناً وضعف حيناً آخر وولي الامر فيه الأمويون فالعباسيون الذين شهد لبنان ابان حكمهم ظهور إمارة عربية على يد التنوخيين . وقد اتسعت تلك الامارة شمالا وجنوبا حتى أن أميرها النعمان عرف بلقب أمير الدولة العباسية . كما أن قبائل بني مرداس أقامت لها في مطلع القرن الحادي عشر إمارة كبيرة في لبنان وسوريا . ثم ظهر حكم بني عمار العربي في طرابلس . هذا إلى جانب نزوح عدد كبير من القبائل العربية إلى لبنان(٥) . وفي وقتنا الحاضر كثير من العائلات اللبنانية التي ترجع في أصلها إلى عروق وقبائل عربية خالصة كالمعنيين والتنوخيين وعلم الدين والشهابيين وأبي اللمع وارسلان وغيرهم(٦) .

وما إن شارف القرن الحادي عشر على نهايته ، حتى تعرض لبنان للغزو الصليبي الذي احتل ساحله. وقد لبث فيه قرابة تسعين عاماً احتل بعدها صلاح الدين الأيوبي مدينة بيروت . أما هزيمتهم الأخيرة فقد تمت على يد مماليك مصر وبهذه الهزيمة انتقل الأمر في لبنان إلى المنتصر الجديد الذي اتسم حكمه بالفوضى والبلبلة . ولكن بالرغم من ذلك فقد ظل الأمراء التنوخيون محافظين على كيانهم في حكم جبل لبنان تحت زعامة المماليك .

ثم كان العهد العثماني الذي انتصر على الوجود المملوكي بعد معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م . ودام حكمه طوال أربعة قرون أصبح لبنان خلالها ولاية من ولايات الامبراطورية التي لم تكن الشمس لتغيب عن حدودها . وقد ظل ينعم في قلب هذه الامبراطورية بشبه استقلال ذاتي يحكمه أمراء ومشايخ محليون كانوا أتباعا لولاة دمشق أو عكا في فلسطين . ومن هؤلاء أمراء وطنيون أمثال فخر الدين والأمير بشير الثاني الشهابي .

كانت سياسة الأول قائمة على التسامح الديني في الداخل ، وهذا أن دل على شيء فانما يدل على مدى بعد نظره في سياسة الأمور وإدراكها وقائمة على الانفتاح على العالم الخارجي في محاولته لالتماس الحضارة من منابعها ابان ذلك العهد . وليس من شك أن اتصاله بالغرب الأوروبي قد فتح له نافذة على أوروبا التي كانت آخذة ببناء نهضتها الحديثة .

أما الثاني فيعتبر وريث الأمير فخر الدين المعني الثاني من حيث الذكاء والطموح الوطني ، وقد استطاع أن يصمد مدة نصف قرن وأكثر أمام أحداث قلقة اجتاحت لبنان . وقد سجل عصره حركة عمرانية كبيرة تمثلت في شق الطرق وبناء الجسور وجر مياه نبع الصفا إلى العاصمة الجديدة بيت الدين ، كما سجل يقظة فكرية نشيطة ، إذ أنشئ عدد كبير من المدارس والمعاهد العلمية ، كمدرسة عين ورقة التي تحولت فيما بعد إلى معهد ثقافي عال اعتمد بعض الأساليب الأوروبية قاعدة له .

وبزوال الأمير بشير عن مسرح الحكم في لبنان في العاشر من تشرين الأول سنة ١٨٤٠ راح التاريخ الحديث للبنان يسجل بدء محاولات الدول الأجنبية للتغلغل في الشرق والسيطرة عليه ، وبدء عهد القائمقامية . وأخطر ظاهرة لتلك المحاولات في لبنان ظهرت في فتنة سنة ١٨٦٠م . التي كانت من أخطر ثلاث فتن نشبت في لبنان عام ١٨٤١ وعام ١٨٤٥ وعام ١٨٦٠م . أدت هذه الفتنة التي نفخ في نارها التنافس الدولي إلى تدخل الدول الأوروبية ووضع نظام أساسي للبلاد بالاشتراك مع السلطنة العثمانية . أبقى ذلك النظام على بعض امتيازات لبنان وسيادته ولكن بعد أن اقتطع

لي عرش منكم، ولي صولجانُ
وهواكم على الهوى سلطان

* * *

سألوا ، - تسأل الليالي عن الفجر
« - لماذا يحبها لبنان ...؟ »

* * *

أهو ذنبي إذا احبتني الناس
وذنبي تخيرتني اللجان

لميعة عباس عمارة



بيروت ١٩٢٠ : الزيتونة .

منه سهولة وكثيرا من أرضه ولم يبق له إلا جبله الذي قسمه أيضا إلى قائمقاميتين شمالية مسيحية وجنوبية درزية وجعل طريق الشام – بيروت حدا فاصلا بينهما(٧) .

وعاش لبنان في ظل هذا النظام وبحماية الدول الأوروبية حتى عام ١٩١٤ حيث نشبت الحرب العالمية الأولى التي دامت أربع سنوات تجرع خلالها الشعب اللبناني مختلف كؤوس العذاب . وما إن انتهت تلك الحرب عام ١٩١٨ حتى انتهى معها عهد آل عثمان الذي أخذت دول الحلفاء المنتصرة تقتطع إيالاته وتقتسم ميراثه فيما بينها . فكان لبنان – وكان قد استعاد حدوده الأولى – من نصيب فرنسا التي دام انتدابها عليه مدة خمسة وعشرين سنة ، ناضل خلالها الشعب اللبناني نضال الأبطال وبذل الغالي والرخيص من أجل تحقيق استقلاله .

وفي سنة ١٩٢٦ ، استطاع أن ينتزع من المستعمر الأجنبي دستوراً ونظاما ديموقراطيا وصار يعرف باسم الجمهورية اللبنانية فكان بذلك أول جمهورية تعلن في العالم العربي كله ، ومن ثم استكمل آخر خطوة في طريق استقلاله عام ١٩٤٣ عن طريق ثورة عارمة التف فيها الشعب اللبناني بجميع فئاته حول زعمائه الذين كانت قد اعتقلتهم السلطات الفرنسية التي لم تجد بدا في النهاية من الرضوخ لمطلب الجماهير الغاضبة فأفرجت عن الزعماء اللبنانيين وإعادتهم إلى مراكزهم في الحكم في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ الذي أصبح فيما بعد يوم الاستقلال في لبنان .

جغرافية لبنان :

« أما كلمة لبنان فاختلف العلماء في تفسيرها ، ولكنهم في أكثرهم قالوا بأنها في اللغات السامية القديمة معناها الأبيض وأن هذه البلاد سميت بذلك الاسم لأن قمم جبالها مغطاة بالثلوج أبداً . وقيل أيضا بأن كلمة لبنان مشتقة من لبان ، وهذه الكلمة في اللغات السامية الأولى معناها البخور ، وهي الصنوبر والكنوز واللبن التي نعرفها في لبنان ، وذهب المفسرون هذا التفسير لأن الأحراج التي ملأت



عنجر : القصر الاموي .

أراضينا كانت تفوح منها روائح ذكية تحاكي البخور[٨] » .

إنه في الشرق الأوسط مثل الجبل الأبيض في جبال الألب ، يقع في وسط الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وشرفته البحرية بطول ٢١٠ كيلومترا تحده سوريا شمالا وشرقا ، فلسطين جنوبا والبحر المتوسط غربا ، يمتد في الشمال إلى الجنوب ، فيبلغ مئة وتسعين كيلومترا بينما عرضه لا يتجاوز خمسة وسبعين .

في هذه البقعة الضيقة ، استطاع البلد الصغير، بمميزاته الطبيعية، أن يتحلى بمتناقضات جمة : فهناك سلسلة جبلية توازي شاطئ البحر وترتفع من ألف إلى ثلاثة الاف متر وهي تعرف باسم « جبل لبنان » أو سلسلة جبال لبنان الغربية . وهناك سلسلة أخرى تقع في الداخل ويفصلها عن الأولى سهل « البقاع » وهي تعرف بلبنان الشرقي أو سلسلة لبنان الشرقية . ويعتبر سهل البقاع أهم بقعة زراعية في لبنان يرويها نهر الليطاني في جنوبها ونهر العاصي شمالا . وتشمخ خلف السهول سلسلة جبلية اخرى تدعى حرمون او جبل الشيخ الذي يشرف على البقاع الجنوبي وعلى شمالي فلسطين ، وهي على مسافة ستين كيلو مترا تقريبا في البحر .

ايه لبنان هب لهم ما يشاؤون
وهب لي الا يقرّ الجنان
إن اظل التي تعلقك القلب
باضلاعها ، وهام البيان
كل يوم يطرز الارض من لبنان
نجم مداره الاكوان
دأبت بعلبك تستدرج التاريخ
تبني ، فيشمخ البنيان
ثم تهديه للدنا كلفا بالمجد
هذا الولوع والايمان
حضنت طفلة شباب الحضارات
فمن صرحها له عنوان
ههنا كل صخرة اينع المجد عليها
وشاخت الازمان

لميعة عباس عمارة

خلف التاريخ الطويل لهذا البلد الصغير تراثا تاريخيا كبيراً ، ما برح يقص علينا حكاية البشرية كلها بشتى مراحلها . فهناك آثار بعلبك وجبيل وصيدا وصور وبيت الدين وغيرها . تنطق حجارتها جميعاً باسطورة الأزمنة .

ونحن هنا أن جمعنا مدن لبنان وآثاره معاً ، فلقصد أردناه ، وهو بأن جميع مدن لبنان قديمة قدم الزمن ، ولا يمكننا فصلها عن التاريخ والحضارة وهي كل منها تنطق بما لديها من شواهد تاريخية عن مدى اهمية الدور الذي لعبته عبر العصور . وهي كمجموع تشكل آثارا واحدة تدل على ما للبنان الأثري من اهمية بالغة في تطور الحضارة البشرية .

بعلبك :

كانت بعلبك أهم مدن الشرق في العهد الروماني ، واسمها منسوب إلى الاله الفينيقي « بعل » وفيها شيد الفينيقيون معبداً لاله المدينة ، أما الرومان فأطلقوا عليها اسم هيليوبوليس (مدينة الشمس) غير أن الاسم الفينيقي القديم غلب على المدينة ، وابتنى الرومان فيها معابد وقلاعا . ففي ساحة الأضاحي يستطيع الزائر رؤية المذبح - البرج - الضخم ، وبقايا مذبح آخر . ثم يرى الفوهات الكبيرة والمقاعد الحجرية المنقوشة بدقة ، والمئة والثمانية والعشرين عموداً من الرخام الزهري اللون المجلوب من مصر ، وكتل الحجارة التي تؤلف المدرج الكبير الذي يوصل إلى السطيحة الاصطناعية المبني عليها هيكل جوبيتر ، الذي انتهى بنائه في السنة الستين للميلاد ، ثم يرى الزائر الأعمدة الضخمة الستة ، وحناياها ، التي ما تزال واقفة في هذا الهيكل . وقريبا منها هيكل باخوس . وهذا لم يفقد سوى مذبحه وسقفه وقسم من أعمدته الداخلية . أما هندسته فرائعة الدقة وافرة الغنى وقد بنى حوالي سنة ١٥٠م .. وعندما احتل العرب بعلبك أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، شيدوا داخل أسوار الهيكل الروماني ، مسجداً وألحقوا به مدرسة وحولوا الهيكل إلى قلعة .

وعلى الساحل اللبناني تقوم مدن خمس : صور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس .

صور :

هي مدينة فينيقية أبصرت النور منذ حوالي خمسة آلاف سنة ، كانت في ذلك الزمان مركزاً تجاريا هاما وعاصمة لامبراطورية فينيقية مترامية الأطراف ، ومنها كانت تبحر سفن الفينيقيين المحملة بالسلع إلى أنحاء العالم .

في القرن العاشر ق . م . طمر الملك أحيرام الفوهات البحرية وكبر مساحة المدينة وأنشأ فيها مرفأين صغيرين ومعبداً ضخما .

وقد كشفت الحفريات الأثرية عن الطريق الروماني الذي كان يوصل إلى صور ، وقد رصفت أرضه بقطع كبيرة جداً من الحجارة على أكثر من كيلومتر ، تتبعه قناة على أعمدة لجر المياه ، وإلى قربه قوس نصر كبير . وعلى جانبيه أكثر من مائتي ناووس تقص نقوشها أساطير هوميروس .

ونمشي قليلا لنجد طريقا مرصوفة رخاما وفسيفساء وعلى جانبيها ارتفعت أعمدة منقوشة ، تليها حلبة للمصارعة وحمامات وساحة للألعاب الرياضية ، وعلى مقربة من هذا كله ارتفعت أعمدة لكاتدرائية قطعت من الرخام الجميل وطليت بالذهب .

صيدا :

جاء في سفر التكوين أن صيدون (صيدا) هي أقدم المدن الفينيقية الكنعانية ، وتقول الالياذة انها مكان تصدير أجمل التحف الفينيقية . وقد صار الاسمان فينيقي وصيدوني مترادفين . وقد طوى التاريخ على هذه المدينة صفحات كثيرة ففي سنة ١٨٥٥م . اكتشف ناووس اشمون الشهير وفي سنة ١٨٨٧م . اكتشف ناووس تبنيت ثم النواويس الأربعة الجميلة المعروفة بنواويس الاسكندر .

وفي المدينة نفسها هناك آثار باقية تلفت الأنظار تعود للقرون الوسطى ، منها ، قصر البحر الذي بناه الصليبيون في القرن الثالث عشر ، واستخدمه « فرسان الهيكل » حصنا طوال ثلاثين سنة . ومنها الجامع الكبير وخان الفرنج الذي ارتفع بناؤه في العصر العثماني وهو نموذجا من المراكز التجارية المحصنة التي نشرها تجار مرسيلية في القرن السادس عشر في



مرجعيون: سوق الخان الاسبوعي

المرافئ الشرقية .

بيروت :

وهي العاصمة الحالية للبنـان ، اسمهـا سامي الأصل « بيريت » معناها الآبار . كانت مدينة صغيرة في العهد الفينيقي ، ثم نمـت وازدهرت في العهد الروماني حيث اشتهـرت بمعهد الحقوق الذي استقطب الطلبة من كل قطر ، ولكنها دمرت بالزلازل التي أصابتها في أواسط القرن السادس الميلادي ، فعادت مدينة صغيرة ثم توسعت وازدهرت في العهد العباسي والعهد الصليبي ، وقد أصبحت مركزاً تجارياً هاماً في عهد المماليك الذين قاموا بتوسيع مرفأها بسبب توسيع تجارتهم مع الأوروبيين وقد سمحوا لكل جالية من التجار بقنصل أو وكيل . وكان يحيط ببيروت سور مرتفع له أربعة أبواب : باب يعقوب ، باب ادريس ، باب الدركة وباب السرايا . وكانت هذه الأبواب تفتح في الصباح وتغلق في المساء . وقد ظلت مستعملة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما في وقتنا الحاضر فلم يبق منها إلا الاسم فقط .

جبيل :

هناك افتراض يقول بأن « جبال » القديمة أو« جبل ايل »التيصارت بيبلوس في النصوص اليونانية واللاتينية – تعد أقدم مدينـة في العالم . وهي في الواقع ما برحت مأهولة طوال سبعة آلاف سنة بلا انقطاع . وبفضل التنقيبات أصبح هناك وثائق عديدة عن كل عصر مرت فيه . وقد دلت الحفريات الأخيرة على وجود مدافن تعود إلى ما قبل العهد الفينيقي . وفي جبيل آثار تعود إلى عهود العموريين والحثيين والمصريين والفينيقيين والاغريق والرومـان والعهـود الوسطـى . وفيهـا قلعـة شيدهـا الصليبيون في القرنين الثاني عشر والثالـث عشر . وتقوم جنوب القلعة المدافـن الملكيـة وأهمها قبر احيرام الذي عليه أقدم نقـوش أبجدية مكتشفة . وإلى الشمال الغربـي من القلعة تقوم كنيسة مار يوحنا المعمدان التي شيدها الصليبيون سنة ١١١٥ .

طرابلس :

تعتبر العاصمة الثانية في لبنان ، وهـي مدينة تاريخية هامة لعبت دوراً كبيراً في التاريخ وآثارها لا تزال قائمة . وجدت طرابلس منذ العصر القديم كمرفأ بسيط على الساحل ولم تزدهر إلا منذ القرنين الثامن والسابع قبل المسيح خلال الفتح الأشوري حيث اتحدت المدن الفينيقية المتنافسة – صور وصيدا وجزيرة أرواد – واتخذت طرابلس عاصمـة لهـا . وجعلت لكل منها حياً خاصاً فيها وأطلق عليها اسم « ترييوليس » باليونانية ثم تحـول إلى « طرابلس » في الفتح العربي وهي ما زالت تحمل هذا الاسم .

جعلها العرب قاعدة هامة فتطورت وازدهرت زراعتها وتجارتها وصناعتها، كما أصبحت المرفأ البحري أيام الأمويين، ثم أصبحت في عهد آل عمار في القرن الحادي عشر من أهم المدن الاسلامية. صروحها تدل على



بيروت الحديثة : الروشة

عظمتها، فهناك القلعة التي تعود إلى زمن الصليبيين حيث بناها ريمون دي سان جيل وهي تضم في الجهة الشرقية منها القصر الذي ما زال يحتفظ ببعض بنائه الذي كان قد بدأه ذلك القائد الصليبي بمعونة البيزنطيين. وقد يكون أقدم نموذج باق من الهندسة المعمارية الفرنجية في لبنان وتشامخت على الشاطئ بروج عديدة لا يزال احدها قائما وهو «برج السباع» الذي بني في القرن الخامس عشر ولعله اجمل مخلفات المماليك على الشاطئ. وصروح ذلك العهد كثيرة، فبعضها ديني والبعض الآخر مدني، تؤلف جميعها مجموعة متكاملة جميلة منها المساجد، كمسجد الامير سيف الدين طينال الاشرفي والكتاتيب والمخازن والخانات والحمامات المتميزة بقببها الجميلة.

وليس في لبنان مكان آخر تظهر فيه وجوه هذه الحضارة بغنى أكثر. إلى جانب هذه المدن الساحلية التي يكاد تاريخ لبنان القديم والوسيط يرتكز عليها، هناك الكثير من المدن الداخلية التي لعبت دورا لا يقل أهمية في بعض الأحيان عن غيرها من مدن الساحل، كبيت الدين التي تعرف بالقصر الفخم الذي بناه الأمير بشير الشهابي على قمة صخرية تحيط به وديان سحيقة. والقصر نموذج جميل للفن المعماري العربي ذي الطابع اللبناني وقد بني في مستهل القرن التاسع عشر وداخله محلى بالنقوش والكتابة المزخرفة.

وهناك عنجر في سهل البقاع التي لا نستطيع اغفال دورها، فهي مدينة خلقيس عاصمة الأيطوريين الشجعان الذين وقفوا في وجه الرومان، وهي الريف الذي استهوى طيب مناخه وجمال موقعه الخليفة الأموي الوليد بن

- الرصافي، شاعر العراق:

«لله لبنان الذي هضباته ضحكت مغازلة مع الوديان»

- حافظ ابراهيم، شاعر النيل:

إذا تأملت في صنع الاله بها لم تلق في وشيه صنعا لانسان»

ليس شوقي والرصافي وحافظ، سوى شعراء ثلاثة اطلوا من موكب شعراء طويل، يبتدئ في المشرق العربي الادنى وينتهي في المغرب الاقصى. التقى جميعهم على حب لبنان والتغني بطبيعته الغنية بالروائع الالهية التي هيأته لان يكون فردوسا يطلق السنة واقلام الشعراء العرب بأجمل القصائد والخواطر التي تصور لبنان كقطعة من جنة الخلد. لذا يحق لهذا البلد الصغير ان نطلق عليه لقب «فردوس العرب».

عبد الملك ، أحد أكثر ملـوك العـرب ذكاء وتعميرا ، فبنى بـين سنتـي ٧٠٧ و ٧١٣ « مدينة » لاستجمامه وراحته على مقربة من أطلالها الرومانية والبيزنطية مستعملا بعض حجارة تلك الأطلال لتزيين رؤوس الأعمدة التي رفعها في عماراته .

وأحيطت مدينة الخليفة لحمايتها بأسوار شبه مربعة يبلغ جانب كل جدار منها أربعماية متر . وتسلحت على طولها ببروج مستديـرة وفتحت فيها أربعة أبواب ضخمة من الجهات الأربع(٩) .

هذا غيض من فيض مما اسبغت الطبيعة على لبنان من آيات جمالية وموقع جغرافي ممتاز جعلته محط انظار الشعوب على مدار الازمان .

وإن نحن تعرضنا لذكر المدن الآنفة ، فهذا لا يعني بأننا ننفي صفة الاهمية عن بقية المناطق اللبنانية ، لان كل بقعة من بقاع هذا الفردوس تنطق بما لديها من شواهد جمالية وتاريخية على ما كان لها من اهمية حضارية . ■

الهوامش

(١) محي الدين الخضري : البحرين ، الاصدار الثالث ، منشورات مجلة الوعد ، ص ٣١ – ٣٢ .

(٢) ممكن الرجوع في صدد صلات العرب بالساميين وهجراتهم الى : د . جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ١٤٨ – ١٦٦ . والى محمود كامل : العرب وتاريخهم بين الوحدة والتفرقة – القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٣ – ٣٦ . والى رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (ترجمة عبد الحميد الدواخلي) القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١ – ٢٢ .

(٣) يذكر الاستاذ ابراهيم يزبك المؤرخ اللبناني ، في محاضرة القاها في اليوم الاخير من المؤتمر العالمي الثاني للجامعة اللبنانية في العالم الذي عقد في بيروت في العشر الاخير من شهر آب عام ١٩٦٤ عن الفينيقيين اللبنانيين واصولهم وفروعهم بأن اسم بلاد كنعان بقي مشهورا بين الناس حتى اتصل اليونانيون والكنعانيون بعضهم ببعض ، واليونانيون مشهورون بتحريف الاسماء الاجنبية ، فحرفوا كلمة كنعان وشوهوها حتى جعلوها فينيقية ، وغلب هذا الاسم على الاصل وصار مستعملا في اللغات الاخرى .

(٤) ماسبيرو : تاريخ شعوب الشرق القديم ، ص ٢٨٠ .

(٥) كانت الهجرات السامية تحمل الى لبنان من الجزيرة العربية الكثير الكثير من القبائل العربية التي استقرت وتفاعلت مع سكانه . كما قامت على اطراف هذه المنطقة قبل الفتح دويلات عربية كتدمر والفساسنة والايطوريون والانباط ، ويقول الاب هنري لامنس في هذا الصدد « في كتاب تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من آثار » ، ج ٢ ، بيروت ١٩١٤ ، بأن الايطوريين ليسوا القبيلة العربية الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان ، بل نجد قبائل غيرها توطنت ذلك الجبل لا سيما التنوخيين وهذا الامر مهم لمعرفة عناصر اهل لبنان .

(٦) الشيخ انطونيوس ابي خطار : مختصر تاريخ جبل لبنان ، بيروت ١٩٥٣ ص ٤٧ – ٥٢ .

(٧) ابو شقرا : الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية (الراوي) حسين غضبان ، المؤلف يوسف خطار ابو شقرا ، تحرى نصها وعلق حواشيها وملاحقها ووضع مقدمتها وفهارسها ، عارف ابو شقرا ، بيروت ١٩٥٢ ص ٦٥ .

(٨) من محاضرة الاستاذ ابراهيم يزبك المذكورة آنفا .

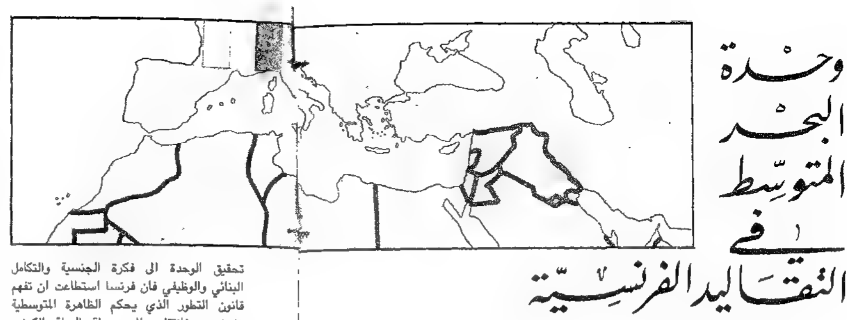
(٩) انظر في صدد « مدن لبنان والآثار » ، كتاب : لبنان كما يراه العرب » .

Le Guide Du Livre, Lausanne 1967
Imprime En Suisse.

وكتاب د . زاهية قدورة : « تاريخ العرب الحديث » ، الطبعة الثالثة ١٩٧١ . دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت – ص ٢٧٣ – ٣١٨ .



وحدة البحر المتوسط في التقاليد الفرنسية



ثالة ضياء الدين الكاشف

رغم ان النظرة الاساسية للمتوسط هو انه دائرة واحدة للحركة، ورغم ان الوحدة المتكاملة هي الطابع المميز لتقاليد التعامل السياسي في المنطقة منذ اقدم العصور، الا ان الواقع المعاصر لحوض البحر المتوسط يتميز بعدة خصائص لم يعرفها من قبل.

فالبحر المتوسط اليوم لا تحكمه قوة واحدة كما كان من قبل، بل ومن العجب ان القوى الكبرى المتحكمة فيه لا تنتمي جغرافيا للحوض، فمن جانب الاتحاد السوفييتي حيث الانتماء غير واضح ومن جانب آخر الولايات المتحدة حيث الانفصال الصارخ، ولما كان الطابع المميز لسياسة القطبين هو الشمولية في التخطيط فقد اصبح المتوسط جزءا من استراتيجية عالمية وليس محورا لها كما كان، واصبح في حد ذاته يعبر عن انشطار وعدم تجانس بين جانبيه بعد ان عرف الوحدة المتكاملة هيكليا ووظيفيا في عهد الامبراطورية الرومانية. انشطار خلقه التسلل الشيوعي بمعتقداته الايديولوجية في الشمال والتسلل الصهيوني بوحدته البنائية والوظيفية في الجنوب.

غير ان هذا لا يعني الانفصال التام عن الماضي، فخبرة الماضي هي دائما حقيقة الحاضر ولا يمكن فهم خصائص الحاضر الا من خلال المتابعة التاريخية مع مراعاة ان استقراء الدلائل التاريخية لا بد وان يتم بنسبية معينة وفي اطار ظروف وملابسات لا تتعداها لما في ذلك من تخط لحواجز الزمن.

ولما كان الحاضر يعبر عن استمرارية الماضي، فاننا نجد ان التقاليد الرومانية في التعامل السياسي مع المنطقة والتي استمرت قرابة خمسة قرون، تؤكد الوحدة وتدعمها، ما زالت قائمة حتى الان تمثلها فرنسا والتي لم تختلف تقاليدها في التعامل مع المنطقة منذ عهد شارلمان وحتى ديجول ومن بعده، ولكن إذا كانت الامبراطورية الرومانية قد استندت في تحقيق الوحدة الى فكرة الجنسية والتكامل البنائي والوظيفي فان فرنسا استطاعت ان تفهم قانون التطور الذي يحكم الظاهرة المتوسطية وتستوعبه فانتقلت الى مرحلة الدولة الكوزمو بوليتانية دون ان تهمل المرتكز الاقليمي، وعندما اقتضى الامر التخلص من المستعمربدأت تطوراً جديداً في شكل دولة عصرية رائدة للسياسة الاستقلالية في اطار جديد يضمن تحقيق الوحدة، وقد ادركت فرنسا ضرورة تطويع ادوات التعامل السياسي وتغيير الاولويات لكي تجعل من الدبلوماسية الاداة الفعالة لتحقيق الوحدة المتوسطية تحت شعار جديد هو شعار الحوار العربي الاوروبي.

وعلى طول تاريخ المتوسط منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر، نستعرض خصائص التعامل السياسي مع المنطقة المتوسطية وتطوراته بصفة عامة وتقاليد التعامل السياسي الفرنسي بصفة خاصة انطلاقا من منهج التحليل العلمي بعيدا عن اسلوب السرد التاريخي:

١ - تطور مفهوم الوحدة المتوسطية:

عرف المتوسط دائما وحدة جيوبوليتيكية منذ عهد الملوك الفراعنة ومرورا بالتقاليد الفينيقية ثم الاغريقية فالرومانية ثم الاسلامية حتى في العصور الاوروبية عرفت المنطقة وحدة جيوبوليتيكية وان اختلفت التصورات لهذه الوحدة بين فكر الماني تطلع الى ربط افريقيا باوروبا عبر المتوسط وفكر فرنسي يتطلع الى تحقيق الوحدة الوظيفية والبنائية للمنطقة. وفكر بريطاني ينظر للوحدة كجزء من استراتيجية عالمية هي الكوزموبوليتانية.

غير ان هذه الوحدة التي تميز المنطقة المتوسطية لا تعني ثبات المفهوم وجموده، فقد خضعت هذه الوحدة لقانون التطور وهو منطق وطبيعة الاشياء، الا ان التطور السياسي الذي شهدته المنطقة انما هو تطور ذو طبيعة جدلية، بعبارة اخرى فان تاريخ التعامل السياسي مع المنطقة هو تحاور دائم بين فكرتي الوحدة والتعدد الذي لا يلبث ان ينتهي بتأكيد الوحدة ليبدأ من جديد مرحلة انقسام اخرى.

ان متابعة تاريخية بسيطة توضح لنا هذه الحقيقة: ثنائية في العلاقة بين قرطاجة واسبرطة تنتهي بالوحدة تحت سيادة الدولة الرومانية ليبدأ الانقسام بعد ذلك نتيجة للصراع السياسي بين القوى الاوروبية ثم يبدأ وحدة اسلامية لا تلبث ان تتحول الى تعددية بظهور المفاهيم الشعوبية وما ان تظهر الوحدة العثمانية حتى تقفز من جديد فكرة التعددية مع ظهور فكرة التنافس الاستعماري ينتهي بالثنائية بين القطبين - ترى هل يسير قانون التطور الى منتهاه الطبيعي نحو الوحدة المتوسطية من جديد؟ وهل يكون الحوار العربي الاوروبي هو جسر الوصول الى هذه الوحدة؟.

وتقدم لنا الوحدة المتوسطية تصنيفين من نماذج التعامل الوحدوي[1]: الوحدة البنائية اولا ثم الوحدة الوظيفية ثانيا واذا كانت الوحدة البنائية تعني الادارة الهيكلية الواحدة فان الوحدة الوظيفية تعني الربط والاتصال للتعدد الحضاري، وما من حضارة قامت في المنطقة الا وكان امتدادها وتوسعها يشمل البحر فيتحول الى بحيرة داخلية فتتحقق بذلك الوحدة البنائية او يتحول البحر الى مركز الاتصال الحضاري فتقوم وحدة وظيفية لا تلبث ان تتبعها وحدة بنائية نتيجة لقيام حضارة واحدة من تآلف النقائض. وفي ضوء هذه الحقيقة عرف المتوسط ثلاث صور للوحدة.

عرض عن دراسة د. حامد عبد الله ربيع

(أ) **طغيان البعد الوظيفي على الجوانب البنائية :**

وقد عرفه المتوسط في الدور اليهودي في المنطقة والذي قام بوظيفة الربط والاتصال بين الحضارة العربية والاوروبية في ضوء نموذج فريد لخلق التعامل لصالحهم والقيام باتصالات غير مباشرة مثلثة ، اساسها التشويه الفكري والحضاري .

(ب) **طغيان البعد البنائي على الوظيفي :**

وتمثله تقاليد الدولة الاسلامية التي نظرت الى البحر على انه بحر الروم وليس امتداداً لكيانها العضوي .

(ج) **التوازن بين البعدين في الحركة المتوسطية :**

ويعبر عنه بنجاح تقاليد الامبراطورية الرومانية التي استطاعت ان تفرض السلام الروماني (Pax Romana) على المتوسط لمدى اربعة قرون متواصلة ، اعظم فترات الوحدة تكاملا .

وعندما يلتقي الجانبان الوظيفي والبنائي تكون الوحدة المتوسطية قد تحققت في ارقى صورها . اما الجانب البنائي وحده فلا يكفي دون تحليل الوظيفة الحضارية المتطورة واما الجانب الوظيفي فهو لا يمكن ان يتحقق بل لا يسعه الاستمرار دون الحماية البنائية القوية .

واذا كان التحدي يهدد الوحدة المتوسطية اليوم متمثلا في انتقال دائرة التحرك بشكل اكثر اتساعا الى القوى الاطلنطية واذا كانت القوى المسيطرة على المتوسط اليوم هي قوى غريبة عن جسده ، فانه لا سبيل لمواجهة هذا التحدي الذي يهدد بمحو الشخصية المتوسطية الا بتحقيق الوحدة المتوسطية بجانبيها البنائي والوظيفي وذلك عن طريق توسيع الدور الوظيفي للعلاقات العربية الاوروبية واداته الحوار المباشر دون وسيط وتوسيع الكيان البنائي الاقليمي واداته في ذلك قيام الجماعة العربية الاوروبية .

٢ - تاريخ التصور الاستراتيجي في التعامل مع المنطقة :

اذا كانت خبرة الماضي هي حقيقة الحاضر واساس المستقبل فان هدفنا من المتابعة التاريخية يصبح الرغبة في اكتشاف تقاليد التعامل السياسي مع المنطقة بالاهتمام او عدمه وابعاد وعمق هذا الاهتمام وذلك بهدف فهم طبيعة العلاقات العربية الاوروبية المعاصرة وادراك امكانية تحقيق الوحدة المتكاملة في ظل ظروف دولية واقليمية تتحكم فيها قوى غريبة عن الجسر المتوسطي - واذا ما حاولت القوى المتوسطية ان تبني اسس وحدة جديدة استنادا الى الخبرة والمتابعة التاريخية فسوف تجد امامها عدة نماذج للتعامل السياسي مع المنطقة .

اولا : الخبرة اليونانية والتصور الاستراتيجي للتعامل مع المنطقة :

ان تاريخ المتوسط هو صراع دائم بين قوة بحرية واخرى قارية تنتهي بسيادة الاولى وتطويع الثانية[٢] ، وقد تمثل ذلك الصراع في التقاليد الهيلينية بين اسبرطة القارية واثينا البحرية ونجحت النخبة الاثينية الديمقراطية من التوسع والانتشار واصطبغت الشخصية المتوسطية بالطابع اليوناني ، الا ان هذا لم يكن يعني الوحدة المتوسطية الحقيقية بمعناها المتكامل ، فقد اتسم الكيان البنائي والوظيفي بالطابع الكونفدرالي وكان كل ما عرفته الشعوب الخاضعة للسيطرة اليونانية هو نوع من انواع التوحد الثقافي ، بل حتى هذا كان يكتنفه كثير من الغموض حيث انتشرت اللغة الاغريقية على نطاق واسع في الشرق وان كانت اساسا لغة المدن والطبقات المثقفة في حين احتفظ الريف العامة بلغاتهم الخاصة .

ثانيا : الوحدة المتوسطية في التقاليد الرومانية :

ازهى فترات الوحدة المتوسطية هي تلك الوحدة الرومانية التي نجحت بحق في ان تجعل من المتوسط بحيرة رومانية وان تجعل من المتوسط بحرنا (Mare Nostrum) طوال اربعة قرون متواصلة ، وحدة لم يعرفها المتوسط الا من العهد الروماني وان ظل دائما متشوقا اليها .

كان هدفها نهب الامصار المفتوحة اكثر من التعامل معها، وظهر الخلل في البناء الهيكلي والوظيفي بشكل واضح مع انقسام الامبراطورية بين شرقية «الامبراطورية البيزنطية» وغربية «امبراطورية شارلمان» وكان الانقسام هو بداية النهاية للعصر الذهبي للوحدة المتوسطية الرومانية.

ثالثا: مفهوم الوحدة في الخبرة الاسلامية:

لقد ظل المتوسط في الوعي الجماعي حقيقة واحدة حتى جاء الاسلام فأحدث الفرقة والفرقة مردها ان الاسلام نظر للمتوسط على انه بحر الرومان وكان المحدد الحقيقي لهذه الفرقة يعود الى اختلاف في اطار القيم بين كل من النظامين الروماني والاسلامي

وتؤكد الخبرة التاريخية انه عندما تفاعل الدين بالحياة والفكر الاسلامي بالفكر الاوروبي كانت مرحلة التقرب من ثقافات المتوسط وكانت محاولة ناجحة لتدعيم الكيان البنائي الاسلامي بالوظيفة الاتصالية المباشرة لكن سرعان ما انهارت الناحية الوظيفية لعدة اسباب تمثل اهمها فيما يلي:

(أ) كثرة الجماعات الانشطارية التي كانت تخشى المركزية الاسلامية.

(ب) التسامح الاسلامي ازاء العناصر اليهودية التي برعت في اداء الوظيفة الاتصالية فدأبت على تمزيق روابط الاتصال الحضاري بين العرب واوروبا وادت الى خلق الروح العدائية التي لازمت اوروبا حتى بعد النكسة الصليبية.

(ج) تعرض الدولة للاستيعاب من قبل دول بنائية اقوى وان كانت اضعف وظيفيا مثل المملوكية في شرق وجنوب المتوسط والبربرية في جنوب المتوسط وغربه – وغرقت الابنية الاسلامية وراء الغيبية ولم تلبث ان تحولت هذه الابنية الى مجرد بناء هلامي ضعيف تقلص بعد حين فعبر عن نفسه في شكل البنائية الوظيفية المتخلفة للدولة العثمانية والتي اهملت تماما الجانب الاتصالي والقيم الوظيفية الحقيقية في الاسلام.



التوسع الروماني في المتوسط ساهم في وحدته

وقد نتج اهتمام روما بالبحر عن طبيعة توسعاتها القارية(٣)، الامر الذي تطلب قيام تحالفات واتصالات مع المستعمرات اليونانية في الجنوب الايطالي، وسرعان ما تحولت روما الى قوة بحرية دخلت في صراعات دامية مع قرطاجنة على مدى اكثر من ثلاثة وعشرين عاما انتهت بالتوسع الروماني في المتوسط وقيام وحدة اقتصادية اتصلت بالوحدة الثقافية الهيلينية القائمة لتعلن عن ميلاد وحدة سياسية تحت سيادة الامبراطورية الرومانية(٤).

إلا ان الضعف الوظيفي اجتاح الامبراطورية وادت الحروب المستمرة الى اضعاف الزراعة وسادت العقلية الاقطاعية التي

رابعا: الدولة وتطور مفهوم الوحدة:

يعد الشعور القومي اقوى عامل في السياسة الحديثة واكثرها غموضا، إذ اثبت هذا الشعور انه اقوى من اي مذهب سياسي آخر. فقد تحطمت تحت وطأة هجماته امبراطوريات كبرى وقامت باسمه حروب وثورات غيرت معالم العالم فاذا به يفتت منطقة المتوسط الشمالية تماما يجزئه الى عدة دويلات لكل منها اطارها القومي الخاص بها.

ويتألف الوعي القومي من امتزاج السعي للوحدة والتعزز والاستقلالية والهيبة(٥) – الا يحمل كل هذا بذور الانغلاق الذاتي وعدم الاهتمام بالمتوسط الا بالقدر الذي يحافظ على الوحدة القومية؟ الا يعني هذا التجزئة النظامية والحركية للوحدة المتوسطية؟ وهل في مفهوم الاستقلالية والتميز ما يؤدي الى تفتيت النظرة نحو الحركة الوحدوية، ام ان السعي الى التفوق قد يؤدي الى السيطرة وبسط النفود على المنطقة كلها فيكون الكيان الاداري والبناء الوظيفي المتطور – وتحيا التقاليد الرومانية من جديد؟! – تساؤلات عديدة اثارها الشعور القومي السائد في اوروبا، غير ان النظرة المتعمقة للوقائع التاريخية تثبت ان الدولة القومية ساهمت في تدعيم مفهوم الوحدة وظلت تنظر للمتوسط من خلال التقليد الثابت الذي عبرت عنه الاستراتيجيات الكبرى السابقة ومن ثم تحولت المنطقة الى دائرة واحدة من دوائر الممارسة السياسية للدول القومية الاوروبية – إن تفسير هذا الاعتصام بالوحدة رغم التفتت البنائي يتطلب التعرض لبعض المفاهيم المتعلقة بالسياسة الامنية:

(ا) – مفهوم الامن القومي:

إن هذا المفهوم من حيث طبيعته ليس الا عقلية تقنين لمجموعة من المبادئ التي تتضمن قواعد للسلوك تمثل الحد الادنى للحماية الذاتية. وفي ضوء هذا المفهوم نجد ان الاهتمام او عدمه بالوحدة المتوسطية انما يتحدد في ضوء القرب او البعد عن الموقع الجغرافي، فكلما كانت الدائرة القومية مطلة على المتوسط شكل البحر دائرة هامة في نطاق سياستها الخارجية وكلما بعدت حدث العكس، وقد ترتب على هذا ظهور علاقة طردية بين البعد عن المتوسط والقرب من الاطلنطي، ولنتذكر كيف ان السياسة البريطانية نظرا لابتعادها عن المتوسط واقترابها من الاطلنطي وكنتيجة طبيعية لعدم تأثر امنها القومي بالوضع في المتوسط كانت ترى في المنطقة مجرد جسر بحري لمناطق ما بعد المتوسط، وذلك على العكس من السياسة الفرنسية حيث ارتباط الامن القومي الفرنسي واضح وصريح بالمتوسط ومن ثم كان اهتمامها بالتحرك البنائي الامبراطوري في اطار وحدة المتوسط البنائية وكرست التحرك الوظيفي لهذا الغرض.

(ب) – مفهوم الامن الاقليمي:

وينصرف هذا المفهوم الى تلك الحالة من الاستقراء التي يجب ان تشمل المنطقة الاقليمية كلها بعيدا عن اي تهديد سواء داخلي او خارجي، وهذا المفهوم ينطوي على ضرورة الارتباط بالمتوسط وتدعيم وحدته بهدف تحقيق الاستقلالية والمحافظة على الشخصية المتوسطية في كيانها المتوسطي المستقل. الامر الذي يسمح بالوقوف في مواجهة القوى الاطلنطية التي تسعى لاحتواء الدائرة المتوسطية.

الخلاصة:

هكذا ظلت النظرة الوحدوية هي محور السياسة والتصور الاوروبي للمنطقة دائما ارتباط ووحدة بين شمال المتوسط وجنوبه وهو ما دفعها الى التحكم في البلاد العربية المسيطرة على جنوب المتوسط بل ان السياسة الامريكية الشمولية بدأت تدرك حقيقة هذه الوحدة واخذت تعرف الخطى الاولى على سبيل القناعة بمثل هذه الفلسفة كأساس للتعامل مع الحوض المتوسطي، في حين فشلت المحاولة العربية الوحيدة في غزو المتوسط – وهي الفتوحات الاسلامية، فشلت في ادراك اهمية ربط شمال المتوسط بجنوبه ولم تلق بالا الى اهمية السيطرة على شماله برغم اتاحة الفرصة لذلك الامر الذي ادى الى انهيار حتى ذلك الجزء من الوحدة البنائية الذي تحقق في جنوبه.

٣ - فرنسا واحياء التقاليد الرومانية :

لعل فرنسا هي من اكثر دول المنطقة قدرة على التأثير في الاوضاع القائمة، بل وفيما يمكن ان تؤول اليه هذه الاوضاع مستقبلا، فقد اكتملت لفرنسا بعض المقومات الرئيسية التي تساعدها على اداء الدور الذي يمكن ان يجعل منها قوة دولية فاعلة ومؤثرة في منطقة المتوسط، فهي اولا احدى دول المنطقة وليست غريبة عنها وتلك في ذاتها حقيقة سيكولوجية هامة، إذ تجعل حساسية الدول الاخرى في المنطقة ازاءها اقل بالمقارنة بالنسبة للدولتين القطبين حيث ان التخطيط السياسي والاستراتيجي الامريكي والسوفييتي محكوم بدوافع ترتبط بمصالحها الامنية وبمتطلبات الزعامة العالمية اولا حتى وان كان في ذلك تصادم مع مصالح وسياسات اعضاء الاسرة الاقليمية مما يدفعهم الى نظرة متشككة، وهي نظرة لا يمكن ان تكون بالنسبة لفرنسا حيث ان الشعور بوحدة الانتماء والارتباط بحوض المتوسط من رابطة جغرافية ومن تاريخ طويل مشترك من مصالح ومعاملات وعلاقات بل وحتى صراعات كل ذلك يؤكد انها ليست غريبة عن دول المنطقة.



سا « ديغول » و « بومبيدو » اكدت انتماءها
ـر المتوسط.

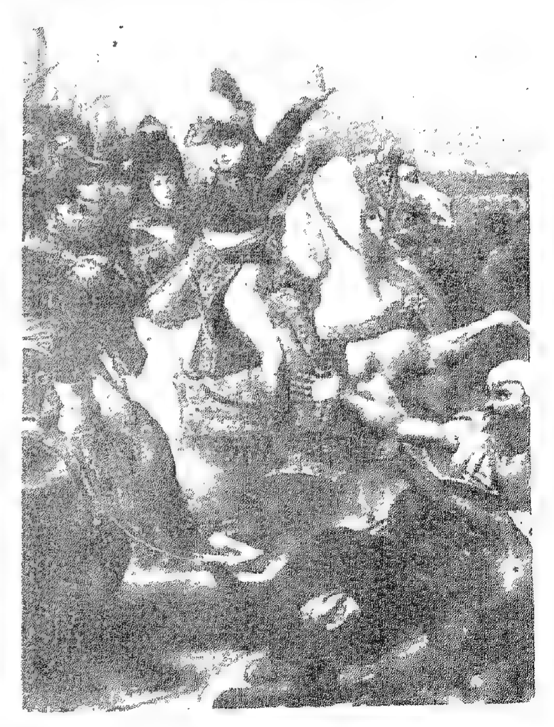
وتعتبر فرنسا من اكثر الدول تدعيما لمفهوم الوحدة وتعبيرا عن استمرارية الوحدة المتوسطية، حيث ان السياسة في فرنسا البونابرتية لا تختلف عن فرنسا الديجولية الا من حيث الفترة الزمنية وطبيعة الاطار الذي تتحرك داخله والذي فرضته الظروف الدولية ويظل خطها الاساسي هو احياء التقاليد الرومانية في التعامل مع المنطقة المتوسطية.

ورغم الطابع الوظيفي الذي صاحب بداية التحرك الفرنسي في المتوسط ممثلا في الاتفاقيات على الامتيازات التجارية، فاننا نجد النزوع البنائي كان دائما قائما وان تجسد بصورة واضحة في العهد النابليوني، حيث نجح نابليون في فرض حكمه مباشرة او غير مباشرة على القسم الاكبر من القارة الاوروبية واهتم كثيرا بان يظهر كوريث حقيقي لشارلمان(٦)، واتخذ من روما التي صبغت المتوسط بالصبغة الرومانية مثلا يحتذى به واراد جعل غرب اوروبا كله فرنسيا – وكانت بداية النهاية للامبراطورية النابليونية في المتوسط عندما اهمل نابليون الطابع الوظيفي المتطور واصبح شغله الشاغل هو الأهتمام بالادارة الهيكلية الواحدة، بل حتى هذا الطابع البنائي عرف تدهوره باعتماده على قوة بنائية متوسطية مريضة ضد القوى غير المتوسطية وهي الدولة العثمانية وانتهى الامر بانتصار القوى الكوزمويوليتانية وخضوع فرنسا لمقررات المجلس الاقطاعي الاوروبي، ولعل الخطأ الاساسي في السياسة النابليونية هو عدم ربطها بين اهمية الوحدة الاوروبية واهمية التحرك في المتوسط، وهو خطأ ترتب عليه سلسلة متتابعة من الاخطاء السياسية التي ادت الى تفسخ اركان الامبراطورية النابليونية، حيث كان توجهها للمتوسط كسياسة تعويضية لخسائرها في اوروبا وكان توجها ضعيفاً هزيلا لم يسعه الوقوف في مواجهة الكيانات الكوزمويوليتانية التي عرفت طريقها للمتوسط.

وقد استوعبت اسرة البوربون الدرس الذي تلقاه نابليون في المتوسط وفي اوروبا استيعابا تاما فاعتمدت على الخبرة النابليونية الوظيفية في مصر والجزائر واضفت على امتدادها القاري الاوروبي بعدا وظيفيا متوسطيا

باعتمادها على التواجد الفرنسي المتميز في الساحل الجنوبي للمتوسط. غير ان هذه المرحلة لم تدم طويلا إذ سرعان ما تولت مملكة اورليان الحكم وعاد الطابع البنائي يأخذ الاولوية من جديد مما ادى الى استعادة النفوذ الاطلنطي لقوته وتحديه للتحرك الفرنسي المتوسطي.

إلا ان اهم ما يعنينا من التحرك الفرنسي السياسي هو ذلك الطابع الذي تؤكد به التقاليد الفرنسية استيعاب حركة التاريخ في المتوسط. فتجاوب الاباطرة والملوك الفرنسيين تستلهم تقاليد التجربة النابليونية الاولى وهذه الاخيرة تتفاعل مع التقاليد الرومانية وتأتي تجربة التوسع الاستعماري والتي ظهرت بوضوح في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر فتسير على نفس الخط مؤكدة الرغبة في تحقيق الوحدة المتوسطية على غرار الخبرة السياسية الرومانية. ووطدت فرنسا من وجودها المتوسطي مع المد الاستعماري الفرنسي في الجزائر ومع الحضور الفكري والثقافي في مصر منذ حملة نابليون الاولى فكانت الجزائر حجر الزاوية في البناء الامبراطوري



هل تستلهم فرنسا الحالية تجارب النابوليونية الاولى في التوسع ؟

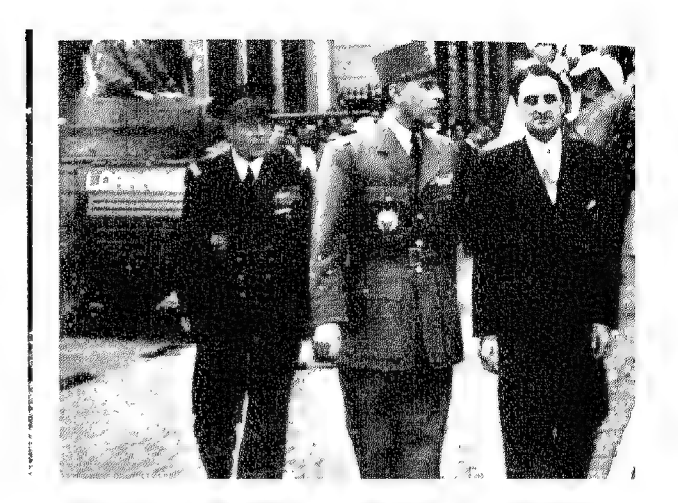


.. عندما نجحت فرنسا في بناء مركز لها مهم في المغرب العربي

ومصر في الدعم الوظيفي والاتصالي وكتبت جريدة «فرنسا الجديدية» (La Nouvelle France) في سنة ١٨٩٨ «سوف نرى سريعا اليوم الذي نجد فيه مواطنينا في الجزائر يزحفون نحو تونس والمغرب ليكونوا امبراطورية متوسطية، والذي سوف يرضي تطلعاتنا ليس هذا فحسب، وانما سوف تشكل ايضا في ظل الظروف الدولية الراهنة المنبع الاساسي لعظمة فرنسا».

وتحققت النبوءة الفرنسية واصبح لفرنسا مركز استراتيجي وسياسي واقتصادي لا يقارن لا سيما بوجودها في ميناء بيزرت التونسي والذي يعتبر مفتاح الدخول للحوض الجنوبي كما يقدم امكانية ايجاد قناة اتصال هامة بين شاطئ المتوسط الشمالي والجنوبي.

وعلى الرغم ما اصطحب عام ١٩٤٥ من تغيرات استراتيجية دولية خطيرة وبروز الولايات والاتحاد السوفييتي كقوى عظمى تسعى للتدخل والتحكم في المنطقة في اطار من استراتيجية شمولية تحتوي العالم بأسره. وعلى الرغم من تقلص النفوذ السياسي الفرنسي والبريطاني وعودتهما الى الحدود الطبيعية إلا ان المتوسط ظل دائما دائرة للحركة الفرنسية وبديلا عن الاطلنطية، وبعيدا عن الذيلية للولايات المتحدة. وان كان هذا الاتجاه قد خبا لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الا انه عاد الى دائرة النور وبقوة في اواخر الستينات فكانت



السياسة الديجولية المزدوجة . حصار قاري في شكل الوحدة الاوروبية من الاورال الى الاطلنطي يكمله حصار بحري في شكل الدعوة لتحييد المتوسط ووحدته ، دعوة ذات طابع بنائي تضعف من تغلغل القوى العظمى في المنطقة .

وإذا كانت الوحدة الرومانية قد تحققت بقوة السيف فان السيادة الفرنسية لا بد وان تتحقق بقوة الايحاء والاقناع الفكري بمعنى نقل الانطباع الى دول المنطقة بانها هي التي تتبنى مصالحها وتدافع عنها ، فوضعت اساساً جديداً لعلاقاتها بدول المنطقة . يقوم على بث الثقة والاحترام المتبادلين في اطار من المصالح السياسية والاقتصادية المشتركة ولسنا في حاجة الى ان نسرف في تقديم الامثلة العملية التي تبرهن على عمق هذا التغيير يكفي فقط ان نذكر كيف ان ديجول بما تميز به من واقعية هو الذي عدل من الاحلام الامبراطورية وفتح صفحة جديدة في علاقات بلاده مع المغرب بل هو اول مسؤول فرنسي يؤكد جزائرية الجزائر .

٤ - الوحدة المتوسطية في الفكر الاستراتيجي الفرنسي :

إذا تكلمنا عن الفكر الاستراتيجي الفرنسي فلا بد وان نتذكر الجنرال اندريه بوفر (Bauffre)وهو عسكري كبير لارائه السياسية وافكاره الاستراتيجية تأثير فعال على خطوات السياسة الفرنسية وقد تناولت اراؤه هذه ، الوضع الفرنسي في المتوسط ومدى تأثر السياسة الفرنسية بمجريات الامور في المنطقة .

ويستعرض بوفر الاوضاع الدولية المعاصرة متخذا منها فرضية اساسية يبني عليها نتائجه السياسية ويرسم على اساسها خططه الاستراتيجية وهذه الاوضاع الدولية تتسم بتضافر عدة عوامل كبرى(٧) :

(أ) - سقوط اوروبا بعد حربين عالميتين سبب من جهة انهيار احلام الامبراطورية الاوروبية العالمية ومن جهة اخرى سبب فراغا في اوروبا الوسطى احتله الاتحاد السوفييتي وما زالت اوروبا ضعيفة بالنسبة لقارها القوي .

(ب) - نهوض الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي اللتين اصبحتا الدولتين العظميين العداء الدائم بينهما الى اتخاذ احتياطات امن متبادلة وصلت الى حد اختراع الاسلحة النووية غير ان المنطق الداخلي للمشكلات النووية اضطرهما الى تحقيق توازن عسكري مستقر جدا الامر الذي يوجههما الى اقامة علاقات خاصة من نوع جديد فيما بينهما .

(ج) - اشراف اوروبا على الشاطئ الشمالي فقط من المتوسط ، وقد تتوحد افريقيا الشمالية او تكون معادية جزئيا لاوروبا وإذا تحقق هذا الفرض فسوف ترى اوروبا ولادة خطر عبر التاريخ . وفي مظاهر تختلف عن قرطاجنة الى الامبراطورية العربية(٨) .

وفي ضوء تصور هذه الاوضاع يرسم. بوفر استراتيجيته فيرى انه من الممكن القضاء على التجزئة الاوروبية وتحقيق الوحدة ذلك انه من الممكن ان يلتقي الغرب المتجه الى الاقتصاد الاشتراكي والاتحاد السوفييتي المتبرجز على صيغ متقاربة انطلاقا من حلول متعارضة ويبقى فقط التنافر الديني الاساس ، وفي هذه الفرضية المتفائلة من الممكن ان تستعيد اوروبا طريق الوحدة تدريجيا ، غير ان هذا الامل في اوروبا الموحدة قد يصطدم باختلاف المصالح القومية وهو لن يتحقق إلا إذا تم ارساؤه على صيغ تحمي الكيانات القومية لفترة من الزمن ومن ثم فمن الممكن ان تكون الوحدة الاوروبية على غرار الوحدة السويسرية وبالنسبة للوضع في المتوسط فالاستراتيجية الفرنسية لا بد وان تقوم على

اساس ممارسة عمل منسق في هذه المنطقة الحيوية من العالم، واذا كان الوضع المعاصر قد فرض تحرر المتوسط فان الوصاية الاوروبية لا بد وان تستمر بأي صورة من الصور حتى ولو كانت في شكل اقتصادي او دبلوماسي وليس استعماري، واذا كانت الاستراتيجية القائمة بين القطبين هي استراتيجية الردع النووي او الشلل المتبادل بينهما فان هذا يعني وجود متسع لحرية العمل وهو ما ادى الى ظهور التيتوية والماوية الصينية الى جانب ظهور السياسة الفرنسية المستقلة التي تقوم بدور القائد في المنطقة فتدعو الى وحدة اوروبا وتحييد المتوسط وهو كل ما يخدم الامل الفرنسي العالق في الاذهان - الامبراطورية المتوسطية بقيادة الشعب الفرنسي - امبراطورية حققها الرومان فهل يعجز عن تحقيقها الفرنسيون؟

هـ- السياسة الفرنسية والوحدة المتوسطية بعد ١٩٧٣ :

لازالت فرنسا تعيش تحت المظلة الديجولية، وقد اشار بومبيدو في اكثر من مناسبة الى اهمية المتوسط في التقاليد الفرنسية السياسية فالمصالح الفرنسية متنوعة والحضور الفرنسي قائم منذ القدم وسلام المنطقة لا يتحقق الا بخروج الاساطيل الروسية والاميركية منه فيصبح المتوسط بعد ذلك بحيرة اوروبية[٩].

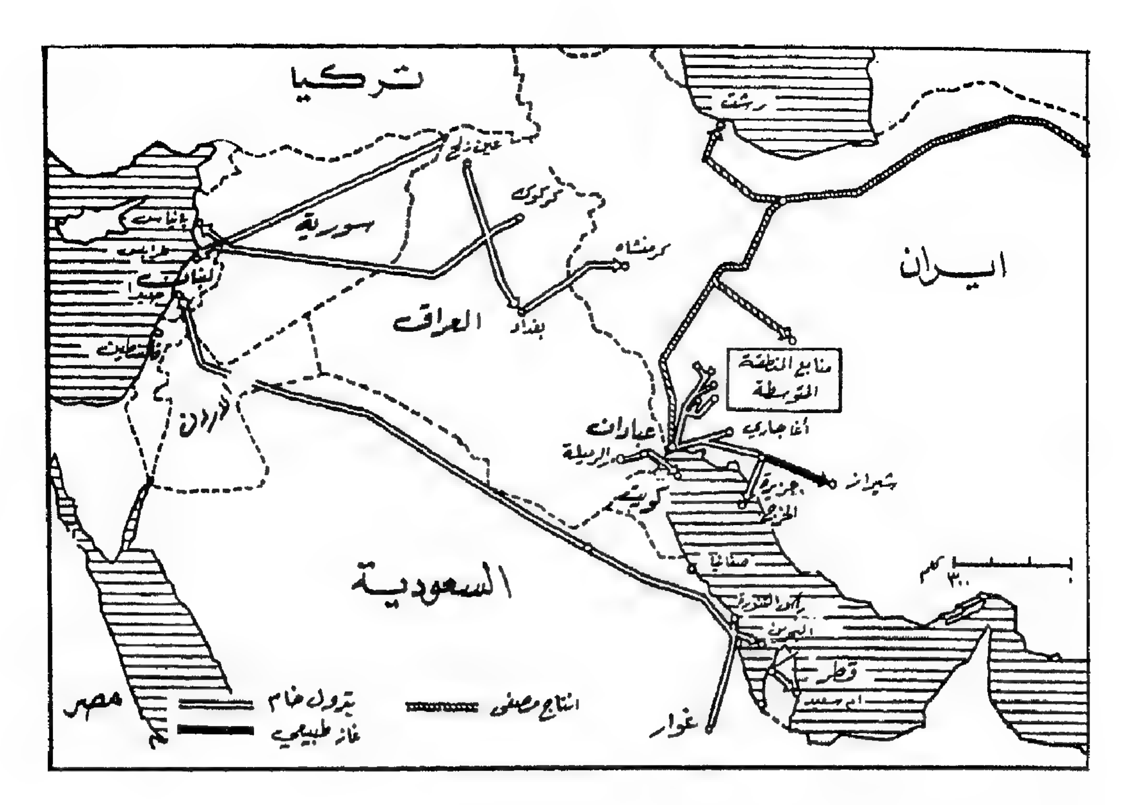
ومع التدعيم في امكانيات وقدرات الصناعة الفرنسية ومع ما حققته من ارتقاء ضخم في مستواها التكنولوجي نستطيع ان نفهم تلك المصالح المتنوعة في المتوسط لا سيما مع الدول العربية، غير ان هذه المصالح تهددت ولا شك بالوجود الاسرائيلي في المنطقة وبالعداء القائم بينه وبين البلاد العربية وهو الذي دفع بالاخيرة ابان حرب اكتوبر الى رفع ثمن البترول وخفض الكمية المنتجة منه، الامر الذي تبلورت في ضوئه السياسة الفرنسية بشكل واضح تجاه المنطقة، وقد ادركت فرنسا انه اذا كان هناك اعتراف كامل باسرائيل في اوروبا فانه لضغط امريكي اي اعتراف اطلنطي. ومن الضروري تصور مخاطر تلك السياسة ليس فقط فيما يتعلق بالاستقلال الاستراتيجي والطاقي (Energitique) والذي يحكم الاستقلال السياسي، ذلك ان فرنسا ترى ان مستقبلها الاقتصادي ومستقبل اوروبا كلها انما يعتمد على البترول العربي المتوسطي وليس على اليورانيوم الاطلنطي[١٠].

غير انه من قبيل السذاجة السياسية ان يظن البعض ان فرنسا ترفض المساندة الاسرائيلية في سبيل مصالحها الاقتصادية فكثير من المتحكمين في الاقتصاد والمال الفرنسي من اصل يهودي، ولكن كل ما هنالك ان فرنسا ترفض الضغط الاطلنطي للاعتراف باسرائيل، هي تدرك تماما حق اسرائيل في الوجود وتؤمن بحقها في السلام ومطالبتها بالحماية الدولية الطبيعية لها. ولكنها ترفض الحماية الاطلنطية التي قد تدفع باسرائيل الى سلوك هجومي استفزازي انتحاري يضر بالمصالح الاقتصادية الاوروبية.

وقد اعتمدت السياسة الفرنسية على اداة ناجحة لتحقيق مصالحها الامنية والاقتصادية في المنطقة وهي الدعوة للحوار العربي الاوروبي، فقد تزعمت الفكرة داخل الجماعة الاقتصادية الاوروبية وبدأت منذ ١٩٧٤ ببروكسل عملية التحرك الثابتة نحو تحقيق فكرة الحوار[١١].

وفي الواقع فان اتجاه الجماعة الاقتصادية الاوروبية للحوار مع العالم العربي جاء نتيجة لتضامن عدة عوامل منها الاتجاه المتوسطي للجماعة والذي تمثل في توافر مجموعة من الخبرات التاريخية في العلاقات الاقتصادية خاصة بين الجماعة وعدد من الدولة العربية. منها ايضا حرب اكتوبر والتي كان من اهم آثارها التهديد لأمن الحدود الجنوبية لاوروبا نتيجة لنشوب العمليات العسكرية في الشرق الاوسط واستخدام سلاح البترول بوسائل مختلفة كالمقاطعة وخفض الانتاج ورفع الاسعار. تلك الآثار التي دفعت بأوروبا وتحت قيادة فرنسا للتحرك في عدة مستويات تتكامل فيما بينها بهدف تلافي هذه الآثار منهاوالتفاوض الجماعي مع العالم العربي من خلال الحوار.

ولكن إذا كانت فرنسا قد تزعمت فكرة الحوار بهدف تحقيق المصالح الاقتصادية الاوروبية والمحافظة على مصالحها الامنية بعيداً عن تدخل القوى العظمى، الا يدفع هذا بعض



البترول العربي كان من الدوافع التي ساهمت في الحوار العربي الاوروبي .

المراقبين الدوليين الى التساؤل حول ما إذا كانت هذه التطلعات الفرنسية في المنطقة ستتصادم ام ستتوافق في المستقبل القريب مع الاهداف الامريكية ؟ واذا كان الاتجاه هو الصدام فالى اي حد من العنف يمكن ان يصل ؟

إن الاجابة على مثل هذه التساؤلات تتطلب فهما دقيقا لطبيعة العلاقات الاوروبية الامريكية تلك العلاقات التي تأرجحت بين عوامل التبعية والاستقلال فمن ناحية وجدت التبعية الاوروبية جذورها الاولى من الاوضاع الاقتصادية المتدهورة وحاجاتها الى اعادة بناء اقتصادها برؤوس اموال امريكية . ومن ناحية اخرى قاد التطور قوى سياسية مؤثرة في اوروبا ان تجد نفسها في موقع مقاومة السيطرة الامريكية مع عودة ديجول لفرنسا ورغبته في استقلال اوروبا مع التحسين المتزايد من المركز الاستراتيجي لدول اوروبا .

وفي ضوء عوامل الاستقلال ظهرت الدعوة لايجاد اوروبا الموحدة سياسيا والمستقلة وكان لا بد لاميركة ان تتخذ موقفا محدداً تجاه تلك الدعوة فأخذت تسعى الى الفصل بين مفهوم الوحدة والاستقلال حيث ترى ان الوحدة الاوروبية عملا مشروعا من اطار السيطرة الامريكية والعلاقة الخاصة بين اوروبا والولايات . وقد كان هناك قناعة فرنسية بان اوروبا الموحدة سياسيا لا يمكن ان تتحقق دون وجود قوة نووية اوروبية مستقلة وفعالة . وانه طالما لا توجد مثل هذه القوة فان الارتباط الاوروبي يظل اكيداً وذا مصلحة فعالة والمظلة الامريكية للسياسة الاوروبية هي حماية ضرورية لأمن اوروبا(١٢) .

حتى على المستوى الاقتصادي فان فرنسا تدرك تماما ومن خلفها اوروبا الغربية انه لا يمكن اتخاذ مواقف اقتصادية متعارضة مع الولايات المتحدة الاميركية لاعتبارات اهمها :

- ازمة الدولار سنة ١٩٧١ التي كانت بمثابة انذار لاوروبا للتخلي عن عنادها والاعتراف بقوة الوضع الامريكي .
- تغلغل الاستثمارات الامريكية في الاقتصاد الاوروبي .

ولكن اذا كان هذا هو موقف فرنسا من الحماية الاطلنطية فما معنى الدعوة للحوار العربي الاوروبي بعيداً ان تأثيرات القوى العظمى؟ وما معنى الدعوة لتحييد المتوسط؟ كيف نفسر هذا التناقض في السياسة الفرنسية؟

ان تفسير هذا التناقض يبدو في غاية البساطة في ضوء فهم طبيعة السياسة الامريكية وهي سياسة تقوم على مبدأ توزيع الادوار فقد ترحب امريكا بوجود الوحدة المتوسطية وقد ترحب بتزعم فرنسا لمثل هذه الدعوة في حدود لا تسمح بالخروج التام عن التحالف الاطلنطي وهي قد توافق على الوحدة المتوسطية إذا كانت لا تضر بالمصالح الامريكية في المنطقة وقد تغُض النظر عن طبيعة الحوار العربي الاوروبي إذا كان لا يعني محاربة المصالح الامريكية في المنطقة. وهي فوق كل ذلك ترى ان فرنسا لن تخرج عن ولائها للولايات ولن تتراجع عن مساندتها في حالة قيام حرب نووية فكلاهما بحاجة الى وضع حد للنفوذ الروسي في المنطقة وكلاهما بحاجة الى استمرار الحصول على البترول بثمن معقول الامر الذي يصبح مشكوكاً فيه اذا تحكم الاتحاد السوفييتي في المنطقة. ومن مصلحة الولايات ان تشجع بناء قوة بحرية غربية ثانية في المحيط الهندي، يتم الوصول اليه عن طريق قناة السويس - حتى يتمكن لهاتين القوتين ان تخففا على قدر الامكان من الآثار السلبية الناتجة عن التزايد السوفييتي في المنطقة.

حقا قد توجد بعض التناقضات المتعلقة بمصالحهما في المنطقة مثل التغلغل في الاسواق وامتصاص القدرة الشرائية الفائضة لكنها لا يمكن ان تدفع الى تناقض سياسي بينهما.

الخلاصة:

ان فرنسا تدرك تماما ان الدعوة للوحدة المتوسطية لن ترى النور الا بضمانة امريكية، والولايات المتحدة تتبع دائماً مفهوم «المقعد الشاغر» في تعاملها مع اوروبا، هذا المقعد الذي يسمح بالمحافظة على الهياكل القائمة للتعاون المستقل بين اوروبا والولايات والذي قد يعطى الاحساس بوجود اوروبا المستقلة دون الاضرار بالمصالح الامريكية. وفرنسا هي خير من يتربع على هذا المقعد في الوقت الحاضر بحكم طبيعة العلاقات العربية الفرنسية. ■

---

(١) انس مصطفى كامل، دراسة عن المضمون السياسي للحوار العربي الاوروبي، ص ٤٩.

(٢) Michel Salomon, Mediteranee Rouge, 1970, P. 33

(٣) مما يثير العجب حقا، هو ان الشعب الروماني لم يتطلع الى البحر ابدا ولم يسع اليه فهم فلاحون ورعاة لم تثرهم ابدا القوة البحرية على نقيض الشعب اليوناني.

(٤) Contre Belot, Le Destin De L'Eurose En Mediterannee, 1960, P 56

(٥) فريدريك هرتزل، القومية في التاريخ والسياسة ترجمة عبد الكريم احمد، ص ٢٨.

(٦) كثيرا ما تكرر ذلك في اقواله العامة ومراسلاته السياسية وسعى الى ان يحصل على التاج والشعار اللازمين لتتويجه.

(٧) اندريه بوفر، استراتيجية الردع النووي، ترجمة اكرم ديري، ص ١٣١.

(٨) يرى بوفر ان قلب العالم الثالث سوف ينبعث منه عمالقة كبار ما زالوا في مرحلة الطفولة مثل الصين والهند والوطن العربي.

(٩) Daniel Colard La Politique Mediteran eene De Pomipidou, Politique Etrangere (1978 N 3

(١٠) هو انتصار لأصحاب البترول على اصحاب الذرة، حيث ان في خلال العشرين سنة القادمة اكثر من ٧٠٪ من الطاقة سوف يكون عمادها الاساسي هو البترول وكل المنابع البترولية في يد العرب.

(١١) ذلك رغم معارضة بريطانيا الصامتة وتحفظها الذي يعكس السياسة الامريكية، واتخذت المجموعة الاوروبية قراراً يتضمن كثيراً من العناصر الايجابية في عملية الحوار سرعان ما لقى تجاوبا على الجانب العربي في اجتماع عقد لوزراء الخارجية العرب في تونس.

(١٢) توضع اوروبا في مصاف القوى الاقليمية وهو اتجاه وسط بين العالمية والمحلية وقصد به في ابسط معانيه ان يتجه التأثير السياسي لاوروبا الغربية الموحدة الى ثلاث مناطق خاصة بالنسبة لها: افريقيا جنوب الصحراء وساحل المتوسط والدول العربية ثم اوروبا الشرقية.

سلاح رهيب ساهم في هزيمة هتلر :

علم التنجيم



ترجمة :
محمد أمين فرشوخ

هل تؤمن بالتنجيم؟ وهل تؤمن بأن البروج واوضاع النجوم والكواكب في السماء هي التي تحدد مصيرك ومستقبلك؟ قد نتفق في الرأي وقد نختلف، ولكن شيئاً واحدا كان ثابتا في بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وهو ان هتلر كان يؤمن ببروج الحظ وبأنه كان يستشير «نجومه» بواسطة خبراء علم التنجيم الالمان ليأخذ رأيهم في حملاته العسكرية الصاعقة التي سيطر فيها على اوروبا في السنوات الاولى للحرب سيطرة تامة.

ولكن هتلر، وقد اشهر سلاح التنجيم ضد الحلفاء، لم يكن يدري بأن «النجوم» لن تبقى الى جانبه حتى نهاية الحرب، بل انه لم يكن يدري - لان ذلك ربما اخفي عنه بأن النجم «زودياك» سيكون سبب هزيمته وسقوطه. فهل حاربت السماء هتلر فعلاً؟

حرب التنجيم :

بينما كانت الحرب في اوروبا تجري على اشدها عام ١٩٤٠ ، وجيوش المانيا الهتلرية تكتسح اوروبا الغربية وتمزق جيوشها شر ممزق كان يجري في لندن حديث من نوع غريب بين رجالات الدولة من عسكريين ومدنيين .

– «هل هذا صحيح – بأن قسما خاصا بالتنجيم قد انشئ في وزارة الدفاع ، وان احد علماء التنجيم يدير شؤونه» ؟ . سأل احد الجنرالات البارزين محدثه انورين بيفن الخصم اللدود لتشرشل فأجاب :

– لا شك ان هذا الطفل الهرم قد اصبح مخبولا . (يقصد تشرشل)

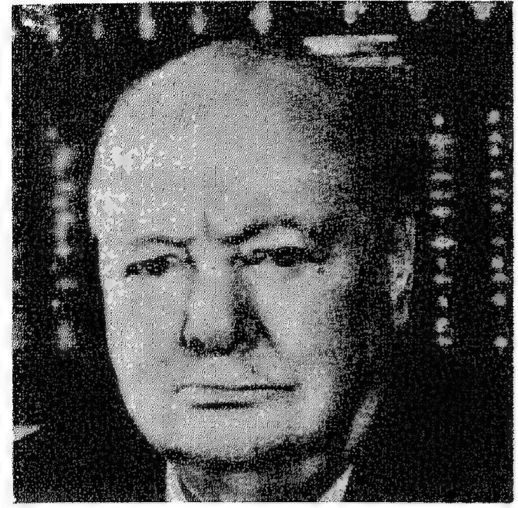
وهنا تدخل بينهما احد رجال السياسة المرموقين .

– «ان استخدام احد علماء التنجيم في مجلس الحرب قد يكون جنونا ، ولكنني اعتبره خطرا محققا» .

في الواقع ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، ولاول مرة في التاريخ الحديث تنشب «حرب التنجيم» .

كانت حجة تشرشل ، على جانب من البساطة : هتلر يؤمن بعلم التنجيم ، ووكالة الاستخبارات البريطانية قد تأكدت بأن الفوهرر كان محاطا بخمسة من علماء التنجيم على اقل تقدير ، ونادرا ما كان يتخذ قراراته العسكرية دون استشارتهم . اذن معرفة ما يقولونه لهتلر سيكون مفيدا للحلفاء . اذن «لماذا لا نحاول ؟» قال تشرشل ، «سيكون ذلك طريفا» .

بين منتصف ونهاية شهر ايار – مايو – ١٩٤١ ، ضوعفت الحراسة على كل مراكز خفر السواحل في الجزر البريطانية ومصابيح بطاريات المدفعية المضادة للطائرات تجوب السماء بحثا عن طائرات عدوة دون توقف ، ومنع الفلاحون من العمل في اراضيهم القريبة من السواحل ، خوفا من هجوم مفاجئ . وجرى التدقيق في الهويات في المرافئ الكبرى ، مجموعات من رجال البوليس تبرز فجأة في مناطق الساحل : الهدف من كل ذلك : البحث عن رجال المظلات او عملاء سريين المان .



تشرشل

هذا الاضطراب الذي قلب حياة الجزر البريطانية سببه تصريح لرجل ذي قامة مديدة ومنكبين عريضين ، يلبس بزة عسكرية جديدة برتبة كابتن في الجيش البريطاني ، ويحمل نظارات ذات اطار اسود اللون ، نظرته حادة ، ولكن وجهه المملوء يوحي بطيبة القلب .

هذا الكابتن يقيم في شقة كبيرة من اوتيل «كروسفينر» تحمل الرقم (أ ٠٥٥) وكان مديرا لقسم خاص جدا في وزارة الدفاع هو القسم المتعلق بعلم النجوم .

انه الكابتن لويس دو وول الذي يتقن اللغة الانكليزية ولكن بلكنة هنغارية . تلك كانت جنسيته الاصلية . وقد اختار العالم لويس معسكر الحلفاء والتجأ الى لندن عارضا خدماته وباحثا في احد العلوم التي يؤمن بها هتلر اشد الايمان : علم التنجيم .

من هو ؟

ان حالة القلق والاضطراب التي عشتها بريطانيا في اواخر شهر ايار (مايو) تعود الى تحذير اطلقه وول في تقاريره اليومية ويقول «هتلر سيقوم بعملية انزال في جزيرة ... هذا ما يقوله برج ... يستحيل تحديد الجزيرة المقصودة بالغزو .

ان له كل الحظوظ المتوفرة للنجاح ، لان مجموعة نجومه في وضع مناسب تماما ،



لويس وول

جوبيتر، المريخ ونبتون تظهر في وضع جيد في برجه، هذا الانزال المنتظر سيحدث بين ٢٠ و٣١ ايار (مايو) ١٩٤١».

والواقع ان هذا التعاون الغريب بين وزارة الدفاع البريطانية، والاسطول البريطاني وهذا العالم المقيم في الغرفة أ٥٥٠ يعود الى حوالي سنة تقريبا (١٩٤٠).

فان بعض المقربين من وول يصفون اللقاء الذي تم بين اللاجئ الهنغاري (الذي هرب بسرعة من برلين عقب حكم الحزب النازي بينما كان غوبلز يحاول اقناعه بوضع خدماته في تصرف الحزب) وبين احد الموظفين البريطانيين الكبار في الاستخبارات، وقد تم اللقاء في احدى الشقق في لندن.

الضابط البريطاني كانت لديه تعليمات محددة، لذلك كان يتكلم بنبرة حادة، وبعد سماعه لعرض العالم الهنغاري قال:

– «السلطات البريطانية مهتمة بمعلوماتك التنجيمية، كم تطلب من اجل هذا العمل؟»

– لا شيء، اريد فقط ان ارتدي البزة العسكرية اخدم في صفوف الجيش البريطاني ضد هتلر.

– هذا مستحيل، القوانين المعمول بها تمنعنا من ان نجعل من اجنبي ضابطاً بريطانيا، ان جنسيتك هنغارية، ودولتك انضمت الى صفوف المحور، حتى وان لم تكن في حالة حرب مع بلدنا؟

– اذن، امنحني الجنسية البريطانية، يا كولونيل.

– مستحيل ايضا، القوانين البريطانية تمنع اية عملية تجنس خلال اوقات الحرب.

– في هذه الحالة، اطلب مليونا من الجنيهات الاسترلينية، لدى جداول البروج الفلكية (اوروسكوب) الخاصة بهتلر، واعلم جيدا كيف اقوم على تحليلها.

وهنا ساد الصمت، ولكن اخيرا، قرر رجل الاستخبارات البريطانية القبول:

– «اذا كان الامر كذلك، فسوف اسعى لجعلك ضابطا بريطانيا.

وهكذا كان..

ويقول العالم وول محددا دور النجوم السماوية: «ان كينتين رينولدز قد قال بشأن موضوع الحرب العالمية الثانية مشيرا الى شمول وول العالم كافة: «ان النجوم وحدها كانت على الحياد»، ولكنه كان مخطئا فالنجوم كانت مشتركة في الحرب بصورة فعلية ويتابع قوله. منذ عام ١٩٣٠ وانا مهتم بهذا الاعتقاد الغريب الذي يعود الى ستة آلاف سنة بأن هناك علاقة وثيقة بشكل من الاشكال بين اوضاع الاجسام السماوية وبين تصرفات وميول الانسان على الارض، فكان هدفي هو البحث عما اذا كان هناك «شيء ما» من هذا القبيل، لذلك عكفت على دراسة مختلف انظمة الابراج في المانيا، في الهند وفي بريطانيا لمدة سنوات عديدة.

مفتاح الحظ

في عام ١٩٣٥، «عرض علي مندوب ارسلته الحكومة الالمانية استخدام معرفتي في الابراج الفلكية ووضعها تحت تصرف الفورر، فطلبت فرصة للتفكير... ثم غادرت برلين مسرعا في اليوم التالي».

في المانيا، الجميع يعرفون ان هتلر كان يستخدم علم التنجيم، فقد كان احد المنجمين الهواة عام ١٩٢٣ قد حذره من ان يأتي بأي «عمل» هام في ذلك الخريف، فلم يستمع اليه



هتلر المؤمن بعلم الفلك

هتلر واشترك بالانقلاب الفاشل الذي حصل ضد الحكومة الالمانية، فاعتقل وسجن.

حول ايمان هتلر بالتنجيم، فانه كان يعتقد بأن الانسان في حياته يكون محظوظا اوْ لا يكون في بعض الفترات، وان علم التنجيم هو الذي يعطيه سر هذه الفترات، فاذن يجب وضع مخطط بالاعمال والقيام بها فقط حين تدله بروجه الفلكية بان الحظ الى جانبه، وتجدر الاشارة هنا الى ان هتلر كان معجبا بشخصية نابليون التارخية خاصة وان نابليون كان يؤمن ببرجه الفلكي.

بعد سنوات قليلة من وصول الفورر الى الحكم، اخذ العالم بأسره يتحدث عن مخطط عمل لهتلر، ولكن دون معرفة المبدأ الذي يقوم عليه هذا المخطط، لحظ الناس بأن اعماله الضخمة في اوروبا (قبل الحرب) كانت في تواريخ منظمة ووفق منهجية ظاهرة، بعض المراقبين لاحظوا ايضا ان تحركات هتلر تصادف بدء الشهر القمري بصورة ثابتة، ولكن في الواقع، فان عمل هتلر المستند الى بروجه الفلكية كان يعتمد على اعتبارات فلكية لم يكن يلعب فيها ظهور القمر الا دورا ثانويا.

وفي الواقع فان قاعدته الاساسية كانت:

«عند ظروف الحظ المؤاتية فلكيا نتحرك الى الامام، وعند الظروف السيئة فلكيا، نأخذ جانب الهدوء.»

وطبق هتلر هذه القاعدة في معظم اعماله، باستثناء مرة واحدة: في اول ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ عندما بدأ الحرب بغزو بولونيا وابراجه الفلكية لا تدل ان «الحظ» بجانبه، الا انه اعتمد على تأكيدات روبنتيروب من ان كل الدول الكبرى غير مستعدة لخوض الحرب من اجل بولونيا وان عامل الحظ قليل الاهمية في حرب ضد بلد واحد وضعيف مثلها.

علم الفلك ضد هتلر

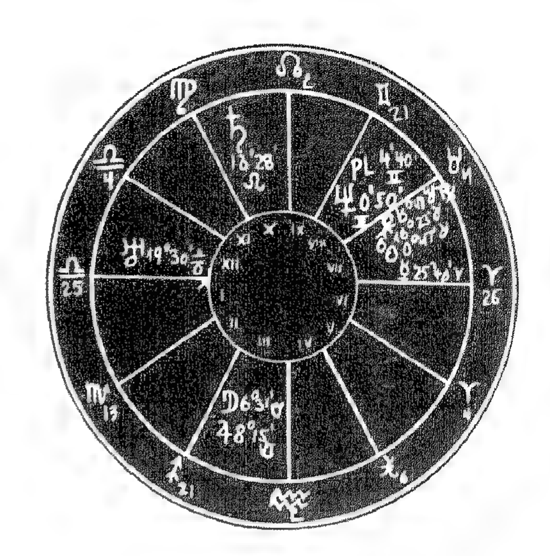
«لم اعرف بالضبط ماذا حصل لكبير علماء الفلك الالمان، ولكن ما اعرفه هو ان هتلر استدعى السويسري كارل كرافت، وهو اشهر علماء الفلك في اوروبا، الى برلين (يقول لويس وول) وقد عرفت ذلك في حزيران (يونيو) عام ١٩٤٠ خلال وجودي في لندن وبعد هربي من برلين.

في لندن قابل وول الوزير الروماني ف. ف. تيلايا واخبره بأن كارل كرافت سبق وكشف له عن بروجه الفلكية، وانه - اي الوزير- تلقى منه في الفترة الاخيرة رسالة سياسية مطولة بواسطة الحقيبة الدبلوماسية، وقر قرأها وول، وكان الاتفاق تاما بين الرجلين بأن هذه الرسالة ليست سوى احدى كمائن الدعاية النازية. ولكن ما يهم هو اما كرافت يخبره فيها ان الحكومة الالمانية استدعته الى برلين، وذهب الى حد انه المح بمعرفته شيئاً عن الخطط الحربية الالمانية.

«وفجأة، لمعت الفكرة في رأسي، بكل وضوحها، فتمتمت،» يقول وول للوزير: «يجب ان نستخدم علم التنجيم ضد هتلر، يجب ان نستدرجه الى الفخ، وبواسطة السلاح نفسه الذي يستخدمه».

وهنا ضحك الوزير تيلايا قائلا: «هل ستطلب من الجنرالات والاميرالات الانكليز ان يؤمنوا بعلم التنجيم»؟ اجاب وول بثقة:

لا، هذا ما سأقوله لهم: «ربما تظنون



بروج ونجوم هتلر الفلكية

انتم ان علم التنجيم هو هباء وعبارة عن اباطيل، او انه على الاقل ليس علما، ولكن هذا لا اهمية له البتة لان المهم هو ان هتلر نفسه يؤمن بأنه علم فعلماؤه حتما قد درسوا نجومه وبروجه الفلكية وحظه، وهذا قائم على اساس بحث من الرياضيات وصدف انني اعرف الشخص الذي درس بروجه، واعرف الاسلوب الذي اعتمده في ذلك، فاذا قمت بالعمليات الحسابية نفسها التي قام بها هو فاننا سنعرف بالتأكيد ما هي النصائح التي سيسديها الى هتلر، وهذا ولا شك سيكون نقطة ايجابية في صالحنا» فهل تعتقد بأنهم سيقبلون؟

فأجاب الوزير مؤكدا: انه منطق صائب، اعتقد انهم سيقبلون.

وقد «قبلوا» بالفعل، فقد قام تيلايا بتعريفي الى كبار المسؤولين البريطانيين الذين ناقشت واياهم هذه الفكرة، فتم تأسيس «مكتب الابحاث النفسية» الذي لم يكن يعمل فيه سوى شخص واحد، هو كابتن في الجيش الانكليزي ولم يكن من التابعية الانكليزية وهو لويس دو وول.

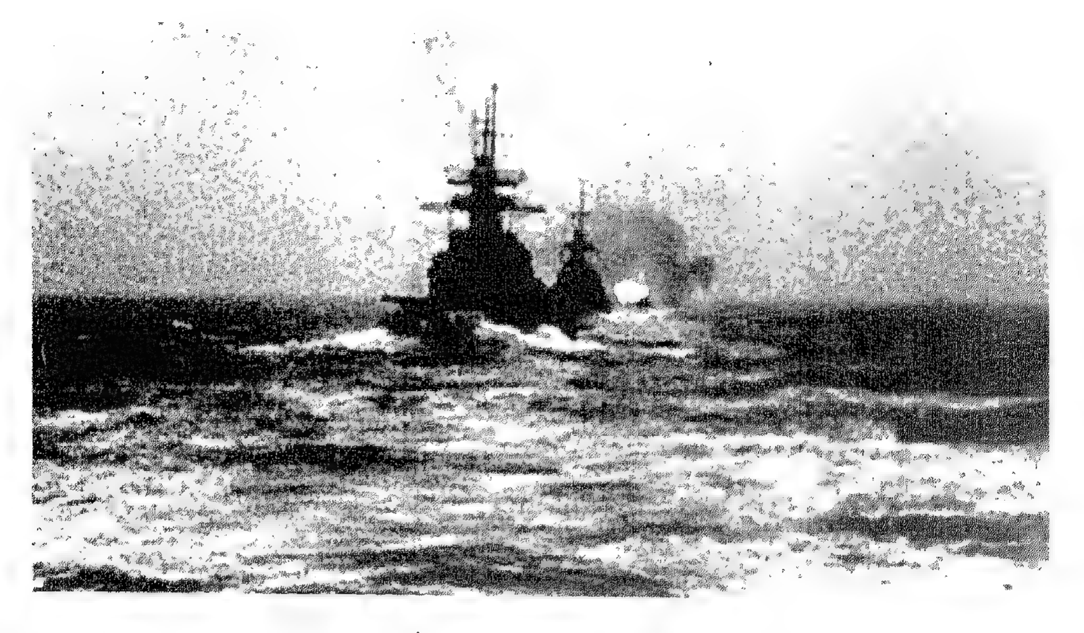
كان عمل المكتب المذكور يدخل في نطاق «الحرب النفسية»، وقد اعطى مسؤول الاستخبارات الانكليزية للعالم وول قوائم طويلة، بناء على طلبه، بأسماء وتواريخ ولادة جنرالات الجيش واميرالات البحرية الانكليز والايطاليين والالمان، لان هتلر لم يكن يتبع بروجه الفلكية الخاصة به فحسب بل كانت لديه معلومات عن البروج الفلكية لكل الشخصيات التي يعتبرها مهمة، وكان لا يكلف احد الجنرالات بقيادة جيش من الجيوش الالمانية الا حين يتأكد بأن بروج الحظ «ستواكبه» في المستقبل القريب، وكان بالامكان بهذه الطريقة التنبؤ اين ومتى سيجري الهجوم الالماني القادم.

ولكن، في نهاية عام ١٩٤٠، كانت المشكلة الكبرى غزو بريطانيا العظمى، فقد رفعت (يقول وول) الى رؤسائي تقارير في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٤٠ بأن بروج خط هتلر تفيد امكانية «نصر ساحق خلال هجومه على جزيرة» في اواخر شهر ايار (مايو) ١٩٤١. وهنا تكمن حدود علم البروج الفلكية: في صعوبة تحديد الجزيرة المقصودة بالغزو، ولكن هتلر لم يحاول اجتياح بريطانيا العظمى التي هي جزيرة.

في ايار (مايو) ١٩٤١، وطبيعي، يضيف وول، ان مستشار هتلر الفلكي قد وصل الى النتائج نفسها التي توصلت اليها انا، وطبيعي انه اخبر هتلر بذلك، ولكن في تلك الفترة كانت الجزيرة التي اجتاحها هتلر بنجاح هي.. جزيرة كريت.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠، كنت اعد تقريري الشامل لعام ١٩٤١، وكان علي ان اقوم بتحليل البروج الفلكية لحوالي ٣٥٠ شخصية، وبعد ان القيت نظرة على الجداول وبالضبط ليوم ٢٧ آذار (مارس) يضاف اليها ان هذا اليوم يصادف بداية الشهر القمري الجديد، وقد تيقنت بان مستشار الفورر الفلكي لن يفلت منه هذا التاريخ كيوم ذي اهمية كبيرة بصفته واقعا تحت التأثير المزدوج للمريخ ونبتون (نبتون اله البحر لدى الرومان) فاستنتجت بأن معركة بحرية ضخمة قد يدور رحاها في ذلك اليوم.

تفحصت جيدا سجلات بروج الحظ لقواد الاساطيل في كل من المانيا وبريطانيا وايطاليا، ايهم هو (الاوفر حظا) في يوم ٢٧ اذار



(مارس)؟ ولم يكن من بينهم سوى واحد هو الاميرال سير اندرو كونينغهام، فعرفت ويعرف ايضا مستشار هتلر الفلكي بأن السير اندرو هو قائد الاسطول الانكليزي في المتوسط، الموجود في الاسكندرية، في مصر، فاذا كان لا بد لمعركة بحرية ان تقع، فانها حتما مع الاسطول الايطالي وليس مع الاسطول الالماني الموجود معظمه خارج المتوسط.

بروج الحظ الخاصة بالسير اندرو تبرز سمات «ايجابية» في حين ان بروج حظ الاميرايين الايطاليين كافا نياري وريكاردو تبرز سمات «سلبية»، وتحليلي النهائي للموضوع اظهر وجود علامات «ملائمة» في جداول فلك ملك انكلترا جورج السادس وتشرشل، وعلامات «غير ملائمة»، في جداول ملك ايطاليا فيكتور عمانوئيل وموسوليني.

وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ بعثت الى قيادة البحرية البريطانية بتقرير مفاده ان مستشار هتلر الفلكي سيقول لسيده بانه في ٢٧ اذار (مارس) سيكون للسير اندرو الحظ الاكبر بتوجيه ضربة ساحقة للاسطول الايطالي في المتوسط.

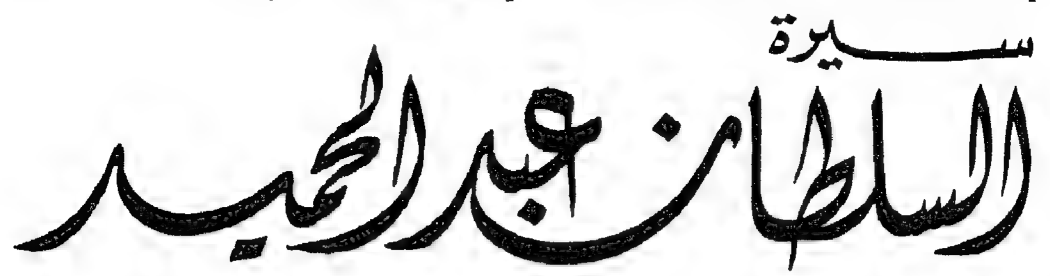
النبوءة... تتحقق.

«الحظ» كان عاملا اساسيا بالنسبة للانكليز في صراعهم ضد الايطاليين فالاسطول الايطالي كان بمعظمه يحوي قطعا سريعة الحركة، ربما من اجل تفادي صدامات غير مضمونة احيانا، وربما لانها تفتقر الى التسليح المناسب والكافي فكانت السرعة في الحالتين مفيدة للغاية، قطع الاسطول الايطالي كانت تحوي طرادات من نوع «فيتوريو فينيتو» التي تصل سرعتها الى ٣٠ عقدة، فكان الاميرال الانكليزي كونينغهام بحاجة الى حظ كبير لكي «يجابهها» بواسطة سفنه البطيئة والقديمة، فكان عليه والحال كذلك ان يظل في حالة تأهب دائمة وفي وضع قتالي مستمر.

ماذا سيفعل هتلر؟ لا ادري تماما، يقول وول، ففي يوم ٢٧ اذار (مارس) الصقت اذني بجهاز الراديو، لا شيء، يوم ٢٨، لا شيء ايضا، بدأت احدث نفسي عن جدوى ما اقوم به لدرجة انني ظننت نفسي طفلا امام عبقرية عالم البروج الفلكية مستشار هتلر.

في يوم ٢٩ اذار (مارس)، بدأت ضجة ما تبرز، وفي ٣٠ اذار (مارس) صدرت الصحف بعناوينها العريضة «كونينغهام يسحق الاسطول الايطالي في معركة ماتابان» كانت المعركة البحرية الاولى التي تجري في الليل، وفي الواقع فان الاسطول الايطالي قد كشفت مواقعه منذ ٢٧ اذار (مارس) بواسطة طائرات الاستكشاف.... ثلاث طرادات ايطالية تم اغراقها في حين لم يصب اي من سفينة كونينغهام ... وانتصر علم التنجيم، او قل علم التنجيم المضاد.

تنشر مجلة تاريخ العرب والعالم هذه القصة - الوثيقة كصورة من صور التاريخ للسلاطين العثمانيين من زاوية الحياة الشخصية، هذه الزاوية التي غالبا ما تغفل في التحليل التاريخي، تبرز في هذا العرض بأشكال تبدو غير مهمة، وسطحية... وبالرغم من ذلك يبقى فيها شيء من الطرافة وجزء من الحقيقة التاريخية التي قد تهم قطاعاً من القراء.

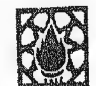


سيرة السلطان عبد الحميد

من نشرة وثائقية عربية صدرت في عدة اجزاء وبعنوان «عصر السلطان عبد الحميد ١٨٧٦-١٩٠٩»



من هو السلطان عبد الحميد؟



هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بني عثمان وثاني انجال ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان ولد في ٢١ ايلول سنة ١٨٤٢ وتوفي في مدينة مغنيسيا من اعمال الاناضول في اثناء الحرب الكبرى في ١٠ شباط سنة ١٩١٨ فكانت مدة حكمه ٣٢ سنة، و ٥ اشهر و ٢٦ يوما ومدة حياته ٧٥ سنة و ٤ اشهر و١٩ يوما وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا.

يعنى الغربيون في كتابة سير ملوكهم بقيد ملاحظاتهم عن تاريخ ملكهم في زمن طفولته وشبابه وانما يفعلونّ ذلك لانه يفيد في تعرف احواله ويساعد على تفهم حقيقة امره لان

القارئ إذا رافق الملك في طفولته وصباه ووقف على عاداته يستطيع ان يفهم فهما صحيحا حكمة تصرفاته في مقتبل الحياة كما يفهم الصديق صديقه والاخ اخاه وعلى هذه الخطة المثلى رأينا ان نسير في بحثنا هذا فتدون فيه ما اطلعنا عليه من الاخبار الموثوقة عن نشأته وطفولته .

وشخص عبد الحميد يكاد يكون تاريخاً مستقلا قائما بذاته جامعا في فصوله لأهم الوقائع التي تعاقبت على الامبراطورية العثمانية في ايامه فاننا بدراستنا شخصيته منذ اول نشأته والوقوف على حياته الخاصة نكون قد درسنا حياته السياسية ايضا واطلعنا في الوقت ذاته على احوال الدولة في عهده الذي استغرق ثلث قرن .

هل كان عبد الحميد مولودا غير شرعي ؟

لقد ذاعت اخبار متناقضة عن صحة نسب عبد الحميد فادعى البعض مستندين الى علائم واسارير وجهه انه من ابناء السلطان عبد المجيد غير الشرعيين فهو ثمرة غرام احد مستخدمي القصر الارمن فمنهم من قال ان اباه ارمني الجنس ومنهم من زعم ان امه هي الارمنية والصحيح انه من ابناء عبد المجيد غير الشرعيين من جارية معروفة تدعى (جانديز) توفيت بداء السل سنة ١٨٤٩ تاركة ابنها في السابعة من عمره .

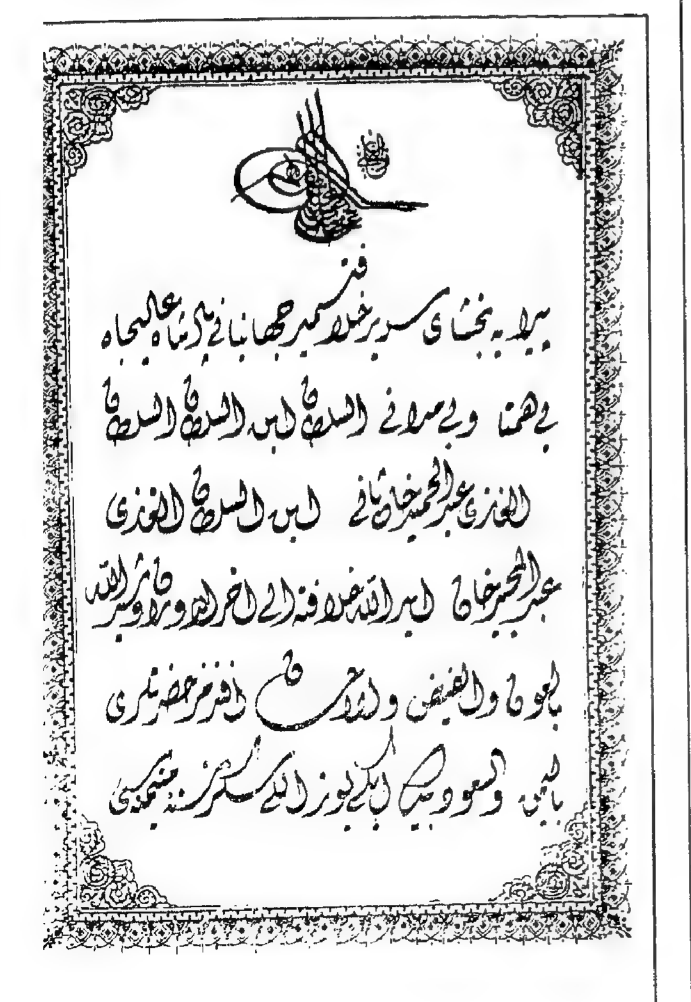
وقد اتخذ الاحرار الذين فروا الى اوروبا وجاهدوا فيها في سبيل استرداد الدستور قبل اعلان الحرية بخمسة عشر عاما هذه الاخبار المتناقضة سلاحا بيدهم حاربوا به عبد الحميد فاذاعوها على صفحات الجرائد هناك وادعوا ان سلطانا مشبوه النسب لا تصح خلافته ولا شك في ان تلطيخ الاحرار سمعة سلطانهم بمثل هذه الشائعات في صحف الغرب عمل لا يشرفهم كثيرا .

وحنق السلطان عبد الحميد حنقا شديدا على مروجي هذه الشائعة وانزل العقاب الصارم بالمشتبهين في حقيقة نسبه داخل البلاد . اما المشتبهون في خارجها فلما كانت يده لا تصل اليهم اكتفى بالرد عليهم بنشرة في تقويم الدولة الرسمي السنوي (السالنامة) صورة فرمان ولادته الذي وجهه والده يوم ميلاده الى الصدر الاعظم في ذلك الزمان محمد رؤوف باشا حسب التقاليد المرعية عند السلاطين حين يرزقون اولادا . واستمر في نشر صورة هذا الفرمان في صدر التقويم الرسمي للدولة لمدة اثنتي عشرة سنة وهاك صورته :

صورة فرمان ولادة السلطان عبد الحميد :

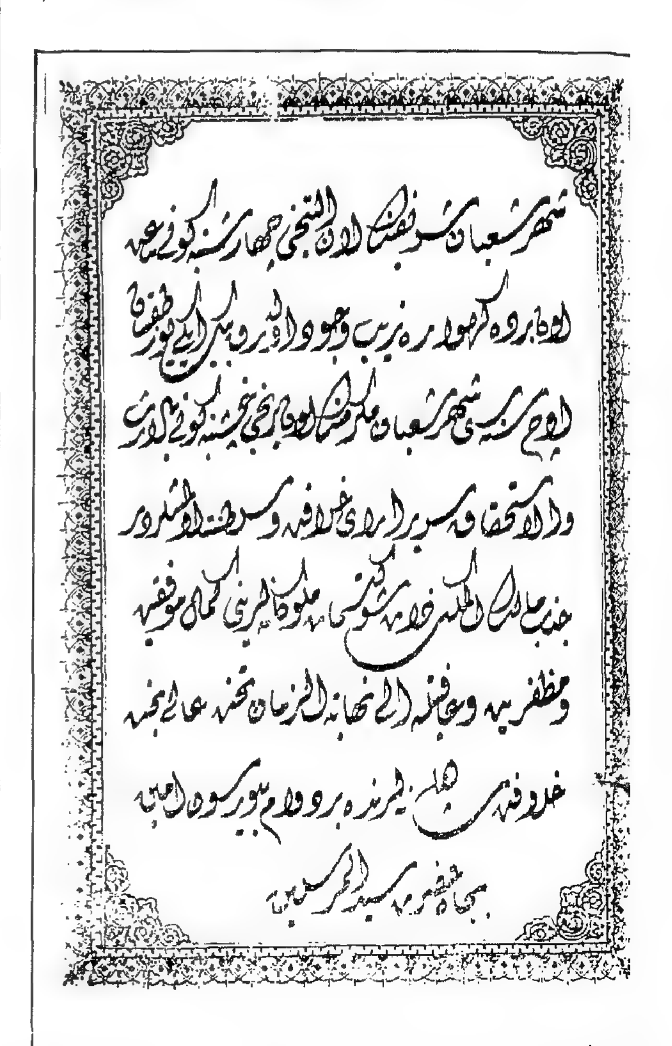
الى وزيري سمير الصداقة محمد رؤوف باشا :

«بعد حمد الله خالق البرايا على الطافه



الصفحتان الاولى والثانية من تقويم الدولة الرسمي السالنامة

وانعامه العالية نقول: لقد سطرنا خطنا الهمايوني هذا وسيرناه اليكم مع رئيس حرمنا الخاص حاملا لكم ولجميع عبيد سلطتنا السنية بشرى قدوم امير من صلبنا النقي الملكي وقد تبسم له ثغر الوجود امس يوم الخميس الواقع في السادس عشر من شهر شعبان الحالي حوالي الساعة الحادية عشرة فدعوناه السلطان (عبد الحميد) وانا نتضرع الى واجب الوجود ان يمد في حياته ويجعل قدومه على ذاتنا الشاهانية وعلى كافة عباده قدوم يمن وسعادة آمين. وعليكم بالايعاز الى من يلزم بشأن اطلاق المدافع في الاوقات الخمسة لمدة سبعة ايام لاذاعة هذه البشرى السعيدة على كافة الانام



[illegible] يصدر دوماً بفرمان ولادة عبد الحميد.



عبد الحميد

لكي ينالوا نصيبهم من هذه المسرة وعلى الوزراء الفخام وجميع رجالنا الصادقين وسائر الراغبين ايقاد القناديل والمصابيح في ليالي الايام المذكورة واقامة معالم الزينات ونسأل رب العالمين في الختام ان يديم سلالتنا الطاهرة الى الابد ويمن على عباده بالامن والرفاه بحرمة سيد رسول الثقلين».

كيف عامل عبد الحميد الام التي تبنته:

تقدم القول ان والدة عبد الحميد توفيت في ريعان الصبا بداء السل فتبنته زوجة عبد المجيد الثانية (برستو) خانم التي لم ترزق اولادا واحبت ربيبها حبا خالصا فتنازلت له عن ثروتها في حياتها وعاشت الى الايام الاخيرة من سلطنته وهي تلقب بلقب (والدة السلطان) غير ان هذه السيدة التي كان يحترمها جميع سكان القصر قابل عبد الحميد عطفها وحنانها بالجحود والنكران فاهانها مرارا واتهمها بوجود علائق غرامية غير مشروعه بينها وبين احد موظفي القصر واخبر السلطان عبد العزيز بذلك وازاء هذه التهمة الشنيعة عز على (برستو خانم) البقاء مع نجلها الذي تبنته فغادرته وانسحبت الى قصرها الكائن في (نشانطاش) إلا انها بعد مدة عادت وتصافت مع عبد الحميد وترددت الى قصره ولكنها بقيت ساكنة في قصرها بنشانطاش منذ جلوسه الى حين وفاتها.

لم يكن عبد الحميد ميالا الى الدرس والمطالعة في صغره فكان مربيه (كمال باشا)

واساتذته عمر افندي وشريف افندي وادهم باشا والمسيو غاردي ونامق باشا يشكون دائما من تلميذهم ويقدر ما كان اخوه الاكبر مراد افندي مجتهدا منكبا على الدرس كان عبد الحميد متهاونا، متكاسلا لا يعنى بامر دروسه ولهذا لم يتعلم لغته نفسها وبقيت املاؤه مشحونة بالاغلاط.

عبد المجيد يتشاءم من ولادة ابنه عبد الحميد:

كان عبد المجيد يكره ابنه عبد الحميد كرها شديدا ولم يعرف بالتأكيد سبب هذا الكره ويروى ان بشرى ولادة ابنه وصلته وهو في الحمام فلما اراد ان يكافئ الرسول المبشر ولم يجد شيئا معه لوجوده عاريا في تلك اللحظة تشاءم بهذا المولود وتنبأ ان ابنه هذا سيتولى في المستقبل العرش ولا يكون عهده سعيدا.

السارق:

ومن اغرب ما يروى عن الفتى عبد الحميد ان شقيقيه رشاد وكمال الدين كانا في احد الايام يلعبان مع اختهما السلطانة (سنية) في الجنينة فركضوا حتى اعياهم التعب فدخلوا إحدى قاعات القصر واستلقوا على الارائك الموضوعة في زواياها ليأخذوا نصيبهم من الراحة وإذا بالنعاس يتغلب على جفونهم فيغرقون في نوم عميق وكان اخوهم عبد الحميد على مقربة منهم يلاحظهم ويراقبهم فلما تيقن من نومهم دخل القاعة وهو يمشي مشية اللصوص وجرد اخته وشقيقيه من حليهم واخفاها في محل لا تصل اليها يد وقد اتهم الخصيان والخدم بالسرقة ولاقوا جزاءا صارما دون ان يبوح عبد الحميد بجرمه ولكن برستو خانم عثرت على الحلي المسروقة في إحدى خزائن ولدها الامير ولم تتجرأ على إعلام السلطان بالامر خوفا على الامير من غضبه. وانما اكتفت بتعنيفه تعنيفا شديدا فحقد على مربيته الخانم لاكتشافها جريمته وكانت برستو خانم تأمل ان يزول حقد الامير عليها مع الزمن ولكن عبد الحميد بقي حاقدا مدة طويلة ولما ترعرع قليلا رأى من حسن السياسة ان يستر شعوره الحقيقي لان مربيته كانت تتمتع بنفوذ لدى السلطان لذلك تجنب الحرب المكشوفة وتظاهر باللطف والكياسة فاكتسب بذلك رضاء والده الذي ظن ان ابنه وطد العزم على اصلاح ما اعوج من اخلاقه فراح يحيطه بضروب العناية غير ان الضغينة كانت قد تمكنت جذورها من قلب الامير الفتى.

اخلاقه وصفاته:

روى عنه المسيو (دوريس) في مؤلفه الذي وضعه عن حياة (عبد الحميد) الخاصة انه كان غلاما سقيما سكيتا يميل الى العزلة والانفراد يفرض رغائبه على الذين حوله كأنها قانون، بينه وبين اخوته واخواته فرق عظيم في الاخلاق والعادات فكان يتهرب دوما من اخوته لا يشاركهم في العابهم بل ينتحي ناحية ويأخذ في مراقبتهم وملاحظة ضحكهم ولهوهم بنظرات حزينة يتخللها في بعض الاحيان بريق يدل على الخوف والحذر.

وتألم عبد الحميد في طفولته كثيرا فكان مكروها منبوذا من والده واخوته وهذا الالم هو الذي جعل منه في المستقبل رجلا داهية ومع صغر سنة لم يخف عليه نفور والده منه فكان يقابل هذه البرودة من ابيه بقلب كالجليد محتفظا بكل شيء في قلبه. فالسلطان عبد المجيد والده كان يحيط بقية اولاده: مراد وهو البكر ورشاد وكمال الدين وجميلة وسنية ومديحة بالعناية الفائقة مقيما الدليل على اهتمامه الشديد بدروسهم وصحتهم وسعادتهم ما عدا عبد الحميد الذي كان يكرهه وينفر منه لسوء طباعه.

ويروى ان السلطان عبد المجيد كان في احد الايام يتناول الطعام مع اولاده فلاحظ ان ابنه عبد الحميد بعد فراغه من الاكل تناول قطعة البطيخ الباقية في صحن الاثمار وانطلق بها الى الخارج فتأثر السلطان من سلوك الامير الصغير وقطع كل امل في اصلاح هذا الابن دون ان يوبخه ولكنه خاطب (مهران دوزيك) الذي كان حاضرا في تلك الساعة في غرفة الطعام واقفا على قدميه وقال له: لست

بخائف على اولادي هؤلاء ولكنني خائف على ذاك - يريد عبد الحميد - لان احواله تدل على انه سينشأ شريرا وقد نفضت يدي منه منذ الان...

وتحدث السلطان عبد المجيد مرة الى نديمه (دلي بو غوص) عم (مهران بك) الآنف الذكر فشكا ميل ابنه عبد الحميد الى المكر والخداع ولما انبرى النديم الى الدفاع عن الامير الفتى واراد ان يبين للسلطان من طرف خفي ان ما يشكو منه ناجم عن حصره كل محبته ببقية اولاده وإهمال عبد الحميد اجابه السلطان: لقد اعياني امر هذا الغلام ثقوا بكلامي انه محتال عظيم لا يستحق الملاطفة ابدا.

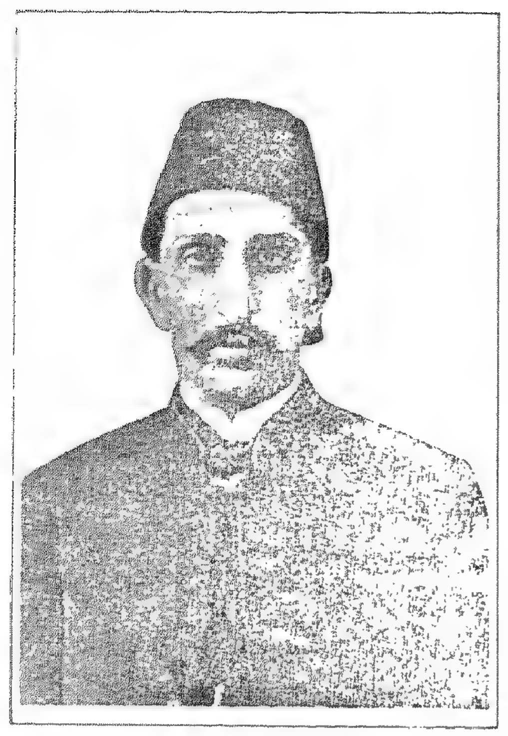
وموقف ابيه السلطان هذا ساعد على انماء ميول الامير المعوجة التي كانت تلقي تشجيعا آخر من حلم مربيته الثانية «ناويك مثال» فكان يقضي الساعات الطوال ممددا على العشب في جنائن القصر مصوبا عيونه نحو الغيوم التائهة مستعيدا بمرارة ما يعتور حياته اليومية من شجون واكدار وكان يردد دائما هذه العبارة «سأجعلهم يدفعون الثمن غاليا» «سأريهم»! وفي هذه السن التي لا يفكر فيها الطفل بغير لهوه وسروره كان عبد الحميد يفكر بالحقد والانتقام.

كما ان نجاح اخيه مراد في دروسه وثناء الاساتذة عليه كانا يثيران في نفسه حسدا شديدا ولم يكن ذكاء عبد الحميد بأقل من ذكاء اخيه مراد ولكنه كان يصرفه في غير الدرس والمطالعة.

وقبل ان يتم الخامسة عشرة من عمره حدث له حادث كان له الاثر الحاسم في حياته وتفصيله:

انه بينما كان راجعا من نزهة برفقة معلمه تقدمت منه في باب القصر عرافة غجرية عرضت عليه ان تكشف له عن مستقبله فدفعها عنه بيده وحاول الاستمرار في السير ولكن الغجرية تمسكت بتلك اليد وقبلتها قائلة: انني احيي فيك سلطان المستقبل!

سر عبد الحميد لكلامها ونفحها بدينار وطلب اليها ان تستمر في كلامها وهنا لمعت عينا



الامير عبد الحميد افندي ولي العهد.

العرافة الواسعتين واخذت يد الامير بين يديها ثم تطلعت الى وجهه كمن يقرا شيئا على جبينه وقالت:

انني ارى العدد الكثير من الاموات، ثم جدارا عاليا تتسلقه فيخلو لك الميدان وسيكون المجد حليفك إذا استطعت تحدي من يلف حولك.

وهنا تدخل المعلم وطردها بقوله انك تقصين اشياء سخيفة فانحنت بخضوع وتواضع وتمتمت: لا شيء يستطيع تحويل ما خطه القدر فما كتب قد كتب..

سار عبد الحميد وراء معلمه وقد اطرق مفكرا: يا لها من نبوءة سعيدة ايصبح هو السلطان! اضاء الافق حوله فجأة وجعل يردد عبارته «سأريهم جميعا عندئذ».

مواقف الغير منه:

قلنا ان الفتى عبد الحميد كان مكروها من اخوته غير ان اخاه مراد افندي المطبوع

على الشهامة وكرم الاخلاق لم يكن يحقد عليه ابدا بل كان يعامله برفق ويوصي بقية اخوته ايضا ان يعاملوه بلطف وعطف .

ولم يكن هنالك من يحب عبد الحميد في القصر او يعطف عليه سوى امراة طاعنة في السن وهذه الامراة كانت والدة السلطان عبد العزيز (برتونيال خانم) التي عرفت بشدة تعصبها وبميلها الى الخرافات السخيفة والاعتقادات الباطلة وقد وجدت عبد الحميد قريبا الى عقليتها وطباعها فعطفت عليه وانقلب هذا العطف الى محبة شديدة توثقت عراها بينهما مع الايام ومنذ تعرّف عبد الحميد الفتى على صديقته العجوز انقلبت حياته من طور الى طور وكأنه خلق من جديد فأخذ يتردد عليها ويقضي الليالي والساعات الطوال ساهرا عندها وفي خلال هذه الزيارات المتواصلة وقف على اسرار السحر والطلمسات وعلم التنجيم .

عبد الحميد الشاب :

كان عبد الحميد في التاسعة عشرة من عمره يوم توفي والده وارتقى العرش من بعده عمه عبد العزيز سنة (١٨٦١) واصبح مراد وليا للعهد فجعل السلطان الجديد يبعده عن المجتمع بقدر الامكان ثم شدد الرقابة عليه خوفا من خطره كما ذكرنا في حينه .

اما عبد الحميد فكان على النقيض من ذلك يتمتع بالشيء الكثير من الحرية فقد تمكن بما عرف عنه من الدهاء من اكتساب ثقة عمه عبد العزيز حتى عهد اليه بالتجسس على اخيه مراد .

وكان مراد يعطف عطفا خاصا على عبد الحميد ويشعر نحوه بحب اكيد لم يخامره شك في نوايا اخيه لذلك كان يستقبله دوما ويباحثه في كثير من الشؤون دون ان يخفي عنه شيئا من ميوله الحرة فكان عبد الحميد يتلقى هذه الاخبار وينقلها الى عبد العزيز حرفيا فيغدق هذا عليه بالهدايا والصلات ويستزيده منها .

لم ينفك عبد الحميد عن التفكير بمجده العتيد منذ ان انبأته العرافة الغجرية على ابواب سراي طولمة باغجة بأنه سيعتلي العرش



السلطان عبد الحميد الشاب بعد ارتقائه العرش

يوما ما وبما انه استعذب كلام المنجمة طفق يستشير العرافين والمنجمين وجميع هؤلاء اجمعوا على انه سيصبح يوما ما السلطان القاهر المطاع ويدوم حكمه عهدا طويلا .

اشتدت فيه رغبة الحكم بعد هذه التنبؤات التي وافقت مزاجه وارتاح اليها كثيرا فأخذ يكثر من التفتيش على مهرة المنجمين واستطلاع رأيهم في ايامه المقبلة وما زال كذلك حتى توفق الى التعرف على منجم مشهور يدعى الشيخ عبد الرحمن السين .

عبد الرحمن السين !

هو شيخ هرم كان في زمانه اشهر المنجمين على الاطلاق استقدمه عبد الحميد من جزيرة قبرص وكان ساكنا فيها لاستطلاع رأيه في مستقبله وقد توصل اليه بواسطة نجيب باشا احد وزراء الدولة في ايام السلطان عبد العزيز ولهذا الشيخ حكاية مع نجيب باشا لا بأس من ايرادها فقد حدث مرة ان السلطان غضب على الوزير نجيب باشا وامر بنفيه الى جزيرة قبرص وهناك التقى الباشا المغضوب عليه بالشيخ عبد الرحمن فتنبأ له الشيخ بالعفو العاجل وبالعودة الى بيته وقد صدقت نبوءته وعاد الباشا الى الآستانة واخذ يمدح الشيخ

عبد الرحمن حتى اتصل خبره بعبد الحميد فاستقدمه كما تقدم القول.

وفي احد الايام ذكر الشيخ عبد الرحمن هذا لعبد الحميد انه سيصبح سلطانا في القريب العاجل باذن الله فاعترض عليه عبد الحميد قائلا: ان هذه النبوءة بعيدة التصديق لان عمي عبد العزيز الجالس على العرش لا يزال في مقتبل حياته وولي عهده اخي مراد حي بعد يتمتع بعافية جيدة ولكن الشيخ اصر على قوله وصرح انه يشعر بقوة خفية تدفعه الى تأكيد هذه النبوءة ولا بد ان تتحقق.

دار الزمان دورته واذا بعبد الحميد يجلس على العرش فتذكر إذ ذاك شيخه المنجم عبد الرحمن السين واراد ان يكافئه فاستقدمه الى القصر وانعم عليه بالصلات السنية واخذ يستشيره في كل امر يقدم عليه.

عبد الحميد يدس الطلاسم في معطف اخيه:

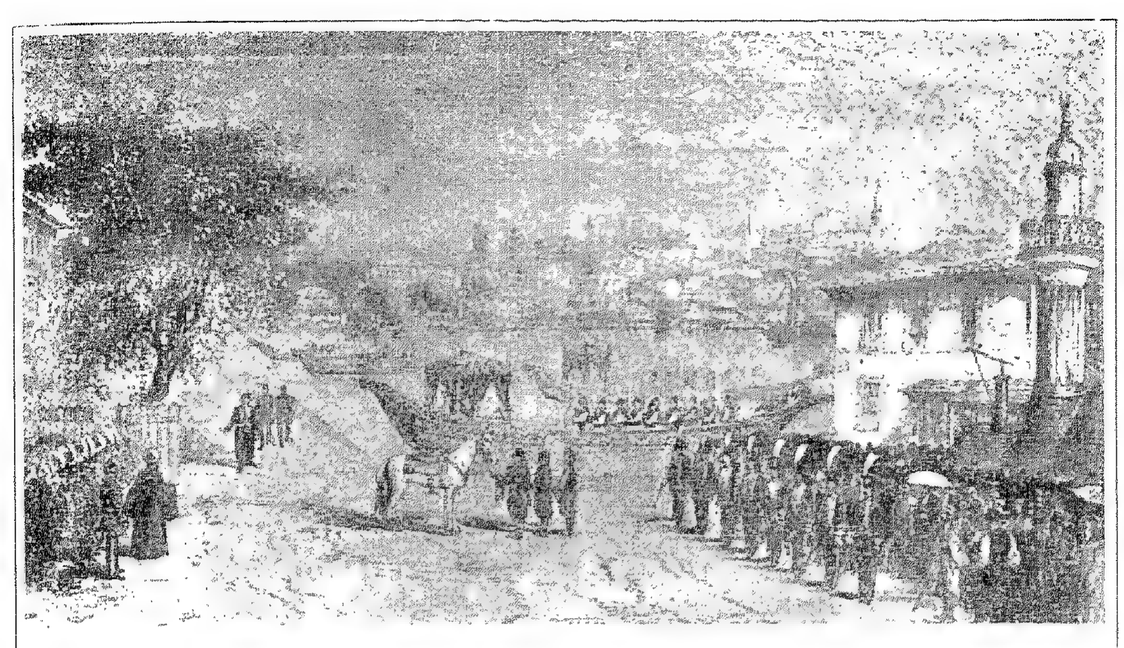
كان للمنجمين تأثير كبير على عبد الحميد ولما اسند العرش الى اخيه السلطان مراد إنصرف الى عمل الطلاسم السحرية قصد إسقاطه عن العرش وهناك من يؤكد ان عبد الحميد اصطنع تمثالا صغيرا من الشمع لاخيه مراد وغرز فيه الابر بيده وزاد على هذا المسيو دوريس انه اوصى الخياط الارمني جمبزيان بعمل معطف ولما انتهت خياطته اخذه الى المنجمين والسحرة وبعد ان دسوا فيه الطلاسم امام عينيه وقراوا عليه انواع القراءات السحرية قدمه هدية الى اخيه السلطان مراد!

بخله في شبابه:

نشأ عبد الحميد بخيلا يحب المال كثيرا فأحسن إدارة املاكه ومزارعه وعرف كيف يتصرف بمواردها ولهذا لم يضطر الى الاستدانة من احد خلافا لبقية الامراء الذين كانوا مدينين لهذا او ذاك. فقد كان يناظر املاكه ويضبط حساباتها بنفسه ويلاحظ النفقات بدقة زائدة ويعتني ببيع غلال مزارعه ومنتوجات مواشيه في الاسواق بأسعار حسنة مراقبا مراقبة دقيقة كل ما يتعلق بموارد املاكه. ولم يحدث ان جازف بمبلغ من ماله مهما كان ضئيلا بل كان يحرص على ثروته قانعا بعيش بسيط لا يجود بالمال إلا لدفع خطر يهدد حياته وقد حدث مرة ان رئيس خدامه موسى آغا اعطى من قن الدجاج مقداراً من البيض الى دائرة حرم الامير مراد فانتهره عبد الحميد انتهارا شديدا على فعلته هذه وطرد في احد الايام خادما من خدمه لانه سبب ضياع بضع دجاجات من قن القصر وضرب مرة حلاب غنمه ضربا موجعا لارتكابه خطأ في حساب الحليب ادى الى ضياع بعض الدريهمات من اصل الحساب!

وكيل خرجه الالماني:

وكان وكيل خرجه رجلا الماني الجنس يدعى كارل باتسن وقد دخل هذا الشخص الى قصر عبد الحميد في بادئ امره عاملا بسيطا في معمل النجارة ولكن الحظ ساعده فاخذ يتقرب من عبد الحميد ويتودد اليه حتى نال حظوة في عينيه واصبح من الاشخاص المقربين الذين لهم شأن يذكر في القصر ويقال ان كارل هذا هو الذي رغب سيده في صناعة النجارة حتى بات شغوفا بها يقضي الساعات الطويلة من نهاره في معملها. ولم يكتسب كارل ثقة سيده ويبلغ هذه المنزلة التي بلغها في مدة قصيرة إلا بفضل اقتصاده وحسن تدبيره وهما خلتان كان عبد الحميد يقدر صاحبهما. وقد رفع عبد الحميد هذا الالماني الدخيل من عامل بسيط في معمل النجارة الى رئاسة المعمل وعينه فضلا عن هذا وكيلا لخرجه لشدة اعتماده عليه. وكان يعهد اليه من حين الى آخر ببعض المهام فيقوم بها خير قيام على منوال يوجب إرتياح سيده وقد رغب فيه عبد الحميد اكثر ما يكون لابتياعه الحاجات من جنسها الفاخر باسعار معتدلة للغاية ولهذا فوضه بشراء لوازم القصر فاثبت كارل في مواقف عديدة انه جدير بالثقة التي وضعها فيه معلمه عبد الحميد وما زال نفوذه في ازدياد يوما بعد يوم حتى توثقت الصلات بينه وبين سيده وبات من الاشخاص الذين لا يمكن لعبد الحميد ان يعيش بدونهم وكان سيده مرتاحا جد الارتياح لحصوله على هذا العامل



صورة نادرة للسلطان عبد الحميد يوم تقلّده السيف بعد اعلانه خليفة عثمانياً ويظهر موكبه يتقدم إلى « ساحل ايوب »

الامين فخصص له دائرة خاصة في القصر وعين له مركبة وفي احد الايام سر منه غاية السرور لشرائه حاجة نفيسة بثمن بخس للغاية ففتح خزانة كانت بجانبه واخرج منها حلة ثياب فاخرة انعم بها على كارل وكيل خرجه المحبوب .

شغفه بجمع الاسلحة القديمة :

اشتهر عبد الحميد في شبابه بمهارته في استعمال السيف والعاب الفروسية وببراعته في الرياضة البدنية ولم يكن جميلا في شبابه حتى ان اناسا كانوا يلقبونه بصاحب الانف الكبير وكان شغوفا بالحيوانات الاليفة لا سيما الطيور منها وكثيرا ما صرف ساعات في ملاعبة احد طيوره . وعني في اخريات ايام شبابه باقتناء مجموعة نفيسة لانواع الفراش وندر ان يترك فرصة تفوته دون ان يغتنمها لاقتناء الاسلحة القديمة وقد انشأ من مجموعة هذه الاسلحة متحفا صغيرا هاما في احد قصوره .

انغماسه في الملذات :

ولما بلغ دور الشباب اندفع كغيره من امراء القصر وراء المسكرات والملذات وقضى حياة مليئة من انواع التهتك والفسق في اشهر احياء الآستانة على مرأى من الناس مع عشرائه اولاد الباشوات وكانت حالته إذ ذاك اشبه بحالة المتشردين لا يفكر إلا في اشباع شهواته . ولكن طبيبه الخاص (ماوروباني باشا) لما لاحظ ما آلت اليه صحة الامير من التأخر والانحطاط من جراء انغماسه في حياة الفجور نهاه وحذره من الاستمرار على هذه الحال مبينا له العاقبة الوخيمة التي تنتظره إذا هو لم يرتدع عن سلوكه فرجع عبد الحميد الى نفسه وعمل بنصيحة طبيبه وتاب توبة حقيقية بتغييره فجأة طراز معيشته فقد انقطع عن المسكرات والملذات التي انهكت قواه واعتنق حياة جديدة شعارها القناعة والزهد والبساطة في العيش . وانقلب على اثر هذه التوبة الى تقي ورع فأخذ يكثر من التردد على الشيوخ والعلماء ويباحثهم في مسائل العقائد والدين .

وقد حدث هذا الانقلاب في حياته في اثناء خلع عمه وكان يقيم إذ ذاك في مصيفه الكائن في (طرابيه) مع زوجته وابنه البالغ من العمر ست سنوات وابنته الصغيرة التي لم يكن لها من العمر سوى ثلاث سنوات لا يعاشر من

نساء القصر الكثيرات سوى جارية واحدة عدا زوجته ولما اشتد المرض على اخيه السلطان مراد وبدأت المفاوضات تدور بينه وبين الوزراء حول اسناد العرش اليه انتقل الى قصره الكائن في (مصلق) ليتمكن من استقبال زواره بحفاوة اعظم .

قلنا ان عبد الحميد كان طفلا نحيلا سقيما لان والدته توفيت بمرض السل وكذلك والده كان مصابا بهذا الداء الخبيث وان قالت النشرة الرسمية يوم وفاته ان الموت نشأ عن نزلة صدرية وبفضل عناية (برستو خانم) المتسمرة وتدابيرها كأم حنون ابعدت ذلك الداء الخبيث عن الطفل النحيل المودع الى عطفها وحنانها ومن اجله رفضت الاقتران بالسلطان عبد العزيز بعد وفاة عبد المجيد مفضلة ان تصرف اوقاتها في العناية به .

ميل عبد الحميد الى العلم وهو شاب :

ذكرنا ان عبد الحميد لم يتعلم في صغره ولكنه بعد عودته من اوروبا زادت رغبته في العلم فأحب من فروعه الجغرافيا وفن تخطيط البلدان والمساحات واجتمع لديه مجموعة جميلة من المصورات البديعة الوضع وكان يحب الرسوم الجميلة ويزين بها جدران غرفته الخاصة .

اوصاف عبد الحميد الخلقية والجسدية :

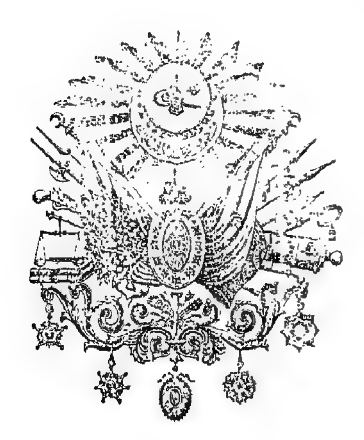
لم يكن عبد الحميد يشبه اباه في الملامح والهيئة فقد كانت هيئته غريبة عنه تختلف اختلافا كليا عن هيئة الجنس التركي المعروف وفي وسعنا ان نحصر اوصافه الجسدية في العبارات الآتية :

عبد الحميد رجل مزاجه عصبي صفراوي معتدل القامة نحيف البنية يكاد يكون كتلة من الاعصاب اسمر اللون اسود العينين فاحم اللحية وكثيفها طويل الوجه والاذنين صغير القدمين انفه كبير منحني من الوسط منحرف انحرافا قليلا الى الجهة اليسرى محدودب الظهر كبير الفم متفرق الاسنان شفته السفلى اقوى من العليا وفي وسطها شق ظاهر يختلف حاجبه الايسر عن الايمن بارتفاعه قليلا وباستدارته يداه نحيفتان جافتان إذا تناول ورقة بيده شوهدت مرتجفة صوته رنان جذاب لهجته شديدة نظره نافذ كالمثقب . رجلاه صغيرتان اشبه بأرجل النساء .

هذه هي اوصاف عبد الحميد الجسدية بقي علينا ان نعرف اوصافه الخلقية . جمع عبد الحميد في شخصه شيئا كثيرا من التناقضات حتى اصبح لغزا من الالغاز قال احد ندمائه المقربين الذين عاشروه زمنا طويلا لم اتمكن حتى الان من فهم شخصية عبد الحميد فهو ذكي وجاهل وشجاع وجبان وعاقل ومجنون في وقت واحد على ان الاوصاف الغالبة فيه هي :

دهاء مفرط، ذكاء خارق، اعتقاد شديد بالقضاء والقدر، وقد كان لهذا الاعتقاد التأثير العظيم في مختلف نواحي حياته، حذر شديد، تبصر في عواقب الامور، والاعتزاز بكثرة الخدم وبهرجة الملك، حب البساطة في عيشته الشخصية، الميل الى التحري عن الحقيقة التقلب في الافكار، الانتقال السريع في التصورات، الحزن العميق، تعظيم الامور التافهة الزهيدة، مقت الحروب، كره اللون الاحمر، النكث بالمواعيد، العناد وحب الانتقام، تنازع البخل والكرم، الانقياد الى الهواجس الاهتمام بمعرفة كل ما يقال عنه، سرعة الكلام، حسن الاصغاء، قدرة فائقة على الاقناع، الحرص الشديد على الحياة، حب العمل واستيعاب الامور بلمحة سريعة .

وبالجملة فان عبد الحميد كان ذا رهبة لا يستطيع الجالس في حضرته الا ان يتهيب ويخاف .





كتب وردتنا

حرية الصحافة في لبنان

منذ العهد العثماني حتى اليوم

محمد أبو مرعي
رئيس دائرة الصحافة في وزارة الاعلام

قدم لهذا الكتاب القيم نقيب الصحافة الاستاذ رياض طه بقوله : « هذا الكتاب ، على ما اعلم ، هو الاول من نوعه . لا في موضوعه فحسب ، بل كذلك في السبيل الذي سلكه الاستاذ محمد ابو مرعي نحو معالجة ذلك الموضوع . فهو دراسة «قانونية مقارنة» تناول فيها حرية الاصدار وحرية النشر ، في فصول متعددة ، وعرض في كل منها بالتفصيل شروط الاصدار وشروط النشر وما يترتب عليها من حقوق وواجبات ، معالجا حرية الصحافة وحرية الصحافي ، في اطار القوانين اللبنانية ، منذ العهد العثماني حتى اليوم » اما الاستاذ محمد ابو مرعي فقد اهدى كتابه :

الى كل صحافي يتقي الله في مهنته ، فلا يخط قلمه الا الكلمة التي يختار مما يترسخ في ذهنه وقناعته ، ليبقى هذا العلم ، كما اراده الله جل شأنه ، وسيلته «لتعليم الانسان ما لم يعلم» .

وفي المقدمة يؤكد المؤلف بأن حكاية الصحافة في لبنان مع الحرية ليست ابدا بالحكاية المستجدة . انها قديمة قدم نشأة هذه الصحافة بحيث لم تكن حقبة من حقبات تاريخها الحافل لتقدم رواية فصل من فصولها ... تارة بصوت خافت يكاد لا يسمعه الا من يعاني ويكابد ، يوم كانت تغلب على امرها ، فتخار قوتها ويهن منها العزم الى حين .. وطورا بصخب وجلبة يتردد صداهما على اكثر من صعيد ، يوم تعاود بأسها ، ويتهافت الكثيرون على « خطب » ودها والتقرب اليها رغبة او رهبة ..

كتاب الاستاذ محمد ابو مرعي كتاب قيم يقع في ٤٧٠ صفحة والسعر ٤٠ ل . ل ... ■

مجلة البحوث التاريخية



وصلنا العدد الاخير من «مجلة البحوث التاريخية» (السنة الثانية – العدد الاول – يناير ١٩٨٠) التي تصدر عن «مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية» .

في الافتتاحية التي كتبها الدكتور محمد الطاهر الجراري ، رئيس التحرير ، تأكيد بأن المجلة لم تحقق بعد جميع اهدافها .. ولكن هناك اصرار وتصميم من ناحية اخرى على الاستمرار وعلى رفض التبعية الفكرية الخانقة. وفي صفحة محتويات العدد نجد الكثير من الدراسات التاريخية القيمة منها :

● مجلس الادارة في ليبيا في العهد العثماني : عبد الله علي ابراهيم .

● ظروف وابعاد امتداد الادارة العثمانية الجديدة لغدامس سنة ١٨٤٢ كما ترويها رسالة غدامسية : حبيب وداعة الحسناوي .

● ليبيا من خلال كتابي اليعقوبي التاريخ والبلدان في القرن الثالث الهجري : احمد الياس حسين .

● إمارة عربية اندلسية في جزيرة اقريطش (كريت) : د . امين الطيبي .

● الحياة الفكرية في العالم الاسلامي في القرن الثاني عشر هجري (١٧٠٠ – ١٨٠٠) م : د . م . منعم مزاوي .

● الصلات التاريخية والحضارية للعرب قبل الاسلام : د . عدنان يوسف اسكيك .

● وهناك بالاضافة الى هذه الدراسات باب مراجعات الكتب وباب اخبار المركز واخبار المؤتمرات العالمية ، واخيرا المراجع او «البيبليوغرافيا» المغربية وقوائم الكتب المنشورة باللغتين العربية والاجنبية خلال الاعوام ١٩٧٠ – ١٩٧٩ .

نتمنى للزميلة «مجلة البحوث التاريخية» كل تقدم ونجاح لتستطيع تأدية رسالتها القومية .

ميدان الأمير فوارس التنوخي في عبيه يشهد مختلف ضروب الفروسية

شوقي نسيب الحلبي

في الطرف الجنوبي لبلدة عبيه قضاء عاليه بجبل لبنان محلة تدعى « الميدان » أو « الميادين » . تمتد محلة الميادين هذه من وسط عبيه أي من قصور الأمراء التنوخيين ، التي لا تزال قائمة عامرة إلى يومنا هذا ، إلى حدود بلدة عبيه الجنوبية حيث مدخل بلدة كفر متى الشمالي والتي يفصلها عن البلدتين ساقية ماء تدعى « ساقية الحد » .

وكانت للميادين شهرة واسعة منذ عهد الأمراء التنوخيين الذين انشأوها إلى أيام الأسرة النكدية العريقة حيث كانت ملعباً لفرسانهم وحلبة لأبطالهم يمارسون فيها مختلف ضروب الفروسية من سباق للخيل ، إلى ضرب الجريد إلى غيرها من الألعاب الشائعة في تلك الايام الغابرة .

وقد ورد ذكر هذا الميدان في كتاب : « اخبار الأعيان في جبل لبنان » لطنوس الشدياق ، حيث يقول بالحرف الواحد : « وسنة ٨٠٧م توفي الأمير فوارس بن عبد الملك بن مالك (الارسلاني التنوخي) في إعبيه وله أولاد منهم عبد المنعم وكان شهما عزوما كريما وقورا بنى حصنا عظيما في إعبيه وجعل حذاءه ميادين وملاعب للخيل ورمي السهام »[1] .

كما ذكره ابراهيم الأسود في كتابه : « ذخائر لبنان » بالحرف الواحد : « وبنى الأمير فوارس تنوخ في عبيه قصراً منيعا لم تزل آثاره باقية إلى الآن وقد أصبح هذا القصر بعد قليل مقر ولاية الأمراء التنوخيين ثم انبثت روح الحسد في نفوس بقية الأمراء فجعلوا يتنافسون في بناء القصور والقلاع وانتقاء الأبطال والفرسان ورشق الجريد على ظهور الخيل حنانا في نفوسهم إلى ما رضعوه مع الألبان من العادات من ثدي البداوة فامتاز بذلك الأمير فوارس تنوخ وبنوه الأحد عشر فاتخذوا في عبيه ميدانا فسيحا لذلك كانت تقصده الأمراء من سائر الأنحاء ولم يكن بينهم من كان يستطيع أن يثبت في الميدان أمام الأمير فوارس وبينه »[2] . ومنذ نيف وخمس وسبعين سنة خلت لم يكن في وسط هذا الميدان الفسيح بناء

أو عمار بل كان سهلا مستويا ، أما بعد هذا التاريخ فقد انشئت في وسطه البنايات والبيوت والجنائن والشوارع والطرق وأصبح آهلا بالسكان يحمل اسم (حي الميدان) الى اليوم .

« أما ألعاب الميدان أو الفروسية التي كان يبرع بها الأمراء والأعيان فهي السباق على الخيل ، ولها فروع كثيرة منها « اللعب بالرمح » على ظهر الجواد فيتناول الفارس رمحين بيديه ويلعب بهما ألعابا غريبة فيرخي لفرسه التزكين (العنان) حتى يصير الرمحان بيديه دولابين لا يعرف أين طرفهما لشدة ادارتهما . وفي آخر الشوط يوقف الجواد والعنان في فمه ثم يتكئ على الرمحين ويدقهما في الأرض ويهمز الجواد فيقفز من تحته ويبقى هو مستنداً على الرمحين فيترجل عليهما إلى الأرض . ومنها التقاط تفاحة ونحوها بسنان الرمح على الأرض والجواد يعدو . ومنها « نيشان البارود » وهو أن يطلق بندقيته على نيشان (غرض) فيصيبه ثم يرميها في الجو ويدور على فرسه ويتلقفها وهي منحدرة .

ومنها « البقلمة » وهي أن يهمز جواده في المضمار ثم يضرب الجريدة على الأرض ثلاث مرات ويتلقفها والجواد يعدو بأشد سرعته ، ومنها « ضرب الجريد » عن ظهر الجواد أو عن الأرض حتى يصيب الغرض ولو كان صغيراً مثل ريشة على رأس ولد ونحوه . ومنها « اصعاد الجواد واحداره » في سفح جبل شديد الانحدار وهو راكب عليه وقد يصعد على شبه درج من أدراج اليوم . ومنها « لعب السيف » وأهم أنواعه وضع عصا صلبة بين كأسين أعنقين (طويلي العنق) من زجاج مملوءين ماء وضرب العصا بالسيف وكسرها بضربة واحدة دون اراقة الماء أو صدع الكأس . وكذلك لف قضيب فولاذي في لبدة (لباد) وقطعه بضربة واحدة بسيف قاطع يسمى «شنتيان» باصطلاحهم . ووضع ورقة رقيقة على حشيّة (مخدة ونحوها) مملوءة بنخالة الحنطة أو التبن وقطعها بضربة سيف أو رمي قطعة حريرية ونحوها رقيقة وضربها به فتقطع شطرين . « ولعب الحكم » أو المثاقفة وهو اللعب بالسيف والترس .

إلى غير ذلك مما لهم فيه فنون بديعة عرفوا بها منذ القدم . ولكل منها أصول وآداب يتعلمونها تلقنا وتمرناً »[٣] .

وكان قد أخبرنا غير واحد من معمري أبناء عبيه المشهود لهم بصحة الرواية وصدق اللهجة ما ورد ذكره آنفاً . واستطرد أحدهم وهو أبو أسعد سعيد أسعد حمزة في روايته بأن قال أنه شهد أيام طفولته سباقاً للخيل فوق الميدان المذكور أيام المشايخ النكديين . وهذا السباق كان يجري أحيانا بشكل فردي أي كل خمسة فرسان على حدة . وأحيانا بشكل جماعي ينتظم فيه الفرسان صفاً واحداً ويتسابقون . وكان أبناء عبيه والقرى المجاورة يأتون لحضور ومشاهدة حفلات السباق الرائعة والممتعة التي لم تكن تجري مثلها في غيرها في ذلك الوقت سوى في « بيت الدين » . وكان يخصص للسباق يوم واحد في كل أسبوع . وقد ذكر من أسماء الفرسان في عصره الشيخ حسين أمين الدين الذي كان يحسن ركوب الخيل واشتهر بضرب الجريد . كما كان رؤوف بك النكدي يحسن ركوب الخيل . وكان سعيد بك النكدي من الفرسان المشهورين يجيد ركوب الخيل وما يتبعه من أبواب الفروسية .

وأخيراً اشتهر هذا الميدان باسم « ميدان علي نجم فرج » . ثم انتقلت ملكيته بالشراء منذ تسع وثمانين سنة (١٨٩١) الى جدنا محمد أحمد الحلبي فاشتهر منذ ذلك الحين باسم « ميادين الحلبي » قبل أن تمر فيه وتخترقه طريق العربات عبيه — كفرمتى . وأخيراً بيع هذا الميدان من الدكتور محمد خالد من بيروت على أمل أن ينشئ فيه مستشفى خاصاً . ولكن الدكتور المذكور عدل عن رأيه وقسمه قطعاً برسم العمار وبيعت كلها . وهكذا لم يبق من الميدان الذي شهد ضروباً وفنوناً من الفروسية منذ عهد التنوخيين مروراً بالمعنيين فالشهابيين فالنكديين ، فآل أمين الدين ، إلى عهد قريب ، سوى اسمه فأصبح اسمه « حي الميدان » بعد أن امتلأ بالبيوت والعمار .

الهوامش

(١) اخبار الأعيان في جبل لبنان . طنوس الشدياق . الجزء الثاني . صفحة/٤٩٧/طبعة ١٩٧٠ .
(٢) ذخائر لبنان . تأليف ابراهيم الأسود . صفحة/١٣٩/طبعة ١٩٧٠ .
(٣) لبنان مباحث علمية واجتماعية . تأليف لجنة من الادباء بهمة اسماعيل حقي بك . الجزء الأول . صفحة ١٧٢ — ١٧٣ . طبعة ١٩٦٩ .

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت :	يوميًا	ماعدا السبت	الإقلاع الساعة ١٨،٣٠
الظهران :	يوميًا	ماعدا الثلاثاء	الإقلاع الساعة ١٨،٢٠
* البحرين :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٧،٥٥
* الدوحة :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٧،٥٥
* دبي :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٨،١٠
* ابوظبي :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٧،٤٠
* مسقط :	أيام الاثنين - الاربعاء والجمعة		الإقلاع الساعة ١٨،١٠
* رأس الخيمة :	يومي الثلاثاء والسبت		الإقلاع الساعة ١٨،١٠

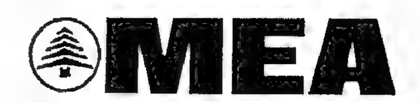
للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ — صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ — طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ — بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

مكاتب الحجز تفتح ليلاً نهارًا ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



* بالاشتراك مع طيران الخليج



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الأعزاء :

ترغب مجلة « تاريخ العرب والعالم » أن تفتح بابا خاصا للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع : « تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي » . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكا سنويا في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او القرية أو لأي مظهر عمراني أو أثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الأعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا الى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة « تاريخ العرب والعالم » بيروت ص . ب . ٥٩٠٥
« مسابقة القرى والأحياء في الوطن العربي » .

تعتبر المواد المرسلة ملكا للمجلة ، إذا نشرت او لم تنشر .

من الرسائل الكثيرة التي وردتنا استجابة للمسابقة تختار رسالة الآنسة نسرين فيصل محمد شقير عن تدمر للجائزة الاولى وننوّه برسالة محمد الفاكياني عن آثار بصرى ونشكر حيدر مجيد ياسين على صورته عن اطلال سامرّاء

تدمر «عاصمة الزباء»

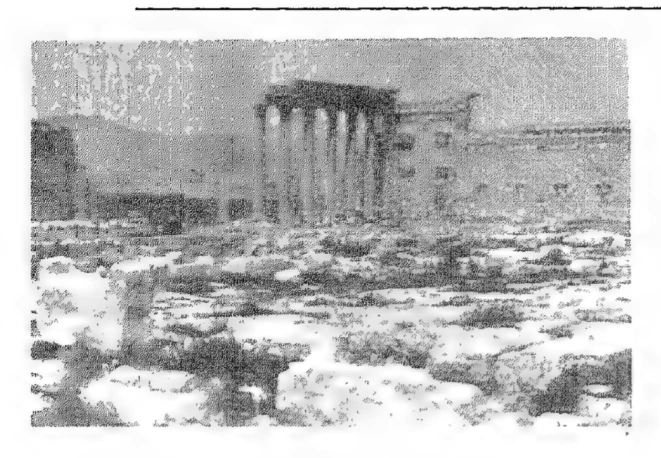
دلت الحفريات في كهوف تدمر على ان اول تجمع بشري عاش على حياة القنص والصيد فيها كان قبل خمسين الف سنة ، وان اول اشارة تاريخية لمدينة تدمر تعود لمطلع الألف الثاني قبل الميلاد .. هذه هي بداية تدمر[1] .

ولقد ذكر ياقوت الحموي عن تدمر ما يلي

تدمر ، بالفتح ثم السكون وضم الميم : مدينة قديمة مشهورة في برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة ايام ، قال بطليموس : مدينة تدمر طولها احدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، داخلة في الاقليم الرابع ، بيت حياتها السماك الأعزل تسع درجات من الجدي بيت ملكها مثلهامن الحمل عاقبتها من الميزان وقد قال صاحب الزيج : طول تدمر ثلاث وستون درجة وربع وعرضها اربع وثلاثون درجة وثلثان ، قيل : سميت بتدمر بنت حسان بن اذينة بن السميدع بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . عليه السلام ، وهي من عجائب الابنية ، موضوعية على العمد الرخام ، زعم قوم انها مما بنته الجن لسليمان ، عليه السلام، ونعم الشاهد على ذلك قول النابغة الذبياني :

الا سليمان ، ءاذا قال الإله له :
قم في البرية فاصدرها عن الفند
وخيس الجن ، إني ق، أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وفتحت تدمر صلحاً ، بعد ان حاصرها خالد بن الوليد حيث قال لاهلها : « يا اهل تدمر والله لو كنتم في السحاب لا ستنزلناكم ولاظهرنا الله عليكم »[2] .



وبسبب اضطراب احوال بلاد ما بين النهرين في القرن الاول ق .م سيطرت على التجارة بين سورية وتلك وازدادت اهميتها بعد استيلاء الرومان عليها . ويحتمل ان جرمانيكوس ضمها للامبراطورية الرومانية في سنة ١٧ م . وكان اعظم حكام اسرة سبتميوس في القرن الثالث : سبتميوس اورناثوس ، الذي هزم الفرس ، وجعل من تدمر دولة قوية مستقلة ، وبعد وفاته بسطت ارملته زنوبيا رقعة الدولة بفتح مصر واكرانيا الصغرى ، لكن اطماعها اثارت الامبراطور اورليانوس الذي هزمها وخرب تدمر ٢٧٣ م ، ولم تقم قائمة لها بعد ذلك ، وسحقها تيمورلنك[3] .

أما في العهد الاموي ، فقد نالت اهمية كبيرة نظراً لتوسطها بين قصري الخليفة هشام بن عبد الملك - الحير الشرقي والحير الغربي ، ولقد حاصرها الخليفة مروان الثاني وهدم اسوارها حين ثار عليه اهلها . ولقد حل بتدمر زلزال كبير في اوائل القرن العاشر الميلادي ، واخضعها سيف الدولة الحمداني عندما ثارت عليه ، وقد ذكر المتنبي ذلك :

تذكرت ما بين العذيب وبارق
مجر عوالينا ومجرى السوابق
فليت أبا الهيجا يرى خلف تدمر
طوال العوالي في طوال السمالق

وبعد أن لف الاهمال تدمر بعد غزو

تيمورلنك، ضاعت أخبارها، الى ان تطرقت للرحلات الاستكشافية ابتداء من رحلة داوكنز وود الانكليزيين سنة ١٧٥١ م، وفي عهد الاستقلال أولت الدولة هذه المدينة عناية خاصة[٤].

ومنذ عدة سنوات أفلح المسؤولون في نقل جميع المساكن الحديثة من المناطق الأثرية، فأصبحت مدينة تدمر اليوم تقوم إلى الشرق من اطلال تدمر الامس[٥].

آثار تدمر باختصار:

معبد بل، معبد نبو، معبد بعلشمين، قوس النصر، الحمامات، المسرح، مجلس الشيوخ، الميدان، صالة الموائد، المصلبة، حوض عرائس الماء، هيكل الموتى، معسكر ديوقلسيان، سور زنوبيا، القلعة العربية، عمود تذكاري، مدفن جامبليلا، مدفن ايلايل، نبع افقا، فندق زنوبيا، مدفن مارونا، مدفن عيلمي بن زبيلا، المتحف، بيت، الباز يليكية، الساحة البيضوية، هيكل اللات[٦].

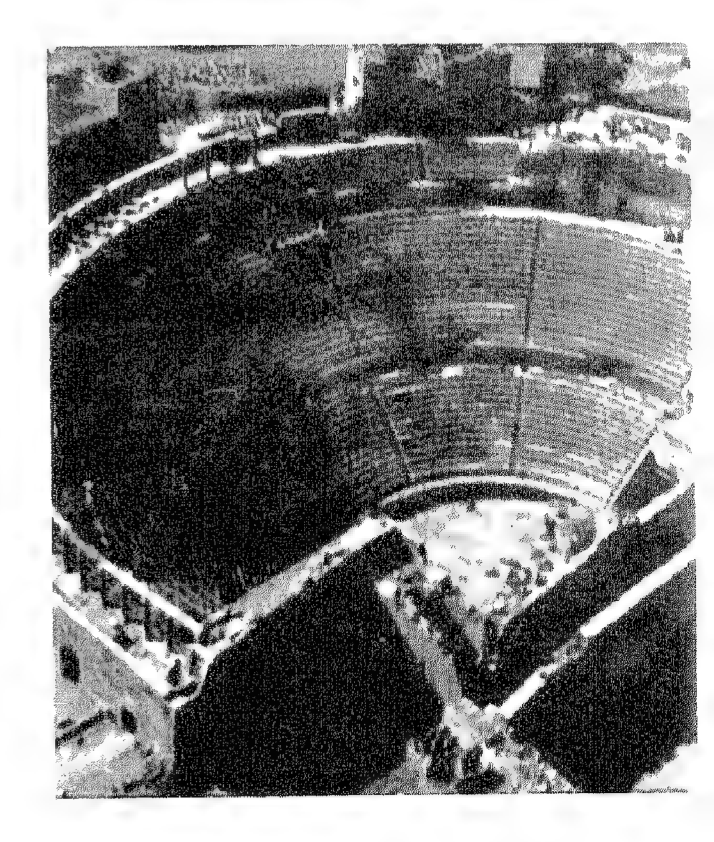
ولقد هرب الكثير من آثار تدمر إبان الاحتلال العثماني إلى العديد من المتاحف الأجنبية.

نسرين فيصل محمد شقير

المصادر

(١) مجلة الفيصل السعودية، العدد ١٨، ذي الحجة ١٢٩٨ هـ، الرياض، «الغلاف الأخير».
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ١٧ - ١٩.
(٣) الموسوعة العربية الميسرة، المجلة الأول، ص ٥٠٠.
(٤) عدنان داعوق: تدمر، مجلة الفيصل، العدد ١٩، ص ٤٧، ٤٨.
(٥) لؤي عجان: تعال معي إلى تدمر، مجلة الدوحة القطرية، العدد ٤٦، ص١٠٣
(٦) عدنان داعوق، مصدر سابق، ص ٤٩.





اشتهرت بصرى بأسوارها المحصنة واشجارها الكثيفة ومحصولاتها الزراعية الوافرة، وقد استوطنها الاموريون والكنعانيون منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

وفي القرن الاول قبل الميلاد اصبحت بصرى من المدن الهامة التي تتجه اليها قوافل التجار الانباط القادمة من الجنوب. وفي أواخر القرن الاول بعد الميلاد أصبحت عاصمة للانباط في ايام الملك رابل (رائبال) الثاني. وفي هذا العهد جددت اسوار المدينة. وشيد فيها عدد من المباني الدينية والمدنية. وعند تشكيل الولاية العربية عام ١٠٦ بعد الميلاد جعلوا بصرى عاصمة الولاية الجديدة التي تألفت من محافظة السويداء، ودرعا، والقنيطرة، وقسم

من فلسطين والاردن بكامله . فتحت المدينة وتطورت بصورة سريعة بعد ما ربطت بشبكة طرق جديدة تربطها بانطاكية في الشمال واليمن والحجاز في الجنوب ، والعراق شرقا وميناء حيفا غربا . وفي العهد البيزنطي اصبحت بصرى مقراً لرئيس اساقفة البلاد العربية . وفي اواخر العهد زارها عثمان بن عفان وقد وحاصرها العرب في عام ٦٣٥ م حين قام سكانها بثورة على الحامية البيزنطية بالمساعدة مع ابناء امتهم في طرد البيزنطيين من البلاد . وفي اثناء الحرب الصليبية هاجم بصرى بودان الثاني عام ١١١٩ م وفشل في احتلال المدينة . وعندما اصبح الملك العادل شقيق صلاح الدين والياً على بصرى قام بانشاء المباني العسكرية منها والمدنية .

اما باب المدينة : فقد شيد في القرن الثاني بعد الميلاد وهو متصل ببعض اسوارها التي تعود للعهد الكنعاني والعهد النبطي ، والعهود التي تليها .

اما الكهوف : فهي اسوار ارضية والذي يعود تاريخها للعهد الروماني ولم يتم اكتشافها كاملة . هذا ويعود تاريخ بناء قوس النصر للقرن الثالث بعد الميلاد . اما الحمامات فقد شيدت في القرن الثاني بعد الميلاد .

ان المسرح والمدرج والقلعة ومتحف للتقاليد الشعبية : يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد . وان هذا المسرح هو الوحيد من نوعه في العالم حسب الاكتشافات الاثرية ، واما المدرج فانه يتسع لاثنى عشر الف متفرج ويبلغ قطره حوالي (١٠٢) متراً وارتفاعه حوالي (٢٦) متراً ، والمدرج بني على اسلوب الهلنسي وتتمثل فيه ذروة التطور هذا النوع من الابنية المدنية . ويعود بناء القلعة إلى زمن الحروب الصليبية ، وقد تم انشاء ابراجها خلال قرن كامل في عهود الاتابكة والايوبية .

وفي العهد الايوبي تم انشاء بحيرة للماء ، كما انشى على زاوية البحيرة من الجهة الشرقية الشمالية مدرسة للتعليم . وكانت هذه البحيرة تزود خندق القلعة بالماء كما تزود قوافل الحجاج الذاهبين والقادمين من الديار المقدسة .

اهم المباني في منطقة بصرى

يعتبر قصر الوالي من اهم المباني في ذلك العصر ويعود تاريخ بنائه للقرن الثاني بعد الميلاد اما السقاية والسوق فهمامن مباني القرن الثاني والثالث بعد الميلاد .

اما المسجد العمري - فيعد من اقدم المساجد وتعد مئذنته من اقدم المآذن في العالم .

ودير بحيرا - يعد من كنائس القرن الرابع . اما الكاتدرائية - فبنيت فوقها اول قبة من الحجر على طراز هندسة بيزنطية .

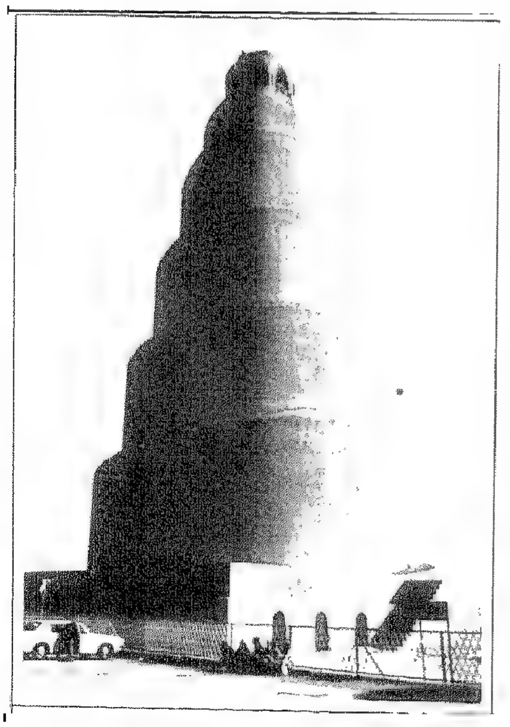
جامع المبرك - يعود بسبب تسميته لانها بركت على ارضه اول ناقة حملت على ظهرها القرآن الكريم .

هذه لمحة تاريخية عن محافظة قديمة اثرية من محافظات دمشق وتسمى اليوم ببصرى الشام . ■

محمد الفاكياني
دمشق - سورية

المراجع

دليل السياحة : صبحي الصواف
نشرات وزارات السياحة والاصطياف .
مجلة الحوليات .



اطلال سامرّاء - هدية من الصديق حيدر مجيد ياسين .



تكونت عام ١٦٨٠ وكانت أول ميزانية لها ١٢ الف جنيه
« البخيل » لموليير من أولى المسرحيات التي قدمتها الكوميدي فرانسيز



بعد وفاة موليير في فبراير ١٦٧٣ انقسمت فرقته الى قسمين انضم قسم منهما الى فرقة اوتيل دي بورجوني ، وضم القسم الاخر اليه ١٠ من ممثلي وممثلات فرقة ماريه واطلق على نفسه اسم فرقة جينيجو . وفي ٨ اغسطس ١٦٨٠ اظهر الملك لويس الرابع عشر رغبته في ضم فرقتي اوتيل دي بورجوني وجينيجو ، وتنفيذا للرغبة الملكية انضمت الفرقتان في ١٨ اغسطس من العام نفسه واصبحتا فرقة واحدة قدمت اولى حفلاتها بعرض مسرحيتي « فيدرا » و « عربات اورليان » في مسرح شارع مازارين .

وفي ٢١ اكتوبر ١٦٨٠ اصدر الملك لويس الرابع عشر وثيقة تحمل امضاءه وامضاء الوزير كولبير بأن تكون هذه الفرقة تابعة للدولة والوحيدة التي تقوم بعرض الكوميديات في باريس ، ثم اصدر قائمة تحمل اسماء ٢٧ ممثلا وممثلة اختارهم بنفسه لتتكون منهم الفرقة الجديدة التي اطلق عليها فيما بعد اسم الكوميدي فرانسيز .

وخصص الملك لهذه الفرقة راتبا سنويا قدره ١٢٠٠٠ جنيه .

وفي ١٩ اكتوبر ١٦٨٠ (قبل صدور مرسوم تكوين الفرقة بيومين) مثلت الفرقة امام الملك وحاشيته في فرساي مسرحية « سليمان » من تأليف دي لاتويلري ومسرحية « كونتس اسكاريانيا » لموليير .

وفي ٢١ اكتوبر ١٦٨٠ قدمت الفرقة مسرحية « البخيل » لموليير في مسرحها بشارع مازارين .

وفي الفترة من ٢٥ اغسطس الى ٣١ ديسمبر ١٦٨٠ قدمت الفرقة ٦٦ مسرحية منها ٨ لكورني و٨ لراسين و٢١ لموليير . ومن أجل ذلك اطلق على الكوميدي فرانسيز لقب « بيت موليير » الذي لا يزال عالقا بها حتى الان .

وفي ١٦٨٧ انتقلت الكوميدي فرانسيز الى شارع « فوسيه سان جرمان دي بريه » والمعروف الان باسم شارع « الكوميديا القديمة » .

وفي ١٧٧١ انتقلت الفرقة مرة اخرى الى قصر التويلري حيث ظلت تعرض رواياتها مدة ١١ سنة .

وفي ١٧٨٢ انتقلت الى المكان الذي كان منشأ عليه « اوتيل دي كونديه » والذيسمى بمسرح « الاوديون » وقد استبدل في السنوات الاخيرة باسم الاوديون ، اسم قاعة اللوكسمبورج .

وفي خلال القرن ١٨ نشطت الكوميدي فرانسيز نشاطا كبيرا اسهم فيه من الممثلين الرجال تالما ، وازينكور ، فليري ، بريفيل ، سان فال ، مولى ، اميل كونتا ، ومن السيدات والانسات لاليرون ، ادرين ليكوفرير ، روكر كونتا ، سوين تينار .

وقد عرضت الفرقة مسرحيات لماريفو وفولتير وبومارشيه .

وقبيل نشوب الثورة الفرنسية انقسمت الفرقة الى فرقتين متنافستين :

الاولى وعلى رأسها تالما الذي كان من انصار التجديد ، أما الثانية فكان يرأسها فليري الذي كان من انصار التمسك بالقديم .

واثناء الثورة الفرنسية اعتقل الكثير من هؤلاء الممثلين وحكم عليهم بالاعدام ، ولكن احد هواة التمثيل الذي كان يشغل منصبا كتابيا في حكومة الثورة اخفى ملفاتهم فلم تستطع المحكمة تنفيذ الحكم فيهم .

وفي ١٧٩٩ اجتمع شمل الفرقة من جديد ، وفي ١٨٠٢ استقرت في المكان المعروف الان بقاعة ريشيليو ، وقد احترق جزء كبير من هذا المسرح في ٨ مارس ١٩٠٠ ولكن اعيد بناؤه بعد ذلك .

وفي عهد الامبراطور نابليون توطدت مكانة الفرقة وكانت تعرض التراجيديات التي كان يلعب فيها ادوار البطولة تالما ومدموازيل جورج ، ولكن بعد ١٨١٥ بدأ يتلألأ نجم مدموازيل باريس في ادوار البطولة .

وحوالي ١٨٣٠ طغت الرومانسية فلاقت مسرحية هرناني لفيكتور هيجو نجاحا منقطع النظير وتلتها مسرحيات كثيرة من اهمها شاترتون لالفريد دي فيني .

وفي ١٨٣٨ تلألأ نجم مدموازيل راشيل التي اعادت عهد التراجيديا الكلاسيكية ومن اشهر الممثلين والممثلات بفرقة الكوميدي فرانسيز في القرن ١٩ مونى سيللي ، سيلفان ، البير لامب الاب ، ساره برنار من ابطال المأساة ، ورينيه ، سامسون ، بريسان ، لي بروهان ، ماريا فافارت من ابطال الكوميديا . وكان معظم انتاج الفرقة من تأليف الفريد دي موسيه ، او جبيه ، ساردو ، الكسندر ديماس الابن .

وفي اوئل القرن ٢٠ ضمت الفرقة اليها الممثلين والممثلات : جوليا بارتيه ، والاخوان مونيه ، وكوكلان الكبير والصغير ، وعرضت مسرحيات هنري بيك وادمون روستان .

واثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) انكمش نشاط الكوميدي فرانسيز ، ولكن بعد انتهاء الحرب ضمت الفرقة ممثلات وممثلين جدداً وبدأ عهد المسرح المعاصر .

وقد ادخل على الكوميدي فرانسيز كثير من التعديلات في نظمها بواسطة مراسيم وقرارات من الدولة من اهمها « مرسوم موسكو » الذي اصدره نابليون في ١٨١٢ اثناء انشغاله بالحرب ضد روسيا ، والمرسوم الذي صدر في ١٩٠١ ملغيا لجنة القراءة بالفرقة ، ولم يستمر العمل به اكثر من ٩ سنوات اذ اعيدت لجنة القراءة بقرار جمهوري في ١٩١٠ .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اعيد تنظيم الكوميدي فرانسيز بقرار صدر في ١٩٤٦ وبناء عليه انقسمت الفرقة الى شعبتين دائمتين تعمل الاولى منهما في قاعة ريشيليو وتعمل الاخرى في قاعة اللوكسمبورج (الاوديون سابقا) ولا يزال هذا النظام معمولا به حتى الان .



بريد القراء

● محمد الفاكياني - دمشق - سورية .

اتقدم بالشكر لكم ولأسرة مجلة « تاريخ العرب والعالم » وأشكر كل من ساهم في التحرير والاخراج في مجلتنا العربية « تاريخ العرب والعالم » . كما نشكر لكم مبادرتكم الرائدة بفتح باب جديد لنشر معلومات عن قرى ومدن وأماكن اثرية في الوطن العربي .

الواقع ان هذه المبادرة الجميلة هي الاولى من نوعها وتساعد المواطن العربي بعد فترة وجيزة للحصول على دائرة معارف عربية . وثانياً تصبح المجلة سفيراً ومعجماً تاريخياً ثقافياً لكل مواطن وكل طالب وكل مطلع .

■ نشكر للأخ محمد الفاكياني عواطفه الطيبة ونعده بمزيد من الابواب الثقافية الرائدة في اعدادنا المقبلة .

● طارق غندر منتك - اربيل - العراق

■ نرجو من الاخ طارق ان يرسل مواده في المرة القادمة مطبوعة على الآلة الكاتبة . ونشكره في الوقت نفسه على مساهمته .

● حيدر مجيد ياسين - بغداد - العراق

■ شكراً لمساهمتك ونرجوكم مراجعة جوابنا للأخ طارق .

● محمود رجا زعرورة - مخيم نهر البارد طرابلس - لبنان .

اود ان انتهز هذه الفرصة لأمد يدي لأضغط على ايديكم جميعاً من اداريين ومحررين ومشرفين على هذه التحفة الفريدة التى اغنيتم بها المكتبة العربية وأثريتم بها عقول قرائها وانني لفخور جداً ان اقول لكم اني من قراء هذه المجلة منذ صدور عددها الاول . فهنيئاً لجيل العروبة المعاصر لصدور هذه المجلة ،وهنيئاً لكم جميعاً على جهودكم المخلصة في سبيل توعية وتنوير المواطن العربي .

■ نشكر الاخ محمود على عواطفه الطيبة ونعده بأن مجلة « تاريخ العرب والعالم » ستبقى مستمرة بتأدية رسالتها ما دام هناك اصدقاء يدعمونها ويشجعونها .

● السيد حسن صالحة غرز الدين - بيروت - لبنان .

استلمنا رسالتك الثانية ونشكر لك اهتمامك بالمجلة ونطلب منك للمرة الثانية الاتصال بادارة التحرير بخصوص موضوع « رأس المتن » . اما بالنسبة لاعداد السنة الاولى فيمكنك الحصول عليها من قسم التوزيع في المجلة .

● مصدق حسن ١٣ - ٥٤ - اكر وماعي الدشيرة - انزكان - المغرب .

تحية حارة لجميع العاملين بالمجلة وتقديري لهذه المجلة الثقافية الرائدة التي احتلت مكاناً بارزاً خلال فترة قصيرة جداً من الزمن .

■ نشكر للاخ مصدق حسن عواطفه الطيبة تجاه المجلة والعاملين فيها . ونطلب منه طبع رسائله على الآلة الكاتبة حتى نستطيع نشرها في المرة القادمة . ونشكرهعلى الصور التي ارسلها وسننشرها في أول فرصة تسنح لنا . ■

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد أحمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ١٠٠٠٠٠ قارىء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من اهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- ابواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — ببليوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

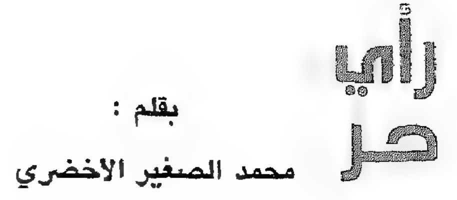
للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب والتربية — الشويخ — دولة الكويت

ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)

هاتف : ٨١٦٨٠٧—٨١٦٧٩٩—٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير



بقلم :
محمد الصغير الأخضري

لقد وجد العرب في مكان جغرافي له أهميته الاستراتيجية في العالم القديم والحديث ، لذلك كانت هذه المنطقة هدفا للاستعمار منذ بداية التوسع الامبريالي في القرن الثامن عشر .

ولهذه الأهمية كان التفاهم الأوروبي على تقسيم المنطقة العربية بين الدول الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعندما جاءت الجيوش الأوروبية الغازية إلى بلادنا لم تستقبل بالورود والزغاريد وإنما كان لأجدادنا مواقف بطولية في رد المعتدين الغزاة سجلها التاريخ بكل فخر واعتزاز ، وشهد بها حتى الأعداء أنفسهم ، إلا أن الغلبة كانت للتفوق الحربي ، ولم يستسلم اباؤنا أبدا للمعتدين وإنما كانت الثورات طوال فترة الاحتلال إلى أن تحقق النصر وتحررت البلاد العربية سياسيا وعسكريا بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد حاولت الدول الأوروبية أن تجعل من بلادنا أماكن نزهة واستثمار لأبنائها وأن تقيد أهل البلاد بالقوانين الاستعمارية الجائرة وأن تكبل عقولهم بما يسمى بالثقافة الأوروبية كما تريدها هي لا باعتبارها ثقافة انسانية ولكن الروح القومية هي التي كانت دائما تدفع إلى التمرد والثورة فهي التي كانت دائما تذكر المواطنين ، أنه مهما طال مكوثه الاستعمار لا بد أن يجيء اليوم الذي تتحمل فيه الأجيال مسؤوليتها التاريخية وأن تقوم بطرده . هذه هي الأساطير الشعبية التي كانت الجدات والأمهات يتنفسن بواسطتها وهن يرددنها على مسامع الأبناء ليغرسن في نفوسهم البطولة وحب الوطن حتى يهبوا لتحريره ، وقد كان لهن ما أردن وتحررت البلاد ولكن الأجنبي الذي خرج فعلا ويئس من البقاء العسكري وأصبح يعتقد أنه لا مجال لسيطرة جنوده على تراب البلاد ، لم ييأس من السيطر بوسيلة أخرى هي وسيلة العلم والثقافة التي تنبعث من هياكل وطنية غرس في نفسها الاستعمار ما يريد عندما كان كل شيء بيده وهي اليوم تتحدث عن مصلحة الوطن ولكنها تعبر عن مصلحة المستعمر بحسن نية أو بسوء نية لأنها لا تستطيع أن ترى الأشياء بغير المنظار الذي وضعه السادة أمام أعينها . إنه ليس في إمكانها أو ليس في إمكان مصلحتها أن تسمح لها برؤية الحقيقة كما هي .

وأنه بالرغم من تاريخنا قبل الاحتلال وبالرغم من تجربتنا في مقاومة المحتل ونجاحنا فيها ما يزال الكثير يرى الخير كل الخير في اتباع طرق أولئك الذين كانوا يستعبدوننا بالأمس ، وأنه لا مجال للوصول إلى ما وصلت إليه الانسانية من الحضارة والتقدم إلاباتباع ذلك الطريق ، ولكن هؤلاء الذين يدعون إلى هذا الاتجاه ينسون حتى بسائط الأمور المستمدة من التجربة العادية في حياتهم وحتى إذا جوبهوا بالحقيقة يلجأون إلى المغالطة والتبرير لاثبات دعواهم في نجاح التجربة الاستعمارية ولو بعد الاستقلال .

وإذا نحن حاولنا أن نعرف مدى صدق هذا الرأي فانه لا بد من الرجوع إلى تاريخنا لنرى ماذا فعل الاستعمار في بلادنا ، وقد كانت كل الامكانيات المادية والبشرية يسيطر عليها المستعمر ويتصرف فيها كيفما يشاء .

ومع ذلك إذا نحن حاولنا فتح الحساب نجده لم يقم بأقل الواجبات الانسانية في الاصلاح العمراني أو البشري لفائدة المواطنين ، وإذا كانت قد وجدت بعض المظاهر الحضارية المادية فان ذلك كان لفائدة أبناء المستعمر ولخدمة مصالحه الاقتصادية والعسكرية .

وإذا كانت هذه هي تجربتنا مع المستعمر طيلة بقائه في بلدنا وهي حقيقة ظاهرة للعيان في كل المجالات وأن أبسط المواطنين إدراكا يشعر بهذا السلوك من المستعمر ويلمس آثاره اليوم وغدا في العمران وحتى في نفوس البشر وتربيتهم ولما كانت هذه هي الحقيقة المرة التي خلفها المستعمر في بلادنا فكيف يمكن أن نتبع أسلوبه في العمل في أرضنا بعد أن تحررت منه بالدماء والأرواح ، وكيف نحاول الربط وندوس على اشلاء قتلانا الذين ضحوا بأرواحهم ليتحرر الوطن وينتهي التغرير . ■

في العدد المقبل

ملف الوطن العربي

سيناء : القديسة كاترينا




PEOPLES LAUNDRY



تاريخ العرب والعالم
آب (اغسطس) ١٩٨٠ - الموافق رمضان ١٤٠٠هـ.
النبي محمد صلى الله عليه وسلم
أسس موسيقية في بلاط هارون الرشيد
غيلين: أغرب وأخطر جاسوس في القرن العشرين
مدارس القدس في العهد العثماني
الجزائر والمستقبل العربي

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



سعد زغلول
رئيس مجلس النواب



السنة الثانية - العدد الثاني والعشرون - آب (اغسطس) ١٩٨٠ - الموافق رمضان ١٤٠٠ هـ .

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د . أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

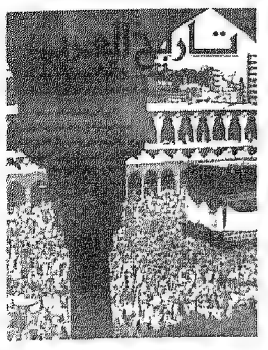
HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

VOL. 2, No. 22. August 1980

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"

في هذا العدد



مكة المكرمة

(راجع المقال ص ٣)

● المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع		الصفحة

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة : ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تنشَر.



د. سهيل زكار

ولد النبي محمد (صلعم) عام ٥٧١ م، في مدينة مكة، التي هي احدى كبريات حواضر شبه جزيرة العرب، وجزيرة العرب هي رقعة شاسعة من الارض في آسية، تمتد جنوبا الى شواطىء اليمن وشمالا الى بلاد الشام، وغربا الى خليج العقبة فسواحل البحر الاحمر، وشرقا الى اطراف عمان والبحرين، فالبصرة وشط العرب، ورغم مكانة موقع شبه الجزيرة هذا واحاطة المياه بها، فقد قست عليها الطبيعة، فالمياه بها قليلة، والامطار شحيحة، وقد انعكس هذا على سكانها، من حيث الطباع ونمط الحياة، فقد اتسم هذا النمط بعدم الاستقرار، وبسيطرة الطبيعة البدوية عليه، لهذا

كان سكان شبه الجزيرة اكثرهم بادية واقلهم حاضرة، وفي التاريخ القديم لشبه الجزيرة قامت مواجهة بين قلة الموارد وتكاثر السكان، وادى هذا الى جعل شبه الجزيرة واحدا من اعظم الخزانات البشرية عبر التاريخ، تدفقت منه موجات من المهاجرين غطت بمدها الشام والعراق ومصر وشمال افريقية، وكان اهم هذه الموجات وابعدها تأثيرا تلك التي تمت في القرن السابع مع قيام الاسلام وبسببه.

وقطن اكثر الحاضرة في جنوب شبه الجزيرة واقلهم في الشمالي، في مدن قامت اما في احدى الواحات، او في احد من المواقع ذات المكانة الدينية والتجارية في آن واحد، ومنذ القرن الخامس، كانت مدينة مكة ابرز مدن شبه الجزيرة تجاريا ودينيا، حيث تحكمت بقيادة العمل الديني، كما احتكرت صناعة المال، ومعلوم ان من ملك المال ملك السيادة، فكيف به اذا ملك زمام العقيدة مع المال...

من الصعب تتبع تاريخ مكة بشكل وثائقي، انما هو على العموم ارتبط بالبداية بنبي جليل هو ابراهيم الخليل عليه السلام، قام ببناء البيت العتيق فيها الذي عرف باسم الكعبة، ثم أخذ بمدارج الشهرة والتأثير مع زعيم كاهن تاجر هو قصي بن كلاب، واخيرا احتل مكان الصدارة في تاريخ العالم مع نبي وقائد مشرع ورجل دولة من الطراز الامثل هو النبي (صلعم).

ففي القرن الخامس للميلاد استولى على مكة رجل نصف تاريخي عرف بقصي بن كلاب. فأسكنها تجمعا قبليا من قبائل كنانة وسواها، وذلك حسب نظام اجتماعي قام على اساس الثروة ثم الدين، وخلال ما يقارب القرنين من الزمن سار مجتمع مكة نحو تكوين وحدة قبلية عرفت باسم قريش، وحواشيها باسم الاحابيش، وتطور الحال السياسي فيها من قاعدة القبلية البدوية نحو جمهورية التجارالسدنة،وادواتهم في جميع المجالات.

وتبعا لقاعدة كل تطور، لقد مر ذلك خلال صراعات كبيرة، رواها لنا الاخباريون تحت عناوين حروب واحلاف وزيادة ثروة، وفقر واستغلال وصراع مرير عبر طرق القوافل العالمية نوعا ومصدرا.

في هذا الجو، وفي هذه المدينة ولد النبي (صلعم)،في عام تعرضت فيه مكة لاول مرة لغزو خارجي مؤرخ، قام به جيش من الاحباش كان حليفا للامبراطورية البيزنطية، وقد اراد هذا الجيش الاستيلاء على ثروات مكة، وتحويل كعبتها الى كنيسة، وفتح جبهة عسكرية جديدة ضد الامبراطورية الفارسية التي كانت هي في صراع مع بيزنطية وأخفقت هذه الحملة، ودمر الله رجالها، وجاء ذلك فرصة جديدة لمكة، أكدت فيها قوتها وجبروت زعاماتها، وعلو مكانة كعبتها فوق جميع كعبات ومعابد الوثنية في شبه الجزيرة.

وأثناء تعرض مكة لمحنتها برز عبد المطلب ابن هاشم كزعيم اول لمكة وثيق الصلة بالكعبة، سلاحه الأول الشجاعة والاخلاق مع شيء من المال، ولم يسلم رجال مكة الاكثر ثراءاً لعبد المطلب، وكان اهم هؤلاء بنو امية ومخزوم، وكيما لا يقف بنو هاشم وحدهم في وجه بني امية تحالفوا مع قبيلة تيم من قريش، وهي قبيلة كانت فيما سلف أدنى مكانة من الناحية

المدينة المنورة



الاجتماعية، لكنها حصلت مؤخرا ثروة كبيرة على يد واحد من رجالاتها عرف باسم عبد الله ابن جدعان، وفي دار عبد الله بن جدعان عقد الحلف الهاشمي التيمي، ورد بنو امية ومخزوم على هذا الحلف بحلف مضاد عقدوه مع قبيلة عدي من قريش التي شابهت تيم، ثم مدوا فروع هذا الحلف الى ارستقراطية الطائف ورؤساء القبائل في شبه الجزيرة، وحتى الى خارج شبه الجزيرة.

وضمن هذه المعطيات ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، يتيم الاب، فاحتضنه جده عبد المطلب، وقام - على قاعدة ارستقراطية مكة - بدفعه الى مرضعة بدوية من بني سعد، عرفت باسم حليمة ابنة ذؤيب، ولدى حليمة، وعبر خمس سنوات، رضع محمد (صلعم) الحليب، ونال حظه من الهواء النظيف واللغة السليمة، والعادات القويمة، وبعدها عاد الى امه وجده.

وبعد عودته بقرابة عام سافرت به امه الى يثرب - المدينة - لزيارة اخوال جده، وفي طريق العودة توفيت، فأصبح يتيم الابوين يرعاه

مسجد الرسول بالمدينة المنورة

جده، ويسهر على تربيته ويؤثر فيه، ولما بلغ الثامنة من عمره توفي جده، فدخل مرحلة اليتم الحقيقية التي أشار الله تعالى اليها بقوله: «ألم يجدك يتيما فآوى»، وكان المأوى هذه المرة بيت عمه ابي طالب وكان ابو طالب فقير الحال معيلا لأسرة كبيرة، وكان بين اخوانه من هو اغنى منه مثل العباس ومثل ابي لهب الذي «ما أغني عنه ماله وما كسب»، لكن ما من واحد من هؤلاء مد اليه يد العون.

وكان ابو طالب يكافح في سبيل لقمة العيش، ويسافر في رفقة القوافل، لهذا استعان بابن اخيه، واصطحبه معه اثناء عمله داخل مكة وخارجها، وهكذا زار محمد (صلعم) بقاع الجزيرة والشام وربما غيرها من البلدان، فنال بذلك خبرة ومعرفة جغرافية، وثقافة عامة، وعرف كيف يكافح من اجل العيش، وعانى من الاستغلال وعاش مشاكل امته وعصره، فرأى جشع الاثرياء ونهمهم، وأمضى وقتا طويلا مع الشقاء والحرمان، وأبصر عن كثب الصراع بين الديانات وشهد عن قرب محاولات بعض من بني قومه في البحث عن المخرج عن طريق ما عرف بالحنيفية.

وهكذا جاء خريج مدرسة الحياة، عنده المقدرة والجلد مع الصبر والعزيمة، فكان عصامي النفس، مرهف الاحاسيس، جياش العاطفة، صلب المبنى، واضح الرؤى، كريم الخلق امينا بلا سلبيات، يتألم لشقاء الآخرين ويسعى بكل جهد لازالتها.

وعندما بلغ سن الشباب، اخذ يشارك في نشاطات مكة التجارية، والمدنية والحربية، فلفتت مواهبه انظار المكيين اليه، وكان بين هؤلاء خديجة بنت خويلد التي كانت «امرأة تاجرة، ذات شرف ومال» وقد تشاركت مع محمد (صلعم) وأدى نجاح اعمالهما الى الزواج، وكان هو في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي ارملة ربما تقاربه في السن او تزيده قليلا.

وكان لحادث زواجه من خديجة كبير الاثر على حياته، فقد وضع هذا الزواج حدا لشقائه وفقره، ورفعه الى موقع المسؤولية التجارية والادارية كما منحه الوقت للتفكير.

وأحب محمد زوجته الهادئة المجربة

الرزينة، وتعلق بها تعلقا شديدا، وبادلته هي نفس المشاعر، وكانت تفهمه وتثق به لذلك منحته الفرصة للانقطاع طويلا للنظر في امور الكون، وللعمل في سبيل اعداد نفسه، والتهيؤ لتحمل اعباء رسالة اراد الله تعالى بها اسعاد البشرية ورفع الظلم والحيف، ونفي الضلال عنهم.

وتدعى فترة الانقطاع في حياة محمد باسم «التحنف او التحنث» اي العمل للخروج من الحنث الى جادة الصواب، وقضى جل خلواته في غار خارج مكة عرف باسم «حراء». وفي الخلوات استطاع ان يقهر قوة الذات، ويزيل «الأنا» من نفسه ويتحول الى الغيرية بلا حدود وعندما وصل الى هذه الحالة جاءه الوحي برسالة السماء، فطوى بذلك الطور الاول من حياته، وبدأ الطور الثاني، وهو طور بالغ الخطورة لا بالنسبة له فقط، وانما بالنسبة للعرب والبشرية جميعا منذئذ وحتى يرث الله الارض ومن عليها.

ولقد مر الطور الثاني من حياة النبي محمد(صلعم) بمرحلتين هما: المكية والمدنية. ففي المرحلة المكية وهي الاولى بداية وطولا، تم تبليغ مبادىء الرسالة الالهية «الجديدة الخاتمة» التي عرفت باسم الاسلام ووضعت قواعدها وبنيت مقاصدها واهدافها، وشهدت المرحلة الثانية تطوير ذلك كله مع التطبيق العملي.

وبدأ تاريخ الاسلام بنزول الوحي على «النبي الجديد»، «خاتم الانبياء» بقوله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» ثم اخبره بانه رسول الله الواحد الاحد، الى قومه والى البشر كافة، وان عليه تبليغ الرسالة وانارة السبل، وارشاد الناس قولا وعملا الى الطريق القويم الذي شرعه الله ولم يشرعه البشر، فالله خلق البشر، وهو سيرعى خلقه بشرعة كاملة توافقهم بلا استثناء: لونا، وزمانا، ومكانا، والمقصد من نزول هذه الشريعة هو هداية البشر الى الطريق الاقوم عبادة وسلوكا، نظريا وتطبيقيا قولا وعملا.

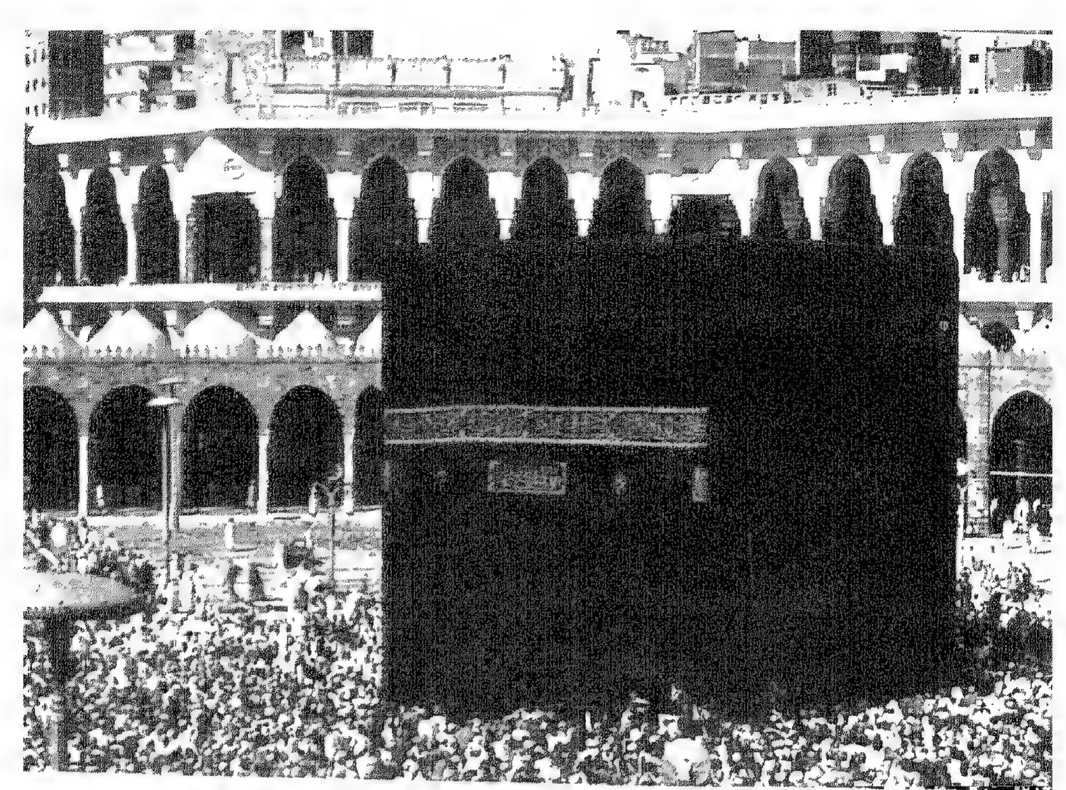
وكان نزول الوحي للمرة الاولى على النبي امتحانا قاسيا، لكن بعد ان اعتاد عليه، وترسخت معالم النبوة في نفسه، اخذ يبشر بما جاءه من عند الله، فآمن به عدد من الرجال كان اولهم ابو بكر، ابرز رجال قبيلة تيم آنئذ، ومع تطور العمل الدعوي لدى النبي صلعم تطورت معارضة قريش له، وخاصة عندما بدأ ينادي بالاصلاح الاجتماعي والمساواة ومنع الظلم والاستغلال، وبعدما اعلن الحرب على المرابين من اصحاب الاموال ثارت زعامة قريش واخذت تضطهده وتعذب كل من آمن به.

ومرت السنوات الاولى من الدعوة، واستخدمت الارستقراطية المكية جميع الادوات من ترغيب وترهيب ضدها فأخفقت واعتمدت الارستقراطية القرشية في عملياتها على دعم حلفائها لها وخاصة «بنو عدي» الذين آلت زعامتهم إلى عمر بن الخطاب.

لقد كانت معركة بين حلف الفضول وخصومه، لذلك هدف النبي(صلعم) نحو تحطيم حلف الارستقراطية، وبعد جهد طويل افلح في ذلك، حين دخل عمر بن الخطاب في الاسلام، وفور اعتناق عمر الاسلام احتل المرتبة الثالثة بين جماعة المسلمين بعد النبي(صلعم) وابي بكر.

واثر ذلك ازدادت شراسة الارستقراطية المكية، وتحرج وضع النبي وأتباعه في مكة حرجا شديدا، واقتنع النبي وصحبه بأن فرص النجاح في مكة باتت ضئيلة، وأخذ النبي يبحث عن مخرج، وهنا اقترح عليه احد المسلمين الاستيلاء على مكة على حين غرة – او بعبارة اخرى – احداث انقلاب عسكري في مكة، ومع تقدير النبي لصدق نوايا صاحب الاقتراح، وتأثره بشدة اندفاعه العاطفي، رفض الفكرة باصرار، ذلك انه كان نبيا ثوريا، وليس وصوليا، هدفه السلطة، فقد سبق له ان أعلنها مدوية «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه».

وامام اشتداد المحنة، سمح النبي(صلعم) لاتباعه بالهجرة الى الحبشة، واخذ هو بدوره يتصل بالاعراب وسواهم ايام المواسم ويعرض عليهم دينه وعقيدته، فانتشر ذكره في بلاد العرب وعم بين قبائلها، وسعى النبي (صلعم) نحو التحالف مع قادة بعض القبائل من ثقيف


الكعبة الشريفة.

الطائف وسواها ولكن الترابط الارستقراطي بين زعامات القبائل وارستقراطية مكة حال دون نجاح مسعاه، وهنا توجه ببصره نحو يثرب، التي هي مدينة على بعد حوالي مائتي ميل من مكة، والى الشمال منها، وقد قامت ضمن واحة زراعية، جل انتاجها من التمر، وسُكنت المدينة آنئذ من قبل يهود وعرب، وكان هناك صراع بين اليهود والعرب اساسه اقتصادي اجتماعي سياسي، ثم ان العرب تألفوا من قبيلتين رئيسيتين هما: الاوس والخزرج، وكانتا في صراع دائم حول السيادة في يثرب، ولم يكن بالمدينة كعبة ولا ارستقراطية تجارية.

واتصل النبي(صلعم) بحجاج من اهل المدينة واثمرت الاتصالات باسلام بعضهم، ثم بانتشار الاسلام في يثرب، وبعد عمل دعوي منظم وضعت الترتيبات لهجرة النبي(صلعم) واصحابه من مكة الى المدينة، وحدث هذا في سنة ٦٢٢م، وكان هذا الحدث من الخطورة بمكان، لذلك اتخذه المسلمون فيما بعد منطلقا لتقويم خاص بهم.

وفي المدينة صنعت انجازات كبيرة للغاية منها ايجاد نواة امة عقائدية حل فيها رابط الاسلام محل رابطة الدم والنسب، ونظمت العلاقات الداخلية بين افرادها والعلاقات الخارجية مع غيرها من الامم، وصار النبي(صلعم) سيد الامة الجديدة وذلك بالاضافة لكونه نبياً، وغدا مقر سكناه ودار دعوته وادارته المسجد، وتطلبت منه مهمته الجديدة مجهودات كبرى في التنظيم والحكم والادارة، مع متابعة نشر الدعوة، وبتولي النبي للسيادة الزمنية مع صفات النبوة فيه جعل المفهوم الديني ممزوجا بالمفهوم الدنيوي، وهذه ناحية تفرد بها هذا الدين الذي لم يفرق بين القصر والمعبد.

وما ان استقر به الحال في يثرب حتى اخذ النبي يخطط لاستخدام القوة المسلحة ضد خصومه من قريش وسواهم، وكانت حاجته ماسة للسلاح، وقد استطاع تأمين اول كمية كبيرة من الاسلحة بعد غزوة بني النضير واجلائهم، وبعد ستة اشهر من غزوة بني النضير خاض المسلمون اول معركة فاصلة في تاريخهم، حيث هزموا على ارض بدر قوات القرشيين، وبعد بدر خاض المسلمون عدة معارك اخرى قادتهم اخيرا نحو فتح مكة ثم توحيد شبه الجزيرة، ووضعها تحت ادارة مركزية.

ولم تكن الجزيرة وأمر اخضاعها شغل النبي الشاغل، بل نجده يهتم بايصال الاسلام الى البلدان المجاورة ويضع الخطط البعيدة

المدى لنشر الاسلام في بقاع العالم اجمع، وبهذا المنطلق تميز النبي محمد (صلعم) عن غيره من الرسل، فالانبياء الذين سبقوه جاؤوا برسالات محلية قومية، فالنبي موسى عليه السلام اراد اخراج قومه من مصر وهدايتهم، والمسيح رضي الله عنه - تبعا للمصادر النصرانية، انما بعث لهداية الكباش الضالة من بني اسرائيل.

هذا ولا تقاس اهمية النبي محمد (صلعم) وعظمته بالانجازات التي تمت في عصره فقط، ولكن بما نتج عن هذه الانجازات، وما تحقق بعده بقيام الفتوحات الكبرى، وتأسيس دولة الاسلام العظمى الممتدة من داخل الصين وحتى خليج عمان ومن شواطيء المتوسط في الشام حتى جنوب فرنسة ومشارف روما، مع انشاء الامة العقائدية العالمية.

ولقد كان اثر هذا، وما زال كبيرا للغاية على البشر وحضارتهم وثقافتهم واوضاعهم الاجتماعية والعقائدية والعرقية والسياسية والحربية ايضا.

وتأتي اهمية النبي محمد (صلعم) في انه اول مشرع في التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه جاء - من عند الله - بالنظرية، وقام بعد ذلك بالتطبيق، لهذا لم يتغير جوهر التشريع الاسلامي ولم يتبدل قط، وهكذا كان الاسلام واحدا، وظل واحدا، فليس في الاسلام «كنائس» ذات ديانات متباينة بالعقائد والتشاريع كما هو الحال في المسيحية مثلا، في الاسلام مذاهب متفقة بالجوهر مختلفة حول بعض التفاصيل والالوان الخارجية.

وبات من المقرر علميا ان الانسان بجوهره هو شيء واحد، وان اختلفت الوان واشكال البشر، فهذا الخلاف ظاهري سطحي مفيد.

وتأتي عظمة النبي محمد (صلعم) وخلوده في كونه قد نفذ جميع البرامج التي وضعها، ووفى بجميع وعوده، فعندما اصبح سيد الامة الجديدة، حقق ما دعا اليه من اصلاح اجتماعي واقتصادي، حيث اوجد الاخاء، واحل العدل القائم على الشريعة الواضحة ذات المضامين الاخلاقية، محل الظلم والاعتباط، وحرر المرأة وصان كرامتها، واحاطها بسياج من القدسية والاخلاق، واوجد النظام ورفع من مكانة الارقاء، واوجد سبلا كثيرة لتحرير الرق، ومحاربة الشقاء والفقر، وحض على العمل الدؤوب المخلص.

لقد أوجد النبي محمد (صلعم) امة جديدة ككل وكأفراد، فعظمة النبي تظهر جلية في براعته في صنع القادة العظام من رجال كانوا عاديين قبله لقد اوجد النبي محمد (صلعم) الانسان العربي المتحضر بعقله وايمانه، وحسن اخلاقه ومثله وامانته، وسهر منذ بداية الدعوة على نشر الثقافة والقراءة والكتابة بين صفوف اتباعه، فهيأ طبقة من الناس ستتمكن من ادارة الدولة الكبرى التي ستقام بعد وفاته.

وبفضل ما جاء به من نظم شملت جميع جوانب الحياة، وما شرعه من قوانين اقتصادية ومالية واجتماعية وسياسية وقضائية وادارية، ثم بفضل ايجاده لفكرة الجهاد، واحلال الحرب المقدسة الهادفة، محل الحروب الداخلية واعمال الغزو، وبفضل ايجاده لشرعة الحرب التي استهدفت تحرير الانسان وصيانته سواء اكان صديقا ام خصما. بفضل ذلك كله استطاع العرب المسلمون بعد وفاته بفترة وجيزة فتح اعظم اجزاء بلاد العالم الوسيط، ولم يحدث لعرب القرن السابع ما حدث لاسلافهم من المهاجرين الى خارج الجزيرة، الذين امتصتهم حضارات البلدان التي هاجروا اليها، او مثلما حدث لمغول ما بعد القرن الثاني عشر، واستطاعوا الحفاظ على شخصيتهم المتميزة لانهم حملوا منطلقات حضارية جديدة تنبض بالحياة، فتمكنوا من صهر الحضارات القديمة في بوتقة عربية، واخرجوها للناس حضارة جديدة، ثم قاموا تحت ظل الاسلام بتطوير هذه الحضارة وتنميتها، واضافة جوانب مبدعة كثيرة عليها.

والآن حين اخذ الناس يتعرفون بشكل علمي الى تاريخ الاسلام وحضارة المسلمين، لاحظوا باكبار ودهشة ان كل خلجة وحركة تمت في ماضي المسلمين جلي فيها الاثر الكبير للنبي (صلعم) وفي هذا ريادة لا يعلوها ريادة وخلود ما بعده خلود، ولم لا فالله تعالى قال وقوله الحق: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون».



الجزائر والمستقبل العربي

د. حافظ الجمالي

أكتب. ولعلني لا افعل شيئا غير الكتابة ومع ذلك فقلما كتبت في قضية تخص قطرا عربيا واحدا بعينه. وعندما اكتب في قضية ظاهرها قطري، فلأن ما اكتب عنه ذو طابع قومي. والان اريد ان اكتب عن الجزائر او للجزائر. ولا اظن اني اعبر عن عاطفة شخصية ان قلت: إن ثورة المليون شهيد تحتل في قلب كل عربي اعلى منزلة، وتتسامى لتصبح فخرا عربيا بالجملة، لا فخرا جزائريا فحسب.

واتساءل احيانا: أليس في الثورة الجزائرية ما يذكرنا ببطولات شعبنا، ايام امجاده الاولى، لدى وبعد ظهور رسالة الاسلام الكريمة؟ واقول: ان الفرق كبير. في تلك الايام كان قوادنا يهاجمون بلادا غريبة، ويحتلونها، ويعربونها ويهبونها الدين كعقيدة. اما في الثورة الجزائرية، فاننا لا نزيد على ان نسترد ارضا فرطنا بها بعد اكثر من اثني عشر قرنا من احتلال اجدادنا لها. وفي الماضي كنا نهاجم ومع ثورة الجزائر كنا نقاوم. وليس الهجوم كالمقاومة. واعود فاقول: ماذا ابقي وليس الهجوم كالمقاومة. واعود فاقول: ماذا ابقي المستعمر من الجزائر وشعبها. ومؤسساتها، ولغتها، ونظمها؟ والى اي حد عدا حتى على الدين نفسه، فحاول

طمسه، وارخى الظلام عليه، وجعله ينزوي في البيوت البعيدة، والزوايا المهجورة، والمساجد المقهورة؟ ومع ذلك فقد تمكن الشعب الجزائري من استرداد ارضه. وطرد الغاصبين وانشاء دولة، لعل ما انشأته وبنته خلال السنوات القليلة التي عاشتها مستقلة، اكبر بما لا يقاس من كل منشآت الاستعمار خلال مئة وثلاثين عاما. وبكل بساطة، يمكن القول، ان العرب اعادوا فتح الجزائر من جديد، بوسائل اقل من تلك التي كان يملكها الفاتحون الاول، وضد خصم يملك من وسائل الحرب والتدمير، ما لم يعرفه لا في قليل ولا في كثير. حكام الجزائر السابقون، عهد الهجوم العربي.

وهكذا عادت الجزائر الى العروبة والاسلام، وعادت اليها لغتها وتقاليدها ونظمها، واصبحت نموذجا لعنف المقاومة التي يملكها العربي، متى حزم امره، ووحد كلمته، واستهان بالتضحيات. وما اكثر الظروف التي ينكشف فيها للشعب انه في المقاومة، اشد منه في الهجوم، وانه بالاسلحة القليلة، قادر على اثبات وجوده، اين منه وجود الاسلحة الضخمة. والجنود الكثر، والعنف الذي يبديه المستعمرون.

* * *

غير ان الجزائر لما عادت الى العروبة عادت في الوقت نفسه الى المشاركة في همومها. ولست ادري كيف تتفق الظروف على جعل الهموم واحدة، على مسافة هي تلك التي تفصل جانبي الوطن العربي الشرقي والغربي. والشمالي والجنوبي، ولو ان قادة العرب تبادلوا الادوار وحكم كل منهم مكان الآخر لوجد انه امام الهموم نفسها، كأن لم يتغير عليه شيء حتى ولو انتقل من العراق إلى المغرب، او من سورية إلى السودان او اليمن. وإذا كانت مساحة الوطن العربي ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون من الكيلومترات المربعة بعرض متوسط لا يقل عن ٢٥٠٠كم. وطول لا يقل عن خمسة آلاف كم. فان من الغريب ان يكون واحداً في كل شيء، ولا سيما في الهموم.

ولكن ما هي هذه الهموم، او على الاصح ما هي اكبر هذه الهموم، بغض النظر عن الصغيرة منها، او الصغيرة نسبيا، والتي يصعب احصاؤها على الباحث؟ اما انا فاشعر ان للعرب حيثما كانوا همين كبيرين، اولهما، انهم من العالم الثالث، او من شعوب الارض المتخلفة، يتوقون باستمرار الى كسب الحضارة العالمية، ويجهدون، ويجاهدون، ويتعبون، ويشقون، وتظل هذه الحضارة بعيدة عنهم، لا يتقدمون اليها خطوة، الا لتبعد عنهم خطوات، وبالتالي فان حظهم من لقاء الحياة قليل، وشقاءهم فيها كثير. والثاني انهم مهددون حتى في وجودهم نفسه. وصحيح انه ما من شيء في الظاهر يهدد استقلال المغرب او الجزائر او تونس. ولكن هذه الاقطار ملتحمة عضويا، ووجدانيا بالمشرق العربي، فان سقطت دمشق، او جدة، او الكويت، او اية امارة من امارات الخليج بين يدي الاستعمار، فان النكبة لا تكون خاصة بالاقطار التي وقعت فيها، بل تعم وتشمل الوطن العربي كله. وعندما نتحدث عن الصهاينة، وما احتلوه من الاراضي العربية، نتحدّث عن ثلاثين الف كم² من كل الاراضي العربية وهي مساحة صغيرة نسبيا من الارض الوطنية. ولكن اي عربي في اي قطر لا يشعر ان هذه النكبة نكبته، وان الكارثة اعظم بكثير، وبما لا يقاس، من مساحة الارض المحتلة، وانها قد تمتد في كل لحظة، لتشمل مساحات اخرى، ومن هنا لا تتحد الاقطار العربية في هم واحد، هو هم التخلف، بل تتحد في الهم الآخر، والاكبر، الذي هو هم اسرائيل.

ترى هل من علاقة بين هذين الهمين؟ لا ريب عندي ان العلاقة سببية من ناحية، وجدلية من ناحية اخرى. فلولا التخلف العربي، لما وجدت اسرائيل. وفي هذه البؤرة المرزغية، نبتت هذه الحشيشة السامة، ونمت، وترعرعت، ولا تزال، وهي تسمم الحياة العربية كلها من اقصى الشرق الى اقصى الغرب. ومن جهة اخرى فان اسرائيل تمتص الكثير من الجهد العربي والاموال العربية، مما يعرقل امكانيات التقدم، ويعرقل عجلة التطور، فكأن هذه الاسرائيل اداة جديدة من ادوات التخلف، او قل انها قنبلة موقوتة لأزمنة مختلفة، ما ان نبني في حياتنا شيئا مهدما، الا انفجرت لتقوضه من اساسه كما لو كنا لم نفعل شيئا.



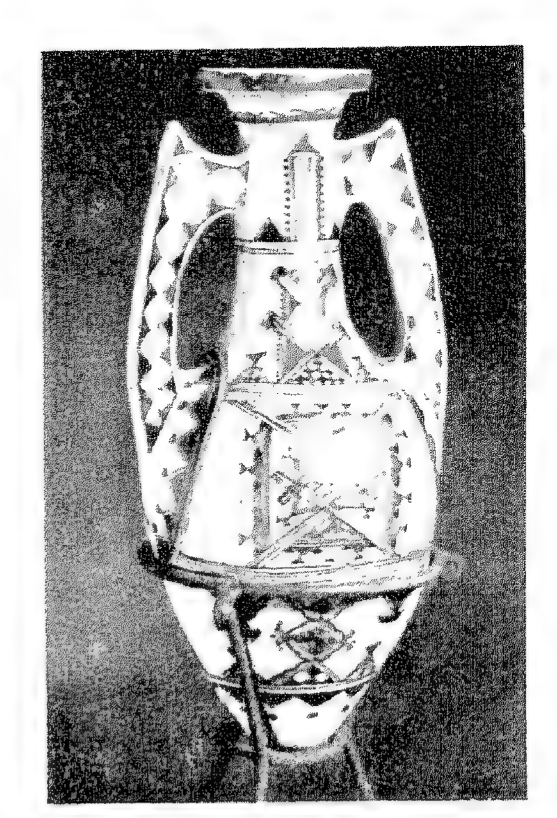
جامعة الجزائر

وأتخيل الآن مطامح الوجدان العربي ايام الصليبيين، وأرى في الخيال وحده، انه لم يكن. يطمح في اي شيء آخر غير اجلائهم عن البلاد، وان البطولة الوحيدة التي ينتظرها الشعب من قادته ليست ما يبنى من المعامل، او ما ينشأ من صناعات، او ما يقام من سدود، او ما يتوفر للقرى التعيسة من مياه الشرب النقية، او الكهرباء، او شبكة الطرق، او ارتقاء مستوى الحياة في المأكل والمشرب والمسكن، بل هي ما يمكن ان يفعله القادة من اجل القضاء على الخطر الاسرائيلي. اما ما عدا ذلك فبطولات مزورة بدرجة او باخرى. وماذا يجدي على المجروح في كرامته وكبريائه ان يكون لباسه انيقا، وبيته حسن الاثاث، وحديقته ملأى بالازهار؟ ان جهنم في العز تظل ابهى المنازل، والجنة في الذل لا قيمة لها، وكل بطولة الآن، هي في هذا وحده: رد الكرامة الى الشعب العربي.

* * *

وتشاء الاقدار ان تأتلف كل الظروف لتجعل هذا الامل صعب التحقيق، ان خطر اسرائيل يلزم العرب بالوحدة، او بصورة من صور الوحدة، اقلها اجتماع الكلمة، وتوحيد الجهود. والذي نراه، هو ان الكلمة تتفرق بدلا من ان تجتمع، والجهود تتبدد بدلا من ان تتحد. ويصبح السؤال الذي يدور على لسان كل مواطن. في كل يوم: ماذا سيخترع العرب من وسائل جديدة لزيادة التفرقة، وتبديد الجهود. ولم تعد المشكلة ماذا بين الحكومات العربية من خلافات، بل ماذا سيضاف اليها من خلافات؟

وطبيعي ان كل خطوة الى الحضارة، هي في الوقت نفسه خطوة الى القضاء على خطر اسرائيل. وبالمقابل لا ندري حقا، لماذا ننشىء الجامعات، ونكثر من عدد المدارس والمتعلمين، ونسخو كل السخاء على اعداد الخبراء، والمختصين، ونقوم كل يوم بمشروع او آخر من مشاريع التنمية، ثم لا نزداد عن الحضارة الا بعدا، وعن التخلف الا قربا. ودع الآن ما تقدمه المشاريع والمصانع من خدمات لا شك في قيمتها، ودع ايضا كونها خاسرة او رابحة (وهي خاسرة اغلب الاحيان). دع هذا كله، وتساءل: هل يبدو السلوك العربي في عيون



من المصنوعات الحرفية الجزائرية.

العالم عقلانيا، او غير عقلاني؟ ان هذا هو المحل الاول للتقدم الحضاري. ولكن نظرة بسيطة الى فوائض البترول وصورة تدويرها، والعبث بها، الى حد الجنون، تكفي لا لبيان حمق هذا السلوك، فحسب، بل لبيان الهبوط الكبير في مستواه الاخلاقي. ويعرف العالم كله ان الامن الغذائي في بلادنا مهدد الى ابعد الحدود. وان كل ما نستطيعه هو اضافة ثلاثين مليونا من الهكتارات الى الاراضي الزراعية، الموجودة اليوم، وزيادة مشاريع الري، وعائدية الزراعة، حتى اذا جاء آخر القرن، ولدينا ثلاث مئة مليون عربي، استطعنا، على الاقل، توفير الغذاء لهم. ويلاحظ العالم كله طبعا بحق، او بغير حق، (وبحق اغلب الاحيان) اننا نفعل كل شيء الا هذا، ولعلنا نمعن في الاذى، ونجعل اراضينا تزداد ملوحة، وتقل انتاجا، كأن الله لم يهبنا النفط الزائد الا لنضمن استيراد ما يكفينا من حاجات الغذاء. ولكن ماذا عسانا ان نفعل بعد ان يذهب النفط؟ وهل نأكل من منتجات معامل الحديد، او الاسمنت، او الاواني البلاستيكية؟

وكثيرا ما خطر ببالي ان النهضة العربية في المغرب العربي، لا بد ان تكون الاسرع والاعقل لشدة الاتصال بينه وبين الغرب، ولعمق جذور الثقافة الغربية فيه، مما يكسبه مستوى من العقلانية اكبر من المستوى السائد في الشرق. وبالتالي مستوى من حسن الاداء والانتاج اكبر من الذي نراه في سورية او العراق او اليمن. ومع ذلك فان ما اقرأه في المجلات المتخصصة، يكشف لي عن ان وتائر التقدم واحدة في الشرق والغرب معا، وان تأصل الثقافة المغربية، بدرجة اكبر، في المغرب العربي، لم يزد النمو الحضاري هناك، كبرا واتساعا، تماما كما ان كبر موارد النفط في العراق، لم تجعل سورية دونه مستوى حياة، او متوسط دخل، بفرق محسوس.

ومع ذلك فانه يبقى لي امل كبير في المغرب العربي، وفي الجزائر خاصة. فمن ينجح في ثورته كما نجحت الجزائر، يجب ان نتوقع منه نجاحا محسوسا في التقدم الحضاري، والمجابهة مع اسرائيل. وهذا ما نحن منتظرون. الا ان ذلك لا ينفي طرح سؤالين هامين، حول قيمة الحكم، اي حكم، لا في بلد معين، بل في كل بلد، واظن ان الحكم لا معنى له ان لم يهدف الى امرين معا، او الى واحد منهما على الاقل اعني العزة القومية والسلام الاجتماعي، لا بصورة مطلقة طبعا، ولكن بالصورة الموازية لوزن الشعب الذي يحكم، وما لديه من موارد بشرية واقتصادية، هي نفسها تتزايد بالضرورة. او يجب ان تكون كذلك. وهنالك طبعا الف تخطيط ممكن لتحقيق هذين الهدفين، او واحد منهما فقط، كالسلام الاجتماعي وحده، ان كانت موارد الدولة لا تسمح لها بأن تكون ذات شأن في العالم الدولي، لصغر المساحة، او ضآلة السكان، او قلة خيرات الارض. وليس هنالك الف تخطيط ممكن فحسب، بل هنالك فئات شتى من القادرين على التخطيط. واذا كان الناس مبدئيا على درجة واحدة من الحس الوطني، فلا ريب ان اجدر الفئات بعملية التخطيط هذه، هي فئة العلماء والخبراء، ورجال



التصنيع: من معالم النهضة.

الفكر، والمثقفين، والاذكياء والنخبة النخبة من بين هؤلاء. وحتى الآن لا اعرف ان هذه النخبة تولت هي هذا التخطيط في اي بلد عربي. أفيكون معقولا ان يستبعد هؤلاء في كل مكان، في الارض العربية، عن عملية التخطيط، ونحن اشد الناس حاجة الى ما لدينا من خبرات وكفاءات؟ وهل يظن ان هذه تعمل، بصورة حرة، في جو السلطة، او بعيدا عنها؟ بل هل يمكن ان تكون هذه قد استخدمت، ثم يقول احد القادة العرب قوله المأثور: «انه لا يمكن ان تكون الاوضاع العربية اكثر سوءا منها الآن، واذن فيجب ان نبدأ بالتحسن؟» وطبعا كان في وسعه القول: واذن فيجب إما ان نبدأ بالتحسن، واما اننا سننتهي الى الموت. ولا شك انه اختار العبارة الاولى تفاؤلا منه، غير ان هذا لا يعني وجود الكثيرين من المتشائمين. واذا بقينا عند الجزء الاول من عبارته، وقلنا ان هذا انطباع شخصي لا يؤخذ على علاته، فاننا لا نجهل ان المواطن العربي في كل ارض، يأخذ بهذا الرأي، ويملك هذا الانطباع، افلا يعني ذلك ان استخدامنا لاذكيائنا وخبرائنا متخلف جدا، او ان هؤلاء لم يولدوا بعد عندنا. وفي الحالين من ذا عساه ان يكون المسؤول؟

واعود الى مشروع هرتزل الصهيوني، واراه قد تحقق خلال الخمسين سنة التي قدرها هو، في ابعد تقدير، واعترف العالم بوجود اسرائيل، كما تنبأ تماما. انها ارادة انقلبت الى واقع. في دقة الساعة، ترى ماذا اراد العرب منذ خلقت اسرائيل حتى الآن؟ أأرادوا توالي النكسات وتتابع النكبات، فحققوا ذلك بالدقة نفسها. ام أرادوا النصر، فلم يحققوا الا الهزيمة؟ واذن كيف استطاعت الارادة الجزائرية ان تحرر الجزائر من أعتى استعمار، فتحقق لها ما ارادت، بفترة اقل بكثير من تلك التي اقتضاها انشاء اسرائيل. فلماذا لا تحقق الارادة نفسها اعجوبة بطولية بمستوى تحرير الجزائر العربي؟ واذا قصرت الجزائر عن هذا، بحكم جدة نشوئها، وما خلفه الاستعمار من قضايا، ومصاعب، ومشكلات جمة. فلماذا لم يتوفر في اي قطر عربي آخر، مثل هذه الارادة الجزائرية، للتحرر من اسرائيل؟

اني لا اجهل ان اسرائيل ليست وحدها، وان ما وراءها من قوى هو الشيء الاهم في استمرار وجودها. ولكن أفي وسع حلفائها ان يضعوا وراءها من القوى ما يستطيع كل الشعب العربي حشده الآن، او في السنوات القادمة؟ ان هذا ما سأظل اشك فيه. لكن المشكلة هي ان الشعب العربي لا يتاح له، لا ادري لاي سبب، ان يعبىء طاقاته، ويجند قواه كاملة، ترى من هو المسؤول الآن؟ القيادات، ام الشعب، ام الاثنان معا؟ اما الشعب فلا ريب ان له رأيه في هذا الموضوع. ■

■ من مآسي الاستبداد انه يلبس الحق بالباطل، فيظلم وهو يزعم انه يعدل، ويهدم وهو يزعم انه يبني، ويضعف شأن الامة ويزعم انه يعلي مكانتها بين الامم.



مدارس القدس في العهد العثماني

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام
«فلسطين» ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠

د. هشام نشابة

تقديرا من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخرا في عمان ما بين ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤ - ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ اعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة ابتداء من هذا العدد. والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال تود أن تؤكد انها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرسمية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر ونتمنى ان تستمر الجهود في جميع أنحاء الوطن العربي لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

لمدينة القدس في التاريخ الاسلامي مكانة لا تضاهيها إلا مكانة مكة المكرمة والمدينة المنورة. والمكانة المرموقة لمدينة ما في بلاد الاسلام تتمثل بأوجه عديدة تتناول مختلف نواحي الحياة في المدينة ولا تقتصر على الاهتمام بأماكن العبادة فيها. ولذلك نلاحظ ان العناية بمدينة القدس شملت جوامعها وأسواقها وتوفير الموارد المالية لرعاية مرافقها المختلفة.

ولئن ذخرت كتب التاريخ باخبار القدس في ايام الفتح الاسلامي باعتبار انها اولى القبلتين ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم في ايام الحروب الصليبية عندما وقعت في ايدي الفرنج، فان ما كتب عن القدس بعد استرجاعها من الصليبيين على يد صلاح الدين الايوبي، وخاصة بعد انتهاء الحروب الصليبية ليس بالشيء الكثير.

كتب المؤرخون عن تاريخ القدس وفضائلها وأحوالها وطبقات علمائها، وانشد الشعراء ما طاب لهم الانشاد ذاكرين محاسن المدينة طالما كانت بأيدي الصليبيين، فإذا عادت إلى أيدي المسلمين قل ذكرها نسبياً. واحسب ان ذلك راجع إلى حرص المؤرخين والكتاب والشعراء على تذكير الامة الاسلامية بضرورة انقاذ القدس من ايدي الفرنجة، فإذا تحقق ذلك اطمأنوا واستراحوا. فلما جاء العهد العثماني

ندرت المعلومات عن اوضاع القدس، وقلت المراجع بشكل ملفت للنظر. فالتاريخ لمدارس القدس في العصر العثماني عسير، ويستدعي من الباحثين الرجوع إلى مصادر تتحدث عن القدس وفلسطين بصورة عامة تستنتج منها استنتاجات تنقصها غالباً الدقة العلمية المطلوبة.

فالمراجع والمصادر التي بين ايدينا لا توفي القدس حقها من حيث ما كان يقوم فيها من نشاط علمي، وانما نستدل على هذا النشاط من اشارات عابرة منثورة هنا وهناك في كتب الاخبار الطبقات وتواريخ الرجال.

والجدير بالذكر ان الحياة العلمية في المدن الاسلامية عامة لا ترتبط بالمدارس وحسب وانما تتصل ايضاً بالجوامع والتكايا والربط والزوايا والخانقاهات وبيوت العلماء والكتاتيب. ذلك ان التربية الاسلامية توسلت هذه المؤسسات جميعاً وغيرها لنشر المعرفة بين الناس.

وقد عني اصحاب البلاد بعد ان استعادوا مدينة القدس من الصليبيين بتعزيز مؤسساتها التعليمية تأكيداً لطابعها الاسلامي الاصيل من جهة وتعبيراً عن تعلقهم بها من جهة اخرى، وهكذا بدأوا باصلاح المساجد التي كان الصليبيون قد اعتدوا عليها ومنها المسجد الاقصى الذي كان الصليبيون قد اتخذوه مساكن لجنودهم واماكن للذخيرة وغير ذلك.

وكان في القدس قبيل الاحتلال الصليبي لها، تسعة وثلاثون مسجداً، منها في المدينة القديمة، داخل السور، تسعة وعشرون مسجداً اهمها فضلاً عن المسجد الأقصى[1]:

١ – مسجد الخانقاه إلى الشمال الغربي من كنيسة القيامة.

٢ – الجامع العمري: قبلي كنيسة القيامة.

٣ – مسجد طريق النبي داود: على طريق النبي داود.

٤ – مسجد البراق: ملاصق لحائط البراق.

٥ – جامع قبة موسى: في ساحة الحرم.

٦ – جامع باب الغوانمة.

كما اقام السلطان صلاح الدين الايوبي في القدس **البيمارستان** ويقال ان الذي اقامه اصلاً هم الفاطميون. كما انشأ **مدرسة الخانقاه** سنة ١١٩٢، وعمّر ما تهدم من سور المدينة، واقام جامع الجبل على جبل صهيون، وبنى مقبرة المجاهدين وقبة يوسف في فناء الصخرة. وبنى ايضاً **المدرسة الصلاحية** سنة ٥٨٨/١١٩٢ م.[2].

اما في عهد ابناء صلاح الدين فقد انشأ الملك الافضل **المدرسة الافضلية** ورمم المسجد العمري.

وانشأ الملك العادل **المدرسة الجراحية** حوالي سنة ١٢٠٢ م. وانشأ الملك المعظم شرف الدين عيسى **المدرسة المعظمية** سنة ١٢١٣ م، **والمدرسة النحوية** وكان بناؤها سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م[3].

كما انشأ في بيت المقدس الامير الايوبي ميمون بن عبد الله **المدرسة الميمونية**، وانشأ الامير بدر الدين بن ابي القاسم **المدرسة البدرية**[4].

اما **المدرسة الناصرية** فلا بد انها انشئت اصلاً في العصر العباسي، فقد سمّيت الغزالية لفترة من تاريخها لاقامة الامام ابي حامد الغزالي (توفي سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م) فيها وقد اعاد بناءها الملك المعظم عيسى الايوبي وجعلها زاوية لقراءة القرآن الكريم والاشتغال بالنحو، ووقف عليها كتباً من جملتها **اصلاح المنطق** لابن السكيت وذلك سنة ٦١٠ هـ/١٢١٣ م. وقال مجير الدين المقدسي، «وقد دثرت الزاوية المذكورة في عصرنا ولم يبق لها نظام». وقد بقيت المدرسة قائمة، ناشطة حتى العهد العثماني لان مجير الدين قد توفي سنة ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م[5].

واقام الملك المنصور سيف الدين قلاوون رباط قلاون سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م ووقفه على الفقراء من زوار القدس وانشأ بعض المساجد. واما السلطان الناصر ابن الملك المنصور سيف الدين فقد انشأ في القدس عشرين مدرسة منها **المدرسة الدوادارية** عام ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م. **والمدرسة الارغونية** نسبة إلى الامير ارغون الكاملي وقد دفن فيها الملك حسين بن علي الذي

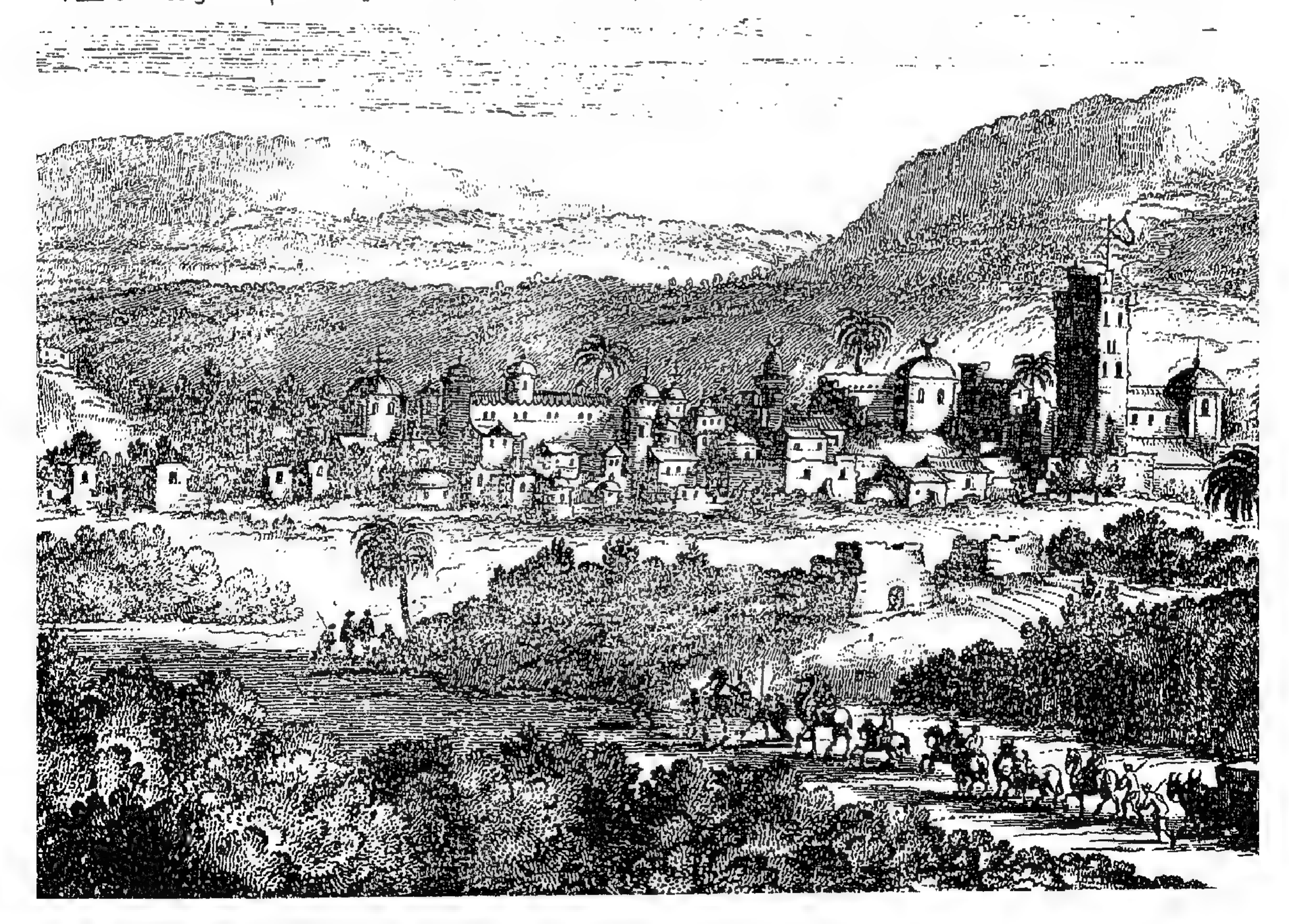
ثار على العثمانيين اثناء الحرب العالمية الاولى.

والمدرسة الاسعردية والمدرسة الخاتونية.

ويذكر الاستاذ عارف العارف[٦] بالاضافة إلى المدارس المذكورة آنفاً مدارس اخرى انشئت في القدس قبل الفتح العثماني هي:

- دار الحديث بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب بباب السلسلة. انشئت سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ م.
- الرباط المنصوري انشأه الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ/١٢٧٢ م.
- رباط الكرد امام المدرسة الارغونية بباب الحديد انشىء سنة ٦٩٣ هـ/١٢٩٣ م.
- المدرسة الاباصيرية بجوار باب الناظر وكانت رباطاً ثم اصبحت مدرسة سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ م.
- المدرسة السلامية اوقفت حوالي سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠م.
- المدرسة الوجيهية اوقفت في اواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.
- المدرسة الموصلية اوقفت سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م في فترة الحكم العثماني.
- المدرسة الخاقونية اوقفت سنة ٧٥٥ هـ/١٣٥٤ م.
- المدرسة التشتمرية اوقفت سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٧ م.
- المدرسة الجهاركسية انشئت في اواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.
- المدرسة الطولونية انشئت سنة ٨٠٠ هـ/١٣٩٧ م.
- المدرسة النصيبية اوقفت سنة ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م.

الرملة (١٦٦٨) بناها الخليفة سليمان بن عبد الملك عام ٧١٥م واتخذت عاصمة لجند فلسطين منذ عام ٧١٦ ولمدة ٤٠٠ سنة.



– المدرسة الصبيبية انشئت في اوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.
– المدرسة الغزية كانت موجودة في اوائل الفتح العثماني وتاريخ انشائها غير معروف بالضبط.
– المدرسة الكاملية اوقفت بتاريخ ٨١٦ هـ/١٤١٣ م.
– المدرسة الباسطية تم انشاؤها سنة ٨٣٤ هـ/١٤٣٠ م.
– المدرسة القادرية انشئت سنة ٨٣٦ هـ/١٤٣٢ م.
– المدرسة العثمانية انشئت سنة ٨٤٠ هـ/١٤٣٧ م.
– المدرسة الجوهرية اوقف لها سنة ٨٤٤ هـ/١٤٤٠ م.
– المدرسة المزهرية كان الفراغ من بنائها في سنة ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م.
– المدرسة الزمينية انشئت سنة ٨٨٦ هـ/١٤٨١ م.
– المدرسة القرقشندية تاريخ انشائها غير معروف.
– المدرسة الاشرفية كان بناؤها سنة ٨٧٥ هـ/١٤٧٠ م.
– المدرسة الجالقية انشئت سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٧ م.
– المدرسة الجاولية اصبحت مدرسة سنة ٧١٥ هـ/١٣١٥ م.
– المدرسة الكريمية انشئت سنة ٧١٨ هـ/١٣١٩ م.
– المدرسة الامينية انشئت سنة ٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م.
– الخانقاة الفخرية انشئت في مطلع القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.
– المدرسة الحنفية تاريخ انشائها غير معروف.
– دار السلام القرآنية انشئت سنة ٧٦١ هـ/١٣٥٩ م.
– المدرسة المنجكية انشئت سنة ٧٦٢ هـ/١٣٦٠ م.
– المدرسة المحدثية انشئت سنة ٧٦ هـ/١٣٦٥ م.
– المدرسة الحسنية انشئت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.
– المدرسة الطازجية اوقفت سنة ٧٦٣ هـ/١٣٦٢ م.
– المدرسة البلدية اوقفت في اواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.
– المدرسة الطشتمرية انشئت سنة ٧٨ هـ/١٣٦٢ م.
– المدرسة الملكية (مدرسة الجوكندار) انشئت سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م.
– المدرسة الفارسية اوقفت سة ٧٥٥ هـ/١٣٥٤ م.
– المدرسة البارودية اوقفت سنة ٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م.
– المدرسة اللؤلؤية كانت موجودة سنة ٧٨١ هـ/١٣٧٩ م.

اما فيما يتعلق بالنشاط التعليمي في المسجد الاقصى وقبة الصخرة فنورد فيما يلي ما جاء في كتاب تاريخ الجامعات الاسلامية:

«وفي العصرين الأيوبي ثم المملوكي انشئت بداخله وحوله عدة مدارس اكدت صبغته العلمية وجعلت منه جامعة اسلامية كبرى اهمها المدرسة الشريفة السلطانية الاشرفية داخله بالقرب من باب السلسلة. وسبب بنائها ان الامير حسن الظاهري، من امراء المماليك، كان قد بنى المدرسة القديمة للملك الظاهر خشقدم ثم بعد وفاته سأل الملك الاشرف قايتباي قبولها فقبلها منه ونسبت إليه ورتب لها شيخاً وصوفية وفقهاء وصرف لها المعاليم. ثم حضر الملك الاشرف قايتباي إلى القدس سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م فلم تعجبه وهدمها وانشأ اخرى مكانها اوسع مساحة وافخم بناء.

«ومما انشيء حول المسجد من المدارس المدرسة الناصرية التي سميت فيما بعد بالغزالية... والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب. بانيها الملك المعظم عيسى... والمدرسة التنكزية واقفها الامير تنكز الناصري نائب الشام في العصر المما

وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس اتقن من بنائها - كذا يقول المقدسي - وهي بخط باب السلسلة.

«والمدرسة الكريمية، بناها كريم الدين عبد الكريم من رجال الدولة المملوكية بالقرب من باب يسمى باب حطة»[٧].

وجاء في وصف المدرسة التنكزية الانفة الذكر، ان فيها بلغ الفن البنائي القمة ولا سيما زخرف الابواب العالية والاحجار الملونة والمقرنصات التي تغطي التغيير من الشكل المربع إلى شكل القبة. وقد غشيت بطبقات رقيقة من الرخام . يضاف إلى ذلك افريز يمتد على طول الواجهة، وقد استعملت الكتابات ايضاً كمظهر من مظاهر الزينة»[٨].

ان هذه المدرسة الرائعة قد هدمها اليهود بعد احتلالهم القدس في حزيران ١٩٦٧ كما هدموا الزاوية الفخرية الملاصقة للمسجد الاقصى بالاضافة إلى عدد من الممتلكات الثقافية الاسلامية والمسيحية حسب ما جاء في تقارير اليونسكو[٩].

* * *

وهكذا عندما فتح العثمانيون بلاد الشام وفلسطين في عهد السلطان سليم الاول كانت لمدينة القدس قدم راسخة في العلم، غنية بمساجدها وعلمائها ومدارسها ومرافقها العامة. كما استمرت عناية المسلمين بمدينة القدس يؤرخون لها ولرجالاتها ويكتبون عن فضائلها ومزاياها ولعل خير من كتب في هذا المجال مجير الدين الحنبلي المقدسي المتوفي سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م. اي بعد ثلاث سنوات ونيف على فتح القدس من قبل العثمانيين، والشيخ عبد الغني النابلسي المتوفي سنة ١١٤٤ هـ/ ١٧٣١ م.[١٠].

ولقد استمرت غالبية المدارس التي انشئت في القدس في عهد الايوبيين وعهد المماليك عاملة ناشطة خلال فترة الحكم العثماني بحكم ما كان لها من اوقاف. كما بقي العديد من الزوايا التي يؤمها الحجاج من مختلف بلدان العالم الاسلامي كالزاوية النقشبندية وزاوية الهنود وزاوية القادرية التي يكثر ذكرها في المراجع التي تؤرخ للمعالم الاثرية في القدس. ورغم ان هذه الزوايا كانت تستعمل كمضافات، غير انها كسائر الزوايا في العالم الاسلامي تقوم بدور تعليمي خاصة في مواسم الحج وشهر رمضان المبارك.

وشهدت مدينة القدس في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ م - ١٥٦٦ م) حركة عمرانية واسعة شملت المدارس والجوامع والقلعة والاسوار واقنية المياه، ونقتصر هنا على ذكر ما اتصل من هذه الحركة العمرانية بالمدارس.

ففي سنة ١٥٣٦ م انشأ السبيل الكائنة بباب السلسلة امام المدرسة التنكزية التي سبق ذكرها. وفي عهده انشئت التكية المعروفة **بتكية خاصكي سلطان** وذلك سنة ١٥٥٢ . وتعتبر من خيرة الاماكن الخيرية التي انشأها الاتراك العثمانيون بالقدس [١١]. ويضيف الاستاذ عارف العارف: منذ تأسيسها إلى الآن يقدم المشرفون عليها الغذاء لعدد كبير من الفقراء مجاناً وفي كل يوم. نفقاتها تدفع من ريع الاملاك التي وقفتها السيدة المشار إليها (زوجة السلطان سليمان روكسلانة وهي من اصل روسي) ولها منشآت خيرية كثيرة - مساجد وتكايا وحمامات - في استانبول ومكة وادرنة وغيرها من الجهات[١٢].

وهناك ايضاً المدرسة **الرصاصية** التي ورد عنها في كتاب الاستاذ عارف العارف بما يلي[١٣]:

«بنيت في زمن السلطان سليمان الاول. والذي بناها هو بايرام جاويش بن مصطفى. وكان ذلك بتاريخ ٢٠ ربيع الاول ٩٤٧ هـ/ ٢٥ تموز ١٥٤٠ م. بناها بعد ان اتم عمارة السور. إذ كان السلطان سليمان قد اقامه ناظراً على أعمال البناء فقام بأعمال عمرانية جمة. مات في القدس ودفن فيها. وهي كائنة عند ملتقى طريق الواد بطريق باب الناظر وعقبة التكية».

«كانت في بادىء الامر رباطاً. وكانوا يسمونه (رباط بايرام). ثم صارت مدرسة. وقد اتخذها الاتراك، طيلة وجودهم في القدس، مدرسة لتعليم ابناء القدس. ولقد تعلم فيها مؤلف هذا الكتاب علومه الاولية».

«وهناك فوق مدخلها بلاطة نقشت عليها

الكلمة الآتية بالنسخ العثماني بأحرف كبيرة: (هذا المكان المبارك رباط وقفه لسكن الفقير الامير بايرام جاويش بن مصطفى دام عزه بتاريخ عشرين ربيع الاول سنة سبع واربعين وتسع ماية) وفيها ضريحه».

«وفي مكان آخر من نفس العمارة بلاطة نقشت عليها هذه الكلمات: جدد عمارة هذا المكان المبارك بايرام جاويش وجعله مكتباً لقراءة الاولاد لله تعالى في سنة ٩٤٧ هـ. ويظهر ان بايرام جاويش ترك اوقافاً. إذ نقرأ في سجلات المحكمة الشرعية ان القاضي عينّ ناظراً على تلك الاوقاف».

ويقول اوليا جلبي الذي نزل القدس سنة١٠٨١ هـ/ ١٦٧٠ م انه كان في القدس في ذلك الوقت اربعون مدرسة للبنين، وتكايا لسبعين طريقة منها الكيلانية والنقشبندية والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية. فإذا اخذنا في الاعتبار ان سكان القدس في ذلك الوقت كانوا ستة واربعين الف نسمة اكثريتهم الساحقة من المسلمين ادركنا كم كانت الحركة التعليمية في القدس نشيطة في ذلك الزمان[١٤].

وتذكر المصادر الاحدث عهداً ان المسلمين بنوا في القدس ٥٦ مدرسة، وكان يأتي إليها الطلاب من انحاء العالم الاسلامي. وقد اوقف عليها المسلمون المصاحف والمخطوطات النادرة وما زال الكثير من هذه المدارس قائماً حول الحرم بأبوابها الحديدية المزخرفة. وكان بالمسجد الاقصى مكتبة كبيرة كما كان الحال في جامع قرطبة والقيروان والازهر الشريف»[١٥].

غير ان اهتمام العثمانيين انصب بالدرجة الاولى على بناء الطرق والجوامع ذات المآذن المستديرة، والمنظر الانيق، وخصّوا بالرعاية الحرم فلا يأتي سلطان الحكم إلاّ ويجري فيه تحسين او تزيين اكتساباً لمرضاة الله.

وآخر ما انشأه العثمانيون من المدارس في القدس هي المدرسة الرشيدية الواقعة تجاه السور بباب الساهرة، وتنسب إلى احمد رشيد بك متصرف القدس في زمن السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٦م[١٦].

ولا بد من الاشارة إلى مراكز التعليم التي بناها المسيحيون في القدس في العهد العثماني، وهي غالباً داخل الاديرة وبجوار الكنائس داخل المدينة وخارجها، وتعتبر جميعها من المقدسات عند الطوائف المسيحية، منها للروم الارثوذكس، والروم الكاثوليك، والكاثوليك، واللاتين، والأرمن، والأقباط، والأحباش، والسريان، والموارنة.

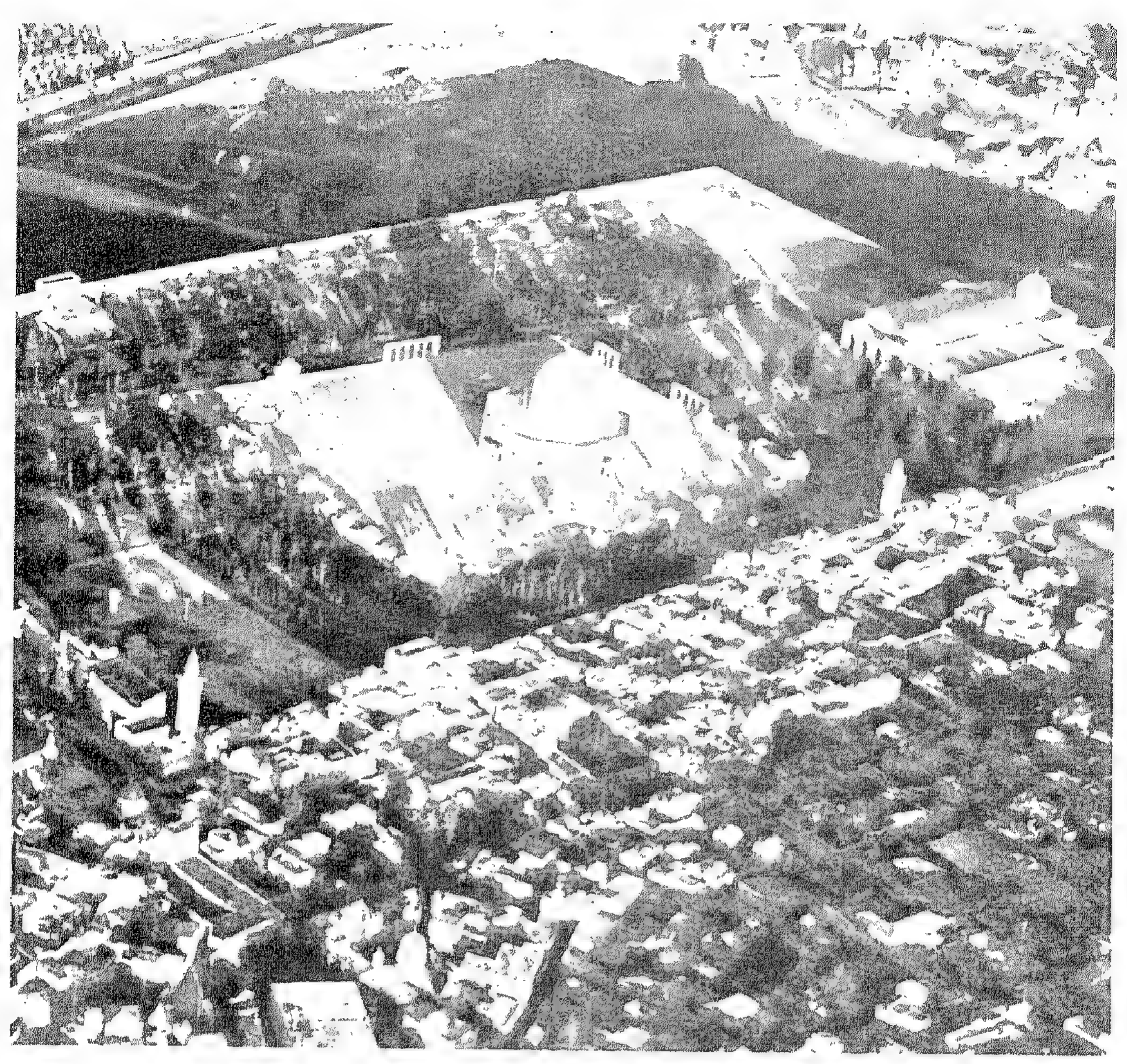
اما اليهود فلم تكن لهم مدارس طيلة هذه الفترة، او ان عددها كان من الضآلة بحيث لا تسترعي الانتباه. فقد جاء في كتاب الاحصاءات للبعثات الارسالية في العام لسنة ١٩١٤ ان ليس لليهود سنة ١٩١٢ اية مدرسة في الامبراطورية العثمانية[١٧] وان اليهود الموجودين في فلسطين كانوا يؤمون مدارس الارساليات المسيحية ويستعملون هذه المدارس لخدمة مآربهم[١٨].

ولم يكن عدد اليهود في بداية العهد العثماني يبرر وجود مدارس خاصة بهم «فمن احصاء اجرى عام ١٥٧٢ م، في القدس تبين ان عدد اليهود لم يزد على ١١٥ شخصاً اسماؤهم في سجل الحرم الشريف صفحة ٢٠٧ سجل رقم/ ٥٥»[١٩].

اما في القرن التاسع عشر الميلادي فقد بذل اليهود المحليون بمساعدة اليهود الاوروبيين جهوداً كبيرة لتأسيس مدارس لهم وجاءت من مختلف الدول الاوروبية بعثات يهودية للقيام بعمل ما في هذا المجال. غير ان محاولاتهم تلك لم تثمر في بادىء الامر لان عدد التلامذة في المدارس الصغيرة التي انشئت لم يتجاوز الاربعة او الخمسة وفي احسن الحالات الخمسة والعشرين[٢٠].

اما في اواخر القرن التاسع عشر فقد نجح اليهود في تأسيس ثلاث مدارس هي الميتم اليهودي سنة ١٨٨١ الذي ضمت إليه سنة ١٨٨٧ مدرسة «ليمل» لقلة عدد تلامذتها. ومدرسة ايفلين روتشليد سنة ١٨٦٣، ومدرسة الاليانس اليهودية الفرنسية سنة ١٨٨٢[٢١].

وفي مطلع القرن العشرين حرص اليهود على تأسيس مدارس لهم في مدن فلسطين دون القدس وكان للجمعية الالمانية لمساعدة اليهود (Hilfsverein der Deutsehen Juden) نشاطاً ملحوظاً في هذا المجال في حيفا ويافا خاصة[٢٢]. وكان من نتائج هذا النشاط ان



القدس القديمة

اصبح لليهود في سنة ١٩١٤، اثنتا عشرة مدرسة في عموم فلسطين[٢٣].

بقي انشاء المدارس طيلة فترة الحكم العثماني نشاطاً فردياً يقوم به حاكم او وزير او سلطان او امير او رجل من رجال الثراء احتساباً لوجه الله، تماماً كما كان الامر بالنسبة لانشاء الجوامع والزوايا والتكايا والربط. وكانت تنفق الاموال على هذه المدارس من الاوقاف او الحبوس المخصصة لها جملة او لواحدة منها بوجه خاص. غير ان مدارس القدس كانت في العصر العثماني تستفيد لا من اوقافها الخاصة بها وحسب، وانما تستفيد ايضاً من الاوقاف العامة في مختلف الولايات الشامية وكان شيخ الحرم في مدينة القدس يجمع هذه الاوقاف اما بنفسه او بواسطة احد ممثليه في الولاية[٢٤].

ولم يكن يستفيد من اوقاف الولايات بهذا الشكل إلا الجوامع والمدارس والتكايا في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس[٢٥].

وكان النظام التربوي في بلاد الشام وفلسطين خلال فترة الحكم العثماني نظاماً لامركزياً، ففي كل ولاية مدارسها الخاصة بها. وكانت اهم بيوت العلم في بلاد الشام في حلب ودمشق، واهمها في فلسطين في القدس ونابلس[٢٦]. ويذكر المرادي ما يفيد بأن طالب العلم في مدينة القدس لم يكن يحتاج إلى الارتحال إلى مدينة اخرى لطلب اعلم، إذ كان فيها من المدارس والعلماء ما يغنيه عن الارتحال. وكانت القدس تضم علماء من جميع

المذاهب وانما كثر فيها علماء الحنابلة بوجه خاص خلال القرن الثامن عشر الميلادي(٢٠).

ومما يدل على المكانة المرموقة التي ظلّت مدينة القدس تتمتع بها خلال الحكم العثماني ان قاضي القدس كان من بين كبار قضاة السلطنة العثمانية المرشحين لمركز «شيخ الاسلام» في استانبول(٢٨). كما كان «نقيب الاشراف» في مدينة القدس ذا سلطة واسعة تميزه عن نقباء الاشراف في سائر المدن، إذ نراه سنة ١٧٠٦ م يطرد حاكم القدس ويحول دون ممارسته السلطة، مما اضطر تدخل الحكومة المركزية في استانبول لوضع الامور في نصابها(٢٩).

وظل الوضع التربوي في مدينة القدس على هذا النحو حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما ادخلت تعديلات اساسية على النظام التربوي العثماني نتيجة ما يعرف «بالتنظيمات». وقد ادت هذه «التنظيمات» إلى اتباع النظام التربوي الفرنسي في جميع الولايات العثمانية ابتداء من سنة ١٨٦٩ م. وقضى النظام التعليمي الجديد ان يتكوّن السلّم التعليمي من ثلاث مراحل هي المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية. وبموجب هذا النظام انشئت سنة ١٩٠٦ المدرسة الرشدية في القدس وقد سبق ذكرها اعلاه، كما انشئت مدارس مماثلةحوالي هذا التاريخ في سائر المدن الكبرى في فلسطين وبلاد الشام.

وعندما نشطت الارساليات الاجنبية في تأسيس المدارس، خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونشأت في القدس المدارس الروسية والفرنسية والانكليزية والالمانية، انشأ الالمان في القدس معهداً لاعداد المعلمين.

وقد ادى هذا النشاط التبشيري إلى شعور اهل البلاد بضرورة التصدي له بنشاط وطني مماثل يحافظ على تنشئة الاجيال الصاعدة على مبادىء الدين الاسلامي والالتزام القومي. غير ان هذا النشاط الوطني لم يلق من الدولة العثمانية اي تأييد، بل على العكس من ذلك، كانت ترى فيه مصدراً للافكار الجديدة المطالبة بالاصلاح واللامركزية مما لم تكن تقره الدولة العثمانية.

وفي سنة ١٩١٤ م عشية الحرب العالمية الاولى، كان في فلسطين كلّها ٩٥ مدرسة ابتدائية تضمّ ٧,٧٥٨ تلميذاً. وكان من اصل هذه المدارس، ١٣ مدرسة للبنات تضم ١,٤٧٠ تلميذة كما كانت في فلسطين مدرستان متوسطتان، ومدرسة ثانوية «سلطاني» واحدة، تضم جميعها /٤٧١/ تلميذاً. وتأسست اثناء الحرب العالمية الاولى الكلية الصالحية في القدس. وقد عنيت هذه المدرسة بالتوجيه الاسلامي واعداد المعلمين، وكانت تدرّس باللغتين العربية والتركية. وبالاضافة إلى هذه المدارس الحديثة بقيت الكتاتيب التقليدية والجوامع تضم العدد الاكبر من طلبة العلم في فلسطين عامة(٣٠)

هذه صورة مختصرة عن مدارس القدس في العهد العثماني أُلحق بها، ثبت باسماء العلماء المقدسيين الذين ذكرهم المحبي في خلاصة الاثر. والعهد العثماني، كما هو معروف، لم يتميز بانتشار المدارس ولا كثرة العلماء، بل يعتبره المؤرخون عامة من عصور الانحطاط، ولكن القدس، رغم ذلك بقيت محافظة على مكانتها المرموقة طيلة هذا العهد، فضمت جوامعها ومدارسها وزواياها العديد من العلماء الاجلاء الذين عرفوا في البلاد العربية والاسلامية وكان لها الاسهام الوفير في الحفاظ على التراث العربي والاسلامي في هذه المدينة، قبلة المسلمين الاولى وعاصمة أرضهم المقدسة ■

ملحق ــــــــ

علماء القدس في العهد العثماني الذين ذكرهم محمد المحبي في **خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر**(*)، اجزاء طبع بيروت (دون تاريخ).

عرفت القدس في العهد العثماني عدداً كبيراً من العلماء ذكر العديد منهم المرادى مؤرخ القرن العاشر الهجري وفيما يلي العلماء الذين ذكرهم المحبي مؤرخ القرن الحادي عشر وهم قلة من كثرة.

---

* محمد المحبي، **خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر**، ٤اجزاء، دار صادر، بيروت (دون تاريخ).

الاسم	الصفحة
في الجزء الاول	
ابو اللطف الحصكفي المقدسي	١٤٥
ابو الهدى العلمي القدسي الولي	١٥٦
احمد القدسي العلمي الفقيه	٢١٩
اسحق بن ابي اللطف المقدسي	٣٩٤
بشير الخليلي القدسي الاديب	٤٥٢
جمال الدين بن العجمي القدسي	٤٨٩
حافظ الدين السروري المقدسي	٥٠٠
في الجزء الثاني	
درويش الدجاني القدسي الشافعي	١٥٦
زكريا المصري المقدسي الحنفي	١٧٢
سليمان الداودي المقدسي الشافعي	٢١١
شرف الدين العسيلي القدسي الاديب	٢٢٥
طه الديري المقدسي الحنفي المكني بأبي الرضا	٢٦٠
عبد الباقي المقدسي المصري امام الاشرفية	٢٨٥
عبد الصمد العلمي القدسي	٤٢١
عبد الغفار القدسي الحنفي المعروف بالعجمي	٤٣٣
عبد القادر العلمي المقدسي	٤٦٧
في الجزء الثالث	
عرفة بن احمد الدجاني المقدسي	١١٠
علي بن غانم المقدسي	١٨٠
عمر بن عبد الصمد بن محمد العلمي	٢١٢
عمر بن محمد ابي اللطف المقدسي الشافعي	٢٢٠
محمد بن احمد القدسي الخريشي	٣٤٠
محمد بن احمد الدجاني	٣٥٦
محمد بن حافظ الدين بن محمد المعروف بالسروري المقدسي	٤١٤
محمد بن صالح ابو الفتح، شمس الدين الدجاني	٤٧٥
محمد بن عبد الحق بن ابي اللطف الملقب كمال الدين القدسي	٤٨٢
في الجزء الرابع	
محمد الملقب شمس الدين العلمي	٤٣
محمد العلمي المقدسي	٧٨
محمد بن خصيب المقدسي	١٥٤
محمد ابو اليسر القدسي العسيلي	٢٠٢
محمد بن مصلح الرومي نزيل القدس	٢٢٨
محمد العسيلي القدسي	٢٣٤
محمد الناصري القدسي	٢٦٤
محمد الديري القدسي	٣١٣
محمود الغتياني القدسي	٣١٨
مرعي الكرمي المقدسي الاديب	٣٥٨
مصطفى العلمي القدسي	٣٨٥
يحيى المعصراني القدسي	٤٨٢
يوسف الرضي القدسي	٥١١

مصادر البحث

- احمد شلبي: **تاريخ التربية الاسلامية**، بيروت ١٣٥٤م.
- المرادي، محمد: **خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر**، ٤ اجزاء، بيروت (دون تاريخ).
- مجير الدين المقدسي: **الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، القاهرة ١٢٨٣هـ.
- المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية: **حول بيت المقدس**، القاهرة، ١٩٦٩.
- عارف العارف: **المفصل في تاريخ القدس**، القدس ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.
- عبد الرحمن غنيمة: **تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى**، تطوان ١٩٥٣.
- الدكتور عبد الحميد زايد: **القدس الخالدة**، القاهرة ١٩٧٤.
- محمود العابدي: **قدسنا**، القاهرة ١٩٧٢.

- Gibb, H. A. R., and Bowen, H., **Islamic Society and the west** Vol. I, **Islamic Society in the Eighteenth century**, partII, Oxford 1957.

  Tibawi, ,. L., **Islamic Education**, lonlon 1972

  Ma oz, M., **Studies on Palestine During the Ottoman Period**, Jerusalem, 1915.

هوامش

(١) محمود كمال «تاريخ مدينة القدس» في كتاب **حول بيت المقدس**، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ص ٣٧ – ٣٨.

(٢) عارف العارف، **المفصّل في تاريخ القدس**، القدس ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ص٢٢٦.
(٣) راجع احمد شلبي، **تاريخ التربية الاسلامية**، بيروت ١٩٥٤، ص ١٠٤ – ١٠٥.
(٤) مجير الدين المقدسي، **الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، المجلد الثاني، القاهرة ١٢٨٣ هـ، ص٢٨٧ وما بعدها.
(٥) المرجع السابق.
(٦) عارف العارف، **مفصّل**...، ص٢٣٦-٢٥٩.
(٧) **عبد الرحمن غنيمة، تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى**، تطوان ١٩٥٣ ص ٣٧ – ٣٨.
(٨) محمود العابدي، **قدسنا**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٢، ص ١١١.
(٩) عبد الحميد زايد، **القدس الخالدة**، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٥٧.
(١٠) نذكر من الكتب الدالة على عناية المسلمين الموصولة بالقدس فضلاً عن تلك التي ذكر مؤلفوها في متن هذه الرسالة الكتب التالية:
- **فضائل القدس**، لابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.
- **الانس في فضائل القدس**، لابن هبة الله الشافعي من القرن السابع الهجري.
- **مثير الغرام بفضائل القدس والشام**، لابن سرور المقدسي المتوفي سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣م.
- **الجامع المستقصى في فضائل المسجد الاقصى**، لابن عساكر المتوفي سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م.
- **باعث النفوس إلى زيادة القدس المحروس**، لابن قاضي الصلت المتوفي سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م.
- **فضائل القدس**، لابن المعالي المشرف بن المرجي.

(١١) عارف العارف، **المفصّل**... ص ٣٠٧.
(١٢) المرجع السابق.
(١٣) المرجع السابق ص ٣٠٧ – ٣٠٨.
(١٤) عارف العارف، **تاريخ قبة الصخرة والمسجد الاقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس ١٩٥٥، ص ٣٥.**
(١٥) **د. عبد الحميد زايد، القدس الخالدة**، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٦٢.
(١٦) عارف العارف، **مفصّل**، ص ٣٠٨.
(17) Grunwald, K., Jewish Schools Under Foreign Flags in Ottoman Palestine, in **Studies on Palestine During the Ottoman Period,** Moshe Ma oz ed Jerusalem 1975, p. 165.
(١٨) المرجع السابق ص ١٦٤ – ١٧٤.
(١٩) د. عبد الحميد زايد، مذكور آنفاً، ص ٢٥٦.
(20) Grunwald, **OP. CIT., P. 160ff.**
(٢١) المرجع السابق.
(22) Landau, J. M., The Educational Impact of Western Culture on Traditional Society in Nineteenth Century Palestine. **Studies on Palestine..., of. eit.,** PP. 499-
(23) Tibawi, A.L., **Islamic Education, London** 1972, p. 105.
(٢٤) راجع المرادي، محمد خليل، **سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر، الجزء الثالث القاهرة ١٨٨٣، ص ١٦٦.**
(25) Gibb, H. A. R., and Bowen, H , **Islamic Society and the west,** Vol. I., **Islamic Society in the Eighteenth Century,** Part II, OXford, 1957, p. 174.
(٢٦) المرجع السابق ص١٥٥.
(٢٧) راجع المرادي، مذكور آنفاً، الجزء الاول ص ٨٢، و١٩١ – ١٩٢ والجزء الثالث ص ٤١ والجزء الرابع ص ٣١ – ٣٢.
(٢٨) راجع. Gibb and Bown, **op. cit.,** vol. I, Part II, p. 89.
(٢٩) المرجع السابق ص ١٠٢.
(30) Tibawi, **op. eit.,** 104

الوصف الأثري والمسح الأثري

د. نقولا زيادة



منظر عام لحفريات تل مرديخ يمثل المدخل الجنوبي الغربي ومعالمه.

كان الرحالة، على اختلاف العصور، اول من لفت النظر الى الآثار التي خلفها القدماء. فليس ثمة زائر مر بمصر ولم يكتب عن اهرامها. وهذا ابن بطوطة يزور القسطنطينية فيحدثنا عن كنائسها مثلاً. وهذه العناية كانت مقصورة على الظاهر من الآثار، اي الابنية او ما تبقى منها. وقد جاء وقت عل عدد كبير من الرحالة الاوروبيين كانت الآثارالكلاسيكية، يونانية ورومانية، موضع اهتمامهم، وخاصة اولئك الذين كانوا يعنون بالناحية الفنية من تلك الآثار، لما فيها من روعة، ولارتباطها بعصر النهضة الاوروبية وما حملته تلك النهضة من العناية بالناحية الجمالية من ابداع الاوائل.

على ان الشرق، بسبب ارتباطه بالكتاب المقدس بشكل خاص، لم يلبث ان جذب اليه السياح المعنيين بالآثار. ولما توغل هؤلاء الرحالون في نواح مختلفة من ديار الشام والعراق ومصر وتركية والسودان لفتت انظارهم اماكن وآثار لم تكن متصلة بالكتاب المقدس، ولكنها فرضت نفسها عليهم. فدونوا ما شاهدوه في تلك البقاع.

وليس من الممكن ان نتحدث في هذه العجالة عن اولئك الرحالين الذين وصفوا الآثار

جميعاً، ولكننا نود ان نضع بين يدي القراء نماذج من هؤلاء الرحالين الاوروبيين الوصافين للآثار في ديارنا.

في اواسط القرن الثامن زار سورية ولبنان، كما زار غيرهما من البلاد المجاورة، اثنان هما روبرت وود وجيمس دوكن، وكان من نتيجة هذه الزيارة ان وضع اولهما كتابين الواحد عن آثار تدمر صدر سنة ١٧٥٣، والثاني عن آثار بعلبك صدر سنة ١٧٥٧.

ونحن اذا اخذنا ايا من الكتابين وجدنا المؤلف يعرض تاريخا مقتضبا للمدينة ويصف الآثار القائمة، وهي بطبيعة الحال كانت اقل بكثير مما نشاهده اليوم لان اكثر هذه الآثار كانت يومها مدفونة تحت الرمال. ولكن بالاضافة الى الوصف نجد ان روبرت وود قد رسم تلك الاطلال وقاس ابعاد اجزائها مستعينا على ذلك بادوات كانت تعتبر يومها دقيقة.

ومثل ذلك يقال عن الرحالة بركارت الذي زار جرش سنة ١٨١٠ ووصفها ورسم كثيرا من الموجود فيها. وقد كان الناس في جهات الاردن يتحدثون عن آثار وادي موسى. فلما زارها بركارت اعتبرها هي البتراء النبطية، فوصفها بشكل خاص، ولكنه تجنب قياس الاماكن فيها حتى لا يشك به انه يفتش عن كنوز.

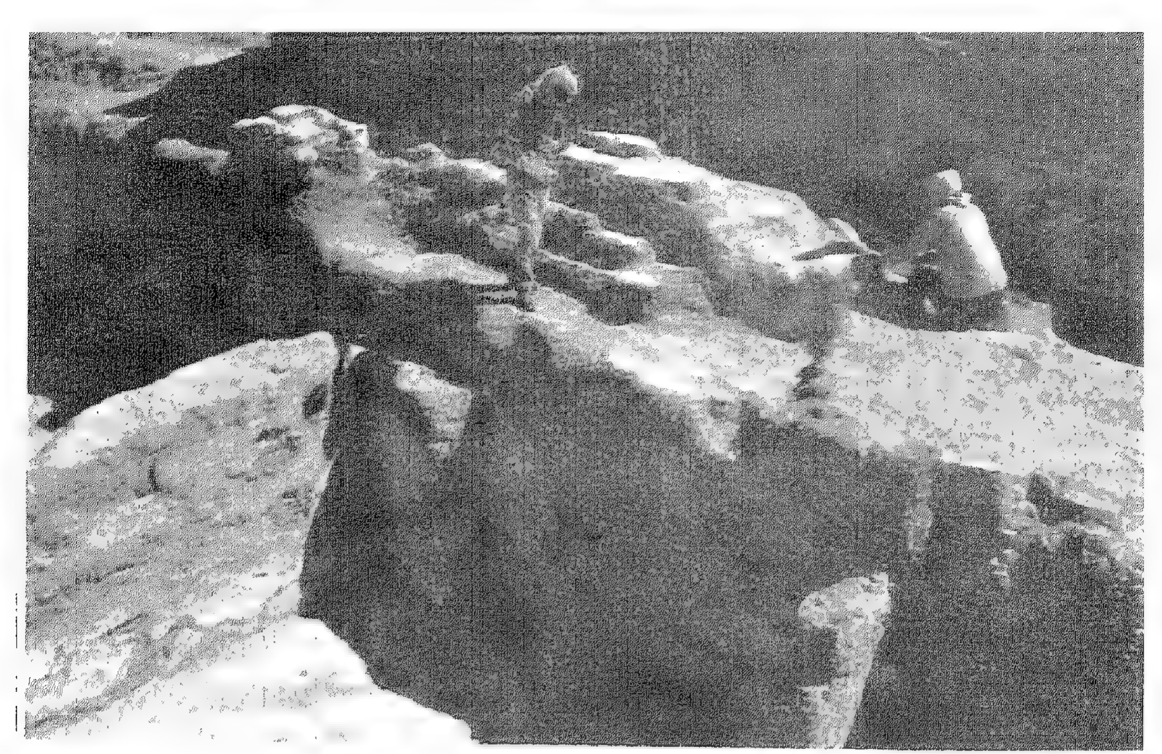
ولكن هناك نوع آخر من الرحالين الاوروبيين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر والذين انتبهوا، في شمال اوروبة خاصة، الى انتشار قطع من الصوان يبدو ان اليد صقلتها بشكل او بآخر، وذلك بقصد استعمالها للقطع او للكسر. واهتم هؤلاء بوصفها ايضا. وكانت هذه هي المادة الاولى لما عرف فيما بعد بالعصر الحجري من عصور ما قبل التاريخ.

واذا كان هؤلاء الرحالون، الذين يعدون بالمئات، هم الذين وصفوا لنا الآثار الظاهرة بدقة، فان هناك جماعة، اكثرها من اهل القرن التاسع عشر، قامت بمسح اثري لبلاد معينة او مناطق خاصة منها.

في سنة ١٧٩٨ وصل نابليون الى مصر فاتحا لها. وكان في جملة الرجال الذين جاء بهم الى مصر مجموعة من العلماء المختصين في كل ناحية من نواحي المعرفة. وعلى يد هؤلاء انشىء المعهد العلمي الذي استمر في العمل ونشر بين سنتي (١٧٩٩ و ١٨١٣) كتاب وصف مصر. والذي يهمنا من هذا الكتاب هو ما القاه من الضوء على الآثار المصرية. فهناك وصف للآثار الظاهرة من الهياكل والاهرام والقبور الملكية والابنية، وحتى التلال التي قد تخفي تحتها شيئا ما. وقد رافق هذا المسح الاثري، في مصر كما في غيرها من الاقطار الشرقية، جمع التحف الاثرية الصغيرة مما يمكن نقله الى متاحف الغرب.

وفي سنة ١٨٢٨ تم مسح اثري ثان لمصر. قام به روزيليني بمساعدة شمبليون نفسه. وفي هذه المرة ادخلت المناطق الجنوبية من مصر الى الشلال الاول عند اسوان في اطار المناطق الممسوحة. وفي سنة ١٨٤٠ قام لبسيوس بمسح لآثار النوبة الى الخرطوم. وهكذا فانه لم يكد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كانت المواقع الاثرية الهامة والآثار الرئيسية موضحة على خرط دقيقة، كانت بانتظار الرفش والمعول.

وكانت فلسطين ولبنان وسورية ايضا من المناطق التي افادت من الحماسة التي انتشرت في سبيل القيام بالمسح الاثري. فقد انتقلت العدوى من اوروبة ومن مصر اليها. وكانت رحلات بركارت في اوائل القرن التاسع عشر قد لفتت الانظار الى البتراء وغيرها، فجاء ادوارد روبنسون وقضى في فلسطين اربعة عشر عاما، ونشر سنة ١٨٥٢ كتابه المسمى «دراسات توراتية في فلسطين». وكان كتاب رينان عن المسح الاثري للبنان. وهو نتيجة دراسة اثرية شاملة لفينيقية قد نشر سنة ١٨٦٠ كل ذلك هيأ الجو لاعمال مسح اثرية شاملة. وفي سنة ١٨٦٥ انشئت في لندن جمعية الكشف الاثري في فلسطين. وبعد قيامها بخمس سنوات بدات بالعمل في البلاد نفسها.. وكان العمل اصلا مسح البلاد مسحا اثريا شاملا بحيث يمكن وضع الاسس الرئيسية للتنقيب عندما يحين الوقت. وكان بين الذين عملوا في هذا المجال في فلسطين كوندر ودراك وضابط شاب هو الذي اصبح فيما بعد لورد كتشنر. ونتج عن هذا العمل كتاب «مسح فلسطين» الذي عين كل



تل مرديخ: المخزن الذي وجدت في داخله ١٥,٠٠٠ لوحة من ارشيف دولة ابلا والذي اكتشف عام ١٩٧٥

مكان يمكن ان يعثر فيه على آثار، بقدر ما وصل الى ذلك علم القائمين على المشروع.

بدأ مسح فلسطين سنة ١٨٧١ وكان القائمون على الامر مدربين على العمل الطوبوغرافي واصحاب معرفة بالجيولوجية والتاريخ. ولذلك فان عملهم كان، بقدر ما يمكن لما وضع في ذلك الوقت ان يكون، تاما تقريبا، ولا شك ان التجارب التي كانت قد تمت في اماكن اخرى، افادت القائمين على العمل. فقد اتبع العاملون في الحقل طرق المسح الصحيحة مع مقابلة بين مسحين هنا وهناك لضبط المواقع. واهتموا بتدوين الملاحظات المتعلقة بالسطح والمرتفعات والنباتات والحيوانات والحرارة. وسجلوا اسماء جميع الامكنة التي مرت معهم. والكتاب الذي اشرنا اليه قبلا، اي «مسح فلسطين» يحتوي في اجزائه الثلاثة على تسعة الاف اسم. وهذه الاسماء اخذها المساحون من اهل البلاد وقابلوها، عن طريق آخرين على ما رواه الجغرافيون والرحالة العرب وغيرهم للتثبت من صحتها. كما ان الجماعة رسموا الخرط اللازمة للبلاد والمدن وصورا لبعض الاماكن الهامة.

والذي يهمنا، في هذه المناسبة، هو ان قلة من الاماكن الاثرية في فلسطين فاتت هؤلاء. وحَريّ بالذكر ان هؤلاء المساحين خصوا اماكن معينة بتفصيل خاص. فالقدس لها خرط خاصة، كما انهم اهتموا بالأماكن التالية وهي عتليت وقيسارية وأرصوف وبيسان وكوكب الهوا ونابلس وعسقلان وغزة وتل جازر او خربة ابو شوشة وبيت جبرين. ومن الأماكن التي اهتم بها خارج فلسطين صور في لبنان وقلعة الشوبك في الاردن.

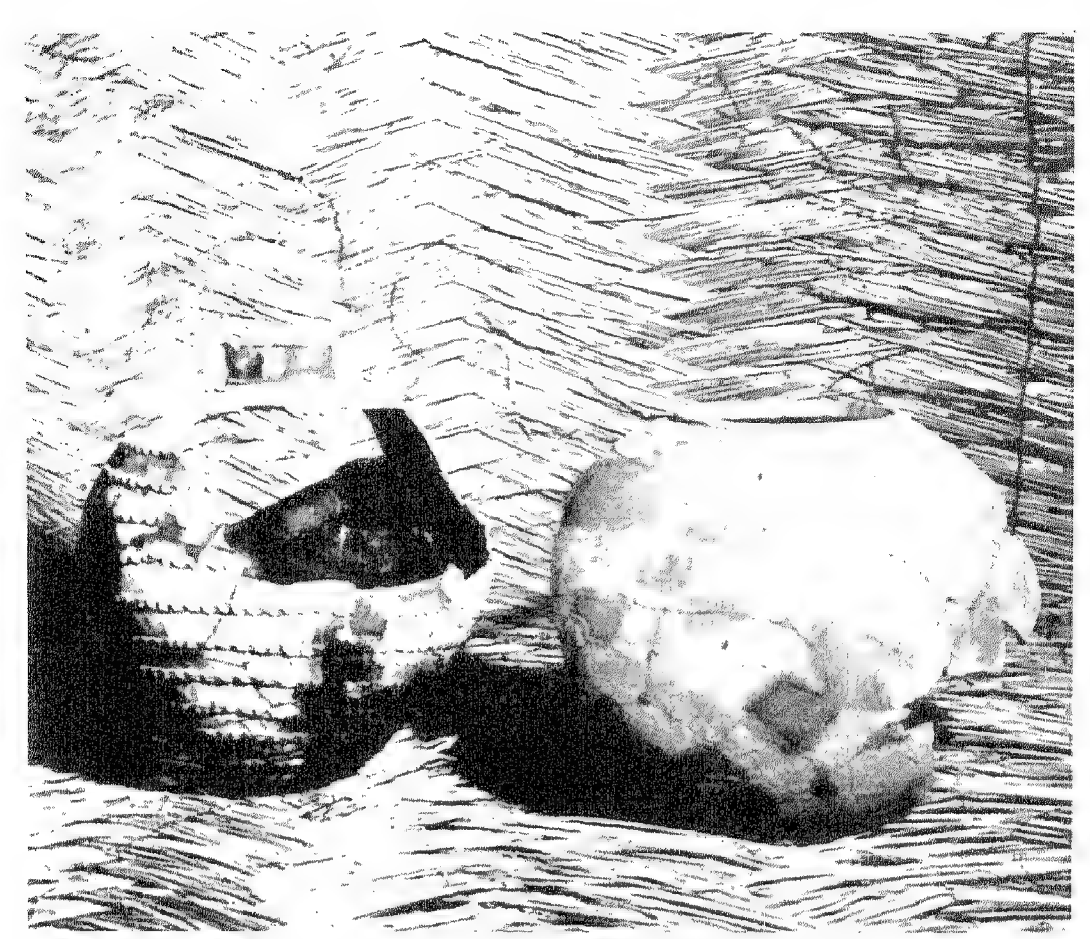
ولم يكن للعراق حظ الحصول على نوع من المسح الاثري العام قبل البدء بالحفر والتنقيب، ولكن لا بد من ذكر ما قام به لوفتوس وتشرشل سنة ١٨٤٩ من وصف جنوب العراق وصفا شمل قسما كبيرا من التلال الصناعية القائمة فيه، والتي ثبت فيما بعد انها كلها كانت بقايا مدن قديمة.

علم الآثار: المحتوى و الأسلوب

يعنى علماء الآثار اليوم بدراسة ما خلفه الانسان على سطح هذه الارض منذ ان بدأ حياته عليها. وهناك مجالات مختلفة يعنى بها الباحثون. فعلم الآثار الكلاسيكية يعنى اصلا بما خلفه اليونان والرومان من أبنية على اختلاف أنواعها وأشكالها وتخطيطها وزخرفها. وعلم الآثار الاسلامية مثلا يتناول ما خلفته الحضارة العربية الاسلامية من آثار البناء والمعمار والفنون الصغرى الزخرفية والصناعية. وهناك من علماء الآثار من يقتصر في دراسته على ما شاده الفراعنة القدماء عبر الزمان. ولكن بالاضافة الى هذا كله فعلم الآثار يشمل مخلفات الانسان قبل ان كتب هذا الانسان تاريخه اي قبل التاريخ المدون، سواء كانت

أحجار ضخمة تعود الى زمن الكنعانيين ١٥٠٠ ق.م.





آنيتان فخاريتان من المدنية الاولى وجدت في قلعة البحرين ٢٥٠٠ ق.م.

المدونات نقوشا او آجرات او اوراق البردي. ذلك بأن الانسان بدأ حياته على الارض قبل الاف السنين. وقبل ان ينصرف الى البناء والكتابة مرت عليه ادوار كان فيها يعيش على جمع النباتات وصيد الحيوانات ثم انتقل إلى تدجين الحيوان واختراع الدولاب واكتشاف النار. هذه الفترة الطويلة من حياة الانسان كان يستعمل فيها الحجر اولا للقطع والكسر وخياطة الجلود وكشطها. ثم جاءه وقت عرف فيه مزج النحاس بالقصدير ليحصل من ذلك على البرونز او الشبه واخيرا اكتشف الحديد. وفترة استعمال الحجر طويلة. واذا نحن اخذنا بعين الاعتبار تطور الوسيلة التي صقل بها الانسان الصوان وهيأه للاستعمال وجدنا ان العصر الحجري بالذات يقسم إلى القديم والمتوسط والحديث. وليس هنا مجال تفصيل الفروق بين الادوات او الآلات، إذا جاز التعبير، التي صنعها الانسان في هذه الازمنة الحجرية الثلاثة. ولذلك نكتفي بالقول بأن الفرق الاساسي هو فرق في طريقة صنع هذه الادوات وتنوعها وتنويعها.

فعلم الآثار اذن يتناول هذه الآثار المادية التي بقيت بعد ان زال صانعوها ومستعملوها، فيعمد العلماء الى نبشها من مظانها، ليدرسوها ويصنفوها ويفسروا ارتباطها بالحياة في فترة من فترات ازمنة ما قبل التاريخ. واذن فالعالم الاثري هو الذي يوجه همه الى الاشياء الموجودة ليحاول ان يفهم ما صنعه الانسان وكيف صنعه وكيف استعمله، وليسبر غور الحياة اليومية لهذا الانسان القديم جدا.

وعلم الآثار حديث العهد، ويمكن القول ان عناية الباحثين بهذه المخلفات البشرية ترجع

اصلا الى الفترة الممتدة من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٧٠. ولعل السبب الاصلي الذي حفز الباحثين على الاهتمام بهذه الآثار القديمة هو تطور علم الجيولوجية اي طبقات الارض وظهور نظرية التطور. ذلك ان الدراسات الجيولوجية ادت الى اكتشاف بقايا بشرية متحجرة في طبقات قديمة من الارض في كنت بانكلترا وفي نيندرتال بالمانية. وكان المعنى الأول لذلك هو ان الانسان قديم على سطح البسيطة، اي ان وجوده لم يكن يتفق مع نظرية اشر القائل بأن الانسان وجد على سطح البسيطة سنة ٤٠٠٤ ق. م. كما ان ظهور كتاب داروين سنة ١٨٥٧، الذي يقوم على اساس ان الحياة البشرية قديمة متطورة، حمل الباحثين على التنقيب عن آثار هذا الانسان للتمعن في نوع الحياة التي كان يحياها، والاسلوب الذي كان يحصل فيه على طعامه، والمكان الذي كان يأوي اليه، والاله الذي كان يعبده. ولم يلبث الباحثون ان عثروا حتى على آثار فنية ترجع الى نحو اربعة عشر الفاً من السنين في شمال اسبانية في كهف التميرا.

ومن هنا كثر الاهتمام بالرفش والمعول وسيلتين لازالة الأتربة التي كانت تغطي الادوات والمساكن والكهوف.

وقد كانت اعمال الحفر والتنقيب الاولى تسير على غير نظام معين. ونحن اذا اخذنا العالم الفرنسي مارييت الذي بدأ عمله في مصر سنة ١٨٥٠ والذي استمر في التنقيب نحو ثلاثين سنة، حفر أثناءها في نحو ثلاثين موضعاً فقد كانت عنايته موجهة اصلا الى البراق من الموجودات. فلم تكن ثمة خطة معينة، ولم يكن هناك نظام يتبع. وكان يجمع ما يعثر عليه دون تقييد وترتيب. ومع ذلك فقد كان الرجل رائدا في الميدان. ويكيفيه انه حال دون نهب الآثار ونقلها الى الخارج في الفترة التي كان فيها مديرا لمصلحة الآثار المصرية.

ومثل هذا يمكن ان يقال عن اعمال الحفر الاولى التي تمت في ارض الرافدين بين سنتي ١٨٤٣ و ١٨٧٧. فقد كان في العمل سباق ومنافسة بين منقبين فرنسيين وانكليز. ومع ذلك فقد توصل هؤلاء المنقبون الرواد الاوائل الى التعرف الى نينوى وارك القديمة وهي تل ورقة اليوم ولارسا وهي سنكرا الحالية وأور الكلدانيين في تل المقير واريدو المسماة حاليا تل ابو شهرين. وكل هذه مدن قديمة اخرجت كنوزها فاوضحت لنا شيئا عن حياة المدن الاولى واتساع تجارتها وانماط بنائها الرسمي والديني والشعبي.

على ان علم الآثار في القرن العشرين تقدم كثيرا في اتجاهين. الاول ان المنقبين الان، على اختلاف نزعاتهم، اكثر تعاونا، ومن ثم فالتخطيط العام للقيام باعمال الحفر ممكن. والثاني ان الوسائل التي يلجأ اليها علماء الآثار تطورت كثيرا ولعل هذه تحتاج الى شيء من التوضيح.

واول ما يجب ان يذكر هو ان العالم الأثري الآن يهتم بعلم طبقات الارض والدراسات المناخية والنباتية والحيوانية وعلم الطبيعة والكيمياء. ذلك انه يحتاج الى هذه كلها للتعرف الى الطبقة المعينة من التربة التي يعثر فيها على آثار الانسان العادية والى نوع النباتات او العظام التي قد تعترض تنقيبه والمناخ الذي سيطر على جماعة معينة في وقت ما.

وقد كان العالم الأثري في حيرة من امر الزمن الذي تعود اليه موجوداته المستخرجة من التراب المتراكم. فكان يلجأ الى المقارنات. ولكن امرين ساعداه على ضبط الامور بعض الشيء. اولهما التقدم الذي اصاب علم الجيولوجيا او طبقات الارض من حيث ثخن الطبقات الصخرية والترابية وتتابعها وارتباط هذين بعمر هذه الطبقات. ومن ثم فقد اصبح بامكان العالم الأثري ان يستعين بهذه الامور ليقرر، من ترسبات التربة وطبقاتها، عمر ما عثر عليه من آثار الانسان - ادوات والات وآنية ومساكن وما الى ذلك. والامر الثاني هو اهتمام العلماء الأثريين بالفخار. ذلك ان الكثير من مخلفات الانسان يتعرض للفناء، كالخشب والجلد او للذوبان مثل اللبن وقد يصدأ الحديد ويضيع شكله الاصلي. لكن الفخار لا يفنى. قد يتكسر ويتهشم وينتثر، ولكنه لا يذوب ولا يفنى ولا يضيع شكله. فاذا عثر البحاثة على قطع فخارية، فقد يمكنه ان يجمع المتكسر منها الى

تمثال صغير وجد في مستوطنة دلمون



الصور من كتاب

B. C. The Archaeology Of The Bible Land Magnus Magnusson

بعضها البعض، ويخرج من ذلك بوعاء او قدر. واذا كان هذا الفخار مزخرفا امكن للزخرفة ان تساعد في تعيين عمر الفخار. ومن ثم زمن الجماعة التي استعملته. والفضل في وضع الفخار في هذه المنزلة يرجع الى السير فلندرز بتري الذي صرف ستة عقود او يزيد في التنقيب الأثري في مصر وفلسطين.

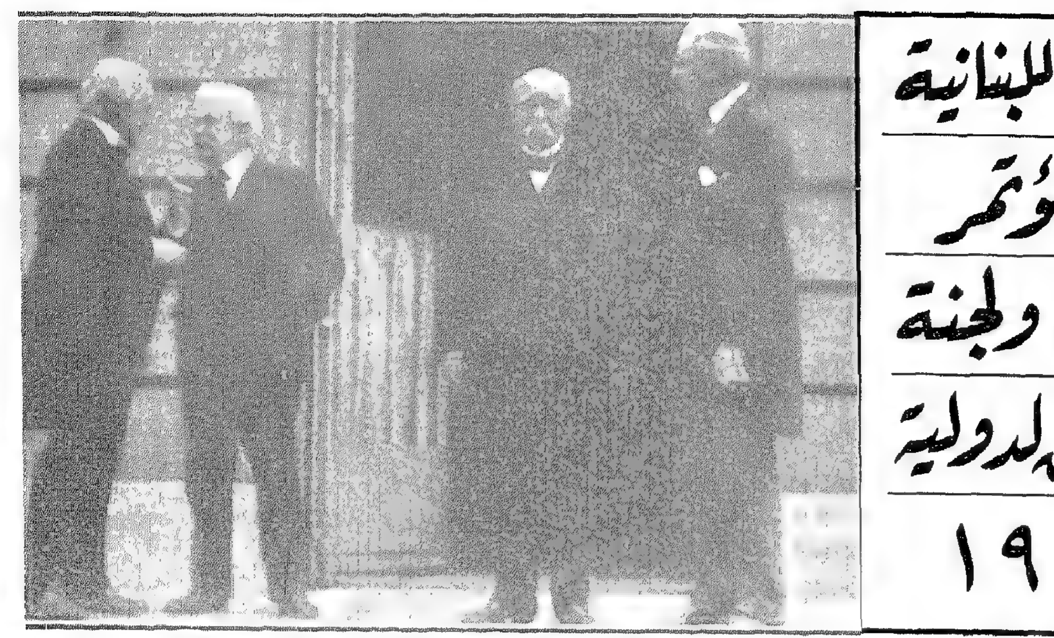
على ان اهم وسيلة علمية للتأكد من عمر المواد العضوية، مثل العظام والفحم العادي، هي التي توصل اليها ويلارد ف. ليبي، وهو اول من نال جائزة نوبل في الآثار. فقد توصل الى الكشف عن حقيقة علمية هامة وهي انه عندما يموت جسم عضوي، فان ما يحتويه الجسم من «كربون ١٢» يظل ثابتا، أما ما يحتوي عليه من «كربون ١٤» يتحلل تدريجا وعلى اساس ثابت. ومن ثم فان مدى انحلال «كربون ١٤» يعين المدة التي مرت على الجسم العضوي منذ ان فقد الحياة.

هذه الحقيقة اتخذت مقياسا لا يطاله الخطأ لتحديد الزمن في هذه الحالات. هذه هي التجربة المعروفة باسم تجربة «كربون ١٤».

فنحن اذا القينا نظرة على تطور البحث الأثري والتنقيب الأثري وترتيب ما يعثر عليه وتنظيمه وتصنيفه وتعيين مداه خلال مئة وخمسين من السنين، وجدنا ان ما كان مغامرات بالرفش والمعول لجمع الطريف من العاديات ونقلها خارج بلادها الاصلية، اصبح الآن علما مادته ما خلفه الانسان. وغايته درس ما صنع الانسان وكيف صنع ذلك وكيف افاد منه، ووسائله وسائل علمية متفق على اكثر قواعدها. ■

حسان حلاق

الأزمة اللبنانية بين مؤتمر فرساي ولجنة التحقيق الدولية ١٩١٩



الاربعة الكبار من اليمين: ويلسون، كليمنصو، اورلندو ولويد جورج.

مؤتمر فرساي ١٩١٩:

عقد مؤتمر الصلح في فرساي قرب باريس في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ لبحث نتائج الحرب العالمية الاولى، وقد حضر المؤتمر عن الولايات المتحدة الاميركية الرئيس «ويلسون» (W. Wilson) ورئيس الوزراء البريطاني «لويد جورج» (L. George) ورئيس الوزراء الفرنسي «جورج كليمنصو» (G. Clemenceau) كما حضره ممثلون عن اليابان وايطاليا.

وفي هذه الفترة كان اللبنانيون في حالة غليان شديد تبعا لمواقفهم المتباينة من مستقبل لبنان. ومن هنا بدأ الصراع الشديد بين اللبنانيين في الميدانين الداخلي والخارجي. ولما كانت فرنسا تريد احكام قبضتها على لبنان فقد قامت بتشجيع مجلس ادارة جبل لبنان للسفر الى باريس لتقديم مطالبه الهادفة الى استقلال لبنان تحت الحماية الفرنسية. وأوعزت السلطة



اميل اده

الفرنسية في لبنان في الاول من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ الى مجلس الادارة لاستصدار مضبطة فُوّض بموجبها داوود عمون ليكون رئيسا لوفد مجلس الادارة الذي تألف ايضا من: اميل اده، نجيب عبد الملك، وعبد الحليم الحجار. ويذكر بشارة الخوري من ان حبيب باشا السعد ايد على الفور سفر الوفد لا لشيء الا «أملا بان يصفو له الجو بغياب مارونيين بارزين كان يبني آمالا كبارا على تنافسهما. ولم تلبث الاخبار ان جاءت من باريس تنقل تفاصيل اختلافهما، فكل من عمون واده حديدي الطبع عصبي المزاج ينزع الى الاستئثار ويطمع باحتلال المركز الاول في لبنان، فابتسم حبيب باشا في سره ورأى امله يتحقق».

هذا وقد استقبل مؤتمر فرساي وفد ادارة جبل لبنان برئاسة داوود عمون وقدم مطالبه وهي المطالب نفسها التي سبق ان أصدرها مجلس الادارة وهي:

١ - توسيع نطاق جبل لبنان الى ما كان معروفا به من التخوم تاريخيا وجغرافيا.

٢ - تأييد استقلال لبنان بادارة شؤونه الادارية والقضائية بواسطة رجال من اهله.

٣ - انشاء مجلس نيابي يؤلف على مبدأ التمثيل النسبي حفظا لحقوق الاقلية، وينتخب من الشعب.

٤ - طلب مساعدة فرنسا لتحقيق ذلك، ومعاونتها الادارة المحلية في تسهيل نشر العلوم والمعارف.

ويلاحظ من دراسة هذه المطالب بعض الاتجاهات السياسية لفئة من اللبنانيين يمكن تلخيصها على النحو التالي:

١ - اتجاه سياسي انفصالي عن سوريا ورفض الوحدة السورية.

٢ - الاصرار على توسيع رقعة جبل لبنان بضم الاجزاء اللبنانية الساحلية والداخلية اليه وليس العكس.

٣ - ان الاصرار على الحماية والمساعدة الفرنسية امر يناقض الاستقلال.

٤ - اعتبر الوفد ان الحماية الفرنسية تساعد لبنان على الاستقلال عن سوريا وضمانة لمنع الامير فيصل من ضمه ضمن اطار الوحدة السورية.

والامر الملاحظ ان سكان الساحل والداخل لم يرسلوا وفدا خاصا الى مؤتمر فرساي على غرار وفد مجلس الادارة، بل اعتبروا انفسهم انهم جزء من سوريا الكبرى وان فيصلا هو ممثلهم الى مؤتمر الصلح. وبالفعل فقد وصل الامير فيصل الى بيروت قادما من دمشق بصحبة «لورنس» ويقول امين الريحاني في هذا الصدد «فدخلها مثلما دخل دمشق زعيما محبوبا، وكان له فيها استقبال الدمشقيين رونقا وبهاء». وبعد ان مكث في بيروت ثلاثة ايام أبحر منها في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. ولما وصل الى باريس واجهته هناك ثلاثة مؤتمرات كبرى تتمثل بمصلحة بريطانيا في العراق وفلسطين، ومصلحة فرنسا في سوريا، والمصلحة الصهيونية القومية في فلسطين، على حد قول جورج انطونيوس.

وفي الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ قدم الامير فيصل مذكرة الى مؤتمر الصلح اشار فيها الى مطالب العرب الاستقلالية ورفضهم للسيطرة الاجنبية، وان اللغة العربية تجمع بين العرب في البلاد الواقعة ضمن خط يمتد من الاسكندرونة الى ايران وجنوبا الى المحيط الهندي «وان هدف الحركة القومية العربية... هو توحيد العرب في امة واحدة.. ونحن نؤمن ان سوريا... تستطيع ان تدير شؤونها الداخلية بنفسها، كما اننا نشعر ان اية مشورة تقنية اجنبية تقدم الينا تشكل عنصرا



الامير فيصل بن الشريف حسين

ذا قيمة عظيمة للتنمية الوطنية. نحن على استعداد ان ندفع ثمن هذه المشورة نقداً، اذ انه لا يمكننا ان نضحي في سبيلها شيئاً من الحرية التي ظفرنا بها نحن انفسنا بقوة السلاح...».

والجدير بالذكر ان رؤساء المؤتمر لا سيما رئيس الوزراء الفرنسي لم يتجاوب مع هذه المذكرة لما فيها من تناقض مع اطماع فرنسا في البلاد السورية ولما فيها من تناقض مع مذكرة مجلس ادارة جبل لبنان. غير ان بريطانيا كان يهمها جدا تقليص النفوذ الفرنسي في المنطقة حتى تتفرد بها لوحدها. ومن اجل ذلك ظهرت الخلافات بين رؤساء المؤتمر حول العديد من المشكلات المطروحة لا سيما المشكلة اللبنانية التي اظهرت انقسام اللبنانيين ساحلا وجبلا ما بين مؤيد للوحدة السورية وما بين رافض لها. ولذلك صرح «كليمنصو» انه لا بد من ايجاد تفاهم بين الدول الكبرى حول المشكلات المطروحة على المؤتمر، غير ان الرئيس «ويلسون» انتقده لان فرنسا تحافظ على سياستها التقليدية القديمة الهادفة الى استمرار التوسع والاستعمار.

والحقيقة ان مصالح بريطانيا وفرنسا في المناطق العربية كانت من الاسباب التي اعاقت مهمة الامير فيصل، فقد استاء كليمنصو من ازدواجية مواقف الحكومة البريطانية التي اظهرت حينا تأييدها للطموحات الفرنسية في الشرق وتأييدها حينا آخر لمطالب الامير فيصل، الامر الذي دعا كليمنصو لرفض مقابلة فيصل في البدء. وكانت فرنسا تعتبر ايضا ان مجيء فيصل الى باريس واشتراكه في المؤتمر ليس هو الا مناورة بريطانية هدفها تقليص النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان. ومما يجب ذكره في هذا المجال ان فرنسا استطاعت ان تستغل مذكرة مجلس ادارة جبل لبنان وتجعلها «ورقة رابحة» كي تواجه بها الامير فيصل ومطالبه، وبذلك يمكن القول ان هذه المذكرة شكلت عائقا في وجه الامير.

رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو



ومن الاهمية بمكان القول انه نتيجة للمساومات السياسية الدولية والمحلية فقد امكن ترتيب لقاء ومباحثات جانبية بين فيصل وكليمنصو ادت الى اتفاق بينهما، وبمقتضى هذا الاتفاق فان فرنسا تعترف بوحدة الاراضي السورية وان يتحد السوريون «ليحكموا انفسهم بانفسهم بصفتهم امة مستقلة»، ومقابل ذلك فقد اعترف الامير فيصل بحاجة السوريين الى معاونة ومشاورة فرنسا لتنظيم جميع الادارات الملكية والسورية، وان تمثل فرنسا ايضا البلاد السورية في الخارج، بالاضافة الى اعتراف فيصل باستقلال لبنان تحت الوصاية الفرنسية وبالحدود التي سيعلنها له مؤتمر السلم.

ويذكر المؤرخ محمد جميل بيهم في هذا الصدد بان وفد مجلس الادارة كان يلاقي حفاوة كبرى في باريس لان مطالبه تعبر عن رأي فرنسا، ولكن ما ان تم اتفاق فيصل - كليمنصو حتى بادر المسؤولون الفرنسيون الى اقناع اعضاء الوفد بوجوب الانضمام الى دمشق والقبول بالامر الواقع «فشعروا بخيبة الامل، عادوا يحملون النقمة على هؤلاء المسؤولين في عاصمة الام الحنون» غير ان أمين الريحاني ذكر بان داوود عمون صرح في باريس بان بين لبنان وسوريا علاقات تجارية وصلات متينة تستوجب الا يفصل الشقيق عن شقيقه «فاجتمعت كلمتنا - كلمة الوفد - على وجوب انضمام الاثنين تحت لواء مراقبة واحدة». واضاف بانه ازاء ذلك ظهرت احتجاجات المسيحيين في لبنان على تصريحات القائد الفرنسي «بيشون» (Pichon) حول هذا الموضوع ظنا منهم ان فرنسا باتت تفضل المسلمين عليهم، وقد تضحي بهم في سبيل السياسة والمصلحة.

وفي الوقت الذي ذكر بيهم والريحاني - وهما معاصران للاحداث - هذه الظروف حول اتفاق فيصل - كليمنصو، نرى ان الشيخ بشارة الخوري - وهو معاصر للاحداث ايضا - ذكر ان الفرنسيين عندما قابلوا فيصل اخذتهم الحيرة ووقعوا بين نارين: مجاملة الامير من جهة، وابقاء لبنان خارج نطاق نفوذ الامير من جهة ثانية. ولهذا راحوا يراعون شعور



الشيخ بشارة الخوري.

بعض اللبنانيين تحسبا للغد فيما اذا سيطروا على سوريا ولبنان. واضاف بشارة الخوري قائلا «وكانت نتيجة تلك الحيرة ان الحكام الفرنسيين اعدوا للامير فيصل عند عودته من فرنسا ومروره في بيروت استقبالا رسميا عزّ نظيره. واوعزوا الى اللبنانيين [يقصد المسيحيين] من طرف خفي بان يظهروا تمسكهم باستقلالهم فتنادي قسم كبير منهم الى تظاهرة حماسية في بعبدا نادت باستقلال لبنان في ربيع سنة ١٩١٩» وأكد بشارة الخوري معارضته للوحدة العربية السورية منذ تلك الفترة المبكرة من تاريخه السياسي، فقد اكد اشتراكه في تلك التظاهرة مع ميشال زكور وسواه من المتظاهرين الرافضين اشتراك لبنان في وحدة مع سوريا، وقد قرأ بشارة الخوري يومذاك قصيدة يوسف السودا ومطلعها:

ابناء لبنان الكرام
وحسبكم هذا اللقب

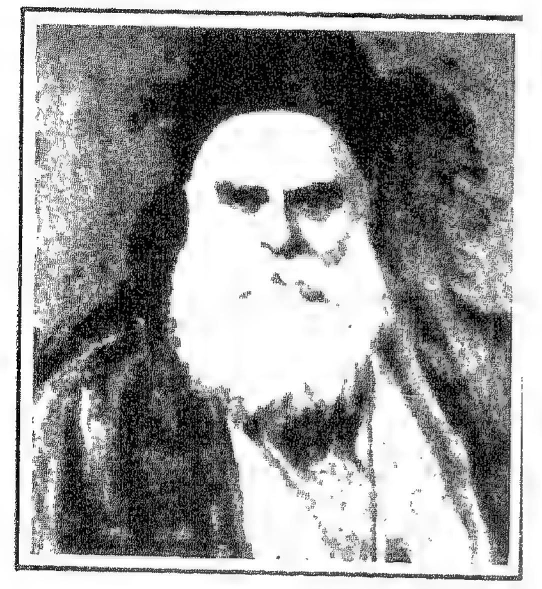
والجدير بالذكر ان سبب فشل فيصل في تحقيق ما تم الاتفاق عليه ليس كما اورده بشارة الخوري، وهي عدم اقتناع الفرنسيين بذاك الاتفاق ومحاولتهم مجاملته، اذ ان فرنسا لم يكن يهمها هوية الاشخاص بقدر ما كان يهمها تكريس وجودها في المنطقة. اما اذا تمت الوحدة السورية تحت قيادة فيصل فان ذلك لم يكن يضيرها طالما انه اعترف مقابل ذلك بالوجود الفرنسي في سوريا ولبنان، وكأنه اصبح عربيا

بتاج فرنسي. والحقيقة ان سبب الاستقبالات التي جرت في بيروت في ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩١٩ للامير فيصل هي الاسباب نفسها التي دعتهم لاستقباله يوم جاء من دمشق الى بيروت للسفر منها الى باريس، وهي ان الوحدويين كانوا لا يزالون يثقون به كرائد للاستقلال التام وللوحدة السورية الشاملة، وكان هؤلاء غير مطلعين بعد على مضمون اتفاق فيصل – كليمنصو، وما ان حل بدمشق وانتشر مضمون ذلك الاتفاق حتى تأكد فشله، لانه قوبل بمعارضة شديدة من السوريين واللبنانيين والوحدويين، وبسبب الضغط الذي تعرض له من قبل الاوساط التي يسميها زين زين بانها متطرفة. وكاد السوريون ان يثوروا على الامير فيصل بسبب ذلك الاتفاق حتى اضطروه الى التراجع عنه، بل اضطروه الى تاليف العصابات وامدادها بالمال والاسلحة للتحرش بالفرنسيين وازعاجهم فانقطع الامل بابقائه على عرش سوريا على حد قول خالد العظم.

هذا وكان صدى اتفاق فيصل – كليمنصو بين اللبنانيين مؤلما ايضا كل حسب ميوله واتجاهه السياسي، كما انبرت الجمعيات اللبنانية في مصر وامريكا الى تقديم الاحتجاج عليه لمؤتمر الصلح. ولما حاول ممثل الحكومة الفرنسية في بيروت حمل البطريرك الماروني الحويك على التسليم بالحاق لبنان بحكومة دمشق العربية وشدد عليه اجابه البطريرك: «ان الموت في ظل صخورنا خير لنا من الانضمام الى دمشق».

والحقيقة ان تراجع فيصل عن اتفاقه مع كليمنصو جعله يستعيد شعبيته بين الاوساط السورية المسيحية والاسلامية وبين الاوساط الوحدوية اللبنانية، وان كان قد خسر ثقة وتأييد فرنسا. وكان الامير فيصل قد القى خطابا في بهو دار الحكومة في دمشق في ٥ ايار (مايو) ١٩١٩ عرض فيه الحالة الراهنة. وبعد القاء الخطاب بدأت المناقشة بين فيصل والوفود السورية، ولوحظ ان الجميع ايدوا نشاط ومواقف فيصل، بل ان البعض تطرق عاطفيا في هذا التأييد. ومما قاله بطريرك الروم الكاثوليك لفيصل: «كما تأمرون سموكم فمروا بما تشاؤون» اما بطريرك الروم الارثوذكس فقال: «بيننا وبين سموكم اتفاق في هذه القاعة على شرائط معدودة، لا تبرح ذاكرتكم الشفافة، فنحن عليه راسخون». اما مطران السريان الكاثوليك ومطران الروم الكاثوليك فقد ايدا ما جاء على لسان بطريرك الروم الارثوذكس، غير ان مطران طائفة السريان القديم كان اشد تأييدا لفيصل قال: «اقول بلسان السريان في سوريا انها طوع امرك. تبايعك بقلوبها وتعتمد عليك».

اما طلاب الوحدة فقد ايدوا مجددا الامير فيصل، فقال له سعيد باشا سلمان – موفد



البطريرك الياس الحويك

بعلبك – «عموم اهل قضاء بعلبك تحت امرك، مئات والوف رهن اشارتك» بينما قال ابراهيم الخطيب – موفد الشوف – «فوضناك ان تكون سلطانا. جبل لبنان جزء متمم لسورية لا ينفك عنها» اما رضا الصلح – موفد بيروت – فقد قال مخاطبا الامير فيصل «ان الامة العربية تعتمد عليك» بينما نجله رياض الصلح – موفد صيدا – فقد قال: «ان آمال الامة معلقة على سموك وهي تفديك بارواحها ودمائها. وانني اتطوع منذ الآن بصفة جندي بسيط» اما الامير اسعد الايوبي فقد تحدث عن مس

لبنان بشكل عام وقال: «نفوض سموكم التفويض التام للاستقلال التام» وعن دروز لبنان قال مصطفى العماد: «نوكلك وكالة مطلقة فكل ما تراه حسن فهو حسن».

والامر الملاحظ ان مثل هذه المبايعة للامير فيصل وان كانت تعبر عن تأييد الزعامات السورية واللبنانية له، غير انها كانت مبايعة عاطفية وتتسم بروح المدح والمجاملة اكثر مما تتسم بروح الجد والعمل.

ومما يجب ذكره ايضا ان الامير فيصل كان واعيا للمسألة اللبنانية وعيا تاما انه عندما جاءه وفد لبناني لتهنئته بالعودة من باريس خطب فيهم خطبة اشار فيها الى انه يجب ان يضم الى لبنان القسم اللازم الوافي لحياة اهاليه الزراعية، فيستفيدون من توسيع ارضهم، كما تستفيد هذه البلاد من ذكائهم ونشاطهم. واضاف قائلا: «اقول بكل حرية ان لبنان مستقل داخليا واداريا ويلزم ان يبقى ما يلحق به مستقلا وممتازا... مع المحافظة على الارتباط بالوحدة السورية. ولكن هذا الانضمام لا يكون اجبارا بل اختيارا... اني مستعد ان اعطي الضمانة الخطية بكل ما اقول. وليعلم اللبنانيون وهم اخواننا بل قلوبنا التي بها نحس وعقولنا التي بها نفكر اننا نحن واياهم لا يفصلنا فاصل طبيعي او مادي.. ما كان عندنا ولا يكون ادنى فرق بين لبناني ودمشقي او بين مسلم ومسيحي ودرزي».

وبهذا المفهوم حاول فيصل ان يفهم اللبنانيين لا سيما سكان جبل لبنان الرافضين للوحدة السورية الشاملة، بان ليس من اهدافه اقامة الوحدة بالقوة او رغم ارادة اللبنانيين، مع العلم انه في حال قيام الوحدة فان لبنان سيتمتع باستقلاله الداخلي والاداري، ولكن يظهر ان مثل هذه الدعوات لم تلق آذانا صاغية لدى سكان جبل لبنان.

لجنة كنغ - كراين King-Crane ١٩١٩

بعد اقتراح الامير فيصل وبلس (Bliss) رئيس الجامعة الاميركية في بيروت - على مؤتمر الصلح وعلى الرئيس الاميركي ويلسون ارسال لجنة دولية لتقصي الحقائق في البلاد



الرئيس الاميركي ويلسون

السورية، وافق المؤتمر على هذه الاقتراحات. وكان من المقرر ان يشترك في اللجنة اعضاء ينتمون الى الدول الاربع، وقد وافقت في البدء كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا سرعان ما رفضت فيما بعد الاشتراك في اللجنة، كما كان من المقرر ان تتقصى الحقائق في كل من سوريا وفلسطين والعراق وارمينيا ايضا. وبعد تملص بريطانيا وفرنسا بالذات قرر الرئيس ويلسون تشكيل لجنة اميركية مؤلفة من شخصين هما: هنري كينغ وتشارلز كراين.

هذا وقد زارت اللجنة فلسطين وسوريا ثم زارت بيروت وطرابلس وصيدا وصور وبكركي. وتبين ان اللبنانيين انقسموا الى عدة اتجاهات تمثلت بما يلي:

١ - فريق نادى بالاستقلال تحت الحماية الفرنسية.

٢ - فريق نادى بالاستقلال تحت الحماية الاميركية.

٣ - فريق ثالث نادى بالاستقلال مع الارتباط مع الحكم الفيصلي في دمشق.

ولا بد من الاشارة من ان الاتجاهات السياسية الجديدة التي تمثلت بتأييد فئات للسياسة الاميركية، انما هي من نتاج لجنة

التحقيق الاميركية ومن نتائج سياسة الرئيس ويلسون. وكانت فئات لبنانية قد اسست في القاهرة حزبا جديدا مواليا لاميركا وهو «الحزب السوري المعتدل» وكان يحظى بعطف الوكالة الاميركية، وكان انطوان الجميل قد سبق له ان كتب في ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩ الى يوسف السودا اشار الى «ان فكرة اميركا استهوت بعض اخواننا فانسحبوا وانضموا الى الحزب الاميركي».

والواقع ان الاتجاهات السياسية اللبنانية المتعددة سواء نحو فرنسا او اميركا او نحو الوحدة العربية، انما شكلت خطا هاما في صلب السياسة اللبنانية المستقبلية، كما انها شكلت اتجاها لسياسيي عهد الانتداب والاستقلال معا.

هذا ولا بد لي من ان أؤكد خلافا لما ذكره المؤرخ فيليب حتي من انه جاء في تقرير لجنة كنغ – كراين ان اكثرية اللبنانيين اظهروا ميلا للانتداب الفرنسي وطالبوا بلبنان الكبير من صور الى طرابلس ويلبنان مستقل استقلالا تاما عن سوريا، اللهم الا اذا قصد باللبنانيين سكان جبل لبنان فحسب. لانه تبين من خلال دراسة تقرير اللجنة ان اللبنانيين انقسموا: طلاب وحدة وطلاب استقلال مع حماية فرنسية، كما برز اتجاه ثالث نادى بالاستقلال مع حماية اميركية. ونستطيع ان نؤكد ذلك من خلال تقرير اللجنة الذي قسم الاتجاهات اللبنانية تبعا للعرائض المقدمة له وهي:

١ – لبنان كبير فرنسي مستقل.
٢ – لبنان كبير مستقل.
٣ – لبنان اداري ضمن اطار الوحدة السورية.

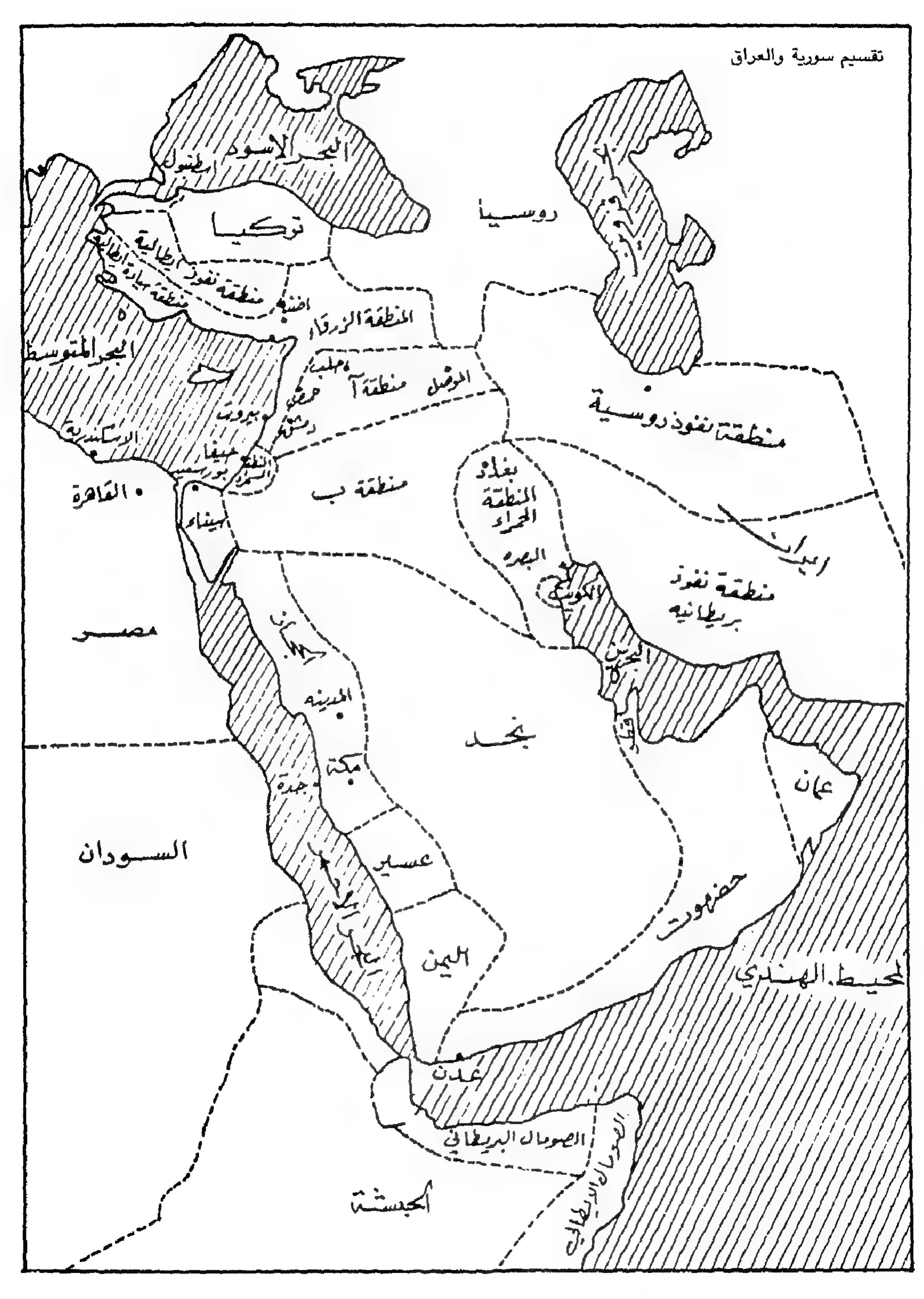
وقد طلب أصحاب البرنامج الاول فصل لبنان الكبير عن سوريا واستقلاله التام مع سهول البقاع وطرابلس. وطلب اصحاب البرنامج الثاني الاستقلال بدون وصاية فرنسية، اما اصحاب البرنامج الثالث فقد طالبوا بلبنان كبير مستقل ضمن الوحدة السورية. ولم يرد ذكر وصاية في هذا البرنامج على الاطلاق.

والجدير بالذكر ان تقرير لجنة كنغ كراين اكد بأن اصحاب البرنامج الاول المطالب بالوصاية الفرنسية قدم عرائض مطبوعة في مختلف المناطق كانت صورة طبق الاصل وبصيغة واحدة، مما يشير الى ان مسألة العرائض لم تكن موضع ثقة، لا سيما اذا علمنا ان الفرنسيين في لبنان شجعوا اصحاب الاتجاه الاول على تقديم تلك العرائض. بينما اكد تقرير اللجنة بان اصحاب الاتجاه الثالث الوحدوي قد قدموا عرائض مكتوبة بخط اليد من مختلف المناطق، ولم توجد عريضة واحدة مماثلة للاخرى، مما يشير الى ان اصحاب الاتجاه الوحدوي في لبنان كانوا يطالبون بالوحدة مطالبة ذاتية وعن ايمان بها بينما كانت الفئة الاولى والثانية تحث الناس على التوقيع على عرائض مطبوعة سلفا ومعدة للتوقيع فحسب. هذا مع العلم ان امين الريحاني يناقض ايضا رأي فيليب حتي ويقول «ان الاقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الفرنسي ولم يشمل هذه الاقلية الطوائف المسيحية كلها».

ومن الاهمية بمكان القول ان التقرير اكد ازدياد طلاب الوحدة السورية من المسلمين والمسيحيين على السواء، فقد اشار بهذا الخصوص «زاد طلب الوحدة السورية ظهورا وتأكيدا في العرائض التي رفعت الى اللجنة احتجاجا على استقلال لبنان الكبير وعددها (١٠٦٢)، بعضها مندمج في برنامج دمشق وبعضها من البروتستانت والمصادر المسيحية الاخرى في لبنان. واظهر (٣٣) وفدا من اللبنانيين الممثلين للمسلمين والمسيحيين خوفهم من المستقبل الاقتصادي اذا فصل لبنان عن سوريا وطلبوا ان يكون مستقلا ضمن الوحدة السورية، وفسر بعضهم الاستقلال الاداري باستقلال في حكومة لامركزية».

واخيرا وبعد ان طافت اللجنة البلاد السورية في (٤٢) يوما عادت الى باريس في ٢١ تموز (يوليو) ١٩١٩ ومن ثم الى واشنطن لتقديم تقريرها الى الرئيس ويلسون ووزارة الخارجية الاميركية، غير ان عودة الولايات المتحدة الى سياسة العزلة، وعدم تأييد الاميركيين لسياسة ويلسون وتبدل الاوضاع السياسية جعل تقرير اللجنة عديم الجدوى بل ان (Howard) يشك

تقسيم سورية والعراق



في ان يكون الرئيس ويلسون قد اطلع على التقرير النهائي او قرأه قبل ابتعاده عن الرئاسة في آذار (مارس) ١٩٢١.

ويلاحظ ان القوى الموالية لفرنسا استغلت اثناء وجود لجنة التحقيق الاميركية بعض الناقمين على الامير فيصل. وكان في مقدمة هؤلاء الامير سعيد الجزائري - حفيد الامير عبد القادر الجزائري - الذي وصل بيروت من دمشق وسط الانقسامات اللبنانية حول مستقبل لبنان، وقد صرح للجنة التحقيق الاميريكية بأن مطالبه تكمن في:

١ - عدم انفصال فلسطين عن سوريا.

٢ - حماية الجمهورية الفرنسية لفلسطين وسوريا.

٣ - استقلال لبنان الكبير الاداري والسياسي كما يطلب الشعب اللبناني والحكومة اللبنانية والبطريرك اللبناني.

٤ - ان لا يكون الامير فيصل ادنى علاقة بسوريا لانه غريب عنها.

٥ - جعل الحكومة السورية جمهورية يختار شعبها رئيسها.

وفي هذه الفترة كانت القوى المارونية لا تزال رافضة جميع الصيغ المستقبلية باستثناء الوصاية الفرنسية. ومن اجل ذلك سافر البطريرك الماروني الياس الحويك الى باريس على رأس وفد من الاحبار والكهنة في اواخر صيف ١٩١٩، وفي ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) من العام نفسه قدم البطريرك مذكرة الى مؤتمر الصلح طالب فيها الاعتراف باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي. وعلق امين الريحاني على هذه الاتجاهات المارونية بقوله: «فبينما كان الامير فيصل يدعو الناس الى وحدة سورية قومية لا تفرق بين الدمشقي واللبناني، او بين المسلم والمسيحي والدرزي قام اللبنانيون والاكليروس يستحثهم ويغريهم يطالبون بوحدة لبنانية، فقلدوا بطريركهم الكبير زمام امرهم، فجعلوا المسألة دينية مذهبية» وقد تحقق بالفعل ما طالب به الوفد وذلك في مؤتمر «سان ريمو» (San Remo) الذي عقد في ٥ ايار (مايو) ١٩٢٠. ■



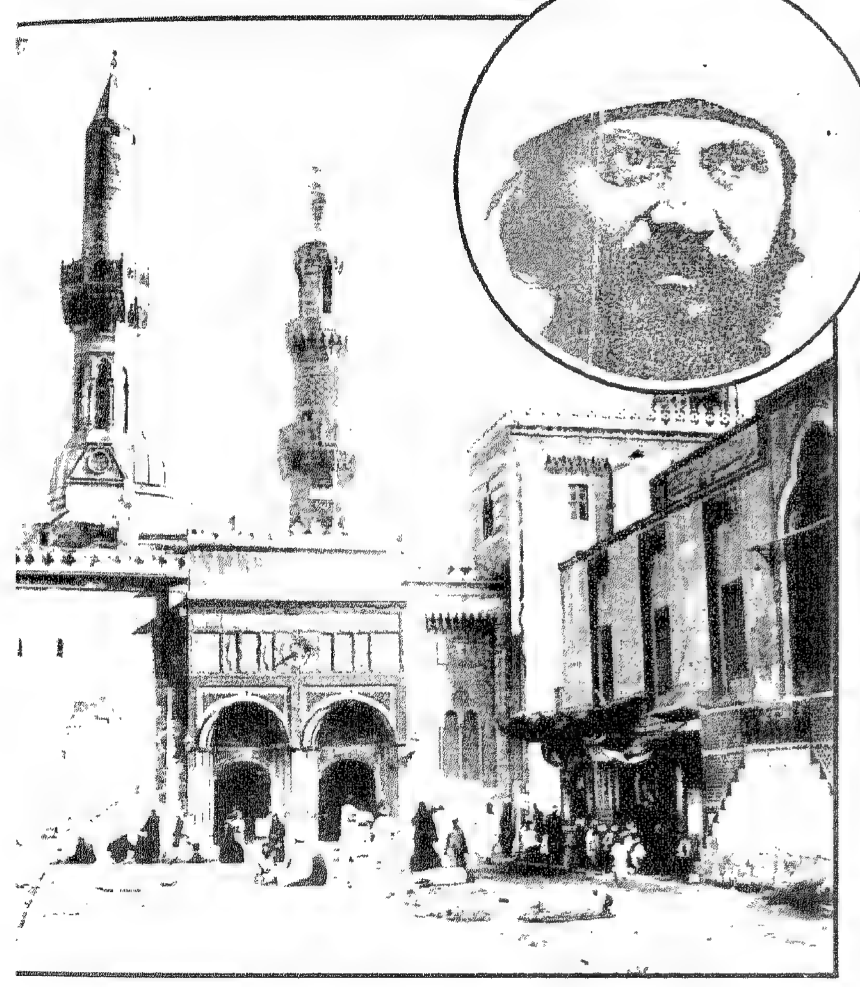
مصادر البحث

١ - امين الريحاني: ملوك العرب، جـ ٢، بيروت ١٩٥١.
٢ - بشارة الخوري: حقائق لبنانية، جـ ١، درعون - حريصا ١٩٦٠.
٣ - جورج انطونيوس: يقظة العرب، تعريب: ناصر الدين الاسد، احسان عباس، بيروت ١٩٦٦.
٤ - حسن الحكيم: مذكراتي ١٩٢٠ - ١٥٨، القسم الاول، بيروت ١٩٦٥.
٥ - مذكرات خالد العظم، جـ ١، بيروت ١٩٧٣.
٦ - زين زين: الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت ١٩٧١.
٧ - ساطع الحصري: يوم ميسلون، بيروت ١٩٤٨.
٨ - فيليب حتى: لبنان في التاريخ، تعريب: انيس فريحة، مراجعة: نقولا زيادة، بيروت - نيويورك ١٩٥٩.
٩ - محمد جميل بيهم: سورية ولبنان ١٩١٨ -١٩٢٢، بيروت ١٩٦٨.
١٠ - محمد جميل بيهم: لبنان بين مشرق ومغرب، بيروت ١٩٦٩.
١١ - يوسف السودا: في سبيل الاستقلال، جـ ١ - ١٩٠٦ - ١٩٢٢، بيروت ١٩٦٧.
١٢ - يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام، جـ ٢، بيروت (بدون تاريخ).

1 — S. N. Fisher; The Middle East A History, London 1960.
2 — H. Howard; The King-Crane Commission, Beirut 1963.
3 — A. Ismail; Le Liban, Histoire D'Un Peuple, Beyrouth 1965.
4 — E. Rabbath La Formation Historique Du Liban Politique Et Constitutionnel, Beyrouth 1973.
5 — A. Williams; Britain And France In The Middle East And North Africa, Newyork-London 1968.

جمال الدين الأفغاني في القاهرة

■ جمال الدين الافغاني شخصية من ألمع الشخصيات الاسلامية فهو علم من أعلام النهضة الفكرية الحديثة، وزعيم روحي، ومصلح اجتماعي عصري، وداعية سياسي ثوري.



د. عثمان أمين



اجتمعت له مواهب عقلية نادرة وصفات تجذب النفوس. فهو باعتراف الجميع كاتب مبدع وخطيب بليغ ومجادل مقنع ومتحدث بارع. وهو ايضا كما وصفه تلميذه الامام محمد عبده: سليم القلب حديدي المزاج شديد العزم شجاع مقدام كثير البذل قوي الاعتماد على الله لا يبالي بصروف الزمان، قليل الحرص على الدنيا، بعيد عن الغرور بمتاعها وزخرفها، راغب عن المادة متعفف عن لذات الحس، مؤثر لمتع الروح، كلف بمباهج المعرفة. لم يتزوج وأبى ان يعلق قلبه بالمال أو البنين او الرتب والمناصب، وانما أراد ان يقضي حياته حرا طليقا كالهواء او كالطير على الغصون او كالليث لا يعدم فريسة اينما ذهب «كما وصف هو نفسه».

ولد السيد جمال الدين الافغاني في قرية «أسعد أباد» من قرى كنر، من أعمال كابول في أفغانستان، وأبوه «صفتر» من سادة الافغانيين ينتسب الى السيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب، وقد كانت اسرة جمال الدين ذات بأس وقوة ومكانة في أفغانستان.

وقد تنافس كتاب الشرقيين في نسبة جمال الدين الى بلادهم فذهب بعض الايرانيين الى انه ايراني، ولد في «أسعد أباد» بايران، وحاول بعض الاتراك ان يثبتوا انه من أصل تركي وانه ولد في أذربيجان، كما ذهب بعض الهنود الى انه نشأ في قرية «شيرون» في بلاد الهند، فترجمت الى «أسعد أباد» لاسباب دبلوماسية.

ويحلو لنا بصدد اختلاف الاقوال في نسبة جمال الدين الى الافغان ان نقول ما قاله «دالامبير» بصدد نزاع من هذا القبيل: «ان الرجال الممتازين لا ينتسبون في الحقيقة الى المدينة ولا الى القرية ولا الى الامة التي تفاخر بهم: إنهم قليل عددهم، وقد ألقت بهم المقادير على سطح الارض. فليسوا زينة ولا قنية لأحد، بل هم أفذاذ من النوع الانساني الذي لا سبيل الى تعريفه».

والحق انه لم يكن لجمال الدين وطن يستقر به، وانما عاش منذ طفولته سائحا جوابا، فكان وطنه الشرق كله: أقام بالأفغان وفارس والهند والعراق، وزار مصر وتركيا، وسافر الى كثير من عواصم اوروبا، وقيل ايضا انه زار اميركا وكتب في الصحف الشرقية والعربية وخطب في المحافل والمجامع العربية والاوروبية، وخالط رجال العلم والدين والادب والسياسة، في الشرق والغرب.

ولقد ترك الزعيم الافغاني في نفس المفكر الفرنسي «رنان» انطباعا قويا اشار اليه «رنان» في ايار (مايو) سنة ١٨٨٣ بقوله: «كنت اتحدث اليه (اي الى الافغاني) فكان يخيل الى من حرية فكره ونبالة طبعه واخلاص قلبه أنني ارى وجها لوجه احد معارفي القدماء، واني اشهد ابن سينا او ابن رشد او احدا من اولئك الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الانساني». ذلك جمال الدين الافغاني في رأي «رنان».

ولا يتسع المقام لاستيفاء تاريخ ذلك النابغة الافغاني الذي اختلفت فيه الاقوال وحارت في فهمه العقول. حتى قال فيه الكاتب الفرنسي «روشفور»: «السيد جمال الدين الافغاني من سلالة النبي، ويكاد هو نفسه ان يكون نبيا». فبينما يراه رنان فيلسوفا كبيرا ومفكرا دينيا متحررا يراه روشفور من كبار دعاة الاديان وقريبا من طبقة الانبياء.

كان هذا الرجل ذو العبقرية الفذة رائد الحرية الدينية والسياسية في نظر الشعوب الشرقية كما قال «ولفرد بلنت»: فقد جذبت اليه قوة شخصيته وسحرها في القاهرة وفي استانبول قبلها جماعة من الشبان المتحمسين كان في وسعه أن يذيع بينهم في غير ما تحفظ ذخيرة معارفه المتنوعة ويوليهم قبسا من روحه النافذة، ويبث فيهم شيئا من شجاعته النادرة. والواقع انه كان لا بد للانسان في ذلك العصر من ان يكون ذا حظ عظيم من الشجاعة حتى يعبر عن


جمال الدين الافغاني.


الخديوي اسماعيل.

آرائه في حرية: فلم يكن الخديو اسماعيل يطيق اي معارضة، وكانت السلطات الدينية العليا التي لاذت بالصمت ازاء المظالم عهدا طويلا قد استكانت الى تلك الحال وأيدتها بالسمع والطاعة.

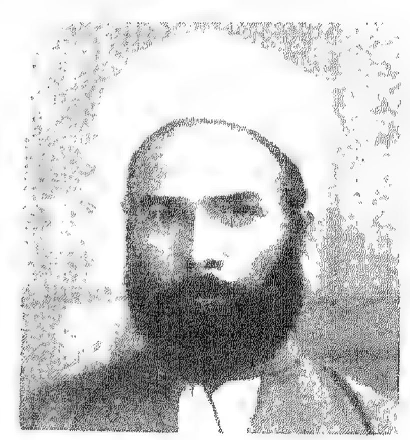
في تلك الظلمة الحالكة التي أطبقت على الحياة الاخلاقية والعقلية في القاهرة في ذلك الحين، انبثقت تعاليم جمال الدين الجريئة كبريق يأخذ بالابصار.

الافغاني وتلاميذه في القاهرة

التف حول جمال الدين صفوة القوم في القاهرة، ونشط الافغاني لبث تعاليمه الحرة التي لم يكن للناس عهد بها من قبل، واخذ يقرأ لتلاميذه طائفة من الكتب العربية القديمة والكتب الاوروبية المعربة في الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع، فكان ذلك فتحا جديدا في موضوعات التعليم - ومن المحقق ان جمال الدين كان يفيض قوة ذاتية وسحرا فطريا. فاستطاع ان ينفخ من روحه في تلاميذه كما قال جرجي زيدان: «ففتحوا أعينهم واذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه، فضلا عن العلم والفلسفة، روحانية» أرتهم حالهم كما هي، إذ تمزقت عن عقولهم حجب الاوهام فنشطوا للعمل في الكتابة، وانشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية.

قدم السيد الافغاني الى القاهرة للمرة الاولى سنة ١٨٦٩ وكانت شهرته قد سبقته الى هذه البلاد. ولما سمع الشيخ محمد عبده بمقدم ذلك النابغة الكبير ذهب لزيارته في صحبة الشيخ حسن الطويل الذي كان استاذا للمنطق في الازهر وتحدث السيد جمال الدين الافغاني الى زائريه احاديث طليّة طريفة في تفسير القرآن وفي التصوف الاسلامي، فكانت شخصيته تخلب الباب سامعيه. ولما عاد جمال الدين الى القاهرة للمرة الثانية سنة ١٨٧١ بادر محمد عبده الى لقائه، وتتلمذ له، وأصبح يلازمه كظله، ووجد الشاب المصري عند السيد الافغاني روحا جديدة غير مألوفة لدى شيخ الازهر آنذاك: وجد عنده مذهبا فلسفيا واحدا، ونظرة الى الحياة عميقة، وصورة عن الكون منظمة، وبالاجمال وجد عنده تلك الفلسفة المنسقة الشاملة التي تتناول مجالي النظر والعمل وتشمل الله والعالم والانسان. وكان طبيعيا - وقد اتصل الشاب الازهري بتلك الشخصية الجذابة القوية - ان يفتتن بها وان ينساق الى الطريق التي رسمها له: فلا بدع اذن ان نرى محمد عبده الذي كان يناصر في كتاب «العقيدة المحمدية» آراء السنيين والاشاعرة - وهم يمثلون حزب المحافظين في الاسلام - لا يتردد الآن في التحول عن تلك

الطريق، واذا به في كتاب «الحاشية على شرح العقائد العضدية» ينقلب مناصرا المعتزلة والعقليين وجميع النظار من الاحرار والمتسامحين. ولا بدع ايضا ان ينصرف الشاب الصوفي عن ممارسة الزهد وعن اعتزال الناس، وان يأخذ في تذوق الحياة العاملة مقتديا بأستاذه جمال الدين، وان يقبل على دراسة العلوم المختلفة التي خلت منها مناهج التدريس في الازهر كالفلسفة وعلم الكلام والرياضيات والاخلاق والسياسة. وقضى محمد عبده في صحبة جمال الدين شهورا يحيا حياة الفكر والروح وهو مبتهج متحمس نشوان متعطش الى ارتشاف المعرفة من ينابيعها الصافية، متشوق الى شهود العهد الميمون الذي تتحقق فيه مثل الحق والخير والجمال. ولم يفته ان يسجل، في



الشيخ محمد عبده

نغمة صوفية حارة، اعجابه باستاذه وحماسته له: فمن ذلك ما كتبه في نسخة نقلها بخطة من كتاب قديم حيث قال في خاتمتها: «وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق وقائد الخلق الى جانب الحق خلاصة من تحلى بالحكمة ومنقذ الضالين في تيه الجهالة والغمة محي الحق والدين، أستاذنا السيد جمال الدين». ثم هو لا يتردد في اعلان حماسته تلك لاستاذه في باكورة مصنفاته: تجده يتحدث عن الافغاني سنة ١٨٧٤ في بداية «رسالة الواردات» فيصفه

الافغاني المصلح الديني والسياسي

كان جمال الدين رائدا لحركة تحرير ديني وسياسي. وكان يرى ان اساس حركة الاصلاح الديني هو الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي، مثل حملهم القضاء والقدر على معنى ما يوجب الا يتحركوا لطلب مجد ولا للتخلص من ذل، ومثل فهمهم لبعض الاحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان فهما حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح. فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين افراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح، لكي تقودهم الى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

ولذلك دعا جمال الدين المستنيرين من المسلمين الى النظر في حالهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث وتبين لهم ان الاسلام اذا فهم على وجه الصحيح يستطيع ان ينمو نموا طبيعيا وان يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبين المطالب العالية للنفس الانسانية.

وما من قطر من اقطار الشرق اثر فيه جمال الدين مثل تأثيره في مصر: فهو من اول العاملين على تطور الروح الوطني في هذه البلاد. وقد نسب اليه - بحق - الدور التاريخي لـ «ابن القومية». وقد استطاع الرجل بخطبه الملتهبة ان يبث في النفوس نزوعا الى الحرية، ورغبة في العدالة. خطب مرة قبل خلع الخديو اسماعيل فقال: «انت ايها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال. فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة اتعابك؟». بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم، وكان لكلامه اثر عميق في ايقاظ الناس وتنبيه المحكومين الى حقوقهم قبل الحاكمين: فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السلطان،

وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شؤون الرعية، وكذلك بذل جمال الدين جهدا كبيرا في تنبيه المصريين الى مضار الاستكانة لتدخل الاجانب في شؤونهم، وطفق يخاطبهم مستثيراً فيهم معاني العزة القومية. ومما قاله مرة في خطاب له: «لو كان في عروقكم دم ينبض وفي رؤوسكم اعصاب تتأثر فتثير الشعور والحمية، لما رضيتم بهذا الذل ولما قعدتم على الرمضاء وانتم تضحكون. تناويتكم أيدي الغزاة من كل جنس، وانتم كقطع الصخر الملقاة في الفلاة لا صوت لهم ولا حس»!

وعلى اثر ذلك اخذت الحركة الفكرية الوطنية في الظهور، واخذ الوطنيون يطالبون الخديو بانشاء مجلس نيابي، وبدا الخديو وكأنه مرحب بهذه المطالب، فانبرى جمال الدين محذرا الوطنيين من الاستنامة للوعود المعسولة وقال: «ايها الأخوان: ان القوة الوطنية لاي امة لا يمكن ان تحوز معناها الحقيقي إلا إذا كانت نابعة من نفس الامة. واي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محركة لهما فثقوا ان حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على ارادة من أحدثها. فأي مجلس نيابي يقوم على ارادة خارجة عن ارادة الامة - مثل هذا المجلس لا قيمة له ولن يعيش طويلا ولا ترجى منه للأمة فائدة».

وما لبث الوطنيون ان تأثروا بأفكار جمال الدين وما فيها من التغير من السياسة البريطانية في مصر وقد ترجمت أقوال السيد وأرسلت الى جرائد انجلترا. وبلغ من اهتمامهم بها هناك ان تولي غلادستون رئيس الوزارة البريطانية أمر مناقشتها. وداخل الخوف مستر فافياني قنصل انجلترا اذ ذاك، فجمع عن طريق من بثه من الرقباء والجواسيس ما أرهب به الخديوي الذي كانت في نفسه اشياء من جمال الدين، اذ لم ينس ما سمعه منه شخصيا في المقابلة التي أشرنا اليها فأصدر امره بإخراج السيد جمال الدين من مصر، فغادرها سنة ١٨٧٩.

معارضة جمال الدين والطعن فيه

كان طبيعيا ان يثير موقف جمال الدين معارضة له وسخطا عليه من كل صوب: من رجال الدين المحافظين الذين اخذوا يتقولون عليه ويرتابون في تعاليمه بدعوى انها خطر على العقيدة، وكذلك من الحكام المستبدين ومن الاجانب الطامعين. وكانت احوال مصر السياسية والمالية قد ساءت مما ادى الى التدخل الاوروبي في شؤونها بحجة «المراقبة الثنائية» من انجلترا وفرنسا، ثم الى عزل الخديوي اسماعيل نتيجة بذخه وطغيانه. وكان توفيق قبل ارتقائه الى العرش قد عاهد جمال الدين الافغاني وأصحابه الاحرار على تأييدهم في مطالبهم الاصلاحية. ولكن سرعان ما تنكر لهم حين آل الحكم اليه وانتهى به الامر الى ابعاد السيد جمال الدين عن مصر، كما سبق ان بيّنا - إرضاء لناصحيه من الانجليز والفرنسيين الذين كانوا يخشون اقامة حكم نيابي في البلاد.

كثرت الاقاويل والمفتريات التي روجها المغرضون بقصد ان يحجبوا انظار الجمهور عن الشخصية الحقيقية للسيد جمال الدين، شخصية المفكر المصلح الذي لم يكن يبغي من دعوته إلا استنهاض العالم الاسلامي الذي قضى عليه بالعجز والعقم نتيجة تخبط المحترفين من رجال الدين والحكام السياسيين.

ومن قبيل المفتريات البذيئة التي وجهت للطعن في شخصية جمال الدين وريقات نشرت في القاهرة بعنوان «تحذير الامم من كلب العجم» كلها تجريح وقبح وتهجم رخيص، لا لشيء الا لانه اعتنق قضية الفكر الحر والثورة على الفساد ايا كان وحيثما كان: حتى قيل فيه انه كان يتناول السعوط بيمناه ويوزع الثورة بيسراه!

أشرنا فيما سبق الى أثر جمال الدين في الاصلاح السياسي، وليس هنالك شك في ان لجمال الدين يدا في الحركة العرابية. ومن المحقق ان المبدا الوطني الذي سيطر على تلك

الحركة من غرسه كما قال شكيب ارسلان: «وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ولفحة الدسائس السياسية ما ضيع نضرته، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق، او حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول ان تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق اعوان الاستعمار».

الجامعة الشرقية

على ان جمال الدين قد عرف بالدعوة الى «الجامعة الاسلامية» التي ترمي الى اتحاد جميع الشعوب التي تعيش في كنف الاسلام لكي يتيسر لها التخلص من سيطرة الاجنبي. وقد كان السيد يقول بهذا الصدد: ان الدول الغربية تنتحل الاعذار في هجومها وعدوانها على البلاد الاسلامية، واذلالها واكراهها بقولها: «ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع ان تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها في حين ان تلك الدول عينها لا تكف عن التذرع بألوف الذرائع، حتى بالحرب والحديد والنار، للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والاصلاح في البلاد الاسلامية. ومن ثم يجب على العالم الاسلامي ان يتحد في حلف دفاعي كبير ليستطيع بذلك ان يصون نفسه من الفناء.

غير ان جمال الدين لم يكن يعني بالجامعة الاسلامية احلال الدين محل القومية، وانما كان يرغب في ان تتحد جميع الاقطار الاسلامية مع استقلال كل منها عن الآخر رامية الى هدف واحد هو التحرير السياسي. ومن أجل النهوض بالوطن الافغاني او المصري او التركي او الفارسي كان يعمل على نهضة الاسلام الذي يتغلغل في الحياة السياسية والاجتماعية للاقطار الاسلامية المختلفة. على ان عبءالنهوض بمهمة الاصلاح الديني سيقع في صميمه على عاتق تلميذه الغيور محمد عبده الذي سيكون رائد الاصلاح في مصر.

ولكننا نعتقد ان الجامعة الاسلامية التي اشتهر جمال الدين بالدعوة اليها لم تكن الا تمهيدا لتحقيق جامعة اوسع هي ما يمكن ان نسميه «بالجامعة الشرقية» فهو قد رأى في الشرق تخلفا ناشئا عن ضعف الارادة وانحلال القومية وتفرق الكلمة والاستسلام والتخاذل، ورأى في الغرب تقدما ماديا عقليا وروح تعصب على الشرق وعدوانا على بلاده وسعيا الى اذلال شعوبه، بحجة ضعف الشرق عن ان يكون قواما على شؤون نفسه. فسعى سعيا حثيثا لجمع شتات اهل الشرق وتوحيد كلمتهم وايقاظ هممهم للذود عن كيانهم والخلاص من الخطر المحدق بهم. ورأى ان السبيل الى ذلك ان يسعى كل ملك او امير في الشرق الى ترقية شعبه وتحصينه بالحكم الدستوري ووقفه على اسرار التقدم الغربي وتقويته للتحالف على الاتحاد مع الامم الشرقية الاخرى، لتلتقي جهود الجميع عند الغرض المشترك وهو التحرر السياسي.

وقد كان الشرق هو الهم الاكبر لجمال الدين يهتف باسمه ولا ينقطع عن ذكره ليله ونهاره.

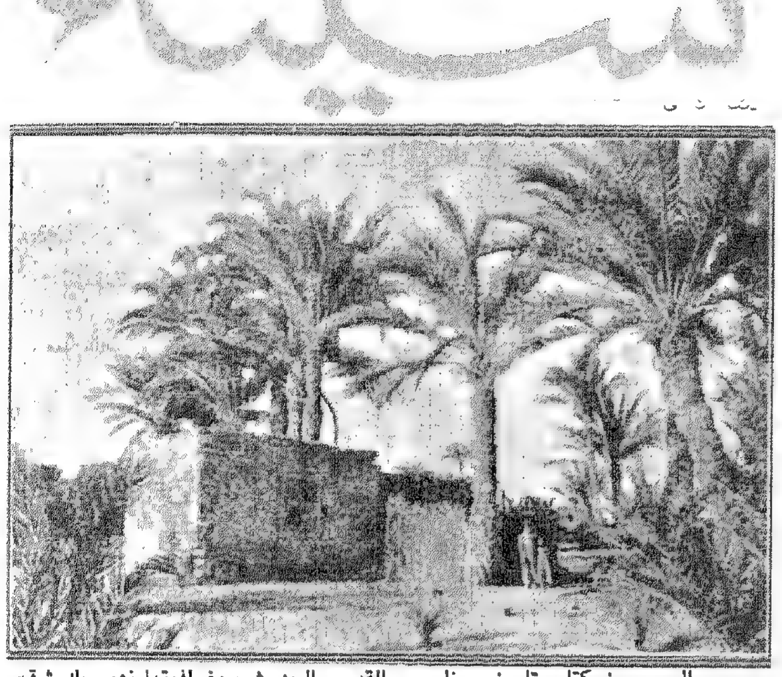
روى المخزومي باشا ان الافغاني كثيرا ما كان يقول: «الشرق! الشرق! لقد أعملت فكري لتشخيص دائه وتحري دوائه، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض سبيل توحيد الكلمة فيه، داء انقسام اهلية وتشتيت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف. فقد اتفقوا على الا يتفقوا ولا تقوم على هذا لقوم قائمة!».

والحق ان قدوم السيد جمال الدين الى مصر كان مبدأ النهضة الفكرية والسياسية التي ظهرت آثارها منذ قرن من الزمان وامتدت الى وقتنا هذا، رامية الى اكتناه اسرار القوة الغربية واعادة الشرق الى سيرته الاولى من العلم والمدنية.

وما أحسب الجامعة الشرقية التي دعا اليها جمال الدين الا جامعة المستقبل، وما أحسب الا اننا سائرون في طريقها لانها مناط امل الشرق في دفع مطامع الغرب.■

ملف الوطن العربي

سيناء



الصور من كتاب تاريخ سيناء - القديم والحديث وجغرافيتها نعوم بك شقير.

قسطنطين خمار

كثر الحديث عن شبه جزيرة سيناء في العقود الثلاثة الاخيرة من جراء كونها احد ميادين القتال الرئيسية بين الامة العربية والصهيونية المتمثلة باسرائيل فلقد كانت من المواقع الحربية الهامة في حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ و١٩٧٣ وشبه الجزيرة هذه كانت على مدى العصور الحصن الطبيعي لمصر بسبب موقعها شرقي دلتا النيل مباشرة إذ هي الممر الوحيد لجميع جيوش التاريخ التي غزت مصر من الشرق كما وللجيوش المصرية المنطلقة من مصر لفتح بلاد الشام وما يليها ولذا تعتبر قنطرة النيل الى الاردن والفرات صلة الوصل بين الجنوب الغربي لقارة آسيا والشمال الشرقي للقارة الافريقية.

وهي على شكل مثلث قاعدته على البحر الابيض المتوسط ممتدة من رفح شرقاً الى بور سعيد غرباً، أما رأسه فجنوبا عند البحر الاحمر ويعرف برأس محمد وهذا عبارة عن تل علوه نحو (١٢٠) مترا، وعلى بعد (٢٠) ميلا الى شماله رأس آخر يعرف برأس النصراني وبين الاثنين ميناء شرم الشيخ، وتجاهه جزيرتا تيران وسنافر، ويضم الجزء الاوسط والجنوبي من شبه الجزيرة ذراعان أيمنهما خليج العقبة وأيسرهما خليج السويس. يحدها شمالا البحر الابيض المتوسط وجنوبا البحر الاحمر، وشرقا فلسطين والمملكة الاردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية والواقع ان ليس هناك حدود طبيعية بين سيناء وفلسطين إذ ليس ثمة اختلاف طبيعي بينها وبين المناطق الصحراوية

المجاورة لها في النقب بل هي جزء متمم لها. أما حدودها الغربية فهي قناة السويس التي افتتحت عام ١٨٦٩ ثم خليج السويس وكانت حصون الفراعنة الاقدمين تمتد على برزخ السويس، فلا عجب ان عين المؤرخون القدامى أمثال هيرودتس وبلني حدود بلاد العرب بحيث تشمل الجزء الاكبر من سيناء والذي أطلقوا عليه اسم «بلاد العرب الحجرية» كما أن الكثير من المؤرخين والجغرافيين العرب أمثال الهمذاني وياقوت يدخلون سيناء كلها في بلاد العرب.

أقصى اطوالها (٣٠٠) ميلاً وأقصى عرض لها يقدر بنصف ذلك اما محيطها فيقدر بنحو ٦٣٠ ميلاً.

اسماؤها:

قيل انها دعيت سيناء بمعنى الحجر لكثرة جبالها او نسبة الى (سين) إله القمر البابلي وكانت عبادته قد انتشرت حتى جنوب الجزيرة العربية وليس ثمة ما يمنع انتشارها الى سيناء ايضا. وقد تكون نسبت الى القمر لبهاء لياليها المقمرة وصفائها ورقة نسيمها. اما المصريون القدماء فدعوها (توشويت) اي ارض الجدب والعراء كما عرفت عند الاشوريين باسم (مجان) وقد يكون هذا الاسم حرف فيما بعد الى (مدين). وورد ذكرها في التوراة باسم (حوريب) اي الخراب. وعرفت عند اليونان باسم (العربية الصخرية). ولم يبق خالداً من جميع هذه الاسماء الا (سيناء) وكثيراً ما ورد ذكرها في القرآن والتوراة. فكانت بذلك في عرف اديان التوحيد الثلاثة اراض ذات قدسية خاصة.

سكانها

اقدم سكانها من اصول سامية وقد خلفوا من آثارهم نواويس وبقايا اكواخ من الحجر والطين مبنية على شكل حلزوني... ومنذ اقدم العصور كثرت غارات بدوها من مواطنهم الجرداء الى المقاطعات الشرقية من وادي النيل الخصيب وكان اعظمها غزوة الهكسوس في القرن الثامن عشر ق. م. وبسبب تكرار هذه الغزوات وضخامتها كان القسم الشرقي من مصر المجاور لسيناء يدعى (الاقليم العربي) أو (المقاطعة العربية). وقد دعا المصريون القدماء سكان سيناء (هيروشاتيو) اي (اسياد الرمال) كما اسمتهم التوراة (العمالقة). وكانت هذه الغارات تكثر او تقل، وتعنف او تضعف تبعا لقوة مصر وضعفها. وكثيرا ما كانت تؤم شبه الجزيرة هذه موجات سلمية للسكن والرعي كهجرة الكنعانيين في عهد الهكسوس.

وفي العهود المسيحية الاولى اخذ الرهبان والنساك يؤمونها ويستوطنون بها اما هربا من اضطهاد او لملاءمة طبيعتها للوحدة والعزلة ومن ثم التعبد حتى زاد عددهم على الستة آلاف واكثر سكناهم كان في الجزء الجنوبي الجبلي. ولدى بدء امتداد الفتوحات الاسلامية نزل قسم كبير من نصارى العرب وغالبيتهم من غسان المنطقة الشمالية من سيناء وسكنوا الحصون في رفح والعريش والورادة والبقارة، وكانوا على ما ذكر بعض مؤرخي الفتوحات الاسلامية يؤدون الجزية للمقوقس صاحب مصر حتى ان النجدة التي ارسلها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لمساعدة عمرو بن العاص قابلت جمعا من هؤلاء بلغ نحو ثلاثة آلاف نسمة من قبائل غسان ولخم. ثم بعد انتشار الفتوحات الاسلامية اخذت بعض القبائل العربية تستقر في سيناء وتتخذها وطنا ثابتا.

على ان بدو سيناء وهم على ما هم من الاملاق والحرمان في اراضيهم القاحلة كثيرا ما كانوا يغيرون على القوافل التي تمر في ديارهم ويمعنون فيها قتلا وسلبا ونهبا، ولذا كانت الدول المسيطرة في مختلف عصور التاريخ كثيرة الاهتمام بتامين القوافل فالرومان اقاموا المحطات الحربية على طول الطرق كما اوجدوا الحاميات في المراحل المختلفة من هذه الطرق. اما في عهد المماليك فاضطر التجار الى طلب الحماية من القبائل التي كانت تفرض على القبائل ما تشاء من رسوم، وذلك مقابل اتاوة سنوية يؤدونها لشيوخ هذه القبائل وذلك لقاء حراسة هذه القوافل ولقاء نقل المسافرين من الحجاج وبقي الامر كذلك الى اوائل القرن التاسع عشر الميلادي اذ اخذ والي مصر محمد علي

باشا هذه القبائل بالشدة واخضعها وعاقب لصوصها وبذلك امن الطرق وجدد اجور نقل التجار والحجاج فآثرت بعض هذه القبائل الهجرة الى مصر والشام الا انها استمرت في العودة الى مواطنها الاصلية في مواسم الحصاد وجمع التمور.

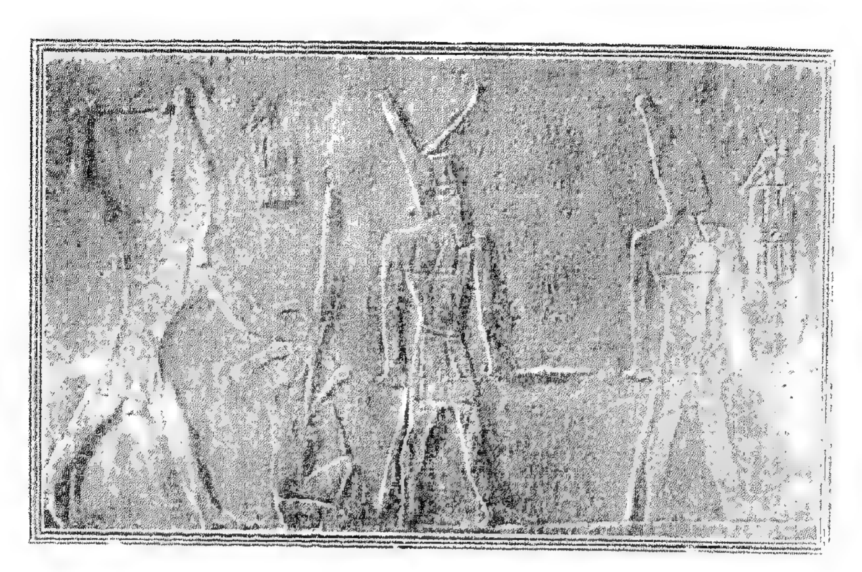
سيناء في التاريخ:

شهدت سيناء منذ اقدم العصور مرور اضخم الجيوش القادمة من الشرق بغية الاستيلاء على مصر اذ هي طريقها الاوحد زمن ضعف حكامها، كما شهدت عكس ذلك، مرور الجيوش المصرية عبرها ايام قوتهم مبتغية توسيع رقعة ملكهم في آسيا. ولطالما كان بدو سيناء يقومون بغزو ارض مصر الخصيبة فينهبون ثم يعودون من حيث أتوا. وأول من اشتهر من الفراعنة بغزوهم في عقر دارهم كان (سنفرو) من ملوك السلالة الثالثة (٢٧٥٠ ق.م) كما قام هو وخلفاؤه من بعده بتشييد سلسلة من القلاع على حدود سيناء الغربية لصد غاراتهم.

اما أول من غزا سيناء من ملوك بابل فكان (نارام سين) وذلك حوالي عام ٢١٧٠ ق.م حاملا منها الى بلاده حجر الديورايت الاخضر (المعروف بحجر الحية) وأمر بان يصنع منه عدة تماثيل نقش على قاعدة احدها اخبار غزوته هذه. وفي مطلع القرن الثامن عشر ق. م غزاها الهكسوس ومعنى اسمهم (حكام البلاد الاجنبية) وفي قول آخر (ملوك الرعاة) واستولوا على السلطة في مصر نفسها (١٧٣٠ – ١٥٨٠ق. م) كما غزاها الفرعون (أحموس) من السلالة الثامنة عشرة (المتوفي عام ١٥٤٦ ق. م) لدى طرده الهكسوس نهائيا من مصر لاحقا بفلولهم عبر سيناء الى ستوريا التي منها أتوا ثم تحوتمس الاول من بعد حوالي (١٥٢٠ ق. م) الذي وصل الى الفرات الاعلى ثم المحارب المشهور في مصر القديمة تحوتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ق. م) الذي قام بست عشرة حملة حربية مجتازا سيناء الى سوريا. وتلت ذلك فترة من الهدوء طوال القرن الرابع عشر ق. م لم تتوغل جيوش الفراعنة في سيناء لاجتياح سوريا حتى جاء رعمسيس الثاني (١٣٠١ – ١٢٣٤ق. م) من السلالة التاسعة عشرة الذي اجتازها الى سوريا لتأديب الحثيين.

أما من حيث توغل قدماء المصريين في شبه الجزيرة نفسها فقد كان جل همهم منصبا على التنقيب عن الفيروز وبصورة خاصة في القسم الجنوبي الغربي منها وقد استمروا في تعدينه من عهد السلالة الاولى حتى السلالة العشرين في جبال المغارة وفي صميم بلاد الطور، ومن آثارهم هناك شعار الملك سنفرو (من السلالة الثالثة) وهو تمثال صقر، كما بنوا في جبل (سرابيت الخادم) هيكلا للالهة (هاتور) – وكانت تلقب بملكة الفيروز واقاموا كثيرا من الانصاب التي نقشوا عليها اخبار ملوكهم وحملاتهم وأحدثها نصبان للفرعون رعمسيس الثاني ومعبد الملوك وهو من آثار الملكة حتشبسوت وعلى جدرانه نقوش ورسوم تمثل الملكة وهي تقدم القرابين الى الالهة وقد دعي هذا الجبل (سرابيت الخادم) نسبة الى هذه الانصاب لان السربوت هو الصخرة الكبيرة والخادم هي الجارية السوداء. كما عثر على اكثر من ثلاثين صخرة نقشت عليها كتابات هيروغليفية في وادي المغارة جاء في احدها ان (٧٣٤) رجلا اتوا الوادي من مصر كحملة واحدة لتعدين الفيروز مستخدمين الحمير لنقل المؤن والماء وفي حملات اخرى مستخدمين خمسمائة حمارا. الا ان بدو المنطقة عبثوا بمعظم هذه الصخرات وشوهوها ظنا منهم انه يمكن استخراج الفيروز بين ثناياها وأقدم هذه الصخور صخرة (سميرخت) واكثر الاشكال المنقوشة عليها تمثل الفرعون ممسكا بناصية بدوي جاث امامه وهو يهم بضربه بهراوة.

وقد جاءت بعد ذلك فترات من الوهن والضعف في الدولة المصرية وانحسرت موجة الفتوحات فلم تعبر سيناء اية جيوش حتى اجتاز الفرس سيناء بقيادة ملكهم (قمبيز) الذي تمكن من الاستيلاء على مصر لفترة من الزمن حتى زمن الاسكندر الكبير الذي بعد ان استولى على بلاد الشام وفتح غزة عام ٣٣٢ ق. م عبر سيناء واستولى على مصر



صخرة سمرخت سابع ملوك الدولة الاولى. اقدم اثر في سيناء

مؤسسا الميناء الشهير الذي عرف باسمه (الاسكندرية) في اقصى الشمال الغربي لدلتا النيل. وفي عهد خلفائه البطالمة عادت مصر الى التوسع الخارجي عبر سيناء لاسترداد قسم من الاراضي الفلسطينية، وبعدهم دخلت سيناء تحت حكم الرومان شأنها شأن بقية البلاد الشامية والمصرية حتى عهد الفتوحات الاسلامية فاجتازتها الجيوش العربية بقيادة عمرو بن العاص الذي أتم فتح مصر عام ٦٤١ م. وهكذا نرى ايضا حركة مستمرة كرا وفرّا عبر سيناء من مصر واليها زمن الغزو الصليبي في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين ثم اجتياز العثمانيين لها لفتح مصر بقيادة السلطان سليم عام ١٥١٧م، حتى حملة نابليون على فلسطين عبرها بعد ان استتب الامر له في مصر عام ١٧٩٨م وبعده حملة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا على سوريا الذي اجتازها عام ١٨٣٢م متوجها لاخضاع الولايات التابعة للسلطنة العثمانية ثم اندحاره وعودته الى مصر عبر الطريق نفسه عام ١٨٤٠م. اما بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م. فأضحت سيناء حلقة الاتصال بين مصر والولايات العثمانية في آسيا. وفي الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) فقد ظهرت الحملة التركية في سيناء قاطعة شبه الجزيرة مرتين عام ١٩١٥ بغية مهاجمة قناة السويس وبعدها كرت الجيوش البريطانية قاطعة سيناء الى جنوبي فلسطين وجاعلة منها خط الدفاع عن قناة السويس لابعاد اي غزو عنها.

كل ما ذكر آنفا يظهر الاهمية الحربية لسيناء ومكانتها كمعبر للجيوش من آسيا وافريقيا، فعلى الرغم من كونها بيداء فهي بسبب هذا الموقع الجغرافي الفذ كحلقة اتصال بين القارتين الكبيرتين آسيا وافريقيا كانت وستبقى ذات اهمية بالغة كميدان حربي شهد جيوشاً غازية واخرى متقهقرة تمر عبرها على مدى العصور اكثر من اي موقع آخر وقد بلغت اهميتها الحربية الذروة بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ م اذ ان سلامة القناة تقتضي ان تكون حدود سيناء الشرقية منطقة الدفاع عنها.

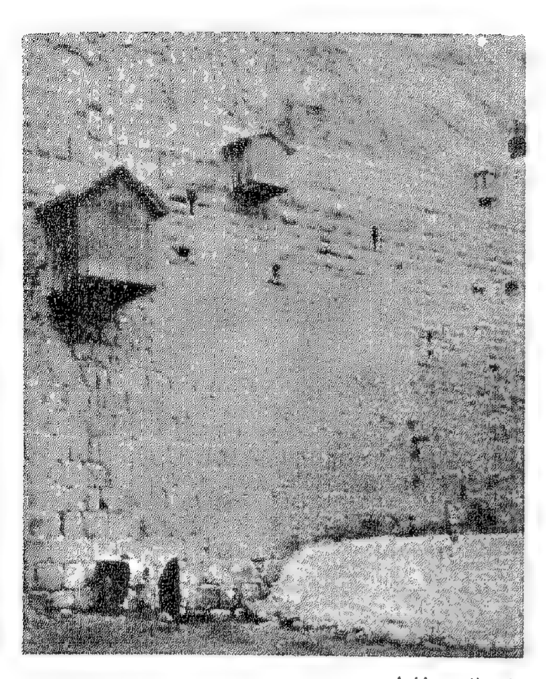
لم تكن أهمية سيناء التجارية لتقل خطورة عن مركزها الحربي كثيرا، فعلى الرغم من ان حظها من مرور منتوجات الشرق الادنى (المعروف حاليا بالشرق الاوسط)، وجنوب الجزيرة العربية كان ضئيلا نوعا ما، الا ان جانبها الغربي كان ذا أهمية بالغة خلال بعض

الفترات التاريخية كطريق لمرور التجارة عبره الى مصر، فالمواد التي كانت تأتي من بلدان المحيط الهندي وجنوب الجزيرة العربية وتخزن في موانىء البحر الاحمر كانت تنقل الى ميناء (الطور) الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي من سيناء والى الشرق من خليج السويس، ومن هذا الميناء القوافل الى وادي النيل. وقد المح الى الاهمية التجارية لهذه الميناء الكثيرون من جغرافيي العرب كأبي الفداء (١٢٧٣ – ١٣٣١ م) الذي يصفها بكونها (ميناء عظيمة تصلها البضائع الثقيلة بحرا لتأخذها القوافل وتوزعها حيث تشاء) وكالقلقشندي (١٣٥٥ – ١٤١٨م) والمقريزي (١٣٦٤ – ١٤٤٢ م).

ومن أشهر المواد التي كانت تأتيها البهارات فقد كانت تصل اليها مرتين في العام. واما في الجانب الشرقي من سيناء فقد كانت الطرق التجارية تصلها بالموانىء الفلسطينية، فمنذ اقدم الازمنة التاريخية كانت القوافل تحمل من سوريا عبر هذه الطرق، الجواري والثيران (الحثية) والخيل والملح والخشب والآلات الموسيقية والمصنوعات الجلدية وزيت الزيتون والنبيذ، ومن البحر الميت الاسفلت الذي كان احد المواد التي كان قدماء المصريين يفيدون منها في عملية التحنيط، كما ينقل عبرها من بلاد ما بين النهرين المصنوعات الصوفية والجلود والحصير والزيوت، اما من شبه الجزيرة العربية فالعطور . كما ان هذه القوافل كانت تحمل في عودتها من وادي النيل الحبوب وكفي بذلك شاهدا (قصة يوسف)، والمنسوجات الدقيقة الصنع والادوات الذهبية والفخارية والزجاجية.

وقد كانت الحركة التجارية تبلغ ذروتها وتنشط زمن السلم عندما تستتب الامور بين مصر وجاراتها الآسيويات الا انها تضعف لدرجة الاندثار حين يسود الوضع بين الجانبين فتصبح سيناء ممرا لا للقوافل التجارية، وانما للجيوش الغازية وهكذا دواليك متأرجحة بين فترات الحرب واوقات السلم.

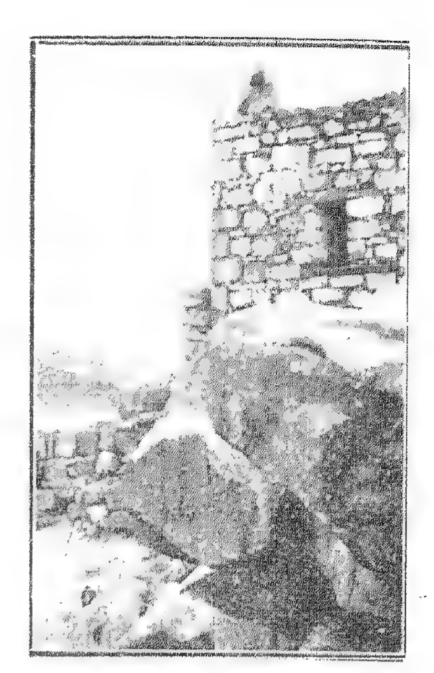
وقد أضعف تجارة القوافل هذه، رقي الملاحة بين موانىء الشام والشواطىء المصرية، اذ ان اكثر التجارة تحولت اليها فأصبحت اكثر



باب الدير المعلق

البضائع تنقل بحراً الا انه بعد انتشار الاسلام، وفريضة الحج احد اركانه الخمسة، اصبح اهل الشمال الافريقي يؤمون ومنها يتوجهون برفقة الحجاج المصريين عبر سيناء الى ميناء العقبة ومنها الى الاراضي المقدسة في الحجاز في طرق سلكتها فيما بعد قافلة الحج التي جهزتها اول ملكة في الاسلام المدعوة شجرة الدر (المتوفية عام ١٢٤٩م) ثم الظاهر بيبرس البندقداري (١٢٢٣ – ١٢٧٧ م) مرسلا الكسوة الشريفة الى الكعبة ومن بعده الناصر قلاوون (١٢٢٠ – ١٢٩٠) وقد سلك درب الحج هذه ابن بطوطة (١٣٠٤ – ١٣٧٨) في احدى حجاته. وكانت قوافل الحجاج هذه تسير بحماية الجند وقد قام سلاطين المماليك وولاة مصر من بعدهم بحفر الآبار في طريق الحج هذه كما مهدوا كثيرا من البقاع وخاصة الوعرة منها التي كان يعسر غلى الابل اجتيازها، وبقيت هذه الطرق سائدة حتى اواخر القرن التاسع عشر حين تحول الحجاج الى طريق البحر.

أما أهمية شبه جزيرة سيناء الزراعية فضئيلة فالثروة النباتية فيها محدودة وحتى المراعي تكاد تكون قليلة، وانما لها شهرة خاصة



الجامع الصغير على قمة جبل موسى

في الثروة المعدنية فمعجم الفيروز عـرفت منذ عهد قدماء المصريين كما فصلنا سابقا، وكذلك النحاس الذي كانت تعتمد على مناجمه فيها دول ما بين النهرين وقل ذلك في بعض صخورهـا الجميلة كحجر الديورايت الاخضر الذي كثيرا ما استعمل لصنع تماثيل الآلهة والملوك في بلاد ما بين النهرين وغيرها من المناطق المجاورة، ثم المنغنيز وأجود أنواعه تـوجد عـلى بعد (١٠) الى (١٥) كيلو مترا في منطقة (ابو زنيمة) — في اواسط الشاطىء الشرقي لخليج السويس، ثم الذهب والكبريت في هضبة التية في اواسط شبه الجـزيرة، والملـح البحري في الشمـال والملـح الصخـري في الوسط. كمـا اصبح لاكتشـاف البترول بها في القرن الاخير اهمية تذكر ومعظم آبـاره في المنطقـة الغـربيـة المجـاورة لخليـج السويس.

كما تنتشر عـلى هذا الشاطىء الينابيـع الحارة كالنبـع المعروف بحمـام فرعـون الذي ينبثق من سفح جبل فرعون الواقع على الشاطىء الشرقي الشمالي لخليـج السويس قـرب رأس ملعب وفم وادي وسيط وهو نبع كبريتي حار تبلغ درجة حرارته (٧٠) مئوية ويستحم به بدو سينـاء استشفاء من الـروماتيـزم والامـراض الجلـدية الا ان المستحمـين ينزلـون في مياه الخليج بعيدا عن فم النبع تجنبا لحرارته ثم يقتربون من النبع تدريجيا — وكحمام موسى الذي ينبثق من جبل همام موسى الواقع على بعد نحو ٤ أميال الى الشمال من ميناء الطور قرب رأس ابو صويرة وفيه سبع عيون كبريتيه حارة.

أقسامها الطبيعية

يمكن تقسيم شبـه الجـزيـرة بحسب تضاريسها الى ثلاث مناطق.

١ — **المنطقة الشمالية وهي قسمان:**

أولهما المنطقة الساحلية المشـرفة عـلى البحر الابيض المتوسط والممتدة من رفح شرقا الى بور سعيد غربا وهي عبارة عن سهول رملية تتخللها بقع صالحة للزراعة كمـا انها طيبـة المرعى، عذبة المياه وافرتها الى الشرق من مدينة العريش كما يقل عشبها وماؤها الـذي تزداد ملوحته كلما اتجهنا غربا حتى نبلغ (الفرمـا) القريبة من قناة السويس حيث لا عشب ولا ماء. وقد اطلق مؤرخو العرب وجغرافيوهم عليها اسم (الجفار) — جمع جفر — وهي البئر الواسعة القـريبة القعـر. وتنتشر بهـا اشجار النخيل — ولتمر العريش شهرته الواسعة — وكذلك الكروم والرمان والفواكه الاخرى. كمـا تكثـر زراعة القمـح والشعير والـذرة والبطيخ وسائر الخضار.

ويعمل الكثيرون من أهلها في صيد طائر (السمن) بأعداد وفيـرة وهذا الطـائر يهـاجر سنويا في فصل الخريف من سهول روسيا الى اواسط افريقيا ثم يعود في شهري شباط وآذار (فبراير ومارس) فينصبون الشباك لاصطياده في ذهابه وإيابه.

ويتوسط هذا القسم (سبخة البردويـل) التي يبلغ طولها نحو من (٥٨) ميلا كما يتراوح عرضها بين نصف ميل وعشرة أميال ولها فم ضيق تدخل فيه مياه البحر، وكانت تدعى قديما (سربونيوس) وهي قليلة العمق اذ قلما يتجاوز عمقها في اكثر الحالات مترين او ثلاثة الا انها

كثيرة الاسماك التي يصنع منها (الفسيخ).

وثانيهما: يقع الى جنوب الاول وهو منطقة كثبان رملية غير متماسكة الا حيث ينمو العشب على سطحها وهذا محدود جدا، ولذا فرمالها متفككة تغور فيها الاقدام. ويتراوح ما يسقط فيها من المطر سنويا ما بين ٧٥ الى ١٠٠ مم، وتحتفظ الكثبان الرملية بهذا المقدار الضئيل من ماء المطر.

وأهم مراكز ومدن المنطقة الشمالية (العريش) وقد بنيت على أنقاض مدينة للمصريين القدماء كانت تدعى (رينو كولورا) ومعناها مجذوم الانف وتقول الرواية انها كانت منفى لمن حكم عليهم بالاعدام ثم استبدل الحكم بجذم الانف اما اسمها الحالي، اي العريش فهو الاسم الذي اطلقه عليها الغرب لان القوم كانوا يسكنون في مظال من القش اليابس، كما يفعل ابناء البادية عادة في فصل الصيف اتقاء للحر، وتقع على بعد نحو ميلين من شاطىء البحر الابيض المتوسط وعلى مقربة من مصب وادي العريش كما تبعد عن مدينة القنطرة الواقعة على قناة السويس، الى الشمال من الاسماعيلية، نحو (٨٥) ميلا. وبها قلعة ضخمة مصفحة بالحديد والصلب تعلو خمسة أمتار ويبلغ عرضها ثلاثة أمتار ونصف المتر، وكان في صحنها حوض اثري من الغرانيت الاحمر نقش على جدرانه الاربعة كتابة هيروغليفية نقل اليها من مصر في عهد لا يعرف بالتحديد ثم تم نقله الى المتحف المصري عام ١٩٠٧م وفوق البوابة ست لوحات رخامية نقش على ادناها انها من انشاء السلطان العثماني سليمان القانوني وكتب التاريخ شعرا وهو :

في عصر باد شاهمز مرحبا بالعارفين
وأبشروا تاريخه «فيه أمن الخائفين»

وقد عثر في هذه المنطقة الشمالية على كثير من النقود التي ترجع الى العهد البيزنطي كما والكثير من آثار الاقدمين كبقايا هيكل من بناء الفرعون سيتي الاول ورعمسيس الثاني للاله (هورس) وآثار معسكر روماني وجدت به كتابة باللاتينية من عهد ديوقلتيان. وقد اتى على ذكر محطات الطرق في هذه المنطقة قدامى الجغرافيين العرب ومن قبلهم استرابون وبلني الا ان هذه الطرق وتلك المحطات بلغت ذروة الاهمية زمن سيطرة الرومان والبيزنطيين ولذلك نجد ان آثارهم هي الغالبة.

٢ - منطقة التيه:

وتقع الى جنوب الاولى وهي عبارة عن هضبة جامدة التربة متماسكة السطح تغطيها طبقة رقيقة من فتات الصوان ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر نحوا من خمسمائة متر وتجري على سطحها عدة مجاز مائية معظمها قليل العمق وهي جافة خلا فترات سقوط الامطار وأهمها شأنا وادي العريش الذي يخترقها من الجنوب الى الشمال منتهيا بالبحر الابيض المتوسط عند مدينة العريش. واهمية هذه المجاري والوديان في المواصلات كبيرة فلا بد للطرق ان تتبعها. ومنطقة التيه هذه قليلة المطر اجمالا نادرة العشب متباعدة الآبار وكانت تخترقها طريق الحج من مصر الى العقبة. واشهر مدن التيه مدينة (نخل) وبها قلعة قديمة من بناء السلطان قانصوه الغوري عام ١٥١٦ م وكان اسمها قديما (نخر) اما اسمها الحالي (نخل) فربما كان نسبة الى الرياح السافية التي تسفي على الناس ترابا دقيقا كأنما نخل بمنخل وقد كانت اهم محطات طريق الحج قديما بين السويس والعقبة.

٣ - المنطقة الجنوبية:

وهي منطقة الجبال النارية المرتفعة المتراكمة والشديدة الوعورة. تعلو في الوسط وتنحدر شرقا الى خليج العقبة وغربا الى السويس وديانها عميقة ويصيبها من الامطار اكثر ما يصيب سابقتيها، ولذا اصبحت فيها حياة نباتية قل ان توجد في الاقسام الاخرى. ويمتد في شرقها سهل رملي على طول خليج العقبة، كما ان المنبسط الرملي يتسع في غربها ويعرف بسهل القاع ممتدا من رأس محمد في اقصى الجنوب الى وادي فيران شمالا.

واكثر جبال المنطقة ارتفاعا هو جبل (سانت كاترين) اذ يبلغ ارتفاعه ٢٦٤١ مترا عن سطح البحر وتعود تسميته الى اسطورة

يتناقلها الرهبان مفادها ان الملائكة حملت جثة القديسة كاترينا بعد استشهادها في الاسكندرية عام ٣٠٧م ونزلت بها على رأس هذا الجبل، والى الجنوب من جبل (ام شومر) الذي يتلوه في الارتفاع اذ يعلو ٢٥٨٦ مترا عن سطح البحر، اما الى شماله الشرقي فجبل موسى الذي يرتفع ٢٢٨٥ مترا عن سطح البحر وفي رأس هذا الجبل كنيسة ومسجد صغيران ويزوره البدو مرة كل عام صاعدين اليه ومعهم الذبيحة وفي اليوم الثاني يعيدون لهارون وفي المنطقة الوسطى عدة قمم ايضا يزيد ارتفاعها عن (٢٤٠٠) مترا كجبل الرمحان وجبل البتت. والى الشمال من جبل موسى قمة تدعى جبل المناجاة وفي تقاليد الرهبان ان جبل جوريب المعروف في التوراة الذي انزل الله به على موسى الشريعة. وفي المنقلب الغربي من قمة المناجاة هذه، وادي الدير وقد دعي بهذا الاسم لانه اقيم على جانبه دير طور سيناء الشهير والمعروف (بدير القديسة كاترينا) وهو للروم الارثوذكس وقد بناه الامبراطور جوستنيان عام ٥٤٥ ويعلو عن سطح البحر من ١٥١٧ مترا، وللدير سور متين مبني بحجر الغرانيت المنحوت وضمنه عدة كنائس ومسجد اهدي اليه المنبر سابع الخلفاء الفاطميين الآمر بأحكام الله ابو علي المنصور، وكذلك مكتبة قيمة تحوي عدة آلاف من المجلدات أكثرها باليونانية والعربية واشهرها (الانجيل السرياني) المكتوب على رق غزال وهذه اقدم نسخة للانجيل مترجمة عن اليونانيين في القرن الثاني للميلاد - وكذلك (العهدة النبوية) وهي العهد الذي، حسب تقاليد الرهبان المتواترة، ان الرسول الكريم محمد بن عبد الله امر بكتابته في السنة الثانية للهجرة اماناً لهم وللنصارى كافة على اموالهم وبيعهم، الا ان السلطان سليم العثماني بعد افتتاحه المنطقة بأسرها عام ١٥١٧ م اخذها منهم وجعل لهم مكانها نسخة عنها مع ترجمتها بالتركية - الا ان بعد الباحثين المحققين ومنهم المرحوم احمد زكي باشا (شيخ العروبة) انكر صحة هذه العهدة وصدورها عن النبي الكريم وهم على يقين ان الرهبان اختلقوها لدفع الاذى عنهم من الحكام والدهماء. ويستند هؤلاء في انكارهم لها انها مؤرخة في السنة الثانية للهجرة مع العلم ان الهجرة لم يؤرخ لها الا في السنة الثامنة عشرة، كما ان بعض الشهود من الصحابة كأبي هريرة وأبي الدرداء - المذكورة اسماؤهم في ذيل العهدة لم يكونوا قد أسلموا بعد في السنة الثانية للهجرة وهم يستندون ايضا في اعتقادهم بزيفها ان جميع مؤرخي عصر النبوة احصوا كل قول او اثر او عهد للنبي الكريم ولم يأت اي منهم على ذكر هذه العهدة او اية اشارة تدل عليها.

وليس في هذه المنطقة الا مدينة واحدة هي ميناء (الطور) الواقعة على الشاطىء الجنوبي من سيناء والشرقي من خليج السويس وقد المحنا فيما سبق الى اهميتها التجارية في العصور الغابرة، وكانت تدعى في العهود الغابرة (ريتو) وبقيت تعرف بهذا الاسم حتى القرن الخامس عشر الميلادي وهي ذات مرفأ حسن وجرف مرجاني يمتد عشرات الامتار تحت سطح البحر وبها من الآثار القديمة مسجد وكنيسة تدعى (كنيسة مار جرجس).

وعلى القسم الجنوبي من الشاطىء الشرقي لسيناء والغربي لخليج العقبة وعند فم وادي (نصب) توجد واحة شهيرة تدعى (دهب) كانت مركزا لتجمع قبائل البدو الرّحل الباحثين عن الكلأ والعشب، وبعد احتلا الاسرائيليين لشبه الجزيرة عام ١٩٦٧م جعلوا منها منتجعا حظي بشهرة عالمية اذ ان هذا الموقع يجمع بين المناخ الشتوي الدافىء والمياه الصافية النقية وبالاضافة الى ذلك مجموعة نادرة غنية من الحياة البحرية وفي مياهها واد يعرف (بالوادي الدامي) وهو ممر عبر سلسلة صخرية يبلغ عمقه ٣٦ مترا اما تسميته بهذا الاسم فتعود الى مصرع كثيرين من الغواصين فيه نتيجة لتعرضهم لقرصات اسماك سامة، وما زال يؤمه الوف الغواصين من مختلف انحاء العالم سنويا، اذ اصبح مركز الغوص الرئيسي في شبه الجزيرة.

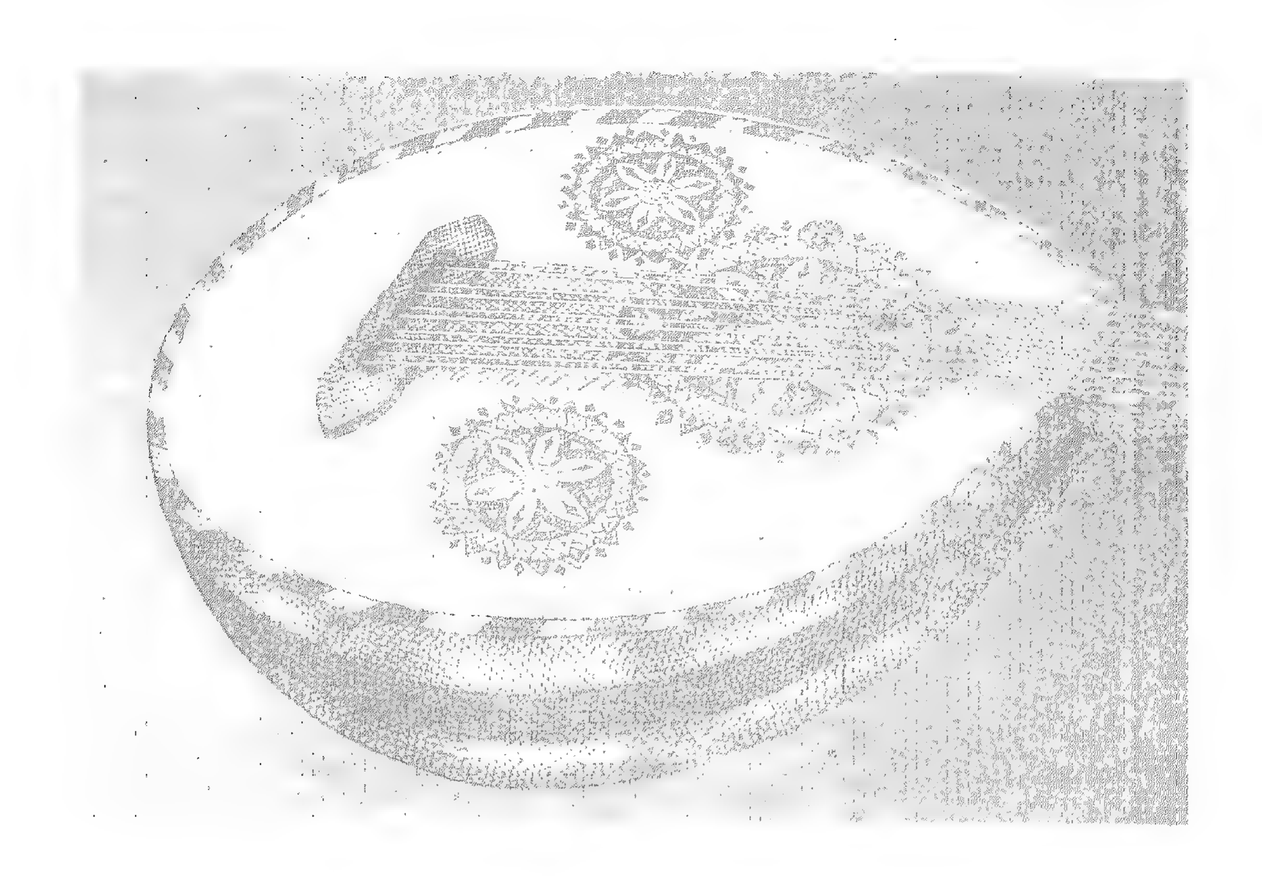
■



لا بد وانكم فكرتم عند اطلاعكم على عنوان هذه المحاضرة[1] بقصص الف ليلة وليلة وتوجه تفكيركم الى الخلفاء الذين كانت موائدهم الدسمة يعقبها كل ما يطرب وينعش من الموسيقى والرقص والغناء والحفلات الصاخبة والليالي الماجنة الحمراء بجواريها الحسان والخصيان والنبيذ والندماء والشعراء والمطربين والحان العود. وحتما ستعود بكم الذاكرة الى هارون الرشيد، ذلك الخليفة العباسي الذي لعبت ذكراه دورا هاما في اساطير الف ليلة وليلة كما ان قصة كاملة دارت وقائعها حول مطربه المقرب ابراهيم الموصلي لم تهمل التطرق الى ابنه المطرب المعروف اسحق الموصلي.

انه نفس المجتمع الذي سيدور الكلام هنا حوله واعني به بلاط هارون الرشيد وامسياته الموسيقية، غير اننا سوف لا نعتمد في ذلك على اساطير الف ليلة وليلة واقاصيصها، بل على مصادر عاصرت عهد هارون الرشيد بالذات. وسينصب مغزى ما سيجري سرده فيما يلي على رسم صورة لاحداث ومجريات سهرة انس وطرب يقيمها هذا الخليفة، صورة مجردة من الميوعة والعطور التي تتحلى بها صور الف ليلة وليلة، صورة طابعها الاعلام الموضوعي المجرد. ولكي لا ادخل في تيه من اسماء الموسيقيين، اخترت اربعا من مطربي البلاط نصاحبهم في هذه الامسية واود ان اقدمهم لكم فيما يلي بايجاز:

لقد ورد آنفا ذكر ابراهيم الموصلي، عميد موسيقيي البلاط وملكهم غير المتوج. ينحدر اصله من اسرة فارسية عريقة هاجر والده الى الكوفة هربا من الوالي الاموي ووضع نفسه كـ «مولى» تحت حماية قبيلة بني تميم. ترك ابراهيم المدرسة مبكرا وبدا حياته العملية معتمدا على نفسه. جاب كافة انحاء العراق وحل اخيرا في «ري» في ايران حيث كرس



نفسه للدراسة وتعلم الموسيقى العربية والفارسية المعاصرة بالرغم من معارضة اسرته . وبعد ان تقلد عدة مناصب كـ « نديم » رفعته باستمرار وشيئا فشيئا الى الاعلى في المجتمعات البغدادية ، ازداد شهرة ووصل صيته اسماع الخليفة المهدي الذي احتضنه وضمه الى مطربي بلاطه[٢] ويقال انه تمكن من اقامة علاقات صداقة شخصية ربطته بهارون الرشيد ايدتها الزيارات المتعددة التي كان يقوم بها الرشيد الى داره ، آخرها زيارته له قبيل وفاته عندما كان مريضا طريح الفراش للاستفسار عن صحته وتفقد احواله : « إن الرشيد هب ليلة من نومه ، فدعا بحمار كان يركبه في القصر اسود قريب من الارض فركبه ... فلما خرج من باب القصر قال : اين يريد امير المؤمنين في هذه الساعة ؟ قال : اردت منزل ابراهيم الموصلي ... فخرج فتلقاه وقبل حافر حماره وقاله له : يا امير المؤمنين ، أفي هذه الساعة تظهر؟ قال : نعم شوق طرق لك بي ، ثم نزل فجلس في طرف الايوان واجلس ابراهيم ... »[٣] .

وبعكس ابراهيم الذي كان عليه كشاب ان يبدأ من العدم يعمل بجد ومشقة لبلوغ هدفه المنشود في تنمية علومه ومواهبه ، نشأ ابنه اسحاق الموصلي في بيت جاه ورفاه . فبفضل موارده المالية العالية بصفته كبير مطربي البلاط تمكن ابراهيم ان يهيء لابنه اسحق فرص التربية والتعليم التي كان يتمتع بها الامراء في بيت الخلافة . فشخصيات لامعة اسماؤها كالاصمعي وابو عبيدة وغيرهم من ادباء وعلماء زمانهم كانوا خير ضمان لتربيته العالية في العلوم الاسلامية والشعر والادب[٤] . وقد نبغ كتلميذ في الفقه على يد استاذه مالك ابن انس وغيره[٥] . وخير دليل على ذلك ما شهد له به المامون عندما قال : « لولا ما سبق على السنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتي ، فانه اولى به واعف واصدق واكثر دينا وامانة من هؤلاء القضاة »[٦] . اما تربيته الموسيقية فلم تكن شأنا من الاخرين إذ ان والده كان قد عهد بتربيته الموسيقية الى اشهر موسيقيي عصره .



جدارية من قصر الحير الغربي الذي يعود تاريخ بنائه الى عصر هشام حوالي ٧٣٠م.

واسحق، كابن مدلل ويتمتع باعجاب الجميع، بلغ الذروة مبكرا ولم يكن يطيق منافسيه وهذا يفسر لنا نزاعه الذي دام سنين عديدة مع ابراهيم ابن الخليفة المهدي، المغني الثالث الذي سيتناوله هذا المقال والذي يشير المؤرخون إلى انه لم يكن ذو قابلية للخلافة كالمأمون. وبالرغم من ان تربيتهما الموسيقية كانت في نفس المستوى[٧]، فقد كان ابراهيم متفوقا على اسحق في الغناء لما كان يتمتع به من صوت جميل رخيم[٨]، لذا كان اسحق دائما يحاول، معتمدا على حججه النظرية، جر ابراهيم إلى جدال طويل لا نهاية له كتسمية انواع الايقاع والاوزان مثل الثقيل والخفيف واهميتها[٩].

ورابع وآخر مغنينا، ابن جامع، ينحدر من اسرة مكية عريقة. تربيته تربية دينية اسلامية وكان متدينا يحفظ القرآن والحديث وعالما في الفقه بما يؤهله ارتداء ملابس رجال الدين. من اثقف مطربي عصره واكثرهم تدينا واعتاد ان يرتل القرآن كاملا كل يوم جمعة – «كان ابن جامع من احفظ خلق الله لكتاب الله واعلمه بما يحتاج اليه، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلي الصبح ثم يصف قدميه حتى يطلع الشمس، ولا يصلي الناس الجمعة حتى يختم القرآن ثم ينصرف الى منزله»[١٠]. ولا بد من الاشارة هنا الى انه لم يرد في القرآن نص صريح يمنع الموسيقى او الغناء وان بعض ملاحظات محمد النبي الموجهة ضد الموسيقى كانت تستهدف الغناء الماجن والحد من الاستهتار والمجون، لذا فان المسلم المتدين الذي كان يمارس الموسيقى والغناء لم يكن يفترض في عمله هذا مقدما ما يناقض الدين[١١]، غير ان ما كان سيقوله النبي عن امسيات هارون الرشيد – فهذا امر آخر!!

وقد تمكن ابن الجامع من تنمية ذوقه الموسيقي عندما تزوجت امه للمرة الثانية من احد مشاهير المطربين الذي اصبح استاذه الاول في هذا الفن[١٢]، وقد ربطته صداقة متينة بابراهيم الموصلي لم يعكرها سوى اتباعه اسلوبا

آخر في الموسيقى والغناء يغاير اسلوب الموصلي[١٣]، غير ان خلافاتهما هذه لم تؤد مطلقا الى منازعات شخصية كتلك التي كانت تسود علاقات ابراهيم ابن المهدي واسحق الموصلي[١٤].

بهذا عرفتكم على اهم العناصر في سهرتنا، اثنين من كبار السن، الموصلي الاب وابن جامع واثنين من الجيل الاصغر، اسحق ابن ابراهيم الموصلي وابراهيم ابن المهدي. والسبب في اختيار هذه الامسية في دار خلافة هارون الرشيد يعود الى ان تاريخ الموسيقى العباسية بلغ اوجه في عهد هذا الخليفة. غير ان هنالك سبب آخر لاختياري الرشيد بالذات، إذ انه بعد استلامه الخلافة ادخل تبديلات على نظام مطربي البلاط مهدت لنا السبيل للحصول على معلومات ممتازة عن بعض التفاصيل الفنية لهذا التنظيم.

ويعتبر التنظيم المالي نقطة مهمة في هذا، فان سلف هارون وشقيقه موسى الهادي كان اثناء حكمه الذي استمر سنة واحدة، قد بذل المال بغير حساب للمغنين والشعراء والندماء واغدق عليهم بنفيس الهدايا[١٥]، فوضع هارون حدا لذلك بتقليصه الرواتب واختصاره الهدايا الى حد معقول. كما حدد للمغنين ايام عمل خاصة (نوبة) عليهم الحضور فيها الى البلاط[١٦]، واستثنى من هذه القاعدة المطربين المقربين اليه جدا الذين وجب عليهم ان يكونوا دائما على اهبة الاستعداد للاستجابة الى نداء الخليفة. وكان يصعب جدا على هؤلاء التمتع باجازة او استراحة لبضعة ايام، فابراهيم الموصلي مثلا كان يتمتع براحته يوم السبت فقط: «ابراهيم قال: سألت الرشيد ان يهب لي يوما في الجمعة لا يبعث فيه اليّ بوجه ولا بسبب لاخلوا فيه بجواري واخواني، فاذن لي في يوم السبت ...»[١٧]. وبالاضافة الى ذلك فقد عدل هارون بعض العادات والتقاليد التي سار عليها اسلافه وتوسع في التحرر من بعض القيود التي كانت مفروضة والتي كانت بطبيعتها - كغيرها من تقاليد البلاط - تعود الى العادات الفارسية. فجرت العادة ان تفصل بين الخليفة ومطربيه ستارة[١٨]، والامر يعود الى الخليفة عندما يحظي مطربوه بفائق استحسانه، ان يعبر عن هذا الاستحسان إما برفع الستارة او السماح للمطرب بتقديم ما لديه من مقطوعات امامه مباشرة، وكان الرشيد غالبا ما يفعل ذلك في سنوات حكمه الاخيرة. وعند مراجعة المصادر يرسخ الاعتقاد بان ما يقارب نصف الحفلات فقط كانت فيها الستارة مسدلة بينما كانت مرفوعة في القسم الاعظم من حفلاته الموسيقية[١٩]، وهكذا لم يكن من المستحب ان تقرن صالة الموسيقى بكلمة «الستارة». وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى الوضع الخاص لابراهيم ابن المهدي الذي كان إبن خليفة ومطرباً في نفس الوقت، إذ احيانا كان يجلس مع المغنين خلف الستارة[٢٠]، واحيانا نجده مع المغنين المقربين الذين يسمح لهم بالغناء بدون ستارة[٢١]، لكنه غالبا ما قدم - اكثر من غيره - اغان خاصة في حضرة هارون الرشيد[٢٢].

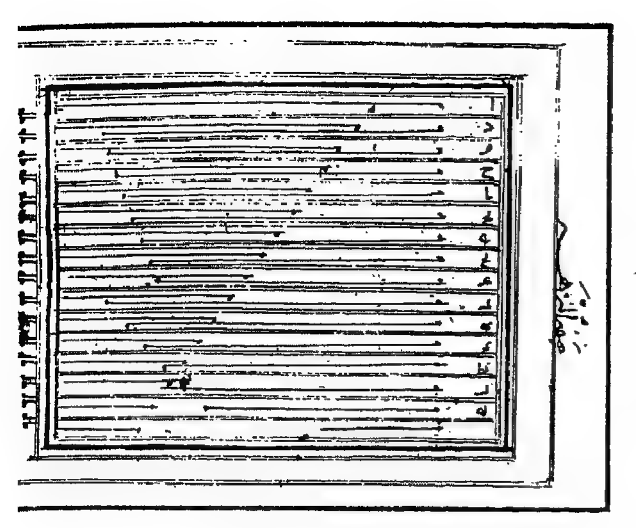
وكان رجل الارتباط بين الخليفة وموسيقييه «خادم المطربين»، ويظهر بأن هذه الوظيفة استحدثت في عهد هارون الرشيد. ومع وجود خادم في البلاط في العهود السابقة مهمته الوقوف عند الستارة اثناء الحفلة لايصال رغبات الخليفة الى المغنين[٢٣]، غير انه لم يكن هنالك الى ذلك الحين خادم مثل هشام مسرور احد الخدم المقربين جدا الى الرشيد[٢٤]. وكانت صلاحياته وواجباته تتجاوز الى حد بعيد صلاحيات ومهام «الحاجب» ولم يقتصر عمله على ايصال هدايا ومكافآت الخليفة للموسيقيين الى منازلهم فحسب او زيارتهم بتكليف من الخليفة او الطلب اليهم الحضور الى القصر بصورة مفاجئة عندما يحتاجهم الخليفة، بل كان يقوم ايضا بايقاع ما يأمر به الخليفة من جلدات باحدهم او يتابع تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخليفة عندما يغتاظ منهم[٢٥]. وكان يتكرر وقوع هذا إذ لم يكن اي من الموسيقيين ضامنا عدم حدوث ما قد يؤدي الى غضب الخليفة او استيائه.

جرت العادة ان يشترك في الامسيات الموسيقية حوالي سبعة موسيقيين[٢٦]، يأخذون اماكنهم خلف الستارة حسب نظام خاص انفرد

الرشيد بوضعه وكان – حسب علمي – اول من وضعه، وهو نظام مقتبس من مراسيم البلاط الساسانية يوزع الموسيقيين الى ثلاث «طبقات» تبرز للعيان بالجلوس في ثلاثة صفوف خلف بعضها. اعتمد هذا التوزيع على سن واهمية المطرب(٢٧)، فابراهيم الموصلي وابن جامع مكانهم عادة في الصف الاول(٢٨)، بينما على الشباب امثال اسحق الموصلي ان يسعوا اليه. وعازفو الآلات الموسيقية مكانهم عادة في الصف الثالث وبعضهم – في احسن الظروف – في الصف الثاني(٢٩)، وتبلغ المسافة بين الصف الاول والستارة عشرة اذرع(٣٠)، ويجلس المغنون جنبا الى جنب. وقد اثبت هذا النظام جدارته وخاصة في حالات معينة، فمثلا ان ابن جامع اخذه النعاس في احدى الامسيات لتعبه الشديد فاوقظه جاره ابراهيم الموصلي بمرفقه – «وهوم ابن جامع سكرا ونعاسا، فلما دار الغناء على اصحابه وصارت النوبة اليه، حركه من جنبه لنوبته فانتبه ...»(٣١).

تبدأ الامسية الموسيقية عادة بعد صلاة العشاء عندما تزول حرارة العصر، فيجتمع الموسيقيون في هذا الوقت عند بوابة القصر(٣٢)، ثم يسيرون مجتازين اقسام القصر المختصة للاعمال الرسمية (دار العامة) ومن ثم، حسب طبيعة بناء القصر، فناء داخليا او اكثر ليبلغوا «دار الخاصة». وعادة تقع صالات الاحتفالات الخاصة قرب جناح النساء(٣٣)، لتتمكن الجواري من الاشتراك في الحفلة من وراء ستارة تخفيهن عن الانظار حيث يقوم الخليفة بزيارتهن اثناء الامسية(٣٤). وامام هذه الصالات تقع الغرف الخاصة بالمطربين والندماء والشعراء التي يتمكنون فيها من التهيؤ لادوارهم(٣٥).

والصالة بحد ذاتها فيها كل ما يمكن تصوره من معالم الابهة والغنى التي قرانا عنها في الف ليلة وليلة، فالجدران والبلاط من انواع مختلفة من المرمر كما ان بعض الجدران تكسوها الاقمشة المطرزة بالذهب والارضية بلاطها إما الموزائيك احيانا او التصاوير غالبا(٣٦). واحيانا نجد الستائر المصورة المصنوعة من اجود انواع الحرير والبروكات



«النوتة الموسيقية» من كتاب الادوار لصفي الدين.

وتحمل اسم الخليفة محاكا فيها. وقد عثر على عدد كبير من هذه الستائر عند جرد مخلفات هارون الرشيد(٣٧)، وفي وسط القاعة يقوم مقعد الخليفة الوثير مرتفعا مشرفا على الصالة(٣٨)، على بعد عشرة اذرع من الستارة(٣٩).

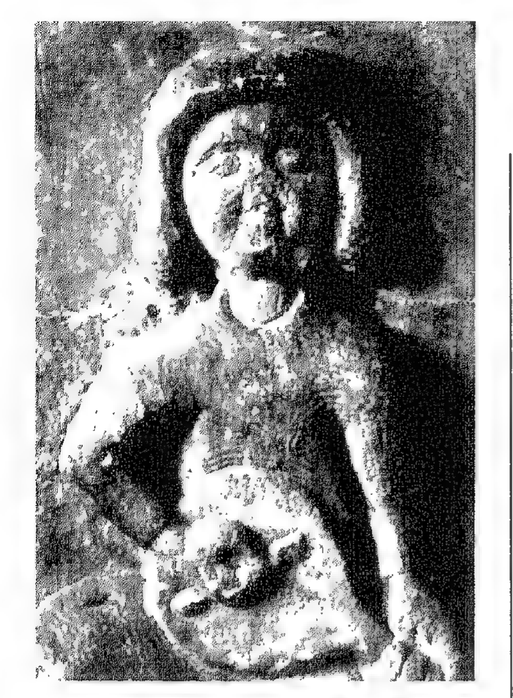
وقبل الحفلة يرتدي الخليفة ملابس لا تقل جودة ورونقا عما في الصالة، اما الموسيقيون فليس هنالك ما يحدد ويعين ملابسهم وتعتمد عادة في شكلها والوانها على ذوق الفنان وخياله واناقته. وجماعة الظرفاء منهم سعت الى تطوير عاداتها الخاصة بها والتي تعطينا انطباعا عن ملابس الرجل المثقف النبيل، كالعطر الذي يستعمله واشياء اخرى عديدة(٤٠). وبصورة عامة نجد الملابس متنوعة الاشكال فضفاضة ذات الوان زاهية تسترعي الانتباه حتى بالنسبة للذوق في الوقت الحاضر، فنسمع مثلا ان اسحق الموصلي دخل مرة على الخليفة الامين مرتديا قباء احمر وخفا سيوره صفراء وحزاماً احمر – «وقد لبست قباء وخفا احمر واعتصبت بعصابة صفراء وشددت وسطي بشقة حمراء من حرير»(٤١). والتقيد الوحيد في اختيار الملابس ينحصر في عدم السماح في ارتداء الملابس الخاصة بمن يتمتع بمرتبة اعلى او قباء الخليفة(٤٢).

ومن قواعد اللياقة لدى موسيقيي القصر التجنب المطلق لانبعاث الروائح الكريهة(٤٣)،

لذا استعملوا العطور[٤٤]، وكان ابراهيم المهدي اكثر من تهمهم هذه القواعد، إذ كان لقبه «التنين» نظرا لضخامة جسمه[٤٥]، فكان يرتدي تحت ملابسه صيفا وشتاء ثوبا محاكا من القطن يمنع تسرب رائحة العرق من جسمه[٤٦].

وفي بداية الحفلة كان على الفنانين استعمال الصيغة التالية لتحية الخليفة: «السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»[٤٧]، اما السجدة فلم تكن متبعة في ذلك الوقت للتحية كما اصبحت عليه في عهد الفرس بل كانت للتعبير عن الشكر والامتنان كتقبيل اليد او الرجل ولا علاقة لها ببداية الحفلة او نهايتها[٤٨]. وبعد التحية يسمح الخليفة للموسيقيين بالجلوس. ان كل هذا وما يعقبه يعتبر جزءا من المراسيم التي قد تؤدي مخالفتها الى عقوبات امرها الطرد من مجموعة موسيقيي البلاط. وقد حدث هذا لاحد المطربين إذ احتسى كميات من الخمر كبيرة وقام بتصرفات غير لائقة[٤٩].

وبعد ان يجلس الجميع يعطي الحاجب اشارة لوزن الآلات[٥٠] ويستصحب عادة كل موسيقي عوده او آلته معه، ويعتبر العود الآلة



نقش نافر من العصر السلجوقي

الموسيقية الرئيسية الى جانب الناي والقيثار. وتوزن الآلات بموجب الوتر الاعلى الثاني العود[٥١] وقد انتقلت هذه العادة مع الآلة الى اوروبا عبر اسبانيا واصبحت تطبق على الكمان، إذ ان الفرق الموسيقية الغربية تقوم حتى الآن بوزن الاتها على نغمه (آ) المنبعثة من الوتر العلوي الثاني لكمان العازف الاول. ■

يتبع

هوامش

(١) محاضرة القيت في شهر ايار ١٩٦٨ باللغة الفرنسية في فروع معهد جوته في القاهرة والاسكندرية وبيروت.

(٢) ابو الفرج علي ابن الحسين الاصفهاني (المتوفي ٣٥٦/٩٦٧)، كتاب الاغاني الكبير. صدرت منه منذ عام ١٩٢٧ من قبل دار الكتب المصرية في القاهرة الاجزاء ١ - ١٦. ص ١٥٤ - ١٥٩. سيشار اليه في الهوامش فيما بعد بـ «الاغاني ٣».

(٣) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢١٨ - ٢١٩، ٢٥٣.

(٤) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٧١. ياقوت ابن عبد الله شهاب الدين ابو عبد الله الحموي الرومي (المتوفي ٦٢٦/١٢٢٩)، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب طبعة D. S. Margolioth في سبعة اجزاء لندن - ليدن ١٩٠٧ - ١٩٢٧ الجزء ٧ ص ٢٨٩.

(٥) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٦٩.

(٦) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٧٢ - ٢٧٣. قارن هنري جورج فارمر، تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر، لندن ١٩٢٩ ص ١٢٤.

(٧) الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ٩٧.

(٨) الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ١٠٠ - ١٠١، ١٠٨ - ١١٠.

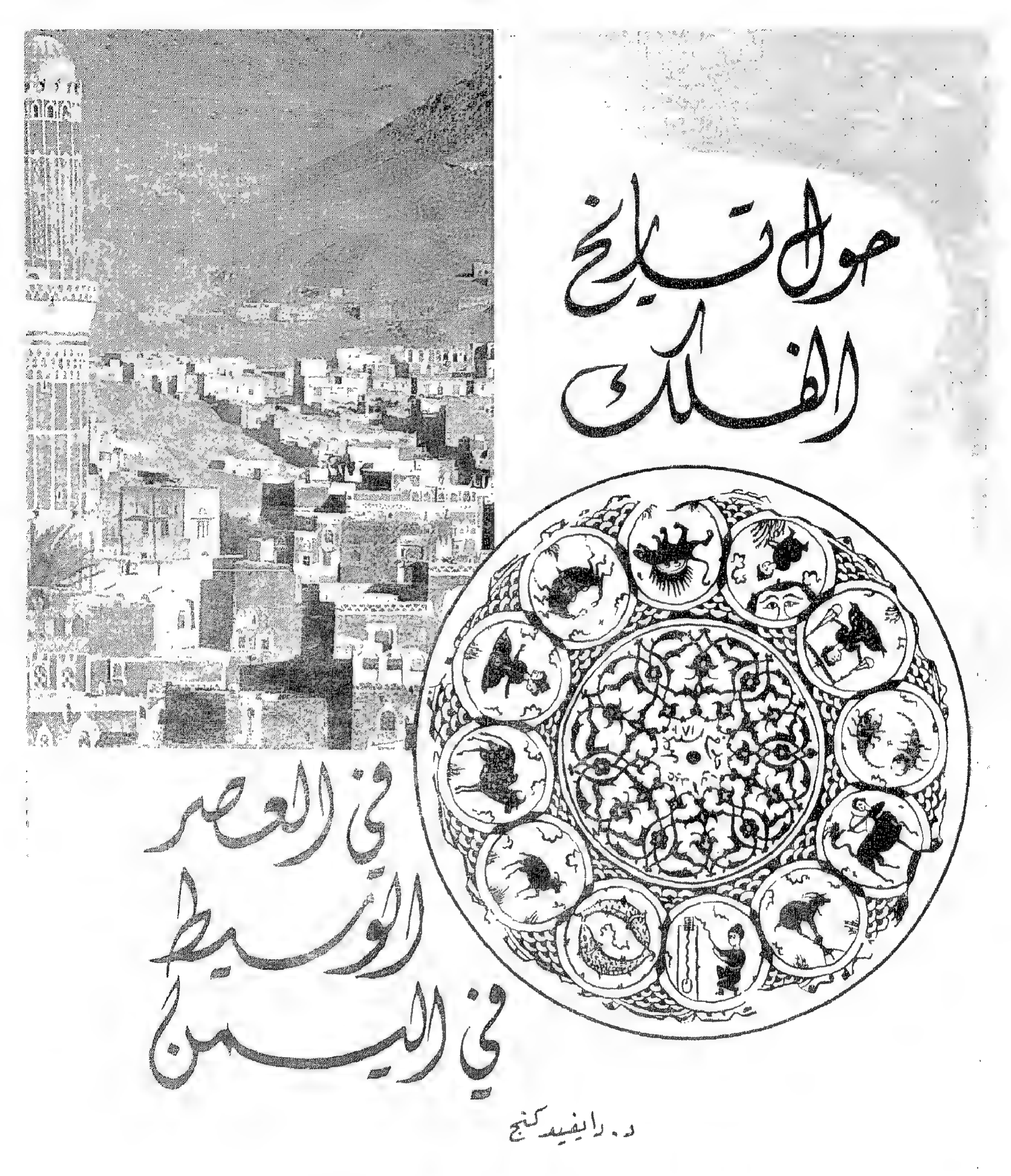
(٩) الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ٩٦ - ٩٧.

(١٠) الاغاني ٣ الجزء ٦ ص ٢٩١. قارن الجزء ايضا الجزء ٦ ص ٢٩١ - ٢٩٣.

(١١) محمد حميد الله - الذوق والفن في تعاليم النبي، محفوظات المؤتمر الدولي الرابع والعشرين للمستشرقين المنعقد في مونيخ سنة ١٩٥٧ ص ٣٦١.

(١٢) الاغاني ٣ الجزء ٦ ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(١٣) ابو الفرج الاصفهاني ، كتاب الاغاني الكبير طبعة بولاق سنة ١٨٦٨/١٢٨٥ في ٢٠ جزء ، ص ١٧ و ٧٣ . سيشار اليه فيما بعد في الهوامش الاغاني ١ .
(١٤) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٤١٠ ، الجزء ١٠ ص ٩٧ ، ١٤٤ - ١٤٥ .
(١٥) قارن الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ١٦٣ .
(١٦) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٥٢٣ و ٣٨١ . قارن ايكهارد نويباور ، الموسيقيون في بلاط العباسيين الاوائل ، اطروحة ، فرانكفورت ١٩٦٥ ، ص ٥٣ - ٥٧ . سيشار اليها في الهوامش فيما بعد - نويبار ، موسيقيو البلاط .
(١٧) الاغاني الجزء ٥ ص ٢٣١ . قارن نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٥٥ .
(١٨) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٨٢ - ٨٣ .
(١٩) نفس المصدر السابق ص ٦٥ .
(٢٠) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ١٢٦ .
(٢١) نفس المصدر السابق الجزء ١٠ ص ٩٨ .
(٢٢) نفس المصدر السابق الجزء ١٠ ص ٩٦ .
(٢٣) عمرو ابن بحر الجاهظ (المتوفى سنة ٨٦١/٢٥٥) ، كتاب التاج في اخلاق الملوك . نشر احمد زكي باشا ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ١٩٤٤/١٣٢٢ ص ٣٤ وسيشار اليه فيما بعد - جاهظ ، التاج .
(٢٤) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢١٨ .
(٢٥) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٥٦ - ٥٧ .
(٢٦) الاغاني ١ الجزء ١٨ ص ١٢٦ ، ابو الفرج الاصفهاني - كتاب الاغاني الكبير تعقيب على طبعة بولاق الاولى (٢٠ جزء) ويعتبر الجزء ٢١ ليرنوف R. Brunnow ليدن ١٩٠٥ وسيشار اليه فيما بعد - الاغاني برونوف .
(٢٧) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٥٧ و ٨١ .
(٢٨) احمد ابن محمد ابن عبد ربه (المتوفي ٩٤١/٣٢٨) العقد الفريد ، نشر احمد امين ، احمد الزين وابراهيم الابياري ، سبعة اجزاء ، القاهرة مطبعة لجنة التاليف ١٩٤٠/١٣٥٩ - ١٩٥٢/١٣٧٢ . الجزء السادس ص ٣١ .
(٢٩) جاهظ ، التاج ص ٣٦ .
(٣٠) نفس المصدر السابق ص ٢٨ .
(٣١) الاغاني ٣ الجزء ٦ ص ٣٠٧ ، ٣٠٤ .
(٣٢) نويباور ، موسيقيو البلاط ، ص ٧١ .
(٣٣) نفس المصدر السابق ص ٧٨ .
(٣٤) الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ١٢١ .
(٣٥) نفس المصدر السابق الجزء ٥ ص ٢٨٦ (يعود هذا الوصف الى عصر المامون) .
(٣٦) نويباور ، موسيقيو البلاط ، ص ٧٨ .
(٣٧) نفس المصدر السابق ص ٨٢ .
(٣٨) الفريد فون كريمر - تاريخ الحضارة الشرقية في عهد الخلفاء . فينا ١٨٧٥ - ١٨٧٧ ، الجزء ١ ص ١٣٨ Alfred V. Kremer, Culturgeschichte Des Orient Unter Den Khalifen.
(٣٩) جاهظ ، التاج ، ص ٢٨ .
(٤٠) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٧٩ .
(٤١) الاغاني الجزء ٥ ص ٢١٧ .
(٤٢) جاهظ ، التاج ص ٤٧ - ٤٩ .
(٤٣) ابو الحسن محمد ابن الحسن ابن الطحان الموسيقي ، هاوي الفنون وسلوة المحزون (١٠٣٠/٤٢٠) نسخة دار الكتب المصرية في القاهرة ، فنون جميلة ٥٣٩ ، الحلقة ١٧٠ ا وسيشار اليه في الهوامش فيما بعد « هاوي الفنون » .
(٤٤) جاهظ ، التاج ص ٤٦ .
(٤٥) احمد ابن محمد ابن خلكان (المتوفي ١٢٨٢/٦٨١) وفيات الاعيان وانباء الزمان (معجم السيرة لابن خلكان) ترجمة M. G. De Slane اجزاء باريس ١٨٤٢ - ١٨٧٨ الجز الاول ص ١٧ .
(٤٦) ابو الحسن هلال ابن المحسن الصابي (المتوفي ١٠٥٦/٤٤٨) ، رسوم دار الخلافة ، نشره ميخائيل عواد ، بغداد ، مطبعة العاني ١٩٦٤/١٣٨٣ ، ص ٣٢ - ٣٣ .
(٣٧) نفس المصدر السابق ص ٣١ .
(٤٨) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٠٣ ، ٢٥٨ .
(٤٩) نفس المصدر السابق الجزء ١٤ ص ١٨٧ .
(٥٠) الاغاني ١ الجزء ١٨ ص ١٢٦ .
(٥١) رسالة يحى ابن المنجم في الموسيقى ، اصدار زكريا يوسف ، القاهرة ، دار القلم ١٩٦٤ ص ١٧ .



حول تاريخ الفلك في العصر الوسيط في اليمن

د. رايفيد كنج

○ كان علماء الفلك في العالم الاسلامي من القرن الثاني الهجري الى القرن العاشر الهجري من ابرز علماء الفلك في عصرهم. ففي خلال هذه القرون الثمانية قام علماء الفلك من المسلمين بارصاد جديدة ووضعوا الجداول وابتكروا الاجهزة الجديدة. وبوجه عام فقد حققوا تقدما في كل ناحية من نواحي ذلك العلم الذي كان محلا لاهتمامهم.

نشرت هذه المحاضرة التي القاها دافيد كنج في صنعاء، ١٩٧٤ في مجلة الاكليل العدد الاول كانون الثاني ١٩٨٠.

ولقد انتقل جزء صغير جدا من اعمالهم وانجازاتهم الى اوروبا في العصور الوسطى بينما ظل الجزء الباقي وهو الجزء الغالب دون ان ينتقل الى خارج العالم الاسلامي. وهذه الاعمال القليلة التي وضعها الفلكيون المسلمون والتي عرفتها اوروبا في العصور الوسطى هي الان معروفة الى حد ما لدى مؤرخي العلوم، ولكنها لا تمثل بحال ما انجازات المسلمين في الفلك.

ان العدد الضخم للاعمال الفلكية الاسلامية والتي لم تكن معروفة في اوروبا خلال العصور الوسطى، انما تعكس في الحقيقة الانجازات القيمة التي حققها هؤلاء الفلكيون، وهي الان معروفة فقط عن طريق الدراسات الحديثة للمخطوطات.

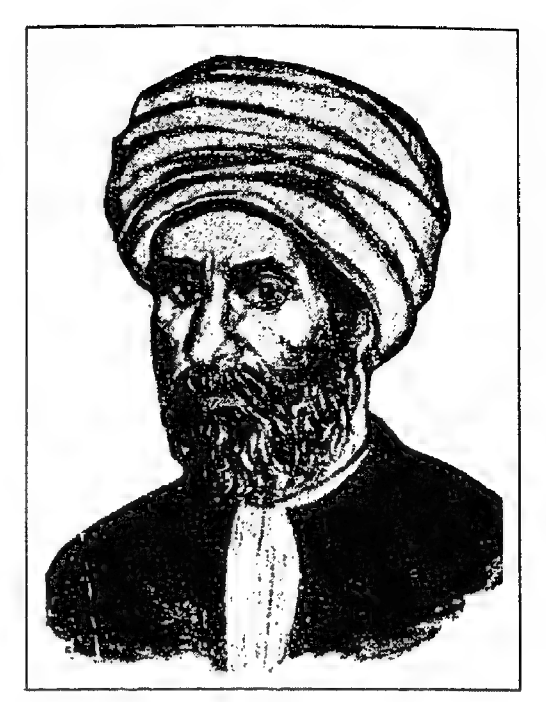
وتحتفظ المكتبات الكبرى في العالم العربي بمجموعات ضخمة من المخطوطات العربية العلمية، ومعظمها لم تمتد اليه يد الدراسة في الازمنة الحديثة. واكبر هذه المجموعات، وهي حاليا موجودة في اسطنبول وفي القاهرة، تحتوي على الآلاف العديدة من المخطوطات العلمية. وهذه المصادر الثمينة لم يجر تبويبها تبويبا مناسبا بعد.

وكل ما وضع بشانها لا يتعدى ان يكون قوائم باسماء المخطوطات واسماء مؤلفيها، كما ان كثيرا من هذه المخطوطات جاء ذكر بيانها على انها مثلا «مقالة في علم الفلك» او «جداول فلكية» دون ذكر اية معلومات اخرى عنها. وعملي في القاهرة حاليا كمدير مشروع مؤسسة سيتسونيان الامريكية في تاريخ علم الفلك الاسلامي يتضمن اجراء حصر اولي للمجموعة الضخمة من المخطوطات العلمية المحفوظة في القاهرة، ولاسباب ساوضحها في سياق كلمتي هذه فاني مهتم بنوع خاص في المجموعات المحفوظة في مكتبات صنعاء وتعز ايضا.

وتشتمل المكتبات الكبرى في اوروبا ايضا على المئات من المخطوطات العربية في علم الفلك. وقد نشر لكثير من هذه المكتبات فهارس دقيقة، ووضع مؤرخو العلوم دراساتهم وأسسوها بصفة رئيسية على المخطوطات العربية الكائنة في المكتبات الاوروبية فيما يتعلق بتاريخ علم الفلك في العصور الاسلامية. ومن الواضح تماما انه اذا امكن دراسة المجموعات الموجودة في اسطنبول والقاهرة ومكة ومشهد وفي اليمن، فان الصورة التي لدينا عن انجازات العلماء المسلمين ستحسن الى مدى بعيد.

واود ان اذكر هنا اسمين لعالمين اضافت بحوثهما الكثير من المعلومات التي لدينا عن علم الفلك الاسلامي. اول هذين العالمين هو مؤرخ العلوم السويسري هاينريخ سوتر. ففي عام ۱۹۰۰ قام سوتر بوضع قائمة لجميع علماء الفلك والرياضيات من المسلمين وكذلك اعمالهم. كما انه اضاف الى هذا بيانات لجميع مخطوطات اعمالهم مما كان معروفا لديه. وتضمنت قائمته ما يزيد على خمسمائة اسم. وقد سئل مرة عن السبب في انه لم يضع كتابا عن تاريخ علم الفلك الاسلامي ولكنه ادرك ان معظم الاعمال التي وضع قائمة بها لم تجر بشانها اية دراسات في العصور الحديثة. والعالم الثاني هو المؤرخ الامريكي ادوار كنيدي، ففي عام ١٩٥٠ قام كنيدي بوضع قائمة لجميع المؤلفات الفلكية الاسلامية المعروفة باسم «الزيج» (جمعها ازياج). والزيج كتاب يتضمن جداول لتحديد مواقع الكواكب ولحساب الكسوفات والاقترانات ولحل مشاكل فلكية اخرى. ومعظم الازياج هي جداول كبيرة تشتمل احيانا على مئات عديدة من الصفحات ولقد نشر منها ثلاثة ازياج فقط، وهي ازياج العلماء الثلاثة المشهورين: الخوارزمي، والبتاني، والبيروني. غير ان قائمة الازياج الاسلامية التي وضعها كنيدي تضمنت ١٢٠ زيجا، كما استطاع كنيدي ان يحدد مكان العشرات من هذه الازياج في مكتبات المخطوطات حول العالم، رغم ان العديد منها كان قد فقد بدون امل في العثور عليها.

وقد بدات دراساتي في علم الفلك الاسلامي ببحوث في مختلف الازياج. بيد انني منذ خمس سنوات مضت اكتشفت مخطوطا عربيا في دبلن - ايرلاندة ، يحتوي على مجموعة من الجداول في علم الميقات وكانت هناك مائتا صفحة تقريبا من هذه الجداول تتضمن ما يربو على ٣٠٠٠٠ قيد - اعني



البتاني

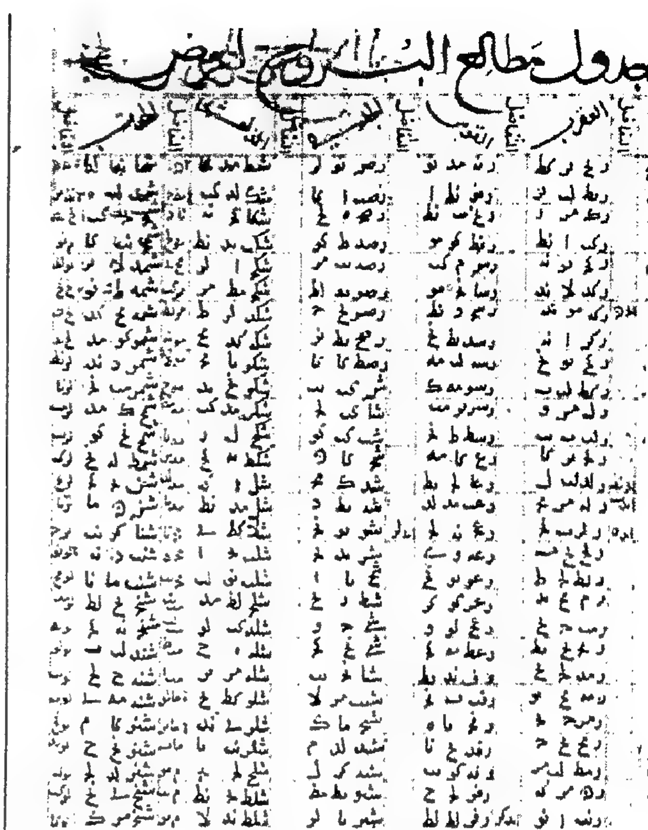
رقما - وجميع هذه الجداول كانت محتسبة للقاهرة وكانت تهدف الى حساب الوقت من ارتفاع الشمس وتنظيم مواقيت الصلاة، ولم نكن نعرف قبل ذلك ان الفلكيين المسلمين كانوا قد وضعوا جداول مماثلة محتسبة لكل من دمشق والقدس وتونس وبغداد واسطنبول، واخيرا وليس بآخر لمدينة تعز.

ويوجد فعلا الآلاف من المخطوطات لدراسة علم الفلك الاسلامي وهي مخطوطات الازياج، وجداول للميقات، وقوائم لمواضع الكواكب، ومقالات عن الاجهزة الفلكية وغيرها من موضوعات فلكية اخرى، مثل رؤية الهلال في غرة الشهر العربي.

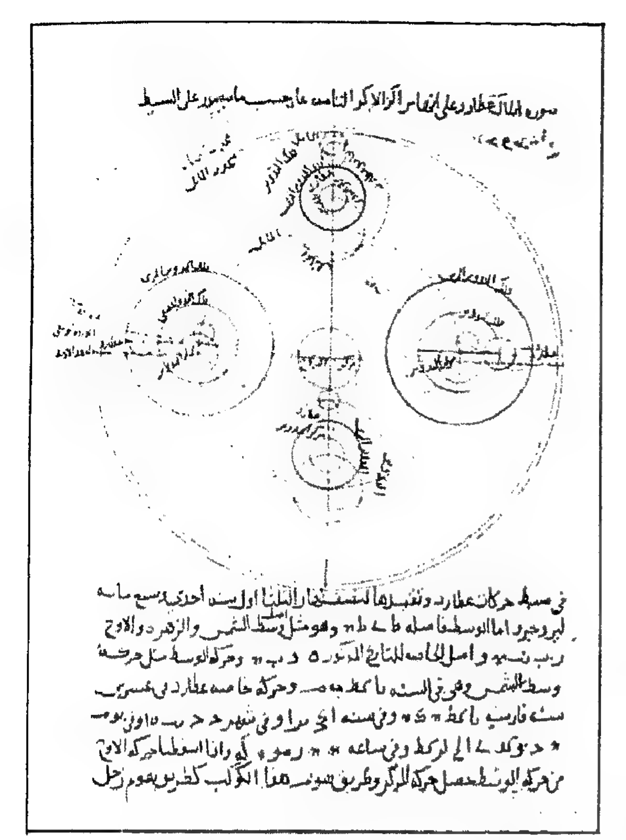
واعود الآن الى الموضوع الرئيسي في محاضرتي هذه ألا وهو تاريخ علم الفلك في اليمن. واود اولا ان اذكر انني لن اهتم في حديثي هذا بالفولكلور الفلكي، ولكن بعلم الفلك الرياضي فقط. وكما تعلمون دون شك، فان اوائل الثقافات التي ظهرت في جنوب الجزيرة العربية اهتمت كثيرا بالفولكلور الفلكي، وكذلك بفصول السنة المتغيرة وبحركة الكواكب اثناء الليل. وقد استمر ربط الدورات الزراعية بالفلك حتى يومنا هذا كما ترون مثلا في تقويم الجيل الجديد المنشور سنويا في صنعاء. وما اود الحديث عنه انما ينصب على علم الفلك الرياضي في اليمن وهو الذي كان اكثر تعقيدا من مجرد الفولكلور الفلكي والذي تم اكتشافه خلال السنوات القليلة الماضية فقط، هذا من بحوث جرت على مخطوطات يمنية محفوظة في اوروبا. ومن الاسباب الرئيسية لزيارتي هنا هو اعتقادي بانه سيمكن لنا الحصول من المخطوطات المحفوظة في اليمن على صورة اكثر وضوحا لاجتهادات وانشطة علماء الفلك في اليمن.

واول عالم فلكي يمني ينبغي ذكره هنا هو العالم الحسن بن احمد الهمداني صاحب كتابي الاكليل وصفة الجزيرة العربية والذي عاش في القرن الرابع الهجري وقام الهمداني بوضع زيج عم استخدامه في اليمن. على ان الزيج الذي وضعه لم يعد موجودا الآن. كذلك فاننا لا نعرف بوجود اي فلكي يمني آخر يكون قد ظهر فيما بين القرن الرابع الى القرن السادس الهجري، على انه فيما بين القرنين السابع والثامن الهجري اي خلال ايام بني الرسول كانت هناك انشطة كبيرة في علم الفلك في اليمن.

ومن علماء الفلك اليمنيين الذين ظهروا في منتصف القرن السابع الهجري العالم محمد ابن ابي بكر الفارسي - وبناء على ما ذكره الخزرجي، فان الفارسي ولد في عدن، وكان من اهم اعماله زيج كبير يشتمل على جداول للكواكب وغيرها من الجداول الفلكية محسوبة خصيصاً لعرض مدينة صنعا - وقد اهدى الفارسي زيجة الى السلطان المظفر يوسف ابن عمر، واسماه بالزيج المظفري، وتحتفظ مكتبة جامعة كمبريدج بمخطوط لهذا الزيج، وكما تشير ملحوظة مدونة على غلافه الخارجي، فان هذا المخطوط تم شراؤه في المخاء عام ١٦٣٩ مقابل ٢٠٠ ريال، وقد اجريت اول دراسة عليه عام ١٨٢٠ عندما نشر البروفسير (صمويل لي) وصفا مختصرا له. وفي السنوات القليلة الماضية استطعت ان اعثر على نسخة اخرى من هذا الزيج في المكتبة الظاهرية في دمشق - وتوجد



صفحة من مخطوطة احد الازياج العربية.



رسم للطوسي (الثالث عشر ميلادي) يحدّد تحركات عطارد..

نسخة ثالثة منه ايضا في مكتبة القاضي اسماعيل الاكوع ونسخة رابعة منه في مكتبة الجامع المقدس في صنعاء. واقوم حاليا بوضع تحليل مفصل لهذا الزيج. ويوجد في المخطوط الدمشقي جداول اخرى من وضع فلكي يمني يدعى — اسماعيل بن عطية النجراني — ويبدو ان هذا الفلكي قام بارصاد مستقلة كما اعد زيجا من وضعه هو.

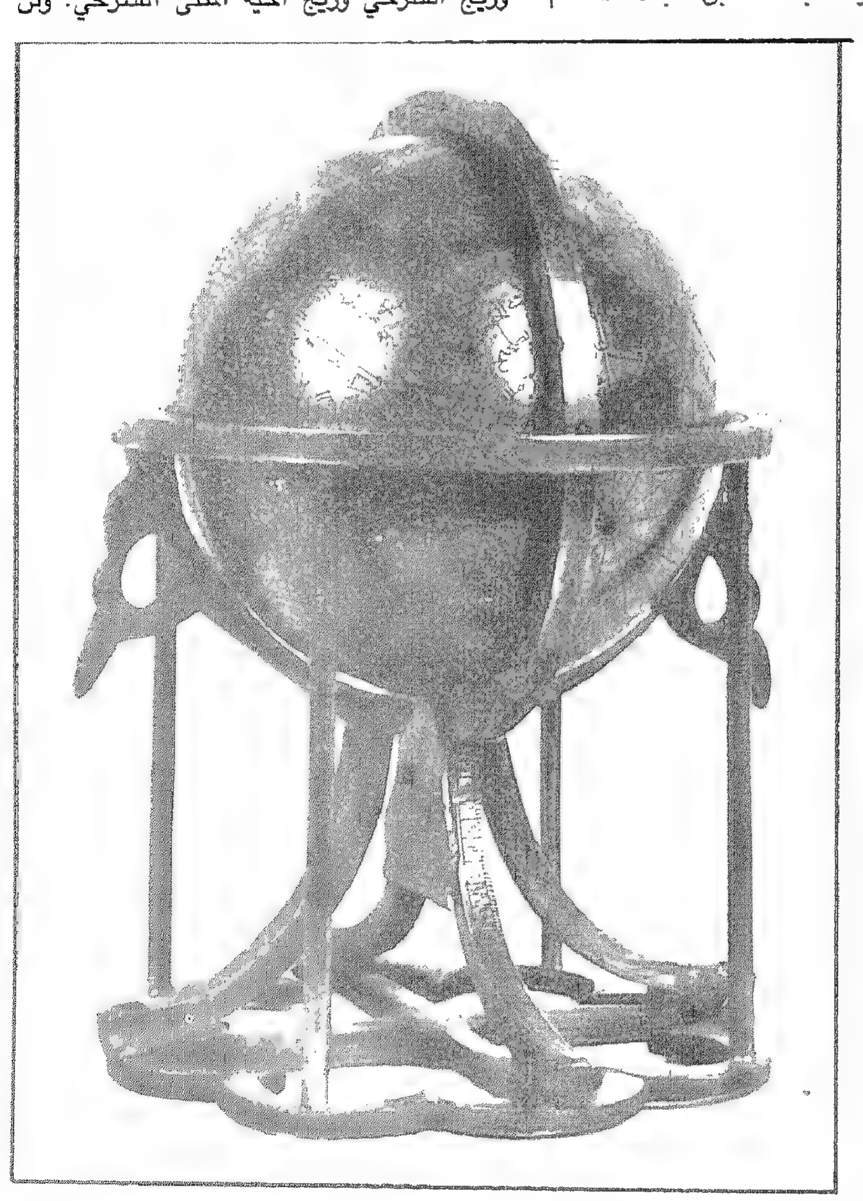
وهناك في المتحف البريطاني في لندن مخطوط عربي جميل يسمى بالزيج المختار من الازياج. وكما يذكر فهرس المتحف فان هذا العمل قد تم تجميعه في القاهرة، بيد ان في ذلك خطأ. ففي الواقع تم جمع هذا الزيج في مدينة تعز بمعرفة فلكي يمني يدعى محمد بن احمد، الشهير بابي العقول. وكان هذا الفلكي يعمل عند السلطان المؤيد داوود بن يوسف في اواخر القرن السابع الهجري، وزيج المختار اكبر بكثير من الزيج المظفري، وهو ذو اهمية خاصة لتاريخ علم الفلك، نظرا لاحتوائه على الكثير مما جاء في زيج مصري يسمى بالزيج الحاكمي من وضع الفلكي الفاطمي ابن يونس المصري. وقد امكن استخدام زيج المختار لاستعادة المفقود من الزيج الفاطمي. وهو ايضا ذو اهمية لان ابا العقول قدم جداول جديدة محسوبة لعروض عدن وتعز وزبيد وصنعاء.

وهناك ايضا مخطوط محفوظ في مكتبة القاضي اسماعيل الاكوع في صنعاء يتضمن مجموعة من الرسائل عن موضوعات مختلفة من بينها موضوعات مختصة بعلم الفلك. ومؤلف بعض الرسائل الفلكية هو السلطان الافضل العباس بن علي وهذا في حوالي عام ٧٧٥ هجرية. ويبدو ان السلطان نفسه هو الذي جمع الكثير من الجداول الفلكية التي يحتويها هذا المخطوط النفيس. وهناك جداول فلكية منسوبة الى عالم فلكي مصري سابق يدعى ابن يونس، واخرى منسوبة الى الفلكي المغربي الاسبق ابن

علي المراكشي وغيرها كذلك منسوبة الى ابي العقول. ومن الواضح ان السلطان الافضل كان مهتما للغاية في علم الفلك، وتعد كتاباته مصدرا هاما لبحوثنا.

وهناك كذلك في المكتبة الاهلية في باريس مخطوط لزيج ذي اهمية كبرى، وضعه فلكي يمني مجهول، في تعز، في اواخر القرن الثامن الهجري، كما توجد في عدة مكتبات يمنية نسخ من زيجين احدهما لاحمد بن عبد الله السرحي الذي عاش في اواخر القرن الحادي عشر الهجري والثاني لاخيه عبد الله بن عبد الله السرحي المعروف بالمثنى ولم اعرف شيئا عن وجود هذين الزيجين قبل وصولي الى صنعاء منذ اسبوعين. واود هنا ان اشكر السيد القاضي علي محمد الشرفي الذي كان قد ساعدني كثيرا في بحوثي عن المخطوطات المحفوظة في صنعاء والذي عرفني بهذين الزيجين.

وهكذا يصبح لدينا الآن ستة ازياج يمنية مختلفة وهي: الزيج المفقود للهمداني، والزيج المختار لابي العقول، والزيج المظفري للفارسي، والزيج المجهول المؤلف، والمحفوظ في باريس، وزيج السرحي وزيج اخيه المثنى السرحي. ولن

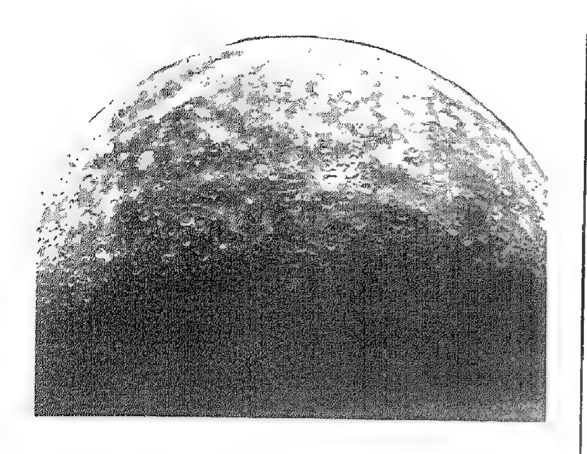


اسطرلاب من كتاب عبد الرحمن الصوفي (الثالث عشر ميلادي).

يدهشني اذا تسنى اكتشاف نسخ اخرى من هذه الازياج في مكتبات صنعاء وتعـز - او حتى نسخ من ازياج يمنية اخرى لا نعلم شيئا عنها بعد.

وقد اشرت في مقدمة حديثي هذا الى علم الميقـات، وهو علم تحـديد الـزمن من خـلال ارتفاعات الشمس نهارا وحركة الكواكب ليلا، كما انه يهتم بتوقيت الصلاة. وقد ذكرت انه امكن لنا منذ خمس سنـوات مضت اكتشاف مجموعة كبيرة من جداول علم الميقات محتسبة لخط عـرض القاهـرة. وخلال دراستي لهـذه الجداول المصريـة في مكتبة «امبـروزيانـا» في ميلانو عثرت على مخطوط وثيق وجدت فيه ان الجداول لم تكن محسوبة لعرض القاهرة بـل كانت محسوبة لخط عرض مدينة تعز ويشتمل هذا المخطوط على قليل من الصفحات المتضمنة لجداول - ومن الواضح انه كان يمثل جزءا فقط من مؤلف اكبر بكثير مما عثرنا عليه. وقد تم اكتشاف نسخة كاملة من هـذا المؤلف في العام الماضي فقط في المكتبة الاهلية في برلين، واما حاسب هذه الجداول فهو الفلكي اليمني ابو العقول صاحب الزيج المختار الذي ذكرت من قبل. وجداول هذه النسخة اكثر شمولا من الجداول التي كانت تستخدم في القاهـرة وفي دمشق وفي غيـرهـا من مـراكـز علم الفلـك الاسلامي. وهي في الواقع تتضمن ما يزيد على مائتي صفحة مليئـة بالجـداول وتحتوي عـلى حوالي ٨٠,٠٠٠ قيد. هذه الجداول الميقاتية تدل عـلى قدر كبـير من استقلال الفكـر والمبادرة العلمية لدى ابي العقول، ويسرني ان اخبركم بانني بعد اكتشاف جداول ابي العقول قدمت اسم هـذا العالم اليمني الى اللجنـة التابعـة لـلاتحـاد الفلكي الـدولي المختصـة بـاعطـاء التسميات لتضاريس سطح القمر.

وقد ضمن ابو العقول جداوله الميقاتيـة بعض المعلومات عن فصول السنة والفصـول الزراعية. وقد استخرج هذه المعلومات ودونها في رسالة مستقلة اسماها باليواقيت في المواقيت، وهي حتى الآن موجودة في عدة مخطوطـات. وهناك مؤلف آخر يشتمل على مجموعة اخرى من الجداول لتوقيت الصلاة عند خط عـرض



مَن من فلكيي العرب سيطلق اسمه على احد تضاريس القمر؟

اليمن، من وضع محمد بن عبد اللطيف الثابتي، وهو سوري الاصل. وكان من اهـالي زبيد في منتصف القرن الحادي عشـر الهجري. وقـد اقتبس علماء فلكيون آخرون بعضا من جداوله فيما بعد ويستخدم اهالي حضرموت حتى الآن التقويم المسمى بالحساب الشامي، المقتبس من الثابتي.

ان صورة تاريخ الفلك في اليمن كمـا حاولت وصفها هنا الآن هي صورة غير كاملة فهنـاك الكثـير من البحـوث التي ينبغـي اجراؤها على المخطوطات اليمنية المحفوظة في اوروبا. وعلى الاخص المخطـوطات الفلكيـة المحفـوظة في مكتبـات اليمن. وبعـد هـذه البحـوث سيمكن لنا وضـع صـورة اكثـر وضـوحا، ليس فقط عن الفـولكلور الـذي استمر في اليمن حتى الآن، وكان قد ظهر في اسبق العصور، ولكن ايضا عن علم الفلك الـرياضي الـذي كان فلكيـو بني الرسـول يمارسونه هنا. وثبت لنـا من المخطوطـات التي امكن اكتشافها حتى الآن ان اليمن في ايام بني الرسول نافست عواصم اخرى مثل القاهرة ودمشق كمركز بـارز لعلم الفلك في العالم الاسلامي.

* في العدد القادم سننشر تعقيبا على المحاضرة هذه للدكتور عبد الله الحبشي.



كتب وردتنا

تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي

سيف مرزوق الشملان

مطبعة حكومة الكويت - ١٩٧٥م.



يقع هذا الكتاب في اربعة اجزاء، الجزءان الاول والثاني يتناولان تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت، والجزءان الثالث والرابع عن تاريخ الغوص على اللؤلؤ في بلدان الخليج العربي وسواحل فارس والجزر.

ونحن في عرضنا لكتاب المؤرخ الاستاذ سيف مرزوق الشملان، نتعرض للجزءين الاولين منه، ولو توفرت لنا الاجزاء الباقية لما تأخرنا عن عرضها لما يحتويه هذا الكتاب في جميع اجزائه من فائدة علمية تاريخية واجتماعية يستفيد منها الدارسون العرب وكل من يهتم بدراسة المكونات الثقافية والحياتية للمجتمع الكويتي بشكل خاص والمجتمع الخليجي بشكل عام.

يبدأ الاستاذ الشملان كتابه بحكمة قديمة يستبق فيها الاحكام ليؤكد على أن الانسان ماكتب كتاباً يومه الا قال في غده لوغير هذا لكان أحسن. ولو زيد هذا لكان يستحسن. ولو قدم هذا لكان أجمل ولو ترك هذا لكان أفضل، وهذا في أعظم العبر. وهو دليل على إستيلاء النقص في جملة البشر.

ولكن لوتسلح الكاتب بالصبر والاناة، لوجد أن الاحكام جاءت جميعها لتؤكد على اهمية هذا المؤلف ولتنوه بجهد واضعه الذي ماترك حلقة مفقودة في تاريخ الغوص على اللؤلؤ والغواصين في الكويت والخليج العربي إلا وسدها بمعلومات وافية ومدعومة كتابياً وشفوياً واوراقاً قديمة.

هذا وتجدر الاشارة أن جميع الاحكام مصدرها شخصيات مشهود لها بالخبرة الواسعة بأمور الكويت والخليج العربي. ومن أوائل هؤلاء سعادة الشيخ سعد العبد الله الصباح وزير الداخلية الكويتي الذي نوه بالمجهودات الضخمة التي بذلها المؤلف من أجل جمع المعلومات والصور القيمة.

والمرحوم الدكتور أحمد زكي رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية الذي أختصر كتاب المؤلف بقوله: «هو كتاب مثلت فيه شخصية الكاتب من حيث النشأة والمكان، فهو في المجهود الذي بذله عانى معاناة المؤلفين القدماء وعانى صبرهم... ولم تفته مع ذلك حداثة هذا العصر فترك للعلم الحديث يقول في قديم المعرفة ماشاء، ويصحح الاوضاع».

وغيرهما الكثير في الادباء والمؤرخين

والباحثين والمهتمين بشؤون الخليج العربي، وجميعهم أثنوا على جهد المؤلف وعلى موهبته في تتبع تواريخ الاشياء وعلى صبره وجلده في البحث عن المصادر في أي مكان يعرف لها وجوداً فيه. فقد جاب منطقة الخليج وذهب إلى كثير من البلدان العربية وغير العربية وطاف بأنحاء كل بلد زاره متتبعاً وباحثاً عن مصادر المواضيع التاريخية والعلمية والاجتماعية والادبية وعن تاريخ اصحابها وحركاتهم.

يبدأ الكتاب بمقدمة المؤلف يتعرض فيها لتاريخ الكتاب كيف تألف، وكيف جمع المعلومات من أجل تأليفه ثم يأتي على ذكر البيئة التي نشأ فيها، وهو نشأ في اسرة ذات خبرة واسعة بشؤون اللؤلؤ والغوص عليه. ومما يبدو أن نشأته تلك كانت الدافع الرئيسي على تأليفه ذلك الكتاب لما كان يحس به من مسؤولية تجاه إظهار حقيقة حياة الغوص المضنية التي كان يحياها الغواصون وما كانوا يتعرضون له من مخاطر وأهوال. يتعرض المؤلف بعد ذلك لوصف البيئة، فيذكر موجزاً لتاريخ وجغرافية الكويت، ثم يتناول موضوع اللؤلؤ في القرآن الكريم وكيف أشار اليه، وكذلك في الحديث الشريف، وفي الطب العربي القديم وفي اللغة العربية، وفي الادب وكيف كان الادباء يصفون اللؤلؤ، وفي الشعر وكيف كان الشعراء يتغنون به. ثم يذكر الكتب التي سميت بأسماء اللؤلؤ ثم يتكلم عن البحر في اللغة العربية وعن الغوص على اللؤلؤ عند العرب في الجاهلية والاسلام وكيف كانوا يتزينون به في ذلك الوقت. ثم يتطرق الى بحث علمي كتب عن العرب يتناول كيفية تكوين اللؤلؤ.

ثم يتكلم عن اللؤلؤ الصناعي وتاريخه، وكيف استطاع أن يؤثر على اللؤلؤ الطبيعي ويكسد سوقه ويضارب عليه في الاسواق العالمية. ثم يستعرض الصحف والمجلات القديمة التي تحدثت عن اللؤلؤ والغوص عليه.

بعد هذا العرض المستفيض عن اللؤلؤ وتاريخه يبدأ المؤلف بالكلام عن الكويت والبحر، وما يتعلق بهما من سواحل وموانىء وجزر «ونقع» اي احواض السفن - عددها واسمائها - وعماير، جمع عمارة، وهي المحلات التي تباع فيها ادوات السفن ولوازمها، ثم يتحدث عن البحر في حياة الكويت من حيث انه الاساس وعماد الحياة فيها ولولا البحر لما ازدهرت ونمت وذاع صيتها في البلدان.

يبدأ بعد ذلك، في الحديث عن الغوص على اللؤلؤ في الكويت، فيصف فيه الغوص مع ذكر مواسمه، الغوص فيه، وسفن الغوص وانواعها والبحارة وعددهم في سفن الغوص، وأنواعه ومواسمه. ثم يأتي على ذكر الفتاوي التي تمنع الغوص في شهر رمضان والتي صدرت ايام الشيخ مبارك الصباح، ومن ثم يتحدث عن الطواشين أي تجار اللؤلؤ وكيفية عملهم، فهم كانوا يذهبون بسفنهم الى الغواصين في عرض البحر لشراء اللؤلؤ منهم.

ثم يتعرض لاوزان اللؤلؤ وما كتب في ذلك إذ ان له اوزاناً وانواعاً مختلفة، ويذكر اسماء هذه الاوزان. ثم يذكر امثلة عن مجازفات تجار اللؤلؤ، ثم يرد احصائيات عامة عن الغوص في الكويت والخليج العربي مع نماذج مما استطاع الحصول عليه من رسائل قديمة تتعلق بالغوص.

ويتكلم بعد ذلك، عن عمل الغوص، وعن ادواته وكيفيته، وعن اشهر الغاصة وتفننهم في الغوص وكلامهم واشاراتهم ومزاحهم في قاع البحر، وفضل هؤلاء الغاصة على غيرهم من بقية بحارة سفن الغوص.

واخيراً يتكلم عن مخاطر الغوص واهواله، ويذكر أسماء الاسماك الخطرة التي تهدد حياة الغاصة بالموت او الشلل كما يأتي على ذكر الامراض التي قد تصيب الغواصين وكيفية علاجها. هذ ولم ينس ان يأتي على ذكر أنواع الطعام الذي يتناوله الغاصة اثناء مواسم عملهم، والماء وكيف يحصلون عليه.

كل ذلك مزين وموضح بعدد كبير من الصور ولوحات السفن الملونة التي تضفي على الكتاب طابعاً مميزاً ومشوقاً يساعد القارىء على إستيعاب ما يقرأه.

هذا بالاضافة الى خارطة توضيح مغاصات اللؤلؤ (الهيرات) كما يسميها رجال الغوص.

أما الجزء الثاني من الكتاب، فيستكمل المؤلف فيه رحلته في «متاهات اللؤلؤ» الغوص عليه. فيتعرض لهجرة تجار اللؤلؤ من الكويت الى الاحساء والبحرين عام ١٩١٠، ولما كان لتلك الهجرة من مغزى سياسي ومدلول اقتصادي على الحياة في الكويت، ثم يخص الغوص على اللؤلؤ يوم عيد الاضحى بشرح مفصل، كما يأتي على ذكر الغوص في جزيرة سيلان، وعلى ذكر قانون الغوص بشكل عام وقانون الغواصين في الكويت بشكل خاص والذي صدر عام ١٩٤٠م.

ثم يتكلم المؤلف عن الاعلانات الحكومية فيما يتعلق بالغوص على اللؤلؤ في الكويت في سنة ١٩٣٢ الى ١٩٥٩م. وعن نكبة الغوص على اللؤلؤ واسبابها، وعن الغوص على اللؤلؤ في الوقت الحاضر وبيع المحار كما هو، ويذكر ايضاً اسماء اشهر الطواشين ونواخذة الغوص في الكويت مع ذكر لعمليات الغوص في ساحل العبدان عند حدود الكويت القديمة مع المملكة العربية السعودية. ثم يأتي على ذكر حوادث القتل والغرق في الغوص، وعلى وصف حبل مرساة السفينة وكيف يسحبه البحارة، والبادرة اي المرساة، ثم يتعرض لذكر الطرب البحري «النهمة» مع ذكر اشهر اسماء المطربين. ثم يتكلم عن تجار اللؤلؤ، وعن احتفالات «القفال» اي عودة الغواصين من رحلتهم الشاقة التي تكون قد دامت اربعة شهور وايام.

ولكي لايفوت المؤلف امراً من امور الغوص واحواله جاء على ذكر الافلام السينمائية التي اتمت واخرجت عن الغوص على اللؤلؤ مع نقدها وشرح مفصل لها.

واتماماً للفائدة اتى على ذكر الالفاظ والتعبيرات والمصطلحات التي يستعملها الغواصون واهل البحر مع اسماء سفن الغوص في الكويت. ويختم الاستاذ الشملان الجزء الثاني من مؤلفه، بذكر اهم المغاصات «النجيبة» التي يدعونها «التباري» مع بعض الاضافات التي تتعلق بالغوص والبحر واعماله.

ونخلص للقول، ان كتاب الاستاذ سيف مرزوق الشملان، هو كتاب فريد من نوعه من حيث موضوعه ومصادره وصوره ولوحاته، وهو حقاً قد سد فراغاً في المكتبة العربية.

■

◆ إن أبا دجانة الانصاري رضي الله عنه كان يواظب على الصلاة فجرا خلف الرسول في المسجد .

لاحظ النبي صلى الله عليه وسلم انه يخرج مسرعا بعد انتهائه من الصلاة ، فاستوقفه يوما وسأله : يا أبا دجانة أليست لك عند الله حاجة ؟ قال : يا رسول الله إنه ربي ولا أستغني عنه طرفة عين . فقال الرسول : لماذا لا تنتظر حتى تختتم الصلاة معنا ... وتدعو الله بما تريد ! قال أبودجانة : إن لي جارا من اليهود وله نخلة تمتد فروعها في صحن داري ، فاذا هبت الريح ليلا سقط رطبها عندي ، ولذلك أخرج مسرعاً لاجمع ذلك الرطب وأرده إلى صاحبه قبل ان يستيقظ اطفالي فيأكلون منه وهم جياع .. واقسم لك يا رسول الله انني رايت أحد أولادي يمضغ ثمرة ، فأدخلت اصبعي في حلقه وأخرجتها قبل ان يبتلعها . ولما بكى ولدي من ذلك قلت له : أما تستحي من وقوفي أمام الله سارقا !...

وعندما سمع ابوبكر الصديق هذا الكلام ذهب الى اليهودي واشترى منه النخلة ، ووهبها لابي دجانة واولاده ... فلما علم اليهودي بحقيقة الامر جمع اهله ، وذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه .

غيلين الرجل الذي لا وجه له

أغرب وأخطر جاسوس في القرن العشرين



ترجمة:
تاريخ العرب والعالم

الحلقة الاولى

■ ان اخطر جاسوس في القرن العشرين هو بلا شك «راينهارد غيلين» الرجل الخفي الذي ظل يقفز، بدهائه، وسعة حيلته، وجلده الذي قل ان يكون له ضريب، من ضابط صغير نكرة في الجيش الهتلري الى اكبر المناصب العسكرية. حتى انتهى به الامر الى ان اصبح مديرا عاما لمخابرات هتلر التي كانت تقف بالمرصاد للحلفاء ابان الحرب العالمية الثانية.

بل لقد استطاع هذا الرجل العجيب، ببراعته، وذكائه، وقدرته الخارقة حقا في تجنيد اقدر الجواسيس واخطرهم، ان يبث عيونه في مجلس الحرب الذي كان يرئسه ستالين الرهيب، كما تمكن من تدريب عدد كبير من الجواسيس المهرة، واسقاطهم بالمظلات في عدة اماكن في الاتحاد السوفياتي واوروبا وظل طيلة ربع قرن يدبر اخطر عمليات التجسس، واستطاع بوسائله الشيطانية ان ينقذ المرشال تيتو من الاغتيال بايدي امهر الرماة الذين بعث بهم رجال الكرملين للقضاء على الزعيم اليوغوسلافي بعد ان ابى إلا ان يقف منهم موقف الند للند، ويعلن استقلاله عن زعامة موسكو ايثاراً لسياسة عدم الانحياز.

ولقد ساهم هذا الرجل، في الحرب الباردة التي نشبت بين المعسكرين الكبيرين الغربي والشيوعي في اعقاب الحرب العالمية الثانية، وكان دوره فيها من الخطورة الى حد دعا كبار الساسة في المعسكرين الى اعتباره «ساحر الحرب الباردة» اذ كان له دور ضخم، واسع النطاق في الحرب الباردة ضد المعسكر الشيوعي.

وقد سجل «غيلين» لنفسه في هذا المضمار انتصارات عظيمة خلال اصعب مراحل المواجهة بين الغرب والشرق في الخمسينات، وفي اثناء ذلك عين مديرا عاما لادارة المخابرات في المانيا الاتحادية الجديدة، وسرعان ما اصبح اقرب المقربين الى المستشار «كونراد اديناور» بعد ان ابدى براعة قل ان يكون لها نظير في امداد حلف الاطلنطي بمعلومات حيوية من داخل المعسكر الشرقي كانت ذات فوائد لا تقدر بثمن للمعسكر الغربي.

ولقد نجح، ابان الحرب العالمية الثانية، في بث جواسيسه داخل اقرب الدوائر الى مجلس حرب ستالين كما ذكرنا، واستطاع ان يتفاهم مع الاسرى من ضباط الجيش الروسي، ويقنعهم بالتعاون معه، ويغريهم بشتى وسائل الاغراء، ثم يعيدهم الى روسيا لامداده بمعلومات من داخل مقر قيادة القائد السوفياتي الشهير المرشال زوكوف، وغيره من القواد السوفيات، واشترك في انشاء ما عرف باسم «جيش التحرير الروسي الابيض» وتعاون باخلاص وحماس مع كبار الزعماء النازيين وفي مقدمتهم هيملر وغورنغ.

تعاون مع اعداء الامس!

ورای ببعد نظره ودرايته بفنون الحرب ان القوات الهتلرية اوشكت على ان تمنى بهزيمة ساحقة فاستسلم للقوات الامريكية الزاحفة ولم يلبث ان وجد وسيلة للتعاون مع رجال ادارة المخابرات المركزية الامريكية التي كانت تعرف عنه الشيء الكثير، وظفر بثقتها المطلقة، وقدم لها خدمات اعتبرتها جليلة، فأغدقت عليه المال، وخاصة بعد ان جند لها



ستالين

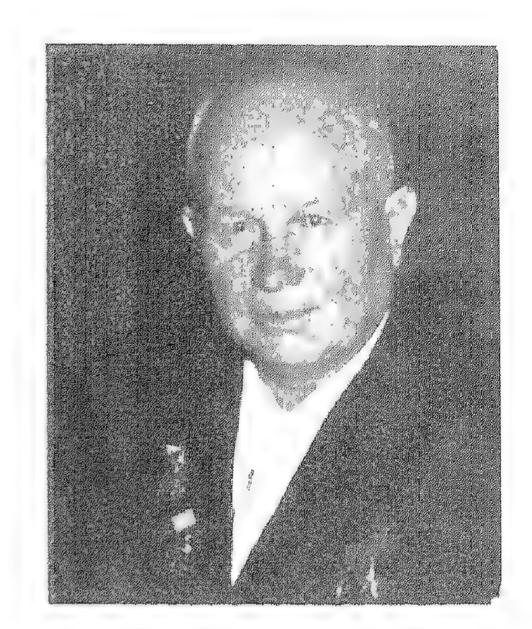
عدة مئات من الجواسيس من بين الاوروبيين الشرقيين المشردين، ودربهم بعناية فائقة، واعادهم الى ما وراء حدود الاتحاد السوفياتي بمظلات الهبوط او بالزوارق الصغيرة، مزودين باجهزة ارسال غاية في الدقة والتطور.

وفي اثناء الحركة المعادية للشيوعيين التي حدثت في برلين الشرقية خلال عام ١٩٥٣، والاضطرابات المجرية التي انفجرت في غضون سنة ١٩٥٦، كان جواسيس «غيلين» يعملون تحت انوف الضباط السوفيات، ويتصلون لاسلكياً، ساعة بعد اخرى، بمقر قيادة «غيلين».

ونجح خلال تلك الفترة في الظفر بمعلومات من داخل المخابرات الروسية، ومن مخابرات المانيا الشرقية، واستطاع بتلك المعلومات ان يميط اللثام عن عدد من الجواسيس في الولايات المتحدة، وبريطانيا، والمانيا الاتحادية.

النص الكامل لخطاب خروشوف السري

ومن اهم العمليات المثيرة التي قام بها هذا الرجل نجاحه في الحصول على النص



خروشوف



تيتو

الكامل للخطاب الذي القاه خروشوف في اجتماع مغلق عقد بموسكو خلال تلك الفترة، والذي شن فيه حملة شعواء ضارية على ستالين.

ومن تلك العمليات انقاذ المرشال تيتو من الاغتيال، كما ذكرنا، ومساعدة الجنرال ديغول ضد الثوار الابطال الجزائريين، وتنظيم العمليات المناهضة للمخابرات الشيوعية في بلاد قصية مثل كوبا، واندونيسيا.

ومن مغامرات «غيلين» نجاحه في تجنب الوقوع في اسر قوات الحلفاء الغربيين، فقد ظل طليقا حرا بعد سقوط الرايخ بينما اعدم في «نورمبرنج» كثير من الزعماء النازيين او سجنوا، مع انه كان يتعاون معهم تعاونا وثيقا!

وظل طوال حياته لغزا بكل ما في هذا اللفظ من معنى، اذ لم يكن احد يعرف عنه شيئاً حتى في وطنه، وكان نادر الظهور في اي مجتمع دون ان يخفي عينيه بنظارته السوداء، ويغير معالم وجهه، بشاربه المستعار، بل لقد تعذر على اقرب المقربين اليه ان يعرف اسمه الحقيقي، فقد كان يتخذ لنفسه اسماء مختلفة.

وقد سبب نشاطه الجبار ضيقاً شديداً لحكومة المانيا الشرقية فرصدت مكافأة قدرها مائة الف جنيه لمن يتمكن من اغتياله بعد التأكد من شخصيته الزئبقية بطبيعة الحال.

قال «الن دالاس» مدير ادارة المخابرات المركزية الاميركية في مذكرة قدمها للرئيس الاميركي الاسبق هاري ترومان في غضون عام ١٩٤٧، واصبحت اساً لانشاء تلك الادارة، وهي اول ادارة مركزية للمخابرات الاميركية منذ اعلان الاستقلال.

قال ألن دالاس: «لكي ننشىء ادارة مخابرات مركزية فعالة يجب علينا ان نختار لشغل المناصب الرئيسية فيها رجالا على استعداد لان يمارسوا هذا العمل طوال حياتهم دون ان يفكروا في الاضطلاع باي عمل آخر الى جانبه. ويتعين على كل واحد من هؤلاء الرجال الا ينظر الى عمله في هذه الادارة باعتباره نقطة وثوب الى مناصب ارقى في احد الاسلحة الحربية، او في اية ادارة حكومية اخرى».

واردف ألن دالاس قائلا: «ولا مفر لهذه الادارة من الاعتماد على نخبة مختارة من الرجال الذين يطيب لهم ان يعيشوا نكرات، وان يكونوا راغبين رغبة صادقة في البقاء في هذا العمل بلا اي تردد، وان يبتعدوا عن الاضواء طيلة حياتهم. ويجب على هؤلاء الرجال ان يجدوا متعة ذهنية في العمل نفسه، اي في التجسس ومناهضة الجواسيس، وان يشعروا بالارتياح وهم يؤدون الخدمات التي تحتاج اليها


ديغول

الحكومة، لا ان يطلبوا علناً الاعتراف بقيمة هذه الخدمات واهميتها».

ولم يكن في كلام «ألن دلاس» اي شيء جديد فيما يتعلق بمهمة المخابرات فقد سبقه في تسجيل مثل هذه المعاني اناس مثل والسيغهام وترلو من مؤسسي المخابرات البريطانية، قبل ذلك بقرون.

وقبل ان يضع ألن دلاس صيغة تلك المذكرة التي قدمها الى الرئيس الاميركي الاسبق هاري ترومان كان غيلين قد قدم الى المخابرات الحربية الاميركية كثمن لانقلابه الجديد كل ما لديه من معلومات عن العالم الشيوعي وكل ما اكتسبه من خبرة عن نشاط المخابرات السوفيياتية.

ولم يكن غيلين يعرف في ذلك الوقت ما كان يدور في راس ألن دالاس عن الوسائل التي تكفل النجاح للمخابرات، ولكنه كان مع ذلك يطبق تلك الوسائل نفسها، ذلك انه جبل منذ طفولته على الطاعة العمياء سواء لوالده الضابط البروسي السابق، او لمدرسيه او لرؤسائه العسكريين بعد ان انخرط في سلك الجندية.

من زعامة هتلر الى زعامة العم سام!

وعلى هذا الاساس استقر رايه، بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها، على ان يستبدل بزعيمه القديم هتلر زعيماً جديداً هو العم سام، وذلك ليتسنى له ان يمضي في مناهضة ستالين

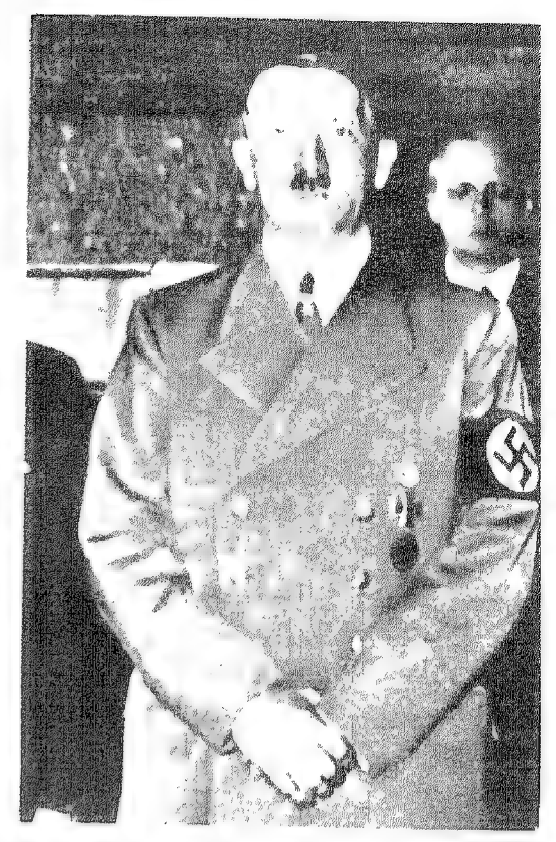
وكان حتى في شبابه، كضابط صغير في ادارة العمليات التابعة لقيادة هتلر العليا قد اثبت بادلة قاطعة انه استاذ في التخطيط يندر ان يكون له مثيل، وعبقري في تدبير المؤامرات والدسائس، واعمال التخريب، وكان شديد الميل الى ان يتخذ من الاشخاص ذوي النشاط السياسي المعلن ادوات لعملياته مؤثراً ان يظل هو وراء الستار كمحرك العرائس.

ولقد خدم غيلين هتلر بولاء واخلاص شديدين حتى النهاية المريرة، مع انه كان قد ادرك بل ايقن خلال فترة سابقة طويلة، ببعد نظره وحسن تقديره للامور، ان المانيا الهتلرية بدات تخسر الحرب. ولم يضعف ولاؤه لزعيمه حتى حين لاحظ ان هتلر بدا يتجاهل نصائح وآراء قواده العسكريين الذين عرفوا بالاتزان والتعقل، بل كان يضرب بتوصيات مدير مخابراته عرض الحائط.

ولم يغير غيلين موقفه من هتلر على الرغم من علمه بان زعيمه كان ميالا الى التشبث بآرائه الخيالية، ويرفض الاصغاء الى اهل الخبرة رفضا باتا، او يعتمد على التقارير التي كان يتلقاها من الوحدات العسكرية الاستطلاعية.

ويتضح من الكتاب الذي وضعه غيلين بعد الحرب، انه كان يعرف ان عقل هتلر بدا يختل، وان زعامته ستؤدي الى خراب المانيا، ومع ذلك كان على استعداد للاستمرار في خدمة زعيمه باخلاص وولاء ما دام يمثل السلطة العليا. وآية ذلك انه ذهب في ولائه الى حد اضطلاعه بمهمة انشاء فرق انتحارية من معاقي الحرب وكبار السن، ليبذلوا آخر مقاومة امام الجيش الاحمر في عام ١٩٤٥!

وبعد انقضاء بضعة اسابيع على فشل تلك الفرق - بطبيعة الحال - في اداء المهام التي اوكلت اليها، استسلم غيلين للاميركيين وعرض عليهم خدماته في مقابل مساعداتهم.



هتلر

واستطاع بالاموال الطائلة التي اغدقت بها عليه ادارة المخابرات المركزية الامريكية فيما بعد، ان يعمل على نحو افضل مما كان يفعل في عهد هتلر.

وهنا ينبغي ان نلاحظ انه حرص اشد الحرص على ان يكون رئيس نفسه في تعامله مع تلك الادارة.

وكان نفوذه ضخما في المنظمة التي انشأها تحت رعاية المخابرات الحربية الامريكية في «اوبيرو رسيل» بالقرب من فرانكفورت، ثم في قلعة المخابرات التي انشأها وجعلها اشبه بمعسكر حربي في «بلاخ» بالقرب من ميونيخ حيث كان نفوذه اقوى بمراحل من نفوذه حين كان مديراً لمخابرات هتلر ابان الحرب، اذ كان رؤساء المخابرات الحربية الامريكية وألن دلاس ومعاونوه من كبار رجال ادارة المخابرات المركزية، فيما بعد، يعلقون اهمية خاصة جداً على المعلومات التي كان يمدهم بها.

وحرص غيلين على اخفاء مقر قيادته في «بولاخ» في شكل شركة صناعية، واسدل ستارا كثيفا من السرية على حياته الخاصة والرسمية.

وترددت، آنئذ، نكات عديدة ذات مغزى عن هذه السرية التي احاط بها نفسه، ومما يروى في هذا الشان ان ضابطا اميركيا كبيرا وصل ذات يوم الى مقر قيادته في «بولاخ» وبعد ان اطلع الحراس على بطاقته طلب مقابلة «الجنرال غيلين»فقيل له: «لا يوجد هنا شخص بهذا الاسم».

ولم يكن الحراس يكذبون.. ذلك ان معظم رجال قلعة «بولاخ» كانوا يجهلون اسمه الحقيقي كان بعضهم يعرفه باسم «دكتور شنايدر» بينما لم يكن الآخرون يعرفون عنه شيئا ولم يكن يعرف قسمات وجهه الاعشرات فقط من اقرب المقربين اليه.

ولم ينجح اي صحفي في التسلل الى مقر قيادته ولم يدل هو بأية تصريحات صحفية. وحين نشرت الصحف والمجلات الاميركية والالمانية، في الخمسينات، انباء عن وجود «منظمة سرية للتجسس في المانيا تحت رعاية الولايات المتحدة» لم تستطع الحصول على اية اسرار عن تلك المنظمة.

بل لقد عجز اقدر الصحفيين واكثرهم جرأة وتصميما عن معرفة مقر اقامته، او ما اذا كان متزوجا او له اولاد. والصور النادرة التي نشرت له انما تمثله وهو ضابط صغير بزيه العسكري.

وكانت الصحف الالمانية تطلق عليه اسماء مختلفة، فقد سمته دي فيلت «الرجل ذو الالف سر» و «رجل الظل» وسمته ذي تسايت «جنرال الظل» وسمته صحف ميونيخ «الرجل الذي لا وجه له».

وخلال الاحد عشر عاما التي عمل فيها بمقر قيادته في «بولاخ» لم يسافر الى الخارج الا مرة واحدة، وذلك لتلبية دعوة وجهها اليه ألن دالاس ولم يقبل الدعوة الا بعد الحاح شديد. وحين وصل الى الولايات المتحدة حرص اولا وقبل كل شيء على زيارة مدرسة الجواسيس التابعة لادارة المخابرات المركزية الاميركية في مدينة «مونتيري» بولاية كاليفورنيا.

ولعل غيلين كان الشخصية البارزة الوحيدة التي عجز الصحفيون الاميركيون البارعون في تصيد الانباء عن معرفة مكان اقامتها للظفر بحديث صحفي.

بيد انه أصيب بصدمة عنيفة مزقت أعصابه وهدت كيانه في عام ١٩٦١ لم يكن يتصور ان تحدث له رغم شدة حرصه على أمنه وتكتم نشاطه. ولم يفق من تلك الصدمة على الاطلاق، فقد خانه شخص كان موضع ثقته الى حد ان عينه مسؤولا عن ادارة مكافحة التجسس، واتضح له انه عميل سوفياتي.

كان غيلين اذ ذاك قد ناهز الستين، ومع ذلك أبى ان يتقاعد ويخلد الى الراحة وهدوء البال، على الرغم من ان تلك الصدمة اوشكت ان تقضي عليه.

هل كان نائب هتلر عميلا للسوفيات ؟

نشرت مجلة «دير شبيغل» الالمانية الشهيرة، في عام ١٩٧١، سلسلة مقالات كشفت النقاب عن عدد من العمليات الخطيرة التي نفذها غيلين خلال الاعوام الخمسة والعشرين التي سبقت ذلك العام، وتضمنت تفاصيل مغامراته الناجحة ومناوراته الفاشلة.

وكانت تلك المقالات اول كشف مفصل لنشاطات غيلين الذي كان يعيش، خلال تلك الفترة في ضيعته بولاية بافاريا، وهي الضيعة التي اهدته اياها ادارة المخابرات المركزية الاميركية اعترافا منها بما قدمه لها من خدمات «لا تقدر بثمن» كما قال كبار المسؤولين في تلك الادارة.

وكان طبيعيا ان يستبد الغضب بغيلين بسبب تعليق تلك المجلة الالمانية. وقد استقر رايه عندئذ ان ينشر جانبا من مذكراته في كتاب، وشرع على الفور في مفاوضة ناشر الماني، ورأى ان يمنح ناشرين في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة حق ترجمة مذكراته.

بل لقد ذهب الى ابعد من ذلك، اذ دعا معظم اولئك الناشرين الى ضيعته في صيف عام ١٩٧١ وأطلعهم على ثلاثة فصول من المخطوط المؤلف من اثني عشر فصلا.

ومما أذهل الناشرين، بعد اطلاعهم على جانب من المذكرات ان غيلين قال فيها ان مارتن بورمان نائب هتلر، وزعيم الحزب النازي، كان عميلا للسوفيات، وانه أمد موسكو بكل تفاصيل خطة هتلر الحربية والخطوط الكبرى لاستراتيجيته.

كذلك تملكت الدهشة الناشرين حين علموا من المذكرات ان بورمان فر في شهر ايار (مايو) من عام ١٩٤٥ – عقب انتحار هتلر – من مبنى استشارية الرايخ التي شب فيها حريق كبير، الى الخطوط السوفياتية، وان الروس نقلوه على الفور الى موسكو حيث عاش عدة اعوام عمل خلالها مستشارا للحكومة السوفياتية ولجهاز المخابرات السوفياتي.

لقد كانت تلك المعلومات التي ضمنها غيلين مذكراته شيئاً لافتا للنظر، بل مثيرا، اذ ان البحث لم يكن قد توقف عن ذلك الزعيم النازي الذي فر بعد ان حكمت عليه محكمة نورمبرغ بالاعدام لانها اعتبرته من مجرمي الحرب. وكان قد اشيع منذ ذلك الوقت انه يعيش متخفيا في باراغواي او الارجنتين. بل لقد ذهب عدد من الاشخاص الى حد الادعاء انهم شاهدوه في اربعة عشر مكانا مختلفا في شتى انحاء العالم. واكد بعضهم انه كان يقيم متنكرا في غابات اميركا الجنوبية.

وبعد ان علم كبار الناشرين في اوروبا الغربية والولايات المتحدة بكل هذه الحقائق، اسرعوا الى غيلين يعرضون عليه نشر مذكراته مقابل مبالغ طائلة.

ويقال ان الناشرين الالمان الذين اصدروا المذكرات في كتاب ربحوا ما لا يقل عن مليون دولار بعد ان باعوا حقوق ترجمة الكتاب لعدد من الناشرين في اوروبا والولايات المتحدة.

لقد نشرت مذكرات غيلين في المانيا بعد منتصف صيف سنة ١٩٧١، وخيبت آمال كل الذين كانوا يتوقعون ان تنطوي على اعتراضات خطيرة. فهو لم يتضمن كتابة اية معلومات مبنية على وثائق او مراجع، وانما تباهي بانه استعان برجال من فرق الصاعقة والغستابو السابقين.

ولم يجد القراء في الكتاب الذي انتظروا صدوره بلهفة اي وصف لعمليات التجسس

الكبرى التي نفذها غيلين، او اسماء كبار معاونيه وعملائه. اما اسماء بعض مساعديه التي اوردها في الكتاب، فقد اتضح انها مستعارة. واما العمليات التي قام بها ولكنه فشل فيها، فقد ذكر بعضا منها في الكتاب. ولكن اتضح فيما بعد انه تعمد ان يضلل القراء بما ذكره في الكتاب عن تلك العمليات من ترهات واكاذيب.

وقد ثبت باقوى الادلة والبراهين ان ما ذكره غيلين عن بورمان لا يعدو ان يكون كلاما فارغا وهراء. ففي صفحة ٤٨ من النسخة الالمانية من الكتاب قال ان الاميرال كاناريس قائد البحرية الالمانية ابان الحرب ذكر له ان بورمان كان خائنا، وكان يستخدم جهاز ارسال من نوع خاص لبث رسائله الى موسكو عن خطوط هتلر الحربية.

وأضاف غيلين الى ذلك انه لم يكن يسعه ان يراقب بورمان عن كثب لانه – اي بورمان – كان قوي النفوذ بوصفه نائب هتلر وان اية مجازفة في هذا الصدد يمكن ان تؤدي الى نهايته ونهاية كاناريس.

كان يمكن ان يكون الامر كذلك طيلة وجود النازي في الحكم. ولكن ما الذي منع غيلين من ان يذكر المعلومات التي زعم انه حصل عليها من كاناريس بعد انتهاء الحرب. ولا سيما اثناء محاكمة الزعماء النازيين امام محكمة نورمبرغ وكان غيلين يعمل آنذاك لحساب ادارة المخابرات المركزية الاميركية؟

لم يصدق احد القصة

كذلك ضمن غيلين مذكراته كلاما تبين انه لا نصيب له من الصحة وذلك عن انقاذ القوات السوفياتية بورمان في برلين. ومما قاله في هذا الشان انه تلقى خلال عام ١٩٥٠ معلومات من مصدر «موثوق به» تفيد ان بورمان في روسيا. ولكن حدث بعد نشر الكتاب، ان استدعى غيلين للمثول امام القاضي هورست فون غلاوزناب في فرانكفورت، وكان مكلفا بالتحقيق في جرائم النازيين. ولما ساله القاضي عن ذلك المصدر «الموثوق به» حاول ما وسعته المحاولة ان يراوغ القاضي، ويتهرب من الاجابة عن السؤال، ولكن القاضي ضيق عليه الخناق بالاسئلة الدقيقة المحرجة فلم يسعه الا ان يقول ان احد عملائه في المانيا الشرقية التي كان يحتلها السوفيات، كان قد ابلغه في سنة ١٩٤٧ انه بينما كان يشاهد فيلما في احدى دور السينما عن مباراة لكرة القدم جرت في موسكو، شاهد بورمان بوضوح بين المتفرجين.

تلك هي القصة التي رواها غيلين للقاضي بلهجة جادة. ولم يكتف بذلك بل زعم كذلك انه كان يعرف ان بورمان على قيد الحياة.

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال غاية في الاهمية هو: لماذا لم يذكر غيلين ذلك كله لألن دالاس الذي كان قد عهد اليه في سنة ١٩٥٣ بمهمة التحري عن مدى صحة الشائعات التي ترددت آنئذ عن ان بورمان حي يرزق في مكان ما باميركا الجنوبية.

وقال غيلين في تقرير قدمه في شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٥٣، الى جيمس ماكغوفرن عميل وكالة المخابرات المركزية الاميركية في برلين انه ما دام يتعذر التاكد من قسمات وجه بورمان الحقيقية فان اغلب ظنه ان ذلك الزعيم النازي لقي حتفه اثناء تبادل اطلاق الرصاص في برلين يوم اول ايار (مايو) من عام ١٩٤٥.

وقد اشترك غيلين نفسه في الجهود التي بذلتها خلال تلك الفترة سلطات برلين للعثور على بقايا جثة بورمان، بعد ان زعم ان احد موزعي البريد انه وجد جثة نائب هتلر في حديقة مجاورة لاحدى محطات السكك الحديدية في ليلة ذلك اليوم. وانه دفنها في الحديقة.

وقد حفر رجال البوليس كل شبر في تلك الحديقة، ولكنهم لم يعثروا على شيء. ومع ذلك ظل غيلين صامتا، وابى ان يذكر شيئا عن الموعد الذي جرى فيه البحث عن الجثة.

ولم يشا غيلين ان يتحدث الى الصحفيين عن القصة الوهمية الخيالية التي فاض بها ذهنه المتولد دائما عن وجود بورمان على قيد الحياة، وفراره الى موسكو، الا بعد ان شرع يفاوض الناشرين الذين اعربوا عن استعدادهم لشراء مذكراته بمبالغ ضخمة.



والواقع ان احدا لم يصدق تلك القصة التي اثارت دهشة الجميع، واتهمته عدة صحف المانية بانه ابتكر تلك القصة ولفقها تلفيقا، بيد انه لاذ بالصمت، ولم يحاول الاجابة عن سؤال هام عن الاسباب التي دعته الى تضليل ألن دالاس وادارة المخابرات المركزية الاميركية والسلطات الالمانية، والعملاء الاسرائيليين الذين ظلوا يبحثون عن بورمان في كل مكان طوال فترة تربو على خمس وعشرين سنة؟ هل فعل، ذلك لان القصة عارية عن الصحة؟ ام تصرف على هذا النحو رغبة منه في الدعاية لكتابه؟

ولكنه رفض ان ينطق بحرف واحد حين قال له بعض الصحفيين الانجليز ان القناع قد اميط اخيرا عن اللعبة الضخمة التي لعبها والترهات التي ملأ بها مذكراته التي باعها بثمن باهظ

■ يتبع

■ إن ساعة «بيغ بن»، انتهى العمل فيها عام ١٨٥٨. وظلت تحت الاختبار في المصنع لمدة خمس سنوات، وتزن خمسة اطنان، ويبلغ ارتفاع البرج ٩٠ مترا واستعمل في صنعها ٣١٢ قطعة من الزجاج في لون السماء، اما عقاربها فطول كل منها ٢٧٥سم لعقرب الساعات، و٤٢٥سم لعقرب الدقائق، وهذه العقارب مصنوعة من النحاس ويزن كل عقرب ٩٠ كيلوغرام.

ويتردد صوت «بيج بن» من ارتفاع ١٥ مترا في اعلى السلم اللولبي حيث علق ناقوس ضخم يبلغ طوله ٢٣٠سم على كمرات الصلب المتين، مما جعل الصوت قويا إلى حد بعيد.

■ إذا اردتم رجالا عظاما افاضل، فعليكم بالمراة تعلمونها ما هي عظة النفس، وما هي الفضيلة.



نجوى الحسنية

نقش امرأة بابلية

شريعة حمورابي

ان من ابرز مميزات البابليين التشريعات التي وضعها اعظم ملوك الدولة البابلية حمورابي في بداية الالف الثاني ق. م. حيث بدأ بوضع تشريعاته منذ العام الثاني من حكمه . ولقد سجلت على عدد من النصب الحجرية . اهمها النصب الذي عثر عليه في (شوشه) حيث ان العيلاميين قد نقلوه الى عاصمتهم في اواسط القرن الثاني عشر ق. م. بعد ان ازالوا بعض سطوره ليسجلوا مكانها نصر ملكهم. وقد نحت هذا النصب من حجر البازلت ويبلغ ارتفاعه حوالي ٢،٢٥م (حالياً موجود في متحف اللوفر) نقش في القسم الاعلى منه لوحة تمثل الملك حمورابي يتلقى التعاليم والشرائع من الاله شمس رب العدالة .

تتألف تشريعات حمورابي من ٢٨٢ مادة تناولت كافة المسائل الاجتماعية ومشكلات الحياة اليومية وما يجب اتخاذه ازاءها، كالقضاء، والامن، وحقوق المحاربين. وعقود الزراعة وشروط القروض. والتعويضات واجور العمال

واصحاب المهن ومسؤولياتهم. كما عالجت مسائل الاحوال الشخصية بما تتضمنه من تقاليد الزواج والطلاق. وقد اتسمت بالشدة والقسوة في معاقبة اصحاب الجرائم كما انها اتبعت مبدأ المماثلة : العين بالعين والسن بالسن والذي جاء اكثر قساوة مما كان عليه في التشريعات السابقة، ولكن اعتماد الشدة والقساوة في تطبيق القوانين يجب الا يعتبر تخلفاً او عودة الى البدائية فهو ينم عن محاولة الدولة في تدعيم السلطة المركزية ضبط الامن والنظام في البلاد ولكن في معظم الحالات التي يلجأ فيها القانون البابلي الى عقوبة الاعدام يكون صاحب الجرم فيه من فئة العبيد او المشكينوم الذي ارتكب خطأ بحق افراد الطبقة الاولى. ولقد ركزت الاساطير البابلية على فكرة خلق الانسان لارضاء الالهة لكن تفكير البابلي الدنيوي كان مرتكزاً على المادة وأن اغلب مواد شريعة حمورابي الخاصة بالاسرة تتناول قضية المال بشتى الطرق منقولة وغير منقولة. وكانت تعير العلاقات البشرية القائمة بين الرجل والمرأة واقاربهم اهمية خاصة، فالمواد المتعلقة بالعائلة خصص لها ٦٤ مادة من اصل ٢٨٢ مادة مجمل الشريعة كلها.

الزواج والطلاق في شريعة حمورابي

تحتل الاحكام الخاصة بالاسرة مكانة بارزة بين قوانين حمورابي حيث تعبر عن نظرة التقدير الى المرأة وحقوقها والحرص على حمايتها وحماية الاولاد القصر، ويحقق نظام الاسرة للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية في موضوع ادارة املاكها، كما تحدد حقوق ووظيفة كل من الزوجات والخطايا، وقد عثر المنقبون على رقيمات من طين عديدة تخص عقود الزواج لديهم وفيها تلزم الزوجة زوجها بحقوق وواجبات، ومما لا شك فيه ان مثل هذه العقود كانت تنظم الامور بين الطبقات الموسرة من الشعب. اما الطبقات الفقيرة فليس هناك من حاجة لمثلها طالما ان الفرد فيها لم يكن يملك الكثير من حطام الدنيا وحالته المادية لا تساعده على تعدد الزوجات.

نظام الزوجة الواحدة هو القانون يحد من شدته تأمين ذرية للرجل لذا فان عقم الزوجة او مرضها هما من اسباب الطلاق الشرعية، حيث بامكان الزوج ان يتخذ له امرأة اخرى يساكنها في بيته أن كانت زوجته مريضة او عاقر او اذا توفيت الاولى. واذا لم يكن له اولاد من زوجته او من حظاياه واصر على الانجاب يحق له ان يتخذ زوجة ثانية شرط احتفاظه بزوجته الاولى في بيته يعيلها ما دامت على قيد الحياة المادة (١٤٨) والمرأة الثانية لا تحل الا في المقام الثاني من الاسرة، حيث عليها احترام افضلية الزوجة الاولى.

كما ويحق للزوجة العاقر ان تهدى زوجها عبدة بمثابة خليلة ، ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير تجاهه ان اتخذ له السراري، اذ ان القانون في مثل هذه المواقف التي لا تشرف يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها. وتعرف حالات كثيرة انجب فيها الرجل اولاداً من زوجته ومن خليلته. ولا يمكن بيع العبدة التي غدت موضوع انتخاب كهذا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها. ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولادا، وان اخلت باي من هذه الشروط يحق للزوجة ان تعيدها الى العبودية.

وفي الشرائع القديمة التي سبقت شريعة حمورابي يفرض على الشاب الذي يغتصب فتاة ان يبادر الى طلب يدها من والديها فان ابى لقي حتفه، وهذا التزمت في الشرائع القديمة خفت حدته في شريعة حمورابي، فالدولة لا يعنيها من امر الرجل وحبه السابق شيء الا عندما يقرر عقد الزواج. وبما ان الزواج يتطلب التزامات مالية كبيرة وجب التنظيم. فالناحية المادية تتم على مرحلتين تقديم الزوج هدايا الزواج الى عروسه وبعدها يستلم من والديها الصداق، والذي يقدمه الزوج لحميه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكا للزوجة لكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجه فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبيعها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها، ولها وحدها حق

شريعة حمورابي منقوشة على حجر بازلت   متحف اللوفر.

التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجبت على الزوج قبل زواجه، ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج، ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل كشاهدة عند عقود البيع، وان كان الزوج جندياً وطلب للخدمة فيعود للزوجة حق ادارة املاكه ان لم يكن له ابن بلغ اشده وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة ثلث الريع.

ومن مواد هذه الشريعة ما يسمح للزوج - شريطة موافقة المحكمة - ان يضع زوجته واولادها رهينة لسداد دين وضمانة وللحيلولة دون اساءة استعمال هذا الحق واتخاذه بديلا عن الطلاق حددت الشرائع مدة ثلاث سنوات كحد اقصى لرهن الزوجة. وهذه الطريقة لا يلجأ اليها الا القلائل من الرجال ومدة هذا الرهن زيدت ابان عهد الدولة البابلية الثانية على ما كانت عليه وتطور رهن الزوجات والاطفال حتى صار اشبه بتجارة الرقيق.

اما الطلاق فان قوانين حمورابي تبيح الطلاق من حيث المبدأ وتجيز للرجل ان يطلق زوجته اذا هي تصرفت تصرفاً مشيناً المادة (١٤١) اما اذا كان سبب الطلاق لغير ذلك كعدم انجاب اطفال فعلى الرجل ان يعطي المرأة من المال بقدر المبلغ الذي استوجبه زواجه منها اصلا (اي استرداد بائنتها) وعليه ان يعيد اليها المهر الذي دفعته او جاءت به من بيت ابيها مادة (١٣٨) رغم ان الزوج يستطيع ان يطلق زوجته لكن القوانين تحميها ضد قراره التعسفي هذا اذ عليه ان يلجأ الى المحاكم ويثبت شكواه بأدلة عادلة وقويمة. وعلاوة على ذلك فان سوء سلوك الزوج يعطي للزوجة الحق باقامة دعوى مماثلة لتعود الى ذويها (اي الحق بالطلاق)، حتى اذا اهمل القيام بواجباته الزوجية وهنا يجب ان يقرن الطلاق برضاء المحكمة، وفي كلتا الحالتين تاخذ منها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضاً تقدره القوانين

تعويضاً عما اصابها من اضرار، وقد منحت المرأة حق الزواج من رجل اخر فيما لو هجرها زوجها الاول لكنه حتم على الزوجة ان تلزم بيتها مادام فيه ما يعيلها واولادها حيث يضاف الى بائنة المطلقة ذات الاولاد نصف املاك الرجل تستعين به في تربية اولادها حتى يبلغوا اشدهم ثم تجتزئ منه نصيباً لها حتى في حال زواجها من رجل اخر.

اما جرم الزنى فقد نصت المادة ١٥٩ منه حيث حددت عقوبة الزنى، فالزوجة الخائنة تلقى مع غريمها في النهر اذا لم يصفح عنها زوجها. وهذه العقوبة كان لها المقام الاسمى في التشريع البابلي. اما جرم الزوج فانه لا يستوجب العقوبة بل يدفع تعويضاً للزوجة فقط.

بعد هذا نستطيع ان نحدد شروط فراق الزوجين او مسببات الطلاق في المجتمع البابلي:

١ - عدم انجاب الاولاد لان ذلك اساس الزواج.

٢ - اذا كانت الزوجة واهنة الصحة وغير قادرة على القيام بواجباتها الزوجية والمنزلية.

٣ - اذا ثبت انها سيئة الخلق وغير محمودة السيرة.

في هذه الحالات يحق للزوج ان يعلن فسخ عقد الزواج وتأخذ الزوجة صداقها او ما تبقى منه واذا كان لها اولاد عليه القيام بأودهم وليس عليه واجبات اخرى تجاههم، ويحق للزوج ابقاء زوجته المطلقة في بيته كخادمة بموافقة المحكمة.

- اما مسألة التبني فانه يتم بموجب عقد وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي المتبني في حال جحود المتبنى او والديه الطبيعيين، فالمتبنى الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ويستطيع المتبني ان رزق أولاداً فيما بعد ان يفسخ العقد شرط ان يعطى للابن المتبنى الذي يود التخلص منه ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة.

النسل والعناية بالحوامل

في الشرائع البابلية نصوص تحرص الدولة فيها على زيادة النسل والعناية بالحوامل، فقد نصت على وجوب المحافظة على الابناء وحسن تربيتهم، والمرأة التي تحاول الاجهاض باية طريقة من الطرق يشهر بها وتضرب على

حمورابي ملك بابل. متحف اللوفر.



ملأ من الناس، واذا ماتت بسبب ارتكابها هذه الجريمة تصبح نجسة ولا تجرى لها الطقوس الدينية الخاصة بالوفاة.

الى جانب ان هناك عقوبات لمن يسبب اسقاط الجنين وذلك بالزامه دفع غرامة للدولة ويحكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة شهر وهناك درجات لهذه العقوبة فهي بالنسبة لامرأة حامل من الدرجة العليا خمسة اضعاف التي ينالها الجاني اذا كان المجنى عليها امرأة من الطبقة السفلى وتعمل هذه الشرائع على تعويض المرأة عن فقدانها جنينها.

الفحشاء في المجتمع البابلي

لم يخل المجتمع البابلي من الفحشاء فقد حاول الرجال ايجاد منفذ للتخلص من قيود هذه الشرائع وذلك بتأسيس ملاجىء للبنات في المعابد، الا ان قسما من هؤلاء البنات لم يكرسن حياتهن لخدمة المعبد بل كن يتعاطين البغاء خارجه، وقد وجدت فيه رقيمة من طين كتب عليها ما يحذر الشباب من ملامسة النساء السيئات اللواتي يطلق عليهن اسم (حاريمت) ومضمونها «لا تتزوج من حاريمت الكثيرة الخلان فهي لن تسعفك عند الشدة، انها تشهد عليك في المحاكم ولا تعرف الطاعة ولا الاحترام، كما انها تسيء لسمعة بيتك، فعليك طرد تلك التي تفتن الرجال، لانها تحط من قدر البيت الذي تدخله، ومن يتزوجها يفقد السعادة والخير». رغم ذلك فان البابليين كانوا حرباً على الفاحشة بشرائعهم ونظمهم الاجتماعية.

الأرث

في القوانين والشرائع البابلية تفاصيل كثيرة تشرح موضوع الارث في العائلة، حيث يحدد القانون بدقة قوانين الارث، فان كل ما تملكه المرأة حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها يعود الى اولادها ولكن يوجد تميز وتفريق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متتالية، ويرث الاولاد عن ابيهم الراحل املاكه وامواله، اما زوجته فلها حق الانتفاع بتلك الاملاك واستعمالها كما تشاء مادة (١٧١) وتستثنى الاملاك التي كان قد منحها اياها زوجها قبل وفاته، حيث للمرأة المتوفي زوجها حق التصرف باملاكها الخاصة اما بيعاً او ايجارا حسبما تشاء وهذا ما تنص عليه المادة (١٥٠). ويحق للوالد ان يهب هبات لامرأته او لأي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة ولكنه لا يستطيع ان يحرم ايا من اولاده من الميراث الا اذا سمحت له المحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم، ويجرى تقسيم الارث بالمساواة التامة اقله بين اولاد الزوجة، ويأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العازب، ويحرم من الارث اولاد الخليلة ان لم يكن الوالد قد اعتقهم وهو على قيد الحياة، وان كان قد اعتقهم فعليهم مع هذا ان يدعوا لاخوتهم افضلية الخيار بين الحصص، وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استثمار حصة معينة.

لقد ابتدع البابليون نظاما للاسرة دعامته كيان العائلة والمحافظة على ميزاتها وجعل للمرأة حقوق ومنزلة، ومهما نسب الى تلك الشرائع من هنات فانها بلا ريب اسدت خدمة كبيرة في عالم التشريع لكثير من الامم فالمثل الاخلاقية السامية التي وردت في شرائع بابل، تلك المدينة التي عفا عليها الدهر وغدت خراباً وركاماً لجديرة بالاجلال والتقدير مدى الازمات والاحقاب.

المراجـــــع:

(١) تاريخ الحضارات العام، المجلد الاول، الفصل الثاني، منشورات عويدات، الطبعة الاولى، ص ١٥٢ - ١٥٤.

(٢) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، السلسة الاعلامية، د. احمد سوسه، ١٩٧٩

(٣) محاضرات للدكتور محمد امهز في تاريخ الشرق الادنى القديم، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٢

(٤) مجلة العربي الكويتية، العدد ٧٢، ايلول ١٩٦٥

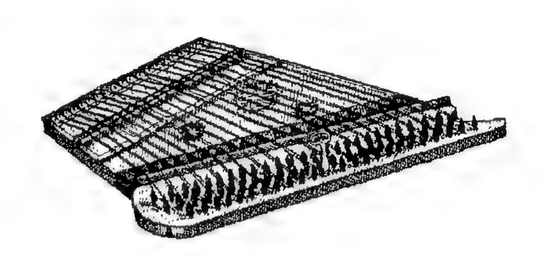
(٥) Sir Frederick Kenyon, The Bible & Archaeology, London, 1940



القانون

اغنى الالات الموسيقية العربية انغاما وآلة ضرورية في فرق «التخت»

اوتار القانون ٧٢ موزعة على مجموعات من ثلاثة اوتار



آلة موسيقية عربية لا غنى عنها في تكوين الفرقة الموسيقية الشعبية المعروفة باسم «التخت» ويظن انها سميت بالقانون لانها اغنى الآلات الموسيقية العربية انغاما وهي لذلك «القاعدة التي يقاس عليها والقانون الذي يشرع به»».

ويتكون القانون من صندوق من الخشب على شكل شبه منحرف. والصندوق قليل الارتفاع مفلطح، وظهره ووجهه من الخشب، ويصنع من انواع مختلفة من الخشب، واكثر انواع الخشب استعمالا في صناعة القانون هو خشب الجوز، وظهر القانون اكبر سمكا من وجهه ويوجد في وسط وجه القانون شباك مفرغ من العظم او العاج او الخشب، وتعرف «بالشمسية»، وغالبا ما تكون قطعة فنية من الزخرفة العربية الجميلة، وبجانب الشمسية الوسطى توجد عدد من الشماسي موزعة في شكل هندسي في الزوايا المختلفة من وجه العود، وقد يكون منها واحدة على شكل ورقة شجر مزخرفة.

وأوتار القانون ٧٢ موزعة في مجموعات من ثلاثة بحيث يصدر عن كل ثلاثة اوتار صوت موسيقى واحد وبذلك يتكون القانون من ثلاثة اوكتافات وثالثة كبيرة. وقد تزاد اوتار القانون حتى يصبح نطاقه الصوتي اربع اوكتافات ويشد كل وتر من اوتار القانون بمفتاح خشبي يحركه مفتاح معدني، ينقله العازف من مفتاح خشبي الى آخر. وتقع المفاتيح الخشبية بطول الضلع المائل لشبه المنحرف، بينما ترتكز الاوتار على «فرس» يمتد بطول الضلع القصير للقانون. وتكون الاوتار الطويلة اقرب الى العازف من الاوتار القصيرة التي توضع عند الطرف البعيد للقانون.

واوتار القانون تصنع من مواد مختلفة باختلاف نصف قطرها. فالاوتار الرفيعة تصنع من الصلب، ومتوسطة القطر من الامعاء او النايلون، اما الغليظة فتصنع من الحرير المكسو بخيوط دقيقة، وتسمى «كنتير».

ويعزف على القانون بريشتين صغيرتين رقيقتين يطرق العازف بهما على كل مجموعة من ثلاثة اوتار سويا. وتعرف هذه المجموعة من الاوتار التي تصدر صوتا واحدا باسم «مقام» وتصنع ريشة القانون من قرن الجاموس وتوضع كل ريشة في بطن العقلة الطرفية للاصبع السبابة تحيط بها حلقة من المعدن تسمى «كستبان» وجمعها «كسابين» ويوضع القانون على حامل خاص امام العازف، وقد يوضع على ركبتي العازف مسطحا. وللقانون علبة خاصة يحمل فيها.

ويغير العازف الصوت الصادر عن كل «مقام» اي اوتار ثلاثة تطرق سويا، بواسطة عدد من القناطر النحاسية الصغيرة يرفعها ويخفضها كما يشاء وتسمى «العرب» وكل عربة ترفع يرتكز عليها الوتر بحيث يقصر الوتر قليلا فيزداد الصوت الصادر عنه حدة، اي تعلو طبقته اما اذا خفضت العربة ازداد الوتر طولا. فنقل حدة الصوت، اي تنخفض طبقته قليلا وبهذه الطريقة وبعدد من العربات يمكن تغيير الدرجة الصوتية الصادرة عن اي «مقام» في القانون. والعربة في القانون مستحدثة، وكان عازف القانون يزم الوتر بابهام اليد اليسرى ليغير من الصوت الصادر عنه، وكان الصوت المزموم اقل بريقا مما يصدر الآن من الوتر المزموم بواسطة العربة المعدنية.

استجابة لدعوتنا «اصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه» في الجامعات العربية للتعريف برسائلهم على صفحات مجلتنا، وصلتنا رسالتان في هذا الصدد من السيد فيصل محمد شقير (ماجستير من جامعة دمشق) والدكتور عماد الدين خليل (ماجستير من جامعة بغداد) ونحن اذ نشكرهما نتمنى ان نكون في فتحنا هذا الباب نيسر جانبا من البيليوغرافيا التاريخية الضرورة لكل باحث ومؤرخ.

جامعة دمشق
كلية التربية
قسم المناهج وأصول التدريس

مشكلات تدريس التاريخ في المرحلة الإعدادية في القطر العربي السوري

رسالة ماجستير في التربية
باشراف الدكتور محمد نهاد حموي   اعدها فيصل شقير

تنبثق اهمية هذا البحث من اهمية مادة التاريخ كمادة تعليمية وتربوية للتلاميذ. ومن الاهمية الكبيرة الملقاة على عاتق هذه المادة ذات الصلة الوثيقة بتحقيق الاهداف الوطنية والقومية التي يطمح اليها المجتمع.

فالتاريخ مادة تربوية هامة ، والتربية هي الوسيلة الأساسية والرئيسية في عملية اعداد الاجيال للحاضر وللمستقبل ، ولا سيما في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية بشكل عام ومن تاريخ القطر العربي السوري بشكل خاص .

ومن الواضح أن أهمية التاريخ في حياة الأمم والشعوب لم تعد الآن موضع شك ولم تعد مكانته في مناهج المدارس على اختلاف مراحلها موضع تساؤل . ويرى المربي الكبير ساطع الحصري أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن التاريخ من أهم عناصر القومية ومن أقوى عوامل الوطنية . وإن رجال التربية والتعليم يتفقون في القول بأن دروس التاريخ من أهم الوسائل لاثارة الشعور الوطني وتنمية الوعي القومي في نفوس التلاميذ .

وتنبثق أهمية هذا البحث كذلك من الدور الذي أخذه على عاتقه في الكشف عن المشكلات التي تواجه تدريس التاريخ في المرحلة الاعدادية ، حيث أنه استهدف الكشف عن أهم المشكلات التي تواجه هذا التدريس مما له علاقة بالجوانب التالية :

أ - الأهداف الخاصة بتدريس التاريخ .
ب - مناهج التاريخ .
جـ - كتب التاريخ المدرسية .
د - طرق تدريس التاريخ .
هـ - الوسائل التعليمية المستخدمة في تدريس التاريخ .
ز - مدرسو التاريخ : طرق اعدادهم وتعيينهم .
ح - عملية التوجيه الاختصاصي .
ط - المشكلات الاضافية التي يشعر بها مدرسو التاريخ .

مع العمل على تقديم بعض المقترحات والتوصيات التي من شأنها أن تساعد على ايجاد الحلول والمقترحات المناسبة لهذه المشكلات .

ولقد تم اختيار المرحلة الاعدادية لعدة أسباب أهمها : ممارسة الباحث لعملية التدريس في هذه المرحلة . ولكون هذه المرحلة تمثل حلقة هامة في حياة التلاميذ ، وخاصة أولئك الذين لا يتابعون دراستهم الثانوية ، ولقد تم تقسيم هذا البحث إلى بابين رئيسيين :

الباب الأول : ويتعلق بالدراسة النظرية .
الباب الثاني : ويتعلق بالدراسة الميدانية .

القسم النظري من البحث

ولقد تضمن هذا القسم خمسة فصول جاءت على النحو التالي :

الفصل الأول : مشكلة البحث :

ويشمل أهمية البحث ودواعي اختياره ، ثم تحديد مشكلة البحث وحدوده ، ثم فروض البحث الرئيسية والأسئلة التي سيجيب عنها البحث ، يضاف إلى ذلك خطوات البحث والتعريفات الاجرائية لمصطلحات البحث الرئيسية ، ثم عرضا موجزا للدراسات السابقة .

الفصل الثاني : تطور التاريخ وأهميته :

وتكمن أهمية هذا الفصل في تعرضه لطبيعة التاريخ وللتطورات الهامة التي طرأت على هذا العلم عبر العصور التاريخية المختلفة ، بالاضافة إلى توضيحه للفوائد التي يحققها تدريس التاريخ .

الفصل الثالث : كيفية تدريس التاريخ في المرحلة الاعدادية في القطر العربي السوري في الوقت الحاضر (القسم الأول) :

ويشمل هذا الفصل دراسة لبعض الجوانب الأساسية التي لها علاقة بتدريس التاريخ في المرحلة الاعدادية ، وهذه الجوانب هي :

أ - الأهداف الخاصة بتدريس التاريخ مع الاشارة إلى المراحل التاريخية التي مرت بها هذه الأهداف منذ الانتداب الفرنسي حتى الوقت الحاضر والتي أدت إلى ظهور الأهداف الحالية .

ب - مناهج التاريخ في المرحلة الاعدادية : مع الاشارة إلى تطور هذه المناهج منذ الانتداب الفرنسي حتى ظهور المناهج الحالية .

جـ - كتب التاريخ المدرسية المستخدمة حاليا في المرحلة الاعدادية وما تضمنته من موضوعات ووسائل تعليمية مثل : الخرائط ، والصور ، والرسوم ، والخطوط الزمنية والقراءات التاريخية الاضافية وما إلى ذلك .

الفصل الرابع : ويشمل هذا الفصل بقية الجوانب التي لها علاقة بكيفية تدريس التاريخ في المرحلة الاعدادية في القطر العربي السوري في الوقت الحاضر وهي :

أ - الطرق التي يمكن استخدامها في تدريس التاريخ ، والطرق التي يتم استخدامها حاليا في تدريس التاريخ .

ب - الوسائل التعليمية التي يمكن استخدامها في تدريس التاريخ ، والوسائل التعليمية المستخدمة في تدريس التاريخ .

جـ - نظام الاختبارات المستخدم في تقويم التلاميذ بمادة التاريخ .

د - مدرسو التاريخ : طرق اعدادهم وتعيينهم .

هـ - عملية التوجيه الاختصاصي المستخدمة في توجيه مدرسي ومدرسات التاريخ .

لقد ساعدنا هذا الفصل كذلك على تلمس المشكلات الخاصة بهذه الأمور .

الفصل الخامس : ويتعلق بالمشكلات بتدريس التاريخ في المرحلة الاعدادية في القطر العربي السوري :

ويشمل هذا الفصل وصفا للمشكلات التي تم التوصل اليها والخاصة بالجوانب المختلفة التي لها علاقة بتدريس التاريخ والتي تمت الاشارة إليها في الفصلين السابقين .

القسم الثاني من البحث ويتعلق بالدراسة الميدانية

ويتضمن هذا القسم ثلاثة فصول جاءت على النحو التالي :

الفصل الأول ويتعلق ببناء الاستخبار وضبطه :

أولا / الدراسة الاستطلاعية :

تهدف الدراسة الاستطلاعية في أي بحث من البحوث إلى اختبار أدوات البحث ومعرفة مقدار ثباتها وصدقها ومدى صلاحيتها في أداء مهمتها .

وفي ضوء الآراء الت[illegible]
والمحكمين في ضو[illegible]
والدروس [illegible] منها فقد تم اجراء بعض التعديلات على الاستخبار بصورته المبدئية ، بحيث شملت هذه التعديلات عدة نقاط من حيث الحذف أو الاضافة أو التعديل .

ثانيا / الاستخبار بوضعه النهائي :

ونتيجة للتعديلات التي تم ادخالها على الاستخبار المبدئي فقد أخذ هذا الاستخبار صورته النهائية وأصبح مؤلفا من ثماني فقرات رئيسية ، ولقد تضمنت هذه الفقرات مجموعة من العبارات تمت صياغتها على شكل أسئلة بلغ عددها ٤٥ خمسة وأربعون سؤالا تناولت معظم المشكلات الخاصة بتدريس التاريخ والتي تم

التوصل إليها خلال الفصل السابق ومن خلال التعديلات التي أدخلت على الاستخبار المبدئي .

كذلك خصصت فقرة بيضاء في نهاية الاستخبار لآراء المدرسين في المشكلات الاضافية التي لم يرد ذكرها في الاستخبار .

ولقد تم توزيع الاستخبار النهائي في صيف عام ١٩٧٧ على أكبر عدد ممكن من مدرسي ومدرسات التاريخ المتواجدين في مراكز تصحيح اختبارات شهادتي الدراسة الاعدادية والثانوية التابعين للمحافظات التالية : مدينة دمشق ، دمشق ، حلب ، حمص ، حماة ادلب ، الرقة ، اللاذقية ، طرطوس ، الحسكة ، دير الزور ، والقنيطرة .

أما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان « خلاصة ومقترحات » :

ولقد تضمن هذا الفصل تلخيصا لأهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال البحث بكامله من أجل تقديم المقترحات والتوصيات التي يمكن أن تساعد على ايجاد الحلول المناسبة لمشكلات تدريس التاريخ في المرحلة الاعدادية في القطر العربي السوري .

وبعد انتهاء القسم الثاني من هذا البحث تم وضع الخاتمة ثم الملاحق .

ولقد تضمن الملحق الأول : النص الكامل لمناهج التاريخ في المرحلة الاعدادية بينما تضمن الملحق الثاني الاستخبار المبدئي الخاص بالدراسة الاستطلاعية ، في حين تضمن الملحق الثالث الاستخبار النهائي الخاص بالدراسة الميدانية النهائية .

ثم تم ادراج قوائم بأسماء المراجع التي اعتمدنا عليها ولقد انهينا البحث بخلاصة باللغة الانكليزية . ■

جامعة بغداد.
كلية الآداب.

عماد الدين زنكي ٤٧٧هـ - ٥٤١هـ.

(رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي)

باشراف الدكتور صالح احمد العلي. إعداد د. عماد الدين خليل.

يشمل بحث (عماد الدين زنكي) دراسة تحليلية للدور الذي لعبه هذا الامير في تأسيس (أتابكية الموصل) وللعلاقات الخارجية لهذه الامارة سواء في بلدان القوى الاسلامية ام في الميدان العالمي ازاء الصليبيين والبيزنطيين، كما يتتبع الاسس والتنظيمات العسكرية والادارية التي شهدتها الامارة المذكورة.

ويتضح - من خلال البحث - ان مكانة زنكي في التاريخ انما نجمت عن سعيه لجمع معظم بلاد الجزيرة الفراتية وشمالي العراق والشام في ظل حكومة واحدة تستطيع الوقوف بوجه الخطر الصليبي وتسعى للقضاء عليه. وقد اتبع زنكي لتحقيق غرضه هذا خطوات سياسية وعسكرية منظمة جعلته (مسؤولا) عن مرحلة جديدة في الجهاد ضد الصليبيين تميزت (بالتنظيم)، بعد ان كان معظم الامراء المحليين، في الفترة السابقة، يقاتلون اعداءهم ارتجالاً ودونما تخطيط مدروس.

وليس هذا البحث (ترجمة) او (سيرة) لحياة امير وتتبع ملامح شخصيته واموره الخاصة، بقدر ما هي دراسة شاملة (للظروف) التي ادت الى نشوء اكبر امارة اسلامية (معاصرة) شهدتها منطقة الجزيرة والشام وشمالي العراق، واستمرت تحكم اكثر من قرن من الزمان، وكان لها دورها الاساسي في ظهور دولتي نور الدين محمود والناصر صلاح الدين على مسرح الاحداث، وتمهيد الطريق لوحدة مصر والشام ومنح المقاومة الاسلامية سلاحا استراتيجيا اشد فاعلية.

يبدأ البحث بتحليل مركز لأهم المصادر والمراجع (العربية والاجنبية) التي اعتمدت في كتابته، وتبيان ما قدمه كل منها في هذا الميدان.. ثم يجيء الفصل الاول عرضا لنسب

عماد الدين زنكي ونشأته السياسية، والظروف المبكرة التي مهدت لظهوره على مسرح الاحداث وتأسيسه امارة الموصل. اما الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، والتي تشكل المساحة الاهم في البحث، فتتناول دراسة تحليلية لعلاقات امارة الموصل بالقوى الاسلامية والصليبية على السواء، مبتدئة بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، فامارات المدن المنتشرة في الجزيرة الفراتية وشمالي العراق والشام، فالامارات المحلية في اقليم ديار بكر في أقصى الجزيرة، ثم الامارات والعشائر الكردية في شمالي العراق، فحكام دمشق واواسط الشام، ثم الامارات الصليبية الاربع في الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس. ثم يجيء الفصل الثامن ليتناول حياة زنكي (الخاصة) وشخصيته ويناقش الروايات المتضاربة حول مقتله. اما الفصلان الاخيران (التاسع والعاشر) فيتناولان تحليلا للنظم العسكرية والادارية التي شهدتها امارة الموصل (بما فيها: الجيش، الاقطاع، الاتابكية، نواب الامير، الولاة، الدواوين، الموظفون ونظام التوظيف، الامر الداخلي والاعمار)...

وكنت قد ارتأيت – قبل نشر الاطروحة – اضافة فصل جديد اليها كتبته مؤخرا ويشمل ما يربو على الاربعين صفحة، تناولت فيه منجزات زنكي الادارية في محاولة لاحداث نوع من التوازن بين الجانب السياسي العسكري والجانب الحضاري من البحث، في عصر غدا فيه للبحوث الحضارية شأن كبير، سيما وان العلاقة الوثيقة بين النظم الادارية والسياسية امرا يعرفه الجميع، اذ لا يمكن اعطاء صورة واضحة عن سياسة دولة او امارة ما الا بالقاء الاضواء على نظمها العسكرية والادارية والاقتصادية.

انجزت الرسالة في معهد الدراسات العليا في كلية آداب جامعة بغداد تحت اشراف الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي، ونوقشت في الثامن من حزيران عام ١٩٦٥ من قبل اللجنة المكونة من الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري رئيسا، وعضوية كل من الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي والاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن (رحمه الله) والاستاذ الدكتور جعفر خصباك.. واجيزت بدرجة (جيد جدا). ونشرت من قبل الدار العلمية، بيروت، عام ١٩٧١.

«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تدعو اصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الالف كلمة والالف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة الى مكان وزمان تقديمها واسم الاستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب امام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى ان تحقق بعضاً من الاهداف والتي اهمها:

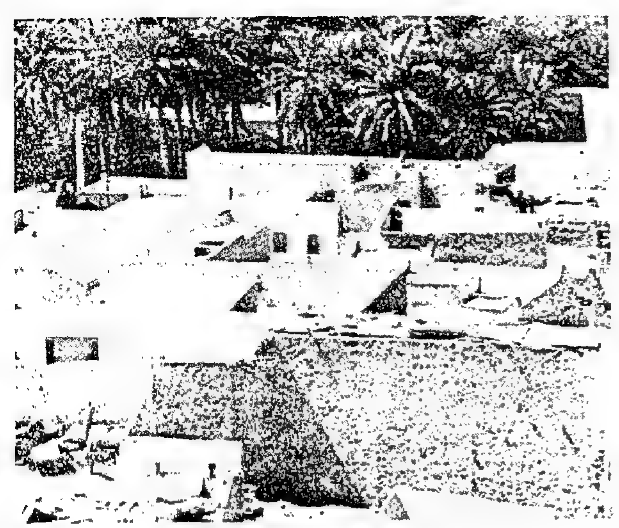
اولاً – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.

ثانياً – التعرّف على توجهات الجامعات العربية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.

ثالثاً – توفير جانب من البيبليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

المسابقة

تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي



إلى القراء الاعزاء:

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تفتح بابا خاصاً للقراء، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع: «تاريخ واسماء ومعالم القرى والاحياء في الوطن العربي». والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية، او ما يعادلها للفائز الاول، واشتراكا سنويا في المجلة للفائز الثاني، على ان تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية او الحي او المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه، او ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة او مظاهر حضارية، واذا امكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او للقرية او لاي مظهر عمراني او اثري فيها، كذلك على ان لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة، مطبوعة على الالة الكاتبة او منسوخة بخط واضح جميل، والّا اضطررنا آسفين لاهمالها.

هذا، واذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا باصول الكتابة العلمية وان يشيروا الى مصدر الاقتباس، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة: اذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الاولى والثانية الفائزتان بالمكافاة.

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وان يرسله الينا بالبريد

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة، إذا نشرت او لم تنشر.

تشكر ادارة التحرير جميع المشتركين في «المسابقة» على مساهماتهم وتنوّه بصورة خاصة بجهود البعض وتاسف لعدم فوز اي منهم بالجوائز المعروضة، وسننشر هذه الرسائل في باب القراء يكتبون..

القراء يكتبون

رصد تاريخي موجز عن: «فرقة الانكشارية»

لقد نشأت الدولة العثمانية في فترة كان المسلمون يلاقون فيها هزائم عسكرية حيث استطاع التتار القضاء على الدولة العباسية، كما ان دولة الاندلس الاسلامية قاربت على الزوال..

فكان العثمانيون قوة فتية ذات حيوية فائقة اخذت تعمل على اعادة مجد الاسلام من جديد، واذا كانت قوة الدولة في قوة جيشها فان فرقة «الانكشارية» وهي احدى الفرق السبع في الجيش العثماني تميزت من بينها بالقوة والصلابة والنفوذ السياسي والعسكري..

معنى التسمية: «الانكشارية» هي اللفظ العربي للكلمة التركية «يكي جري». وتعني «يكي» جديد و«جري» الجند ومعناها الجند الجديد. واسم الانكشارية اطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها الترك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي وذلك من اسرى الاسر المسيحية في البلقان.

العوامل المساعدة على نشأة الانكشارية:

١ - فساد النظام السابق حيث اعتمدت الدولة العثمانية في المجال الحربي في اول نشاتها على التجمع الاختياري للمحاربين الاتراك الذين يؤيدون الدولة العثمانية لضمان بقاء نظام الاقطاع مما ادى الى ظهور الحاجة الى قوة دائمة تكون على اهبة الاستعداد في اي وقت...

٢ - ظروف الدولة العثمانية الخارجية حيث كانت محصورة بين دولتين وهي الدولة السلجوقية والدولة البيزنطية وقد نتج عن ضعف الدولتين ظهور فراغ سياسي واضح يحتاج الى وجود جيش مدرّب وقادر على كسب الانتصارات المتوالية. ومن هنا تهيأ المناخ لظهور الانكشارية.

٣ - لتحقيق هدف الدولة العثمانية في الفتح والاتساع.

كل تلك العوامل وغيرها ادت الى ظهور نواة الانكشارية في عهد اورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩م) ولكن كفرّق ثم تنظمت في عهد السلطان مراد الاول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) من اسرى البلقان الاشداد الذين يتعلمون اللغة العربية والتركية ومبادىء الدين الاسلامي وبعد ذلك يدربون على الجندية..

جهودهم في بناء الدولة العثمانية: يمكن القول بان الانكشارية لم يكن لهم قصب السبق في تدعيم ركائز الدولة العثمانية في بداية نشاتها الا انه لا يمكن انكار الدور الذي لعبه الانكشارية في الحفاظ على بنية الدولة سليمة.

فلقد احرز افراد الانكشارية الانتصارات القوية التي مكنت الدولة العثمانية من ان تحتل مكانة عالية في تلك الفترة. فلقد انتصروا على فرسان اوربا واتسعت الدولة العثمانية في القارة الاوروبية.

وساهمت الانكشارية في فتح القسطنطينية مساهمة فعّالة حين تركزت تلك الفرقة الفدائية في القلب امام سور القسطنطينية. وحينما اعطى لهم السلطان محمد الثاني الضوء الاخضر انطلقوا كالاسود الضارية بتكبيراتهم القوية حتى تم للسلطان محمد الثاني فتح القسطنطينية بعد الكثير من المحاولات لفتحها في التاريخ الاسلامي. وكان اول من ارتقى سور القسطنطينية هو جندي انكشاري وهو «حسن اولو بادلي».

نفوذ الانكشارية: اذا كان افراد الانكشارية قد ساهموا بجهد فعال في الحفاظ على كيان الدولة العثمانية في فترة نشأتها وبدايتها الا ان التمسك بهذا المبدا لا يعني الضمان الكامل لاستمرار هذه الدولة.

فلقد بدات فرقة الانكشارية تسلك سبلا كثيرة تعتبر من عوامل الهدم والفناء في صرح الدولة العثمانية.

واهم ما تميزت به حياة الانكشارية في هذه الفترة هي الثورات:

فلقد بدات هذه الثورات بعد وفاة السلطان محمود الاول (١٧٣٠ - ١٧٥٤)

وتكررت الثورات في عهد مراد الثاني ومحمد الثاني.

وهكذا بدا الفساد يزداد شيئا فشيئا حتى اصبح واضحا وجلياً مما جعل معالجته ضرورة وملحة.

وظهرت الاصلاحات في الدولة العثمانية وكان افراد الانكشارية يثورون ضد عمليات الاصلاح لانهم يرون فيها زوالا لسلطانهم وسارت عمليات الاصلاح حثيثة تواجهها عقبة كبيرة وهي الانكشارية حتى جاء عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وظهرت فكرة الغاء الانكشارية واستئصال شريان الفساد والقضاء على اكبر عقبة في وجه الاصلاح وانطلق السلطان محمود الثاني مستندا على تجارب السلاطين الذين سبقوه واصدر قرارا بتدريب الانكشارية على احدث الوسائل الحربية الاوروبية في ١٢ يونيو ١٨١٦م وفي ١٥ يونيو ثارت الانكشارية فقام السلطان محمود الثاني في ١٦ يونيو بالقضاء التام على فرقة الانكشارية فلقد ذكر معظم المؤرخين بانه تمّ القضاء على اربعين الفا من افراد الانكشارية في مدينة اسطنبول وحدها ثم بعد ذلك شرعت الدولة العثمانية في اقامة جيش نظامي على الطريقة الاوروبية على انقاض الانكشارية.

نظرة اخيرة:

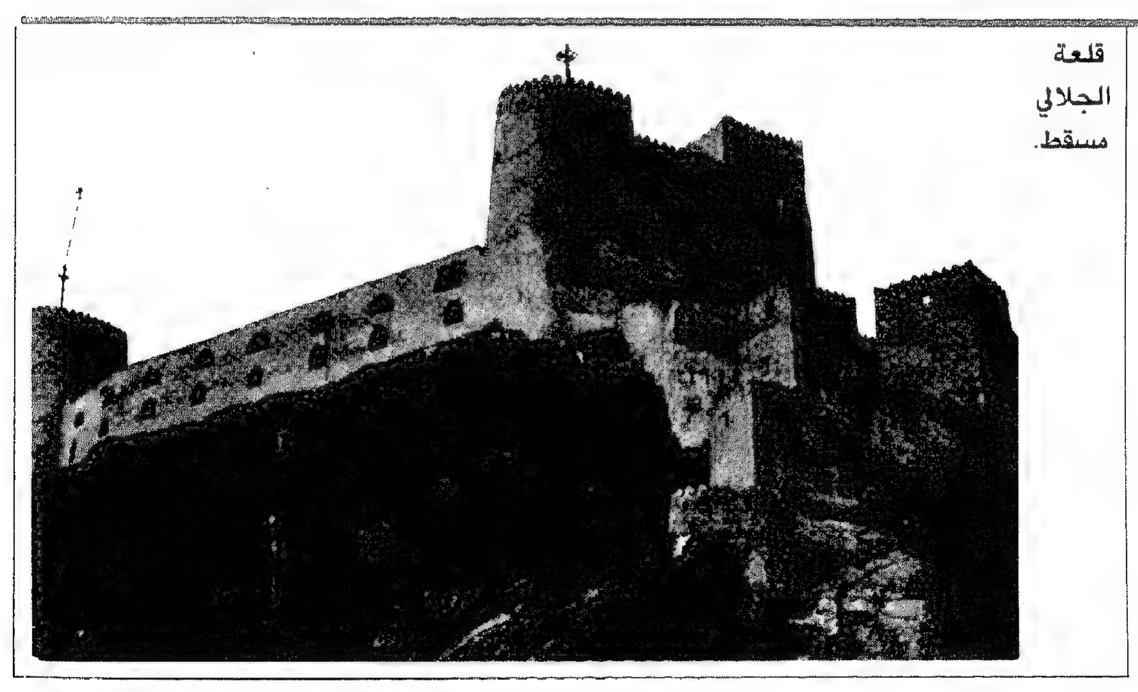
تلك هي فرقة الانكشارية من خلال التتبع التاريخي الموجز في محاولة الالتقاء اكبر قدر من الضوء والتحليل عليها..

تلك هي فرقة الانكشارية التي تعتبر من عوامل البناء في الدولة العثمانية في بداية نشاتها، ثم اصبحت من معاول الهدم والفناء في صرح الدولة العثمانية واصبحت من اهم ملامح فترة الضعف التي انتابت الدولة العثمانية (١٥٩٦ - ١٧٨٧)...

فهد عبد الله السماري
المملكة العربية السعودية

المراجع

١ - دائرة المعارف الاسلامية (تعريب ابراهيم خورشيد وزملائه) دار كتاب الشعب.
- حركة الاصلاح العثماني. محمود البحراوي.
٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية، كارل بروكلمان.
٤ - فلسفة التاريخ العثماني محمد جميل بيهم.
٥ - السلطان محمد الفاتح و د. عبد السلام فهمي.



قلعة الجلالي مسقط.

هدية من القارىء الطالب سليمان عبد الله حمد الحارثي. سلطنة عمان - المنطقة الوسطى - المصيرب.

صيدنايا ودار السيدة العذراء

٣١كم من دمشق / ١٤٠٠م ارتفاعها عن سطح البحر وهي كلمة سريانية الاصل اول من سكنها الاراميون ومن اثارهم النواويس الحجرية ومعبد الاله دانابا ومقام مارسابا ومغارة ماريوحنا. احتل اليونان الوثنيون هذه البلاد اواخر القرن الرابع ق. م. ورمموا معبد دانابا وجعلوه معبدا لاله الشمس ونقشوا تحته ما يسمى اليوم بمغارة الاصنام وهي مدافن مزينة بالتماثيل والنقوش.

غير ان عهد صيدنايا الذهبي بدا منذ ان اعتنق اباطرة بيزنطة الدين المسيحي فاصبحت البلدة مركزا لاسقفية كبيرة، واهمية صيدنايا تاتي من دير السيدة العذراء الذي يدخل اليه من باب صغير مصفح بالعوارض الحديدية ويعلوه نقش من العهد البيزنطي، على ان ادعى ما في الدير للخشوع والعناية مقام الشاغورة وتلقب بالسريانية شاهورة اوشاغورة. والشاغورة عبارة عن حجرة صغيرة واطية السقف تتدلى منها المصابيح الزيتية وقد غطيت جدرانها بالايقونات القديمة القديمة وبالعطايا الذهبية والفضية وفي الشاغورة توقد الشموع ليل نهار وتفوح رائحة البخور فتكسب المكان جوا مهيبا غريبا.

وتقول القصة التي دعت لبناء الدير ان الامبراطور البيزنطي يوستنيان عندما خرج بجيوشه لمحاربة الفرس عسكر على مسافة من دمشق في البادية القريبة ولكن العطش ادركهم فركب الملك فرسه واخذ يبحث عن ماء واذابه يرى غزالة شهية للصيد فراح يطاردها فوقفت على قمة صخرة عالية وعندما تهيأ لرميها بالسهم استحالت الغزالة الى سيدة وقور متشحة بالبياض ويشيع منها نور عظيم واشارت للملك الصياد «لا ترم بسهمك يايوستنيان ولكنك ستقيم كنيسة باسمي على هذه الصخرة. ولكن المهندسين لم يجتمعوا على راي في تصميم الدير الحالي واولى رئيسات الدير كانت اخت الامبراطور يوستنيان.

وليد إبراهيم الاسود

الرّقـة

إحدى المدن السورية الحالية التي تقع على شاطىء الفرات وقد قامت موضع المدينة اليونانية القديمة كاللينيكوم والرَّقة باللغة العربية تعني كل ارض الى جانب واد ينبسط عليه الماء ساعة الفيضان لقد بنى هشام بن عبد الملك سوقافيها دعي باسمه كما بنى ابو جعفر المنصور مدينة الرافقة على مقربة منها. وتم فتح هذه المدينة على يد عياض بن غنم سنة ١٧هـ.

انتقل الرشيد اليها من بغداد بعد ان بيّت مكيدة للبرامكة في سنة ١٨٠هـ وبنى فيها مجموعة من القصور كقصر السلام وقصر البنات الذي لا تزال آثاره واضحة المعالم حتى الان ويقع في الجهة الشرقية بالقرب من باب بغداد كما يوجد فيها بقايا الجامع العتيق والسور الذي يحيط بها وتقدر مساحة المنطقة الاثرية فيها بـ ٥٠ كم^2 كما ان اسم الرشيد كان واضحا على باب السبال من الجانب الشرقي(١) من عدة سنوات خلت وقد قال الرشيد: الدنيا اربعة منازل «العشق والرُّقة والري وسمرقند» (٢) كما توجد الرصافة على بعد ثلاثين كيلومترا الى الجنوب الغربي منها والتي كانت حاضرة هشام بن عبد الملك ياوي اليها في الصيف هربا من البق على شاطىء الفرات(٣) اما الرقة البيضاء فهي احد ابواب الرقة والمعروف بباب الرها(٤) كما ذكر البلاذري(٥) ويتبع الرقة ايضا قرية صفين التي كان بها

منزل جبلة بن النعمان[٦] وفيها ايضا وقعت الفتنة بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان.

وقد اشار المقدسي في سياق حديثه عن الرقة قوله: والرقة موضع الاخطار[٧] كما يقول عنها ابن حوقل وعن الرافقه: وكان لهما عمارة.. وكانت خصبة رخصة الاسعار حسنة الاسواق[٨] ويوجد بالرقة قبور لبعض الصحابة الذين استشهدوا في صفين كعمار بن ياسر والتابعي اوريس القرني ونبغ فيها مجموعة من الشعراء كمنصور النمري وربيعة الرقي[٩] على ان اقدم بناء مسكون فيها حاليا لا يعود الا الى ١٣٠٥هـ - ١٨٨٧م وذلك بعد ان اخر بها التتار خلال فترة اجتياحهم للعراق وبلاد الشام[١٠].

محمد محمد اسعد

هوامش

(١) الاعلاق الخطيرة - للمعز بن شداد.ج ٣ ص ٧١.

(٢) احسن التقاسيم للمقدسي طبع ليدن ١٩٠٦ ص ٣٨٥.

(٣) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٥ وما يليها:

(٤) نشا على انقاضها في الوقت الحاضر قريتا المشلب والحليسات.

(٥) فتوح البلدان: انظر فتوح الرقة والجزيرة ص ١٧٦ وما يليها.

(٦) خطط الشام ج ٥ ص ٢٦٢.

(٧) احسن التقاسيم ص ٣٣.

(٨) صورة الارض ص ٣٠٣.

(٩) الشعر والشعراء في العصر العباسي - دكتور مصطفى الشكعة.

(١٠) مجلة العمران - عدد خاص عن الرقة لعام ١٩٧١ ص ٣٧.

الفضيل بن عياض «صوفي من الرعيل الأول»

حياة الفضيل: انه ابو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي ثم اليربوعي. انه عربي من قبيلة تميم ولد بخراسان من ناحية مرمر بقرية يقال لها فنرين وكان ابوه معروفا لقد كان معروفا بخشية الله والخوف منه. يقول سفيان بن عيينه العالم الزاهد المشهور: «ما رايت احدا اخوف لله من الفضيل وابيه» واحب هذا الوالد المؤمن ان ينشا ابنه على غراره ولكن هذا الابن لم يحقق رغبة ابيه في بواكير شبابه فقد انحرفت به الحياة فيما يبدو في عهد مبكر في حياته ولكن جو الاستقامة الذي نشأ فيه وجو الايمان الذي تفتحت عيناه عليه كامنا في نفسه لم يزل اثره فكانت حياة موقتة ثم تغلبت عليها جوهر فطرته الطاهرة وما لبث ان حصل له هذا الانقلاب المفاجىء الذي يهيئه الله سبحانه لمن احب من عباده. يقول الفضيل بن موسى: كان الفضيل بن عياض، شطارا يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس وكان سبب توبته انه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران اليها اذا سمع تاليا يتلو «الم يأن للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله». فلما سمع قال: «لا بلى يا رب قد آن» فرجع فأواه الليل قال: ففكرت انا اسمع اسمي بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني ها هنا وما ارى الله سائقي اليهم الا لارتدع اللهم اني قد تبت اليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام. لقد سمع الفضيل النداء الالهي يدوي من اعماق نفسه وسمعه متجاوبا مع التالي للقرآن الكريم بل ربما لم يكن هناك تاليا وانما النفس والتطلع الكامن في نفس الفضيل الى حياة التقوى والفضيلة والطهر والنفس الوجداني يبدو ان الفضيل احب ان يذهب الى البيت وهو يطوف به ويسير حوله داعيا الى الله وحده ولا شريك له مناديا «لا اله الا الله» وكانت هزة الكلمة تزلزل قواعد الشرك وتقع غصه في قلوبهم وان حرمة هذا البيت فيما يرى الفضيل ان لا تشد اليه الرحال الا انت

على علم بما ينبغي ان تكون عليه فيه لا بد اذا من العلم قبل الذهاب اليه اين الذهاب. اذا ليتعلم ولتكن توبته صادقة قائمة على اساس من المعرفة وكما هي قائمة على اساس من الشعور النفسي الصادق، لقد يوجه الفضيل وجهه شطر الكوفة ولما حل بالكوفة اخذ ينهل من العلم نهلا لقد اخذ يحضر نهاره مع كبار اساتذة الحديث على الخصوص ويسهر ليله في استذكار ما سمع وتعلم وكان الفضيل صاحب ذاكرة قوية وفطنة نفاذة... وكانت عنده مؤهلات التي لا ينبغ المحدث الا بها. وكان فطنا بحيث يسهل عليه ويتصرف في المشكلات على اسلوب ذكي.

يبدو ان الفضيل لم يكن ثريا وان حياته ما كانت حياة رخاء ولكن الذين يؤرخون له يتحدثون عن خادم له ولقد روى هذا الخادم الكثير عن حياة الفضيل الدينية وكان خادما عالما اكتسب من صحبة الفضيل الكثير من المعرفة ان ابراهيم بن الاشعث الذي تفانى في حب الفضيل وفي خدمته ولم يكن هذا الخادم الوحيد عند الفضيل فقد كان للفضيل جارية سوداء هي التي قالت لهارون الرشيد حينما كان عنده الفضيل «يا هذا: لقد اذيت الشيخ منذ الليلة: انصرف يرحمك الله» وكان للفضيل حمار يركبه وكان الفضيل يقول:«اني لاعصى الله فاعرف ذلك في سوء خلق خادمي وحماري».

ويتجه الفضيل الى العلماء فيبين لهم وضعهم الصحيح قائلا: لو ان اهل العلم زهدو في الدنيا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادت الناس لهم. وقد كان الفضيل يخالط سفيان بن عيينه العالم الشهير فكان كلما التقى به يوجه اليه النصح ولقد جلس اليه سفيان بن عيينه يوما فقال له: «كنتم معاشر العلما سراجا للبلاد يستضاء بكم.. فصرتم ظلمة وكنتم نجوما يهتدى بكم فصرتم حيرة اما يستحي احدكم من الله اذا اتى الى هؤلاء الامراء واخذ مالهم وهو لا يعلم من اين اخذه ثم يسند بعد ذلك ظهره الى محراب ويقول حدثني فلان عن فلان فطأطأ سفيان راسه وقال: نستغفر الله ونتوب اليه وكان اذا اجتمع حوله العلماء يوما قال لهم: «مالكم وللملوك.. ما اعظم مونتهم عليكم. ولقد كان للفضيل جولات مع هارون الرشيد

ولقد كان لهارون الرشيد جولات مع الفضيل.

ولقد كان في الرشيد سحر الدنيا وكان قلبه مع ذلك يتفتح للعظمة الخالصة خارجة عن قلب مؤمن لقد كان يملك اسباب النعيم الحسي في اسراف مسرف وكان يمتلكه احيانا خوف الله فيغمره احساس ديني عميق وتفيض عبرته ولقد كان بهذا الشعور الديني يجل الذين اخلصوا وجوههم لله ويتقبل نصحهم بل يهابهم ويقدرهم روى النضر بن شميل قال: سمعت هارون الرشيد يقول ما رايت في العلماء اهيب من مالك ولا اروع من الفضيل. ومن طرائف الفضيل مع الرشيد ان قال له الرشيد يوما متعجبا من زهدة ما ازهدك فقال له الفضيل – انت ازهد مني قال وكيف ذلك قال: لاني ازهد في الدنيا وهي فانية وانت تزهد في الاخرة مع انها باقية..

وعن المحبة سأل رجل الفضيل بن عياض فقال: يا ابا علي متى يبلغ الرجل غايته من حب الله تعالى: فقال له الفضيل «اذا كان عطاؤه ومنعه اياك عندك سواء فقد بلغت الغاية من حبه، اما حقيقة المحبة فقد قال الفضيل بشأنها «حقيقة المحبة ايثار المحبوب على الكونين في القرب والبعد. وعن الرضى يقول الفضيل: «درجة الرضاء عن الله عز وجل درجة المقربين ليس بينهم وبين الله الا روح وريحان».

حدث سعد بن زنبور قال كنا على باب الفضيل فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا فقيل لنا انه لا يخرج اليكم او يسمع القران قال وكان معنا رجل موذن فقلنا له اقرا فقرا «الهاكم التكاثر» ورفع بها صوته فاشرف علينا الفضيل وقد بكى حتى بلّ لحيته بالدموع ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينه وانشأ يقول: بلغت الثمانين او جزتها فماذا اومل او انتظر اتالى ثمانون من مولدي وبعد الثمانين ما ينتظر علتني السنون فابليتني. قال ثم خنقته العبرة وكان معنا علي بن الخرشم فاتمه لنا فقال علتني السنون فابليتني فرقت عظامي وكل البصر. ثم لما راى نفسه اهلا للذهاب الى مكة ومجاورة البيت الحرام سافر اليها واستقر فيها الى ان مات بها في اول سنة سبع وثمانين ومائة عن نحو الثمانين سنة ودفن بباب المصلى.

عبد الحكيم محمد كشاد. طرابلس – ليبيا



بريد القراء

● المستشار القانوني السيد مؤيد الثنيان - الدمام - المملكة العربية السعودية

لقد سررت جدا بوجود مجلة كمجلتكم تبحث في التاريخ الذي اهمل من قبل اكثر المجلات العربية المعاصرة والذي يجهله اكثر الناس وخاصة الشباب. واني باعتباري احد هواة البحث بالتاريخ وعضو الجمعية التاريخية البريطانية فيسرني ان اكون احد المشتركين في مجلتكم. كما يسرني ابداء بعض الملاحظات التي ارجو ان تحظى بموافقتكم.

■نشكر للسيد المستشار بادرته الطيبة ونامل ان نكون حسب ظنه. بالنسبة للملاحظات فان ردنا هو الاتي:

١ - حجم المجلة لا يمكن تغييره لاسباب فنية (حجم الورق) واسباب ادارية (تجليد المجلة كل سنة). بالنسبة للطباعة فان المجلة تطبع بالفعل بطريقة الاوفست.

٢ - نحن ننشر وباستمرار صور تاريخية نادرة وسنحاول ان نلبي رغبتك في اعدادنا المقبلة.

٣ - ملف الوطن العربي الذي بدانا به منذ اكثر من عشرة اشهر يلبي رغبتك كل شهر. بالنسبة للتاريخ الحديث فاننا نحاول قدر الامكان الهروب منه نظرا للمحاذير الكثيرة التي ستجابهنا.

● عبد الكريم عبدان - العراق - محافظة بغداد.

■نشكر الاخ عبد الكريم على مساهمته وناسف لعدم تمكننا من نشرها بسبب رداءة الخط. نامل من الصديق ان يرسل مواده في المستقبل مطبوعة على الالة الكاتبة.

● آيت نيني محمد - وجده - ص. ب. ٨ - المغرب.

تحية تقدير واعجاب لمجلة «تاريخ العرب والعالم».. للدور الفريد الطلائعي الذي تقوم به في العالم العربي من حيث اختصاصاتها وكذلك من حيث تشجيعها لهواة جمع الطوابع البريدية من خلال نشر المعلومات القيمة التي تنشرونها كل شهر.

■ نشكر للاخ محمد تقديره للمجلة وللعاملين معها.. بالنسبة لاقتراحك القاضي بمبادلة طوابع بريدية بكتب تاريخية فاننا نحيل اقتراحك لقراء «تاريخ العرب والعالم». اما الاعداد التي تحتاجها فبامكانك الحصول عليها مقابل تحويل «عشرون» ليرة لبنانية او ما

● حيدر مجيد ياسين - بغداد - العراق

■نشكر الاخ حيدر على مساهمته ونامل منه ان يرسل مواده في المرة القادمة مطبوعة على الالة الكاتبة.

● فهد عبد الله السماري - الرياض - جامعة الامام محمد بن سعود - المملكة العربية السعودية.

اود ان اهنئكم وابدي اعجابي بجهودكم البناءة وبما تقوم به مجلتكم الموقرة من جهود واعمال تشكر عليها. ويسعدني ان انضم الى هذه المجلة العزيزة وان اشارك في اداء رسالتها العلمية القيمة.

■نشكر الاخ فهد على عواطفه الطيبة ونفتخر بانضمامه الى اسرة تحرير المجلة ونعتز بمشاركته القيمة التي قررنا نشرها في هذا العدد.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت : يوميّاً ماعدا السبت الإقلاع الساعة ١٨،٣٠

الظهران : يوميّاً ماعدا الثلاثاء الإقلاع الساعة ١٨،٢٠

*البحرين : يوميّاً الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

*الدوحة : يوميّاً الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

*دبي : يوميّاً الإقلاع الساعة ١٨،١٠

*ابوظبي : يوميّاً الإقلاع الساعة ١٧،٤٠

*مسقط : أيّام الاثنين - الاربعاء والجمعة الإقلاع الساعة ١٨،١٠

*رأس الخيمة : يومي الثلاثاء والسبت الإقلاع الساعة ١٨،١٠

للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ — صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ — طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ — بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

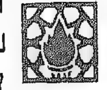
مكاتب الحجز تفتح ليلاً نهاراً ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



*بالإشتراك مع طيران الخليج

رأي حر

بقلم الدكتور
حنفي بن هيسي
رئيس تحرير مجلة
«الثقافة» الجزائرية



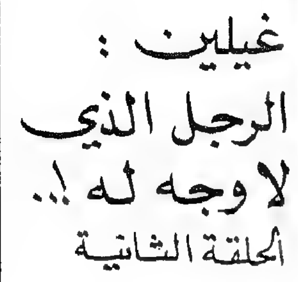
ان سلوكنا في الحياة خاضع احياناً لحسابات نحاول بها ان نضمن لانفسنا النجاح والربح في مشاريعنا . ولا تثريب على الانسان من هذا التصرف ما دام الامر يتعلق بتحقيق المصلحة لنفسه، او لذويه، او لبني قومه، من غير ان يترتب على هذا التصرف ما فيه ضرر بمصالح الآخرين. ولقد يقول البعض بأن هذا الكلام من البديهيات، ولا يحتاج الى توضيح او بيان. ولكن المشكلة ان هذه الحسابات تقوم في اغلب الاحيان على الميل الى هذا الشيء دون ذاك، وعلى الاختيار والانتقاء بين قيم عديدة. فمن الملاحظ اليوم مثلا ان القيم المادية مرجحة لدى الكثير من المواطنين على القيم الثقافية والفكرية او الجمالية. ولعل اوضح دليل على ذلك ان الهدايا التي تقدم في المناسبات والاعياد هي المآكل او الملابس او المنتجات الصناعية، وقلما يخطر ببال احد ان يصطحب معه للاهداء، باقة من الزهور او لوحة فنية او اسطوانة، او شيئاً من هذا القبيل. اما اذا خطر بباله ان يهدي كتاباً، فسوف يقابل بالازدراء والسخرية. وذلك ان «تقييم» الهدية قائم لدي معظم الناس على معايير حسية مادية صرفة، كالحجم، والوزن، والفائدة المادية العاجلة، وما أقل حظ الكتاب من هذه المعايير الثلاثة.

ولو ان الامور تقف عند هذا الحد لما كان فيه من لزوم للبكاء على القيم الفكرية والثقافية الضائعة، لأن الانسان على اية حال معذور اذا كان يسعى الى ارضاء حاجاته الملحة المتمثلة في المأكل والمشرب والملبس والوسائل المادية التي توفر له الراحة.. ومعذور ايضا (الى حد ما) اذا كان يرجح هذه الحاجات البيولوجية والمادية، على الحاجات الفكرية الثقافية في حد ذاتها وهذا الاختيار امر عسير، خلافاً للقيم المادية التي يستطيع الانسان بكل سهولة ان يختار الواحدة منها دون الاخرى، وان يتخذ تجاهها موقفا واضحاً بالإقدام والاحجام، لانها على اية حال معروضة للبيع، واسعارها واضحة، وهي خاضعة، لقانون العرض والطلب. اما روائع الآداب والفنون والعلوم فكيف السبيل الى تقييمها؟ ويزداد المواطن حيرة، عندما لا يجد من يساعده في الاختيار فيحاول ان يتخلص من هذه الحيرة بالانصراف تماما عن امثال هذه القيم. وقد تجده احيانا يكتفي بالقيم المادية. او يعامل القيم الثقافية بنفس الطريقة التي يعامل بها القيم المادية. وهذا السلوك لاحظناه عند فئة من المواطنين الذين لا يزالون يشكون، ويشككون الناس في اللغة القومية، ويحسبون حسابات تافهة كما لو ان اللغة العربية من القيم المادية الصالحة للبيع والشراء، والمتعرضة للربح والخسارة، فيتساءلون: ما هي اللغة التي سوف تضمن لابنائي الجاه والمال، وترفع منزلتهم في المجتمع؟ وبما ان بعضهم لم يتخلصوا من التبعية الثقافية، فقد استقر في اذهانهم بان لغة الدنيا لا تزال هي اللغة الاجنبية، كما كان الامر في عهد الاستعمار. ولذلك تجد الواحد منهم لا يرضى ابداً بتسجيل ابنه في المدرسة المعربة او القسم المعرب فيبذل كل ما في وسعه لنقله الى القسم المزدوج، بل يتمنى لو يجد سبيلا الى تسجيل ابنه في احدى المدارس الاجنبية.

ونحن اليوم نتساءل: هل يحق لاحد من الطلبة المعربين — بعد ما نالت البلاد استقلالها واستكملت الدولة مؤسساتها هل يحق له ان يتخوف على مستقبله، وان يظن بان ابواب العمل ستكون مغلقة امامه؟ ان قلق الطلبة المعربين على مستقبلهم لا مبرر له اطلاقا، والمسألة كلها متعلقة بقدرة كل واحد منهم على النشاط والعمل، لكي يساهم بكل جد في بناء صرح الدولة. وسوف يزول هذا القلق تماما يوم يعمل القائمون على شؤون التربية والتعليم والتكوين في بلادنا، على توضيح معالم السياسة اللغوية وعلى تأسيس المدرسة الجزائرية الموحدة: مدرسة ليس فيها تمييز بين معرب ومزدوج، وينهل فيها ابناء البلاد من مورد واحد.

في العدد المقبل





غيلين :
الرجل الذي
لا وجه له !..
الحلقة الثانية



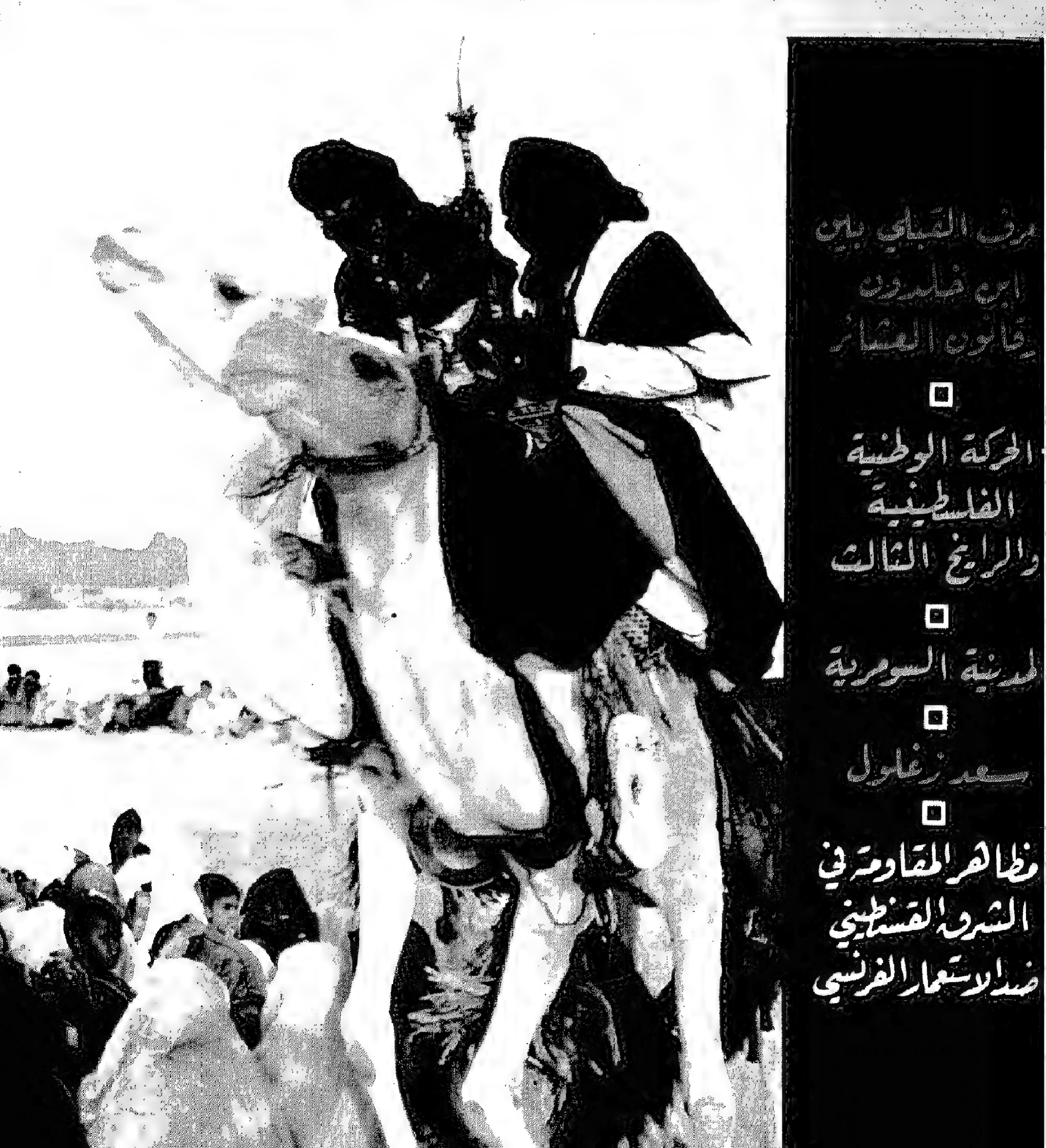
مظاهر
المقاومة
في الشرق
القسنطيني
ضد الإستعمار
الفرنسي



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية - العدد الثالث والعشرون - أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ - الموافق شوال ١٤٠٠ هـ



الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



إبن سينا :
قائداً للفكر
التربوي

تاريخ القهوة



السنة الثانية - العدد الثالث والعشرون - أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ - الموافق شوال ١٤٠٠هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٤ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٧٠٠ فلس	ليبيا : ٨٠٠ درهم
السعودية : ٧ ريال	الكويت : ٥٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٧ ريال
البحرين : ٧٠٠ فلس	المغرب : ٥ درهم
مسقط : ٨٠٠ بيزة	بريطانيا : جنيه استرليني

الإشتراكات (بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

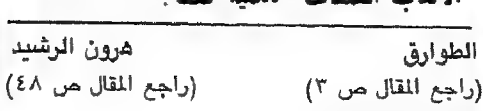
EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 2, No. 23. Sep. 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"





● المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.





الطوارق (راجع المقال ص ٣)

هرون الرشيد (راجع المقال ص ٤٨)

الموضوع — الصفحة

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَد إذا لم تنشَر.



العرف القبلي بين ابن خلدون وقانون العشائر

د. صالح الحمارنة

لقد عرف العرب شأنهم شأن غيرهم من الشعوب النظام القبلي عرفوه منذ القدم فهو ملازم لهم مناسب لطبيعة بلادهم الصحراوية وطرق معيشتهم. فمن هنا قام النظام القبلي وسادت تقاليده والقبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها هذا النظام، وكل قبيلة تقوم مستقلة عن الاخرى وكثيرا ما ترتبط بغيرها من القبائل برابطة الدم والنسب وبالتالي تقوم رابطة المصالح المشتركة. في التضامن ضد الاخطار الطبيعية والغزو البشري وغيرها من الاخطار.

وطبيعي ان يقوم لهذا النظام عوائد واعراف وتقاليد وهذه بمجموعها ومع الايام تصبح المنظم الحقيقي لعلاقة الافراد بعضهم ببعض وعلاقتهم مع قبيلتهم بالقبائل الاخرى. بكلمة تصبح هذه التقاليد نمطاً من السلوك الحضاري ويؤدي هذا السلوك بالتالي وظيفته في التحام الجماعة وتماسكها من جهة ويقدم نمطا معينا يستخدمه الفرد في بيئته ولسد حاجته من جهة اخرى.

ولقد عالج ابن خلدون في مقدمته البداوة وأثرها بشكل مستفيض قلما تجده عند غيره من المؤرخين العرب المسلمين. وهذا طبيعي لشخصية فذه ذات فكر ثاقب كشخصية ابن خلدون الذي اكّد بعمق ان المجتمع العربي – هو من اكثر المجتمعات تأثرا بالتفاعل ما بين البداوة والحضارة.

«فالبيئة البدوية أصل البيئة الحضرية وسابقة عليها... لأن الضروري اقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه... ولأن الضروري أصل الكمالي[١]

ان الموضوع الذي أود هنا طرحه هو ان المجتمع العربي الحاضر – في شرقي البلدان العربية كما في مغربها – من اكثر المجتمعات تأثراً بالقيم البدوية، وكما يقول الدكتور علي الوردني «لا تزال هذه القيم متعلقة في اعماق نفوسنا من حيث نشعر او لا نشعر ولعل الكثير من مشاكلنا الاجتماعية ناشئة من التصادم بين القيم البدوية القديمة والقيم الجديدة التي جاءت بها الحضارة الجديدة[٢].

ولقد ساعد على ذلك امور عدة واضحة فصحراء العرب الواسعة من اكبر منابع البداوة ربما في العالم كله فالبداوة اصبحت ملازمة لنا نحن العرب مرادفة لاسمنا ولهويتها...

كما وان هناك اموراً اخرى كثيرة ساعدت على تعميق روح البداوة ونظامها عندنا منها قانون العشائر الذي يطبق في كثير من البلدان العربية بجانب القانون المدني هذا القانون أي قانون المحاكم العشائرية ساعد ويساعد على المحافظة على العادات والتقاليد التي رسمتها شريعة العشائر وتقاليد البادية... وبكل بساطة أدى هذا القانون الى جعل القبائل في المجتمعات العربية كالمجتمع الاردني على سبيل المثال – جعلها تشكل كيانات قائمة بذاتها تنتمي الى تراث فكري معين... ومنقسمة على ذاتها وعن الوطن ككل. ذلك ان ولاء افراد القبيلة – كما هو معلوم – يتجه اولاً نحو قبائلهم اكثر مما يتجه نحو وطنهم الشامل. وقد وصف ذلك ابن خلدون خير وصف اذ قال «ولا يصدق دفاعهم (البدو) وذيادهم الا اذا كانوا عصبية، واهل نسب واحد، لانهم بذلك تشتد شوكتهم، ويخشى جانبهم، اذ نصرة كل واحد على نسبه وعصبيته أهم[٣].

واذا كانت القبائل قد تخلت عن استقلالها السياسي، لتخضع لحكم الدولة فإنها ما تزال تحتفظ باستقلالها الاجتماعي وبشريعتها المعروفة منذ مئات السنين وهكذا رغم التطور الذي طرأ على البلاد العربية في مضمار الحضارة فقد استمر النمط العشائري في الحياة سائداً في كثير من ارجاء الوطن العربي اليوم. فالاعراف العشائرية ليست محصورة في نطاق العشائر البدوية، والقبائل الرحل في العالم العربي، بل امتد اثر المفاهيم العشائرية الى المجتمع العربي الحضري وبدرجات متفاوتة بين هذا المجتمع العربي او ذلك. وقد ادى هذا الامر (ويؤدي باستمرار) الى ظهور تناقضات في المجتمع العربي والى صراعات عنيفة ما بين التطلعات الحديثة نحو التقدم وبين الافكار والقيم القبلية التي تشد اجزاء من مجتمعنا العربي (ولا تزال) الى الوراء وتقف عائقاً قوياً دون انطلاقه.

لقد كافح الاسلام الاتجاهات القبلية،



«بحر الرمال» في صحراء الجزائر

ويظهر ذلك بقوة في مكافحته «العصبية القبلية» عصبية الجاهلية ونخوتها. واراد الاسلام احلال رابطة جديدة، بين الافراد تحل محل الرابطة القديمة رابطة الدم. وتلك هي **رابطة العقيدة والايمان**.

ويرى ابن خلدون ان الاسلام جاء بعصبية جديدة شاملة أو برابطة الدين فوحد العرب وألف بينهم واطلق الطاقات في العقول فهو يقول «حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين اكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، زحفوا الى امم فارس والروم، فابتزوا ملكهم»[٤] وهو يرى ان العصبية القوية هي بداية تكوين الملك فيضيف» «واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما آلف الله كلمة العرب على الاسلام»[٥].

اذن فقط ابدل الاسلام بفكرة الغزو في سبيل الثأر أو المرعى أو الماء فكرة الجهاد في سبيل الدين والمبدأ، والحرب المنظمة في سبيل حماية الامة والدفاع عنها. وتجاوز الاسلام الحدود القبلية بتكوين الامة التي هي فوق القبائل والتي وضعت مصلحتها فوق كل مصلحة اخرى. ومع ان القبيلة – كما يقول الاستاذ الدوري – بقيت وحدة اجتماعية فإن الرسول الكريم قد حاول ان يذيبها في الامة، واكثر من ذلك فقد ادخل الرسول صلوات الله عليه الى العرب عن طريق الدين فكرة الدولة والقانون ليقابل بهما فكرة القبيلة والعرف[٦].

الاستاذ الدوري في كتابه «مقدمة في تاريخ صدر الاسلام» عرض لنا صورة عن كفاح الاسلام، كفاح العقيدة الجديدة، ضد العصبية القبلية واسلوبها الانقسامي القديم فأشار الى وجود صراع ما بين العصبية القديمة والدين الجديد، وان هذا الصراع قد امتد طيلة فترة صدر الاسلام وقد تمثل هذا القديم في التقاليد القبلية وتمثل الجديد في الدعوة الاسلامية، فحدث صدام وصراع في زمن الرسول. واستمر هذا الصدام والصراع بعد وفاته بين هذين التيارين الرئيسيين:

التيار القبلي والتيار الاسلامي، ودارت حولهما أهم احداث التاريخ العربي في صدر

الاسلام، وكانت وجهة التيار الاسلامي نحو الجزيرة سياسيا ودينيا، وابادة عوامل الانقسام وتوسيع رقعة الاسلام وسيادة الاسس الاسلامية في حياة العامة. وابن خلدون اكد في أكثر من موضع من مقدمته وفي كتابه.

«ان سلالة تبدأ مهمتها بالاستناد على الدين تضاعف من قوة الهيئة المعنوية التي تساعد على قياسها»(٧) فالدين الذي يعلمه نبي او مبشر بالحقيقة هو القاعدة الوحيدة التي يمكن ان تشيد عليها دولة كبيرة وعظيمة»(٨).

أما اتجاه التيار القبلي فكان مقاومة الاتجاه المركزي ونحو استمرار التقاليد العربية القبلية برغم اصطدامها احيانا بالمبادىء والاتجاهات الاسلامية(٩).

ونلاحظ بوضوح المرارة التي يتحدث فيها ابن خلدون عن الهجرة التي قامت بها القبائل العربية البدوية من بني سليم في القرن الخامس هجري - الحادي عشر للميلاد وان **تشجيعهم ليلعبوا دورا في حياة المغرب الكبير سياسيا واجتماعيا كان بالحقيقة والواقع تشجيعا للتيار القبلي لدى العرب وهذا ما افجع ابن خلدون واحزنه كل الحزن.**

وكأني بالهجرة الهلالية البدوية هذه كانت بمثابة رد على التيار الاسلامي القوي الذي رافق عملية الفتوح وعصره.

لقد ضعفت الامبراطورية التي اقامها المرابطون ومن بعدهم الموحدون... امام قوة التيار القبلي، فكان الاتجاه الى تقوية هذا التيار البدوي وممثليه وذلك بمنحه الكنوز واعطائه المناطق الواسعة وان تسقط بيده المدن هذه المدن لم تجد طريقة لاحتواء هذا التيار الا ان تدخل هي نفسها في النزاع القبلي الناشب، فصارت مدن المغرب العربي الكبير تحاول الواحدة ان تقضي على الاخرى.

لقد شكل المرابطون امبراطوريتهم العظيمة خلال القرن الحادي عشر ثم في القرن الثاني عشر قامت امبراطورية الموحدين - الذين حملو القبائل العربية على القدوم الى مراكش سنة ١١٥٢، ووصلت في هذه الفترة الحضارة العربية الاسلامية الى ذروتها.



بدوية من بادية الشام تخبز في فناء خيمتها.

وفي القرن الرابع عشر كان رؤساء يجيزون لانفسهم حق التمتع باقطاعات متزايدة الاهمية. وكانت هذه الامتيازات الاميرية تضعف من السلطة المركزية التي كانت اعجز من ان تقاوم الرؤساء الكبار(١٠). فبدت في هذه مختلف ممالك الشمال الافريقي وكأنها قد فقدت القوة التي تستند اليها. لذا نرى ابن خلدون (وقد اشار بصدد هذا العصر في معرض حديثه عن وباء الطاعون الذي تفشى سنة ١٣٤٨) وجاء (أي الطاعون) الدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها(١١).

لست هنا في موضع لاستعراض التاريخ للدولة او بالحرى للدول - العربية الاسلامية والتي قامت في شرقي الخلافة او في غربها ولكن اريد ان أؤكد حقيقة سبق وان اشرت اليها هي ان العقلية القبلية والتيار القبلي الذي اثار ابن خلدون واقلقه واحزنه بقي قويا على مر العصور لدى الشعوب العربية... واثاره ما زالت باقية حتى قرننا الحالي الذي نعيشه(١٢).

ولقد كان الاستعمار الغربي الامبريالي خاصة في مطلع القرن العشرين يشجع ولمصلحته العقلية القبلية التيار القبلي في الامة العربية. فكان الاستعمار يعمل لترسيخ الاعراف القبلية ويسندها وذلك بسنّه القوانين التي تكفل استمرار ودوام هذه العقلية. هذه القوانين التي عرفت «بقانون محاكم العشائر كالتي سنت في الاردن وفي العراق وفي سوريا او في غيرها من الاقطار العربية... والتي بقي معمولاً فيها رسميا حتى وقت متأخر جدا، وبعضها يعمل بهذه القوانين حتى يومنا هذا.

والهدف من وراء ذلك واضح وضوح الشمس الا وهو الابقاء على الكيانات القبلية وانقسام الشعب الواحد في البلد الواحد الى شعبين واحد بدوي والاخر حضري. «من العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون من الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة من القفار واطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي يكون بالامصار والقرى والمدن والصدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها [١٣]

فقوانين العشائر تمنح افراد العشائر في البلاد العربية امتيازات خاصة في المحاكمة والعقاب وتحرم باقي افراد المجتمع منها. وهذا بالذات يشكل خرقا لقواعد المساواة امام القانون او القوانين المستقرة في دساتير الدول العربية، فمثلا: اذا حوكم حضري امام محكمة نظامية فإن اقسى عقوبة لجريمة القتل مع سبق الاصرار هي الاعدام، بينما اذا حوكم بدوي وبنفس الجرمية فتطبق عليه احكام قانون محاكم العشائر - فتكون عقوبته كما كانت في الاردن - الحبس لمدة سنة واحدة او غرامة لا تزيد على خمسين دينارا.

«فطبيعتهم (البدو) انتهاب ما في ايدي الناس وان رزقهم من خلال رماحهم وليس عندهم من أخذ اموال الناس حد ينتهون اليه كلما امتدت اعينهم الى مال او متاع او ماعون انتهبوه. فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخراب العمران»[١٤].

هكذا يصف ابن خلدون، العرف القبلي فهذا العرف وتلك الشريعة اصبحت اليوم عاجزة ومتأخرة لا تصلح لملاحقة متطلبات العصر فالبداوة اصبحت اليوم صفحة تطوى واسلوباً بائداً يجب ان يدخل في ذمة التاريخ. فالبداوة التقليدية اخذت تتغير وعليها ان تتغير وذلك بأن تعمل على ان تتحول مناطق البادية (الواحات والمناطق الشبه القاحلة) تتحول الى مصادر انتاج - حيواني وزراعي فيتكافأ الامتداد السكاني للناس[١٥] تلك هي احدى المهمات الحيوية التي تواجه الحكومات والمؤسسات العربية اليوم... وبشكل ملح «ونجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها[١٦] والمجتمع كله يتحرك بهذا الاتجاه الصاعد من البداوة الى الحضارة وليس العكس».

قلنا ان البداوة صفحة تطوى ولكن قيم البادية الايجابية منها والسلبية قد تفشت ورسخت بكافة الاقطار العربية، يستوي في ذلك



فارس يمتطي
حصانا
عربيا اصيلا.

ريفها وحضرها. ويرد بعض المفكرين السبب في ذلك الى دخول الكثير من هذه القيم الى الاسلام نفسه ومنه تقبلها الناس كجزء من العقيدة التي استقرت في النفوس، واصبحت مع الزمن جانبا هاما في تركيبهم الخلقي والاجتماعي بشكل حقق بقاءها واستمرارها بغض عن التقدم الحضاري والاحتكاك بالغرب كذلك. ويذهب البعض الآخر فيرى ان الكثير من تلك القيم البدوية قد نشأت في ظل ظروف طبيعية وحياتية ببيئة الصحراء وان بعضها هو السبب الرئيسي في العلل الاجتماعية التي تسد السبيل امام تطور اقطار العالم العربي في مجالات متعددة[١٧].

اما كيف تحيا قيم البادية في مدننا وفي انظمتنا الاجتماعية والسياسية فالامر في منتهى الجلاء والوضوح. فقط فلنستعرض وبسرعة القطاعات الكبرى للناس في مجتمعاتنا.

اما البرجوازية في المدن العربية فهي في غالبيتها من الكمبرادورسيين الذين في جوهرهم هم تطور للبرجوازية المتخلفة والمثقلة بالفكر الزراعي القبلي، وهؤلاء هم المتحكمون في الاسواق والمقدرات. وان الاقتصاد الذي يعيش في بلدنا هو اقتصاد الخدمات لا الاقتصاد المنتج والمبرمج على الغالب. هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن العمال الزراعيين وعمال الخدمات المتواجدون جميعا في المدن العربية المتخلفة، يظلون ابناء العقلية الزراعية والقبلية المتخلفة، ما لم يتفاعلوا مع الآلة التي تكوّن بعملياتها الحسابية والهندسية الرؤية الصناعية والعقلية العلمية والعملية[١٨] وحتى النفط وهو اكبر صناعة واهمها في العالم العربي لم يقد عالمنا الى انقلاب صناعي... ولم نتفاعل معه بل قاد امتنا، على الاصح قسماً كبيراً منها، الى الترف والدعة والبطر.

ويقول ابن خلدون عن العباسيين المتأخرين «فاعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها فنبذوا الدين وراءهم فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من ايدي العرب وامكن سواهم منه»[١٩] وفي مكان آخر يقول «واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ، وعوائد الترف والاقبال على الدنيا قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر»[٢٠]. ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش او حصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السمون والدعة[٢١].

والذي حصل ويحصل باستمرار ان مظهر العقلية القبلية في المدن العربية قد تمثل بشيء آخر مهم في حياتنا السياسية والاجتماعية الا وهو في انشاء الكتل والشلل والتي احيانا تتسمى باسماء احزاب سياسية. هذه الكتل شجعتها بل واوجدتها كثير من الدول العربية، وهذه التجمعات تمارس نفس العملية عملية السلب والنهب «القديمة» ولكن باسلوب «جديد» هو استغلال المناصب والقوانين. والعجيب ان الروابط البسيطة مثل الرابطات العائلية والجمعيات الخيرية المختلفة من المؤسف ان هذه ايضا تأخذ لونا من الوان العشائرية والقبلية وتسير في نشاطاتها المختلفة ضمن هذا الاطار.

يقول ابن خلدون «وايضا منهم (العرب البدو) متنافسون في الرئاسة وقل ان يسلم احد منهم الامر لغيره، ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من اجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقص»[٢٢].

الاستاذ كيلاني يقرر «كان من أثر سيطرة التقاليد والاعراف القبلية في المجتمعات العربية ضعف الشعور الوطني لدى الحكام العرب وانشغالهم ببناء العصبيات عن بناء دولهم طيلة السنوات العشرين التي انقضت من الهزيمة الاولى عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧م»[٢٣].

الزعامات في البلدان العربية تكاد تكون غريبة عن الشعب وحياته ومصيره لانها مغرقة بالروح القبلية والنفعية، ضعيفة الاحساس بالروح الوطنية لا تعمل الا لبناء العصبيات الخاصة بها، فالمصلحة الشخصية فوق المصلحة العامة والشخص الموالي لا الشخص الكفء. «ان الاوطان الكثيرة العصائب قل ان تستحكم فيها دولة»[٢٤] والسبب في ذلك اختلاف الاهواء وان وراء كل رأي منها هوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاص على الدولة والخروج عليها في

كل وقت وان كانت ذات عصبية، لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة[٣٥].

وبعد، اوليست معركتنا مع اسرائيل والامبريالية العالمية هي ايضا معركة حضارية يجب مواجهتها بغير العقلية وعيشة البطر والتفرقة وان نتمسك بحبل الله» ونتعصب لقوميتنا العربية لنواجه حركة رجعية عنصرية شرسة من الصهيونية العالمية ووليدتها اسرائيل، فهذا ابن خلدون العظيم يحذرنا قائلا:

«ان الامة اذا عليت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء، والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من انتكاس اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها»[٣٦].

المصادر والمراجع

١ - ابن خلدون: المقدمة من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الطبعة المصرية، القاهرة» ١٣٢٧هـ صفحة ١٣٧، كذلك عن طبعة بولاق المفردة.
٢ - د.علي الورداني: ابن خلدون والمجتمع العربي، من كتاب «اعمال مهرجان ابن خلدون، القاهرة ١٩٦٢، صفحة ٥٢٧.
٣ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٤٣.
٤ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٧٥ - ١٧٦.
٥ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٧٦. عبد العزيز الدوري: ابن خلدون والعرب من كتاب «اعمال مهرجان ابن خلدون» القاهرة ١٩٦٢، صفحة ٥٠٩.
٦ - عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، بيروت ١٩٦٠، صفحة ٢٧.
٧ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٧٥ - ٢٢٥.
٨ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٢٢٤. ايف لاكوست: العلاّمة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، بيروت ١٩٧٤، صفحة ١١٣.
٩ - عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام صفحة ٣٩ - ٤٠.
١٠ - ايف لاكوست: العلاّمة ابن خلدون، صفحة ٩٩ - ١٠٠.
١١ - ابن خلدون: المقدمة ٥٣١ عن لاكوست.
لاكوست: العلاّمة ابن خلدون صفحة ١٠٠ - ١٠١.
١٢ - صالح الحمارنة: الغاء قانون العشائر في الاردن ومدلوله الحضاري عن كتاب «بحوث ندوة التغير الحضاري لمنطقة الشرق الاوسط» ١١ - ١٤ ديسمبر ١٩٧٦، مركز بحوث الشرق الاوسط. القاهرة ١٩٧٦ ص.٢٨.
١٣ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٦٨.
١٤ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٩٧.
١٥ - مكي جميل: البداوة والبدو، من المقدمة بقلم محي الدين صابر، عمان ١٩٦٨ صفحة ٧ - ٨.
١٦ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٣٧.
١٧ - د.صلاح البحيري: جغرافية الصحارى العربية، عمان ١٩٧٢، ص. ١٧٥.
١٨ - صالح الحمارنة: الغاء قانون العشائر في الاردن ومدلوله الحضاري ص.٢٩ - ٣٠.
١٩ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٢٧٠ - ١٥٧.
٢٠ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٨٤ - ٨٥ - ١٥٧.
٢١ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٨٢ - ٨٣ - ١٨٥ - ١٨٦.
٢٢ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٦٧ - ١٦٨.
٢٣ - فاروق كيلاني: شريعة الشعائر في الوطن العربي دار العلم للملايين سنة ١٩٧٢، صفحة ٢٢٢.
٢٤ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٨٢.
٢٥ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٨٢ - ١٨٣.
٢٦ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٦٥.





الحركة الوطنية الفلسطينية والرايخ الثالث ١٩٣٣-١٩٤٥

الحلقة الأولى

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين» ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠

د. علي محافظة - الجامعة الأردنية - عمان

تقديرا من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخرا في عمان ما بين ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤ - ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. اعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال تود أن تؤكد انها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرسمية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر وتتمنى ان تستمر الجهود في جميع أنحاء الوطن العربي لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

في الفترة التي بدأت تأخذ الحركة الوطنية العربية في فلسطين اتجاها متصلبا في مقاومة الانتداب البريطاني والنشاط الصهيوني في البلاد، وشرعت العناصر العربية الشابة في التحرك لاخذ زمام القيادة من اللجنة التنفيذية العربية، حدثت تطورات سياسية مهمة في المانيا. اذ وصل حزب العمال الوطني الاشتراكي الالماني N. S. D. A. P. ويطلق عليه اختصارا (الحزب النازي) الى الحكم، وتولى زعيمه أدولف هتلر Adolf Hitler منصب المستشارية في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٣٣. وعرف عن هتلر وحزبه منذ بداية تكوينه عداءه السافر لليهود واليهودية. فقد جاء في مذكرة له مؤرخة في ١٦ ايلول ١٩١٩: «اللاسامية العاطفية تنتهي دوما بالمجازر. اما اللاسامية المعقولة فينبغي ان تؤدي الى كفاح منظم ومحدد بالقانون ضد الامتيازات التي يتمتع بها اليهودي والتي تميزه عن غيره من الاجانب الذين يعيشون بيننا. يجب ان يكون الهدف النهائي للاسامية المعقولة طرد جميع اليهود من المانيا».

وأصبح شعار النازيين منذئذ: **المانيا للالمان وفلسطين لليهود**. كتب هتلر في ١٧ ايلول ١٩٢١ يقول: «ليس لدينا ما نقوله لليهود او

نبحثه معهم لانهم، بصفتهم اجانب، لا حق لهم في التدخل في شؤوننا، كما انه ليس من حق اي الماني ان يهتم بسياسة الدولة اليهودية في فلسطين. لقد سلم الحزب النازي وزعيمه بالدعوة الصهيونية الرامية الى تحويل فلسطين الى وطن قومي ليهود العالم، وانكر وجود شعب عربي في فلسطين له حق الحياة في ارضه التي يعيش عليها منذ مئات السنين. وكان همهما الوحيد التخلص من اليهود الالمان. وبقي الحزب النازي على هذه الافكار حتى قيام الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦.

وشرع هتلر منذ وصوله الى الحكم بسن التشريعات والانظمة لمكافحة اليهود في المانيا واكراههم على مغادرة البلاد. فأصدر في ٧ نيسان ١٩٣٣ قانون العودة الى الوظيفة العامة Gesetz Zur Wiederstellung des Berufsbeamtentums بهدف تطهير اجهزة الدولة من العناصر غير المرغوب فيها من غير الآريين.

وفي اليوم نفسه صدر نظام بمنع المحامين غير الآريين من الدفاع امام المحاكم الالمانية. وصدر نظام في ٢٢ نيسان من العام نفسه لا يعترف بالاطباء غير الآريين لدى شركات التأمين الطبي. وبعد ذلك بثلاثة ايام صدرت تعليمات تحدد عدد التلاميذ والطلبة اليهود في المدارس الثانوية والجامعات الالمانية وفق نسبة عدد اليهود في المانيا. ومنذ بداية نيسان بدأت المقاطعة الالمانية للمتاجر اليهودية.

جاء الرد اليهودي على هذه التدابير في الصحيفة الصهيونية الالمانية Judische Rundschau في ٤ نيسان ١٩٣٣: «أحملوا باعتزاز النجمة الصفراء». وشنت الحركة الصهيونية في العالم حملة عنيفة على المانيا. أت مقاطعة البضائع والمنتجات الالمانية. وتشكل في لندن مجلس المقاطعة اليهودي Jewish Boycott Council وامتدت المقاطعة الى الولايات المتحدة الامريكية وتولى الدعوة اليها المحامي صموئيل اونترماير Samuel Untermayer.

اما في فلسطين فكانت ردة الفعل الصهيونية مختلفة تماما. ذلك ان اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية اوفدت حاييم ارلوسوروف Chaim Arlosoroff، رئيس المكتب السياسي في الوكالة اليهودية، الى المانيا لدراسة الوضع، فاتصل بأقطاب الصهيونية الالمان، وتم الاتفاق على ان الحل لمشكلة اليهود الالمان هو تنظيم هجرتهم الى فلسطين وفق برنامج محدد ومتفق عليه مع الحكومة الالمانية بحيث تشارك

ملصق الماني يشهّر باليهود: هم سبب مآسي المانيا



من قادة المسلمين المشتركين في المؤتمر الاسلامي الاول بينهم السيد محمد امين الحسيني ومولانا شوكت

المانيا في تمويل هذا المشروع. وقد ردد هذا الراي آرثر روبين Arthur Ruppin في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في براغ في آب ١٩٣٣. كما اكده وحث عليه قنصل المانيا العام في القدس الهرهاينرش فولف Heinrich Wolff في رسائله العديدة الى وزارة الخارجية الالمانية. وكان هذا الحل مثاليا بالنسبة الى المانيا النازية الراغبة في التخلص من اليهود الالمان بأي ثمن.

المانيا وثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩:

إن موقف هتلر بعد وصوله الى الحكم لم يتغير حتى قيام ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦. ففي لقاء تم بين القنصل الالماني هاينرش فولف والحاج امين الحسيني في موسم النبي موسى في نيسان ١٩٣٣ اعرب المفتي عن رغبته في ايقاف تهجير اليهود الالمان الى فلسطين، واكد الزعيم الهندي شوكت علي الذي كان يرافق المفتي عن مشاركة العرب فلسطين في هذه الرغبة. غير ان مطلب المفتي ذهب مع الريح لان المانيا لم تدخل العرب في حساباتها آنذاك.

وحصل تطور مهم في نفوس العرب بعد غزو ايطاليا للحبشة عام ١٩٣٥. اذ افتضح عجز عصبة الامم وقصور بريطانيا عن حمايتها للحبشة. وبدأ بعض العرب يعتقد ان الوقت مناسب للتحرك ضد بريطانيا والتخلص من انتدابها، وانتعشت الآمال لدى عرب فلسطين بعد ان استعادت المانيا منطقة الراين في آذار ١٩٣٦. واعتقد بعض العرب ايضا ان الحرب بين الدول الاوروبية قادمة لا محالة، وانها قد تكون الفرصة المناسبة لتحقيق اهدافهم بعشرات الآلاف وتعنت بريطانيا في رفض الاستجابة لمطالب العرب التي تحددت في ايقاف

الهجرة اليهودية، ومنع بيع الاراضي الاميرية والخاصة، وقيام حكومة وطنية تمثيلية، من االاسباب التي حركت الجماهير العربية في فلسطين وقياداتها الشابة المتمردة على القيادات الاقطاعية التقليدية واعلان الثورة.

وبينما كانت ثورة فلسطين مشتعلة عام ١٩٣٦، كان هتلر يغازل بريطانيا، سعيا الى كسب ودها ورضاها عن تنفيذ مخططاته في اوروبا. وابدى هتلر رغبته في مقابلة لويد جورج LIoyd-George فتم له ذلك في بيرغهوف Berghof في آب ١٩٣٧. وتملق هتلر بريطانيا في خطابه في الريخستاغ Reichstag (مجلس الامة الالماني) مؤكدا ان عهد المفاجآت قد ولى ولن يعود. وفي شباط ١٩٣٧ ابلغ فون ريبنتروب Von Ribbentrop مستشار هتلر الموثوق وسفيره في لندن، اللورد هاليفاكس Lord Halifax وزير خارجية بريطانيا، رغبة هتلر في التفاهم الالماني ه البريطاني. وكان القصد من هذه المساعي الحصول على وعد من بريطانيا باطلاق يد هتلر في المناطق التي يعتبرها ضمن المجال الحيوي الالماني في اوروبا الوسطى والشرقية. وكان هتلر يدرك مدى حساسية بريطانيا في كل ما يتعلق بالوضع في حوض البحر الابيض المتوسط، كما كان يعتقد ان تقديم اي عون مادي او معنوي لعرب فلسطين سوف يؤدي الى توتر في العلاقات الالمانية – البريطانية.

وعلى الرغم من هذا الموقف الحذر الذي وقفته المانيا من ثورة عرب فلسطين شنت الصحف اليهودية في فلسطين حملة على الحكومة الالمانية واتهمتها بتقديم العون المالي لعرب فلسطين وتزويدهم بالسلاح. وتناقلت الصحف الاوروبية هذه الاتهامات وروجتها على نطاق واسع.

والواقع ان اول لقاء تم بين الهيئة العربية العليا التي تولت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية منذ اعلان الاضراب العام في البلاد في نيسان ١٩٣٦، والسلطات الالمانية كان في بداية كانون الثاني عام ١٩٣٧. اذ قابل الامين العام للهيئة المذكورة محمد عزة دروزه يرافقه معين الماضي الوزير المفوض الالماني في بغداد فريتس غروبا Fritz Grobba واوضحا له ان استمرار الهجرة الى فلسطين سيجعل اليهود الاكثرية في البلاد في مدى السنوات الخمس التالية، وبذلك يتمكنون من بناء الدولة اليهودية. وان الرد على هذا الاحتمال هو قيام دولة عربية في فلسطين صديقة لالمانيا. واكد الزعيمان الفلسطينيان على ان انتصار العرب سيكون لصالح المانيا. ورد غروبا على هذه المطالب بأن الجهات الالمانية المختصة تدرس مسألة الهجرة اليهودية من المانيا وانها سوف تبلغه بقراراتها بهذا الصدد اما بالنسبة الى العون الذي يمكن ان تقدمه المانيا للحركة العربية في فلسطين فلن يتجاوز التعاطف المعنوي معها.

غير ان هذا الموقف المتحفظ جدا من الثورة الفلسطينية اثار قلق القنصل الالماني في القدس الهر دوله Doehle الذي بعث بتقرير الى وزارة الخارجية الالمانية يؤكد فيه ان تطور الحالة الداخلية في فلسطين يقتضي اعادة النظر في السياسة الالمانية. وبين القنصل الالماني ان اتفاقية هعفارا التي ابرمتها الحكومة الالمانية مع الوكالة اليهودية نظمت هجرة اليهود الالمان الى البلاد، وسهلت لهم تحويل اموالهم ووضعت احتكار استيراد المنتجات الالمانية في ايدي الوكالة اليهودية، وبذلك حالت المانيا بهذه الاتفاقية دون منح العرب امكانية استيراد المنتجات الالمانية خارج نطاق احتكار هعفارا. وحذر القنصل الالماني حكومته من مغبة سياستها التي تعرضها لخطر انضمام العرب الى صفوف اعدائها. واكد ان قيام وطن قومي لليهود في فلسطين سيجعل حياة العرب والاقلية الالمانية صعبة جدا. واقترح دوله على حكومته ايقاف الهجرة اليهودية من المانيا، والحفاظ على عواطف الود التي يكنها العرب نحو المانيا الجديدة وزعيمها باللجوء الى ما يلي:

– قيام تعاون ثقافي الماني عربي بقبول اعداد من الطلبة العرب في المعاهد العليا الالمانية.

– تنمية التعاون الصحفي بين الصحف العربية والصحف الالمانية.

وساهم التعاطف الشعبي العربي مع الثورة الفلسطينية والذي تجسد بقيام مظاهرات

التأييد للثورة في العواصم والمدن العربية. وادانة بريطانيا واستنكار سياستها من قبل كافة الاوساط الوطنية العربية، في دفع المانيا الى اعادة النظر في سياستها نحو فلسطين.

اصدر وزير الخارجية الالماني فون نويرات Von Neurath تعميما الى السفارة الالمانية في لندن والقنصلية الالمانية في القدس والمفوضية الالمانية في بغداد في الاول من حزيران عام ١٩٣٧ يحدد معالم السياسة الجديدة:

١ – ليس في صالح المانيا قيام دولة يهودية او كيان سياسي يهودي في فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ما دامت اية دولة في فلسطين عاجزة عن استيعاب يهود العالم. ولكنها ستقيم مركز قوة جديد لليهودية العالمية في ظل القانون الدولي بشكل يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة الى الكاثوليكية السياسية او موسكو بالنسبة الى الكوفترن.

٢ – ان مصلحة المانيا تقتضي جعل اليهود متفرقين – وحين لا يوجد على الارض الالمانية اي فرد من الجنس اليهودي، لن تحل المسألة اليهودية بالنسبة الى المانيا. لقد دلت تطورات السنوات الاخيرة ان اليهودية العالمية ستكون دائما وبالضرورة العدو الايديولوجي، وبالتالي العدو السياسي لالمانيا الوطنية الاشتراكية. ولهذا فان المسألة اليهودية هي في الوقت نفسه احدى المشكلات شديدة الاهمية بالنسبة الى سياسة المانيا الخارجية. ولهذا فان لالمانيا مصلحة في تقوية العالم العربي، وذلك لموازنة احتمال ازدياد سطوة اليهودية العالمية.

٣ – ليس من المتوقع ان يؤثر التدخل الالماني المباشر بصورة جذرية على تطور المسألة الفلسطينية. ومن الافضل ان لا ندع الحكومات الاجنبية المعنية تعرف شيئا عن موقفنا.

وجاء في التعميم الموجه الى السفير الالماني في لندن اضافة تبين اهتمام الحكومة الالمانية بما يجري في فلسطين من تطورات وانها لا ترحب بقيام كيان سياسي يهودي فيها، وانها لا «تعتقد ان اقامة دولة يهودية في فلسطين سيساند الجهد المبذول لتهدئة الموقف الدولي».

اما الاضافة الى التعميم الموجه الى الوزير المفوض الالماني في بغداد فقد جاء فيها: «ينبغي التعبير بشكل اوضح من ذي قبل عن تفهم المانيا لاماني العرب القومية، ولكن دون الادلاء بأية وعود محددة».

كان من المنطقي ان يتلو هذا الاتجاه الجديد في السياسة الالمانية نحو فلسطين اعادة النظر في اتفاقية هعفارا وبدأت محاولات في هذا الصدد اشتركت فيها وزارة الخارجية الالمانية ووزارة الداخلية ومركز الرايخ للتخطيط الاقتصادي وبنك الرايخ ووزارة الاقتصاد وادارات الحزب الوطني الاشتراكي. واستمرت المشاورات طوال عام ١٩٣٧ دون ان تسفر عن اي تغيير في هجرة اليهود الالمان الى فلسطين او عن اي تبديل في نصوص اتفاقية هعفارا.

وحرصت المانيا على ان لا تتخذ موقفا واضحا مؤيدا للعرب. فبعد صدور توصيات اللجنة الملكية البريطانية (اللجنة بل Peel Commission) بأسبوع (اي في ١٥ تموز ١٩٣٧) قابل المفتي امين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا، القنصل الالماني في القدس الهر دوله Doehle، وأبلغه معارضة عرب فلسطين العالمين العربي والاسلامي لتقسيم فلسطين، واعرب عن امله في ان يحصل عرب فلسطين على مساندة المانيا لنضالهم. وطلب من القنصل تحديدا للموقف الالماني الرسمي من تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية فيها، واعلان هذا الموقف بوسائل الاعلام الالمانية. كما اعرب المفتي عن رغبته في ارسال شخص موثوق به بصورة سرية الى المانيا للتباحث في المصالح الالمانية – العربية الاسلامية.

درست وزارة الخارجية الالمانية مطالب المفتي وقدم فون هنتغ Von Hentig رئيس الدائرة السياسية مذكرة الى سكرتير الدولة فون فايتسزيكر Von Weizsaecker اشار فيها الى تناقض المواقف العربية من التقسيم، واكد ان لا وجود للعالم الاسلامي كقوة سياسية ضاغطة، وان القوة الدولية الحقيقية هي قوة اليهود. وبناء على هذه المذكرة جاء الرد على مطالب المفتي سلبيا وموجزا جدا «زيارة الرجل الموثوق لا جدوى منها ما دام موقف الدول العربية غير موحد».

هذا وقابل زعيمان فلسطينيان من الهيئة



الوفد الفلسطيني الأول إلى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني

العربية العليا هما عوني عبد الهادي ومعين الماضي الوزير المفوض الالماني في بغداد فريتس غروبا وحثاه على ضرورة اهتمام حكومته بالمسألة الفلسطينية ودعم عرب فلسطين. وابدى عوني عبد الهادي رغبته في زيارة برلين فورا.

واستدعى رئيس وزراء العراق، حكمت سليمان، الوزير المفوض الالماني في بغداد في ١٧ تموز ١٩٣٧ وطلب منه ان تبذل حكومته مساعيها في اوساط عصبة الامم لمقاومة تقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية فيها كما طلب منه ان يصدر تصريح علني من احدى الشخصيات الالمانية المسؤولة ضد مشروع الدولة اليهودية. وطلب القائد العام للجيش العراقي من الهر غروبا في ٢٠ تموز ١٩٣٧ ان يتعاون القنصل الالماني العام في جنيف مع المندوب العراقي من اجل التأثير على لجنة الانتدابات الدائمة الدائمة ومجلس عصبة الامم لتأييد وجهة النظر العربية. وجاء الرد الالماني مخيبا لآمال العرب: «ان عدم توحيد الموقف العربي يجعل من المتعذر اصدار تصريح مؤيد للعرب من شخصية المانية مسؤولة. اما بشأن تعاون قنصلنا مع المندوب العراقي في جنيف فنحن لا نعارض في ذلك».

ولما طلب بعض الوطنيين السوريين من القنصل الالماني في بيروت الهر زايلر Seiler في مطلع ايلول ١٩٣٧ شراء اسلحة وذخيرة المانية لدعم الكفاح المسلح في فلسطين، مقابل دفع ثمنها بالعملة الصعبة، رحبت السلطات الالمانية بهذه الصفقة شريطة ان تتم مع شركة المانية تحدد لهذا الغرض.

وعاد المفتي امين الحسيني يلح على القنصل الالماني في القدس لارسال موفد شخصي منه الى برلين، ويطلب ان تهاجم الصحف الالمانية تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية فيها، وان تمارس المانيا نفوذها لدى الحكومة البولندية لتغير من موقفها المعادي للعرب (وبخاصة موقفها في عصبة الامم). استجابت الحكومة الالمانية للمطلب الاول. واخذت الصحف الالمانية تشن هجوما على توصيات اللجنة الملكية (لجنة بيل)، فكان ذلك سببا في احتجاج القائم بالاعمال البريطاني في برلين على هذه الحملة الاعلامية في ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٧.

وكان امين الحسيني قد تعرض لملاحقة السلطات البريطانية وفي تموز ١٩٣٧ القت هذه السلطات القبض على عدد من اعضاء الهيئة العربية العليا ونفتهم الى جزر سيشل. اما المفتي فقد افلت من ايديها ولجأ الى المسجد الاقصى. وبقي مختبئا حوالي اربعة اشهر تمكن بعدها من الهرب واللجوء الى لبنان. ومن لبنان اوفد المفتي الدكتور سعيد عبد الفتاح الامام، رئيس النادي العربي بدمشق، واحد خريجي الجامعات الالمانية، الى برلين في تشرين الثاني ١٩٣٧ حاملا معه مشروع تعاون اعلامي بين السلطات الالمانية المختصة من جهة وبين مفتي القدس امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا، والمجلس الاداري للمكتب الوطني العربي للدعاية والارشاد العام، ومجلس مدراء النادي العربي في دمشق من جهة اخرى. ويتضمن مشروع الاتفاق تنفيذ البرنامج التالي:

١ - تعضد المانيا العرب ايديولوجيا بالتعبير عن التعاطف مع حركة الاستقلال العربية في الاوساط المحلية والدولية في كل فرصة سانحة، وماديا عن طريق تزويد حركة الاستقلال العربية بالمال، وتجهيز كافة مراكز الدعاية التي يكونها الفريق العربي.

٢ - يدعم العرب المانيا في المجالات التالية:

- تنمية التجارة الالمانية في العالم العربي الاسلامي.



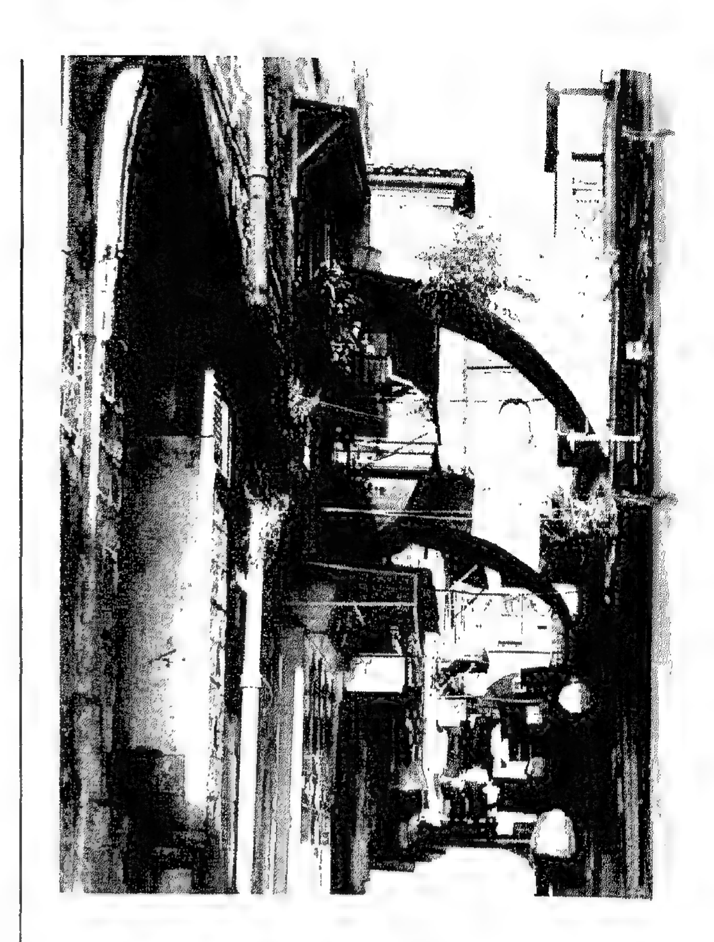
الجماهير الفلسطينية الثائرة تهاجم الجنود الانكليز

– تهيئة المناخ الودي المتعاطف مع المانيا.
– نشر الافكار الوطنية الاشتراكية (النازية) في العالم العربي الاسلامي.
– مكافحة الشيوعية التي تنتشر تدريجيا بكل الوسائل الممكنة.
– مقاطعة البضائع اليهودية.
– الاستمرار بأعمال العنف في كافة المستعمرات الفرنسية والمناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي والتي يقطنها عرب او مسلمون.
– مكافحة اقامة دولة يهودية في فلسطين بكل الوسائل الممكنة.
– نشر الثقافة الالمانية في الاقطار العربية الاسلامية.

– تشجيع استثمار رؤوس الاموال الالمانية.

غير ان هذا المشروع لم يحظ بالتأييد من جانب السلطات الالمانية فأهملته ولم تعر له بالا.

وشعر العرب في فلسطين بخيبة امل كبرى ومرارة شديدة عبرت عنها صحيفة «الجامعة الاسلامية» المقدسية المقربة من اوساط حزب الاستقلال العربي الفلسطيني، في عددها الصادر في ٩ كانون الثاني ١٩٣٨. تساءلت الصحيفة عما قدمته المانيا للعرب حتى تستحق السمعة الواسعة التي تتمتع بها بينهم. وردت هذه السمعة الى كراهية الالمان لليهود. ولكنها استدركت وقالت: ان سياسة العداء الالماني لليهود قد جاءت لنا بهجرة يهودية كبيرة الى فلسطين، واصبح اليهود الالمان يشكلون اكبر المجموعات الغريبة في البلاد. وتناولت هذه الصحيفة تصدير البرتقال العربي الى المانيا مقابل استيراد بضائع المانية بضعف ثمنها الحقيقي، وما في ذلك من غبن يلحق بالتجار



من احياء القدس القديمة

العرب. وتساءلت بعد ذلك عن اسباب هذا الموقف الالماني، وعن انخداع العرب بالصداقة المزعومة.

ولم يكن قادة الثورة الشعبية الفلسطينية في الداخل على علم باتصالات المفتي بالمانيا، ولذلك حاولوا بدورهم القيام بهذا الاتصال. فقد وجه يوسف سعيد ابو درة، قائد احد فصائل الثورة في شمال فلسطين رسالة الى ادولف هتلر في منتصف كانون الاول ١٩٣٨ عن طريق القنصلية الالمانية في القدس. وتتضمن هذه الرسالة ايضاحا لموقف الثورة من اليهود والانتداب البريطاني في فلسطين.

وقام عوني عبد الهادي بتلبية دعوة المفكر والزعيم النازي الفرد روزنبرغ Alfred Rosenberg الذي تعرف به عن طريق رئيس تحرير صحيفة «اخبار ميونيخ الجديدة Nuen-chener Neusten Nachrichten الهر غيزيلهر فيرزينغ Gieselher Wirsing فزار برلين واجرى مباحثات مع الزعيم النازي المذكور ومع المسؤولين في دائرة الشؤون الخارجية في الحزب النازي. والتقى في ٣١ آذار ١٩٣٩ بالهر فورمان Woermann وكيل وزارة الخارجية الالمانية. واوضح الزعيم الفلسطيني للهر فورمان ان عرب فلسطين يناضلون نضالا مستميتا ضد الانكليز من اجل نيل حقوقهم وانهم يأملون في دعم المانيا لنضالهم هذا.

وخلاصة القول ان هذه المساعي العربية لم تسفر عن اية نتيجة ايجابية. ولم يحصل عرب فلسطين على اي دعم مالي او عسكري من المانيا طوال ثورتهم الوطنية التي دامت ثلاث سنوات ونيف. واكتفت المانيا، وفي فترة متأخرة، بالاعلان عن مصارحتها لاقامة دولة يهودية في فلسطين. وتبرير الحكومة الالمانية لهذه المعارضة ان قيام دولة يهودية في فلسطين على غرار دولة الفاتيكان يشكل خطرا كبيرا على المانيا. وقد اوضح هذه النقطة المفكر النازي الفرد روزنبرغ في خطاب القاه في مدينة ديتمولد Detmold في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ اذ قال:

«ان اليهودية تكافح اليوم من اجل بناء دولة يهودية في فلسطين، ليس من اجل منح اليهود في العالم وطنا، وانما لاسباب اخرى. فاليهودية تسعى الى انشاء دولة صغيرة ليكون لها ممثلون في كافة دول العالم، تستطيع من خلالهم تأمين سيطرتها هناك. فقبل كل شيء يسعى اليهود الى الحصول على مركز يهودي او دولة يهودية يلتقي فيها اليهود المحتالون من كافة ارجاء العالم والذين تلاحقهم قوات الامن في الدول الاخرى، حيث يمنحون جوازات سفر جديدة تمكنهم من الانتقال الى اجزاء اخرى من العالم. ولعله من امنيات اصدقاء اليهود في العالم، وبخاصة في الديمقراطيات الغربية، ان ينتشر اليهود في كافة انحاء الارض، وان يمنحوا منطقة اخرى غير فلسطين للاستقرار ان من واجب المانيا السعي لابقاء اليهود مشردين مشتتين في كافة ارجاء العالم.»

يتبع ●

د. نقولا زيادة

المدنية السومرية

قصّة اكتشاف المدنيّة الأولى

انية من المرمر المنقوش من عصر درقة

لا شك في ان قصص التنقيب الاثري في اقطار المدنيات الشرقية القديمة اي ارض الرافدين ووادي النيل وفلسطين ولبنان وسورية فيها من الطرائف الشيء الكثير ولكن رواية القصة كاملة امر لا تحتمله هذه الاحاديث. فلا بد، اذن، من الاقتصار على المعالم الرئيسية اقتصادا في الوقت والمجال. وسنتحدث الساعة عن ارض الرافدين.

كان اول من ضرب معولا في سبيل التنقيب الاثري في ارض الرافدين بوتا الفرنسي سنة ١٨٤٣ في كويونجك الواقعة مقابل الموصل عبر نهر دجلة. والتي ثبت فيما بعد انها هي نينوى. كما انه حفر في خورساباد التي اتضح فيما بعد انها كانت دار شاروكين اي مدينة سرجون (الثاني) الاشوري. وبعد ذلك بسنتين بدأ لايارد التنقيب في نمرود. ولما تخلى بوتا عن العمل خلفه فيه بلاس. كما ان رسام كان خليفة لايارد.

وفي اواخر العقد الخامس من القرن الماضي كان لوفتس يقوم بالتنقيب في ورقة التي اتضح فيما بعد انها إرك التوراتية اي اوروك البابلية. كما ان تشرشل حفر في سنكرا وبذلك كشف عن لارسا القديمة. ولم يمض وقت طويل حتى كان تايلور يحفر في تل المقير التي عرفت قديما باسم اور الكلدانيين، كما نقب في تل ابو شهرين وهي اريدو القديمة.

وفي العقدين الاخيرين من القرن الماضي كشف دو سارزك النقاب عن لاغاش السومرية لما حفر في تلوه. ولما كانت رموز الكتابة المسمارية قد حلت. فمعنى هذا انه لم تكد سنة ١٩٠٠ تطل حتى كانت مدينة السومريين قد احتلت مكانها تنقيبا اثريا ومدونات مسمارية آجريّة.

اما في القرن العشرين فعندنا كشفان اثريان هامان هما: حفريات اور التي قام بها وولي بين ١٩٢٢ و ١٩٢٦ والتي اخرجت كنوزا هائلة من بطون الارض كانت تضاهي ما نتج عن الكشف عن قبر توت عنخ امون في مصر. وفي العقد الخامس من القرن الحالي قامت ادارة الآثار العراقية باشراف فؤاد صفر بالحفر في تل ابو شهرين، حيث كان تايلور قد حفر قبل قرابة قرن. والذي ظهر من التنقيب الحديث هناك هو ان اريدو هي اقدم مدينة سومرية وان الاستيطان فيها يرجع الى سنة ٥٠٠٠ ق. م.

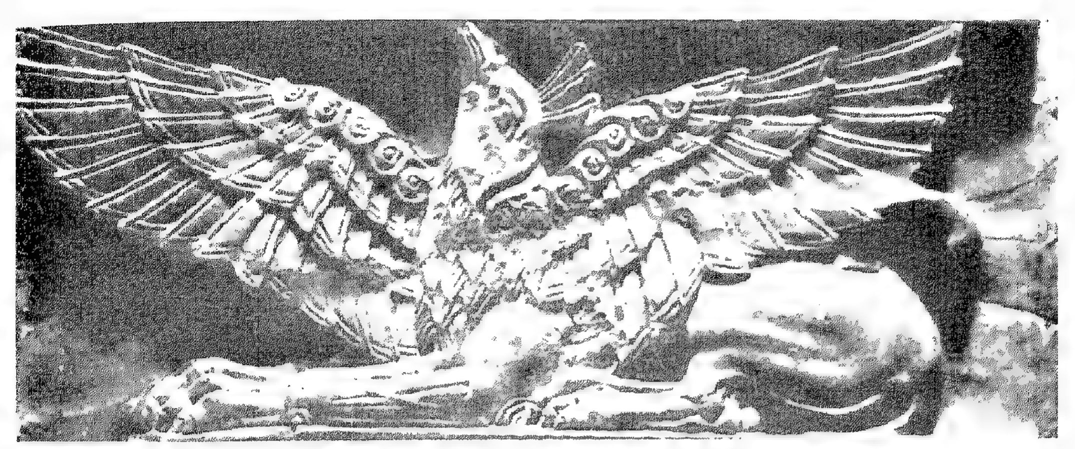
من القضايا التي واجهها علماء الآثار والمؤرخون وعلماء الانثروبولوجية مشكلة «المدنية». وبعبارة اخرى - ما هي المقاييس التي تعتبر على اساسها جماعة اي جماعة، متمدنة؟ وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان الجماعة لم يكن لها من قبل نوع من الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولكن المقصود هو الوصول الى درجة المدنية.

وقد عالج هذه القضية كثيرون. ويمكن القول بأن خلاصة ما انتهى اليه البحث هو ان الجماعة التي تعيش في مدن لا في مجتمعات زراعية قروية فقط، وهي الجماعة التي ظهر فيها تخصص مهني، وهي التي تنشىء وسائل ري على اساس من التعاون، وهي التي تتمتع مدنها بمراكز للعبادة: وهي الجماعة التي لها كتابة.

هذه الشروط، اذا جاز التعبير، تنطبق على المجتمع الذي عاش في اريدو وفي غيرها من مدن الجزء الجنوبي من ارض الرافدين. الذي عرف في العهد القديم باسم «شنعار» والذي يسميه المؤرخون اليوم «سومر». وقد نشأت هذه المجتمعات المتمدنة بين سنتي ٣٥٠٠ و ٣٠٠ ق.م. ويجب ان نذكر ان هذه المجتمعات المدنية انما سبقتها مجتمعات اخرى كانت تختلف حياتها باختلاف وسائل تحصيل المعاش، لكنها كلها انتهى امرها بالانتقال الى الزراعة قبل ان تقيم المدن وتتجمع فيها وحولها.

ليس الذي يهمنا في هذا الحديث قيام الاسر الحاكمة وظهور الملوك والمعارك التي حاربوها. ذلك بأن الذي نعني به الآن هو هذه المدنية الاولى في التاريخ، والاسس التي كانت الحياة تعتمدها.

واول ما يجب ان يذكر هو ان المدن



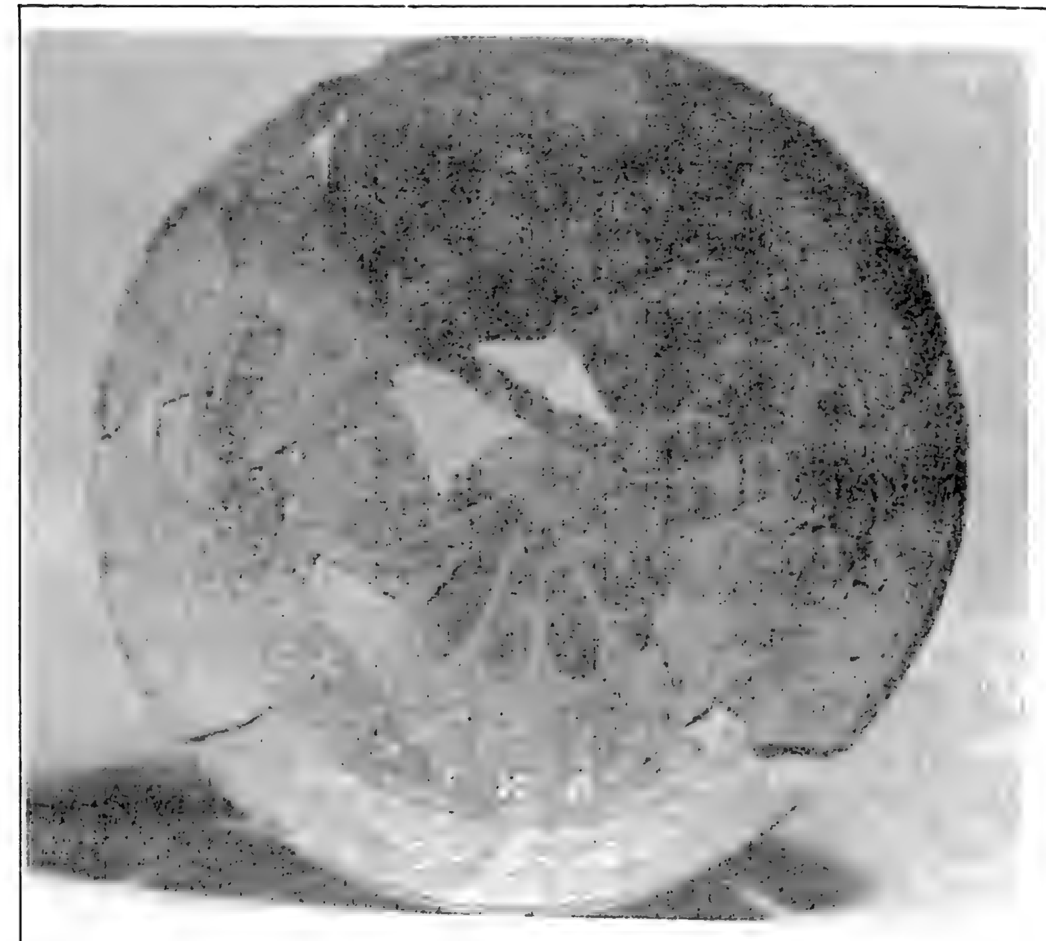
عزقين مجنح من العاج وجد في مجدو (تل المتسلم)

السومرية القديمة، والتي سار على غرارها البابليون والاشوريون فيما بعد، كانت متسعة نسبيا وكانت تحيط بها اسوار. فارك كانت مساحتها تزيد قليلا عن خمسة كيلو مترات مربعة. وقد اتضح من الوثائق المحلية ان مدينة لاغاش كان فيها ستة وثلاثون الف ذكر بالغ. ومعنى هذا ان سكانها جميعا كانوا يتراوحون بين ثمانين ومئة الف شخص. اما اور واريدو ونيبور فقد قدر سكان كل منها بنحو نصف مليون نسمة.

ومع ان الحياة الزراعية كانت الاصل في قيام المجتمع في هذه المدن، فان عدد السكان الكبير وما عثر عليه في بقايا هذه المدن يدل دلالة واضحة على اعتماد القوم على الصناعة والتجارة. وهنا يأتي دور التخصص المهني، واتقان المصنوع. وفي مقدمة الصناعات السومرية الصناعات المعدنية الصغرى، اي ما يمكن ان يصلح للزخرف والحلي. وبما ان ارض الرافدين خلو من المعادن. فقد كان على تجار سومر ان يحصلوا على حاجتهم من هذه المواد الخام من الخارج. وقد ثبت من الوثائق التجارية التي عثر عليها ان التجار كانوا يستوردون الذهب من عيلام وآسية الصغرى ومنطقة انطاكية. والفضة والرصاص من جبال طوروس ومن عيلام. والنحاس كانوا يحملونه من عمان، ولعله كان يحمل اليهم من القفقاس ايضا. وكان الحجر الجيد ينقل من عمان ليستعمل في براويز الابواب ولنحت التماثيل. وكانت ايران وافغانستان البلدان اللذان يزودان مدن سومر وصناعتها باللازورد، وذلك لصناعة الحلي. وكل اللؤلؤ الذي احتاجه الصياغ السومريون استورده لهم التجار من الخليج العربي، كما استورد هؤلاء التجار الاصداف البحرية الجيدة من الهند. ومع ان جبال زغروس وجبال امانوس كانت تبعث الى مدن سومر بأخشاب الارز والشربين، فقد كان لأرز



آنية من الذهب من راس شمرا.



آنية فخارية وجدت في تل حلف

لبنان مكانة خاصة بين العاملين في صناعة الاثاث والنجارة على العموم. وقد كان بعض هذه التجارة الخارجية يتم على ايدي تجار سومريين كانوا يقيمون لهم جوالي او طوارىء في البلاد التي يتاجرون معها. ومن المؤكد، مثلا، انه كان ثمة جالية سومرية تجارية في كانش بآسية الصغرى.

وعرفت المدن السومرية دولاب الخزاف، بل هو مما نفحته للمدنية. وكان الخزف السومري، العادي والقيشاني، مطلوبا بكثرة. كما ان اقدم زجاج عرف في العالم كان من صنع السومريين. والذين عرفوا الدولاب لصنع الخزف، استعملوه ايضا في جر العربات. وقد تم لهم هذا قبل سنة ٣٠٠٠ ق. م. فكان عندهم عربات بأربعة دواليب وعربات بدولابين.

وتتميز الهياكل السومرية باتساعها وبأبراجها الحلزونية المصعد لكن الصعود كان من الخارج فقد كان اتساع هيكل «ايانا» في ارك خمسة وثمانين مترا طولا وثلاثين مترا عرضا. وكانت تقوم خلفه الزيغورات الحلزونية التي ترتفع نحو خمسة عشر مترا لتحمل هيكلا آخر صغيرا بالنسبة الى الهيكل الاصلي.

وقد يطول بناالحديث لو نحن سرنا في تعداد صفات المدنية السومرية ومآتيها. ولذلك نكتفي بهذا مذكرين انفسنا بان السومريين هم الذين وضعوا الكتابة المسمارية، وهي الكتابة التي انتشرت في المنطقة وظلت مستعملة الى حول القرن الخامس ق. م. واقدم الوثائق التي عثر



انية ذهبية تعود الى زمن مملكة اور

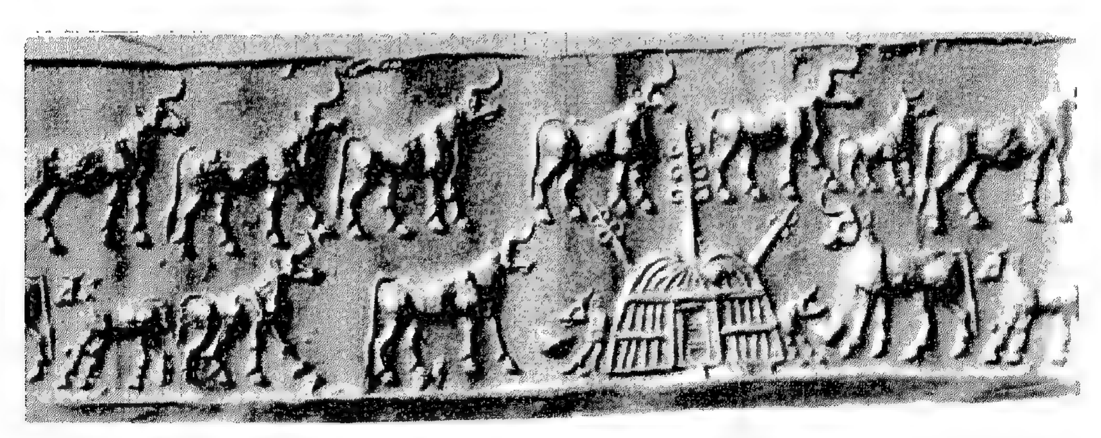
عليها من ايام السومريين كانت وثائق تتعلق بالحياة اليومية والتجارة. وثمة وثائق ترجع الى سنة ٣٥٠٠ ق. م. هي ايصالات وفواتير تتعلق بالماشية والحليب والحبوب.

وبالرغم مما نعرفه عن المدنيـة السومـرية بفضل العمل الاثري العلمي المنظم، فان اصل الشعب السومري اي موطنه الاصلي لم يكشف سره بعد.

والسؤال الذي يخطر في البال الآن هو: كيف ولماذا قامت هذه المدنية الاولى في عالم البشرية في تلك الرقعة من الارض؟

ليست الاجابة عن هذا السؤال يسيرة. وقد اختلف البـاحثـون في ذلـك. ولكن يبـدو، من المتمعن في النظريات التي تقدم بها الباحثون في تاريخ ارض الرافدين القديم، هو ان الاحوال الجغرافية كانت ملائمة لتطور وانتقال من القرى الزراعية المنفردة المتباعدة الى تجمعات مدنية اي الى حياة معقدة تحتاج الى تنظيم. وهنا لا بـد من القول، مـع المتخصصين في الشـؤون السومرية، بأن عبقرية الشعب نفسه كان لها اثر في هذه النقلة.

●



ختم اسطواني من خفجة يعود الى حقبة جمدت نصر

الصور من The Act Of Ancient Near East Seton LLoyd



أسرة عيسى بن الشيخ في صيدا وجنوب لبنان

في القرنين الثالث والرابع الهجريين

د. عمر عبد السلام تدمري

في عدد سابق من المجلة تناولنا بالبحث تاريخ « أسرة بني ابي عقيل في صور » وفي هذا البحث نتناول اسرة ثانية من الأسرات الحاكمة في تاريخ لبنان وهي « أسرة عيسى بن الشيخ » في صيدا وجنوب لبنان خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين . ومن خلالها نتعرف على صفحة من تاريخ لبنان في العصر الوسيط .

ونطالع أخبار هذه الأسرة من خلال شيخها ومؤسس إمارتها « عيسى بن الشيخ » الذي يمر ذكره في المصادر التاريخية ، عند « اليعقوبي » و « المسعودي » و « ابن عساكر » و « ابن الأثير » ، فهو : **عيسى ابن الشيخ عبد الرزاق بن السليل الشيباني من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة الشيباني الربعي الذهلي** . وقد ورد ذكره لأول مرة وهو في « مرند » بأذربيجان ، في عهد المتوكل العباسي سنة ٢٣٤ هـ[1] . ثم نجده في عهد المستعين بالله ، وهو في فلسطين ، حيث يذكره « الطبري » في حوادث سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م . فيقول : إن حرباً دارت بين عيسى بن الشيخ ، والموفق الخارجي ، تم فيها اسر « الخارجي » ، وان « ابن الشيخ » طلب من الخليفة المستعين توجيه ما يحتاج اليه من السلاح ليكون عدة له في بلده حتى يقوي به جنوده على الغزو . كما طلب منه ان يكتب الى صاحب مدينة « الصور » في توجيه اربع مراكب

اليه بجميع آلتها لتكون قبله اضافة لما عنده منها[٢] .

والملاحظ في رواية الطبري انها تذكر اسم صور ، باضافة الألف واللام في أوله « الصور » وهذا الرسم لاسم مدينة صور ورد عند « ياقوت الحموي » في معجمه وهو يذكر احد الصيداويين فقال : « الصيداء بساحل الشام تعرف بصيداء الصور » .[٣] وهذا الرسم ورد أيضاً عند ابي نعيم الأصبهاني في « ذكر أخبار أصبهان » وهو يذكر احد الأصبهانيين فقال : « رابط الصور بالساحل من الشام »[٤] .

ومن رواية الطبري ايضاً يتضح لنا ان صور كانت تحتفظ باسطول بحري في ذلك الوقت ، ولم يكن ذلك الا ثمرة لجهود المتوكل العباسي الذي أمر في آخر سني خلافته (٢٤٧ هـ - ٨٦١ م) ببناء ما تهدم وتحصين ما تشعث من الحصون ، وترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة .[٥] وكان هشام بن عبد الملك قد صرف عنايته الى تدعيم السواحل ، وفي عهده (١٠٥ - ١٢٥هـ . / ٧٢٤ - ٧٤٣ م .) انتقلت صناعة السفن من عكا الى صور ، وحول ذلك يروي « البلاذري » ان رجلا من عكا كان يملك ارحاء (جمع رحى) ومستغلات ، فأراد هشام ان يشتريها منه فأبى الرجل ، وعند ذلك نقل هشام الصناعة الى صور واتخذ بها فندقا ومستغلا[٦] . وظلت صناعة المراكب في ميناء صور من ذلك الوقت حتى ما بعد عهد المتوكل العباسي .

أما الحرب التي دارت بين عيسى بن الشيخ والموفق الخارجي ، فلم يفصح الطبري وابن الأثير عن ميدانها . الا انه يمكننا القول انها كانت في فلسطين ، اذ نرى ابن الشيخ يمتنع عن مبايعة المعتز العباسي في اوائل سنة ٢٥٢هـ . فيسير اليه عامل دمشق « نوشري التركي » لقتاله فيفر الى مصر ، ويدخل نوشري الرملة[٧] .

ويعود عيسى بن الشيخ بعد قليل من مصر فيدخل سامراء فيصفح المعتز عنه ، ويوليه على الرملة من جديد في اول ذي الحجة من السنة ٢٥٢هـ[٨] . ولكنه كان يملك نفساً طموحة ، فما لبث ان استولى على فلسطين كلها ، والأردن ، كما تغلب على دمشق واعمالها ، وقطع ما كان يحمل من الشام الى الخليفة من اموال[٩] مغتنماً اضطراب الأحوال على الخليفة في سامراء[١٠] ونفهم ضمناً ان لبنان او قسما منه ، وخاصة الجزء الجنوبي قد دخل في جملة ما استولى عليه ابن الشيخ ، اذ كانت صور وما يليها شرقاً وجنوباً يدخل ضمن جند الأردن[١١] .

ولم تقف طموحات ابن الشيخ عند ذلك الحد ، بل كان يتطلع الى حكم مصر حيث دخلها يريد الاستقلال بها ، واستولى على مبلغ (٧٥٠ الف) دينار كان مرسلا من مصر الى الخليفة[١٢] ، فبعث اليه « المهتدي » كتاباً بالأمان في سنة ٢٥٥هـ . فامتنع عن الاستجابة ، ولم يجد المهتدي بدا من تطويق حركته قبل استفحال امره ، فأوكل امر هذه المهمة الى القائد التركي « احمد بن طولون » (مؤسس الدولة الطولونية) ، وحين دخل مصر فر عيسى الى فلسطين تاركا ابنه محمدا على الشرط في مصر ، فقام ابن طولون بقتله[١٣] . واستمر ابن الشيخ متغلباً على فلسطين والأردن ، حتى جاء « أماجور التركي » وولي دمشق للمعتمد على الله في سنة ٢٥٦هـ . فجمع له عيسى بن الشيخ نحو عشرين الف رجل وأعطى القيادة عليهم لابنه « منصور » ومعه « ظفر بن اليمان » المعروف بأبي الصهباء . وكان عيسى قد رفض مبايعة المعتمد في الخلافة ، وترك لبس السواد - وهو شعار العباسيين - تهويلا[١٤] .

وهنا نجد المؤرخ اللبناني « طنوس الشدياق » المتوفي سنة ١٨٥٩ يعطينا بعض المعلومات الهامة من تاريخ لبنان استقاها من مصادر قديمة لم يفصح عنها في كتابه تتعلق بالصراع الذي دار بين ابن الشيخ والخلافة العباسية ، فيقول ان ابن شيخ كان قد كتب الى الأمير ابراهيم بن اسحاق بن أرسلان والي إمارة الغرب يستدعيه اليه برجاله ، فسار الى حوران سنة ٢٥٦ أو ٢٥٧هـ .

وعندما قدم «أماجور التركي » لقتال ابن شيخ كان معه الامير النعمان بن عامر بن مسعود الأرسلاني . وبعد مقتل اصحاب ابن شيخ - بمن فيهم ابنه منصور على باب دمشق - كافأ أماجور النعمان بتوليته على بيروت وصيدا وجبلهما ، ولقب بأمير الدولة وكتب به الى الخليفة ، والى صالح بن وصيف (؟) فصدرت التواقيع بتقريره على



مئذنة الجامع العمري بصيدا.

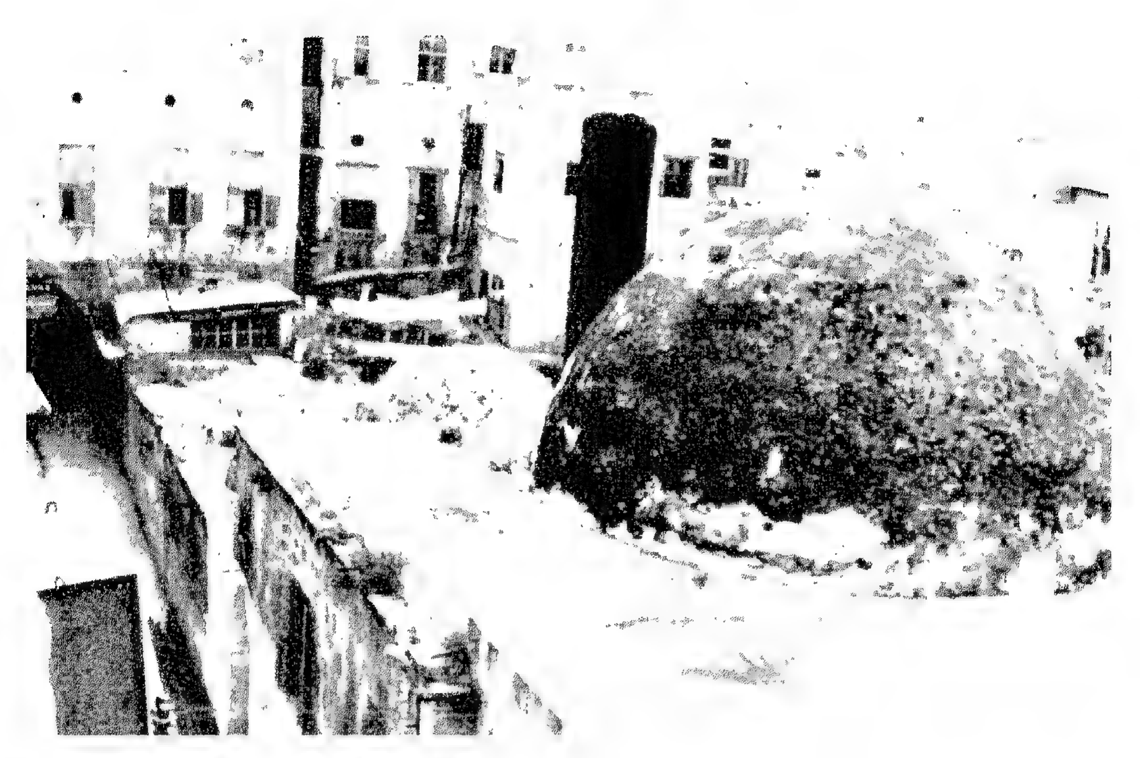
الولايات المذكورة ، وأمره بالاقامة في بيروت لأجل محافظتها من الروم ، ودخل الجبل[١٥] .

والملحوظة التي أسوقها هنا على رواية الشدياق هي أن صالح بن وصيف الوزير قتل في ٢٢ صفر سنة ٢٥٦هـ . فاذا ثبت انه كتب للنعمان للامارة على الغرب ، في لبنان ، فان الموقعة بين أماجور التركي ومنصور بن عيسى تكون في اول سنة ٢٥٦ او آخر سنة ٢٥٥هـ . أو ٢٥٧ هـ وبذلك لا يستقيم قول الشدياق ان ابراهيم بن ارسلان سار الى حوران سنة ٢٥٦ او ٢٥٧هـ .

وينفرد الشدياق ، من جهة اخرى ، بالقول ان الأمير ابراهيم اختفى بعد الموقعة ثم استأمن الى أماجور فأمنه ، فأقام في بيته حتى مات في سنة ٨٧٠ م . (٥٦ - ٢٥٧هـ)[١٦] .

وتضيف المصادر التاريخية ان عيسى بن الشيخ لجأ بأهل بيته الى مدينة صور وتحصن بها بعد مقتل ابنه وهزيمة اصحابه[١٧] . فبعث له المعتمد الفقيهين : « اسماعيل بن عبد الله المروزي » المعروف بأبي النصر و « محمد بن عبيد الله الكريزي القاضي » ورسوله « الحسين الخادم » « المعروف بعرق الموت »[١٨] بولايته ارمينية ، على ان ينصرف من بلاد الشام آمنا ، فقبل ذلك ، وخرج من صور بطريق الساحل الى ولايته في السنة ٢٥٦هـ .[١٩] ويذكر « ابن شداد الحلبي » نقلا عن « بغية الطلب في تاريخ حلب » المخطوط لابن العديم الحلبي أن عيسى بن الشيخ رتب ولديه محمداً بن عيسى بآمد ، وأحمد بن عيسى بميافارقين[٢٠] وفي هذه الرواية وهم لأن محمدا ابن عيسى قتل في مصر قبل هذا التاريخ كما مر ، ولعل الذي ولي آمد ابنا اخر لعيسى بن الشيخ ، فقد ظهر لنا من سلسلة نسب ابن الشيخ انه كان له خمسة اولاد ذكور ، وصلتنا اسماؤهم من مصادر مختلفة . (انظر سلسلة نسب ابن الشيخ) .

وظل عيسى بن الشيخ على ولاية ارمينية حتى مات هناك في سنة ٢٦٩هـ[٢١] . فخلفه ابنه احمد الذي بنى منارة الجامع بميافارقين في سنة ٢٧٣هـ[٢٢] . وتوفي سنة ٢٨٥هـ[٢٣] . ثم حفيده محمد بن احمد بن عيسى المكنى بأبي موسى الذي حاصره المعتضد في آمد سنة ٢٨٦



قباب بحمّام فخر الدين.

وكان حدثاً ، فصفح عنه بشفاعة خالته المعروفة بأم الشريف[٢٤] .

وهنا نقرأ في « الأعلاق الخطيرة » : « ان موسى عيسى بن الشيخ لما استبد بملك آمد قصده المعتضد في سنة ٢٨٥ فحاصره فيها الى ان اخذها عنوة »[٢٥] .

ثم نقرأ في حاشية الكتاب المذكور تعليقا لمحققه الاستاذ يحيى عباره اراد فيه توضيح نص المتن المذكور فوقع في اخطاء فاحشة ، وقبل ان نفند الأخطاء ، يجدر ان نذكر نص تعليقه ، حيث يقول :

« ان في نص المتن خطأ يجب تجليته وكشفه :

١ – انجب خلف محمد بن السليل الشيباني النوشري ولدين اتفقا اسما واختلفا كنية ، فأولهما هو : ابو منصور عيسى ابن الشيخ النوشري ، وهو الذي تولى امرة دمشق من سنة ٢٤٧ حتى ٢٥٦هـ . وتوفي بمصر سنة ٢٦٩هـ .

وثانيهما هو : ابو موسى عيسى ابن الشيخ ، وقد ولي فارس من سنة ٢٨٧ حتى ٢٨٨هـ .

وولي مصر من سنة ٢٩٢ حتى ٢٩٧هـ .

وتوفي في ٢٥ شعبان سنة ٢٩٧هـ .

وأخذا بما جاء في شجرة نسب بني النوشري نجد ان ابا منصور عيسى قد انجب احمدا ثم أنجب احمد محمداً .

وأمسك « زامباور » عن رسم سلالة ابي موسى عيسى .

٢ – جاء في « الكامل » (لابن الأثير) في حوادث سنة ٢٨٥هـ . « توفي احمد بن عيسى ابن الشيخ وقام بعده ابنه محمد بآمد وما يليها ..

٣ – جاء في معجم زامباور ١/١٨ الحاشية ٤ ان الواقعة كانت في سنة ٢٨٢هـ . بين المعتضد وبين محمد بن أحمد بن عيسى بن الشيخ .

* * *

ثم يخلص المحقق الأستاذ عبارة لتقرير « الحقائق » التالية :

١ – الأخذ بأن محمد بن السليل الشيباني كان له ولدان باسم عيسى :

اولهما : ابو منصور عيسى بن محمد بن السليل الشيباني .

وثانيهما : ابو موسى عيسى بن محمد بن

السليل الشيباني .

٢ - لم تكن الملاقاة ما بين الخليفة المعتضد مع ابي منصور عيسى بن الشيخ ولا مع اخيه ابي موسى عيسى بن الشيخ .

٣ - كانت ملاقاة الخليفة المعتضد مع محمد بن ابي منصور عيسى بن الشيخ .

٤ - تحرك الخليفة المعتضد لملاقاة محمد في اواخر سنة ٢٨٥هـ . واستسلم محمد له في آمد في ربيع الآخر سنة ٢٨٦ وأمنه الخليفة وخلع عليه وأمن من معه .

٥ - والمعروف ان محمد بن منصور عيسى بن الشيخ صاحب آمد وماردين سنة ٢٧٩ ومراغة سنة ٢٨٠هـ .

٦ - تحديد الواقعة بين الخليفة المعتضد وبين محمد بن ابي المنصور عيسى بن الشيخ كما جاءت في معجم زامباور ١٨/١ الحاشية ٤ في سنة ٢٨٢هـ . هو خطأ ، وربما كان من الطباعة ، والصواب في ذلك سنة ٢٨٦هـ . كما وردت في الكامل لابن الأثير .

* * *

ونحن نقول تصويبا لكل ذلك :

١) ان المقصود بالشيخ هو عبد الرازق ابن السليل الشيباني الربعي كما جاء عند اليعقوبي والمسعودي وابن عساكر وابن الأثير . وهم لم يذكروا ان عيسى هو ابن محمد .

٢) ليس في المصادر ما يفيد ان عيسى الشيباني هو عيسى النوشري . فالشيباني من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة كما عند ابن عساكر وابن الأثير ، وهو عربي الأصول .

اما النوشري فنسبته تركية وليست عربية ، مما يقطع بأن عيسى الشيباني هو غير عيسى النوشري وليسا اخوين ايضا . ولا يعقل بداهة ان يسمى اخوان اسما واحدا . ويبدو جليا ان الخطأ وقع في الأساس عند المستشرق « زامباور » في معجم الأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، فهو الذي يخلط بين الشيباني والنوشري فيجعلهما شخصا واحدا[٢٦] ، ثم تلقف الاستاذ عبارة هذا الخطأ واستمر به كما هو واضح . ويمكن مراجعة « أمراء دمشق في الاسلام » للصفدي في هذا الموضوع[٢٧] .

٣) ليس هناك اثنان باسم عيسى بن السليل الشيباني .

٤) اما النص عند « ابن شداد » فيبدو انه سقط منه اسم « محمد » بين (ابو موسى) و (عيسى) ، ولعل الخطأ من المؤلف او الناسخ ، ويمكن تصويب العبارة بما يلي : « .. ويحكى ان أبا موسى (محمد بن احمد بن) عيسى بن الشيخ ، لما استبد بملك آمد قصده المعتضد .. » وبهذا تستقيم العبارة وتنسجم مع تاريخ الواقعة اواخر سنة ٢٨٥ واوائل سنة ٢٨٦هـ .

* * *

ثم نطالع اسم احد احفاد عيسى هو : احمد بن العباس بن عيسى بن الشيخ ، وكان موجودا في ايام وزارة ابن الفرات الثالثة (٣١١ - ٣١٢هـ) ذكره هلال الصابي وقال انه « كان رجلا كبيرا ومغفلا » وروى عنه حكاية تدل على غفلته[٢٨] . وذكر الامير ابن ماكولا اسم اثنين من أحفاد عيسى بن الشيخ قال انهما كانا من المحدثين ، احدهما يدعى « السليل بن احمد بن عيسى » وهو يروي عن المؤرخ ابن جرير الطبري المتوفي ٣١٠هـ . والاخر يدعى « محمد بن اسحاق بن عيسى » وكان صديقا للحافظ الدارقطني المتوفي سنة ٣٨٥هـ[٢٩] .

وتنقطع اخبار اسرة عيسى بن الشيخ حتى قبيل منتصف القرن الرابع الهجري حيث نجد ان أبناء الشيخ يعودون للظهور في صيدا ويتولون قضاءها وولايتها ، ولعل « ابن عيسى » الذي ذكره ابن عساكر وقال انه تولى قضاء صيدا في سنة ٣٤٩هـ[٣٠] . هو احد أحفاد عيسى بن الشيخ الشيباني . ولكننا لا نعرف اذا كان قدم من ارمينية حيث كان أجداده يقيمون ، أم كان من أحفاد عيسى الذين ظلوا يقيمون في جنوب لبنان او في الشام ، ونحن نعرف ان « ابن عيسى » انتقل من دمشق الى صيدا وتولى قضاءها حسب رواية ابن عساكر .

وفي سنة ٣٥٩هـ . نجد احد أبناء الشيخ أميرا على صيدا ويبدو انه كان مستقلا في حكمها حيث دعاه ابن عساكر بـ « ابن الشيخ صاحب صيدا » . ومن المرجح انه تغلب على حكمها في فترة الاضطراب والضعف اللذين اخذت الدولة الاخشيدية تعانيهما قبل سقوطها امام الفاطميين ، وبعد ان فقد الاخشيديون كثيرا من المدن والمواقع اثر الحملة التي قام بها الامبراطور البيزنطي « نقفور فوكاس » على بلاد



آثار صليبية
في قلعة البحر.

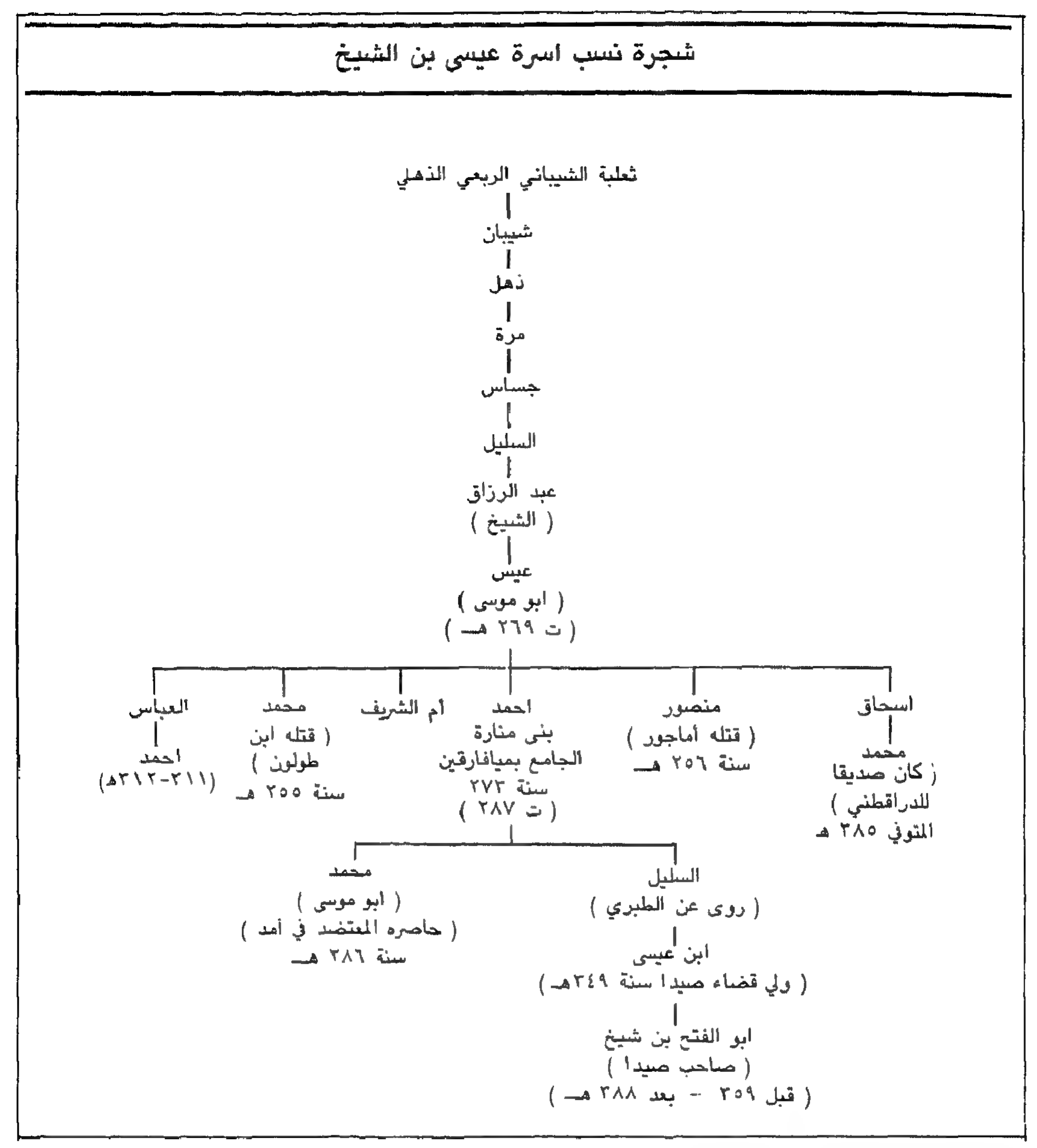
الشام في سنتي ٣٥٧ و٣٥٨هـ . / ٩٦٨ م .
ووصل بها الى طرابلس الشام(٣١) .

وكان « ابن الشيخ صاحب صيدا » من الأمراء ذوي الكلمة المسموعة لدى سلطان مصر وولاته عل دمشق ، ويدلنا على ذلك ما قيل عن « فاتك ابي شجاع » المعروف بالخازن الأخشيذي الذي ولي امرة دمشق بين سنتي ٣٤٥ و ٣٥٩ هـ من ان سلطان مصر الاخشيدي « أبا الفوارس احمد » حفيد الاخشيد محمد بن طغج قام بعزل « فاتك عن امرة دمشق ، وعندما حمله اميرها الجديد « نقبك » (وقيل فنك) الكافوري الى صيدا لينقل من هناك الى مصر لسجنه او قتله ، تدخل ابن الشيخ صاحب صيدا بما له من نفوذ وسأل في اطلاق سراحه فأطلق واعيد الى دمشق حيث اقام فيها حتى توفي في سنة ٣٦٠هـ . / ٩٧١ م . أظهر « ابن الشيخ » ولاءه للخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي ابقاه اميرا من قبله على صيدا ، كما جرى تثبيت « المنذر بن النعمان بن عامر » على امارة بيروت والغرب ، وعين « ريان الخادم » واليا على طرابلس .

وفي سنة ٣٦٤هـ . / ٩٧٦ م . نجد « ابن الشيخ » وهو يكنى « ابا الفتح » في صيدا عند وصول حملة الامبراطور البيزنطي « حنا تزيمسكس » الى أسوارها ، ويبدو ان ابا الفتح بن شيخ كان يتولى صيدا بنوع من الحكم الذاتي او مستقلا عن الدولة الفاطمية ، ذلك ان الفاطميين هبوا لنجدة كل من بيروت وطرابلس ، ولم ينجدوا صيدا ، ولذلك خرج ابو الفتح بن شيخ ومعه شيوخ صيدا مستسلمين للامبراطور تزيمسكس عندما نزل عليها ، وقرروا معه امرهم على مال اعطوه اياه ، وهدية حملوها اليه(٣٣) .

وابو الفتح بن شيخ هذا هو الذي حبس « طلحة بن ابي السكن » خادم احمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن جميع الغساني الصيداوي في قلعة صيدا فأطلقه « ابو بكر احمد بن محمد الصيداوي » المتوفى سنة ٢٧١هـ (٣٤) .

وفي الوقت الذي قام به الامبراطور تزيمسكس بحملته على ساحل الشام كان بدمشق القائد التركي « ابو منصور هفتكين المعزي » الذي طمع في الاستيلاء على ثغور الساحل ، فسار فيمن اجتمع اليه ونزل على صيدا في سنة ٣٦٥هـ . / ٩٧٥ م . وبها « ابن الشيخ » واليا ، ومعه رؤوس من المغاربة الفاطميين ، ومعهم ايضا « ظالم بن موهوب العقيلي » ، فقاتلوا هفتكين - وكانوا في كثرة - وطمعوا فيه وهو نازل على نهر هناك (لعله نهر الأولى) فخرجوا وراءه ، وانضم اليهم خلق كثير من اهل صيدا ، فسار بعسكره الى بانياس وهناك دارت موقعة رهيبة داس فيها الأتراك بالخيل



على المغاربة فهزموهم واخذوهم بالسيف ، واحصي القتلى فبلغوا اربعة الاف ، وانهزم ظالم بن موهوب الى صور.(٣٥) ويذكر « ابن كثير » ان هفتكين حاصر صيدا حتى اخذها(٣٦) . وطمع في الاستيلاء على عكا وتوجه نحوها .

وجاء انسياح البيزنطيين في انحاء بلاد الشام واستفحال خطرهم ، الى جانب الفتن التي اثارها هفتكين والقرامطة وغيرهم من القبائل العربية ، وتهديدهم مدن الساحل صيدا وصور ، لتحمل تحذيرا للخليفة الفاطمي الجديد « العزيز بالله » (٣٦٥ - ٣٨٦هـ . / ٩٧٥ - ٩٩٦ م .) فخرج في اخر سنة ٣٦٧هـ . من القاهرة بجيش عظيم . وفي الرملة بفلسطين ، كانت الوقعة الحاسمة التي انتصر فيها الفاطميون انتصارا ساحقا.(٣٧) وقد شارك في هذه الموقعة « ابن شيخ صاحب صيدا » الى جانب العزيز بالله ، فأعاده الى صيدا من جديد .

وقد ظل بنو الشيخ ولاة على صيدا حتى العشر الأخير من القرن الرابع الهجري حيث نجد « ابن شيخ » يشارك في الحملة البرية -

البحرية التي قام بها الفاطميون الى ثغر صور والقضاء على ثورة احد رجال البحرية المعروف بـ « العلاقة » في سنة ٣٨٨هـ . / ٩٩٨ م .(٣٨) وكان للفاطميين في ميناء صيدا بعض القطع البحرية كما هو الحال في ميناء طرابلس . وكان « ابن شيخ » يتولى قيادة الأسطول الصيداوي مثل القاضي « علي بن حيدرة » الذي كان يقود اسطول طرابلس ويتولى امرة المدينة .

وينقطع ذكر بني الشيخ في صيدا منذ اواخر القرن الرابع الهجري / اول القرن الحادي عشر الميلادي فلا نقرأ عنهم شيئا بعد ذلك ، ويبدو ان آل مرداس اصحاب حلب هم الذين تسببوا في القضاء على هذه الأسرة اذ دخلت صيدا في حوزة صالح بن مرداس الكلابي مع بعلبك وحصن عكار وغيره من البلاد في سنة ٤١٥هـ . / ١٠٢٤ م(٣٩) .

●

المصادر والحواشي :

(١) الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ٤٢/٧ ، تاريخ دمشق (المخطوط) – ابن عساكر ٢٥/٣٤
(٢) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ٣٠٨/٩ ، ابن الاثير ١٦٣/٧
(٣) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ٤٣٨/٣
(٤) ذكر اخبار اصبهان – ابو نعيم الاصبهاني ٣٣١/١ – ليدن ١٩٣١
(٥) فتوح البلدان ، البلاذري ، ١٤٠/١٥ و١٩٣
(٦) البلاذري ١٤٠/١
(٧) تاريخ اليعقوبي ٥٠٠/٢
(٨) الطبري ٣٧٢/٩ ، مروج الذهب المسعودي ١٧٧/٤ ، المختصر في اخبار البشر ابو النداء ٤٤/٢
(٩) سيرة ابن طولون ، ٥ ، ابن الاثير ١٧٦/٧ ، الاعلاق الخطيرة – ج ٣ ق ٢٩٢/١ ، خطط الشام ١٦٧/١
(١٠) ابن عساكر٢٦/٣٤، ابو الفداء ٤٤/٢
(١١) البلاذري ١٣٩/١
(١٢) ابن عساكر ٣٦/٣٤
(١٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة – الكندي ٢١٥ ، ولاة مصر ، الكندي ٢٤٢ ،ابن عساكر ٢٧/٣٤
(١٤) ابن عساكر ٢٧/٣٤
(١٥) اخبار الاعيان في جبل لبنان ، طنوس الشدياق ٤٩٨/٢
(١٦) الشدياق ٤٩٨/٢ و٤٩٩
(١٧) تاريخ اليعقوبي ٥٠٥/٢ – ٥٠٧ ، الطبري ٤٧٤/٩ و٤٧٥ ، ابن الاثير ٢٣٨/٧
(١٨) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب – الثعالبي ٦٨٢ ، الأنساب – السمعاني ٤٣٢/٨ و٤٣٣
(١٩) الطبري ٤٧٥/٩ ، ابن الاثير ٢٣٨/٧ وعند اليعقوبي سنة ٢٥٧ (٥٠٨/٢)
(٢٠) الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ق ٢٩٣/١
(٢١) الطبري ٦٢٧/٩ ، ابن عساكر ٢٧/٣٤ ، ابن الاثير ٢٩٧/٧
(٢٢) الاعلاق الخطيرة ج ٣ ق ٢٧٩/١
(٢٣) مروج الذهب ٢٣٠/٤ و٢٤٠ ، ابن الاثير ٤٩١/٧
(٢٤) مروج الذهب ٢٤٠/٤ – ٢٤٣
(٢٥) الأعلاق الخطيرة – ج ٣ ق ٢٥٥/١
(٢٦) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي – زامباور ١٨/١ – القاهرة ١٩٥١
(٢٧) امراء دمشق في الاسلام – الصفدي – تحقيق د . المنجد ٦١/ ٦٢ – دمشق ١٩٥٥
(٢٨) الوزراء – هلال الصابي ١٦٥ – القاهرة ١٩٥٨
(٢٩) الاكمال – ابن ماكولا ٣٣٨/٤ و٩٦/٥
(٣٠) ابن عساكر ١٧٥/٣٧
(٣١) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري – د . عمر تدمري ١٨٠/١ ومابعدها
(٣٢) ابن عساكر ٤٧٥/٣٤ ، النجوم الزاهرة ٥٦/٤ وفيات الاعيان ، ابن خلكان ٤٦/١
(٣٣) ذيل تاريخ دمشق . ابن القلانسي ١٤
(٣٤) ابن عساكر ١٦٢/٣ ، تهذيب ابن عساكر ٤٤٢/١
(٣٥) ابن القلانسي ١٥ ، الدرة المضنية في اخبار الدولة الفاطمية ابن ايبك ١٧٦/٦
(٣٦) البداية والنهاية – ابن كثير ٢٨١/١١
(٣٧) اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا – المقريزي ١٢٤٤/١
(٣٨) تاريخ الانطاكي ١٨١/١ ، ابن القلانسي ٥٠
(٣٩) الانطاكي ٢٤٨/٢

مظاهر المقاومة وروادها في الشرق القسنطيني ضد الإستعمار الفرنسي

يحيى بوعزيز



الامير عبد القادر الجزائري

يشمل الشرق القسنطيني الرقعة الجغرافية الواسعة التي كانت تمثل بايلكية الشرق، او بايليك قسنطينة، والتي تمتد من البحر شمالاً إلى ما وراء بسكرة وواد سوف حوض ريغ وايغرغر جنوباً، ومن الحدود التونسية شرقاً، إلى ما وراء اقليم ونوغة وبرج حمزة، واعماق جرجرة، غرباً. ويحتوي على جبال البيبان، وحوض الصومام، وجبال البابور، وقسنطينة وعنابة، وسوق اهراس، والسهول العليا القسنطينية، وكتلة جبال الاوراس، والنمامشة، وتبسة، وجبال الحضنة، وحوضها، وجبال الزاب والزيبان، واقليم سوف في حوض واد ريغ، وواحات الصحراء الشمالية الشرقية مثل تقرت وورقلة(*).

والشرق القسنطيني بصفة عامة جبلي في معظمه من حيث المظهر التضاريسي، تلتقي في وسطه سلسلتا: جبال الاطلس الشمالية التلية، وجبال الاطلس الجنوبية الصحراوية عند كتلة الاوراس، وليس فيه من الاحواض والسهول سوى حوض واد الصومام، والسهول العليا القسنطينية التي تمثل الجزء الشرقي من اقليم الهضاب العليا الجزائرية، إلى جانب منبسطات تبسة، وحوض واد سوف، وريغ، وسهول عنابة

(*) اعد هذا الموضوع والقي في ملتقى: قسنطينة عبر العصور التاريخية (بقسنطينة يوم ٣ مارس ١٩٧٩).

وسكيكدة. تناله نسبة لا بأس بها من الرطوبة في الشتاء لارتفاعه وقربه من جهة البحر الشمالية المتوسطية. ونسبة كثافة السكان فيه عالية عبر التاريخ إذا ما قورن بوسط البلاد وغربها، وذلك لظروف تاريخية.

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشي اساساً، يضاف إليها النشاط التجاري، والصناعة التقليدية التي كانت تدر على اصحابها مردوداً لا بأس به في القرى العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة.

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة عام ١٨٣٠، واجه الفرنسيون صعوبات كبيرة في التوسع إلى الغرب الوهراني بسبب مقاومة الامير عبد القادر التي دامت خمسة عشر عاماً، وإلى الشرق القسنطيني بسبب عوامل رئيسية ثلاثة.

أولاً: الطبيعة الجغرافية التضاريسية الصعبة التي تتمثل في كثرة الجبال ووعورة اختراقها، والتنقل عبرها.

ثانياً: بروز الحاج احمد باي بمقاومته الصلبة والعنيدة التي دامت ثمانية عشر عاماً.

ثالثاً: صلابة المقاومة التي ابداها السكان، وصمودها، واستمرارها قرابة خمسين عاماً.

فقد اعتصم بمختلف مناطق الشرق القسنطيني، معظم المقاومين الجزائريين، البسطاء، والكبار. وتحولت جباله وواحاته إلى معقل للكفاح المسلح طوال نصف قرن من الزمن من عام ١٨٣٠ إلى ما وراء عام ١٨٨٠، وبرز في هذه الجهات ابطال وزعماء، بذلوا النفس والنفيس، في سبيل انجاح القضية الوطنية التحريرية، وقادوا جماهير السكان، إلى المعارك الكبرى، او الجهاد المقدس كما كانوا يعبرون عنه، ضد القوات الاستعمارية الغازية، ولم يبخلوا بتقديم اية تضحية مهما كانت غالية.

ولقد مرت المقاومة المسلحة في الشرق القسنطيني، بمرحلتين اثنتين رئيسيتين: الاولى تدخل في اطار مقاومة الحاج احمد باي والامير عبد القادر في الثلاثينات، والاربعينات، والثانية جاءت بعدها وتلتها في مظهر شعبي صرف امتدت إلى ما بعد عام ١٨٨٠.

أما المرحلة الاولى: فقد امتدت عقدين من الزمن تقريباً، وتتصف بكثير من التعقيد، والتشابه، بسبب الصراع الحاد الذي كان قائماً بين رائدي المقاومة: الحاج احمد باي، والامير عبد القادر، والذي لم يكن على اية حال، في صالح المقاومة الجزائرية.

فالامير عبد القادر اغتنم فرصة ابرام معاهدة واد تافنة اواخر ماي ١٨٣٧ ومد نفوذه، وسيطرته إلى الشرق الجزائري، وكون لنفسه ثلاث ولايات هي:

- ولاية برج حمزة (برج البويرة)، واولى عليها البطل المجاهد احمد الطيب بن سالم، وتشمل معظم جبال جرجرة، وحوض الصومام، وجزء من جبال البيبان الغربية.
- وولاية مجانة واولى عليها محمد بن عبد السلام المقراني، واحمد بن عمر العيساوي، والخروبي، وتشمل الجزء الشرقي من جبال البيبان وسهول سطيف، والمسيلة وجبال الحضنة.
- وولاية الزيبان والصحراء الشرقية، واولى عليها على التوالي كلا من فرحات بن سعيد، والحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبد الرحمان بن احمد بلحاج، وتشمل كل الواحات الصحراوية الشرقية، وعلى رأسها مدينة بسكرة قاعدة الولاية.

والحاج احمد باي ركز جهوده بمدينة قسنطينة عاصمة بليليكة حتى انتزعت منه في اكتوبر ١٨٣٧، فانسحب إلى جبال الاوراس، واحمد خدو، واخذ من هناك ينظم المقاومة ويشنّ الحملات العسكرية ضد الاستعمار الفرنسي، واعوانه، وضد خصومه من اعوان الامير عبد القادر. ومن ضمن المعارك التي خاضها. معارك جبال اولاد سلطان، في ربيع عام ١٨٤٤ ضد الدوق دومان ابن الملك الفرنسي لويس فيليب وقواته الضخمة. وقد انتصر فيها الحاج احمد باي انتصاراً عظيماً بعد معارك دامت ثلاثة ايام وحكى عنها في مذكراته، وتعرض لها كل من محمد بن عبد الكريم القسنطيني في رسالته إلى كاهية الكاف، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن في رسالته إلى علي بن سالم اليوغالمي



قسنطينة

ونشرناها في المجلة التاريخية المغربية[1].

غير ان معضلة الحاج احمد باي تتمثل في خيانة صهره بن قانة له، وتآمره، ضده وخلق متاعب وصعوبات جمة له، شرحها في مذكراته وقال عنه بأنه بمثابة امراة إلى جانب فرحات ابن سعيد الذي يلقب بثعلب الصحراء رغم انه خصم له كذلك. وكان ذلك سبباً في اخفاق الحاج احمد واستسلامه للفرنسيين في نهاية ربيع عام ١٨٤٨. ومن ضمن من برز للمقاومة خلال هذه المرحلة: الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر، ومحمد عبد السلام المقراني والحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن. والشيخ الحسناوي بن بلقاسم الحنانشي، والشريف مولاي محمد رفيق الشريف بو معزة والشريف سي موسى الاغواطي، والشيخ بن شابيرة البو سعادي وذلك في جبال البيبان، والحضنة، والبابور، والاوراس، وواد سوف، والمسيلة، وبو سعادة وبسكرة، وبجاية، وغيرها. وقام الكثير منهم بنشاط سياسي لصالح الامير عبد القادر، فراسلوا بايات تونس، ووزراءها لربط الصلة بينهم وبينه، وتمتينها وليحيطوهم، علماً كذلك بنشاط الحاج احمد باي واتباعه وانتصاراته ومن هؤلاء: الحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن، والشيخ الحسناوي، ومحمد بن عبد الكريم القسنطيني، ونشرنا عن ذلك دراستين اثنتين بمجلة الاصالة، والمجلة التاريخية المغربية التونسية.

واما المرحلة الثانية: فطويلة بعض الشيء تمتد إلى ثلاثة عقود من الزمن، وبرز خلالها عدد من الابطال والزعماء، قادوا ثورات وتمردات ضد الجيش الفرنسي الاستعماري، اختلفت في الظروف، والوسائل، والطول، والقصر، والضحايا والنتائج، ولكن اهدافها واحدة وهي طرد الغزاة الاستعماريين واستعادة استقلال البلاد وحريتها، ففي واحة الزعاطشة جنوب شرق بسكرة برز الشيخ بوزيان وابنه والحاج موسى الاغواطي، وغيرهم عام ١٨٤٩، وقادوا ثورة بطولية بلغت الذروة في التضحية، والفداء، رغم العزلة وقلة الامكانيات وضخامة القوات الاستعمارية التي كانوا يواجهونها، وكان عددها حوالي عشرين الفاً واستطاعوا ان

يصمدوا اكثر من خمسين يوماً ويكبدوا القوات الاستعمارية خسائر مادية وبشرية كبيرة.

وفي الاغواط وورقلة، وتقرت، برز الشريف محمد بن عبد الله ورفاقه وخاضوا معارك ضارية ضد القوات الاستعمارية التي قادها بيليسي، وماكماهون وغيرهما من الضباط والجنرالات الفرنسيين وتمكنوا من الاستقلال بالمنطقة مدة من الزمن في مطلع الخمسينات، إلى ان اهتدى الفرنسيون للاستعانة بحمزة ولد بوبكر ولد سيدي الشيخ، وقومه، وكافأوه على عمله بتعيينه خليفة على الجنوب الوهراني[٣].

وفي جبال جرجرة والبابور، وحوض الصومام برز الشريف بو بغلة، والشريف بو صبع، وبو حمارة، والحاج عمر، وفاطمة نسومر، وشنوا بجموعهم حروباً طاحنة ضد الجيوش الاستعمارية، وفتكوا بالكثير منها وكلفوها ضحايا كثيرة ولم تستطع القوات الاستعمارية ان تتغلغل إلى اعماق جرجرة إلا بعد ان جند الفرنسيون عشرات الآلاف من الجنود وكلفوا الجنرال راندون باقتحام المنطقة في ربيع وصيف عام ١٨٥٧ بعد ان عادت قواتهم من حروب شبه جزيرة القرم في شمال البحر الاسود بشرق البحر المتوسط، وكان من ضمن المعارك الكبرى التي خاضها السكان معركة ايشر يضن يوم ٤٢ جوان ١٨٥٧، قرب اربعاء نايت ايراثن.

وفي جبال الحضنة، والخنقة، وبريكة، وبسكرة، برز محمد بو خنتاش البراكتي، والشيخ الصادق الرحماني، اواخر الخمسينات ومطلع الستينات، وقادوا جماهير السكان ضد القوات الاستعمارية في معظم جهات الهضاب العليا وابدوا من البطولة والشجاعة ما جعل شعراء الملحون يتغنون بمعاركهم مثل معركة خنق ام حمام[٢].

وبرز في هذه المنطقة كذلك ابراهيم بن عبد الله، وسي الفضيل بن علي خوجة الباشاغا سي سليمان ولد حمزة ولد سيدي الشيخ، وحفزوا السكان على الثورة وحمل السلاح عام ١٨٦٤، امتداداً لثورة اولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني، وثورة الزواغة وفرجيوة بالبابور شمال قسنطينة.

وفي عام ١٨٧١ برز المقراني، والحداد، بثورتهما، وقادا جماهير السكان إلى المعارك في جبال البابور، وبو طالب، وجرجرة، وحوض الصومام، وونوغة، والحضنة، وجبال الاوراس، وفي واحات اعماق الصحراء، إلى عين الطيبة في اقصى الجنوب، وخاض الثوار والمجاهدون اكثر من ٣٤٠ معركة كبيرة فضلاً عن المعارك الصغيرة، والجانبية، ودامت ثورتهم قرابة عام كامل، وكلفت الفرنسيين ضحايا كبيرة في الارواح، والعمران، والامكانيات الاقتصادية المادية[٤].

وفي عام ١٨٧٦ اندلعت الثورة في واحة العمري بزعامة الشيخ محمد يحيى، والمقدم الشيخ عايش الرحماني، وابدى السكان بطولة وشجاعة رغم العزلة وانعدام الامكانيات المادية والاسلحة، وبعد ثلاث سنوات اندلعت ثورة الاوراس الغربية عام ١٨٧٩ بزعامة الشيخ محمد امزيان، وتحولت جبال وشعاب المنطقة وقراها إلى معاقل للثوار والمجاهدين الذين ضحوا بكل ما لديهم في سبيل انجاح قضيتهم وعانوا ما لا يتصور من المشاق والاتعاب والمآسي[٥].

مميزات وخصائص هذه الثورات

هكذا كان الشرق القسنطيني برقعته الواسعة مسرحاً لعدد كبير من الثورات، والتمردات دامت كما ذكرنا نصف قرن من الزمن وتتصف بالمظاهر التالية:

أولاً: ان احداثها كثيرة ومكثفة في العقدين الاولين: الاربعينات، والخمسينات، وفيما بعد ذلك اخذت تقل، وتتقلص نتيجة الضغط الاستعماري الشرس، مادياً وبشرياً، وتطبيقه سياسة القتل والطرد الجماعي، والتجويع، والتجريد، من الاملاك العقارية والمنقولة.

ثانياً: ان زعماءها كانت تنقصهم فكرة التخطيط، وتعوزهم الاسلحة الكافية، والضرورية، والمتطورة، على عكس عدوهم، ولم يكونوا يملكون إلا الحماس الديني والوطني كسلاح معنوي، والفؤوس والعصي،



مدينة الجزائر

والخناجر، وبعض بنادق الصيد، كسلاح مادي وهي ضعيفة الفعالية كثيراً.

ثالثاً: لعب القادة الدينيون دوراً بارزاً فيها خاصة الرحمانيون الذين كانت الثورة ضد الاستعمار الفرنسي الاجنبي، فطرية فيهم، ويرتمون فيها افواجاً وجماعات دون تردد، بجماهير اتباعهم الكثيرين، في طول الجزائر وعرضها، خاصة الشرق القسنطيني، امثال: الشيخ بوزيان بالزعاطشة، وبن عزوز في واحة البرج، والحداد وعزيز، في صدوق، وابن فيالة ومولاي الشقفة وعمر بو عرعور، في البابور، والحاج عمر، والجعدي في ذراع الميزان، وابن التواتي في مقارس وبريكة وسي الصديق، في بلزمة، وسي الصادق في الحنقة وبسكرة، والشيخ عايش في العمري، والشيخ محمد امزيان في الحمام بالاوراس، وهكذا.

رابعاً: ان هذه الثورات في الشرق القسنطيني، وان ارتبطت باسماء اشخاص، وزعماء عائلات كبيرة ارستقراطية في معظمها إلا ان الذين اكتووا بنيرانها، ولعبوا الدور، بل الادوار البارزة فيها، هي الطبقات الشعبية الكادحة من الفلاحين والعمال، شيوخاً، وشباباً، رجالاً ونساء، وهذه الطبقات الشعبية الكادحة لم تكن لها مصالح او امتيازات تدافع عنها دفعتها إلى هذه الثورات، وانما هو الحافز الوطني الصرف الذي كان ممزوجاً بالعامل الديني في تلك الفترة، وهذا على عكس ما ادعى ويدعي الكتاب الفرنسيون الاستعماريون.

فقد حرص هؤلاء الكتاب ومعظمهم من الضباط والجنرالات، على نعت هذه الثورات بأسباب اقتصادية، واجتماعية، ليفرغوها من محتواها واهدافها الوطنية، وحاولوا ان يصلوا إلى النتائج التالية:

أولاً: ادعوا ان الجزائريين عنصريون متعصبون دينياً وعرقياً، ولا يستطيعون ان يتعايشوا مع الاجانب الاوروبيين المسيحيين، ولذلك كانوا يثورون باستمرار ضدهم، وهو مصدر ثوراتهم المتعددة ضد الفرنسيين والدليل في نظرهم هو كثرة رجال الدين الذين يرتمون في هذه الثورات ويقودونها، وهي دعوى باطلة لأن قبل الجاليات الاجنبية الاوروبية المسيحية قبل عام ١٨٣٠ كانت تقطن بالجزائر، وتعيش في امن



جنود فرنسيون في الجبال

وبحبوحة من العيش، ومنها الجالية الفرنسية التي تمركزت بساحل القالة وعنابة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان بها في منتصف القرن ١٦م.

ثانياً: ادعوا ان الجزائريين لا يثورون إلا عندما يشتد عليهم الفقر، والجوع، والعرى، والخصاصة، اما عندما تتحسَّن احوالهم الاقتصادية وينمو ثراؤهم فإنهم يخلدون إلى الهدوء والسكينة ويرضون بحكم الاجانب لهم، ومنهم الفرنسيون، وهذا يعني في نظرهم طبعاً، ان الجزائريين لا يثورون إلا من اجل بطونهم الجائعة، واجسامهم العارية، اما الفكرة الوطنية فبعيدة عنهم، وهو ادعاء استعماري بحت وخطير تبناه معظم من كتب عن ثورات الجزائر التحريرية في القرن الماضي، والحالي، امثال: لويس رين، وروبين، وشاتولي، ولوسياني،

تيباسا

وهيرييون، وبول ازان، وفوانو، وفيرو، وتروملي، ولاباسي، ومارقون، وقارو، وبيليسي، وشارل ريتشارد، واوفيستان بيرنارد، وسوسي، ولالمان، وبريبوا، وفورشود، وغيرهم.

وحتى من كتب عنها في القرن الحالي ممن لا يزالون احياء، لم يتخلوا عن هذه الفكرة، وحذوا حذوها امثال جوليان، واجورون، ونوشي، وبرونان، ولاكوست.

ثالثاً: ان معظم هذه الثورات حسب زعمهم ليست وطنية جزائرية، لانها اندلعت بسبب ايحاءات، وايعازات من الخارج، من طرف قوي اجنبية، فاتهموا المقراني والحداد، ومحي الدين ابن الامير عبد القادر، بعمالتهم للبروسيين الالمان، والدولة العثمانية، واتهموا الشريف بو شوشة، وابن ناصر بن شهرة، والشريف محمد بن عبد الله، بعمالتهم للسنوسية، واتهموا آخرين بعمالتهم للانجليز المنافسين لهم في النشاط الاستعماري، وهي نفس المواقف والادعاءات التي حاول الفرنسيون ان يلصقوها بثورة اول نوفمبر ١٩٥٤ عندما ادعوا ان ثوارها (فلاقة) وقطاع الطرق، خارجون عن القانون، دفعوا من جهات اجنبية ليقلقوا امن البلاد والسكان، ووضعوا مشروع قسنطينة الاقتصادي ليقضوا عليها على اساس ان اسبابها اقتصادية.

ولكن الثورة سفهت احلامهم، وكذبت ادعاءاتهم، واثبتت للعالم اجمع ان قضية الاستقلال الوطنية الكبرى، هي اهم اسباب ثورة اول نوفمبر الكبرى عام ١٩٥٤ وكل الثورات الاخرى قبلها طوال القرن التاسع عشر، وقد لعب الدين فيها دوراً بارزاً باعتباره إحدى الركائز الكبرى للشخصية الوطنية الجزائرية، ولا ضير في ذلك، بل انه من مظاهر الفخر والاعتزاز لكفاحنا الوطني.

ومما تجدر ملاحظته هنا هو ان السلطات الاستعمارية، خلال عهود ملكية جويلية (١٨٣٠ - ١٨٤٨) والجمهورية الثانية (١٨٤٨ - ١٨٥٢)، والامبراطورية الثانية (١٨٥٢ - ١٨٧٠)، اتبعت سياسة استمالة العائلات /الارستقراطية إليها، واسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل القايد، والآغا، والباش اغا، والخليفة، لتتمكن بواسطتهم من اخضاع السكان لها بسهولة، ودون تكاليف واتعاب كبيرة. وبقيت على هذه السياسة حتى منتصف عقد الستينات، ثم اخذت بعد ذلك تغير من سياستها، واصبحت تميل إلى تطبيق الحكم المباشر والاستغناء عن وساطة هذه العائلات الكبيرة وزعمائها بعد ان قضت حاجتها ونالت وطرها منها ومنهم.

فعملت إلى التقليل من نفوذها، وتقليم اظافرها، وكبرياء زعمائها، وانزلتهم من مركز الخليفة إلى الباشاغا، ومن الآغا إلى القايد، وهكذا، وهو ما فعلته مع زعماء عائلة اولاد مقران بمجانة، وغيرهم، وهو مصدر ثورات البعض منهم.

وقد الح الكتاب الفرنسيون كثيراً على هذا الجانب، وعلى رأسهم لويس رين ليؤكد الطابع الشخصي لثورتهم، وابعاد العنصر الوطني عنهم ولكننا بينا ان الجماهير الشعبية هي التي لعبت الادوار البارزة والرئيسية وهي في هذه الثورات ليست لها مصالح او امتيازات تدافع عنها، وإنما الفكرة الوطنية الصميمة هي التي حفزتها إلى ذلك. ●

هوامش

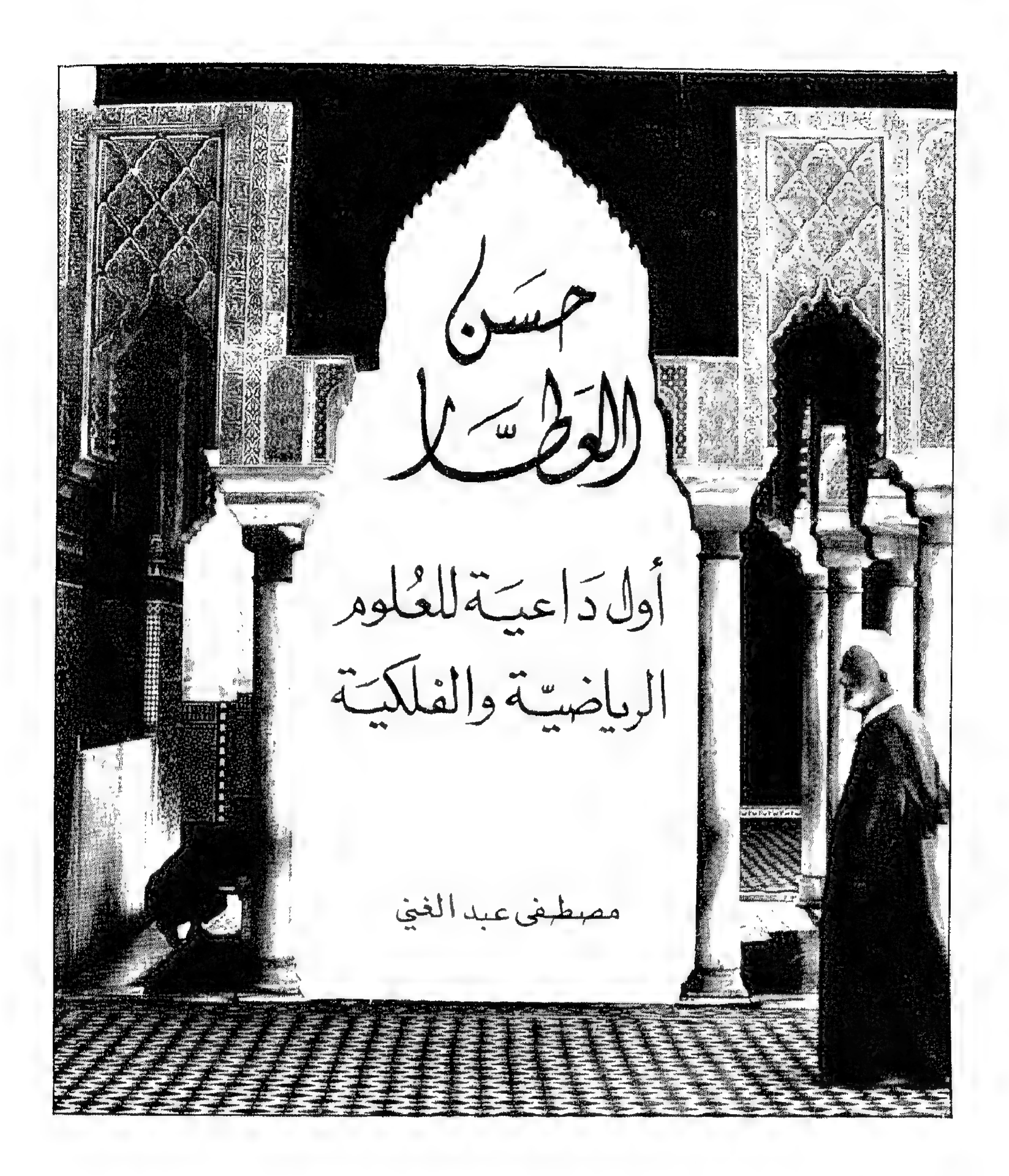
(١) انظر: المجلة التاريخية المغربية (تونس - جويلية ١٩٧٤) عدد ٢. ص ٩٤ - ١٠٢.

(٢) انظر: يحيى بو عزيز: وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد بن عبد الله. مجلة الثقافة. عدد ٣٣ (الجزائر - يونيو - يوليو ١٩٧٦) ص ١١ - ٢٨.

(٣) انظر: يحيى بو عزيز: نماذج من مقاومة سكان الواحات.(الاصالة. عدد ٤١. الجزائر - جانفي ١٩٧٧) ص ١١٧ - ١٢٤.

(٤) انظر: يحيى بو عزيز: ثورة ١٨٧١. دور عائلتي المقراني والحداد. (الجزائر - ١٩٧٨) ٤٧١ ص.

(٥) انظر يحيى بو عزيز: انتفاضةسكان الاوراس عام ١٨٧٩. الاصالة. عدد ٦٠ - ٦١ (الجزائر سبتمبر ١٩٧٨) ص ٢٢٢ - ٢٣٣.



هذه صيحة الرجل، الذي شهد القرن الثامن عشر وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة في وقت كان الانسان الاوروبي يتبوأ فيه مكان القمة في الصرح الحضاري الشاهق، بينما المصري في السفح، لا يكاد يقوى على النهوض!

وفي أية دراسة تحاول البحث عن الجذور الفكرية الاولى لمصر في العصر الحديث لا نستطيع اغفال أثر الشيخ حسن العطار فالرجل فضلا عما يتمتع به من الادراك العميق والفهم الواعي لطبيعة الواقع لمصر حينئذ، واتصاله بالفرنسيين واطلاعه على كتبهم، والات

معاملهم، وأجهزة ارصادهم كان مدركا تماما عمق الفجوة بين الحضارتين الاوروبية والعربية في ذلك الحين فالاولى تملك العلم والتكنولوجيا، والاخرى تملك ثقافة عريقة، ولكن الظروف اودت بها إلى التخلف والجمود.

وانطلاقاً من هذا الواقع اختط الشيخ لنفسه نهجاً حاول من خلاله احداث التغيير الذي آمن به، وعمل من اجله بقية عمره.

كان أول من حاول من رجال الدين تدريس كتب العلم الحديث في الأزهر، حيث لم يكن يسمح الا بتدريس المتون والشروح والحواشي التي امتلأت بها المكتبة الاسلامية، واذ تعذر عليه بلوغ هذا الهدف سلك مسلكا اخر، بأن قرأ على تلامذته المقربين كتب الجغرافيا والتاريخ. والى جانب أنه كان شاهد رؤية للحملة الفرنسية حاول تنبيه الاذهان الى ذلك المناخ الذي عاش فيه الانسان المصري مبينا ان أجدادنا لم ينغلقوا على أنفسهم وعلى علومهم الدينية فحسب، بل كانت لهم نظرة في العلوم الاخرى.

وباختصار ادرك الرجل ان الطريق الى الرقي واللحاق بالدول الاوروبية لن تتم الا بأخذ من العلوم العقلية والوضعية حتى يظل طيلة حياته لا يكف عن الدعوة في سبيل تلك الغاية حتى يرى البعض ان النهضة التي استحدثها محمد علي كان العطار من ورائها[1] وبادىء ذي بدء، لا بد لنا من وقفة عند بعض المشاهد التي تعكس الصورة الحقيقية لرجال الأزهر، وقد كانوا يمثلون حينئذ (الانتلجنسيا المصرية) والعطار واحد منهم.

وعلى الرغم من أن الازهر كان يمثل المؤسسة الثقافية طيلة العصر الوسيط، فانه كان صورة مصغرة للمجتمع المصري الكبير، الذي بلغ من التخلف درجة، كان العامل الرئيسي فيها هؤلاء الأزهريون الذين يمثلون طبقة المثقفين في ذلك الحين.

وليس ادل على هذا من أن رجلا، كالجبرتي، كان مع ما يمثله من التنور والادراك الواعي، يركن الى أمور هي الى طباع العامة أقرب منها الى طبيعة رجل الدين، فهو «لا يستبعد وجود الجن او قدرة بعض البلهاء على الكشف عن ضمائر الناس وغير ذلك من الغيبيات والكرامات التي وصف الكثيرين بها ولم يستبعدها»[2].

واذا كانت هذه هي حال رجل من رجال الدين المثقفين، فماذا تكون حال عامة الناس؟ ذلك ما نستطيع الوقوف عليه في هذا المشهد الذي نرى فيه واحدا من هؤلاء المشايخ وهو يجلب عنزة، ويخترع لها قصة، حين زعم «ان السيدة نفيسة، تكلمت وأوصت بالعنزة! وان الشيخ نفسه سمع كلامها من داخل القبر! وزعم الشيخ الدجال ان العنزة لا تأكل الا قلب اللوز والفستق، ولا تشرب الا ماء الورد والسكر المكرر! فكان الناس يحملون اليه ذلك بالقناطير، وحملوا اليه ذلك بالنذور، وعمل النساء للعنز قلائد الذهب والاطواق والحلى ونحوها وافتتنوا بها»[3].

والمشاهد عديدة، والقرون الطويلة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية وعلمائها تمتلىء بهذه المشاهد، التي تكون في النهاية دراما التخلف الشرقي التي راحت البلاد فيه ترتدي أردية الغيبيات الى الدرجة التي اشيع فيها: ان القيامة ستقوم بعد يومين اثنين، وحتى انتشرت الاشاعة في مصر كلها، ووصلت الى القرى والأرياف، فاذا الناس يودع بعضهم بعضا، ويقول احدهم للآخر: بقي من عمرنا يومان!

ونحن لا نلوم الناس، او نذهب الى ما يذهب اليه المؤرخون من القاء سوء الحالة التي تردت اليها البلاد على عاتق العثمانيين وحدهم، فالعثمانيون الذين جاءوا الى بلاد الشرق وجدوها على تلك الحالة من السوء، وكل ما فعلوه ابقاء الظروف السيئة كما هي، باستراتيجية الاعتزال الذي فرض على هذه البلاد...

ونحن نجزم بأن العلماء هم المسؤولون عما تردت اليه الاحوال فقد كانت تقع على عاتقهم مسؤولية التغيير، او الاحتفاظ بالثبات النسبي الذي تركته العصور الزاهرة للحضارة الاسلامية.

واذا زعم البعض ان الانتفاضات الشعبية كان يتزعمها رجال الدين حينئذ،

وانهم كانوا يمثلون زيادة حركة المقاومة ضد الظلم، فيكفي ان نعود الى «زهور» ابن اياس، ثم «عجائب» الجبرتي، لنرى ان العلماء ما كانوا يمتطون قمة الانتفاضات الشعبية لو لم تكن لهم مصلحة شخصية، وقد حدث ذلك في كل الانتفاضات، وخاصة في الخمسين عاما التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية.

ما كاد الانسان الشرقي يفيق من الانبهار الشديد امام الحضارة الاوروبية، حتى شعر بحاجته الى من يأخذ بيده، امام لحظات التغيير الحادة، وكان لا بد ان يظهر احد اولئك الرواد الذين ادخرهم القدر لمثل هذه الامور.

كانت الاحداث كلها تشير الى ان العطار هو ذلك الرجل، اذ كان له من الوعي ما مكنه من استقراء اسباب انحدار الحضارة العربية، فتميز على اقرانه بوضع يده على مكان الداء، والى جانب ان الفكر التقدمي وجد مكانا رحبا في عقل هذا الرجل، اذ ان هناك فرقا كبيرا بينه وبين رجل كعمر مكرم، الذي فر الى خارج البلاد فور سماعه بوصول الفرنسيين.

وعمر مكرم على ما كان يتمتع به من تدين شديد، لم يكن يحمل من الفكر سوى الفكر التقليدي الذي لا ينأى بصاحبه عن الجمود، ليودي به في النهاية الى المنفى.

لقد كان للعطار من احداث الحملة الفرنسية موقف مختلف تماما، اذ اثر البقاء في القاهرة ولم يهرب منها كما فعل غيره، ثم اتخذ خطوة ابعد من ذلك حين «اتصل بناس من الفرنساوية»(٤)، للاطلاع على ما عندهم من العلوم والغرائب كما يقرر، ولم يجاوز تلك الغاية طوال وجود الفرنسيين بالبلاد في وقت كان لبعض العلماء مواقف شائنة، فالشيخ خليل البكري لم يكتف بأن يصبح صديقا للفرنسيين عن قرب شديد، بل كان صديقا شخصيا لقائدهم نابليون، بل تورطت ابنته مع الفرنسيين في الوقت ذاته(٥).

موقف اخر يلقي الضوء على عقل العطار: فالانبهار الشديد الذي اصاب العلماء لمرأى مظاهر الحضارة الاوروبية لاول وهلة، استطاع ان يجاوزه، لقد جاوز مرحلة الانبهار بسرعة الى مرحلة الملاحظة والفهم، ثم انتهى الى نتيجة لم يتراجع عنها امتداد حياته فيما بعد، وهي ضرورة الاخذ بالعلوم العصرية .

ولنا ان نتخيل هذا الشيخ المعمم، الذي لا يختلف كثيرا في زيه عن علماء عصره، وهو يصادق احد علماء الحملة، ويدعوه الفرنسيون الى مكتبتهم العامرة، او المجتمع العلمي، فيلبي الدعوة ليشهد الأوراق العديدة التي تتحول الوانها في السوائل التي تلقي فيها، ويعاين الصور العديدة التي انتهى منها علماء الحملة، وهذا المنطاد الذي يعلو وحده الى اجواز السماء.

وتبدوا قمة المد الفكري المستنير عند العطار اذن في ادراكه لاثر العلوم الطبيعية في نهضة الامه وارتقائها. فيكون اول داعية لتلك العلوم العصرية، وقد كان احد هؤلاء القلائل الذين عرفوا قدر الفلك اذا كان عالما بالفلكيات (٦) التي لم تكن غريبة عليه فقد زاول صنعها والعمل بها.

حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية واطلع على آلاتها «الفلكية او الآت الارتفاعات، البديعة العجيبة التراكيب الغالية الثمن» حتى اخذ يدعو الى الاخذ بها، والى التغيير والتبديل.

والحق ان رجلا كالعطار، بحكم استنارته العقلية، وكثرة رحلاته وجولاته (بين ١٨٠٢ – ١٨١٥)، واتصاله بالفرنسيين والتعامل معهم بطرق عدة واطلاعه على كتب الغربيين كما يقرر احد تلامذته، هذا الرجل الذي كان عليه ان يكتشف تلك الفجوة بين حضارة الغرب المتوثبة، وحضارة الشرق التي راحت بثقافتها الضاربة في اعماق التاريخ في اغفاءة طويلة، كان عليه ان يطلق صيحته (ان بلادنا لابد ان تتغير احوالها)...

ومن اجل هذا اختط لنفسه نهجا حاول من خلاله احداث التغيير الذي ارتآه، طول الثلث الاول من القرن التاسع عشر، حتى شهد تحقيق امنيته في النظام التعليمي الذي أقامه محمد علي، والبعثات العلمية العديدة التي ارسلها، ولم يكن تنصيب العطار شيخا للأزهر ١٨٣٠، الا جزء من الخطة التي عول على تحقيقها محمد علي، اذ كان لا بد من وضع الشيخ المستنير على رأس المؤسسة الثقافية

الاسلامية التي طالما وقفت حجر عثرة في طريق التجديد منذ قرون عديدة.

والان، ما هو النهج الذي اختطه الرجل، من اجل تحديث مصر في تلك الاونة، التي كان لا بد فيها لبلد متخلف كمصر من ان تلحق بركب الحضارة الغربية.

وفي اطار هذه الصورة، نستطيع رصد عدة ملامح، ترسم لنا في النهاية الاطار العام لفكر الرجل، من خلال احداث تلك الفترة،أهمها:

اولا - العطار وراء نهضة محمد علي:

ابتداء من القرن ٩ حتى القرن ١٣، كما يقول علي مبارك في خططه، سيطر الجمود الفكري على الجو العام، اذ عطلت المدارس، ولم يبق غير الازهر الجامعة الاسلامية العريقة، لتحيا بعد ذلك في الجمود زمنا طويلا.

واذا اضفنا الى حال الأزهر، حال علمائه الذين «هجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم.. مع ترك العمل بالكلية» لادركنا أية صعوبة يمكن ان يلاقيها رجل كمحمد علي، الذي اخذ على عاتقه بدء حركة التحديث في البيئة المصرية.

وفي هذا المناخ كان لا بد من ظهور رجل كحسن العطار، لكي لا يكف عن الدعوة الى ضرورة التحديث والتغيير في كل مناحي الحياة، وكان دوره في ذلك من الجسامة بحيث ان البعض يرى ان حسن العطار كان وراء حركة التحديث التي بدأها محمد علي، لاحلال المؤثرات الغربية في العقل المصري الحديث.

ثانيا - الثورة على الأزهر:

واذ التقى طموح محمد علي بالأزهري المستنير، لم يكن صدفة ان يتولى العطار مشيخة الازهر عام ١٨٣١، ليبدأ على الفور ثورة تعليمية جديدة، اذ يقوم ولاول مرة بتدريس العلوم العصرية في اروقة الازهر.

ونستطيع تقدير مدى شجاعة الرجل الفكرية حين اخذ بتلك العلوم العصرية في اروقة الازهر، حيث لم تشهد تلك الاروقة منذ القرن ١٢ سوى تدريس المتون والشروح والمنظومات، وحيث كان تعتبر تدريس علوم اخرى خروج عن المألوف وفي هذا «جريمة لا تغتفر».

ولأول مرة نسمع احد مشايخ الازهر، يقوم بأهداء تلامذته تلك الكتب التي تبتعد عن العلم المألوف بالازهر، فيهدي (الاغاني) لاحد تلامذته، ثم يوعز الى آخر بتدريس كتاب (المقامات) للحريري، وفي وقت لم يكن ممكنا فيه تدريس مثل هذه الاشياء ابدا.

ثالثا - الشباب:

واذا كان التفتح على الثقافة الاوروبية هو الهدف الذي دعا اليه طيلة حياته، فقد كان له من عمق النظرة ما جعله يدرك دور الشباب في تحقيق ذلك الهدف الخطير، وقد فعل الكثير.

ويكفي ان نعرف ان رفاعة رافع الطهطاوي - رائد النهضة التعليمية الحديثة - قد تأثر بأراء الشيخ وكان تلميذه الاثير، وهو الذي سمع منه «ومن سمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات، وعجائب المصنفات، انكشف له عجائب كثير من دقائق العلوم، وتنزهت فكرته ان كانت سليمة في رياض الفهوم».

ورحل الى اوروبا، لينهل من المعارف الاوروبية، ليبدأ بعدها، حين يعود، المؤثرات الفكرية التي أثرت في التيار العام للفكر المصري.

ونسمع عن شاب آخر «عياد الطنطاوي»، وقد كان أحد تلاميذ العطار، يتمرد على كتب الحديث والفقة في منهاج دراسته، ويقوم بتدريس نوع آخر لم يكن مألوفا حينئذ.

والان.. وبعد ان مضى قرابة قرن ونصف القرن على وفاة الشيخ حسن العطار، أولسنا، وخاصة نحن الشباب، في حاجة الى ان نقول معه مرة اخرى: «ان بلادنا لا بد ان تتغير احوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها».. وبذلك نساير متغيرات الحياة من علوم العصر وعلوم المستقبل؟ ●

هوامش

(١) حسن العطار - لمحمد عبد الغني حسن ص ٧٨.
(٢) مصر في القرن الثامن عشر ج ١ ص ٣١ لمحمود الشرقاوي. القاهرة ١٩٥٥.
(٣) الجبرتي (حوادث ١١٧٢هـ).
(٤) الخطط التوفيقية - لعلي مبارك ج ٤ ص ٣٨.
(٥) الجبرتي: ٣ / ١١٠.
(٦) تاريخ الصحافة العربية - لفليب طرازي ج ١ ص ١٢٩.



ذكريات اصبحت تاريخاً

سعد زغلول

رئيس مجلس النواب

فكري أباظة

«في سنة ١٩٠٩ عرف «فكري أباظة» التلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية «سعد زغلول» عرفه كرجل ذي شخصية، وكرجل ذي عزة قومية، ولا تزال ذكرى تلك المعرفة محفورة في الذهن حتى اليوم.. اكره ان اذكر «سعدا» وامزج بذكراه الدموع، امقت ذكر الدموع بصدد الكلام عن الابطال، وبصدد الكلام عن الكفاح، وبصدد الكلام عن الانجليز... ولكن الدموع تترقرق في عيني «فكري أباظة» ابن سنة ١٩٠٩. وان تعمد «فكري أباظة» ابن سنة ١٩٢٧ ان يحبس الدموع وان يتجلد..»

كان المرحوم اذ ذاك وزيرا للمعارف. وطردت من مدرسة السعيدية الثانوية بناء على اشارة من عدو التعليم «المستر دنلوب» لانني لا احمل شهادة الميلاد. فدرجت الى عمي المرحوم بالاسكندرية. واصطحبني معه الى وزير المعارف سعد زغلول فثارت ثائرته والتفت الي قائلا:

– باكر صباحا تكون بالمدرسة وسيصلهم تلغراف مني بذلك...

قلت بسذاجة الفتيان:

– باكر الخميس.. أأذهب يوم السبت؟

قال محتدا:

– سافر يا شقي الآن حالا واذهب للمدرسة باكر!

وسافرت... ودخلت المدرسة معززا مكرما وتعلمت وتخرجت واشتغلت بالسياسة وكنت - بفضل سعد زغلول - خصما سياسيا لسعد زغلول..

تلك هي الذكرى التي جرأتني على سعد زغلول في حياته لدرجة الوقاحة بعض الاحيان. ولكني كنت اذكره دائما بفضله علي. وأذكر بجانب ذلك ان اخلاصي له لا شك فيه. فان فرطت عبارات نزقة فان سعدا رحمه الله كان يعلم ان الغيرة عليه كانت الباعث. وما اجله واطرفه مداعبا حين كان يقول: «انا المحقوق اللي دخلتك المدارس؟!»

• • •

والآن اود ان اكتب عن «سعد زغلول» كرئيس لمجلس النواب. وقد هيأت لي ظروف الائتلاف ان ادرس سعد زغلول حق الدرس. فقد ندبني «الحزب الوطني» للمفاوضة مع دولته بشأن الانتخابات، وعدد الكراسي فقابلته منفردا في الطابق العلوي اكثر من اثنتي عشرة مرة. واذا اردت ان تعرف الرجل على حقيقته عرفته في الحجر وبين الجدران لا في المجتمعات الحافلة والمحتشدات العامة.

واستطيع ان اعبر عما انطبع في ذهني من ميول الرجل الوطنية بالجملة المختصرة الآتية: «كم كان يعاني هذا الزعيم حين كان يمثل دور المعتدلين السياسيين».

شخصيته

اذن لندخل في الموضوع مباشرة، ولنبحث عن اول عنصر من عناصر نجاح الفقيد في رياسة المجلس. والجواب كلمة «شخصية»!

وما هي الشخصية؟

اعرفها بأنها مجموعة العوامل التي تجعل للرجل في نفسك منزلة من مجرد النظرة! وما هي تلك العوامل في شخصية الفقيد؟ هي ما يمتلىء به ذهنك:

اولا - من تاريخه: كثائر من ثوار الازهر، وكنابغة من نوابغ المحامين، وكفذ من افذاذ القضاة، وكوكيل للجمعية التشريعية، وكوزير قديم، وكزعيم للوفد، وكمضح منفى مطارد من صخرة لصخرة، ومن جزيرة لجزيرة.

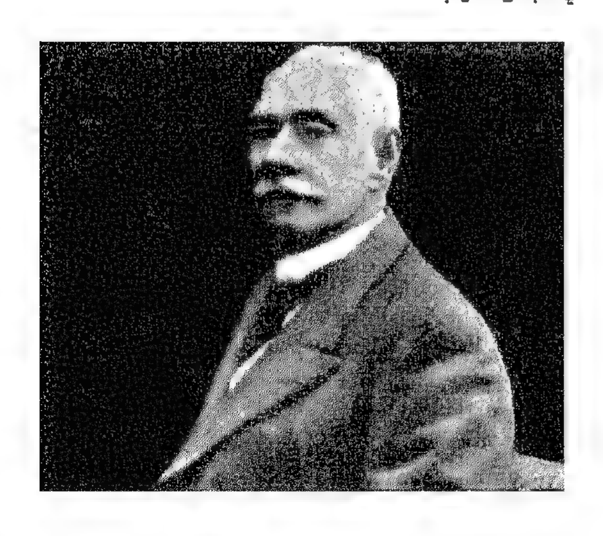
ثانيا - من اسمه: وعندما اقول «اسمه» اعبر تعبيرا «بلديا» ارى انه اوضح تعبيرا. فان تلك الضجة العريضة التي تحيط باسم سعد زغلول والتي كونتها الظروف والكفاءة الشخصية جعلت «لاسمه» في النفوس وقعا وتأثيرا بلغ القمة فتملك واخضع!

ثالثا - من قدرته الخطابية: فله رنة في الصوت فيها من الروعة والجلال ما يأسر اقسى القلوب واشد الخصوم تعنتا. ولا انكر ان للعوامل السابقة فضلها في نجاحه الخطابي...

رابعا - من شيخوخته: فمظهر الرجل وقوامه ومرضه وكبر سنه كلها اسباب جعلت له في النفوس مكانة واجلالا خاصين..

كل هذه العوامل متحدة مجتمعة حين تجلس على كرسي الرياسة في مجلس النواب فمن يستطيع ان يكافحها؟ ومن يستطيع ان يتغلب عليها؟ ومن يستطيع ان يخالف لها امرا؟ وسترى فيما يلي ما يتمم هذه العوامل المكونة لشخصيته. انما قدمت لك الاهم. اضف الى هذا عاملا آخر يختص به كزعيم لحزبه الوفدي فانهم لاعتبارات كثيرة في مقدمتها «الثقة المتناهية» يحرصون كل الحرص كأنصار الا يثيروا الزعيم المقدس. والا يستفزوه ولذلك عقد له دائما لواء النصر في كل المواقف الحرجة مع

في مجلس النواب



المجلس. وان كانت «المعركة» توهم في البداية انه لا محالة خاسرها...

جَلَد

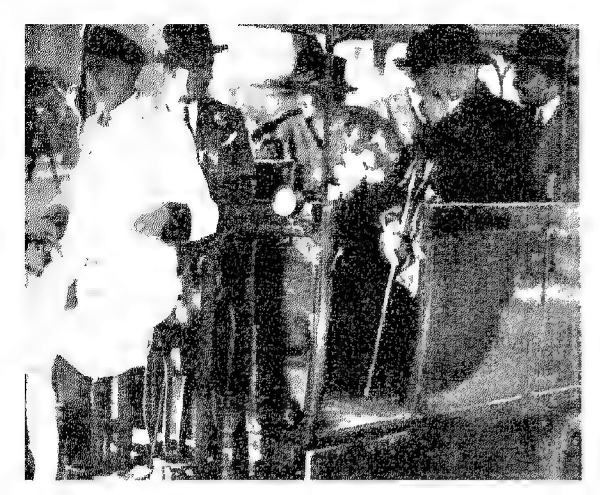
لله در المدرسة القديمة. كم اخرجت من نوابغ جبابرة. المدرسة القديمة تمتاز عن المدرسة الحديثة «بالجلد» ولقد كان الفقيد خارقا للعادة في جلده. ذلك الرجل الشيخ المصاب بالعلل الموغلة والامراض المتمكنة كان مثلا عاليا في جلده وصبره ومثابرته. ماذا تقول في رجل يفتتح الجلسة في ميعادها سواء اكان صيفا قاسيا ام شتاء قارصا فيحضر هو وتكون الاغلبية من الشبان في الطريق؟ ثم ينتظر على مضض حتى يتكامل العدد وحتى يحضر سكرتيرو المكتب ومراقبو المجلس وهو يبتسم الابتسامة الواضحة المعنى كأنه يقول: «قارنوا بيني وبينكم.....».

ثم تتلى تقارير اللجان المملة وهو يتتبع التلاوة سطرا سطرا وكلمة كلمة وحرفا حرفا. وكم راجع المقرر في سطر اغفله او كلمة لمن فيها او حرف حذفه...

ثم يستمع لكل خطيب لا مجرد السماع وانما السماع المقترن بمحاولة الفهم وكم من خطب لا تفهم. وكم من خطب لا تقوى الابطال على احتمالها. ولكنه يسمع ويسمع ويكظم الغيظ حتى اذا انتهى الخطيب بدأ يناقشه فيما ادلى به ويبين بالاسلوب الذي يستحقه مواطن الضعف ومواضع الشرود عن الموضوع...

من اربع لست ساعات متواليات وهو يقنع باستراحة واحدة ونحن الشبان الاقوياء لا نقنع بأقل من سبع استراحات غير رسمية نتناول فيها الدخان والقهوة والمثلجات... وان جلسنا ومنينا بكلام غير مهضوم اخذ يحادث بعضنا البعض الآخر للترويح عن النفس.. ثم اذكر سعد زغلول وهو يهبط على اللجان فجأة يراقب سير اجتماعاتها ومواظبة اعضائها وقوة استمرارها في العمل...

ثم اذكره وهو يضع الاحصاءات الدقيقة عن الاعضاء المعتذرين والغائبين، وعن القرارات الصادرة والموقوفة، وعن المشروعات المنتهية والتي تحت البحث، ثم اذكره وهو يشتغل مع موظفي المجلس في المراجعة وفي المسائل الادارية، ثم في مكتب المجلس يبت فيما يعرض عليه مما هو من اختصاصه، ثم في فترات الاستراحة من مقابلات خطيرة، بل لعلها كانت اخطر المقابلات، تحل فيها المشاكل والازمات، وتتفادى فيها مواطن الاحتكاك ومواضع الخلاف!..



سعد زغلول سنة ١٩٢٢

ثم اذكره وهو مأخوذ بشهوة الفن القانونية حين يعرض بحث من بحوث الدستور او التشريع. كيف يدرس الموضوع في منزله دراسة الطالب ثم يطرح مجهوده المثمر على مجلس النواب بأسلوب الباحث المتواضع لا الرئيس المتحكم!

هذا هو المريض الشيخ الفاني. هذا هو الاثر القيم من آثار المدرسة القديمة. يضرب للناشئين مثلا ساميا من امثلة الجلد العنيف والله اعلم اي آلام جسمية ونفسية كان يحسها وهو يؤدي واجبه ذلك الاداء الغريب الاطوار!

كنا نراقب ذلك كله فيعترينا كثير من الخجل فنصغر امامه بتقصيرنا ويكبر امامنا بجهده وبهذا التباين تتحكم شخصيته في شخصياتنا فتكتسح رياسته كل عقبة في الطريق بقوة خلاله وهذا سر من اسرار نجاحه...



ظرفه

ظرف سعد الطبيعي خلاب لا يجارى وقد خالط الفقيد من نشأته جميع الطبقات وكان اصدقاؤه من خلاصة الادباء والظرفاء و«الحظ» خير مدرب على حضور الذهن وسرعة البديهة وروعة «النكتة» بفضل كل تلك العناصر كان خفيف الروح لدرجة السحر ولا غرابة اذا استعان بهذه الهبة الربانية على الترويح عن نفسه وعن النواب في ادق المراكز واحرج المواقف!

حججه

سعد زغلول من اساطين المنطق من زمن بعيد. مغرم بالمناقشة، ومغرم كل الغرام بأن تكون له الغلبة دائما.. وهذا امر طبيعي لا اراه يصلح لان يكون محلا للنقد...

وغرام بالمناقشة وبالزام الحجة غيره غرام نبت معه منذ نشأته... الم يكن ازهريا ومحاميا وقاضيا؟ ظهرت آثار هذه الصفة القريبة من السليقة في تاريخه كوزير وكوكيل للجمعية التشريعية وكزعيم للوفد... حياته كلها حياة نضال وقراع والمناظرة وحجج، وحياته كلها حياة مران مستمر جاد في عالم المناقشة والمناظرة.

ولقد اكسبه ذلك المران قوة هائلة في المناقشة اذ ان تلك السنين الطويلة التي قضاها في جو اللجاج جعلت المناقشة عنده «فنا» ذا اصول وقواعد واساليب يعلم اسرارها هو وتخفى على غيره. - ويخيل الي - وانا في مقام تخليد الحقائق - ان سعدا العظيم كان يكبر عليه في بعض الاحايين ان يقهر في مناقشة بحكم الاغلبية.

وارى ان ذلك من صفات البطولة والجبروت، وكم جاهد وكافح في موضوع واحد ليتغلب على مناقشيه فاذا عسر الامر عليه تحايل واجله للجلسات المقبلة ثم استرد قواه وهاجم وكافح كفاحا ملحا مندفعا فاذا سدت السبل واستحكم الراي حاول التأجيل بشكل خلاب يستهوي الالباب وغالبا ينجح في مناورته. فاذا لم تجد هذه الوسيلة رجع لعظمته كأب وزعيم وضحك ضحكة الذي فرغت جعبته قائلا بصوت حنون لذيذ: «طيب اللي تشوفوه» قوة المنطق، تلك الهبة السامية التي منحه الله اياها كانت عنصرا قويا جدا من عناصر نجاحه كرئيس لمجلس النواب. وكانت تجدي من ناحية اطلاعه على اسرار الحكومة لا يريد ان يطلع المجلس عليها وقد يكون فيها مقنعاً ولكن في اذاعتها خطرا.

فهو يستعين بقوة حجته على توجيه التيار الى الجهة التي تتفق واتجاه تلك الاسرار بغير احتياج الى اذاعتها. والله اعلم كيف ولم كانت تسيرنا تلك الحجج القوية.. وكان بحكم «ذوقه السليم» فلا يخطىء، كان يستعين على انصاره بمكانته الشخصية عندهم وكان يستعين على الشارد من موضوع الكلام باثارة زملائه عليه وكان يستعين على عضو الحزب الوطني وهو في تيار اندفاعه وتطرفه على المنبر بابتسامة ظريفة وجملة خفيفة يلقيها في اذنه بصوت خافت فيه نغمة من نغمات «المناجاة الخصوصية» غير المسموعة فيغريه بترك النقطة الحرجة او يغريه باختتام الكلام!!

انصافه

تلك هي الخلة الغالية الكريمة التي اكبرت سعدا في انظار خصومه السياسيين. كان لا



سنة ١٩٢٤

يفرق بين الاعضاء ولا يتأثر باللون الحزبي. الجميع عنده - كرئيس للمجلس - سواء. وكم اشتد على انصاره وحمل عليهم حملاته المهدمة في سبيل الصالح العام لا يهمه ان يستغل خصومه هذا التهديم او لا يستغلوه ولمواقف انصافه لخصومه السياسيين تأثير عظيم في نفوسهم وليس انبل من الانصاف؟ انصاف القادر على غير الانصاف!

هذا وتر حساس جدا من اوتار الجاذبية نحو رئيس المجلس عرف سعد كيف يوقع عليه فأتقن الايقاع. وكان حريصا على ان يحول دون تكهرب جو المجلس بما يقال في الخارج من اعضائه في سبيل الحزبية. طالبا الى كل من يريد التشفي او اثارة موضوع الخلاف ان يفعل هذا في غير قاعة المجلس. وبهذا صان رياسته عن ان تتورط في التعصب والتحيز الحزبي ففاز بأجل وافخر ما يتحلى به رئيس نبيل!

منقذ الحكومة

ولا بد ان ندون هنا ان سعد زغلول كان بحق «منقذ الحكومة» فلكم استهدفت لحملات قوية فكان يتظاهر «بالحياد» في مبدأ الامر حتى اذا وجد الخطر يوشك ان يحدق بها تدخل واجرى عملية الانقاذ باخلاص...

سعد زغلول في اخريات ايامه



من آخر صوره



لا شك ان الرئيس الراحل كان حصنا حصينا تحصنت فيه سمعة المجلس في كثير من المواقف والقرارات. شخصيته الضخمة كانت تحول دون حملات الجماهير على سمعته وكرامته. وكانت طبقات الموظفين والمزارعين وغيرها من الطوائف تحرص الحرص كله الا تمس المجلس فتمس رئيسه ضمنا كما ان الجهات الرئيسية الاخرى كانت تتحمل ما يدور داخل المجلس حاسبة للزعيم القوي الحساب الحكيم...

المواقف السياسية

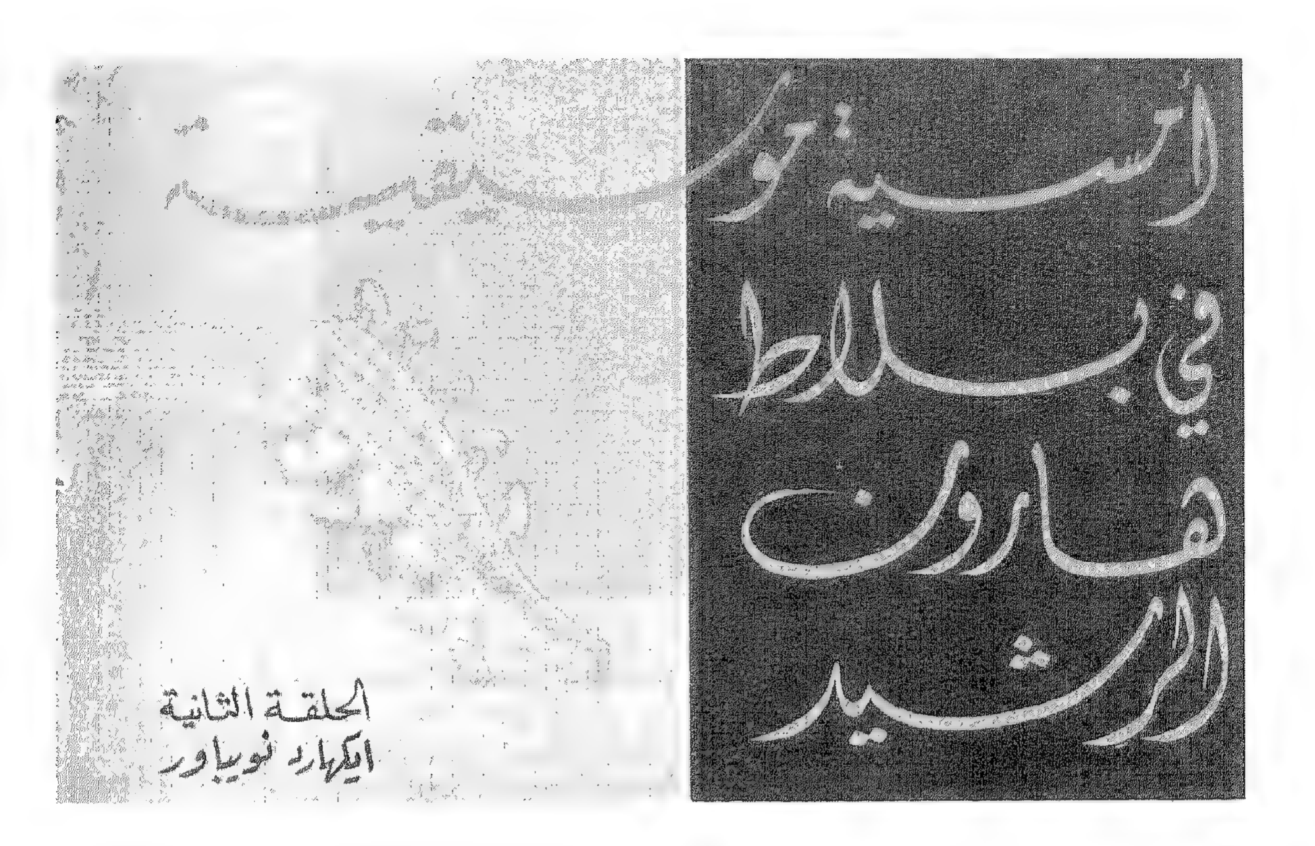
اقرر ان موقف سعد في المواطن السياسية لم يكن موقفه الطبيعي مطلقا وقد صدرت كلمتي بهذا من اول الامر. كان الرجل على ما يخيل الي ينتظر ويصبر ليرى نهاية سياسة حسن التفاهم ولكن لا انكر ان امرها طال وانه لو ظل الزعيم حيا هذا العام ما رغب ولا رغب له محبوه والمخلصون له في ان يظل الحال على ذلك المنوال الممل القاضي على جهود الثورة المباركة. ولكن شاء القدر ان يختطفه قبل ان يتجلى على الجماهير بعد فترة التربص بمظهر الزعيم المستأنف للنضال.

مهمة غالية يحملها عنه ان شاء الله خلفه المفعم بالحياة والشباب... موت سعد خسارة عظمى للحياة النيابية في مصر.. لقد كان رحمه الله استاذا وقدوة وحصنا ومثلا عظيما للنائب الذي اقسم اليمين على ان يعمل وان يخلص للبلاد. رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح الجنان وللوطن البقاء...



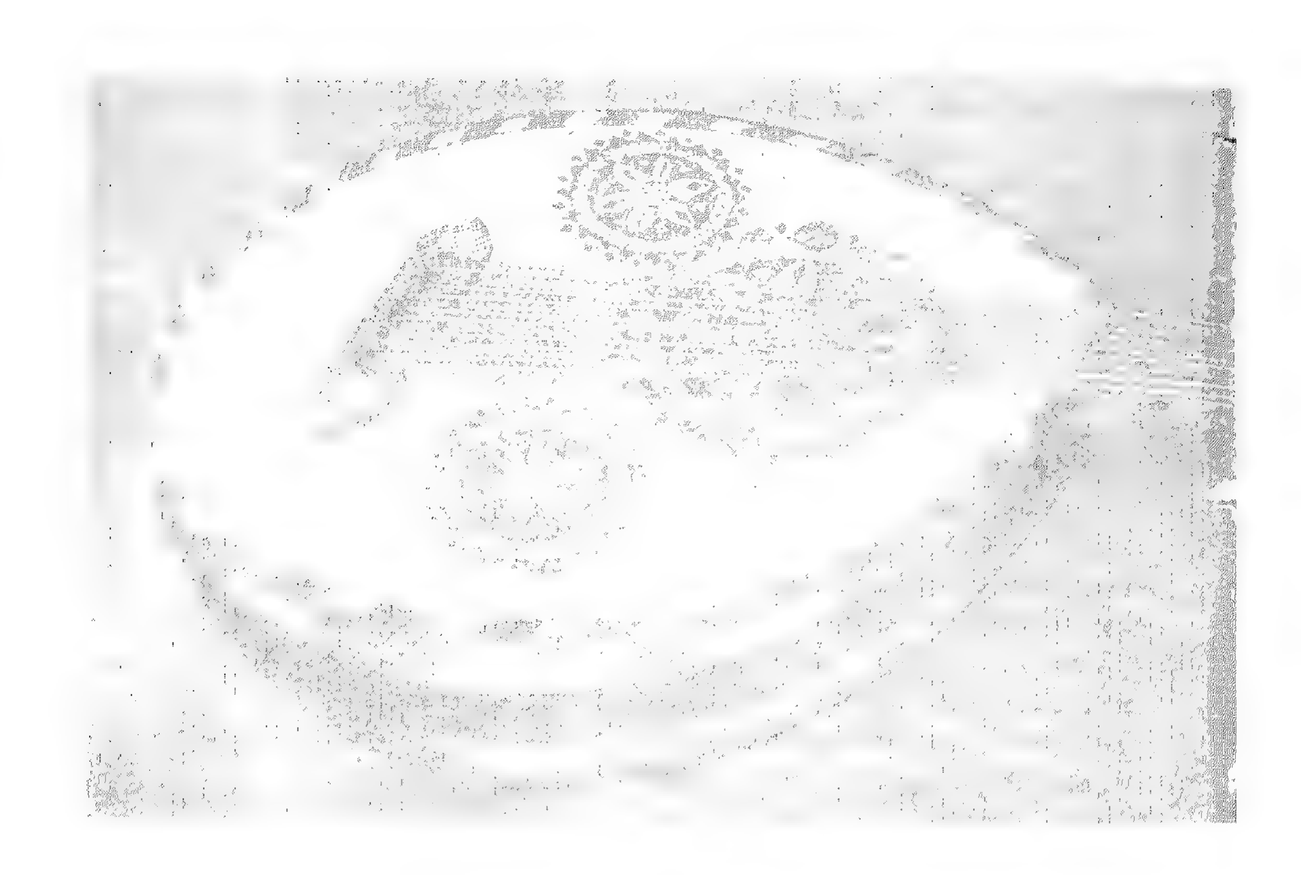
الوطنية اساس اعمالكم، اقبلوا على علومكم فحصّلوها فاننا محتاجون للعلم وللعلماء. ولكن لا خير في العالم اذا لم يكن وطنياً

سعد زغلول



بعد ان عرض الكاتب في الحلقة الاولى لبدء السهرة في بلاط هرون الرشيد وكيف تنظم، زمناً ومكاناً، مطربين وعازفين وعرض لقواعد اللياقة لدى موسيقيي القصر ولباسهم، يفصل في الحلقة الثانية والاخيرة وصف السهرة ذاكراً القصائد والحانها وكيفية استحسان الخليفة للغناء ومن ثم تقديمه للمكافآت... فتكون الحلقتان امتع عرض لتاريخ السهرات الغنائية في بلاط العباسيين.

يعطي الخليفة اشارة البدء عندما يطلب من احد المغنين قطعة معينة او يترك له اختيار القطعة الاولى. فاذا اراد التقيد بمركز المغني اعطى اشارته اولا الى ابراهيم الموصلي او ابن جامع او اي من كبار المطربين، وعلى المطرب في كل الاحوال انتظار اشارة الخليفة، إذ هكذا تقضي المراسيم[٥٢]، لا في بداية الحفلة فقط بل بالنسبة لكل مغني يأتي دوره حتى لو كان ذلك حسب ترتيب جلوسهم والمفروض في كل مغن ان يتمكن من مصاحبة غنائه على العود، غير ان هناك من ضمن موسيقيي البلاط من يقوم بالعزف فقط، فأحدهم على العود وآخر على الناي وهكذا وهؤلاء يصاحبون عادة قطع الغناء المعادة. والايقاع يحدده عازف الطبلة[٥٣]، وقد سبق ان سمعنا ان هارون الرشيد كان يصنف العازفين في المرتبة الثانية بعد المغنين وهذا يعود الى انه لم يكن من المألوف الاستماع الى الموسيقى وحدها ومهمات العزف المنفرد تنحصر في المقدمة والختام وما بين المقاطع[٥٤]، غير ان بعض عازفي القصر كانت لهم المكانة الاولى بين اقرانهم، وصادف مرة ان امتنع عازف ناي يجلس في الصف الثاني عن مصاحبة ابن جامع مستندا الى القاعدة الساسانية التي تقول إن



العازف الاول يجب ان يصاحب المغني الاول، فاذا امره الخليفة غير ذلك كان له الحق في الامتناع عن العزف(٥٥). وقد نجح عازف الناي هذا بالتمسك بموقفه اثناء الحفلة فحصل حالا على ترقية وانتقل الى الصف الاول، وبعد الحفلة منحه هارون الرشيد، تقديرا له ولموقفه، السجادة المفروشة في الصالة(٥٦).

عندما يطلب الى المطرب اختيار القطعة التي سيغنيها فانه يتصرف حسب العادة المتبعة، حيث يبدأ باغان كلماتها جليلة منعشة ينبعث وزنها من ايقاع بطيء تستند الى الحان العود الوسطي، وقد تكون ايضا اغان ونشائد ايقاعية تبدأ باستهلال ايقاعي حر(٥٧).

وطبيعة المقطوعات تتبدل مع تقدم الوقت في الوصلة الثانية، فمن الاناشيد الهادئة المعتدلة عند الافتتاح ينتقل الغناء الى القطع الصاخبة يصاحبها ما يلائمها من موسيقي وايقاع، ثم اغاني الحب والخمر السريعة الخفيفة الحالمة. وفي ختام الامسية تعقب قطع هادئة. ان هذا التسلسل الغنائي ذا الطابع المتبدل الذي يتغير بين وصلة واخرى ادى بمرور الزمن الى ادخال صيغة معينة طابعها تسلسل موسيقي كبير لقطع معينة بتسلسل معين اطلق عليها «النوبة». وقد وصلت هذه اوجها في القرن الثالث عشر وحتى يومنا هذا نجد نوعا متطورا من هذه «النوبة» في المغرب(٥٨).

والآن تجدر الاشارة الى ما يغنيه المطربون وطريقة غنائهم اي بعبارة اخرى التطرق الى كلمات الاغنية ولحنها. وبالامكان تقسيم كلمات الاغاني الى ثلاث مجموعات:

المجموعة الاولى قوامها اشعار مستساغة ومعروفة لكبار الشعراء القدامى والتي سبق ان لحنها وغناها بنجاح المطربون السابقون. ولم يكن في اعادة غنائها ما يعيب على المطرب بانها مقتبسة، بل العكس هو الصحيح إذ يفخر المطرب بانه ساهم في ادخال تجديدات عليها(٥٩).

والمجموعة الثانية هي قصائد للشعراء المقربين الى الخليفة، اي شعراء البلاط، وهي

المجموعة الواسعة جدا. وقد وجد ابراهيم الموصلي ان هارون كان يقدر قصائد «ذي الرمة» ويحفظ العديد منها. فبدأ بتلحين قصائد هذا الشاعر وتمكن، بفضل دهائه وبعد نجاح الاغنية الاولى من احتكار حق تلحين قصائد هذا الشاعر بحيث ضمن لنفسه مكافآت تلحينها. وقد تحدث ابنه اسحق عن اكثر من الف من قصائد ذي الرمة لحنها ابراهيم[٦٠]، وعن مبالغ طائلة - بالنسبة لهارون الرشيد - جناها مكافأة له على ذلك[٦١].

اما المجموعة الثالثة فهي القصائد التي نظمها شعراء القصر او المطربون انفسهم في المناسبات الخاصة كعيد ولادة الخليفة او مولد امير او الاعياد الاسلامية والفارسية. واحيانا ينظم المطربون القصائد لاغراض خاصة، فاما طلبا لزيادة مخصصاتهم او شفاعة لاحد اصدقائهم لتعيينه ضمن الندماء او طلب السماح والعفو من الخليفة عن زلة ارتكبها هو او احد اصدقائه. كانت هذه تنظم في قصائد تلحن وتغنى في مناسبات واوقات ملائمة.

وكان للعديد من المطربين قابلية نظم الاشعار الخاصة بالمناسبات، غير ان واحدا منهم فقط كان شاعرا موهوبا يتمتع بقابليات عالية في نظم الشعر وهو اسحق الموصلي إذ اعتبره معاصروه من الشعراء القديرين إذ نجد اشعاره في مراجع القرون اللاحقة[٦٢].

والقصائد التي لحنت للامسيات الموسيقية اساسياً مجموعة كبيرة ابتداء من قصائد ما قبل الاسلام الى اشعار الخمر الماجنة في العصر العباسي. ولم يكن غريبا ان يحفظ المطرب آلاف القصائد لاغانيه[٦٣]، إذ بالاضافة الى الأغاني الاعتيادية كان الخليفة يتوقع ويفترض في كل مطرب ان يكون قد هيأ اغان خاصة بالمناسبات.

والآن لننتقل الى الموسيقى لنبحث طبيعة الالحان التي كان المطربون يقدمونها في اغانيهم في امسيات هارون الرشيد الموسيقية محاولين ترجمة وصفها التحريري الى موسيقى نظرا لعدم تدوينها - حسب المعروف - في «نوتة موسيقية».

ويعتبر كتاب الاغاني الكبير لابي فرج الاصفهاني اهم مصدر قدم لنا المصطلحات الموسيقية لعصر هارون الرشيد غير اننا عند قراءته نجابه صعوبتين - الاولى ان المصطلحات تختلف من مدرسة الى اخرى فمثلا بين ابراهيم الموصلي وابن جامع وبين اسحق الموصلي وابراهيم ابن المهدي، والثانية هي افتراض هذا الكتاب بأن هذه المصطلحات معروفة، لذا فقد بقيت الى الان اوصافاً لألحان موسيقية غير مفهومة ويصعب ايضا تحديد بعض نقاطها، غير ان بعضها بالامكان اثباته - فالنغم الذي يعتبر اساس الموسيقى التي تقدم في البلاط كان نوعا من الموسيقى البيزنطية والسريانية في ذلك العصر ولم تكن له اية علاقة بما نطلق عليه اليوم «اللحن الشرقي النموذجي»، فكان التلحين يتم على اساس النغمات الكاملة وانصاف النغمات حسب ما تتطلبه وضعية ربط اوتار العود[٦٤]. وقد ذكر ايضا ان اسحاق الموصلي الذي كان لنظريته السبق على نظريات غيره - كابراهيم المهدي مثلا - كان يحاول دائما منع التجديدات من الدخول على موسيقاه، وكانت احدى هذه التجديدات في عهد اسحق - مثلا - التثليث في مقام الراست المعروف اليوم[٦٥]. ومما يعتبر دليلا ثابتا على قوة مدرسته وطابعها الخاص ان المطربين الذين اتوا بعده لم يقوموا خلال مائتي سنة باقتباس هذا المقام، الذي يعتبر نموذجيا بالنسبة للموسيقى الشرقية الحالية، في نظرياتهم الموسيقية[٦٧]. ان الايقاع الذي تستند اليه الالحان يقابل مبدئياً «الاصول» في الموسيقى العربية الان، غير انها كانت اقصر بكثير وابسط إذ قلما زادت فترة ايقاعية على اربع ضربات[٦٨]، حددتها - كما هي عليه اليوم - الآلات الايقاعية.

اما اللحن بحد ذاته فقد انحصر نطاقه في نغمات قليلة بحيث ان المغني الذي يتمتع بصوت متعدد الطبقات، كابراهيم ابن المهدي مثلا، كان يتمكن من غناء نفس اللحن في سلالم موسيقية مختلفة[٦٩]، غير ان الاغاني، نظرا لطولها وتعقيد لحنها، كانت - حتى في هذا النطاق الضيق - صعبة الى درجة بحيث

لم يتمكن اي من مطربي البلاط من تقديم بعض اغاني اسحق الموصلي بصورة صحيحة حتى ولو قضى فترة طويلة في التمرين[٧٠]. اما فيما يتعلق بطول القطع الغنائية فيروي اسحق نفسه بانه منذ مائة سنة قبل عهده كانت قد لحنت اغان تتألف من قصيدتين كاملتين الحانها في ٥٤ «دور»، وهذه تعتبر – عند المقارنة بحذر – اكثر من مائة من الضربات الايقاعية.

وكان لاسحق نفسه اسلوبه ووصفه المتمعن الخاص نقرا عنه في كتاب الاغاني: «واكثرها يبتدي الصوت فيصبح فيه – وذلك مذهبه في جل غنائه، حتى كان كثير من المغنين يلقبونه الملسوع، لانه يبدأ بالصياح في احسن نغمة فتح بها احد فاه – ثم يرد نغمة فيرجحها ترجيحا وينزلها تنزيلا حتى يخطها من تلك الشدة الى ما سيوازيها من اللين، ثم يعود فيفعل مثل ذلك فيخرج من شدة الى لين ومن لين الى شدة»[٧١]. وبهذا فانه تلحين اساسي كما في الموسيقى الشعبية لشعوب مختلفة والموسيقي بصورة عامة، يذكرنا بالتسلسل الاغريقي القديم الذي لا يرتفع، كما هي الحال بالنسبة لتدرج الالحان في موسيقانا اليوم، بل ينحدر، ويلاحظ من هذا الوصف ان اسس «المقام» لم تكن معروفة بعد حسب الظاهر.

وبعد معالجة كلمات وموسيقى الاغاني نعود الى وصف وقائع السهرة:

جرت العادة عندما يقدم المغني اغنية تطرب الخليفة ان يحتسى هذا اثناء الاداء كأسا من الخمر يفرغها حتى نهايتها[٧٢]، كما ان المشروبات تقدم الى الموسيقي ايضا، غير ان المراسيم تقضي عليهم بان لا يشربوا عندما يشرب الخليفة[٧٣]. ولم يتبع هارون الرشيد، عندما يكون في جلسة خاصة لا يحضرها الغرباء. احكام الاسلام الخاصة بتحريم الخمر. ويقول اسحق الموصلي – «عندما يخبرك احدهم بانه رأى هارون الرشيد يشرب شيئا آخر غير الماء فهو كاذب، إذ لم يصادف ان حضر جلسة شراب غير جواريه المخلصات وندمائه»[٧٤].

وكانت الايام التي يشرب فيها الخمر ثابتة، وبالنسبة لبقية الخلفاء العباسيين، باستثناء هارون الرشيد، نعرف حتى اسماء هذه الايام[٧٥]، وكانت هذه مشكلة بالنسبة للمطربين المتدينين او الذين لا يشربون الخمر، ومع ان الاغلبية كانت ممن اعتادوا شرب الخمر وتحمل كميات كبيرة منها فلم يكن يغيظهم امتناع البعض عن الشرب او عدم تذوقهم للخمر[٧٦].

وعندما كان الخليفة يستسيغ قطعة معينة، يهتف «احسنت». وكان الرشيد من الخلفاء الذين يكتفون بهذا وقلما كان يصرخ او



نقوش عاجية من القرن الخامس هـ. تمثل عازفين..

المزمار وكتابة فارسية من القرن الثامن الهجري تصفه...

يصفق بيديه اعجابا[٧٧]، او ينادي المطرب مادحا اياه[٧٨]. كما انه لم يحدث ان قفز من مكانه او بدا بالصراخ والرقص او تمزيق ملابسه طربا كما كان يفعل سلفه واخوه الهادي حسب ما يروى عنه[٧٩]. واذا نالت قطعة غاية اعجابه واستحسانه طلب اعادتها واحيانا مرات وصادف ان قطعة معينة كانت تعاد بمفردها طيلة السهرة حتى يتقنها جميع المطربين الحاضرين[٨٠].

وبصورة عامة قلما استمر برنامج الامسيات الموسيقية لهارون الرشيد مكبلا بقيود المراسيم، إذ كانت الخمر تلعب دورها في تخفيف هذه القيود. وبين آونة واخرى كان الخليفة يسأل عن ظروف نشأة اغنية معينة، وربما يظن البعض ان الحديث عن ذلك يمر سريعا. والواقع هو غير ذلك إذ ان المطربين الذين كانوا يستوحون اغانيهم من «الجن» او حتى «ابليس» كانت لديهم الكفاية من القصص المثيرة عن نشأة اغانيهم[٨١]، والقصة الواردة في الف ليلة وليلة عن ابراهيم الموصلي تدور حوادثها حول لقاء مع الجن[٨٢]، وكذلك فان القطع القديمة غالبا ما كانت ترتبط بها قصص يرويها مرة ما احد المطربين له دراية واسعة باحوال وظروف المطرب المتوفي الذي وضعها. واحيانا كانت بعض القطع الغنائية تنظم وتلحن ارتجالا اثناء السهرة وجلها يتعلق بوصف اثاث غرفة او رداء او وصف الجو او باقة ازهار او عندما يطرح الخليفة اسئلة عن فن التلحين والعزف. وسمعنا عن مباريات في الغناء او العزف لمعرفة الاحسن او من يحفظ اكبر قدر من الاغاني[٨٣].

وكانت السهرة تقطع في اوقات الصلاة[٨٤]، فينهض الموسيقيون ويقيمون الصلاة مع الخليفة، غير ان هذا لم يكن شرطاً اساسياً، إذ غالبا ما ينتهز الموسيقيون فرصة الفترات هذه للتقدم الى الخليفة بمطلب او بشكوى من تفضيله احدهم على الآخر، خاصة إذا كانت معيشة المغني او الملحن تتوقف على عطايا الخليفة، لذا فلم يكن غريبا ان تقدم القطع القديمة والمؤلفات الخاصة لقاء اجرة او هبة، ومن جهة اخرى لا يصعب فهم موقف بعض الموسيقيين – الذين ينعتهم الاخرون بالبخل – الذين لا يقدمون مؤلفاتهم الخاصة الا ليحتفظوا وحدهم بمكافآتهم. وفي حالات كهذه يتبع الموسيقيون طريقة فريدة مجربة حيث ان اثنين من موسيقيي بلاط الرشيد معروفون بقابليتهم على الحفظ سريعا إذ يحفظون قطعة عند سماعهم اياها مرتين، لذا يستغل فترات الصلاة ليتعلم المطرب بمساعدة احدهما اغنية زميله، وكذا وقائع لم تكن نادرة بحيث انه في الوصلة الثانية من السهرة عندما يكتشف حادث من هذا النوع، فان وجود الخليفة هو وحده الذي يمنع وقوع شجار بينهم[٨٥].

وهنالك فترة من نوع آخر وهي عندما يزور الخليفة اثناء الامسية لمدة ما جواريه[٨٦]. وعند عودته يستقبله الفنانون وقوفا حتى يأخذ مكانه ويجلس[٨٧]. وقبيل نهاية السهرة وعندما يكون الخليفة في حالة يطغي عليها المرح والسرور يسمح للموسيقيين بالتقدم اليه بطلب او رجاء خاص، فاذا كانوا جالسين خلف الستارة قام الحاجب بايصال طلباتهم الى الخليفة، اما إذا كانت الستارة مرفوعة قدموها بأنفسهم او ابلغوه اياها شفهيا. وغالبية هذه الطلبات تتعلق بمكافآتهم او طلب المساعدة لبناء دار جديدة او تأثيثها او نفقات لتربية اولادهم.

وكلما كان الشخص لبقا في تقديم طلباته هذه، كأن يقدمها بصيغة قصيدة او اغنية، كلما كان الخليفة اكثر عطاء وكرما[٨٨].

نأتي بهذا الى نهاية السهرة لنتطرق الى الرواتب والمكافآت. كان المغنون والشعراء والندماء المعينون لدى البلاط يتلقون رواتب ثابتة «الرزق» غالبا ما يأمر الخليفة، بعد وفاتهم باستمرار صرفها الى اسرهم[٨٩]. وبالاضافة الى ذلك يتلقى الندماء في فترات شبه منتظمة «جوائز» لفعاليات ممتازة قدموها في الحفلات، وتدفع هذه المبالغ عادة في نهاية السهرة[٩٠]، والحاجب هو الذي يقرر عادة اما تسليمهم هذه المبالغ بعد السهرة مباشرة او ايصالها لهم الى دورهم[٩١]. ولا تكون المكافآت دائماً مبالغ نقدية، فمن وقت لاخر يهدي الخليفة ملابس الشرف «خلعة» يحضرها من المخازن الخاصة في القصر خادم خاص بها. وتكون عادة إما بدلة واحدة او اكثر واحيانا مجموعة كاملة من الملابس، كما يهدي الخليفة ايضا العطور وحيوانات الركوب والسروج واللجم او وسائد وطنافس من صالة السهرة[٩٢]. وقد سمعنا ان الرشيد كان اول خليفة يأمر بتقطيع سجادة الصلاة وإهداء قطعها الى ندمائه: «وكان هو اول من قطع المصليات»[٩٣].

وكان الرشيد يحدد المكافآت النقدية استنادا الى الدرجة المصنف فيها المطرب وجودة ما يقدمه. ونجد مثلا انه في حفلة واحدة معينة امر لاسحق الموصلي بألف دينار بينما امر لابن جامع بألف وخمسمائة دينار ولمغن ثالث من درجة اوطأ بخمسمائة دينار بينما امر لمغن آخر، لم يستحسن كلمات القطعة التي الفها، بثلاثين جلدة – «... فطرب وشرب وامر له بألف وخمسمائة دينار... ثم تبعه فلان فغنى... فاستحسنه وشرب عليه وامر له بخمسمائة دينار، ثم غنى علوية... فدعاه الرشيد وقال له: يا عاض بظر امه.. اتغني في مدح المرد وذم الشيب وستارتي منصوبة وقد شبت وكأنك تعرض بي... ثم دعا مسرورا فامره ان يأخذ بيده فيضربه ثلاثين درة ويخرجه من مجلسه ففعل...»[٩٤]. ان تصنيف هارون الرشيد للمطربين ترتب عليه تنظيم جديد

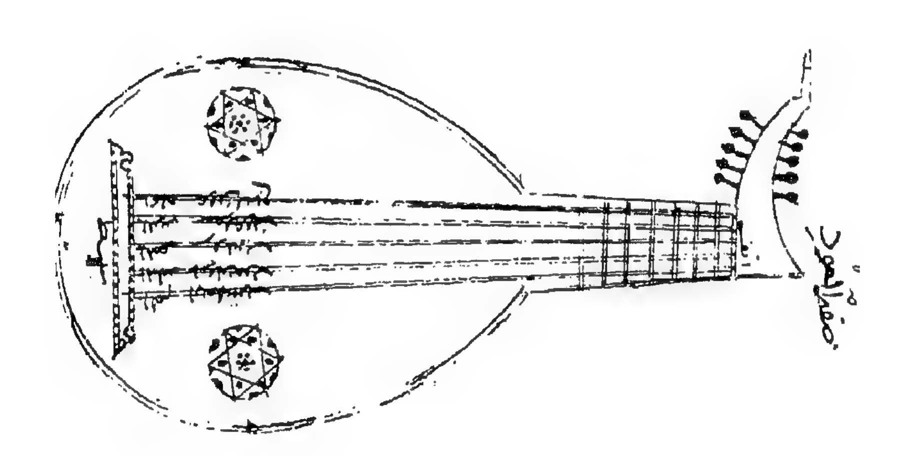
... وكذلك الربابة الاولى

لهم. فقبل هذا كان لكل منهم الخيار في التنازل عن جزء من مكافأته الى مغن آخر، فسمعنا مثلا ان ابراهيم الموصلي وابن جامع كانوا يبعثون دائما بجزء من مكافأتهم الى معلمهم القديم[٩٥]، بينما اصبح عليهم بعد هذا التنظيم ان يعطوا جزءا من هذه المكافات لا الى الموسيقيين الذين يصاحبوهم على الآلات فحسب بل ايضا الى المطربين الاقل منهم درجة الذين اشتركوا في السهرة. ويقضي عرف متبع ان لا يأخذ المطربون المصنفون في الدرجات العليا جزءا من مكافآت المطربين في درجات اقل بالاضافة الى ان هؤلاء لم يكونوا ليتجاسروا على عرض ذلك[٩٦]. وحسب ما علمنا من المصادر فان الفرق في الرواتب كان كبيرا بين المطربين المصنفين في الدرجة الاولى وزملائهم في الدرجات الاخرى الى درجة بحيث ان هؤلاء كانوا مضطرين الى البحث عن اعمال اضافية خارجية اخرى، كمزاولة مهنة اخرى او اعطاء دروس في الموسيقى، بينما يتقاضى نجوم الموسيقى ما يكفي لان يعيشوا في مستوى لا يقل عن كبار موظفي الدولة. فابراهيم الموصلي مثلا، كان ينفق على المواد الغذائية والكماليات مبلغا يعادل ثلاثة اضعاف راتبه العالي[٩٧]. وكانت لديه دار كبيرة واسعة بالاضافة الى بستان. كما كان

يقوم بتدريب المغنين في داره في المدينة حيث يقيم معه فيها ما لا يقل عن ثلاثين منهم ، وذكر ابنه اسحق انهم كانوا مرة ثمانين . وكانت مغنيات اصدقائه يدرسن على ايديه مجانا ، وبعد التدريب يرسلهن اليهم محملات بالهدايا . وكانت قصور الموصليين وغيرهما من مطربي البلاط في ارقى حي في بغداد - الرصافة بالقرب من دور وقصور كبار موظفي الدولة[٩٨] .

كل هذا يذكرنا بحياة الفنانين الرغيدة ، غير اننا ينبغي ان لا ننس ان كبار هؤلاء الموسيقيين المقربين الى الخليفة كانوا معرضين الى ان يدفعوا غاليا ثمن التوصل الى حياة البذخ والغنى هذه ، إذ بتعلقهم وارتباطهم الكامل بمشيئة الخليفة كانوا دائما مهددين - اذا بدرت منهم هفوة او زلة - ان ينالوا غضب الخليفة[٩٩] ، وقياسا على ذلك فان كل سهرة تمر بسلام تعني اكثر من كونها ليلة مرت بهدوء او جزءا من ليلة سيمر بهدوء ، إذ حتى ختام السهرة كانت تحدده المراسيم فكانت لكل خليفة اشارته الخاصة التي تعلن انتهاء السهرة ، فهارون الرشيد اعتاد ان يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك » ليعلن للموسيقيين انتهاء السهرة[١٠٠] ، وبما ان المغنين قد يكونوا مخمورين في هذه الساعة ، فكانوا يتبعون القاعدة القائلة : « عندما ينهض الموسيقي عليه ان لاينسى ان يأخذ آلته معه »[١٠١] .

... العود .



هوامش

(٥٢) قارن ابو جعفر محمد ابن جرير الطبرى (المتوفي ٣١٠/٩٢٣) تاريخ الرسل والملوك ، اصدار J. De Goeje طبعة مصورة ، ليدن ١٩٦٤ - ١٩٦٥ الجزء ٣ ص ٩٠٩ .

(٥٣) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٣١ - ٣٢ .

(٥٤) نفس المصدر السابق ص ٢٣ .

(٥٥) جاحظ ، التاج ، ص ٢٦ .

(٥٦) نفس المصدر السابق ص ٤١ .

(٥٧) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٨٨ - ٨٩ .

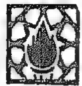
(٥٨) نفس المصدر السابق ص ٩٠ .

(٥٩) نفس المصدر السابق ص ٨٩ .

(٦٠) « فغنيت مائة صوت وزيادة في شعر ذي الرمة فكان إذا سمع منها صوتا طرب وزاد طربه ووصلني فأجزل ولم ينتفع به احد منهم غيري ، فأخذت منه والله بها الف درهم والف الف درهم » . الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٣٩ .

(٦١) نفس المصدر الجزء ٥ ص ٢٣٩ ، قارن الجزء ٥ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ و ٢٢٩ - ٢٤٠ ، الجزء ٨ ص ٣٦٢ و ٣٦٢ .

(٦٢) نويباور، موسيقو البلاط ص ٤٥ .
(٦٣) نفس المصدر السابق ص ٤١ .
(٦٤) قارن Henry George Farmer, The Song Captions In The Kitabal-aghani Al-Kabir. Transactions Of The Glasgow Univ. Orient. Sa. XV (1955) 1-10.
(٦٥) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٧٥ - ٢٧٥ ، قارن نويباور، موسيقيو البلاط ص ٢٨ - ٣٩ .
(٦٦) نويباور، موسيقيو البلاط، ص ١٩٢ .
(٧٦) لا يشير اليه كتاب الاغاني .
(٦٨) مؤلفات الكندي الموسيقية، اصدار زكريا يوسف، بغداد، مطبعة شفيق ١٩٦٢ ص ٩٧ - ٩٨ .
(٦٩) «كنت اضرب على ابراهيم ابن المهدي صوتا ذكره فغناه على اربع طبقات ...» الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ١٠٠ - ١٠١ .
(٧٠) «فاجمع جماعة المغنين ... فعددت خمسين مرة قد اعاد فيها عليهم وهو يظنون انهم قد اخذوه ولم يكونوا اخذوه ...» المصدر السابق الجزء ٥ ص ٢١٥ - ٢١٦ و ٣٦٢ و ٤١٧ - ٤١٨ .
(٧١) نفس المصدر السابق الجزء ٥ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٧٢) نويباور، موسيقيو البلاط، ص ٧٢ و ٧٥ .
(٧٣) هاوي الفنون، الحلقة ٧٠ ب .
(٧٤) جاحظ، التاج ص ٢٧ .
(٧٥) نويباور، موسيقيو البلاط ص ٧٢ - ٧٤ .
(٧٦) نفس المصدر السابق ص ٧٦ .
(٧٧) الاغاني/برنوف الجزء ٢١ ص ١٦١ .
(٧٨) الاغاني ٣ الجزء ١٣ ص ١٤٧ .
(٧٩) جاحظ، التاج ص ٣٦ ، الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ١٨٤ - ١٨٥ ، الجزء ٦ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، الاغاني/برنوف الجزء ٢١ ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٨٠) نويباور، موسيقيو البلاط ص ٩٢ .
(٨١) نفس المصدر السابق ص ٣٧ .
(٨٢) قصص الف ليلة وليلة . الطبعة الالمانية الكاملة في ستة اجزاء . ترجمت لاول مرة عن طبعة كلكتا العربية لسنة ١٨٣٩ ، من قبل انولتمان Enno Litmann, Inselverlag 1953, IV 645f.
(٨٣) نويباور، موسيقيو البلاط، ص ٣٩ و ٧٦ .
(٨٤) نفس المصدر السابق ص ٩٠ .
(٨٥) نفس المصدر السابق ص ٤٠ .
(٨٦) الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ١٢١ .
(٨٧) نفس المصدر السابق الجزء، ص ١٢٢ .
(٨٨) نويباور، موسيقيو البلاط ص ٩٣ ، قارن ايضا ص ٤٥ .
(٨٩) نويباور، موسيقيو البلاط ص ٩٥ .
(٩٠) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٠٣ .
(٩١) الاغاني ١ الجزء ١٧ ص ١٢٤ .
(٩٣) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٢٤ .
(٩٤) نفس المصدر السابق، الجزء ٥ ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، الجزء ١١ ص ٣٦٠ .
(٩٥) نفس المصدر السابق، الجزء ٦ ص ١٧٥ .
(٩٦) جاحظ، التاج ص ٣٩ .
(٩٧) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ١٦٤ .
(٩٨) نويباور، موسيقيو البلاط ص ١٠٦ - ١٠٨ .
(٩٩) نفس المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ .
(١٠٠) جاحظ، التاج ص ١١٩ .
(١٠١) هاوي الفنون، الحلقة ٧٠ ب .




أغرب وأخطر جاسوس
في القرن العشرين
الحلقة الثانية
ترجمة :
تاريخ العرب والعالم

■ ان اخطر جاسوس في القرن العشرين هو بلا شك «راينهارد غيلين» الرجل الخفي الذي ظل يقفز، بدهائه، وسعة حيلته، وجلده الذي قل ان يكون له ضريب، من ضابط صغير نكرة في الجيش الهتلري الى اكبر المناصب العسكرية. حتى انتهى به الامر الى ان اصبح مديرا عاما لمخابرات هتلر التي كانت تقف بالمرصاد للحلفاء ابان الحرب العالمية الثانية.

نشأة غيلين

ولد راينهارد غيلين يوم ٣١ نيسان - ابريل من عام ١٩٠٢ في مدينة «ايرفورت» البروسية في اقليم «ثورنجيا». وكانت اسرته تنتمي إلى الطبقة فوق المتوسطة التي كانت تمد حكومة الامبراطور بالموظفين، ومديري المصانع، والمدرسين، وضباط الجيش.

في ذلك الوقت كان ابوه بنو فيلكس فالتر غيلين ضابط مدفعية في اللواء الاول بالجيش. وكان اجداده جميعاً من العسكريين النظاميين، وقد اشترك احدهم بجدارة في حرب ١٨٧٠ - ١٨٧١، وخاض المعارك ببراعة وجراة تحت إمرة الامير البرت ولي العهد، واشترك في معركة «سيدان» التي انتهت بأسر نابليون الثالث، وسقوط الامبراطورية الفرنسية الثانية.

وكانت كاترين مارغريت - ام راينهارد - من اسرة بروسية محاربة شعارها لا تستسلم ابداً».

وكان اخوه الاصغر فالتر قد ولد في لايبتسش عام ١٩٠٣. وحرص والدهما على ان يغرس في قلبيهما حب بسمارك واجلاله، واحترام مولتكه والاشادة بمواهبه، بوصفهما من اعظم الرجال الذين انجبتهم المانيا القيصرية.

كذلك اهتم الاب بأن يعمر قلبا ولديه بحب الوطن، ومخافة الله، والاهتمام بالحفاظ على النظام الاجتماعي، والحرص على اداء الواجب نحو الوطن بالاخلاص في الخدمة العسكرية.

وكان راينهارد غيلين ذا ذهن تحليلي، شديد الميل إلى الحساب والجبر والهندسة، وظل طوال حياته مغرماً بالاحصاءات، وكان يلتهم، ويهضم في غير مشقة كل ما يصادفه من مؤلفات في الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا، ويعكف على قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب الادب الالماني الكلاسيكي، وكان من المتفوقين في اللغات ولا سيما اللغتين اللاتينية والفرنسية، واهتم بدراسة اللغة البولندية.

وكان سريع الفهم والبديهة، قوي الذاكرة، بارعاً في كتابة موضوعات الانشاء طوال دراسته الثانوية.

وكان لهذا كله اثره في كل ما اعده من تقارير ومن مذكرات عندما عين، فيما بعد، موظفاً بادارة المخابرات التي كانت ملحقة بمقر قيادة هتلر، وحين عمل، بعد سقوط المانيا وهزيمتها المنكرة في الحرب العالمية الثانية، مع ادارة المخابرات المركزية الاميركية، فقد كانت مذكراته وتقاريره تتميز بالذكاء والوضوح وجمال الاسلوب السلس المنطقي.

ولكنه كان يعاني مركب نقص اثر في نفسيته بعمق، وذلك من جراء قصر نظره، واذنيه الكبيرتين، ووجهه الذي يخلو من سمات الرقة والسماحة، وشعره الاشعث الذي يصعب تصفيفه.

وكان، بسبب مركب النقص الذي تملكه واستبد به شديد الخجل، ميالاً إلى العزلة، لا يصادق إلا اقل عدد من الناس، وكان اترابه في المدرسة يعاملونه بسخرية من جراء عيوبه الخلقية، ومن ثم كان يرفض ان يرافقهم في الرحلات، او يشترك معهم في لهوهم، او مبارياتهم الرياضية، او مغامراتهم الصبيانية.

تلك هي الاسباب والعوامل النفسية التي جعلت هذا الرجل الذي جعل منه مركب نقصه داهية، يجد لذة لا تعدلها لذة في التقوقع، والعمل على انفراد، والحرص على التخفي والتنكر، وبذل كل ما في وسعه من جهد للسيطرة على رؤسائه الذين كانوا يتصورون خطأ بطبيعة الحال انه خادمهم المخلص المطيع.



من الملصقات الألمانية التي تمثّل البلشفي كوحش وتعلن: منقذ المانيا هو هتلر!

الالتحاق بالجيش لا دراسة القانون:

وكان يتحلى بكل الصفات التي يمكن ان تجعل منه باحثاً جامعياً. وحين حصل على شهادة الثانوية العامة فكر في الالتحاق بالجامعة، وشجعه عمه ماركس على دراسة القانون، ولكن اباه كان له رأي آخر صمم عليه، وهو ان خير ما يمكن ان يفعله ابنه راينهارد هو ان يلتحق بالجيش، ويتباهى بارتداء الزي العسكري، كما فعل كل اجداده. وقد اصر الاب على رأيه رغم التمزق المشوب بالذل، الذي كان يعاني منه الشعب الالماني بسبب هزيمة المانيا في الحرب العالمية الاولى، وتجريدها من السلاح.

وقد اصر الاب على موقفه لاعتقاده ان الخدمة العسكرية هي خير رمز لبعث الامة الالمانية من جديد.

وهكذا لم ينقض اسبوعان على عيد ميلاده الثامن عشر حتى التحق في عشرين نيسان (ابريل) من عام ١٩٢٠ بالجيش الالماني الجديد «الرايخسفير» الذي كانت معاهدة فرساي قد نصت على الا يتجاوز عدد رجاله المائة الف وعلى الا تكون له هيئة اركان حرب، او يكون مزوداً بالدبابات او المدرعات او الطائرات، او الغواصات، او سفن حربية تزيد حمولتها على عشرة آلاف طن.

ولقد اسفرت هزيمة المانيا القيصرية في عام ١٩١٨ عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن النتائج التي ترتبت على استسلامها بلا قيد او شرط بعد انهيار الرايخ الثالث في عام ١٩٤٥.

فبعد عقد الهدنة عندما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها، كانت وحدات ضباط الجيش الالماني لا تزال سليمة ونشطة، وآية ذلك ان الحبر الذي وقعت به معاهدة فرساي لم يكد يجف حتى شرع الجنرالات الالمان آنئذ في إعادة بناء الجيش وتنظيمه.

وكان الجندي راينهارد غيلين قد عين في وحدة للمدفعية بالجيش الالماني الجديد، على مقربة من حدود بولندا وتشيكوسلوفاكيا، إذ كان قد قرر ان يقتفي اثر والده فيصبح من رجال المدفعية مثله.

وبعد فترة من الزمن استطاع الحصول على اجازة قضاها مع افراد اسرة ابيه الذين كان معظمهم من اليمينيين، واتيحت له وقتئذ فرصة الاجتماع بعدد من رجال السياسة، واساتذة الجامعات، والكتاب، والضباط السابقين. وكانت احاديثهم تدور حول نقطة واحدة هي الخطر البلشفيكي، فقد كان اولئك الالمان المثقفون منزعجين اشد الانزعاج بسبب حصول الشيوعيين آنئذ على نحو مليوني صوت في الانتخابات النيابية التي جرت في المانيا خلال عام ١٩٢٥، وبسبب تعاظم قوة ستالين، واشتداد التجسس السوفياتي في الغرب. وكان الرأي عند اولئك الالمان المثقفين ان الواجب يقضي بمحاربة تلك الاخطار.

ولاحظ غيلين الشاب اثناء العطلة التي قضاها خارج المعسكر ان آراء اولئك الناس المثقفين الذين كان يحرص على الاشتراك في كل

اجتماع يعقدونه، تلقى ترحيباً بوجه عام، وان الحركة التي بداها الجنرال لورندورف وادولف هتلر تلاقي تأييداً من رجال السياسة والمثقفين بوجه عام. وان ثمة تياراً عارماً يتجه نحو هدف على اعظم جانب من الاهمية في نظر افراد الشعب، وهو تقوية الشعب الالماني. وتمكينه من استرداد كرامته التي اهدرت في الحرب، وجعله شعباً مرهوباً كما كان في الماضي.

الاقتناع بأن هتلر على حق

واخيراً اقتنع اولئك الساسة والمثقفون بأن هتلر كان على حق في دعوته إلى التوسع شرقاً كحل للكارثة الاقتصادية التي نكبت بها المانيا منذ هزيمتها في عام ١٩١٨.

وبدأ غيلين يؤمن ايماناً اعمى بدعوة هتلر. ويعتقد اعتقاداً جازماً ان للالمان رسالة اجتماعية واقتصادية تدفعهم إلى السيطرة على اوروبا الشرقية. ومن ثم طفق يقرأ بدقة وامعان كل ما يقع تحت يده من كتب عن الحكومة السوفياتية، والمزارع الجماعية، والتصنيع في الاتحاد السوفياتي، وتكوين الجيش السوفياتي الذي كان تروتسكي قد حوله من مجرد جماعات ثورية مبعثرة الى اقوى جيش في اوروبا.

ويلوح ان اهم شيء اثاراهتمام غيلين خلال تلك الفترة هو نشاط «الكومنترن» الذي كان يرمي إلى الدعوة لاشعال ثورة عالمية، وتشكيل «اللجنة الخاصة العليا لمكافحة اعداء الثورة البلشفية» في سنة ١٩١٧، وجهاز الاستخبارات الضخم التابع لها، وهو جهاز لم يعرف له مثيل في اي بلد في العالم خلال تلك الفترة.

اشتد اعجاب غيلين في ذلك الوقت بفيليكس دزيرشنسكي الارستقراطي البولندي، والبلشفي القديم الذي انشأ «لجان التحقيق الحمراء السوفياتية»، فأكب على التهام عشرات الكتب عن روسيا، وحرص على الاحتفاظ بكل قصاصة من صحيفة او مجلة المانية تحتوي على اية انباء عن نشاط منظمات التجسس السوفياتية.

وكان يروي لزملائه الضباط حكايات منوعة يستخلصها من مطالعاته دون ان يلقى منهم اي اهتمام بما يرويه لهم.

ولكن زملاءه اهتموا ايما اهتمام بقصة واحدة رواها لهم خلاصتها انه حدث ذات يوم ان وجه ستالين - وكان إذ ذاك سكرتيراً عاماً للجنة المركزية - إلى دزيرشنسكي سؤالاً هو: كم عدد الاشخاص الذين تشتبه «لجنة مناهضة اعداء الثورة» في اخلاصهم وولائهم، وتحتفظ بهم في المعتقلات. فأرسل إليه دزيرشنسكي مذكرة قال فيها ان عددهم ١٨٠٠، فأعاد إليه ستالين المذكرة بعد ان وضع علامة × على الهامش.

وفي الليلة التالية اعدم هؤلاء جميعاً بالرصاص وبعدها ابلغ دزيرشنسكي زعيمه ستالين ان الامر الذي اصدره قد نفذ على اتم وجه

وما ان تلقي ستالين نبأ الاعدام حتى طلب من سكرتيره ان يقول لدزيرشنسكي انه - اي ستالين يضع عادة علامة × على اية مذكرة بعد الاطلاع عليها دون ان يقصد بذلك شيئاً آخر وان دزيرشنسكي اخطأ الفهم لانه لم يدرك ان علامة × تدل على ان ستالين قرا المذكرة.

وكان غيلين شديد الاعجاب بمنشفسكي الذي سمع اسمه في عدة مناسبات، فقد تذكر انه كان في برلين قنصل سوفياتي بهذا الاسم ادار خلال فترة ما شبكة تجسس، وعلم انه كان من اخطر رجال المخابرات السوفياتية، وانه واسع الثقافة ويجيد إثنتي عشرة لغة منها. الصينية، واليابانية، والعربية والفارسية وكان منشفسكي فوق ذلك، شاعراً وذا موهبة حسابية ويهتم بعلم الفلك، وعلم الطبيعة.

اعجب غيلين بذلك الرجل المثقف المتعدد الجوانب الذي كان يدير اخطر جهاز للمخابرات في العالم، ويجد، في الوقت نفسه، متسعاً من الوقت لقرض الشعر. الرجل الذي كانت له سيطرة لا حد لها على الناس، ومع ذلك يهتم بالدراسات الانسانية، ويعني بدراسة نجوم وكواكب في الوقت الذي يدير فيه شبكات تجسس ضخمة على اوسع نطاق ممكن.

وكان عمله في المدفعية يحتم عليه ان يتدرب على ركوب الجياد، وكان من اثر ذلك ان



الرئيس هندنبرغ وهتلر سنة ١٩٣٤

استبدت به هواية الفروسية، وسرعان ما اصبح من ابطالها بعد ان بذل جهداً جماً في التدريب رغبة منه في تعويض مركب النقص الذي كان يعانيه في مستهل شبابه من جراء ضآلة جسمه، وصحته الهشة. وطفق يمارس هذه الرياضة في اوقات الفراغ، غير ان تلك الهواية التي كان يجد في ممارستها لذة لا تعدلها لذة، لم تمنعه من الاستمرار في دراسة شؤون اوروبا الشرقية.

ضابط في معهد سري!

وفي سنة ١٩٣٠ إنتخب الفيلد مارشال فون هندنبورغ رئيساً للدولة، وفي غضون تلك السنة عين غيلين ضابطاً بمدرسة الفروسية في مدينة هانوفر. ومع ان تلك المدرسة كانت ذات شهرة واسعة في تخريج الفرسان الشجعان، فقد كانت في الواقع معهداً سرياً لتدريب الضباط المتازين الاذكياء على العمل في هيئة اركان الحرب الجديدة التي لم يكن لها - رسمياً - اي وجود طبقاً لمعاهدة فرساي.

وابدى غيلين من الذكاء والبراعة في عمله الجديد ما جعل مدير المعهد يرشحه لان يكون عضواً في هيئة اركان الحرب السرية الجديدة، وحدث ان نقل إلى منصب كبير في برلين خلال الفترة التي كان هتلر يعد فيها العدة للاستيلاء على السلطة. وهكذا استطاع غيلين ان يتمتع عن كثب، بالاحداث التي وقعت خلال الثلاثينات في برلين.

وفي مستهل شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٣١ تزوج غيلين شابة في السابعة والعشرين من اسرة معظم افرادها من النبلاء الاثرياء والعسكريين ذوى النفوذ الواسع.

واستطاع ان يتطلع إلى المستقبل بتفاؤل واستبشار بعد ان ناسب تلك الاسرة الثرية ذات النفوذ، ولم يلبث ان عين. نتيجة لذلك، ضابطاً في هيئة اركان الحرب.

ورای ان يضع رسالة ليدخل بها امتحان الضباط العظام، وكانت رسالته عن واجبات ومواقف عضو البرلمان، ومما قاله فيها ان واجبات السياسي تحتم عليه ان يخلص للدولة اولاً وقبل كل شيء وان واجب النائب ان يوجه اهتمامه إلى الدولة قبل ان يهتم بدائرته الانتخابية.

وقد اخذ هتلر بوجهة النظر هذه بعد ان اطلع على رسالة غيلين التي نال بها شهادة اركان الحرب بامتياز وجدارة ومن ثم انشأ دولة ذات حزب واحد.

وقد رحبت اسرة غيلين بحكومة هتلر، كما رحب بها كل اصدقائها. وبعد انقضاء اربعة اسابيع على تولى هتلر الحكم حدث حريق «الرايخستاغ»، وتوجهت اصابع الاتهام إلى الشيوعيين دون ان يعرف الناس ان غورنغ، الذي تولى رئاسة الرايخستاج خلال تلك الفترة، هو الذي دبر عملية الحريق.

واستقر رأي غيلين بعد الاحداث الدموية التي وقعت عقب حريق البرلمان، على تأييد هتلر تأييداً لاحد له، فقد وجد فيه زعيماً قادراً على النيل بشدة وعنف من الشيوعيين، وعلى توسيع اراضي الدولة الالمانية الجديدة لتشمل كل بلاد اوروبا الشرقية، وهي امور كان غيلين يحلم بها منذ شبابه، ولهذا رفض التعاون مع المتآمرين ضد هتلر في ذلك الوقت، الذين كانوا يعملون على التخلص منه بأي ثمن، وظل مخلصاً له حتى النهاية.

واستطاع غيلين بطموحه واجتهاده ومثابرته، ان يصل خلال بضع سنوات، إلى ارفع المناصب، بل إلى منصب مدير مخابرات هتلر ابان الحرب، وكانت اخطر مهمة اسندت إليه هي «التصدي بكل الوسائل

المستطاعة لروسيا الشيوعية، وجواسيسها».

وحرص غيلين آنئذ على ان يتخصص في دراسة كل شؤون الاتحاد السوفياتي؛ فالتحق بالاكاديمية الحربية وتخرج منها بامتياز بفضل اجتهاده في الدرس والتحصيل، واتضح لاساتذته انه كان اوسع منهم علماً ودراية بالماركسية، والنظام الشيوعي، والكومنترن، والجيش الاحمر، ونظام الاستخبارات السوفياتي.

ويقول زملاؤه في الاكاديمية انه كان جاداً جداً في الدرس والتحصيل، ويحتفظ في غرفته بأكوام من الكتب عن الاتحاد السوفياتي بينما كان معظم اصدقائه وزملائه يتركون انفسهم نهباً للهو والمرح مع الفتيات الجميلات.

وفي اثناء الحرب العالمية الثانية ذاع صيت غيلين في دوائر الحلفاء، وعرف قواد الجيش البريطاني الشيء الكثير عنه. وفي هذا يقول القائد البريطاني الشهير الجنرال باغيت: «لقد ايقنت، بعد ان التقيت بغيلين في إحدى المناسبات انه زئبقي الشخصية، وعلى جانب كبير من الذكاء وسرعة البديهة، وقوة الذاكرة والقدرة الخارقة على تحليل اعقد المواقف بوضوح مذهل. وادركت بعد ان جادلته طويلاً اننا لا نعرف إلا النذر اليسير عن الاتحاد السوفياتي وان لديه ثروة من المعلومات والبيانات الدقيقة عن تلك البلاد».

وفي سنة ١٩٣٦ عين غيلين في منصب هام بادارة العمليات التابعة لهيئة اركان حرب هتلر، وكان يحترم رئيسه الفيلد مارشال فون مانشتاين، بل يعتبره مثله الاعلى في كل شيء. وفي تلك الاثناء كان مانشتاين يضع الخطط لضم النمسا إلى الرايخ (تم ذلك في شهر آذار - مارس - من عام ١٩٣٨) وغزو تشيكوسلوفاكيا في العام التالي.

وكان من حسن حظ غيلين ان سنحت له الفرصة لمعاونة المارشال مانشتاين في وضع تلك الخطط، ومن ثم اصبح احد اعضاء لجنة الخطط الحربية التي كان يرئسها الجنرال رونشتد القائد الالماني الذي ذاع صيته إبان الحرب العالمية الثانية، والتي كانت تخطط وقتئذ للهجوم على بولندا. وبعد بضعة اشهر عين



المارشال غورنغ

مانشتاين قائداً للفرقة الثامنة عشرة في سيليزيا، وهي الفرقة التي كان قد وقع عليها الاختيار للانقضاض على بولندا في شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٣٩.

في ذلك الوقت نقل غيلين إلى «ليغنتي» الواقعة على الحدود الالمانية البولندية، على اعتبار انه من ضباط كتيبة المدفعية الثامنة عشرة. لكن مهمته الحقيقية كانت بعيدة كل البعد عن المدفعية، إذ كان عليه في الواقع ان يقوم على الحدود ببعض عمليات الاستطلاع والتجسس.

هتلر يستعين بخبرة غيلين

وفي ليلة الثاني من ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩ استقل الميجور غيلين وكان قد عين ضابط مخابرات فرقته المشاة رقم ٢١٣ - استقل سيارة مدرعة من سيليزيا، واقتحم بها الحدود إلى بولندا، مع اولى الوحدات الالمانية



التي غزت الاراضي البولندية.

بيد ان مهمته في الخطوط الامامية انتهت بعد ثلاثة وثلاثين يوماً. ففي العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) استدعي إلى مقر قيادة هتلر العليا، إذ كان قد تقرر الاستعانة بخبرته ومعلوماته الواسعة في إدارة العمليات، ذلك ان الاعتقاد كان سائداً في مقر القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية ان العمليات الحربية ستزداد عدداً واتساعاً بعد ان اعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على المانيا، ومن ثم كانت ادارة العمليات في حاجة إلى رجل ذكي، ذى نظرة شاملة من طراز غيلين.

وقد قررت القيادة الالمانية العليا إذ ذاك تكريمه والاعتراف بالخدمات العظيمة التي اداها خلال الفترة التي قضاها في منطقة الحدود البولندية الالمانية، فأقنعت هتلر بالموافقة على منحه وسام «الصليب الحديدي» من الدرجة الثانية.

ويلوح ان هتلر اعجب اشد الاعجاب ببراعة غيلين إذ كان ينتقل من منصب رفيع إلى منصب ارفع بسرعة مذهلة خلال العامين الاولين من الحرب العالمية الثانية.

وكانت ترقيته إلى منصب مدير التحصينات تحت امرة الجنرال الفريد جاكوب قد تمت بتوصية من المارشال مانشتاين. وقد اتاح له هذا المنصب الرفيع فرصة الالتقاء برجال يشغلون ارفع المناصب في القيادة الالمانية العليا.

ولو ان رجلاً آخر شغل ذلك المنصب الرفيع لقضى بقية حياته قانعاً بالعمل في مكتب انيق، شأنه في ذلك شأن أي ضابط كبير لا يعرف الطموح، فيحصل على العلاوة السنوية بانتظام، ويرضى برتبة كولونيل ممتاز يتقاضى مرتباً كبيراً.

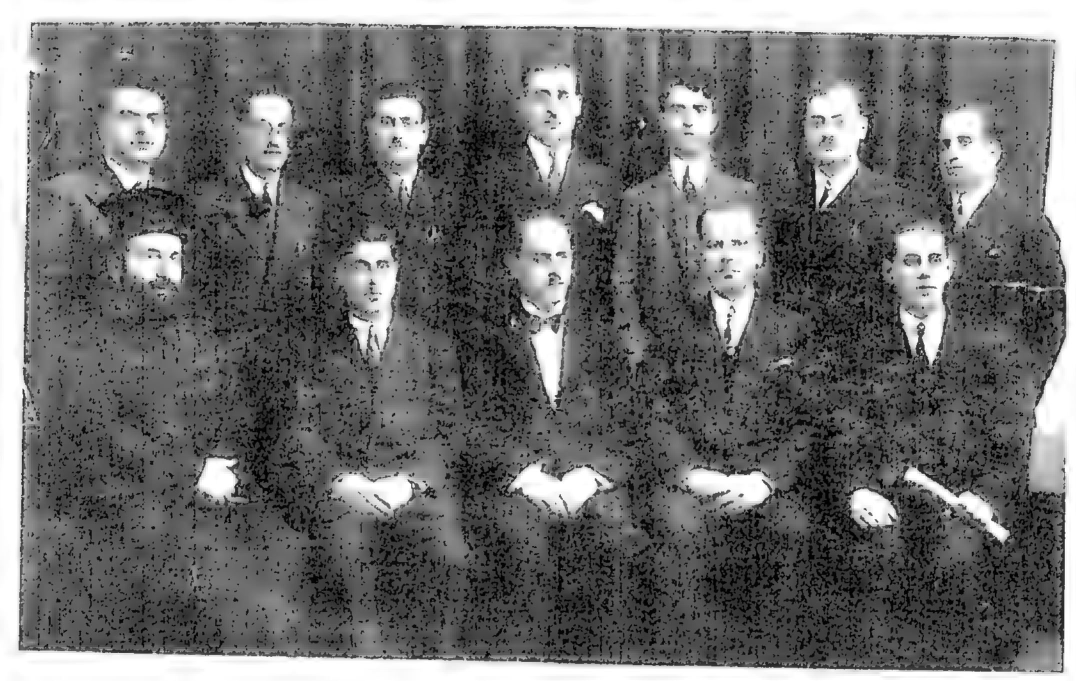
مواهب غير عادية

بيد ان غيلين لم يكن كأي رجل آخر، فقد اتاح له منصبه الهام في ادارة التحصينات الفرصة لاظهار مواهبه غير العادية التي ظفرت بأعجاب لا حد له من جانب كبار الضباط في القيادة العليا الذين كانوا يذهلون لأصراره على معرفة ادق التفاصيل عن كل مشكلة كانت تواجههم، ومثابرته غير المألوفة في دراسة المشاكل المعقدة الملتوية وتحليلها، رغبة منه في الاهتداء إلى انسب الحلول لها ■

جمعية التضامن الأدبي

من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٣

جان سرور



المجلس الاخير للجمعية يتوسطه الرئيس نسيم ايوب ويحيط به من الشمال الشماس صويتي، نجيب الصايغ، اديب قازان جان سرور والواقفون من الشمال وديع فرح عيسى مخايل سابا، معضاد معضاد، راغب حمادة، ابراهيم حداد، عبد الرحمن عبد الملك، فريد كوزما.

في اوائل عهد الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وفي العام ١٩٢٣ بالذات التقى عدد من الشباب اللبناني الفتيّ والمفكر، وقد هالهم ما وصل اليه بلدهم من جهل وتعصب ديني وانحلال خلقي وخاصة تعامي اللبنانيين عما يدبِّر لهم من شراك بقصد ترسيخ استعمار بلدهم، في الوقت الذي كانت مهمة الدولة المنتدبة الاخذ بيد الدولة المنتدب عليها والتدرج بها نحو الاستقلال التام الناجز بحسب شرعة عصبة الامم في ذلك الحين.

وبعد ان اعملوا الفكر وتدارسوا ما يتوجب عليهم القيام به قرروا ان لا يقفوا مكتوفي الايدي تجاه ما يحصل، وعزموا على انشاء حزب سياسي واجتماعي يكون واسطتهم في ايقاظ الشعب من غفلته وبث الروح الوطنية بين الناس واعدادهم لطلب الحرية والاستقلال.


جان سرور

كيف ولدت فكرة انشاء الجمعية:

ولما كان اصحابنا هؤلاء ما زالوا طريي العود وتنقصهم الخبرة لانشاء حزب كهذا رأوا ان يستشيروا المحامي الشيخ ابراهيم المنذر وهو النائب والاديب الكبير والمعروف بوطنيته الصادقة فنصحهم بصرف النظر عن تأسيس حزب لان السلطة سترفض طلبهم ولا تتخذه قطعا، واشار عليهم بالعمل وراء ستار العمل الادبي حيث يمكن بث الافكار الحرة مغلفة بغلاف النشاط الادبي. فاقتنع الشباب بالرأي الحكيم واتفقوا على تقديم طلب بانشاء جمعية دعوها «جمعية التضامن الادبي».

المعاناة للحصول على الاجازة:

غير ان طلبهم بالرغم مما كان يوحي به من سلامة قصد لم يستجب له الا بعد معاناة ومراجعات دامت اكثر من سنة الى ان صدر اخيرا في ٢ آب ١٩٢٤ بموافقة الجنرال فاندبرغ حاكم لبنان في ذلك الحين فتلقى الاعضاء الخبر بفرحة عارمة، وشرعوا في عقد الاجتماعات المتوالية في منزل كاتب هذه السطور (جان سرور) وأخذت من ثم، الجمعية تنمو شيئا فشيئا. غير ان المال كان ينقصها لانشاء ناد لها والقيام بالحفلات والمحاضرات العامة للظهور امام الناس بالمظهر اللائق. ودام الامر على هذا الشكل الى العام ١٩٢٩ حين اقبل على الانتماء اليها عدد وافر من خيرة الشباب اللبناني الذين زاد عددهم على المئة، اذكر منهم الرفاق المحامون معضاد معضاد، نسيم ايوب، اسعد عبد النور، وديع فرح، والقضاة رؤساء المحاكم في ما بعد اديب عفيش، محمود نعمان، ارسلان حاتم، نجيب الصائغ رئيس حزب النداء القومي في ما بعد نصري المعلوف وزير الدفاع، فريد كوزما وزير التربية الوطنية. والاطباء شريف حمادة، الياس حبيب، عارف الريِّس، متري فرح والادباء زاهية ايوب، ابراهيم حداد، الياس خوري، عيسى مخايل سابا، عبد الحفيظ سلطاني، محمد طبارة، حسن فروخ، فائق خوري، مختار التنير، محمد كزما، حبيب ابو شقرا، منير الحسامي، عزيز توما، صلاح الاسير والتجار فؤاد عقل، حمدي طرابلسي، جبران عشي، راغب حداد، عبد الرحمن عبد الملك، اديب قازان واخيرا الشماس ملاتيوس صويتي وهو اليوم مطران الطائفة الارثوذكسية في الارجنتين وكان الشماس الصويتي اكثر خطباء الجمعية اثارة واشدهم حماسة ووطنية ولكن باسلوب رجل الدين الرصين.

انشاء نادي الجمعية:

والجدير بالذكر ان بعض الاعضاء، مالوا في وقت من الاوقات، الى احياء ندوة ضمن الجمعية تعنى بالادب والشعر بنوع خاص غير ان الباعث الاساسي لانشاء الجمعية ظل الهدف الاول، وقد حصل هذا بعد ان صار للجمعية نادٍ لائق بها وكانت تستقبل فيه جماهير الشباب ورجال السياسة والادب وتلقى فيه الخطب والمحاضرات وتدور المناقشات في شتّى الشؤون، بالاضافة الى ذلك كانت الجمعية تحيي حفلاتها الكبرى في صالة الكران تياتر، وكانت في اوج مجدها، وكانت هذه الحفلات لها طابع المهرجانات يخطب فيها الى جانب الاعضاء ادباء ومصلحون وشعراء كبار امثال ابراهيم المنذر وامين الريحاني وميخائيل نعيمة وبشارة الخوري الاخطل الصغير ومصطفى الغلاييني وسابا زريق وانيس الخوري المقدسي وغيرهم وغيرهم من كبار رجالات البلاد وادباء لبنان.

وكانت الجمعية تتوخى بث الفكرة الوطنية بين الناس ودفعهم للتحرر من القيود والعادات التي تشدهم الى الوراء.

الحفلة الاخيرة:

وكانت هذه الحفلات تترك وراءها اصداء استحسان يطول ذكرها ويستمر الحديث عنها اياما. واستمر الحال كذلك حتى كانت الحفلة الاخيرة التي القى فيها امين الريحاني خطابه المشهور «بين عهدين» الذي اتينا على ذكره في مقال سابق في هذه المجلة الغراء والذي تسبب في حل الجمعية وابعاد الريحاني عن لبنان.

نشاطات الجمعية:

ومن الاعمال التي قامت بها الجمعية تبنيها لحركة المقاطعة لشركة الجر والتنوير الاجنبية، عام ١٩٣١ بعد ان كانت الحكومة بمعونة رئيس المجلس النيابي قد توصلت الى شق اللجنة التي كانت تتولى حركة المقاطعة وتعلن وقف المقاطعة، فإذا بالجمعية تتدارك على الفور الامر وتجتذب الفئة المعارضة لوقف المقاطعة وتعلن ولادة لجنة شعبية جديدة اخذت على عاتقها الاستمرار حتى النهاية. ودامت المقاطعة ستة اشهر اخرى تخللها اعمال عنف اوجبت القيام باعتقالات واحالة الى المجلس العدلي بتهمة العمل ضد سلامة الدولة ونال عدد وافر من اعضاء الجمعية نصيبهم من الاضطهاد والتعسف، لان الانتداب كان يرى في كل تحرك وطني واقتصادي مناهضة وزعزعة لكيانه.

اما في حقل الاقتصاد والصناعة الوطنية فقد كان للجمعية دور في محاربة البضائع الاجنبية التي تغزو البلد، وكانت تدعو الى تشجيع الصناعة الوطنية برغم قلة انواعها في ذلك الوقت، والاستغناء عن البضائع الاجنبية المستوردة من الخارج. واذكر اننا اقمنا احتفالا في احد الايام ارتدينا فيها ما تيسر من ملابس كانت في معظمها حريرية وذلك بقصد تعريف الجمهور على صناعة بلدوخطبنا مشددين على ان الاستقلال الاقتصادي هو الاساس للاستقلال السياسي.

واما لجهة العلم ومكافحة الامية التي كانت متفشية في ذلك الوقت فقد قامت الجمعية بنشاط ملحوظ، اذ عمدت الى احياء مباريات شعرية بين طلاب المدارس في الخطابة والقاء الشعر، كما قدمت مساعدات لاولاد فقراء، وافتتحت مدرسة ليلية في ناديها للاميين كان الاعضاء يتناوبون فيه على اعطاء الدروس لهم بالمجان.

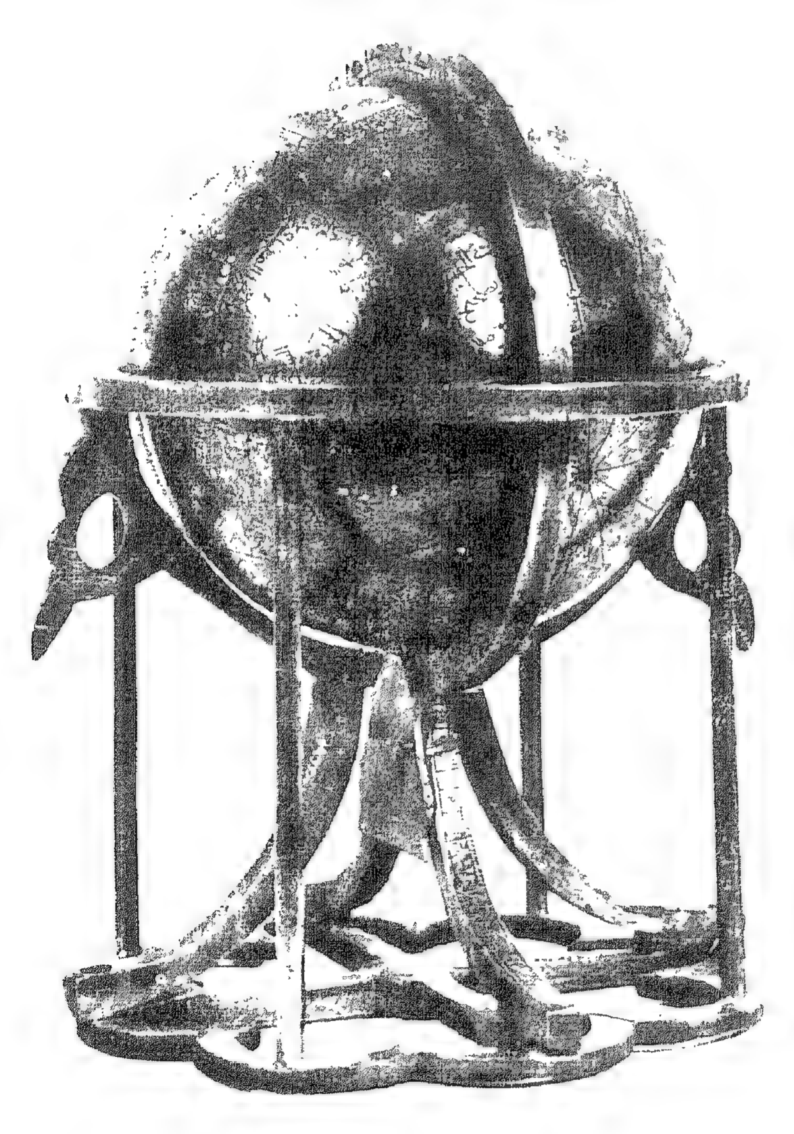
الانضمام الى حزب الاستقلال الجمهوري:

وعندما حلت الحكومة الجمعية اثر خطاب الريحاني اخذ الاعضاء يفكرون في ما يجب ان يفعلوه لانهم لم يتعودوا الانطواء على انفسهم. وبعد مشاورات وابحاث اجروها مع اركان حزب الاستقلال الجمهوري الذي كان قد توصل حديثا الى الحصول على اجازة عمل وتم الاتفاق على انضمام اعضاء الجمعية المنحلة الى الحزب وان يستقيل اعضاء مجلس الحزب ليصار الى انتخاب مجلس جديد يضم بالتساوي اعضاء من الهيئتين وتم العمل بهذا الاتفاق مدة من الزمن لكن الحزب لم يلبث ان حُلّ هو الآخر سنة ١٩٣٨ بتهمة القيام باعمال مخالفة للدستور. وهكذا كان الحال في عهد الانتداب الذي كاد ان يتحول الى استعمار او مزرعة يشغلها بعض الموظفين.

●

مؤلفات أهل اليمن في علم الفلك

عبد الله الحبشي



نشرنا في العدد السابق (٢٢) محاضرة الدكتور دافيد كنج بعنوان: حول تاريخ الفلك في العصر الوسيط في اليمن، وفي هذا العدد ننشر تعقيب الاستاذ عبد الله الحبشي عليها.

كان الاتجاه السائد الذي شمل المكتبة اليمنية عبر عصورها الاسلامية هو الطابع الفقهي الديني الذي اتى بضرورات اجتماعية ملحة. والذين خرجوا عن هذا المنطلق هم فئة قليلة نبغوا فيما بعد القرن السابع وكانت لهم اهتمامات في علوم مختلفة كالفلسفة والتاريخ والادب والعلوم التجريبية... كالطب والهندسة والحساب والفلك والزراعة وغيرها. إلا ان هذا القسم هو اضعف نصيباً من المؤلفات مما حظيت به سائر فروع العلوم الاخرى وذلك لاقتناع اهل اليمن التام بتلك المنجزات العلمية الرائعة التي حققتها الحضارة الاسلامية في بغداد والشام والاندلس، وكل ما اتى به اهل اليمن في هذا المضمار لا يعدو تكملة بسيطة ليست لها قيمة علمية قصوى. وباستثناء اعمال الفلكي اليمني «ابو العقول» فإن بقية الذين نبغوا في علم الفلك من اهله ليسوا سوى ناقلين وشارحين.

واراني اجد العمل في هذا الفرع من فروع الثقافة اليمنية في عصرها الاسلامي نوعاً من التحصيل الذي لا يجدي كثيراً. لو لا اني وجدت مستشرقاً امريكياً هو الدكتور دافيد كنج ينبش الموضوع من اصوله ويقوم بدراسة مختصرة تعتبر الاولى من نوعها حول هذا الموضوع عرض فيها لستة من علماء الفلك في اليمن هم اصحاب الارقام ٥ و ٨ و ١٠ و ١٥ و ١٦ من عملي هذا.

ومع ما في دراسة الاستاذ كنج «التي هي عبارة عن محاضرة القاها في جامعة صنعاء» من جدة وابتكار الا اني وجدت الاستاذ لم يستكمل كل اعلام الفلك اليمنيين.

هذا مما دفعني الى استكمال دراسة وضع وتصنيف شامل لكل من كتب في علم الفلك سواء كان عمله من النوع الحسابي او من نوع الفولكلور الفلكي - كما يقول الاستاذ كنج. وقد استقيت هذا العمل اساساً من مؤلفي الكبير «تاريخ التراث اليمني»(*)، الذي نشرت منه بعض الحلقات.

ولتكن محاولتي هذه نبراسا يقتبس منه كل من يريد التوسع في علم الفلك لعله يخرج بأسماء جدد غير الذين ذكرتهم هنا:

١ - لسان اليمن ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني:

ولد في صنعاء سنة ٢٨٠هـ من فطاحلة علماء اليمن. حقق في سائر العلوم. رحل إلى مكة ويقال انه سار إلى العراق واجتمع بعلماء وكان عارفاً بخط المسند توفي بعد سنة ٣٦٠هـ كما حققه العلامة حمد الجاسر.

مصادر ترجمته: القاضي صاعد. طبقات الامم ص ٥٨ ياقوت معجم البلدان ج ٧ ص ٣٢٠ القفطي: تاريخ الحكماء ص ١٦٣ الفيروزابادي: البلغة في تراجم ائمة اللغة ص ٧٠ الخزرجي طراز اعلام الزمن مخطوط. ابن ابي الرجال مطلع البدور مخطوط وغيرها.

- له الزيج «والزيج عبارة عن جداول توضع للايام والشهور» يقول كنج: والهمداني اول عالم فلكي يمني ولا نعرف بوجود اي فلكي يمني آخر يكون قد ظهر فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين، على ان الزيج الذي وضعه الهمداني لم يعد موجوداً الآن. ولعل اقدم من اشار إليه هو القفطي في تاريخ الحكماء ص ١١٣.. وقد عاش القفطي في القرن السابع.

٢ - البحر النعامي:

من آل ذي نعامة من حمير سكن صنعاء وحقق المؤرخ المعاصر محمد بن علي الاكوع حياته بأنه عاش في القرن الخامس: انظر هامش صفة جزيرة العرب ص ١٥٥.

- له قصيدة يائية في ذكر الشهور والكروم وما يصلح لفصول السنة منها نسخة مخطوطة سنة ٦٢٦هـ بمكتبة العلامة مشرف بن علي في تعز.

٣ - نشوان بن سعيد بن سلامة الحميري:

من العلماء ذوي المعارف المتعددة اهتم بالدراسات التاريخية. يقول ياقوت انه تملك واستولى على عدة قلاع. توفي سنة ٥٧٣هـ.

مصادر ترجمته: عمارة المفيد ٣٢٠.

ياقوت: معجم الادباء ج ١٩ ص ٢١٧. القفطي: انباه الرواة: ج ٣ ص ٣٤٢ الفيروزابادي: البلغة ص ٢٧٣، ابن ابي الرجال: مطلع البدور «استطراد» يحيى بن الحسين طبقات الزيدية. الزحيف: شرح البسامة سترسيتن في المنتقي من اعمال المستشرقين ص ٧٥ و ٨٣ وغيرهما..

– لـه ارجوزة في معرفة الشهور الرومية – منه نسخة مخطوطة في ٥ ورقات بمكتبة الامبروزيانا بايطاليا برقم ١٣.

٤ – ابو اسحاق ابراهيم
ابن علي بن محمد بن منصور بن المبردع
الاصبحي الجندي:

من علماء اليمن برع في النحو والحساب والفلك وحقق الجندي وفاته في بضع وستين وستمائة.

«مصادر ترجمته: الجندي: السلوك في طبقات العلماء والملوك، مخطوط. الخزرجي: طراز اعلام الزمن، مخطوط».

– لـه اليواقيت في المواقيت يصفه الجندي بقوله: «كتاب جليل في فنه يتداوله اهل اليمن» منه نسخة مخطوطة سنة ٧٤٦هـ في اربعين ورقة بمكتبة الجامع بصنعاء برقم ٣٤ فلك.

٥ – ابو عبد الله محمد
ابن ابي بكر بن محمد الفارسي:

اصله من اهل فارس ارتحل والده إلى اليمن وبها ولد ابنه هذا فتلقي العلم على جلة الاساتذة في ذلك الوقت وكان اكثر تخصصه في علم الفلك والموسيقى والطب. توفي في سنة ٦٧٧هـ «مصادر ترجمته الخزرجي في طراز اعلام الزمن والعقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٠٤. والاهدل: تحفة الزمن بذكر سادات ليمن مخطوط».

– الزيج المظفري او الزيج الممتحن. الفه للسلطان المظفر يوسف بن عمر الرسولي يصفه كنج بقوله: «وهو من اهم اعماله يشتمل على جداول للكواكب وغيرها من الجداول الفلكية محسوباً خصيصاً لعرض مدينة صنعاء» منه نسخة مخطوطة سنة ١٠٠١هـ في ٢٧ ورقة بمكتبة الجامع الكتب المصادرة برقم ٦ فلك.

ونسخة اخرى بمكتبة جامعة كمبردج، ويقوم حالياً الاستاذ كنج بوضع دراسة مفصلة عن هذا الزيج.

٦ – الملك المظفر يوسف بن علي الرسولي:

ثاني ملوك بني رسول ولد سنة ٦١٩هـ وحكم اليمن سنة ٦٤٧هـ ومكث في الحكم ما يزيد على خمسين سنة شغل اكثرها في العمران، توفي سنة ٦٩٤هـ. مصادر ترجمته: ابن عبد الباقي: بهجة الزمن ص ٨٨. الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٨ – ٢٨٤. الفاسي: العقد الثمين ج ٧ ص ٤٨٨ ومصادر اخرى لا مجال لذكرها هنا.

– له تيسير المطالب في تسيير الكواكب (انفرد بذكره مؤلف كشف الظنون) وفي مكتبة الجامع (الكتب المصادرة) – كتاب مجهول المؤلف بعنوان المطالب بتسيير النيرين وحركات الكواكب ضمن مجموعة برقم ٥٢ لعله نفس كتابنا هذا.

٧ – مجهول:

من علماء اليمن عاش بعد سنة ٨٠٧هـ.

– له تقويم الكواكب السبعة السيارة صدره بمقدمة في ٥٧ صفحة في تاريخ بني رسول وسائر ملوك اليمن إلى سنة ٨٠٧هـ ثم تناول بعد ذلك موضوع علم الفلك. منه نسخة خطية بالمكتبة التيمورية برقم ٢٧٤ رياضيات.

٨ – ابو العقول:

هو محمد بن احمد الشهير بأبي العقول عمل في بلاط السلطان المؤيد داود بن علي الرسولي في القرن الثامن واوائل القرن التاسع الهجري.

– له الزيج المختار من الازياج «انظر دراسة عن هذا الزيج واهميته العلمية في

محاضرة الدكتور دافيد كنج بجامعة صنعاء.»

٩ - عبد الله بن اسعد اليافعي:

ولد في عدن سنة ٦٩٨هـ وحج إلى مكة ثم عاد إلى عدن في سنة ٧١٨هـ رجع إليها مرة ثانية وانتشر صيته ووصفه ابن بطوطة في رحلته وكان من اساطين الصوفية واشتهر بسلامة النية. مصادر ترجمته: الفارسي، العقد الثمين ج ٥ ص ١٠٤. السبكي: طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢٠٣. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٧٤. الخزرجي: طراز اعلام الزمن مخطوط. الشرجي: طبقات الخواص ص ٦٧ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٠٩ «ولاحد تلامذته كتاب في ترجمته، انظر مؤلفنا : مراجع تاريخ اليمن ص ٢٨٨» - طبعة دمشق.

- له ارجوزة في معرفة الشهور الرومية - منها نسخة مخطوطة ضمن مجموعة بمكتبة الامبروزيانا برقم ٢١٩.

١٠ - اسماعيل بن احمد بن عبد الله ابن ابراهيم بن عطية النجراني:

من علماء اليمن في القرن التاسع الهجري نبغ على يديه جماعة من التلاميذ، مصادر ترجمته طبقات الزيدية: ليحيى بن الحسين وملحق البدر الطالع ص ٥٧.

- يقول يحيى بن الحسين له رسائل في علم النجوم والزيجات.

وفي محاضرة كنج ورد شخص يسمى اسماعيل بن عطية النجراني الذي توجد له جداول فلكية بآخر كتاب زيج محمد بن ابي بكر الفارسي. منه مخطوطة بمكتبة الظاهرية بدمشق ولعله نفس المترجم له هنا إذ ان عطية هو جده الثالث.

١١ - عبد الله بن عبد الرحمن ابن ابي بكر بافضل المذحجي:

ولد في تريم من حضر موت سنة ٨٥٠هـ وانتقل إلى الشحر ثم إلى عدن والحرمين. وفي هذه الرحلات كان يتلقى على الشيوخ الذين يلقاهم توفي سنة ٩١٨ هـ مصادر ترجمته العيدروس: النور السافر ص ٩٨.

- له رسالة في علم الفلك.

١٢ - محمد عمر بحرق:

ولد سنة ٨٦٩هـ وانتقل إلى زبيد فتلقى العلم على علمائها وولي القضاء بالشحر من حضر موت ثم رحل إلى الهند وبها توفي سنة ٨٩٣هـ مصادر ترجمته: النور السافر ص ١٤٣.. السخاوي: الضوء اللامع ج ٨ ص ٢٥٣.

- له رسالة في علم المواقيت.

١٣ - عبد الله بن عمر بن عبد الله بامخرمة:

ولد سنة ٩٠٧هـ وتلقى العلم في حضرموت وزبيد وتعز والحرمين ولقب بمفتي اليمن وولي قضاء الشحر سنة ٩٤٣هـ له مصنفات في علوم متعددة منها التاريخ والفقه والهتوف. توفي سنة ٩٧٢هـ. مصادر ترجمته: النور السافر ص ٢٧٨.

- له الجداول المحققة المحررة في علم الهيئة.

١٤ - محمد بن احمد بن عز الدين ابن الحسين ابن العنز:

سمي بابن العنز لان امه ماتت فعطف الله تعالى عليه عنزاً كانت عند حاجته إلى اللبن تنفرد عن الغنم من المرعى ثم تستلقي حتى تمكنه من الرضاع. مولده في صعده سنة الف. وكان من المشتغلين بصناعة الآلات العجيبة منها انه صنع منظاراً عجيباً ابصر به من صعده إلى القرية ربيع، وهي ناحية بعيدة. توفي بهجرة فلله سنة ١٠٥٣هـ مطلع البدور: مخطوط. المحبي: خلاصة الاثر ج ٣ ص ٢٧٦.

له شرح منظومة الهادي عز الدين بن الحسن في معرفة المواقيت: قال ابن ابي الرجال

في وصفه «تكلم فيه على مواد نافعة من علم الفلك الاسلامي وما يحققونه في الكسوف».

١٥ - احمد بن عبد الله السرحي:

حقق كنج عصره بأنه في القرن الحادي عشر الهجري.
- له زيج.

١٦ - عبد الله المثنى السرحي:

أخوه السابق ذكره.
- له الزيج المسمى غاية اتقان الحركات للسبعة الكواكب. مخطوط سنة ١٢٠٨هـ في ٣٠ ورقة بمكتبة الجامع - الكتب المصادرة. برقم ٥ فلك. واخرى برقم ١٤ هيئة وفلك بمكتبة الجامع.

١٧ - هادي بن علي الصرمي:

من المحققين في العلوم التجريبية: اشتغل بدراسة الفلك والازياج والنجوم وعلم الطب. توفي بعد سنة ١١٢٨هـ الحوثي: نفحات العنبر، مخطوط. محمد زبارة: نشر العرف ج ٢ ص ٧٧٨.
- له شمس الاوان فيما تعاقب عليه الملوان - في الفلك -.

١٨ - حسين بن علي بن زيد جحاف:

ولد سنة ١٠٥٤هـ درس في تهامة وصنعاء وتوفي في زبيد سنة ١١٢٧هـ.
له رسالة في علم الميقات ومداخل الشهور العربية وسنيها في الاشهر الرومية. مخطوط سنة ١١٣٢ وفي ضمن المجموعة رقم ٦٤ بمكتبة الجامع بصنعاء.

١٩ - اسحاق بن علي العبدي:

عاش في القرن الثاني عشر الهجري.
- له رسالة في اوائل الشهور العربية ومواقيت الاهلة. منها نسخة مخطوطة سنة ١١٨٠هـ مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٤١١ فلسفة - القاهرة.

٢٠ - علي بن حسن الاكوع:

اشتغل اولاً وزيراً عند المهدي عباس ثم ابنه المنصور علي. ثم نكب سنة ١١٩٣هـ وظل في السجن نحو عام ثم اطلقه واشتغل بالعبادة والطاعة وحج سنة ١١٩٦هـ وإليه تعود عمارة مسجد الحرقان بباب النهرين توفي سنة ١٢٠٣هـ.
- جحاف: درر نحور الحور العين، مخطوط. ونيل الوطر: ج ٢ ص ١٢٩.
- له الجداول المفيدة في الاشهر الرومية والعربية. منه نسخة مخطوطة بمكتبة الامبروزيانا برقم ٢٥٠.

٢١ - محمد بن احمد بن الحسين:

ولد في صنعاء سنة ١١٦٣هـ وله عناية بعلم الادب والطب. توفي سنة ١٢١٧هـ.
- مصادر ترجمته: درر نحور الحور العين: ونيل الوطر ج ٢ ص ٢١٨.
- الف جدولاً يشمل الشهور العربية والرومية والسنين الفارسية - ذكره جحاف -

٢٢ - محمد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل:

ولد في زبيد سنة ١٢١٠هـ اخذ عن علماء عصره وقام بالفتوى في المسائل الفقهية توفي سنة ١٢٥٨هـ وقيل سنة ١٢٦٠هـ نيل الوطر: ج ٢ ص ٢٨٣.
- له رفع الاشتباه في مسألة القطب والجاه. مخطوط بجامعة الرياض سنة ١٠٣٩هـ.

٢٣ - يحيى بن مطهر بن اسماعيل:

ولد في صنعاء سنة ١١٩٠هـ وكان من العلماء المحققين في علم الحديث توفي سنة

١٩٧٠هـ مصادر ترجمته: نيل الوطر ج ٢ ص ٤١١.
- له جدول مفيد في الفلك -

٢٤ - عفيف الدين عبد الله بن احمد الخيري الشماخي الزبيدي:

عاش في القرن الثالث عشر الهجري.
- له الجدول الثمين في معرفة مداخل السنين. مخطوط بمكتبة الامبروزيانا برقم ٥٢٠.

٢٥ - عبد الله بن حمزة بن هادي الدواري:

حكيم ماهر عاش في صنعاء وبرز في علم الطب والنجوم توفي سنة ١٢٦٩هـ.
- له بلغة المقتات في معرفة الاوقات. مخطوط بمكتبة الجامع برقم ٥٠ صنعاء.

٢٦ - حسين بن زيد الهبل؟

- له تحفة الطالب في تسيير النيسرين وحركات الكواكب. مخطوط في ٣٢ ورقة بمكتبة الجامع - الكتب المصادرة - برقم ٤٢ مجاميع - صنعاء.

٢٧ - محمد بن علي بن محمد الديلمي:

يفهم من اسمه انه يمني.
له الزيج المختصر في تقويم الكواكب الخمسة والشمس والقمر ويسمى ايضا «زاد المسافر» منه نسخة مخطوطة سنة ١٠٩١هـ بمدينة اب في ١١٤ ورقة بمكتبة أحمد بن عبد القادر الاهدل بزبيد ومصورة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية.

٢٨ - لطف بن عبد الله بن عبد الله ابن حمزة الدواري «معاصر»:

حفيد عبد الله حمزة الدواري السابق: نيل الوطر ج ٢ ص ٧٩.
- تكميل بلغة المقتات. استكمل فيه جدول جده إلى سنة ١٣٥٩ هجرية.

٢٩ - محمد بن حامد السقاف:

ولد سنة ١٢٦٥هـ بحضرموت وتوفي بمكة سنة ١٣٣٨هـ «مصادر ترجمته الاعلام ج ٦ ص ٣٠٦».
- له نصب الشرك فيما يحتاج إليه من علم الفلك.

٣٠ - عبد الوهاب بن علي بن يحيى الوريث المتوفي سنة ١٣٢٠هـ:

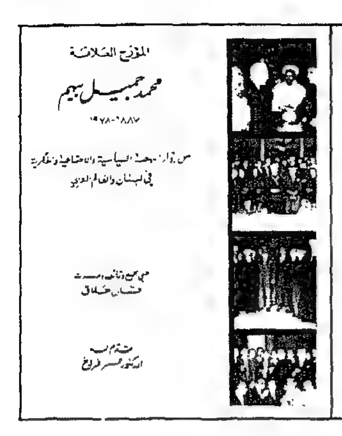
له تحفة الثقات في معرفة الاوقات. ذيل فيه جدول عبد الله بن حمزة الدواري السابق. منه نسخة بخط ابن المصنف احمد بن عبد الوهاب الوريث في ١٢ ورقة برقم ٢ فلك بمكتبة الجامع الكتب المصادرة.

٣١ - عبد الواسع بن يحيى الواسعي المتوفي سنة ١٣٧٩هـ:

- له زهر الزهور في معرفة الساعات والشهور. منه نسخة مخطوطة سنة ١٣٤٦هـ في ٢٤ ورقة برقم ٧ فلك، ضمن الكتب المصادرة. بجامع صنعاء.
وله - ثانياً - كنز الثقات في معرفة الاوقات - مطبوع ومتداول بين الناس.



كتب وردتنا



المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم

١٨٧٧ - ١٩٧٨

من رواد النهضة السياسية والاجتماعية والفكرية في لبنان والعالم العربي

حسان حلاق

هذا كتاب في جميل بيهم، وهنالك مجاهدون مسلمون كثيرون لا يزالون بحاجة الى مثل هذا الكتاب حتى يحتلوا مكانهم من ذاكرة قومهم على الاقل.

د.عمر فروخ

مقدّمة الكتاب

الخلفية السياسية والاجتماعية للعلامة محمد جميل بيهم

عاش محمد جميل بيهم ١٨٨٧ - ١٩٧٨ في مدينة بيروت في منطقة المصيطبة التي سبق ان اتخذت برجاً لها عرف باسم «برج بيهم». اما الشارع الذي سكن فيه فهو المعروف باسم مختار بيهم.

ولقد برزت عائلة بيهم العيتاني في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ قرون عديدة، فإن امير الماء او الأميرال ابراهيم العيتاني - قبودان باشا - قد ولاه السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر قيادة قسم من الاسطول العثماني. ثم اصبح ابراهيم باشا اشهر الذين تولوا الصدارة العظمى في السلطنة العثمانية وذلك في ١٣ شعبان عام ٩٢٩هـ-١٥٢٣م. وقد تولى الحصار الاول لمدينة فيينا في مطلع عام ٩٣٦هـ ١٥٢٩م، غير انه اعدم في رمضان عام ٩٤٨هـ - ١٥٤٢م. هذا بالاضافة الى ان مكانة الحاج نجيب بيهم العيتاني دعت البابا «لاون» لأن يستقبله

ويجتمع به في اجتماع خاص(١).

والحقيقة ان اسرة بيهم هي فرع من آل العيتاني احدى اهم الأسر البيروتية، وتشير احدى وثائق محمد جميل بيهم الى ان الواقف ابراهيم بن خليل العيتاني كان من أعيان مدينة بيروت في القرن الثامن عشر.

ويذكر المهتمون في تاريخ الأنساب ان اسرة العيتاني من الأسر التي نزحت من المغرب الى بيروت في اعقاب جلاء الأسر الاسلامية عن الاندلس. وقد انفصلت اسرة بيهم عن اسرة العيتاني في أواخر القرن التاسع عشر، وبالذات في عهد حسين بيهم العيتاني بن ناصر بن محي الدين العيتاني. ولهذا الانفصال قصة اجتماعية مرتبطة بمآثر العائلة، وهي ان حسين المذكور كان كريماً مضيافا يحسن الى الفقراء والمعوزين ويوزع اموالا عليهم. ومن اجل ذلك لقبه الناس وقتذاك بلقب «ابي الفقراء»، واصبح الناس يشيرون الى هؤلاء الفقراء والمعوزين على ان حسين بك هو «بيهم» اي والدهم. ومنذ ذلك التاريخ بدأ هذا الفرع من العائلة يأخذ اللقب الجديد «بيهم» منفصلا بالتدرج عن اسم العائلة الأم «العيتاني».

هذا وقد انجب حسين بيهم ستة ابناء هم: ناصر، محمد، يوسف، عمر، مصطفى، وعبد الله. وكان يوسف من المع هؤلاء، اذ ان تجارته الواسعة جعلته على صلة وثيقة بالامراء والمقدمين والمشايخ اللبنانين. ولما انتشر وباء الكوليرا في عهد الامير بشير الشهابي الكبير، توجه يوسف بيهم مع عائلته الى منطقة «عين عنوب» الجبلية، واذ يفاجأ اهل المنطقة بقافلة كبيرة تدخل القرية، وكان دليلها يسأل عن منزل آل بيهم، فاذا بالقافلة محملة بشتى المؤن مهداة من الامير بشير الى اسرة بيهم النازلة في رحابه في الجبل.

وكان لهذه الحادثة وقع وأثر هام في توطيد العلاقة بين آل بيهم وبين الاسرة الشهابية. وكثيرا ما تبودلت الرسائل بين مصطفى بيهم – جد محمد جميل بيهم – وبين الامراء الشهابيين وسواهم من امراء الجبل. والحقيقة ان اسرة بيهم لعبت دورا هاما في احداث ١٨٦٠، اذ ساهمت في اخماد الفكر الطائفي، كما كان لها دور بارز في حماية المسيحيين في بيروت، وقد تولى الامر بالذات عمر افندي بيهم(٢). وكان عمر بيهم رئيس مجلس الشورى في عهد الحكم المصري ١٨٣٠ – ١٨٤٠، وكان الوجه الاول في مدينة بيروت، ورغم ذلك فقد كان مشهورا بتواضعه(٣). ولما سجن الشيخ سعيد جنبلاط في بيروت في اعقاب احداث ١٨٦٠ تولى مصطفى بيهم رعايته في سجنه.

اشتهرت اسرة بيهم بالعمل التجاري. غير ان بعض رجالها أظهروا ميلا للسياسة والثقافة والادب، ففي القرن التاسع عشر ظهر منهم بالإضافة الى حسين وابنيه عمر ومصطفى المفكر حسن بيهم الذي شارك في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية عام ١٢٩٦هـ– ١٨٨٧م، بالتعاون مع الشيخ عبد القادر قباني وبعض رجالات المسلمين. كما شارك حسن بيهم ومحي الدين بيهم باستقبال الامبراطور الالماني غليوم الثاني اثناء مروره في بيروت عام ١٨٩٨، باعتبارهما من اعيان بيروت، وذلك جنبا الى جنب مع ميشال افندي اده مدير الامور الاجنبية، والشيخ عبد القادر قباني رئيس بلدية بيروت، وجبيب باشا السعد، والكونت فيليب دي طرازي وسواهم(٤).

هذا وقد انصرف فريق من آل بيهم لخدمة المجتمع، فأبلوا بلاء حسنا في القضايا العربية والانسانية والاجتماعية. فأحمد مختار بيهم كان من الرعيل الاول الذي اشتغل في قضايا الاستقلال. وكان حسين بيهم والد مختار رئيسا للجمعية العلمية السورية التي اعتبرت نواة المجمع العلمي، كما كان شديد الصلة بالامير عبد القادر الجزائري، وبشريف مكة عبد المطلب، الذي جرى بينهما تعاون وثيق من اجل استقلال العرب عن الدولة العثمانية. غير انه من الاهمية ان نذكر ان بعض وجهاء آل بيهم كانوا عثمانيي السياسة، فبعد ظهور حركة سرية في بيروت وتوزيعها المناشير المعادية للاتراك ذكر القنصل الفرنسي العام في سوريا ان عائلة بيهم البيروتية ارسلت الى الوالي رسالة موقعة من وجهائها تدين

ما جاء في المناشير من «افكار هدامة وتدعو لملاحقة صارمة لهذه الألاعيب المجرمة»[٥].

اما محمد بيهم فقد كان عضوا بارزا في مجلس النواب العثماني، ثم اصبح رئيسا لبلدية بيروت، كما اصبح عام ١٩٦٤ وزيراً للمالية. كما كان مختار حسين بيهم عضوا في مجلس النواب العثماني وقد اشترك في المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣، وطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية على اساس اللامركزية، كما رفض استبدال الحكم العثماني بالحكم الفرنسي[٦]. بينما كان محمد بن مصطفى بيهم والد جميل رئيسا للمصرف الزراعي العثماني ونائبا لرئيس بلدية بيروت الشيخ عبد القادر قباني. كما اصبح عبد الله بيهم امين سر الدولة ورئيسا للحكومة عام ١٩٤٢. اما عبد الرحمن بيهم فكان رئيسا لمحكمة الغرفة التجارية. وكان عصام ابن عبد الرحمن بن محي الدين عمر بيهم قنصل لبنان في الاسكندرية، واصبح امين احمد مختار بيهم نائبا عن بيروت في عهد الاستقلال[٧].

بالاضافة الى ذلك فقد عمل بعض آل بيهم في العمل الاسلامي، ومن مآثر عبد الله بيهم بناؤه مسجد عين المريسة في عام ١٨٨٧، وبالرغم من ان البعض يذكر بانه انشأه بالتعاون مع الشيخ محمد علايا والشيخ محمد الهبري، غير ان اللوحة الموضوعة في اعلى الباب بالحائط الشمالي للمسجد، لم يذكر عليها سوى اسم عبد الله بيهم[٨].

ويذكر رئيس الوزراء السوري الاسبق خالد العظم بأنه عندما درس مشروع مد سكة حديد على طريق بيروت - دمشق، قدر الخبراء نفقات التأسيس بمبلغ اربعة وعشرين مليون فرنك ذهبا. وعلى الاثر طلب احد وجهاء بيروت السيد حسن بيهم امتيازا بهذه السكة، فناله بموجب الفرمان الصادر في ٧ حزيران (يونية) ١٨٩١. غير انه باع الامتياز «لشركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية - بيروت - دمشق - حوران» بمبلغ دفع له اسهما في الشركة الجديدة بحيث خصص له ولحملة اسهم شركة طريق بيروت - دمشق ١٢,٥٠٠ سهما لقاء افراغهم حقوقهم اي ما يعادل ٦٥٠٠٠٠٠ فرنك[٩].

اما فيما يختص بالعلامة محمد بيهم فاسمه الأساسي جميل وقد تكنى باسم محمد جميل تبركا وتقربا من النبي محمد(ص)، وهو ابن محمد بن مصطفى بن حسين بيهم بن ناصر العيتاني. ولد في بيروت عام ١٨٨٧ وتلقى علومه الاولى في «الكلية العثمانية» التي اصبح اسمها فيما بعد «الكلية الاسلامية» للشيخ احمد عباس الأزهري. ثم انتقل الى مدرسة «اوليفيا» الفرنسية التي اصبحت نواة للبعثة العلمانية الفرنسية «الليسيه» «وبهذا يكون محمد جميل بيهم قد وجد طريقه الى ثلاث لغات معا: العربية والتركية والفرنسية. وهذه وحدها كانت ضمانا للحصول على ثقافة غنية جداً»[١٠].

وفي عام ١٩٢٨ تقدم الى معهد الآداب بجامعة باريس برسالة عنوانها: «الانتدابان في العراق وسوريا» للحصول على الدكتوراه، باشراف المستشرق «ديمونبين» (Demnbynes). عرف العلامة بيهم بكثرة رحلاته وتجواله في اقطار العالم، فمنذ اوائل القرن العشرين زار اوروبا مرات عديدة اولها عام ١٩١١ بالاضافة الى تركيا. كما زار اميركا الشمالية بين عامي ١٩٣٨ - ١٩٣٩ لخدمة القضية الفلسطينية. وزار الباكستان والهند عام ١٩٥١ للمشاركة في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في كراتشي، كما زارهما عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٠. وفي عام ١٩٥٧ تلقى دعوة لزيارة الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وبعد عودته منهما الف كتابا عن انطباعاته تميز بالحياد والجدية[١١]. وفي عام ١٩٦٨ وصل الى كشمير، بينما وصل عام ١٩٧٠ الى اليابان والهند الصينية. بالاضافة الى رحلات عديدة الى اوروبا والدول العربية. وكان لهذه الرحلات اثر هام وواضح في معلوماته، واعتبر ان هذه الرحلات كانت بمثابة مدرسته الحقيقية التي تلقى فيها علومه الخاصة ومعارفه العامة[١٢].

تزوج محمد جميل بيهم للمرة الاولى في ٧ ايار (مايو) ١٩١٣ من زينب عبد الرحمن بيهم انجب منها فتاة فقط توفيت اثر الولادة. ثم تزوج للمرة الثانية عام ١٩٢٩ من المجاهدة

السورية نازك العابد ابنة مصطفى باشا العابد التي لم يرزق منها ايضا ونظرا لجهوده الخيرة منح عام ١٩١٦ الوسام العثماني. هذا وكان له الفضل في تكوين العديد من المؤسسات والجمعيات والاحزاب، كما كان له الفضل في انشاء دار الكتب الوطنية بالتعاون مع صديقه الكونت فيليب دي طرازي عرضت عليه رئاسة الوزراء في عهد الانتداب وفي عهد الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٦، وفي اواخر عهد الرئيس فؤاد شهاب غير انه رفضها في كل المرات.

اما بقية نشاطاته وجهوده فاننا سنتلمسها من خلال هذه الدراسة المتواضعة التي تعتبر الدراسة الاولى الجامعة لنشاطه السياسي والاجتماعي والفكري، غير انها يجب ان لا تكون الاخيرة، ذلك لان النشاط المكثف والمتعدد للرجل يستدعي اخراج عدد آخر من الدراسات عن اعماله وجهوده التي بذلها في سبيل لبنان والعالمين العربي والاسلامي.

وأخيرا لا يسعني الا ان اتقدم بالشكر لآل بيهم وفي مقدمتهم السيدين عادل بيهم وعفيف بيهم – شقيقي الفقيد – اللذين وضعا بين يدي بعض المجموعات الوثائقية الخاصة بالعلامة محمد جميل بيهم، كما أمداني ببعض مجلداته الخاصة. كما لا يسعني الا ان اتقدم بالشكر للسيد توفيق حوري الذي عرفني بالسيدين السابقي الذكر، والذي سهل مهمتي في اعداد هذه الدراسة، كما لا بد من ان اقدم شكري للاستاذ عبد الغني سلام – صاحب مؤسسة اللواء – الذي تبنى هذه الدراسة لتكون كتابا علميا يبحث في تاريخ أحد رجالات لبنان وأحد رواد نهضته السياسية والفكرية والاجتماعية. واخيرا اتقدم بالشكر للدكتورة زاهية قدورة – رئيسة لجنة تكريم العلامة محمد جميل بيهم – نظرا لجهودها ونشاطها. كما ابدي امتناني للدكتور عمر فروخ – عضو اللجنة – الذي قدم لهذا الكتاب وعرَّف به.

●

حسان حلاق ١٣ ايلول ١٩٧٩

هوامش

(١) الدكتور عمر فروخ. من محاضرة عن محمد جميل بيهم في المركز الثقافي الاسلامي، في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨.

(٢) انظر: محمد كرد علي: خطط الشام ،٣، ص.٩٢.

(٣) انظر: اوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥، ج١، ص.١٩.

(٤) حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص.١٥٥.

(٥) وزارة الخارجية الفرنسية – الارشيف الدبلوماسي – تركيا: M.A.E.F. Archives Diplomatiques Turquie. Vol. 23,R No.48.

نقلا عن: د.وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية – السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ – ١٩٢٠ ص.١٣٨. انظر ايضا: ص.١٤٠.

(٦) الجريدة (بيروت) ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٤.

(٧) اوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥، ج٢، ص.٩٠ – ٩١.

(٨) د. صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص.١٠٢، وهامش رقم ٩٦ في ص.١٢١.

(٩) خالد العظم: مذكرات خالد العظم، المجلد الثاني، ص.١٤٨ – ١٤٩.

(١٠) د.عمر فروخ: محمد جميل بيهم في التاريخ المعاصر، محاضرة في المركز الثقافي الاسلامي. نشرت في مجلة الفكر الاسلامي (بيروت) العدد الثاني، شباط (فبراير) ١٩٧٩. كما نشر الجزء الآخر منها في عدد آذار (مارس) ١٩٧٩.

(١١) هذا الكتاب هو «اسرار ما وراء الستار – الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية كأنك تراهما» وحرصا منه على عدم اعطاء هذا الكتاب اي طابع سياسي منحاز فقد نشره على نفقته الخاصة وقال في مقدمته ص. ٧ – ٨ «هذا وقد اشرت في صدر الكتاب الى ان الحقوق محفوظة للمؤلف لاني لا اود ان يجعل احد من انصار المعسكرين: الشرقي والغربي، من هذا الكتاب سلاحا له في الحرب الباردة المنتشبة بين هذين المعسكرين بنشر بعض فصوله التي تتفق مع غايات الناشر دون البعض الآخر...».

(١٢) انظر: يحيى الكعكي: كراس محمد جميل بيهم ١٨٨٧ – ١٩٧٨، ص.٤٥.

الامبراطوريات الصين

نرحب بالاصدقاء المشاركين في باب «رسائل الماجستير والدكتوراه» ويسرّنا ان نقدّم في هذا العدد رسالة الاستاذ طارق فتحي سلطان عن تاريخ الصين ولطولها سنقسمها إلى حلقتين ونقدم كذلك رسالة الدكتور عماد الدين خليل عن «الامارات الارتقية في ديار بكر». ولا يسعنا إلا تقدير جهد الصديقين مكررين ترحيبنا برسائل جديدة تزيد في غنى مكتبتنا العربية وتوفر جانباً مهماً في بيبليوغرافيا التاريخ.

جامعة الموصل
كلية الاداب قسم التاريخ
رسالة ماجستير

(الحلقة الاولى)

إعداد طارق فتحي سلطان

يتناول هذا البحث الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين في العصور القديمة، مع تناول الاوضاع الداخلية التي سادت بلاد الصين مركّزين على اهم الاحداث المحلية فيها، في محاولة لفهم الظروف المترتبة على طبيعة ونوعية سياسة الدولة، على ضوء هذه الاحداث. وسنتناول فها الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين من ظهور الاسلام وحتى سقوط دولة المغول في الصين.

لقد عاشت الصين قرونا عديدة قبل الميلاد مجزأه مفككة، تحت سيطرة الحكام المحليين، والذين غالباً ما دخلوا في صراعات داخلية فيما بينهم. ادت إلى تمزيق البلاد اكثر من ذي قبل لما تخلفه هذه الصراعات من نتائج سلبية. وظلت بلاد الصين تعاني من التجزئة حتى مجيء اسرة كين (Chin) في سنة ٢٤٦ ق.م، والتي استطاعت ان تقوم بعملية توحيد كبرى لبلاد الصين،وقد تم لها هذا التوحيد في سنة ١٢٢ ق.م. لكن الامور تغيرت عندما سقطت هذه الاسرة في سنة ٢٠٢ ق.م. فعادت بلاد الصين الى حالة التجزئة والانقسام حتى مجيء اسرة سوي (Sui) (٥٨٠ - ٦١٨م) التي اعادت الى الصين وحدتها. لكن اغراق اسرة سوي (Sui) في التوسع الخارجي وفي اعمال السخرة ادى بها الى السقوط، حيث عصفت بها ثورات فلاحية متتابعة، فقامت على اعقابها امبراطورية التانغ[١].

(أ) امبراطورية التانغ. The Tang Empires' ٦١٧ - ٩٠٧م.

بعد ان امضت بلاد الصين فترة قاربت الستة قرون عاشتها في الفوضى والنزاعات. استطاع شاب جريء يدعى لي شيه من Li (Shih-Min[٢])، الذي عرف بمقدرته وبكفاءته، ان يخلص البلاد مما تعانيه من الفوضى

والانقسام، فاستطاع بمساعدة الترك العسكرية من احتلال مدينة جانغ آن (Chang An) عاصمة امبراطورية السوى في نهاية عام ٦١٧م[٣].

وقد كان والد (Li Shin-Min)، حاكما عسكريا لاحدى المقاطعات الصينية، في عهد اسرة سوي، وكان من الموالين لهذه الاسرة، وبعد ان تم احتلال العاصمة (Chang An) نصب اباه على عرش الامبراطورية - التي اسسها هو باسم امبراطورية التانغ - عام ٦١٨م، وقام هو بتجريد الحملات العسكرية، التي استمرت اربع سنوات، حيث اخضع فيها اجزاء عديدة من بلاد الصين، ثم لم يلبث ان اعتلى العرش في سنة ٦٢٦م، وتوج باسم الامبراطور تاي - تسونغ (Tai-Tsung) في ٤/٩/٦٢٦م. وقد استطاع في مدة حكمه التي استمرت ٢٣ سنة ان يعيد الى الصين سابق عهدها ومجدها، فضمت منغوليا بكاملها الى الصين سنة ٦٣٠م، واخضع اتراك التركستان، وسكان الواحات في صحراء غوبي. واتخذ منهم انصاراً وعيوناً له بعدما عرفوا بعدائهم السابق للصين[٤]. وكان معظم سكان هذه الواحات من رجال الحرب والرعاة ويعيشون على التجارة والزراعة وشكلت منطقتهم نقطة اتصال الحضارات الصينية الساسانية، الهندية، العربية وغيرها. ويتكلم سكان هذه المناطق لهجات هندواوربية[٥].

ونتيجة لهذا التوسع الذي شملته امبراطورية التانغ، فقد كانت بعض المناطق التي خضعت للنفوذ الصيني، تعتبر الصينيين حكاماً غرباء بالنسبة اليها، لهذا كانت قسم من هذه الولايات، ينتهز الفرص المؤاتية لشق عصا الطاعة، معلناً الثورة ضد النفوذ الصيني، ففي سنة ٦٤٥م، اعلنت مقاطعة كوغوريو (KoGuryo) الثورة ضد امبراطورية التانغ، فتوجهت اليها حملة عسكرية لاخماد الثورة في المقاطعة، وفعلا تمكنت جيوش الامبراطورية من اخمادها، واعتبر ١٤،٠٠٠ فرد من سكان مدينة (Liao-tung) عبيدا، لولا صدور مرسوم امبراطوري إعاد لهم حريتهم فأخذ منهم ١٠٠٠ شخص الى العاصمة لیشاهدهم الناس[٦] ويبدو أن هذا العفو الذي شمل سكان المدينة جاء كمحاولة صفح من الامبراطور عن الثائرين في محاولة لكسبهم الى جانبه سيما وقد عرف (Tai-tqung) بدهائه وسياسته المتسامحة، بجلب اكبر عدد من السكان الى جانبه.

وقد قام الامبراطور (Tai-Tsung) بتوحيد القوانين الكنفوشية، واعتبر بلاطه من اعظم البلاطات التي عرفتها الصين[٧]. واعقبه في حكم الصين الامبراطور كاو - تسونغ (Kao-Tsung) ٦٤٩ - ٦٨٣م الذي وسع بلاد الصين، فقد وجه ضربات للترك، وساعد سيلا (Silla) ضد خصومها، حيث كانت تتقاسم شبه جزيرة كوريا ثلاث ممالك هي كوكولي (Kokuli) وسيلا (Silla) وبيكچ (Paikche) فتحالفت مملكتا (Kokuli) و (Paikche) ضد الـ (Silla)، فاستنجدت الاخيرة بالصين، فامدتها بقوة عسكرية قضت على مقاومة الـ (Paikche) ودحرت جيوشها، فاستنجدت (Paikche) باليابان، لمهاجمة ال (Silla)، الا ان الصين وقفت لهذه المحاولة بالمرصاد، فأحرقت ٤٠٠ سفينة يابانية[٨]، وبذلك اصبحت بلاد كوريا موالية للصين.

ولكن سرعان ما دب الضعف في هذه الامبراطورية بسبب ضعف الاباطرة ودسائس البلاط، وما بلغته بعض السراري والمحظيات من المكانة والنفوذ، حتى استطاعت ان تعلن احداهن نفسها امبراطورة على البلاد[٩]، وهي الامبراطورة (Tse-Tien)، كانت لها شخصية قوية، حيث نظمت الجيوش وقادتها في مجال المعارك، كما رعت الآداب والفنون[١٠]، وقد استمر هذا الوضع المتدهور فترة من الزمن الى ان استطاع الامبراطور هسوان تسونغ (Hsuan Tsung) ٧١٢ - ٧٥٦م (٩٣ - ١٣٩هـ) ان يضع حدا له لدى اعتلائه العرش، فقد بلغت السيطرة الصينية في عهده اقصى مداها، فدخلت في حدود الامبراطورية من الغرب جبال تيان شان، وجبال البامير، وفرغانة، وطشقند (الشاش) وجلجيت، اما كشمير وبلخ فقد اصبحتا تحت حماية الصين، وتحالفت الصين مع بخاري وسمرقند ضد

المسلمين، وبسطت السيطرة الصينية على التركستان بكامله، واصبحت للصين السيطرة على الممرات والمجازات المؤدية الى الهند، ومضائق المحيط الهندي، واستطاعت تأمين الحماية للقوافل التجارية[11]، بسيطرتها على الطرق عبر البامير وحوض التاريم[12]

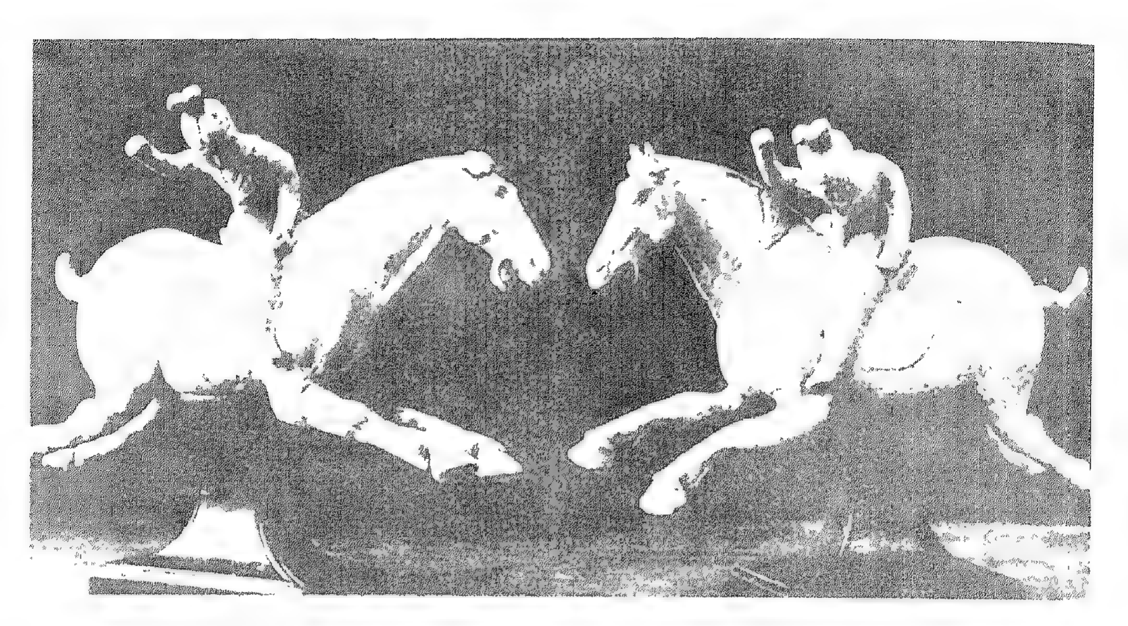
الا ان هذا التقدم الذي احرزته الصين في هذه المجالات، وما بذلته من جهد في توسيع رقعة حدودها، قد انهار فجأة عندما هاجم احد القواد الصينيين اتراك طشقند (الشاش) على الرغم من ولائهم للصين[13] ، فقامت مملكة الطاجيق (Tqdjik) (التركية) بدحر جيش صيني في سنة ٧٥١م الا ان الصين سرعان ما استرجعت سيطرتها في اواسط آسيا بعد فترة قصيرة[14].

وفي نفس السنة ٧٥١م حدثت موقعة نهر تلاس (Talas) بين المسلمين والجيش الصيني، حيث دحر الجيش الصيني واسر منه الكثير. وقد سمى العرب هذه الموقعة بموقعة نهر طراز حيث كان قائد الجيش هو زياد بن صالح احد قادة الجيش العباسي في خراسان[15]. وفي نفس الوقت الذي حدثت فيه موقعة تلاس كانت الصين تعاني من ازمات وحروب داخلية فقد دحر الخطاي (Khitan) جيشا صينيا في منغوليا، وقام الخطاى باقتسام منشوريا مع مملكة بوهاي (Po-Hai) (في كوريا). يضاف الى ذلك تزعزع السيطرة الصينية في مقاطعة يونان (Yunnan) في جنوب الصين حيث قامت مملكة نانجاو (Nanchao) بطرد الحامية الصينية من الاقليم[16] وقد كلف القضاء على هذه الثورات والاضطرابات الامبراطورية الصينية الكثير من الاموال والارواح[17].

وفي سنة ٧٥٥م أعلن آن-لوشان (A n Lu-Shan) الثورة ضد الامبراطورية، وكان هذا قائداً تترياً، حاز على ثقة الامبراطور (Hsüan-Tsung)، فعينه حاكماً على ثلاثة مدن حدودية في الشمال، في مقاطعة هوبي (Hopei)، حيث تولى إدارة شؤونها المدنية والعسكرية. وفي شتاء سنة ٧٥٥م قاد (An Lu-Shan) ١٥٠,٠٠٠ رجل من هوبي قاصداً مدينة لو - يانغ (Lo-Yang). في وقت لم تكن فيه الحكومة مستعدة لمواجهة هذ الثورة، فقامت على عجل بإعداد جيش قوامه ٦٠,٠٠٠ رجل من المتسكعين في هونان، غير المدربين، على اساليب القتال، فدحر الثوار الجيش الامبراطوري وسقطت لو - يانغ، ثم اندفع الثوار باتجاه مدينة جانغ - آن (Chang-An)، حيث نهبوا المدن الواقعة في الطريق من لو - يانغ إلى جانغ - آن، ثم دخلوا جانغ - آن حيث نهبوا القصر الامبراطوري وارسلوا محتوياته إلى إقليم هوبي وانتشرت الثورة في مناطق متعددة من هوبي حيث انضم إلليها ٢٠٠,٠٠٠ رجل وكذلك في وادي نهر وي (Wei) وقد دفعت الحكومة اعداداً من جندها في الحدود الشمالية الغربية باتجاه ممر تنغ ان (Tung Kaun)· إلا ان هذا الجيش قد دحر ايضاً في سنة ٧٥٦م، ففر الامبراطور هسوان - تسونغ (Hsüan Tsung) إلى شسوان (Szechuan)[18].

ثم قتل قائد الثورة من قبل ابنه، كما تنازل الامبراطور هسوان - تسونغ عن العرش لابنه سو - تسونغ (Su Tsung)، فقام هذا بتنظيم المقاومة للقضاء على الثورة في الحدود الشمالية الغربية في كانصو، وبمساعدة الاويغور[19] وسكان التبت (Tu-Fan) ونان مان (Nan-Man) والتا - شي (Ta-Shi)، الذين وعدهم الامبراطور بالاموال[20] وبذلك تم القضاء على الثورة، واسترد العاصمتين جانغ - آن ولويانغ، إلا ان مساعد الثائر المدعو (Shih sze ming) ظل رافعاً راية العصيان فتم القضاء عليه بمساعدة الاويغور، وقد استغرق القضاء على هذه الثورة عدة سنوات انتهت في سنة ٧٦٣م، وقد عرفت هذه الثورة في التاريخ بثورة آن شيه (An-Shih). وعلى الرغم من القضاء على هذه الثورة الا ان الاوضاع ساءت بسبب معارضة قواد الجيش للحكومة المركزية، وقد ظل هؤلاء الحكام يجمعون الضرائب لهم دون الحكومة، وظلوا يتوارثون حكم المناطق في اقليم هوبي، من دون ان يتلقوا التعيين من الحكومة المركزية[21].

وفي اثناء هذه الثورة العارمة التي حدثت



تمثالان من الفخار يمثلان سيدتين من اسرة تانغ يلعبان البولو على حصانيهما (القرن السابع ق. م.)

في الصين. قام المسلمون في سنة ٣٥٨م (١٤٠ - ١٤١هـ) بنهب مدينة كانتون حيث كانوا على درجة كبيرة من القوة، فأخذوا اسلاب المدينة إلى البحر[٢٢]. ان هذه الثورة تدعو الباحث إلى التأمل في السبب الذي قاد المسلمين إلى اعلان الثورة في مدينة تجارية ضخمة مثل كنتون مع العلم ان للمسلمين مصالح تجارية في هذه المدينة منذ وقت غير قصير. ويبدو ان اوضاع المسلمين في المدينة قد تأثرت بهذه الثورات، ولربما تعرض المسلمون فيها الى الاضطهاد من قبل السكان المحليين، او من قبل المسوولين عن المدينة، ولربما تعرضوا للقتل، مما دفعهم إلى ترك المدينة واخذ اموالهم منها، حيث اخذوا ما خف وزنه وغلا ثمنه وتركوا الباقي او احرقوه كما تدعي المصادر.

وفي سنة ٧٨٢م (١٦٥ - ١٦٦هـ) حدثت ثورة في العاصمة، قادها التجار[٢٣]، ويبدو ان سبب قيام هذه الثورة هو محاولة الدولة السيطرة على التجارة او بسبب فرض ضرائب اضافية على التجار.

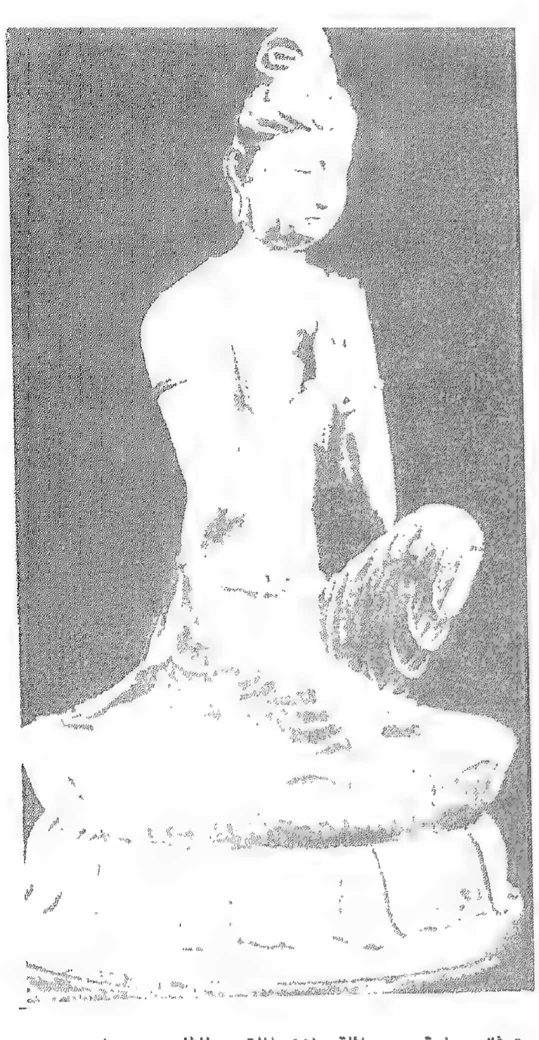
وفي سنة ٧٨٢م (١٦٥ - ١٦٦هـ) حدثت ثورة في العاصمة، قادها التجار[٢٣]، ويبدو ان سبب قيام هذه الثورة هو محاولة الدولة السيطرة على التجارة او بسبب فرض ضرائب اضافية على التجار.

ولعبت الاحوال الطبيعية دوراً في تأزم الوضع، فقد ادى جفاف عام ٨٧٣م الذي حدث في شان تونغ (Shantung) وهونان، إلى انخفاض محصول الحنطة إلى النصف، كما ان المحاصيل الاخرى اصيبت بأضرار بالغة، ومع ذلك استمر الموظفون بالمطالبة بالضرائب، وقد ضرب بالسياط من لم يدفع ما عليه من ضرائب، مما حدا بالفلاحين إلى اعلان الثورة[٢٤].

وفي سنة ٨٧٤م (٢٦١ - ٢٦٢هـ) قام (Wang Hsien-Chih) وهو من الفلاحين - بقيادة ثورة فلاحية في شان - تونغ (Shantung)، وفي السنة التالية انضم إليه تاجر الملح (Huang-Chao) بمن معه من الثوار واعلنوا الثورة ضد الحكومة. وقد اصدروا بياناً، نددوا فيه بالضرائب العالية التي فرضتها الحكومة على الشعب، وبالاجراءات القمعية، فانطلقت الثورة من هونان واتجهت إلى انهوى (Anhwei) ومن ثم إلى (Hupeh)، وفي سنة ٨٧٨م قتل (Wang hsien-Chih) في حادث، فظلت الثورة تحت قيادة (Huang-Chao)، الذي قاد الثوار عبر

نهر اليانغستي واحتل مناطق واسعة من (Kiangsi)، فاضطربت المناطق الواقعة جنوب نهر اليانغستي، واشتعلت فيها الثورة، وقد ازداد عدد الثوار بعد احتلالهم لـ (لو - يانغ) حتى بلغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل، والتقوا بالجيش الامبراطوري في ممر (Tungkuan) فدحروه، مما اضطر الامبراطور الصيني الى الالتجاء إلى شسوان (Szechuan)، فدخل الثوار العاصمة جانغ - آن، وقد قام الثوار بقطع العهود على انفسهم لتحسين الوضع الراهن، وقاموا بتوزيع الاموال على الفقراء، بالاضافة إلى قيامهم بتصفية كل العناصر المناهضة لهم[٢٥].

وقد اشارت المصادر العربية إلى هذه الثورة بوضوح، وما رافقها من مآس قاساها الشعب الصيني في ثورة سنة ٢٦٤هـ فقد ذكر المسعودي: ان يانشو (كان شريراً يطلب الفتنة، ويجتمع إليه اهل الدعارة والشر، فلحق الملك وارباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكرة، وانه ممن لا يبالي به، واشتد امره، ونما ذكره، وكثر عتوه، وقويت شوكته، وقطع اهل الشر المسافات نحوه، وعظم جيشه، فسار من موضعه وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا... وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس. وغير ذلك من اهل الصين. فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها، واتته جيوش الملك فهزمها، واستباح ما فيها. فكثرت جنوده، وافتتح مدينة خانقوا عنوة، وقتل من اهلها خلقاً لا يحصون كثرة، واحصي من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتي الف، وانما احصى ما ذكرناه من هذا العدد لان ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها، وكذا من جاورها من الامم ليصير ذمة لها في دواوين لها، بكتاب قد وكلوا باحصاء ذلك... وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت، إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه، وما يطعم منه لدود القز الذي ينتج منه الحرير... وسار يانشو من بلد الى بلد فافتتحه... وقصد مدينة انموا - واعتقد ان اسم هذه المدينة هي (Anhwei) - وهي دار



تمثال بوذية من عائلة وانغ (القرن الثامن ق.م.).

الملك، فخرج إليه الملك في نحو مائة الف ثم كانت على الملك... فانحاز الملك إلى مدينة في اطراف ارضه[٢٦]!..

وكان من جملة نتائج هذه الثورة،، ان فقدت كانتون مركزها التجاري، في هذه الفترة، ولم تستعد مكانتها التجارية إلا فيما بعد[٢٧].

ونتيجة لهذه الاعمال التي قامت بها الثورة، فقد استنجد الامبراطور الصيني بالاتراك الغربيين (Shato) وخاتاتهم فامده Li) (Ke-Yung بجيش كان هو على رأسه، فدخل العاصمة جانغ - آن، واعقب دخوله العاصمة

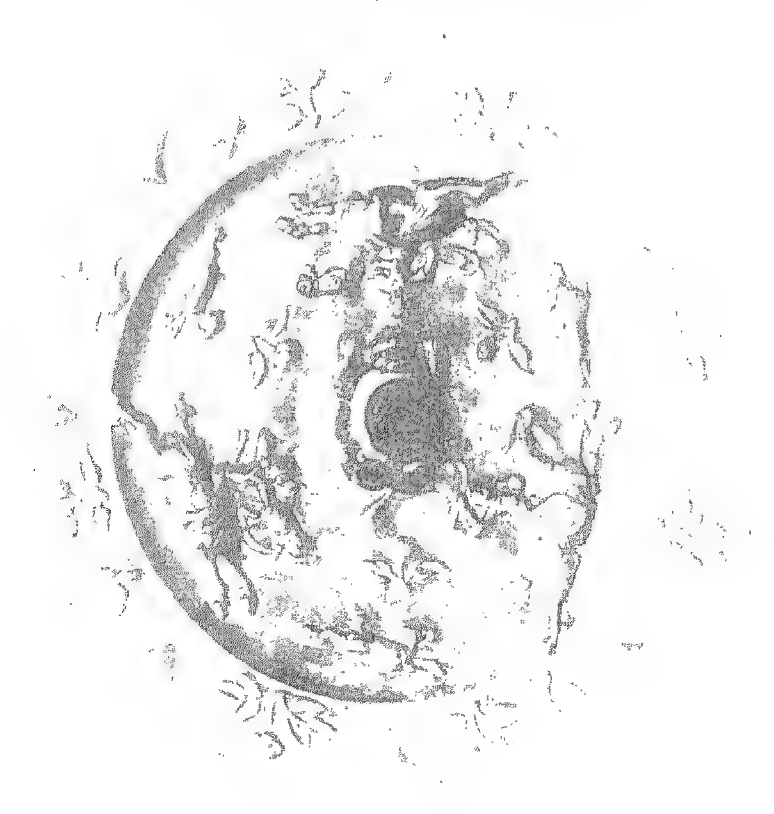
دخول الجيش الامبراطوري فانسحب (Hung-Chao) إلى هونان ثم إلى شان - تونغ (Shantung)، حيث قتل قائد الثورة في سنة ٨٨٤م (٢٧٠ - ٢٧١هـ). في جبال (Taishan)، وبهذا فشلت الثورة[٢٨].

وقد ايد المسعودي هذه النجدة التركية فقال (وكاتب ملك الصين من المدينة التي انحاز إليها، المتاخمة لبلاد التبت، وهي مدينة من....، ملك الترك ابن خاقان، فاستنجده، واعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات، إذا استنجدها اخوانها من الملوك، وان ذلك من فرائض الملك وواجباته، فأنجده ابن خاقان بولد له بنحو من اربعمائة الف فارس وراجل. وقد استفحل امر يانشو، فالتقى الفريقان جميعاً، فكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من سنة، وتفانى من الفريقين خلق كثير، ففقد يانشو، فقيل انه قتل، وقيل انه احرق، واسر ولده والخواص من اصحابه، وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه...)[٢٩].

ويرجع اسباب هذه الثورات إلى عدة عوامل منها التذمر من الضرائب المفروضة على الشعب، فكانت ضرائب الإرض مرتفعة وإذا لم يتمكن الفرد من تسديد ما عليه من ضرائب تتحمل عائلته جزئاً كبيراً منها ويؤدي مكانها اعمال سخرة للحكومة قد تصل إلى ٣٠ سنة[٣٠]. كما مارس ملتزمو الضرائب اساليب قاسية ضد من لم يستطع دفع ما عليه من ضرائب، حيث كان يرسل إلى الحدود ليقاسي الامرين في المناطق التي يرسل إليها سواء اكان المسؤول عنها حاكم عسكري او غيره[٣١]. كما ان ايجار الارض الذي كان يدفعه الفلاحون لاصحاب الاراضي كان مرتفعاً جداً فقد بلغ ايجار الـ (Mon) الواحد من الارض، من ٥٠ - ١٠٠ (Cattes) سنوياً[٣٢].

لقد امتد حكم اسرة التانغ، قرابة ثلاثة قرون، توسعت خلالها حدود امبراطورية الصين، إلى مدى لم تبلغه اية امبراطورية قبلها، فهي

مرآة برونزية من عصر عائلة تانغ (٦١٨ - ٩٠٦ ق.م).

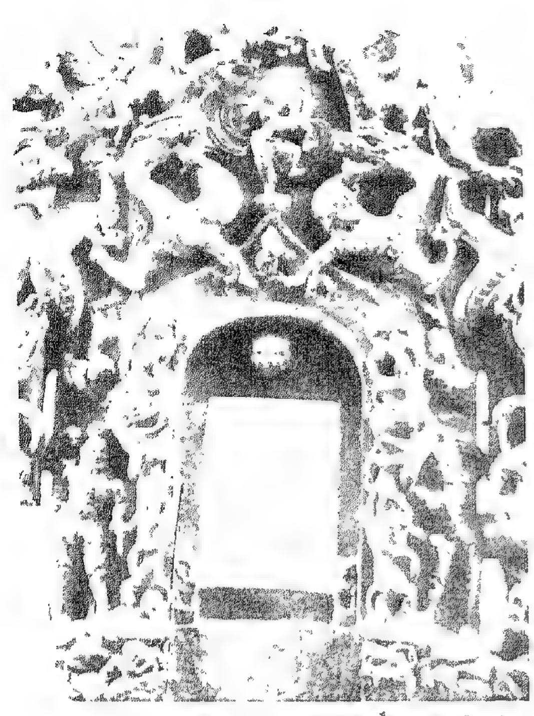


لم تكتفي بما فعلته اسرة سوى (Sui)، من توحيد البلاد فقط، بل وسعت رقعة املاكها[٣٣] فقد اعادت هذه الاسرة إلى البلاد شيئاً من الاستقرار وقامت بحفر القنوات لاستخدامها في النقل التجاري والري، لذلك نجد ان الحركة التجارية والنشاط التجاري يزداد اكثر من ذي قبل، فنما الانتاج وتطور النقش والفخار المزجج، كما ازدهرت المدن وتوسعت، فتطورت اساليب الحياة، كما عملت الدولة على تحسين وتطوير قوتها العسكرية، فأصبح جيش الصين قوة لا يستهان به، مقارنة بجيوش الدول المجاورة، مثل بلاد التبت وكوريا وسنيكيانج، كما ادخل نظام الامتحانات الحكومية كشرط اساسي لتولي الوظائف في الدولة، وكان هذا النظام قد استخدمته اسرة سوى كشرط لتولي الوظائف، فلما جاءت اسرة التانغ ابقت على هذا النظام واستخدمته، كما انتعشت الحركة العلمية في الصين ونشطت فأنشىء معهد هاولن (Haulin)[٣٤].

إلا ان هذا الاصلاح كان نظرياً اكثر مما هو عملياً، فاصبحت الادارة من التعقيد والتشابك بحيث بدا من المستحيل تقريباً، اجراء اصلاحات فعلية في البلاد، فتمسك الموظفين بالتقليد، والاخذ بالاعراف المستبدة يضاف له جهل الموظفين المدنيين، لما يعانيه الفلاحين من مشاكل، بالنظر لكونهم بعيدين عن واقع الفلاحين، وتحسس ما يعاونونه من ظلم واضطهاد.

لذلك كانت الحكومة تضطر إلى إلغاء، او تعديل القرارات التي سبق وان اصدرتها، وحتى قبل ان تجني ثمار تلك القرارات، او حتى قبل ان تطبق فعلاً، فالسلطة مصدرها الامبراطور، الذي يصدر اوامره او قراراته من البلاط، بينما كانت التعليمات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية، وترسل الموظفين والحكام الاداريين للعمل في الولايات[٣٥].

لهذا نجد ان سكان البلاد لا يجدون الرعاية التي تسمح لهم بتمشية امورهم، فالتوسع في الجيش في فترة التانغ، وما ترتب



واجهة «الاسطبة» برج بوذي على شكل هرم (القرن السابع ق.م.).

عليه من اجراءات، اضرت بالتجارة والفلاحين، بحيث ادى هذا إلى ثورات عديدة، كما مر بنا، كما هبط عدد الفلاحين للفترة من ٧٥٤ - ٧٣٩م من ٥٢ الى ٣٠ مليون نسمة، وما ترتب على هذا من مشاكل سواء اكانت هجرة الفلاحين لاراضيهم، او قيامهم ببيعها او وقوعهم تحت اعمال السخرة[٣٦]. لهذا نجد احد الشعراء يعبر عن هذا الوضع بقوله:

(تزداد حياة جيراننا من القرويين بؤساً يوماً بعد يوم،

فما اسرع ما يستنزفون غلال ارضهم،

ويدفعون الى آخر بارة، ما يترتب على اكواخهم من رسوم،

ويأخذون البكاء والعويل، وهجران اوطانهم،

ويتضورون جوعاً، ويموتون عطشاً.

ويخرون صرعى إلى الارض تنتابهم الرياح والامطار،

ويشكون البرد شتاءاً، وحمارة القيظ صيفاً.)

ويستنشقون السموم القتالة المهلكة، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى، فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبق اسرة واحدة، وبين الاسر العشرة التي عاشت مع ابي، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة.... فإذا لم تمت كلها فقد هاجرت ورحلت عن الديار، وبقيت وحدي هنا[٣٧].

ومارست الدولة ايضاً عملية جمع الاموال، فكانت كما وصفت (كالنمرة في جشعها) ومع ذلك استمرت الاعمال التجارية على الرغم من فداحة الرسوم المفروضة عليها[٣٨].

وقد ازدادت المشاكل سوءاً في اواخر عهد الامبراطورية، حيث الضرائب العالية، والاستغلال، واعمال السخرة، والتمرد في الجيش، وضعف الاباطرة الصينيين المتأخرين لسلالة التانغ كل هذا ادى إلى بروز قوة الحكام المحليين واستقلالهم عن مركز الامبراطورية، فحتى عندما قضى على ثورة (Huang-Chao)، استمرت الاوضاع متدهورة حتى استطاع احد قادة الجيش في هذه الامبراطورية وهو (ChuWen) من خلع الامبراطور التانغي معلناً سقوط امبراطورية التانغ في سنة ٩٠٧م، ومؤسساً سلالة ليانغ المتأخرة (Later Liang)[٣٩]. وقد اشار المسعودي إلى الضعف الذي بلغته سلالة التانغ بعد القضاء على ثورة يانشو فيقول (تغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحية... (و) رضي ملك الصين منهم بالطاعة له، ومكاتبته بالملك، ولم يتأت له المسير إلى سائر اعماله، ولا محاربة من تغلبعلى بلاده، وقنع بما وصفناه وامتنع من ذكرنا من حمل الاموال إليه فتاركهم مسالماً لهم، وعدا كل فريق منهم، على ما يليه على حسب قوته وتمكنه، فعدم انتظام الملك واستقامته على حب من سلف من ملوكهم[٤٠].

هوامش

(1) An Outline History of China. Foreign Language Press. Peking 1958. pp7 ff. (A. O. H. C)

(٢) بروي: تاريخ الحضارات مجلد ٣ ص ٢٥٨. سوف يشار لهذا الكتاب باختصار

(٣) Eberhard: A History of China.

(٤) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص ٢٥٩.

(٥) نفس المصدر: مجلد ٣ ص ٢٦٧.

(6) Schafer: The golden peaches of Samarkand. p40.

(7) Weidenfeld. and Nicolson. Chinese. Porcelain. London 1963 p. 18.

الكنفوشية: من الديانات التي كانت منتشرة في الصين نسبة إلى كنفوشيوس مؤسس هذه الديانة وتنصّ هذه الديانة على ضرورة اتباع العدل في الحكم وان يبدا الاصلاح بالحاكم والامبراطور.

(8) A. O. H. C. ; p. 110-111.

(٩) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٢٥٩.

(10) Finlay. Mackenzie: Chinese Art 2nd London 1964. p. 14.

(١١) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٢٥٩ – ٢٦٠.

(12) Simkin: The Traditional Trade of Asia. p.86.

(١٣) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٢٦٠.

(14) A. O. H. C. p. 118.

(١٥) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج٥ ص ٤٤٩؛ ابن خلدون: العبر مجلد٣ ص ٣٨٠.

(16) Simkin: op. cit cit. p. 70; A. O. H. C. p. 118.

(١٧) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص ٢٦٠.

(18) A.O.H.C.. p. 118-119; Mason. Isaac; 'How Islam enter China» 'M.W» V.1 19, 1929 p. 256.

(19) Ibid: p. 119.

(20) Mason: op. cit. p' 256.

(21) A.O.H.C.. p. 119-120

(22) Richards: Islam and the Trade of Asia. p. 162.

(23) Eberhard: op. cit. p. 209.
(24) A.O.H.C., p. 122-123.
(25) A.O.H.C., p. 123-124.
(٢٦) المسعودي: مروج الذهب ج١ ١٥٦ – ١٥٧، ابن الاثير: المصدر السابق ج٧ ص٣١٩.
(27) . Schafer : op. cit. p16.
(28) A.O.H.C., p.123-125.
(٢٩) المسعودي: المصدر السابق ج١ ص١٥٧ – ١٥٨.
(30) A.O.H.C., p.117.
(31) Ibid: p. 116-117.
(32) Ibid: p. 122. وحدة وزن صينية تساوي ٦٠٠ تقريباً. (Catty).
وحدة قياس للارض تساوي ١/٦ اكر: Mou).
(٣٣) بروي: المصدر السابق مجلد ٢ ص٢٦٠.
(34) Boyd, Andrew: Chinese Architecture and town planning, London 1962, 1962, p. 17.
(٣٥) بروي: المصدر السابق مجلد ٢ ص ٢٦٠ – ٢٦١.
(٣٦) نفس المصدر: ص ٢٦٥
(٣٧) بروي: المصدر السابق مجلد ٢ ص ٢٦٥.
(٣٨) نفس المصدر: ج٢ ص٢٦٥.
(39) A.O.H.C., p.125-126.
(٤٠) المسعودي: المصدر السابق ج١ ص١٥٨.



جامعة عين شمس.
كلية الآداب.

الامارات الارتقية في ديار بكر
٤٦٥ - ٨١٢هـ (١٠٧٣-١٤٠٩م)

(رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي

باشراف د. حسن حبشي اعدها د. عماد الدين خليل.

تعد منطقة الجزيرة الفراتية مجالاً خصباً لقيام دراسات عديدة توضح الدور الذي لعبته هذه المنطقة في سير الاحداث وتطور الحضارة، نظراً للموقع الذي كانت تحتله والذي أتاح لها ان تكون منطقة اتصال وتفاعل بين العالم الاسلامي والشعوب الاخرى في الحرب والسلام.

وقد ازدادت أهمية المنطقة بمرور الزمن اثر التحركات البشرية التي كانت تقوم بها القبائل الكبرى في آسيا الوسطى صوب الغرب كالديالمة والغز والسلاجقة والخوارزميين والتتر، والقوى التي تفرعت عنهم، إذ كانت الجزيرة

تغدو خلال ذلك هدفاً عسكرياً وبشرياً لتلك القبائل، الامر الذي كان يؤدي إلى تغيرات سياسية وحضارية واسعة النطاق هناك.

وعندما قامت الحروب الصليبية كانت المواقع الجزرية احدى الاهداف الاولى للصليبيين نظراً لموقعها الستراتيجي المشرف على ناحية العراق والشام، وقد تمكنوا من انشاء احدى اماراتهم في المنطقة، ومن ثم وضعت الجزيرة وجهاً لوجه امام مسؤولياتها ازاء الوجود الصليبي.

هذا إلى ان الجزيرة كانت تتمتع بامكانيات اقتصادية واسعة وموقع ممتاز هيّأ لها الاحتكاك مع الجهات المجاورة مما ادى إلى نموّ اجهزتها الادارية وانظمة حكمها وانشطتها الاجتماعية والدينية والثقافية.

تتضمن هذه الدراسة عن الاراتقة فترة زمنية واسعة تبدأ مع مطلع الدولة السلجوقية وتنتهي باضمحلال امبراطورية تيمورلنك وظهور امارتي الخروف الابيض والاسود، مجتازة فترة عاصرت فيها الخلافتين العباسية والفاطمية، والسلاجقة والايوبيين والصليبيين والمماليك والتتر والجلائريين وعدداً من الامارات الصغيرة. وقد تضمنت الرسالة دراسة مفصلة لظروف نشوء الامارات الارتقية وعوامل تدهورها وسقوطها، وتحديد طبيعة علاقاتها الخارجية بالدول والإمارات التي عاصرتها، وتحليل نظمها وانشطتها الحضارية المختلفة.

ويعود الفضل في ظهور الاراتقة على المسرح السياسي والعسكري إلى جدّهم (ارتق ابن اكسك) الذي لعب دوراً هاماً في قيام الدولة السلجوقية اهّله للحصول على مناصب قيادية هامة وتشكيل النواة الاولى لكيان الاراتقة السياسي. وقد تمكن ابناؤه إثر وفاته من تأسيس امارتهم الاولى في ديار بكر في أقصى شمالي الجزيرة الفراتية ، والتي سرعان ما تعرضت للانقسام اثر وفاة مؤسسها سقمان ابن ارتق. ومن ثم تبلور الكيان السياسي للاراتقة في ثلاث امارات، احداهن في ماردين والاخرى في حصن كيفا والثالثة في خرتبرت على تخوم ديار بكر الشمالية تجاه الاناضول.

وعندما اسس عماد الدين زنكي إمارته في الموصل عام ٥٢١هـ وحاول توحيد الامارات الاسلامية لمجابهة الصليبيين، اتخذ الاراتقة منه موقفاً عدائياً خوفاً على ممتلكاتهم، إلّا ان هذا التوتر كاد ان يتلاشى في عهد ابنه نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩هـ). وعندما قامت الدولة الايوبية على يد الناصر صلاح الدين عام ٥٦٩هـ قام الاراتقة بتقديم مساعداتهم العسكرية له في قتاله للصليبيين. إلا انه ما ان توفي حتى ساد الاضطراب علاقات الاراتقة بالايوبيين، وقد استغل هؤلاء ذلك وعملوا على توسيع الشقاق بين الاراتقة وتمكنوا - بذلك - من إسقاط اثنتين من إمارات الاراتقة الثلاث وهما امارة حصن كيفا وإمارة خرتبرت.

وعند ظهور التتر في المنطقة خضع الاراتقة لهم بعد صراع طويل ومقاومة قاسية، ولكن ما ان ضعفت الدولة التترية (الايلخانية) حتى قطع الاراتقة علاقاتهم نهائياً مع هؤلاء واتجهوا صوب المماليك. إلّا ان ظهور تيمورلنك وحلفائه من قادة امارتي الخروف الابيض والاسود وجه ضربة حاسمة للاراتقة وقاد امارتهم الاخيرة في ماردين إلى السقوط.

وتشكل علاقات الاراتقة بالصليبيين اخطر حلقة في تأريخهم السياسي والعسكري، بما تميزت به من فاعلية وتنوع خلال المراحل المختلفة. وقد اتضح بعد التمحيص الدقيق للروايات المختلفة في هذا المجال، عربيها وغربيها، قديمها وحديثها، ان هذه العلاقات اجتازت خمس مراحل كانت تنبثق وتتحدّد بناء على طبيعة الظروف الخارجية والداخلية للاراتقة. وقد اطلقتُ على المرحلة الاولى اسم (مرحلة المحالفات مع القوى الإسلامية) حيث كان قادة الاراتقة يعملون على الانضمام إلى الاحلاف والتكتلات الإسلامية التي كان السلاجقة يقومون بالاشراف على تنظيمها وتوجيهها لقتال الصليبيين. واطلقت على المرحلة الثانية اسم (مرحلة التحالف مع الصليبيين) حيث برّر بعض زعماء الاراتقة لانفسهم اللجوء إلى الغزاة في مواجهة ضغط السلاجقة وبعض الامراء المحليين. اما المرحلة الثالثة فهي (مرحلة

القيادة) حيث تولى الاراتقة قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين وحققوا عبر سلسلة من المعارك الفاصلة نتائج حاسمة كان لها ابعد الاثر على مجريات الصراع. واما المرحلة الرابعة فهي مرحلة (الانعزال) حيث انكمش الاراتقة خلالها على انفسهم بسبب ظهور عماد الدين زنكي وتوليه امر العمليات ضد الصليبيين.. بعدها يجتاز الاراتقة المرحلة الخامسة التي يمكن ان يطلق عليها اسم (مرحلة الامدادات) حيث سعى الاراتقة خلالها إلى إمداد نور الدين محمود والايوبيين من بعده، بقواتهم في حروبهم ضد الغزاة، ذلك ان الامارات المحلية في المنطقة، وبضمنها الارتقية كانت قد تحولت إلى ما يشبه النظام الاتحادي (الفدرالي) لمجابهة الصليبيين، وقد تحقق ذلك بفضل ظهور شخصيتين قويتين هما نور الدين محمود والناصر صلاح الدين حيث غدا بامكانهما - بموجبه - ان يطلبا المعونات البشرية والمادية من مختلف الامارات الاسلامية ليقوما بدور توجيهها وجهة قيادية موحدة ضد الخطر المشترك.

وكما أسهم الاراتقة بدور خطير في النواحي السياسية والعسكرية طيلة الفترة بين منتصف القرن الخامس ومطلع القرن التاسع الهجري، فإنهم قدموا - كذلك - معطيات حضارية في شتى المجالات مما لا يمكن الاستغناء عن دراستها وتحليلها إذا ما اريد اعطاء صورة متكاملة عن الدور التاريخي لبني ارتق. وهكذا كان لا بد من دراسة مستفيضة لنظم الاراتقة الادارية والاقتصادية، ولطبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية في عهدهم. وتبدو اهمية هذه الدراسة بتوضيحها للجانب السلمي من حياة الاراتقة وفعاليات الاقوام العديدة التي حكموها في المنطقة الجزرية.

وكان لا بدّ من دراسة الخطوط الاساسية لنظم ومعطيات الدول الكبرى التي عاصرها الاراتقة كالسلاجقة والايوبيين والتتر والمماليك، ومقارنتها مع الاشارات الواردة عن الاراتقة لاستخلاص بعض النتائج المهمة، كما كان من الضروري تتبع جذور النظم الارتقية في المنطقة والتي تمتد إلى الفترات التي سبقتهم، حيث اتضح انهم اعتمدوا إلى حدّ كبير على النظم التي كانت سائدة في المنطقة قبيل قيام اماراتهم فيها.

إن الحضارة الارتقية ما هي في حقيقة الامر إلّا وحدة صغيرة متجانسة ضمن وحدة حضارية اكبر تعود في جذورها إلى العهد السلجوقي وتمتد لتؤتي انضج ثمارها في العصر المملوكي.

حاولت ان اتجنب كل ما ليس له علاقة بموضوع البحث مما يخرج به عن نطاقه العام، كما تعهدت ان اتجنب حشر تراجم غير مجدية لسلسلة طويلة من امراء الاراتقة لاستعراض اخلاقهم وسيرهم مما لا يخدم الهدف العام للموضوع. كما اني اعتمدت - إلى حد ما - على اسلوب وحدة الحدث وتطوره لكي اعطي صورة واضحة - قدر الامكان عن حدوده وابعاده مما دفعني في كثير من الاحيان إلى تجاهل الاشارة إلى عدد كبير من امراء الاراتقة الذين استغرقهم ذلك الحدث الذي يعد اكثر عمومية وشمولاً من دور الافراد.

تضمن منهج العرض مقدمة موسّعة عن نطاق البحث، وتحليلاً لانماط المصادر والمراجع المعتمدة، ثم خمسة فصول هي على التوالي:

- قيام الاراتقة وعلاقاتهم بالسلاجقة.
- علاقة الاراتقة بالزنكيين والايوبيين.
- الاراتقة والصليبيون.
- علاقة الاراتقة بالتتر والمماليك وسقوط امارة ماردين.
- النظم والحضارة الارتقية.

انجزت الرسالة في كلية آداب جامعة عين شمس تحت اشراف الاستاذ الدكتور حسن حبشي، ونوقشت في السادس من آذار عام ١٩٦٨ من قبل اللجنة المكونة من الاستاذ المشرف رئيساً وعضوية كل من الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة والاستاذ الدكتور ابراهيم احمد العدوي، واجيزت بمرتبة الشرف الاولى.

والاطروحة قيد النشر من قبل مؤسسة الرسالة في بيروت.

د. عماد الدين خليل
المتحف الحضاري - الموصل - العراق

المُسَابقة



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الاعزاء:

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تفتح بابا خاصاً للقراء، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع: «تاريخ واسماء ومعالم القرى والاحياء في الوطن العربي». والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية، او ما يعادلها للفائز الاول، واشتراكا سنويا في المجلة للفائز الثاني، على ان تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية او الحي او المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه، او ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة او مظاهر حضارية، واذا امكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او للقرية او لاي مظهر عمراني او اثري فيها، كذلك على ان لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة، مطبوعة على الالة الكاتبة او منسوخة بخط واضح جميل، والاّ اضطررنا آسفين لاهمالها.

هذا، واذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا باصول الكتابة العلمية وان يشيروا الى مصدر الاقتباس، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة: اذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الاولى والثانية الفائزتان بالمكافأة.

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وان يرسله الينا بالبريد

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة، إذا نشرت او لم تنشر.

تشكر إدارة التحرير جميع المشتركين في «المسابقة» على مساهماتهم ويسرها أن تعلن فوز الانسة منى ابو حلا حمزة المدرسة في السويداء - سوريا بالجائزة الأولى ومقدارها مئة ليرة لبنانية وسترسل لها بالبريد وتنوّه بالرسائل الأخرى، وستنشر جميعها تباعاً في باب القرّاء يكتبون.

القراء يكتبون

شهبا

احدى النواحي في محافظة السويداء (سوريا) وعلى بعد ١٩ كم باتجاه الشمال اسمها القديم (فيبويوليس) باسم بانيها الامبراطور فيليب العربي او انها كانت مسقط راسه وقد حكم هذا الامبراطور بين ٢٤٤ – ٢٤٩م واهتم بالمدينة وزينها واراد ان يجعل منها مدينة منافسة لمدينة روما العظيمة.

اما اثارها فهي كثيرة وهامة وقد بني معظمها زمن حكم فيليب العربي. واشهرها...

المعبد: لم يبق منه الا اربعة اعمدة ذات تيجان كورنثية.

الكليبة[1]: امامها ساحة مبلطة عرض واجهتها ٣٠ مترا في داخلها اروقة مستديرة وحنايا وأقواس.

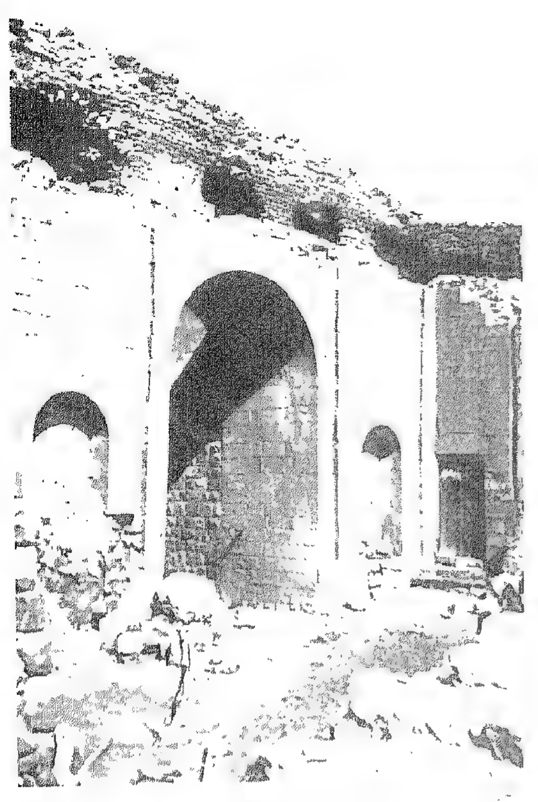
المسرح: في القسم الجنوبي من المدينة ما زال اقسام كبيرة منه محفوظة بصورة جيدة ويعتبر نموذجا واضحا للمسارح الرومانية.

الحمامات: وهي الحمامات القديمة في سوريا لها ثلاثة اقسام للماء البارد والفاتر والساخن وفيها اجران ومغاطس ومقاصير للاستحمام.

المقبرة: يطلق عليها اسم الفيلبيون لانها ربما بنيت كمقبرة لآل الامبراطور فيليب العربي ويظن بأنها تحوي رماد والد ووالدة الامبراطور فيليب وفي واجهة المقبرة كتابة يونانية تقول (الى الاله مارنيوس) وباب المقبرة مزين بنقوش جميلة.

الاسوار والابواب: لم يبق في شهبا الآن سوى بقايا السور ومداخله الاربعة بأبوابه الجميلة التي تدل على عظمتها.

الشوارع: شارعان مبلطان متقاطعان في الساحة العامة لانزال نشاهد فيها قاعة واحدة من قواعد مفترق الطرق (تيترابيل).



آثار الحمامات العامة في شهبا

الفسيفساء: وجدت لوحات جميلة من الموزاييك في شهبا وهي موجودة الان في متاحف السويداء ودمشق.

منى ابو حلا حمزه
معلمة في مدارس السويداء

المراجع

اثارنا: ابو الفرج العش طبعه اولى ص.١٩٦٥ صفحة ٦٥.

جبل العرب: غالب عامر داود النمر مطبوعات المديرية العامة للمتاحف والاثار.

مجلة العمران السورية ايلول ١٩٧٠ مقال محافظة متحف السويداء غالب عامر.

(١) الكليبة: اسم اطلقه المؤرخ دو فوغويه على بعض المعابد الدينية مستخدما الاحرف اللاتينية لعدم وجود ترجمة حرفية لهذه التسمية. ويقول المؤرخون بايين وشارك ديهل ودوم لكرك انه ربما كانت الكليبة اصل الكنائس المسيحية البيزنطية نفسها او اصل قببها على اقل تقدير.

مملكة أيبلا «منعطف التاريخ»

لقد دلت الحفريات التي اجريت في تل مرديخ في سورية ومن خلال اللويحات المكتشفة - انه كانت هنالك دولة متحضرة تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد وان هذه الدولة قد عاصرت الاكاديين والفراعنة وان رقعتها امتدت واتسعت حتى وصلت الى مدينة ماري على الفرات وشملت مناطق فسيحة بلغت المتوسط وقبرص والاناضول، كما وصلت الى البحر الاحمر متجاوزة بلاد سورية وفلسطين انها مملكة ابيلا، انها اكتشاف هذا القرن، القرن العشرين، وهي تضع الآن على كاهلها ركام اربعة واربعين قرنا من عمر الزمان، بعد ان رضيت اخيرا ان تكشف عن خباياها النفيسة وكنوزها الدقيقة

الموقع:

من ينتقل اليوم عبر الطرق التي تربط المدن السورية العريقة: دمشق وحماة وحلب والرقة.. يلاحظ خلالها بسهولة انتشار عدد كبير من التلال فوق السهول المنبسطة الخصيبة... وقد انجلى بعض هذه التلال عن مكتشفات اثرية ثمينة، على انه ما من تل بين هذه التلال الكثيرة استطاع ان يبلغ من الشهرة ما بلغه تل مرديخ خلال السنوات العشر الماضية، اذ انجلى عن كشف حضاري باهر بالعثور في جوفه على مدينة ابيلا المفقودة، هذه المدينة التي كانت عامرة مزدهرة قبل ٤٤٠٠ سنة.

اما تل مرديخ نفسه فانه يرتفع ١٧ م عن مستوى السهل وهو يبعد عن مدينة حلب ٥٧ كم نحو بلدة سراقب ٦ كم شمال سورية.

- في عام ١٩٥٥ م عثر فلاح من قرية تل مرديخ على حوض مجرى قديم لعله كان يملأ بماء التطهير المقدس ولكن هذا الامر لم يلفت النظر.

- في عام ١٩٦٤ بدأت بعثة ايطالية اعمال التنقيب في موقع تل مرديخ.

- في عام ١٩٦٨م تم اكتشاف جزء من سور تهدم يحيط بمدينة مجهولة قديمة وقد تخللته بوابة عريضة من جهة الغرب وكذلك عثر على بقية تمثال من البازلت نقشت عليه كتابة اكادية بالطريقة المسمارية وتفيد هذه الكتابة ان التمثال كان هبة مقدمة من ملك ابيلا الى معهد عشتار.

- وخلال عامي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ عثر في الموقع نفسه على لويحات فخارية قليلة بلغة مجهولة قريبة.

- اما عام ١٩٧٥ فقد كان حاسما حيث تم العثور في جوف تل مرديخ على غرفة كاملة للارشيف وفي داخل هذه الغرفة تراكمت ١٦٥٠٠ لويحة فخارية حافلة بالكتابات وبفضل عالم اللغات الايطالي (جيوفاني) ثبت ان هذه اللغة المجهولة انما هي لغة مملكة ابيلا وسميت باللغة الابيلوية - ثم توالت الحفريات وتم الكشف مؤخرا عن معالم مدينة ابيلا .

اهم الآثار المكتشفة

- الكنز الباهر المؤلف من ١٦٥٠٠ لويحة يعكف خبراء اللغات القديمة الميتة على قراءة نصوصها بصبر واهتمام. وهذه اللويحات تمثل السجلات الكاملة لمملكة ابيلا.

- سور دائري منيع يبلغ سمك شرفته حوالي ستة امتار ومحيطه ٣ كم ويتخلل السور

اربع بوابات ضخمة تحف بها استحكامات وحصون وتعلوها ابراج وفي كل من هذه البوابات مدخلان او ثلاثة مداخل متجاورة ذات عقود.

- الاكروبول القائم في الوسط فوق بقعة مرتفعة تشرف على المدينة.

- القصر الملكي المربع على الاكروبول وهو صرح من الحجر المنحوت والمصقول.

- المعبد الكبير، وكان قريبا من القصر الملكي، وهو مؤلف من مجموعة قاعات متوالية كانت تجري في رحابها الطقوس.

- الاحياء السكنية في الجوانب المنخفضة من المدينة وتليها الى الاعلى وباتجاه المركز المباني الادارية والمعابد المقامة حول الاكروبول متدرجة على سفح التل المنحدر.

- شوارع رئيسية ممتدة من ابواب المدينة تلتقي عند الاكروبول.

- سدادات من الاجر وهي بقايا اختام كانت تثبت على صناديق الخشب او الجرار بقصد ان تكون محكمة الاغلاق ومختومة وجاهزة للتصدير.

- صور وتماثيل والواح خشبية وفخارية وحجرية وبرونزية متعددة.

واخيرا لا بد من الاشارة الى ان العلماء كانوا قد روا عدد سكان ابيلا بحوالي ٢٥ - ٣٠ الف نسمة حين كانت مملكة ابيلا تضم حوالي ٢٦٠ الف نسمة وان اسم ابيلا - كما ذكر الدكتور عمر الدقاق في كتابه - فلسنا نعرف شيئا عن لفظه ولا عن مدلوله.

المصادر:

- عمر الدقاق: ابيلا منعطف التاريخ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٩، ص٥

- مجلة الفيصل السعودية، العدد ٣١، و٣٢

- المرسلة: سوزان علي عطا

العنوان: سورية - دمشق - مخيم اليرموك - جادة سعسع رقم البناء ١

آثار قنوات (كانات القديمة)

قنوات قرية صغيرة تبعد عن السويداء (٧كم)، صنفها القدماء من المدن العشرة المشهورة تؤلف آثارها متحفا طبيعيا يقصده السياح من كل مكان، وجدت فيها بعض الادوات الصوانية من عصر ما قبل التاريخ، وكانت فيما مضى احدى المراكز التجارية النبطية الهامة فيها برج جنائزي نبطي، ومقبرة نبطية في الجنوب الشرقي، على بابها اوراق الكرمة تعبيرا عن عبادة الاله باخوس اله الخمرة عند اليونان.[1]

أشهر آثارها:

الاثار اليونانية والرومانية

ما بقي من الآثار اليونانية مصبوغ بالصبغة الرومانية.

(أ) الكنيسة تحولت فيما بعد الى القصر الاسقفي لمطرانية قنوات، بنيت في الـ ق٤قم.

(ب) معبد آلهة المياه وله ثمانية محاريب يبقى ملآن بالماء طوال السنة.

(ج) اعمدة معبد اله الشمس (هيليوس) ذات التيجان الكورنثية، بنيت في ق.٢ ق.م.

(د) بقايا معبد زوس (سيد السموات) جنوب المدينة ق.٢ ق.م.

(ه) السرايا الاثرية وفيها المعبد الوثني، بنيت في ق.٢. ق.م.

(و) المسرح (أوديون) قسم منه محفور بالصخور مخصص لاقامة الحفلات الموسيقية.

(ز) قبر جنائزي مسقوف بني في ق.٢ ق.م.

(ح) برج قنوات.

الآثار البيزنطية:

(أ) مسكن احد الحكام العسكريين.

(ب) الكنيسة البيزنطية: بنيت على انقاض المعبد الوثني في ق.٤م.

(ج) خزان مياه قرب معبد زوس.

(د) المقبرة البيزنطية وهي بحالة جيدة.

(ه) مقبرة اكتشفت عام ١٩٦٦ يرجّح انها مقبرة اساقفة قنوات لوقوعها شرق محراب الكنيسة.

المصادر:

(١) مجلة العمران السورية ايلول ١٩٧٠ مقال بقلم د.علي ابو عساف ص. ٢٧ - ٢٩.

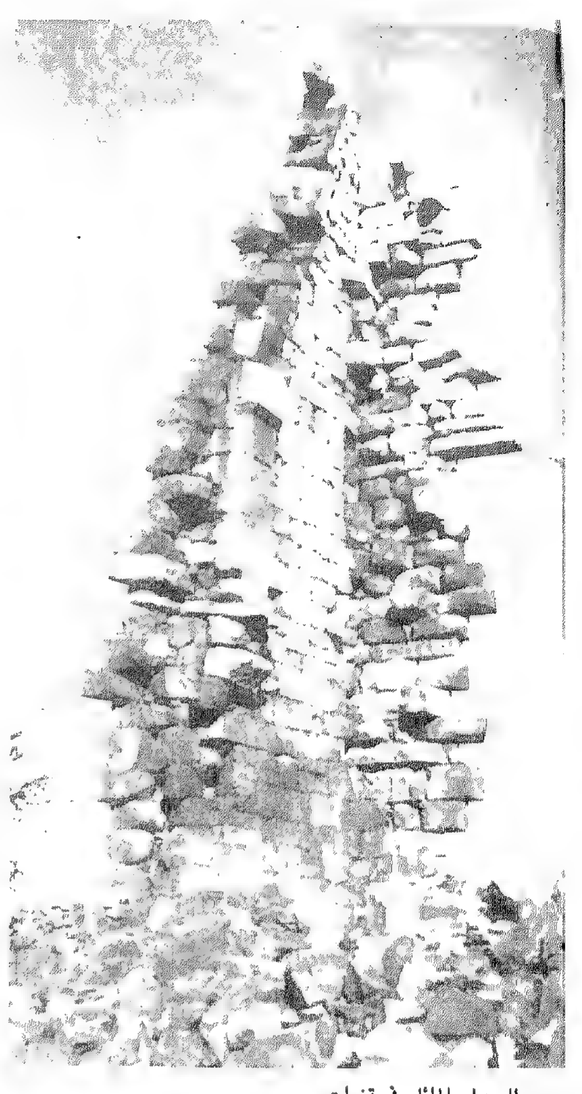
(٢) آثارنا: ابو الفرج العش ص.٦٤ طبعة ١٦٠.

(٣) جبل العرب: غالب عامر - داود النمر - طبعة وزارة الثقافة.

(٤) سلسلة بلادنا - ٢ - محافظة السويداء مقال شبلي العيسمي ص.٧ - ٩ طبعة وزارة الثقافة ١٩٦٢.

(٥) نشرة سياحية عن محافظة السويداء، آثارها ومناطقها السياحية ص.٨ - ١٠ عام ١٩٦٥.

العنوان الدائم
نبيل توفيق حمزة
سوريا السويداء ص.ب. «٣»
العنوان :
سوريا - دمشق - جامعة دمشق كلية الآداب قسم التاريخ. دبلوم دراسات عليا



الجدار المائل في قنوات.



تقع مدينة اربيل شمال العراق . واغلبية السكان من الاكراد اما اسم اربيل فقديم ورد بكثرة في الكتابات التأريخية من مختلف العصور ولعل اربيل المدينة الاشورية الوحيدة التي ظلت مستوطنة ومحتفظة باسمها القديم إلى يومنا هذا واقدم مرجع ذكرها كان في كتابات الملك السومري شوكلي (نحو ٢٠٠٠ ق . م) بصيغة اوربيلم وجاء ذكرها في الكتابات البابلية والأشورية بصيغة (اربا - ايلو)

التي تعني اربعة آلهة واشتهرت بكونها من مراكز عبادة الالهة الشهيرة عشتار اما النقوش الفارسية المكتوبة بالخط المسماري فسمتها باسم (اربيرا) وسمتها المصادر اليونانية القديمة اربيلا أما المصادر العربية فسمتها (اربيل) مسمى الاكراد بلغتهم مدينتهم (هه ولير) .

– أهم المعالم والمواقع التأريخية في اربيل قلعة اربيل :

لعل من ابرز المعالم ، التأريخية في اربيل القلعة التي احتفظت بشكلها وبكونها آهلة بالسكان الى هذا اليوم ، وليس غريباً . ان يسمي الاثريون اربيل من انها من اقدم المدن الحية في العالم وتبلغ مساحة القلعة (٦٠,٠٠٠)(٢) ثم يبلغ ارتفاعها ١٥٠ قدم والذي يحتمل ان القلعة كانت اكثر ارتفاعاً فيما مضى والقلعة ليست الا بقايا مدينة اشورية مهمة تعرف باسم (اربا – ايلو) مشيدة على تل اثرى اقدم عهداً .

منارة اربيل (المنارة المظفرية) .

وهي تقع الآن في الجهة الجنوبية من المدينة وقد عرفت بالمنارة (المظفرية نسبة إلى سلطان مظفر الدين كوكرل الذي حكم اربيل وتوفى عام (٦٣٠ هـ ١١٣٢ م) ودفن في المدينة المذكورة ترتفع القسم الباقي من المنارة ٣٧ م وكانت تعلو جامعاً في الاصل .

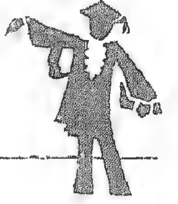
– المناطق السياحية :

وتعتبر مدينة اربيل منطقة سياحية من الدرجة الاولى في العراق ومن المناطق السياحية منطقة الجبلية وفيها الشلالات المائية – وايضاً من المناطق السياحية : التالية :

١ – مصيف صلاح الدين .
٢ – شقلاوة .
٣– شلال كل علي بك .
٤ – جومان .

(١) دليل معهد الفن – ارابيل .
(٢) جريدة كريه باسم (هاركاري) .
(٣) بعض المنشورات الكردية عن الدار الثقافة والنشر الكردية .

طارق غندر منتك
اربيل - العراق



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تدعو اصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الالف كلمة والالف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة الى مكان وزمان تقديمها واسم الاستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب امام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى ان تحقق بعضاً من الاهداف والتي اهمها:

اولاً – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.

ثانياً – التعرّف على توجهات الجامعات العربية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.

ثالثاً – توفير جانب من الببيليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت :	يوميًا	ماعدا السبت	الإقلاع الساعة ١٨،٣٠
الظهران :	يوميًا	ماعدا الثلاثاء	الإقلاع الساعة ١٨،٢٠
البحرين :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٧،55
الدوحة :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٧،55
دبي :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٨،١٠
ابوظبي :	يوميًا		الإقلاع الساعة ١٧،٤٠
مسقط :	أيام الاثنين - الاربعاء والجمعة		الإقلاع الساعة ١٨،١٠
رأس الخيمة :	يومي الثلاثاء والسبت		الإقلاع الساعة ١٨،١٠

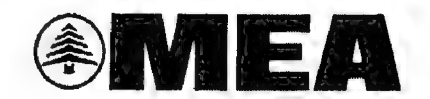
للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ — صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ — طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ — بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

مكاتب الحجز تفتح ليلاً نهارًا ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



*بالاشتراك مع طيران الخليج

بريد القراء

فوزي نعمان ابو شقرا - طرابلس / لبنان

تعليقاً على مقالتكم التاريخية الشيقة (معركة سادوفا ١٨٦٦) التي نشرت في العدد رقم ١٥ من السنة الثانية الصادر في كانون الثاني سنة ١٩٨٠، أود ان أبعث لكم بهذه الرواية التي سمعتها بخصوص تلك المعركة الشهيرة من والدي المتخرج من الكلية العسكرية التي أقامتها السلطة المنتدبة في حمص سنة ١٩٢٠ وكان ضابطاً مولعاً بتاريخ المعارك الحربية وسير كبار القادة العسكريين وترجم للعديد منهم. ومما ترجمه كتاب السير هيدل هارت عن (لورنس في بلاد العرب). كان يحفظ دقائق المعارك العسكرية الشهيرة والتفاصيل التكتيكية لكل منها وسمعته مرة يتحدث عن معركة سادوفا فقال:

روى الجنرال هندنبرغ، الذي اصبح فيما بعد مستشاراً لألمانيا قبل تسلم هتلر مقاليد الحكم، وكان القائد الشهير في الحرب العالمية الاولى وقهر مع الجنرال لودندورف بمئتي الف جندي ألماني جيشا روسيا قوامه سبعمائة الف جندي في معركة تاننبرغ العظيمة في بروسيا ، انه كان يحضر مأدبة لكبار القادة البروسيين قبل الحرب العالمية الاولى وكان هندنبرغ ادنى القادة رتبة وكان الجنرال فون مولتكه يترأس المأدبة. نهض فون مولتكه ليغسل يديه فأحضر له جندي الطست ووقف آخر يصب الماء على يديه. في هذه الاثناء كان احد القادة يتكلم فقال: «كنت بجانب امبراطور غليوم الاول حين التقى فريدريك غليوم بعد انتهاء المعركة وقهر الجيش النمساوي فسمعته يقول: عزيزي فريدريك، لقد وصلت في الوقت المناسب ولولا وصولك في تلك اللحظة لكنت الان قتيلاً او في الأسر المشين». وإذا بالقائد فون مولتكه يستدير ويسير بخطوات ارتجت لها ارض القاعة ثم يتقدم من المتكلم ويقول بصوت عال ونبرة صارمة: ما كان له ان يقول ذلك قط. فكل ما حدث في ذلك الوقت كان وفقاً للخطة المرسومة بكل دقة».

ان التفاصيل التي اوردتموها عن المعركة هي تماماً كما كان يرويها والدي عما طالعه عنها ولكن بتفاصيل اوسع

□ نشكر الاخ فوزي على معلوماته القيمة التي القت المزيد من الاضواء على معركة سادوفا الشهيرة.

نبيل توفيق حمزة - السويداء / سوريا

يسرني ان اتقدم اليكم بأسمى التحيات تقديراً واعجابا بجميلكم على جميع المهتمين بالتاريخ والعلم والثقافة في جميع انحاء الوطن العربي على الجهود الكبيرة التي تقدمونها للقراء في كل مكان من خلال نهجكم العلمي الصادق وذلك من خلال المواضيع الجادة التي تحسنون اخراجها لتجعلوا من مجلة «تاريخ العرب والعالم» المجلة الاولى من نوعها والسباقة دوماً الى ما فيه الخير والفائدة للجميع.

□ نشكر الأخ نبيل على عواطفه الطيبة ونؤكد له بأننا لا نزال في اول الطريق ولكننا سنستمر بالعطاء بتأييده ودعمه. بالنسبة للاعداد الناقصة فيمكنك الحصول عليها من دائرة الاشتراكات والثمن خمسة ليرات لبنانية للعدد الواحد.

مجلة

دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد احمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ١٠٠،٠٠٠ قارىء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من اهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — ببليوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

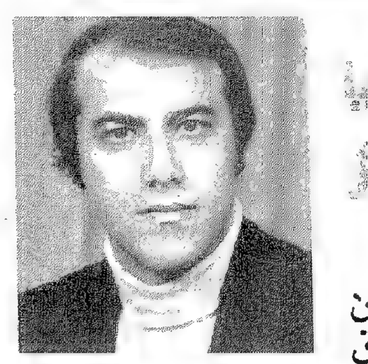
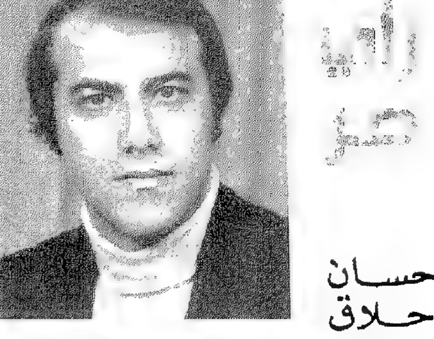
ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب والتربية — الشويخ — دولة الكويت
ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)
هاتف : ٨١٦٨٠٧—٨١٦٧٩٩—٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

رأي حر

حسان حلاق

الباحث والمؤرخ لتاريخ لبنان الحديث والمعاصر تواجهه العديد من التساؤلات حول الاتجاهات السياسية اللبنانية وحول ميولها وخلفياتها التاريخية والسياسية.

لقد اثبتت الاحداث التي مرت بلبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ان هناك عدة اتجاهات سياسية متناقضة تتحكم بمصائر اللبنانيين وإن كان اكثر المؤرخين – وانا منهم – يضعون مسؤولية كبرى فيما حدث على القوى الاستعمارية (بريطانيا وفرنسا مثلا) والتي لعبت دورا بارزا في تعميق الهوة بين اللبنانيين منذ عام ١٨٤٠، ١٨٤٢، ١٨٦٠ وما نجم عن ذلك من انشاء المتصرفيتين ومن ثم متصرفية جبل لبنان. اقول وان كنا نضع اللوم على القوى الاستعمارية غير انه لا يمكن مطلقا ان نجعل من مسؤولية تلك القوى ستارا دائما لكل التناقضات السياسية والطائفية التي اثرت على مستقبل اللبنانيين ومصائرهم. فتلك المخططات الاستعمارية لم تكن لتنجح لو لم يكن اللبنانيون قد قبلوا وانجروا وراء انشاء المتصرفيتين ومن ثم متصرفية جبل لبنان على سبيل المثال لا الحصر.

ومن جهة اخرى فإنه بالرغم من ان بعض الفترات شهدت تعاونا لبنانيا مؤلفا من مختلف الطوائف – وليس من مختلف الاتجاهات السياسية – لا سيما في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وذلك لمحاربة السيطرة العثمانية دون محاربة النفوذ والاطماع الاوروبية، غير ان هذا التعاون نفسه كان مشوبا بالشك والريبة والحذر واكبر مثال على ذلك ما كان يحدث في اطار جمعية بيروت الاصلاحية وبين اعضائها. ومن الاهمية بمكان القول ان القوى البريطانية والفرنسية اتخذت من اللبنانيين ادوات عملية لتكريس نفوذها في المنطقة فمثلا ظهر عام ١٩١٧ اتجاهان سياسيان لبنانيان متناقضان هما:

(١) دعوة لبنانية – بريطانية – حجازية ومركزها القاهرة وتدعمها السياسة البريطانية.

(٢) دعوة لبنانية – فرنسية ومركزها باريس وتدعمها السياسة الفرنسية.

وكانت كل دعوة تعمل اما للمصلحة البريطانية او للمصلحة الفرنسية في لبنان والمنطقة العربية الامر الذي يطرح تساؤلا بالحاح وهو: هل الذين قاوموا النفوذ الفرنسي او حتى العثماني قاوموه من منطلقات وطنية وقومية ام من منطلق بريطاني؟ وهل الذين قاوموا النفوذ البريطاني كان بهدف المصلحة الوطنية ام المصلحة الفرنسية؟

لا شك بأن البعض عملوا لمصلحة لبنان والمنطقة بهدف التحرير والاستقلال، ولكن هناك كثر ايضا ممن عملوا للنفوذ الفرنسي او البريطاني، فعلى سبيل المثال فإن الوثائق البريطانية كشفت لنا عن وثيقة في غاية الاهمية ارسلها عضو مجلس الادارة سليمان كنعان – الذي لا يزال البعض يعتبره وطنيا ومناضلا من اجل لبنان – في ١٧ شباط (فبراير) ١٩٢٢ الى اللورد كيرزون (Curzon) سكرتير الدولة للشؤون الخارجية البريطانية طلب منه بصراحة ضرورة سيطرة بريطانيا على لبنان مبررا ذلك بأن يصبح لبنان «وطنا لكل المسيحيين بسوريا والشرق ويكونوا هؤلاء قوة لانكلترا، ومن صالحهم ان يكونوا تحت ظلها ويستميتوا تحت لوائها...».

وبعد هل يمكن القول بأن مثل هذه الاتجاهات السياسية والطائفية هي لمصلحة لبنان ولمصلحة استقلاله ام كانت لمصلحة النفوذ الاوروبي البريطاني والفرنسي على السواء؟

في العدد المقبل



المافيا:
كيف قضى
موسوليني على
فرعها الإيطالي



اكبر الطوريات [?]
الصين

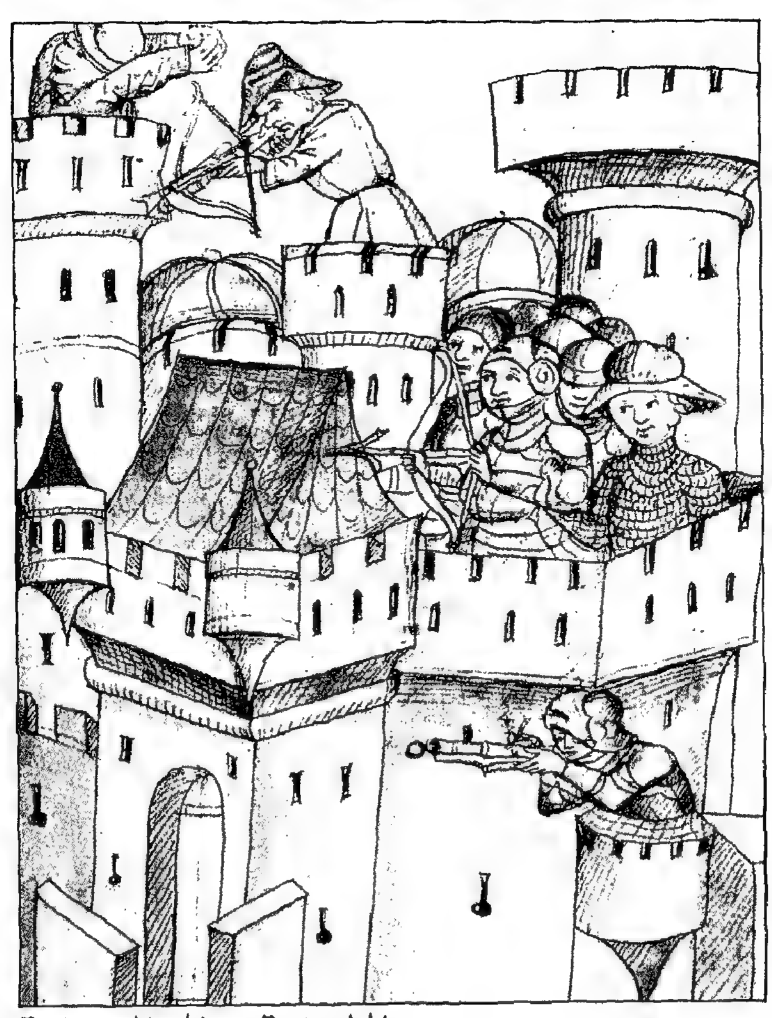




السنة الثانية ـ العدد الرابع والعشرون ـ تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٨٠ ـ الموافق ذو القعدة ١٤٠٠هـ .

- "الكسب" مصنف الامام الشيباني
- ابن سينا قائداً للفكر التربوي
- العناية بالطفل والمرضعات في الطب العربي
- علم الآثار والمدنية المصرية
- المافيا
- تاريخ القهوة

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



من الطبنجة... الى البندقية



جمال الدين الأفغاني

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية ـ العدد الرابع والعشرون ـ تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٨٠ ـ الموافق ذو القعدة ١٤١١هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو بحوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل ـ شقة ١١ ● شارع الساداات ـ تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 2, No. 24. Oct. 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"

تاريخ العرب والعالم

في هذا العدد



موقعة «سمالا» - ١٦ ايار ١٨٤٣
لوحة لـ «الفريد ديكايين»
شانتيللي - متحف كوندي
(راجع المقال ص ٣١)

● المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

الكسب

تصنيف الامام محمد بن الحسن الشيباني

د. سهيل زكار



تميز المجتمع الاول الذي قام الاسلام في وسطه بسيطرة الروح التجارية عليه، والنبي (صلعم) نفسه شارك قبل البعثة بالاعمال التجارية، ويلاحظ من قراءة السور المكية في القرآن مع مختلف مصادر تاريخ مكة قبل الاسلام واثناء الدعوة إليه قبل الهجرة، مدى انغماس المكيين في اعمال التجارة، وكيف أن السعي وراء الكسب كان هدف جل رجالاتهم، وذلك بلا ضوابط او روادع، ولهذا يمكن القول بأن الفترة المكية من تاريخ الاسلام كانت فترة صراع ضد التجار اكثر منها صراعاً دينياً، ذلك ان مكة لم يكن فيها رجال دين، ولا حكومة منظمة بل أديرت من قبل التجار وأصحاب الأموال.

هذا وقد أسهم المكيون في عدد من الاعمال ذات الصلة المباشرة بالتجارة، مثل بعض الاعمال الزراعية خارج مكة، وبعض الاعمال الصناعية مثل دباغة الجلود، كما عقدوا المعاهدات التجارية واتفاقات للمرور.

وبعد الهجرة إلى المدينة تغيرت طبيعة الاجواء التي عاشها المسلمون، فالمدينة تميزت بطبيعتها الزراعية مع وجود بعض الحرف فيها التي مارسها اليهود من حدادة وصياغة وما ناظرها.

وعلى هذا الاساس عاش الاسلام في تاريخه المبكر تجربة اقتصادية شبه كاملة، فيها تجارة وصناعة وزراعة وتربية مواشي وحيوانات، وقام هذا الدين الحنيف بالتشريع لهذه الجوانب الاقتصادية، ودون الوقوف طويلاً عند مدى التجديد في التشريع الجديد ومدى الفوارق بينه وبين الأعراف التي كانت سائدة من قبل، يكفينا القول انه وجد في الاسلام



أسس تشريع كامل منظم للحياة الاقتصادية، كما ان قانون الحرب في الاسلام قد تولى مسألة توزيع الغنائم وموارد الحرب، كما ان النظام الضرائبي قد عالج مسائل الجباية مع اوجه الصرف.

وهكذا عندما تأسست نواة الامة الاسلامية الاولى في التاريخ، وقام لها دولة الاسلام المركزية الاولى في المدينة كان هناك نظام اقتصادي شامل منظم لجميع اوجه الحياة، وبعد وفاة النبي (صلعم)، وفي عهد الخلفاء الراشدين، ألم بهذا النظام بعض التطور، خاصة إثر نجاح اعمال الفتوحات الكبرى، فقد أزالت هذه الفتوحات الامبراطورية الساسانية من الوجود، وحررت الشام ومصر ثم الشمال الافريقي من الحكم البيزنطي، ونتيجة لهذا تبدلت صورة العالم القديم سياسياً وعسكرياً، وتغيرت معالمه الاقتصادية، حيث تغيرت طرق التجارة، وتبدلت مقاصد التجار وغاياتهم مع انواع البضائع المتاجر بها، فلم تعد كل الطرق تقود إلى روما بل إلى حواضر الاسلام.

لقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الحدث من اخطر ما وقع في التاريخ الانساني، وعده هنري بيرين البداية الحقة لقيام العصور الوسطى في أوروبا، ذلك ان اوروبا الغربية طوقت الآن بحزام امتد عبر البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب، وكانت طبيعة هذا الحزام جديدة من كافة الجوانب: الاقتصادية، والثقافية، والقانونية، والبشرية، واللغوية والحضارية العامة.

ومن المعلوم ان النظام البيزنطي كان قد



اعتمد في العمل التجاري والاقتصادي على قواعد اختلفت عما كان موجوداً لدى الامبراطورية الساسانية، ثم إن البيزنطيين تعاملوا بالوحدة النقدية الذهبية، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وبداية الاستقرار خاصة مع عصر عبد الملك بن مروان ظهرت الحاجة إلى وحدة نقدية رسمية اسلامية، وهكذا قام عبد الملك بن مروان بتعريب الدنانير مع الدواوين.

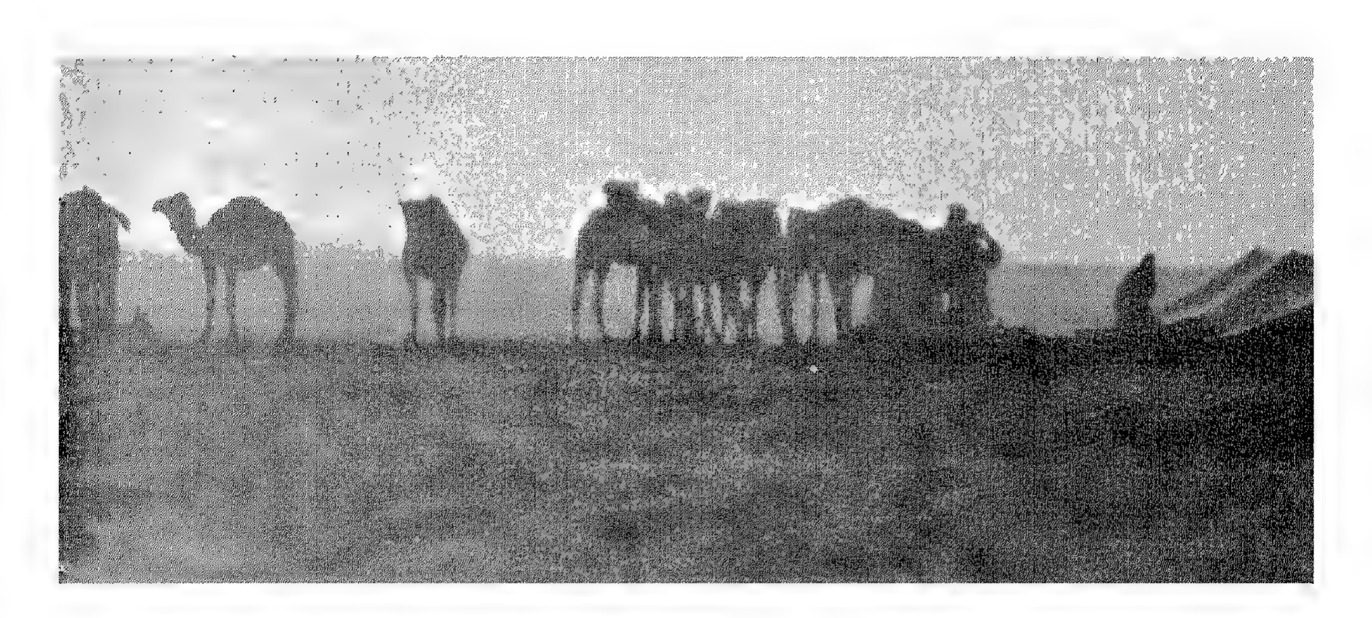
فعبد الملك بن مروان الذي يعد عن جدارة المؤسس الثاني للخلافة الاموية، ادرك ان دولته التي أعاد توحيدها سياسياً ينبغي ان ترتبط بوحدة نقدية، ونظام اداري واحد، لهذا شرع في تعريب الدواوين، وبهذا العمل يمكن القول بأن الدول العربية المستقلة، او بالحرى المتميزة، جاءت فعلاً إلى الوجود، وان عمليات الفتح العسكري قد بدأت تتحول إلى تغيير للأرض والانسان، وهكذا حلت العربية الشمالية محل الاغريقية واللاتينية والفارسية، وبذلك طويت صفحة طويلة من صفحات التاريخ القديم، وبدأت صفحة جديدة، هي صفحة العروبة وحضارة الاسلام.

وتعريب الدواوين كان من معانيه ايضاً إيجاد طبقة ادارية عربية مثقفة، وآذن ذلك ببداية عصر التدوين للآثار العربية والثقافية الاسلامية، كما آذن بتعريب البلدان الاسلامية، وساعد على ترويج دعوات المساواة وإقامة الامة الاسلامية الجديدة.

وتوحيد المعاملات النقدية، وايجاد صيغة تعادلية ثابتة بين الذهب والفضة وهو ما عرف عادة باسم «تعريب الدنانير» لا يقل اهمية عن مسألة تعريب الدواوين، فالبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين انتهى فيها الآن العمل بالانظمة النقدية المختلفة، ولقد كان لهذه الانظمة قبل إلغائها أسوأ الآثار على المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية عامة، كما كانت حائلاً دون زوال الحواجز الاقتصادية وبالتالي معيقاً دون قيام وحدة اقتصادية للبلاد الاسلامية، كما كان للاختلاف بالتعامل النقدي آثار سيئة على عمليات الجباية والصرف داخل الدولة، ثم إن توضح معالم الاستقرار في الدولة الاسلامية، والشروع في التميز الحضاري كشرط لنجاح التميز الديني فرض عدم متابعة ضرب النقود حسب طرائق الحكومات البائدة، فالإسلام يجب ما قبله، ثم إن تحديد التعامل النقدي، وضرب الدينار من قبل الدولة انهى فترة من الفوضى والاستغلال قامت بسبب الأعمال العسكرية ونتيجة لها.

من هنا يمكن ان نرى تغير الصورة الاقتصادية والحضارية للعالم القديم، وتطويق اوروبا الغربية حيث غرقت في ظلام العصور الوسطى، بينما عاش سواها في ظل الحضارة العربية الاسلامية الوارف.

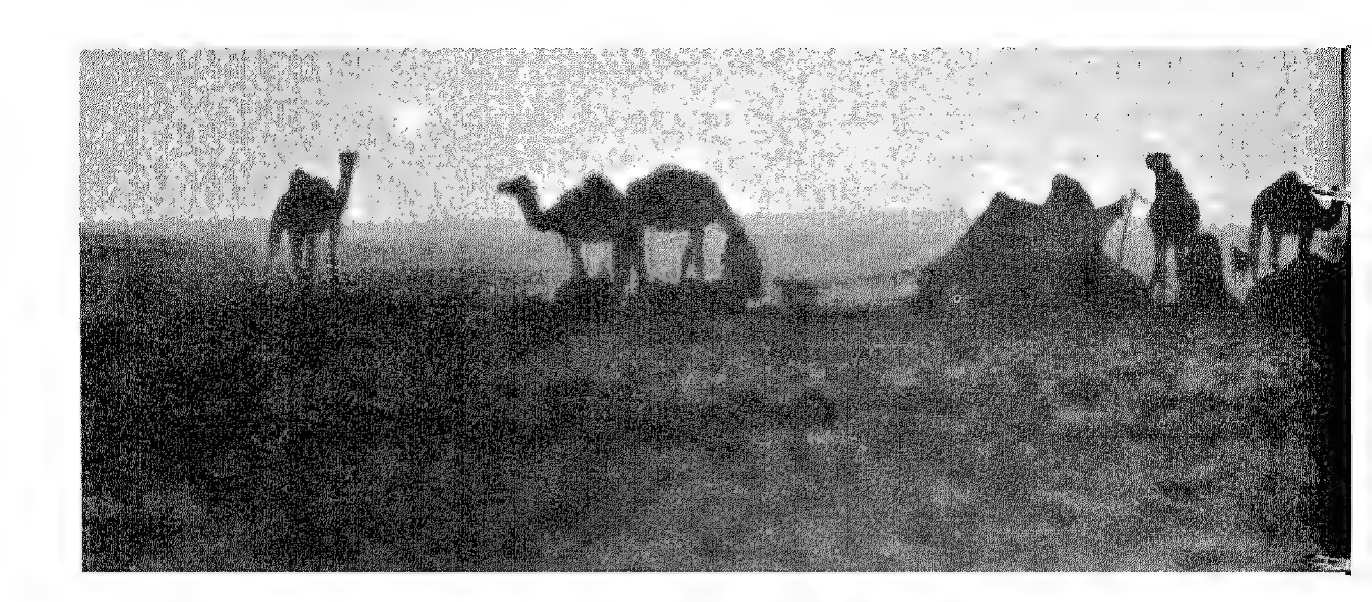
ولقد فرض تطور الدولة الاسلامية،



واتساع رقعتها تطوير النظام الاقتصادي فيها، ولا شك ان الخلفاء مع الفقهاء ورجال الشريعة والإدارة قد تعاونوا في هذه المجالات، وفي نفس الوقت حدثت تجاوزات اقتصادية كبيرة لروح الشريعة الاسلامية، وقف الفقهاء منها موقف الناقد والمقوم، وهكذا تجمع مع الايام لدى المسلمين تراث تشريعي اقتصادي كبير، ومع قيام حركة جمع التراث الاسلامي والعربي وتدوينه نالت المواد المتعلقة بالجوانب الاقتصادية حظها، وصنفت في ابواب خاصة في داخل المدونات من كتب الحديث وسواها، ومع قيام مدارس التشريع الاسلامية في القرن الثاني للهجرة وما رافق ذلك من انقلابات اقتصادية، اهتم بعض المحدثين والفقهاء من هذه المدارس بالجوانب المتعلقة بالحياة الاقتصادية ككل او كجزء وهكذا جاء إلى الوجود كتب الخراج والاموال، مثل خراج يحيى بن آدم القرشي، وخراج ابي يوسف، والاموال لابي عبيد القاسم ابن سلام، والصيغة العامة التي اتسمت هذه الكتب بها هي سمة مصنفات الحديث، ورواية الآثار، وارتبطت بالمواضيع الجبائية للدولة، ولهذا نجد الحاجة كانت قائمة للتصنيف في ميادين الاقتصاد العامة ذات المساس بحياة الناس بشكل عام، وأمام هذه الحاجة سأل بعض الناس محمد بن الحسن الشيباني في اواخر حياته تصنيف رسالة في ميدان الاقتصاد العام، فلبى الرغبه وأملى رسالة في «الكسب» عرفت فيما بعد باسم «كتاب الكسب» وجاءت هذه الرسالة كأول محاولة في هذا الميدان باللغة العربية.

ومحمد بن الحسن الشيباني هو ابو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، ولاءاً، كان اصل والده من منطقة الجزيرة حيث كانت ديار شيبان، لكنه لم يعش في الجزيرة، بل في بلدة حرستا في احوار مدينة دمشق، ذلك انه كان من الجند الشامي، وفي اواخر العصر الاموي انتقل إلى مدينة واسط عاصمة العراق الاموي الاخيرة، وفي واسط ولد له ولده محمد سنة اثنتين وثلاثين ومائة [٧٥٠م].

ويبدو ان والد محمدبن الحسن كان ثرياً، وقد ترك سكنى مدينة واسط، واستقر في مدينة الكوفة، ويبدو أن ذلك كان إثر سقوط الخلافة الاموية وقيام الخلافة العباسية، وفي كوفة النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة، كوفة ابي حنيفة النعمان بن ثابت، وكبار العلماء والفقهاء ورجال الادب واللغة والحديث نشأ محمد بن الحسن الشيباني، فلقي كبار رجال الفكر فأخذ عنهم، ويروى انه عندما بلغت سنّه اربع عشرة سنة حضر مجلس ابي حنيفة، ليسأله عن مسألة نزلت به، فسأله قائلاً: ما تقول في غلام احتلم بالليل بعدما صلى العشاء، هل يعيد العشاء؟ قال: نعم، فقال واخذ نعله، واعاد العشاء في زاوية المسجد وكان هذا اول شيء تعلمه من ابي حنيفة، ويروى بأن الامام عندما رآه يعيد الصلاة اعجبه ذلك، وقال: «إن هذا الصبي يفلح إن شاء الله تعالى»



وكان الامر كما قال....

حيث «ألقى الله تعالى في قلبه حسب التفقه في دين الاسلام» ودخل في روعه جلال مجلس الفقه، فعاد إلى حلقة ابي حنيفة يريد التفقه والتعلم، فقال له ابو حنيفة: «استظهر القرآن اولاً» لأن المتفقه في الشريعة الاسلامية في حاجة ماسة للقرآن والاحتجاج بآياته لان القرآن المنزلة الاولى في العقيدة الاسلامية.

وغاب محمد بن الحسن عدة ايام عاد بعدها إلى مجلس الامام ابي حنيفة وقد استظهر القرآن، وابتدأ حظه بتوجيه سؤال جديد إلى الامام، فقال له الامام: أخذت هذه المسألة من غيرك أم انشأتها من نفسك؟ فقال محمد بن الحسن: بل من عندي فقال له ابو حنيفة: سألت سؤال الرجال، أدِم الاختلاف إلينا وإلى الحلقة.

ومن ذلك الحين بدأ محمد بن الحسن حياته العلمية، وأقبل بكليته على فقه ابي حنيفة، ووقف جل وقته على ملازمة حلقته يكتب المسائل وأجوبتها، واستمر في حاله هذا أربع سنوات حتى توفي الامام ابي حنيفة، وبعد ذلك تابع نيله لفقه ابي حنيفة على تلميذه وخليفته من بعده القاضي ابي يوسف.

وكان اثناء هذا كله يختلف إلى حلقات المحدثين وسواهم في الكوفة، ويأخذ عنهم.

وعندما شعر بأنه استنفذ تحصيل معارف أهل الكوفة، قرر الرحلة في طلب العلم، وكانت شهرة إمام اهل المدينة مالك بن انس قد طارت ومعها شهرة كتابه الموطأ، لذلك اتجه نحو شبه الجزيرة، وفي المدينة تعرف إلى الامام مالك واخذ عنه، وسمع منه الموطأ ودونه من سماعه، وتعتبر رواية محمد بن الحسن للموطأ من افضل الروايات له قدماً وصحة وضبطاً، وحين دون محمد بن الحسن الموطأ دونه بتروٍّ في مدة ثلاث سنوات، وذكر بعد كل حديث او فقرة فقهية ما إذا كان ذلك يتفق مع فقه ابي حنيفة ام يختلف [وقد اتيح لي تفحص هذا العمل الجليل في نسخة خطية شبه كاملة من هذا الموطأ هي في حوزتي حيث يمكن وصف عمل محمد بن الحسن فيها بأنه محاولة رائدة في باب الخلاف الفقهي العالي].

ومفيد ان نشير هنا انه اثناء اخذ محمدبن الحسن على الإمام مالك جاء محمد بن ادريس الشافعي للأخذ على الامام مالك، وبذلك حدث التعارف الاول بين الشيباني والشافعي.

وحج الشيباني إلى مكة، وهناك لزم كبار العلماء، وأخذ عنهم مثل سفيان بن عينية وسواه، كما انه رحل إلى الشام فأخذ عن الامام الأوزاعي، وزار البصرة وخراسان آخذاً عن كبار العلماء.

وبعدما استكمل رحلاته عاد إلى عراق الخلافة العباسية فاستقر في بغداد، وطارت شهرته، واختلف التلاميذ إليه ينهلون من علمه، وقام الخليفة الرشيد بتوليته القضاء، واثناء ولايته لهذا المنصب لقيه الامام الشافعي ثانية، حيث حدث ان الشافعي حمل من نجران إلى

الرشيد مكبلاً بالحديد متهماً بالتآمر السياسي، وجرت محاكمة بحضرة الخليفة وحضور القاضي محمد بن الحسن الشيباني مما سهل امر إطلاق سراحه، وانقاذه من ظلام الوظيفة، واعادته إلى نور العلم، حيث ان الشافعي قام بالتزام الشيباني لمدة عامين تقريباً اخذ عنه فيهما فقه اهل العراق.

يبدو ان الامام محمد بن الحسن لم يمكث في القضاء طويلاً حيث تخلى عنه واعتزل العمل الاداري، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً، وبعلمه هذا بنى عملياً مذهب ابي حنيفة، ذلك أن التراث الفكري المدون بفقه اهل العراق جله من انتاج الامام الشيباني الذي يمكن اعتباره لهذا الباني الفعلي للمذهب الحنفي.

لقد جاء طلاب العلم إلى الامام الشيباني من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه وكان أبرز من اخذ عليه من اهل الغرب الاسلامي اسد بن الفرات، فاتح صقلية، وصاحب المدونة الاولى في تاريخ الفقه المالكي حيث ان مدونته هي اصل مدونة الامام سحنون الشهيرة.

لقد تحدث اسد بن الفرات عن اتصاله بالامام مالك ثم سفره إلى العراق حيث لزم محمد بن الحسن الشيباني، وذكر انه قال له في احدى المناسبات: إني غريب قليل النفقة، والسماع منك نزر والطلب عندك كثير فما حيلتي؟ فقال لي: «اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتأتي فتبيت عندي واسمعك» قال اسد: فكنت ابيت عنده، وكنت [معه] في بيت في سقيفه، وكان يسكن العلو، فكان ينزل إلي، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال عليه الليل ورآني قد نعست، ملأ يديه ونضح به في وجهي، فأنتبه، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى اتيت على ما اريد من السماع عليه.

في هذا الحديث صورة رائعة تعبر عن مدى حرص الامام محمد ابن الحسن الشيباني على مساعدة طلاب العلم خاصة الغرباء منهم، وتكتمل بعض جوانب هذه الصورة وتزداد روعة فيما ذكره ايضاً اسد بن الفرات بقوله: وكنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن، حتى صاح صائح: الماء للسبيل، فقمت مبادراً فشربت من الماء، ثم رجعت إلى الحلقة، فقال لي محمد بن الحسن: يا مغربي شربت ماء السبيل؟ فقلت: اصلحك الله، وانا ابن سبيل! قال: ثم انصرفت، فلما كان الليل إذا بإنسان يدق الباب فخرجت إليه، فإذا خادم محمد بن الحسن فقال: مولاي يقرأ عليك السلام، ويقول لك: ما علمت انك ابن سبيل إلا في يومي، فخذ هذه النفقه فاستعن بها على حاجتك، ثم دفع إلي صرة ثقيلة، فقلت في نفسي هذه كلها دراهم، ففرحت بها، فلما دخلت منزلي فتحتها فإذا فيها ثمانون ديناراً(١).

لا يعلم بين سير الائمة إلا ندرة صبروا صبر محمد بن الحسن في تعليم تلاميذه: وآثرهم في الانفاق والوقت، ولا عجب فالشيباني كان إماماً عاملاً آمن بالإسلام عن فهم وعقل، واتخذ سيرة النبي المصطفى مثله الأعلى.

لقد زق محمد بن الحسن اسد بن الفرات بالعلم زقاً، وكان الإمام مالك قد توفي وفي طريق عودته إلى القيروان حمل ابن الفرات معه زاداً عظيماً دونه في كتاب عرف باسم المدونة الاسدية، وهي كما اشرت اصل مدونة سحنون، وعليها قام فقه المالكية، وهكذا نرى الاثر العظيم لمحمد بن الحسن اسلامياً شاملاً، فهو الباني الفعلي للمذهب الحنفي، وهو من جهة ثانية استاذ الامام الشافعي، ومن طرف ثالث استاذ اسد بن الفرات، ولا عجب ان قال عنه الامام الشافعي: «لو اشاء ان اقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت، لفصاحته، وقد حملت عنه وقر بختي كتباً» كما قال: «ما رأيت احداً يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن»(٢).

وكما سلفت الاشارة عمل الامام محمد ابن الحسن في القضاء فترة وجيزة، وكان له علاقات بالخليفة الرشيد، إنما يلاحظ ان هذه العلاقات ظلت متوازنة حافظ فيها على رونق العلم، وجلالة العلماء وقد ذكر احد معاصريه قال: «كنا مع محمد بن الحسن إذ اقبل الرشيد فقام إليه الناس كلهم إلا محمد بن الحسن، فإنه لم يقم، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب، ممتلىء البطن على محمد بن الحسن، فقام

ودخل الناس من اصحاب الخليفة، فأمهل الرشيد يسيراً، ثم خرج الآذن، فقال: محمد بن الحسن، فجزع اصحابه له، فأدخل فأمهل، ثم خرج طيب النفس مسروراً، فقال: قال لي: مالك لم تقم مع الناس؟ قلت: كرهت ان اخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، إنك اهلتني للعلم، فكرهت ان اخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه، وإن ابن عمك (صلعم) قال: «من احب ان يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوّأ مقعده من النار» وانه إنما اراد بذلك العلماء، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك، فهو هيبة للعدو، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم اخذت، فهو زين لكم، قال: صدقت يا محمد».

كان محمد بن الحسن قوي الذاكرة، شديد الوعي، سريع البديهة، اتقن صناعة القياس واستخدم الرأي بشكل بارع للغاية، وإنما في حدود الشريعة وفي نطاق معطياتها، قيل بأنه لما اتصل بالامام مالك سأله «ما تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد، قال فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة، وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد، فلما اكثر عليه: قال له مالك: ما تقول انت في هذا؟ قال: يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد، ويخرج فيغتسل. قال: من اين انت؟ قال: من اهل هذه - واشار إلى الارض - فقال: ما من اهل المدينة احد لا اعرفه، فقال: ما اكثر من لا تعرف، ثم نهض، قالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة، فقال مالك: محمد بن الحسن كيف يكذب، وقد ذكر انه من اهل المدينة؟ فقالوا: إنما قال: من اهل هذه، واشار إلى الارض، قال: هذا اشد علي من ذاك»[٣].

توفي محمد بن الحسن سنة تسع وثمانين ومائة [٨٠٤م] في مدينة الري - قرب طهران الحالية - وقد كان خصب الانتاج، وهو بسبب ذلك اعتبر فقيه مدرسة العراق الاعظم مكانة، ومدون تراث هذه المدرسة، وقد كتب محمد بن الحسن عدداً كبيراً من الكتب وقفها على مواضيع فقهية عامة متعددة، كما كتب بعض الرسائل وقف كلًا منها لموضوع فقهي خاص.

وكان آخر ما كتبه قبيل وفاته كتاب الكسب.

روى هذا الكتاب عن محمد بن الحسن تلميذه محمد بن سماعة التميمي، كما شرحه فيما بعد الامام السرخسي كما شرح غيره من كتب الشيباني، لكن جاء شرحه منفصلاً ولم يدخله في مجموعة المبسوط العملاقة.

لقد جاء هذا الكتاب بالاصل صغير الحجم، املاه صاحبه على طريقة الآثار، وكان من دواقعه إلى تصنيفه، وذلك بالاضافة إلى تلبية الحاجة، الرد على حركة الزهد الاعجمي التي نشطت في القرن الثاني للهجرة مع نشاط الديانة المانية [حركة الزندقة] والحركة الشعوبية، كما حوى بعض الردود على جماعة القدرية وسواهم، وفي مسار الردود هذه استعرض الشيباني مشكلة الكسب وموقف الشريعة منها، مبيناً اوجه الحلال والحرام مع طرائق وقوانين الكسب، مستشهداً خلال ذلك كله بالعديد من الايات والاحاديث والاثار المروية.

ولعل من الافضل قبل الاستطراد في الحديث عن محتويات هذا الكتاب بشكل مفصل ان نبين، ان كتاب الشيباني هذا عظيم القيمة، لانه يحوي خلاصة فكر باني المذهب الحنفي، ومواقفه خاصة تجاه مشكلة الحرية في التصرف الاقتصادي وحق السلطة في التدخل والتسعير، ثم كما قلت سابقاً هذا الكتاب المبكر التاريخ هو المحاولة الاولى في العربية في بابه.

ولهذا اهتم الباحثون في هذا العصر الحديث به، ولسوء الحظ لم يتمكن احد منهم من الوقوف على نسخة خطية كاملة صحيحة منه، حيث كان ما عثر عليه في مصر، هو نسخة خطية واحدة، اصابها تغيير وتحريف وبتر شديد، وجدت في دار الكتب المصرية في القاهرة، وجاءت في نحو خمس واربعين ورقة، وقد وضع لها عنوان هو «كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب» ويبدو ان هذه النسخة لم تعد موجودة في دار الكتب، إنما لحسن الحظ كانت قد نشرت في القاهرة عام ١٩٣٨، وقد اخرج الكتاب بشكل لا يليق ابداً مع محتوياته، وقيل عنه آنذاك هو مختصر كتاب الكسب.

وفي عام ١٩٦٧ عثرت اثناء عملي في مكتبة

احمد الثالث باستنبول على مخطوطة كاملة لكتاب الكسب بشرح السرخسي، جاءت في ثلاث وخمسين ورقة، وقد نسخت بخط فارسي جميل، إنما لا يخلو من الاخطاء والتصحيفات، وهذه النسخة يبدو انها قريبة العهد، رغم ان ناسخها لم يذكر تاريخ نسخها ولا مكانه.

ومنذ ذلك الحين اهتممت بهذا الكتاب، ونويت العمل على نشره، وبالفعل أعددته للتحقيق، وحدث أن تأخر عملي حتى هذا التاريخ لأسباب كثيرة كان على رأسها مسألة الاحاديث النبوية التي حواها الكتاب، ذلك ان ندرة من هذه الاحاديث جاء في واحد من كتب السنة المعروفة، وعلة هذا لا لضعف او شذوذ في رواية محمد بن الحسن وإنما لكون ابن الحسن كان يملي من حفظه، وقد اتى من هذه الجهة(٤).

لقد بحثت منذ ذلك الوقت عن مصادر إضافية لتخريج احاديث محمد بن الحسن وعددها /٢٠٥/ حديث وقد اتيح لي الوقوف على عدد وافر من كتب الاحاديث والمجامع، وهكذا تمكنت من تخريج هذه الآثار، وتحقق املي في اخراج هذا الاثر النفيس للقراء والباحثين.

وبعد هذا كله أعود ثانية لمحتويات الكتاب للحديث عنها ووصفها: لقد صنف هذا الكتاب في مرحلة مبكرة للغاية في تاريخ الادب العربي، لهذا تميز بعدة مزايا، فهو قد جاء عرض موضوعاته كتلة واحدة، ثم إن المصنف لم يقم بتقسيم الكتاب إلى عدة اقسام يتناول في كل منها واحداً من المواضيع، بل نراه يقوم بتناول الموضوع الواحد في اكثر من مكان، وعدة مرات بشكل موجز او واسع.

في مطلع الكتاب تعرض المصنف إلى تعريف «الكسب» فقال الاكتساب «تحصيل المال بما يحل من الاسباب» وهنا تحدث بشكل عام عن جوانب الاكتساب وضرورة القيام به، كما بين انواع المكتسبات بشكل عام، ودعم ما ذهب إليه بعدد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية، مبيناً ان لفظ «الاكتساب» بشكل عام يتناول المال، ولكن الانسان قد يكتسب اشياء كثيرة غير المال منها ما يفيد بها نفسه، ومنها ما يضرها به.

إن العصر الذي عاش به محمد بن الحسن الشيباني قد تميز بالصراعات بين عدة تيارات دينية وفكرية، قد شهد هذا العصر محاولات الديانات التي كانت موجودة قبل الاسلام للعودة إلى النشاط بشكل صريح ومباشر او شكل غير مباشر، وكان من اهم هذه الديانات «الديانة المنانية» التي جاء بها ماني في القرن الثالث للميلاد، والتي مزج فيها بين تعاليم الزرادشتية والمسيحية والغنوصية واليهودية وسواها، وعرف نشاط هذه الديانة عند المسلمين باسم حركة الزندقة، وحاربت الزندقة ضد الاسلام بشكل مباشر، او عن طريق الشعوبية، او بواسطة ايجاد حركة زهد منانية المحتوى، اسلامية المظهر، سلبية السلوك، تريد انهاء الحياة بإلغاء العمل والكسب، وبالأخذ بعدم الحركة والخمول إلى غير ذلك....

وقد تجرد عدد كبير من علماء العرب للرد على «المنانية» والتصدي لما قدمته بشكل مباشر او غير مباشر من افكار، ويمكن ان ننظر إلى كتاب الكسب ومشكلة المحرض على تصنيفه من هذه الزاوية.

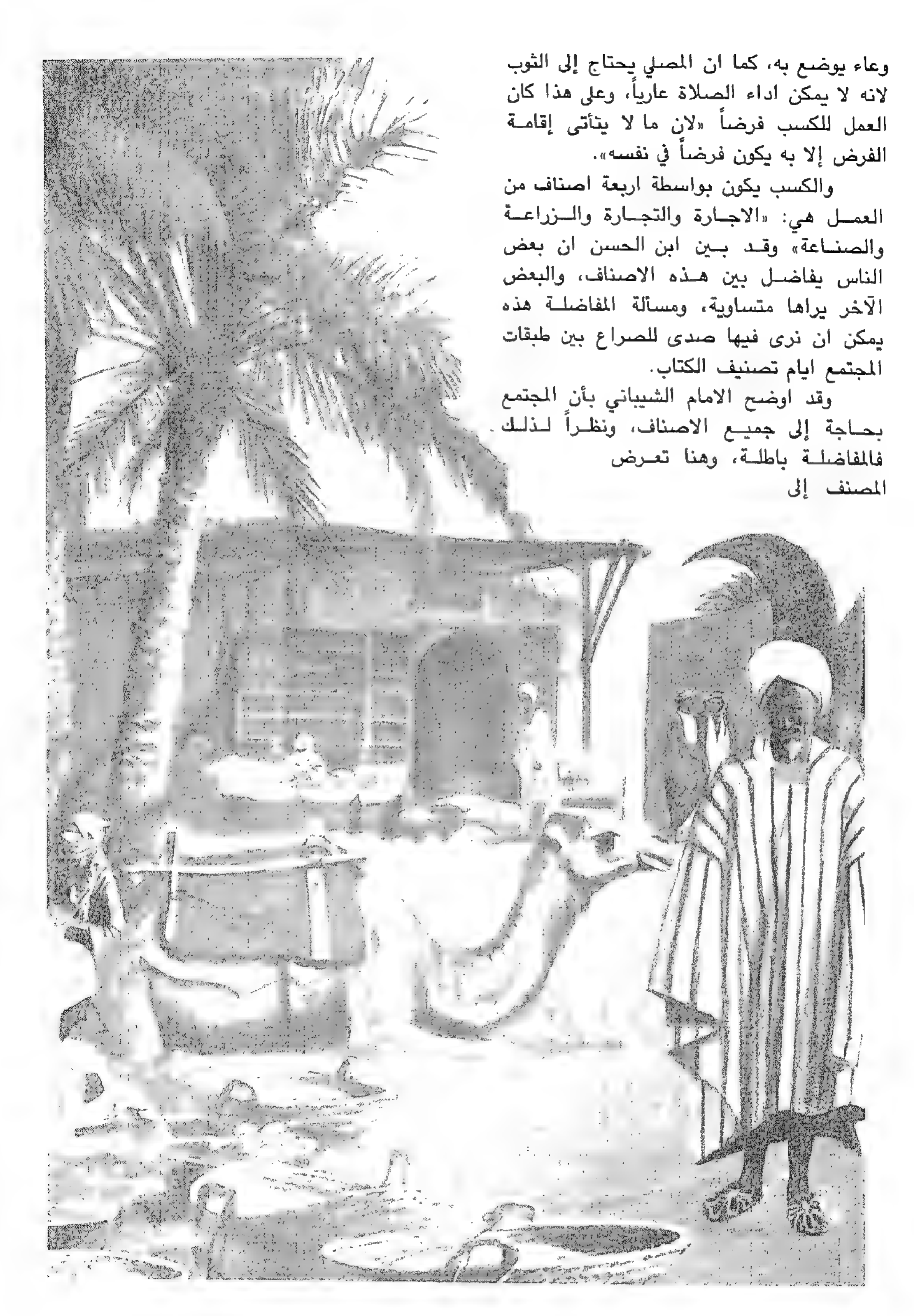
روى المصنف في مطلع الكتاب ان النبي (صلعم) قال: «طلب الكسب فريضة على كل مسلم كما ان طلب العلم فريضة» وبين بشكل فيه نظرة اجتماعية واسعة قائمة على المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية فقال: «طلب الكسب يمكن من اداء الفرائض بقوة البدن، لان الكسب يجلب القوت». ولتحصيل القوت طرق هي: «الاكتساب، او التغالب او الانتهاب» وبالانتهاب يستوجب الانسان العقاب، وفي التغالب فساد، وعلى هذا «في الكسب نظام العالم» «وفي تركه تخريب نظامه».

ويتم الاكتساب بالكد والتعب، وهنا تأتي منافع الكسب عامة وضرورية، فالزارع يكتسب لنفسه، ولكنه يفيد بانتاجه الجماعة، والصانع يفعل نفس الشيء، ولا يمكن إداء العبادات بدون كسب، فالصلاة مثلاً تقتضي الوضوء، والمتوضيء يحتاج إلى الماء، والماء لا بد له من

وعاء يوضع به، كما ان المصلي يحتاج إلى الثوب لانه لا يمكن اداء الصلاة عارياً، وعلى هذا كان العمل للكسب فرضاً «لان ما لا يتأتى إقامة الفرض إلا به يكون فرضاً في نفسه».

والكسب يكون بواسطة اربعة اصناف من العمل هي: «الاجارة والتجارة والزراعة والصناعة» وقد بين ابن الحسن ان بعض الناس يفاضل بين هذه الاصناف، والبعض الآخر يراها متساوية، ومسألة المفاضلة هذه يمكن ان نرى فيها صدى للصراع بين طبقات المجتمع ايام تصنيف الكتاب.

وقد اوضح الامام الشيباني بأن المجتمع بحاجة إلى جميع الاصناف، ونظراً لذلك فالمفاضلة باطلة، وهنا تعرض المصنف إلى



مسألة خطيرة، وخاصة على صعيد الحرية المطلقة في المذهب الحنفي.

فأبو حنيفة مؤسس هذا المذهب كان بالاصل تاجراً، ولهذا آمن بالحرية التجارية، وبعدم جواز تدخل الدولة في اي جانب من جوانب العمل التجاري، وخاصة قضية التسعير حيث ان المسعر هو الله.

بعدما بين الامام الشيباني ان الكسب مباح، لا بل هو فرض، طرح سؤالاً محتواه: إلى اي حد على الانسان ان يعمل ليكسب؟ فقال: إن البعض يرى ان الكسب مباح بلا حدود، وقام هو برفض هذا الرأي، وبين ان رأي جمهور الفقهاء ان الكسب ينبغي ان يكون فقط في حدود الحاجة والمنفعة الخاصة العامة، واوضح ان في انصراف الانسان في جميع اوقاته للكسب خروج على اوامر الله وما تحتاجه الحياة من توازن وتوزيع للجهود والوقت، فالانسان مندوب للعبادة مفروض عليه التفرغ للعلم، والاقبال على العلم فيه عظيم المنافع للناس جميعاً.

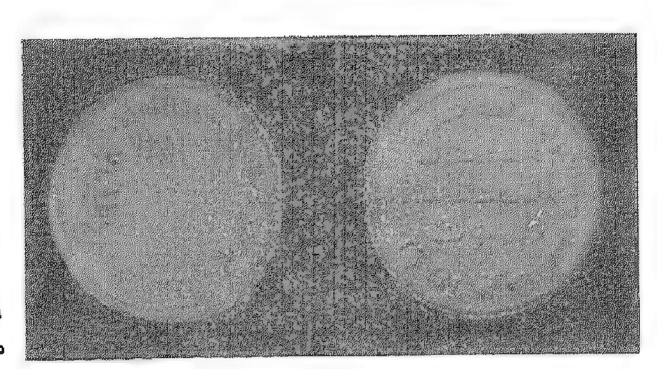
وفقط «الكسب بقدر ما لا بد منه فريضة» وما تجاوز الحاجة يغدو جناية، وما لا بد منه هو تأمين الكفاية للنفس والعيال والاهل، بما يقيم الاود ويسد الحاجة، ويزيل الدين، وفي هذا المقصد روى المصنف عن ابي ذر الغفاري قوله: «افضل الاعمال بعد الايمان الصلاة واكل الخبز، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى».

إن الانصراف المطلق إلى الكسب، اي تحصيل المال وجمعه، فيه اخلال بنظام الحياة، وذلك ان ثروات الدنيا تكفي فقط الناس جميعاً، فاحتكار البعض زيادة عن الآخرين فيه اخلال بالتوازن، لا يجوز الرضى به والسكون عنه، وبعد هذا استطرد الامام الشيباني ليوازن بين الفقر والغنى، فبين ان اكثر الناس يفضل الغنى والاغنياء، وهنا اوضح ان هذاانحراف، ذلك ان في الغنى طغيان، واستشهد بقوله تعالى «كلا إن الانسان ليطغى» [العلق: ٦] وقوله سبحانه «الذين طغوا في البلاد» [الفجر: ١١] وقال: إن القناعة خير من الفقر والغنى «ولو ان الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم كان خيراً لهم» ذلك ان «ما زاد على ما لا بد منه يحاسب المرء عليه» وفي جميع الاحوال في الكسب لتحصيل الغنى استرسال في اتباع الشهوات، وصحيح انه «زين للناس حب الشهوات» [آل عمران: ١٤] ولكن الذين «اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً» [مريم: ٥٩].

إن في هذا التفكير ليس عدول منهجي عظيم في فقه المذهب الحنفي وإنما ريادة مبكرة في التشريع الاجتماعي بعرض نظرة اسلامية اصيلة، قدم المصنف بعض جوانيها الاخرى، حين تحدث عن ان المجتمع لا بد من ان يوجد فيه من يحتاج إلى طعام وكساء وغير ذلك، نظراً لعجزه لاقعاد السن له، او لمرض معوق، وهنا قال كما يفترض على الامة فداء من يقع من افرادها في اسر الاعداء عليها «اطعام المحتاج في الوقت الذي يعجز عن الخروج والطلب» واوضح ابن الحسن في هذا المجال انه «لا يجوز للقادر السؤال ولا الأخذ» بل عليه الكسب.

وبعدما عرض لمسائل الكسب، تعرض الامام الشيباني لقضايا الانفاق، فالله تعالى بعدما حض على الكسب، امر عباده بالانفاق بقوله: «انفقوا من طيبات ما كسبتم» [البقرة: ٢٦٧] وهنا على الانسان عدم الاسراف في الطعام والاستكثار من المباحات والالوان، فمن «الاسراف ان يضع المرء على المائدة من الوان الطعام فوق ما يحتاج إليه للأكل.... ومن الاسراف ان يأكل وسط الخبز ويدع حواشيه، او يأكل ما انتفخ من الخبز.... ومن الاسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام».

وكما يتصرف المرء تجاه الطعام عليه ان يفعل في الملبس والمسكن وغير ذلك ما يرتبط بالحياة، فالنبي (صلعم) قد «نهى ان يلبس



دينار ذهبي
ضرب سنة ١٠٥هـ.

نهاية ما يكون من الحسن والجودة في الثياب على وجه يشار إليه بالاصابع» بل اوصى بلبس الثوب الجيد وترك السيء لان الاصل في الثياب ستر العورة ودفع اذى الحر والبرد، وكان (صلعم) يهتم في عامة اوقاته بالنظافة والانسجام، ويرتدي في المناسبات من أعياد ومواسم بعض الثياب الرائعة.

واثناء عرض المؤلف لمشكلة الطعام واللباس يمكن استخلاص بعض الصور الحضارية عن حال المسلمين في القرن الثاني للهجرة والتعرف إلى انماط من مشاكلهم آنذاك، فهم مثلاً كانوا يتجادلون حول بناء المساجد وزخرفتها والتأنق في المآذن مع مشاكل التجصيص للبيوت والمساجد ومشاكل استخدام الاثاث وانواعه إلى غير ذلك مما هو ثمين للغاية للمؤرخ الحضاري.

كما سلفت الاشارة إن جميع ما عرضه الامام ابن الحسن جاء من احد الجوانب رداً على اصحاب تيار الزهد الاعجمي، ولكنه لم يكتف بهذا بل قام بالرد المباشر وذلك بعد عرض لأقوالهم وافكارهم بقوله: «وقال قوم من جهال اهل التقشف وحماقى اهل التصوف ان الكسب حرام لا يحل إلا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة....».

ولقد جاءت ردوده مباشرة مفحمة اعتمد فيها النقل والعقل حيث قدم عدداً من الآيات والاحاديث النبوية التي تأمر بالكسب وتحض عليه، ثم ذكر بأن الكسب هو طريق المرسلين، ونحن قد امرنا بالاقتداء بهم، فآدم كان مزارعاً، ونوح كان نجاراً، وإبراهيم كان بزازاً، وداود عمل في صناعة الدروع، وزكريا كان نجاراً، وعيسى كان يأكل من اجر غزل امه، والنبي محمد عمل في التجارة وغير ذلك مثل رعاية الاغنام، ثم إن الصحابة جميعاً كانوا يكسبون، فأبو بكر كان بزازاً، وكان عمر يعمل بالادم (الجلد) وعثمان كان تاجراً، وقد اجر علي نفسه اكثر من مرة ليكسب قوت يومه.

والانسان على الرغم في الاقرار بأن الله قد قدر رزقه، ولا راد لقدر الله، يفترض عليه الكسب، فالمؤمن مطلوب منه الدعاء مع القدر، والنبي كان يدعو الله لنفسه ولأصحابه بالمغفرة والجنة رغم معرفته بأنه سيدخل الجنة، ومعلوم اننا مطلوب منا إستعمال الدواء اثناء المرض، رغم ان الشافي هو الله جلت قدرته.

وبعد هذا التفت إلى اهل الزهد الاعجمي وخاطبهم بهزء وازدراء ونعى عليهم قبولهم طعام من اطعمهم من اهل الكسب، كل هذا رغم ان الكاسب قد اقترف الحرام بكسبه.... المسألة ليست كذلك، إنها كسل وذل، وسعي ليدخل إلى الاسلام ما ليس منه.

الهوامش

(١) رياض النفوس للمالكي – ط. القاهرة: /١٧٣ – ١٧٦.
(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/١٧٥، فوات الوفيات لابن أبيك ٢/٣٣٣.
(٣) تاريخ بغداد ١٧٤ – ١٧٥.
(٤) انظر تاريخ بغداد ٢/١٧٩ – ١٨٣. الوافي بالوفيات ٢/٣٣٣. بلوغ الاماني في سيرة الامام محمد بن الحسن الشيباني للامام محمد زاهد الكوثري – ط. حمص ١٩٦٩، ٢٣ – ٤٤.



العناية بالطفل والمرضعات في الطب العربي

د. سامي حمارنه

لم يغفل الاطباء العرب في العصور الوسطى توجيه العناية الفائقة بالاطفال والامهات لحفظ صحتهم وتدبيرهم في حالة المرض. ولكن مع الاسف لا نعرف إلا القليل عن ذلك بسبب اهمال هذا الموضوع في كتب تاريخ الطب والعلاج في الشرق والغرب. فلأجل ملء هذه الثغرة في ادبنا العلمي الطبي رأينا ان نخصص هذه المقالة كمقدمة اولية عن طب الاطفال للفت الانظار إلى هذا الموضوع الهام. واعطائه حقه من التقدير ولو بعبارات وجيزة وعرض سريع للحقائق التاريخية لمساهمة العرب إلى حد كبير في تطوير هذا الفرع من العلوم الصحية.

قيام الطب العربي

اعتمد الطب العربي في بدايته على ما اقتبسه من علوم الحضارات السابقة في الصناعة وفي مقدمتها حضارة الاغريق وما نقله من كتب الهنود والسريان والاقباط والفرس وغيرهم.

ولا يسعنا إلا ان نؤكد بان الحضارة الاغريقية هي التي - في الدرجة الاولى - تركت طابعها الخاص على البحث العلمي العربي النظري والتجريبي واثرت على صياغته واتجاهاته وبمعالمه القريبة والبعيدة المدى، ولكن سرعان ما نشأ من امتزاج كل هذه الثقافات حضارة عربية جديدة لها طابعها المنفرد واسلوبها المعروف. لقد قام العرب والسريان بترجمة العديد من الكتب الاغريقية وكان اختيارهم للكتب التي ترجمت للعربية يدل على الحكمة والمرونة والعقل السديد إذ نقلوا افضل مما كان باقياً من تراث اليونان واكثره نفعاً وما هي إلا ردحة من الزمن حتى توفرت لطلبة الطب والصيدلة في العاصمة العباسية وسواها من المدن العربية والاسلامية الافضل والاعم نفعاً من كل ما كتبه وخلفه علماء الاغريق وسواهم فقد نُقل العديد من كتب ابقراط ابي الطب وارسطو المعلم الاول وديقوريدس، عالم النباتات الطبية والحشائش في القرن الاول المسيحي ومعاصر بولس الرسول وجالينوس في القرن الثاني والذي تركزت في كتاباته خلاصة هامة من آثار الاغريق في الطب والفلسفة كما وقد ترجمت بعض كتب من جاءوا بعدهم نظير اوريباسيوس وبولس الاجانيطي في اليونانية واهرت القس بالسريانية اما جمهرة الاساتذة المترجمين فتشمل اسماء لامعة في الحضارة العربية اغلبهم من المسيحيين العرب الذين نقلوا حضارة القدماء النفيسة إلى لغة الضاد امثال يوحنا بن البطريق، والترجمان الطبيب حنين بن اسحق العبادي من قبيلة العباد بعاصمة اللخميين وابنه اسحق وابن اخته حنين ابن الاعسم الدمشقي وابن باسيل وابن ناعمة وسلام الابرش وايوب العمادي وقسطا بن لوقا البعلبكي وغيرهم.

واننا لنجد ذكراً حسناً لهؤلاء العلماء في كتب السير والتراجم امثال كتاب الفهرست لابن النديم وطبقات الاطباء والحكماء لابن جلجل في القرن العاشر وتاريخ الحكماء لابن القفطي في القرن الثاني عشر واخيراً اعظم هذه الكتب بالنسبة لتاريخ العلوم الطبية كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي الخزرجي العربي السوري المتوفي عام ١٢٧٠ ميلادية.

اول من كتب في طب الاطفال

اشتهر زمن الخليفة الرشيد الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي الذي عالج الحبالى والمرضعات والاطفال، وكانت له نظريات شيقة في الغذاء والدواء. وقد تطرق للموضوع ابو زيد حنين العبادي زمن الخليفة (المتوكل) في كتابه المشهور بالمسائل في الطب للمتعلمين لانه وُضع على سبيل المسألة والجواب، وقد كان دستوراً للاطباء المبتدئين والممارسين يتخذونه دليلاً لهم، وله ايضاً مقالات في تدبير الناقهين وحديث في المولودين لثمانية اشهر.

وعالج الموضوع بشيء من التعمق والاسهاب ابو الحسن الطبري في كتابه فردوس الحكمة والذي اتمه زمن الخليفة المتوكل عام ٨٥٠م ويعتبر اول مرجع من نوعه في شموله وسعة المواضيع التي يطرقها الَّفه باللغتين العربية والسريانية، وفي هذا الصدد يبحث في تكوين الجنين وشبهه للوالدين كما «يشبه الدواب والطير اباها في الوانها وصورها واصواتها وسائر افاعيلها.. وانا لنجد هذا في كل مزروع ومولود».

بعدها يتكلم في تطور الجنين في الرحم وطريقة تغذيته من الام باسلوب علمي ثم ظهور اعضائه ونموها واستكمالها في الرحم إلى زمن الولادة. وقد ايده في هذا البحث ما ذكره الطبيب والجراح الشهير ابو الفرج ابن القف المتوفي عام ١٢٨٦م. وتكلم الطبري عن سبل تسهيل الولادة والعناية بالطفل وحفظ صحته بأفضل السبل وفيه يوصي باستعمال لبن الام الذي هو افضل الالبان لوليدها

ويشير إلى ان الطفل لا يكثر البكاء إلا لوجع يجب معالجته «وتتوقى عليه من شدة الرباط – الاقمطية – (noise pollution) ومن زيادة الحر والبرد والاصوات المزعجة والمناظر المرعبة ويحذر من كثرة الارضاع «فالامتلاء يورث الكسل» فيفقد حيويته ونشاطه ودعابته، ويوصي متى بلغ المولود وقت الفطام باعطائه المفيد المناسب من الاغذية مع عدم اهمال النظافة الجسمية ويضيف « و تنبت الاسنان في الشهر السابع او بعده وكلما كان نباتها ابطأ كان اقوى لها واشد وجعاً». ويوصي بالدعة وادخال السرور للنفس فإذا شب يدرب على الهدوء بدل الخوف والارهاق الذي ينهك بدنه، وبعد بلوغ الثانية عشر من العمر وقد تعلم القراءة والخط والنحو يبدأ بعدها بتعلم الحساب والهندسة وعلم النجوم ثم دراسة الفلسفة والعلوم الصحية. ويختصر الطبري امر حفظ الصحة بكلمتين مفادهما ادخال ما يوافق البدن واخراج ما يتولد فيه من الاتفال اما عن الاكل فيوصي بالاقلال منه والاحتراس من التخمة.



منمنمة «الولادة» من مخطوطة مقامات الحرير (دار الكتب القومية باريس).

القرن العاشر – الرابع الهجري

كان هذا هو العصر الذهبي في الحضارة العربية العلمية والثقافية، وبلغت فيه العلوم الصحية أعلى مراتب التقدم وزاد فيه على أية حضارة سبقت او لحقت حتى عهد البعث الاوروبي.. فكان يتوفر للطبيب او الصيدلي مهما كان منشئة وضيعاً كل وسائل التعليم والدرس إلى اعلى الدرجات في المدارس والكليات ودور الشفاء والمكاتب وما يلزمه من التمرين نظرياً وعلمياً وازدادت فيه المستشفيات التي بلغت درجة الرقي الموصوف ودكاكين الصيادلة العارفين بالعقاقير واصنافها وطرق جمعها وحفظها وتركيبها، ومن ألمع الشخصيات الطبية في هذا القرن هو الطبيب السرائري والفيلسوف الكيماوي ابو بكر محمد الرازي وقد تميز هذا الحكيم باصالته وقوة ملاحظته ودأبه على ادراك اسرار المهنة واتقان اصولها ورفع شأنها وحفظ قوانينها العلمية والادبية حتى اصبح نديم الامراء وطبيب الملوك والشرفاء وكان مثال الطبيب المدقق النزيه الذي اوقف حياته على نفع مرضاه ومراعاة صحتهم وافادة تلامذته وزملائه في الصناعة وقد خلفماينوف مابة كتاب طبي صيدلاني بعضها لا يزال في

مخطوطات تنتظر النشر والتحقيق فمنها كتابه «المنهوزي» في الطب الذي يخصص فيه قسماً لبحث الصحة العامة «لحفظ صحة الاصحاء موجودة »، وله كتاب الجدري والحصبة يصف فيه هذين المرضين بمنتهى الدقة ذاكراً الفارق بينهما والعلاج والاعراض وطرق الوقاية والعلاج باسلوب مشابه لما توصف به في العصر الحديث.

وظهر في القرن نفسه الطبيب المدقق علي بن العباس المجوسي الذي اشتهر كتابه الموسوعي كامل الصناعة الطبية ليس في الشرق فحسب بل في الغرب ايضاً بعد ان ترجم إلى اللغة اللاتينية. وقد خدم المجوسي الملك عضد الدولة البويهي الذي قال فيه «انه كان محباً للعلم والحكمة واهلهما »وفيه يصف تدبير الصحة حسب حالات الهواء وفصول السنة والرياضة «وهي افضل ما يستعمله الانسان في حفظ الصحة واعظمها نفعاً إذا كانت قبل الغذاء لانها تقوي الاعضاء وتصلبها وتحلل الفضول وتقوي الحرارة الغريزية وتعينها على جودة الهضم» ويشير إلى رياضة آلات التنفس ليجتذب بذلك

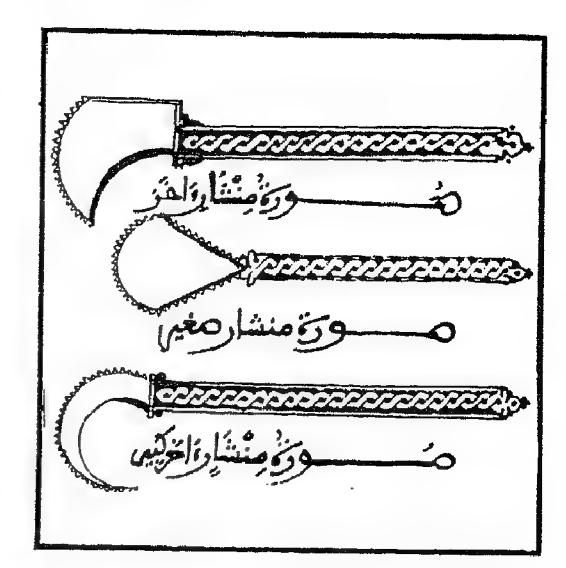


ولادة قيصرية:
من مخطوطة البيروني.

الهواء كثيراً إلى الرئة والصدر فيوسع الصدر ومنافذ الجسم. وفي حديثه عن الامراض النفسية يوصي بأن لا يكثر المرء من الهمز والغمز والحسد فانها تغير مزاج البدن وتنهكه الامر الذي يوافقه عليه علم النفس الحديث.

ويخصص المجوسي فصولاً كثيرة في تدبير الاطفال والظئر والصبيان الذين جاوزوا حد الرضاع ويوصي بالتحرز من الامراض الوبائية (Plagues) اما اوسع واروع ما كتب في هذا الموضوع في القرن العاشر فقد جاء في كتابين نشرا في المغرب العربي هما: كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن احمد ابراهيم الجزار القيراواني المتوفي حوالي ٩٨٤م وقد حققه ونشره الدكتور محمد الحبيب الهيله في الدار التونسية للنشر عام ١٩٦٨. قال ابن الجزار «هذا البحث اهمله المؤلفون ولم ار احداً من الاوائل له كتاب كامل جامع فيه بل معلومات متفرقة في شتى الكتب يصعب جمعها، فرايت ان اجمع المتفرق منها في كتاب واحد واضعاً ما حصلته في ٢٢ باباً».

ويتحدث ابن الجزار حول ضرورة العناية بالمرضعة ليصلح اللبن ويجود هضمه من طفلها وكيفية العناية به عند الولادة وبعدها من حيث المضجع ونظافة الابدان واوقات الرضاعة وطعام



ادوات جراحية قديمة.


الصفحة الاولى من كتاب ابن خبرلى الطبي

المرضعة ومناسبته ثم ظهور اسنان الطفل وتدبير اوجاعها إن حدثت ثم يستعرض اخلاق الصبي وطباعه وحسن تربيته وتفقده وتوجيهه في الكلام والجلوس والقيام والسلوك والنوم واليقظة والطعام والشراب على طريقة توازي ما نصادفه في يومنا هذا.

اما الثاني فهو كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين: لعريب بن سعيد الكاتب القرطبي وهو برأيي اجمل واوفى كتاب من نوعه في اية لغة حتى نهاية العصور الوسطى، وقد تم نشره وترجمته للفرنسية في كلية الطب والصيدلة بالجزائر عام ١٩٥٦.

اما المؤلف فقد عاصر الخليفة الاندلسي الحكم المستنصر وابنه هشام اللذين ازدهرت في ايامهما العلوم والمعارف وبلغت النهضة العلمية ذروتها والكتاب مهدى إلى الخليفة وفيه يذكر تدبير الاجنّة واسباب الولادة والجنس واحكام القبول وسياسة التربية وتدبير الحبالى وحفظ قواهن مداواة وما يعرض لهن من اول الحمل إلى وقت الوضع والقول في الاسقاط واسبابه وتلافي اعراضه والاحتراس مما يحدثه ، وتدبير النفساء واستخراج المشيمة وعمل القابلة، ويبحث في سر تكوين اللبن وارضاع المولود، وزمن نبات اسنانه ونموه الجسماني وفي العقل والذاكرة وتدرجه في التغذية من اللبن إلى ما يلائمه من طعام وشراب حتى يبدأ حياته المدرسية.

وليس لدينا اتساع في المجال لنذكر كتابات الطبيب الجراح ابو القاسم خلف الزهراوي في العاصمة الاندلسية او الطبيب الفيلسوف ابن سينا في ايران وكلاهما افاضا في مثل هذه الابحاث وتبعهما آخرون ايضاً بحثوا في مهنة القبالة واهميتها ومراحل الطفولة والدرس في حياة المولودين والصبيان حتى زمن التخصص في الدراسات اللاهوتية او الفلسفية او الطبية مع التشديد على الناحية الاخلاقية وآداب الجلوس ومعاشرة الاصدقاء واخلاق المهن الصحية.

ويكفينا هنا ان نختم بالقول ان علم التوليد قد بلغ في العصر العربي الذهبي اعلى الدرجات وتبوّأ مكاناً رفيعاً لم يبلغه في اية حضارة سابقة حتى العصور الحديثة وقد غبن المؤرخون ما قدمه العرب في هذا المضمار ومساهمتهم في هذا الحقل الصحي الهام إذ العناية بالاطفال، دليل على الاهتمام الحقيقي بالجيل الصاعد ليكون قوياً صحيحاً في جسمه ونفسه وخلاقاً مثمراً.. وما هي إلا احد الحقول التي ساهم فيها العرب بالنصيب الوفير لاعلاء شأن الحضارة الانسانية والعناية بالصحة الخاصة والعامة لرفاه الانسانية وسعادتها. ■

لمناسبة الاحتفاء بمرور ألف عام ميلادي على مولده:

ابن سينا

قائداً للفكر التربوي

د. الياس زين

ينبغي البدء بتهذيب الطفل وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام، أي قبل ان ترسخ فيه العادات السيئة، التي يصعب إزالتها، إذا ما تمكنت من نفس الطفل. اما إذا إقتضت الضرورة الإلتجاء إلى العقاب، فينبغي مراعاة منتهى الحيطة والحذر، فلا يؤخذ الولد اولاً بالعنف، وانما بالتلطف، ثم تمزج الرغبة والرهبة[٥].



* رئيس قسم اللغة الانكليزية وآدابها في الجامعة اللبنانية - الفرع الثالث.

لمن هذا الكلام، يا ترى؟! يبدو انه توجيه لمربٍ معاصر، لانه يوجز، في الروح والمبدأ، طريقة التربية والتهذيب للطفل المعاصر. ولكن، في الواقع، إنه ليس توجيهاً لمربٍ معاصر، من الغرب مثلاً، وإنما توجيه إبن سينا، موضوعنا، في هذه العجالة، والذي قاله منذ حوالي ألف عام.

إن الغاية من هذا البحث ان نسلط الاضواء على التربية والتعليم عند ابن سينا. ونعتبر إن إبن سينا كان رائداً من رواد الفكر التربوي الصحيح في العصور الوسطى وقائداً للفكر التربوي في كل العصور. هذا يعني إننا سنعالج ناحية مهمة من آراء ابن سينا وأفكاره في مجال التربية والتعليم، والتي تعتبر مجهولة لدى الكثير من الناس، حتى من قبل رجال التربية والتعليم انفسهم. ولا يخفى ان ابن سينا معروف في العالم كله، كفيلسوف وطبيب من الدرجة الأولى، طبّقت شهرته الآفاق. غير إننا في هذا البحث لن نتناول إبن سينا الطبيب والفيلسوف، وإنما المربي.

وهنا لا بد من الاشارة إلى نقطة مهمة وهي: عندما نطرح إسم إبن سينا كقائد او كرائد للفكر التربوي، فاننا نفعل ذلك بالنسبة لعصره بالطبع، لاننا نظلمه إذا ما نظرنا إليه، كمرب، بمعايير هذا العصر الحديث. ولكن على الرغم من مرور حوالي الف عام على آرائه وافكاره وتوجيهاته التربوية، فانها لا تزال قريبة من آراء المربين المعاصرين ونظرياتهم.

وبالتحديد فان مهمتنا، في هذه العجالة، ان نعرض آراء إبن سينا وافكاره التربوية، فسنركز على آرائه المتعلقة بصفات المعلم او المؤدب المرغوب فيه و بتربية اولاد ما قبل المدرسة، وبالتربية الصحية والنفسية، وبالتربية الخلقية، وبتفضيله التعليم الجماعي للطفل، وبتفضيله اللطف قبل العنف، وبالتوجيه التعليمي والمهني والنفسي. وأخيراً بالمنهج الدراسي المرغوب فيه للطفل.

وقبل أن نأتي إلى عرض آراء ابن سينا وأفكاره التربوية، يحسن بنا ان نلقي نظرة سريعة على نشأته وحياته وتحصيله العلمي.

نشأته وحياته وتحصيله العلمي:



إن إبن سينا، المعروف بالشيخ الرئيس، هو ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي. فهو يعتبر، حسب دائرة المعارف البريطانية، أعظم فيلسوف — عالم في الاسلام، فقد لقب بالمعلم الثالث بعد ارسطو والفارابي.

وُلد ابن سينا في افشنة، قرب بخارى (الآن في الاتحاد السوفياتي) في العام ٩٨٠ م. وتلقى العلم في تلك المدينة، على يد ابيه وبتوجيهه. ولما كان منزل والده ملتقى لرجال العلم، فقد إستطاع، منذ طفولته، ان يستفيد من صحبة سادة العلم في ذلك الزمان وعشرتهم. وكان يملك ذاكرة قوية جداً، وبقيت معه طوال حياته. وعندما بلغ العاشرة من العمر، كان حفظ القرآن الكريم ودرس الكثير من الشعر العربي. ونضج عقله في سن مبكرة. فقد عجز إستاذه الناتلي، عن مجاراته في علم المنطق وبزّه. وعندئذٍ إضطر إلى ان يعتمد على مطالعاته الخاصة. فدرس وحده الطبيعيات والآلهيات والطب، وسرعان ما مكّنته تجاربه في الطب من فهم هذه الصناعة فهماً جيداً. وبلغ في الطب منزلة اهّلته، وهو في السادسة عشرة من العمر، لان يكون مرشداً لعدد من كبار الاطباء في عصره. وما إن بلغ الثامنة عشرة من العمر، حتى كان إبن سينا قد اتقن المنطق والطبيعيات والرياضيات او لم يبق عليه إلا تحصيل ما بعد الطبيعة.

ويعـد إبن سينا بحق واحداً من أكثـر الكتاب إنتاجاً. فلقد كتب اعمالاً عديدة في الطب والفلسفة والمنطق والاخلاق وغيرها من حقـول المعرفة. والف ما يقارب مائتين وخمسين مؤلفاً من بين كتاب ورسالة ومقالة، ترجم العديد منها إلى اللغات الاوروبية[٣]. ولهـذا المفكر العظيم آراء تربوية وتعليمية في العديد من كتبه، التي كتبها باللغة العربية وباللغة الفارسية. بيد ان اكثر آرائه التربوية نجدها في رسالتـه «كتاب السياسة»، والذي يشمل فصلاً طريفاً، يظهر فيه كيف ينبغي للرجل ان يتعامل مع أولاده.

آراء ابن سينا في التربية

أورد هـذا المفكر العظيم في اكثـر كتبه الباقية، باللغتين العربية والفارسية، بعض آرائه القيمـة المتعلقـة بتـربيـة الصبيـان وبتـأديب الاطفال. بيد ان اكثر آرائه التـربويـة المفيدة جداً، جمعت في رسالته المسماة كتاب السياسة. فعرض في الرسالة المذكورة واجب الرجل نحو ولده، فبسط أحوال تعليمه وتأديبه. فتحدث عن الصبي بعد فطامه عن الرضاع، وضرورة البدء بتأديبه ورياضة اخلاقه «قبـل ان تهجم عليه الاخلاق اللئيمة»[٥و٧].

وتجـدر الاشــارة إلى ان إبـن سينـا، لم يحصر مهمته التربوية باعداد الناشىء للحياة الاخروية، كما هو الحال مع ابي حامد الغزالي (١٠٥٨ – ١١١١م) مثلاً، وإنما جعل التربيـة دينية ودنيوية في آن واحد. وفيمـا يلي نقـدم عرضاً موجزاً لأبرز آراء إبن سينا التـربويـة والتعليمية.

لعل أبرز ما يوليه إبن سينا إهتمامه، في سيـاسته التعليميـة، إختيار المعلم او المـؤدب الصالح. فيشترط في المعلم، الذي يتـولى امر الولد، ان يتحلى بأخلاق رفيعة. وفي هذا المجال، قال المربي إبن سينا، إنه ينبغي للمدرس ان يكون «عاقلاً، ذا دين، بصيراً برياضة الاخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً، رزيناً، بعيداً عن الخفـة، والسخف، قليل التبـذل والاسترسـال بحضرة الصبي»[١]. ويحذر إبن سينا المعلم من ان الالفة الزائدة في حضور الاطفال غير مرغوب فيها. وعلى الرغم من انه يشترط في المعلم ان يكون صلباً او قاسياً، إلا إنه يفضل ان يكون قريباً إلى القلب ولطيفاً وكريم النفس. وكـذلك يشتـرط في المعلم ان يكون نظيفـاً وملحـوظـاً لرجولته ولاستقامته، وان يعرف آداب اللياقة، وخاصة تلك المتعلقة بـالنشاطـات الاجتماعيـة والمحادثة وآداب المائدة[٩].

ولقد أعار ابن سينا إنتباهاً خاصاً لتربية الاولاد الصغار، بمن فيهم اولئك الذين في سن ما قبل مـرحلة الـدراسة. لانـه يعتقد بـان العـادات والاتجاهات التي يكتسبها الطفل، في السنوات الاولى من عمره، تؤثر كثيراً على مجرى حياته في المستقبل. ولا ريب في ان إبن سينا كان قد تأثر بالفلاسفة اليونانيين، كما كان الحال بالنسبـة لبقية المربين العرب[٩].

هذا وقد اهتم ابن سينا بمختلف اوجه التربية والتعليم، وبخـاصة التـربية الصحيـة والنفسية، والتربية الاخلاقية، والتوجيه التعليمي والمهني والنفسي ومنهج الدراسة.

التربية الصحية والنفسية:

واهتم إبن سينا بتربية الطفل الصحيـة والنفسية معاً. فعلى صعيد التربية الصحية، فقد نصح الرئيس الطبيب والمربي، بانه ينبغي للطفل ان يُحمّم بعد إستيقاظه وان يستيقظ من النوم باكراً. كما ينبغي ان يسمـح للطفل ان يلعب ساعة واحدة، وبعدها يتناول وجبة فطور خفيفة. وبعد تناول الفطور ينبغي ان يسمـح للطفل أن يلعب فترة اطول من الوقت، قبل أن يغتسل ويتناول طعام الغداء. وعندما يبلغ الطفل سن السادسة من العمر، ينبغي أن يوكل إلى معلم او مرب. وينبغي الا يقدم إلى الطفل كتب، إلا بطريقة تدريجية، او خطوة خطوة.

هذا ولم يهتم إبن سينا بصحـة الولـد الجسـدية فحسب، بـل اهتم ايضـاً بصحتـه النفسية. ونصح كل من يهتم بشؤون الاطفال، الا يعرضوهم إلى غضب كبير او خوف كبـير او قنوط. كما نصح المعلم ان يجد الاشياء التي يحبها الاولاد ويجعلها قريبةً جـداً منهم، وفي متنـاولهم، بينمـا يجب إبعـاد الاشيـاء التي

لا يرغبها الاطفال من حواليهم. ويرى ان الاشياء المناسبة التي تحيط بالاطفال مهمة، ليس لان الاطفال يحبونها، وإنما لانها تجعل الحياة اسهل لهم ومفيدة ايضاً، لكل من الجسد والروح معاً. فالمحيط الجيد يساهم او يساعد بخلق عادات جيدة، كما تساعد العادات الاخلاقية والروحية الجيدة بدورها صحة كل من الجسد والروح في آن واحد[٩].

التربية الخلقية:

واما بالنسبة للتربية الخلقية، فان ابن سينا يصر ان تنطلق من مباديء ثلاثة. فوفق المبدأ الاول، ينبغي ان يبدأ التدريب الخلقي بعد الفطام. وبهذا الصدد، يقول ابن سينا: «ينبغي ان يبدأ تدريب الولد الخلقي، في الوقت الذي يفطم، بحيث انه يستطيع ان يقاوم التأثيرات والعادات. وإذا ما تغلبت عليه العادات السيئة، في مرحلة الطفولة الاولى، فلن يستطيع ان يتخلص منها في المستقبل. وفي محاولة لانقاذ الولد، يجب ان يبعد عن العيون، الاساليب الشريرة، والعادات السيئة، وذلك باللجوء إلى مثل هذه التدابير، كما يتطلب الموقف ذلك: مدح او توبيخ، تحريض / تشويش او تخويف، حسن المعاشرة او الجفاء، إجابة او محاشاة... لهذا لعل اول شعر ينبغي ان يتعلمه الولد، ذاك الذي يرفع من شأن الفضيلة، ويعزز المعرفة، ويدين الجهل والغباوة، ويحث على احترام الوالدين، ويشجع الكرم (الضيافة) وكرم الاخلاق، وغير ذلك من الفضائل».

وينبغي للولد، وفق المبدأ الثاني، ان يعاشر تلك الفئة من اترابه الذين نشأوا وترعرعوا بطريقة حسنة ويتحلون بعادات جيدة. لان الطفل يميل إلى تقليد تلك الفئة من الاولاد من جيله، فيتعلم منها، ويتأثر بها، اكثر من اي فئة اخرى من الناس. وعندما يعاشر الاطفال واحدهم الآخر، فانهم يتبادلون الخبرات والتجارب والعادات. فان هذه المنافسة الايجابية والتقليد، سوف لا تجعل الاولاد، في نظر ابن سينا، اكثر نشاطاً وحيوية فحسب، وإنما تساهم ايضاً في تدريبهم الخلقي.

واما المبدأ الثالث، فينبغي ان يتولى امر تعليم الولد معلم مثالي، يتحلى بأخلاق رفيعة، وقد سبق ذكر ذلك[٩].

وهذه النقطة ترتبط بالنقطة السابقة، لا بل هي جزء منها، كما سنبين. يعتقد ابن سينا إن التعليم الجماعي افضل من التعليم الفردي للطفل، ويؤثر ابن سينا ان يكون مع الصبي اولاد آخرون من اشراف القوم، لان ذلك من شأنه ان يحثه على التحصيل، وان يبعد السأم عن نفسه. وفي هذا الصدد، قال:

«وينبغي ان يكون مع الصبي، صبية حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، لان إنفراد الصبي الواحد، بالمؤدب، اجلب لضجرهما، ولان الصبي عن الصبي القن، وهو عنه آخذ وبه آنس... وأدعى إلى التعلم والتخرج، فانه يباهي الصبيان مرة، ويغبطهم مرة، ويأنف عن القصور عن شأوهم مرة، ثم إنهم يترافقون ويتعارضون الزيارة، ويتكارمون ويتعارضون الحقوق. وكل ذلك من اسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة، وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهمَمِهم، وتمرين لعاداتهم»[٦و٧].



العقاب: اللطف قبل العنف:

وهذه النقطة ترتبط بالتربية الخلقية. فقد اهتم ابن سينا بشؤون عقوبة الطفل. ورأى ان الوقاية خير من العلاج. ونصح ببذل كل جهد لتأديب الطفل وتقويمه مند الصغر. حتى يشب على الخصال الحميدة، وبذلك تنعدم الحاجة إلى العقاب. وهكذا يذهب إبن سينا إلى ضرورة البدء بتهذيب الطفل وتأديبه وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام، قبل ان ترسخ فيه العادات السيئة، او، على حد تعبيره. «قبل ان تهجم عليه الاخلاق اللئيمة». لانه من الصعب إزالتها إذا ما تمكنت من نفس الطفل ورسخت فيه. اما إذا إقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب، فينبغي مراعاة منتهى الحيطة والحذر.

فلا يؤخذ الولد اولاً بالعنف، ولكن باللطف، ثم تمزج الرغبة والرهبة. وتارة يستخدم العبوس او ما يستدعيه التأنيب، وتارة اخرى يكون المديح والتشجيع اجدى من التأنيب. ولكن إذا لزم الامر للالتجاء إلى الضرب، فينبغي ان يتردد المربي. ويوصي بأن تكون الضربة الاولى موجعة، حتى تحدث في نفس الطفل الأثر اللازم وتجعله ينظر إلى عقابه بعين الجد. ولكن، في رأيه، إن كانت الضربة الاولى خفيفة، غير مؤلمة،

حسْن ظن الولد، فلم يحفل بالعقاب. على إنه لا يجوز الالتجاء إلى الضرب إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء، لاحداث الاثر المطلوب في نفس الطفل(٥و٧).

ولا بد من الاشارة هنا إلى ان هذا التوجيه يوائم، في الروح والمبدأ، مبادىء علم التربية الحديث. فهو، في الواقع، قريب مما يراه المربون المحدثون. فهؤلاء ايضاً يرون ان الوقاية خير من العلاج، ويرون إجتناب العقاب ما امكن، بيد إنهم يرون في الوقت نفسه، انه إذا ما اضطر المربي ان يلجأ للعقاب، فينبغي ان يكون العقاب إذ ذاك، قاسياً جدّياً. وبالاختصار فان علماء التربية الحديثة لا يحظرون العقاب مائة في المائة، وانما لا يسمحون باستخدامه إلا نادراً، وإن استخدم، فيجب ان يكون صارماً وجدياً(٥و٧).

التوجيه التعليمي والمهني والنفسي:

هذا ولابن سينا آراء قيمة في حقل التوجيه التربوي والمهني. فعلى صعيد التوجيه التعليمي او التربوي، ركز على وجوب مراعاة ملكات الناشىء وميوله الفطرية، وذلك في ما بعد مرحلة التحصيل الابتدائي. فينبغي ان يوجه التلميذ إلى الآداب او الرياضيات او العلوم الطبيعية، وذلك بحسب ميوله الفطرية. ولا يجوز، بأي وجه، قهر الناشىء على علم لا ينسجم مع فطرته(٧).

ثم اهتم إبن سينا بالتوجيه النفسي، الذي هو وثيق الصلة طبعاً بالتوجيه التعليمي. فابن سينا لم يؤيد سياسة التشدد والحرمان مع الاطفال – على خلاف الغزالي – وإنما نادى بضرورة مراعاة ميولهم وقابلياتهم وشهواتهم، والابتعاد عن كل ما من شأنه ان يعقد عليهم الحياة، ويعكّر صفاء مزاجهم، لايمانه ان صحة النفس والبدن تابعة لحسن المزاج.

ولعل أبرز ما تميزت به تربية إبن سينا، حرصه على تدعيم آرائه بمبررات نفسية. وقد نجح نجاحاً كبيراً في هذا الميدان. وربما يعود ذلك إلى ان ابن سينا كان قد إمتهن فن الطب(١).

وأما من حيث التوجيه المهني، فيوصي ابن سينا على الاخص بوجوب هذا النوع من التوجيه وبمراعاة الميل والحذق الفطري في ذلك ايضاً. فيحذّر من حمل الناشىء على صناعة (مهنة) لا يطيقها، ولا يَجد في ممارستها لذة خاصة(٧).

ويعتقد إبن سينا إنه بعد ان يتعلم الطفل القرآن الكريم وعناصر اللغة، ينبغي له ان يوجه إلى تعلم حرفة او مهنة مناسبة لقدرته العقلية ولمزاجه. وقد آمن ابن سينا بفروقات الاطفال الفردية للاطفال. فقد لاحظ مثلاً، ان الناس تختلف في قدراتها وقابلياتها الذهنية والعقلية. فبعض الناس عندهم قابلية في البلاغة، وبعضهم في القواعد، وبعضهم في الشعر، وبعضهم في الخطابة، وبعضهم في علم النسب... وبعضهم يختار، مثلاً، الحساب، بينما البعض الآخر يختار الهندسة او الطب. لانه إذا كانت الفنون والصنائع في متناول كل البشر بسهولة، وإذا لم يطبق مبدأ «الشخص المناسب للمهنة المناسبة»، لكان كل الناس تختار بالاجماع المهن النبيلة، سواء في الفنون او في الصنائع(٩).

ومتى ينبغي ان يوجه المعلم التلميذ؟ يرى إبن سينا ان التوجيه المهني ينبغي ان يبدأ بعد ان يحفظ الصبي المواد الدراسية الاكاديمية. ويقول، في هذا المجال:

«فاذا فرغ الصبي من حفظ القرآن، وتعلم اصول اللغة، يشرع بدرس الرسائل والخطب والحساب والعناية بالخط. وعلى المؤدب ان يبحث له عن صناعة، فلا يجبره على العلم، إذا كان غير مبال إليه، ولا يتركه يسير مع الهوس. إذ ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه. وإنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام، دون المشاكلة والملاءمة، إذن، ما كان احد غفلاً من الأدب، وعارياً من صناعته، وإذن لاجمع الناس كلهم على إختيار اشرف الصناعات... ولذلك فينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار صناعة، ان يزن اولاً طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعة بحسب ذلك»(١و٥).

منهج الدراسة:

والآن نأتي إلى منهج الدراسة المرغوب فيه لابن سينا. يبدو ان مهمة التربية، وفق ابن سينا، لا تحصر باعداد الناشىء للحياة الأخروية - كما هو الحال مع المربي الغزالي - بل جعلها دينية ودنيوية في آن واحد. لهذا يتألف المنهج من مواد دراسية دينية وخلقية وأكاديمية. فالى جانب تعلم القرآن ومعالم الدين ومكارم الاخلاق، اشار إبن سينا إلى ضرورة تدريس الاولاد اصول اللغة والرسائل والخطب والحساب والعناية بالخط. ثم حث بصورة خاصة إلى وجوب تدريب الصبي على صناعة تناسب طبيعته، وتمكنه فيما بعد من كسب عيشه(١).

الخاتمة:

وفي الختام نخرج من هذا العرض، لآراء وأفكار ابن سينا ونظرياته في التربية والتعليم، إلى القول: انه كان، في الواقع، رائداً للفكر التربوي في العصور الوسطى، ولا يزال قائداً للفكر التربوي الصحيح في كل العصور، وعملاقاً من عمالقة التربية الحديثة، ومربياً صالحاً. لهذا تسجل آراء ابن سينا وأفكاره ونظرياته، في حقل التربية والتعليم، رائعة من روائع الآثار العربية والاسلامية في الفكر التربوي. فبعد مضي حوالي الف عام عليها، فانها ما زالت تلتقي مع أحدث النظريات التربوية. هذا يعني، بكلام آخر، ان نظريات التربية الحديثة، التي يفاخر بها علماء البلدان الغربية، وبأنهم روادها، وانهم أول من جدّد وابتكر في ميدان التربية والتعليم، فهي ليست حديثة، ولكنها قديمة. فقد توصل إلى ابتكار بعضها، منذ مئات السنين، عمالقة الفكر العربي والاسلامي، وفي مقدمتهم إبن سينا والغزالي وإبن خلدون وغيرهم، من طائفة كبرى من المفكرين العرب، الذين عالجوا مواضيع التربية والتعليم، بالاضافة إلى مواضيع أخرى متعددة.



هوامش البحث ومراجعه

(١) الخوري، انطوان م. **أعلام التربية**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٤، ص٣٥، ٤١.

(٢) «ابن سينا»، **دائرة المعارف الاسلامية**، المجلد الاول، ١٩٣٣، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٣) الدفاع، عبد الله. «الشيخ الرئيس ابن سينا»، **المجلة العربية** (المملكة العربية السعودية)، العدد ١٢ (ايلول/سبتمبر ١٩٧٨)، ص٣٥ - ٣٩.

(٤) طلس، محمد اسعد. **التربية والتعليم في الاسلام**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٧، ص٩٢

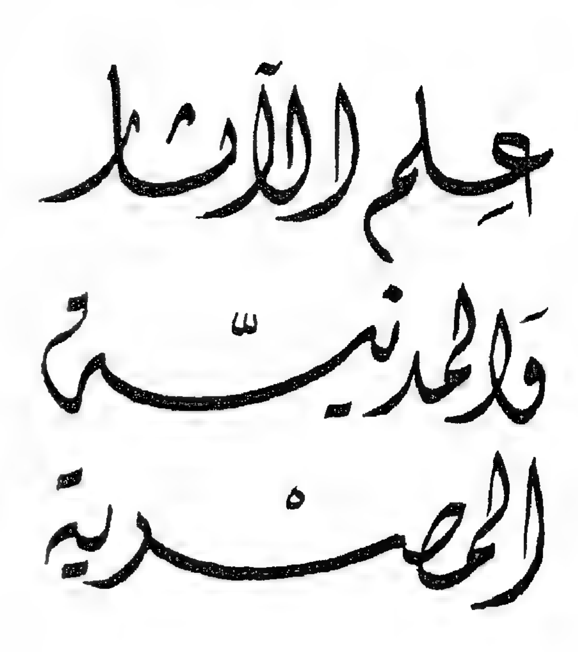
(٥) عبد الدايم، عبد الله. **التربية عبر العصور**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٣، ص١٨٨ - ١٩٤ و ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٦) فخري، ماجد. **تاريخ الفلسفة الاسلامية**، ترجمة كمال اليازجي. بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤، ص١٨٠ - ١٨١.

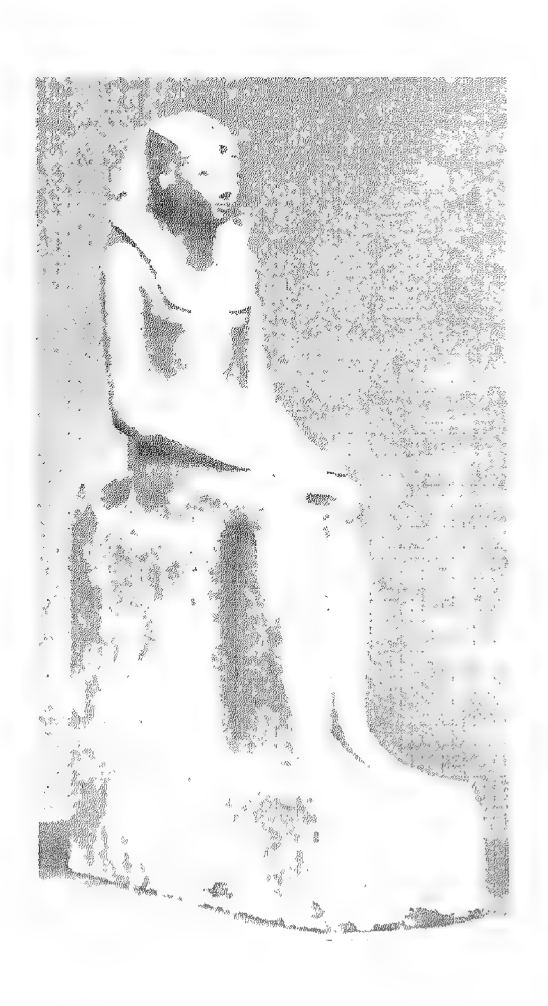
(٧) اليازجي، كمال. **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط**. بيروت: دار العلم للملايين، طبعة ثانية، ١٩٥٨، ص٢٤٨ - ٢٥١.

(٨) 'Avicenna, **The New Encyclopaedia a Britannica,** Vol.2 chicago, Ency. Britannica, Inc., 1978, p.540.

(٩) UNRWA UNESCO Institute of education. **Famous Names in Arab Islamic education.** (Mimeograph), pp. 4-6 (No Date).



د. نقولا زيادة



تمثال الملكة الفرعونية حتشبسوت

في سنة ١٨٥٠ ارسل متحف اللوفر في باريس ماريبيت الى مصر للبحث عن مخطوطات قبطية. لكن الرجل لم تكد قدماه تطأان ارض الكنانة حتى انصرف اهتمامه الى الآثار المصرية التاريخية، وبدأ الحفر في ممفيس في السنة نفسها. ولم يعد ماريبيت الى فرنسة بل انه قبل سنة ١٨٥٨ منصب مدير لادارة الآثار المصرية التي انشئت في تلك السنة، وظل في منصبه الى حين وفاته سنة ١٨٨١. وفي الثلاثين سنة التي قضاها في مصر حفر في ما لا يقل عن ثلاثين موضعا هاما بينها هياكل ابيدوس ومدينة حَبو والدير البحري وادفو وهيكل ابي الهول في الجيزة. وفي سنة ١٨٦٧ حمل مجموعة من الحلى المصرية القديمة الدقيقة الصنع الى باريس حيث عرضت في المعرض الكبير. ولما اظهرت الامبراطورة اوجيني رغبتها في الاحتفاظ بهذه المجموعة رفض ماريبيت ذلك واعادها الى مصر. واليه يرجع الفضل في انشاء اول متحف وطني للآثار لا في مصر فحسب ولكن في الشرق الادنى كله.

يعتبر ماريبيت رائد التنقيب الاثري في مصر. ومع ان الوسائل التي اتبعها كان يعوزها الاتقان، ومع ان الرجل لم يكتب تقارير وافية عن الحفريات التي قام بها، ومع انه اتلف كثيرا من الآثار في سبيل الوصول الى غيرها، مع هذا كله فهو صاحب فضل على العمل الاثري في وادي النيل.

ويأتي بعد ماريبيت فلندرز بتري وهو الذي جعل من التنقيب الاثري فنا علميا من حيث التخطيط والحفر والوصف والترتيب. وكان بتري يقوم بالاعمال باسم الجمعية البريطانية للآثار.

وقد ظل التنقيب عن الآثار في مصر حكرا على المؤسسات البريطانية والفرنسية الى سنة ١٩٠٠، ولكن بعد ذلك العام دخل الميدان جماعات اميركية والمانية وسويسرية وبلجيكية وايطالية. كما ان ادارة الآثار المصرية وجامعة القاهرة اخذتا على عاتقهما القيام بالحفر والتنقيب. ومن الاعمال التي تمت في القرن العشرين الكشف عن تل العمارنة وقبر توت عنخ امون والحضارة البدارية وغير ذلك. وكل عمل من اعمال رجال الآثار كان يزيد في معرفتنا لتطور الحياة المدنية في مصر عبر عصورها القديمة. وطبعا ثمة اسماء كثيرة واعمال اكثر لا يمكن التحدث عنها في هذه العجالة. ولكن لا بد من الاشارة الى ان العقود الثلاثة الاخيرة كان فيها توجيه نحو الفترة السابقة لعهد الاسر المصرية. وهنا لا بد من الاشارة الى اسماء سليم حسن وامري وزكي سعد.

لنكتف بهذا القدر من الاسماء ولننتقل الى استعراض للمدنية المصرية في اول عهدها. يقول امري «في فترة تقع حول سنة ٣٤٠٠ق.م. حدث تغيير كبير في مصر فاجتازت البلاد بسرعة من حالة العصر الحجري التي كانت مركبة تركيبا قبليا، الى مملكتين منظمتين تنظيما جيدا، الواحدة منها تشمل الدلتا، بينما تشمل الاخرى وادي النيل. وفي الوقت نفسه ظهرت الكتابة وتقدمت الفنون والصناعات والابنية تقدما مدهشا. وكل شيء يدل على وجود مدنية جيدة التنظيم بل يمكن القول بانها كانت مدنية فيها الكثير من الفخامة. وقد تم هذا كله في فترة زمنية قصيرة نسبيا، اذ انه ليس ثمة مقدمات او خلفيات تهيء لمثل هذا التطور في الكتابة والعمارة.»

وتلا ذلك، في غضون مدة لا تتجاوز القرنين، ان توحدت مصر كلها تحت امرة نرمر الذي كان ابنه اول ملك من ملوك الاسرة الاولى.

ونحن اذا القينا نظرة سريعة على حالة المدنية المصرية في تلك الفترة، وجدنا ان الملكية كانت، في ايام الاسرتين الاولى والثانية، مطلقة وان الملك كان يعتبر تجسدا للاله. ونجد ان الفنون والابنية، الدينية منها والرسمية، تعبر الى درجة كبيرة عن هذه الناحية.

اما في التجارة فنرى ان المصنوعات المختلفة والمواد الخام تنقل في داخل البلاد على نطاق واسع. فالحجر المعروف بالالبستر كان ينقل من الصحراء الشرقية، والبازلت من الفيوم، والرخام من المنطقة الساحلية للبحر الاحمر. وكان الفخار ينقل من مكان الى آخر



صورة تمثل مجموعة من الخدم يحملون كؤوس الخمر في طيبة

بكثرة. اما مع الخارج فقد كانت لمصر علاقات تجارية متينة. فقد كان النحاس والتوركواز يحملان من سيناء، وكانت الاخشاب تنقل الى مصر من لبنان وسورية خاصة الارز من لبنان. اما خشب الابنوس الذي كان يستعمل لتجميل الاثاث، فقد كان يأتي من الجنوب، وكان العاج يحمل معه. وما يهتم به علماء الآثار كثرة الاوعية التي كانت تحمل الى مصر من الخارج وخاصة من جبيل. ويبدو ان هذه الاوعية، التي تشبه الزجاجات او الجرار الصغيرة نسبيا، كان ينقل فيها زيت الزيتون الى مصر من فلسطين ولبنان وسورية. وكانت مصر تصدر الاوعية الحجرية الى لبنان وسورية وفلسطين وكريت وغيرها. وكانت المتاجر تنقل الى المناطق البحرية في سفن يرجح انها لم تكن مصرية.

والحياة الزراعية كانت تقوم على الافادة من مياه النيل اثناء فيضانه. والصناعات الزخرفية والحياتية كانت كثيرة. والبناء الرسمي والديني، كالاهرام وقبور الملوك والقصور كانت ضخمة جدا، مثل تماثيل قدامى الملوك. لكن بيوت العامة، مثلها في اماكن اخرى معاصرة، كانت بسيطة.

نحن في هذا الحديث لا نريد ان نفصل نواحي المدنية المصرية الاولى. ولكننا نود ان نطرح السؤال التالي: ما الذي حدث حتى أدّى الى هذا التطور الهام في الحياة المصرية فنقلها من حياة قروية الى حياة مدنية ذات كتابة في الفترة السابقة لعصر الاسر الاولى؟

للاجابه على هذا السؤال يترتب علينا ان نذكر بضعة امور هامة. اولها ان مدنية السومريين اسبق عهدا من مدنية مصر القديمة الاولى. ثانيا ان تطور المدنية المصرية السريع كان نتيجة تأثر مصر بعامل او عوامل فعالة جاءت من الخارج. فهل جاءت هذه من ارض الرافدين؟ ثالثا اذا نحن تذكرنا ان اختاما اسطوانية من النوع المعروف عند السومريين وجدت في مصر، ادركنا لماذا اقدم المصريون على استخدام هذه الاختام فيما بعد. رابعا من الواضح ان الفن المصري الذي ظهر في هذه الفترة كان مشابها في الكثير من صفاته للفنون السومرية — مثل مناظر الصيد والقنص حيث

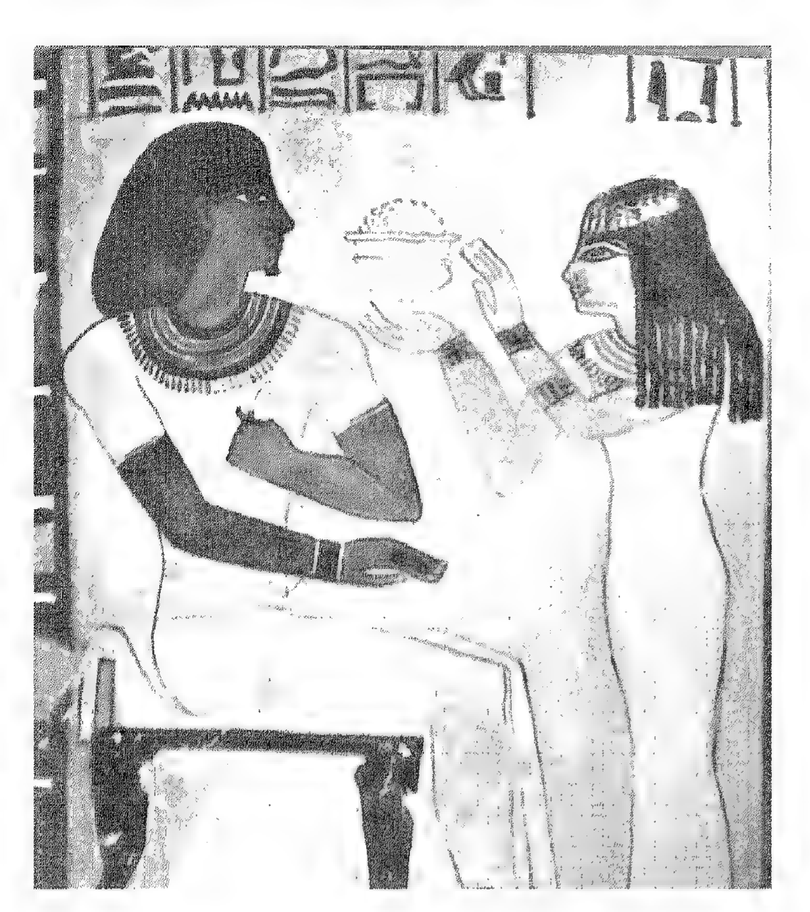


تمثال رعمسيس الثاني في الكرنك (المملكة القديمة)

مسلة كاموس اكتشفت عام ١٩٥٤ في الكرنك



من اشهر الآثار المصرية رأس الملكة نفرتيتي.



قبر سنفر

تفترس السباع الابقار وحيث نرى على سكين من الصوان عثر عليها على مقربة من ابيدوس صورة للبطل تشبه البطل السومري غلغامش يخضع اسدين. خامسا ان البناء المصري في تلك الفترة يشبه في استعمال اللبن البناء السومري. وسادسا واخيرا يبدو ان الكتابة الهيروغليفية نشأت تحت تأثير الكتابة المسمارية، مع العلم بأنها لم تلبث ان اختلفت عنها.

وكان هذا يؤدي الى سؤال آخر. كيف تم هذا التأثير؟ كان الرأي من قبل، وهو الرأي الذي قال به فلندرز بتري، هو ان جماعة من الخارج دخلت مصر فاتحة وهي التي حملت عناصر المدنية الى وادي النيل. واضاف آخرون ان هذه الجماعة قد تكون ارض الرافدين موطنها الاصلي. لكن نظرية الفتح هذه قل المنافحون عنها الآن. والذي عليه الكثرة من الباحثين هو ان المدنية المصرية القديمة الاولى تطورت بتأثير من ارض الرافدين. لكن هذا التأثير كان نتيجة حافز حضاري قام بنقله افراد على مدى من السنين بسبب الاتصال الذي كان قائما بين البلدين.

ولا بد من الاشارة الى ان ثمَّة فرقين هامين بين مدنية السومريين ومدنية المصريين. الاول هو ان الملك في مصر كان تجسدا للاله اي انه كان الهيا في طبيعته، اما في ارض الرافدين فقد كان الحاكم وكيلا للاله على الارض. ويتبع هذا ان ارض الرافدين كان لمدنها، حتى في وقت مبكر، قوانين مدونة. وليس قانون حمورابي سوى حلقة في هذه السلسلة. اما مصر فلم تكن تحتاج الى ذلك: فكلمة الملك - الاله هي القانون. والفرق الثاني هو ان مصر انتقلت بسرعة الى الدولة الواحدة، اما ارض الرافدين فقد ظلت مدة طويلة تتكون من ممالك - مدن.

هذه هي القضايا التي تفسرها الحفريات الاثرية ودراستها. لكن يجب القول بأن مثل هذه الاراء ليست نهائية، ولكنها هي المقبولة اليوم تفسيرا للتاريخ الحضاري في تلك الديار.

مظاهر المقاومة وروادها في الشرق القسنطيني ضد الاستعمار الفرنسي



الامير عبد القادر

(الحلقة الثانية)

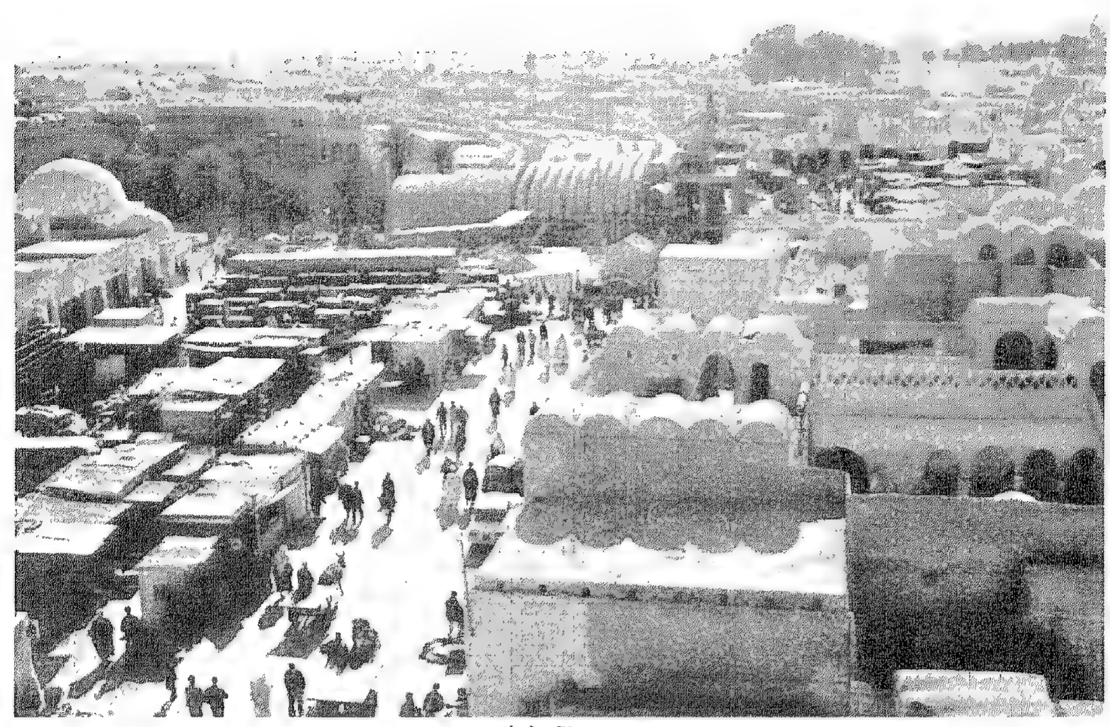
د. يحيى بوعزيز

احداث البابور والشمال القسنطيني فيما بين ١٨٤٠-١٨٧١

في الوقت الذي كان فيه الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر، والحسن بن غزوز، واحمد بلحاج، يقاومون القوات الفرنسية، في جبال المسيلة والحضنة وبو سعادة، وسهول سطيف، والبرج، ومجانة، عام ١٨٤٠ ثار سكان منطقة سكيكدة، وهاجموا قرية الحروش، وهددوا طرق المواصلات بين قسنطينة والموانىء الساحلية، واضطر الفرنسيون إلى اخلاء معسكر عين الترك غرب سطيف، ومارس الجنرال قالبوا: تخريب منازل السكان، ومزارعهم بصفة جماعية.

وثار سكان اولاد تبان في جبال بو طالب بزعامة الشيخ ساعد التباني، واولاد سيدي احمد بريغة القبالة، واولاد بني عبد النور غرب سطيف، وهاجموا القوات الفرنسية التي كانت تحارب جموع الحاج مصطفى، واتباعه، وجموع مولاي الطيب بعموشة.

وفي عام ١٨٤٦ برز مولاي محمد في غمولة ببني شبانة على الضفة اليمنى لواد الصومام، وكان من رفاق الثائر بو معزة في جبال الونشريس وحوض الشلف. فاستقر لدى اولاد صالح بجبال البابور، وقاوم نفوذ وسيطرة بو عكازة بن عاشور في فرجيوة، وهاجم بني ورز الدين، وتنقل بين القرى والمداشر، واصطدم بزعماء عائلة ابن عبيد، وعائلة ابن عاشور، المتعاونين مع جيش الاحتلال، ووقف إلى جانبه



مدينة «اواد».

الشريف سي موسى الاغواطي الذي اسس زاوية ببني يعلى، ونظموا عدة هجومات ضد القوات الفرنسية في السهول العليا وخاضوا معارك عدة في جبل غنيني وبني فوغال، والعلمة، وصدراته، واولاد نابت، وجبل مغريس وثنية، طكوكة، وجيجل، وعموشة، وبني عقيف، وبني وجهان، وبني يعلى، وبني ورتلان، وبني عيدل، وبني جماتي، وبني عباس، واولاد سيدي ابراهيم(٦).

وخلال اندلاع ثورة سكان واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩، اغتنم سكان البابور، الفرصة، وحملوا السلاح، وثاروا ضد القوات الفرنسية واعوانها، فامتدت اليهم ثورة الشريف بو بغلة التي انطلقت في بني مليكش عام ١٨٥١ بجبال جرجرة، وبرز الشريف بو صبع في هضبة القل ليدعم ثورتهم، وثورة بو بغلة ورفاقه، واضطر الجنرال بو سكي، وماكماهون، وسانت ارنو، ان يقودوا قوات ضخمة لمواجهتهم ومحاربتهم(٧).

ولم تنته احداث بو بغلة، وبو صبع، بالبابور، حتى اندلعت احداث اخرى في ربيع عام ١٨٥٦، وامتدت إلى العام الموالي، وخاض الثوار معارك كثيرة، في خراطة، وواد البرد، ومجاز النوق، وخلف الله، وجبل منتانو، وعين سلطان، وتاقربوست، وراجت اشاعات بين السكان بأن الفرنسيين يسعون لطردهم من املاكهم، واراضيهم، ليملكوها للمعمرين الاوروبيين القادمين من اوروبا، وسيجندون شبابهم، وابناءهم كذلك للعمل في الجيش الفرنسي، وقويت هذه الاشاعة كثيراً بعد ان تم انشاء مركز تاقيطونت العسكري، فثاروا وهاجموه، وسقط ضحايا كثيرون من الطرفين.

وفي صيف عام ١٨٤٨ اندلعت الاحداث الثورية مرة اخرى في هضبة جيجل، والقل، وحوض واد الكبير، بعد ان قامت السلطات الفرنسية بتمليك غابات الفلين(الفرنان) إلى المعمرين الاوروبيين ليستغلوها ويستثمروها، واشعل الثوار النيران في الغابات، واحرقوا

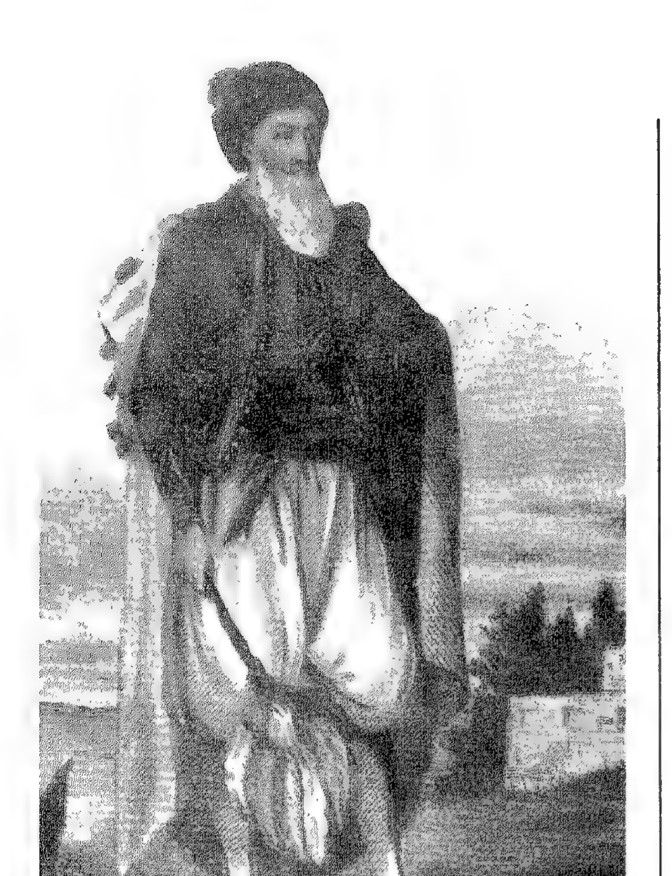
حوالي ٥٥٠ الف شجرة فرنان، ورفضوا دفع الضرائب للسلطات الفرنسية الاستعمارية، وجدوا في اقتناء الاسلحة والذخيرة، واضطر الجنرال غاستو: (Gastu) ان يهاجمهم بقوات ضخمة، وينشىء مركز الميلية العسكري على الضفة اليمنى لواد الكبير، ليدعم القوات الفرنسية ويحميها.

ومع ذلك لم تتوقف ثورات سكان البابور، فاستغلوا رحيل القوات العسكرية الفرنسية إلى ايطاليا للمشاركة في الحروب التي اندلعت بها عام ١٨٤٩ وجدوا في اقتناء الاسلحة والبارود، وهاجموا الاسواق التي يرتادها الفرنسيون، وقطعوا خطوط الهاتف بين قسنطينة وجيجل اربع مرات، وساءت الاوضاع كثيراً في الزواغة، وواد الكبير، وفي دائرة جيجل، مرة اخرى، وخاض الثوار ضد الجنرال ديفو، وقواته التي تبلغ عشرة آلاف جندي، معارك كثيرة وضارية في العروسة، وبو طويل، وينتمون إلى اولاد علي، وبني عيشة وبني حبيبي، وبني يدر، وبني فتاح، وبني مسلم، واولاد عواط، وبني طوفوط، واولاد عيدون، وعرب تاسقيفت، وغيرهم.

ثورة سكان الزواغة وفرجيوة واسبابها عام ١٨٦٤

كانت منطقة فرجيوة تشتهر بعائلة بو عكاز بن عاشور الذي تولى مشيختها من طرف الحاج احمد باي عام ١٨٣٤، واشترك معه في حروبه ضد الفرنسيين، واتسع نفوذه حتى شمل كل مناطق فرجيوة، وساحل البابور، وبني فوغال، واولاد عمران، واولاد سيدي علي، والرواشد وسواحل جيجل.

وبعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة عينه الماريشال فالي شيخاً على فرجيوة تحت امرة الخليفة بلحملاوي، واشترك في عملية استكشاف الطريق بين قسنطينة وسطيف لقافلة فالي التي ستعبر مضيق البيبان في اكتوبر ١٨٣٩، وتآمر على رئيسه بلحملاوي ولفق ضده تهمة فعزله الفرنسيون ونفوه مدة إلى تونس، على امل ان يحل في مكانه.

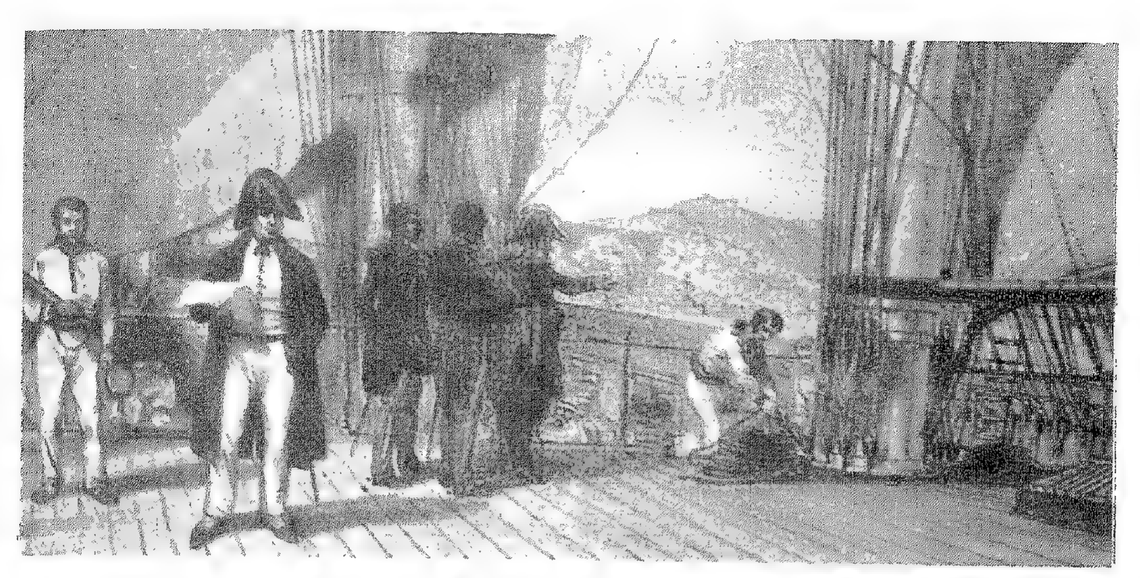


داي الجزائر حسين باشا

وفي عام ١٨٥٠ اقتيد إلى قسنطينة، ورافق الجنرال سانت ارنو في حملته العسكرية الضخمة على بلاد البابور في العام الموالي، بين قسنطينة، والقل وجيجل، واستعمل كأداة لاخضاع السكان، ومنح نيشان الشرف بعد عودته، واذن له بالذهاب إلى الحج لعدة شهور.

وخلال السنوات التالية اشترك مع الفرنسيين في كل العمليات العسكرية التي شنها الجيش الفرنسي على هذه المنطقة حتى عام ١٨٦١، ثم تغيرت الاوضاع عليه، واصدر الجنرال ديفو قراراً في شهر نوفمبر بابعاده من فرجيوة إلى قسنطينة، وقسمت ناحيته إلى منطقتين اثنتين: فرجيوة وعين عليها سي أحمد خوجة، والبابور والدهامشة وعين عليها سي احمد بن الدراجي، وكلاهما من اقاربه وكان ذلك بداية لانهيار مركزه ونفوذه وضعف شخصيته فأخذ يميل هو الآخر إلى الثورة.

أما الزواغة، فقد اشتهرت بها عائلة اولاد بني عز الدين الذين كانوا يتولون مناصب في



الجنرال بورمون والاميرال دوبيري في طريقهما الى الجزائر يقودان ٦٠٠ سفينة تحمل ٣٧٠٠٠ جندي

عهد الاتراك واشتهروا بعد الاحتلال الفرنسي باثارة الاضرابات وعندما غزا الجنرال بيدو مناطق بني قايد، وبني خطاب، واولاد عيدون، عام ١٨٤٧ تمهيداً للتوسع الاستعماري في البابور، وضع اولاد بني عز الدين انفسهم تحت تصرف السلطات الفرنسية، وبرز بورنان كزعيم مشاغب، وحاول ان يستغل احداث ثورة الزعاطشة لاثارة السكان، فاقترح ابن عاشور على السلطات الفرنسية ان تعينه قائداً على المنطقة فأخذت برأيه، واعدت مشروعاً واسعاً لاحتواء زعماء اسرة ابن عز الدين فعين بو لخراص قائداً على موية، وبني تليلان، وبني ابراهيم، وعين الشيخ محمد بن عز الدين قائداً على الزواغة، واولادعسكر، واولاد يحي، واولاد موات، وعين بورنان قائدا على حوض واد الكبير.

واشرك بورنان بعد ذلك في حملة سانت ارنو الكبيرة عام ١٨٥١ مثل بني عاشور واظهر حماساً في محاربة السكان بواد انجة، وفج باينان والودية وفج العربة، وكازان، وفج منازل، والعروسة،. اشترك مع ماكماهون في غزو حوض واد الكبير عام ١٨٥٢، وبقي على اخلاصه حتى عام ١٨٥٨ ثم تغيرت الاحوال والاوضاع ضده، فاتهم باشعال الحرائق في غابات الفرنان، ومهاجمة الشيخ بو طمين في الضفة اليسرى لواد الكبير، ويقطع الهاتف بين جيجل وقسنطينة، وقتل العمال الثلاثة بالميلية، وتشجيع الناس على الثورة وحمل السلاح كما ادعى فيرو ذلك.

وقامت السلطات الفرنسية باعداد ملف كبير ضده، وصفت معه الحساب في ربيع عام ١٨٦٠، إذ اتهمه الجنرال ديفو بتحريض الناس على عدم دفع الضرائب، ومهاجمة قواته في سيدي معروف، وبادر هو وابن اخيه عز الدين بن الشيخ محمد، وقام بتصفية نفوذ اسرته كلها ما عدا اثنين وهما: بو لخراص الذي ابقي قائداً على موية منذ تعيينه عليها عام ١٨٥٠، والحاج بن عز الدين الذي عين قائداً على بني بدر في جيجل منذ عام ١٨٥٩ وابقى عليهما.

وقد قدم، بورنان وابن اخيه عز الدين، إلى مجلس حربي، ونفيا إلى تونس حيث توفي بورنان، وسمح لولديه: علاوة، وعبود، بالعودة إلى الجزائر.

أسباب اندلاع ثورة الزواغة وفرجيوة

لقد ساد الهدوء منطقة الزواغة، وفرجيوة، حتى مطلع عام ١٨٦٤، ثم اندلعت فيها الاحداث وارتمى فيها كل افراد اولاد بن عز الدين واولاد ابن عاشور الذين استطاعوا ان يلحقوا بها، ومن اهم اسباب هذه الثورة حسب رأي شارل فيرو(٨).

أولاً. تأثير ثورة اولاد سيدي الشيخ التي اندلعت بالبيض، وستيتن بالجنوب الوهراني، وانتشرت احداثها في معظم انحاء الجزائر الغربية والوسطى ووصلت تأثيراتها إلى شرق الجزائر القسنطيني.

ثانياً: تأثير ثورة علي بن غذاهم بتونس التي اندلعت ضد الباي الذي كان العوبة في يد القناصل الاجانب، ووصلت تأثيراتها إلى الشرق القسنطيني عبر الحدود الشرقية خاصة مدينة الكاف التي كان يستقر بها عدد كبير من اللاجئين الجزائريين المنفيين ويقومون بالدعايات الواسعة ضد الاستعمار الفرنسي ويحثون على محاربته.

ثالثاً: بروز عدد من رجال الدين، والمقدمين الرحمانيين بالمنطقة قاموا بحث الناس على حمل السلاح والثورة ضد المستعمرين الفرنسيين واعوانهم، ومن بين هؤلاء:

- الشيخ الحاج حجوج بميلة: الذي ادعى للناس بأنه تلقى تعليمات بالحجاز في السنة الماضية من طرف نائب السلطان العثماني، بأن يقوم بالثورة ضد الفرنسيين، ويدعو السكان لها.
- الشيخ بو قرين، في اولاد عبد النور بقرية كارب، الذي سعى هو الآخر للقيام بالثورة.
- الشيخ مولاي محمد مقدم الطريقة الرحمانية بالزواغة الذي كان له انصار كثيرون في مدينة قسنطينة نفسها، فحثهم جميعاً على الثورة وحمل السلاح في الاجتماع الذي عقده بمنزله يوم عيد الفطر لعام ١٢٨١هـ (١٠ مارس ١٨٦٤م) وأكد لهم بأنه بعد ثمانية ايام ستندلع الثورة، ووفى بوعده، وانطلقت حوادث العنف فعلاً يوم ١٨ مارس ١٨٦٤ بالهجوم على برج القائد حمو بقرية الزغاية الذي خلف بورنان في منصبه، وعقد اولاد ابن عز الدين واولاد بن عاشور، عدة اجتماعات لتنسيق العمل رغم الاختلافات التي كانت بينهم سابقاً.

ورغم قيام السلطات الفرنسية باعتقال المقدم مولاي محمد، وايقاف بو عكاز بن عاشور في قسنطينة، والقائد بو لخراص في جيجل، وعبود وعلاوة، فإن معظم اولاد بن عز الدين القاطنين بقسنطينة التحقوا بالثورة، ولحق بهم اخوانهم المنفيون بتونس خلال (حزيران) جوان، وحدثوهم عن اخبار ثورة بن غذاهم، واشاعوا بينهم بأن سفنا حربية محملة بالسلاح هي في طريقها إلى تونس من القسطنطينية، وان السلطان العثماني عبد العزيز نفسه سيصل إلى الجزائر قريباً ليحررها من الغزاة الفرنسيين الاجانب.

وقد تصدى الثوار لقوات الجنرال بيريقو التي كانت تقدر بحوالي عشرة آلاف جندي وهاجموه في برج القانون قرب واد الحليب وارغموه على نقل معسكره إلى اطراف واد الكبير ليدافع عن نفسه وعن قواته، ثم استدعي إلى منطقة الحضنة وبو سعادة ليواجه احداث ثورة اولاد سيدي الشيخ التي وصلت إلى هناك، فاستخلف في مكانه القائد بن حبيلس كبديل للقائد حمو الدراجي صهر بو عكاز بن عاشور، ولكنه واجه صعوبات كبيرة لان الناس رفضوا طاعته، وامتنعوا عن دفع الضرائب له، وحاولوا اغتياله، وارغموا عمال طريق شعبة الآخرة بعموشة، على التوقف عن العمل، وخرّبوا محطة العمل، وهاجموا زمالة قائد اولاد صالح بعموشة، وبرج تاقيطونت العسكري وبرج القائد حمو او عاشور، القائد السعيد بن عبيد في ذراع القائد ببني سليمان وساحل قبلي، ومعسكر اوقاس على ساحل بجاية وخرجوا قرية الدهامشة، واضطر الفرنسيون ان يجندوا قوات اخرى بقيادة الكولونيل اوجورو، والجنرال بيريقو الذي عاد مرة اخرى إلى البابور بعد ان ساءت الاوضاع كثيراً، ولم تنته حوادث الثورة هذه حتى صيف عام ١٨٦٥.

ثم ساد الهدوء مرة اخرى منطقة البابور لغاية عام ١٨٧١، حيث اندلعت الثورة مرة اخرى، بأولاد عيدون في الميلية، في شباط فيفري، وبمعظم مناطق البابور بعد ذلك وحمل السكان السلاح بصورة جماعية بعد اندلاع ثورة المقراني والحداد بمجانة، وصدوق، في نيسان ابريل ولعبوا دوراً بارزاً فيها بقيادة بو مزراق، وعزيز الحداد، وعمر بو عرعور، وابن فيالة والحسين مولاي الشقفة، وغيرهم، وسجلوا



ابطال الغد.

صفحة مشرقة ومشرفة في تاريخ المقاومة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي في هذا القطاع القسنطيني ودامت الحوادث إلى اواخر شهر اكتوبر. تشرين الاول.

مصير زعماء ثورة ١٨٦٤ و ١٨٧١

لقد واجه الفرنسيون بقسوة وشدة الثوار في كلا المرحلتين السابقتين فقد قبض على بو عكاز بن عاشور، واودع السجن بقصبة قسنطينة من ١١ نيسان إلى شهر آب ١٨٦٤ ثم نفي إلى مدينة بو جنوب فرنسا إلى ان صدر عليه العفو عام ١٨٦٥ فعاد إلى الجزائر العاصمة وفرضت عليه اقامة جبرية حتى عام ١٨٧٠ ثم سمح له بالعودة إلى قسنطينة فعاد مسروراً.

أما اولاد ابن عز الدين فقد نفوا إلى مدينة كورتي (Carté) بشرق جزيرة كورسيكا، وتوفي هناك عبود، وسمح لبو لخراص، والحاج بالاتجاه إلى تونس للالتحاق بأبناء عمومتهم المنفيين هناك منذ عام ١٨٦٠.

وحاكموا عدداً من ثوار ١٨٧١، وصادروا املاكهم ونفوا البعض منهم إلى نوميا بكاليدونيا الجديدة، والبعض إلى فرنسا وكورسيكا والبعض إلى كيان بأمريكا الجنوبية.

هكذا بهذا الاسلوب تخلص الفرنسيون من اولاد ابن عاشور، واولاد ابن عز الدين عام ١٨٦٤، ومن الثوار الآخرين عام ١٨٧١، وهو نفس الاسلوب الذي اتبعوه بعضاً العائلات الاخرى كعائلة المقراني بممانة وعائلة اولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني، وعائلة الحداد بصدوق.

تلك هي باختصار مظاهر المقاومة بالشرق الجزائري، واولئك، هم بعض روادها، وتلك هي خصائصها، وذلك هو رأي الفرنسيين وموقفهم منها، ومع ان الفرنسيين اهتموا بتسجيل احداثها خاصة شارل فيرو، ولويس ريسن، وروبين وشاتولين، إلا ان ذلك تم من وجهة نظر استعمارية، ولا بد من البحث من جديد عن وثائق جديدة عنها، واعادة صياغتها من وجهة النظر الوطنية الامنية، وهي مهمة الباحثين الجزائريين في جامعات الجزائر الصاعدة، والارشيفات الاجنبية خاصة الفرنسية والتركية والتونسية والمغربية تزخر بكثير من هذه الوثائق وتنتظر من يزيل عنها غبار النسيان والاهمال وينقذها من الارضة، والتلف.

الهوامش

(٦) انظر يحيى بو عزيز المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائري. الاصالة. عدد ٥٤/٥٥. (الجزائر - فيفري - مارس ١٩٧٨) ص ٢١ - ٥٨.

(٧) انظر يحيى بو عزيز اضواء على انتفاضة سكان الزعاطشة والشيخ بو زيان عام ١٨٤٩. الثقافة. عدد ٣٢ (الجزائر . ابريل. ماي ١٩٧٦) ص ٣٩ - ٥٠.

(٨) انظر. يحيى بو عزيز ثورات سكان الزواغة وفرجيوة بالبابور ضد الاستعمار الفرنسي وقضية الحاج بن عز الدين. الثقافة. عدد ٤٠ (الجزائر - اغسطس - سبتمبر ١٩٧٧) ص ١١ - ٢١.



ابراهيم
موسى
حمدون

ان الالمام بمصادر البحث خطوة رئيسية نحو الدراسة المنهجية الاصيلة والبحث العلمي الجاد واي دراسة غير مستوفاة المصادر تكون في الغالب مهزوزة الاساس جزئية النتائج. وحتى يتسنى لنا الاستئناس بمصدر من المصادر وترجح حوادثه ترجيحا يجعله قريبا من الحقيقة يحسن موازنة المصادر المتنوعة واخذ ما اكدته مجتمعة او إذا اتفق عليها اكثر من واحد حتى نصل الى تصور معقول للحوادث القديمة اذ لا سبيل الى راي قاطع في حوادث مضت عليها عدة قرون. ◄

سيتناول هذا المقال مصادر دراسة تاريخ السودان منذ اقدم العصور حتى مطلع القرن السابع الميلادي

- في مسح شامل دونما تحديد لتفاصيل دقيقة
- في اربع نقاط اساسية وهي:

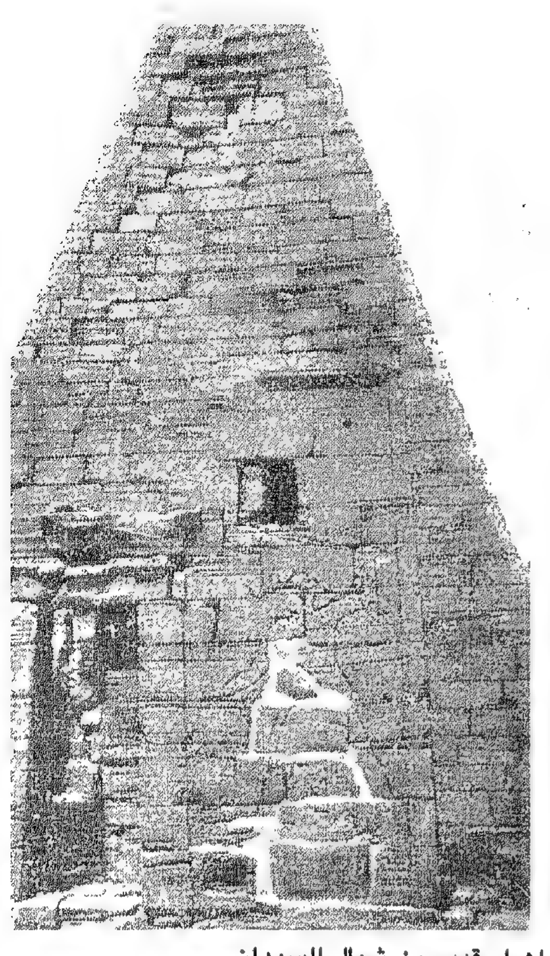
الاشارات التي دونت في الحضارات الاخرى، وما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون - الاغريق - والرومان، والمكتشفات الاثرية واخيرا اللغات المحلية والخارجية.

تدرجت الدراسات السودانية القديمة عبر مراحل ثلاث بدأت بالرواد الاوائل من الرحالة والمكتشفين الذين زاروا السودان وسجلوا ملاحظاتهم عن البقايا الاثرية، اولهم جيمس بروس(١٧٧٢) ثم بوركهارت(١٨١٤) واستطاع فردريك طايو(١٨٢٠) رسم كثير من آثار النوبة ونشر رتشارد ليوسيس بعض الرسومات الاثرية لمنطقة البطانة في مجلد وزوده ببعض الخرائط. ويعتبر من اهم الرواد الاوائل لعلم الآثار. ولم تتعدى ملاحظات الرواد الاوائل السطح ولم يقم احد منهم بحفريات منتظمة.

يصعب قبول الروايات الشفهية والسماعية كمصدر للتاريخ القديم وذلك لبعد الشقة الزمنية والحضارية والسلالية بين الاجيال الماضية والمجتمعات الحاضرة.

وفي المرحلة الثانية قام الدكتور يدج (١٩٠٢ - ١٩٠٥) باجراء حفريات في منطقة مروى القديمة وفحص بعض اهرامات البجراويه. ويعد رايزنر اهم بل اميز علماء آثار السودان وقد عمل بصبر وجهد مضن وسخر امكاناته العلمية القليلة. ونجح في كشف كثير من البقايا الاثرية. فقد كشف النقاب عن مدافن الاسرة المالكة في الكرو ونورى والبركل ومروى القديمة. والقى ضوءا على حضارة المجموعات وكرمه في الشمال والتي تعتبر النواة الحضارية الاولى بالسودان كما وضع اول جدول زمني لتسلسل ملوك (نبته - مروى) التاريخي.

واشتهر قرينث في مجال اللغات السودانية القديمة فقد اكتشف الابجدية المرويّة وفك رمز كتابتها وتعرف على بعض مميزاتها وخصائصها واشتهر في هذا المجال من بعدهما دمنهام ومكادم وهنتزا ولكلاندوسيتي ومايللوفسكي



اهرام قديم من شمال السودان

وكثير منهم لا يزال نشط الابحاث.

ودخلت الدراسات السودانية طورها الثالث في نحو عام ١٩٥٥ حيث بدأت حملة انقاذ آثار النوبة قبل ان تغمرها مياه السد العالي. وازداد تبعا لذلك نشاط البعثات الاثرية الاجنبية والمحلية بصورة ملحوظة. واتت هذه الفترة وهي لا تزال مستمرة (وقد تقدمت نحو الجنوب) بالمنهج العلمي المزود بالمعدات الحديثة المتخصصة ومن اميز علماء هذه الفترة وليام آدمس د.وكلارك وغيرهما.

وبفضل هذه الجهود العلمية تطورت الدراسات السودانية «القديمة» وتنوعت وانشئت لها مدارس في مختلف الجامعات والمعاهد العليا في العالم وتمكن الباحثون من تناول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والانظمة الادارية وعرفت بعض مناحي الحياة اليومية في السودان القديم.

١ - الحضارات القديمة واشاراتها:

للسودان القديم صلة وثيقة بمصر وكثير من الحوادث في مصر كان لها اثرها في حياة النوبة كما اثرت حوادث النوبة في حياة مصر القديمة. فهناك اشارات عن السودان القديم في كتابات المقابر التي دفن فيها اشراف مصر الذين كانوا يتجرون مع جماعات واواث ديام في بلاد النوبة كرجلات خركوف ومبيني تحت دسيني في عهد الملك بيبي الثاني. ثم نقوش اوف التي تدل على وجود تومبين (تاتحس) مرتزقة في جيوش مصر. ومنها يستخلص المرء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في النوبة واشارات واضحة للسودان القديم في المعلومات الرسمية المدونة في سجلات فراعنة مصر في المملكة القديمة والوسطى والحديثة - وظل السودان تحت سيطرتها ردحا من الزمان. مثل مسلة المملكة الوسطى على عهد الملك سويزوسترس الثاني التي اوضحت الحدود بين مصر والسودان. ولقد دون الاشوريون صلاتهم بالنوبة والقت سجلاتهم بعض الضوء على الاحوال السياسية في كوش وقوتها الحربية. وآثار الملك الاكبر ميزانا في المصادر الحبشية مدعيا تبعية بعض اجزاء السودان القديم لدولته[١] ويظن ان خراب محلكة مروى كانت على يديه وهذه عبارة تحتاج الى تدقيق ونظر.

ان المعلومات التي تمدنا بها حضارات الدول المجاورة تكون غالبا مرتبطة بالامور السياسية والحربية وتعكس فترات اضطرابات وغزوات ومبالغة في وصف الجيوش ومقدرة المحاربين القتالية وربما دون بعض الملوك في سجلاتهم انتصارات وهمية على معارك قد هزموا فيها فعلا. لذلك يحسن اخذها بشيء من الحيطة والحذر وعدم التسليم الكامل بصحة الحوادث.

٢ - المؤرخون الكلاسيكيون الاغريق والرومان:

تغطي اشارات الكتاب الكلاسيك فترة زمنية طويلة منذ القرن السادس والخامس قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي فقد ذكر هردوتس السودان القديم وبعض انظمته الحربية وذكر بيون (Bion) واراتو ستويش (ERATOSTHENUES)[٢] في القرن الثالث قبل الميلاد واشارا الى توليه الحكام ومرتبه الكنداكه الوظيفية في مملكة مروى. ومن الم الكتاب الكلاسيك استرابو وديوروس الذي يجعل للكهنة مكانة عالية في دولة مروى فيقول «اذا ضاقوا ذرعا بملوكهم يأمرونهم بأن ينتحروا على اساس ان هذا الامر صادر من الاله[٣]» ووصف استرابو المواد الغذائية في المملكة المروية واشار على ان منازلهم في المدن قد بنيت من الحجارة وفروع الاشجار. وكانوا يصطادون الحيوانات المفترسة مثل الفيلة والاسود. ولقد ورد اسم السودان القديم في الكتاب المقدس الذي ذكر الملك ترهاقا والكنداكه احدى ملكات مروى.

اتسمت الكتابات الكلاسيكية بالوضوح واظهر كتابها السودان القديم (عندهم اثيوبيا) امام مجتمعاتهم المتحضرة في ذلك العصر ورغم المبالغة والتعميم الا انها تثبت قدرا من الحقيقة، ولكن معظمهم اخذ معلوماته عن السجلات الرسمية في مصر او المصادر المتناقلة شفاهة وقلما نجد منهم من زار السودان لذلك نعتبر اشاراتهم رغم اهميتها ثانوية صورت كثيرا من العصور الخرافية مدونة اراء من كتبوها والتي قد تخالف الواقع المألوف احيانا.

٣ - المخلفات الاثرية:

أ - المدافن: وجدت فكرة المدافن تقديرا واحتراما عظيمين عند الانسان القديم وهي تعكس لنا كثيرا من مظاهر حياته اليومية خاصة وان قدماء السودانيين منذ عهود دويلة كرمه كانوا يعتقدون في فكرة البعث ويظنون انهم سيحيون حياتهم الاولى مرة اخرى لذلك اصطحبوا معهم الى مدافنهم اوانيهم والاتهم الحربية وحيواناتهم واحيانا جزءا من رعيتهم. لذلك فان المدافن تعد مرآة صادقة تعكس الحياة الاجتماعية والاقتصادية لتلك الشعوب. وتتجلى فيها قوتهم الادارية وقيمتهم السياسية. ولقد تطورت المدافن السودانية من حفر مستديرة حتى بلغوا الاهرامات السامقة كاهرام ترهاقا في نورى واهانا شحتى في البجراويه.

ب - المعابد: وتعتبر المعابد مصدرا ثرا من مصادر تاريخ السودان القديم فقد اودعها القدماء اعز واغلى ما يملكون من فنون وتماثيل ونقشوا على جدرانها واعمدتها الرسومات والكتابات الوطنية المختلفة وحفظوا في كثير منها مسلات تتوجهم. وتكشف لنا الحياة الوثنية ونوع الاله المعبود كمعبد آمون في الكوة ومعبد الاسد في الصورات الذي بني على نمط الفن المعماري المروي الاصيل للاله الوطني ابا دماك حامي دولة مروى.

ان دراسة مواقع المدافن والمعابد ومظهر بنائها يساعد كثيراً في تحديد التسلسل الزمني للملوك المدفونين بها او الذين بنوها لان الملوك الاوائل غالبا ما يحتلون المواقع الجيدة لانفسهم.

جـ - المساكن والمدن، مهمة في معرفة التكوين الاجتماعي والتوزيع السكاني وهي نادرة. من احدثها في الجزء الجنوبي مدينة مروى القديمة وقصر ابريم في اقصى الشمال. واهمية المساكن في قرى ومدن ومعسكرات وقتية ومستديمة، تكمن في تحديد فترات تطور المنطقة المأهولة وعمرها وهجرها والعودة اليها ان حدث شيء من ذلك. وتمد الباحث بالاحوال المعيشية، ففي مروى القديمة كانت الاغنام مهمة في الطور الاول في نمو المدينة ولكن كثر استعمال البقر كما توضحه بقايا العظام ولعل ذلك مرتبط بالتطورات الاقتصادية التي حدثت في ارض البطانة بعد اقامة الحفائر الكبرى الخازنة لماء المطر. وعثر على اماكن صهر الحديد حول المنطقة السكنية في مروى القديمة. وذلك طور صناعي مهم احدث كثيرا من التحولات الاجتماعية والاقتصادية في مملكة مروى.

د - وتعتبر الاواني الفخارية والمصنوعات الوطنية مصدرا مهما لتطور الصناعة في السودان القديم ومنه يستخلص المرء ما احدثته الصناعات والالات المستجلبة من تحولات اجتماعية واقتصادية اعني تلك التحولات التي صحبت صناعة الحديد ودخول الساقية في السودان وادوات الزينة التي استخدمتها العائلة المالكة وينعكس فيها تذوقهم للصناعات المستجلبة من الدول المجاورة(٤).

والدراسات الاثرية في جملتها تستكشف اصول كثير من مقومات الحضارة السودانية وميراثها القومي الذي لا تستغني عنه الاجيال الحاضرة وتعكس مدى تأثر حضارتنا بالحضارات الاخرى وتأثيرها فيها مرتكزة على اسس علمية وقواعد ثابتة بعيدة عن التخيلات والتمييز الاقليمي. وللدكتور احمد الحاكم(٥) جهود طيبة في ابراز مقومات الحضارة السودانية الاصيلة ويذهب ابعد من ذلك فيرى ان هناك اثرا سودانيا في الفن المصري القديم وخاصة فن التماثيل المنحوتة.

ويجب ان ننبه على ان الدراسة الاثرية وحدها ليست بكافية لانها تمدّ الباحث بمعلومات تفصيلية عن اجيال ومجتمعات ولا تعكس نشاط الافراد وانجازاتهم ودورهم في المجتمع ولا تستكشف بجلاء دور الملوك وانجازاتهم السياسية في كل جوانبه.

٤ - اللغات القديمة:

ان اللغة مظهر ثقافي يعكس درجة رفيعة من التطور الحضاري وهي في الغالب ناتجة لعدة عوامل حضارية لذلك فإنا نرجو منها الكثير لمعرفة اسرار الحضارة السودانية القديمة. عرف السودان القديم الكتابة عن الحضارة المصرية. وكان ملوك السودان يدونون مراسيمهم الدينية ومحافل تتويجهم في مقابر وجدران المعابد والواح ومسلات مسجلين تحركاتهم الحربية وانجازاتهم السياسية والادارية مدونة باللغة المصرية القديمة حتى ظهرت اللغة المروية مؤخرا نحو منتصف القرن الميلادي الثالث وهي اللغة الرسمية لحكام مروى، رسمت اولا على الحروف المصرية ثم صارت لها احرفها الخاصة بها وبظهورها توحدت لغة المخاطبة والمكاتبة(٦) وتعد تطورا جديدا في الرقي الحضاري والثقافي وانجازا راقيا اسهمت به مروى في الحضارة الانسانية. ولقد ترعرعت اللغة المروية في ارض البطانة وعمت بقية اجزاء الدولة المروية حتى بلغت النوبة السفلى، وازدهرت تحت البشتي (Pashate) حكام تلك المنطقة حيث استخدموها في كتاباتهم على جدران المعابد وشواهد القبور في كرانوك وابريم وصادنقا. ويحاول الدكتور



معبد من شمال السودان

براين جورج هيكوك[7] تطويع الدراسات اللغوية لاستخلاص الناحية الادارية والعلاقات الاجتماعية. واشجار النسب - وللدكتور عبد القادر محمود[8] محاولات جزئية في تحليل مشتقات اللغة المروية واستكشاف علاقاتها باللغات القديمة الاخرى لفكها ومعرفة ما غاب عن معاينتها وقواعدها. والامل معقود على معرفة اللغة المروية والاستفادة من محتوياتها في دراسة التاريخ.

واعقب زوال الدولة المروية في القرن الرابع الميلادي سيادة اللغة النبطية والاغريقية كفن تدوين حتى ظهرت اللغة النوبية القديمة واستمرتا جنبا الى جنب مع اللغة النوبية القديمة حتى نحو منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ويرجى منها الكثير في معرفة تاريخ تلك الفترة وخاصة التطورات الدينية وعلاقة الكنيسة بالحكام. وعلاقة الكنيسة السودانية بالكنائس الاخرى في مصر والقسطنطينية.

واللغة النوبية القديمة هي لغة وطنية اصيلة غير اللغة المروية ولا يعرف حتى الآن علاقتهما بالتحديد ولقد رسمت على الاحرف الاغريقية. وتدل على تسرب بواكير الدعوة النصرانية في السودان . وتدون الحياة الاجتماعية والاقتصادية واحيانا تنصرف الى قضايا الارض وتملكها. والامل معقود على دراسة اللغة النوبية القديمة بصورة مستوفاة ومقارنتها مع اللغات المتشابهة لها مثل لغة البرقو والميدوب في دارفور والنوبا في كردفان والنوبة في شمال السودان. لان ذلك في نظري مفتاح مهم لمعرفة موطن الشعب النوبي الحقيقي ومصدر هجرته شرقا وغربا وعلاقات وادي النيل الثقافية بغرب السودان.

نسبة لان طلاسم اللغة المروية لم تفك بعد ولا تزال كثير من معانيها مستترة، وتحتاج اللغة النوبية القديمة الى جهد اوفر لفهمها ولان مصادر اللغة تركز على القيم الروحية من بلاط وكهنة وحوادث ذات صيغة رسمية دون ان تذكر جانب الرعية واحوال معيشتهم لذلك فإن المصدر اللغوي يعد ناقصا غير مستكمل الجوانب ومن ثم يحسن اخذها بشيء من الحذر اللهم الا ما اكدته المصادر الاخرى. ■

هوامش

(١) P.Shirnie: Meroe-The civilization of the Sudan.

(٢) J.Desanges: BIFAOL XVI, 89-104

(٣) شرقي الجمل ١٨١.

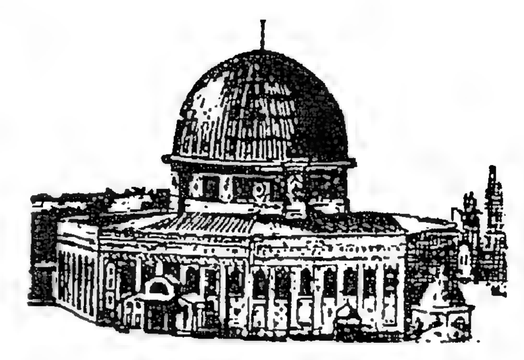
(٤) متحف السودان القومي - الخرطوم.

(٥) رئيس شعبة الاثار جامعة الخرطوم.

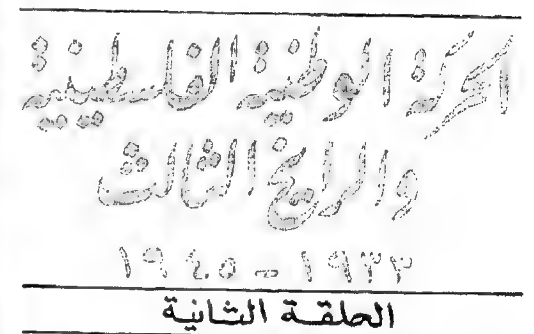
(٦) Reflections on the administration of Lower Nubia in the Meroitic times.

(٧) استاذ التاريخ القديم بجامعة الخرطوم.

(٨) استاذ اللغة المروية في جامعة الخرطوم.



المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام
«فلسطين» ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠

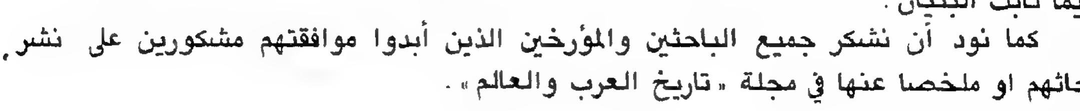


الحلقة الثانية

د. علي محافظة - الجامعة الاردنية - عمان

تقديراً من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخراً في عمان ما بين ١٩-٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤-٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. اعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال تود ان تؤكد أنها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرمسية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر ونتمنى ان تستمر الجهود في جميع انحاء الوطن العربى لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم



وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

مع بداية الحرب العالمية الثانية انتقلت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية الى العراق وقويت شوكة المفتي الحاج امين الحسيني الذي حاول تمتين العلاقات العربية مع المانيا، بخاصة بعد سفره اليها واجتماعه بهتلر. في هذه الحلقة تسجيل وتحليل لهذه الفترة من العلاقات الفلسطينية - الالمانية.

وأصبح المفتي الآن صديقاً حميماً لهذا الفريق من السياسيين العراقيين الذي يضم رشيد عالي الكيلاني وناجي السويدي وناجي شوكت من رؤساء الوزارات السابقين، وموسى الشهبندر ويونس السبعاوي ومحمود الشيخ علي وكبار ضباط الجيش وبخاصة العقداء الاربعة صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمي سعيد (الذين كان يطلق عليهم المربع الذهبي). وتوثقت صلات المفتي بقيادة الجيش العراقي مَن اصبحوا مركز الثقل في السياسة العراقية فتدخلوا لدى الوصي على العرش الامير عبد الاله في تشكيل الوزارات واختيار الوزراء.

وأنقسم السياسيون العراقيون في هذه الفترة إلى فريقين: فريق يرى ان مصلحة العراق هي في التعاون مع بريطانيا والدول الحليفة ويمثله نوري السعيد وجميل المدفعي وتوفيق السويدي وغيرهم وفريق آخر يرى رأي المفتي الذي اشرنا إليه سابقاً. وتمكن المفتي من تشكيل «لجنة للتعاون بين البلاد العربية» في صيف عام ١٩٤٠ ضمت رشيد عالي الكيلاني وناجي السويدي وناجي شوكت ويونس السبعاوي والعقداء الاربعة (المربع الذهبي) والعقيد اسماعيل حقي في العراق، وشكري القوتلي وعادل ارسلان وزكي الخطيب من سورية، ويوسف ياسين وخالد الهود من العربية السعودية.

وكان لانهيار فرنسا امام الزحف الالماني اثر كبير على المفتي والزعماء العراقيين المتعاونين معه، إذ ازدادت ثقتهم بأمكانية انتصار المانيا في الحرب الدائرة، ورأوا ان الوقت قد حان للتفاوض معها حول مستقبل البلاد العربية. وانطلاقاً من هذه القناعة حمل ناجي شوكت، وزير العدلية العراقي الذي اوفد مع نوري السعيد، وزير الخارجية، في ٢٤ حزيران ١٩٤٠ إلى انقرة للتفاوض مع الحكومة التركية حول الموقف الواجب اتخاذه في الصراع الدولي القائم، بأعتبار ان العراق وتركيا عضوان في حلف سعد اباد (١٩٣٧)، رسالة من المفتي امين الحسيني إلى السفير الالماني في استانبول فون بابن (Von Papen). وتتضمن الرسالة تهنئة الزعيم الالماني هتلر بالانتصارات التي احرزها في الميادين الاوروبية، ورجاء بالتفاوض مع ناجي شوكت حول المسألة العربية ومستقبل فلسطين والتعاون بين المانيا والعرب عن طريق ابرام معاهدة صداقة وتعاون بين الطرفين. وقابل ناجي شوكت السفير الالماني في ٥ تموز ١٩٤٠ بحضور قنصل المانيا العام في تركيا الهر زايلر (Seiler). واقترح ناجي شوكت ان يستمر التفاوض بين العرب والالمان عن طريق وزير العراق المفوض في انقرة كامل الكيلاني، شقيق رشيد عالي، رئيس الوزراء آنذاك، والدكتور فريتس غروبا وزير المانيا المفوض في بغداد. واكتفى فون بابن بالاعراب عن استعداده لنقل وجهة النظر العربية إلى الجهات المعنية في المانيا.

كان لقاء ناجي شوكت بفون بابن بداية لمفاوضات سرية طويلة بين المفتي والزعماء العراقيين الملتفين حوله من جهة وبين المسؤولين الالمان من جهة ثانية. فبعد عودة شوكت إلى بغداد بشهر واحد. أوفد المفتي سكرتيره الخاص عثمان كمال حداد إلى برلين يحمل المطالب العربية ومشروع بيان رسمي حول سياسة دول المحور نحو البلاد العربية. اجرى حداد مباحثات في وزارة الخارجية الالمانية مع غروبا الذي عاد إلى برلين بعد قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع المانيا في ١٩٣٩/٩/٥، وميلشرز (Milchers) مدير القسم الشرقي في وزارة الخارجية، وسكرتير الدولة فون فايتسزيكر. اما المطالب العربية التي تقدم بها عثمان حداد فيتضمنها مشروع التصريح الرسمي المطلوب من دول المحور اصداره والذي



المناضل امين الحسيني

يشمل النقاط التالية:

١ – اعتراف المانيا وايطاليا بالاستقلال التام للبلاد العربية المستقلة الآن، وبالاستقلال التام للبلاد العربية التي هي تحت الانتداب الفرنسي (سورية ولبنان)، والتي تحت الانتداب البريطاني (فلسطين وشرق الاردن). والتي هي مستعمرات او محميات بريطانية (الكويت وعمان ومسقط وحضرموت).

٢ – اعلان المانيا وايطاليا ان ليست لهما اية مطامع استعمارية في مصر والسودان، والاعتراف باستقلالهما التام، واعتبار التحفظات التي وضعتها انكلترا على هذين البلدين لاغية من اساسها.

٣ – تعهد المانيا وايطاليا بعدم اللجوء إلى اي من الاساليب ضد استقلال البلاد العربية التام، كأسلوب الانتداب الذي اخترعته عصبة الامم بصورة احتيالية بالاتفاق مع الديمقراطيات لاخفاء شهواتها الاستعمارية.

٤ – اعتراف المانيا وايطاليا للبلاد العربية بحق تأسيس وحدتها القومية حسب رغائبها وبالطريقة التي تراها موافقة، والتعهد بعدم وضع العراقيل في سبيل انشاء هذه الوحدة.

٥ – مطلب المانيا وايطاليا الوحيد ان تريا الامة العربية متمتعة بالازدهار والاقبال، وان تتبوّأ مكانها التاريخي والطبيعي تحت الشمس، وهذا لصالح الانسانية جمعاء، وفي سبيل تعاون اقتصادي على اساس تبادل المنافع، مقابل تعهد البلاد العربية باحترام الحالة الراهنة (Statu Quo) في فلسطين او سواها فيما يتعلق باملاك الكنائس والارساليات المسيحية وحرية تمتع المسيحيين، على اختلاف مذاهبهم، باقامة طقوسهم الدينية ورعاية المنشآت الخيرية (المستشفيات ودور الايتام ومآوي العميان) وحرية الاعتقاد في المسائل الدينية.

٦ – تعتبر المانيا الوطن القومي اليهودي كياناً غير مشروع وتعترف بحق العرب في حل هذه المسألة وفقاً للمصالح القومية العربية.

ويلاحظ ان المطالب العربية التي حملها حداد قد اقتصرت على اقطار المشرق العربي واهملت المغرب العربي اهمالاً تاماً. وبذلك لم يخرج القادة القوميون العرب في المشرق في مطالبهم بالاستقلال والوحدة عن الاطار الذي وضعه اسلافهم من الرعيل الاول في فترة الحرب العالمية الاولى، اللهم إذا استثنينا ما ورد بشأن استقلال مصر والسودان. وكانت هذه المطالب الحد الاعلى لما طالب به هذا الفريق من القوميين العرب من دول المحور خلال الحرب العالمية الثانية.

درس المسؤولون الالمان هذه المطالب دراسة وافية وابلغوا عثمان حداد انه من المتعذر عليهم تلبيتها كاملة بسبب تعقيدات الوضع الدولي آنذاك. فقد كانت المانيا تعتقد آنذاك ان بالامكان التوصل إلى صلح مع بريطانيا لاقتسام مناطق النفوذ في اوروبا والعالم. كما انها كانت تخشى اثارة حكومة فيشي إذا ما أصدرت بياناً يتضمن استقلال

سورية ولبنان، وربما ادى هذا البيان إلى اضعاف موقف حكومة فيشي واتجاه الفرنسيين إلى لجنة فرنسا الحرة في لندن التي يتزعمها الجنرال ديجول. كما كان على المانيا ان تأخذ بعين الاعتبار الاطماع التوسعية لحليفتها ايطاليا في شرق البحر الابيض المتوسط. كل هذه الاعتبارات درسها المسؤولون الالمان في مباحثاتهم مع حداد. واخيراً اتفقوا معه على صيغة بيان رسمي يحقق بعض المطالب العربية، حولت إلى الحكومة الايطالية في ١٠ ايلول ١٩٤٠ لابداء رايها فيها. وجاء الرد الايطالي بعد شهر ونيف. وفي ١٨ تشرين الاول استقبل فون فاتيسزيكر عثمان حداد واطلعه على صيغة البيان الالماني الايطالي المنوي اذاعته. واهم ما جاء فيه: «ان المانيا وايطاليا تعترفان باستقلال البلاد العربية وتتابعان بعطف واهتمام ما يقوم به العرب من جهود في سبيل تحقيق استقلالهم». لم ترض صيغة البيان عثمان حداد فطلب تعديلها إلا ان سكرتير الدولة الالماني رفض ذلك، واكد له ان هذا البيان «مجرد بداية وخطوة اولى».

اذيع البيان في ٢٣ تشرين الاول ١٩٤٠ من اذاعتي برلين وروما. ولكنه لم ينشر في صحف البلدين إلا في ٥ كانون الاول ١٩٤٠. واحدث هذا البيان ردود فعل واسعة بين العرب، واثار تحفظات العديد من قادتهم. فقد بعثت اللجنة القومية العربية في بيروت مذكرة إلى الحكومة الالمانية في كانون الثاني ١٩٤١ بينت فيها ان مطلب العرب الاول هو قيام دولة عربية متحدة في آسيا يتلوها الاتحاد مع مصر، وان العرب يتوقعون دعم المانيا لاهدافهم.

حمل عثمان حداد معه رسالة من وزير الخارجية الالماني فون ريبنتروب (Von Ribbentrop) إلى المفتي حذّره فيها من مغبة نزاع مسلح بين العراق وبريطانيا، واكد في الوقت نفسه استعداد المانيا لمساندة العراق في حالة هجوم بريطانيا عليه.

وبينما كان موفد المفتي يجري مباحثاته مع المسؤولين الالمان والايطاليين كانت تطورات الوضع الدولي تشير إلى ضرورة اتخاذ موقف واضح في العراق. ورأى المفتي والمقربون منه ان



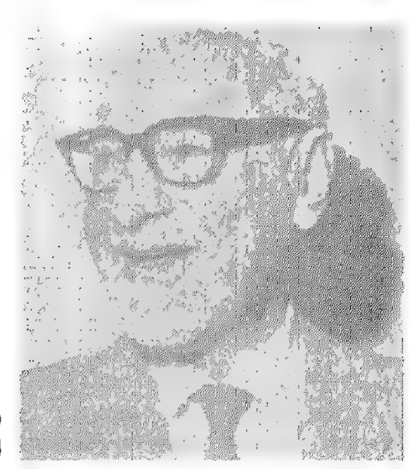
فون ريبنتروب

من مصلحة العراق خاصة والعرب عامة المحافظة على الحياد التام في النزاع الدولي القائم للاسباب التالية:

- عدم استقرار العلاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي.
- ضعف البلاد العربية عسكرياً بحيث لا تستطيع الصمود في وجه اي هجوم من جانب المحور او من جانب الحلفاء.
- لا تكفي التصريحات الرسمية من جانب المحور او من جانب الحلفاء لتقرير مصير العرب.
- الحرب فرصة ثمينة لا بد من انتهازها لاخذ اكبر قسط من الحقوق للامة العربية.

وعقد اقطاب الحركة العربية في بغداد اجتماعاً بحضور المفتي في نهاية عام ١٩٤٠. وتدارسوا الوضع العربي العام، ورأوا ان الهدف الاول لحركة العرب القومية هو تحرير الوطن العربي من الاستعمار بمختلف اشكاله، وتوحيد كافة الاقطار العربية، واقامة نظم سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة تضمن العدالة والحرية وتستهدف رفع مستوى الشعب وزيادة رفاهه المادي والمعنوي بحيث يصبح قادراً على المساهمة في الحضارة الانسانية. واستقر الرأي على ضرورة قيام حزب عربي قومي يتولى مهمة تحقيق هذا الهدف.

وسعياً إلى تشكيل الحزب المذكور عقد اجتماع في منزل امين الحسيني في بغداد في ٢٨ شباط ١٩٤١ حضره امين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت والعقيد صلاح الدين الصباغ والعقيد فهمي سعيد والعقيد محمود سلمان ويونس السبعاوي. وتقرر في هذا



رشيد عالي الكيلاني.

الاجتماع اناطة زعامة الحزب القومي العربي بأمين الحسيني. واجمع الحضور على ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن في العراق مع التمسك بالمعاهدة العراقية البريطانية، والتحلي بالروية والتبصر في الامور، ومحاولة اقناع طه الهاشمي، رئيس الوزراء آنذاك، بضرورة العدول عن فكرة قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا والانتظار ريثما ينجلي الموقف الدولي، والمطالبة بحل المجلس النيابي وانتخاب مجلس جديد يمثل الشعب العراقي تمثيلاً صادقاً، واخراج نوري السعيد وعلي جودت وجميل المدفعي من البلاد وذلك بتعيينهم سفراء في الخارج، وتعديل الدستور العراقي بصورة تحول دون قيام الوصي بنشاط مخالف للدستور، والاطاحة بطه الهاشمي في حالة رفضه مخططهم وتشكيل حكومة برئاسة عالي. واخذت هذه القيادة او اللجنة تجتمع باستمرار وبصورة سرية طوال احداث العراق التي تلت هذا الاجتماع حتى تم القضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني في ٢٩ أيار ١٩٤١.

رأى المفتي ان لا بد من استئناف التفاوض مع دول المحور وبخاصة مع المانيا. فأوفد سكرتيره عثمان حداد مرة اخرى إلى برلين حاملاً رسالة منه إلى ادولف هتلر ومؤرخة في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤١. وصل حداد إلى برلين في ١٢ شباط وقدم رسالة المفتي إلى المسؤولين في وزارة الخارجية الالمانية. تتضمن الرسالة تذكيراً بمطالب العرب القومية وتأكيداً لعداء العرب لبريطانيا وتعاطفهم مع دول المحور واستعدادهم للنهوض في وجه العدو المشترك (الانجليز واليهود) حينما يتحررون من بعض العوائق المادية. كما تتضمن ايضاحاً حول تفويض عثمان حداد بالتباحث مع الحكومة الالمانية بأسم اقوى واوسع منظمة سياسية في العالم العربي وباسمه شخصياً بصفته المفتي الاكبر لفلسطين. وحمل سكرتير المفتي بالاضافة إلى هذه الرسالة، مشروع بيان رسمي من دولتي المحور بشأن مستقبل البلاد العربية، يختلف عن مشروع البيان الذي حمله سكرتير المفتي في رحلته الاولى إلى برلين.

وبعد لقاءات عدة مع عثمان حداد قررت وزارة الخارجية الالمانية الرد على رسالة المفتي برسالة من سكرتير الدولة فايتسزيكر تضمنت وعوداً غامضة بالاعتراف باستقلال البلاد العربية وبمساندة العرب عسكرياً إذا اضطروا إلى الحرب ضد الانكليز. فقد جاء في هذه الرسالة ما يلي:

«إن المانيا التي لم تحتل قط ارضاً عربية، لا تستهدف ان تستولي على اي جزء من البلاد العربية. وهي ترى ان الشعب العربي، وهو شعب ذو ثقافة قديمة وقد برهن على لياقته الادارية وفضائله العسكرية لجدير بأن يحكم بلاده بنفسه. ولهذا فان المانيا تعترف باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً. ويحق للبلاد العربية التي لم تستقل حتى الآن ان تنال استقلالها التام.

إن كلا من الامتين الالمانية والعربية متفقتان على الكفاح ضد عدوهما المشترك اي الانكليز واليهود. إن المانيا مستعدة للعمل المشترك معكم، ولمساعدتكم مساعدة عسكرية فعالة على قدر الاستطاعة، إذا اضطررتم إلى الحرب ضد الانكليز لتحقيق غاية شعبكم، وذلك بناء على صداقة المانيا وانجازاً للرغبة التي ابديتموها بواسطة سكرتيركم الخاص. ان المانيا مستعدة ايضاً لتسليم المواد الحربية فوراً لتقوية استعداد الامة العربية للحرب المحتملة ضد الانكليز متى امكن وجود طريق لنقل هذه المواد الحربية».

ويوصي فايتسزيكر المفتي بأعادة سكرتيره للتفاوض في التفصيلات المتعلقة بالعمل المشترك بين الطرفين او بأرسال مندوب آخر غيره. كما يرجوه ايضاً ان يبقي مضمون هذه الرسالة مكتوماً، ويبلغه ان الحكومة الايطالية قد اخذت علماً بهذا المضمون ووافقت عليه.

لعل اهم ما في الرد الالماني على رسالة المفتي ليس مضمونه وإنما التدابير التي اتخذتها الحكومة الالمانية في اعقابه. فقد وافق وزير الخارجية الالماني على دفع مئة الف مارك الماني ولمرة واحدة للحاج أمين الحسيني. ولم يوافق على دفع مبلغ عشرة آلاف جنيه استرليني شهرياً كما طالب عثمان حداد. كما شرعت وزارة الخارجية الالمانية بالاتصال بالمفتي باعتباره الشخص المعني بالقضايا العربية العامة. وفتحت منذئذ باب الاتصال بعبد العزيز بن سعود وبالحكومة العراقية والزعماء الوطنيين السوريين. واتجهت إلى تعزيز الدعاية الالمانية في البلاد العربية. فأزدادت فترة الارسال في اذاعة برلين العربية وزادت مدتها اليومية من ٩٥ دقيقة إلى ٢٠٥ دقائق. وصدرت طبعة عربية لصحيفة الجيش الالماني (الاشارة) (Signal). واصدرت اذاعة الرايخ (Reichsrund Funkgesellschaft) صحيفة «بريد الشرق» مرتين في الاسبوع والتي كانت توزع مجاناً. واصبحت الصحف العربية تتلقى بانتظام نشرات وكالتي الانباء الالمانية (Transozean) ومكتب الاخبار الالماني (D.N.B.) باللغة العربية. وتقرر توسيع نشاط الجاسوسية ومكافحة التجسس في كل من فلسطين وشرق الاردن ومصر.

فلماذا تغير موقف المانيا واقدمت على هذا النشاط بعد ان كانت قد اعتبرت منطقة شرق البحر الابيض المتوسط حتى هذا التاريخ منطقة نفوذ ايطالية؟ لا بد من العودة إلى استعراض تطور العمليات العسكرية في ساحات القتال لنعرف اسباب هذا التغير. فمن المعروف ان الهجوم الايطالي على مصر قد بدأ في ١٣ أيلول ١٩٤٠ دون احراز نتائج ملموسة. وفي ٩ كانون الاول ١٩٤٠ شن الجنرال ويفل (Wavell) قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط هجوماً على القوات الايطالية فردها على اعقابها وطاردها إلى خارج الحدود المصرية وتراجعت من السلوم إلى بردية. ومنيت القوات الايطالية بقيادة الجنرال غرازياني (Graziani) بهزيمة ماحقة. إذ استسلم ١٩ جنرالاً ومئة وثلاثين الف جندي ايطالي. واصبحت برقة بيد القوات البريطانية. اذهلت هذه الهزيمة هتلر. كما طلبت ايطاليا المعونة منه في كانون الاول ١٩٤٠ لنجدتها في اليونان. وفي ١٩ كانون الاول طلبت القيادة العامة الايطالية المعونة من المانيا لنجدة قواتها في ليبيا. فاضطرت المانيا إلى تقديم النجدة. وفي ٥ شباط ١٩٤١ اعلم موسوليني بأرسال فرقة مدرعة من الجيش الالماني «الفرقة الافريقية» (Afrika Korps) واختير الجنرال ارفين رومل (Erwin Rommel) قائداً لها. منذئذ اصبحت المانيا تهتم اهتماماً جدياً بمنطقة شرقي البحر المتوسط بعد ان كانت متروكة لايطاليا. واقتضى الوضع الجديد اعادة النظر في سياستها نحو العرب، ورأت ان لا بد من اتخاذ خطوات ايجابية في هذا الصدد.

رومل

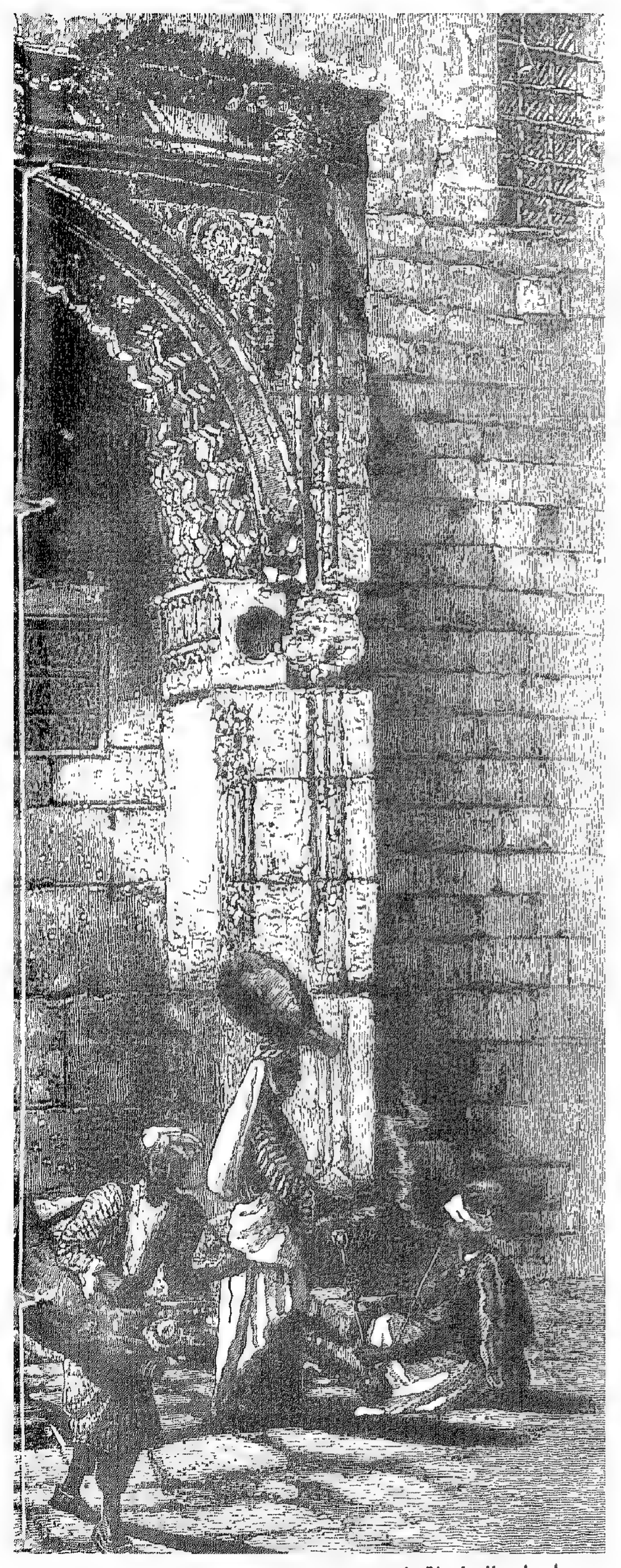


تطورت، في هذه الاثناء، الامور بسرعة في العراق. ففي الثاني من نيسان ١٩٤١، اكره قادة الجيش طه الهاشمي، رئيس الوزراء، على الاستقالة. وهرب الوصي الامير عبد الاله من بغداد إلى الحبانية فالبصرة فالقدس فعمان يرافقه عدد من انصاره من رؤساء الوزارات والوزراء العراقيين. وعهد الجيش إلى رشيد عالي بتألف حكومة الدفاع الوطني في اليوم نفسه. وكان لهذا الانقلاب العسكري رد فعل سريع في بريطانيا. إذ قررت الحكومة البريطانية برئاسة ونستون تشرشل (W. Churchill) القضاء على الحركة الجديدة بأسرع وقت ممكن. وانزلت قواتها في ميناء البصرة تمهيداً لذلك.

أما المفتي فقد كان حريصاً على تجنب الصدام مع القوات البريطانية وطلب من رشيد عالي ان يبدي تسامحاً مع الانكليز بشأن انزال قواتهم في البصرة. وكان المفتي يستشار في اتخاذ كافة القرارات المهمة. كما أخذ يسعى إلى كسب بعض الشخصيات السياسية في مصر للوقوف إلى جانب المحور. وتلقى معونات مالية من المانيا وايطاليا لهذا الغرض وللاعداد للثورة المقبلة في فلسطين وشرقي الاردن.

ولما تطورت احداث العراق إلى صدام بين القوات العربية والقوات البريطانية المرابطة في قاعدة الحبانية وفي ميناء البصرة رأى الحاج امين ان الفرصة مناسبة لاشعال نار الثورة في فلسطين. فطلب من غروبا، (الوزير المفوض الالماني السابق في بغداد الذي عاد إليها سراً بعد انقلاب رشيد عالي) في ١٧ أيار ١٩٤١ ارسال خمسين رشاشاً خفيفاً ومئة مسدس رشاش جديد مع ذخيرتها إلى دمشق لهذا الغرض. غير ان المانيا طلبت من المفتي ان لا يبدأ العمل الثوري الفلسطيني من دمشق، ارضاء لحكومة فيشي، فاستجاب المفتي لهذا الطلب. واثناء الحرب العراقية - البريطانية تشكلت قوة البادية، بقيادة فوزي القاوقجي، من المناضلين الفلسطينيين والسوريين في العراق لمساعدة القوات العراقية. وتولى امين الحسيني قيادة المقر الخلفي لهذه القوة.

قضت القوات البريطانية على حركة رشيد



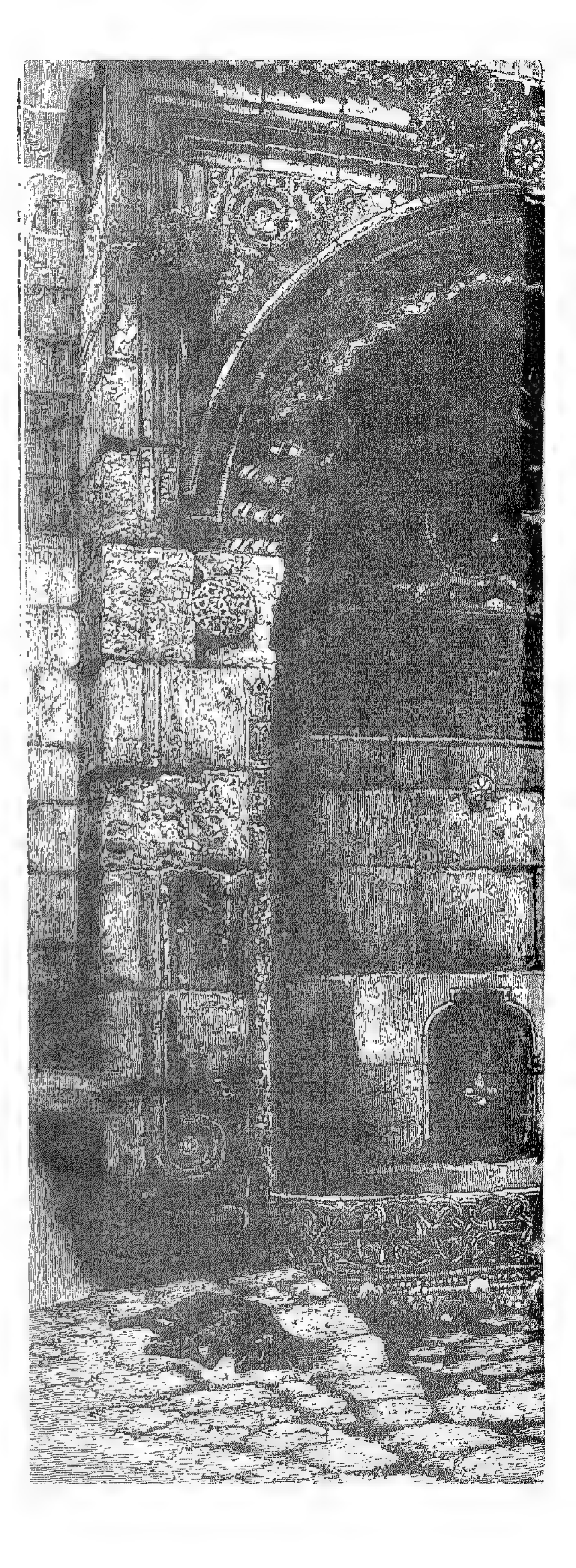
سبيل باب السلسلة في القدس

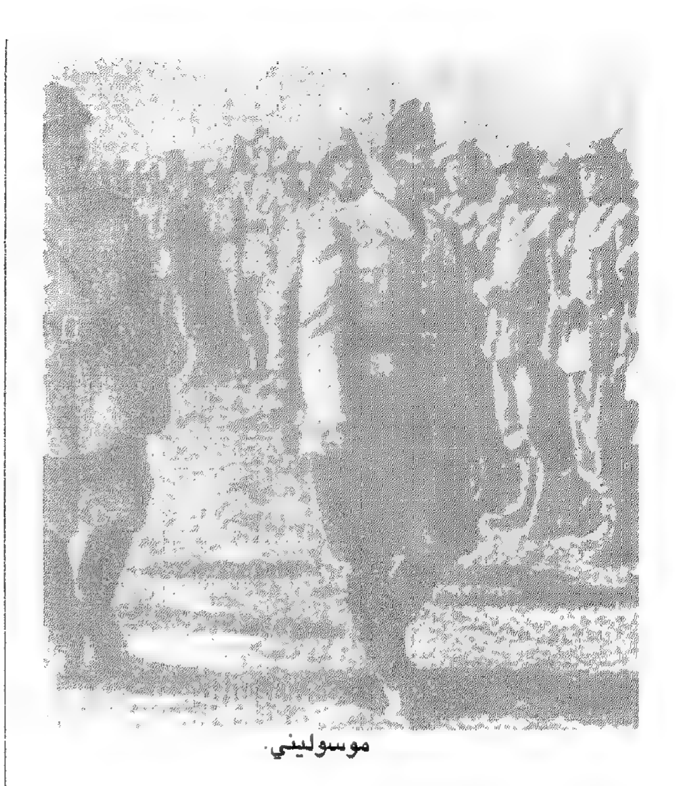
عالي يوم ٣٠ آيار ١٩٤١، وهرب الحاج امين الحسيني مع قادة الحركة من بغداد إلى طهران. اما المناضلون الفلسطينيون والبالغ عددهم حوالي سبعين رجلاً فقد عبروا الحدود العراقية - السورية. وفي ٢٨ حزيران ١٩٤١ ابرق المفتي من طهران، عن طريق السفارة الالمانية هناك، يطلب من اسحق درويش احد الزعماء الفلسطينيين المقربين من المفتي، ان يسافر إلى صوفيا (بلغاريا)، وان يختار افضل العناصر من الضباط المناضلين لتدريبهم في المانيا. وتمكن المفتي من الوصول إلى روما بصورة سرية عن طريق السفارة الايطالية في طهران. اما بقية الزعماء الفلسطينيين فقد عبروا الحدود التركية واستقروا في استانبول.

نشاط أمين الحسيني في المانيا بين ١٩٤١ و ١٩٤٥:

انتقل الحاج امين الحسيني من روما إلى برلين في ٦ تشرين الثاني ١٩٤١ بعد ان اجرى مباحثات مع الدوتشي موسوليني (Mussolini)، رئيس وزراء ايطاليا، والكونت شيانو (Ciano)، وزير خارجيتها، حول اصدار بيان يؤيد المطالب العربية. واعد الايطاليون صيغة بيان ينص على مساندة دول المحور للاقطار العربية الواقعة تحت الهيمنة البريطانية في نضالها من اجل الحرية، وعلى استعداد دول المحور للاعتراف بالاستقلال التام للاقطار العربية في الشرق الادنى. وتنص الصيغة الايطالية للبيان على تأييد دول المحور للمساعي الرامية إلى القضاء على الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وعلى استعدادها لابرام معاهدة صداقة وتعاون مع الزعماء العرب على ان يتم التفاوض بشأنها في اقرب فرصة ممكنة، وعلى اعترافها بالدول العربية المستقلة. ويلاحظ ان الصيغة الايطالية للبيان المنوي اصداره عن دول المحور يؤكد على الاقطار العربية في الشرق الادنى، والمقصود بذلك سورية ولبنان وشرق الاردن والعراق ، كما سيتضح ذلك فيما بعد.

عند وصول المفتي إلى برلين استقبله فريتس غروبا، وأعد له مقابلة مع فون





موسوليني.

فايتسزيكر، سكرتير الدولة للشؤون الخارجية. ولما حاول المفتي ابداء تحفظاته على مشروع البيان الايطالي وبخاصة عدم اشارته إلى مساندة دول المحور للوحدة العربية واستقلال كافة اقطار المشرق العربي، لم يأخذ فايتسزيكر بهذه التحفظات وابدى تحفظاً من جانبه على المشروع الايطالي نفسه.

ولتعزيز المطالب التي تقدم بها المفتي إلى المسؤولين في وزارة الخارجية الالمانية افضى إلى مرافقه غروبا بمعلومات عن «حزب الامة العربية» الذي زعم بأنه رئيسه، وقال: «إن هذا الحزب امتداد لجمعية العربية الفتاة التي تأسست في باريس عام ١٩١١، والتي نقلت نشاطها إلى سورية عام ١٩١٥، والتي علق العديد من قادتها ومؤسسيها على اعواد المشانق التي نصبها لهم جمال باشا. وقد تغير اسم الحزب اثناء الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦، وكان يرئسه في بادىء الامر الملك فيصل الاول الذي كان يرى ان تحقيق الاهداف العربية لا يتم بالتعاون مع بريطانيا وإنما بالنضال وحده. وكان فيصل يرى ضرورة بناء الحزب من جديد وطرد بعض الاشخاص منه مثل نوري السعيد...» ويستطرد المفتي فيقول: «إن للحزب اعضاء في كافة الاقطار العربية، وتقوده لجنة ادارية واحدة تمثل هذه الاقطار. وكان الحزب ولجنته الادارية وراء الكفاح العربي في فلسطين والعراق». اما رئاسة الحزب فقد تولاها (المفتي) بعد موت الملك فيصل الاول. ولما انتقل المفتي إلى العراق ضم إلى الحزب ناجي شوكت ورشيد عالي الكيلاني كما كسب إليه قادة الجيش العراقي الذين كانوا حتى ذلك الوقت تحت تأثير نوري السعيد. ثم وجه نشاط الحزب نحو الشباب العراقي من خلال منظمتي الفتوة والجوالة. اما اسماء اللجنة الادارية التي ذكرها المفتي فهي: رشيد عالي وناجي شوكت ويونس السبعاوي وعبد الواحد السكر وعدد من شيوخ عشائر الشيعة من العراق، وعزة دروزة واسحق درويش وحسن ابو السعود ومحمد العفيفي وراسم الخالدي من فلسطين، والدكتور صبحي ابو غنيمة وحسين باشا الطراونة وسليمان السودي من شرق الاردن، ومحمد علي علوبة وغيره من مصر، والامير عادل ارسلان وسامي الصلح من سورية، والشيخ يوسف ياسين والشيخ خالد الهود قرقان ورشيد السعداوي من السعودية، وعبد الله الوزير من اليمن.

لقد كان قصد المفتي من الادلاء بهذه المعلومات تعزيز موقفه لدى الالمان. واضفاء هالة من التقدير والاحترام على شخصه. فقد انكر فيما بعد قيام حزب الامة العربية، كما انكر ان يكون قد ادلى بمعلومات عن هذا الحزب للمسؤولين الالمان.

قابل ادولف هتلر المفتي بحضور فون ريبنتروب وغروبا في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤١. بدأ المفتي حديثه بالاشادة بالزعيم الالماني وبثقة البلاد العربية في انتصار المانيا. واكد ان العرب والالمان حلفاء طبيعيون لانهم يحاربون اعداء مشتركين هم بريطانيا واليهود والبلاشفة. وانهم على استعداد للتعاون مع المانيا، ليس بأثارة المتاعب في وجه بريطانيا أو القيام بأعمال التخريب وانما بتكوين فرق مسلحة تحارب إلى جانب قوات المحور واوضح المفتي للزعيم الالماني ان مطلب العرب الراهن هو استقلال ووحدة اقطار فلسطين وشرق الاردن وسورية

والعراق. ثم انتقل بعد ذلك إلى موضوع التصريح الالماني – الايطالي بشأن مستقبل البلاد العربية.

بدأ هتلر حديثه بالتنديد باليهود الذين اعتبرهم المهيمنين على الدول الحليفة والموجهين لسياستها. واكد ان هدفه تحطيم الشيوعية واليهودية واخراج الانكليز من الشرق الاوسط. وقال للمفتي: «ان كسبنا الحرب هو وحده الذي سيؤذن بدق ساعة التحرير التي هي ايضاً ساعة تحقيق اماني العرب». واعرب عن معارضة للتصريح المطلوب وقال: «إن مجرد وعد لن تكون له اية قيمة، ولن تكون ثمة قيمة حقيقية إلا لليقين الذي يعتمد على القوات المسلحة المنتصرة». وبرر هتلر هذا الموقف بالخشية من ردود فعل فرنسا. وقال ايضاً «يبدو ان الموقف كالآتي: اننا نشن حرباً ضارية لنفتح لانفسنا طريقاً إلى شمال القفقاس. ان الصعاب المرتبطة بهذا تزيد على صعاب النقل المترتبة على تدمير السكك الحديدية والطرق وعلى ظروف الشتاء. فإذا ما جرؤت في ظل هذا الموقف على اصدار تصريح ينطبق على سورية كذلك، فسيشتد ساعد العناصر التي تساند ديجول في فرنسا، مما قد يؤدي إلى نشوب الثورة. وسيقنع هؤلاء الناس ان من الاسهل ان ينضموا إلى بريطانيا العظمى. وسيكون انفصال سورية نموذجاً يحتذى في اجزاء اخرى من الامبراطورية الفرنسية – ومن شأن هذا ان يقوي موقف الديجوليين في المستعمرات. فإذا ما صدر تصريح الآن فستتلوه صعاب في غربي اوروبا بحيث يكون من الضروري سحب بعض القوات للدفاع، مما يحول بيننا وبين حشد كل قواتنا في الشرق».

واكد هتلر للمفتي ان الحرب التي تشنها المانيا ضد اليهود تستهدف القضاء على العنصر اليهودي في البلاد العربية. ووعده باصدار تصريح حول مستقبل البلاد العربية حين تصل القوات الالمانية إلى جنوبي القفقاس وهذا، في رأيه، يستلزم بضعة شهور فقط. وطمأن المفتي بأن الوقت سيحين حين لا يقتصر امره (المفتي) على ان يقدم للعرب تصريحاً من المحور، بل سيكون له الرأي الحاسم في الشؤون العربية بأعتباره ذا السلطة المضطلعة في التحدث باسم العرب وزعيماً لهم. وبعد هذه المقابلة تقرر ايقاف التصريح الذي اتفقت على صيغته وزارتا الخارجية الالمانية والايطالية.

لم يثن موقف هتلر الحاج امين عن الاستمرار في المطالبة باصدار التصريح المطلوب، ولو جاء في صيغة رسالة سرية صادرة عن الحكومة الالمانية. وهدد المسؤولين الالمان بالحصول على مثل هذه الرسالة من الحكومة الايطالية. وكانت ايطاليا آنذاك على استعداد لاصدار التصريح المطلوب خوفاً من انحياز الزعماء العرب كلياً إلى المانيا. كما اخذ اليابانيون، في مطلع عام ١٩٤٢، يميلون إلى اصدار ذلك التصريح مع اقتراب قواتهم من بحر العرب (المحيط الهندي).

وابدى الالمان مزيداً من الاهتمام بالقضية العربية. فشكلوا لجنة في وزارة الخارجية لمتابعتها برئاسة الوزير المفوض الدكتور فريتس غروبا وعضوية القنصل العام كاب (Kapp)، ومستشار المفوضية الدكتور ميلشرز (Melohers) من الدائرة السياسية السابعة، والمستشار الدكتور غرانوف (Granow)، وسكرتير المفوضية كاسبار (Kasper)، والهر مونسيل (Munzel) والهر شتيفن (Steffen). ومهمة هذه اللجنة وضع الترتيبات السياسية للزحف الالماني في المنطقة العربية وتنفيذ تعليمات وزارة الخارجية بعد احتلال الاقطار العربية.

واقترحت هذه اللجنة في ٧ شباط ١٩٤٢ ان تتشكل حكومة عراقية برئاسة رشيد عالي وحكومة سورية برئاسة المفتي او احد اعوانه بعد احتلال القوات الالمانية لتفليس وان تعترف الحكومة الالمانية بهما. وان يبدأ تنظيم الجيش العربي، حين دخول القوات الالمانية للبلاد العربية، من ثلاث فرق عراقية وفرقة سورية وفرقة فلسطينية – شرق اردنية. وان يقوم الجنرال فيلمي (Felmy) بارسال القوات العربية تحت امرته في اليونان لتساهم في تشكيل الجيش العربي، وان تتحول القيادة الخاصة (Sonder Stab F) التي يرئسها فيلمي إلى بعثة عسكرية المانية في البلاد العربية.


هتلر.

أما مقترحات اللجنة بشأن تنظيم البلاد العربية فهي:

١ - بقاء العراق والسعودية واليمن ومصر دولاً مستقلة.

٢ - توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن في دولة سورية الكبرى.

٣ - قيام اتحاد فيدرالي بين العراق وسورية.

٤ - قيام رابطة تعاقدية بين كافة هذه الدول العربية.

٥ - الاطاحة بالحكم الهاشمي في العراق وشرق الاردن وضم معان والعقبة إلى العربية السعودية، وضم عمان وساحل الجزيرة وحضرموت والبحرين إليها ايضاً.

٦ - تعطى ايطاليا الاولوية السياسية في هذه الاقطار وتعطى المانيا الاولوية العسكرية. ولا يجوز لايطاليا ان تمارس اي نشاط سياسي في هذه الاقطار بدون موافقة المانيا.

٧ - تشارك اليابان في المسألة العربية بعد ان يتم الاتفاق معها على المسألة الهندية.

وتعاون المفتي ورشيد عالي الكيلاني الذي وصل إلى برلين في نهاية تشرين الثاني ١٩٤١، لاستصدار التصريح المطلوب من دول المحور. وسافر الزعيمان العربيان إلى روما في شباط ١٩٤٢. واستقبل ملك ايطاليا المفتي في ١٣ شباط كما استقبل رشيد عالي في اليوم التالي. ونجح الزعيمان العربيان في اقناع موسوليني وشيانو بضرورة اصدار التصريح المطلوب. واستمر نشاطهما حتى يوم ٢٥ نيسان ١٩٤٢ عندما تسلما مشروع تصريح من دول المحور بصيغة رسالة موقعة من وزير خارجية المانيا فون ريبنتروب، ووزير خارجية ايطاليا الكونت شيانو موجهة إلى كل من الزعيمين العربيين. وتم التبادل الرسمي لهاتين الرسالتين في ٢٨ نيسان ١٩٤٢.

جاء في رسالة فون ريبنتروب إلى المفتي ما يلي:

«إن الحكومة الالمانية تقدر كل التقدير ثقة الامة العربية في دول المحور واهدافها، واستعدادها للمشاركة في الكفاح ضد العدو المشترك حتى يتم النصر النهائي، كما انها تدرك تماماً ما اوضحتموه من الاهداف القومية للاقطار العربية في الشرق الادنى التي تقاسي الآلام تحت نير الاضطهاد البريطاني في الوقت الحاضر. ولذا فاني اتشرف بأن أؤكد لكم، باتفاق تام مع الحكومة الايطالية، ان استقلال وحرية البلاد العربية المضطهدة الآن تحت الحكم البريطاني، هما هدف من اهداف الحكومة الالمانية. وبناء على ذلك فإن المانيا مستعدة لتقديم كل ما تستطيعه من مساعدات للاقطار العربية في الشرق الادنى الرازحة الآن تحت نير الاضطهاد البريطاني، وان تعترف بسيادتها واستقلالها، وتوافق على وحدتها إذا كان مرغوباً فيها ممن يعنيهم الامر، وعلى القضاء على الوطن القومي اليهودي في فلسطين».

ويلاحظ ان الرسالة قد اقتصرت على دعم المحور للاقطار العربية الواقعة تحت نير الاضطهاد البريطاني. «في الشرق الادنى»، والمقصود بذلك العراق وشرق الاردن وفلسطين، وفي ذلك اغفال تام لسورية ولبنان وبقية اقطار المشرق العربي. كما اتفق على ان يبقى مضمون هذه الرسالة سراً مكتوماً، وبذلك فقد هذا التعهد من جانب دولتي المحور قيمته الاعلامية على الصعيد العربي. كما يلاحظ تراجع في موقف المفتي من موضوع الوحدة العربية والقبول بوحدة اقطار الهلال الخصيب في احاديثه مع المسؤولين الالمان والايطاليين. ففي مباحثاته مع الهر اتل (Ettel) السفير في وزارة الخارجية الالمانية، يؤكد المفتي ان «الهدف القريب الذي نسعى إليه هو قيام دولة عربية

تمتد من البحر الابيض المتوسط إلى الخليج وتضم سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن والعراق والكويت»...

الخلاصة.

مرت العلاقات بين الحركة الوطنية العربية في فلسطين والرايخ الثالث بمراحل ثلاث:

- المرحلة الاولى: وتبتدىء بوصول الحزب النازي إلى الحكم عام ١٩٣٣ وتنتهي ببداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩.
- المرحلة الثانية: وتبتدىء باندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وتنتهي بالقضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في ايار ١٩٤١.
- المرحلة الثالثة: وتبدأ بوصول الحاج امين الحسيني إلى روما في تشرين الاول ١٩٤١، وتنتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥.

تميزت المرحلة الاولى بأعجاب الحركة الوطنية الفلسطينية، كغيرها من الحركات الوطنية في المشرق العربي، بالنظام النازي وبتعاطفها مع المانيا. وسبب ذلك الاعجاب والتعاطف للانجازات الكبرى والسريعة التي حققتها المانيا في العهد الجديد على الصعيدين الداخلي والخارجي وبخاصة التخلص من القيود التي فرضتها عليها معاهدة فرساي عام ١٩١٩، بالاضافة إلى الكراهية الشديدة التي كان يكنها النازيون لليهود وتصميمهم على «تطهير» المانيا منهم. ورافق ذاك الاعجاب والتعاطف جهل تام بحقيقة السياسة الالمانية نحو اليهود، وبخاصة اتفاقية هعفارا التي ابرمتها السلطات الالمانية مع الوكالة اليهودية في فلسطين، والاخطار التي ترتبت على هذه الاتفاقية.

ورافق جهل عرب فلسطين بحقائق السياسة الالمانية جهل مماثل من الجانب الالماني بحقائق القضية الفلسطينية سببه عدم اكتراث المانيا الجديدة بما كان يجري في فلسطين. إذ كان اهتمامها منصباً على مخططاتها التوسعية في اوروبا الوسطى والشرقية، وعلى السعي لكسب ود بريطانيا وسكوتها عن هذه المخططات. اما شاغلها الاول



مفتي فلسطين الاكبر.

فهو التخلص من الاقلية اليهودية في المانيا. ورغم مظاهر الود والتعاطف التي ابداها عرب فلسطين وقادتهم نحو المانيا ومساعيهم للحصول على تأييدها لنضالهم فقد كان اقصى ما بذلته المانيا من جهد رفض مقررات لجنة بيل (١٩٣٧) وبخاصة قيام دولة يهودية في فلسطين، انطلاقاً من اعتبارات داخلية المانية واعتبارات ايديولوجية بحتة، لا عطفاً على العرب وقضيتهم وامتنعت المانيا عن تقديم اي عون مادي او معنوي للثورة العربية في فلسطين بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩، رغم المحاولات العربية المتكررة للحصول على هذا العون. وكان ذلك ممالآة منها لبريطانيا واعتقاداً منها بعدم جدوى التعاون مع العرب عامة.

أما المرحلة الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤١) فقد شهدت انتقال قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية إلى العراق. وجاء اندلاع الحرب العالمية الثانية بقناعات جديدة بقادة هذه الحركة. فقد اعتقدوا، مثل كثيرين من قادة الحركات الوطنية العربية، ان لا بد من طرح القضية العربية برمتها طرحاً جديداً. ذلك ان الحلفاء الانكليز والفرنسيين قد اخضعوا المشرق العربي لسياسة استعمارية غاشمة الهبت في نفوس العرب الحقد والثورة عليهم. وان هؤلاء الحلفاء هم الذين خلقوا المشكلة الفلسطينية عندما قدموا فلسطين «هبة سخية» لتكون وطناً قومياً لليهود، وسمحوا تحت حرابهم للهجرة اليهودية بأن تتدفق على البلاد ليحل اليهود محل اهلها العرب اصحابها الشرعيين. وتراءى للقادة العرب الفلسطينيين ان في العالم معسكرين: معسكر الاعداء من

مستعمرين وصهاينة من جهة ومعسكر المحور من جهة اخرى. ولما لم يكن لالمانيا وجود استعماري في أي بلد عربي، لذلك كان (من الطبيعي ان تكون عواطف العرب شعوباً ومسؤولين مع المانيا، انطلاقاً من القول المأثور «عدو عدوك صديقك»). وبعبارة اخرى لم تكن البلاد العربية، بما فيها فلسطين، بمنأى عن الصراع الدولي القائم. ولذلك لا بد من التعاون مع معسكر المحور والاستفادة من التناقضات الدولية. هذا التحليل السياسي الذي توصلت إليه القيادة الفلسطينية، وبخاصة امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا، جعلتها تقلع نهائياً عن فكرة الكفاح القطري في فلسطين، والاتجاه إلى ربط القضية الفلسطينية بالقضية العربية العامة. ولم يكن السياسيون العراقيون والسوريون الذين التفوا حول المفتي في بغداد يختلفون في تحليلهم للأوضاع السياسية الدولية عن تحليله. ولعل هذه القناعات السياسية هي التي جعلت المفتي يتصرف في العراق وكأن البلد بلده والاهل اهله والقضية قضيته. وهي التي جعلت فريقاً من السياسيين العراقيين يرحبون به بيتهم ويستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة في شؤون العراق الداخلية، ويعتمدونه أميناً على اسرارهم، ولا يتورعون عن التضحية بمصالح العراق الوطنية من اجل الصالح القومي العربي العام. ولذلك لم يترددوا في الموافقة على الاتصال بالمانيا وايطاليا عن طريقه لطلب العون منهما، وان يوكلوا إليه مهمة التفاوض السري معهما.

أما المانيا فقد كانت ترى طوال هذه المرحلة ان المشرق العربي يقع في منطقة المجال الحيوي لحليفتها ايطاليا. وان لهذه الحليفة الاولوية في معالجة القضية العربية. لذلك تلكأت في اصدار التصريح الذي طلبه المفتي والزعماء العراقيون حول مستقبل البلاد العربية. كما انها خشيت ردود فعل حكومة فيشي تجاه اي وعد بشأن سورية ولبنان، وهي التي قطعت الوعود لها وابرمت اتفاقية الهدنة معها التي تنص على عدم المساس بالامبراطورية الفرنسية.

واتصفت المرحلة الثالثة من هذه العلاقات (١٩٤١ – ١٩٤٥) باستغلال المانيا لقادة الحركة العربية المتعاونين معها، لقد كانت الفلسفة النازية وراء العلاقات العربية – الالمانية بعامة والعلاقات الالمانية الفلسطينية بخاصة، فقد اعتقد الالمان بعجز العرب عن بناء دولة حديثة. كما شكوا في ولائهم السياسي، كما هو واضح في التقارير والمذكرات والمؤلفات التي نشرها قادة المانيا النازية بعد الحرب العالمية الثانية. وكان تصور النازيين لاقتسام العالم يفترض وقوع العرب تحت النفوذ الاوروبي الايطالي والفرنسي. ولا شك ان مقتضيات الحرب العالمية الثانية هي التي اكرهت المانيا على انتهاج سياسة مخالفة لفلسفتها السياسية النازية. واما المعاملة الحسنة التي لقيها الحاج امين فقد كانت استثناء وربما لاعتقاد هتلر باصوله الآرية على حد تعبيره. فقد صرح زعيم الرايخ الثالث بأن «شعر المفتي الاشقر وعينيه الزرقاوين يعطيان الانطباع بأنه شخص كان في اسلافه اكثر من آري... وان من المحتمل ان هذه الآرية قد امتزجت لديه بأحسن ما ورثه عن الرومان».

ومنذ تراجع القوات الالمانية على الجبهة السوفياتية وفي شمال افريقيا اخذت القضية العربية دوراً ثانوياً في حسابات المانيا الدولية. ومنذ منتصف عام ١٩٤٣ اصبح هم المانيا الاول الدفاع عن مواقعها في الجبهات الاوروبية، وغدا تحرير البلاد العربية بعيد المنال. وشعر الزعماء العرب المتعاونون مع الالمان بذلك، واخذوا يوجهون نقدهم علناً للسياسة الالمانية. ولم يعد للعمل الدعائي الذي كان يقوم به المكتب العربي في برلين والذي كان تحت اشراف المفتي، اية أهمية خلال عام ١٩٤٤. وشعر هتلر نفسه خلال الاشهر الاخيرة من الحرب بالاخطاء التي وقع فيها فاعرب عن أسفه لانه لم يستغل بشكل واف امكانيات حركات التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية وبخاصة في سورية وتونس. كما ابدى خيبة امله في التحالف مع موسوليني الذي لم يفد منه شيئاً في الشرقين الادنى والاوسط.



موسوليني

نشأت في صقلية... وقضى موسوليني على فرعها الايطالي

علي أدهم

● نشأت هذه الجمعية في جزيرة صقلية الجميلة الساحرة، ولما كملت عزيمة اصبحت من اعجب الجمعيات السرية التي عرفها التاريخ.

وهذه الجمعية بقوانينها ومجالس قضائها وشرطتها وجواسيسها وجامعي الضرائب لها واساليبها في معاقبة من يتصدى لمنافستها وخوف الاهالي منها لم تصبح مجرد دولة في داخل الدولة، وإنما اصبحت دولة فوق الدولة.



الحفاظ على الاسرار يقتضي بعض التضحيات.



ومع ذلك كان ينقص هذه الجمعية بعض مقومات الجمعية السرية، فلم يكن لها في غير المناطق المحلية الخالصة والظروف الاستثنائية رؤساء مختارون، ولم يكن لها علامات سرية او شارات يتعارف بها اعضاؤها، ولا حفلات تقام لاستقبال الاعضاء الجدد ولا قواعد متبعة لقبول الاعضاء وإلحاقهم بالجمعية، ومتى صحت عزيمة العضو على دخول الجمعية وكان له نصيب من الشجاعة والاقدام وحمل الاسلحة اللازمة فإنه يصبح عضواً عاملاً فيها بغير شرط ولا قيد، وإذا فقد هذه الصفات والمؤهلات طرد من الجمعية او قتل، وكان الرؤساء في هذه الجمعية يشقون طريقهم بالعنف والقوة ويفرضون انفسهم فرضاً، وفي توزيع الغنائم والاسلاب كان الجريء المقدام يفوز بالنصيب الاوفر.

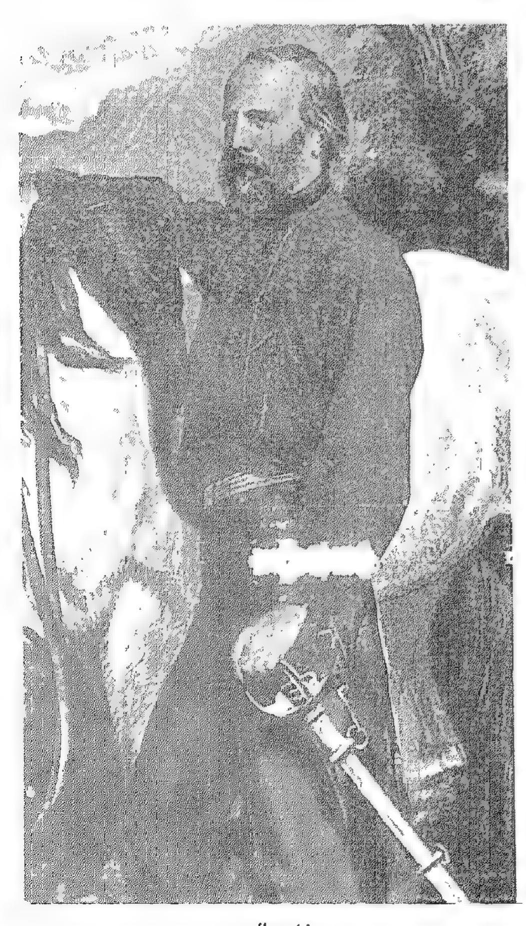
وقد تكونت الجمعية في بادىء امرها من الحراس المسلحين الذين كان يتخذهم ملاك الارض لحماية انفسهم، وبسط نفوذهم، والمحافظة على املاكهم، وفي مطالع القرن التاسع عشر تبدد شمل جيش الاقطاعيين المكون من هؤلاء الحراس المسلحين، ولكن هؤلاء الحراس عاشوا بعد ذلك ومنهم نشأت هذه الجمعية، ولما التجأ بلاط نابولي إلى صقلية فراراً من جيش نابليون، امتلأت الجزيرة بهذه العصابات، واتخذ الملك من بعض رجال هذه العصابات حرساً يدفع لهم من ماله الخاص، ويعتمد عليهم في المحافظة على الامن في الجزيرة، وقد تغلب رجال حرس الملك على غيرهم من لصوص الجزيرة ومجرميها، واحتكروا وحدهم اللصوصية والإجرام، وقويت شوكتهم وصار الناس ينظرون إليهم بعين الاعجاب والخوف، واصبح اعيان الجزيرة يدفعون لهم ضريبة الحماية وحفظ الامن، وظلت الجمعية نافذة الكلمة مرهوبة الجانب حتى شهر ايار (مايو) سنة ١٩٢٤، ففي احد ايام ذلك الشهر ورد الجزيرة السنيور موسوليني والقى في مدينة بالرمو خطبة من خطبه الحماسية الملتهبة وهدد فيها الجمعية بالحديد والنار.

وكان كل صقلي على وجه التقريب عضواً في الجمعية إما باشتراكه فيما تجمعه من السرقة والتهريب والقتل وحملات الشتائم وتشويه السمعة، وإما بدفع ضريبة الحماية للجمعية، ومما ساعد على نجاحها ان سكان صقلية استهدفوا طويلاً للظلم والطغيان، ولذلك نشأت عندهم تقاليد حماية الثائرين المتمردين وإخفاء حركاتهم وكتمان اخبارهم، وصار تحدي

الحكومة وعدم التعويل عليها في صيانة العدالة والمحافظة على القوانين والاعتماد على انفسهم في ذلك من الصفات الملازمة لهم، وكان الذي يخالف هذه التقاليد يصبح مضغة في الافواه ويفقد سمعته وجاهه ومكانته في المجتمع الصقلي، ويقاطعه الناس ويتجنبونه، ويحل به العقاب والاضطهاد، ويذوق الوان العذاب، وكان ضحايا جمعية المافيا يلتزمون الصمت والصبر على الهوان بغير تذمر ولا شكوى، وذلك نزولاً على حكم التقاليد من ناحية، ومن ناحية اخرى يأساً من العدالة وقدرة الحكومة على الانتصاف لهم، وكانوا يمتنعون عن تقديم الادلة والقرائن او يقدمون ادلة زائفة وقرائن مضللة، خشية بأس الجمعية واحتراماً للتقاليد، وإبقاء على السمعة الحسنة والشرف الرفيع!.

وكانت مؤامرة الصمت هذه توغر صدر الحكومة وتشل يدها وتقعد بها عن اداء واجبها، وكان الامر على ما فيه من هم ونكد للحكومة لا يخلو في بعض الاحيان من الفكاهة المسلية، فقد اتفق مرة ان سرق بغل احد المزارعين الصقليين، وعرضت الشرطة على الرجل عدداً من البغال المسروقة ليدل على بغله من بينها، ولكن خوف الرجل من انتقام الجمعية جعله يحلف ان بغله ليس من البغال المعروضة، وذلك بالرغم من ان البغل اظهر السرور حينما سمع صوت صاحبه، ولما اطلق الشرطة البغل في الليل بظاهر القرية اتجه البغل إلى منزل المزارع، وفرحت زوجة الرجل واولاده بعودة البغل إلى دارهم! ولكن المزارع رغم ذلك اصر على إنكاره، زاعماً ان البغل ليس بغله! والظاهر ان التجارب المرة التي مرت بهذا المزارع المسكين جعلته يصر على إنكاره هذا الاصرار الذي يثير الضحك، وعين الذئب الطائرة تعلم الناس الكثير من ضروب الحكمة! فقد كان هذا المزارع يعلم قصة مزارع آخر كان عائداً إلى قريته وهو يسوق امامه قطيعاً من الغنم، فلقيه اربعة رجال من اعضاء جمعية المافيا فاختطفوا شاة واشبعوا صوفها بزيت البرافين واشعلوا فيه النار، وبعد ان ارغموا الراعي المرعوب المرتعد الفرائص على مشاهدة مصرع شاته ومصيرها القاسي مثلوا به تمثيلهم بالشاة، وكان الذين ينالهم اذى الجمعية وتحل بهم نقمتها فتنهب اموالهم وتسرق امتعتهم يجدون الالتجاء إلى الجمعية وكسب رضاها بالمال اهون عليهم واضمن لهم من الالتجاء إلى الحكومة، وقد آثرت فتاة كانت خادمة في منزل احد اعضاء الجمعية الانتحار على ان تفشي سر سيدها، وتذكر ما تعلمه عن حركاته المريبة وتعرض نفسها لانتقام الجمعية.

وقد حاول غاريبالدي بطل الاستقلال الايطالي المعروف ان يقضي على هذه الجمعية ولكنه اخفق في ذلك، ولم يكن نفوذ هذه الجمعية مقصوراً على القرى والريف، وإنما كان يشمل



غاريبالدي



آل كابوني،
ألمع زعماء المافيا
بعد انتقالها إلى
الولايات المتحدة الاميركية.

كذلك المدن، فكان العضو في الجمعية يستطيع ان يجرد خنجره الصغير ويطعن به فريسته في إحدى الحدائق العامة ويختفي دون ان يتعرض له احد من الذين يتبخترون في الحديقة، او يقتفي اثره او يستنجد بالشرطة، ويدلهم عليه، وحتى لو رآه الشرطي بعينه وهو يباشر الاعتداء على فريسته فان الحاضرين يمتنعون عن اداء الشهادة، او ينكرون ما رأته عيونهم، وربما تطوع بعضهم ليشهد بأن الجاني كان في مكان بعيد عن مكان الحادثة او انه كان صديقاً للقتيل، وكان اغلب الذين يدانون وتثبت عليهم الجريمة ويقدمون للموت ليسوا هم القتلة الاصليين، وإنما هم افراد ارادت الجمعية ان تزيلهم من طريقها، وفي بعض الحالات الهامة كانت جمعية المافيا تهيىء وسيلة الهرب للمجرمين المحكوم عليهم بالاعدام، لكي تتولى هي بنفسها إعدامهم.

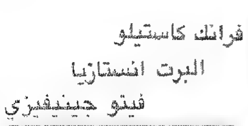
على ان الجمعية في معظم الحالات كانت تبالغ في الاحتياط حينما تحكم بالاعدام على أي إنسان، وكانت تختار لتنفيذ الحكم رجلاً لا تعلق به الشبهة، ولا تضع في يده السلاح إلا في اللحظة الاخيرة، فإذا طعن الطعنة المصمية او اطلق الرصاصة القاتلة امتدت الايدي الخفية إلى السلاح الذي يحمله وعملت على إخفائه، وباختفاء السلاح وتزوير الشهود يهون الامر، ويزول الخطر، ويحظى القاتل بالبراءة.

وقد اصبحت الجمعية في الجزيرة على ممر الايام تشبه من بعض الوجوه شركات التأمين، يقدم لها الناس قدراً من المال منجماً في مقابل حمايتهم من الجرائم على اختلاف انواعها، وكان الاغنياء والفقراء على السواء يؤدون هذه الضريبة، وكان الذي يؤدي الضريبة يظفر بالامن الذي لا تستطيع الحكومة ان تفيئه ظله، وإذا وقع عليه اي اعتداء لم تقره الجمعية فإنها تبادر في الحال إلى الانتقام له وإعادة الطمأنينة إليه. وإذا تأخر احد الناس عن تقديم القسط المطلوب منه في الميعاد المعهود فإنهم يذكرونه به بطريقة مقبولة، فاذا اصر على المماطلة تبدأ الجمعية في معاقبته بإغراق حديقته او بإتلاف كرومه او بإحراق داره، ويتبع ذلك في النهاية قتله الذي يتأخر قليلاً، ولكنه يكون امراً محتوماً وقضاء لا مردَّ له، وذلك كله يمكن تجنبه بدفع الاقساط في مواعيدها المعهودة بغير تردد ولا إبطاء، وكان تحري رجال جمعية المافيا الصدق في وعدهم وإيعادهم يجعل الناس يحتملونهم ويثقون بهم ويأمنون شرهم متى قدموا لهم الاتاوة المعلومة.

وبعد الحرب الكبرى الاولى ساءت أحوال الجمعية، وتطرق إليها الضعف، وشاع فيها الفساد، واصبحت اعمالها مطبوعة بطابع الطمع والجشع والخيانة والغدر، ومل الناس وجودها، وضاقوا بها ذرعاً، ولكنهم كانوا برغم ذلك

لا يـزالون يخشـون بـأسهـا، ولا يجـدون من القانون الحمـاية الكـافية، ويعتقـدون ان من العبث الاحتمـاء بالشـرطة، واحتملـوا الخطب صامتين، ولم يجدوا نفعاً في الالتجاء إلى رؤساء الجمعية كما كانوا يفعلون من قبل، ولكن ساعة انفراج الازمة وزوال الكرب كانت قـد حانت، فالاختلال الذي طرأ على احوال الجمعية اتاح الفرصة لمـوسوليني للقضـاء عليها، فبعـد ان تسلم مقاليد الحكم في ايطـاليا وفـرض عليها نظامه الديكتاتوري واطمأن إلى مكانته نزل في ايار (مايو) سنة ١٩٢٤ بصقلية ووعد سكان صقلية باستتباب الامن واستقرار النظام لمصلحة الفاشيست.









مجرمو المافيا المهاجرون

فرانك كاستيلو
البرت انستازيا
فيتو جينيفيزي

واستـدعى موسـوليني شيزاري مـوري حاكم بالرمو، وكان قد اشتهر بقدرته على تناول مشكلة جمعية المافيا، فعقد موري العـزم على مهاجمة الجمعية في امنع معاقلها ليقتنع اهل الجزيرة بـأن الحكومـة اقوى سـاعداً واعظم صولة من الجمعية التي طال استبدادها بالامر في الجزيرة، ونجاح الحكومة الفاشيـة في هذه المحـاولة يجعـل سكـان الجـزيرة ينضمـون إلى جانبها ويناصرونها في مهمتها ويساعدونها على توطيد الامن في الجزيرة، وفضلاً عن ذلك فـانـه يكشف عن جـرائم اعضـاء الجمعيـة المستورة، ويمكن الحكومة من إخضاعهم للقانون وإنزال العقوبة اللازمة بهم، وقد كان مصدر قوة الجمعية شيئان وهمـا خوف اهـالي الجزيـرة وتهـاون الحكـومـة وإهمـالهـا، ومتى نشطت الحكومة وطرحت التهاون والاهمال زال الخوف، وانحلت عقدة الالسنة، وامكن وضع حد لجرائم الجمعية.

وكان معقل الجمعيـة الحصين يقـع في سلسلة الجبال الجميلـة المتأبـدة الممتدة بـين مسينا وبالرمو، وكانت الجمعية مسيطرة سيطرة تامة على القرى الواقعة في سفوح هذه الجبال، وكانت الرحلة إليها شاقة تعترض السائر خلالها الاجراف الشـاهقة والهاويات العميقة، ويعابيب الماء، ولا تأمن فيها اعتداء كمـين او هجومـاً مفاجئاً من الخلف. وكانت في وسط هذه المنطقة الوعرة قرية «جانجي» الواقعة فوق جبل بعيد منعزل، وكانت البيوت الواقعة على جانب الجبل تشرف على جزيرة صقليـة برمتهـا، ومعظمها يمكن الدخول إليه من طريق اعلى ومن طريق آخر اسفل، ولها بابان باب من ناحية سقفها وباب آخر من الطبقة السفلى من البيت، والكثير من هذه البيوت كان يربط بعضها ببعض ممرات تحتية محفورة في الجبل، وبها مخابىء وابواب سرية مختبئة خلف المرايا وتحت الحصر.

وبدأت الحملة الحـاسمة بمناوشات بعيدة عن قرية «جانجي» وكانت طـوالعها لا تختلف عن الحملات السالفة التي كانت تتـرك رجال الجمعية غير مكترثين؛ ولكن الحركة اخذت تشتد وتقوى في مدى ايام قلائل، ودنت الحملة من «جانجي»، وقبل ان يفطن رجال الجمعية لقوة الحملة ويستشعروا عنفها، كانوا قد احيط بهم من كل ناحية، واخذت عليهم المسالك والمنافذ، واخذ الشرطة يحتلون المنازل والدسـاكر، ولم يبق امام رجال الجمعية سوى الاعتصام بقرية جانجي نفسها، ولما علم موري بذلك من عيونه وطلائعه ارسل قوات اخرى لمحاصرة جانجي، وطوقت القريـة تطويقـاً تامـاً، وقطعت اسلاك التليفون والتلغراف بها، وارسل موري مناديـاً من قبله يعلن ان على المختبئين ان يخرجوا من مكامنهم ويسلموا انفسهم في خلال اثنتي عشرة سـاعة، وبعـد انقضاء هـذه الفتـرة ستتخـذ



صقلية «ذكرى» موطن المافيا

إجراءات شديدة حاسمة، وعمل موري على ان يظل المختبئون منعزلين منفردين ليفيد من تخويفهم وارهابهم، وكان يقصد الا يهزمهم في ميدان الحرب لان هزيمتهم في ساحة الجهاد تحفظ لهم مكانتهم، وهو يحرص على ان يكشف للناس ضعفهم، ويظهرهم في مظهر الجبناء المستسلمين، ويجعلهم اضحوكة للعالم، واخذ رجال الشرطة يدخلون البيوت بيتاً بيتاً ويذبحون الماشية المسروقة، ويبيعون لحمها للناس بأسعار مضحكة، وكان الخوف ما يزال يمنع الناس من التقدم لشرائها، ولكن هذه الانباء بلغت المختبئين، وكان لها في نفوسهم وقع شديد، واخذ الكثير من الاشياء المسروقة المحفوظة في منازلهم، وبيعت بأثمان زهيدة. واخذ اهل الجزيرة يسخرون من هؤلاء الابطال المعروفين بقوة العزم وشدة البأس الذين تنهب بيوتهم ويباع ما بها بأبخس الاثمان وهم مع ذلك لائذون بالمخابىء شأن الجبناء المستضعفين، واخذ هؤلاء الرجال الذين ملأوا نفوس الناس خوفاً ورعباً واراقوا دماءهم واجروا دموعهم في الاستسلام وإلقاء السلاح، والكف عن المقاومة، ولم يحتفظ بإبائه وشممه سوى الزعيم القديم الابيض الذوائب «جيتانو فاريلو»، فقد ارسل لموري رسالة يعده فيها بشرفه بأنه سيسلم نفسه في قاعة استقبال عمدة القرية، وسار في خطوات رزينة رافع الرأس قوي الفؤاد إلى دار العمدة، واسلم هناك عصا كبيرة كما يسلم قائد الجيش عصاه بعد هزيمة جيشه، وقد شنق نفسه بعد ذلك في السجن ليكون موته بيده لا بيد عمرو كما صنعت الزباء قديماً.

وفر رجل آخر من رجال الجمعية محاولاً الاعتصام بالجبال، فحدث ما دل على ان الحملة قد وفقت في تحقيق غرضها، فقد سار في اثره جماعة من الاهالي حاملين السلاح وتبعوه في مخارم الجبال وغيرانها، واضطروه إلى التسليم، واحضروه مستخزياً متضائلاً بعد ان كان يتوعد بالانتقام ويشمخ بأنفه ويصعر خده، واستسلم سائر اعضاء الجمعية بين ضحكات المزارعين الساخرة وسرورهم وفرحهم، وانطلقت الالسنة المحبوسة وشدت اطرافها العيون التي كانت كليلة مغضية، وامتلأت سيارات الحكومة بمجرمي الجزيرة وشذاذها، وجمعت الادلة التي تدينهم، ولقي كل مجرم العقاب الرادع، واقسم الاعيان والمزارعون يمين الولاء للملك والقانون وطاعة الدولة، ونادى قوم في كل مكان بالجزيرة بسقوط جمعية المافيا، وتطهرت اودية جبال الجزيرة وادغالها من هذا الوباء القاتل، وقضي على قوة المافيا بعد هذه السيرة غير العطرة، وبهذا الاسلوب الحاسم الذي يمتاز به الحكم الديكتاتوري، ولعله مزيته المفردة وفضله الاوحد ■



تاريخ القهوة

حقائق وطرائف

طلال مجذوب

- سنة ١٥٣٨ جلد شاربوها سبع عشرة جلدة في مصر!
- سنة ١٦٦٩ شرب الفرنسيون قهوة تركية لاول مرة في باريس!

إن ارتشافك للقهوة اليوم امر عادي وفي غاية السهولة، غير ان الامر لم يكن كذلك في الماضي، ففي بعض البلاد العربية جلد شاربو القهوة وحبسوا وفي بعض بلاد اوروبا اجبر الحكام السكان على تناول البيرة وحرموا عليهم القهوة. وهذا المقال يختصر الحكاية الطويلة للقهوة.

ماجستير تاريخ، محاضر في الجامعة اللبنانية

البداية: اساطير:

تقول احدى الاساطير ان اول من عرف خواص شجرة البن رئيس احد الاديرة في جزيرة العرب، بعد ان شاهد قطيعاً من الماعز تدب فيه الحركة والنشاط كلما اكل من ورقها وثمارها، فجرّب ذلك بنفسه فوجد انها تعينه على السهر وتبعث في جسمه النشاط، بينما تنسب اسطورة ثانية ذلك إلى احد الرعاة، لكن رواية ثالثة تزعم ان النبي داود اول من عرف خواص القهوة. ومهما تعددة الاساطير فهي تجمع على ان موطن البن

الاول هو الشرق، سواء كان الشرق العربي (جنوب الجزيرة العربية) او الافريقي (الحبشة والصومال)، واذا كان معظم استهلاكنا من البن اليوم انتاجاً برازيلياً، فهو لا يعدو ان يكون، كما قال الصاحب بن عباد يوماً عن كتاب «بضاعتنا ردت الينا».

موطنها وصفاتها:

يعتقد ان الموطن الاصلي لشجرة البن هو الحبشة والصومال، وكان اليمن اول بلد عربي انتقلت إليه زراعة البن، ومنه انتقلت إلى انحاء العالم.

لشجرة البن اوراق دائمة الخضرة وازهار بيضاء، وتحمل ثمرتها حبتين من البن، وبعد قشرهما يظهر لونهما الاخضر القاتم. وتبدأ الشجرة بالانتاج منذ سنتها الثالثة وتظل تعطي محصولاً طيباً حتى عامها الثلاثين، ثم يخف انتاجها حتى تموت في عمر الخمسين او الستين.

تجود شجرة البن على المنحدرات على ارتفاع يزيد عن خمسمائة متر ولا يزيد عن الفين منها، وتحتاج إلى جو دافىء رطب ومطر يتجاوز خمسين بوصة سنوياً.

انواع شجرة البن تزيد عن خمسة وعشرين، لكن افضلها ثلاثة هي البن العربي (COFFEA ARABICA) وهو اجودها واطيبها، والبن الكونغولي وموطنه الاصلي الكونغو، والبن الليبيري وموطنه الاول الساحل الغربي لافريقيا.

تجارة البن:

تنتج البرازيل اليوم حوالي ٤٠٪ من الانتاج العالمي، تليها كولومبيا التي تنتج ١٢٪، وتأتي بعد ذلك المكسيك والسلفادور وغواتيمالا ثم ساحل العاج واندونيسيا والهند وكينيا، اما اليمن التي يوجد فيها اجود انواع البن في مخا (MOCKA)، فان انتاجها لا يدخل في التجارة العالمية لضآلته، لان اليمن زرعت القات بدل البن.

تعتبر البرازيل بانتاجها الضخم المصدر الرئيسي للبن في العالم، وتكاد تحتكر تجارته ويتجاوز دخلها منه ثلاثة مليارات دولار سنوياً، وحتى تحافظ البرازيل على مستوى اسعاره فانها تحرق الكميات الزائدة منه او ترميها بالبحر، او تزفت بها الطرقات، كما فعلت اكثر من مرة خلال السنوات الماضية.

تركيب القهوة وتأثيرها:

بعد نزع قشر ثمرة البن وتجفيفها وتخميرها قليلاً ثم تحميصها فان منقوعها هو الذي يشرب ويسمى القهوة. وتحتوي القهوة على ٠,٧٥ إلى ١,٥٪ من وزنها من مادة



شجرة البن.

الكافيئين (CAFFEINE) وهي مادة بلورية بيضاء تذوب في الماء،وكذلك بها زيت طيار وغلوكوز (سكر عنب) وبعض البروتين والدهون، والبن العربي يحتوي كميات ضئيلة من الكافيئين نسبة للانواع الاخرى.

ان التأثير الفعّال للقهوة كامن في مادة الكافيئين التي لها قدرة على الانعاش وتخفيف التعب، وتنشيط المراكز العصبية والدورة الدموية، وزيادة ادرار البول، لكنها من جهة اخرى تزيد من ضغط الاوعية الشريانية، ومن

ضربات القلب، وتساعد على زيادة حموضة المعدة وينصح مرضى القلب والضغط والكبد بالاقلال منها او الاقلاع عنها.

تعددت الاسماء والاصل عربي:

القهوة لفظ عربي صميم معناه الخمرة، او اللبن المحض، وسميت كذلك لانها عند بدء انتشارها في بلاد العرب كانت تدار على الشاربين في ماعون كبير، كما تدار الخمرة او هي، كما ذكر ذلك ابو بكر بن ابي يزيد في كتابه «النخوة في حل القهوة»... «من الاقهاء وهو الاحتواء اي الكراهة، او من الاقهاء بمعنى



إحدى مزارع البن الأولى في
مزارعها.

الاقعاد، من اقهى الرجل عن الشيء اي قعد عنه... ومنه سميت الخمرة قهوة لا تقهي اي تكره الطعام وتقعد عنه...».
ولم يخرج قاموس المنجد عن هذا التفسير ايضاً.

من اللفظ العربي انتقلت إلى معظم لغات العالم، فالانجليز يسمونها (COFFEE) والفرنسيون (CAFÉ) والروس (KAPÉ) والبولنديون (KAVA) والاتراك (KAHVE) والايرانيون يكتبونها قهوة ويلفظونها كالاتراك «قهقة».

... وتنوعت مشاربها:

إذا كان للعرب فضل نشر البن في العالم فلهم ايضاً فضل ابتكار «القهوة»، لان الاحباش كانوا يشربون منقوع البن وقشره وورقه، وكان مراً لاذعاً، ثم ظهر منقوع البن المحمص في اليمن ومنها انتشر لسائر انحاء العالم، ويتجاوز عدد شاربي القوة اليوم في العالم ملياراً ونصف مليار.

القهوة العربية هي المصنوعة من البن المحمّص الذي يدق «بالمهباج» ويطبخ «بالدلة» ويقدم بفنجان مصمت (بدون يد) وتسمى القهوة العربية او «المرّة» او «السادة»، وهي بدون سكر ومهضمة جداً خصوصاً بعد الاكلة العربية الشهيرة «المنسف».

اما القهوة التي نشربها اليوم فهي محلاة بالسكر وبنّها مطحون جيداً ومضاف إليها «حب الهال»، وإذا كانت حلوة سميت «سكر زيادة» وإذا كانت معتدلة الحلاوة سميت «وسط» او «مضبوط» اما إذا كانت حلاوتها قليلة فتسمى «عالريحة» والطريف ان العرب يعرفون هذه القهوة «بالعثمانلية» بينما تعرف في اوروبا باسم «القهوة التركية».

اما الاوروبيون فيشربون القهوة غالباً ممزوجة مع الحليب، اما القهوة الخالية من الحليب فتعرف بالقهوة السوداء (BLACK COFFEE) وقد ابتكر الاميركيون القهوة السريعة (INSTANT COFFEE) التي يجرى تحضيرها فوراً، وكذلك يشرب الاوروبيون القهوة المحضرة آلياً (EXPRESSO) وقهوة (NESCAFÉ) وغيرها. والقهوة النمساوية هي الاجود في كل اوروبا.

انتشارها في البلاد العربية:

بدأت القهوة بالانتشار في اليمن في القرن السادس عشر الميلادي على يد الامام جمال الدين ابي عبد الله بن سعيد الذبحاني كما ورد في كتاب الشيخ محمد عبد القادر الجزيري المسمى «عمدة الصفوة في حل القهوة»، اذ ذكر ان الامام جمال الدين كان يقوم بتصحيح الفتاوى في عدن، وبعد ان قام بزيارة الساحل



اعداد القهوة العربية.

الافريقي المقابل لها وجد سكانه يستعملون شراب القهوة، فاستحسن ذلك واخذ يشرب القهوة بعد رجوعه إلى عدن، لما اصبح هذا الامام من المتصوفة اقبل ورفاقه على شربها لتعينهم على السهر فاشتهر امرها بين الصوفية والفقراء.

بينما يذكر «الغزّي» في كتابه «الكواكب السائرة في اعيان المائة العاشرة» ان انتشارها في اليمن تأخر حتى اوائل القرن السابع عشر، وان ذلك تم على يد ابي بكر الشاذلي العيدروسي الذي جرّب ثمارها اثناء تجواله في البرية متنسكاً زاهداً، وانه ارشد اتباعه، فيما بعد، إلى مزاياها.

بعد اليمن انتشرت في الحجاز ونجد ومناطق الجزيرة العربية الاخرى، وفي السنوات العشر الاولى من القرن السابع عشر ظهرت لاول مرة في مصر، حيث اخذ يتعاطاها اليمانيون في رواقهم بالازهر، ومنه انتقلت إلى سائر الاروقة، واخذ الشيوخ يشربونها ليلة كل اثنين وجمعة لتساعدهم على السهر اثناء حلقات الذكر، وكانوا يضعونها في اناء كبير من الفخار الاحمر ويقوم نقيبهم باسقائهم وهم يرددون «لا إله إلاّ الله الملك الحق المبين».

بين التحريم والاباحة:

لم يمض امر شرب القهوة بسهولة، ففي العراق حرّم شربها بعض الفقهاء لانها تحمص حتى تصير كالفحم والفحم من الخبائث، بينما افتى غيرهم بتحليل القهوة (بكسر القاف) وهي منقوع البن وتحريم القهوة (بفتح القاف) لانها هي الخمرة.

وفي اوائل القرن السادس عشر منع امير مكة «خاير بك» من شرب القهوة، ومعاقبة من يشربها علناً، فصار الناس يشربونها في بيوتهم خفية، وعلق احد الشعراء قائلاً:

قهوة البن حرمت ... فاحتسوا قهوة العنب
واشربوها وعربدوا ... والعنوا من هو السبب

ولم يستمر المنع طويلاً، فعاد الناس إلى شربها في محلاتها المعروفة «ببيوت القهوة»، وفي سنة ١٥٢٥ اشار الشيخ العارف بالله سيدي ابن عرّاف على حاكم مكة بمنع شربها في بيوت.

وفي الازهر افتى شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي الشافعي سنة ١٥٣٤ بأنها مسكرة، فتشجع بعض العامة وهاجموا بيوت

القهوة فكسّروا اوانيها وضربوا مرتاديها. وقال احد الشعراء بهذه المناسبة:

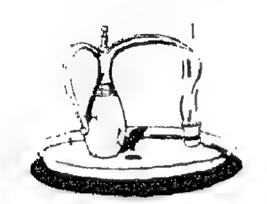
ان اقواماً تعدوا — والبلا منهم تأتي
حرّموا القهوة عمداً — قد ردوا إفكا وبهتا
ان سألت النص قالوا — ان «عبد الحق» افتى
يا اولي الفضل اشربوها — واتركوا ما قال بهتا
ودعوا العزّال فيها — يشربون الماء حتى

واشتد الجدل بين محرميها ومحبّذيها فأفتى الشيخ محمد بن الياس الحنفي بتحليل شربها، فوصف احد الشعراء ذلك مادحاً القهوة:

يعتقد ان اول بلد اوروبي عرفها كانت فرنسا سنة ١٦٦٩ عندما اوفد السلطان العثماني محمد الرابع سفيره «مصطفى آغا راجي باشا» إلى بلاط ملكها لويس الرابع عشر، فأقام حفلة شرقية قدم خلالها القهوة فتذوقها الناس واحبوها، ثم اقيم فيما بعد اول مقهى في باريس في حي سان جيرمين وكان صاحبه ارمنيا عثمانياً.

وفي سنة ١٧٢٣ قام ضابط بحري فرنسي يدعى «دي كليو» بنقل شجيرة بن إلى جزر المارتنيك وزرعها، وبعد مرور خمسين سنة كانت الجزيرة تضم ١٩ مليون شجرة بن.

يا قهوة تذهب همّ الفتى — انت لحاوي العلم نعم المراد
شراب اهل الله فيها الشفا — لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشرا فتأتي لنا — في نكهة المسك ولون المداد
كاللبن الخالص في حِلّه — ما خرجت عنه سوى بالسواد



وفي سنة ١٥٣٨ بينما كانت بيوت القهوة ممتلئة بروادها في القاهرة بعد الافطار في احد ايام رمضان، جاء رئيس الشرطة فأخرج الناس منها وساقهم مكبلين إلى المخفر، وفي الصباح اطلق سراحهم بعد ان جلد كلا منهم سبع عشرة جلدة!

ووصف جمال القهوة ومذاقها الشاعر احمد بن شاهين الشامي بقوله:

وفي اوروبا منعت ايضاً:

هاجم رجال الكنيسة الكاثوليكية شرب القهوة وحرموها على المؤمنين باعتبارها «شراباً ملعوناً»، حتى جاء البابا كلمنت الثامن وسمح بها.

وقهوة كالعنبر السحيق — سوداء مثل مقلة المعشوق
اتت كمسك فائح فتيق — شبهتها في الطعم كالرحيق
تدين الصديق من هوى الصديق — وتربط الود مع الرفيق
فلا عدمت مزجها بريقي

انتشارها في بلاد العالم:

منذ القرن السابع عشر اخذت القهوة بالانتشار في انحاء العالم فقد نقلها العرب إلى سيلان (سرى لانكا) سنة ١٦٥٨ وإلى اندونيسيا سنة ١٦٩٦.

اما الولايات المتحدة فقد وصلتها سنة ١٦٦٨ بينما لم تصل إلى البرازيل قبل سنة ١٧٢٧.

وفي المانيا منع ملكها فردريك الكبير شربها، وحرم استيرادها، وفرض احتساء البيرة بدلًا منها، لما لم يجد تجاوباً احتكر تجارة البن وطحنه.

وفي الولايات المتحدة كسبت القهوة النصر على الشاي بعد حادثة الشاي في بوسطن سنة ١٧٧٣ واصبحت القهوة هي المشروب القومي في امريكا بينما تراجع الشاي إلى المرتبة الثانية.

بيوت القهوة ونواديها:

انشئت في البلاد العربية محلات لشرب القهوة دعيت «بيوت القهوة»، وصار بعضها يحاول كسب زبائن اكثر باحضار المغنين والموسيقيين ليطربوا زبائنهم، وفيما بعد صارت تدعى «القهوة» اختصارا، اما كلمة «المقهى» فهي اصطلاح حديث وتعني مكان ارتشاف القهوة.

وفي الدولة العثمانية، خصوصاً في اسطنبول، اصبحت المقاهي مراكز للعاطلين عن العمل و «التنابل»، فلما استلم الحكم مصطفى كمال اتاتورك حرّم فتح ذلك النوع من المقاهي وامر بفتح المكتبات بدلاً منها، ولذلك صار الناس يتجايلون بفتح مقهى وتسميته «كتابها نسي» خصوصاً في الاماكن الشعبية، وكذلك كان الامر في ايران إذ اغلق رضا شاه المقاهي او حولها إلى مكتبات مع ان ٩٥٪ من شعبه كان امياً، ولا تزال كثير من المقاهي الشعبية في ايران اليوم تحمل لافتات كتب عليها «قرائت خانة» اي مركز مطالعة!

وفي اوروبا كانت تسمى (COFFEE HOUSE) وكان يرتادها الفنانون والادباء والسياسيون واشتهر في لندن مقهى «ويل» وفي فرنسا مقاهي سان جيرمين في باريس وفي الولايات المتحدة مقاهي نيويورك وفيلادلفيا، وقد وصف احد العرب هذه المقاهي العربية وجمال الذين يقدمون القهوة فيها، بينما تعبق روائح البخور والزهور، فقال:

عرّج على القهوة في حانها	فاللطف قد حفّ بندمانها
وقهوة لا غمّ تبقي إذا	قابلك الساقي بفنجانها
قريبة العهد بعدن فإن	شككت في نظر حسن ولدانها
شراب اهل الله فيه الشفا	جواب من يسأل عن شأنها
بمائها نغسل اكبادنا	ونحرق الهمّ بنيرانها
فاشرب ولا تسمع كلام الذي	بجهله يفتي بحرمانها



وفي مجلس جمع يوسف الاسير وناصيف اليازجي، قدمت لهما القهوة، فامتنع الاسير عن تناولها منشداً:

قهوة البن حرام قد نهى الناهون عنها

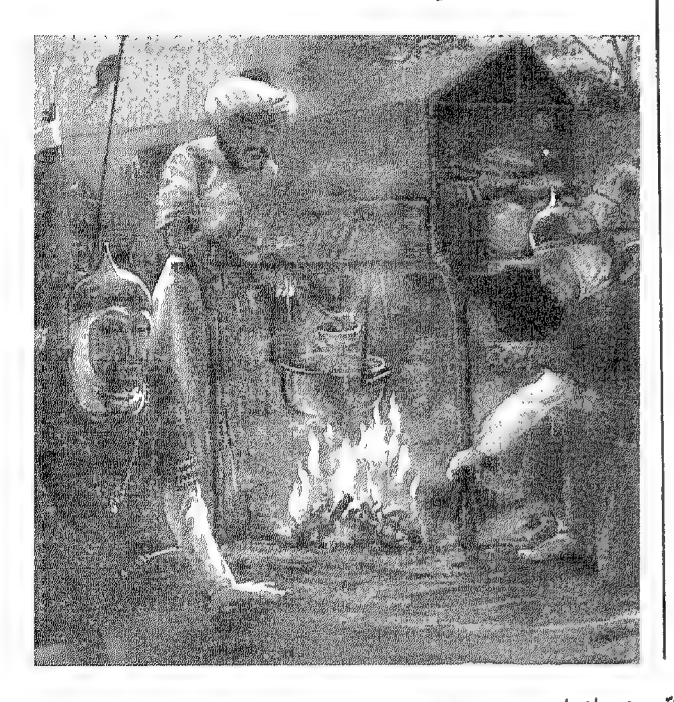
لكن اليازجي تناول فنجانه وردّ عليه قائلاً:

كيف تدعوها حراماً وانا اشرب منها؟

لشربها اصول وآداب:

صارت القهوة، في معظم البلاد العربية، مشروب الضيافة الاول، وفي لبنان تقوم السيدات بزيارة احداهن في بيتها في الصباح الباكر لتناول القهوة ويسمين ذلك «صبحية» كما اصبح مألوفاً ان تقدم القهوة السادة في المآتم،

وفي ساحات المعارك.



وفي بعض البلاد العربية لا تعتبر المصالحة بين الخصوم قد تمت ما لم يشربوا القهوة معاً، وفي السعودية يهز الضيف فنجانه بعد احتسائه علامة الاكتفاء، وإذا لم يفعل، يظل الساقي يقدمها له مراراً، والعادة ان تقدم القهوة من اليمين إلى اليسار، ما لم يكن بين الحاضرين شخص ذو شأن فيبدأ التقديم له.

نهاية القصة خرافات:

بلغ من تأثير القهوة في عادات الشعوب ومعتقداتها انها امتزجت بكثير من الخرافات، مثل الاعتقاد بأن انسكاب القهوة على الملابس علامة خير وكسر فنجانها «خاتمة الشرور»، بالاضافة إلى الايمان بأن بقايا القهوة في الفنجان تدل على «بخت» الانسان وترسم خطوط مستقبله، ويسمى هذا الفن «تبصيراً» وليس ادل على شهرة هذا الاعتقاد من انتشار اغنية عبد الحليم حافظ «قارئة الفنجان» في طول البلاد العربية وعرضها. ■



مراجـــع:

- الموسوعة البريطانية.
- الموسوعة العربية الميسرة.
- الكواكب السائرة في اعيان المائة العاشرة / تاليف نجم الدين محمد بن محمد الغزي.
- حرية الفكر وابطالها في التاريخ / سلامة موسى.
- مجلات وصحف متعددة.

اختراع المنظار

إن خاصة التقريب والتكبير في المنظار ترجع الى البلورة العدسية وهي زجاجة مستديرة ذات سطحين محدبين ، ولا يعرف بالتدقيق من هو أول مخترع لهذه العدسة ، ولكن المعلوم المقرر أنها كانت مستعملة منذ ستة قرون لاعانة البصر على تمييز المرئيات الصغيرة . وأول من وصفها على ما نعلمه راهب انكليزي اسمه روجر باكون ولد سنة ١٢١٤ وتوفى سنة ١٢٩٤ وكان عالما كبيرا وفيلسوفا عظيما ألف كتبا كثيرة وقد أشار إليها في كتابه « المؤلف الأكبر »

أما استعمال العدسيات في أنابيب مستطيلة لرؤية الأشباح البعيدة « التلسكوب » فيظهر أنه بدأ في أواسط القرن السادس عشر، ويظنون أن أول من فعل ذلك رجل اسمه ليونار ريجس المتوفي سنة ١٥٧٣ ، ولكن المقرر عند جمهور العلماء أن شرف اختراع التلسكوب على مثل ما هو عليه الآن يرجع إلى أهل هولندا يتنازعه اثنان منهم أحدهما حنا ليبرشيم كان يصنع النظارات في ميدلبرج ، والثاني يعقوب أدريانس ويسمى أيضا ماتيوس من مدينة الكمار . وسبب هذا التنازع أن الأول عرض على حكومته في اكتوبر سنة ١٦٠٨ ثلاث آلات لرؤية الأشباح البعيدة والتمس جائزة العصر أو ما يشبهها . وبعد بضعة أيام قدم الثاني آلات كالآلات الأولى وطلب نفس الطلب وقال أنه اصطنع مثل هذه الآلات قبل ذلك بسنتين . هذا أول أختراع التلسكوب ثم أخذ يتقدم ويتحسن بمرور الأيام .

جاليليو جاليلى هو العالم الايطالي والمسؤول الاول عن تطوير المناهج العلمية اكثر من اي انسان آخر. ولد في مدينة بيزا سنة ١٠٦٤. ودرس في جامعتها. ثم توقف عن اكمال دراسته لاسباب مالية ورغم ذلك فقد حصل على وظيفة مدرس في الجامعة في ١٥٨٩. وبعدها بسنوات التحق بالتدريس في كلية بادوا وظل هناك حتى سنة ١٦١٠. وفي تلك الفترة انتج اعظم اعماله العلمية.

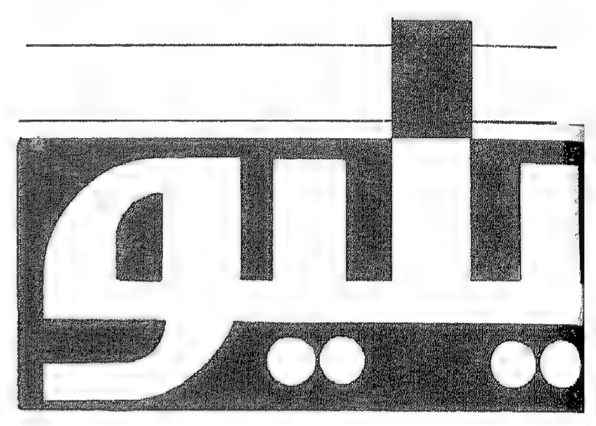
واهم انجازاته العظيمة كانت في الميكانيكا. فالفيلسوف الاغريقي ارسطو قال لنا: ان الاشياء الثقيلة يكون سقوطها الى الارض اسرع من الاشياء الاقل ثقلا وسار وراءه العلماء مئات السنين.

وقام جاليليو بتجارب عديدة على ذلك. فاكتشف ان ارسطو لم يكن على صواب، واكتشف ان سرعة سقوط الاجسام الخفيفة والثقيلة واحدة. الا اذا تدخل احتكاكها بالهواء.

إعداد قسم التوثيق والأبحاث



والجديد في تجارب جاليليو انه وضع لها قواعد رياضية تصف حركة سقوط الاجسام وسرعتها. ثم انه اكتشف قانون «القصور الذاتي».. فقد آمن الناس بأن الجسم يبطيء في حركته الا اذا تدخلت قوى اخرى ودفعته الى الحركة.. ولكن جاليليو اكتشف العكس: ان الجسم يظل متحركا الى ما لا نهاية الا اذا اعترضه جسم او اي عامل آخر كالاحتكاك بالارض او الهواء. وهذا الاكتشاف الذي جعله



نيوتن بعد ذلك القانون الاول للحركة، كان اكتشافا علميا عظيما.

واروع اكتشافات جاليليو كانت في علم الفلك، فقبل جاليليو كانت هناك نظريتان: واحدة تقول ان الشمس مركز الكون (عند كوبرنيكوس).. والاخرى تقول: ان الارض مركز الكون.. وفي سنة ١٦٥٩ اثبت جاليليو ان الفلكي كوبرنيكوس على حق وان الشمس هي مركز الكون او عالمنا نحن.

وفي ذلك الوقت سمع جاليليو عن انهم اخترعوا التلسكوب في هولندا. فاستعان به وادخل عليه تعديلات كثيرة. ثم وجهه نحو السماء، واهتدى الى اكتشافات كثيرة. نظر الى القمر واكتشف انه ليس جسما مستويا، وكذلك كل الاجسام السماوية. ولا كامل الاستدارة - تماما كالارض التي نعيش عليها. ففيها وديان وجبال. ونظر الى «الطريق اللبني» في السماء.. فلم يجده طريقا ولا وجده لبنا. وانما هو مجموعة من نجوم لا نهاية لها، بعيدة جدا لا تدركها العين. ونظر الى الكواكب فوجد دوائر تلف كوكب زحل. كما انه رأى اربعة من الاقمار تدور حول كوكب المشتري. وفي ذلك دليل جديد على انه من الممكن ان تكون هناك اقمار اخرى تدور حول كواكب اخرى غير الارض.

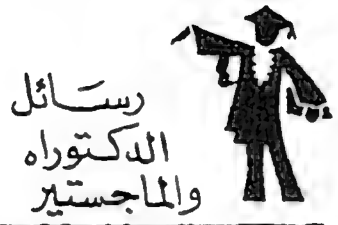
ونظر الى الشمس ووجد عليها بقعا سوداء(صحيح ان آخرين قد لاحظوا هذه البقع من قبل. ولكنه هو الذي نشر ذلك على اوسع نطاق). ولاحظ ان كوكب الزهرة يمر بمراحل مختلفة كالتي يمر بها القمر. كل ذلك اعلنه دليلا على صحة نظرية كوبرنيكوس من ان الارض والكواكب الاخرى كلها تدور حول الشمس.

وعارضته الكنيسة في ذلك الوقت. ولما مات البابا جاء واحد جديد من المعجبين بجاليليو، فتركه يمارس حريته العلمية. وامضى جاليليو ست سنوات اكمل فيها كتابه الشهير «حوار حول النظامين الفلكيين المشهورين». ولم يكد يظهر هذا الكتاب حتى ثارت الكنيسة وقدمته لمحاكم التفتيش باعتباره خارجا على الكنيسة.

اما الحكم الذي صدر ضده فلم يكن السجن، وانما فقط ان يلزم بيته دون ان يزوره احد في بيته الانيق. اما العقوبة الاخرى التي كان عليه ان ينفذها فهي ان يعلن امام الناس جميعا انه ليس صحيحا ان الارض تدور حول الشمس، وانما الشمس هي التي تدور حولها!!

- وكان في التاسعة والستين من عمره، ويقال انه نظر الى الارض وقال هامسا: ولكنها هي التي تدور!

والفضل العظيم لجاليليو هو ايمانه بالتجربة وليس بما يقوله الاقدمون ايا كانوا: سواء كانوا فلاسفة او كانت الكنيسة. وعلى الرغم من انه مات متدينا حتى آخر لحظة، فإنه رفض ما تدعيه الكنيسة من انها على حق.. وانها ضد ما تقوله التجارب العلمية والملاحظات الفلكية.



امبراطوريات الصين

الحلقة الثانية

طارق فتحي سلطان



يتناول هذا البحث الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين في العصور القديمة، مع تناول الاوضاع الداخلية التي سادت بلاد الصين مركزين على اهم الاحداث المحلية فيها، في محاولة لفهم الظروف المترتبة على طبيعة ونوعية سياسة الدولة. على ضوء هذه الاحداث، وفي هذه الحلقة سنتناول الدول والعائلات التي حكمت الصين منذ ٩٠٧م حتى ١١٢٦، بعد ان تناولناها في الحلقة الاولى منذ زمن ظهور الاسلام.

● (امبراطوريات الصين) رسالة ماجستير اعدت في كلية الاداب قسم التاريخ في جامعة الموصل.

٢ - فترة السلالات الحاكمة الخمس
(The Five Dynasties (907-960AD)
٩٠٧-٩٦٠م.

يسمي الصينيين الفترة من ٩٠٧ - ٩٦٠م بفترة السلالات الخمس وهذه تسمية غير دقيقة، وذلك لوجود عشرة سلالات حاكمة اخرى في الجنوب، وقد اعتبر المؤرخون الصينيون هذه السلالات العشر بانها غير شرعية(١).

ففي سنة ٩٠٧م، استطاع (Chu Wen) - القائد العسكري لامبراطورية التانغ، في وادي النهر الاصفر - ان يخلع الامبراطور التانغي، وينصب نفسه امبراطوراً، وقد سميت الدولة التي اسسها هذا القائد العسكري، بسلالة ليانغ المتأخرة (Later Liang) وهذه السلالة تأسست سوية مع سلالة تانغ المتأخرة (Later Tang)، وقد شكلت هاتان السلالتان مع السلالات الثلاث التالية، السلالات الخمس، التي حكمت شمال الصين لمدة ٥٣٠ سنة، اما بقية السلالات الخمس فهي سلالة تسن المتأخرة (Tsin Later)، وسلالة هان المتأخرة (Later Han)، وسلالة جاو المتأخرة (Later Chou)(٢).

اما السلالات العشر الحاكمة في الجنوب، فقد تشكلت من القواد العسكريين، والذين اعلنوا انفصالهم واستقلالهم في اواخر عهد الامبراطورية، معلنين انفسهم اباطرة وملوكاً في الجنوب، اما اهم هذه السلالات العشر فهي كوانغ تونغ (Kwangtung)، شيسوان (Schechwan)، سيكيانغ (Chekiang)، وكان يعم هذه المقاطعات سلام نسبي وتقدم اقتصادي، لذلك كان حكامها قادرين على ادارة شؤونهم، ولم يعتمدوا على الحكومة المركزية - عندما كانوا تابعين لها اسمياً - في ادارة الولايات، كما احدثوا تقدماً ثقافياً ملموساً(٣)، وقد ساعدها الهدوء النسبي الذي عاشته إلى التفرغ لاعمال البناء والري(٤)، ولم تفقد هذه المقاطعات اهميتها عندما اصبحت تابعة لامبراطورية السونغ(٥).

وقد عمت خلال فترة السلالات الحاكمة الخمس، الفوضى الادارية والسياسية والاقتصادية، فنشبت الحروب فيما بين هذه السلالات، - خصوصاً السلالات الشمالية - فأخذ بعض القادة العسكريين يستخدمون قوى خارجية، وخصوصاً الاتراك، من اجل تدعيم مراكزهم في الصين(٦)، فقد ساعد الخطاي (Khitan) احد القواد العسكريين المدعو (Shih Ching-tang)، من سلالة تانغ المتأخرة (Later Tang)، على انشاء سلالة تسن المتأخرة (Later Tsin)، في مقابل ان يعلن الولاء للخطاي، وان يدفع لهم جزية سنوية مقدارها ٣٠٠,٠٠٠ قطعة قماش.

وفي سنة ٩٣٧م (٣٢٥ - ٣٢٦هـ) اعلن الخطاي (Khitan) عن تكوين امبراطوريتهم في شمال الصين، ثم قادوا في سنة ٩٤٦م جيشاً، مستغلين الضعف التي تعاني منه الصين، فتقدموا باتجاه كاي - فنغ (Kaifeng) عاصمة سلالة تسن المتأخرة - التي انشئت بمساعدتهم من قبل - إلا ان المقاومة التي تلقتها هذه الامبراطورية من الصينيين في كل مكان من وادي النهر الاصفر، اجبرتهم على ترك (Kaifeng) والعودة إلى مواطنهم الاصلية في شمال الصين(٧).

وفي سنة ٩٥٩م، قام حاكم سلالة جاو المتأخرة (Later Chou)، بقيادة جيش باتجاه الخطاي (Khitan) واستعاد مدينتي ينغ شو (Ying-Chow) ومو شو (Mo-chow)(حالياً Hopei)، واللتين تخلى عنهما للخطاي حاكم سلالة تسن المتأخرة (Later Tsin) (Later)(٨).

كل هذه الاوضاع، ادت إلى حدوث ارباك في التجارة، وفي بقية المرافق الاخرى، فقد دمرت المدن الشمالية، ومنها العاصمة القديمة جانغ - آن، واصبح الشمال محكوماً من قبل الخطاي (Khitan) - القبيلة البدوية التي حملت اسم (Liaco) - وانتقل مركز التجارة من شمال غرب الصين إلى العاصمة بكين نفسها بعد ان اصبحت مركزاً مهماً للخطاي، فانتقلت مراكز التجارة من حوض النهر الاصفر الى بكين واصبحت مركزاً تجارياً مهماً، اما الجنوب وخصوصاً اقاليم جنوب اليانغستين

واقليم (Szechwan) و (Chekiang) و (Kwangtung)، فقد ازدهرت فيها التجارة، مقارنة بالشمال، وحصلت على قوة سياسية كبيرة[٩].

ولم يكن كل حكام هذه السلالات من القواد العسكريين، فعلى سبيل المثال كان حاكم مقاطعة جو (Chou) (تقع في هونان حالياً)، والمدعو (Ma-Yin) صانعاً للسجاد، وجعل من نفسه حاكماً وسيطر على الطرق التجارية الرئيسية، ونظم الادارة، وشجع التجارة، فقد اوقف استيراد السلع، وسمح بتصدير المنتجات المحلية كالشاي والحديد والرصاص واعتنى باستثمار الموارد الطبيعية، وقد حصل هذا الحاكم جراء هذا التنظيم على واردات كبيرة[١٠].

كما جرت بعض التنظيمات في السلالات الاخرى، فمثلاً قام امبراطور سلالة جو المتأخرة (Later chou)المدعو (Shih Tsung)، بتشجيع استصلاح الاراضي، وقام بمسح الاراضي الزراعية، وقلل الضرائب، ونظم الجيش وطوره، وذلك بادخال العناصر الشابة فيه، وتبعاً لهذه التنظيمات فقد ازدادت قوة هذه السلالة عسكرياً واقتصادياً[١١].

اما مقاطعة (Wu Yuch)، الواقعة في جنوب شرق سلالة تانغ المتأخرة، التي كانت عاصمتها (Hang-chou)، فتمتعت بسلام نسبي، ولم تدخل في حروب مع جيرانها، بل تفرغت لاعمال البناء واعمال الري، فانشأت السدود على الانهار لتوزيع المياه على الحقول، ونتيجة لما تمتعت به من استقرار، وما انشأته من سدود، فقد كثر انتاجها الزراعي، وخصوصاً الرز الذي اصبح رخيصاً، نظراً لكثرة انتاجه[١٢].

وانتهت فترة السلالات الخمس، بتأسيس سونغ الشمالية حيث قام القائد العسكري لسلالة (Later Chou) والمدعو (Chao Kuang)، باسقاط سلالة جو المتأخرة (Later Chou)، واسس سلالة سونغ الشمالية في سنة ٩٦٠م. منهياً بذلك اوضاع التجزئة التي عاشتها الصين في فترة السلالات الخمس[١٣].

٣ - امبراطورية الخطاي (Liao-Khitan) [١٤] ٩٣٧ - ١١٢٥م:

الخطاي (الكتان) قبيلة من القبائل المغولية، ظهرت وتقوت في شمال شرق منغوليا، خلال فترة التانغ، وجاءت قوتهم من انضمام بعض القبائل لهم في الغرب، وفي كوريا ومنشوريا، وفي حدود سنة ٩٠٠م، اصبحوا قوة مسيطرة في الشمال، وبرزت قوتهم كبروز اية قوة بدوية، وعندما سقطت امبراطورية التانغ، طالب الخطاي بالعرش الصيني، وادعوا العرش، باعتبارهم اكبر قوة في الشرق الاقصى، وقد خاض الخطاي حروباً عديدة، لاقوا خلالها عدداً من النكسات، فقد كان لهم اعداء مثل دولة بوفاي (Po-Hai)،التي حكمت شمال كوريا، وكذلك حكومة (Kao-Li) الكورية، والتي تحررت من نفوذ الصين في سنة ٩١٩م. وفي سنة ٩٢٧م دمر الخطاي دولة (Po-Hai)، فجلب لهم هذا النصر عدداً من القبائل وضمنها قبيلة (الكين Jurchen) التي خضعت لهم، وقد استغل الخطاي اوضاع الصين الداخلية وما تعانيه من التمزق لصالحهم، فقد قام الخطاي بمساعدة الجنرال التركي (Shih Ching-táng)، في سنة ٩٣٦م[١٥] والذي كان قائداً عسكرياً لسلالة تانغ المتأخرة (Later Táng)، بتأسيس سلالة (Later Tsin) مقابل جزية سنوية مقدارها ٣٠٠,٠٠٠ قطعة قماش[١٦]، وبهذا الشكل اصبحت هذه السلالة كدولة تابعة بشكل او بآخر إلى نفوذ الخطاي، واصبحت مناطق واسعة من شمال الصين خاضعة لهم، ثم اتخذت هذه السلالة لنفسها اسم سلالة لياو (Liao Dynesty) في سنة ٩٣٧م[١٧]. متخذين من بكين عاصمة لهم [١٨]، وفي سنة ٩٤٦م قاد الخطاي جيشاً لاحتلال ممتلكات اسرة تسن المتأخرة إلا انهم فشلوا في ذلك[١٩]، اما في سنة ٩٥٩م فقد قام حاكم سلالة جو المتأخرة باحتلال مناطق تابعة للخطاي[٢٠].

وخاضت سلالة تانغ المتأخرة حروباً متعددة ضد الخطاي حيث قام الامبراطور (Tai Tsung) بشن هجومين ضد الخطاي، إلا انه دحر في كلتا المحاولتين، واستولى فرسان سلالة

الخطاي على اعداد كبيرة من المواشي بالاضافة إلى آلاف الاسرى من الفلاحين[٢١].

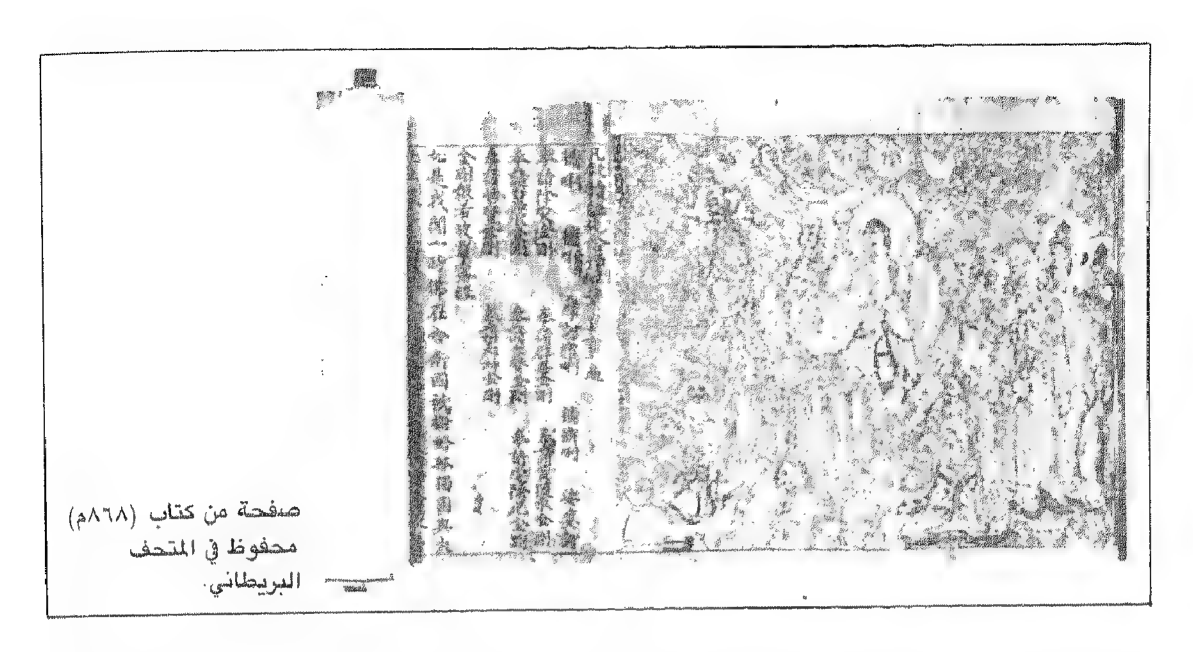
وعندما جاءت اسرة سونغ الشمالية، وحاولت توحيد الشمال اصطدمت بقوة الخطاي، حيث دحر الامبراطور السونغي الثاني مرات عديدة، عندما حاول ضم الشمال لامبراطوريته[٢٢]. وفي سنة ١٠٠٤م قاد امبراطور الخطاي هجوماً ضد سلالة سونغ الشمالية، إلا ان الجيش وجد مقاومة قوية، حيث قتل قائد الجيش في المعركة، وقد كانت الاوضاع مضعضعة في عاصمة السونغ الشمالية كاي - فنغ (Kaifeng)(Pienching) وكان التفكير بنقل عاصمة السونغ إلى نانكين (Nanking) او (Cheng-tu)، إلا ان هذا النصر ومقتل القائد العسكري للخطاي، عزز من مقاومة اسرة السونغ، فقام رئيس وزراء السونغ (Kou chun)، بطرح اقتراح ينص على قيام الامبراطور السونغي بعبور النهر الاصفر، وادارة المعركة وفعلاً عبر الامبراطور إلى تان شو (Tanchow)، ودحر جيش الخطاي فيها، إلا ان هذا الانتصار لم يضعف الخطاي، حيث ظلوا اقوياء، لذلك فقد تم عقد صلح بين الدولتين الخطاي والسونغ، تدفع بموجبه اسرة سونغ الشمالية ١٠٠,٠٠٠ قطعة فضة (taels) و٣٠٠,٠٠٠ قطعة قماش من الحرير[٢٣].

وقد امتلكت دولة الخطاي عدداً كبيراً من الخيول، والتي كانت تشكل مورداً مهماً بالنسبة للدولة، حيث كانت هذه الخيول تباع للدول المجاورة، وخصوصاً امبراطورية السونغ[٢٤] - حيث كانت تستخدمها سلالة سونغ للاغراض العسكرية - اما ادارة هذه الدولة فهي ادارة عسكرية، حيث يتولى القائد العسكري جمع الضرائب في المقاطعة التي يحكمها، ولا يصل من هذه الضرائب شيء إلى البلاط سوى ضريبة (الخمر)، اما تموين الجيش بالمواد الغذائية، فقد كان الجند في وقت السلم يعملون كفلاحين، وبذلك يوفرون للدولة الكثير من الاموال بالاضافة إلى ان الفلاحين يساهمون في امداد الجند بالمواد الغذائية، وقد استغلت دولة الخطاي موارد الدولة لصالحها، وعاش قادتها كطبقة ارستقراطية[٢٥].

ثم برزت قوة الكين (Juchén)، حيث احتلت هذه القبيلة بكين عاصمة سلالة الخطاي في سنة ١١٢٥م[٢٦]، وبعد تدمير سلالة الخطاي من قبل الكين (Juchén)، نزحت البقية الباقية منهم باتجاه الغرب، وشقت طريقها بالقوة، حيث استقروا في جبال سنكيانغ (Sinkiang)سنكيانغ الشمالية، وبعد ان انضمت اليهم مجموعة من القبائل، انشأوا ما يسمى بـ (Western Liao) او كما تسميها المصادر دولة القراخطاي (Kara-Kitai) التي كانت عاصمتها بلاساغون (Balasagun)، إلا ان السيطرة الفعلية في هذه الدولة كانت بيد القبائل التركية، التي شاركت الخطاي في الثقافة. وفي سنة ١٢١١م دمرت هذه الدولة على يد الدولة الخوارزمية.[٢٧]

٤ - دولة (Hsi-Hsia) هسي - هسيا ١٠٣٨-١٢٢٧م:

بعد ان دحرت دولة توبا (Toba) في شمال الصين سنة ٥٥٠م انسحبت بعض القبائل من التوبا (Toba)، باتجاه حدود التبت والصين، ومع بداية حكم امبراطورية التانغ، منحت قبائل التوبا ولاءها لهم. حيث كان قواد هذه القبيلة يتلقون التعيين من اباطرة التانغ، وفي القرن العاشر اصبحت للقبيلة قوة عسكرية، واصبحت تعرف باسم هسيا (Hsia)[٢٨]. وفي منتصف القرن الحادي عشر، اسس زعيم التانغوت (Tangut) المدعو (Chao Yuan-hao) مملكة في شرق كانصو (Kansu)، عرفت باسم (Hsia) الغربية، وقد دحرت هذه الدولة التبت والاويغور وسيطرت على مساحات واسعة من كانصو واوردوس (ordos). وقد حاربت دولة هسيا (Hsia)، امبراطورية سونغ الشمالية، ونظراً لموقع دولة (Hsia) على الطرق التجارية لاواسط آسيا، فقد اثرت الحرب بينهما على طرق التجارة، وعلى تصريف السلع التجارية ونقلها، وفي نفس الوقت حرمت هذه الدولة نفسها من السلع الصينية - المنتجة في امبراطورية سونغ الشمالية - لذلك اصبح من مصلحة البلدين، ان يوقفا الحرب، وفعلاً تم عقد معاهدة ابرمت في سنة ١٠٤٤م تنص على ولاء دولة (Hsia) للصين، مقابل تسليم جزية


صفحة من كتاب (٨٦٨م) محفوظ في المتحف البريطاني.

سنوية تدفعها لهم امبراطورية سونغ الشمالية مقدارها ٧٠,٠٠٠ قطعة (taels) من الفضة و٣٠,٠٠٠ (catties) من الشاي و١٥٠,٠٠٠ قطعة قماش من الحرير[٢٩].

وقد تأثرت هذه الدولة بعاداتها ولغتها بسكان التبت، وعندما دحر الكين Jungusic) (Juchén دولة الخطاي (الكتان) فقدت هذه الدولة اقاليم واسعة من اراضيها، خصوصاً في اقليم شنسي، ثم تلاشت علاقة هذه الدولة مع الصين، وفي سنة ١٢٢٧م، دمر المغول هذه الدولة[٣٠].

٥ - دولة الكين Juchén (chin) ١١١٥-١٢٣٤م عاصمتها بكين:

كانت قبيلة الـ (Juchén) في الماضي جزءاً من قبيلة (Jungus)، ثم اصبحت تابعة للخطاي (Khitan) بعد انهيار نظام بوهاي (Po-hai) في شمال كوريا، وبعد نصرهم الاول على الخطاي سنة ١١١٤م، اعلن رئيسهم نفسه امبراطوراً في سنة ١١١٥م، واعطى لسلالته اسم الكين الذهبية (The golden Chin)[٣١]، ومن الطبيعي ان تحتك هذه الدولة مع سلالة سونغ الشمالية. فتحالفت كلا الدولتين للقضاء على امبراطورية الخطاي، واقتسام ممتلكاتها، فتأخذ سلالة سونغ الشمالية املاك امبراطورية تانغ المتأخرة التي تخلت عنها الخطاي، مقابل ان تدفع امبراطورية السونغ للكين جزية سنوية تقدر بـ ١٠٠,٠٠٠ (taels) من الفضة و٢٠٠,٠٠٠ قطعة قماش من الحرير. وفعلاً تم الاتفاق، فانتصر جيش الكين واحتل (Yenching) بكين اما جيش سونغ الشمالية فقد دحر. ولم يتخل الكين عن بكين، إلا بعد ان اجبروا الامبراطور السونغي (Hui Tsung) على دفع مليون قطعة نقد (Strings)[٣٢].

ثم توسعت سلالة الكين، باتجاه الجنوب، بعد سقوط سلالة الخطاي في سنة ١١٢٥م[٣٣]، وتقدمت باتجاه عاصمة السونغ الشمالية (Kai-feng)، حيث حاصرتها جيوش الكين واسقطتها في سنة ١١٢٧م، واسر الامبراطور السونغي هو ووالده، اما اخوه (Kao Tsung)، فقد فرّ من الاسر، وهرب إلى الجنوب، حيث اسس سلالة سونغ الجنوبية[٣٤]. وقد نظمت المقاومة ضد سيطرة الكين في اقاليم متعددة امثال هوبي (Hopei)، وشانسي (Shansi)، حيث شاركهم الجيش السونغي بقيادة القائد (Tsung Tseh)، فدحروا جيش الكين، واستردوا منه اعداداً كبيرة من السكان، والكثير من الثروات، وكانت خطة (Tsung Tseh)، هي متابعة الهجوم ضد الكين شمالاً، إلا ان الامبراطور لم يستجب له[٣٥]. وبعد وفاة هذا

القائد العسكري اندفع الكين، حتى عبروا النهر الاصفر باتجاه الجنوب[٣٦]، ثم جرت بين الكين والسونغ حرب في سنة ١١٤٠م. وضعت بعدها معاهدة سنة ١١٤١م، والتي نصت على تنظيم الحدود بين الدولتين، فوضعت مناطق واسعة شمال وادي نهر هواي (Huai) وممر تاسان كوان (Tasankuan) في شنسي تحت سيطرة الكين، بالاضافة إلى جزية سنوية مقدارها ٢٥٠,٠٠٠ قطعة نقد من الفضة و٢٥٠,٠٠٠ قطعة قماش حريرية[٣٧].

وعاش افراد هذه السلالة كطبقة ارستقراطية في المجتمع الصيني، حصلت على امتيازات متعددة منها الاعفاء من الضرائب والحصول على الامتيازات العسكرية[٣٨]، كما سخرت هذه الاسرة الشعب الصيني لخدمة مصالحها، حيث ذاق الشعب الامرين منها[٣٩]. إلا ان الخصومات لم تلبث ان تفشت بين قادة هذه الاسرة وخصوصاً بعد انتصار المغول عليهم واحتلالهم لبكين حيث قامت الدولة بنقل عاصمتها إلى كاي فنغ (Kai-feng) Pieng-Liang في شرق هونان[٤٠]. وفي سنة ١٢٣٤م سقطت هذه الدولة بيد المغول، وكان لاسرة سونغ الجنوبية دور مهم في القضاء على هذه الاسرة[٤١]. وبعد سقوط هذه الاسرة استخدم المغول البعض من افرادها في الادارة[٤٢].

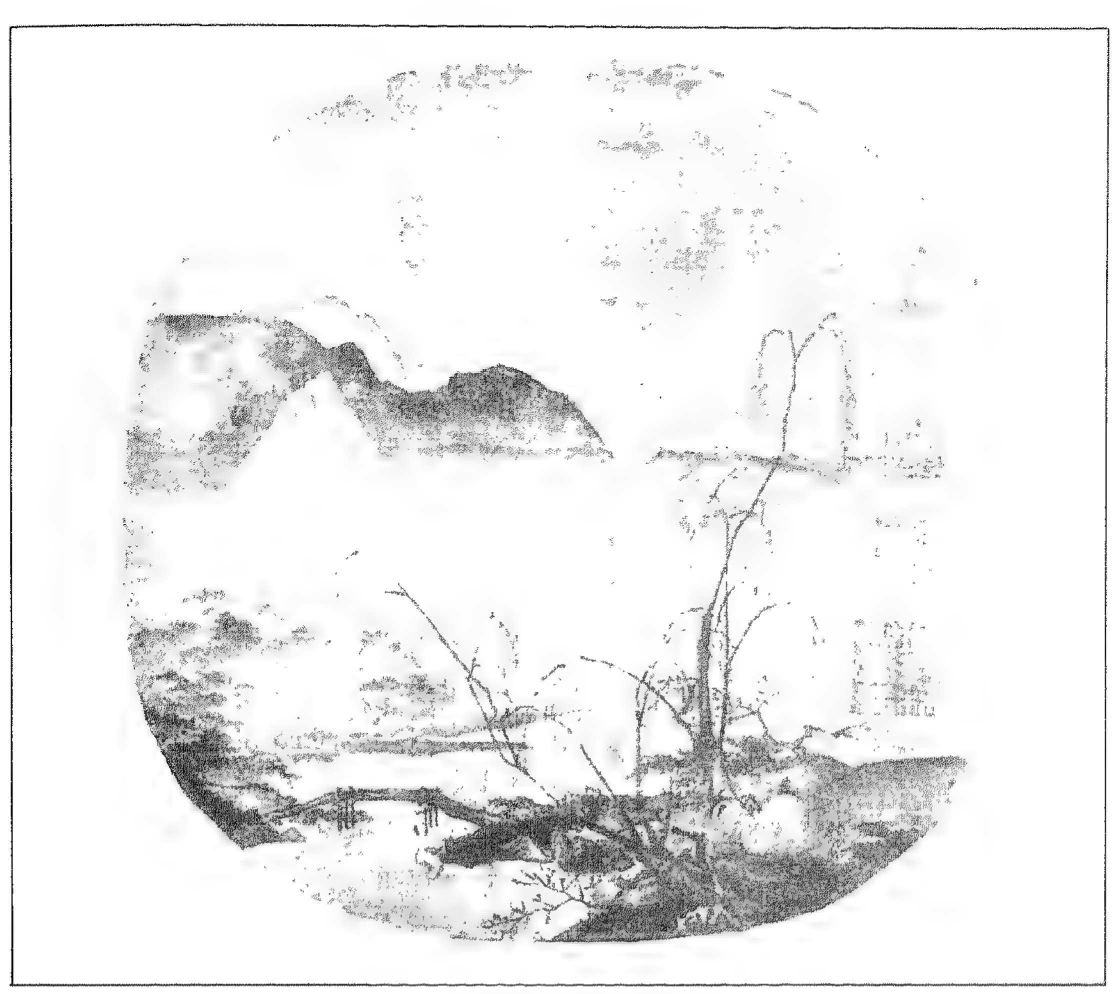
٦ - امبراطورية سونغ الشمالية (The Northern Sung Dynasty) ٩٦٠ - ١١٢٦م

في السنة الاخيرة لدولة جو المتأخرة (La-ter Chou)، كان القسم الاعظم من جيشها، تحت قيادة الجنرال (Chao Kuang-Yin)، فاستولى هذا القائد على مقاليد الامور، واسس سلالة سونغ الشمالية، وقد تمت له السيطرة بعد عدة سنوات، على مناطق متعددة من الاقاليم امثال جنك نان (Ching Nan)، وشو (Shu) وهان الشمالية (Northern Han) وهان الجنوبية (Southern Han)، ويو (Yueh) و وو (Wu) وتانغ الجنوبية (Southern Tang)، وبذلك استطاع توحيد وسط الصين. وقد سعت الدولة من اجل تأكيد سيطرتها على الاقاليم، إلى اتباع الاسلوب العسكري والسياسة، كما اخضع الجيش لقيادة الامبراطور السونغي[٤٣]، تلافيا لما قد يحدث من سيطرة قادة الجيش على مقاليد الامور كما فعل مؤسس السلالة نفسه.

وقد سعت امبراطورية السونغ إلى اعادة الوحدة إلى اراضي الصين، إلا ان محاولتها في هذا المجال باءت بالفشل، فقد دُحِرَ الامبراطور السونغي الثاني مرات عديدة من قبل الخطاي الذين كانوا مسيطرين على شمال الصين[٤٤]. ففي سنة ١٠٠٤م هاجمت دولة الخطاي اراضي سونغ الشمالية، إلا ان الهجوم، واجه مقاومة عنيفة، وانتهت هذه الحرب بعقد هدنة بين الطرفين، تدفع بموجبها سونغ الشمالية ١٠٠,٠٠٠ (taels) قطعة نقد من الفضة و٢٠٠,٠٠٠ قطعة قماش من الحرير للخطاي سنوياً[٤٥]. وتشير هذه الضرائب التي دفعت للخطاي ولغيرهم إلى عظم وارادات الدولة، كذلك لعب الاستقرار والسلم اثره النسبي في زيادة الضرائب الواردة [٤٦]، فعلى سبيل المثال بلغت ميزانية سونغ في سنة ١٠٠٠م ٢٢,٢٠٠,٠٠ (Strings).

وعندما واجهت امبراطورية السونغ قوة الخطاي في الشمال، اتجهت صوب المقاطعات الجنوبية، التي كانت امورها الاقتصادية جيدة، ولم تهتم هذه الدول الجنوبية بالناحية العسكرية، لهذا نجدها سرعان ما تنهار امام قوة السونغ، حتى ان الامبراطور السونغي (Chao Kuang Yin) (٩٦٠ - ٩٧٢م)، لم يجد صعوبة في ضم البعض من دول الجنوب، دون ان يبذل جهداً عسكرياً كبيراً، كما سعت السونغ ايضاً لبسط سيطرتها على شمال فيتنام في سنة ٩٧٣م، وكان مجال هذا التأثير سياسياً فقط، وليست له اية اهمية اقتصادية[٤٧]، ولكن هل من المعقول ان يمد نفوذ دولة لاغراض سياسية فقط دون ان يكون له اهداف اقتصادية سيما وقد اولتها الدولة اهتماماً كبيراً[٤٨].

وتعرضت سلالة سونغ الشمالية لخطر دولة هسيا (Hsia) في الشمال الغربي، حيث دفعوا لها الجزية بعد عقد معاهدة ١٠٤٤م[٤٩].



لوحة تمثل منظرا طبيعيا (١٢٠٠م).

كما دفعت دولة سونغ الشمالية ايام امبراطورها الثالث (Chen Tsung) ٩٩٨ – ١٠٢٢م اعانات مالية لسكان التبت[٥٠].

ونتيجة لهذه العلاقات الحربية مع الخطاي ودولة هسي هسيا، التي استنفذت الكثير من ابناء الصين، ومن راحة واستقرار الشعب بالاضافة إلى فقدان اقسام كبيرة من الاراضي، ودفع الجزية لهذه الدولة القوية، يضاف لها حياة البذخ التي عاشها المتنفذون في بلاط الصين، لذا اصبحت واردات الدولة لا تسد مصروفاتها، وعلى الرغم من تحديد نفقات الدولة، إلا ان المواطنين اصبحوا في حالة لا تطاق، اما الجيش الذي كان بحاجة إلى تدريب، فلم يعد قادراً على حماية حدود الدولة تجاه الخطاي والهسيا، إذ فقد الجند الانضباط العسكري، لهذا نجد ان ثورة فلاحية اندلعت خلال حكم الامبراطور (Tai Tsung) في شسوان (Szechuan) حيث دعا قائد الثورة (Wang Hsiao-Po) إلى توزيع عادل للثروة، وكسبت الثورة تأييد الفلاحين، وظلت الثورة مستمرة حتى مجيء الامبراطور (Jen Tsung) فعمت خلال حكمه البلاد كلها، وبسبب تدهور الوضع الداخلي والخارجي، لذلك تقدم بعض المصلحين باقتراحات من اجل تحسين الامور، فكان منهم رئيس الوزراء (Wang An-Shih)، إذ تقدم باقتراحات لمعالجة الوضع الراهن، ففي سنة ١٠٦٩م صدرت قوانين شملت ما يلي:

دعم الزراعة وبناء مشاريع الري واستصلاح الاراضي البور، كما حررت الفلاحين من استغلال ملاك الارض والمرابين،

باقراضهم القروض بفائدة تقدر بـ ٢٠٪ تدفع هذه القروض في وقت الزرع، لتستلم بعد ستة شهور، كما اعيد مسح الارض الزراعية، وفرضت الضرائب عليها، وبهذا ضربت طبقة مالكي الارض التي كانت تتهرب من دفع الضرائب وزادت بهذا من واردات الدولة، كما قامت الدولة بالمحافظة على الاسعار، وضرب احتكار التجار، بشراء السلع في وقت الفيض، لتعرضها في الاسواق وقت الحاجة (لضرب الاحتكار)، كما قطعت القوانين الطريق على تدخل الجيش وتقوية الدفاع الوطني، لهذا قامت الدولة بتنظيم الفلاحين طبقاً لقانون (Pao-Chia) او (tithing system) إذ يتدربون في وقت الحر، واخذوا يحلون تدريجياً محل المرتزقة، كما حافظت القوانين على وقت العمل للفلاحين (والعمال واصحاب المهن) من الضغوط والامتيازات التي تتمتع بها طبقة الموظفين، ففرضت ضرائب تصاعدية على الثروة، وبهذا وفرت الدولة اموالاً اخذت تستغلها في بناء المشاريع العامة. من هذا يتضح ان هذه القوانين قد اعطت الحق للفلاحين والسكان (عموماً) وخففت عنهم، وكبحت جماح كبار الموظفين ومالكي الارض وكبار التجار، فوضعت ١٠ ملايين (Mou) للزراعة، كما بنيت ١٠ آلاف مشروع مائي لصيانة الانهار والقنوات فازداد وارد الدولة وتقوت عسكرياً. لكن بعد وفاة الامبراطور (Shen Tsung) ورئيس الوزراء (Wang An-Shih)، ابطل العمل بهذه القوانين، إذ قاومها كبار الموظفين ومالكو الارض، واستمر البلاط على بذخة، على الرغم من معاناة الفلاحين التي لا تحتمل فقد اهملت في هذه الفترة المشاريع المائية كالسدود والجسور واهمل الاهتمام بالمدن وتحصينها، وظل الفلاحون يتأوهون تحت القسوة والضغط حتى اضطر البعض منهم لبيع اولاده، فكان ان اندلعت ثورة فلاحية في سنة ١١٢٠ م بقيادة (Fang-La)، احتلت هانكشو (Hang chow) ومعظم اجزاء شكيانغ (Chekiang)، كما برز القائد الفلاحي المشهور (Sung Chiang)في شانتونغ (Shantung) وهونان (Honan) وكيانكسو (Kiangsu)، وقد تمكنت الدولة من اخماد هذه الثورات[٥١].



لوحة من تصوير «هدّا هامر» تمثل جبلاً صينيا

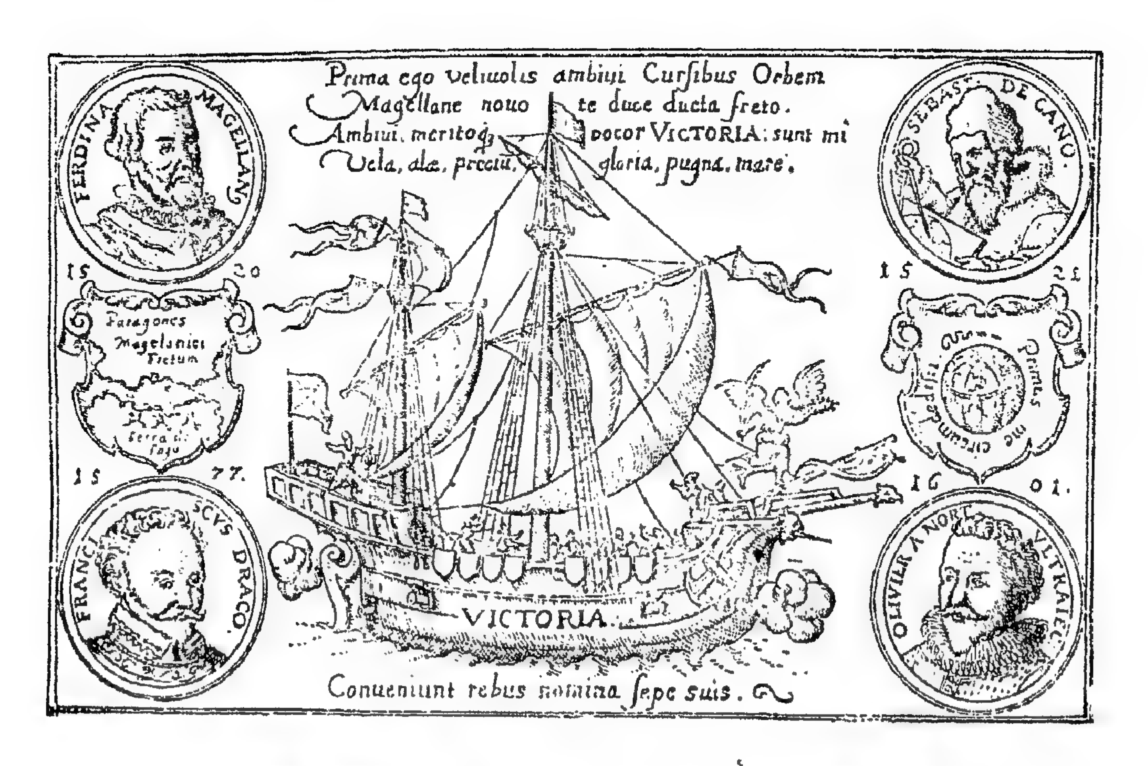
كما كان على الدولة ان تواجه تحدٍ جديد وهو بروز قوة الكين في شمال الصين، والذين سبق وان تعاونت معهم ومن اجل القضاء على امبراطورية الخطاي، لكن الكين سرعان ما اندفعوا باتجاه الجنوب، وخاضوا حروباً طويلة ضد السونغ، انتهت اخيراً بوضع معاهدة بين الطرفين تدفع بموجبها السونغ الجزية للكين(٥٢). واخيراً سقطت امبراطورية السونغ الشمالية، وحلت محلها امبراطورية الكين في سنة ١١٢٧م(٥٣).

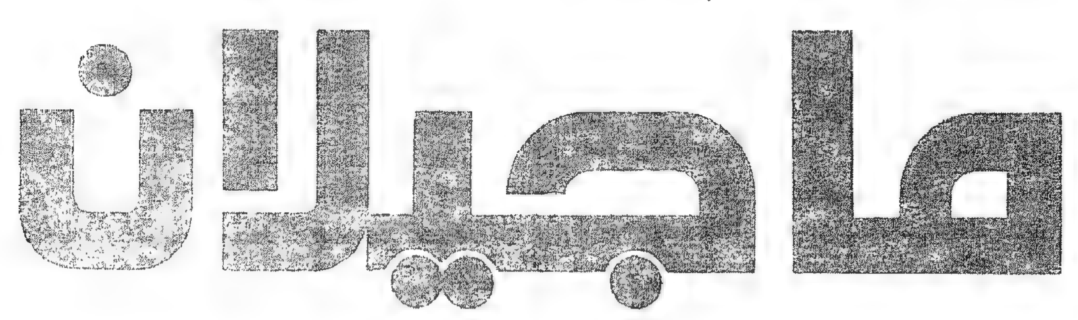
■

هوامش

(1) Eberhard: op. cit. p. 195-196.
(2) A.O.H.C., p.126.
(3) Eberhard: op. cit. p.196.
(4) A.O.H.C., op.128.
(5) Eberhard: op. cit. p.196.
(6) Ibid: p. 199-203.
(7) A.O.H.C., p.127.
(8) A.O.H.C., p. 127.
(9) Eberhard: op. cit. p.203.
(9) Eberhard: op. cit. p.203.
(10) Ibid: p. 196.
(11) A.O.H.C., p.127.
(12) Ibid: p.128.
(13) Ibid: p. 136-137.
(١٤) من القبائل التي كانت تسكن شمال الصين، وهم خليط من المغول والتانجوت. وقد هاجروا من مواطنهم في شمال الصين إلى اقليم التركستان (الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ ج١ ص٢٣ - ٢٤ حيث عرفوا بالاتراك القراخطائيين).
(15) Eberhard: op. cit. p.225U227.
(16) A.O.H.C., p. 127.
(17) Eberhard: op. cit. p.226.
(17) Eberhard: op. cit. p.226.
(18) Ibid: p. 199.
(19) Ibid: p.203.
(20) A.O.H.C., p.127.
(21) A.O.H.C., p.137.
(22) Eberhard: op. cit. p.210
(23) A.O.H.C., p.137-taels:
وحدة نقد صينية تساوي ١/٣ اونس من الفضة الخالصة.
(24) Eberhard: op. cit. p.227.
(25) Eberhard: op. cit. p226.
(26) Ibid: p.227.
(27) Ibid: p.227.
راجع عن هذه الدولة مع التتر: ابن الاثير: الكامل ج١٢ ص٢٦٩ - ٢٧٠، بالتعاون مع الخوارزميين سنة ٦٠٥هـ.
(28) Eberhard: op. cit. p.227.
(29) A.O.H.C., p.138.
(30) Eberhard: op. cit. p.228.
اما Fitzgerald فيشير إلى ان المغول دحروا هذه الدولة سنة ١٢٢٤م.
Fitzgerald: A concise History of East Asia. 1978 Australia., p.57.
انظر كذلك عن حروب هذه الدولة مع المغول
(30) Martin, H. Desmond, 'The Mongol wars with HsiHsian (1205-1227) «Journal of royal Asiatic Society 1942» 195-228.
(31) Eberhard: op. cit. p.234.
(32) A.O.H.C., p.145. (String):
(وحدة نقد صينية تساوي ١ اونس من الفضة الخالصة).
(33) Ibid: p. 145.
(34) Ibid: p. 145-146.
(35) A.O.H.C., p.147.
(36) Ibid: p.148.
(37) Ibid: p.148-150.
(38) Eberhard: op. cit. p.234-235.
(٣٨) راجع تفصيل القضاء على مملكة كين السيد الباز العريشي: المغول ص١٦٣ - ١٦٤، بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٣٥٢ - ٣٥٤.
(39) A.O.H.C., p.151.
(40) Eberhard: op. cit. p.235.
(٤١) العريني، السيد الباز: المغول دار النهضة العربية بيروت لبنان ١٩٦٧ ص١٦٤م.
(42) Eberhard: op. cit. p.236.
(46) Eberhard: op. cit. p.211.
(47) Ibid: p.210.
(٤٨) زيادة، نقولا: (الجزيرة العربية في كتابات المؤرخين الصينيين) مجلة المؤرخ العربي العدد٦، الرباط ١٩٧٨ ص١٢٨.
(49) A.O.H.C., p.138.
راجع كذلك دولتي Hsia-Hsi.
(50) Simkin: op. cit. p.93.
(51) A.O.H.C., p.141-144.
(52) Ibid: p. 178-150.
(53) Weiderfeld: op. cit. p.22.
راجع كذلك عن العلاقة بين الكين وسونغ الشمالية في نفس البحث.

أول دورة حول الأرض





لم يكن للعلم ان يتطلع إلى «الغد وبعد الغد»، لو لم تكن في صفحات العلم الماضية احداث بطولية مجيدة، خاض فيها العلماء معارك ضارية في ظروف كانت معادية للغاية . وهذه صفحة من صفحات البطولة ، خطها رجل بشجاعته وسعة افقه ، ودفع فيها حياته ثمنا ليثبت ان الارض مستديرة، في وقت كان القول فيه ان الارض كرة، يعتبر كفراً :

وصلت سفن ماجيلان الخمس، التي كانت تبحث عن طريق للوصول إلى الهند، من خلال الإبحار غرباً، وصلت إلى الشواطىء الاميركية، بلا حادثة تذكر، سوى بعض مظاهر العداء التي كان يبديها قباطنة «سان انطونيو» و «كونسبسيون» و «فكتوريا» الاسبانيون ، تجاه ماجيلان، وبذور التمرد التي حاولوا بذرها بين افراد الطواقم.

وايقن ماجيلان سريعاً، ان المضي في

الرحلة كان ضرباً من الجنون، وانه لا يستطيع مواجهة العواصف الرهيبة التي تسود المنطقة في ذلك الفصل. فأمر السفن الخمس باللجوء إلى جون ناء عن الرياح من كل جانب. وكان هذا الجون مثيراً للغم إلى حد بعيد، فكانت موجات جليدية سوداء تلطم جوانب السفن. اما الشاطىء فكان خالياً تماماً من الشجر. وحتى الطيور هاجرت، عندما احست باقتراب الشتاء، فتركت المكان في جو حزين.

وبعد شتاء قاس استمر خمسة اشهر، استأنفت البعثة سفرها نحو الجنوب بحثاً عن المضيق المنشود. كان الشتاء يشد الرحال، لكن المشكلات لم تنفك تتراكم. فقد جنحت السفينة «سانيتاغو»، اسرع السفن الخمس، وتحطمت بعد ان قذفتها عاصفة شديدة إلى الشاطىء وتمكن طاقمها من النجاة، وتوزع على السفن الاربع الباقيات.

لكن يوم النصر اطل. فعند طرف رأس مرتفع، ظهر خليج عميق، كان يبدو متصلاً بالمحيط الآخر. لكن مياهه كانت تتجعد بقوة تحت سياط رياح عاتية .

عند ذاك ارسل ماجيلان سفينتين للاستطلاع. وقد عادتا بعد ايام، واستخدمتا طلقات المدافع والاعلام المرفرفة وصيحات الفرح، لتبليغ ماجيلان ان الاكتشاف الكبير قد تحقق: لقد تم اخيراً اكتشاف المضيق المنشود!

ولا حاجة لوصف مشاعر ماجيلان في تلك اللحظة. فجهوده وتضحياته وتعرضه للمخاطر وآلامه لم تذهب سدى. وقد اصبح المضيق يحمل اسم مكتشفه، وفي امكانك ان ترى ذلك على الخريطة.

عند هذا الحد كانت مرحلة جديدة تبدأ في رحلة ماجيلان. فقد بدأت السفن الاربع تشق طريقها بحذر شديد. فقطعت المضيق في شهر، حتى ظهر اخيراً منفذ إلى المحيط الجديد الذي كان الاوروبيون يجهلونه. وكانت الفرحة من القوة ما جعل ماجيلان الصارم يبكي.

واصبحت المهمة الآن الاسراع للوصول إلى جزر التوابل والفلفل. لكن كارثة جديدة كانت تنتظر الرحلة التاريخية عندما كانت تعبر عتبة الانتصار، فقد تمرد مساعد قبطان «سان انطونيو» وسيطر على السفينة وعاد سراً إلى اسبانيا. وقد وجهت هذه الخيانة ضربة قوية إلى ماجيلان. لان السفينة كانت اكبر السفن الاربع، وكانت تحمل القسم الاكبر من المؤن الجيدة.

ماذا كان على ماجيلان ان يعمل في هذه الظروف؟ لم يكن قد تبقى لديه سوى ثلاث سفن والقليل من المؤن.

– سنتابع طريقنا حتى لو اضطررنا إلى اكل الجلد الذي يغلف العتاد!

هذا ما قاله بحزم واصرار. وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٥٢٠ انطلقت البعثة إلى رحاب المحيط الكبير الذي لم يكن اوروبي قد اجتازه بعد. ولو كان ماجيلان يعرف هول المسافات التي كان يبقى عليه اجتيازها، بسفنه المهلهلة واشرعتها المقطعة، لما كان جازف بالاقدام، لكنه كان يجهل ضخامة المحيط.

فقبل ماجيلان لم يكن البشر يعرفون مدى اتساع الكرة الارضية. ولذلك اعتقد الرحالة الكبير ان عليه ان يقطع ٣٠٠٠ او ٤٠٠٠ كيلو متر اخرى ليصل إلى جزر الشرق الاقصى. والحق ان المسافة الحقيقية كانت ١٨ الف كيلومتر. وقد استقبل المحيط الجديد البعثة التاريخية في ظروف جوية ممتازة، وكانت الشمس تبعث الدفء في أوصال البحارة الذين قاسوا البرد طويلاً، وكانت ريح لطيفة تدفع السفن باتجاه الغرب . وقد استحق المحيط على هذا الاستقبال الودي، اسم المحيط الهادىء. غير انه لم يكن ملتزماً بهذه التسمية على الدوام، فاستحق اسماً آخر هو المحيط الكبير، نظراً إلى اتساع مساحاته.

ومرت الاسابيع، وانقضى شهر، ثم شهران، والمياه لا تزال تمتد على مدى الافق، حتى دقت ساعة المجاعة. واكتشف ماجيلان ان اعداءه دسوا، في اثناء التحضير للرحلة، صناديق مليئة بالاقذار بين صناديق المؤن. وحتى تكتمل الكارثة، هاجمت الجرذان الصناديق المتبقية. وقد اخذ البحارة في مطاردتها، فإذا ما غنموا بواحد منها اقاموا

وليمة عليه. وكانت مؤونة النبيذ قد نفدت منذ مدة، واخذت المياه تأسن في البراميل. وكانت رائحتها كريهة إلى درجة ان الشرب منها كان يقتضي سد الانف.

وجاء اليوم الذي تحققت فيه نبوءة ماجيلان البائسة. فقد اخذ البحارة يأكلون الجلد، بعد نقعه اياماً في مياه البحر، وتقطيعه قطعاً صغيرة قابلة للابتلاع. فقد كان يستحيل مضغ الجلد. وعمت أوجاع بطن رهيبة جميع افراد الطاقم.

وما كاد الشهر الثالث يطوى، حتى بدأ البحارة يموتون فيلقى بهم إلى البحر ليأكلهم سمك القرش. وعم الذعر، واحس البحارة الضياع في هذه الرقعة المائية الشاسعة. وظنوا انهم لن يروا اليابسة مرة اخرى. لكن ماجيلان كان يرى تماماً ان العودة من حيث اتى، لم تكن سوى فكرة سخيفة. وكان يؤمن بأنه سرعان ما سيصادف اليابسة، في حين ان المؤن لم تكن كافية لرحلة العودة.

لكن رؤية اليابسة انتظرت ثلاثة اشهر ونصف الشهر من المعاناة القاسية إلى اقصى الحدود. ولما صادفوا اليابسة، كانت عبارة عن جزر جرداء تماماً، لا عشبة فيها ولا قطرة ماء. لكن مجرد اكتشاف هذه الجزر بعث الامل في قلوب البحارة، فقد شارفوا على قطع صحراء المياه الشاسعة، وكان لا بد لهم ان يصادفوا قريباً ارضاً غنية بالماء والطعام. وبالفعل، كانت توقعاتهم صائبة. ففي السادس من آذار ١٥٢١ اكتشف البحارة جزيرة رائعة تنتصب عليها اشجار النخيل وتترقرق فيها سواقي المياه العذبة. وكانت الجزيرة مأهولة، يمارس اهلها تربية المواشي. وكان يمكن للبحارة اذن ان يتناولوا اللحم الطازج. وقد ظنوا انهم وصلوا إلى نهاية آلامهم. وكانوا يقدرون ان السفن الثلاث ستبحر من جزيرة إلى جزيرة حتى تصل إلى اوروبا حيث يقطفون ثمار انجازهم المجيد.

لكن تلك كانت آمالاً وحسب. لان مصائب جديدة كانت تنتظر ماجيلان وجماعته، لا بسبب قسوة الطبيعة هذه المرة، بل بسبب نهم البحارة إلى الغنم والكسب. فقد انغمس ماجيلان في الخلافات بين القبائل في جزر الفيليبين. وكان يريد ان يفرض عليهم سلطان اوروبا بقوة السلاح، فقاد ستين من رجاله المسلحين ليواجه الفاً من مقاتلي الجزر، المسلحين بالاقواس والسهام. هناك لاقى ماجيلان حتفه. قبل ان يتوج انجازه.

وبعد موت ماجيلان وعدد من رفاقه، تجولت سفن البعثة طويلاً في البحر بين الجزر الآسيوية والاوسترالية. ولم يكن قد تبقى من السفن غير اثنتين «ترينيداد» و «فكتوريا». اما «كونسبسيون» البالية. فقد احرقت، حتى لا تقع في ايدي سكان الجزر.

لكن «ترينيداد» كانت هي الاخرى اعجز من ان تصل إلى اوروبا. فتقرر ان تتوقف بعض الوقت، لاجراء تصليحات فيها. في حين تواصل فكتوريا سفرها إلى اوروبا دون إبطاء، وعلى متنها ٤٧ بحاراً يقودهم القبطان سيباستيان دل كانو، احد امهر الضباط الذين بقوا احياء.

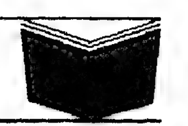
ولم تتمكن «ترينيداد» في الواقع من الوصول إلى اسبانيا. لكن اربعة من طاقمها استطاعوا ان يعودوا بعد غرقها. وهكذا يممت «فكتوريا» شطر اوروبا، بعد ان تزودت بالمؤن والمياه.

لكن ما تبقى من رحلتها كان رهيباً، إذ ان المؤن تعفنت والمياه اسنت. وكانت السفينة تحمل ٢٦ طناً من الافاوية والتوابل. هي في الواقع ثروة ضخمة في حساب ذلك الوقت. وقد حصل البحارة على هذه التوابل عن طريق المقايضة في الجزر الشرقية. لكن التوابل لا تؤكل، بل هي تستعمل لتبهير الطعام. وهذا الطعام لم يكن متوفراً.

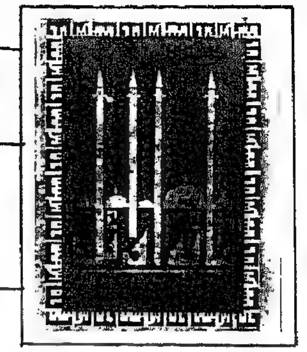
لكن «فكتوريا» وصلت مع ذلك إلى اشبيلية في الثامن من ايلول ١٥٢٢. وكان يقف على متنها، تحت العلم الاسباني ١٨ رجلاً فقط. وهكذا اكتملت اول رحلة حول الارض.

وقد سر التجار بهذا الانجاز. فالتوابل التي حملتها السفينة كانت كافية لسد نفقات الرحلة تماماً بما فيها ثمن السفن. صحيح ان ١٦٠ بحاراً واكثر لاقوا حتفهم في هذه الرحلة. لكن ذلك لم يكن ليضيرهم فالاموات لا يطالبون بالتعويض.

■



كتب وردتنا



من تراثنا

مائة أوائل

تأليف: الدكتور سهيل زكار و المحامي أحمد سبانو

مراجعة: د. محمد مخزوم

صدر عن دار الملاح في دمشق كتاب «مائة اوائل» في ظل عنوان بارز... من تراثنا لان الغاية الاساسية للمؤلفين من وضع هذا الكتاب كما يظهر من تقديمه هي الكشف عن تراثنا الذي ما زال يحوي اعداداً لا تحصى من الاوائل كل منهم يستحق الدراسة والذكر.

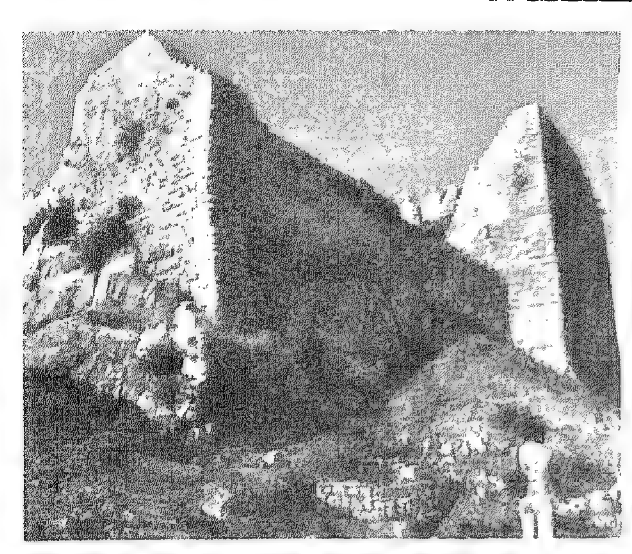
يرصد الكتاب سيرة مائة علم، جلهم من المغمورين، الذين لعبوا دوراً مهماً في تاريخ العرب والاسلام منهم الفيلسوف والاديب والفنان والمشرع والرياضي والفلكي والسياسي والجغرافي والمؤرخ مع دراسة لسيرة الرسول والخلفاء الراشدين والفقهاء وبعض الخلفاء الامويين والعباسيين والفاطميين. وهكذا يحدد المؤلفان الغاية من وضعهما لهذا الكتاب بقولهما:

«ان الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارىء يبحث في قضايا تاريخ امتنا وماضيها من خلال افراد، وهو قد اتخذ الافراد رمزاً لقضاياهم اسهموا فيها فأثروا وتأثروا، انه على هذا الاساس لا يمجد دور الفرد البطل في صناعة احداث التاريخ، ولكن بنفس الوقت لا يلغي هذا الدور، بل يضعه في مكانه الطبيعي. ص٨.

إن هذا الكتاب يشكل مساهمة تاريخية قيمة في مجال البحث عن تاريخنا من خلال المخطوطات العديدة التي ادرجت في لائحة المصادر. فيفيد منه الباحث المؤرخ في معرفة الحقيقة التاريخية لما يوفره الكتاب من الادلة الكافية والقناعات. كما يفيد منه القارىء المثقف لما يحويه من حرارة تراث الامة العربية وما قدمته للحضارة العالمية من العلوم والفنون بمختلف انواعهما.

إن «مائة اوائل» يقدم لنا عرضاً زاخراً بالمعلومات ذات ارضية موثقة ومشبعة معاً بالروح العلمية والنقدية يجذب القارىء باسلوبه الواضح والمتماسك حتى ليصح القول انه كتاب جميع المتخصصين. ■

المسابقة



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الاعزاء:

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تفتح بابا خاصاً للقراء، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع: «تاريخ واسماء ومعالم القرى والاحياء في الوطن العربي». والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية، او ما يعادلها للفائز الاول، واشتراكا سنويا في المجلة للفائز الثاني، على ان تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية او الحي او المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه، او ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة او مظاهر حضارية، واذا امكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او للقرية او لاي مظهر عمراني او اثري فيها، كذلك على ان لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة، مطبوعة على الالة الكاتبة او منسوخة بخط واضح جميل، والّا اضطررنا آسفين لاهمالها.

هذا، واذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا باصول الكتابة العلمية وان يشيروا الى مصدر الاقتباس، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة: اذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الاولى والثانية الفائزتان بالمكافأة.

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وان يرسله الينا بالبريد

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة، إذا نشرت او لم تنشر.

تشكر إدارة التحرير جميع المشتركين في «المسابقة» على مساهماتهم ويسرها أن تعلن فوز الاخ جبران عبد اللطيف - الزنقة - المملكة المغربية باشتراك سنة لتقيّده بالشروط المطلوبة وتنوّه بالرسائل الباقية وستنشر جميعها تباعاً في باب القراء يكتبون.

صفرو

واحة بدون نخيل

وصف جميل اطلقه احد الشعراء على مدينة صفرو، كانت هذه المدينة تسمى صفرون نسبة إلى فرقة من الخوارج كما جاء في كتاب لأحد المؤرخين المغاربة حيث اشار: ثم زحف علي ابن عمر بن ادريس إلى قرية صفرون فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرونية ....الخ.

موقعها:

شمالاً: تحدها سلسلة جبال الريف.

شرقاً: تقع عتبة تازة، الممر الخطير الذي لعب دوراً فعّالاً في تاريخ المغرب.

جنوباً: سلسلة جبال الاطلس المتوسط التي تحتضن مجرى لنهر من اعظم الانهار المغربية الذي قالت فيه العامة: «اللي يشرب من سبو ينسى حسبه».

غرباً: تمتد السهول الخضراء المترامية الاطراف كأنها تقترب من مياه المحيط الاطلسي في تدلل وحياء.

إن مدينة صفرو باب من الابواب المطلة على الصحراء وموقعها هذا بين الجبال والسهول والصحراء جعلها تحتل اطماراً خلاباً من جبال ثلجية وسهول مخضرة تمتد على مرمى البصر، تثير في النفس الراحة والهدوء وسر اخضرار حدائق المدينة وجمالها يرجع عهده إلى ما قبل التاريخ، اذ تتخلل مياهه الدافقة البيوت والمساجد والحدائق، وهذا ما ساعد على توفر المدينة على انواع من الفواكه مثل الجوز والزيتون والفاكهة التي تقام لها كل سنة حفلات شيقة الا وهي فاكهة حب الملوك او الكرز.

وسكان مدينة صفرو من اقدم سكان المغرب تدل على ذلك الكهوف التي ربما كانوا يستعملونها بيوتاً تحميهم من قساوة الطبيعة، وحين امتدت قساوة الغارات القبلية بين سكان المنطقة اتخذ سكان مدينة صفرو مأوى لهم من غارات الغير، بيوتاً محصّنة احيطت بأسوار كالقلعة الموجودة الآن على ضفتي نهر اكاي، قرب مصب الشلال الذي تشتهر به هذه المدينة، وهكذا اصبح الفن المعماري متأثراً بظروف وليدة الحياة الاجتماعية والتاريخية للمنطقة قبل ان تتأثر المدن المغربية الاخرى بالفن المعماري الاندلسي، ومهما يكن من امر فإن المدينة لم تبدأ حياتها التاريخية إلا بعد ان نزل المولى ادريس الثاني سنة ٨٠٠ ميلادية قبل تأسيسه مدينة فاس.

والمؤرخ ابن زرع في كتابه «روض القرطماس» يذكر لنا ان المولى ادريس حين كان يبحث عن بقعة صالحة لتأسيس مدينة فاس، نزل صفرو، فاستقبله اهلها، استقبالاً حاراً وحسناً وبايعوه، فقال مولاي ادريس:

«انهم احبونا» فكان ذلك سبباً في تسمية الحي الكبير الآن بالمدينة بحي «حبوتة».

ويغادر المولى ادريس صفرو متوجهاً إلى فاس.

وتشهد هذه المدينة، نمواً اجتماعياً وسياسياً ومعمارياً وثقافياً لم تشهده مدينة صفرو حيث بقيت متواضعة الشيء الذي حدا بالصفريين إلى ترديد عبارة «من مدينة صفرو إلى قرية فاس» مثالاً وينسب هذا القول إلى المولى ادريس حين غادرها.

جبران عبد اللطيف

القطيف

تقع مدينة القطيف في المنطقة الشرقية بالسعودية على ساحل الخليج العربي وتضم منطقة القطيف مدنا تاريخية قديمة اهمها مدينة القطيف نفسها واسمها مشتق من القطف وهو القطف من العنب لانها كانت في الماضي تنتج تسعة انواع من العنب، ويقول بعض المؤرخين ان اسمها في الاصل محرف عن كتيوس Cateus وهو الاسم القديم الذي ذكره مؤرخو اليونان لهذه المنطقة ومدينة القطيف قديمة جدا وتدل الحفريات على ان القطيف يعود تاريخها الى آخر عهد من عهود العصر النحاسي، اي في حدود ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد وتتكون واحة القطيف من غابة كثيفة من النخيل، وبالقرب من القطيف تقع جزيرة تاروت وهي في قلب خليج كيبوس ولا تبعد عن القطيف الا خمسة كم واسمها التاريخي تاروس Tarrus واطلق عليها اليونانيون اسم «تارو» ويقول البعض ان اسمها في الاصل عشتاروت وانها كانت معبدا لعشتاروت النى كان الفينيقيون يأتونها ويقول البعض ان هذه الجزيرة كانت موطنا قديما للفينيقيين قبل نزوحهم الى شواطئ البحر المتوسط وفي طرف جزيرة تاروت تقع بلدة دارين الشهيرة والتي كانت سوقا من اسواق الجزيرة العربية الهامة وميناء رئيسيا وقد تردد ذكرها كثيرا في الشعر العربي والتاريخ الاسلامي قال فيها الاعشى

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم
ويرجعن من دارين بجر الحقائب

ومدينة القطيف التي تواجد فيها الحجر الاسود في عام ٣١٧هـ عندما سرقه القرامطة بقيادة ابي الطاهر القرمطي ودام فيها ٢٢ عاما حتى سنة ٣٣٩هـ عندما اعادوه سرا.

ويبلغ عدد سكان القطيف حوالي ٤٠ الف نسمة.

محمد موسى علي الاقزم
القطيف - المملكة العربية السعودية

قصر العظم



سورية بلد عريق في اصالته الشعبية، فالعمائر الجميلة والفنون العريقة توحي إلى الزائر بأن هذا البلد عريق منذ قرون طوال. وقصر العظم احد العمائر العريقة يحوي على العديد من المناظر الجميلة التي تجذب انتباه كل زائر يدخل هذا القصر.

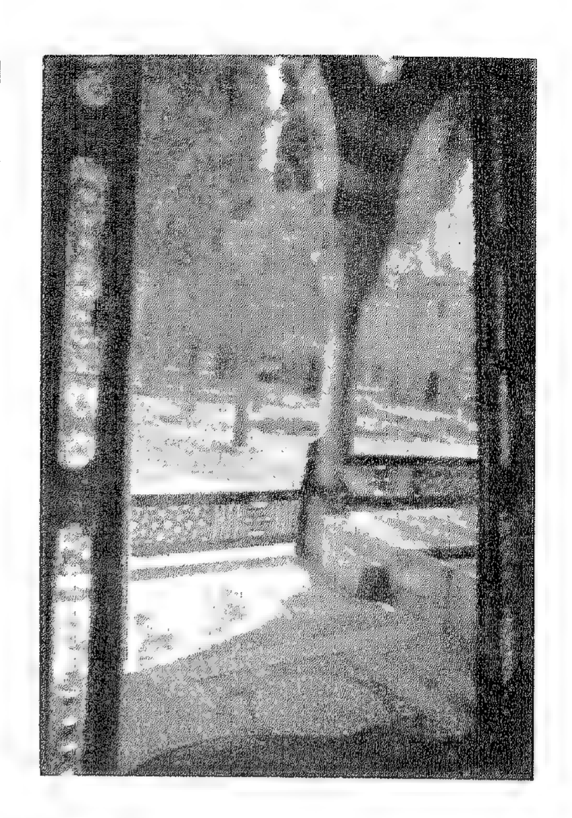
بنى هذا القصر اسعد باشا العظم /١٧٥٠/ وقد بالغ جداً في زخرفته حتى اصبح آية في الابداع وجمال الزخرف.

يحوي القصر على قسمين في الجهة اليمنى منه يسمى السلاملك واليسرى يسمى الحرملك.

وهذان القسمان من اجمل الاقسام ففيهما العديد من اشجار الزينة واشجار الحمضيات التي تزين باحة القصر.

ومن المعروضات الموجودة في غرف القصر نماذج من الاثاث الخشبي المصدّف وقاعات مفروشة على الطراز العربي فيها مجموعة من الكؤوس وقوارير العطور والاباريق والمزهريات.

وهناك قاعة تمثل المحمل الشامي الذي كان يحمل على جمل وامير العجم يمشي امام المحمل وعُرض إلى جانبه حزام الكعبة المشرفة.



وهناك لوحة آية من الإبداع مشكلة من اجزاء الطوابع البريدية تمثل المصلين وعُرضت بعض المصاحف المخطوطة وحبة قمح كتبت عليها سبعة ابيات من الشعر. والحمام ابدع ما بني في القصر، مؤلف من ثلاثة اقسام.

أ - البراني (المشلح)

ب - الوسطاني (للاستراحة)

ح - الجواني (للاستحمام).

وهناك قاعة تمثل الحياة في جبل العرب وحوران وزفاف العروس.

وقاعة اخرى تمثل المقاهي الشعبية قديماً ومشاهد تعرض صناعة الزجاج وحفر النحاس وتنزيل الفضة والذهب مكانه.

ويعتبر قصر العظم اية في الإبداع والفن الشرقي الأصيل ومفخرة لكل انسان في القطر وكل انحاء الوطن العربي.

وليد ابراهيم الأسود
الجمهورية العربية السورية - دمشق

بريد القراء

جبران عبد اللطيف - صفرو - المملكة المغربية.

• اشكر جميع اعضاء اسرة مجلة «تاريخ العرب والعالم» على المواضيع التاريخية المدروسة واتمنى للمجلة دوام الاستمرار والنجاح.

■ نشكر للاخ جبران شعوره النبيل تجاه المجلة وتجاه جميع العاملين فيها ونأمل ان نوفق بمهمتنا الصعبة.

• عبد الغني محمود - عمّان - المملكة الاردنية الهاشمية.

• تأكدوا ان للظلم جولة وللحق جولات وجولات، آملاً ان تظل مجلتكم الرائعة نبراساً يبدد الظلمات على الدوام، فما احرانا امة باستلهام العبر من فم التاريخ، وتاريخنا خير في غابره من حاضره الماثل الواقع، وعليكم وعلى الطاقات الشابة المدرعة التي تحمل من التاريخ اشراقاته تقع المسؤولية للقيام باعباء نشر هذا التاريخ للاخذ والمقارنة واستخلاص العبر للخروج بكل مفيد.

■ ماأحوجنا في هذه الايام القاسية الى نور يبدد الظلمات وينير طريقنا نحو العزة والكرامة والقوة. بالنسبة للاعداد الناقصة، تستطيع الحصول عليها من قسم الاشتراكات مقابل خمس ليرات لبنانية عن كل عدد.

• نبيل سحمراني - بيروت - لبنان.

• كنت اتمتع دائماً بدراساتكم التاريخية القيّمة التي كانت تعالج تاريخ الطوابع والشطرنج.. وفجأة انقطعت عني وعن العديد من امثالي الذين وجدوا فيها متعة لا تعوض.

■ نعدك بالمزيد من هذه الدراسات في المستقبل القريب إن شاء الله

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد أحمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ١٠٠٠٠ قارىء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة باقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — بيبليوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا او ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب والتربية — الشويخ — دولة الكويت

ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)

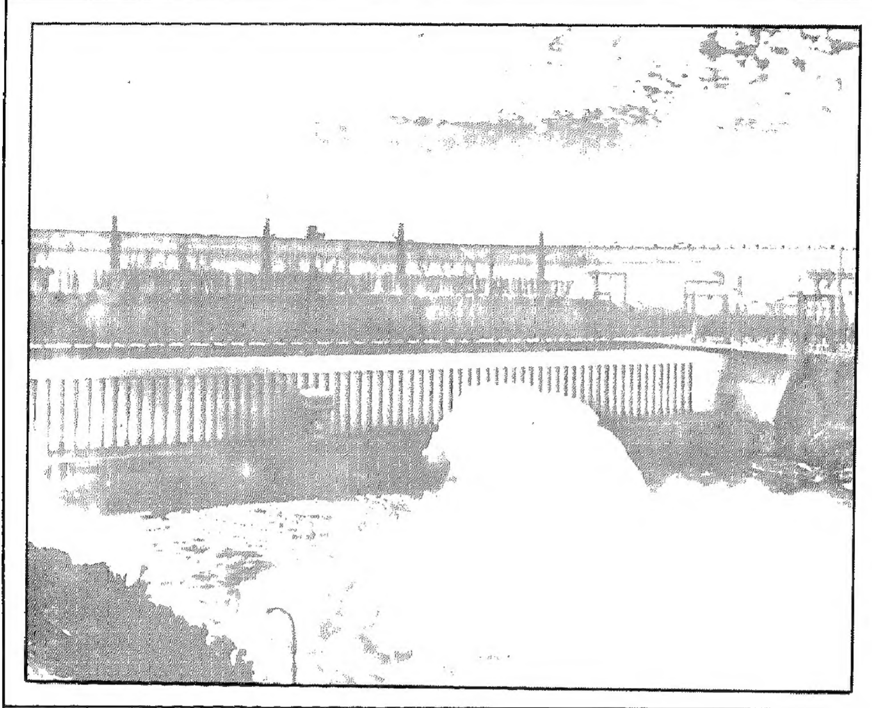
هاتف : ٨١٦٨٠٧—٨١٦٧٩٩—٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة

التاريخ العربي والاسلامي

في العدد المقبل



السد العالي
في ميلاده
الواحد
والعشرين



بسمارك : رائد
الوحدة الألمانية

